المثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر

تأليف

أبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم
المعروف بابن الأثير، الموصلي، المتوفى في عام ٦٣٧ من الهجرة

بتحقيق

محمد محيي الدين عبد الحميد

المدرس في قسم التخصص بكلية اللغة العربية
بالجامع الأزهر

الجزء الأول

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م / ٨٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه

أما بعد ؛ فإنَّ بى من حُبِّ العربيّة والشَّغَف بها مايَدْفعُنى إلى احتمال المصاعب ، والرِّضا بركوب المخاطر والأهوال ، وبَذْل النَّفيسين الوَقْتِ والراحةِ . وإنى لأجد من السرور بهذا مالا يبلغ معشارَهُ غريبٌ ألقى بين أهله عصا الترحال ، أو مُحِبٌّ لقى حبيبه بعد طول افتراق ، وواصله بعد طول تجنٍّ وصُدود .

وقد أخذت على عاتقى أن أقوم لهذه اللغة بما يَسَعُه جهدى من خدمة ، فلم أجد أنبَلَ مَقْصِداً ، ولا أسْمَى غرَضاً ، ولا أقرب عند الله قبولا ؛ من أن أتوَفَّر على كُتُب أسلافنا من علماء هذه اللغة ، فأحققها وأحاول ردَّها إلى الصورة التى خرجت عليها من أيدى مؤلّفيها قبل أن يُصيبها تحريفُ النسَّاخ وتصحيف الناشرين ، أو مَسْخُهُم .

وأردت أن أجمع بذلك بين خلال أربع :

أولاها : أن أبتعد عن الغرور بالنفس والتفاخر بالتأليف .

وثانيتها : أن أظهر شباب هذه الأمة على تراثنا الذى ورثناه عن آباء لنا كانوا قادةَ العالم وأهل الرأى فيه يوم كان الناسُ كلهم يتيهون فى بيْداوات الجهالة ويعيشون عيش السائمة والأنعام ، وأنا أعلم أنْ شبابنا اليوم ليس لهم الصبر والجلد على قراءة هذه الذخائر فى منظرها الذى يختاره لهم الورّاقون وتجار الكتب ، وأن من حسن الرأى أن نضع بين أيديهم كتباً بهيجة المنظر بديعة الرُّوَاء ؛ ليقبلوا عليها ، وينتفعوا بما فيها من علم .

وثالثتها : أن أثبت لهؤلاء الذين ينتقصون من قدر آبائنا وينالون منهم أنَّ لأولئك الآباء من المجد والمنزلة ما يفاخر به الأبناء ؛ وليس يضير الغادة الهيفاء

ضَنَانَةُ أهلها وبخلهم ولؤم أنفسهم ، ولا يغضّ من جمالها أن تظهر فى أطمار مهلهلة ولكنّ على مَنْ تكون من نصيبه أن ينفض عنها غبار الإهمال ، ويَجْلُوَها فى فاخر الديباج ؛ ليظهر له بَديعُ ماأودعها الله من فتنة وجمال .

ورابعتها : أن أنفى عن نفسى تُهمة التقصير فى وقت نحن أحوجُ مانكون إلى التساند والتضافر على إعادة رُسُومنا الدارسة إلى ما كانت عليه يوم كنا قادةَ الشعوب وسادةَ هذا العالم ؛ وليس للبلاد العربية كلها من بُدٍّ أن تسلك لوحدتها طريقَ الاتحاد فى المشاعر والمعارف ، وأقربُ ما يصل بنا إلى هذه الغاية معاودةُ معارفنا القديمة مع اختيار أقربها إلى أنفسنا وقلوبنا فى فروع العلم كلها .

ولا يسعنى فى هذا المقام إلا أن أُنبِّهك إلى حقيقة قد تُغفلها أو تتشكك فيها إذا عرضت لك ؛ أحبُّ أن تعلم أن الجهد الذى يبذله مَنْ يحقق كتاباً من كتب أسلافنا لايقل عن الجهد الذى يبذله مؤلف كتاب حديث ، بل أنا أجاهر بأن جهد الأول فوق جهد الثانى ، وفَرْق بين منْ يعمد إلى المعارف فيختار منها مايشاء ويدع منها مايشاء ، ثم يعبر عما اختاره بالأسلوب الذى يرضاه ، وبين آخر لايسعه إلا إثبات مابين يديه بالأسلوب الذى اختاره صاحبه منذ مئات السنين ، وهو بين عبارات شوّهها التحريف وغير الكثير منها تعاقب أيدى الكتاب والصفافين ، وأكثرهم ممن لايتصل بالعلم من قريب أو بعيد .

والكتاب الذى أضعه اليوم بين يديك هو كتاب « المثل السائر ، فى أدب الكاتب والشاعر » الذى صنفه فى علم البلاغة الأديبُ الكاتبُ أبو الفتح نصرُالله ضياء الدين بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبدالواحد الشيبانى ، المعروف بابن الأثير ؛ وهو كتاب « جَمَعَ فيه فأوعى ، ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره[1] » ؛ وهو كتاب امرئ :

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (٣ ـ ٦٦ الوطن بمصر) .

أطاعَتْهُ أنواعُ البلاغةِ فاهْتدَى   إلَى الشِّعْرِ مِنْ نَهْجٍ إليْهِ قَوِيمِ [1]

وستقف على رأينا فى هذا الكتاب عند الكلام على ترجمة المؤلف ، ولكنا نذكر لك ههنا عملنا فى هذا الكتاب لتدرك مقدار الجهد المضنى الذى بذلناه فى إخراجه على هذه الصورة التى نتمنى أن تخرج عليها كتب العربية ، بل كتب الثقافة الإسلامية عامة ؛ لتنقطع ألسنة الأفاكين الذين يتهمون آباءنا بقلة الإنتاج الصحيح ، وإذا اعترف أحدهم لهم ذكر فى جانب اعترافه هذا أن الإنتاج محدود لا أثر فيه لشخصية المنتج ، ولا برهان فيه على الاستقلال والحرية الفكرية ، فى الوقت يسطو هو على إنتاجهم وعصارة أذهانهم فينتحلها وينسبها لنفسه ، وهو يأمن من أن يعرف ذلك سواد الناس ودهماؤهم ؛ لأنهم لايقرءون هذه الكتب .

لم يكن من رأيى أن أعمل على نشر هذا الكتاب الآن ؛ فقد كنت أرى أنّ غيره من كتب العربية أحق بالتقديم وأكثر عائدة ؛ ذلك لأن الكتاب قد طبع من قبل مراراً فى بولاق وفى غير بولاق ، ولأن الذين ينتفعون به عدد قليل من قراء العربية ، وهم ـ أو أكثرهم ـ مستطيعون أن ينتفعوا منه على حاله التى كان عليها . ولكن بعض الإخوان رجانى أن يكون هذا الكتاب فى مقدمة ما أخرجه من كتب العربية ، وذكر لى أنه وكثيراً من المشتغلين بتحصيل العلم يجدون العنت والمشقة فى تقويم عبارته التى عدت عليها عوادى المسخ والتشويه ؛ فوعدته بأن أفعل ؛ وكنت أظن الأمر هيناً حين قطعت على نفسى ذلك العهد ؛ ولكنى حينما شرعت فى مراجعة أصول الكتاب وجدت العجب العاجب ؛ فمن عبارات مشوهة ؛ إلى أعلام محرّفة تحريفاً أبعدها كثيراً عن أصلها ؛ إلى نصوص من الحديث النبوىّ والشعر العربىّ قد بدّلتها الأيدى التى تناولت الكتاب ، إلى غير ذلك مما ستراه فى أثناء قراءتك ؛ فلما رأيت ذلك هالنى الأمر وترددت

---

(١) هذا بيت من كلام ابن الأثير صاحب الترجمة يقوله عن نفسه .

كثيراً فى المضى فيه ، ولـكنى لم أشأ أن أنقض ما قطعته من عهد ، أو لم أشأ أن تضعف عزيمتى عن إتمام ماشرعت فيه .

الـكتاب إذاً كثير التحريف برغم أنه طبع مراراً ، فما من بُدٍّ لى من مراجعة أصوله على عدة نسخ ، وما من بُدٍّ لى من مراجعة جميع ماورد فيه من النصوص على مصادرها الأولى ، ثم ما من بدٍّ لى من الأناة والروية فى تفهم عبارات المؤلف والوقوف عند كل جملة منها ؛ وذلك أمر شاق يورث الضنى والكلال ، ولكنه ـ مع ذلك ـ ميسور لمن لا يبالى بما يجد فى هذا السبيل ؛ ولما لم يكن بد من ذلك كله أقدمت عليه ، وثابرت فيه مثابرة الحريص على إدراك الغاية والوصول إلى النتيجة ؛ وأعتقد أننى أدركت ـ بمعونة الله وتوفيقه ـ ما أردت ، وبلغت ما أملت .

فى دار الـكتب المصرية جزء من نسخة خطية كتبها أبو المكارم بن منصور الباوشناى الموصلى ، وفرغ من كتابته فى يوم السبت الحادى والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة (٦٢٢) أثنتين وعشرين وستمائة من الهجرة ، وفى أول هذا الجزء إجازة بخط المؤلف كتبها بالموصل فى شهر شعبان من عام كتابته أجازبها الشيخ أبامحمد المظفرعضد الدين بن محمدبن على بن جعفر بن زهيرالدمشقى . وفى الدار نسخة كاملة مكتوبة بقلم معتاد ، ولم أعرف عن زمن كتابتها ولا عن قيمتها الأثرية شيئاً ؛ فراجعت نسختى على هاتين النسختين ، وهما المرموز لهما فى الحواشى بحرف د

وعند صديقى الأستاذ الفاضل الشيخ أحمدمحمد شاكر القاضى الشرعى نسخة خطية تمت كتابتها فى نهار الأربعاء الموافق اليوم الخامس والعشرين من شهر جمادى الثانية فى عام (١٠٩٣) ثلاث وتسعين بعد الألف ، وكاتبها محيى الدين ابن ناصر الدين الصفورى ، وهذه النسخة منقولة عن نسخة كتبها أحمد بن على ابن محمد بن على بن محمد بن على بن مهران القويسنى وفرغ من كتابتها فى مستهل

جمادى الأولى من سنة سبع وعشرين وستمائة ، ويقول محيي الدين بن ناصر الدين الصفورى فى شأن النسخة التى نقل عنها نسخته : « وهى نسخة صحيحة ، رحم الله مؤلفها وكاتبها رحمة واسعة ، وهي على هذا التاريخ مكتوبة قبل موت المؤلف بعشر سنين أو مايقرب منها » اه ، ثم كتب على حاشية آخر ورقة « بلغ مقابلة على أصله الذى كتب منه والله الموفق » اه . وقد تفضل الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر ـ حين علم قيامى على تحقيق الكتاب ـ فأعارنى هذه النسخة فراجعت عليها نسختى هذه ، وهى المرموز إليها فى حواشى الكتاب بحرف ا .

والكتاب مطبوع بمطبعة بولاق عام (١٢٨٢) اثنين وثمانين ومائتين وألف من الهجرة، بتصحيح الشيخ محمد الصباغ ، وهذه النسخة هى المرموز إليها فى حواشى الكتاب بحرف ب .

والنسخ المطبوعة ـ عدا نسخة بولاق ـ هى المرموز إليها فى الحواشى بحرف ج .

راجعت نسختى على هذه النسخ كلها ، وراجعت جميع النصوص التى اشتمل عليها الكتاب فى مظانها الأولى، فراجعت الحديث على أمهات كتب الحديث ، وراجعت الشعر على دواوين الشعراء وكتب التراجم والشعر ، مثل كتاب « الأغانى » وكتاب « ديوان الحماسة » وشرحه الذى صنفه أبو زكرياء يحيى بن على الخطيب التبريزى ، وكتاب طبقات الشعراء لابن قتيبة ، وكتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان وغيرها ، ودللتك فى أكثر الأحوال على مكان النص لترجع إليه إن شئت ، وبينت لك اختلاف النسخ فى الكثير الغالب مع بيان النسخة التى اعتمدتها فى إثبات العبارة التى أثبتها فى صلب الكتاب .

وضبطت جميع النصوص ، وهى كثيرة جدا ، وفسرت غريبها تفسيراً بقدر ماتمس له الحاجة .

ولم أشأ أن أناقش المؤلف فى آرائه ، كما لم أشأ أن أترجم للأعلام التى ذكرها المؤلف ؛ لأن ذلك يخرج بنا عن الغرض الأصلى من تحقيق الكتاب وإخراج

صورة صحيحة منه بقدر ماوسعه الجهد ، ثم إن الأعلام التى وردت فيه ليست مما يعسر على المتأدبين معرفتها والوصول إلى تراجمها إن كانت بهم حاجة إلى معرفة ذلك

ولا أدعى أننى بلغت بالكتاب درجة الكمال التى تتوق إليها نفسى ، ولكنى أدعى غير متحرّج أنى بذلت فيه جهداً ليس بالقليل ، وأدعى — مع ذلك — أنّ هذه المطبوعة أدقّ مايتداوله الناس من نسخ الكتاب ، وأقرب بها إلى الصورة التى أرادها المؤلف منه ، وأصحُّ مايعوّل عليه أهل العلم .

فإن حاز عملى هذا قبول إخواننا فى الأقطار العربية فذلك من نعمة الله تعالى وتوفيقه وفضله ، وإن كانت الأخرى فمعذرتى أننى بذلت المستطاع ، ولم أترك جهدا كان من الممكن أن أبذله ؛ وبحَسْبِ المرء من عمله أن تحسُنَ نيته ، وأن يقوم فيه بالأسباب التى تبلِّغ القصدَ عادةً ، وليس عليه أن يُدْرِكَ النجح أو تتم له المطالب .

ربِّ إنى أبرأ من الحول إلا بك ، وأسألك أن تَبْلُغَ بى من خير الدنيا والآخرة مالا سلطان عليه إلا لك ، ربِّ اغفر لى ولوالدىّ ، ولمن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا ؟

القاهرة { ٢٦ من رجب الفرد ١٣٥٨
١٠ من سبتمبر ١٩٣٩

كتبه المعتز بالله تعالى
أبو رجاء
محمد محيي الدين عبد الحميد

ترجمة ابن الأثير

صاحب كتاب

المثل السائر ، فى أدب الكاتب والشاعر

(٥٥٨ - ٦٣٧ هـ)

نسبه :

هو أبو الفتح نصرُ الله ضياء الدين بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشَّيْبَانى ، المعروف بابن الأثير ، الْجَزَرِىّ ، الْمَوْصِلِىّ .

مولده :

وُلد نصرُ الله بن الأثير فى يوم الخميس العشرين من شعبان عام ثمان وخمسين وخمسمائة ؛ بجزيرة ابن عمر .

وجزيرة ابن عمر - على مايقول ياقوت الحموى معاصرُ أبناء الأثير الثلاثة - : « بلدة فوق الموصل ، بينهما ثلاثة أيام ، ولها رُسْتَاق مخصب واسع الخيرات ، وأحسب أن أول مَنْ عَمَرَها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبى ، وكانت له إمرة بالجزيرة وذكر ، قرابة سنة ٢٥٠ ، وهذه الجزيرة تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلال ؛ ثم عمل هناك خندق أجرى فيه الماء ، ونصبت عليه رَحًى فأحاط بها الماء من جميع جوانبها بهذا الخندق (١) » ويقول ابن خلكان (٢) : « أكثر الناس يقولون إنها جزيرة ابن عمر ، ولا أدرى مَنِ ابنُ عمر ، وقيل :

---

(١) انظر معجم البلدان (٣ - ١٠٢ مصر) .
(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (٢ - ٣٦ الوطن بمصر) .

إنها منسوبة إلى يوسف بن عمر الثقفى أمير العراقين ؛ ثم إنى ظفرت بالصواب فى ذلك ، وهو أن رجلا من أهل برقعيد من أعمال الموصل بناها ، وهو عبد العزيز ابن عمر ، فأضيفت إليه ، ورأيت فى بعض التواريخ أنها جزيرة ابنى عمر أوْسٍ وكاملٍ ، ولا أدرى أيضاً مَنْ هُمَا ، ثم رأيت فى تاريخ ابن المستوفى فى ترجمة أبى السعادات المبارك بن محمد (هو أخو نصر الله بن الأثير الذى نترجمه) أنه من جزيرة أوس وكامل ابنى عمر بن أوس الثعلبى » .

فالجزرىُّ فى نسب ابن الأثير نسبة إلى جزيرة ابن عمر هذه .

نشأته وحياته :

نشأ أبو الفتح نصر الله بن الأثير بجزيرة ابن عمر ، ثم انتقل مع والده إلى المَوْصِل ، وبها اشتغل بحفظ القرآن الكريم وتحصيل العلوم ، فحفظ القرآن ، وكثيراً من الأحاديث النبوية ، وطرفا صالحا من النحو واللغة وعلم البيان ، وشيئاً كثيراً من الشعر قديمه وحديثه .

ولما كملت له الأدوات قصد فى شهر ربيع الأول من عام سبع وثمانين وخمسمائة جنَابَ السلطان الملك الناصر أبى المظفر صَلَاح الدين يُوسُفَ ابن الأمير نجم الدين أيُّوبَ بن شَادِى بن مَرْوان ؛ فاستعان بالقاضى الفاضل أبى على عبدِ الرحيم بن على ابن محمد بن حسن اللخمىّ البيسانىّ (1) ، وهو يومئذ آثر الناس عند صلاح الدين ؛ فوصله القاضى بخدمة صلاح الدين فى جمادى الآخرة من العام نفسه ، ولم تطل به الإقامة فى خدمة صلاح الدين ، حتى أرسل الملكُ الأفضلُ نور الدين على بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، إلى أبيه صلاح الدين ، يطلب أن يرسل إليه ابن الأثير ، فخيره صلاحُ الدين بين أن يقيم فى خدمته وأن ينتقل إلى خدمة ولده نور الدين ؛ فاختار أن ينتقل إلى خدمة نور الدين ، فمضى إليه فى شوال من العام نفسه ، وهو

(1) توفى القاضى الفاضل فى عام ٥٩٦ من الهجرة .

يومئذ شاب لم يكمل العقد الثالث من عمره ؛ فاستوزره الملك الأفضل ، وحسنت حالته عنده .

ولما خلص للملك الأفضل مُلْكُ دمشق بعد وفاة أبيه « استقلّ ضياء الدين ابن الأثير بالوزارة ، ورُدَّت أمورُ الناس إليه ، وصار الاعتماد فى جميع الأحوال عليه[١] » فأساء ضياء الدين السيرة ويقول ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة[٢] إنه « شغف قلوبَ الجند إلى مصر حتى ساروا إليها فلقيهم الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين ، وأكرم مثواهم » ؛ « ولما انفصل الجند عن دمشق فوض الملك الأفضل أمر الدولة إلى وزيره ابن الأثير وحاجبه الجمال محاسن ابن العجمى ، ولم يكن أحدهما أحسن سياسة من الآخر ، فأفسدا عليه الأحوال وكانا سببا فى زوال دولتِهِ[٣] » ، ويقال[٤] : « إن أهل البلاد حينما خرج الأفضلُ هموا بقتل ضياء الدين بن الأثير ، وإن الحاجب ابن العجمى أخرجه مستخفيا فى صندوق مقفل عليه ، ثم صار إليه وصحبه إلى مصر » ؛ ويقال : « إن الملك الأفضل حينما عاد إلى البلاد الشرقية طلب إلى ضياء الدين أن يخرج معه ليعود إلى خدمته ، فلم يقبل ذلك لأنه خاف على نفسه من جماعة كانوا يقصدونه » ولما استقر الملك الأفضل فى سميساط عاد إلى خدمته ، ولكنه لم يطل مقامه عنده ، وما عتم أن فارقه ، واتصل بخدمة الملك الظاهر غازى صاحب حلب ، وهو أخو الملك الأفضل ، ولم يطل مقامه عنده أيضاً ، ولا انتظم أمره ، فعاد إلى الموصل ، فلم يستقم حاله أيضاً ، فترك الموصل إلى إربل ، ثم فارقها إلى سنجار ،

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان : ٣ – ٦٥ .
(٢) ص ١٢٠ ج ٦ .
(٣) النجوم الزاهرة : ٦ – ١٢٢ .
(٤) وفيات الأعيان : ٣ – ٦٥ .

ثم عاد إلى الموصل واتخذها دار إقامته وكتب الإنشاء لصاحبها ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر عزّ الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه . ويقول تقىّ الدين أحمد بن على المقريزى فى كتاب السلوك(١) : « واستوزر الأفضلُ الوزيرَ ضياء الدين نصر الله بن محمد ابن الأثير ، وفوض إليه أموره كلها ؛ فحسّن له طرد أمراء أبيه وأكابر أصحابه ، وأن يستجدّ أمراء غيرهم ؛ ففارقه جماعة منهم الأمير فخر الدين جهارَكْس ، وفارس الدين ميمون القصرى ، وشمس الدين سنقر الكبير ، وكانوا عظماء الدولة . فصاروا إلى الملك العزيز بالقاهرة فأكرمهم ، وولى فخر الدين أستاداره وفوض إليه أمره ؛ وجعل فارس الدين وشمس الدين على صيداء وأعمالها ، وكان ذلك لهما ، وزادهما نابلس وبلادها ؛ وسار القاضى الفاضل أيضاً من دمشق ولحق بالقاهرة ، فخرج العزيز إلى لقائه ، وأجلّ قدومه وأكرمه ، فشرع القومُ فى تقرير قواعد ملك العزيز ، والأفضلُ فى شغل عنهم » ، ويقول أيضاً : إنه فى سنة ٥٩٠ تسعين وخمسمائة قويت الوحشة بين العزيز وأخيه الأفضل ، وتنافرت القلوب ، واضطربت أحوال الأفضل ، وخرج العزيز من القاهرة بعساكر مصر يريد الشام لينتزعها من أخيه الأفضل ، « وهمّ الأفضل بمراسلة أخيه العزيز واستعطافه ؛ فمنعه من ذلك وزيره ابن الأثير وعدة من أصحابه ، وحسنوا له محاربته(٢) » ويقول أيضاً(٣) : « وفى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وصل الملك الأفضل إلى دمشق ، وتفرقت العساكر إلى بلادها ، ولزم الأفضل الزهد ، وأقبل على العبادة . وصارت أمور الدولة بأسرها مفوضة إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير ، فاختلت به الأحوال غاية الاختلال ، وكثر شاكوه » .

(١) القسم الأول ص ١١٥ .
(٢) القسم الأول ص ١١٦ .
(٣) القسم الأول ص ١٢٩ .

ومؤرخو هذا العصر مجمعون على أن ضياء الدين ابن الأثير كان فى وزارته سيء السيرة مع رجال الدولة ، وأن أحوال السلطنة كانت تسوء بسببه ، ونحن نأخذ عليه أمرين : أحدهما : أنه كان يحاول الإيقاع بين الملك الأفضل وأخيه العزيز صاحب مصر . وكلما هم الأفضل بالاتفاق مع أخيه وإعادة الصفاء بينهما اجتهد ضياء الدين فى تنفيره وإبقاء الجفاء ، مع ما كانت تتطلبه حال المسلمين فى ذلك الوقت من اتحاد الكلمة واجتماع الشمل ؛ إذ كان الصليبيون فى نزاع دائم معهم وكانوا يهتبلون فرصة انقسامهم واختلافهم ليغيروا على البلاد وينتقصوها من أطرافها ؛ والأمر الثانى : أنه كان سببا فى إغضاب القاضى الفاضل وخروجه من دمشق إلى مصر ، مع أن القاضى الفاضل هو الذى قرّبه من الملوك وفتح له باب الاتصال بصلاح الدين على ماسبق بيانه .

ولسنا ندرى أكان ذلك راجعا إلى المحيط الذى كان يعيش فيه ضياء الدين، وهو محيط مضطرب دائم الاصطخاب كثير المنازعات والمشاكل ، أم كان يرجع إلى خلق فيه ؛ فإنا نلمح فى كتابته آثار الكبرياء والصلف والاعتداد بالنفس ، وهذا خلق ينأى بصاحبه كثيرا عن الحكمة والاتزان والنظر إلى الأمور بعين الإنصاف ووزنها بميزان الروية والعقل .

مؤلفات ابن الأثير :

ذكر ابن خلكان لابن الأثير عدة مؤلفات ، وصدّر كلامه عليها بقوله[1] : « ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة فضله وتحقيق نبله » .

ونحن نذكر لك ماذكره بن خلكان وغيره من مصنفاته ؛ فنقول :

(١) أشهر هذه المؤلفات هو كتاب « المثل السائر ، فى أدب الكاتب والشاعر » ، وهو كتابنا هذا الذى نقدمه الآن ؛ ويقول عنه ابن خلكان[1] :

---

(١) وفيات الأعيان (٣ – ٦٦ الوطن بمصر) .

« وهو فى مجلدين جمع فيه فأوعى ، ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره »

(٢) ومن مؤلفاته كتاب « الوَشْى المرقوم ، فى حل المنظوم » ، ويقول عنه ابن خلكان[1] : « وهو مع وجازته فى غاية الحسن والإفادة » ، وقد طبع هذا الكتاب فى عام ١٢٩٨ من الهجرة بمطبعة ثمرات الفنون بمدينة بيروت ؛ ويقول المؤلف فى أوله : « ولما ألفت كتاب المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر قَصَرْت فصلا منه على ذكر هذه الطريقة[2] وأتيت فيها بالمعانى الجليلة التى تفتقر إلى الفهم الدقيق ، غير أنى أحلت فى مواضع منه على هذا الكتاب ؛ وجعلت لذلك رمز الاختصار ولهذا مكاشفة الإسهاب . . وبنيته على مقدمة وثلاثة فصول : الفصل الأول ، فى حل الشعر ؛ الفصل الثانى ، فى حل آيات القرآن ؛ الفصل الثالث ، فى حل الأخبار النبوية » اهـ .

(٣) ومن مؤلفاته كتاب « المعانى المخترعة ، فى صناعة الإنشاء » يقول عنه ابن خلكان[1] : « وهو أيضاً نهاية فى بابه » .

(٤) ومن مؤلفاته مجموع اختار فيه شعر أبى تمام والبحترى وديك الجن والمتنبى ؛ ويقول عنه ابن خلكان : وهو فى مجلد واحد كبير ، وحفظه مفيد ؛ وقال أبو البركات ابن المستوفى فى تاريخ إربل : نقلت من خطه فى آخر كتابه المختار مامثاله :

تَمَتَّعْ بِهِ عِلْقاً نَفِيساً فإِنَّهُ اخْتِيَارُ بَصِيرٍ بالأُمورِ حَكِيمِ
أَطَاعَتْهُ أَنْوَاعُ الْبَلَاغَةِ فَاهْتَدَى إِلَى الشِّعْرِ مِنْ نَهْجٍ إِلَيْهِ قَوِيمِ

(٥) ومن مؤلفاته « ديوان ترسل » ويقول عنه ابن خلكان : وهو فى

(١) وفيات الأعيان (٣ - ٦٦ الوطن بمصر) .

(٢) يشير إلى الباب العاشر من مقدمة الكتاب وهو فى الطريق إلى تعلم الكتابة وهو فى الجزء الأول (٧٦ - ١٤١) من هذه المطبوعة .

عدة مجلدات ؛ وذكر المؤلف نفسه فى كتاب المثل السائر أن رسائله تبلغ كثيراً من المجلدات .

(٦) ومن مؤلفاته « المختار من ديوان الترسُّل » ويقول عنه ابن خلكان : « وهو فى مجلد واحد » .

هذا ما ذكره ابن خلكان من مؤلفاته ، وابن خلكان معاصر لابن الأثير ، وإن لم يقابله ، وهو يقول فى شأنه[١] : « ولقد ترددت إلى الموصل من إربل أكثر من عشر مرات ، وهو مقيم بها ، وكنت أود الاجتماع به لآخذ عنه شيئاً لما كان بينه وبين الوالد رحمه الله تعالى من المودة الأكيدة ، فلم يتفق ذلك ، ثم فارقت بلاد المشرق ، وانتقلت إلى الشام ، وأقمت به مقدار عشر سنين ، ثم انتقلت إلى الديار المصرية ، وهو فى قيد الحياة ، ثم بلغنى بعد ذلك خبر وفاته وأنا بالقاهرة » اه .

ومن مؤلفاته التى لم يذكرها ابن خلكان ، ووقفنا عليها ما نذكره لك :

(٧) منها كتاب « الجامع الكبير ، فى صناعة المنظوم والمنثور » وهو يقول فى مفتتحه : « أما بعد فلما كان تأليف الكلام مما لا يوقف على غوْره ، ولا يُعْرَف كنه أمره ، إلا بالاطلاع على علم البيان ، الذى هو لهذه الصناعة بمنزلة الميزان ؛ احْتَجْتُ حين شَدَوْتُ نبذة من الكلام المنثور ، إلى معرفة هذا العلم المذكور ، فشرعت عند ذلك فى تطلبه ، والبحث عن تصانيفه وكتبه ، فلم أترك فى تحصيله سبيلاً إلا نهجته ، ولا غادرت فى إدراكه باباً إلا ولجته ، حتى اتضح عندى باديه وخافيه ، وانكشفت لى أقوال الأئمة المشهورين فيه ؛ كأبى الحسن على بن عيسى الرمانى ، وأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وأبى عثمان الجاحظ ، وقدامة بن جعفر الكاتب ، وأبى هلال العسكرى ، وأبى العلاء محمد بن غانم

(١) وفيات الأعيان (٣ ـ ٦٥ الوطن بمصر) .

المعروف بالغانمى ، وأبى محمد عبد الله بن سنان الخفاجي ، وغيرهم ممن له كتاب يشار إليه ، وقول تعقد الخناصر عليه ؛ ثم لما مضى على ذلك مَلَاوَة من الدهر ، وانقضى دونه برهة من العمر ؛ لمحت فى أثناء القرآن الكريم من هذا النحو أشياء ظريفة ، ووجدت فى مَطَاويه من هذا النوع نكتاً دقيقة لطيفة ، فعرضتها عند ذلك على الأقسام التى ذكرها هؤلاء العلماء وشرحوها ، والأصناف التى بينوها فى تصانيفهم وأوضحوها ؛ فألفيتهم قد غفلوا عنها ، ولم ينبهوا على شىء منها ، فكان ذلك باعثاً لى على تصفح آيات القرآن العزيز والكشف عن سره المكنون ؛ فاستخرجت منه حينئذ ثلاثين ضربا من علم البيان ، لم يأت بها أحد من أولئك العلماء الأعيان ، وكان ماظفرت به أصل هذا الفن وعمدته ، وخلاصة هذا العلم وزبدته » .

وفى دار الكتب المصرية نسختان خطيتان من هذا الكتاب : إحداهما مكتوبة فى عام ١٣١٤ من الهجرة ، وهى تحت رقم (٢٧٠ بلاغة) ، والثانية مكتوبة فى عام ١٢٠٥ من الهجرة ، وهي تحت رقم (١٦٦ مجاميع م) ؛ وفى مكتبتى الخاصة قطعة من هذا الكتاب .

وفى دار الكتب نسخة من كتاب « البديع » منسوبة إلى المبارك أبى السعادات مجد الدين بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى الجزرى ؛ وهو أخو ضياء الدين نصر الله بن الأثير صاحب المثل السائر ؛ وأبو السعادات المبارك هو مؤلف كتاب « النهاية ، فى غريب الحديث والأثر » ومؤلف كتاب « جامع الأصول ، فى أحاديث الرسول » ولم يعرف عنه أن له فى البلاغة كتاباً ، فإذا صح أن هذا الكتاب لأحد أبناء الأثير فالغالب أنه لضياء الدين نصر الله الذى نترجمه .

نقد المثل السائر وشروحه :

ولم يكد كتاب « المثل السائر ، فى أدب الكاتب والشاعر » يظهر حتى تداوله الناس وكتبوه ، وأخذوا فى التقريظ له ، والانتفاع به ، وذاع أمره فى البلاد ، حتى نقله الناس إلى بغداد ، وفيها الفقيه الأديب الشيخ عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين ، المعروف بابن أبى الحديد ، وهو شديد الاتصال بالوزير مؤيد الدين محمد أبى طالب بن أحمد بن محمد العلقمى ، فلما رأى تقريظ الناس للكتاب واشتغالهم بدراسته وتهافتهم على انتساخه تصدّى لمؤاخذته والرد عليه ، وعنته ، وجمع هذه المؤاخذات فى كتاب سماه : « الفلك الدائر ، على المثل السائر » ، وهو يقول فى مفتتح هذا الكتاب : « وبعد ؛ فقد وقفت على كتاب نصر الدين[1] بن محمد الموصلى المعروف بابن الأثير الجزرى المسمى كتاب المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ؛ فوجدت فيه المحمود والمقبول ، والمردود والمرذول ؛ أما المحمود منه فإنشاؤه وصناعته ، فإنه لا بأس بذلك ، إلا فى الأقل النادر ، وأما المردود منه فنظره وجدله واحتجاجه واعتراضه ؛ فإنه لم يأت فى ذلك فى الأكثر الأغلب بما يلتفت إليه ، ولا بما يعتمد عليه ؛ فحدانى على تتبعه ومناقضته فى هذه المواضع النظرية أمور : منها إزراؤه[2] على الفضلاء ، وغضه منهم ، وعيبه لهم ، وطعنه عليهم ؛ فإن فى ذلك مايدعو إلى الغيرة عليهم ، والانتصار لهم ؛ ومنها إفراطه فى الإعجاب بنفسه ، والتبجح برأيه ، والتقريظ لمعرفته وصناعته ، وهذا عيب قبيح يُحْبِطُ عمل الإنسان ، ويوجب المقت من الله والعباد ؛ ومنها أنه قد أومأ مراراً فى كتابه إلى عتاب دهره ، إذ لم يعطه على قدر استحقاقه ،

(١) كذا ، وابن الأثير هو نصر الله ، وليس هو نصر الدين ، كما عرفت فى نسبه الذى ذكرناه فى أول الترجمة ، وما نشك أنه تحريف .

(٢) لقد سلق ابن الأثير كثيرا من علماء هذه الأمة : منهم أبو الفتح بن جنى ، ومنهم أبو العلاء المعرى ، ومنهم أبو حامد الغزالى ؛ فجازاه الله بتسليط ابن أبى الحديد عليه .

فأردنا أن نعرّفه أن الأرزاق ليست على مقادير الاستحقاق ، وأن الرزق مقسوم لايجلبه الفضل ، ولا يرده النقص ومنها أن جماعة من أكابر الموصل قد حسن ظنهم فى هذا الكتاب جدا ، وتعصبوا له حتى فضلوه على أكثر الكتب المصنفة فى هذا الفن ، وأوصلوا منه نسخاً معدودة إلى مدينة السلام (بغداد) وأشاعوه ، وتداوله كثير من أهلها؛ فاعترضت عليه بهذا الكتاب ، وتقربت به إلى الخزانة الشريفة المقدسة النبوية الإمامية المستنصرية ، عمر الله تعالى بعمارتها أندية الفضل ورَبَاعه وأطال بطول بقاء مالكها يَدَ العلم وبَاعَه ، وجعل ملائكة السماء أنصاره وأشياعه ، كما جعل ملوك الأرض أعوانه وأتباعه ؛ وكان أكثر قصدى فى ذلك أن يعلم مصنفُ هذا الكتاب ورؤساء بلدته أن من أصاغر خدم هذه الدولة الشريفة ـ ولا أعنى نفسى فالعجب مُبير ، ولا أنبئ عنى فمثلى كثير (ثم أخذ فى مديح رجال مملكته بما يطول) ـ وهذا الكتاب وقع إلىّ فى غرة ذى الحجة من سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ؛ فتصفحته أوّلا أولا فى ضمن الأشغال الديوانية التى أنا بصَدَدها ، وعلقت هذا الكتاب فى أثناء تصفحه على المواضع المستدركة فيه إلى نصف الشهر المذكور فكان مجموع مطالعتى له واعتراضى عليه خمسة عشر يوما ، ولم أعاود النظر فيه دفعة ثانية ، وربما يسنح لى عند المعاودة نكت أخرى ، وإن وقع ذلك ألحقتها ، وقد سميت هذا الكتاب «الفلك الدائر ، على المثل السائر» ؛ لأنه شاع فى كلامهم وكثر فى استعمالهم أن يقولوا لما باد ودثر : قد دار عليه الفلك ، كأنهم يريدون أنه قد طحنه ومحا صورته ، ومن ذلك قول أبى العتاهية :

إن كنت تَنْشدهم فإنَّهُمُ   هَمَدُوا وَدَار عَليْهِمُ الفَلَكُ

وأنا أسأل الله المعونة والتوفيق ، وأستمنحه الهداية إلى سواء الطريق ؛ بمنه وكرمه » اهـ كلامه بحروفه .

ولا أحبُّ أن أعلق على هذا الكلام ، ولكنى أقول : إنى لما قرأت الكتاب ـ وكنت أفكر فى نشره بأسفل صفحات هذا الكتاب عند مواطن النقد ـ لم أجد فيه مايبعث على تحقيقه وبذل الجهد فيه ؛

ولم يكتف ابن أبى الحديد بهذا الكتاب ، بل هو ينتهز الفرصة فى شرحه على نهج البلاغة ؛ فينقل كلام ابن الأثير و يعترض عليه ، اسمع إليه يقول فيه (١-٤٤١) : « وأنا أحكى هٰهنا كلام نصر الله بن محمد بن الأثير الجزرى فى كتابه المسمى بالمثل السائر فى الكناية والتعريض ، وأذكر ماعندى فيه » اه ، ثم هو ينقل كلامًا طويلاً يقع فى نسخة المثل السائر التى نقدمها لك اليوم فى الجزء الثانى (من ١٩١ إلى ٢١٥) ثم يأخذ بعد ذلك فى نقد كلامه نقداً يرجع إلى العبارة وإلى طريق عرضها ، ولا يرجع إلى لبابها وحقيقتها ، مثل أن يقول : « إنه (يعنى ابن الأثير) اختار حد الكناية ، وشرع يبرهن على التحديد ، والحدود لايبرهن عليها ، ولاهى من باب الدعاوى التى تحتاج إلى الأدلة ؛ لأن مَنْ وَضَعَ لفظ الكناية لمفهوم مخصوص لايحتاج إلى دليل ، كمن وضع لفظ الجدار للحائط لايحتاج إلى دليل » اه ، وأنت - أيها القارئ - لو رجعت إلى كلام ابن الأثير وجدت كلامه يتلخص فى أن القوم الذين صنفوا فى علم البيان من قبله قد عرّفوا الكناية بتعريف ، وأنه لايرتضى هذا التعريف ، وهو يرى تعريفها بتعريف آخر ، ويرى تعريفه خيراً من تعريف السابقين ؛ وهو يبين أولاً ماينطبق عليه تعريف السابقين ، وما ينطبق عليه تعريفه هو ؛ ثم يبرهن فى أثناء ذلك على دعواه أن تعريفه خير من تعريف غيره ؛ فهذا البرهان - إن صحّ أن يكون برهاناً بالمعنى المعروف فى علم الجدل - ليس على الحد كما زعم ابن أبى الحديد ، ولكنه على دعوى ادَّعاها ، إنْ صَرَاحَةً وإنْ ضِمناً ، وهى أن ماارتضاه من التعريف خير مما ذكره المتقدمون ؛ والواقع أن كتاب « الفلك الدائر » يبدو لمن يتصفحه وهو منصف أن روح التحامل هى التى أملته على مؤلفه ، وأنه كُتب مع رَغْبة مُلِحَّةٍ فى النَّيْل من ابن الأثير والغَضِّ من عمله . وليس معنى هذا الكلام أن ابن الأثير قد أصاب فى الكتاب كله ، وأنه لا مطعن عليه ، ولكن الذى نريد أن نقرره فى طمأنينة هو أن ابن أبى الحديد قد تعرض فى الغالب لما لاينبغى أن يتعرض له أديب يؤثر اللباب على القشور ،

وترك أشياء هى أولى بالنظر والرعاية ، وعُذْرُه أنه قرأ الكتاب وكتب نقده عليه فى خمسة عشر يوما هو مشتغل فى أثنائها بعمله فى الدولة ؛ فهو ـ فيما نرى اليوم ـ أشبه بتقرير من تقريرات حضرات « الموظفين » فى أمر من الأمور التى يكلفون مباشرة تنفيذها ؛ إذ يكتبونه وهم يعلمون أنه لن يقرأ ، وإن قرئ فلن يعمل بما فيه ؛ ومن قرأ كتاب « الفلك الدائر » ثم قرأ عشرة أوراق من شرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة فى مكان أى مكان منه يتبين له الفرق بين الكتابين ، ويدرك تمام الإدراك قيمة رأينا هذا فى هذا الكتاب

قال صاحب كشف الظنون (٢ ـ ٢٢٢ بولاق مصر) : « وشرحه أبو منصور موهوب بن أبى طاهر الجواليقى (١) المتوفى فى عام .... هـ ، وصنف بعضهم كتابا سماه « الروض الزاهر ، فى محاسن المثل السائر » وصنف عز الدين ابن أبى الحديد كتاباً سماه « الفلك الدائر ، على المثل السائر » وصنف أبو القاسم محمود بن الحسين الركن السنجارى المتوفى فى عام ٦٤٠ هـ كتابا يرد فيه عليه وسماه « نشر المثل السائر ، وطى الفلك الدائر » وصنف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى المتوفى فى عام ٧٦٤ هـ كتابا سماه « نصرة الثائر ، على المثل السائر » ، وصنف عبد العزيز بن عيسى كتابا سماه « قطع الدابر ، عن الفلك الدائر » اهـ .

ربِّ اجعلنى من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؛

رب ولا تُخْزِنى يوم القيامة ؛ واجعلنى عندك من المقبولين ؛ آمين ؟

كتبه المعتز بالله تعالى

أبو رجاء

محمد محيى الدين عبد الحميد

---

(١) كذا قال صاحب كشف الظنون ، وهو غير معقول ؛ لأن أبا منصور الجواليقى توفى فى عام تسعة وثلاثين وخمسمائة ، والمثل السائر صنف بعد الستمائة ، بل مولد مؤلفه بعد وفاة الجواليقى بعشرين عاما ؛ وإنما شرح الجواليقى أدب الكاتب لابن قتيبة فاعرف ذلك .

فهرس الأبواب

الواردة فى الجزء الأول من كتاب

« المثل السائر، فى أدب الكاتب والشاعر »

المثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر

بسم الله الرحمن الرحيم

نسأل الله رَبَّنَا أن يَبْلُغَ بنا من الحمد ماهو أهْلُه ، وأن يُعَلِّمنا من البيان مايَقْصُرُ عنه مزيَّةُ الفضل[1] وأصْلُه ، وحِكمة الخطاب وفَصْلُه ؛ ونَرْغَبُ إليه أن يوفقنا للصلاة على نبينا ومولانا محمد رسوله الذى هو أفصح من نطق بالضاد ، ونَسَخَ هَدْيُه شريعة كل هاد ، وعلى آله وصحبه الذين منهم من سَبَق وبَدَر ، ومنهم من صابر وصَبَر ، ومنهم من آوى ونَصر[2] .

وبعد ؛ فإن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام ؛ وقد ألف الناس فيه كتباً ، وجَلَبُوا ذَهَباً وحَطَبا ، وما مِنْ تأليف إلا وقد تَصَفَّحْتُ شينه وسينه[3] ، وعلمت غَثَّه وسَمِينه ؛ فلم أجد ماينتفع

---

(١) هكذا فى جميع نسخ الأصل ، وهو أصوب الوجهين ، وذلك لأن الفاعل لما كان مضافا إلى مذكرا كتسب منه التذكير ، ولما كان معطوفا على المذكر آثره بالاعتبار ، لاجرم أنه أتى بالفعل مذكرا لهذين الوجهين .

(٢) بدر : سبق ، ومثله بادر فى نحو قولك : بادرت الأمر ، وبادرت إليه ، تريد أنك سبقت الناس إلى فعله ، و «آوى ونصر» أراد به أهل المدينة من أنصار النبي صلى الله عليه وسلم ، ويشير إلى قوله تعالى فى سورة الأنفال «آية ٧٤» : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فى سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ ءاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) .

(٣) يريد جيده ورديئه ، وعبر بالشين عن شريف القول وجيده ، وعبر بالسين المهملة عن ساقط الكلام وسخيفه ؛ فأخذ من كل واحد من اللفظين حرفا ، وذلك

به فى ذلك إلا كتاب المُوَازَنة لأبى القاسم الحسن بن بِشْرٍ الآمدىّ ، وكتاب سر الفصاحة لأبى محمد عبد الله بن سِنَانٍ الْخَفَاجِىّ ، غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولا ، وأجدى محصولا ، وكتاب سر الفصاحة ـ وإن نبَّه فيه على نكت منيرة ـ فإنه قد أكثر ، مما قلّ به مقدار كتابه ، مِنْ ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها ، ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاتها مما لاحاجة إلى أكثره ، ومن الكلام فى مواضع شذَّ عنه الصوابُ فيها ، وسيرد بيان ذلك كله فى مواضع من هــذا الكتاب إن شاء الله تعالى . على أن كِلَا الكتابين قد أهملا[1] من هذا العلم أبوابا ، ولربما ذكرا فى بعض المواضع قشورا وتركا لُبَابا ، وكنت عَثَرْتُ على ضروب كثيرة منه فى غضون القرآن الكريم ، ولم أجد أحدا ممن تَقَدَّمنى تعرّض لذكر شىء منها ، وهى إذا عُدَّتْ كانت فى هذا العلم بمقدار شَطْره ، وإذا نُظر إلى فوائدها وُجِدت محتوية عليه بأسْرِه ، وقد أوردتها ههنا ، وشفعتها بضروب أُخر مُدَوَّنة فى الكتب المتقدمة ، بعد أن حذفت منها ماحذفته ، وأضفت إليها ما أضفته ، وهدانى الله لابتداع أشياء لم تكن من قبلى مُبْتَدَعة ، ومنحنى درجة الاجتهاد التى لا تكون أقوالها تابعة وإنما هى مُتَّبَعَة ، وكل ذلك يظهر عند الوقوف على كتابى هذا وعلى غيره من الكتب .

من عادة العرب فى كلامهم ، وإن كانوا لايجرون فى ذلك على قياس متلئب ، انظر إلى قول الراجز :

قُلْنَا لَهَا قِفِى فَقَالَتْ قَافْ ... لَا تَحْسَبِى أَنَّا نَسِينَا الْإِيجَافْ

(١) هذا استعمال قليل ، والأكثر فى الضمير الذى يعود على كلا وكلتا أن يكون مفردا ؛ نظرا إلى لفظ كلا ، ومن الأكثر قوله تعالى فى سورة الكهف « آية ٣٣ » (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا) وقد جاء فى كلام العرب تثنية الضمير العائد إليها نحو قول الفرزدق :

كِلَاهُمَا حِينَ جَدَّ الْجَرْىُ بَيْنَهُمَا ... قَدْ أَقْلَعَا وَكِلَا أَنْفَيْهِمَا رَابِى

وقد بنيته على مقدمة ومَقَالَتَيْن ؛

فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان ؛

والمقالتان تشتملان على فروعه ؛ فالأولى فى الصناعة اللفظية ، والثانية فى الصناعة المعنوية .

ولا أدعى فيما ألفته من ذلك فضيلة الإحسان ، ولا السلامة من سلق(١) اللسان ؛ فإن الفاضل من تُعَدّ سقطاته ، وتحصى غَلَطَاته

وَيُسِيء بِالْإِحْسَانِ ظَنًّا ، لا كَمَنْ هُوَ بِابْنِهِ وَبِشِعْرِهِ مَفْتُونُ(٢)

وإذا تركت الهوى قلت : إن هذا الكتاب بديع فى إغرابه ، وليس له صاحب فى الكتب فيقال إنه من أخدانه أو من أتْرَابه ، مُفْرَد بين أصحابه ، ومع هذا فإنى أتيت بظاهر هذا العلم دون خافيه ، وحُمْتُ حول حماه ولم أقع فيه ؛ إذ الغرض إنما هو الحصول على تعليم الكلم التى بها تُنْظَم العقود وتُرَصَّع ، وتخلب العقول فتُخْدَع ، وذلك شىء تحيل عليه الخواطر ، لاتنطق به الدفاتر .

واعلم — أيها الناظر فى كتابى — أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم ، الذى هو أنفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب — وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذا ، وإذا سألت عما ينتفع به فى فنه قيل لك هذا — فإن الدربة والإدمان أجدى عليك نَفْعاً ، وأهدى بصرا وسمعا ، وهما يُرِيَانِكَ الخبر عيانا ، ويجعلان

---

(١) سلق اللسان : حدته .

(٢) هذا بيت من الشعر لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى من قصيدة له يمدح فيها الواثق بالله ، وأولها :

وَأَبِى الْمَنَازِلُ إِنَّهَا لَشُجُونُ وَعَلَى الْعُجُومَةِ إِنَّهَا لَتُبِينُ

وقد وقع هذا البيت فى جميع النسخ المطبوعة كأنه كلام منثور لايتميز مما قبله ولا مما بعده .

عسرك من القول إمكانا ، وكلّ جارحة منك قلبا ولسانا ؛ فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بإدمانك ما أخطاك ، وما مثلى فيما مهّدته لك من هذه الطريق إلا كمَنْ طَبَعَ سيفا ووضعه فى يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلبا ، فإن حمل النصال ، غَيْرُ مباشرة القتال .

وَإِنَّمَا يَبْلُغُ الْإِنْسَانُ غَايَتَهُ ‏ ‏ ‏ ‏ مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِالرَّحْلِ شِمْلَالُ(١)

ولنرجع إلى ما نحن بصدده ، فنقول : أما مقدمة الكتاب ، فإنها تشتمل على عشرة فصول :

الفصل الأول

فى موضوع علم البيان

موضوع كل علم : هو الشىء الذى يُسْأل فيه عن أحواله التى تعرض لذاته ؛ فموضوع الفقه هو أفعال المكلفين ، والفقيه يسأل عن أحوالها التى تعرض لها : من الْفَرْض والنَّفْل والحلال والحرام والندب والمباح ، وغير ذلك ، وموضوع

---

(١) هذا البيت لأبى الطيب المتنبى ، من قصيدته التى يمدح فيها أبا شجاع فاتكا ، والتى أولها :

لَاخَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالُ ‏ ‏ ‏ ‏ فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

والشملال - بكسر الشين وسكون الميم - الناقة القوية السريعة ، وفى نسخ الديوان « وإنما يبلغ الإنسان طاقته » و « بالرحل » هو بفتح الراء المهملة بعدها حاء مهملة أيضا ، وهذا موافق لما فى نسخ الديوان ، إلا التى شرح عليها العكبرى ، فإن فيها « بالرجل » بكسر الراء ، وبالجيم - وعبارة العكبرى تدل على أنه كذلك قرأها .

الطبّ هو بدن الإنسان ، والطبيب يسأل عن أحواله التى تعرض له من صحته وسقمه ، وموضوع الحساب هو الأعداد ، والحاسب يُسْأل عن أحوالها التى تعرض لها من الضرب والقسمة والنسبة ، وغير ذلك ، وموضوع النحو هو الألفاظ والمعانى ، والنحوى يسأل عن أحوالهما فى الدلالة من جهة الأوضاع اللغوية ، وكذلك يجرى الحكم فى كل علم من العلوم ، وبهذا الضابط انفرد كل علم برأسه ، ولم يختلط بغيره ، وعلى هــذا فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة ، وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية ، وهو والنحوى يشتركان فى أن النحوىّ ينظر فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الوضع اللغوى ، وتلك دلالة عامة ، وصاحب علم البيان ينظر فى فضيلة تلك الدلالة ، وهى دلالة خاصة ، والمراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن ، وذلك أمر وراء النحو والإعراب ، ألا ترى أن النحوى يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم مواقع إعرابه ، ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة ، ومن هٰهُنَا غلط مُفَسِّرو الأشعار فى اقتصارهم على شرح المعنى وما فيها من الكلمات اللغوية ، وتبيين مواضع الإعراب منها ، دون شرح ما تضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة .

الفصل الثانى

فى آلات علم البيان وأدواته

اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى آلات كثيرة ، وقد قيل : ينبغى للكاتب أن يتعلق بكل علم ، حتى قيل : كلُّ ذى علم يَسُوغ له أن يَنْسُبَ نفسه إليه فيقول : فلان النحوى ، وفلان الفقيه ، وفلان المتكلم ،

ولا يسوغ له أن ينسب نفسه إلى الكتابة فيقول : فلان الكاتب ، وذلك لما يفتقر إليه من الخوض فى كل فنّ .

ومِلاكُ هذا كلّه الطبع[١] ؛ فإنه إذا لم يكن ثَمَّ طبع فإنه لا تغنى تلك الآلات شيئاً ؛ ومثال ذلك كمثل النار الكامنة فى الزناد والحديدة التى يقدح بها ؛ ألا ترى أنه إذا لم يكن فى الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئاً ؟ .

وكثيراً مارأينا وسمعنا من غرائب الطباع فى تعلّم العلوم ، حتى إن بعض الناس يكون له نَفَاذ فى تعلم علم مُشْكل المَسْلَك صَعْب المأخذ ، فإذا كُلِّفَ تعلّمَ ماهو دونه مِنْ سَهل العلوم نَـكَص على عَقِبَيْه ، ولم يكن له فيه نَفَاذ .

وأغرب من ذلك أن صاحب الطبع فى المنظوم يُجِيدُ فى المديح دون الهجاء ، أو فى الهجاء دون المديح ، أو يجيد فى المراثى دون التهانى ، أو فى التهانى دون المراثى ، وكذلك صاحب الطبع فى المنثور ؛ هذا ابْنُ الحريرى صاحب المقامات ؛ قد كان – على ماظَهَرَ عنه من تَنْمِيق المقامات – واحداً فى فنّه ، فلما حَضَرَ ببغداد ووقف على مقاماته قيل : هذا يستصلح لكتابة الإنشاء فى ديوان الخلافة ، ويَحْسُن أثره فيه ، فأُحضر ، وكُلِّف كتابة كتاب ، فأُفحم ، ولم يجر لسانه فى طويلة ولا قصيرة ، فقال فيه بعضهم :

شَيْخٌ لَنَا مِنْ رَبِيعَةِ الْفَرَسِ … يَنْتِفُ عُثْنُونَهُ مِنَ الْهَوَسِ
أَنْطَقَهُ اللهُ بِالمشانِ وَقَدْ … أَلْجَمَهُ فى بَغْدَادَ بِالْخَرَسِ

وهذا مما يُعْجَبُ منه .

وسُئِلْتُ عن ذلك فقلت : لاعجب ؛ لأن المقامات مدارها جميعها على حكاية تخرج إلى مخلص . وأما المكاتبات فإنها بحر لاساحل له ؛ لأن المعانى تتجدَّد فيها

---

(١) ملاك الشىء – بكسر الميم بزنة كتاب ، و بفتح الميم أيضا بزنة سحاب – : هو مايقوم به الشىء ، ومن هذا قولهم : القلب ملاك الجسد .

بتجدُّد حوادث الأيام ، وهى متجددة على عدد الأنفاس ، ألا ترى أنه إذا خطب الكاتبُ المُفْلِق عن دولة من الدُّوَل الواسعة التى يكون لسلطانها سيف مشهور ، وسعى مذكور ، ومَكَث على ذلك بُرْهة يسيرة لا تبلغ عشر سنين ، فإنه يدوِّن عنه من المكاتبات مايزيد على عشرة أجزاء ، كل جزء منها أكبر من مقامات الحريرى حجما ؛ لأنه إذا كتب فى كل يوم كتابا واحدا اجتمع من كتبه أكثر من هذه العدة المشار إليها ، وإذا نُخِلت وغُرْبلت واختير الأجود منها إذ تكون كلها جيدة فيخلص منها النصف ، وهو خمسة أجزاء ، والله يعلم ما اشتملت عليه من الغرائب والعجائب ، وما حصل فى ضمنها من المعانى المبتدعة ، على أن الحريرى قد كتب فى أثناء مقاماته رِقَاعًا فى مواضع عدة ، فجاء بها مُنْحَطَّة عن كلامه فى حكاية المقامات ، لا ، بل جاء بالغثّ البارد الذى لانسبة له إلى باقى كلامه فيها ، وله أيضا كتابة أشياء خارجة عن المقامات ، وإذا وقف عليها أقسم أن قائل هذه ليس قائل هذه ؛ لما بينهما من التفاوت البعيد .

وبلغنى عن الشيخ أبى محمد [عبد الله بن أحمد] بن الخشاب النحوى رحمه الله أنه كان يقول : ابن الحريرىّ رجلُ مقاماتٍ : أى أنه لم يحسن من الكلام المنثور سواها ، وإن أتى بغيرها لايقول شيئا .

فانظر أيها المتأمل إلى هذا التفاوت فى الصناعة الواحدة من الكلام المنثور ؛ ومن أجل ذلك قيل : شيئان لانهاية لهما : البيان ، والجمال .

وعلى هذا فإذا ركب الله تعالى فى الإنسان طبعا قابلا لهذا الفن فيفتقر حينئذ إلى ثمانية أنواع من الآلات

النوع الأول : معرفة علم العربية من النحو والتصريف .

النوع الثانى : معرفة مايحتاج إليه من اللغة ، وهو المتداول المألوف استعماله فى فصيح الكلام غير الوَحْشِىّ الغريب ولا المستكره المَعيب .

النوع الثالث : معرفة أمثال العرب وأيامهم ، ومعرفة الوقائع التى جاءت فى حوادث خاصة بأقوام ؛ فإن ذلك جرى مجرى الأمثال أيضاً .

النوع الرابع : الاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة المنظومة منه والمنثورة ، والتحفظ للكثير منه .

النوع الخامس : معرفة الأحكام السلطانية : الإمامة ، والإمارة ، والقضاء ، والحِسْبة ، وغير ذلك .

النوع السادس : حفظ القرآن الكريم ، والتدرُّب باستعماله و إدراجه فى مَطاوى كلامه .

النوع السابع : حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والسلوك بها مَسْلَكَ القرآن الكريم فى الاستعمال .

النوع الثامن : وهو مختص بالناظم دون الناثر ـ وذلك علم العروض والقوافى الذى يقام به ميزان الشعر .

ولنذكر بعد ذلك فائدة كل نوع من هذه الأنواع ؛ ليعلم أن معرفته مما تَمَسُّ الحاجة إليه ، فنقول :

أما علم النحو فإنه فى علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد فى تعليم الخط وهو أول ما ينبغى إتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربى ، ليأمن مَعَرَّةَ اللحن ، ومع هذا فإنه ، وإن احتيج إليه فى بعض الكلام دون بعض لضرورة الإفهام ، فإن الواضع لم يخص منه شيئاً بالوضع ، بل جعل الوضع عاما ، و إلا فإذا نظرنا إلى ضرورته وأقسامه المدوّنة وجدنا أكثرها غير محتاج إليه فى إفهام المعانى ، ألا ترى أنك لو أمرت رجلا بالقيام فقلت له : قُومْ ، بإثبات الواو ولم تجزم ، لَمَا اختل من فهم ذلك شىء ، وكذلك الشرط لو قلت : إنْ تَقُوم أقُوم ، ولم تجزم ، لكان المعنى مفهوماً ، والفضلات كلها تجرى هـــذا المجرى ، كالحال والتمييز

والاستثناء ، فإذا قلت : جاء زيدٌ راكبْ ، وما فى السماء قَدْرُ راحةٍ سحابْ ، وقام القوم إلا زيْد ، فلزمت السكون فى ذلك كله ، ولم تبين إعرابا ؛ لما توقف الفهم على نصب الراكب والسحاب ، ولا على نصب زيد ، وهكذا يقال فى المجرورات ، وفى المفعول فيه ، والمفعول له ، والمفعول معه ، وفى المبتدإ والخبر ، وغير ذلك من أقسام أخر لاحاجة إلى ذكرها .

لكن قد خرج عن هذه الأمثلة ما لا يفهم إلا بقيود تُقَيِّده ، وإنما يقع ذلك فى الذى تدل صيغته الواحدة على معانٍ مختلفة ، ولنضرب لذلك مثالا يوضحه فنقول :

اعلم أن من أقسام الفاعل والمفعول ما لايفهم إلا بعلامة كتقديم المفعول على الفاعل ؛ فإنه إذا لم يكن ثم علامة تبين أحدهما من الآخر وإلا أشكل الأمر كقولك : ضَرَبَ زيْدٌ عَمْرو ، ويكون زيد هو المضروب ؛ فإنك إذا لم تنصب زيداً وترفع عمراً ، وإلا لايفهم ما أردت ؛ وعلى هذا ورد قوله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) .

وكذلك لو قال قائل : ما أحْسَن زيْد ، ولم يبين الإعراب فى ذلك ، لما علمنا غرضه منه ؛ إذ يحتمل أن يريد به التعجب من حسنه ، أو يريد به الاستفهام عن أى شىء منه أحسن ، ويحتمل أن يريد به الإخبار بنفى الإحسان عنه ، ولو بين الإعراب فى ذلك فقال : ما أحْسَنَ زَيْداً ، وَما أحْسَنُ زَيْدٍ ، وما أحْسَنَ زَيْدٌ ؛ علمنا غرضه ، وفهمنا مَغْزَى كلامه ؛ لانفراد كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة بما يعرف به من الإعراب ؛ فوجب حينئذ بذلك معرفةُ النحو ؛ إذ كان ضابطاً لمعانى الكلام ، حافظاً لها من الاختلاف .

وأول من تكلم فى النحو أبو الأسود الدُّؤَلى ، وسبب ذلك أنه دخل على ابنة له بالبصرة فقالت له : يا أبتِ مَا أشَدُّ الحر ، متعجبة ، ورفعت أشدّ ، فظنها

مستفهمة ، فقال : شَهْرُ ناجر ؛ فقالت : يا أبتِ إنما أخبرتك ولم أسألك ! فأتى عليٌّ بن أبي طالب رضى الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ذهبت لغة العرب ، ويوشك إنْ تطَاوَلَ عليها زمان أن تَضْمَحِلَّ ، فقال له : وما ذاك ؟ فأخبره خبر ابنته ، فقال : هَلُمَّ صحيفةً ، ثم أملى عليه «الكلام لايخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى» ثم رسم له رسوما فنقلها النحويون فى كتبهم ،

وقيل : إن أبا الأسود دخل على زياد ابن أبيه بالبصرة فقال : إنى أرى العرب قد خالطت العجم ، وتغيرت ألسنتها ، أفتأذن لى أن أصنع مايُقِيمُونَ به كلامهم ؟ فقال : لا ، فقام من عنده ، ودخل عليه رجل فقال : أيها الأمير ، مات أبَانَا ، وَخلَّف بَنون ، فقال زياد : مات أبانا وخلف بنون !! مَهْ ، رُدُّوا علىَّ أبا الأسود ، فردُّوه ، فقال له : اصنع ما كنتُ نَهَيْتُكَ عنه ، فوضع شيئاً .

ثم جاء بعده مَيْمُونٌ الأقرن فزاد عليه ، ثم جاء بعده عَنْبَسَة بن مَعْدَان المهرى ، فزاد عليه ، ثم جاء بعده عَبْدُ الله بن أبى إسحق الْحَضْرَمى ، وأبو عَمْرو ابن العلاء ، فزادا عليه ، ثم جاء بعدهما الخليل بن أحمد الأزْدِىّ ، وتتابع الناس ، واختلف البصريون والكوفيون فى بعض ذلك

فهذا مابلغنى من أمر النحو فى أول وضعه ، وكذلك العلوم كلها : يوضع منها فى مبادى أمرها شيء يسير ، ثم يزاد بالتدريج إلى أن يستكمل آخرا .

فإن قيل : أما علم النحو فمسلَّم إليك أنه تجب معرفته ، لكن التصريف لاحاجة إليه ؛ لأن التصريف إنما هو معرفة أصل الكلمة وزيادتها وحذفها وإبدالها ، وهذا لايضرُّ جهله ، ولا تنفع معرفته ، ولنضرب لذلك مثالا كيف اتفق ، فنقول : إذا قال القائل : رأيت سِرْدَاحًا[1] ، لا يلزمه أن يعرف الألف

(١) السرداح — بكسر السين المهملة وسكون الراء — الناقة الطويلة ، والضخم من كل شيء ، والأسد القوى الشديد ، والألف التى قبل آخره مزيدة للإلحاق بقرطاس وللصرفيين فيها كلام طويل لايسعنا أن نذكره فى هذه العجالة (انظر الجزء الأول من شرح شافية ابن الحاجب : ص ٥٧) .

فى هذه الكلمة زائدة هى أم أصلية ؛ لأن العرب لم تنطق بها إلا كذلك ، ولو قالت سِرْدَحاً ، بغير ألف ، لما جاز لأحد أن يزيد الألف فيها من عنده فيقول سرداحا ، فعلم بهذا أنه إنما ينطق بالألفاظ كما سمعت عن العرب ، من غير زيادةٍ فيها ولا نقص ، وليس يلزم بعد ذلك أن يعلم أصلها ولا زيادتها ؛ لأن ذلك أمر خارج تقتضيه صناعة تأليف الكلام .

فالجواب عن ذلك أنّا نقول : اعلم أنا لم نجعل معرفة التصريف كمعرفة النحو ؛ لأن الكاتب أو الشاعر إذا كان عارفا بالمعانى ، مختاراً لها ، قادراً على الألفاظ ، مُجِيداً فيها ، ولم يكن عارفاً بعلم النحو ؛ فإنه يفسد مايصوغه من الكلام ويَختَلّ عليه ما يقصده من المعانى ، كما أرَيْنَاكَ فى ذلك المثال المتقدم ، وأما التصريف فإنه إذا لم يكن عارفا به لم تَفْسُدْ عليه معانى كلامه ، وإنما تفسد عليه الأوضاع ، وإن كانت المعانى صحيحة ، وسيأتى بيان ذلك فى تحرير الجواب ، فنقول : أما قولك إن التصريف لاحاجة إليه ، واستدلالك بما ذكرته من المثال المضروب ؛ فإن ذلك لا يستمرُّ لك الكلامُ فيه ، ألا ترى أنك مَثَّلْتَ كلامك فى لفظة سِرْدَاحٍ ، وقلت : إنه لايحتاج إلى معرفة الألف زائدة هى أم أصلية لأنها إنما نقلت عن العرب على ماهى عليه من غير زيادة ولا نقص ، وهذا لايطرد إلا فيا هذا سبيله من نقل الألفاظ على هيئتها من غير تصرف فيها بحال ، فأما إذا أريد تصغيرها أو جمعها والنسبة إليها فإنه إذا لم يعرف الأصل فى حروف الكلمة وزيادتها وحذفها وإبدالها يَضِلّ حينئذ عن السبيل ، وينشأ من ذلك مَجالٌ للعائب والطاعن ، ألا ترى أنه إذا قيل للنحوى وكان جاهلا بعلم التصريف كيف تصغير لفظة اضْطراب فإنه يقول : ضُطَيْرِب ، ولا يلام على جهله بذلك ، لأن الذى تقتضيه صناعة النحو قد أتى به ، وذلك أن النحاة يقولون : إذا كانت الكلمة على خمسة أحرف وفيها حرف زائد أو لم يكن حذفته[1] نحو قولهم

(١) هذه عبارة لاتؤدى مقصود النحاة تماما ، والعبارة المستقيمة أن تقول : إذا

فى منطلق : مطيلق ، وفى جَحْمَرِش : جُحَيْمر ؛ فلفظة منطلق على خمسة أحرف ، وفيها حرفان زائدان هما الميم والنون إلا أن الميم زيدت فيها لمعنى ؛ فلذلك لم تحذف ، وحذفت النون، وأما لفظة جَحْمَرِش فخماسية لازيادة فيها وحذف منها حرف أيضا ، ولم يعلم النحوى أن علماء النحو إنما قالوا ذلك مهملا اتكالا منهم على تحقيقه من علم الصرف ؛ لأنه لا يلزمهم أن يقولوا فى كتب النحو أكثر مما قالوا ، وليس عليهم أن يذكروا فى باب من أبواب النحو شيئا من التصريف ؛ لأن كلا من النحو والتصريف علم منفرد برأسه ، غير أن أحدهما مرتبط بالآخر ، ومحتاج إليه .

وإنما قلت : إن النحوى إذا سئل عن تصغير لفظة اضطراب يقول : ضطيرب ؛ لأنه لايخلو إما أن يحذف من لفظة اضطراب الألف أو الضاد أو الطاء أو الراء أو الباء ، وهذه الحروف المذكورة غير الألف ليست من حروف الزيادة ؛ فلا تحذف ، بل الأولى أن يحذف الحرف الزائد ويترك الحرف الذى ليس بزائد ؛ فلذلك قلنا : إن النحوى يصغر لفظة اضطراب على ضطيرب ؛ فيحذف الألف التى هى حرف زائد ، دون غيرها مما ليس من حروف الزيادة ، وأما أن يعلم أن الطاء

كانت الكلمة المراد تصغيرها على خمسة أحرف نظرت ؛ فإن كان فيها حرف زائد حذفته ، وإن لم يكن فيها حرف زائد حذفت الحرف الخامس ، هذا ، ويستثنى من قولنا «إن كان فيها حرف زائد حذفته» الحرف الزائد إذا كان مدا قبل الآخر ، سواء أكان ألفا نحو قرطاس وشملال وسرداح ، أم ياء نحو قنديل وكبريت وإبريق ؛ أم واوا نحو عصفور وسبروت وأملود ؛ فإن هذا الحرف لايحذف ، بل يقلب ياء إن كان واوا أو ألفا ، ويبقى بحاله إن كان ياء . وإن كان الاسم الذى على خمسة أحرف يشتمل على حرفين زائدين نحو منطلق ؛ فإن الميم والنون زائدان ؛ نظرت ؛ فإن كان لأحد الزائدين مزية على الآخر كالميم فى منطلق فإن لها مزية وهى دلالتها على معنى الفاعل ؛ أبقيت الحرف ذا المزية وحذفت الآخر .

فى اضطراب مبدلة من تاء ، وأنه إذا أريد تصغيرها تُعَاد إلى الأصل الذى كانت عليه ، وهو التاء ، فيقال : ضُتَيْرِب ؛ فإن هذا لايعلمه إلا التصريفى ، وتكليف النحوى الجاهل بعلم التصريف معرفة ذلك كتكليفه علم مالا يعلمه ؛ فثبت بما ذكرناه أنه يحتاج إلى علم التصريف ؛ لئلا يغلط فى مثل هذا .

ومن العجب أن يقال : إنه لا يحتاج إلى معرفة التصريف ، ألم تعلم أن نافع ابن أبى نعيم ، وهو من أكبر القراء السبعة قَدْراً ، وأفخمهم شأناً ، قال فى مَعَايِشَ : مَعَائِشَ ، بالهمز(١) ، ولم يعلم الأصل فى ذلك ؛ فأُوخِذ عليه ، وعِيبَ من أجله ، ومن جملة من عابه أبو عثمان المازنى ؛ فقال فى كتابه فى التصريف : إن نافعا لم يَدْرِ مَا الْعَرَبِيَّة ، وكثيراً مايقع أولو العلم فى مثل هذه المواضع ، فكيف الجهال الذين لامعرفة لهم بها ولا اطلاع لهم عليها ؟ وإذا علم حقيقة الأمر فى ذلك لم يغلط فيما يوجب قدحا ولا طعنا ، وهذه لفظة معايش لا يجوز همزها باجماع من علماء العربية ، لأن الياء فيها ليست مبدلة من همزة ، وإنما الياء التى تبدل من الهمزة فى هذا الموضع تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف(١) ، ويكون بعدها حرف واحد ، ولا تكون عينا ، نحو سَفَائن ، وفى هذا الموضع غلط نافع رحمة الله عليه ، لأنه لاشك اعتقد أن مَعِيشة بوزن فَعِيلة وجمعُ فَعِيلة هو على فعَائل ، ولم ينظر إلى أن الأصل فى مَعِيشة مَعْيِشَة على وزن مَفعِلة ، وذلك لأن أصل هذه

---

(١) معايش : جمع معيشة ، وهذه الياء هى عين الكلمة ، وليست زائدة ؛ وذلك لأن الميم فى أول الكلمة حرف زائد ، والياء إذا كانت مدّة ثالثة فى المفرد ينظر فيها ؛ فإن كانت زائدة كالياء فى نحو صحيفة وكتيبة قلبت همزة فى الجمع ؛ فتقول : صحائف وكتائب ؛ وإن كانت أصلية كالياء فى معيشة ومسيل ومصيبة ، لم تقلب همزة فى الجمع ، بل تبقى على حالها أو تردّ إلى أصلها إن كان أصلها الواو كما فى مصيبة ؛ وقد قالوا : معائش ، بالهمز ؛ فعاملوا الياء الأصلية معاملة الياء الزائدة ، وهذا شاذ فى القياس ، ونحن لانوافق المؤلف وأبا عثمان المازنى على مارميا به نافعا من الجهالة ؛ بل نقرر أن العرب قد اعتادوا أن يعاملوا الشىء معاملة الشىء إذا أشبهه فى الصورة ، ولهذا نظائر كثيرة فى العربية .

الـكلمة من عاش التى أصلها عَيَشَ على وزن فعَلَ ، ويلزم مضارع فعَلَ المعتل العين يَفعِلُ لتصح الياء ، نحو يعْيِشُ ، ثم تنقل حركة العين إلى الفاء فتصير يَعِيش ، ثم يبنى من يَعيش مفعول فيقال : مَعْيُوش به ، كما يقال : مَسْيُورٌ به ، ثم يخفف ذلك بحذف الواو ؛ فيقال : مَعِيش به ، كما يقال : مَسِير به ، ثم تؤنث هذه اللفظة فتصير مَعِيشة .

ومع هذا فلا ينبغى لصاحب هذه الصناعة من النظم والنثر أن يهمل من علم العربية مايخفى عليه بإهماله اللحن الخفى ؛ فإن اللحن الظاهر قد كثرت مفاوضات الناس فيه حتى صار يعلمه غير النحوى ، ولا شك أن قلة المُبالاَة بالأمر واستشعار القدرة عليه توقع صاحبه فيما لايشعر أنه وقع فيه ؛ فيجهل بما يكون عالماً به ،

ألا ترى أن أبا نُوَاسٍ كان معدودا فى طبقات العلماء مع تقدمه فى طبقات الشعراء ، وقد غلط فيما لايغلط مثله فيه ، فقال فى صفة الخمر :

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِها ... حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وهذا لا يخفى على مثل أبى نواس ؛ فإنه من ظواهر علم العربية ، وليس من غوامضه فى شىء ؛ لأنه أمر نقلىٌّ يحمل ناقله فيه على النقل من غير تصرف ، وقول أبى نواس « صُغْرَى وكُبْرَى » غيْرُ جائز ، فإن فُعْلَى أفعل لايجوز حذف الألف واللام منها ، وإنما يجوز حذفهما من فُعْلَى التى لاأفعل لها ، نحوحُبْلَى ؛ إلا أن تكون فُعْلَى أفعل مُضَافَةً ، وههنا قد عريت عن الإضافة وعن الألف واللام ، فانظر كيف وقع أبو نواس فى مثل هذا الموضع مع قربه وسهولته ؟ .

وقد غلط أبو تمام فى قوله :

بِالْقَائِمِ الثَّامِنِ الْمُسْتَخْلَفِ اطَّأَدَتْ ... قَوَاعِدُ الْمُلْكِ مُمْتَدًّا لَهَا الطُّولُ

ألا ترى أنه قال : اطَّأَدَتْ ، والصواب اتَّطَدَتْ ؛ لأن التاء تبدل من الواو فى موضعين : أحدهما مَقِيس عليه ، كهذا الموضع ، لأنك إذا بنيت افْتَعَلَ من الْوَعْد

قلت : اتَّعَدَ ، ومثله ماورد فى هذا البيت ؛ فإنه من وَطَد يَطِد ، كما يقال : وعد يعد ؛ فإذا بنى منه افتعل قيل : اتَّطَدَ ، ولا يقال اطأد ، وأما غير المقيس فقولهم فى وجاه : تُجاه ، وقالوا : تُكْلَان ، وأصله الواو ؛ لأنه من وَكَلَ يَكِل ؛ فأبدلت الواو تاء للاستحسان ، فهذه الأمثلة قد أشَرْتُ إليها ليعلم مكان الفائدة فى أمثالها وتُتَوَقَّى .

على أنى لم أجد أحداً من الشعراء المفلقين سلم من مثل ذلك ؛ فإما أن يكون لحن لحنا يدل على جهله مواقع الإعراب ، وإما أن يكون أخطأ فى تصريف الكلمة ، ولا أعنى بالشعراء من هو قريب عهد بزماننا ، بل أعنى بالشعراء من تقدم زمانه ، كالمتنبى (١) ، ومن كان قبله ، كالبحترى (٢) ، ومن تقدمه ، كأبى تمام (٣) ، ومن سبقه ، كأبى نواس ، والمعصوم من عَصَمَه الله تعالى .

على أن المخطىء فى التصريف أنْدَرُ (٤) وقوعا من المخطىء فى النحو ؛ لأنه قلما يقع له كلمة يحتاج فى استعمالها إلى الإبدال والنقل فى حروفها ، وأما النحو فإنه

(١) قد أخذ العلماء على المتنبى كثيرا من المآخذ ، وبعض هذه المآخذ مما أخطأ فيه المتنبى ، وبعضها ـ وهو الغالب ـ مما لايعدّ خطأ عند المنصفين ، والمكتبة العربية زاخرة بهذا المبحث ، والرجوع إلى شروح ديوانه كاف لإدراك هذه البغية

(٢) صنف أبو العلاء المعرى رسالة أسماها « عبث الوليد » وقد نشرت منذ عامين ، وفيها شىء ليس بالقليل مما أخذه على أبى عبادة البحترى .

(٣) ليس أبو تمام بأسعد حظا من أخويه ، فقد أخذ عليه العلماء شيئا كثيرا ، وارجع إلى الموازنة بين أبى تمام والبحترى ، ثم ارجع إلى الموشح للمرزبانى (ص ٣٠٣ وما بعدها) .

(٤) فى بعض النسخ « أنزر » والنزر (بفتح فسكون) كالنادر ، كلاهما بمعنى القليل .

يقع الخطأ فيه كثيرا حتى إنه ليشذ فى ظاهره فى بعض الأحوال، فكيف خافيه ؟ كقول أبى نواس فى الأمين[١] محمد رحمه الله :

يَاخَيْرَ مَنْ كَانَ وَمَنْ يَكُونُ ... إِلَّا النَّبِيُّ الطَّاهِرُ المَيْمُونُ

فرفع فى الاستثناء من الموجب ، وهذا من ظواهر النحو ، وليس من خافيه فى شىء ، وكذلك قال أبو الطيب المتنبى :

أَرَأَيْتَ هِمَّـــةَ نَاقَتِى فِى نَاقَةٍ ... نَقَلَتْ يَداً سُرُحاً وَخُفًّا مُجْمَرَا[٢]

تَرَكَتْ دُخَانَ الرِّمْثِ فِى أَوْطَانِهَا ... طَلَباً لِقَوْمٍ يُوقِدُونَ الْعَنْبَرَا[٣]

وَتَكَرَّمَتْ رُكَبَاتُهَا عَنْ مَبْرَكٍ ... تَقَعَانِ فِيهِ وَلَيْسَ مِسْكاً أَذْفَرَا[٤]

فجمع فى حال التثنية ؛ لأن الناقة ليس لها إلا ركبتان ، فقال : رُكبات ، وهذا من أظهر ظواهر النحو ، وقد خفى على مثل المتنبى .

ومع هذا فينبغى لك أن تعلم أن الجهل بالنحو لايقدح فى فصاحة ولابلاغة ، ولكنه يقدح فى الجاهل به نفسه ؛ لأنه رُسُومُ قومٍ تَوَاضَعُواعليه ، وهم الناطقون

---

(١) هـذا مما أخذ على أبى نواس من قديم ، وقد ذكره قدامة فى نقد الشعر (ص ٧٣) وذكره المرزبانى فى الموشح (ص ٢٦٦ و ص ٢٧٢) وفى الموشح شىء من مآخذ العلماء على أبى نواس (من ص ٢٦٣ – ٢٨٩) .

(٢) هـذه الأبيات من قصيدة للمتنبى يمدح فيها أبا الفضل محمد بن العميد ، وأولها قوله :

بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا ... وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

والسرح – بضم السين والراء – : السهلة السير، والخف المجمر : الشديد الصلب الذى نكبته الحجارة وليس بواسع ولا ضيق .

(٣) الرمث : نبت يوقد به ، وهو من مراعى الإبل ، والمراد أنه ترك الأعراب الذين يوقدون هذا النبات ، وانتجع قوما وقودهم العنبر .

(٤) الأذفر : الشديد الرائحة .

باللغة ، فوجب اتّباعهم ؛ والدليل على ذلك أن الشاعر لم ينظم شعره وغَرَضُه منه رفع الفاعل ونصب المفعول أو ماجرى مجراهما ، وإنما غرضه إيرادُ المعنى الْحَسَن فى اللفظ الحسن المتَّصِفَيْن بصفة الفصاحة والبلاغة ، ولهذا لم يكن اللحن قادِحًا فى حسن الكلام ؛ لأنه إذا قيل : جاء زيد راكب ، إن لم يكن حسنا إلا بأن يقال : جاء راكبا ـ بالنصب ـ لكان النحو شرطا فى حسن الكلام ، وليس كذلك .

فتبين بهذا أنه ليس الغرض من نظم الشعر إقامة إعراب كلماته ، وإنما الغرض أمرٌ وراء ذلك ، وهكذا يجرى الحكم فى الخطب والرسائل من الكلام المنثور .

وأما الإدغام فلا حاجة إليه لكاتب ، لكن الشاعر ربما احتاج إليه ؛ لأنه قد يضطر فى بعض الأحوال إلى إدغام حرف ، وإلى فك إدغام ؛ من أجل إقامة الميزان الشعرى .

النوع الثانى : وهو قولنا « إنه يحتاج إلى معرفة اللغة مما تداول استعماله » فسيرد بيانه عند ذكر اللفظة الواحدة ، والكلامِ على جيدها ورديئها فى المقالة المختصة بالصناعة اللفظية .

ويفتقر أيضا مؤلِّفُ الكلام إلى معرفة عدة أسماء لما يقع استعماله فى النظم والنثر ؛ ليجد إذا ضاق به موضع فى كلامه بإيراد بعض الألفاظ [سَعَةً فى] العدول عنه إلى غيره ، مما هو فى معناه ، وهذه الأسماء تسمى المترادفة ، وهى اتحاد المسمَّى واختلاف أسمائه ، كقولنا : الخمر ، والراح ، والمدام ؛ فإن المسمَّى بهذه الأسماء شىء واحد ، وأسماؤه كثيرة .

وكذلك يحتاج إلى معرفة الأسماء المشتركة ليستعين بها على استعمال التجنيس فى كلامه ، وهى اتحاد الاسم واختلاف المسميات ، كالعين ؛ فإنها تطلق على العين الناظرة ، وعلى ينبُوع الماء ، وعلى المطر ، وغيره ، إلا أن المشتركة تفتقر فى

الاستعمال إلى قرينة تخصِّصها؛ كى لا تكون مبهمة، لأنا إذا قلنا: عين، ثم سكتنا، وقع ذلك على محتملات كثيرة من العين الناظرة والعين النابعة والمطر وغيره مما هو موضوع بإزاء هذا الاسم، وإذا قرَنَّا إليه قرينةً تخصه زال ذلك الإبهام؛ بأن نقول: عين حسناء، أو عين نَضَّاخة(١)، أو مُلِثَّة(٢)، أوغيرذلك.

وهذا موضع للعلماء فيه مجاذبات جدلية:

فنهم مَنْ ينكر أن يكون اللفظ المشترك حقيقةً فى المعنيين جميعاً، ويقول: إن ذلك يُخِلُّ بفائدة وضع اللغة؛ لأن اللغة إنما هى وضع الألفاظ فى دِلَالتها(٣) على المعانى: أى وضع الأسماء على المسميات لتكون مُنْبئةً عنها عند إطلاق اللفظ، والاشتراكُ لا بيَانَ فيه، وإنما هو ضدُّ البيان، لكن طريق البيان أن يجعل أحد المعنيين فى اللفظ المشترك حقيقةً والآخر مجازاً؛ فإذا قلنا «هذه كلمة»، وأطلقنا القول؛ فهم منه اللفظة الواحدة، وإذا قيدنا اللفظ فقلنا «هذه كلمة شاعرة» فهم منه القصيدة المقصدة من الشعر، وهى مجموع كلمات كثيرة، ولو أطلقنا من غير تقييد وأردنا القصيدة من الشعر لما فهم مرادنا ألبتة.

هذا خلاصة ماذهب إليه مَنْ ينكر وقوعَ اللفظ المشترك فى المعنيين حقيقةً، وفى ذلك مافيه، وسأبين مايدخله من الخلل؛ فأقول فى الجواب عن ذلك ما استخرجته بفكرى، ولم يكن لأحد فيه قول من قبلى.

وهو أمَّا قولك «إن فائدة وضع اللغة إنما هو البيان عند إطلاق اللفظ، واللفظُ المشترك يخل بهذه الفائدة» فهذا غير مُسَلَّم، بل فائدة وضع اللغة هو البيان والتحسين.

---

(١) عين نضاخة: كثيرة الماء أو فوّارة، وفى القرآن الكريم: (فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ).

(٢) عين ملثة: دائمة الانسكاب، والمراد المطر.

(٣) الأحسن أن يقول «لدلالتها».

أما البيان فقد وفى [به] الأسماء المتباينة التى هى كل اسم واحد دلّ على مسمى واحد ، فإذا أطلق اللفظ فى هذه الأسماء كان بيناً مفهوما لايحتاج إلى قرينة ، ولو لم يَضَع الواضع من الأسماء شيئاً غيرها لكان كافياً فى البيان .

وأما التحسين فإن الواضع لهذه اللغة العربية التى هى أحسن اللغات نظر إلى مايحتاج إليه أرباب الفصاحة والبلاغة فيما يَصُوغونه من نظم ونثر ، ورأى أنّ من مهمات ذلك التَّجْنِيسَ ، ولا يقوم به إلا الأسماء المشتركة التى هى كل اسم واحد دل على مسميين فصاعدا ، فوضعها من أجل ذلك ، وهذا الموضع يتجاذبه جانبان يترجح أحدهما على الآخر ، و بيانه أن التحسين يقضى بوضع الأسماء المشتركة ، ووضْعُها يذهب بفائدة البيان عند إطلاق اللفظ ، وعلى هذا فإن وضعها الواضع ذهب بفائدة البيان ، و إن لم يضع ذهب بفائدة التحسين ، لكنه إن وضع استُدْرِكَ ماذهب من فائدة البيان بالقرينة ، و إن لم يضع لم يستدرك ماذهب من فائدة التحسين ، فترجّح حينئذ جانب الوضع ؛ فوضع .

فإن قيل: فلم لاتنسب الأسماء المشتركة إلى اختلاف القبائل لا إلى واضع واحد؟

قلت فى الجواب(١) : هــذا تعسف لاحاجة إليه ، وهو مدفوع من وجهين : أحدهما ماقدمت القول فيه من الترجيح الذى سوّغ للواضع أن يضع . الآخر : أنَّا نرى أنه قد ورد من الجموع ما يقع على مُسَمَّيَيْن اثنين ، كقولهم كِعَاب ، جمع كَعب الذى هو كعب الرجل ، وجمع كَعْبَة وهى البَنِيَّة المعروفة ، و إذا أطلقنا اللفظ فقلنا « كعاب » من غير قرينة لايُدْرَى ما المراد بذلك: أكعب الرجل أم البَنِيَّة المعروفة ؟ وكذلك وَرَد واحدٌ وجمعٌ على وزن واحد ، كقولهم :

---

(١) نحن لانوافق المؤلف على هذا الرأى ، ولا نرى هذه الأدلة التى ذكرها ناهضة للدلالة على ماذهب إليه ، وعندنا أن أهم العوامل على وجود الترادف فى اللغة العربية هو اختلاف القبائل مع تنائى ديارهم وقلة ارتباطهم ، وليس هــذا موضع الإفاضة والاستدلال .

رَاح، اسم للخمر، وراح جمع راحة وهى الكف ؛ وكقولهم : عِقَاب ، وهو الجزاء على الذنب، وجمع عَقَبَة أيضا؛ وفى اللغة من هذا شىء كثير، وهو بالإجماع من علماء العربية أنه لم يَجْرِ فيه خلاف بين القبائل ، فاتضح بهذا أن الأسماء المشتركة من واضع واحد .

فإن قلت : إن الواضع إنما وضع المفرد من الألفاظ والجمع وضعه غيره .

قلت فى الجواب: إن الذى وضع المفرد هو الذى وضع الجمع؛ لأن من قواعد وضع اللغة أن يوضع المفرد ، والجمع ، والمذكر ، والمؤنث ، والمصغر ، والمكبر ، والمصادر، وأسماء الفاعلين، وما جرى هذا المجرى ، وإذا أخلَّ بشىء من ذلك كان قد أخلَّ بقاعدة من قواعد وضع اللغة ، ثم لو سلمت إليك أن واضع الجمع غير واضع المفرد لكان ذلك قَدْحًا فى الواضع الثانى ؛ إذ جاء بالإبهام عند إطلاق اللفظ ، لأنه جمعَ كعبة التى هى الْبِنْيَة وكعب الرجل ، على كِعَاب ؛ وهذا لفظ مشترك مبهم عند الإطلاق ، ولا فرق بين أن يضعه الواضع الأول أو واضع ثان ؛ فإن الإبهام حاصل منه .

وكان فاوضنى بعضُ الفقهاء فى قوله تعالى فى سورة البقرة (صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) فقال : إن لون البقرة كان أسود ، والأصفر هو الأسود ، فأنكرت عليه هذا القول ، فأخذ يجادل مجادلة غير عارف ، ويَعْزُو ذلك إلى تفسير النقاش ، وتفسير الْبَلاذُرِى ، فقلت له : اعلم أن هذا الاسم الذى هو الأصفر لايخلو فى دلالته على الأسود من وجهين : إما أنه من الأسماء المتباينة التى يدل كل اسم منها على مُسَمًّى واحد كالإنسان والأسد والفرس وغير ذلك ، وإما أنه من الأسماء المشتركة التى يدل الاسم منها على مُسَمَّيَيْن فصاعدا ، ولا يجوز أن يكون من الأسماء المتباينة ؛ لأنا نراه متجاذبا بين لَوْنَين : أحدهما هذا اللون الزعفرانى الشكل ، والآخر اللون المظلم الشكل ، وعلى هذا فإنه يكون من الأسماء

المشتركة ، وإذا كان من الأسماء المشتركة فلا بُدّ له من قرينة تخصصه باللون الزعفرانى دون اللون المظلم ؛ لأن الله تعالى قال (صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا) والفاقع من صفات اللون الزعفرانى خاصة ؛ لأنه قد ورد للألوان صفات متعددة لكل لون منها صفة ، فقيل : أبيض يَقَق ، وأسود حَالِك ، وأحْمَرُ قَانٍ ، وأصفر فاقع ، ولم يُقَلْ أسود فاقع ، ولا أصفر حالك ، فعلم حينئذ أن لون البقرة لم يكن أسود ، وإنما كان أصفر ، فلما تحقّقَ عند ذلك الفقيهُ ما أشرت إليه أذعن بالتسليم .

وأما النوع الثالث فهو معرفة أمثال العرب وأيامهم ، ومعرفة الوقائع التى وردت فى حوادث خاصة بأقوام، وقولى هذا لا يقتضى كل الأمثال الواردة عنهم؛ فإنّ منها ما لا يحسن استعماله ، كما أن من ألفاظهم أيضاً ما لا يحسن استعماله ، وكنت جردت من كتاب الأمثال للميدانى أوراقا خفيفة تشتمل على الْحَسَن من الأمثال الذى يدخل فى باب الاستعمال ؛ وسبيل المُتَصَدِّى لهذا الفن أن يَسْلُكَ ما سلكته ، وليعلم أن الحاجة إليها شديدة ، وذلك أن العرب لم تضع الأمثال إلا لأسباب أوجبتها ، وحوادث اقْتَضَتْهَا ، فصار المثل المضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة التى يعرف بها الشىء ، وليس فى كلامهم أوجز منها ، ولا أشد اختصارا .

وسبب ذلك ما أذكره لك لتكون من معرفته على يقين ، فأقول : قد جاء عن العرب من جملة أمثالهم « إنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ الْقَمَرُ » وهو مثل يضرب للامر الظاهر المشهور، والأصل فيه كما قال المفضل بن محمد[1] أنه بلغنا أن بنى ثعلبة بن سعد بن ضَبَّة فى الجاهلية تراهَنُوا على الشمس والقمر ليلة أربع عشرة من الشهر؛ فقالت طائفة : تطلع الشمس والقمر يرى ، وقالت طائفة : يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس ، فتراضوا برجل جعلوه حكما ، فقال واحد منهم : إن قومى يَبْغُونَ على ، فقال الحكم : إن يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لا يَبْغِ عَلَيْكَ القمر .

(١) هو المفضل الضبى ، وله كتاب « أمثال العرب » .

فذهبت مثلا ، ومن المعلوم أن قول القائل « إن يَبْغِ عليك قومك لايبغ عليك القمر » إذا أخذ على حقيقته من غير نظر إلى القرائن المنوطة به والأسباب التى قيل من أجلها لايعطى من المعنى ماقد أعطاه المثل ، وذلك أن المثل له مقدمات وأسباب قد عرفت ، وصارت مشهورة بين الناس معلومة عندهم ، وحيث كان الأمر كذلك جاز إيراد هذه اللفظات فى التعبير عن المعنى المراد ، ولولا تلك المقدمات المعلومة والأسباب المعروفة ، لما فهم من قول القائل « إنْ يَبْغِ عليك قومك لا يبغ عليك القمر » ما ذكرناه من المعنى المقصود ، بل ما كان يفهم من هذا القول معنى مفيد ، لأن البغى هو الظلم ، والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحداً ، فكان يصير معنى المثل : إن كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر ، وهذا كلام مختل المعنى ، ليس بمستقيم ، فلما كانت الأمثال كالرموز والإشارات التى يُلَوَّح بها على المعانى تلويحاً صارت من أوجز الكلام ، وأكثره اختصارا ، ومن أجل ذلك قيل فى حَدّ المثل : إنه القول الوجيز المُرْسَل ليعمل عليه ، وحيث هى بهذه المثابة فلا ينبغى الإخلال بمعرفتها .

وأما أيام العرب فإنها تتنوّع وتتشعب ، فمنها أيام فَخَار ، ومنها أيام مُحَاربة ، ومنها أيام منافرة ، ومنها غير ذلك ، ولا يخلو الناظم والناثر من الانتصاب لوصْفِ يومٍ يمر به فى بعض الأحوال شبيها بيوم من تلك الأيام ، ومماثلا له ؛ فإذا جاء بذكر بعض تلك الأيام المناسبة لمراده الموافقة له ، وقاس عليه يومه؛ فإنه يكون فى غاية الحسن والرَّوْنَق ؛ هذا لاخفاء به .

وأما الوقائع التى وردت فى حوادث خاصة بأقوام ، فإنها كالأمثال فى الاستشهاد بها ، وسأبين لك نبذة منها حتى تعلم مقدار الفائدة بها :

فمن ذلك أنه وردَ عن النبى صلى الله عليه وسلم حديث بَيْعَة الحُدَيْبِيَة تحت الشَّجَرة ، وكان أرسل عثمان رضى الله عنه إلى مكة فى حاجة عَرَضَتْ له ، ولم

يحضر البيعة ، فضرب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيده الشمالِ على اليمين وقال « هٰذِهِ عَنْ عُثْمَانَ ، وشِمَالِي خَيْرٌ مِنْ يَمِينِهِ » .

وقد استعملت أنا هذا فى جملة كتاب فقلت : ولا يُعَدُّ البر برًّا حتى يلحق الغيث بالحصور ، ويصل من لم يصله بجزاء ولا شكور ؛ فزنة الغائب بالشاهد من كرم الإحسان ، ولهذا نابت شِمَالُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمين عثمان.

ومن ذلك أنه ورد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه استدعى أبا موسى الأشعرى ومن يَلِيه من الْعُمّال ، وكان منهم الرَّبيع بن زياد الحارثى ، فمضى إلى يَرْفَأَ مَوْلَى عمر (١) ، وسأله عما يَرُوجُ عنده ، وينفق عليه ، فأشار إلى خشونة العيش ، فمضى ولبس جبة صوف ، وعمامة دسماء ، وخفا مطابقا ، وحضر بين يديه فى جملة العمال ، فصَوَّبَ عمر نظره وصَعَّدَه ، فلم يقع إلا عليه ، فأدناه وسأله عن حاله ، ثم أوصى أبا موسى الأشعرى به .

وقد استعملت أنا هذا فى جملة تقليد لبعض الملوك من ديوان الخلافة ، فقلت : وإذا اسْتَعَنْتَ بأحدٍ على عملك فاضرب عليه بالأرصاد ، ولا تَرْضَ بما عرفته من مبدأ حاله ؛ فإن الأحوال تتنقل تَنَقُّلَ الأجساد ، وإياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد .

فانظر كيف فعلت فى هاتين القِصَّتَيْنِ ؟ وكيف أوردتهما فى الغرض الذى قصدته ؟ وامْضِ أنت على هذا النَّهج ، فإنه من محاسن هذه الصنعة .

وعرض عليّ كتابٌ كتبه عبد الرحيم بن على البيسانى (٢) رحمه الله عن الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله إلى ديوان الخلافة ببغداد فى سنة

---

(١) قال السيد المرتضى فى شرح القاموس : « ويرفأ كيمنع : مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يقال : إنه أدرك الجاهلية ؛ وحج مع عمر فى خلافة أبى بكر رضى الله عنهما ، وله ذكر فى الصحيحين ، وكان حاجبا على بابه » اه .

(٢) فى نسخة « الشيبانى » .

إحدى وسبعين وخمسمائة، وَضَمَّنه ما أبلاه فى خدمة الدولة من فتح الديار المصرية ، ومحو الدولة العلوية ، وإقامة الدعوى العباسية ، وشَرَحَ فيه ما قاساه فى الفتح من الأهوال ، ولما تأملته وجدته كتابا حَسَناً قد وفى فيه الخطابة حقَّهَا ؛ إلا أنه أخل بشىء واحد ، وهو أن مصر لم تفتح إلا بعد أن قصدت من الشام ثلاث مرات ، وكان الفتح فى المرة الثالثة ، وهذا له نظير فى فتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة ، فإنه قصدها عام الحديبية ، ثم سار إليها فى عُمْرَةِ القضاء ، ثم سار إليها عام الفتح ففتحها .

وقد سألنى بعض الإخوان أن أنشئ فى ذلك كتابا إلى ديوان الخلافة معارضا للكتاب الذى أنشأه عبد الرحيم بن على رحمه الله ، فأجبته إلى سؤاله ، وعددت مساعى صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله ، فقلت :

ومن جملتها مافعله الخادم فى الدولة المصرية وقد قام بها مِنبَرٌ وسَرِير ، وقالت منا أمير ومنكم أمير ، فرد الدعوة العباسية إلى مَعَادها ، وأذكر المنابر ما نسيته بها من زَهْو أعْوَادِها ، وكانت أخرجت منها إخراج النبى صلى الله عليه وسلم من قَرْيَتهِ ، وقذف الشيطان على حقها بباطله وعلى صدقها بفويته[1] ، ثم طوتها الليالى طىَّ السجل للكتاب ، وكثر عليها مرور الدهر حتى نسى لها عدد السنين والحساب ، ولم يعدها إلى وطنها حتى تغربت لها الأرواح عن أوطانها ، وسَهِرَت لها أجفان السيوف سَهَرَ العيون عن أجفانها ، وتطاردت الآراء فى تسهيل أمرها قبل مطاردة أقرانها ، وحتى تقدمتها غُرُبَات ثلاث كلها ذوات غُرُوب[2] ، وكل خطب من خطوبها ذو خطوب ، إلى أن تمخض ليلها عن صبحه ، وأصبحت فى الإسلام كعام حُدَيْبِيَتِهِ وعُمْرَة قضائه وعام فَتْحِهِ ، وفى ذكر أخبارها ما يطبع

(١) كذا ؛ ولعله « بِغَيَّتِهِ » .

(٢) غروب : جمع غرب ـ بفتح فسكون ـ وغرب كل شىء : حده .

الأسنَّة فى رءوس الأقلام ، ويرهب سامعها ، ولم ينله شىء من مكروهها سوى الكلام ، ويومها للدولة هو اليوم الذى أرَّخَ فيه مَعَاد(١) نصرها ، وميعاد بشرها ، فإذا عُدَّت لياليها السالفة كانت كسائر الليالى وهذه ليلة قدرها .

فهذا فصل من فصول الكتاب ؛ فانظر كيف ماثلت بين الفتح المصرى وفتح مكة ؟ وذكرت أيضاً حديث الْحُبَابِ بن الْمُنْذِر الأنصارى حيث قال بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم : مِنَّا أَمِيرٌ ومنكم أمير ؛ وذلك لما حضر أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم فى سقيفة بنى ساعدة ، والقصة مشهورة ، فقال الحباب بن المنذر : منا أمير ومنكم أمير ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : بل نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، وهذا الذى ذكرته هو نكتة هذا الفتح التى عليها المعول ، ومركزه الذى عليه يدور ، وعجبت من عبد الرحيم بن على البيسانى - مع تقدمه فى فن الكتابة - كيف فاته أن يأتى به فى الكتاب الذى كتبه .

وكذلك وجدت لابن زياد البغدادى كتابا كتبه إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف المقدم ذكره فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وضمنه فصولا تشتمل على أمور أنكرت عليه من ديوان الخلافة ، فمن تلك الأمور التى أنكرت عليه أنه تلقب بالملك الناصر ، وذلك اللقب هو لأمير المؤمنين خاصة ، فإنه الإمام الناصر لدين الله ، فلما وقفت على ذلك الكتاب وجدته كتابا حسنا قد أجاد فيه كل الإجادة ، ولم أجد فيه مغمزا إلا فى هذا الفصل الذى يتضمن حديث اللقب ، فإنه لم يأت بكلام يناسب باقى الفصول المذكورة ، بل أتى فيه بكلام فيه غَثَاثَة ، كقوله : ما يستصلحه المولى فهو على عبده حرام ، وشيئاً من هذا

(١) معاد : مصدر بمعنى الرجوع ، مثل العود .

النَّسَق ، وكان الأليق والأحسن أن يحتجّ بحجة فيها روح ، ويذكر كلاما فيه ذلاقة ورشاقة .

وحضر عندى فى بعض الأيام بعض إخوانى ، وجَرَى حديث ذلك ، فسألنى عما كان ينبغى أن يكتب فى هذا الفصل ، فذكرت ماعندى ، وهو : قد علم أن للانبياء والخلفاء خَصَائص يختصون بها على حكم الانفراد ، وليس لأَحد من الناس أن يشاركهم فيها مشاركةَ الأنداد ، وقد أجرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فى أشياء نَصَّ عليها بحكمه ، ومن جملتها أنه نهى غيره أن يجمع بين كنيته وبين اسمه ، وهذا مسوغ لأمير المؤمنين أن يختص بأمر يكون به مشهورا ، وعلى غيره محظورا ، وقد وَسَمَ نفسه بسِمَةٍ نزلت عليه من السماء ، وتميزت به من بين المسميات والأسماء ، ثم استمرت عليها الأيام حتى خوطب بها من الحاضر والباد ، ورفعها الخطباء على المنابر فى أيام الجمع ومواسم الأعياد ، وقد شاركته أنت فيها غير مراقب لمزية التعظيم ، ولا فارق بين فُسْحَة التحليل [1] وحَرَج التحريم [2] ، والشرع والأدب يحكمان عليك بأن تلقى مافرط منك بالمتَاب ، ولا تحوج فيه إلى التقريع الذى هو أشد العتاب ، ومثلك من عرف الحق فأمسكه بيده ، ونسخ إغفال أمسه باستئناف التيقظ فى غده ، والله قد رفع المؤاخذة عمن أتى الشىء خطأً لاعمدا ، وقبل التوبة ممن أخذ على نفسه بالإخلاص عهدا .

فانظر أيها المتأمل كيف جئت بالخبر النبوى ، وجعلته شاهدا على هـذا

---

(١) الفسحة ـ بضم الفاء وسكون السين ـ السعة ، وتقول : لك فى هذا الأمر فسحة ، وفسحة التحليل : السعة التى يقتضيها ، ومراده سائر الألقاب سوى لقب أمير المؤمنين ، وهى كثيرة .

(٢) الحرج ـ بفتح الحاء والراء ـ الضيق والمشقة .

الموضع ؟ ولا يمكن أن يحتج فى مثل ذلك إلا بمثل هذا الاحتجاج ، وما أعلم كيف شذ عن ابن زياد أن يأتى به مع أنه كان كاتبا مفلقا أرتضى كتابته ، ولم أجد فى متأخرى العراقيين من يماثله فى هذا الفن .

وأما النوع الرابع ـ وهو الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور ـ فإن فى ذلك فوائد جمة ؛ لأنه يعلم منه أغراض الناس ، ونتائج أفكارهم ، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم ، وإلى أين ترامت به صنعته فى ذلك ، فإن هـذه الأشياء مما تَشْحَذ القريحة ، وتُذْكى الفطنة ، وإذا كان صاحب هذه الصناعة عارفا بها تصير المعانى التى ذكرت وتعب فى استخراجها كالشىء الْمُلْقَى بين يديه يأخذ منه ما أراد ويترك ما أراد ، وأيضاً فإنه إذا كان مطلعاً على المعانى المسبوق إليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه ، ومن المعلوم أن خواطر الناس وإن كانت متفاوتة فى الجودة والرداءة فإن بعضها لا يكون عالياً على بعض أو منحطاً عنه إلا بشىء يسير ، وكثيرا ما تتساوى القرائح والأفكار فى الإتيان بالمعانى ، حتى إن بعض الناس قد يأتى بمعنى موضوع بلفظ ، ثم يأتى الآخر بعده بذلك المعنى واللفظ بعينهما من غير علم منه بما جاء به الأول ، وهذا الذى يسميه أرباب هذه الصناعة وقوع الحافر على الحافر ، وسيأتى لذلك باب مفرد فى آخر كتابنا هذا ؛ إن شاء الله تعالى .

وأما النوع الخامس ـ وهو معرفة الأحكام السلطانية من الإمامة والإمارة والقضاء والحسبة وغير ذلك ـ فإنما أوجبنا معرفتها والإحاطة بها لما يحتاج إليه الـكاتب فى تقليدات الملوك والأمراء والقضاة والمحتسبين ومن يجرى مجراهم ، وأيضاً فإنه قد يحدث فى الإمامة حادث فى بعض الأوقات : بأن يموت الإمام القائم بأمر المسلمين ، ثم يتولى من بعده من لم تكمل فيه شرائط الإمامة ، أو يكون كامل الشرائط غير أن الإمام الذى كان قبله عهد بها إلى آخر غيره وهو ناقص الشرائط ،

أو يكون قد تنازع الإمامة اثنان ، أو يكون أرباب الحل والعقد قد اختاروا إماما وهم غير كاملى الشرائط التى تجب أن توجد فيهم ، أو يكون أمر غير ماذكرناه ، فتختلف الأطراف فى ذلك ، وينتصب ملك من الملوك له عناية بالإمام الذى قد قام للمسلمين ، فيأمر كاتبه أن يكتب كتابا فى أمره إلى الأطراف المخالفة له ، وإذا لم يكن الكاتب عند ذلك عارفا بالحكم فى هذه الحوادث ، واختلاف أقوال العلماء فيها ، وما هو رخصة فى ذلك وما ليس برخصة ؛ لا يكتب كتابا ينتفع به ، ولسنا نعنى بهذا القول أن يكون الكتاب مقصوراً على فقه مَحْضٍ فقط ؛ لأنا لو أردنا ذلك لما كنا نحتاج فيه إلى كَتْبِ كتاب بلاغى ، بل كنا نقتصر على إرسال مصنف من مصنفات الفقه عوضاً عن الكتاب ، وإنما قصدنا أن يكون الكتاب الذى يكتب فى هذا المعنى مشتملا على الترغيب والترهيب ، والمسامحة فى موضع والمحاقة[1] فى موضع ، مشحوناً ذلك بالنكت الشرعية المبرزة فى قوالب البلاغة والفصاحة ، كما فعل الكاتب الصابى فى الكتاب الذى كتبه عن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه إلى الإمام الطائع لما خلع المطيع ؛ فإنه من محاسن الكتب التى تكتب فى هذا الفن .

وأما النوع السادس ـ وهو حفظ القرآن الكريم ـ فإن صاحب هذه الصناعة ينبغى له أن يكون عارفا بذلك ؛ لأن فيه فوائد كثيرة ، منها أنه يُضَمِّنُ كلامه بالآيات فى أماكنها اللائقة بها ومواضعها المناسبة لها ، ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرَّوْنَق ؛ ومنها أنه إذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المُودَعَة فى تأليف القرآن اتخذه بَحْراً يستخرج منه الدرر

(١) المحاقة : المخاصمة ، وتقول : حاققت فلانا ، إذا خاصمته وناظرته ، وادعى كل واحد منكما الحق قبل الآخر ، فان غلب أحدكما قال : حققتك ، وفى ب ، ج «المحاققة» باظهار التضعيف ؛ وليس بشىء .

والجواهر ويودعها مَطَاوى كلامه ، كما فعلته أنا فيما أنشأته من المكاتبات ، وكفى بالقرآن الكريم وحده آلة وأداة فى استعمال أفانين الكلام ؛ فعليك أيها المتوشح لهذه الصناعة بحفظه والفحص عن سره وغامض رموزه وإشاراته ؛ فإنه تجارة لن تبور ، ومنبع لايغور ، وكنز يرجع إليه ، وذخر يُعَوَّل عليه .

وأما النوع السابع ـ وهو حفظ الأخبار النبوية مما يحتاج إلى استعماله ـ فإن الأمر فى ذلك يجرى مجرى القرآن الكريم ، وقد تقدم القول عليه ، فاعرفه.

وأما النوع الثامن ـ وهو مايختص بالناظم دون الناثر ، وذلك معرفة العروض وما يجوز فيه من الزحاف ومالا يجوز ـ فإن الشاعر محتاج إليه ، ولسنا نوجب عليه المعرفة بذلك لينظم بعلمه ؛ فإن النظم مبنى على الذوق ، ولو نظم بتقطيع الأفاعيل لجاء شعره متكلفا غير مرضى ، وإنما أريد للشاعر معرفة العروض لأن الذوق قد ينبو عن بعض الزحافات ، ويكون ذلك جائزاً فى العروض ، وقد ورد للعرب مثله ، فإذا كان الشاعر غير عالم به لم يفرق بين مايجوز من ذلك وما لا يجوز ، وكذلك أيضاً يحتاج الشاعر إلى العلم بالقوافى والحركات ؛ ليعلم الروى والردف وما يصح من ذلك وما لايصح .

فإذا أ كمل صاحب هذه الصناعة معرفة هذه الآلات ، وكان ذا طبع مجيب وقريحة مُوَاتية ، فعليه بالنظر فى كتابنا هذا ، والتصفح لما أودعناه من حقائق علم البيان ، ونبهنا عليه من أصول ذلك وفروعه ، على أن الذى ذكرناه من هذه الآلات الثمان هو كالأصل لما يحتاج إليه الخطيب والشاعر ، ومعرفته ضرورية لابد منها ، وههنا أشياء أخر هى كالتوابع والروادف .

وبالجملة فإن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى التشبث بكل فن من الفنون ؛ حتى إنه يحتاج إلى معرفة ماتقوله النادبة بين النساء ، والماشطة عند جَلْوَة العروس ، وإلى مايقوله المنادى فى السوق على السلعة ، فما ظنك بما فوق هذا ، والسبب فى ذلك أنه مؤهل لأن يهيم فى كل واد ؛ فيحتاج أن يتعلق بكل فن .

الفصل الثالث

فى الحكم على المعانى

وفائدة هذا الفصل الإحاطة بأساليب المعانى على اختلافها وتباينها ، وصاحب هذه الصناعة مفتقر إلى هذا الفصل والذى يليه ، بخلاف غيرهما من هذه الفصول المذكورة ، لاسيما مفسرى الأشعار ؛ فإنهم به أَعْنَى .

واعلم أن الأصـل فى المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل ، كقوله تعالى : (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) فالظاهر من لفظ الثياب هو مايلبس ، ومن تأول ذهب إلى أن المراد هو القلب ، لاالملبوس ، وهذا لابد له من دليل ؛ لأنه عدول عن ظاهر اللفظ ، وكذلك ورد عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال : إذا أردت أن تصلى فادخل بيتك وأغلق بابك ، فالظاهر من هذا هو البيت والباب ، ومن تأول ذهب إلى أنه أراد أنك تجمع عليك همَّ قلبك وتمنع أن يخطر به سوى أمر الصلاة ، فعبر عن القلب بالبيت ، وعن منع الخواطر التى تخطر له بإغلاق الباب ، وهذا يحتاج إلى دليل ؛ لأنه عدول عن ظاهر اللفظ ؛ فالمعنى المحمول على ظاهره لا يقع فى تفسيره خلاف ، والمعنى المعدول عن ظاهره إلى التأويل يقع فيه الخلاف ؛ إذ باب التأويل غير محصور ، والعلماء متفاوتون فى هذا ، فإنه قد يأخذ بعضهم وجهاً ضعيفاً من التأويل فيكسوه بعبارته قوة تميزه على غيره من الوجوه القوية ؛ فإن السيف بضار به :

إنَّ السُّيُوفَ مَعَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ ... كَقُلُوبِهِنَّ إذَا الْتَقَى الْجَمْعَانِ
تَلْقَى الْحُسَامَ عَلَى جَرَاءَةِ حَدِّهِ ... مِثْلَ الْجَبَانِ بِكَفِّ كُلِّ جَبَانِ

وذهب بعضهم فى الفرق بين التفسير والتأويل إلى شىء غير مرضىّ ، فقال :

التفسير : بيان وضع اللفظ حقيقة ، كتفسير الصراط بالطريق ، والتأويل : إظهار باطن اللفظ ، كقوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) فتفسيره من الرَّصَد ، يقال : رصدته ، إذا رَقَبْته ، وتأويله تحذير العباد من تَعَدِّى حدود الله ومخالفة أوامره ، والذى عندى فى ذلك أنه أصاب فى الآخر ، ولم يصب فى الأول ؛ لأن قوله : « التفسير بيان وضع اللفظ حقيقة » لامستند لجوازه ، بل التفسير يطلق على بيان وضع اللفظ حقيقة ومجازا ؛ لأنه من الفَسْر ، وهو الكَشْف ، كتفسير الرصد فى الآية المشار إليها بالرَّقْبة وتفسيره بالتحذير من تعدّى حدود الله ومخالفة أوامره . وأما التأويل فإنه أحد قسمى التفسير ، وذاك أنه رجوع عن ظاهر اللفظ ، وهو مشتق من الأَوْلِ ، وهو الرجوع ، يقال : آل يئُول ، إذا رجع ، وعلى هذا فإن التأويل خاص والتفسير عام ؛ فكل تأويل تفسير ، وليس كل تفسير تأويلا ، ولهذا يقال : تفسير القرآن ، ومن تفسيره ظاهر و باطن ، وهذا الفصل الذى نحن بصدد ذكره ههنا يرجع أكثره إلى التأويل ؛ لأنه أدق .

ولا يخلو تأويل المعنى من ثلاثة أقسام : إما أن يفهم منه شىء واحد لا يحتمل غيره ، وإما أن يفهم منه الشىء وغيره ، وتلك الغيرية : إما أن تكون ضداً ، أو لا تكون ضداً ، وليس لنا قسم رابع .

فالأوّل يقع عليه أكثر الأشعار ، ولا يجرى فى الدقة واللطافة مجرى القسمين الآخرين .

وأما القسم الثانى : فإنه قليل الوقوع جداً ، وهو من أظرف التأويلات المعنوية ؛ لأن دلالة اللفظ على المعنى وضده أغرب من دلالته على المعنى وغيره مما ليس بضده ، فمما جاء منه قول النبى صلى الله عليه وسلم «صَلَاةٌ فِى مَسْجِدِى هٰذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِى غَيْرِهِ مِنَ الْمَسَاجِدِ إلاَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَام » ؛ فهذا

الحديث يستخرج منه معنيان ضدان : أحدهما أن المسجد الحرام أفضل من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والآخر أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من المسجد الحرام : أى أن صلاة واحدة فيه لا تفضل ألف صلاة فى المسجد الحرام ، بل تفضل مادونها ، بخلاف المساجد الباقية فإن ألف صلاة فيها تقصر عن صلاة واحدة فيه .

وكذلك جاء قول النبى صلى الله عليه وسلم أيضاً « من كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَاشِئْتَ » وهذا يشتمل على معنيين ضدين : أحدهما أن المراد به إذا لم تفعل فعلا تَسْتَحى منه فافعل ماشئت ، والآخر أن المراد به إذا لم يكن لك حياء يَزَعُك[1] عن فعل مايُسْتَحَى منه فافعل ماشئت ، وهذان معنيان ضدان أحدهما مدح والآخر ذم .

ومثله ورد فى الحديث النبوى أيضاً ، وذلك أنه ذكر شُرَيْح الحضرمى عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « لا يَتَوَسَّدُ الْقُرْآن » وهذا يحتمل مدحا وذما ؛ أما المدح فالمراد به أنه لاينام الليل عن القرآن فيكون القرآن متوسداً معه لم يتهجد به ، وأما الذم فالمراد به أنه لايحفظ من القرآن شيئاً ، فإذا نام لم يتوسد معه القرآن ، وهذان التأويلان من الأضداد .

وكثيراً مايرد أمثال ذلك فى الأحاديث النبوية .

ويجرى على هذا النهج من الشعر قول أبى الطيب فى قصيدة يمدح بها كافورا

وأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا ... لِمَنْ بَاتَ فِى نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

وهذا البيت يستخرج منه معنيان ضدان : أحدهما أن المنعَم عليه يحسُدُ المنعِمَ ، والآخر أن المنعِمَ يحسد المنعَمَ عليه .

---

(١) يزعك : يكفك ويزجرك وينهاك .

وكذلك ورد قوله أيضاً من قصيدة يمدحه :

فإنْ نِلْتُ ما أمَّلْتُ منكَ فرُبَّما شَرِبْتُ بماءٍ يُعْجِزُ الطَّيْرَ وِرْدُهُ

فإن هذا البيت يحتمل مدحا وذما ، وإذا أخذ بمفرده من غير نظر إلى ماقبله فإنه يكون بالذم أولى منه بالمدح ؛ لأنه يتضمن وصف نواله بالبعد والشذوذ ، وصدر البيت مفتتح بإن الشرطية ، وقد أجيب بلفظة رب التى معناها التقليل : أى لست من نوالك على يقين ، فإن نلته فربما وصلت إلى مَوْرِدٍ لايصل إليه الطير لبعده ، وإذا نظر إلى ماقبل هذا البيت دل على المدح خاصة ؛ لارتباطه بالمعنى الذى قبله .

وكثيرا ما كان يقصد المتنبى هذا القسم فى شعره ، كقوله من قصيدة أولها :

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بكلِّ لِسَانِ وَلَوْ كَانَ مِنْ أعْدائِكَ القَمَرَانِ

ولله سِرٌّ فى عُلاكَ وإنَّما كلامُ العِدا ضَرْبٌ مِنَ الهَذَيَانِ

ثم قال :

فَمَالَكَ تُعْنَى بالأسِنَّةِ والقَنَا وَجَدُّكَ طَعَّانٌ بِغَيْرِ سِنَانِ !؟

فإن هذا بالذم أشبه منه بالمدح ؛ لأنه يقول : لم تبلغ مابلغته بسعيك واهتمامك ، بل بجَدٍّ وسعادة ، وهذا لا فضل فيه ؛ لأن السعادة تنال الخامل والجاهد ، ومن لايستحقها ، وأكثر ما كان المتنبى يستعمل هذا القسم فى قصائده الكافوريات .

وحكى أبو الفتح بن جنى قال : قرأت على أبى الطيب ديوانه ، إلى أن وصلت إلى قصيدته التى أولها :

* أُغالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ والشَّوْقُ أغْلَبُ *

فأتيت منها على هذا البيت ، وهو :

وَمَا طَرَبِى لَمَّا رَأَيْتُكَ بِدْعَةٌ لَقَدْ كُنْتُ أرْجُو أنْ أرَاكَ فَأطْرَبُ

فقلت له : يا أبا الطيب ، لم تزد على أن جعلته أبا رنة ، فضحك لقولى .

وهذا القسم من الكلام يسمى الموجّه : أى له وجهان ، وهو مما يدل على براعة الشاعر وحسن تأتيه .

وأما القسم الثالث فإنه يكون أكثر وقوعا من القسم الثانى ، وهو واسطة بين طرفين ؛ لأن القسم الأول كثير الوقوع ، والقسم الثانى قليل الوقوع ، وهذا القسم الثالث وسط بينهما .

فمما جاء منه قوله تعالى : (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُم) فإن هذا له وجهان من التأويل : أحدهما القتل الحقيقى الذى هو معروف ، والآخر هو القتل المجازى ، وهو الإكباب على المعاصى ، فإن الإنسان إذا أكبّ على المعاصى قتل نفسه فى الآخرة .

ومن ذلك ماورد فى قصة إبراهيم وذبح ولده عليهما السلام ، فقال الله تعالى حكاية عنه : (وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ. رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَابُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَاتُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحٰقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) فقوله تعالى : (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحٰقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) قد يكون بشارة بنبوته بعد البشارة بميلاده ، وقد يكون استئنافا بذكره بعد ذكر إسمعيل عليه السلام وذبحه ، والتأويل متجاذب بين هذين الأمرين ، ولا دليل على الاختصاص بأحدهما ، ولم يرد فى القرآن مايدل على أن الذبيح إسمعيل ولا إسحق عليهما السلام ، وكذلك لم يرد فى الأخبار التى صَحَّتْ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما مايروى عنه أنه قال « أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ » فخارج عن الأخبار الصحيحة ، وفى التوراة أن إسْحٰق عليه السلام هو الذبيح .

ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لأزواجه « أَطْوَلُكُنَّ يَداً أَسْرَعُكُنَّ لُحُوقاً بي » فلما مات صلوات الله عليه جعلن يطاولن بين أيديهن حتى ينظرن أيتهن أطول يدا ، ثم كانت زينب أسرعهن لحوقا به ، وكانت كثيرة الصدقة ، فعلمن حينئذ أنه لم يرد الجارحة ، وإنما أراد الصدقة ؛ فهذا القول يدل على المعنيين المشار إليهما .

ومن ذلك ماروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عَشْرَ سنين فلم يقل لشيء فعلتهُ لِمَ فَعَلْتَهُ ولا لشيء لم أفعله لِمَ لافَعَلْتَهُ ، وهذا القول يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبر على خلق من يصحبه ، والآخر أنه وصف نفسه بالفطنة والذكاء فيما يقصده من الأعمال ، كأنه متفطن لما فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فيفعله من غير حاجة إلى استئذانه .

ومن ذلك ماورد فى الأدعية النبوية ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم دعا على رجل من المشركين فقال : « اللَّهُمَّ اقْطَعْ أَثَرَهُ » وهذا يحتمل ثلاثة أوجه من التأويل : الأول أنه دعا عليه بالزمانة ، لأنه إذا زمن لايستطيع أن يمشى على الأرض ، فينقطع حينئذ أثره ؛ الوجه الثانى : أنه دعا عليه بأن لا يكون له نسل من بعده ولا عقب ؛ الوجه الثالث : أنه دعا عليه بأن لا يكون له أثر من الآثار مطلقاً وهو أن لايفعل فعلا يبقى أثره من بعده كائناً ما كان من عقب أو بناء أو غِرَاس أو غير ذلك .

وظَفِرَتِ الْحَرُورِيَّةُ برجل فقالوا له : ابْرَأْ من على وعثمان ، فقال : أنا من على ومن عثمان أبرأ ، فهذا يدل على معنيين : أحدهما أنه برىء من عثمان وحده ، والآخر أنه برىء منهما جميعاً ، والرجل لم يرد إلا الوجه الأول .

ومن ذلك مايحكى عن عبد المسيح بن بُقَيْلَة لما نزل بهم خالد بن الوليد على الحيرة ، وذاك أنه خرج إليه عبد المسيح بن بُقيلة ، فلما مثل بين يديه قال : أنْعِمْ صباحا أيها الملك ، فقال له خالد : قد أغنانا الله عن تحيتك هذه بسلام عليكم ، ثم قال له : من أين أقصى أثرك ؟ قال : من ظهر أبى ، قال : فمن أين خرجت ؟ قال : من بطن أمى ، قال : فعلام أنت ؟ قال : على الأرض ، قال : فقيم أنت ؟ قال : فى ثيابى ، قال : ابن كم أنت ؟ قال : ابن رجل واحد ، قال خالد : مارأيت كاليوم قط ، أنا أسأله عن الشيء وهو ينحو فى غيره ، وهذا من توجيه الكلام على نمط حسن ، وهو يصلح أن يكون جوابا لخالد عما سأل ، ويصلح أن يكون جوابا لغيره مما ذكره عبد المسيح بن بُقَيْلة .

وقد ورد فى التوراة أن لايؤكل الجدى بلبن أمه ، وهذا يحتمل التحريم فى وجهين : أحدهما ما دل عليه ظاهر لفظه ، وهو تحريم لحم الجدى بلبن أمه خاصة ، وإذا أكل بلبن غير لبن أمه جاز ذلك ، ولم يكن حراما ، وهذا لايأخذ به أحد من اليهود ، والوجه الآخر ـ وهو الذى يؤخذ به عند اليهود جميعهم ـ أن أكل اللحم باللبن حرام ، كائنا ما كان من اللحوم ، إلا طائفة منهم يسمون القرائين ؛ فإنهم تأولوا فأكلوا لحم الطير باللبن ، وقالوا : إنما حرم اللحم باللبن من اللحوم ذوات الألبان ، والطير من ذوات البيض لامن ذوات الألبان .

ومما يجرى على هذا النهج مايحكى عن أفلاطون أنه قال : ترك الدواء دواء ؛ فذهب بعض الأطباء أنه أراد : إنْ لطف المزاج ، وانتهى إلى غاية لايحتمل الدواء ، فتركه حينئذ والإضراب عنه دواء ، وذهب آخرون إلى أنه أراد بالترك الوضع : أى وضع الدواء على الداء دواء ، يشير بذلك إلى حذق الطبيب فى أوقات علاجه .

ومثله فى الشعر قول الفرزدق :

إذَا جَعْفَرٌ مَرَّتْ عَلَى هَضْبَةِ الْحِمَى فَقَدْ أَخْزَتِ الْأَحْيَاءَ مِنْهَا قُبُورُهَا

وهذا يدل على معنيين : أحدهما ذم الأحياء ، والآخر ذم الأموات ؛ أما ذم الأحياء فهو أنهم خذلوا الأموات ، يريد أنهم تلاقوا فى قتالهم وقوما آخرين ففر الأحياء عنهم وأسلموهم ، أو أنهم استنجدوهم فلم يُنْجدوهم ، وأما ذم الأموات فهو أن لهم مخازى وفضائح توجب عاراً وشنارا ، فهم يعيرون بها الأحياء ويلصقونها بهم .

وعلى هذا ورد قول أبى تمام :

بالشِّعْرِ طُولٌ إذَا اصْطَكَّتْ قَصَائِدُهُ فِي مَعْشَرٍ ، وَبِهِ عَنْ مَعْشَرٍ قِصَرُ

فهذا البيت يحتمل تأويلين : أحدهما أن الشعر يتسع مجاله بمدحك ويضيق بمدح غيرك ، يريد بذلك أن مآثره كثيرة ، ومآثر غيره قليلة ؛ والآخر أنّ الشعر يكون ذا فخر ونباهة بمدحك ، وذا خمول بمدح غيرك ، فلفظة الطول يفهم منها ضد القصر ، ويفهم منها الفخر ، من قولنا : « طال فلان على فلان » أى فخر عليه .

ومما ينتظم بهذا السلك قول أبى كبير الهذلى :

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

وهذا يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما أنه أراد بسعى الدهر سرعة تقضّى الأوقات مُدَّةَ الوصال ، فلما انقضى الوصل عاد الدهر إلى حالته فى السكون والبطء ؛ والآخر أنه أراد بسعى الدهر سعي أهل الدهر بالنمائم والوشايات ، فلما انقضى ما كان بينهما من الوصل سكنوا وتركوا السعاية ، وهذا من باب وضع المضاف إليه مكان المضاف ، كقوله تعالى : (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) أى أهل القرية

ومن الدقيق المعنى فى هذا الباب قول أبى الطيب المتنبى فى عضد الدولة من جملة قصيدته التى أولها :

* أَوْهِ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي وَاهاً *

فقال :

لَوْ فَطِنَتْ خَيْلُهُ لِنَائِلِهِ لَمْ يُرْضِهَا أَنْ تَرَاهُ يَرْضَاهَا

وهذا يستنبط منه معنيان غيران : أحدهما أن خيله لو علمت مقدار عطاياه النفيسة لما رضيت له بأن تكون من جملة عطاياه ؛ لأن عطاياه أنفس منها ، والآخر أن خيله لو علمت أنه يهبها من جملة عطاياه لما رضيت ذلك ؛ إذ تكره خروجها عن ملكه ، وهذان الوجهان أنا ذكرتهما وإنما المذكور منهما أحدهما .

وهذا الذى أشرت إليه من الكلام على المعانى وتأويلاتها كافٍ لمن عنده ذوق وله قوة على حملها على أشباهها ونظائرها .

الفصل الرابع

فى الترجيح بين المعانى

وهذا الفصل هو ميزان الخواطر الذى يوزن به نقد درهمها ودينارها ، بل المِحَكّ الذى يعلم منه مقدار عيارها ، ولا يَزِن به إلا ذو فكرة مُتّقدة ، ولمحة منتقدة ، فليس كل من حمل ميزاناً سمى صَرّافا ، ولا كل من وزن به سمى عَرّافا ، والفرق بين هذا الترجيح والترجيح الفقهى أن هناك يرجّح بين دليلى الخصمين فى حكم شرعى ، وههنا يرجح بين جانبى فصاحة وبلاغة فى ألفاظ ومعان خطابية ؛ وبيان ذلك أن صاحب الترجيح الفقهى يرجح بين خبر التواتر مثلا وبين خبر الآحاد ، أو بين المسند والمرسل ، أو ماجرى هذا المجرى ، وهذا لايعرض إليه صاحب علم البيان ؛ لأنه ليس من شأنه ، ولكن الذى هو من شأنه أن يرجح بين حقيقة ومجاز ، أو بين حقيقتين ، أو بين مجازين ، ويكون ناظراً فى ذلك

كله إلى الصناعة الخطابية ، ولربما اتفق هو وصاحب الترجيح الفقهى فى بعض المواضع ؛ كالترجيح بين عام وخاص ، أو ماشابه ذلك .

وكنا قد قدمنا القول فى الحكم على المعانى وانقسامها ، ولنبين فى هذا الفصل مواضع الترجيح بين وجوه تأويلاتها ؛ فنقول :

أما القسم الأول من المعانى فلا تعلق للترجيح به ، إذ مادل عليه ظاهر لفظه ولا يحتمل إلا وجها واحداً فليس من هذا الباب فى شىء ، والترجيح إنما يقع بين معنيين يدل عليهما لفظ واحد .

ولا يخلو الترجيح بينهما من ثلاثة أقسام : إما أن يكون اللفظ حقيقة فى أحدهما مجازاً فى الآخر ، أو حقيقة فيهما جميعا ، أومجازاً فيهما جميعا ، وليس لنا قسم رابع ، والترجيح بين الحقيقتين أو بين المجازين يحتاج إلى نظر، وأما الترجيح بين الحقيقة والمجاز ، فإنه يعلم ببديهة النظر ؛ لمكان الاختلاف بينهما ، والشيئان المختلفان يظهر الفرق بينهما ، بخلاف مايظهر بين الشيئين المشتبهين .

فمثال الحقيقة والمجاز قوله تعالى : (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَاجَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فالجلود ههنا تفسّر حقيقة ومجازاً : أما الحقيقة فيراد بها الجلود مطلقا ، وأما المجاز فيراد بها الفروج خاصة ، وهذا هو الجانب البلاغى الذى يرجح جانب المجاز على الحقيقة ؛ لما فيه من لطف الكناية عن المكنى عنه ، وقد يسأل ههنا فى الترجيح بين الحقيقة والمجاز عن غير الجانب البلاغى ، ويقال : مابيان هذا الترجيح ؟ فيقال : طريقه لفظ الجلود عام فلا يخلو إما أن يراد به الجلود مطلقا أو يراد به الجوارح التى هى أدوات الأعمال خاصة ، ولا يجوز أن يراد به الجلود على الإطلاق ؛ لأن شهادة غير الجوارح التى هى الفاعلة شهادة باطلة ؛ إذ هى شهادة غير شاهد ، والشهادة هنا يراد بها الإقرار ، فتقول اليد : أنا فعلت كذا وكذا ، وتقول الرِّجْلُ : أنا مشيت إلى كذا وكذا ،

وكذلك الجوارح الباقية تنطق مُقِرّةً بأعمالها ، فترجح بهذا أن يكون المراد به شهادة الجوارح ، وإذا أريد به الجوارح فلا يخلو إما أن يراد به الكل أو البعض ؛ فإن أريد به الكل دخل تحته السمع والبصر ، ولم يكن لتخصيصهما بالذكر فائدة ، وإن أريد به البعض فهو بالفرج أخص منه بغيره من الجوارح ؛ لأمرين : أحدهما أن الجوارح كلها قد ذكرت فى القرآن الكريم شاهدة على صاحبها بالمعصية ماعدا الفرج ، فكان حمل الجلد عليه أولى ؛ ليستكمل ذكر الجميع ؛ الآخر أنه ليس فى الجوارح ما يكره التصريح بذكره إلا الفرج ، فكنى عنه بالجلد ؛ لأنه موضع يكره التصريح فيه بالمسمى على حقيقته .

فإن قيل : إن تخصيص السمع والبصر بالذكر من باب التفصيل ، كقوله تعالى : (فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) والنخل والرمان من الفاكهة .

قلت فى الجواب : هذا القول عليك لا لك ؛ لأن النخل والرمان إنما ذكر التفضيل لهما فى الشكل أو فى الطعم ، والفضيلة ههنا فى ذكر الشهادة إنما هى تعظيم لأمر المعصية ، وغير السمع والبصر أعظم فى المعصية ؛ لأن معصية السمع إنما تكون فى سماع غيبة ، أو فى سماع صوت مزمار أو وتر ، أو ماجرى هذا المجرى ، ومعصية البصر إنما تكون فى النظر إلى محرم ، وكلتا المعصيتين لاحَدَّ فيهما ، وأما المعاصى التى توجد من غير السمع والبصر فأعظم ؛ لأن معصية اليد توجب القطع ، ومعصية الفرج توجب جلد مائة أو الرجم ، وهذا أعظم ، فكان ينبغى أن تخصّ بالذكر دون السمع والبصر ، وإذا ثبت فساد ماذهبت إليه فلم يكن المراد بالجلود إلا الفروج خاصة .

وأما مثال المعنيين إذا كانا حقيقيين فقول النبى صلى الله عليه وسلم: «الْتَمِسُوا الرِّزْقَ فِي خَبَايَا الْأَرْضِ» والخبايا :جمع خَبِيئة ، وهو كل مايخبأ كائنا ما كان ، وهذا يدل على معنيين حقيقيين : أحدهما الكنوز المخبوأة فى بطون الأرض ،

والآخر الْحَرْثُ والغِرَاس ؛ وجانب الحرث والغراس أرجح ؛ لأن مواضع الكنوز لا تعلم حتى تلتمس ، والنبى صلى الله عليه وسلم لا يأمر بذلك ؛ لأنه شىء مجهول غير معلوم ، فبقى المراد بخبايا الأرض مايحرث ويغرس .

وكذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا ابْتَلَّتِ النِّعَالُ فَالصَّلَاةُ فِى الرِّحَال » وهذا الحديث مرخِّص فى ترك صلاة الجماعة بسبب المطر ، وله تأويلان : أحدهما أنه أراد نعال الأرض ، وهو ماغلظ منها ، والآخر أنه أراد الأحذية ، والوجه هو الثانى ؛ لظهوره فى الدلالة على المعنى ، وأكثر العلماء عليه ، ولو كان المراد به ما غلظ من الأرض لخرج عن هذا الحكم كل بلد تكون أرضه سهلة لاغلظ فيها .

وأما مثال المعنيين المجازيين فقول أبى تمام :

قَدْ بَلَوْنَا أَبَا سَعِيدٍ حَدِيثاً ... وَبَلَوْنَا أَبَا سَعِيدٍ قَدِيمَا
وَوَرَدْنَاهُ سَاحِلاً وَقَلِيباً ... وَرَعَيْنَاهُ بَارِضاً وَجَمِيمَا(١)
فَعَلِمْنَا أَنْ لَيْسَ إِلاَّ بِشِقِّ النَّفْسِ صَارَ الْكَرِيمُ يُدْعَى كَرِيمَا

فالساحل والقليب يستخرج منهما تأويلان مجازيان : أحدهما أنه أراد بهما الكثير والقليل بالنسبة إلى الساحل والقليب ، والآخر أنه أراد بهما السبب وغير السبب ؛ فإن الساحل لايحتاج فى ورده إلى سبب ، والقليب يحتاج فى ورده إلى سبب ، وكلا هذين المعنيين مجاز ؛ فإن حقيقة الساحل والقليب غيرهما ، والوجه هو الثانى ؛ لأنه أدل على بلاغة القائل ومدح المقول فيه ، أما بلاغة القائل فالسلامة من هُجْنَة التكرير بالمخالفة بين صدر البيت وعجزه ، فإن عجزه يدلّ على القليل والكثير ، لأن البارض هو أول النبت حين يبدو ، فإذا كثر وتكاثف

---

(١) البارض : أوّل ماتخرج الأرض من النبت قبل أن تتبين أجناسه . والجميم ــ بالجيم ــ النبت إذا عمّ وطال وانتشر .

سمى جميا[١] ، فكأنه قال : أخذنا منه تبرعا ومسألة ، وقليلاً وكثيرا ، وأما مدح المقول فيه فلتعداد حالاته الأربع فى تبرعه وسؤاله وإكثاره وإقلاله ، وما فى معاناة هذه الأحوال من المشاقّ .

فهذا مايتعلق بالترجيح البلاغى بين الحقيقة والحقيقة ، وبين المجاز والمجاز ، وبين الحقيقة والمجاز .

وهٰهنا ترجيح آخر لايتعلق بما أشرنا إليه ؛ إذ هو خارج عما تقتضيه المعانى الخطابية من جهة الفصاحة أو البلاغة ، وذلك أن يرجح بين معنيين أحدهما تام والآخر مقدّر ، أو يكون أحدهما مناسباً لمعنى تقدَّمه أو تأخر عنه ، والآخر غير مناسب ، أو بأن ينظر فى الترجيح بينهما إلى شىء خارج عن اللفظ ؛ فمثال المعنيين المشار إليهما أن المعنى التام هوالذى يدل عليه لفظه ولايتعداه ، وأما المقدر فهو الذى لايدل عليه لفظه بل يستدل عليه بقرينة أخرى ، وتلك القرينة قد تكون من توابعه وقد لاتكون .

فمما جاء من ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم « فِى سائمةِ[٢] الْغَنَمِ زَكَاة » ؛ فهذا اللفظ يستخرج منه معنيان : أحدهما تام ، والآخر مقدر ، فالتام دلالته على وجوب الزكاة فى السائمة لاغير ، والمقدّردلالته على سقوط الزكاة عن المعلوفة ، إلا أنه ليس مفهوما من نفس اللفظ ، بل من قرينة أخرى هى كالتابعة له ، وهى أنه لما خصت السائمة بالذكر دون المعلوفة علم من مفهوم ذلك أن المعلوفة لازكاة فيها ، وللفقهاء فى ذلك مُجاذبات جَدَلية يطول الكلام فيها ،

(١) فى الأصول كلها « سمى حميا » بالحاء المهملة ، وكذا وقع فى رواية بيت أبى تمام هنا ، وليس ذلك بشىء، وإنما هو « جميا » بالجيم .

(٢) السائمة : التى ترعى ، وتقول : سامت الماشية تسوم ، إذا رعت ، وتقول : أسامها صاحبها ، وفى التنزيل : (فِيهِ تُسِيمُونَ) أى تخرجون ماشيتكم لترعاه ، وجمع السائمة سوائم .

وليس هذا موضعها ، والذى يترجح عندى هو القول بفَحْوَى المعنى المقدر ، وهو الذى يسميه الفقهاء مفهوم الخطاب .

وله فى الشعر أشباه ونظائر :

فما ورد من ذلك شعراً قول جَزْء بن كليب الْفَقْعَسى [1] من شعراء الحماسة، وقد خطب إليه ابن كوز ابنته فرده :

تَبَغَّى ابْنُ كُوزٍ وَالسَّفَاهَةُ كَاسْمِهَا لِيَسْتَادَ مِنَّا أَنْ سَنَوْنَا لَيَالِيَا [2]

فَلَا تَطْلُبَنْهَا يَا ابْنَ كُوزٍ فَإِنَّهُ غَذَا النَّاسُ مُذْ قَامَ النَّبِيُّ الْجَوَارِيَا [3]

وهذا البيت الثانى يشتمل على المعنيين التام والمقدر ، أما التام فإن ابن كوز سأل أبا هذه الجارية أن يزوجه إياها فى سَنَة ، والسنة : الجدب ؛ فرده وقال : قد غذا الناسُ البناتِ مذ قام النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنا أيضاً أغذو هذه ، ولولا

---

(١) فى الأصول « جرى بين كاب الفقعسى » ، والذى فى ديوان الحماسة « جرير ابن كليب الفقعسى » ، وقد صوب الشارح نقلا عن أبى محمد الأعرابى أن اسمه «جزء ابن كليب الفقعسى » .

(٢) « ليستاد منا » أى يتقرب إلى السادات منا ، وذلك كناية عن رغبته فى التزوج منهم ، و « سنونا » كذلك هو فى الأصول بالسين المهملة والنون الموحدة ، ومعناه دخلنا فى السنة ، وهى الجدب والقحط ، وفى الحماسة وشرحه «شتونا» بالشين المعجمة والتاء المثناة ، ومعناه دخلنا فى الشتاء ، والشتاء عندهم زمان القحط والجدبة وهم يكنون به عن الجدب ، و « أن شتونا » تعليل : أى لأن نزل بنا الجدب جاء هذا الرجل خاطبا منا .

(٣) فى الحماسة بين هذا البيت والذى قبله بيتان آخران ، وهما قوله :

فَمَا أَكْبَرُ الْأَشْيَاءِ عِنْدِى حَزَازَةً بِأَنْ أُبْتَ مَزْرِيًّا عَلَيْكَ وَزَارِيَا

وَإِنَّا عَلَى عَضِّ الزَّمَانِ الَّذِى تَرَى نُعَالِجُ مِنْ كُرْهِ الْمَخَازِى الدَّوَاهِيَا

وانظر شرح التبريزى على ديوان الحماسة (ج ١ ص ٢٣٦) .

ذلك لَوَأَدْتُها كما كانت الجاهلية تفعل ، وفيه وجه آخر ، وهو أنهم كانوا يَئِدُون البنات قبل الإسلام ، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك ، فقوله « غذا الناس مذ قام النبي الجواريا » أى فى النساء كثرة ، فتزوج بعضهنّ وخَلِّ ابنتى ، وهذان المعنيان هما اللذان دل عليهما ظاهر اللفظ ، وأما المعنى المقدر الذى يعلم من مفهوم الكلام ، فإنه يقول : إن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بإحياء البنات ، ونهى عن الوأد ، ولو أنكحتكها لكنت قد وأدتها ؛ إذ لافرق بين إنكاحك إياها و بين وأدها ، وهذا ذم للمخاطب ، وهو معنى دقيق ، ومجىء المعانى المستخرجة من المفهومة قليل فى الشعر .

وأما ما يستدل عليه بقرينة ليست من توابعه فإن ذلك أدق من الأول ، وألطف مأخذا .

فمما ورد منه قول النبى صلى الله عليه وسلم « مَنْ جُعِلَ قَاضِياً بَيْنَ النَّاسِ فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سكِّينٍ » فهذا يستخرج منه المعنيان المشار إليهما ، فالتام منهما يدل على أنه من جعل قاضياً فقد عرض نفسه لخطر عظيم كالذبح بغير سكين ، وأما المقدر فإنه يدل على أنه من جعل قاضياً فقد أمر بمفارقة هواه ، وهذا لايدل عليه اللفظ بنفسه ، بل يستدل عليه بقرينة أخرى ، ولكنها ليست من توابعه ، ووجه ذلك أن لفظ الحديث عام يشمل القضاة على الإطلاق ، ولا يخلو إما أن يراد به عذاب الآخرة أو عذاب الدنيا ، ولا يجوز أن يكون المراد به عذاب الآخرة ؛ لأنه ليس كل قاض معذباً فى الآخرة ، بل المعذب منهم قضاة السوء ، فوضح بهذا أن المراد بالحديث عذاب الدنيا ، وعلى هذا فلا يخلو إما أن يكون العذاب صورةً أو معنى ، ولا يجوز أن يكون صورة ؛ لأنا نرى الإنسان إذا جعل قاضياً لا يذبح ولا يناله شىء من ذلك ، فبقى أن يكون المراد به عذاباً معنوياً ، وهو الذبح المجازى غير الحقيقى ، وفحوى ذلك أن نفس الإنسان مركبة على حُبِّ

هواها ، فإذا جعل قاضياً فقد أمر بترك ما جُبِل على حبه : من الامتناع عن الرِّشْوَة ، والحكم لصديقه على عدوّه ، ورفع الحجاب بينه و بين الناس ، والجلوس للحكم فى أوقات راحته ، وغير ذلك من الأشياء المكروهة التى تشق على النفس وتجدد لها ألما مُبَرِّحاً ، والذبح هو قطع الحُلْقُوم ، والألم حاصل به ، وهو كالذبح الحقيقى ، بل أشد منه ؛ لأن ألم الذبح الحقيقى يكون لحظة واحدة ثم ينقضى ويزول ، وألم قطع النفس عن هواها يدوم ولاينقضى ، وهو أشد العذاب قال الله فى عذاب أهل النار: (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مايَشْتَهُونَ) وقال فى نعيم أهل الجنة : (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِى الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ) .

وكثيراً ما رأينا وسمعنا من حمله حب الشىء على إتلاف نفسه فى طلبه ، وركوب الأهوال من أجله ، فإذا امتنع عنه مع حبه إياه فقد ذبح نفسه : أى قطعها عنه كما يقطع الذابح حلق الذبيحة ؛ ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « انتقلنا عَنِ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ » فَسَمَّى جهاد الكفار الجهاد الأصغر وجهادَ النفس الجهاد الأكبر ، فكما أن مجاهدة النفس عن هواها قتال بغير سيف فكذلك قطعها عن هواها ذبح بغير سكين ، وهذا موضع غامض ، والترجيح فيه مختص بالوجه الآخر ؛ لاشتماله على المعنى المقصود ، وهو المراد من القضاة على الإطلاق .

وأما مثال المعنيين إذا كان أحدهما مناسباً لمعنى تقدمه أو لمعنى تأخر عنه والآخر غير مناسب ؛ فالأول هو ما كان مناسباً لمعنى تقدمه كقوله تعالى : (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) فالدعاء ههنا يدل على معنيين : أحدهما النهى أن يدعى الرسول باسمه ؛ فيقال : يامحمد ، كما يدعو بعضهم بعضاً بأسمائهم ، وإنما يقال له : يارسول الله ، أو يانبى الله ؛ الآخر النهى أن يجعلوا حضورهم عنده إذا دعاهم لأمر من الأمور كحضور بعضهم عند بعض ،

بل يتأدبون معه ؛ بأن لا يفارقوا مجلسه إلا بإذنه ، وهذا الوجه هو المراد ؛ لمناسبة معنى الآية التى قبله وهو قوله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ) وأما الثانى ، وهو ما كان مناسباً لمعنى تأخر عنه فكقوله تعالى: (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ) فالتين والزيتون هما هذا الشجر المعروف ، وهما اسما جبلين أيضاً ، وتأويلهما بالجبلين أولى ؛ للمناسبة بينهما و بين ما أتى بعدهما من ذكر الجبل الذى هو الطور .

وعلى هذا ورد قول الشاعر فى أبيات الحماسة[1] :

وَلَوْ كُنْتُ مَوْلَى قَيْسِ عَيْلَانَ لَمْ تَجِدْ   عَلَىَّ لِإِنْسَانٍ مِنَ النَّاسِ دِرْهَمَا
وَلَـٰكِنَّنِي مَوْلَى قُضَاعَةَ كُلِّهَا   فَلَسْتُ أُبَالِي أَنْ أَدِينَ وَتَغْرَمَا

فإذا نظرنا إلى البيت الأول وجدناه يحتمل مدحاً وذماً : أى أنهم كانوا يغْنونه بعطائهم أن يدين ، أو أنه كان يخاف الدَّيْنَ حَذَرَ أن لا يقوموا عنه بوفائه ، لكن البيت الثانى حقق أن الأول ذم وليس بمدح[2] ؛ فهذا المعنى لا يتحقق فهمه إلا بآخره .

---

(١) هو شقران – بضم فسكون – مولى بنى سلامان – بفتح السين واللام مخففة – وهم من قضاعة ، وانظر (ص ١٥٢ ج ٤ من شرح التبريزى) .

(٢) أخطأ المؤلف فى ذلك خطأ شنيعا ، لأن الشاعر يقول بعد هذين البيتين :

أُولَـٰئِكَ قَوْمِى بَارَكَ اللهُ فِيهِمُ   عَلَى كُلِّ حَالٍ ، مَا أَعَفَّ وَأَكْرَمَا
ثِقَالُ الْجِفَانِ وَالْحُلُومِ رَحَاهُمُ   رَحَا الْمَاءِ يَكْتَالُونَ كَيْلاً غَذَمْذَمَا

وقد فسر التبريزى البيتين اللذين ذكرهما المؤلف بقوله : « يقول : لو كان ولائى فى قيس عيلان لاقتديت بهم فى الكف عن الإنفاق لئلا يركبنى دين ، ولكن ولائى فى قضاعة ، ومهما أخذت علىّ من الدين غرمت عنى ؛ فلا أبالى فى أى وجه أنفق من وجوه البر » اه ، ولا تظن أن قوله « على كل حال » فى البيت الأول مما أنشدناه لك يشير إلى أنهم بخلاء وأنه راض عنهم مع ذلك ؛ لأن معناه ليس كما يسبق إلى ذهنك ، بل معناه بارك الله فيهم متحوّلين ومتنقلين فى أحوال الدهر وتصاريفه . والغذمذم : الكثير الذى لاحساب له ، بل يكون جزافا .

وأما الذى يكون الترجيح فيه بسبب شىء خارج عن مفهوم اللفظ فقوله تعالى: (وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّمَوَاتِ وَفِى الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ)؛ فهذا مستنبط منه معنيان: أحدهما أن الله يعلم السر والجهر فى السموات والأرض، وفى ذلك تقديم وتأخير: أى يعلم سركم وجهركم فى السموات وفى الأرض؛ والآخر أنه فى السموات، وأنه يعلم السر والجهر فى الأرض من بنى آدم؛ لأن الوقف يكون على السموات ثم يستأنف الكلام، فيقول: يعلم سركم وجهركم فى الأرض، إلا أن هذا يمنع منه اعتقاد التجسيم، وذلك شىء خارج عن مفهوم اللفظ .

الفصل الخامس

فى جوامع الكلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ» فالكَلِم: جمع كَلِمة، والجوامع: جمع جامعة، والجامعة: اسم فاعلة من جَمَعَتْ فهى جامعة، كما يقال فى المذكر: جَمَعَ فهو جامع، والمراد بذلك أنه صلى الله عليه وسلم أوتى الكلم الجوامع للمعانى، وهو عندى ينقسم قسمين: القسم الأول منهما هو ما استخرجته ونبهت عليه، ولم يكن لأحد فيه قول سابق، وهو أن لنا ألفاظا تتضمن من المعنى مالا تتضمنه أخواتها مما يجوز أن يستعمل فى مكانها؛ فمن ذلك ما يأتى على حكم المجاز، ومنه مايأتى على حكم الحقيقة:

أما مايأتى على حكم المجاز فقوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين: «الآنَ حَمِىَ

الْوَطِيسُ » ؛ وهذا لم يسمع من أحد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو أتينا بمجاز غير ذلك فى معناه فقلنا « اسْتعَرَتِ الحربُ » لما كان مؤديا من المعنى مايؤديه « حَمِيَ الْوَطِيسُ » والفرق بينهما أن الوطيس هو التَّنُّور ، وهو موطن الْوَقُود ومجتمع النار ، وذلك يخيل إلى السامع أن هناك صورة شبيهة بصورته فى حميها وتوقدها ، وهذا لايوجد فى قولنا « استعرت الحرب » أو ماجرى مجراه .

وكذلك قال صلى الله عليه وسلم : « بُعِثْتُ فِي نَفَسِ السَّاعَةِ » فقوله « نفس الساعة » من العبارة العجيبة التى لايقوم غيرها مقامها ؛ لأن المراد بذلك أنه بعث والساعة قريبة منه ، لكن قربها منه لايدل على مادل عليه النَّفَسُ ، وذاك أن النفس يدل على أن الساعة منه بحيث يحس بها كما يحس الإنسان بنفَسِ مَنْ هو إلى جانبه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم فى موضع آخر : « بُعِثْتُ أنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ » وجمع بين أصبعيه السَّبَّابة والوسطى ، ولو قال بعثت على قرب من الساعة أو والساعة قريبة منى لما دل ذلك على مادل عليه نَفَسُ الساعة ، وهذا لا يحتاج إلى الإطالة فى بيانه ؛ لأنه بَيِّنٌ واضح .

وقد ورد شىء من ذلك فى أقوال الشعراء الْمُفْلِقِين ، ولقد تصفحت الأشعار قديمها وحديثها ، وحفظت ماحفظت منها ، وكنت إذا مررت بنظرى فى ديوان من الدواوين ويلوح لى فيه مثل هذه الألفاظ أجد لها نَشْوَةً كنشوة الخمر ، وطَرَبًا كطرب الألحان ، وكثير من الناظمين والناثرين يمر على ذلك ولا يتفطن له ، سوى أنه يستحسنه من غير نظر فيما نظرت أنا فيه ، ويظنه كغيره من الألفاظ المستحسنة .

فمما جاء من ذلك قول أبى تمام(١) :

(١) هذان البيتان من قصيدة لأبى تمام يمدح فيها المعتصم ويذكر أخذ بابك ، وأولها قوله :

آلَتْ أمُورُ الشِّرْكِ شَرَّ مَآلِ ... وَأقَرَّ بَعْدَ تَخَمُّطٍ وَصِيَالِ

كَمْ صَارِمٍ عَضْبٍ أَنَافَ عَلَى فَتًى مِنْهُمْ لأَعْبَاءِ الْوَغَى حَمَّالِ (١)
سَبَقَ الْمَشِيبُ إِلَيْهِ حَتَّى ابْتَزَّهُ وَطَنَ النُّهَى مِنْ مَفْرِقٍ وَقَذَالِ (٢)

فقوله « وَطَنَ النهى » من الكلمات الجامعة ، وهى عبارة عن الرأس ، ولا يجاء بمثلها فى معناها مما يسدُّ (٣) مسدَّها .

وكذلك ورد قول البحترى :

قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى أَفْكَارِهِ ، وَيَدٌ تُمْضِى الْأُمُورَ ، وَنَفْسٌ لَهْوُهَا التَّعَبُ

فقوله « قلب يُطِلّ على أفكاره » من الكلمات الجوامع ، ومراده بذلك أن قلبه لا تملؤه الأفكار ، ولا تحيط به ، وإنما هو عالٍ عليها ، يصف بذلك عدمَ احتفاله بالقوادح ، وقلَّةَ مبالاته بالخطوب التى تحدث أفكارا تستغرق القلوب ، وهذه عبارة عجيبة لايؤتى بمثلها مما يسدُّ مسدها .

وأما مايأتى على حكم الحقيقة فكقول ابن الرومى :

سَقَى اللهُ أَوْطَاراً لَنَا وَمَآرِبَا تَقَطَّعَ مِنْ أَقْرَانِهَا مَا تَقَطَّعَا
لَيَالِىَ تُنْسِينِى اللَّيَالِى حِسَابَهَا بُلَهْنِيَةٌ أَقْضِى بِهَا الْحَوْلَ أَجْمَعَا

آلت : رجعت ، والمآل : المرجع ، والتخمط : التكبر ، والصيال : التسلط . وانظر الديوان (ص ٢٥٩) .

(١) وقع هذا البيت محرفا فى أصول هذا الكتاب ؛ فجاء فيها « على قفا » وجاء فيها « منهم لأعبا الوغى » والتصحيح عن الديوان (ص ٢٦٣) .

(٢) ضبط فى الديوان « وطن النهى » بالرفع ، وهوخطأ ، وصوابه نصب « وطن النهى » على أنه مفعول ثان لابتز . والمفرق : وسط الرأس ، والقذال : مؤخره .

(٣) لا ، بل جاء بمثله كناية عن القلب ذلك الذى يقول :

الضَّارِبِينَ بِكُلِّ أَبْيَضَ مِخْذَمٍ وَالطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ الْأَضْغَانِ

سِوَى غِرَّةٍ لَا أَعْرِفُ الْيَوْمَ بِاسْمِهِ وَأَعْمِلُ فِيهِ اللَّهْوَ مَرْأًى وَمَسْمَعَا(١)

فقوله «لا أعرف اليوم باسمه» من الكلمات الجامعة : أى أنى قد شغلت باللذات عن معرفة الليالى والأيام ، ولو وصف اشتغاله باللذات مهما وصف لم يأت بمثل قوله « لا أعرف اليوم باسمه » .

وأما القسم الثانى من جوامع الكلم، فالمراد به الإيجاز الذى يُدَلُّ به بالألفاظ(٢) القليلة على المعانى الكثيرة : أى أن ألفاظه صلوات الله عليه جامعة للمعانى المقصودة على إيجازها واختصارها ، وجُلّ كلامه جارٍ هذا المجرى ؛ فلا يحتاج إلى ضرب الأمثلة به ، وسيأتى فى باب الإيجاز منه مافيه كفاية ومَقْنَع .

فإن قيل : فما الفرق بين هذين القسمين اللذين ذكرتهما؛ فإنهما فى النظر سواء؟

قلت فى الجواب : إن الإيجاز هو أن يؤتى بألفاظ دالة على معنى من غير أن تزيد على ذلك المعنى ، ولا يشترط فى تلك الألفاظ أنها لانظير لها ؛ فإنها تكون قد اتَّصفت بوصف آخر خارج عن وصف الإيجاز، وحينئذ يكون إيجازا وزيادة .

وأما هذا القسم الآخر فإنه ألفاظ أفرادٌ فى حسنها لا نظير لها(٣)، فتارة تكون موجزة، وتارة لا تكون موجزة ، وليس الغرض منها الإيجاز ، وإنما الغرض مكانُها من الحسن الذى لا نظير لها فيه ، ألا ترى إلى قول أبى تمام « وَطَن النهى » فإن ذلك عبارة عن الرأس ، ولا شك أن الرأس أوجز ؛ لأن الرأس لفظة واحدة ، و « وطن النهى » لفظتان ، إلا أن « وطن النهى » أحسن فى التعبير عن الرأس من الرأس ، فبان بهذا أن أحد هذين القسمين غير الآخر .

---

(١) فى الأصول « سوى عزة » وهو تحريف .

(٢) الباء فى قوله « يدل به » دالة على معنى غير المعنى الذى تدل عليه الباء فى قوله «بالألفاظ» ، وهذا أمر حتم ؛ لأنه لا يجوز أن يتعدى الفعل مرتين بحرف جر ومعناه واحد فى المرتين؛ والباء الأولى للاستعانة والثانية للتعدية، والمعنى يدل بالألفاظ القليلة على المعنى الكثير بواسطة الإيجاز .

(٣) أفراد : جمع فرد ، والمراد به المتفرد فى حسنه ؛ وقوله « لانظير لها » هو تفسير لمعنى الأفراد .

الفصل السادس

فى الحكمة التى هى ضالة المؤمن

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الحِكْمَةُ(١) ضالةُ المُؤْمِنِ فهُوَ أحَقُّ بِهَا إذَا وَجَدَهَا » ؛ والمراد بذلك أن الحكمة قد يستفيدها أهلها من غير أهلها ، كما يقال : ربَّ رَمْيةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ ، وهذا لا يخص علما واحداً من العلوم ، بل يقع فى كل علم ، والمطلوب منه هٰهنا هو ما يخص علم البيان من الفصاحة والبلاغة ، دون غيره ، ومذ سمعت هذا الخبر النبوى جعلت كدِّى فى تتبع أقوال الناس فى مفاوضاتهم ومحاوراتهم ، فإنه قد تصدر الأقوال البليغة والحكم والأمثال ممن لا يعلم مقدار مايقوله ، فاستفدت بذلك فوائد كثيرة لا أحصرها عدداً ، وأنا أذكر منها طَرَفاً يستدل به على أشباهه ونظائره .

فمن ذلك أنى سرت فى بعض الطرق وفى صحبتى رجل بَدَوِىٌّ من الأنباط لا يُعْتَدّ بقوله ، فكان يقول : غداً ندخل البلد وتشتغل عنى ، وكان الأمر كما قال ، فدخلت مدينة حلب وشغلت عنه أياماً ، ثم لقينى فقال لى : مَنْ تَرَوَّى فَتَرَتْ عِظامُه ، وهذا القول من الأقوال البليغة ، وهى من الحكمة التى هى الضالة المطلوبة عند مؤمنى الفصاحة والبلاغة .

ثم إنى سمعت منه بعد ذلك شيئاً يناسب قوله الأول ، فإنى سَفَرْت له إلى صاحب فى حلب فى شىء أخذته منه ، فاستقله ، وقال : الماء أرْوَى لِشُدُوق النِّيب(٢) وهذا أيضاً من الحكمة فى بابها .

(١) فى الأصول « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن » وهو زيادة عما ورد فى الحديث.

(٢) الشدوق : جمع شدق ، والشدق ـ بكسر فسكون ـ جانب الفم ، والنيب : جمع ناب ، والناب : الناقة المسنة ، وتجمع أيضا على أنياب ونيوب .

وسافرت مرة أخرى على طريق المناظر ، وكان فى صحبتى رجل بدوى ، فسألته عن مسافة ما بين تَدْمُر وأُراك ، فقال : إذا خرج سَرْحَاهُمَا تلاقَيا[(١)] ، فعبر عن قرب المسافة بينهما بأوجز عبارة وأبلغها .

ثم سألته ليلة من الليالى عن الصبح لنرتحل من موضعنا ، فقال : قد ظهر الصبح إلا أنه لم يملك الإنسان بصره ، وهذا القول من الحكمة أيضاً

وكان تزوج غلام من غلمانى بدمشق ، فوقعت المرأة منه بموقع ، وشُغِفَ بها ، ثم إنى سافرت عن دمشق لمهم عرض لى ، وسافر ذلك الغلام فى صحبتى ، فلما عدنا من السفر شغل بامرأته والمقام عندها ، فسألته عن حاله ، فقال : إنها قد طالت وحَسُنَت ، وهى كذا وكذا ، وأخذ يصفها ؛ فقال أخ له كان حاضراً : يامولاى ، هى تلك لم تزد شيئاً ، وإنما هى فى عينه جَبَّار من الجبابرة[(٢)] ، وهذا القول قد ورد فى بعض أبيات الحماسة ، وهو معدود من أبيات المعانى :

أُهَابُكِ إِجْلَالاً وَمَا بِكِ قُدْرَةٌ عَلَىَّ وَلَـٰكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُهَا

فكثيراً مايصدر مثل هذه الأقوال عن ألسنة الجهال .

وسمعت مايجرى هذا المجرى من بعض العبيد الأحابيش الذين لايستطيعون تقويم صيغ الألفاظ ، فضلاً عما وراء ذلك ، وذاك أنه رأى صبيا فى يده طاقة رَيْحَان ، فقال : هذه طاقة آسٍ تحمل طاقة رَيْحَان ، فلما سمعت ذلك منه أخذتنى هزة التعجب ، وذكرت شعر أبى نُوَاسٍ الذى تواصفه الناس فى هذا المعنى ، وهو قوله :

وَوَرْدَةٍ جَاءَ بِهَا شَادِنٌ فى كَفِّهِ الْيُمْنَى فَحَيَّانَا
سَبَّحْتُ رَبِّى حِينَ أَبْصَرْتُهَا رَيْحَانَةً تَحْمِلُ رَيْحَانَا

---

(١) السرح ــ بفتح السين وسكون الراء ــ المال السائم من إبل وغنم ونحوهما .
(٢) فى ج « من الجبارة » ، وهو تحريف ، والتصويب عن ب .

وحضر عندى فى بعض الأيام رجل نصرانى مَوْسُوم بالطبِّ ، وكان لايحسن أن يقول كلمة واحدة ، وهو أقلف اللسان[١] ، يسىء العبارة ، فسألته عن زيارة شخص وهل يتردد إليه أم لا ، فقال : ظَلَامُ الليل يَهْدِينى إلى باب من أُوَدُّه ، وضوء النهار يَضِلُّ بى عن باب من لا أوده ، وهذا من ألطف المعانى وأحسنها ، وهو من الحكمة المطلوبة .

وكنت قصدت زيارة بعض الإخوان من الأجناد وهو من الأغتام[٢] الأعجام ، فسألته عن حاله ، وكان توالت عليه نكبات طالت أيامها ، وعظمت آلامها ، فقال لى فى الجواب ما معناه : إنه لم يبق عندى ارتياع لوقوع نائبة من النوائب ؛ وهذا معنى لو أتى به شاعر مفلق ، أو كاتب بليغ ؛ لاستحسن منه غاية الاستحسان .

وكنت فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة بأرض فِلَسْطين فى الجيش الذى كان قُبَالة العدو الكافر من الفرنج لعنهم الله ، وتقابل الفريقان على مدينة يافا ، وكان إلى جانبى ثلاثة فرسان من المسلمين ، فتعاقدوا على الحملة إلى نحو العدو ، فلما حملوا صَدَقَ منهم اثنان وتلكأ واحد ، فقيل له فى ذلك ، فقال : الموتُ

---

(١) كذا بالأصول : وهذه العبارة تحتمل معنيين متضادين : أولهما أنه طويل اللسان ، وأصل الأقلف الذى لم يختتن ، ويقال : عام أقلف ، وسنة قلفاء ، إذا كان فيهما الخصب . وثانى المعنيين أنه قصير اللسان من قولهم : قلف الشجرة ، إذا نحى عنها قشرها ، والأول أقرب لقوله بعد «يسىء العبارة» .

(٢) الأغتام : جمع غتم ـ بضم فسكون ـ والغتم : جمع أغتم ؛ وهو الذى لايبين شيئا ،وجمع الجمع مما لايقاس ، ولكن المؤلف أخذ هذه الكلمة من قول المتنبى :

لِلهِ مَافعَـلَ الصَّوَارِمُ والقَنَا   فِى عَمْرِو حَابِ وضَبَّةَ الأَغْتَامِ

طَعامٌ لا تَجُشُّه المَعِدَة[١] فلما سمعت هذه الكلمة استحسنتها ، وإذا هى صادرة عن رجل من أهل بُصْرَى ندم من الأفدام[٢] .

ولو أخذت فى ذكر ماسمعته من هذا لأطلت ، وإنما دللت بيسير ماذكرته على المراد ، وهو أنه يجب على المتصدِّى للشعر والخطابة أن يتتبع أقوال الناس فى محاوراتهم ؛ فإنه لا يعدم مما يسمعه منهم حكماً كثيرة ، ولو أراد استخراج ذلك بفكره لأعجزه .

ويحكى عن أبى تمام أنه لما نظم قصيدته البائية التى أولها :

* عَلَى مِثْلِها مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلاَعِبِ[٣] *

انتهى منها إلى قوله :

يَرَى أقبحَ الأشياءِ أَوْبَةَ آمِلٍ كَسَتْهُ يَدُ المَأْمُولِ حُلَّةَ خائِبِ

ثم قال :

* وَأَحْسَنُ مِنْ نَوْرٍ يُفَتِّحُهُ الصَّبَا *

ووقف عند صدر هذا البيت يُرَدِّدُه ، وإذا سائل يسأل على الباب ، وهو يقول: من بياض عطايا كم فى سواد مطالبنا ، فقال أبو تمام :

* بَيَاضُ العَطَايا فى سَوَادِ المَطَالِبِ *

فأتمّ صدر البيت الذى كان يردده من كلام السائل .

---

(١) جش الشىء يجشه — مثل ردّه يرده — إذا دقه وكسره ، ويقال للسويق : جشيش .

(٢) الأفدام : جمع فدم ؛ والفدم — بفتح فسكون — العيّ الثقيل .

(٣) هذا صدر بيت هو مطلع قصيدة يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى ، وعجزه قوله :

* تُذَالُ مَصُونَاتُ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ *

وانظر الديوان (ص ٤٠) .

وسمعت امرأة قد توفى لها ولد ، وهو بكرها الذى هو أول أولادها ، فقالت : كيف لا أحزن لذهابه وهو أوَّلُ دِرْهَمٍ وَقَعَ فى الكيس ، فأخذت أنا هذا المعنى وأودعته كتاباً من كتبى فى التعازى ، وهو كتاب كتبته إلى بعض الإخوان وقد توفى بكره من الأولاد ؛ فقلت : وَهُوَ أولُ دِرْهَمٍ ادَّخَرْتَهُ فِى كِيس الادِّخَارِ ، وأعْدَدْتَهُ لحوادث الليل والنهار .

وبلغنى عن الشيخ أبى محمد بن أحمد المعروف[1] بابن الخشاب البغدادى ، وكان إماما فى علم العربية وغيره؛ فقيل : إنه كان كثيرا مايقف على حلق القصاص والمشعبذين ، فإذا أتاه طلبة العلم لا يجدونه فى أكثر أوقاته إلا هناك ، فليم على ذلك ، وقيل له : أنت إمام الناس فى العلم ، وما الذى يبعثك على الوقوف بهذه المواقف الرذيلة ؟ فقال : لو علمتم ما أعلم لما لُمْتُمْ ، ولطالما استفدت من هؤلاء الجهال فوائد كثيرة [فإنه[2]] تجرى فى ضمن هَذَيَانهم معانٍ غريبة لطيفة ، ولو أردت أنا وغيرى أن نأتى بمثلها لما استطعنا ذلك ، ولا شك أن هذا الرجل رأى مارأيته ، ونظر إلى مانظرت إليه .

الفصل السابع

فى الحقيقة والمجاز

وهذا الفصل مهم كبير من مهمات علم البيان ، لا ، بل هو علم البيان بأجمعه ؛ فإن فى تصريف العبارات على الأسلوب المجازى فوائد كثيرة ، وسيرد بيانها فى

---

(١) فى الأصول « أبى محمد أحمد بن أحمد » وابن الخشاب النحوى هو أبو محمد عبد الله بن أحمد .

(٢) زيادة يدعو إليها حسن نظام الكلام .

مواضعها من هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالى ، وقد نبهنا فى هذا الموضع على جملتها دون تفصيلها .

فأما الحقيقة فهى : اللفظ الدالّ على موضوعه الأصلى .

وأما المجاز فهو ماأريد به غَيْرُ المعنى الموضوع له فى أصل اللغة ، وهو مأخوذ من جَازَ من هذا الموضع إلى هذا الموضع؛ إذا تخطَّاه إليه ؛ فالمجاز إذاً اسْمٌ للمكان الذى يُجَاز فيه كالْمَعَاج والْمَزَار وأشباههما ، وحقيقته هى الانتقال من مكان إلى مكان ، فجعل ذلك لنقل الألفاظ من محلّ إلى محل ، كقولنا : زيدٌ أسدٌ ؛ فإن زيدا إنسان ، والأسد هو هذا الحيوان المعروف ، وقد جُزْنا من الإنسانية إلى الأسدية : أى عَبَرْنَا من هذه إلى هذه لوُصْلَة بينهما ، وتلك الوصلة هى صفة الشجاعة ، وقد يكون العبور لغير وُصْلة ، وذلك هو الاتساع ، كقولهم فى كتاب كليلة ودمنة : قال الأسد ، وقال الثعلب ؛ فإن القول لا وُصْلة بينه و بين هذين بحال من الأحوال ، و إنما أجرى عليهما اتساعا محضاً لاغير ، ولهذا مثال فى المجاز الحقيقى الذى هو المكان المجاز فيه ، فإنه لايخلو إما أن يجاز من سَهْل إلى سَهْل ، أو من وَعْر إلى وَعْر ، أو من سهل إلى وَعْر ؛ فالجواز من سهل إلى سهل أو من وعر إلى وعر هو كقولنا : زيد أسد ؛ فالمشابهة الحاصلة[١] فى ذات بَيْنِهِمَا كالمشابهة الحاصلة فى المكان ، والجواز من سهل إلى وعر كقولهم : قال الأسد ، وقال الثعلب ، فكما أنه لامشابهة بين القول و بين هذين ، فكذلك لامشابهة بين السهل والوعر ، وسيأتى كَشْفُ الغطاء عن ذلك و إشباعُ القول فى تحقيقه فى باب الاستعارة ، فليؤخذ من هناك .

---

(١) فى الأصول « فالمشابهة حاصلة ــ إلخ» وهو تحريف سببه ظن الناسخين أن قوله « حاصلة » خبر ، والصواب ما أثبتناه ؛ والخبر هو قوله « كالمشابهة ــ إلخ » .

وقد ذهب قوم إلى أن الكلام كله حقيقة لامجاز فيه ، وذهب آخرون إلى أنه كله مجاز لاحقيقة فيه ، وكلا هذين المذهبين فاسد عندى .

وسأجيب الخصم عما ادعاه فيهما ، فأقول :

محل النزاع هو أن اللغة كلها حقيقة أو أنها كلها مجاز ، ولا فرق عندى بين قولك إنها كلها حقيقة أو إنها كلها مجاز ، فإن كلا الطرفين عندى سواء ؛ لأن منكرهما غير مسلّم لهما ، وأنا بصدد أن أبين أن فى اللغة حقيقة ومجازا ، والحقيقة اللغوية هى حقيقة الألفاظ فى دلالتها على المعانى ، وليست بالحقيقة التى هى ذات الشىء أى نفسه وعينه ؛ فالحقيقة اللفظية إذاً هى دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له فى أصل اللغة ، والمجاز هو نقل المعنى عن اللفظ الموضوع له إلى لفظ آخر غيره .

وتقرير ذلك بأن أقول :

المخلوقات كلها تفتقر إلى أسماء يستدل بها عليها ؛ ليعرف كل منها باسمه ، من أجل التفاهم بين الناس ، وهذا يقع ضرورة لابد منها ؛ فالاسم الموضوع بإزاء المسمى هو حقيقة له ، فإذا نقل إلى غيره صار مجازا ، ومثال ذلك أنا إذا قلنا شمس أردنا به هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء ، وهذا الاسم له حقيقة ؛ لأنه وضع بإزائه ، وكذلك إذا قلنا بحر أردنا به هذا الماء العظيم المجتمع الذى طعمه ملح ، وهذا الاسم له حقيقة ؛ لأنه وضع بإزائه ، فإذا نقلنا الشمس إلى الوجه المليح استعارةً كان ذلك له مجازاً لاحقيقة ، وكذلك إذا نقلنا البحر إلى الرجل الجواد استعارةً كان ذلك له مجازاً لاحقيقة .

فإن قيل : إن الوجه المليح يقال له شمس ، وهو حقيقة فيه ، وكذلك البحر يقال للرجل الجواد ، وهو حقيقة فيه .

فالجواب عن ذلك من وجهين : أحدهما نظرىّ ، والآخر وضعىّ ،

أما النظرى فهو أن الألفاظ إنما جعلت أدلة على إفهام المعانى ، ولو كان

ماذهبت إليه صحيحا لكان البحر يطلق على هذا الماء العظيم الملح ، وعلى الرجل الجواد ، بالاشتراك ، وكذلك الشمس أيضاً ؛ فإنها كانت تطلق على هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء ، وعلى الوجه المليح ، بالاشتراك ، وحينئذ فإذا ورد أحد هٰذين اللفظين مطلقا بغير قرينة تخصّصه فلا يفهم المراد به ماهو من أحد المعنيين المشتركين المندرجين تحته ، ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك ؛ فإنا إذا قلنا شمس أو بحر وأطلقنا القول لايفهم من ذلك وجه مليح ولا رجل جواد ، وإنما يفهم منه ذلك الكوكب المعلوم وذلك الماء المعلوم ، لاغير ، فبطل إذاً ماذهبت إليه بما بيناه وأوضحناه .

فإن قلت : إن العُرْفَ يخالف ماذهبت إليه ؛ فإن من الألفاظ ما إذا أطلق لم يذهب الفهم منه إلا إلى المجاز دون الحقيقة ، كقولهم الغائط ، فإن العرف خصص ذلك بقضاء الحاجة دون غيره من المطمئن من الأرض .

قلت فى الجواب : هذا شىء ذهب إليه الفقهاء ، وليس الأمر كما ذهبوا إليه ؛ لأنه إن كان إطلاق اللفظ فيه بين عامة الناس من إسكاف وحدّاد ونجار وخباز ومن جرى مجراهم فهؤلاء لا يفهمون من الغائط إلا قضاء الحاجة ؛ لأنهم لم يعلموا أصل وضع هذه الكلمة وأنها مطمئن من الأرض ، وأما خاصة الناس الذين يعلمون أصل الوضع فإنهم لا يفهمون عند إطلاق اللفظ إلا الحقيقة لا غير ، ألا ترى أن هذه اللفظة لما وردت فى القرآن الكريم وأريد بها قضاء الحاجة قُرِنَتْ بألفاظ تدل على ذلك ، كقوله تعالى : (أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ) فإن قوله (أو جاء أحد منكم من الغائط) دليل على أنه أراد قضاء الحاجة دون المطمئن من الأرض ، فالكلام فى هذا وأمثاله إنما هو مع علم أصل الوضع حقيقة والنقل عنه مجازاً ، وأما الجهال فلا اعتبار بهم ، ولا اعتداد بأقوالهم .

والعجب عندى من الفقهاء الذين دونوا ذلك على ما دونوه ، وذهبوا إلى ما ذهبوا إليه .

وأما الوجه الوضعى فهو أن المرجع فى هـذا وما يجرى مجراه إلى أصل اللغة التى هى وضع الأسماء على المسميات ، ولم يوجد فيها أن الوجه المليح يسمى شمساً ، ولا أن الرجـل الجواد يسمى بحراً ، وإنمـا أهل الخطابة والشعر توسعوا فى الأساليب المعنوية ، فنقلوا الحقيقة إلى المجاز ، ولم يكن ذلك من واضع اللغة فى أصل الوضع ، ولهذا اختص كل منهم بشىء اخترعه فى التوسعات المجازية .

هذا امرؤ القيس قد اخترع شيئاً لم يكن قبله ؛ فمن ذلك أنه أول من عبر عن الفرس بقوله « قَيْدِ الأَوَابِدِ[1] » ولم يسمع ذلك لأحد من قبله .

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم حنين : « الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ » وأراد بذلك شدة الحرب ؛ فإن الوطيس فى أصل الوضع هو التَّنُّور ، فنقل إلى الحرب استعارةً ، ولم يسمع هذا اللفظ على هذا الوجه من غير النبى صلى الله عليه وسلم .

وواضع اللغة ما ذكر شيئاً من ذلك ؛ فعلمنا حينئذ أن من اللغة حقيقة بوضعه ، ومجازاً بتوسعات أهل الخطابة والشعر .

وفى زماننا هذا قد يخترعون أشياء من المجاز على حكم الاستعارة لم تكن من قبل ، ولو كان هـذا موقوفاً من جهة واضع اللغة لمـا اخترعه أحـد من بعده ، ولا زيد فيه ، ولا نقص منه .

وأما الفرق بينه وبين الحقيقة فهو أن الحقيقة جارية على العموم فى نظائر ؛

---

(١) من ذلك قوله :

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا   بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

والأوابد : الوحوش ، ومعنى كونه قيدها أنه لسرعته لايمكنها الهرب منه ، وهيكل : جسيم .

ألا تَرى أنا إذا قلنا « فلان عالم » صدق على كل ذى علم ، بخلاف (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) لأنه لا يصح إلا فى بعض الجمادات دون بعض ؛ إذ المراد أهل القرية ، لأنهم ممن يصح السؤال لهم ، ولا يجوز أن يقال : واسأل الحجر والتراب ، وقد يحسن أن يقال : واسأل الربع والطلل (١) .

واعلم أن كل مجاز فله حقيقة ؛ لأنه لم يصح أن يطلق عليه اسم المجاز إلا لنقله عن حقيقة موضوعة له ؛ إذ المجاز هو اسم للموضع الذى ينتقل فيه من مكان إلى مكان ، فجعل ذلك لنقل الألفاظ من الحقيقة إلى غيرها .

وإذا كان كل مجاز لا بد له من حقيقة نقل عنها إلى حالته المجازية فكذلك ليس من ضرورة كل حقيقة أن يكون لها مجاز ، فإن من الأسماء مالا مجاز له ، كأسماء الأعلام ؛ لأنها وضعت للفرق بين الذوات لا للفرق بين الصفات .

وكذلك فاعلم أن المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة فى باب الفصاحة

---

(١) من ذلك قول الأعشى :

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبْعَ الْقَوَاءَ فَيَنْطِقُ ... وَهَلْ تُخْبِرَنْكَ الْيَوْمَ بَيْدَاءُ سَمْلَقُ

وقول عنترة :

طال الثَّوَاءُ عَلَى رُسُومِ الْمَنْزِلِ ... بَيْنَ اللَّكِيكِ وَبَيْنَ ذَاتِ الْحَرْمَلِ

فَوَقَفْتُ فِي عَرَصَاتِهَا مُتَحَيِّراً ... أَسَلُ الدِّيَارَ كَفِعْلِ مَنْ لَمْ يُذْهَلِ

وقوله أيضا :

لِمَنْ طَلَلٌ بِوَادِى الرَّمْلِ بَالِ ... مَحَتْ آثَارَهُ رِيحُ الشَّمَالِ

وَقَفْتُ بِهِ وَدَمْعِى مِنْ جُفُونِى ... يَفِيضُ عَلَى مَغَانِيهِ الْخَوَالِى

أُسَائِلُ عَنْ فَتَاةِ بَنِى قُرَادٍ ... وَعَنْ أَتْرَابِهَا ذَاتِ الْجَمَالِ

وَكَيْفَ يُجِيبُنِى رَسْمٌ مُحِيلٌ ... بَعِيدٌ لَا يَعِنُّ عَلَى سُؤَالِى

والبلاغة ؛ لأنه لو لم يكن كذلك لـكانت الحقيقة التى هى الأصل أولى منه حيث هو فرع عليها ، وليس الأمر كذلك ؛ لأنه قد ثبت وتحقق أن فائدة الـكلام الخطابى هو إثبات الغرض المقصود فى نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر إليه عِيَانًا ، ألا ترى أن حقيقة قولنا « زيد أسد » هى قولنا « زيد شجاع » لـكن فرق بين القولين فى التصوير والتخييل وإثبات الغرض المقصود فى نفس السامع ؛ لأن قولنا « زيد شجاع » لا يتخيل منه السامع سوى أنه رجل جرىء مقدام ، فإذا قلنا « زيد أسد » يُخَيَّل عند ذلك صورة الأسد وهيئته وما عنده من البطش والقوة ، ودق الفرائس ، وهـ ا لا نزاع فيه .

وأعجب ما فى العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبيعى فى بعض الأحوال؛ حتى إنها ليَسْمَح بها البخيل ، ويَشْجُع بها الجبان ، ويحكم بها الطائش المتسرع ، ويَجِدُ المخاطب بها عند سماعها نَشْوَةً كنشوة الخمر ، حتى إذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مال أو ترك عقوبة أو إقدام على أمر مهول ، وهذا هو فَحْوَى السحر الحلال ، المستغنى عن إلقاء العصا والحبال .

واعلم أنه إذا ورد عليك كلام يجوز أن يحمل معناه على طريق الحقيقة وعلى طريق المجاز باختلاف لفظه ؛ فانظر : فإن كان لامزية لمعناه فى حمله على طريق المجاز فلا ينبغى أن يحمل إلا على طريق الحقيقة ؛ لأنها هى الأصل والمجاز هو الفرع ، ولا يعدل عن الأصل إلى الفرع إلا لفائدة .

مثال ذلك قول البحترى :

مَهِيبٌ كَحَدِّ السَّيْفِ لَوْ ضُرِبَتْ بِهِ ذُرَى أَجَإٍ ظَلَّتْ وَأَعْلَامُهَا وُهْدُ(١)

---

(١) هو من قصيدة له يصف فيها الذئب وكان قد لقيه ، وأولها قوله :

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا وَفَاءٌ وَلَا عَهْدُ أَمَا لَكُمُ مِنْ هَجْرِ أَحْبَابِكُمْ بُدُّ

ويروى أيضا « لو ضُربَتْ به طُلَى أجَإ » جمع طلية ، وهى العنق ، فهذا البيت لايجوز حمله على المجاز ؛ لأن الحقيقة أولى به ، ألا ترى أن الذرى جمع ذِرْوَة ، وهو أعلى الشىء ، يقال : ذروة الجبل، أعلاه ، والطُّلَى : جمع طلية ، وهى العنق ، والعنق : أعلى الجسد ، ولا فرق بينهما فى صفة العلو هنا ، فلا يعدل إذا إلى المجاز ؛ إذ لامزية له على الحقيقة .

وهكذا كل مايجىء من الكلام الجارى هذا المجرى ؛ فإنه إن لم يكن فى المجاز زيادة فائدة على الحقيقة لايعدل إليه .

الفصل الثامن

فى الفصاحة والبلاغة

اعلم أن هذا باب متعذر على الوالج ، ومسلك متوعر على الناهج ، ولم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول فيه والبحث عنه ، ولم أجد من ذلك ما يعول عليه إلا القليل .

وغاية ما يقال فى هذا الباب : إن الفصاحةَ هى الظهور والبيان فى أصل الوضع اللغوى ، يقال : أفْصَحَ الصُّبح ، إذا ظهر ، ثم إنهم يقفون عند ذلك ، ولا يكشفون عن السر فيه .

وبهذا القول لاتتبين حقيقة الفصاحة ؛ لأنه يعترض عليه بوجوه من الاعتراضات:

ورواية الديوان « مهيبا » بالنصب ، والخطب سهل ، وانظر الديوان (١ - ١٨٥ مصر) .

أحدها : أنه إذا لم يكن اللفظ ظاهرا بينا لم يكن فصيحاً ، ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحاً .

الوجه الآخر : أنه إذا كان اللفظ الفصيح هو الظاهر البين فقد صار ذلك بالنِّسَبِ والإضافات إلى الأشخاص ؛ فإن اللفظ قد يكون ظاهراً لزيد، ولا يكون ظاهراً لعمرو ، فهو إذاً فصيح عند هذا وغير فصيح عند هذا ، وليس كذلك ، بل الفصيح هو فصيح عند الجميع ، لاخلاف فيه بحال من الأحوال ؛ لأنه إذا تحقق حد الفصاحة وعُرِفَ ماهِيَ لم يبق فى اللفظ الذى يختص به خلاف .

الوجه الآخر : أنه إذا جيء بلفظ قبيح ينبو عنه السمع ، وهو مع ذلك ظاهر بين ، ينبغى أن يكون فصيحاً ، وليس كذلك ؛ لأن الفصاحة وصف حسن اللفظ ، لاوصف قبح .

فهذه الاعتراضات الثلاثة واردة على قول القائل : « إن اللفظ الفصيح هو الظاهر البين » من غير تفصيل .

ولما وقفت على أقوال الناس فى هذا الباب ملكتنى الحيرة فيها ، ولم يثبت عندى منها ما أعَوِّل عليه ، ولكثرة ملابستى هذا الفن ومعاركتى إياه انكشف لى السر فيه ، وسأوضحه فى كتابى هذا ، وأحقق القول فيه ؛ فأقول : إن الكلام الفصيح هوالظاهر البين ، وأعنى بالظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لايحتاج فى فهمها إلى استخراج من كتاب لغة ، وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرةً فى كلامهم ، وإنما كانت مألوفة الاستعمال دائرة فى الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حسنها ، وذلك أن أرباب النظم والنثر غَرْبَلوا اللغة باعتبار ألفاظها، وسَبَروا وقسموا ، فاختاروا الحسَنَ من الألفاظ فاستعملوه ، ونفَوْا القبيح منها فلم يستعملوه ، فحسن الألفاظ[1] سبب

(١) فى ب ، ج «فحسن الاستعمال»وهو تحريف لايستقيم معه اتساق الاستنتاج

استعمالها دون غيرها ، واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها و بيانها ؛ فالفصيح إذاً من الألفاظ هو الحسن .

فإن قيل : من أى وجه علم أرباب النظم والنثر الحسن من الألفاظ حتى استعملوه ، وعلموا القبيح منها حتى نفوه ولم يستعملوه ؟

قلت فى الجواب : إن هذا من الأمور المحسوسة التى شاهِدُها من نفسها ؛ لأن الألفاظ داخلة فى حَيِّز الأصوات ؛ فالذى يستلذه السمع منها و يميل إليه هو الْحَسَن ، والذى يكرهه وينفر عنه هو القبيح ؛ ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشَّحْرُور ، ويميل إليهما ، ويكره صوت الغراب ، وينفر عنه ، وكذلك يكره نَهيقَ الحمار ، ولا يجد ذلك فى صَهِيل الفرس ، والألفاظ جارية هذا المجرى ؛ فإنه لاخلاف فى أن لفظة المُزْنَة والدِّيمَة حسنة يستلذها السمع ، وأن لفظة الْبُعَاق[1] قبيحة يكرهها السمع ، وهذه اللَّفَظَات الثلاثة من صفة المطر ، وهى تدل على معنى واحد ، ومع هذا فإنك ترى لفظتى المُزْنَة وَالدِّيمَة وماجرى مجراهما مألوفة الاستعمال ، وترى لفظ الْبُعَاق وماجرى مجراه مَتْرُوكاً لايستعمل ؛ و إن اسْتُعْمِل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أومَنْ ذَوْقُه غيرذوق سليم ، لاجَرَمَ أنه ذم وقدح فيه ، ولم يلتفت إليه ، و إن كان عربيًّا محضًامن الجاهلية الأقدمين ؛ فإن حقيقة الشيء إذا علمت وجب الوقوف عندها ، ولم يُعَرَّجْ على ماخرج عنها .

و إذن ثبت أن الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين ، و إنما كان ظاهراً بينا لأنه مألوف الاستعمال، و إنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه ، وحسنه مُدْرَك بالسمع ، والذى يُدْرَك بالسمع إنما هو اللفظ ؛ لأنه صوت يأتلف عن

(١) البعاق ـ بضم الباء الموحدة بزنة غراب ، وبكسرها بزنة كتاب ، و بفتحها بزنة سحاب ـ هو السيل الدفاع ، وهو من المطر : الذى يفاجئك بوابل .

مخارج الحروف ، فما استلذه السمع منه فهو الحسن ، وما كرهه فهو القبيح ، والحسن هو الموصوف بالفصاحة ، والقبيح غير موصوف بفصاحة ؛ لأنه ضدها لمكان قبحه ، وقد مثلت ذلك فى المثال المتقدم بلفظة الْمُزْنَة والدِّيمَة ولفظة الْبُعَاق ، ولو كانت الفصاحة لأمر يرجع إلى المعنى لكانت هذه الألفاظ فى الدلالة عليه سواء : ليس منها حسن ومنها قبيح ، ولما لم يكن كذلك علمنا أنها تخص اللفظ دون المعنى .

وليس لقائل هٰهنا أن يقول : لا لَفْظَ إلا بمعنى ، فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى ؟ فإنى لم أفصل بينهما ، وإنما خصصت اللفظ بصفة هى له ، والمعنى يجىء فيه ضِمْناً وتَبَعاً .

الوجه الثانى : أن وزن فَعِيل هو اسم فاعل من فعُلَ - بفتح الفاء وضم العين - نحو كَرُمَ فهو كريمٌ ، وشَرُفَ فهو شريف ، ولَطُفَ فهو لطيف ، وهذا مُطَّرِد فى بابه ، وعلى هذا فإن اللفظ الفَصِيح هو اسم فاعل من فَصُحَ فهو فصيح ، واللفظ هو الفاعل للإبانة عن المعنى ، فكانت الفصاحة مختصة به .

فإن قيل : إنك قلت « إن الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين ، أى المفهوم » ، ونرى من آيات القرآن مالا يفهم ماتضمنهُ من المعنى إلا باستنباط وتفسير ، وتلك الآيات فصيحة لا محالة ، وهذا بخلاف ما ذكرته .

قلت : لأن الآيات التى تستنبط وتحتاج إلى تفسير ليس شىء منها إلا ومفردات ألفاظه كلها ظاهرة واضحة ؛ وإنما التفسير يقع فى غموض المعنى من جهة التركيب ، لا من جهة ألفاظه المفردة ، لأن معنى المفردة يتداخل بالتركيب ، ويصير له هيئة تخصه ، وهذا ليس قَدْحاً فى فصاحة تلك الألفاظ ؛ لأنها إذا اعتبرت لفظةً لفظةً وجدت كلها فصيحة : أى ظاهرة واضحة .

وأعجب مافى ذلك أن تكون الألفاظ المفردة التى تركبت منها المركبة واضحة

كلها ، وإذا نظر إليها مع التركيب احتاجت إلى استنباط وتفسير ، وهذا لا يختص به القرآن وحده ، بل في الأخبار النبوية والأشعار والخطب والمكاتبات كثير من ذلك .

وسأورد ههنا منه شيئاً ؛ فأقول : قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «صَوْمُكُمْ يَوْمَ تَصُومُونَ ، وَفِطْرُكُمْ يَوْمَ تُفْطِرُونَ ، وَأضْحَاكُمْ يَوْمَ تُضَحُّونَ » وهذا الكلام مفهومةٌ مفرداتُ ألفاظِهِ ، لأن الصوم والفطر والأضحى مفهوم كله ، وإذا سمع هذا الخبر من غير فكرة قيل : علمنا أن صومنا يوم نصوم ، وفطرنا يوم نفطر ، وأضحانا يوم نضحّى ، فما الذى أعلمنا به مما لم نعلمه ؟ وإذا أمعن الناظر نظره فيه علم أن معناه يحتاج إلى استنباط ، والمراد به أنه إذا اجتمع الناس على أن أول شهر رمضان يوم كذا ، ولم يكن ذلك اليوم أوله ، فإن الصوم صحيح ، وأوله هو ذلك اليوم الذى اجتمع الناس عليه ، وكذا يقال فى يوم الفطر ، ويوم الأضحى .

ولهذا الخبر المشار إليه أشباه كثيرة تفهم معانى ألفاظها المفردة ، وإذا تركبت تحتاج فى فهمها إلى استنباط .

وأما ماورد من ذلك شعراً فكقول أبى تمام :

وَلِهَتْ فَأَظْلَمَ كُلُّ شَىْءٍ دُونَهَا ‌ ‌ ‌ وَأَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَىْءٍ مُظْلِمِ (١)

فإن الوله والظلمة والإضاءة كل ذلك مفهوم المعنى ، لكن البيت بجملته يحتاج فى فهمه إلى استنباط ، والمراد به أنها ولهت فأظلم مابينى وبينها ، لمانالنى من الجزع لولهها ؛

(١) هو من قصيدة له يمدح فيها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابة ، وأولها :

نَثَرَتْ فَرِيدَ مَدَامِعٍ لَمْ تُنْظَمِ ‌ ‌ ‌ وَالدَّمْعُ يَحْمِلُ بَعْضَ شَجْوِ الْمُغْرَمِ

وانظر الديوان (ص ٣١٢) .

كما يقول الجازع : أظلمت الأرض عليّ : أى أنى صرت كالأعمى الذى لايبصر ، وأما قوله « وأضاء منها كل شىء مظلم » أى وضح لى منها ما كان مستترا عنى من حبها إياى .

وكذلك ورد قول أبى عبادة البحترى فى منهزم :

إِذَا سَارَ سُهْباً عَادَ ظَهْراً عَـدُوَّهُ وَكَانَ الصَّدِيقَ بُكْرَةً ذَلِكَ السُّهْبُ (١)

فإن السَّيْر والسُّهْب والظهر والعَدُو والصَّدِيق كل ذلك مفهوم المعنى ، لكن البيت بمجموعه يحتاج معناه إلى استنباط ، والمراد أن هذا المنهزم يرى مابين يديه محبوبا إليه ، وما خلفه مكروهاً عنده ؛ لأنه يطلب النجاة فيؤثر البعد مما خلفه والقرب مما أمامه ، فإذا قطع سهباً وخلَّفه وراءه صار عنده كالعدو ، وقَبْلَ أن يقطعه كان له صديقاً : أى يطلب لقاءه ويحبُّ الدنو منه .

فانظر أيها المتأمل إلى ماذكرته من هذه الأمثلة حتى يثبت عندك ماأردت بيانه .

وأما البلاغة فإن أصلها فى وضع اللغة من الوصول والانتهاء ، يقال : بَلَغْتُ المكان ، إذا انتهيت إليه ، ومَبْلَغُ الشىء : منتهاه ، وسمى الكلام بليغاً من ذلك ؛ أى أنه قد بَلَغَ الأوصاف اللفظية والمعنوية .

---

(١) هو من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن طولون ، ويذكر هرب لؤلؤ ، ودخوله بغداد ، وأولها :

قَلِيلٌ لَهَا أَنِّى بِهَا مُغْرَمٌ صَبُّ وَإِنْ لَمْ يُقَارِفْ غَيْرَ وَجْدٍ بِهَا الْقَلْبُ

وانظر الديوان (ص ٣١ مصر) . والسهب ـ بفتح السين ـ الفلاة ، والسهب ـ بضم السين ـ المستوى من الأرض فى سهولة ، أو الناحية من الفلاة التى لامسلك فيها . و « ظهرا » ظرف ، و « عدوه » إما خبر عاد التى معناها صار ، وإما حال من فاعلها الذى هو ضمير مستتر يعود إلى السهب ، و « الصديق » خبر كان مقدم ، و « ذلك السهب » اسم كان ، و « بكرة » ظرف قابل به « ظهرا » ، وفى الديوان « عذرة » وأظنه محرفا عن « غدوة » .

والبلاغة شاملة للألفاظ والمعانى ، وهى أخص من الفصاحة ، كالإنسان من الحيوان ، فكل إنسانٍ حيوانٌ ، وليس كل حيوان إنسانا ، وكذلك يقال : كل كلام بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغاً .

ويفرق بينها وبين الفصاحة من وجه آخر غير الخاص والعام ، وهو أنها لا تكون إلا فى اللفظ والمعنى بشرط التركيب ؛ فإن اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم البلاغة ، ويطلق عليها اسم الفصاحة ؛ إذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة ، وهو الحسن . وأما وصف البلاغة فلا يوجد فيها ؛ لخلوها من المعنى المفيد الذى ينتظم كلاماً .

مسألة تتعلق بهذا الفصل :

هل أخذ علم البيان من ضروب الفصاحة والبلاغة بالاستقراء من أشعار العرب أم بالنظر وقضية العقل ؟ .

الجواب عن ذلك أنا نقول : لم يؤخذ علم البيان بالاستقراء ، فإن العرب الذين ألفوا الشعر والخطب لا يخلو أمرهم من حالين : إما أنهم ابتدعوا ما أتوا به من ضروب الفصاحة والبلاغة بالنظر وقضية العقل ، أو أخذوه بالاستقراء ممن كان قبلهم .

فان كانوا ابتدعوه عند وقوفهم على أسرار اللغة ، ومعرفة جيدها من رديئها ، وحسنها من قبيحها ، فذلك هو الذى أذهب إليه

وإن كانوا أخذوه بالاستقراء ممن كان قبلهم ، فهذا يتسلسل إلى أول من ابتدعه ولم يَسْتَقْرِه ، فان كل لغة من اللغات لا تخلو من وصفى الفصاحة والبلاغة المختصين بالألفاظ والمعانى ، إلا أن للغة العربية مزية على غيرها ؛ لما فيها من التوسعات التى لا توجد فى لغة أخرى سواها

مسئلة أخرى تتعلق بهذا الفصل أيضاً :

هل علم البيان من الفصاحة والبلاغة جارٍ مجرى علم النحو أم لا ؟

الجواب عن ذلك أنا نقول : الفرق بينهما ظاهر ، وذاك أن أقسام النحو أخذت من واضعها بالتقليد ، حتى لو عكس القضية فيها لجاز له ذلك ، ولما كان العقل يأباه ولا ينكره ؛ فإنه لو جعل الفاعل منصوبا والمفعول مرفوعا قُلِّد فى ذلك كما قلد فى رفع الفاعل ونصب المفعول ؛ وأما علم البيان من الفصاحة والبلاغة فليس كذلك ؛ لأنه استنبط بالنظر وقضية العقل ، من غير واضع اللغة ، ولم يفتقر فيه إلى التوقيف منه ، بل أخذت ألفاظ ومعانٍ على هيئة مخصوصة ، وحكم لها العقل بمزية من الحسن لايشاركها فيها غيرها ، فإن كل عارف بأسرار الكلام من أى لغة كانت من اللغات يعلم أن إخراج المعانى فى ألفاظ حسنة رائقة يلذها السمع ولا يَنْبُوعنها الطبع، خَيْرٌ من إخراجها فى ألفاظ قبيحة مستكرهة ينبوعنها السمع ، ولو أراد واضع اللغة خلاف ذلك لما قلدناه .

فإن قيل: لو أخذت أقسام النحو بالتقليد من واضعها لما أقيمت الأدلة عليها وعلم بقضية النظر أن الفاعل يكون مرفوعا والمفعول منصوبا ؟

فالجواب عن ذلك أنا نقول : هذه الأدلة واهية[1] لاتثبت على مَحَكّ الجدل؛ فإن هؤلاء الذين تَصَدَّوْا لإقامتها سمعوا عن واضع اللغة رفع الفاعل ونصب المفعول من غير دليل أبداه لهم ، فاستخرجوا لذلك أدلة وعللا ، وإلا فمن أين علم هؤلاء أن الحكمة التى دعت الواضع إلى رفع الفاعل ونصب المفعول هى التى ذكروها .

(١) اشتهرت هذه الكلمة عن أدلة النحو وعلله ، وهذه كلمة من لم يمارس هذا العلم الجليل ممارسة الباحث المنقب ، ولم يؤت سعة صدر تسهل عليه احتمال المكاره وركوب الصعاب ؛ فإن آتاه الله نفاذ بصر وقوة عارضة وسعة اطلاع ، وكان مع ذلك عالما باستعمالات العرب خبيرا بما يكثر فى كلامها وما يقل وما يأتى على جهة الندرة والشذوذ ، إذا اجتمعت هذه الأمور لامرىء أدرك تماما أن هذه الأدلة التى يذكرها النحاة أدلة مستقيمة على أحسن وجوه البحث ؛ وإنما الذى دعا المؤلف إلى هذه المقالة ودعا كثيرا غيره إلى مثلها كثرة الترديدات والمجادلات فى الدليل الواحد؛ ولهذا البحث موضع غير هذا .

الفصل التاسع

فى أركان الكتابة

اعلم أن للكتابة شرائط وأركانا :

أما شرائطها فكثيرة ، وهذا التأليف موضوع لمجموعها ، وللقسم الآخر من الكلام المنظوم ، وليس يلزم الكاتب أن يأتى بالجميع فى كتاب واحد ، بل يأتى بكل نوع من أنواعها فى موضعه الذى يليق به ، كما أريناه فيما يأتى من هذا التأليف .

وأما الأركان التى لابدّ من إيداعها فى كل كتاب بلاغى ذى شأن فخمسة:

الأول : أن يكون مطلع الكتاب عليه جدة ورشاقة ؛ فإن الكاتب من أجاد المطلع والمقطع ، أو يكون مبنياً على مقصد الكتاب ، ولهذا باب يسمى باب المبادى والافتتاحات فَلْيُحْذ حَذْوه ، وهذا الركن يشترك فيه الكاتب والشاعر .

الركن الثانى : أن يكون الدعاء المودَعُ فى صدر الكتاب مشتقاً من المعنى الذى بنى عليه الكتاب .

وقد نبهنا على طرف من ذلك فى باب يخصه أيضاً ، فليطلب من هناك ، وهو مما يدل على حذاقة الكاتب وفطانته ، وكثيراً ماتجده فى مكاتباتى التى أنشأتها ؛ فإنى قَصَدْته فيها وتوخَّيْتُه ، بخلاف غيرى من الكتاب ؛ لأنه ربما يوجد فى كتابة غيرى قليلا ، وتجده فى كتابتى كثيرا .

الركن الثالث : أن يكون خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة ؛ لتكون رقابُ المعانى آخذةً بعضُها ببعض ، ولا تكون مُقْتَضَبَة ، ولذلك باب

مفرد أيضاً يسمى باب التخلص والاقتضاب ، وهذا الركن أيضاً يشترك فيه الكاتب والشاعر .

الركن الرابع : أن تكون ألفاظ الكتاب غير مخلولقة بكثرة الاستعمال ، ولا أريد بذلك أن تكون ألفاظاً غريبة ؛ فإن ذلك عيب فاحش ، بل أريد أن تكون الألفاظ المستعملة مَسْبُوكة سبكا غريبا ، يظن السامع أنها غير ما فى أيدى الناس ، وهى مما فى أيدى الناس ، وهناك مُعْتَرَك الفصاحة التى تظهر فيه الخواطر براعتها ، والأقلام شجاعتها ، كما قال البحترى :

بِاللَّفْظِ يَقْرُبُ فَهْمُهُ فِى بُعْـدِهِ ... عَنَّا وَيَبْعُدُ نَيْـلُهُ فِى قُرْبِهِ (١)

وهذا الموضع بعيد المنال ، كثير الإشكال ، يحتاج إلى لطف ذوق وشهامة خاطر ، وهو شبيه بالشىء الذى يقال : إنه لاداخل العالم ولاخارج العالم ، فلفظه هو الذى يستعمل ، وليس بالذى يستعمل : أى أن مفردات ألفاظه هى المستعملة المألوفة ، ولكن سبكه وتركيبه هو الغريب العجيب .

وإذا سموت أيها الكاتب إلى هذه الدرجة ، واستطعمت طعم هذا الكلام المشار إليه ؛ علمت حينئذ أنه كالروح الساكنة فى بدنك التى قال الله فيها : (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى) وليس كل خاطر بِرَاقٍ إلى هذه الدرجة ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ومع هذا فلا تظن أيها الناظر فى كتابى أنى أردت بهذا القول إهمال جانب المعانى ، بحيث يؤتى باللفظ الموصوف بصفات الحسن والملاحة ولا يكون تحته من المعنى مايماثله ويساويه ، فإنه إذا كان كذلك كان كصورة حسنة بديعة فى حسنها

(١) هو من قصيدة له يمدح فيها الحسن بن وهب ، وأولها قوله :

مَنْ سَائِلٌ لِمُعَذِّلٍ عَنْ خَطْبِهِ ... أَوْ صَافِحٌ لِمُقَصِّرٍ عَنْ ذَنْبِهِ

إلا أن صاحبها بليد أبله ، والمراد أن تكون هذه الألفاظ المشار إليها جسما لمعنى شريف ، على أن تحصيل المعانى الشريفة على الوجه الذى أشرت إليه أيسر من تحصيل الألفاظ المشار إليها .

ويحكى عن المبرد رحمه الله تعالى أنه قال : ليس أحد فى زمانى إلا وهو يسألنى عن مشكل من معانى القرآن ، أو مشكل من معانى الحديث النبوى ، أو غير ذلك من مشكلات علم العربية ، فأنا إمام الناس فى زمانى هذا ، وإذا عرَضَت لى حاجة إلى بعض إخوانى وأردت أن أكتب إليه شيئاً فى أمرها أُحْجِم عن ذلك ؛ لأنى أرتِّب المعنى فى نفسى ثم أحاول أن أصوغه بألفاظ مرضية فلا أستطيع ذلك .

ولقد صدق فى قوله هذا ، وأنصف غاية الإنصاف .

ولقد رأيت كثيراً من الجهال الذين هم من السوقة أرباب الحرف والصنائع ، وما منهم إلا مَنْ يقع له المعنى الشريف ، ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنه لا يحسن أن يزاوج بين لفظتين

فالعبارة عن المعانى هى التى تخلب بها العقول ، وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون فى استخراج المعانى ؛ فإنه لا يمنع الجاهل الذى لا يعرف علماً من العلوم أن يكون ذكياً بالفطرة ، واستخراج المعانى إنما هو بالذكاء لا بتعلم العلم .

وبلغنى أن قوماً ببغداد من رعاع العامة يطوفون بالليل فى شهر رمضان على الحارات وينادون بالسحور ، ويخرجون ذلك فى كلام موزون على هيئة الشعر وإن لم يكن من بحار الشعر المنقولة عن العرب ، وسمعت شيئاً منه فوجدت فيه معانى حسنة مليحة ، ومعانى غريبة ، وإن لم تكن الألفاظ التى صيغت به فصيحة [1] .

---

(١) فى ب ، ج «وإن لم تكن الألفاظ التى صيغت به صيغة» ولا يظهر لنافيه وجه

وهذا الركن أيضاً يشترك فيه الكاتب والشاعر .

الركن الخامس : أن لا يخلو الكتاب من معنى من معانى القرآن الكريم والأخبار النبوية ؛ فإنها معدن الفصاحة والبلاغة ، وإيراد ذلك على الوجه الذى أشرت إليه فى الفصل الذى يلى هذا الفصل من حل معانى القرآن الكريم والأخبار النبوية أَحْسَنُ من إيراده على وجه التضمين، وتوخّى ذلك فى كل كتاب عَسِرٌ جداً ، وأنا انفردت بذلك دون غيرى من الكتاب ، فانى استعملته فى كل كتاب ، حتى إنه ليأتى فى الكتاب الواحد فى عدة مواضع منه ، ولقد أنشأت تقليداً لبعض الملوك مما يكتب من ديوان الخلافة ، ثم إنى اعتبرت ما ورد فيه من معانى الآيات والأخبار النبوية ، فكان ما يزيد على الخمسين ، وهذا لا أتكلفه تكلفا ، وإنما يأتى على حسب ما يقتضيه الموضع الذى يذكر فيه ، وقد عرفتك أيها الكاتب كيف تستعمل ما تستعمله من ذلك فى الفصل الذى يأتى بعد هذا الفصل ، فخذه من هناك .

وهذا الركن يختص بالكاتب دون الشاعر ؛ لأن الشاعر لا يلزمه ذلك ؛ إذ الشعر أكثره مدائح ، وأيضاً فإنه لا يتمكن من صوغ معانى القرآن والأخبار فى المنظوم كما يتمكن منه فى المنثور ، ولربما أمكن ذلك فى الشيء اليسير فى بعض الأحيان

وإذا استكملتَ معرفة هذه الأركان الخمسة وأتيت بها فى كل كتاب بلاغى ذى شأن فقد استحققت حينئذ فضيلة التقدم ، ووجب لك أن تسمى نفسك كاتباً .

الفصل العاشر

فى الطريق إلى تعلم الكتابة

هذا الفصل هو كنز الكتابة ومنبعها ، وما رأيت أحداً تكلم فيه بشىء ، ولما حُبِّبَتْ إلى هذه الفضيلة ، وبَلَّغنى الله منها ما بَلَّغنى ؛ وجدت الطريق ينقسم فيها إلى ثلاث شعب :

الأولى : أن يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ، ويطلع على أوضاعهم فى استعمال الألفاظ والمعانى ، ثم يحذو حذوهم ، وهذه أدنى الطبقات عندى ؛

الثانية : أن يمزج كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من زيادة حسنة : إما فى تحسين ألفاظ ، أو فى تحسين معانٍ ، وهذه هى الطبقة الوسطى ، وهى أعلى من التى قبلها ؛

الثالثة : أن لا يتصفح كتابة المتقدمين ، ولا يطلع على شىء منها ، بل يصرف همه إلى حفظ القرآن الكريم وكثير من الأخبار النبوية وعدة من دواوين فحول الشعراء ممن غلب على شعره الإجادة فى المعانى والألفاظ ، ثم يأخذ فى الاقتباس من هذه الثلاثة ، أعنى القرآن والأخبار النبوية والأشعار ، فيقوم ويقع ، ويخطىء ويصيب ، ويضل ويهتدى ، حتى يستقيم على طريقة يفتتحها لنفسه ، وأَخْلِقْ بتلك الطريق أن تكون مبتدعة غريبة لا شركة لأحد من المتقدمين فيها ، وهذه الطريق هى طريق الاجتهاد ، وصاحبها يعد إماما فى فنّ الكتابة ، كما يعد الشافعىّ وأبو حنيفة ومالك رضى الله تعالى عنهم وغيرهم من الأئمة المجتهدين فى علم الفقه ، إلا أنها مستوعرة جداً ، ولا يستطيعها إلا من رزقه الله تعالى لسانا هجاما ، وخاطراً رقاما ، وقد سهّلْتُ لك صعابها ، وذلّلْتُ

مَحَاجّها[١] ، وكنت أشحّ[٢] بإظهار ذلك لما عانيت فى نيله من العناء ؛ فإنى سلكت إليه كل طريق حتى بلغته آخراً ، وإنما تكون نفاسة الأشياء لعزة حصولها ومشقة وصولها :

لَيْسَ حُلْواً وُجُودُكَ الشَّيْءَ تَبْغِيـــهِ طِلاباً حَتَّى يَعِزَّ طِلَابُهْ[٣]

ولقد مارست الكتابة ممارسة كشفت لى عن أسرارها ، وأظفرتنى بكنوز جواهرها ؛ إذ لم يظفر غيرى بأحجارها ؛ فما وجدت أعون الأشياء عليها إلا حل آيات القرآن الكريم والأخبار النبوية ، وحل الأبيات الشعرية ، وقد قصرت هذا الفصل على ذكر وجوهها ، وتقسيمها ، وتمهيد الطريق إلى تعليمها ، فمن وقف على ماذكرته علم أنى لم آت شيئاً فرِيًّا ، وأن الله قد جعل تحت خواطرى من بنات الأفكار سَرِيًّا ، وهذه الطريق يجهلها كثير من متعاطى هذه الصناعة ، والذى يعلمها منهم يرضى بالحواشى والأطراف ، ويقنع من لآلئها بمعرفة مافى الأصداف ، ولو استخرج منها مااستخرجت ، واستنتج مااستنتجت ؛ لهَامَ بها فى كل واد ، وتزود إلى سلوك طريقها كل زاد :

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وَسُجُودَا[٤]

---

(١) المحاج ـ بتشديد الجيم ـ جمع محجة ، والمحجة : المقصد والطريق الذى يسلك
(٢) أشح : أضن ، والشح : البخل ، أو أشده !
(٣) هذا بيت للبحترى من قصيدة له يمدح فيها إسماعيل بن بلبل ، وأولها قوله :

عَادَ لِلصَّبِّ شَجْوُهُ وَاكْتِئَابُهْ بِبِعَادِ الَّذِى يُرَادُ اقْتِرَابُهْ

ورواية البيت الذى ذكره المؤلف فى الديوان هكذا :

لَيْسَ يَحْلُو وُجُودُكَ الشَّيْءَ تَبْغِيـــهِ الْتِمَاساً حَتَّى يَعِزَّ طِلَابُهْ

(٤) هذا البيت لكثير عزة ، وقبله قوله :

رُهْبَانُ مَدْيَنَ وَالَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ يَبْكُونَ مِنْ حَذَرِ الْعَذَابِ قُعُودَا

ولا أريد بهذه الطريق أن يكون الكاتب مرتبطاً فى كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم ، والأخبار النبوية ، والشعر ، بحيث إنه لاينشىء كتابا إلا من ذلك ، بل أريد أنه إذا حفظ القرآن الكريم وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشعار ، ثم نَقَّبَ عن ذلك تنقيب مُطَّلع على معانيه ، مُفَتّش عن دفائنه ، وقَلَّبه ظَهْراً لبطن ؛ عرف حينئذ من أين تؤكل الكتف فيما ينشئه من ذات نفسه ، واستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية ، ألا ترى أن صاحب الاجتهاد من الفقهاء يفتقر إلى معرفة آيات الأحكام ، وأخبار الأحكام ، وإلى معرفة الناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة ، وإلى معرفة علم العربية ، وإلى معرفة الفرائض والحساب من المعلوم والمجهول من أجل مسائل الدور والوصايا وغيرها ، وإلى معرفة إجماع الصحابة ، فهذه أدوات الاجتهاد ، فإذا عرفها استخرج بفكرته حينئذ ما يؤديه إليه اجتهاده ، كما فعل أبو حنيفة والشافعى ومالك وغيرهم من أئمة الاجتهاد ، وكذلك يجرى الحكم فى الكتاب إذا أحب الترقى إلى درجة الاجتهاد فى الكتابة ؛ فانه يحتاج إلى أشياء كثيرة قد ذكرتها فى صدر كتابى هذا ، إلا أن رأسها وعمودها وذِرْوَة سنَامِها ثلاثة أشياء : هى حفظ القرآن الكريم ، والإكثار من حفظ الأخبار النبوية ، والأشعار .

وحيث انتهى بنا القول إلى هذا الموضع فأول ما أبدأ به على عقب ذلك أن أقول :

حل الأبيات الشعرية ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول منها ، وهو أدناها مرتبة ، أن يأخذ الناثر بيتاً من الشعر فينثره بلفظه من غير زيادة ؛ وهذا عيب فاحش ، ومثاله كمن أخذ عِقْداً قد أتقن نظمه وأحسن تأليفه فأوْهاهُ و بَدَّده ، وكان يقوم عذره فى ذلك أن لو نقله عن كونه عقداً إلى صورة أخرى مثله أو أحسن منه ، وأيضاً فانه إذا نثر الشعر بلفظه كان

صاحبه مشهور السرقة . فيقال : هذا شعر فلان بعينه ، لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شيء، وقد سلك هذا المسلك بعض العراقيين فجاء مستهجناً لامستحسنا. كقوله فى بعض أبيات الحماسة :

وَأَلَدَّ ذِى حَنَقٍ عَلَيَّ كَأَنَّمَا تَغْلِى عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِى مِرْجَلِ
أَرْجَيْتُهُ عَنِّى فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ النَّوَاظِرِ مِنْ عَلِ

فقال فى نثر هذين البيتين : فكم لقى ألدّ ذِى حَنَق كأنه ينظر إلى الكواكب من عَل ، وتغلى عداوة صدره فى مرجل ، فكواه فوق ناظريه ، وأكبَّه لفمه ويديه . فلم يزد هذا الناثر على أن أزال رونق الوزن وطلاوة النظم لاغير .

ومن هذا القسم ضرب محمود لاعَيْبَ فيه ، وهو أن يكون البيت من الشعر قد تضمن شيئاً لا يمكن تغيير لفظه ، فحينئذ يعذر ناثره إذا أتى بذلك اللفظ ، ومثاله قول الشاعر فى أول الحماسة :

لوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِلِى بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا

وقد نثرت ذلك فقلت : لست ممن تستبيح إبلَهُ بنو اللقيطة ، ولا الذى إذا هَمَّ بأمر كانت الآمال إليه وسيطة ، ولكنى أحمل الهمل ، وأقرب الأمل ، وأقول : سَبَقَ السَّيْفُ الْعَذَل ؛ فذكر بنى اللقيطة هٰهنا لابد منـــه على حسب ماذكره الشاعر ، وكذلك الأمثال السائرة ؛ فإنه لابد من ذكرها على ماجاءت فى الشعر .

وأما القسم الثانى ، وهو وسط بين الأول والثالث فى المرتبة ، وهو أن ينثر المعنى المنظوم ببعض ألفاظه ، ويعزم[1] عن البعض بألفاظ أخر، وهناك تظهر الصنعة فى المماثلة والمشابهة ومؤاخاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المرتجلة ؛ فإنه إذا أخذ لفظا لشاعر مجيد قد نقحه وصححه فقرنه بما لايلائمه كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة ، ولا خفاء بما فى ذلك من الانتصاب للقدح ، والاستهداف للطعن .

والطريق المسلوك إلى هذا القسم أن تأخذ بعض بيت من الأبيات الشعرية هو أحسن مافيه ثم تماثله .

(١) كذا فى ب ، ج ؛ ولعله « ويعزف » ، ومعناه ينصرف .

وسأورد ههنا مثالا واحداً ليكون قدوة للمتعلم ، فأقول :

قد ورد هذا البيت من شعر أبى تمام فى وصف قصيدة له :

حَذَّاء تَملأُ كُلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً وَبلاَغَةً وَتُدِرُّ كُل وَرِيدِ(١)

فقوله « تملأ كل أذن حكمة » من الكلام الحسن ، وهو أحسن مافى البيت ، فإذا أردت أن تنثر هذا المعنى فلابد من استعمال لفظه بعينه ؛ لأنه فى الغاية القُصْوَى من الفصاحة والبلاغة ، فعليك حينئذ أن تؤاخيه بمثله ، وهذا عسرٌ جدا وهو عندى أصعب منالاً من نثر الشعر بغير لفظه ؛ لأنه مسلك مضيق ؛ لما فيه من التعرض لمماثلة ماهو فى غاية الحسن والجودة ، وأما نثر الشعر بغير لفظه ؛ فذلك يتصرف فيه ناثره على حسب مايراه ، ولا يكون مقيداً فيه بمثال يضطر إلى مؤاخاته .

وقد نثرت هذه الكلمات المشار إليها وأتيت بها فى جملة كتاب فقلت : وكلامى قد عُرِف بين الناس واشتهر ، وفاق مَسِيرَ الشمس والقمر ، وإذا عرف الكلام صارت المعرفة له علامة ، وأمن من سرقته إذ لو سرق لدلت عليه الْوَسَامة ، ومن خصائص صفاته أن يملأ كل أذن حكمة ، ويجعل فصاحة كل لسان عجمة ، وإذا جرت نَفَثَاتُهُ فى الأفهام قالت:أهذه بنت فكرة أم بنت كَرْمَة

فانظر كيف فعلت فى هذا الموضع ؟ فإنى لما أخذت تلك الكلمات من البيت الشعرى التزمت بأن أؤاخيها بما هو مثلها أو أحسن منها ، فجئت بهذا الفصل كما تراه ، وكذلك ينبغى أن يفعل فيما هذا سبيله .

---

(١) هذا بيت من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن أبى دواد ، وأولها قوله :

أَرَأَيْتَ أَىُّ سَوَالِفٍ وَخُدُودِ عَنَّتْ لَنَا بَيْنَ اللِّوَى فَزَرُودِ

وانظر الديوان (ص ٨٢) . و « حذاء » هكذا فى الديوان ، ووقع فى ب ، ج « وحداء » ولها وجه أيضا .

وأما القسم الثالث ، وهو أعلى من القسمين الأولين ، فهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ بألفاظ غير ألفاظه ، وثَمَّ يتبين حذق الصائغ فى صياغته ، ويعلم مقدار تصرفه فى صناعته ؛ فإن استطاع الزيادة على المعنى فتلك الدرجة العالية ، وإلا أحسن التصرف ، وأتقن التأليف ؛ ليكون أولى بذلك المعنى من صاحبه الأول .

واعلم أن من أبيات الشعر مايتسع المجال لناثره ، فيورده بضروب من العبارات ، وذلك عندى شبيه بالمسائل السيالة فى الحساب التى يجاب عنها بعدة من الأجوبة ، ومن الأبيات مايضيق فيه المجال حتى يكاد الماهر فى هذه الصناعة ألاَّ يخرج عن ذلك اللفظ ، وإنما يكون هذا لعدم النظير .

فأما مايتسع المجال فى نثره فكقول أبى الطيب المتنبى :

لاَ تَعْذِلِ الْمُشْتَاقَ فى أَشْوَاقِهِ حَتَّى يَكُونَ حَشَاكَ فى أَحْشَائِهِ (١)

وقد نثرت هذا المعنى ؛ فمن ذلك قولى : لاتَعْذِلِ المحبَّ فيما يَهْوَاه ، حتى تَطْوِىَ القلبَ على ماطَوَاه ؛ ومن ذلك وجه آخر ، وهو : إذا اخْتَلَفَتِ العينان فى النظر ، فالعَذْلُ ضَرْبٌ من الْهَذَر .

ومن هذا الباب قول أبى الطيب المتنبى أيضاً :

إنَّ الْقَتِيلَ مُضَرَّجاً بِدُمُوعِهِ مِثْلُ الْقَتِيلِ مُضَرَّجاً بِدِمَائِهِ (٢)

---

(١) هذا البيت من قصيدة له أولها :

الْقَلْبُ أعلم ياعَذُولُ بِدَائِه وَأَحَقُّ مِنْكَ بِجَفْنِهِ وَبِمَائِهِ

وقد أخذ أبو الطيب هذا المعنى من قول البحترى :

إذا شِئْتَ ألاَّ تَعْذِلَ الدَّهْرَ عَاشِقاً عَلَى كَمَدٍ مِنْ لَوْعَةِ الْبَيْنِ فاعْشَقِ

(٢) هذا البيت من نفس القصيدة التى منها البيت السابق .

أخذت هذا المعنى فنثرته ؛ فمن ذلك قولى : القتيلُ بسيف العيون ، كالقتيل بسيف المَنُون ، غَيْرَ أن ذلك لا يُجَرَّدُ من غِمْدِهِ ، ولا يقاد صاحِبُهُ بعَمْدِهِ ؛ فزدت على المعنى الذى تضمّنه البيت ، وغيرت اللفظ ؛ ومن ذلك وجه آخر ، وهو : دَمْعُ المحبّ ودم القتيل، مُتّفقان فى التشبيه والتمثيل ، ولا تجد بينهما بَوْناً ، إلا أنهما يختلفان لَوْناً . وهذا أحسن من الأول .

وأما مايضيق فيه المجال فيعسر على الناثر تبديل ألفاظه ؛ فكقول أبى تمام :

تَرَدَّى ثِيابَ الْمَوْتِ حُمْراً فَمَا أَتَى لَهَا اللَّيْلُ إلَّاوَهْىَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرِ (١)

وقول أبى الطيب المتنبى :

وكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجنُونِ فَأَصْبَحَتْ وَمِنْ جُثَثِ الْقَتْلَى عَلَيْهَا تَمَائِمُ

وأمثال هذا لا تأتى إلا قليلا ؛ وسببه أن المعنى ينحصر فى مقصد من المقاصد حتى لايكاد يأتى إلا قدا ، كهذين البيتين ، ألا ترى أن أبا تمام قصد المؤاخاة فى ذكر لَوْنى الثياب من الأحمر والأخضر وجاء ذلك واقعاً على المعنى الذى أراده من لون ثياب القتلى وثياب الجنة ، فإذا فك نظم هذا البيت وأريد صوغه بغير لفظه لا يمكن ذلك ، وبيت أبى الطيب جارٍ هذا المجرى ؛ فإنه بناهُ على واقعة من الوقائع ، وذاك أن حصناً من حصون سيف الدولة قَصَدَه الروم وانتزعوه وأخربوه فنَهَدَ(٢) سيف الدولة إليه واسترجعه ، وجَدَّد بناءه ، وهزم الروم ، ونصب من جُثَث القتلى على السور ، فنظم المتنبى فى هذا قصيدا أوله :

---

(١) هذا بيت من قصيدة له مشهورة ، وأولها قوله :

كَذَا فَلْيَجِلَّ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ

وانظر الديوان (ص ٣٦٨)

(٢) تقول : نهد فلان إلى العدو ؛ إذا نهض لقتاله ، وتقول : ناهد فلان عدوه ، إذا ناهضه ، وتقول : تناهدوا فى الحرب ، إذا نهض بعضهم إلى بعض للمحاربة .

* عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تأْتِي الْعَزَائِمُ(١) *

فلما انتهى إلى ذكر الحصن جاء بهذا البيت فى جملة أبيات ؛ فشرح صورة الحال فى إزعاج الحصن بالقتال ، وتعليق القتلى عليه ، وأبرز ذلك فى معنى التمثيل بالجنون والتمائم ، وهذا لا يمكن تبديل لفظه ؛ وهو وأمثاله مما يجب على الناثر أن يحسن الصنعة فى فكّ نظامه ؛ لأنه يتصدى لنثره بألفاظه ؛ فإن كان عنده قُوَّةُ تصرف و بَسْطَةَ عبارة فإنه يأتى به حسناً رائقاً .

وقد نثرت هٰذين البيتين : أما بيت أبى تمام فإنى قلت فى نثره : لم تَكْسُهُ المنايا نَسْجَ شِفَارِها ، حتى كسته الجنة نسج شعارها ؛ فَبُدِّلَ أَحْمَرَ ثوبه بأخضره ، وكأسَ حِمامه بكأس كَوْثَره ؛ وهذا من الحسن على غاية يكون كَمَدُ حسودها ، من جملة شهودها ؛ وأما بيت أبى الطيب المتنبى فإنى قلت فى نثره : سَرَى إلى حصن كذا مُسْتَعِيداً منه سَبِيَّةً نزعها العدو اخْتِلَاساً ، وأَخذها مُخَادعة لا افتراسا ، فما نزلها حتى استقادها ، ولا نزلها حتى استعادها ، وكأنما كان بها جُنُون فبعث لها من عزائمه عزائم ، وعَلّق عليها من رءوس القتلى تمائم .

وفى هذا من الحسن ما لا خفاء به ؛ فمن شاء أن ينثر شعراً فلينثر هكذا ، وإلاَّ فليترك .

وقد جئت بهذا المعنى على وجه آخر ، وأبرزته فى صورة أخرى ، وذاك أنى أضفت إلى هذا البيت البيتَ الذى قبله ، وهو :

بناها فَأَعْلَى وَالْقَنَا تَقْرَعُ الْقَنَا وَمَوْجُ الْمَنَايَا حَوْلَهَا مُتَلَاطِمُ

ولما نثرت هٰذين البيتين قلت فى نثرهما ما أذكره ، وهو :

بَنَاهَا والأَسِنَّةُ فى بنائها مُتَخَاصِمة ، وأمواجُ المنايا فوق أيدى البانين مُتلَاطمة ،

---

(١) هذا صدر البيت ، وعجزه قوله :

* وَتأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ *

وما أحلت الحرب عنها[١] حتى زلزلت أقطارها بركض الجياد ، وأصيبت بمثل الجنون فعُلِّقَتْ عليها تمائم من الرءوس والأجساد ، ولا شك أن الحرب تُعرِّدُ[٢] عمن عَزَّ جانبه ، وتقول : ألا هكذا فَلْيَكْسِبِ المجدَ كاسبه .

وهذا أحسن من الأول وأتم مَعْنًى .

وقد تصرفت فى هذا الموضع بزيادة فى معناه ، ونثرته على أسلوب أحسن من هذا الأسلوب ، فقلت : بنَاهَا ودون ذلك البناء شَوْكُ الأَسَل ، وطُوفَانُ المنَايَا الذى لايقال سَآوِى مِنْهُ إلى جَبَل ، ولم يكن بناؤها إلا بعد أن هدِّمت رءوس عن أعناق ، وكأنما أصيبت بجنون فعلقت القتلى عليها مكان التمائم أو شِينَتْ بعَطَلٍ فعلقتَ مكانَ الأَطْوَاق .

وهذا الفصل فيه زيادة على الفصل الذى قبله .

وإذ انتهى بنا الكلام إلى هٰهنا فى التنبيه على نثر الشعر، وكيفية نثره، وذكر ما يَسْهُل منه وما يعسر ؛ فلنَتْبَعْ ذلك بقول كُلِّيٍّ فى هذا الباب ؛ فنقول :

مَنْ أحبَّ أن يكون كاتبا ، أو كان عنده طبع مُجيب ؛ فعليه بحِفْظِ الدواوين ذوات العدد ، ولا يقنع بالقليل من ذلك ، ثم يأخذ فى نثر الشعر من محفوظاته ، وطريقه أن يبتدئ فيأخذ قصيداً من القصائد ؛ فينثره بيتاً بيتاً على التوالى ، ولا يستنكف فى الابتداء أن ينثر الشعر بألفاظه أو بأكثرها ؛ فإنه لايستطيع إلا ذلك ، وإذا مَرَنت نفسه ، وتَدَرَّب خاطره ؛ ارتفع عن هذه الدرجة ، وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ، ثم يرتفع عن ذلك حتى يكسوه ضروبا من العبارات المختلفة ، وحينئذ يَحْصُل لخاطره بمباشرة المعانى لِقَاحٌ

---

(١) كذا ؛ ولعله « وما أجلت الحرب فيها » .

(٢) تعرد — بالعين المهملة — تنكل وتتأخر ، ومنه قول الشاعر :

ظَنَنْتُكَ إنْ شُبَّتْ لَظَى الْحَرْبِ صَالِياً ... فَعَرَّدْتَ فِيمَنْ كَانَ عَنْهَا مُعَرِّدَا

ووقع فى ب ، ج « تغرد » بالغين معجمة .

فيستنتج منها معانى غير تلك المعانى ، وسبيله أن يكثر الإدْمان ليلا ونهارا ، ولا يزال على ذلك مدة طويلة ، حتى يصير له ملكة ، فإذا كتب كتابا أو خَطَب خطبة تدفَّقَت المعانى فى أثناء كلامه ، وجاءت ألفاظه مَغْسُولة لا مَغْسُولة ، وكان عليها حدَّة حتى تكاد ترقص رقْصاً ، وهذا شىء خَبَرْتُه بالتجربة ، ولا ينبئك مثل خبير .

فإن قيل : الكلام قسمان : منظوم ، ومنثور ؛ فلم حَضَضْتَ على حفظ المنظوم وجعلته مادة للمنثور ، وهلا كان الأمر بالعكس ؟

قلت فى الجواب : إن الأشعار أكثر ، والمعانى فيها أغزر ، وسبب ذلك أن العرب الذين هم أصل الفصاحة جل كلامهم شعر ، ولا نجد الكلام المنثور فى كلامهم إلا يسيرا ، ولو كثر فإنه لم ينقل عنهم ، بل المنقول عنهم هو الشعر ، فأودعوا أشعارهم كل المعانى ، كما قال الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ ثم جاء الطراز الأول من الْمُخَضْرَمِين فلم يكن لهم إلا الشعر ، ثم استمرت الحال على ذلك ، فكان الشعر هو الأكثر ، والكلام المنثور بالنسبة إليه قَطْرَة من بحر ، ولهذا صارت المعانى كلها مودعة فى الأشعار ، وحيث كانت بهذه الصورة ، فكان حَقِّى على حفظها واستعمال معانيها فى الخطب والمكاتبات لهذا السبب .

وقد نثرت فى هذا الموضع أبياتا تكون قدوة للمتعلم :

فمن ذلك قولى فى فصل من فصول الكلام يتضمن ذكر السيادة ، وهو : الشريف من شَرُفَ بنفسه ، لا بما دفن مع أبيه فى رَمْسِه ؛ فإن تلك مكارم أتت فتجمل الزمان بمأتاها ، ثم مات أربابها فدفنت مع موتاها ، ولو ساد الناس بآبائهم لكانت السيادة للطينة الأولى ، ولقد خلق الأبناء من الآباء مجبولا ،

وهذا المعنى مأخوذ من قول الشاعر :

وَمَا الْفَخْرُ بِالْعَظْمِ الرَّمِيمِ ، وَإِنَّمَا فَخَارُ الَّذِى يَبْغِى الْفَخَارَ بِنَفْسِهِ

غير أن الفصل الذى ذكرته يتضمن من المعنى زيادة على ماتضمنه هذا البيت .

ومن ذلك ما كتبته فى فصل من كتاب يتضمن معاتبة أخ لإخْوَته وتنصّله إليهم ، فقلت : جَرَحُوا قلبى وحبهم يذهب بألم الجراحة ، وطَرَفُوا عَيْنى وهم يزيدون فى نظرها ملاحة ، وإذا صَدَرَت الإساءة عن الأحباب لم يكن وَقْرُها وَقْرا ، وأصبحت وهى مَنْسِيَّة إذا تجدَّدت الإساءة بالذكرى ، وما منهم إلا من سِيطَ دمى بدمه ولحمى بلحمه ، ولولا أن الأسماء معارف الأشخاص لكان اسمى وارداً على اسمه ، وكيف أَخْشُنُ عليهم وقد جبلنى الله لهم على اللين ، أم كيف أَذُودُ النفس عنهم وهى مشتقة منهم وآدم بين الماء والطين ، ومتى أؤمل من شَجَرَتى أغصانا كهٰذه الأغصان ، وقد أصيبت جرثومتها بالْجِدَاد ، ولهذا قيل : إن الإخوة يتعذر الاعتياض عنهم ولا يتعذر الاعتياض عن الأولاد .

آخر هذا الفصل مأخوذ من شعر ابن الرومى ، وهو قوله :

تَعَزَّيْتَ عَمَّنْ أَثْمَرَتْكَ حَيَاتُهُ وَوَشْكُ التَّعَزِّى عَنْ ثِمَارِكَ أَجْدَرُ

تَعَذَّرَ أَنْ نَعْتَاضَ عَنْ أُمَّهَاتِنَا وَأَبْنَائِنَا وَالنَّسْلُ لَايَتَعَذَّرُ

غير أن ابن الرومى ذكر ذلك فى تعزية إنسان بابنه ، فتصرفت أنا فى هذا المعنى ونقلته إلى هذا الفصل فى تضمنه معاتبة أخ لإخوته .

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب يتضمن ذم المشيب ، فقلت : والعيشُ كل العيش فى سن الحداثة ، وما يأتى بعدها فلا يدعى إلا بسن الْغَثَاثَة ، وليس بعد الأربعين من مَصِيفٍ للذة ولا مَرْبَع ، وهى نهاية القوة الصالحة من الطبائع الأربع ، فإذا تجاوزها المرء أشْفَتْ ثمار عمره على خَرْصِها ، وصارت زيادته كزيادة التصغير التى هى زيادة تدل على نقصها ، وأصبح بعد ذلك يدعى أبا بعد أن كان يدعى ابنا ، وتَقَمَّصَ ثوبا من المشيب لايجر ثوبه خُيلاء ولا يُزْهى به حسناً ، وإن قيل إن أحسن الثياب شِعَار الْبَيَاض قيل إلا هذا الثوب فإنه

مُسْتَثْنى ، ويكفيه من الفظاعة أن ينظر الأحباب إليه نظر الْقتَال ، ولولا أن الخمود بعده لما استعير له لفظة الاشتعال ، ومن الناس من يُدَلّس لونه بصبغة الخضاب ، وليس ذلك إلا حداداً على فقد الشباب ، وهو فى فعله هذا كاذب ولا يخفى أنْسُ الصادق من وَحْشَة الكذاب ، وخداعُ النفس أن تسلو عن بئره الْمُعَطّلة وقَصْرِه الْمَشِيد ، ويُحَسّن لها الخروجَ فى ثوب مُرَقَّع وهى تراه بعين الثوب الجديد .

و بعض هذا مأخوذ من شعر ابن الرومى ، وهو قوله :

رَأَيْتُ خِضَابَ الْمَرْء بَعْدَ مَشِيبِهِ   حِدَاداً عَلَى شَرْخِ الشَّبِيبَةِ يُلْبَسُ

غير أن فى هذا الفصل معانى كثيرة لطيفة لاتوجد فى كلام آخر .

ومن ذلك قولى فى وصف الجود والسخاء ، وهذا الفصل يشتمل على معان متعددة ؛ فمنها قولى فى العطاء ، وهو: شافهتْنِى أسبابُ الغنى برؤيته حتى كادت تنطق ، واخضَرَّتْ أكنان منزلى بعَطَائِه حتى كادت تُورِقُ ، ومن فضيلة بره أنه لايأتى به على أعْيُن الناس ، و إذا غَرَسَه عند إنسان رَبَّ ذلك الغراس ؛ فلا يستكثر ماجادت به سحابُ يده ، ولا يمنعه عطاء يومه عن عطاء غَدِه .

و بعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبى نُوَاس :

كَانُوا إِذَا غَرَسُوا سَقَوْا وَإِذَا بَنَوْا   لَمْ يَهْدِمُوا لِبِنَائِهِمْ أُسَسَا

ومن هذا المعنى أيضاً قولى ، وهو : أخذ المكارمَ من سمائها وأرضها ، وقام بنَفْلها فى الناس وفَرْضِها ، وتحلى ببعض أسماء الشهور حتى أصبح بعضها حاسداً لبعضها ، فالمحرَّمُ للعائذ بحَرَمِهِ ، وصفرللطامع فى سعادة قدَمه ، وربيع لرائدِ نوَالِهِ ، ورَجَب لأقوال عُذّاله .

وهذا مأخوذ من قول الفرزدق :

يَدَاكَ يَدٌ رَبِيعُ النَّاسِ فِيهَا   وَفِى الْأُخْرَى الشهور من المحرم

وقد قال الشعراء فى ذلك كثيراً ، إلا أنى أنا تَصرَّفت فى هـــذا المعنى تصرفا لم يتصرف فيه أحد غيرى .

ومن هذا المعنى ماذكرته فى فصل من كتاب ، وهو : ولَقَدْ سَوَّى بين أعدائه فى البغض و بين أمْوَاله ؛ فهٰذه مَعْنِيَّةٌ بوقع نِصَاله ، وهذه مَعْنِيَّةٌ[١] بصَنَائع نَوَاله ، ولو أحَبَّ المال لـكان أحَبَّه إليه مايبذله ، كما أن أحبَّ الناس إليه مَنْ يسأله ، ومِنْ أحْسَنِ ماسَنَّه من الـكرم أنه جَادَ حتى بَدَّل رَغَبَ العَافِينَ[٢] زُهْدًا ، ورأى الحمد عِوَضاً من الصنيعة فأبى أن يعتاض من صنائعه حَمْدًا .

و بعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبى نواس ، وهو :

لَيْتَ أعْدَائِى كَانُوا لأبى إسْـحٰقَ مَالاَ

ومن ذلك قولى فى وصف القتال وموطن الحرب ووصف الشجاعة والأنجاد ، وما يتعلق بذلك و يجرى معه ، وهذا الفصل يشتمل على معانى مختلفة :

فمن ذلك ماذكرته فى وصف العسكر ، وهو : فسرنا فى غَمَامَةٍ من الـكتائب ، تُظِلُّها غَمَامَةٌ من الطيور الأشائب ، فهٰذه يَضُمُّهَا بَحْرٌ من حَدِيد ، وهذه يضمها بحر من صعيد[٣] وما مَرَّتْ ببلد إلا أزالت أرضه من سمائه ، وَألبسَتْ نهارَهُ ثوب ظلْمائه ، وبَدَّلت أحراره بعبيده وحرائره بإمائه ، وكذلك فعلت

---

(١) « معنية » بالعين المهملة فى هذه الفقرة والتى قبلها ـ وهو اسم مفعول من عناه يعنيه ؛ إذا قصده ، وكأنه قال : إن أعداءه مقصودة بوقع نصاله ، وأمواله مقصودة بصنائع نواله ، والصنائع : جمع صنيعة ، والنوال : العطاء . ووقع فى ب ، ج « مغنية » بالغين المعجمة .

(٢) الرغب ـ بفتح الراء والغين المعجمة ـ الرغبة . ووقع فى ب ، ج « رغب العارفين » وهوتحريف بزيادة الراء ـ والعافين : جمع عاف ، والعافى : طالب المعروف .

(٣) قال ابن أبى الحديد « إن الصعيد وجه الأرض ، والطيور التى تظل الجيش إنما يضمها بحر من الجوّ والهواء ، لامن الأرض » اهـ .

بمدينة فلانة وقد ضرب الأمنُ عليها أسوارا ، وَبَعُدَ عهدها بالنوائب فلم تدخل لها دياراً ، فهى تخبر عن بلهنية الخفض ولم تُرَعْ عنه بالانتقال ، ولا رأت السيف وقد ألقى لونه فى ذوائب الأطفال(١) ، فما شعر أهلها إلا وقد رجمها الجيش بكاهله ، ورماها بوابله قبل طله وطَلِّ السحاب قبل وابله ، وبرزت خيلُ القوم ولها زِيُّ فُرسانها ، وهى مستبقة إلى طِرادِها كاستباقها إلى مَيْدانها ، إلا مَنْ تتأوّدُ القناة من يده بين لهذمين ، وتستقلّ السرج منه ومن جواده بين مُطَهَّمَيْن ، فجرت المغاوير إلى المغاوير ، وتلاقت الرياح بالأعاصير ، وكان الطعن بينهم عناقا ، واللبث وفاقا ، وسبق ألم الموت ألم الجراح ، ونفذت غيرَ مُخَضَّبةٍ لسرعتها أسِنَّةُ الرماح ، وحصل القوم [فى] القبْضَة ، وذمُّوا عقْبى النهضة ، وجىء بالأسرى مقرَّنين فى الأصفاد ، موقنين أن رءوسهم عَوَارٍ على تلك الأجساد ، ولو استطاع رأس أحدهم أن ينكر عنقه لأنكره ، ولا يود وهو المعظم أن يقال ما أعظمه بل يقال ما أحقره ، وتصرفت أيدى المسلمين فى القتل والنهاب ، وكان للسيف رقاب وللسبى رقاب .

فى هذا الفصل معان كثيرة مستحسنة ، ومنها ما أخذ من شعر المتنبى ، كقوله :

سَحَابٌ مِنَ العقْبانِ تَزْحَفُ تحتها ... سَحَابٌ إذا استسقت سقتها صوارِمُهْ(٢)

(١) لون السيف : البياض ، والذوائب : جمع ذؤابة ، وهى شعر الرأس ، يريد أنه أشاب الأطفال ، وهذا ينظر إلى قوله تعالى : (يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً) .

(٢) من قصيدة له مطلعها :

وَفاؤُكما كالرَّبْعِ أشجاهُ طاسِمُهْ ... بأنْ تسعِدَا والدَّمْعُ أشفاهُ ساجِمُهْ

وكقوله :

واسْتعارَ الحَدِيدُ لَوْناً وأَلْقَى ... لَوْنَهُ فى ذَوائِبِ الأَطْفالِ (١)

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف المسلوبين فى فصل من جملة كتاب يتضمن البُشْرَى بهزيمة الكفار ، وهو : فسُلِبوا وعاضتهم الدماء عن اللباس ، فهم فى صورة عارٍ وزيُّهُمْ زىُّ كاس ، وما أسرع ماخيط لهم لباسها المحمر ، غير أنه لم يُجَبْ عليهم ولم يُزَرْ ، وما لبسوه حتى لبس الإسلام شعار النصر ، الباقى على الدهر ، وهو شعار نَسَجَه السِّنَان الخارق ، لا الصَّنَع الحاذق ، ولم يغب عن لابسه إلا ريثما غابت البيض فى الطلَى والهام ، وألَّفَ الطعن بين ألف الخط واللام

وهذه معان حسنة رائقة ، ومنها معنى واحد مأخوذ من شعر البحترى ؛ وهو:

سُلِبوا وأَشْرَقَتِ الدِّماءُ عَلَيْهِمُ ... مُحْمَرَّةً فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يُسْلَبُوا (٢)

ومن ذلك ما ذكرته فى صدر كتاب يتضمن فتحاً ، وهو : أُصْدِرُ هذا الكتاب والفتح غضٌّ طرىٌّ لم تنصل حمرة يومه ، ولا أغمدت سيوف قومه ، فسطوره مُتَرَّبَة بمثارِ عجاجه ، ممتلئة بخط ضربه وإعجام زجاجه .

وهذا المعنى ينظر إلى قول أبى تمام :

كتَبْتَ أَوْجُهَهُمْ مَشْقاً وَنَمْنَمَةً ... ضرْباً وَطَعْناً يُقَاتُ الهامَ والصُّلُفا (٣)

---

(١) هذا البيت من قصيدة له مطلعها :

صِلَةُ الهَجْرِ لِى وَهَجْرُ الوِصَالِ ... نَكَسَانِى فِى السُّقْمِ نَكْسَ الهِلاَلِ

(٢) من قصيدة له مطلعها :

عَارَضْنَنَا أُصُلاً فَقُلْنَا الرَّبْرَبُ ... حَتّى أَضَاءَ الأُقْحُوَانُ الأَشْنَبُ

وانظر الديوان (ص ٦٢ مصر) .

(٣) من قصيدة يمدح فيها أبا دلف ، ومطلعها :

أَمَّا الرُّسُومُ فَقَدْ أَذْكَرْنَ مَاسَلَفَا ... فَلاَ تَكُفَّنَّ عَنْ شَأْنَيْكَ أَوْ يَكِفَا

كِتَابَةً مَاتَنِي مَقْرُوءَةً أَبَدًا وَمَا خَطَطْتَ بِهَا لَامًا وَلَا أَلِفَا[١]

إلا أن أبا تمام مثل آثار الضرب والطعن فى الوجوه بالكتابة ، وأنا مثلت الكتابة وإعجامه بالضرب والطعن ، فكأننى عكست المعنى الذى ذكره أبو تمام ، وهذا مقصد فى حل الأبيات الشعرية حسن ، فإن استخراج المعنى من عكسه أدقّ من استخراجه من نفسه ، وقد نبهت على ذلك فى مواضع أخر من هذا الباب .

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب يتضمن فتحاً من فتوح الكفار ، وهو : وأقبلَتْ أحزاب الكفر وهى معتصمة بصليبها ، ورفعته على أعواد عالية كهيئة خطيبها ، ولم تعلم أن الله كتب عليه الهوان بعد تلك الكرامة ، وأنه ذو شُعَبٍ أَرْبَع والتربيعُ نحسٌ فى حكم التَّنْجَامة[٢] وكيف ترجو بكفرها ظهوراً ولهَا منه معنى الاختفاء وللاسلام معنى السلامة ؛ ولما التقى الجمعان اصْطَفَقَتْ يمين وشمال ، وزحفت جبال إلى جبال ، وكثرت النفوس على المنايا حتى كادت لا تفى بالآجال ، وأقدمت الخيل إقدام فُرْسانِها ، وأظلم النقع فلا تُبْصَر إلا بآذانها ، ونالت النحور ثارها من كعوب الرماح ، واشتكت الأسِنَّة فلا طريق بينها لمهبّ الرياح ، واسْتُؤْصِلت شجرة الكافرين بالقطع لا بالْجِذَاد ، وحال حدُّ السيف دون حديد الأصفاد ، ونقلوا إلى جهنم يَصْلَوْنَها وبئس المِهاد ، وانقلب المسلمون وقد مَلَئُوا الأغماد نصراً ، والصحائف أجراً ، والأيدى وقْراً ، والقلوب جَذَلاً والألسنة شكراً ، وكان ذلك اليوم فى الأيام عَلَما ، وفى الأقسام

---

(١) المشق : مد الحروف ، والهام : جمع هامة ، وهى الرأس ، والصلف : جمع صليف ، وهو عرض العنق ، وانظر الديوان (٢٠٠ - ٢٠٣ بيروت).

(٢) قال ابن أبى الحديد : « لفظة النجامة لفظة رديئة مستفلة ، على أنا لانعرف صحتها وجوازها ، ولا سمعناها اسما للتنجيم ، ولا مصدرا » اه

قسما ، ولم يره الزمان منسوبا إليه إلا راجع شبابا بعد أن ناهز هرَمًا .

فى هذا الفصل شىء من معانى الشعر ، وذلك من قول أبى الطيب المتنبى (١) :

أَتَاهُمْ بِأَوْسَعَ مِنْ أَرْضِهِمْ طِوَالَ السَّبِيبِ قِصَارَ الْعُسُبْ (٢)

تَغِيبُ الشَّوَاهِقُ فِى جَيْشِهِ وَتَبْدُو صِغَاراً إِذَا لَمْ تَغِبْ (٣)

وَلاَ تَعْبُرُ الرِّيحُ فِى جَوِّهِ إِذَا لَمْ تَخَطَّ الْقَنَا أَوْ تَثِبْ (٤)

ومن قوله أيضا (٥) :

فِى جَحْفَلٍ سَتَرَ الْعُيُونَ غُبَارُهُ فَكَأَنَّمَا يُبْصِرْنَ بِالآذَانِ (٦)

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ، وكان سيف الدولة قد كتب إليه يستدعيه ، وأولها قوله :

فَهِمْتُ الْكِتَابَ أَبَرَّ الْكُتُبْ فَسَمْعاً لأَمْرِ أَمِيرِ الْعَرَبْ

وَطَوْعاً لَهُ وَابْتِهَاجاً بِهِ وَإِنْ قَصَّرَ الْفِعْلُ عَمَّا وَجَبْ

(٢) « أتاهم » الضمير يعود إلى الدمستق المذكور فى قوله :

وَغَرَّ الدُّمُسْتُقَ قَوْلُ الْعُدَا ةِ إِنَّ عَلِيًّا ثَقِيلٌ وَصِبْ

والسبيب : شعر الناصية والعرف والذنب . والعسب ـ بضم العين والسين المهملتين ـ جمع عسيب ، وهو منبت الذنب من الجلد والعظم . ويستحب فى الخيل أن يطول شعر ذنبها ويقصر عظمه .

(٣) الشواهق : جمع شاهق ، وهو الجبل العالى ؛ وتبدو : تظهر .

(٤) الجو : الهواء ، وتخط : مضارع أصله من الخطو ، تقول : تخطيته أتخطاه ، وتثب : ترتفع

(٥) من قصيدة له يقولها عند منصرفه من بلاد الروم سنة خمس وأربعين وثلثمائة ، وأولها :

الرَّأْىُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلٌ وَهِىَ الْمَحَلُّ الثَّانِى

(٦) الجحفل : الجيش العظيم ، وأصله من قولهم : تجحفل القوم ؛ إذا اجتمعوا . ويقولون : هذا رجل جحفل ، يريدون أنه عظيم القدر .

ومن ذلك ماذكرته فى الإنجاد وإجابة الصَّرِيخ ، وهو : إذ استَصْرَخَ بعزمٍ غذته صحبة الجيش ، عن لذة العيش ، فهو يستعذب حَرَّ الثُّغُور ، على برد الثغور[١] ، ويلهو بالبيض الذكُور ، عن بيض الخدور[٢] ، ولا طيب عنده إلا ريح العَجَاج[٣] ، ولا عِنَاق إلا أطراف الزِّجَاج[٤] ، ولا أَرَبَ له فى الرقاد إلا على صَهَوَات الجياد ، فعسكر قلبه أمْضَى فى الوَغَى من عسكر ، ونجدة بأسه تأبى لقاء الأقران فى دِرْعٍ أو مِغْفَر .

وهذه المعانى مأخوذة من أبيات الحماسة ، ومن شعر مسلم بن الوليد .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف الْمَخْبَر دون الْمَنْظَر ، وهو : إذا سَمَوْتَ لأمر فكن واحدا فى مكانك ، ولا تَرْضَ بكثرة الشركاء فيقال فُلَانٌ من أقرانك ، ألم تر إلى الحِرْباء الذى هو دويبة حقيرة الشان ، ضعيفة الأركان ، فإنه ارتفع فى هوَاه عن الأرض وأنسها ، إلى السماء وشمسها ، وقال لا أحبُّ من تُفْسِدُ الأيامُ من حسنه ، ولا من أحد بسمة خِلِّه ولا خدنه ، والهمم ليست منوطة بجهَارَة المناظر ، والتعويل على الخبر المستتر فى الأفئدة الباطنة لاعلى

---

(١) الثغور الأولى : جمع ثغر ، وهوموضع المخافة من العدوّ أن يبادره . والثغور الثانية : جمع ثغر ، وهو الفم .

(٢) البيض الذكور : جمع أبيض ، وهوالسيف . وبيض الخدور : جمع بيضاء ، ويكنى عن الحسان بذلك ، وأوله من قول امرىء القيس :

وَبَيْضَــةِ خِدْرٍ لاَ يُرَامُ خِبَاؤُهَا   تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُعْجَلِ

(٣) العجاج ـ بفتح العين المهملة ، بزنة سحاب ـ هو الغبار ، وهوالدخان أيضا . والمراد هنا الأول .

(٤) الزجاج ـ بكسر الزاى وفتح الجيم ـ جمع زج ـ بضم الزاى وتشديد الجيم ـ وهو الحديدة التى تكون فى أسفل الرمح .

الظواهر ، ومن ههنا قيل : إنَّ وضاءة النفوس أنضر من وضاءة الأجساد ، ورقم الشِّيَمِ أحسن من رقم الأبراد .

وآخر هذا الفصل ينظر إلى قول سُحَيْم عبد بنى الْحَسْحَاس .

إنْ كُنْتُ عَبْدًا فنفسِى حُرَّةٌ كَرَمًا أوْ أَسْودَ اللَّوْنِ إِنِّى أَبْيَضُ الْخُلُقِ

إلا أن الفصل يتضمَّن معنى غريبا لم يسبقنى إليه أحد .

ومن ذلك ماذكرته فى الحسد فى فصل من كتاب ، وهو : حاسدُ سيِّدِنا ينظر إلى زهرة دنياه ولا ينظر إلى استحقاقه ، وهو كالناظر إلى الأطواق الموضوعة فى الجِيدِ ولا يدرى أن الجيدَ أحسن من أطْوَاقه ، ولو قاس الدنيا بالاستحقاق لذهب الحسدُ من صدره ، وقال مالى أحْسُدُ مَنْ لم يَفُتْهِ قدرُ دنياه إلى معشار قَدْرِه .

ومن ذلك ماذكرته فى صدر كتاب يتضمن الأعذار عن تواتر المكاتبات ، وهو : إذا اعْتَذَر من انقطاع الكتب اعتذار الخادم من اتصالها ، ولو كانت واردة على غير ذلك الباب الكريم لخاف من إملالها ، وقد عد احتمال تثقيلها من جملة الأيادى التى أثقلته ، وأراد أن يجرى معها بسوابق شكره فأعجلته وما أمْهَلَتْه ، وهو الآن مُرْتَهَنٌ بين قديم وجديد ، وأصبح كخِرَاشٍ إذ تكاثرت عليه الظباء فلم يدر لكثرتها مايصيد ، فإن أمسك سيدُنا من أياديه وإلا فليتفضل على الشكر بالإنظار ، وليعلم أن ذمة وفائه كذمة ديوان المال فى الإعسار .

هذا فصل فى هذا المعنى قَلَّمَا يؤتى بمثله ، وفيه معنى واحد من قول الشاعر:

تَكَاثَرَتِ الظِّبَاءُ عَلَى خِرَاشٍ فَمَا يَدْرِى خِرَاشٌ مَايَصِيدُ

ومن ذلك ماذكرته فى استصلاح مودة ، فقلت : كنتُ عنده بالمنزلة التى آمَنُ بها ما أجنيه فصرت أخاف مالم أجْنِه ، وكان لايقبل عَلَىَّ شهادة عَيْنِه فأصبح الآن يقبل على شهادة أذنه ، لكن لم يجعل الله القلوب بين أُصْبُعَين من

أصابعه إلا ليذهب بها كلَّ واد ، ومن هٰهنا كانت تنتقل من وِداد إلى قِلًى ومن قِلًى إلى وداد ، ولا شك أن لهما بين الحالتين عُمُرًا تنتهى إليه كما تنتهى أعمار الأجساد ، والصبر خير ما استعمل فى جفاء الإخوان ، والماء إذا جرى فى مكان ثم انحرف عنه فلا بد أن يعود إلى ذلك المكان .

وبعض هذا مأخوذ من شعر ابن الرومى [وهو قوله] :

عَهِدْتُكَ لَاتَعْتَدُّ بِالعَيْنِ شَاهِدًا   عَلَىَّ فَلِمْ أَصْبَحْتَ تَعْتَدُّ بِالْأُذْنِ

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب إلى بعض الملوك على يد بعض العُفَاة ، وهو : الشِّيَمُ الكريمة للانسان بمنزلة المسك فى سُرَرِ الغزلان ، غير أن طيب هذه يَعْبق بالأنوف وطيبَ هذه يَعْبق بالآذان ، وقد جعل تفاوت المزية بين هذين الطيبين فرقا، فأحدهما يبقى دائما ولا يذهب والآخر يذهب ولا يبقى ، ونصيب مولانا من الطيب الباقى نصيب زكت معَادنه ، وكثرت خزائنه ، وسارت فى الأرض محاسنه، ورفعه الله به إلى محل يبعد شأوُه على الطالب ، ولا يرى إلا فى لسان شاعر أو لسان خاطب ، وهو مما استثنى من خلق الناس الذى هو من طين لازب ، ومن أجل ذلك يرون أشباها ماعداه ، وما منهم إلا من يقر بفضله ولو كان من حساده أو عِداه ، وقد أصبحوا وهم يقلون لديه حين يكثرون ، ويقول كل منهم لصاحبه أفَسِحْرٌ هٰذَا أمْ أنْتُمْ لَاتُبْصِرُون .

هذا الفصل وإن تضمن شيئاً من القرآن الكريم فليس المراد ههنا القرآن الكريم ، بل منه شىء مأخوذ من الشعر ، وهو قول المتنبى :

النَّاسُ مَالَمْ يَرَوْكَ أشباهُ   وَالدَّهْرُ لَفْظٌ وَأنتَ مَعْنَاهُ

ومن ذلك ما ذكر فى وصف الخمر ، وهو: الخمر لاتفى لذة إسكارها ، بتنغيص خُمارها ، فهى خَرقاء البيان ، بَذِيَّةُ اللسان ، وتأنيثها يدلك أنها من ناقصات العقول والأديان ، وقد عرف منها سُنّة الجور فى أحكامها ، ولولا ذلك لما استأثرت من الرءوس بجناية أقدامها .

وهذا أحسن من قول الشاعر وأغرب وألطف ، لأنه قال :

ذَكَرَتْ حَقَائِدَهَا القَدِيمَةَ إذ غَدَت وَهْناً تُدَاسُ بأَرْجُلِ العَصَّارِ
لَانَتْ لَهُمْ حَتى انْتَشَوْا فَتَحَكَّمتْ فِيهِمْ فَنَادَتْ فِيهِمُ بالثَّارِ

وكذلك قلت فى وصفها أيضاً ، وهو : مدامة تَنْفِى خواطر الهموم ، وتَسْرِى مَسرَى الأرواح فى الجسوم ، وتشهد بأن الكرم مستمد من ماء الكروم ، ويمثل حَبَبُها(١) نجوما إلا أنها مُضِلَّة والهداية للنجوم .

وبعض هذا مأخوذ من قول أبى نوَاس :

إِذَا هِيَ حَلَّتْ فى اللَّهَاةِ مِنَ الْفَتَى دعا هَمَّهُ مِنْ صَدْرِهِ بِرَحِيل

وما زال الشعراء يتواردون على هذا المعنى حتى سمج ، لكن الذى ذكرته بعد هذا المعنى من محاسن المعانى فى وصفها، وكذلك ماذكرته فى وصفها ، وهو : الخمر كالعذراء فى نُفُورها ، وملازمة خُدُورها ، ولهذا تشمئز من نكاح المِزَاج ، وتَصْخَبُ لمسِّ الماء صَخَبَ الأبكار لمس الأزواج ، ومن شأنها أن تلبس عند الزفاف إكليلا على راسها ، وكذلك شأن العرائس عند زفافها إلى أعراسها .

وهذه المماثلة بين الخمر و بين البكر على هذا النسق لم يأت بها أحد غيرى ، وإنما وصفت بأنها بكر ، كقول أبى نواس :

فَقُلْتُ لِشَيْخٍ مِنْهُمُ مُتَكَلِّمٍ لَهُ دِينُ قِسِّيسٍ وَفِى نُطْقِهِ كُفْرُ
أعِنْدَكَ بِكْرٌ مُرَّةُ الطَّعْمِ قَرْقَفٌ صَنِيعَةُ دِهْقَانٍ تَرَاخَى له الْعُمْرُ
فَقَالَ عَرُوسٌ كَانَ كِسْرَى رَبِيبَهَا مُعَتَّقَةٌ مِنْ دُونِهَا الْبَابُ وَالسِّتْرُ

ووصفت بالنكاح والزواج ، كقوله أيضاً :

وَقَهْوَةٍ كَالْعَقِيقِ صَافِيَةٍ يَطِيرُ مِنْ كَأْسِهَا لَهَا شَرَرُ
زَوَّجْتُهَا المَاءَ كَىْ تَذِلَّ لَهُ فَامْتَعَضَتْ حِينَ مَسَّهَا الذَّكَرُ

(١) الذى فى ب ، ج «حبها» وتنقص باء .

ومن ذلك ماذكرته فى الحزم ، وهو : لاينبغى للحازم أن يُساور المورد المؤذن بمضيقه وإن أفضى الصَّدَرُ إلى رحيبه ، فإنّ تَوَقّىَ الداء خير من التعرض له مع وجود طبيبه ، ولْنَدَعْ قولَ من يقعد على تَلِّ السلامة ثم يلبس الكتائبَ بالكتائب ، ويقول : ليس للعزم إلا تمام الصدور وليس عليه تمام العواقب .

بعض هذا مأخوذ من شعر أبى تمام(١) :

وَرَكْبٍ كَأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ عَرَّسُوا ... عَلَى مِثْلِهَا وَاللَّيْلُ تَسْطُو غَيَاهِبُهْ
لِأَمْرٍ عَلَيْهِمْ أَنْ تَتِمَّ صُدُورُهُ ... وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَتِمَّ عَوَاقِبُهْ

ومن ذلك ماذكرته فى وصف الرأى والكيد ، وهو : أخْفَى على العدوِّ كَيْدَهُ حتى لم يدع كائداً ، وأعمى عليه سلوكَ الطريق حتى ظنه حائدا . فَسُيُوفه تسطو على بعدها ، ولا تقطع إلا وهى فى غمدها .

وبعض هذا المعنى أخذته من شعر أبى تمام(٢) ، وهو :

سَكَنَ الْكَيْدُ فِيهِمُ إِنَّ مِنْ أَعْـظَمِ كَيْدٍ أَنْ لَا يُسَمَّى أَرِيبَا

وكذلك قولى فى هذا المعنى ، وهو : أخذ بسَمْعِ العدو وبَصَرِهِ ، وسدَّ مَطْلَع وِرْدِهِ وصَدَرِهِ ، فيَدَاه مغلولة مع أنها مطلقة السَّرَاح ، ومَقَاتله بادية على أنها شاكية السِّلاح .

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا العباس عبدالله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ، وأولها :

أَهُنَّ عَوَادِى يُوسُفٍ وَصَوَاحِبُهْ ... فَعَزْمًا فقِدْمًا أَدْرَكَ السُّؤْلَ طَالِبُهْ

وانظر الديوان (ص ٤٣ بيروت) .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى ، وأولها قوله :

مِنْ سَجَايَا الطُّلُولِ أَلَّا تُجِيبَا ... فَصَوَابٌ مِنْ مُقْلَتِى أَنْ تَصُوبَا

وهذا المعنى ينظر إلى المعنى الذى قبله .

وكذلك قولى أيضاً ، وهو : يُبَيِّتُ برأيه العدو قبل جيشه ، وتلقاه يطيشُ قلمه الذى كَلَّ الحلم فى طيشه ، فإذا أطَلّتْ وجوه الآراء كان رأيه لها صباحاً ، وإذا جهزت الجحافل لحرب كان قلمه لها سلاحا .

و بعض هذا المعنى مأخوذ من شعر البحترى (١) :

وَهُوَ الْمَرْءُ مَا غَزَا بَلَداً بِالـــرَّأْيِ إِلاَّ كَفَاهُ غَزْوَ الْجُنُودِ

ومن ذلك ماذكرته فى وصف السير والركاب والخيل والقفار ومايتعلق بها

فمنه مايتعلق بالسير ، وهو : ركب ظهرَ الليل يُبارى مسير شُهْبه بمسير أشْهَبِه (٢) ، ويستقرب بُعْدَ المدَى فى نيل مَطْلبه ، غيرأن تلك تفرى أديم الغياهب ، وهذا يفرى أديم السَّبَاسِب (٣) .

وهذا مأخوذ من قول المتنبى (٤) :

يُبَارِى نُجُومَ الْقَذْفِ فى كلِّ لَيْلَةٍ نُجُومٌ لَهُ مِنْهُنَّ وَرْدٌ وَأَدْهَمُ

---

(١) لم أجد هـذا البيت فى شعر البحترى . وقد تكرر هذا المعنى فيه ؛ فمن ذلك قوله :

مُسْتَشَارٌ فى الْمُعْضِلاتِ إِذَا مَا أُرْ تِجَ الْخَطْبُ عَنْ دُعاءِ وَلِيدِهْ

وَمُصِيبٌ مَفَاصِلَ الرَّأْيِ إِنْ حَا رَبَ كَانَتْ آرَاؤُهُ مِنْ جُنُودِهْ

ومن ذلك قوله فى قصيدة يمدح فيها محمد بن عبد الملك الزيات :

فَهْىَ مِنْ عَزْمِ رَأْيِهِ فى جُنُودٍ قُمْنَ مِنْ حَوْلِهَا مَقَامَ الْجُنُودِ

(٢) يريد بالأشهب : جوادا لونه الشهبة .

(٣) السباسب : جمع سبسب ـ بوزن جعفر ـ وهو الأرض القفر

(٤) من قصيدة له أولها قوله :

إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالنَّسِيبُ الْمُقَدَّمُ أَكُلُّ فَصِيحٍ قَالَ شِعْراً مُتَيَّمُ

ومن هذا المعنى أيضاً قولى، وهو : اتَّخَذَ اللَّيْلَ ظهرا ، واستلان خشونة الْمَسْرَى ، فلم يزل يقذف صبغة سواده ، بصبغة جواده ، حتى بدت فى أديم الليل شِيَاتُ صباحه ، وشابَهَ الأدهم فى غُرَّته وأوضاحه ، فعند ذلك أخذ أحدهما فى رحيله ، وأخذ الآخر فى نزوله .

وهذا المعنى ينظر إلى الذى قبله ، وفيه من شرف الصنعة مالا خفاء به .

ومن ذلك ماذكرته أيضاً فى فصل من كتاب ، وهو : سِرْتُ وتحتى بنت قَفْرَةٍ لايذهب السُّرَى بجماحها ، ولا تستزيد الحادى من مراحها ، فهى طَمُوح بأثناء الزِّمام ، وإذا سارت بين الآكام قيل هذه واحدة من الآكام ، ولم تُسَمَّ جَسْرَةً إلا لأنها تقطع عرض الفلاة كما يقطع الجسر عرض الماء ، ولا سميت حَرْفاً إلا لأنها جاءت لمعنى فى العزائم لالمعنى فى الأفعال والأسماء ، وخَلْفَهَا جَنِيبٌ من الخيل يُقْبِل بجِذْعٍ ويدبر بصخره ، وينظر من عين جحظة ويسمع بأذن حشره ، ويجرى مع الريح الزَّعْزَع فيَذَرُها وقد ظهر فيها أثر الْقَتَرَه ، وما قِيدَ خلفها إلا وهو يهتدى بها فى المسالك المضلّة ، ويطأ على أثرها فيرقم وجوهَ البدور بأشكال الأهلة ، هذا والليل قدألقى جِرَانَهُ فلم يَبْرَح ، والكواكب قد رَكَدَت فيه فلم تسبح ، وأنا أودُّ لو زاد طوله، ولم تظهر غرة أدهمه ولا حُجُوله، فقد قيل: إنه أدنى للبعد وأكتم للأسرار ، ودل عليه القول النبوىّ بأن الأرض تُطْوَى فيه مالا تطوى فى النهار ، وما زالت أسير بريدها تنوء به حتى كاد يَنْضُولون السواد ، وظهر لون السرحان فأغار على سَرْح السماء كما يغير السرحان على سرح

وأراد بنجوم القذف: الشهب التى تقذف بها الشياطين والتى ذكرها الله تعالى فى قوله: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ) وذكر رجم الشياطين بها فى قوله: (وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً) والورد – بفتح فسكون – الفرس الأحمر .

النقاد ، فعند ذلك نَهَلَت العين من الكرى نهلة الطائر ، ولم يكن ذلك على ظهر الأرض المطمئنة وإنما كان على الظهر السائر

فى هذا الفصل كل مليحة من المعانى ، ولو لم يكن فى هذا الكتاب سواه لكان كافياً ، وبعضه مأخوذ من الشعر ، كقول أبى تمام[١] :

طَمُوحٌ بأثناء الزِّمَامِ كأنَّما يُخالُ بِها مِنْ عَدْوِها طَيْفُ جِنَّةِ[٢]

وكقوله[٣] :

بِالشَّذْقِيَّاتِ العِتاقِ كأنَّما أَشْباحُها بَيْنَ الأكامِ أكامُ[٤]

ومن ذلك ماذكرته فى النسب فى فصل من كتاب ، وهو : لهم نَسَبٌ لاتدخله لام التعريف ، وهو موضوع لا يجرى على سنن التوقيف ، فإذا ذكر أوله وقفت من عرفانه على طلل ، ووجدته مهملا فى جملة الهمل ، وإن قيل إنه من نجوم السماء قلت لكنه لايخرج عن الثور أو الحمل ، فما أرهف لوصفه لسان إلا نبآ ، ولا اقتدح له زناد خاطر إلا كبا ، وهم منه كآوى الذى يرى الناس له ابنا ولا يرون لابنه أبا .

وهذا من أغرب ما يؤتى به فى ذم النسب ، وهو من باب توليد المعانى الذى

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها حبيش بن المعافى قاضى نصيبين ، وأولها قوله :

نُسائِلُها أىَّ المَواطِنِ حَلَّتِ وَأَىَّ بِلادٍ أوطَنَتْها وَأيَّتِ

(٢) وقع فى ج «بأثناء الزمان» وهو تحريف شنيع ، والتصويب عن ب ، وعن الديوان (٦٠) .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها المأمون ، وأولها قوله :

دِمَنٌ أَلَمَّ بِهَا فَقالَ سَلامُ كَمْ حَلَّ عُقْدَةَ صَبْرِهِ الإلْمامُ

(٤) الشذقيات : النوق الكرام . والأكام : التلال ، يريد أنهن جسيمات عاليات.

يسمى السكيمياء ، و بعضه مستولد من قول أبي نواس فى هجاء الخصيب[١] :

وَما خُبْزُهُ إِلاَّ كَآوَى يُرَى ابْنُهُ ‏ ‏ وَلَمْ يُرَ آوَى فى حُزُونٍ وَلاَ سَهْلِ[٢]

فأبو نواس ذم خُبْزَ الخصيب فى عدم رؤيته ، وأنا نقلت ذلك إلى النسب ، فجاء ألطف وأحسن وأليق وأدخل فى باب الصنعة ، وإذا حقق النظر فيما ذكره أبو نواس فى هذا المعنى لم يوجد مناسبا ، فإن الخبز فى عدم رؤيته لا يحمل على ابن آوى ، وإنما المناسبة تقع فى النسب من أجل ذكر الابن والأب .

ومن ذلك ما ذكرته فى ذم قوم ، وهو فصل من كتاب ، فقلت : تركت قوماً لم ينقعوا صدًى ، ولم يجروا إلى مدًى ، فأعراضهم نكرة العارف ، وأموالهم حنظلة الناقف ، لا تمطر سحبهم على كثرة مائها ، ولا تزكو الذريعة بأرضهم على نمائها .

و بعض هذا المعنى مأخوذ من شعر الشريف الرضى[٣] :

تَرَكْتُ أُنَاساً لَمْ يَهَشُّوا لِمِنَّةٍ ‏ ‏ وَلَمْ يَنْقَعُوا غُلَّ الظَّمَاءِ الْخَوَامِسِ

عَلَى الْقُرْبِ فِيهِمْ إِنَّنِى غَيْرُ طَامِعٍ ‏ ‏ وَمِنْكَ عَلَى بُعْدِ الْمَدَى غَيْرُ آيِسِ[٤]

---

(١) البيت ثانى أبيات قصيدة يهجو بها أبو نواس إسماعيل بن أبي سهل بن نيبخت، والذى قبله قوله :

عَلَى خُبْزِ إِسْمَاعِيلَ وَاقِيَةُ الْبُخْلِ ‏ ‏ فَقَدْ حَلَّ فى دَارِ الأَمَانِ مِنَ الأَكْلِ

(٢) وقع فى ب ، ج « وما خبره » بالراء المهملة، وهو تصحيف ، وصوابه «خبزه» بالزاى ، وكذلك هو فى الديوان (ص ١٧١) .

(٣) من أبيات له يمدح فيها الملك بهاء الدولة ، وأولها :

أَقُولُ لِرَكْبٍ خَابِطِينَ إِلَى النَّدَى ‏ ‏ رَمَوْا غَرَضاً وَاللَّيْلُ دَاجِى الْحَنَادِسِ

(٤) فى الديوان « على القرب إنى فيهم غير طامع » ، وانظره (١ — ٤٢٣) . وقريب من معنى هذين البيتين مع توافقهما فى أكثر الألفاظ قول الشريف أيضا :

ومن هذا الباب أيضاً قولى ، وهو: تركت قوماً يسلون الحبيب، ويملّون القريب، ولا يرعون من يرعاهم ، ولا يدرّ اللبن على مَرْعاهم ، فنوالهم تحايا ، وأعراضهم ضحايا ، ومن أحسن صفاتهم أنهم يعاقبون على الظنة ، ولا يرتاحون لمنة ، فالذرائع لديهم مدفونة ، والصنائع غير مسنونة .

و بعض هذه المعانى مأخوذ من شعر أبي الطيب[1] المتنبي :

رَأَيْتُكُمُ لَا يَصُونُ العِرْضَ جَارُكُمُ ... وَلا يَدِرُّ عَلَى مَرْعَاكُمُ اللَّبَنُ
جَزَاءُ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمُ مَلَلٌ ... وَحَظُّ كُلِّ مُحِبٍّ مِنْكُمُ ضَغَنُ

ومن ذلك ما ذكرته على الحث على الاغتراب ، وهو : لولا التغرب لما ارتقت بنات الأصداف إلى شرف الأعناق ، ولا ارتقى تراب الأحجار إلى نور الأحداق .

وكذلك قولى فى هذا المعنى ، وهو : فى الانتقال تنويهٌ لخامل الأقدار ، ولولا ذلك لم يكس الهلال حلة الأبدار ، والمَنْدَل الرطب حطب فى أوطانه ، والمسك دم فى سُرَرِ غزلانه ، ولولا فراق السهم وتره لم يحظ بفضل الإصابة ، ولولا فراق الوشيج منبته لم يتحلَّ بعز السِّنان ولا شرف الذؤابة .

وهذا الفصل فصل من القول فى معناه ، ومما لم ينبش للخواطر ابتغاء مبناه ؛ فمنــه ما هو مأخوذ من الشعر ، ومنه ما منح به الخاطر على غـير مثال ، وهو يشهد لنفسه .

نُذَادُ وَيُرْوَى الأَبْعَدُونَ بِمَائِكُمْ ... وَنَحْنُ عَلَى الوِرْدِ الظِّمَاءُ الخَوَامِسُ
وَتَنْدَى لِقَوْمٍ آخَرِينَ سَحَابُكُمْ ... وَنَحْنُ مَنَاشِي أَرْضِكُمْ وَالغَرَائِسُ

(١) من قصيدة له أرسلها إلى سيف الدولة من مصر ، وقد بلغه أنه ذكر بمجلسه بسوء ، وأول هذه القصيدة قوله :

بِمَ التَّعَلُّلُ ؟ لا أَهْلٌ ، وَلا وَطَنُ ، ... وَلا نَدِيمٌ ، وَلا كَأْسٌ ، وَلا سَكَنُ

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف الأيام ، وهو : أيام تُعَدُّ بأعوام[١] لقصر أعمارها ، وشهور لايشعر بأنصافها ولا سِرارها ؛ فالأوقات بها أصائل ، والمحاسن فيها شمائل ، والمآرب فى ساعاتها رياض فى خمائل ؛ فما أدرى أهى خيالات أحلام غرت ، أم أحاديث أمانٍ مرت .

و بعض هذا المعنى مأخوذ من أبيات الحماسة[٢] :

شُهُورٌ يَنْقَضِين وَما شَعَرْنَا   بأنْصَافٍ لَهُنَّ وَلاَ سِرَارِ[٣]

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف الإخوان، وهو : ليس الصَّدِيقُ مَنْ عَدَّ سَقَطاتِ قرينه ، وجازاه بغَثّه وسمينه ، بل الصديق مَنْ ماشى أخاه على عَرَجه ، واستقام له على عِوَجِهِ ، فذلك الذى إنْ رأى سيئة وطئها بالقدم ، و إن رأى حسنة رفعها على عَلَم .

و بعض هذا المعنى مأخوذ من أبيات الحماسة[٤] :

---

(١) كذا ؛ ولعله « أعوام تعد بأيام » .

(٢) من كلمة رواها أبو تمام ، ولم ينسبها لقائل معين ، وأولها .

أَقُولُ لِصَاحِبِى وَالْعِيسُ تَهْوِى   بِنَا بَيْنَ الْمُنِيفَةِ فَالضِّمارِ

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ   فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ

وانظر (شرح التبريزى على الحماسة : ٣ - ٢١٤) .

(٣) قال التبريزى فى شرح هذا البيت : « ارتفع شهور على أنه مبتدأ ، وهو تفسير الزمان الذى حمده وتلهف على انقضائه ، و ينقضين خبره ، ويجوز أن يرتفع شهور على أنه خبر مبتدأ محذوف ، و ينقضين حينئذ يكون صفة له ، وما شعرنا : أى ماعلمنا ، يقال : شعرت به شِعْرَةً وشِعْراً وشعُوراً ، ومنه الشعر ، ويقال : شعر الرجل ؛ إذا قال الشعر ؛ فشعر ، بكسر العين ، أى صار شاعرا ؛ وسرار الشهر : آخره ؛ لأن القمر يستسر فيه » اه ، والسرار : بكسر السين بزنة كتاب .

(٤) أول كلة اختارها أبو تمام لقعنب بن ضمرة ، وهو قعنب بن أم صاحب ، وأم صاحب : هى أمه ، وهوأحد بنى عبد الله بن غطفان ، وانظر (شرح التبريزى

إنْ يَسْمَعُوا رِيبَةً طَارُوا بِها فَرَحًا عَنِّى ، وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا(١)

إلا أن الذى ذكرته ضدُّ هذا المعنى ، وقد يستخرج المعنى من ضده . وهو أحسن مما يستخرج من نفسه .

ومن هذا قولى أيضاً ، وهو : لَيْسَ الصديقُ من صَرَّى أَخْلَافَ وُدِّه(٢) وغشّ فى صَفْقَة عهده ، بل الصديق من لا ترد سلعة وده بإقالةٍ وَلاَ عَيْب ، ولا تخص محافظة إخائه بشهادةٍ دون غَيْب(٣) فذلك أخى من غير نسب ، وكنزى من غير نَشَب .

وهذا مأخوذ من الفقه فى تَصْرِية ضرع الشاة عند البيع ، وذلك يوجب الرد.

ومما ينتظم بهذا السلك قولى ، وهو : الانتقال عن خلة الوداد ، كالانتقال عن نسب الميلاد ، وكما يحرم هذا فى نص الحكم المشروع ، فكذا يحرم هذا فى خلق الكرم المطبوع ، على أن نسب الخلة الذى يَنْمِيه القلب إلى القلب ، أوْصَلُ من نسب الرحم الذى يَنْمِيه الابن إلى الأب ، ولهذا كانت مودة سلمانَ قُرْبَى ، ونسب أبى لَهَبٍ سبباً وتبًّا .

على الحماسة : ٤ — ٢٤) وكلمة قعنب بن أم صاحب قدرواها له ابن الشجرى فى مختاراته (ص ٦) وأولها قوله :

بَانَتْ سُلَيْمَى فَأَمْسَتْ دُونَهَا عَدَنُ وَغَلِقَتْ عِنْدَهَا مِنْ قَلْبِكَ الرُّهُنُ

(١) فى الحماسة « طاروا بها فرحا منى » ، وفى رواية ابن الشجرى « طاروا لها فرحا منى » .

(٢) صرى الرجل شاته تصرية : لم يحلبها أياما ليجتمع اللبن فى ضرعها ؛ فيرى حافلا ، يقصد بهذا الغش فى البيع ؛ والأخلاف للناقة كالثدى للمرأة .

(٣) الشهادة : الحضور ، تقول : شهدنا فلان يوم كذا ، تريد حضرنا ، والغيب : ضده .

و بعض هذا مأخوذ من شعر أبى نواس ، وهو :

كَانَتْ مَوَدَّةُ سَلْمَان لهُ نَسَبًا وَلَمْ يَكُنْ بيْنَ نُوحٍ وَابنِهِ رَحِمُ

ومن ذلك ماذكرته فى وصف الديار، وهو: دَارٌ كانت مقاصر جنة ، فأصبحت وهى مَلاَعِبُ جِنَّة ، ولقد عميت أخبار قُطَّانها ، وأنشاز أوطانها ، حتى شابهت إحداهما فى الخفاء ، الأخرى فى العفاء ، وكنت أظن أنها لا تسقى بعدهم بغمام ، ولا يرفع عنها جلباب ظلام ، غير أن السحاب بكاهم فجرت بها سَوَافِح دموعه ، والليل شق عليهم ثوبه فظهر الصباح من خلال صُدُوعه .

وهذه معان لطيفة جداً ، و بعضها مأخوذ من شعر الشريف الرضى رحمه الله تعالى[1] :

أمَرَابِعَ الْغِزْلاَنِ غَيَّرَكِ الْبِلَى حَتَّى غَدَوْتِ مَرَاتِعَ الْغِزْلاَنِ[2]

ومما يلتئم بهذا المعنى قولى أيضا ، وهو: دار أصْبَحَت مراتع أذواد ، بعد أن كانت مَنَاجع رُوَّاد ، فلو تصورت الآمال التى مثلت بفنائها ، كما تصورت الآثار الماثلة من بنائها ؛ لرأيت رسومها مع رسوم القباب . وعلمت كم غَارَ بِهَا مِنْ بَحْرٍ وَنَضَب من سحاب .

---

(١) من كلمة له يقولها وقد خرج إلى الكوفة لزيادة قبر أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأول هذه الكلمة قوله :

مَا زِلْتُ أَطَّرِقُ الْمَنَازِلَ بِالنَّوَى حَتَّى نَزَلْتُ مَنَازِلَ النُّعْمَانِ

وانظر الديوان (٢ — ٨٨٥) .

(٢) رواية الديوان هكذا :

أمَقَاصِرَ الْغِزْلاَنِ غَيَّرَكِ الْبِلَى حَتَّى غَدَوْتِ مَرَابِضَ الْغِزْلاَنِ

والمراد بالغزلان فى صدر البيت : الحسان ربات الخدور ، والمراد بها فى عجز البيت الظباء الدقاق الأسواق .

وهذا معنى حسن له من نفسه مُثْنٍ وحامد ، ومن سامعه يمين وشاهد ، وهو من معانىَّ المستخرجة .

ومن ذلك قولى أيضاً ، وهو : النقص مُوَكَّل بكمال النعماء ، ولذلك كان الْوَخَم مقترناً بالمرعى والماء ، وقَلَّمَا ترى ثمرة إلا ومعها زُنبُور ، ولا لذة إلا وإلى جانبها شيء محذور .

وكذلك قولى أيضاً ، وهو : لايظفر الرجل بمطالبه شفْعا ، ولا تؤتيه من كل جهة نفعا ، بل يرى مَرْعًى بلا ماء وماء بلا مرعى ، ولذلك كانت النحلة مع الشهْدَة ، والشوكة مع الْوَرْدَة .

وبعض هذه المعانى مأخوذ من قول أبى تمام[١] :

أَرْضٌ بِهَا عُشُبٌ زَاكٍ وَلَيْسَ بِهَا ... مَاءٌ وَأُخْرَى بِهَا مَاءٌ وَلاَ عُشُبُ[٢]

إلا أن فى الكلام المنثور زيادة على ماتضمنه الشعر ، وكأنه ينظر إليه نظرا بعيداً .

ومن سبيل الْمُتَصَدِّى لهذا الفن أن يأخذ المعنى من الشعر فيجعله مثل الإكسير فى صناعة الكيمياء ، ثم يخرج منه ألوانا مختلفة من جوهر وذهب وفضة ، كما فعلت فى هذا الموضع ؛ فإنى أخذت معنى هذا البيت من الشعر فاستخرجت منه ماليس منه ، وهذا أعلى الدرجات فى نثر المعانى الشعرية .

وقد بسطت القول فى هذا الموضع ، وكشفت عن دفائنه ، فى الكتاب

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا جعفر محمد بن عبد الملك بن أبى مروان الزيات ، وأولها :

قَدْ نَابَتِ الْجِزْعَ مِنْ أُرْوِيَّةَ النُّوَبُ ... وَاسْتَحْقَبَتْ جِدَّةً مِنْ دَارِهَا الْحِقَبُ

وانظر الديوان (ص ٤٦) .

(٢) رواية الديوان « أرض بها عشب جرف » والجرف : ماجرفته السيول وأكلته الأرض ، والذى هنا أفضل من رواية الديوان ؛ لتمام التقابل .

الذى وَسَمْته بـ«الْوَشْىِ الْمَرْقُوم فى حَلِّ المنظوم» وهو كتاب مفرد [فى] هذا الفن خاصة .

ومن هذا الضرب الذى هو الكيمياء فى توليد المعانى ماذكرته فى وصف الربيع فقلت : فصل الربيع هوأحَدُ ميزانى عامه ، والمستفيد لسَامِهِ من حَامه ، وقد وصف بأنه ميعاد نطقِ الأطيار ، وميلاد أجِنَّة الأزهار ، والذى تستوفى به حولها سلافة العقار ، فإذا سَلَّتِ السحبُ فيه سيوفها كان ذلك للرضا لاللغضب ، وإذا خلعت على الأرض غُلاَلَتها الدَّكْنَاء لبست منها ديباجة منسوجة بالذهب .

وهذا المعنى مستولد من قول أبى تمام فى وصف السحاب[١] :

سَلَبَتْه الْجَنُوبُ وَالدِّينُ وَالدُّنْـيَا وَصَافِى الْحَيَاةِ فِى سَلَبِهْ[٢]

إلا أن فى الذى ذكرته معنيين غريبين إذا أمعن الناظر نظره فهمهما .

ومن ذلك ماذكرته فى لين القول وإعادته ، وما يجرى مجراه ، كقولى فى فصل من كتاب ، وهو : لم أُعِدْ عليه القولَ لأنه لايبلغ مَدَى ميدانه ، إلا بتحريك سوطه وعنانه ، بل أخْذاً بأدب الله فى أذكار القرآن ، واتباعا لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فى تثويب الأذان .

وبعض هذا مأخوذ من شعر أبى تمام[٣] :

---

(١) من قصيدة له يمدح أبا الحسن محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمى ، وأولها قوله :

إنَّ بُكَاء فى الرَّبْعِ مِنْ أَرَبِهْ فَشَايِعَا مُغْرَمًا عَلَى طَرَبِهْ

(٢) هكذا ورد هذا البيت فى جميع نسخ الأصل ، وهو غير مستقيم ، وصوابه :

قَدْ جَلَبَتْهُ الْجَنُوبُ ؛ فالدِّينَ وَالدُّنيا وَصَافِى الحياةِ مِنْ جَلَبِهْ

وانظر الديوان (ص ٥٢) .

(٣) آخر قصيدة له يمدح فيها سليمان بن وهب ، وأولها قوله :

أىُّ مَرْعَى عَيْنٍ وَوَادِى نَسِيبِ لَحَبَتْهُ الأيَّامُ فى مَلْحُوبِ

لحبته : وطئته . وملحوب : اسم موضع .

لَوْ رَأَيْنَا التَّأْكِيدَ خُطَّةَ عَجْزٍ   مَاشَفَعْنَا الْأَذَانَ بِالتَّثْوِيبِ (١)

وكذلك قولى أيضاً ، وهو : وقد علم أن لين القول أنجع قبولا ، وهو من أدب كليم الله إذ بعثه إلى فرعون رَسُولا ، ألا ترى أن الْحُدَاء يبلغ من المطايا بلُطْفه ، مالا يبلغه السوط على عُنْفه .

و بعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبى تمام (٢) :

وَخُذْهُمْ بِالرُّقَى إِنَّ الْمَهَارَى   يُهَيِّجُهَا عَلَى السَّيْرِ الْحُدَاء (٣)

ومن ذلك ماذكرته فى ذم الدنيا ، وهو : أنْكَادُ الدنيا مَشُوبة بالأشياء التى جُبلَتِ النفوس على حُبِّها ، وكل ماتستلذه الأبدان من مأكلها فإنه يضرها من جهة طبها ، ولهذا يذم من منفعة الهليلج ، ومضرة اللوزينج . وأعجب من ذلك أنه لاينتفع الإنسان بشىء من لذاتها إلا ضره من جهة ثوابه ، وهو كالذى ينتفع باصْطِلاَء النار وهى مُحْرِقة لأثوابه ، وقد ضرب لذلك مثل من الأمثال ، وقيل : إن كل ماينفع الكبدَ مضرٌّ بالطحال .

وهذا مأخوذ من الأمثال العربية والمولدة .

ومن ذلك ماذكرته فى الزهد ، وهو : الناس فى الدنيا أبناء الساعة

---

(١) رواية الديوان « لو رأينا التوكيد » وهما سواء ، وفى الديوان « ماشفعنا الآذان » وهو تحريف سببه قلة إدراك معنى التثويب الذى يذكر فى الشريعة .

(٢) من قصيدة له يعاتب فيها على بن الجهم و يطاب إليه استنجاز وعد من عثمان ابن إدريس بن بدر ، وأولها قوله :

بِأَىِّ نُجُوم وَجْهِكَ يُسْتَضَاء   أَبَا حَسَنٍ ، وَشِيمَتُكَ الإِبَاء

(٣) الرقى : جمع رقية ، وهى تعويذة ، المهارى : جمع مهرية ، بفتح الميم وسكون الهاء ، والإبل المهرية : منسوبة إلى مهرة ، ومهرة : بلد ، و يقال : اسم رجل ، يهيجها : يثيرها ، الحداء - بضم الحاء - الغناء .

الراهنة ، وكما أن النفوس ليست فيها بقاطنة فكذلك الأحوال ليست بقاطنة ، ولهذا كانت المآتم بها كالأعراس يتفرق نديُّ جمعها ، فهذه تُنْسِى ما مضى من لذة سرورها وهذه تُنْسى مامضى من ألم فَجْعِها ، ولا شبيه لها على ذلك إلا الأحلام التى يتلاشى خيالها عاجلا ، وتجعل اليقظة حقها باطلا ، وما ينبغى حينئذ أن يفرح بها مقبلة ولا يؤسى عليها مدبرة ، وكل ما تراه العين منها ثم يذهب فكأنها لم تَرَه ، وغاية مطلوب الإنسان منها أن يُمَدَّ له فى مدة عمره ، ويُمْلَى له فى امتداد كُثْره ، أما تعميره فيعترضه المشيب الذى هو عدم فى وجود ، وهو أخو الموت فى كل شىء إلا فى سكنى اللحود ، فالجوارح التى يدرك بها الشهوات ترى وكل منها قد تحول ، وأصبح كالطلل الدارس الذى ليس عنده من(١) مُعَوَّل ، فلا لَيْلَى بلَيْلَى ولا النَّوَّار بالنوار ، ولا الأسماع أسماع ولا الأبصار أبصار ، وأما ماله فإن أمسكه فهو عُرْضَة لوارث يأكله ، أو لحادث يستأصله ، وإن أنفقه كان عليه فى الحلال حساباً ، وفى الحرام عقاباً ، فهذه زهرة الدنيا الناضرة ، وهذه عقباها الخاسرة .

وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر صالح بن عبد القُدُّوس :

وَإِذَا الجنازَةُ وَالعَرُوسُ تلاقيَا أَلْفَيْتَ جَمْعاً كُلُّهُ يتفرَّق

ومن قول أبى العَتَاهية :

إنَّمَا أنْتَ طُولَ عُمْرِكَ مَا عُمِّـــرْتَ فى السَّاعةِ التى أنْتَ فيهَا

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب يتضمن تعزية ، وهو: كيف يُظْلِم ذلك اللَّحْدُ وبه من أعمال ساكنه أنوار ؟ أم كيف يُجْدِبُ وبه من فَيْض يمينه سحاب مِدْرَار ؟ أم كيف تُوحِشُ أقطاره والملائكة داخلة عليه من تلك الأقطار ؟

(١) هذا من قول امرىء القيس بن حجر الكندى

وَإِنَّ شِــفَائى عَبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ وَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

أم كيف يُخْفِيه طولُ العهد على زُوَّاره وطيبُ ترابه هادٍ للزوار ، وما أعلم ما أقوله في هذا الخطب الجليل ، الذى دَقّ فيه الحزن الجليل ، وسمحت له النفوس بالفدية على حب الحيـاة وذلك من الفداء القليل ، وقد قيل : إنه لم يُخْلَقِ الدمع إلا إنذاراً بأن نوائب الزمان ستنوب ، وقد جعله الله ذخراً للقائها وإنما يذخر السلاح للقاء الحروب ، والذى ذَخَرْته منه لم يغن عنى فى هذه النائبة ، وأىُّ جُنَّةٍ تقوم فى وجه سهامها الصائبة ، لا جَرَمَ أنى أصبحت بين يديها هدَفاً للرماء ، ولم يبق منى إلا ذَماء الحُشاشة ومن العجب بقاء الذَّماء .

وشىء من هذا الفصل مأخوذ من شعر ابن الرومى :

لَمْ يُخْلَقِ الدَّمْعُ لِامْرِئٍ عَبَثاً اللهُ أَدْرَى بِلَوْعَةِ الحَزَنِ

وكذلك ذكرت فصلا فى كتاب آخر يتضمن تعزية وهو : فياوَيْحَ أيدٍ أسلمته إلى الثرى وما كان يسلمها إلى الاعدام ، وألبسته ظلمة اللحد وطالما جلا عنها غيابة الظُّلم والإظلام ، وغادرته بِوَحْدَته مستوحشاً وقد كان يؤنسها بنوافل الإنعام ، ومثله لا يوارى القبر منـه إلا صورة يدركها النفاد ، وتبلى كما يبلى غيرها من الأجساد ، ولكنه لا يستطيع مُوَاراة الذكر الخالد الذى يذهب بشماتة الحساد ، ويتمثل فى السماء بصورة الكواكب وفى الأرض بصورة الأطْوَاد .

وبعض هذا مأخوذ من قول بعض شعراء الحماسة[1] :

---

(١) هو من كلمة اختارها أبو تمام لأبى الشغب العبسى ، يقولها فى خالد بن عبدالله القسرى ، وأولها قوله :

أَلاَ إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ حَيًّا وَهَالِكاً أَسِيرُ ثَقِيفٍ عِنْدَهُمْ فِى السَّلاَسِلِ

وكان يوسف بن عمر الثقفى قد أسر خالد بن عبد الله القسرى ، وانظر التبريزى (٢ - ٣٧٨) .

فَإِنْ تَدْفِنُوا الْبَكْرِىَّ لَا تَدْفِنُوا اسْمَهُ ‏ وَلَا تَدْفِنُوا مَعْـرُوفَهُ فِي الْقَبَائِلِ (١)

ومن ذلك ماذكرته فى وصف كلام بالفصاحة، وهو فصل من كتاب ؛ فقلت : وله الْبَيَانُ الذى يغض من نَسَق الفريد ، ولايخلق نضرة لباسه الجديد ، وهو فوق كلام الْمُجِيد ودون القرآن الْمَجيد ، وإذا اختصروا صفته قيل: إنه يستميل سمع الطروب ، ويستحق وقار القلوب ، ويتمثل آيات بيضاء من غير ضَمٍّ إلى الجيوب ، ويرى فى الأرض غير لاغِبٍ إذا مَسَّ غَيْرَهُ فترة اللُّغُوب ، ولا تزال الناس فى عشق معانيه ضربا واحداً والعاشقون ضروب ، ولما وقفت عليه قلت : سبحان من أعطى سيدنا فلم يَبْخَل ، وخَصَّه بنُبُوَّة البيان إلا أنه لم يُرْسَل ، ولولا أن الوحى قد سُدَّ بابه لقيل: هذا كتاب منزل ، ولقد خار الله لأولى الفصاحة إذ لم يَحْيَوْا إلى عصره ، ولم يُبْتَلَوا فيه بداء الحسد الذى يُصْليهم بتوقُّد جَمْره ، ولئن سلموا من ذلك فما سلمت أقوالهم من أقواله التى مَحَتْهَا مَحْوَ المداد ، وقد كانت باقيةً بعدهم فلما أتى صارت كما صاروا إلى الأَلْحَاد .

وفى هذا الفصل شىء من المعانى الشعرية كقول البحترى (٢) :

مُسْتَمِيلٌ سَمْعَ الطَّرُوبِ الْمُعَنَّى ‏ عَنْ أَغَانِيِّ مَعْبَدٍ وَعَقِيدِ (٣)

---

(١) رواية الحماسة :

فَإِنْ تَسْجُنُوا الْقَسْرِيَّ لَا تَسْجُنُوا اسْمَهُ ‏ وَلَا تَسْجُنُوا مَعْرُوفَهُ فِي الْقَبَائِلِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن عبد الملك الزيات ، وأولها قوله :

بَعْضَ هٰــذَا الْعِتَابِ وَالتَّفْنِيدِ ‏ لَيْسَ ذَمُّ الْوَفَاءِ بِالْمَحْمُودِ

(٣) رواية الديوان فى عجز هذا البيت :

* عَنْ أَغَانِي مُخَارِقٍ وَعَقِيدِ *

وانظر الديوان (١ - ٢٠٦ مصر) .

وقول الشريف الرضى رحمه الله[(١)] :

عَشِقْتُ وَمَالِى يَعلَمُ اللهُ حَاجَةٌ ... سِوَى نَظَرِى، وَالْعاشِقُونَ ضُرُوبُ

وفيه أيضاً شيء من معانى القرآن الكريم ، إلا أنها جاءت ضمناً وتبعاً ، وموضعها يأتى بعد الأبيات الشعرية .

وكذلك ذكرت فصلا آخر من هذا الأسلوب، وهو : إن للكلمة طعماً يُعْرَفُ مَذَاقُه من بين الكلام ، وخفّة الأرواح معلومة من بين ثقل الأجسام ، فلو لم نعرفه بطعمه ، عرفناه بوسمه ، والصباح لا يُتَمَارى فى إسْفَاره ، ولا يفتقر إلى دليل على إشراق أنواره ، وقد علم أن العرف يعرف بغصنه ، وأن القول يعرف بلَحْنِه ، ونفائس هذه العقود لا يبرزها إلا أنفاسه ، فَدُرَرُها لفظه وسلوكها قِرْطاسه .

ومن هذا الباب قولى أيضاً ، وهو: ألفاظ كخَفْقِ البُنُود ، أو زأر الأسود ، ومعان تدل بإرهافها أنها هى السيوف وأن قلوباً تَمْتَها هى الغمود ، فيخالها المتأمل حَوْمَة طِعَان، أو حَلْبَة رِهان .

و بعض هذا مأخوذ من شعر البحترى[(٢)] :

يَقْظَانَ يَنْتَخِبُ الكَلاَمَ كأنَّهُ ... جَيْشٌ لَدَيْهِ يُرِيدُ أنْ يَلْقَى بِهِ

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب إلى بعض الإخوان من أهل الكتابة

(١) من قصيد له فى الغزل ، وأولها قوله :

يَقَرُّ بِعَيْنِى أنْ أرَى لَكِ مَنْزِلاً ... بِنَعْمَانَ يَزْكُو تُرْبُهُ وَيَطِيبُ

وانظر الديوان (١ – ١٤١) .

(٢) من كلمة له يعاتب فيها إسماعيل بن شهاب ، وأولها قوله :

هَلْ لِلنَّدَى عَدْلٌ فَيَغْدُو مُنْصِفاً ... مِنْ قَبْلِ إسماعِيلِهِ ابْنِ شِهَابِهِ

انظر الديوان (١ – ٧٢ مصر) .

كان اعتدى عليه شخص يدعى الكتابة وليس من أهلها ، فقلت : وقد نِيطَ بسيدنا قلمَا الخَطِّ الذان ينسب أحدهما إلى المداد وينسب الآخر إلى الصِّعَاد[١] ، فهو يدير هذا فى معركة المقال وهذا فى معركة الطِّراد ، ولربما صَهَلَ أحد قلميه من فوق صَفَحَات الدروج ، كما تَصْهَلَ الجيادُ من تحت أعْوَاد السُّروج ، فله احتفال المواطن والمجالس ، وإليه غِنَاء أصحاب العمائم والقَلَانس ، لا كمن لايجاوز هَمُّهُ طرفى ردائه ، وإذا نودى لفضيلة قيل إنما يسمع الحىّ بندائه ، وكم فى الناس من صُوَر لاتجد لمعناها أثرا ، وإذا رأيتها قلت أرى خَالاً ولا أرى مطرا ، وأىُّ جمال عند من ليس له إلا جمال ثيابه ، وهل يَنْفَعُ السيفَ الكَهَامَ أن تُجْعَلَ من الذهب حليةُ قِرَابه ، وكل من هؤلاء ذَنَبٌ يسعى بغير راس ، ولا له هَمٌّ إلا فى عيشة الطاعم الكاس[٢] وإذا اعتبر حاله وجد من البهائم وإن كان منسوبا إلى الناس ، والسيادة ليست فى وَشْى الثياب ، ولا فى طيب الطعام والشراب ، وإنما هى فى شيئين : إما شهامة قلم تَفْرَق لها قلوب الغمود ، أو شهامة رمح تَفْرَق لها قلوب الأسود ، وكأنى بقوم يسمعون هذا وكلهم يتمض امتعاض المُغْضَب ، وَتَتَابَعَ نفسه تتابع المتعب ، ويعترض الشَّجَى فى حلقه حتى يَغَصَّ من غير أن يشرب ، ولم يزل بالحساد من سيدنا داء يورثهم أرَقًا ، ويوسعهم شَرَقًا ،

(١) الصعاد ـ بكسر الصاد ـ : جمع صعدة ـ بفتح فسكون ـ وهى القناة المستوية التى نبتت كذلك فهى لاتحتاج إلى تثقيف .

(٢) يشير إلى قول الحطيئة :

دَعِ المَكَارِمَ لاتَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا   وَاقْعُدْ فإنكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسِى

ويراد بالطاعم الكاسى الذى يؤتى له بالطعام والكسوة من غير أن يتجشم لهما ؛ فهما بمعنى المطعوم المكسو ، وهذا هو الذى حمل النحاة على أن قالوا: الطاعم الكاسى فى هذا ونحوه بمعنى المنسوب إلى الطعام والكسوة .

وكثيراً ماتَعْرَق له جباههم وكذا الميت يَنْدَى جبينه عرقا ، وما أرى لهؤلاء دواء إلا أن يطرحوا عن منا كبهم ثقل المساجلة ، والحسد إنما يكون ممن يجرى مع صاحبه فى مِضْمار المماثلة ، وكنت أحبُّ أن يقام على الكتابة محتسب حتى يتفلس منها خلق كثير ، وتستريح جياد كثيرة من ركوب حمير ، وفى مثل هذا السوق يظهر أهل الْخِلَابة والنجش ، وما منهم إلا مَنْ هو فى الحضيض الأسفل وقد أجلس نفسه قائمة العرش ، ونار الآلة العمرية تميز خالص النقود من زَيْفِهاَ ، ولا حيف فى هذا المقام على من أسرفت دعواه الكاذبة فى حَتْفها .

وبعض هذا الفصل مأخوذ من شعر عبد السلام بن رَغْبَان عُرِف بديك الجن[1] :

يُزْهى بهِ الْقَلَمَانِ إلاَّ أنَّ ذَا   لَدْنُ الْمَجَسِّ وَأَنَّ ذَا بِكُعُوبِ[2]

عُودَانِ : يَقْضُبُ ذَا الطُّلَى بِلُعَابِهِ،   وَيَجُوبُ ذَا الْمُهَجَاتِ بالتَّرْكِيبِ

ويكفيك أيها المتوشح لنثر الشعر أن تنظر إلى هذا الفصل ، وتتأمل الموضع الذى أخذت معنى هذين البيتين ووضعته فيه ؛ فإن فيه غناء وَمَقْنَعاً .

وأما حَلُّ آيات القرآن العزيز فليس كنثر المعانى الشعرية ؛ لأن ألفاظه ينبغى أن يحافظ عليها ، لمكان فصاحتها ، إلا أنه لاينبغى أن يؤخذ لفظ الآية بجملته ؛ فإن ذلك من باب التضمين ، وإنما يؤخذ بعضه ، فإما أن يجعل أولا لكلام أو آخرا ، على حسب مايقتضيه موضعه ، وكذلك تفعل بالأخبار النبوية .

على أنه قد يؤخذ معنى الآية والخبر فيكسى لفظاً غير لفظه ، وليس لذلك من الحسن ماللقسم الأول ؛ للفائدة التى أشرنا إليها .

---

(١) فى ب ، ج « عبد السلام بن رعبان » بالعين مهملة فى اسم أبيه ، وهو تصحيف ، وانظر ابن خلكان .

(٢) فى ج « لدن المجلس » وهو تصحيف شنيع ، وورد فى ب على وجه الصواب .

وقد سلكت فى ذلك طريقاً اختَرَعْتُها ، وكنت أنا ابن عُذْرَتِها ، وعند تأمل ماأوردته منها فى هذا الكتاب يظهر للمتأمل صحة دعاوىَّ ، ولئن كان مَنْ تَقَدَّمنى أتى بشىء من ذلك فإنى ركبت فيه جواداً وركب جملا ، ونال من مورده نهلة واحدة ونلت منه نَهَلا وعَلَلا ، ومن آتاه الله فى القرآن بصيرةً فإنه يسبك ألفاظه ومعانيه فى كلامه ، ويستغنى به عن غيره ، إلا أنه ينبغى أن يكون فيه صَوَّاغا يخرج منه ضروب المصوغات ، أو صَرَّافا يَتَجَهْبَذُ فى نقوده المختلفة من الذهب المختلف الألوان ، ولا أقول من الفضة ؛ فإنه ليس فيه من الفضة شىء ، وهو أعلى من ذلك ، أو يكون فيه تاجراً يديره على يده ، ويتصرَّف فى أرباحه ، ويخرج من الأمتعة المجلوبة من مناسجه كُلَّ غريبة عجيبة ، وكل هذا يفهمه من عرف فلزم ، وحكم بما علم .

وَمَا كُلُّ مَنْ قالَ الْقَرِيضَ بِشَاعِرٍ وَلاَ كُلُّ مَنْ عانَى الْهَوَى بِمُتَيَّمِ

واعلم أن المتصدِّىَ لحل معانى القرآن يحتاج إلى كثرة الدرس؛ فإنه كلما دِيمَ على درسه ظهر من معانيه مالم يظهر من قبل ، وهذا شىء جَرَّبْتُهُ، وخَبَرْتُهُ ؛ فإنى كنت آخذ سورة من السور وأتلوها ، وكلما مر بى معنى أثبتُّه فى ورقة مفردة ، حتى أنتهى إلى آخرها ؛ ثم آخذ فى حل تلك المعانى التى أثبتُّها واحداً بعد واحد ، ولا أقنع بذلك حتى أعاود تلاوة تلك السورة ، وأفعل مثل ما فعلته أولا ، وكلما صقَلْتُها التلاوة مَرَّةً بعد مرة ، ظهر فى كل مرة من المعانى مالم يظهر فى المرة التى قبلها .

وسأورد فى هذا الموضع سورة من السور ، ثم أردفها بآيات أخرى من سُوَرٍ متفرقةٍ ، حتى يتبين لك أيها المتعلم مافعلته فتحْذُوَ حَذْوَه ، وقد بدأت بالسورة أولا ، وهى سورة يوسف عليه السلام ؛ لأنها قصة مفردة برأسها ، وفيها معان كثيرة :

فالأول ما ذكرته فى دعاء كتاب من الكتب ، وهو : وَصَلَ كتابُ

الحضرةِ السامية أحْسَنَ الله أثرها ، وأعْلَى خطرَها ، وَقضى من العلياء وَطرَها ، وأظهر على يدها آيات المكارم وسوُرَها ، وأسجد لها كواكبَ السيادة وشمسها وقمرها .

وهذا أول معنى فى السورة ، وقد نقلته عن قصة المنام إلى الدعاء .

ثم أبرزت هذا المعنى فى صورة أخرى ، وهو : أكرَمُ النِّعَمِ ما كان فيها ذكرى للعابدين ، وتقدمه إنى رَأيتُ أحدَ عشرَ كَوْكباً والشمسَ والقمرَ رَأيتهمْ لى ساجدين ، فهذه النعمة هى التى تأتى بتيسير العسير ، وتجلو ظُلْمَةَ الخَطْب بالصباح المنير ؛ فانظر إلى أثَرِ رحمة الله كيفَ يحيي الأرْض بعدَ موْتها ، إنَّ ذلكَ لمحيي الموْتى وهوَ على كلِّ شيء قديرٍ .

ثم تصرَّفت فى هذا المعنى فأخرجته فى معرض آخر . وهو فصل من جملة تقليد يكتب من ديوان الخلافة لبعض الوزراء ، فقلت : وقد علمه أمير المؤمنين فأدنى مجلسه من سمائه ، وآنسه على وحدة الانفراد بمحفل نعمائه ، ورفعه حتى وَدَّت الشمس لو كانت من أترابه والقمر لو كان من ندمائه ، وذلك مقام لا تستطيع الجُدُود أن ترقى إلى رتبته ، ولا الآمال أن تطوف حول كعبته ، ولا الشفاه أن تتشرف بتقبيل تربته ، فليزد إعجاباً بما نالته مواطئُ أقدامه ، ولينظر إلى سجود الكواكب له فى يقظته لا فى منامه .

ومن ذلك ما ذكرته فى ذم بخيل ، وهو : لم أر كمَوَاهب فلان مَلَأَتْ أملي بطمع وعودها ، وفرغت يدى من نيل جودها ، فلم أحظ إلا بلامع سرابها ، وكانت كدم القميص فى كذابها .

ومن ذلك ما ذكرته فى تزكية إنسان مما رمى به ، وهو : لم تُرْمَ بذنب إلا نابت البراءة له مناب الشهود ، وجىء من أهلها بشهادة القميص المقدود .

ومن ذلك ما ذكرته فى عذر الهوى ، وهو : لم يَهْوَ حبيباً إلا كان لأهل

التقى فيه أسوة ، ولا ليم من أجله إلا اعتذر عذر امرأة العزيز إلى النسوة .

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من جواب كتاب إلى بعض الإخوان ، وهو : إن كان الكلام كما قيل ذَكَراً والجواب أنثى فجوابى هذا عروس تجلى فى حُلَلِها المحَبَّرَة ، وعقودها المشذرة ، وتُزْهى بما آتاها الله من الحسن الذى ليس بالمجَلوب ، ولا ترضى بتقطيع الأيدى دون تقطيع القلوب ، وها قد أرسلتها إلى سيدنا حتى يعلم أن نتائج خاطرى على الفطرة ، وأنها معشوقة الصور فكل الناس فى هواها بنو عُذْرَة .

وفى هذا الفصل معنى الآية والخبر النبوى والبيت من الشعر .

ومن ذلك ماذكرت فى تقلب الأيام ، وهو : لقينا أياما ضاحكات ، وليتها أيام عابسات ، فكانت كَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ .

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف كريم ، وهو : ليس ممن يرقب تَجَفّ الزمان فَيَذَر الحب فى سُنْبُله ، ولكنه يستأنف الصبر فى آخره ويستهلك المال فى أوله ، فلا يبقى من يومه لغده ، ولا يتَّهِمُ ربه فيما بِيَدِه .

ومن ذلك ما ذكرته فى حب الرشوة ، وهو : الرِّشْوَة تحلّ عُقَدَ القلوب ، وتهوّن فراق المحبوب ، ألا ترى أن ردّ البضاعة ، حكم على أخى يوسف بالإضاعة .

ومن ذلك ما ذكرته فى الاستسلام لحكم الأقدار ، وهو : لا تحترس من جنود الأقدار بالآراء المتعمقة ، وسواء عندها البابُ الواحدُ والأبواب المتفرقة .

ومن ذلك ما ذكرته فى تتابع الإساءة ، وهو : لم يزل يَرْشُقُنِى بقوارصه حتى تكاثر النَّبْل واستحكم التَّبْل ، ولم يكفه الإلقاء فى غَيَابَة الجبّ حتى قال : إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ .

ومن ذلك ما ذكرته فى التوكل ، وهو : إذا طلب أمراً أجمل فى المطلوب ، ووكَلَه إلى الذى بيده مفاتيح الغيوب ، وتأسى فى حاجته منه بالحاجة التى كانت فى نفس يعقوب .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف الكيد ، وهو : لم يَأْتِ أمراً إلا أخفى أسباب أَوَاخِيه ، وبدأ فيه بالأوعية قبل وِعاء أخيه .

وهذه ثلاثة عشر معنى من سورة يوسف عليه السلام .

وأما الآيات التى هى من سور متفرقة فأولها ما كتبته فى صدر كتاب إلى بعض الإخوان جوابا عن كتابه ، وهو : وَرَدَ كتابُهُ عشيةَ يوم كذا فعُرِض على عَرْضَ الجياد على سليمان ، وتساوينا فى الاشتغال منه ومنها بالاستحسان ، غير أن الجياد وإن حسنت فإنها لاتبلغ فى الحسن مبلغ الكتاب ، لكن قلت كما قال إِنِّى أحببْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبى حتى توارتْ بالْحِجَابِ ، ولئن قضى الاشتغال هناك بمسح سُوقٍ وأعناق ، فإنه لم يقض هٰهنا بمسح سطور ولا أوراق ، وإنما اشتغلت عن عبادة بعبادة ، ولو شئت لقلت عن إفادة بإفادة .

وهذا مأخوذ من قصة سليمان عليه السلام فى سورة صٓ ، وهى قوله تعالى : (وَوَهَبْنا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) ، فانظر كيف أخذت هذه القصة وقابلت بينها وبين الكتاب ، ثم إنى تصرفت فيها بالموافقة بينهما تارة والمخالفة بينهما أخرى ، وهكذا ينبغى أن يفعل فيما هذا سبيله .

ومن ذلك ما كتبته عن الملك الأفضل على بن يوسف إلى الديوان العزيز النبوى ببغداد فى فصل من كتاب ، وهو: وقد علم أن المال الذى يُخْتَزَن ، كالماء الذى يُحْتَقَن ، فكما أن هذا يَأْجُنُ بتعطيل الأيدى عن امتياح مشار به ، فكذلك يأْجُنُ هذا بتعطيل الأيدى عن امتياح مواهبه ، وأىُّ فرقٍ بين وجوده وعدمه لولا أن تُمْلَكَ به القلوب ، وتقلَّ به الخطوب ، ويُرْكَبَ به ظهرُ العزم الذى ليس بِرَكُوب ، ومَنْ بَسَطَ الله يده فيه ثم قبضها بخله فإنه يقف دون

الرجال مغموراً ، ويقعد عن نيل المعالى مَلُوماً مَحْسُورا ، وإذا أدركته منية مضى وكأنه لم يكن شيئاً مذكورا ، ومذ ناط الله بيد الخادم ما ناطه من أمر بلاده لم يدخر منها إلا مَرْبِط أشقره ، ومركز أسمره ، وما عداهما فإنه مصروف إلى قوة الإسلام فى سد ثُغُوره وتكثير جنوده ، وإيقاد حرب عدوه بعد خمودها واستباحة جمرها عند وقوده ، وما يَفْضُل عن ذلك فإنه للناس يشتركون فى وَشَله وغَمْرِه ، والمُسْلِم أخو المسلم يساويه فى حقه من بيت المال وإن خَالَفَهُ فى مزية قَدْرِه ، ولا سبيل على الخادم وهو يفعل ما يفعله أن يُدلس من هذا المال بتبعة المطلوب ، أو يلتحق بالقوم الذين يكنزونه فيجزى عليه بكىّ الجباه والظهور والجنوب ، ولم يأت به الله على فَتْرَة من مثله إلا ليمحو به سيئات الدين ويعيد به الإسلام إلى وطنه بعد أن طال عهده بمفارقة الوطن ، ولا يكون حسنة من حسنات أمير المؤمنين ، ترقمها الدنيا فى ديوانه ، وتثقل بها فى الآخرة كِفَّة ميزانه .

وفى هذا الفصل معنى آيتين : إحداهما فى سورة هل أتى ، والأخرى فى سورة براءة .

ومن ذلك ما كتبته عنه إلى عمه الملك العادل أبى بكر بن أيوب من كتاب يتضمن استعطافه والتنصُّل إليه ، وهو : من شيمة الأقدار أن تذهب ببصائر ذوى الألباب ، ويمثل لهم الخطأ فى مثال الصواب ، ولولا ذلك لَمَا زَلَّ الحكيم واعْوَجَّ المستقيم ، والمملوك يُقَبِّلُ اليد الكريمة المولوية الملكية العادلية لازال عُرْفُها مأمولا ، وَإحسانها عند الله مقبولا ، وفعلها فى المكرمات مبتدعا إذا كان فِعْل الأيادى مفعولا ، ونستغيث إلى عفوها الذى يكفى فيه لفظة الاعتذار ، ولا يَنْفَدُ بمواظبة الآصار ، ولو عرف ذنبه بادياً لقَرَعَ له سن الندامة ، وعاد على نفسه

بالملامة . ولما كان عجيباً أن يكون مُليماً ، وأن يكون مولانا كريما ، لكنه حمل آصرة الذنب وهو برىء من حملها ، وخاف أن تكون هذه كأخواتها التى سلفت من قبلها ، والأمور المتشابهة يُقاس البعض منها على البعض ، والملسوع لايستطيع أن يرى مَجَرّ حَبْلٍ على الأرض ، ولم يجترم المملوك الآن جريمةً سوى أن فر إلى الاعتصام ، وألقى بيده إلى أقوام لم يكونوا له بأقوام ، و إذا ضاق على المرء أقربه كان الأبعد له من ذوى الأرحام .

وليس بأوّل مَنْ ذهب هذا المذهب ، ولا بأول من حمل نفسه على ركوب هذا المركب ، ولئن قال بعض الناس إنه تَعَجَّل فى اعتصامه وفراره ، وإنه لو صبر لحمد مَغَبّة اصطباره ، فهذا قول من لم يعرف حال المملوك فيقيم له عذرا ، ولا ابْتُلى بما ابتلى به من قوارص مولانا مرة بعد أخرى ، ولقد تكاثرت عليه هذه الأقوال المؤنبة حتى ملأت طرفه كحل السُّهاد ، وجنبه شوْكَ الْقتاد ، وأصبح وهو يرى أنه زلق فى خطيئته زلقا ، وغص بندمه من أجلها شرَقا ، وبدت له سوأته حتى طفق يخصف عليها ورقا ، ومع هذا فإنه واثق أن حِلْمَ مولانا لايؤتى من الزلل ، وأن حَصَاة الذنوب لاتخف بوزن ذلك الجبل ، وها هو قد جاء نازعا وللنازع الْعُتْبَى ، وعاد مستشفعاً ولا شفيع أكرم من القربى .

ثم مضيت على هذا النهج إلى آخر الكتاب .

وفى الذى أوردته من هذا الفصل معنى آية من القرآن فى سورة الأعراف ، وهى قوله تعالى : (فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ) .

ومن ذلك ما كتبته عن الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان بن مسعود صاحب الموصل إلى الديوان العزيز ببغداد بعد وفاة والده يسأل فى التقليد ، وكان عمره إذ ذاك ستَّ عَشْرَةَ سَنَةً ؛ فمما جاء فى صدر الكتاب بعد الدعاء قولى ،

وهو : إذا تُوفِّىَ ولىٌّ من أولياء الدولة فمن السُّنَّة أن يعزى بفقده ، ويستخرج إذنها فى سليله القائم من بعده ، حتى لا تخلو أرضها من رواسى الجبال ، ولا سماؤها من مطالع الكواكب التى تجلو ظلمة الليال ، وقد مضى والد العبد إلى رحمة الله وهو متزود من الطاعة خير زاد ، غير خائف من إحصاء الرقيب العتيد إذ جعلها له من الْعَتَاد ، وما عليه وقد ثَقُلَتْ كِفَّةُ مِيزانه ما كان فى الكفة الأخرى من السجلات الكثيرة الأعداد ، ومضمون وصيته التى عهدتها أن تمشى فى الطاعة على أثَرِه ، ونهتدى بالأوامر الشريفة فى مَوْرِد الأمر ومَصْدَره ، وقد جعلها العبد نَجِىَّ فكره إذا قام وإذا قعد ، وسُبْحَة صلاته إذا ركع وإذا سجد ، وهو يرى أنه لم يَمْضِ والده حتى أبقى للدولة من يثبت قدمه موضع قَدَمِه ، وعند ذلك يقال : إن غُصْنَ الشجرة كالشجرة فى ثبات أصله وقوة مَعْجِمِه ، وهذا مقام لا تمتاز فيه الآباء عن الأبناء ، وليست المزية لاكْتِهَالِ السن إنما هى لشبيبة الغناء ، وقد أُوتى يَحْيَى الحكم قبل أن يجرى القلم فى كتابه ، وشهد له بالتزكية قبل أن ينتصب فى مِحْرَابه ، وكذلك قد أمَّرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أُسامة على فَتَاء عُمْرِه ، وشهد أنه خليق بما أُسْنِدَ إليه من أمره ، والعبد وإن بسط الاستحقاقُ لسانَه فإن الأدب يحكم بانقباضه ، ويريه أن التفويض إلى إنعام الديوان العزيز أسرع فى نُجْح أغراضه ، ولا شك أن منتهى الآمال لا يبلغ أدنى تلك المواهب ، ولو جمعت فى صعيد واحد ثم سألت مطالبها لما نقصت خزائن العطايا من تلك المطالب .

وهذا الفصل من أول الكتاب ، وفيه معنى آيتين من سورة مريم عليها السلام : أما الأولى فقوله تعالى عند ذكر يحيى عليه السلام : (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) وأما الثانية فقوله تعالى : (وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا) وفى هذا الفصل أيضاً معانى ثلاثة من الأخبار النبوية ، وليس هذا موضعها ، وإنما جاءت ضمناً وتبعا .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف الغبار فى الحرب ، وهو : وعَقَدَ العجاج شفقا فانعقد ، وأرانا كيف رَفْعُ السماء بغير عَمَدَ ، غير أنها سماء بُنِيَتْ بسنابك الجياد ، وزُيِّنَتْ بنجوم الصِّعاد ، ففيها مايوعد من المنايا لا مايوعد من الأرزاق ، ومنها تقذف شياطين الحرب لاشياطين الاستراق .

وهذه المعانى مأخوذة من سورة الرعد ، وسورة الصافات ، وسورة الذاريات .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف طعام ، وهو فصل من كتاب ، فقلت : طعام لايُمَلّ إذا شينت الأطعمة بملِّها ، وكأنما توَلَّته يد الخلقة ولم تباشره الأيدى بعملها ، فهو من بقايا المائدة التى نزلت من السماء ، وقد طاب حتى لايُحْتَاج من بعده إلى استعمال الماء ، وما رآه ذو شِبَعٍ إلا رأى ترْكه غَبْنا ، ووَدّ لو زيد إلى بطنه بطنا .

و بعض هذا مأخوذ من سورة المائدة .

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة ، وهو : قد تكاثرت وَسائل الخادم حتى لايدرى ما يجعله لطلابه سفيرا ، وما منها إلا مايقال: إنه أول وليس فيها مايجعل أخيراً ، غير أنه لايذكر منها إلا ماهو توْأم إيمانه ، والذى لاينظر الله من ابن آدم إلا إلى مكانه ، وفى ذلك كاف عن الوسائل التليدة والطريفة ، وقول لاإله إلاّ الله لايعدله شىء من الحسنات المودعة فى الصحيفة ، وقد تجدَّد الآن للخادم مطلب هو بالنسبة إلى مواهب الديوان العزيز يسير ، ولو قامت مَطالبُ الناس فى صعيد واحد لأعطى كلا منها مَرَامه ولم يقل ذلك كثير ، وكتابه هذا سائر إلى تلك المواهب التى يضيق عنها صدر الأرض باتساعه ، وليس الذى يسأله مُمتَنَعاً فيُحَال على النظر إلى الجبل فى امتناعه ، وكما أن عبيد الديوان العزيز أطوار فكذلك مطالبهم أطوار ، وقد جعل الله الأشياء متفاوتةً فى مراتبها وكلُّ شىء عنده بمقدار .

وهذا الفصل من أحسن مايكتب فى استنجاز مطلوب ، وفيه معانى ثلاثة أخبار نبوية ، ومعنى آيتين من القرآن الكريم ، وليس هـذا موضع الأخبار ، وإنما جاء ضمناً وتبعا ؛ فالآية الأولى فى سورة الأعراف ، والآية الثانية فى سورة الرعد .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف كاتب ، وهو : إذا دَجا ليلُ قلمه ، وطَلَعَتْ فيه نجوم كَلِمِهِ ، لم يقعد له شيطان بلاغة مَقْعَدًا ، إلا وَجَدَ له شهابا مُرْصَداً ، فأسرارها مَصُونة عن كل خاطف ، مَطْوِيَّة عن كل قائف .

وهذا المعنى مأخوذ من سورة الجن .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف كاتب أيضاً ، فقلت : له بنت فِكْرٍ ما تَمَخَّضَتْ بمعنى إلا أنتجته من غير ماتهمله ، وأتت به قومها تَحْمِله ، ولم يعرض على مَلَإٍ من البلغاء إلا أَلْقَوْا أقلامهم أيُّهُم يَسْتعيره لا أيهم يَكْفُله .

وفى هذين السطرين آيتان من القرآن الكريم : الأولى فى سورة مريم ، وقصتها وقصة ولدها عليهما السلام ، وهى قوله تعالى : (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ) والثانية فى سورة آل عمران فى قوله : (إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ).

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب يتضمن وصف القلم ، فقلت : وقد أوحى الله تعالى إلى قلمه ماأوحاه إلى النحل ، غير أنها تأوى إلى المكان الْوَعْر وهو يأوى إلى البيان السَّهْل ، ومن شأنه أن يجتنى من ثمراتٍ ذاتِ أرواح لاذات أكمام ، ويَخْرُجَ من نفثاته شرابٌ مختلفٌ طعمه فيه شفاء للأفهام ، وأين ماتنبته كثافة الخشب مما تنبته لطافة المعنى ، ولا تَسْتَوى نَضارة هذا الثمر وهذا الثمر ولا طيب هذا المجنى وهذا المجنى ، وقد أرخص الله ما يكثر وجوده فيذهب فى لهوات الأفواه ، وأغلى ما يعز وجوده فيبقى خالداً على ألسنة الرّواه ، وكل هذه الأوصاف لا تصح إلا فى قلم سيدنا الذى إذا خلا بخاطره امتلأت

بحديثه المحافل ، وإذا حلا كتابهُ وُجِدَت الكتب الخالية من قبله وهى عَوَاطل ، فله حينئذ أن ينظر إلى غيره بعين الاحتقار ، ولو اصفه أن يسهب وهو قائم مقام الاختصار .

هذا الفصل غريب عجيب ، وقد جمع بين الأضداد ، فمناله بعيد ، وفهمه قريب ، وهو مأخوذ من سورة النحل .

ومن ذلك ما ذكرته فى ذم بخيل ، وهو : له شِيمَةٌ فى الجود لا يُشَام نائلها ، وإذا هزَّها سائلها قال : إنها كلمة هو قائلها .

وهذا مأخوذ من سورة المؤمنين .

ومن ذلك ما ذكرته فى صدر كتاب ، وهو : وَصَل كتابه فوقف منه على اللفظ الرخيم ، والمعنى الذى هو فى كل وادٍ يهيم ، وقال : يا أيُّها المَلأُ إنِّى أُلْقِيَ إلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ، ثم أخذ فى إعلاء قدره ، وتَنْوِيه ذكره ، ولم يستفت الملأُ فى الإذعان لأمره ، ولا أهدى فى قبالته سوى هدية لسانه وصدره ، لا جَرَم أنها تقبل ولا ترد ، ويعتد بها ولا تعدّ ، فإنها مال لا يُنْفِدِه الإنفاق ، وجوهر تتحلَّى به الأخلاق لا الأعناق

وهذا مأخوذ من قصة سليمان عليه السلام فى كتابه إلى بَلْقِيس ، وهى مذكورة فى سورة النمل ، وفى هذا من شرف الصنعة أنه خولف بين معانيه ومعانى ما أتى به القرآن الكريم .

ومن ذلك ما ذكرته فى صدر كتاب يتضمن ذكر معركة حرب بين المسلمين والكفار ، وهو : إذا خطب القلم عن الرمح الذى هو نَدِيدُه قام محتفلا ، وأسْهَبَ مُتَرَوِّياً ومرتجلا ، حتى يأتى فى خطابته بالمعانى الأخائر ، وأصدق القول ما صدر عن شهادة الضرائر للضرائر ، وكتابنا هذا يصف معركةً احْمَرَّت ضبابتها ، وضاقت بالأسود غابتها ، فالطعن بها محتضر ، والموت محتقر ، والنصر

من كلا الفريقين مقتسر ، وكان الإسلام هناك زجر السنيح ، وفوز القِدْح المَنيح ، وليس الذى يرقب المعونة من الله الذى هو رب المسيح كمن يرقبها من المسيح ، ولقد نفذت الرماح فى أعداء الله تعالى حتى اعتدلت من جانبى الصدور والظهور ، وتركت الناجى منهم وهو لا ينظر إلى الصليب إلا نَظَرَ الخائف المذعور ، فليس لهم من بعدها جيش يجمع ، ولا لواء يرفع ، وقد كانت بلادهم من قبل مانعة وهى الآن لا تذب عنها ولا تمنع ، وهذه معركة قَلّت بها الرقاب المأسورة ، وكثرت النفوس المقتولة ، وقربت بها القرابين التى تأكلها النار لا لأنها مقبولة .

ومعنى الآية فى هذا الفصل مأخوذ من سورة آل عمران ، إلا أنها تخالفه ، وذاك أن القُرْبان كان يقبل فتنزل النار تأكله وأجساد هؤلاء الكفار قربان تأكله النار لكنها لا تأكله لأنه مقبول ، وباقى الفصل يتضمن معنى حسناً رقيقاً .

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب يتضمن الشكوى من خُلُق بعض الإخوان ، وهو : ولَقَدْ صبرت على أخلاقه العائثة ، وعاملته بالخليقة الرائثة ، وعالجته بضروب المعالجات فلم تنفع فيه رُقى الراقية ولا نَفْثُ النافثة ، ولما أعيا علىّ إصلاحه أخذت بمقالة الخضر لموسى فى المرة الثالثة .

وهذا مأخوذ من قصة موسى عليه السلام وقصة الخضر فى سورة الكهف .

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب ، وهو : تجمعوا فى نار الندم يُعْرَضُون عليها غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وصار الأمر الذى كانوا يرجونه مَخْشِيًّا ، وَأَضْحَوْا كأهل النار الذين صاروا أعداء وكانوا شيعاً ، وقال ضعفاؤهم للذين استكبروا : إنّا كنا لكم تبعًا .

وهذا مأخوذ من سورة حم المؤمن ، ومن سورة سبأ .

ومن ذلك ما ذكرته فى ذم غلام أَبْلَه كنت أقاسى من بَلَهه نكدًا فكتبت

يوماً من الأيام إلى بعض إخوانى كتاباً وعرضت فيه بذكره ، فقلت : ولقد ملكه النسيان حتى كأنه يَقِظٌ فى صورة نائم ، وحتى حَقَّق قول التناسخ فى نقل أرواح الأناسىّ إلى البهائم ، فما أُرْسِل فى حاجة إلا ذهبت عن قلبه يَمْنَةً ويَسْرَةً ، ولا طلب منه ما استحفظه إلا قال : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ .

وهذا فصل يشتمل على عدة معان ؛ منها ما هو مأخوذ من القرآن الكريم من سورة الكهف .

ومن ذلك ما ذكرته فى تقليد قاض ، وهو فصل منه ، فقلت : والفضائلُ مابَقِيتَ موجودةٌ ولم تفقد ، وهى حية وإن أَوْدَى أربابها ، ولا يموت من لم يولد ، ومِنْ أكرم ما أُوتِيه منها فضيلةُ التقوى التى الكرم من شعارها ، والعاقبة والحسنى كلاهما من آثارها ، وما نقول إلا أنه اتخذها حارساً يمنع الخصم من تَسَوُّر محرابه ، ويؤمن قلبه من الفتنة الداعية إلى استغفاره ومَتَابه ، وقد قَرَنَ الله له هذه الفضيلة بالعلم الذى أعلمه بعلامته ، ووَسَمَه بوسامته ، وقذف فى روعه ما لايسأل معه عن السفينة وخرقها والغلام وقتله والجدار وإقامته ، وعلى ما بلغه منه فإنه فيه أحد المَنْهُومَيْن اللَّذين لا يشبعان ، وإذا كان لغيره فيه نظر واحد ومَسْمَع فله فيه نظران ومَسْمَعان .

وفى هذا الفصل المختصر معانى عدة آيات ، وخبر من الأخبار النبوية ؛ أما الآية الأولى فقوله تعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) وأما الآية الثانية فقوله تعالى : (وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) وأما الثالثة فقوله تعالى: (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ) وأما الآية الرابعة فقوله تعالى : (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِى السَّفِينَةِ خَرَقَهَا) وكذلك إلى آخر القصة ، وهذا من أحسن ما يأتى فى هذا الباب .

ومن ذلك ما ذكرته فى جملة كتاب يتضمن عناية ببعض الفقراء ، فقلت

بعد الابتداء بصدر الكتاب : وقد علم منه أنه يعد لطالب فضله فضلا ، ويرى التبرّع بمعروفه فرضاً إذا رآه غيره مع المُساءلة نفلا ، وما ذاك إلا لمزية خلق توجد بطيب التربة ، وشرف الرتبة ، وأوتى من كنوز الكرم مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ، ولهذا خرج على قومه من الأخلاق فى زينته ، وفَضَلَ الخَلْقَ بطينة غير طينته ، ومن فضله أنه يسأل عن السائلين ، ويحتال فى استنباط أمل الآملين

ثم مضيت على هذا النهج حتى أنهيت الكتاب .

والغرضُ أن تعلم أيها المتعلم كيف تَضَعُ يدك فى أخذ ماتأخذه من بعض الآية ، ثم تضيف إليه كلاما من عندك ، وتجعله مسجوعا كما قد فعلت أنا فى هذا الموضع ، ألا ترى أنى أخذت بعض هذه الآية فى قصة من سورة الْقَصَص ، وهى قوله تعالى : (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) فهذه الآية أخذت بعضها وأضفت إليه كلاما من عندى حتى جاء كما تراه مسجوعا ، وكذلك فعلت بالآية الأخرى من هذه السورة أيضاً ، وهى قوله : (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) وهكذا ينبغى لك إذا أردت أن تسلك هذه الطريق ، وَقدَرت على سلوكها ، وهى من محاسن الصناعة البلاغية ، وليس فوقها من الكلام ماهو أعلى درجة منها ؛ لأنها ممزوجة بالقرآن لا على وجه التضمين بل على وجه الانتظام به ، والله يختص بها من يشاء من عباده .

وفيما ذكرته من نثر هذه الآيات كفاية للمتعلم .

وأما الأخبار النبوية فكالقرآن العزيز فى حل معانيها .

فإن قلت: إن الأخبار النبوية لا يجرى فيها الأمر مَجْرَى القرآن ؛ إذ القرآن له حاصِرٌ وضابط ، وكل آياته تدخل فى الاستعمال ، كما قال بعضهم : لَوْ ضَاعَ منى

عِقال لوجدته فى القرآن الكريم ، وأما الأخبار فليست كذلك ؛ لأنها كثيرة لاتنحصر ، ولو انحصرت لكان منها مايدخل فى الاستعمال ومنها مالا يدخل ، ولا بد من بيان يمكن الإحاطة به ، والوقوف عنده .

قلت فى الجواب عن هذا : إنك أول ماتحفظه من الأخبار هو كتاب الشهاب ؛ فإنه كتاب مختصر، وجميعُ مافيه يستعمل ؛ لأنه يتضمن حكما وآدابا ؛ فإذا حفظته وتَدَرَّبْتَ باستعماله كما أَرَيْتُكَ ههنا حصل عندك قوة على التصرف والمعرفة بما يدخل فى الاستعمال ومالا يدخله ، وعند ذلك تتصفح كتاب صحيح البخارى ومسلم والموطأ والترمذى وسنن أبى داود وسنن النسائى وغيرها من كتب الحديث ، وتأخذ ما يُحْتَاج إليه ، وَأَهْلُ مكة أَخْبَر بشعابها ، والذى تأخذه إن أمكنك حِفْظه والدرس عليه فهو المراد ؛ لأن مالا تحفظه فلست منه على ثقة ، وإن كان لك محفوظات كثيرة كالقرآن الكريم ودواوين كثيرة من الشعر وما ورد من الأمثال السائرة وغير ذلك مما أشرنا إليه فعليك بمداومة المطالعة للأخبار والإكثار من استعمالها فى كلامك حتى تُرْقَم على خاطرك ، فتكون إذا احتجت منها إلى شىء وجدته ، وسَهُل عليك أن تأتى به ارتجالا ، فتأمَّلْ ماأوردته عليك واُعْمَلْ به .

وكنت جردت من الأخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف خبر كلها تدخل فى الاستعمال ، وما زلت أواظب [على] مطالعته مدة تزيد على عشر سنين فكنت أُنْهِى مطالعته فى كل أسبوع مرة ، حتى دار على ناظرى وخاطرى مايزيد على خمسمائة مرة ، وصار محفوظا لايشذ عنى منه شىء ، وهذا الذى أوردته ههنا فى حل معانى الأخبار هو من هناك .

وسأذكر ما دار بينى وبين بعض علماء الأدب فى هذا الأسلوب الذى أنا بصَدَدِه ههنا ، وذاك أنه استَوْعَرَه وأنكره ، وقال : هذا لايتهيأ إلا فى الشىء

اليسير من الأخبار النبوية ، فقلت : لا ، بل يتهيأ فى الأكثر منها ؛ فقال : قد ورد عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه اختصم إليه فى جَنِين فَقَضَى على من أسقطه بغُرَّةٍ عَبْدٍ أو أمَةٍ ، فأين يُسْتَعْمَل هذا ؟ فأفكرت فيما ذكره ، ثم أنشأت هذا الفصل من الكلام ، وأودعته فيه : قد كثر الجهل حتى لايقال فلان عالم وفلان جاهل ، وضرب المثل بباقل وكم فى هذه الصورة الممثلة من باقل ، ولو عرف كل إنسان قَدْرَه لما مشى بدن إلا تحت رأسه ولا انتصب رأس إلا على بَدَنه ، ولكان صاحب العمامة [أحَقّ] بعمامته وصاحب الرَّسَن أحقَّ بِرَسَنِه ، وكنت سمعت بكاتب من الكتاب كَلِمُهُ إلى غَثَاثة ، وقَلَمُهُ بغَاثَة لايَسْتَنْسِر[(١)] وَأيُّ بطش لبَغاثة ، وإذا وجب الوضوء على غيره بالخارج من السبيلين وجب عليه من سُبُل ثلاثة ، هذا وهو يدعى أنه فى الفصاحة أُمَّة وحْدَه[(٢)] ، ومَنْ قُسُّ إيادٍ وسَحْبانُ وائل عنده ؟ وإذا كُشِف عن خاطره وُجِد بليداً لايخرج عن العمه والكمه ، وإن رام أن يستنتجه فى حين من الأحيان قضى عليه بغرةٍ عبدٍ أو أمَهْ ، وكثيراً مايتقدم ونقيصته هذه على الأفاضل من العلماء ، وقد صار الناس إلى زمان يعلو فيه حضيضُ الأرض على هام السماء .

فلما أوردته عليه ظهرت أمارة الحسد على صفحات وجهه وفَلَتَاتِ لسانه ، مع إعجابه به ، واستغرابه إياه ، ثم قال : وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) يشير إلى المثل « إنَّ البِغَاثَ بأرْضِنا تَسْتَنْسِرُ » والبغاث ـ بتثليث الباء ـ من أجبن الطير وفيه يقول الشاعر :

بُغَاثُ الطَّيْرِ أكْثَرُهَا فِرَاخاً ... وَأمُّ الصَّقْرِ مِقْلَاةٌ نَزُورُ

(٢) فى ج « أمة واحدة » وهو تحريف صيره غير ملائم للقرينة الثانية فى السجعة ، وقد جاء فى ب على الصواب الذى أثبتناه .

هذا الحديث ، وهو « لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ وَلَا تِمْثَالٌ » فهذا أين يستعمل من المكاتبات ؟

فتَرَوَّيْتُ فى قوله تروِّيًا يسيراً ، ثم قلت : هــذا يستعمل فى كتاب إلى ديوان الخلافة ، وأمليت عليه الكتاب ، فجاء هذا الحديث فى فصل منه ، وهو : إذا أفاض الخادمُ فى وصف ولائه نَكَصَتْ هممُ الأولياء عن مقامه ، وعلموا أنه أخذ الأمر بزمامه ، فقد أصبح وليس بقلبه سوى الولاء والإيمان ؛ فهـذا يظهر أثره فى طاعة السر وهذا فى طاعة الإعلان ، وما عداهما فإن دخوله إلى قلبه من الأشياء المحظورة ، والملائكة لاتدخل بيتاً فيه تمثال ولا صورة ، فليعول الديوان العزيز على سَيْفٍ من سيوف الله يَفْرِى بلا ضارب ويسرى بلا حامل ، ولا يُسَلُّ إلا بيد حق ولا يغمد إلا فى ظهر باطل ، وليعلم أنه كَرِشُه وعَيْبَته فى تضمن الأسرار ، وأنه أحد سَعْدَيه إذا عدت مواقف الأنصار .

فلما رأى هذا الفصل بُهِتَ له ، وأعجب منه ، ثم إنى لم أقنع بإيراد ذلك الحديث حتى قرنت به حديثاً آخر ، وهو قول النبى صلى الله عليه وسلم: «الْأَنْصَارُ كَرِشِي وَعَيْبَتِي » .

وحيث عرفتك أيها المتعلم ماتقتدى به فى هذا الموضع فقد ذكرت لك أمثلة كثيرة تتدرب بها .

فمن ذلك ماذكرته فى دعاء كتاب من الكتب ، وهو : أعاذ الله أيامه من الغِيَر ، وبَيَّنَ بِخَطَر مجده نقصَ كل خَطَر ، وجعل ذكره زاداً لكل ركب وأنساً لكل سمر ، ومنحه من فضله مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وهذا المعنى مأخوذ من الحديث فى وصف نعيم الجنة فنقلته إلى الدعاء .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف الحلم ، وهو : تركته حتى جال فى المَيْدَان ،

وامتد فى الأشْطَان ، ولم أنتصر خَوْفا من قيام الملك وقعود الشيطان ، والحليم لايظهر أثر حلمه إلا عند تَلَدُّده ، والكظيم هو أشد مايخاف من تبدده .

وهذا المعنى أخذته من قصة أبى بكر رضى الله عنه فى خصامه ، فإنه بغى عليه ثلاث مرات وهو ساكت ، ففى الثالثة انتصر ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كانَ المَلَكُ جالِساً إلى جانِبِ أَبِى بَكْرٍ يُكَذِّبُ خَصْمَهُ بِمَا يَقُولُ فَلَمَّا انْتَصَرَ قامَ المَلَكُ وَقعدَ الشَّيْطَانُ » .

ومن ذلك ماذكرته فى النصرة على العدو فى موطن القتال ، وهو : أخذنا بسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النصر الذى نرجوه ، ونبذنا فى وجه العدو كَفًّا من التراب وقلنا: شَاهَت الْوُجُوه ، فَثبَّتَ الله ماتَزَلْزَلَ من أقدامنا، وأَقْدِمْ حَيْزُومُ فأغنى عن إقدامنا .

وهذان المعنيان أحدهما مأخوذ من حديث غزوة حُنَيْن ، وما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أخذ قبضة من التراب وألقاها فى وجوه الكفار وقوله : «شَاهَتِ الْوُجُوه» ؛ والمعنى الآخر مأخوذ من حديث غزوة بدر ، وذاك أن رجلا من المسلمين لاقى رجلا من الكفار وأراد أن يضربه فخر على الأرض ميتاً قبل أن يَصِلَ إليه ، وسمع الرجل المسلم صوتا من فوقه ، وهو يقول : « أَقْدِمْ حَيْزُومُ » فجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره ، فقال : « ذَاكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ » .

ومن ذلك ماذكرته فى ضيق مجال الحرب ، وهو : وَضَاقَ الضربُ بين الفريقين حتى اتصلت مواقع البيض الذكور ، وتصافحت الفور بالفور والصدور بالصدور ، واستظل حينئذ بالسيوف لاشتباك مجالها ، وتُبُوِّئَتْ مقاعدُ الجنة التى هى تحت ظلالها .

وهو مأخوذ من الحديث النبوى ، وهو قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : « الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ » .

ومن ذلك ماذكرته فى جملة كتاب أَذُمُّ فيه الزمان ؛ فقلت : ولكنها الأيام تُبْدِى لنا من جَوْهَرِها كل غريبة ، وتَسُوسُنا سياسة العبد المجدَّعِ الذى كأَنَّ رأسَه زَبِيبة ، وليس للمرء فيما يلقاه من أحداثها نعمى كانت أو بوسى ، إلا أن يَكِلِ الأمور إلى وليها فيقول : حاجّ آدمُ مُوسَى .

وهذا مأخوذ من الخبر النبوى فى قوله صلى الله عليه وسلم : « حاجَّ آدَمُ مُوسَى، فقَالَ لهُ مُوسَى : أَنْتَ أَخْرَجْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ مِنَ الجنةِ وَأَشْقَيْتَهُمْ ، فَقَالَ لهُ آدَمُ : أَنْتَ الَّذِى اصْطَفَاكَ اللهُ تعَالَى بِرِسَالَتِهِ وَكَلَامِهِ ؟ أَتلومُنِى عَلَى أمرٍ كَتَبَهُ اللهُ تَعالَى عَلَىَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِى ؟ » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « فحجَّ آدمُ مُوسَى » .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف بعض الكتاب ؛ وهو فصل من كتاب كتبته إليه ؛ فقلت : ولقدسَرَدْت عليه أحاديث البلاغة فاستغنى عن بسط ردائه ، وهُدِى إلى جوامع كلمها فاقتدى الناس باهتدائه ، فاذا اشتبهت عنده مسالك طرقها لم يملكه سلطان الحيرة ، وإن أغرب فى أساليبها لم يُقَلْ فيه ماقيل فى رواية أبى هريرة .

وهذا الفصل من أحسن ما يؤتى به فى صناعة نثر المعانى ، وهو مأخوذ من حديث أبى هريرة ؛ قال : قلت : يارسول الله ، أسمع منك أشياء فلا أحفظها ، فقال : « ابْسُطْ رِدَاءَكَ » فبَسَطْتُهُ فحَدَّث حَدِيثاً كثيراً فما نسيت شيئا حدثنى به ؛ وأما رواية أبى هريرة فشكٌّ فيها قوم لكثرتها .

وقد اجتمع فى هذا الفصل معنى الحديث النبوى وغيره ، ومثل هذا لايتفطن له عند الوقوف إلا من تبَحَّر فى الوقوف على الأخبار النبوية ؛ ومن أجل ذلك جعلته ركناً من أركان الكتاب فى الفصل التاسع .

ومن ذلك ما ذكرته فى ذم بعض البلاد الوخمة ، فقلت : وَمِنْ صفاتها أنها

مدرة مستوبلة الطينة ، مجموع لها بين حَرّ مكة ولأواء المدينة ، إلا أنها لم يأمن حرمها فى الخطفة ، ولا نقلت حُمَّاها إلى الجُحْفَة .

فى هذه الكلمات القصار آية من القرآن الكريم ، وخبران من الأخبار النبوية ؛ فالآية من سورة العنكبوت ، وهى قوله تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) وهـذا موضع يختص بالأخبار لابالآيات ، غير أن الآية جاءت ضمناً وتبعاً ، وأما الخبران فالأول منهما قول النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صَبَرَ عَلَى حَرِّ مَكَّةَ وَلَأْوَاءِ الْمَدِينَةِ ضَمِنْتُ لَهُ عَلَى اللهِ الجنَّةَ » وأما الثانى فقوله صلى الله عليه وسلم فى دعائه للمدينة : « اللَّهُمَّ حَبِّبْهَا إِلَيْنَا كما حَبَّبْتَ إِلَيْنا مَكةَ وَانْقُلْ حُمَّاها إلى الجُحْفَةِ » .

فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكلمات حتى تعلم أن عدتها مصوغة من الآية والخبرين سواء بسواء ، وهـذا طريق لو ادَّعَيْتُ الانفراد بسلوكه لما اختلف على فى الاعتراف به اثنان .

ومن ذلك ما كتبته فى كتاب إلى بعض الإخوان جواباً عن كتاب ورد منه ، وكان كتابه تأخر عنى زمانا طويلا ، فقلت : ولما تأملته ضَمَمْتُهُ إلىَّ والتزمْتُهُ ، ثم استلمته والتثمته ، وعلمت أن المعارف وإن قدمت أيامها أنسَاب وَشِيجة ، وتأسَّيْتُ[1] بالخلق النبوى فى العجوز التى كانت تأتى فى زمن خديجة .

وهذا مأخوذ من الخبر المنقول عن عائشة رضى الله عنها ، وهو أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذبح الشاة فيُعَضِّيها[2] أعْضَاء ويقسمها فى أصدقاء خديجة ، وكانت تأتيه عجوز فيكرمها ويبسط لها رداءه ، فسألته عن ذلك ،

(١) تأسيت به : جعلته أسوة وقدوة لى ففعلت مثل فعله .
(٢) يعضيها : يجزئها ويقطعها .

فقال: « هٰذِهِ كَانَتْ تَأْتِينَا فى زَمَنِ خَدِيجَةَ وَحُسْنُ الْعَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ » .

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف كتاب ، وهو: كل سَطْرٍ منه رَوْضة غير أنها ليل فى صباح ، وكل معنًى منه دُمْيَة غير أن ليس على مُصَوِّرها من جُناح .
وهذا مأخوذ من الحديث فى تحريم الصور(١) .

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف كريم ، وهو : فأغنى بجوده إغناء المطَر ، وَسَماَ إلى المعالى سُمُوَّ الشمس وسار فى منازلها مَسِيرَ القمر ، ونتج من أبكار فضائله ما إذا ادَّعاه غيره قيل : لِلْعَاهِرِ الحَجَر .

وهــذا المعنى من قول النبى صلى الله عليه وسلم : « الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ »

ومن ذلك ماذكرته فى وصف الفصاحة ، فقلت : أفكار الخواطر لاتستولد على انفرادها ، وغايتها أن يتناكح فى استنتاج أولادها ، وأنا أنكح فكرى لفكر نكاح الأنساب ، ولا أخاف أن أُضوِىَ فأميل إلى الاغتراب .

وهذا مأخوذ من قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الأمر بنكاح البعيدة النسب فقال: « غَرِّبُوا لاتُضْوُوا» يريد بذلك أن الإنسان إذا نكح المرأة القريبة إليه حصل بينهما حَياءٌ يمنع من قضاء الشهوة كما ينبغى فيجىء الولد ضاويا : أى هزيلا ، وهذا معنى غريب لى استخرجته من الحديث النبوى .

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب إلى بعض الإخوان ، جوابا عن كتاب ورد منه يتضمن الشكوى من شخص جرَتْ بينه وبينه مخاصمة ، فقلت :

(١) روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرِينَ » وذلك أنه عليه السلام كان يخشى أن يعود التصوير بالناس إلى عبادة الأوثان ، وهى أخوف ما كان يخافه على أمته بعد أن أنقذهم الله به وبرسالته من الشرك والوثنية .

وَصَلَ كتابه وهو كتابُ مَنْ أكثر الشكوى، وطلب العدوى، ونزل من التظلم بالعُدْوَة الدُّنيا وأنزل خصمَهُ بالعُدْوَة القُصْوَى، والقاضي لا يحكم لأحد الخصمين حتى يحضر صاحبه، وإن فُقِئَتْ عين أحدهما فربما فُقِئت عين الآخر وهُشِم حاجبه، على أنه قد اعترف أن كليهما كان للحم أخيه آكلا، وعليه في حال مَحْضَره جاهلا، وسبابُ المؤمن معدود من فُسُوقه، وإطراقه عن تورد هذا المقام أولى من طُرُوقه، ولولا تغليظ النكير لما جعل اللسان واليد سواء فيما جَرَحا، ولما أخر الله المغفرة عن الخائضين فيها حتى يصطلحا؛ فكن أنت ممن أطاع تَقْوَاه لاهواه، واتَّبع مَنْ علم الحق فرآه أوسمعه فرواه، واعلم أن تهاجُرَ الأخوين فوق الثلاثة من مَنْهِيَّات الحرام، وأن الفائز بالأجر منهما هو البادىء بالسلام، ودَفْعُ السيئة بالحسنة يجعل العدو وليًّا حميما، وقد جعل الله المتخلق بهذا الخلق صابرا وجعل له حظا عظيما، والشيطان إنما يحوم على آثاره مواقع الشَّنَآن، ولا يحمد من أعمال بنيه شيئا إلا ما زَيَّلَ بين الإخوان.

في هذا الفصل معاني آيات وأخبار، وهذا الموضع مختص بذكر الأخبار دون الآيات؛ فأول المعاني المأخوذة من الأخبار قول النبي صلى الله عليه وسلم «إذَا أَتَاكَ أَحَدُ الخَصْمَيْنِ وَقَدْ فُقِئَتْ عَيْنُهُ فَلاَ تَحْكُمْ لَهُ، فَرُبَّمَا أَتَى خَصْمُهُ وَقَدْ فُقِئَتْ عَيْنَاهُ»؛ وأما المعنى الثاني فقوله صلى الله عليه وسلم: «سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»؛ وأما المعنى الثالث فقوله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الأَعْمَالَ تُعْرَضُ عَلَى اللهِ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فَيَغْفِرُ لِكُلِّ امْرِئٍ لاَيُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا إلاَّ امْرَأً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ؛ فَيَقُولُ: اتْرُكُوا هٰذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا»؛ وأما المعنى الرابع فقوله صلى الله عليه وسلم: «لاَيَحِلُّ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ»؛ وأما المعنى الخامس فقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إذَا الْتَقَى الْمُتَهَاجِرَانِ فَأَعْرَضَ هٰذَا وَأَعْرَضَ هٰذَا فَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ»؛ وأما المعنى السادس

فقوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ إِبْلِيسَ لَهُ عَرْشٌ عَلَى الْبَحْرِ فَيَبُثُّ بَنِيهِ فى آفاقِ الْأَرْضِ ، فَيَأْتِى أَحَدُهُمْ فيقولُ : فَعَلْتُ كَذَا وَفَعَلْتُ كَذَا؛ فيقولُ : مافَعَلْتَ شَيْئًا ، وَيَأْتِى أَحَدُهُمْ فيقولُ: زَيَّلْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ أَوْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ؛ فَيَقُولُ : نِعْمَ الْوَلَدُ أَنْتَ » .

فانظركم فى هذه الأسطر اليسيرة من معنى خبر نبوى ، هذا سوى مافيها من معانى الآيات ، و إذا عددت هذه الكلمات المذكورة فى هذه الأسطر وجدتها جميعها منتظمة من الآية والخبر ، وهذا مما يدلك على الإكثار من المحفوظ واستحضاره عند الحاجة إليه على الفَوْر .

ومن ذلك ما ذكرته فى صدر كتاب ، وهو جواب عن كتاب يتضمَّنُ تهديداً وتخويفاً ، فقلت : وَرَدَ الكتاب مُضَمَّناً من الْوَعْد والْوَعِيد ما آنَسَ نَفْسَ المملوك وأَوْحَشَها ، ونقَعَ ضُلوعَه وأَعْطَشَها ، وأقام له من الظنون السيئة جنوداً تقاتله ، وتأخذ عليه شُعَبَ الأفكار فلا تزاوِله ، وكانت كلماته طوالا وأوراقه ثقالا ، وما أفلت سطر من سطوره إلا كان الآخر له عقالا ، ولما استكمل الوقوف عليه ثقلت أطوار الخوف والرجاء من أطواره ، وعرضت عليه الجنة والنار فى قرطاسه كما عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عرض جداره ، ولولا وثوقه بأناةِ مَوْلانا لذهبت نفسه فَرَقا ، وابتغى فى السماء سلما وفى الأرض نفقا ، لكنه قد توسَّم فى كرمه مَخايِلَ الصنع الوسيم ، وغره منه ماغره من ربه الكريم ، وعلم أن خلق حلمه يغلب خلق غضبه إذ هذا حادث وذاك قديم .

وفى هذا الفصل معنى خبر من الأخبار النبوية ، وهو أنه كان صلوات الله عليه يخطب فمال بيده إلى الجدار ، وقال : « عُرِضَتْ عَلَىَّ الجنَّةُ وَالنَّارُ فِى عُرْضِ هٰذَا الْجِدَارِ فَلَمْ أَرَ كالْيَوْمِ فى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ » .

ومن ذلك ما ذكرته فى صدر كتاب إلى بعض الإخوان ، وهو : الخادم

يُواصل بالدعاء الذى لايزال لقلبه زميلا ، وللسانه رَسِيلا ، وإذا رفع أَدْنَته الملائكة قربا إذا تباعدت عن غيره ميلا ، ولا اعتداد بالدعاء إلا إذا صدر عن أكرم مصدر ، ووجد له فوق السماء مَظْهَرًا وإن لم يكن هناك من مظهر ، ووصف باطنه بأنه الأبيض الناصع الذى هو خير من ظاهر الأشعث الأغبر ، ولا يعامل الخادم أهل وُدِّه إلا بهذه المعاملة ، ومن خلقه المجازفة فى بذل المودة إذا أخذ الناس نسبة المكايلة .

فى هذا معنى خبرين : أحدهما قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إِنَّهُ إِذَا كَذَبَ الْكَاذِبُ تَبَاعَدَ الْمَلَكُ عَنْهُ مِيلاً لِنَتَنِ كَذِبِهِ » ، والآخر قوله صلى الله عليه وسلم : « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّه » .

ومن هذا الباب ما ذكرته فى كتاب يتضمن خطبة مودة ، فابتدأت الكلام فيه بعد تصدره بالدعاء ، فقلت : لولا العادة لرَفَع الخادم كتابه هذا أن يسطر فى وَرَقَة ، وليس ذلك إلا لإرساله فى خطبة مودة رأى صورتها فى سَرَقَة ، ولما تأملها قال : إنْ يكن ذلك من عند الله يُمْضِه ، وأبدى لها صفحة الرضا وإن كانت كل مودة لم تُرْضِه ، وخير المودات ما ليس لها ضرة تشاركها فى وَسامتها ، ولا تُضَاهيها فى درجة كرامتها ؛ فتلك التى تزدهى ذا الهمة أبوة وجمالا ، ولم يُغْله مهرها ولو بذل فيه نفساً لا مالا ، وما يظنها الخادم إلا هذه المودة التى خطبها ، وقد عَلَتْ أن تكون راغبة ولكن هو الذى أرغبها ، على أنه لم يترشح لها إلا مَنْ هو من أكفائها ، وليست الكفاءة هٰهنا إلا ما تبذله الضمائر من صفائها ، وقد أتاح الله لها كُفْئاً يكثر من إيناسها ، ويَضَعُها من البِرّ فى محلة ناسها ، ويجعل كل يوم من أيامها عُرْساً حتى تتصل مواسم أعراسها .

ثم مضيت على هذا النهج إلى آخر الكتاب ، والمعنى المأخوذ فيه من الخبر

النبوى فى موضعين : الأول أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضى الله عنها « إِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام عَرَضَ عَلَيَّ صُورَتَكِ فِي سَرَقَةٍ » والسرقة : حريرة بيضاء « وَقَالَ: هٰذِهِ زَوْجَتُكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، فَقُلْتُ: إِنْ يَكُنْ ذٰلِكَ مِنْ عِنْدِ اللهِ يُمْضِهِ » فأخذت أنا هذا المعنى ونقلته إلى خطبة مودة ، ولا يأتى فى خطبة المودات شيء أحسن منه ، ولا ألطف ، ولا أشد مقصدا ؛ الخبر النبوى الثانى قول النبى صلى الله عليه وسلم: « إِنَّمَا تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِحَسَبِهَا أَوْ لِدِينِهَا أَوْ لِمَالِهَا أَوْ لِجَمَالِهَا » فقلت أنا : فتلك التى تزدهى ذا الهمة أبوة وجمالا : أى قد جمعت الحسب والجمال .

ومن ذلك ماذكرته فى سبب حب المال ، وهو : بين المال علاقةٌ وكيدة وبين القلوب ، وهى له بمنزلة المحب وهو لها بمنزلة المحبوب ، وليس ذلك إلا لأن الله قبض قبضةً من جميع الأرض فخلق آدم من تلك القبضة ، ويوشك حينئذ أن صورة قلبه تكونت من معدن الذهب والفضة ، ولولا أن يكون منهما عنصراً بدائه ، لما جعلهما الأطباء دواءه من دائه ، فلا تستغرب إذن أن تكون على حبهما مطبوعا ، إذ كان منهما مصنوعا .

وهذا المعنى من قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قبضها مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ : مِنْهُمُ الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذٰلِكَ ، وَالحَزْنُ وَالسَّهْلُ ، وَالخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ » غير أنى استنبطت أنا حبَّ المال من هذا الحديث ، وهو معنى غريب لم أسبق إليه .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف كلام ، وهو : ليس السِّحْر ماأودع فى جفن طَلْعة ، بل ماأودع فى صَوْغ معنى أو نَظْم سَجْعة ، ولذلك لبيد فى شعره ، أسْحَر

من لبيد فى سحره [١] وكلا صُنْعِهِما من الغريب العجيب ، غير أن مايستنبط من القلب أعجب مما يدفن فى القليب .

وهذا المعنى مأخوذ من قصة لبيد بن الأعصم فى سحره النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن عرف القصة وصورتها علم ماقد ذكرته فى نثر هذه الكلمات البديعة.

ومن ذلك ماذكرته فى وصف الْمَنْجَنِيق من جملة كتاب ، فقلت : ونُصِبَ المنجنيق فجثم بين يدى السور مُناصياً ، وبسط كفه إليه مواتيا ، ثم تولى عقوبته بعَصَاه التى تفتك بأحجاره ، وإذا عصى عليها بلد أخذت فى تأديب أسواره ، فما كان إلا أن استمرت عقوبتها عليه حتى صار قائمه حصيداً وعاصيه مستقيداً ، وقال : ألم يكن نهى عن المد والتجريد فمالى لاأرى إلا مداً وتجريداً ، وعند ذلك أذْعَنَ لفتح الأبواب ، وتلا قوله تعالى : (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاب) ، وكذلك لم نأت صعباً إلا استسهل ، ولا حَثَثْنَا مطيًّا إلا استعجل ، ولطالما وقف غيرنا على هذا البلد فشقه طول الانتظار ، ولم يحظ منه إلا بمُسَاءلة المنصب أحجار الديار .

---

(١) لبيد الأول : هو لبيد بن ربيعة العامرى الشاعر المشهور ، وهو ممن أدرك الإسلام فأسلم ، وترك قول الشعر ، وقال : إن الله أبدله من الشعر سورتين من الكتاب الكريم . وينسب للإمام الشافعى قوله :

وَلَوْلاَ الشِّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرِى ... لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَبِيدِ

ولبيد الثانى: هو لبيد بن الأعصم اليهودى. ويروى أنه سحر النبى صلى الله عليه وسلم ووضع سحره فى بئر ، ويروى أنه صلى الله عليه وسلم تأثر بهذا السحر حتى كان يخيل إليه أنه فعل الشىء وهو لم يفعله ، حتى أتاه جبريل فأخبره بالسحر وبموضعه ، فلما استخرج من البئر ، وقرئت له المعوذتان قام من مرضه كأنما نشط من عقال . وقد رددنا هذه المقالة واستبعدنا حصول هذه الحادثة وبرهنا على صحة ما ادعيناه فى تفسيرنا لجزء (عَمَّ يَتَسَاءلُونَ) الذى أخرجناه منذ عامين ، فارجع إلى تفسير المعوذتين منه .

فى هذا الفصل معنى خبر من الأخبار النبوية ، وهو قول النبى صلى الله عليه وسلم فى النهى عن ضرب المحدود « لَامَدَّ وَلَا تَجْرِيدَ » : أى لا يمد على الأرض ولا يُجَرَّد عنه ثوبه .

ومن ذلك ما ذكرته فى صدر كتاب إلى الديوان العزيز النبوى ، وهو : خَلَّدَ الله دولة الديوان العزيز النبوى ، ولا زالت أكنافها وادعة ، وعلياؤها جامعة ، وجُدُودها كالنجوم التى تُرَى فى كل حين طالعة ، وأيامها كالليالى ساكنة ولياليها كالأيام ناصعة ، وأبوابها كأبواب الجنة التى يقال فيها ثامن وثامنة إذا قيل فى أبواب غيرها سابع وسابعة ، وهذا الدعاء قد استجابه الله قبل أن ترفع إليه يدٌ أو ينطق به ضمير ، فاذا دعا به الخادم وجد صنع الله قد سبقه أولاً وجاء هو فى الزمن الأخير ، فليس له حينئذ إلا أن يدعو لما خَوَّله الدِّيوانُ العزيز بالدوام ، وأن يُعيذه من النقص بعد التمام ، ثم يستهدى ما يؤهل له من الخدم التى يعتدها من لطائف الإحسان ، وإذا ندب لتكليف أوامرها قال والحمد والشكر يسجدان ، ولا شك أنَّ درجات الأولياء تتفاوت فى الصفات والأسماء ؛ فمنها ما يكون ببطن الأرض ومنها ما يرى كالكوكب فى أُفُقِ السماء ، ولولا النَّهْىُ عن تزكية المرء نَفْسَه لا دَّعَى الخادم أن له أعلاها ، وجاء بالأولياء من بعده فقال (وَالشَّمْسِ وَضُحَاها وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا) ، لكنه لايمن بما يعتده عند الله من ذُخْرِه ، وسِرُّ الولاء فى هذا المقام أكرم من جهره ، وليس الذى يَمُنُّ بصلاته وصيامه كالذى يَمُنُّ بسرٍّ وَقَرَ فى صدره ، والله لاينظر إلى الأعمال وإنما ينظر إلى القلوب ، وفَرْقٌ بين المطيع بمحضر الشهادة وبين المطيع بظهر الغيوب ، ولو اطلع الديوان العزيز على ضمير الخادم فى الطاعة لَسَرَّه ، وعلم أنه الأشعث الأغبر الذى لو أقسم على الله لابَرَّه .

فى هذا الفصل من الآيات والأخبار عدة مواضع ؛ وهذا الموضع مختص

بالأخبار فلنذكرها دون الآيات : أما الأول منها فقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى فى الجَنَّةِ كما تَرَوْنَ الْكَوَاكِبَ فى أُفُقِ السَّماء » ؛ وأما الخبر الثانى فقوله صلى الله عليه وسلم : « ما فَضَلَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِصَلاةٍ وَلا صِيامٍ وَلٰكِنْ فَضَلَكُمْ بِسِرٍّ وَقَرَ فى صَدْرِهِ » ؛ وأما الخبر الثالث فقوله صلى الله عليه وسلم : « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِى طِمْرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ »

وفيما أوردته من حل المعانى الشعرية وحل آيات القرآن والأخبار النبوية طريقٌ واضح لمن يَقْوَى على سلوكه ، والله الموفق للصواب .

المقالة الأولى فى الصناعة اللفظية

وهى تنقسم قسمين :

القسم الأول : فى اللفظة المفردة

إعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة فى تأليفه إلى ثلاثة أشياء : الأول منها اختيار الألفاظ المفردة ، وحكم ذلك حكم اللآلىء المُبَدَّدَة ؛ فإنها تتخير وتنتقى قبل النظم ؛ الثانى نَظْم كل كلمة مع أختها المُشَاكِلة [١] لها ؛ لئلا يجىء الكلام قلقاً نافراً عن مواضعه ؛ وحكم ذلك حكم العقد المنظوم فى اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها [١] ؛ الثالث الغَرَضُ المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه ، وحكم ذلك حكم الموضع الذى يُوضَع فيه العقد المنظوم ، فتارةً يُجْعَل إكليلا على الرأس ، وتارةً يجعل قِلَادَة فى العنق ، وتارةً يجعل شَنْفاً فى الأذن [٢] ، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه .

فهذه ثلاثة أشياء لا بد للخطيب والشاعر من العناية بها ، وهى الأصل المعتمد عليه فى تأليف الكلام من النظم والنثر ؛ فالأول والثانى من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة ، والثلاثة بجُمْلَتها هى المراد بالبلاغة .

---

(١) فى ب ، ج «مع أختها فى المشاكلة لها» وهو تحريف بزيادة «فى» والمشاكلة ـ بكسر الكاف ـ اسم فاعل من قولك : شاكلت فلانا ؛ إذا شابهته . وقد اجتمعت النسختان على حذف «فى» من العبارة الآتية ، والمقصود بالعبارتين واحد .

(٢) الشنف ـ بفتح الشين وسكون النون ـ مايجعل فى الأذن من أعلى ، أما مايجعل فى أسفل الأذن فهو القرط ـ بضم القاف وسكون الراء ـ وجمع الشنف : شنوف ، مثل فلس وفلوس . وتقول : شنف المرأة فتشنفت ، وقرطها فتقرطت ، ومن المجاز : شنف آذاننا بعذب ألفاظه .

وهذا الموضع يَضِلُ فى سلوك طريقه العلماء بصناعة صَوْغ الكلام من النظم والنثر، فكيف الجهال الذين لم تنفحهم رائحة ؟ ومَن الذى يؤتيه الله فطرة ناصعة يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسهُ نار حتى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعها فى موضعها .

ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد ، وكلاهما حسن فى الاستعمال ، وهما على وزن واحد وعدة واحدة ، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه فى كل موضع تستعمل فيه هذه ، بل يفرق بينهما فى مواضع السبك ؛ وهذا لا يدركه إلا من دَقَّ فهمه وَجَلَّ نَظَرُه .

فمن ذلك قوله تعالى : (مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فى جَوْفِهِ) وقوله تعالى : (رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فى بَطْنِى مُحَرَّراً) فاستعمل الجوف فى الأولى والبطن فى الثانية ، ولم يستعمل الجوف موضع البطن ، ولا البطن موضع الجوف، واللفظتان سواء فى الدلالة ، وهما ثلاثيتان فى عَدَدٍ واحد ، ووزنهما واحد أيضا ، فانظر إلى سَبْك الألفاظ كيف تفعل ؟

ومما يجرى هذا المجرى قوله تعالى : (مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى) وقوله : (إِنَّ فى ذٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) فالقلب والفؤاد سواء فى الدلالة ، وإن كانا مختلفين فى الوزن ؛ ولم يستعمل فى القرآن أحدهما فى موضع الآخر .

وعلى هذا ورد قول الأعرج من أبيات الحماسة :

نَحْنُ بَنُو المَوْتِ إِذَا المَوْتُ نَزَلْ لَاعَارَ بِالمَوْتِ إِذَا حُمَّ الاجَلْ

* المَوْتُ أَحْلَى عِنْدَنَا مِنَ العَسَلْ * (١)

---

(١) هذه الأبيات للأعرج المعنىّ ، ويقال : إنها لعمرو بن يثربى ، وقد اختارها أبو تمام فى ديوان الحماسة (وانظر شرح التبريزى : ١ — ٢٨٠) ، وترتيب الأبيات

وقال أبو الطيب المتنبى (١) :

إذا شِئْتُ حَفَّتْ بى عَلَى كلِّ سَابحٍ رِجَالٌ كَأَنَّ المَوْتَ فى فَمِها شُهْدُ (٢)

فهاتان لفظتان هما العسل والشهد ، وكلاهما حسن مستعمل لايُشَكُّ فى حسنه واستعماله ، وقد وردت لفظة العسل فى القرآن ، دون لفظة الشهد ؛ لأنها أحسن منها ، ومع هذا فإن لفظة الشهد وردت فى بيت أبى الطيب فجاءت أحسن من لفظة العسل فى بيت الأعرج .

وكثيرا مانجد أمثال ذلك فى أقوال الشعراء المُفْلِقِين وغيرهم ، ومن بلغاء الكتاب ومِصْقَعِى الخطباء .

وتحته دقائق ورموز إذا عُلمت وقِيس عليها أشباهُها ونظائرها كان صاحب الكلام فى النظم والنثر قد انتهى إلى الغاية القُصْوَى فى اختيار الألفاظ ووَضْعِها فى مواضعها اللائقة بها

فى الحماسة ليست على ماذكره المؤلف ، وهاك القطعة بكمالها كما وردت هناك :

أَنَا أَبُو بَرْزَةَ إِذْ جَدَّ الْوَهَلْ خُلِقْتُ غَيْرَ زُمَّلٍ وَلاَ وَكَلْ

ذَا قُوَّةٍ وَذَا شَبَابٍ مُقْتَبَلْ لاَجَزَعَ الْيَوْمَ عَلَى قُرْبِ الأَجَلْ

الْمَوْتُ أَحْلَى عِنْدَنَا مِنَ الْعَسَلْ نَحْنُ بَنِى ضَبَّةَ أَصْحَابُ الْجَمَلْ

نَحْنُ بَنُو الْمَوْتِ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلْ نَنْعَى ابْنَ عَفَّانَ بِأَطْرَافِ الأَسَلْ

ويروى فى أول هذه الأبيات « أنا أبو بردة » .

(١) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن سيار بن مكرم التميمى ، وأولها قوله :

أَقَلُّ فَعَالِى ، بَلْهَ أَكْثَرَهُ ، مَجْدُ وَذَا الجِدُّ فيهِ ، نِلْتُ أَمْ لَمْ أَنَلْ ، جَدُّ

(٢) وقع فى ب ، ج صدر هذا البيت هكذا « إذابى مشت حفت على كل سابح » وهوتحريف ، وتصويبه عن جملة مراجع أولها الديوان . والسابح : الفرس السريع الجرى كأنه يسبح فى الماء عند مشيه . والشهد : العسل ، وهو بضم الشين أوفتحها ، والهاء ساكنة .

واعلم أن تفاوت التفاضل يقع فى تركيب الألفاظ أكثر مما يقع فى مفرداتها؛ لأن التركيب أعسر وأشق ، ألا ترى ألفاظ القرآن الكريم من حيث انفرادها قد استعملتها العرب ومَنْ بعدهم ، ومع ذلك فإنه يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه ، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب .

وهل تشك أيها المتأمل لكتابنا هذا إذا فكرت فى قوله تعالى : (وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أنك لم تجد ما وجدته لهذه الألفاظ من المزية الظاهرة إلا لأمر يرجع إلى تركيبها ، وأنه لم يعرض لها هذا الحسن إلا من حَيْثُ لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة ، وكذلك إلى آخرها ، فإن ارْتَبْتَ فى ذلك فتأمل هل ترى لفظة منها لو أخذت من مكانها وأفردت من بين أخواتها كانت لابسةً من الحسن مالبسته فى موضعها من الآية .

ومما يشهد لذلك ويؤيده أنك ترى اللفظة تروقك فى كلام ، ثم تراها فى كلام آخر فتكرهها ؛ فهذا ينكره من لم يَذُقْ طَعْمَ الفصاحة ، ولا عرف أسرار الألفاظ فى تركيبها وانفرادها .

وسأضرب لك مثالا يشهد بصحة ماذكرته ، وهو أنه قد جاءت لفظة واحدة فى آية من القرآن وبيت من الشعر ؛ فجاءت فى القرآن جَزْلَةً متينة ، وفى الشعر ركيكة ضعيفة ، فأثَّرَ التركيبُ فيها هٰذين الوصفين الضدين ؛ أما الآية فهى قوله تعالى : (فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ) .

وأما بيت الشعر فهو قول أبي الطيب المتنبي (١) :

تَلَذُّ لَهُ الْمُرُوءَةُ وَهْيَ تُؤْذِي وَمَنْ يَعْشَقْ يَلَذّ لَهُ الْغَرَامُ (٢)

وهذا البيت من أبيات المعاني الشريفة ، إلا أن لفظة « تؤذي » قد جاءت فيه وفي الآية من القرآن فَحَطَّتْ من قدر البيت لضعف تركيبها وحسن موقعها في تركيب الآية .

فأنصف أيها المتأمل لما ذكرناه ، واعْرِضْه على طبعك السليم حتى تعلم صحته ، وهذا موضع غامض يحتاج إلى فضل فكرة ، وإمعان نظر ، وما تعرّض للتنبيه عليه أحد قبلي ، وهذه اللفظة التي هي « تؤذي » إذا جاءت في الكلام فينبغي أن تكون مندرجة مع ما يأتي بعدها متعلقة به كقوله تعالى : (إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ) وقد جاءت في قول المتنبي منقطعة ، ألا ترى أنه قال « تلذ له المروأة وهي تؤذي » ثم قال « ومن يعشق يلذ له الغرام » فجاء بكلام مستأنف ، وقد جاءت هذه اللفظة بعينها في الحديث النبوي ، وأضيف إليها كاف الخطاب ؛ فأزال ما بها من الضعف والركة ، وذاك أنه اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاءه جبريل عليه السلام وَرَقَاه ، فقال : بسم الله أَرْقيك ، من كل داء يُؤْذِيك ؛ فانظر إلى السر في استعمال اللفظة الواحدة ، فإنه لما زيد على هذه اللفظة حرف واحد أصلحها وحسنها ، ومن هٰهنا تزاد الهاء في بعض المواضع ، كقوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ

(١) من قصيدة له يمدح فيها المغيث بن علي العجلي ، وأولها قوله :

فُؤَادٌ مَا تُسَلِّيهِ الْمُدَامُ وَعُمْرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللِّئَامُ

(٢) ورد في الديوان « المروّة » بتشديد الواو ، وهو تخفيف المروأة بقلب الهمزة واوا و إدغامها في الواو ، والمروأة : الكرم . والغرام في هذا البيت : العذاب ، وتقول: لذلي كذا يلذ ، من باب طرب يطرب ، مثل ظل يظل .

حِسَابِيَهْ) ثم قال : (مَاأَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ) فإن الأصل فى هذه الألفاظ كتابى وحسابى ومالى وسلطانى ، فلما أضيفت الهاء إليها - وتسمى هاء السكت - أضافت إليها حسناً زائداً على حسنها ، وكستها لطافةً ولباقة .

وكذلك ورد فى القرآن الكريم (إِنَّ هٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ) فلفظة « لى » أيضاً مثل لفظة « يؤذى » وقد جاءت فى الآية مندرجة متعلقة بما بعدها ، وإذا جاءت منقطعة لاتجىء لائقة ، كقول أبى الطيب أيضاً(١) :

تُمْسِي الْأَمَانِيُّ صَرْعَى دُونَ مَبْلَغِهِ ... فَمَا يَقُولُ لِشَيْءٍ لَيْتَ ذٰلِكَ لِي

وربما وقع بعض الجهال فى هذا الموضع فأدخل فيه ماليس منه ، كقول أبى الطيب(٢) :

مَاأَجْدَرَ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِي ... بِأَنْ تَقُولَ مَالَهُ وَمَا لِي

فإن لفظة « لى » هٰهنا قد وردت بعد «ما» وقبلها «مَالَهُ» ثم قال «وَمَالِي» فجاء الكلام على نَسَقٍ واحد ، ولو جاءت لفظة « لى » هٰهنا كما جاءت فى البيت الأول لكانت منقطعة عن النظير والشبيه ، فكان يعلوها الضعف والركة ، وبين ورودها هٰهنا وورودها فى البيت الأول فرق يحكم فيه الذوق السليم .

وهٰهنا من هذا النوع لفظة أخرى قد وردت فى آية من القرآن الكريم ، وفى بيت من شعر الفرزدق ؛ فجاءت فى القرآن حسنة، وفى البيت الشعر غير حسنة ،

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ، وأولها قوله :

أَجَابَ دَمْعِي وَمَا الدَّاعِي سِوَى طَلَلٍ ... دَعَا فَلَبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْبِ وَالْإِبِلِ

(٢) هو مطلع كلمة يقولها لأبى شجاع ، ويصف فيها خروجه للصيد ، وبعده قوله :

لَا أَنْ يَكُونَ هٰكَذَا مَقَالِي ... فَتًى بِنِيرَانِ الْحُرُوبِ صَالِي

وتلك اللفظة هى لفظة «القمل» أما الآية فقوله تعالى : (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ) ؛ وأما البيت الشعر فقول الفرزدق :

من عزه احتجرت كليب عنده زربا كأنهم لديه القُمَّـلُ[1]

وإنما حسنت هذه اللفظة فى الآية دون هذا البيت من الشعر لأنها جاءت فى الآية مندرجة فى ضمن كلام ، ولم ينقطع الكلام عندها ، وجاءت فى الشعر قافية : أى آخراً انقطع الكلام عندها .

وإذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة فى القرآن الكريم غُصْنا منه فى بحر عميق لاقرار له .

فمن ذلك هذه الآية المشار إليها ؛ فإنها قد تضمنت خمسة ألفاظ ، هى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وأحسن هذه الألفاظ الخمسة هى الطوفان والجراد والدم ؛ فلما وردت هذه الألفاظ الخمسة بجملتها قدم منها لفظة الطوفان والجراد ، وأخرت لفظة الدم آخراً ، وجعلت لفظة القمل والضفادع فى الوسط ؛ ليطرق السمع أولا الْحَسَنُ من الألفاظ الخمسة ، وينتهى إليه آخراً ؛ ثم إن لفظة الدم أحسن من لفظتى الطوفان والجراد ، وأخف فى الاستعمال ، ومن أجل ذلك جيء بها آخراً ، ومراعاةُ مثل هذه الأسرار والدقائق فى استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية .

وقد ذكر مَنْ تقدّمنى من علماء البيان للألفاظ المفردة خصائص وهيآت تتصف بها ، واختلفوا فى ذلك ، واستحسن أحدهم شيئاً خُولف فيه ، وكذلك استقبح الآخر شيئاً خُولف فيه ، ولو حققوا النظر ووقفوا على السر فى اتصاف

(١) كذا ورد هذا البيت فى أصول الكتاب ، وروايته فى الديوان :

مِنْ عِزِّهِمْ جَحَرَتْ كُلَيْبٌ بَيْتَهُمْ زَرْبًا كَأَنَّهُمُ لَدَيْهِ الْقُمَّـلُ

بعض الألفاظ بالحسن و بعضها بالقبح لما كان بينهم خلاف فى شىء منها ، وقد أشرت إلى ذلك فى الفصل الثامن من مقدمة كتابى هذا الذى يشتمل على ذكر الفصاحة ، وفى الوقوف عليه والإحاطة به غِنًى عن غيره ، لكن لابد أن نذكر هٰهنا تفصيلا لما أجملناه هناك ؛ لأنا ذكرنا فى ذلك الفصل أن الألفاظ داخلة فى حيز الأصوات ؛ لأنها مركبة من مخارج الحروف ؛ فما استلذه السمع منها فهو الحسن ، وما كرهه ونبا عنه فهو القبيح ، و إذا ثبت ذلك فلا حاجة إلى ماذكر من تلك الخصائص والهيآت التى أوردها علماء البيان فى كتبهم ؛ لأنه إذا كان اللفظ لذيذاً فى السمع كان حسناً ، و إذا كان حسناً دخلت تلك الخصائص والهيآت فى ضمن حسنه .

وقد رأيت جماعةً من الجهال إذا قيل لأحدهم إن هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة أنكر ذلك ، وقال: كل الألفاظ حسن ، والواضع لم يضع إلا حسناً ، ومَنْ يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة الغُصْن ولفظة العُسْلوج وبين لفظة المُدامة ولفظة الإسْفِنْط وبين لفظة السيف ولفظة الخَنْشَلِيل وبين لفظة الأسد ولفظة الفَدَوْكَس فلا ينبغى أن يخاطب بخطاب ، ولا يجاوب بجواب ، بل يُتْرَك وشأنه ، كما قيل : اتركوا الجاهل بجهله ولو ألقى الجمر فى رحله ، وما مثاله فى هذا المقام إلا كمن يُسَوِّى بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد شَوْهاء الخَلْقِ ذات عين مُحمْرَّة وشفَة غليظة كأنها كلوة ، وشعْر قَطَط (١) كأنه زبيبة ، وبين صورة رومية بيضاء مُشْرَبَة بحمرة ، ذات خَدٍّ أسيل ، وطرف كَحِيل ، ومَبْسِم كأنما نظم من أقاحٍ ، وطُرَّة كأنها ليل على صباح ، فإذا كان بإنسان من سَقَم النظر أن يُسَوِّى بين هذه الصورة وهذه فلا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن يسوى بين هذه الألفاظ وهذه ، ولا فرق بين النظر والسمع فى هذا المقام ؛ فإن هذا حاسة وهذا حاسة ، وقياس حاسة على حاسة مناسب .

(١) تقول : هذا شعرقطط ـ بزنة سبب ـ وهذا شعرقط ـ بفتح القاف وتشديد الطاء ـ إذا كان قصيرا جعدا ، وتقول : قطط شعره ـ بزنة فرح ـ .

فإنْ عاند معاند فى هذا ، وقال : أغراض الناس مختلفة فيما يختارونه من هذه الأشياء ، وقد يعشق الإنسانُ صورة الزنجية التى ذممتها ويفضلها على صورة الرومية التى وصفتها .

قلت فى الجواب : نحن لانحكم على الشاذ النادر الخارج عن الاعتدال ، بل نحكم على الكثير الغالب ، وكذلك إذا رأينا شخصا يُحِبُّ أكل الفَحَم مثلا أو أكل الجِصِّ والتراب ويختار ذلك على مَلاَذِّ الأطعمة ، فهل نستجيد هذه الشهوة أو نحكم عليه بأنه مريض قد فسدت معدته وهو محتاج إلى علاج ومداواة ؟ .

ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ فى الأذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار ، وصوتا منكراً كصوت حمار ، وأن لها فى الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحَنْظَل ، وهى على ذلك تجرى مجرى النغمات والطعوم .

ولا يسبق وهمك أيها المتأمل إلى قول القائل الذى غلب عليه غلظ الطبع ، وفجاجة الذهن[1] بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا ، فهذا دليل على أنه حسن ، بل ينبغى أن تعلم أن الذى نستحسنه نحن فى زماننا هذا هو الذى كان عند العرب مستحسناً ، والذى نستقبحه هو الذى كان عندهم مستقبحاً؛ والاستعمال ليس بدليل على الحسن ، فإنا نحن نستعمل الآن من الكلام ماليس بحسن ، وإنما نستعمله لضرورة ، فليس استعمال الحسن بممكن فى كل الأحوال ، وهذا طريق يضل فيه غير العارف بمسالكه ، ومن لم يعرف صناعة

---

(١) الفجاجة ــ بفتح الفاء ــ الفاكهة التى لم تنضج ، هذا ظاهر عبارة القاموس ، والذى نراه أن هذا مصدر ، والفج ــ بكسر الفاء ــ الفاكهة قبل نضجها ، والكلام ههنا مجاز ، والمراد بفجاجة الذهن : الذهن الذى لم تنضجه الدربة ولم تكمله معاودة الشىء مرة بعد أخرى .

النظم والنثر وما يجده صاحبها من الكلفة فى صوغ الألفاظ واختيارها فإنه معذور فى أن يقول ما قال

لَايَعْرِفُ الشَّوْقَ إلَّا مَنْ يُكَابِدُهُ وَلَا الصَّبَابَةَ إلَّا مَنْ يُعَانِيهَا

ومع هذا فإن قول القائل «بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا وهذا دليل على أنه حسن» قولٌ فاسد لا يصدر إلا عن جاهل ؛ فإن استحسان الألفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب ؛ لأنه شىء ليس للتقليد فيه مجال ، وإنما هو شىء له خصائص وهيآت وعلامات إذا وجدت علم حسنه من قبحه ، وقد تقدم الكلام على ذلك فى باب الفصاحة والبلاغة ، وأما الذى نقلد العرب فيه من الألفاظ فإنما هو الاستشهاد بأشعارها على ما يُنْقَل من لغتها ، والأخذ بأقوالها فى الأوضاع النحوية فى رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف إليه وجزم الشرط وأشباه ذلك ، وما عداه فلا .

وحسن الألفاظ وقبحها ليس إضافياً إلى زيد دون عمرو أو إلى عمرو دون زيد ؛ لأنه وصف ذَوِىٌّ لا يتغير بالإضافة ؛ ألا ترى أنّ لفظة المُزْنة مثلا حسنة عند الناس كافة من العرب وغيرهم ، وهلم جرا ، لا يختلف أحد فى حسنها ، وكذلك لفظة البُعَاق[1] فإنها قبيحة عند الناس كافة من العرب وغيرهم ؛ فإذا استعملتها العرب لا يكون استعمالهم إياها مُخرجا لها عن القبح ، ولا يلتفت إذن إلى استعمالهم إياها ، بل يعاب مستعملها ، ويغلظ له النكير حيث استعملها .

وقد ذكر ابن سنان الخفاجى[2] ما يتعلق باللفظة الواحدة من الأوصاف ، وقسمها إلى عدة أقسام : كتباعد مخارج الحروف ، وأن تكون الكلمة جارية على العُرْف العربى غير شاذة ، وأن تكون مُصَغَّرة فى موضع يعبر به عن شىء

(١) البعاق ـ مثلث الباء ـ السيل الدفاع ، وانظر (ص ٦٦ من هذا الجزء) .
(٢) انظر كتاب « سر الفصاحة » لابن سنان الخفاجى (ص ٦٠) .

لطيف أو خفيّ أو ما جرى مجراه ، وألاّ تكون مبتذلة بين العامة ، وغير ذلك من الأوصاف .

وفي الذي ذكره مالا حاجة إليه : أما تباعد المخارج فإن معظم اللغة العربية دائر عليه ؛ لأن الواضع قسمها في وضعه ثلاثة أقسام : ثلاثياً ، ورباعياً، وخماسياً ، والثلاثي من الألفاظ هو الأكثر ، ولا يوجد فيه ما يكره استعماله إلا الشاذ النادر ، وأما الرباعي فإنه وسط بين الثلاثي والخماسي في الكثرة عدداً واستعمالا ؛ وأما الخماسي فإنه الأقل ، ولا يوجد فيه مايستعمل إلا الشاذ النادر ، وعلى هذا التقدير فإن أكثر اللغة مستعمل على غير مكروه ، ولا تقتضي حكمة هذه اللغة الشريفة التي هي سيدة اللغات إلا ذلك ، ولهذا أسقط الواضع حروفاً كثيرة في تأليف بعضها مع بعض استثقال واستكراه [١] ، فلم يؤلف بين حروف الحلق كالحاء والخاء والعين ، وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف ، ولا بين اللام والراء ، ولا بين الزاء والسين ، وكل هذا دليل على عنايته بتأليف المتباعد المخارج ، دون المتقارب ، ومن العجب أنه كان يخل بمثل هذا الأصل الكلي في تحسين اللغة ، وقد اعتنى بأمور أخرى جزئية : كمماثلته بين حركات الفعل في الوجود وبين حركات المصدر في النطق ، كالغَلَيَان والضَّرَبَان والنَّقَدَان والنَّزَوَان ، وغير ذلك مما جرى مجراه ، فإن حروفه جميعها متحركات ، وليس فيها حرف ساكن ، وهي مماثلة لحركات الفعل في الوجود ، ومن نظر في حكمة وضع هذه اللغة إلى هذه الدقائق التي هي كالأطراف والحواشي فكيف كان يُخِلّ بالأصل المعوّل عليه في تأليف الحروف بعضها إلى بعض ؟ على أنه لو أراد الناظم أو الناثر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ وهل هي متباعدة أو متقاربة لطال الخطب في ذلك وعَسُرَ ، ولما كان الشاعر ينظم قصيدا ولا الكاتب ينشىء كتاباً إلا في مدة طويلة تمضي عليها أيام وليال ذوات عدد كثير ، ونحن نرى

---

(١) في الأصول « في تأليف بعضها مع بعض استثقالا واستكراها » .

الأمر بخلاف ذلك ؛ فإن حاسة السمع هى الحاكمة فى هذا المقام بحسن ما يحسن من الألفاظ وقبح ما يقبح .

وسأضرب لك فى هذا مثالا ، فأقول : إذا سُئِلت عن لفظة من الألفاظ ، وقيل لك : ماتقول فى هذه اللفظة أحسنة هى أم قبيحة ؟ فإنى لا أراك عند ذلك إلا تُفْتِى بحسنها أو قبحها على الفَوْر ، ولو كنت لا تفتى بذلك حتى تقول للسائل : اصْبِرْ إلى أن أعتبر مخارج حروفها ثم أفتيك بعد ذلك بما فيها من حسن أو قبح ؛ لصحّ لابن سنان ما ذهب إليه من جعل مخارج الحروف المتباعدة شرطاً فى اختيار الألفاظ ، وإنما شذ عنه الأصل فى ذلك ، وهو أن الحسن من الالفاظ يكون متباعد المخارج ؛ فحسن الألفاظ إذن ليس معلوما من تباعد المخارج ، وإنما علم قبل العلم بتباعدها ، وكل هذا راجع إلى حاسة السمع ؛ فإذا استحسنتَ لفظاً أو استقبحْتَهُ وُجِدما تستحسنه متباعدَ المخارج وما تستقبحه متقارب المخارج ، واستحسانها واستقباحها إنما هو قبل اعتبار المخارج لابعده .

على أن هذه قاعدة قد شذ عنها شواذّ كثيرة ؛ لأنه قد يجىء فى المتقارب المخارج ماهو حسن رائق .

ألا ترى أن الجيم والشين والياء مخارج متقاربة ، وهى من وسط اللسان بينه وبين الحنك ، وتسمى ثلاثتها الشَّجَرِية ، وإذا تركب منها شىء من الألفاظ جاء حسناً رائقاً ، فإن قيل جَيْش كانت لفظة محمودة ، أو قدمت الشين على الجيم فقيل شَجِىّ كانت أيضاً لفظة محمودة .

ومما هو أقرب مخرجاً من ذلك الباء والميم والفاء ، وثلاثتها من الشفة ، وتسمى الشَّفَهية ، فإذا نظم منها شىء من الألفاظ كان جميلا حسناً ، كقولنا : فَمٌ ، فهذه اللفظة من حرفين هما الفاء والميم ، وكقولنا : ذقته بِفَمِى ، وهذه اللفظة

مؤلفة من الثلاثة بجملتها ، وكلاهما حسن لاعيب فيه .

وقد ورد من المتباعد المخارج شيء قبيح أيضاً ، ولو كان التباعد سبباً للحسن لما كان سبباً للقبح ؛ إذ هما ضدان لايجتمعان .

فمن ذلك أنه يقال : مَلَعَ ؛ إذا عدا ، فالميم من الشفة ، والعين من حروف الحلق ، واللام من وسط اللسان ، وكل ذلك متباعد ، ومع هذا فإن هذه اللفظة مكروهة الاستعمال ، ينبو عنها الذوق السليم ، ولا يستعملها من عنده معرفة بفن الفصاحة .

وههنا نكتة غريبة ، وهو أنا إذا عكسنا حروف هذه اللفظة صارت عَلِمَ ، وعند ذلك تكون حسنة لامزيد على حسنها ، وما ندرى كيف صار القبح حسناً؛ لأنه لم يتغير من مخارجها شيء ، وذاك أن اللام لم تزل وسطا والميم والعين يكتنفانها من جانبيها ، ولو كان مخارج الحروف معتبراً فى الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة فى مَلَع وعَلِم .

فإن قيل : إن إخراج الحروف من الحلق إلى الشفة أيسر من إدخالها من الشفة إلى الحلق ؛ فإن ذلك انْحِدَار وهذا صعود ، والانحدار أسهل .

فالجواب عن ذلك أنى أقول : لو استمرَّ لك هذا لصح ماذهبت إليه ، لكنا نرى من الألفاظ ماإذا عكسنا حروفه من الشفة إلى الحلق أو من وسط اللسان أو من آخره إلى الحلق لايتغير ، كقولنا غَلَبَ ؛ فإن الغين من حروف الحلق ، واللام من وسط اللسان ، والباء من الشفة ، و إذا عكسنا ذلك صار بَلَغَ ، وكلاهما حسن مليح ، وكذلك تقول : حَلُم من الحِلْم ، وهو الأناة ، و إذا عكسنا هذه الكلمة صارت مَلُحَ ، على وزن فَعُلَ - بفتح الفاء وضم العين - وكلاهما أيضاً حسن مليح ، وكذلك تقول : عَقَرَ ورَقَعَ ، وعَرَفَ وفَرَعَ ، وحَلَفَ وفَلَحَ ، و قَلَمَ ومَلَقَ ، وكلم وملك ، ولو شئت لأوردت من ذلك شيئاً كثيراً تضيق عنه هذه الأوراق ،

ولو كان ماذكرته مطرداً لكنا إذا عكسنا هذه الألفاظ صار حسنها قبحاً ، وليس الأمر كذلك .

وأما ماذكره ابن سنان من جَرَيَان اللفظة على العرف العربى فليس ذلك مما يوجب لها حسناً ولا قبحاً ، وإنما يقدح فى معرفة مستعملها بما ينقله من الألفاظ فكيف يُعَدُّ ذلك من جملة الأوصاف الحسنة ؟

وأما تصغير اللفظة فيما يعبر به عن شىء لطيف أو خفىّ أو ماجرى مجراه فهذا مما لاحاجة إلى ذكره ؛ فإن المعنى يسوق إليه ، وليست معانى التصغير من الأشياء الغامضة التى يفتقر إلى التنبيه عليها ؛ فإنها مُدَوَّنة فى كتب النحو ، وما من كتابِ نحوٍ إلا والتصغير باب من أبوابه ، ومع هذا فإنّ صاحب هذه الصناعة مخير فى ذلك : إن شاء أن يورده بلفظ التصغير ، وإن شاء بمعناه ، كقول بعضهم :

لَوْ كَانَ يَخْفَى عَلَى الرَّحْمٰنِ خَافِيَةٌ ... مِنْ خَلْقِهِ خَفِيَتْ عَنْهُ بَنُو لبَدِ

فهل كان يمكن هذا الشاعر أن يصغر من هؤلاء القوم ويحقر من شأنهم بألفاظ التصغير ويجىء هكذا كما جاء بيته هذا ؟ فالوصية به إذن مُلغاة لاحاجة إليها .

وأما الأوصاف الباقية التى ذكرت فهى التى ينبغى أن ينبه عليها ؛ فمنها ألَّا تكون الكلمة وَحْشِيَّةً ، وقد خفى الوحشى على جماعة من المنتمين إلى صناعة النظم والنثر ، وظنوه الْمُسْتَقْبَحَ من الألفاظ ، وليس كذلك ، بل الوحشىُّ ينقسم قسمين : أحدهما غريب حسن ، والآخر غريب قبيح ، وذلك أنه منسوب إلى اسم الْوَحْش الذى يسكن الْقِفَار ، وليس بأنيس ، وكذلك الألفاظ التى لم تكن مأنوسة الاستعمال ، وليس من شرط الوحش أن يكون مُسْتَقْبَحًا ، بل أن يكون نافراً لايألف الإنس ؛ فتارة يكون حسناً ، وتارة يكون قبيحاً ، وعلى هذا فإن أحد قسمى الوحشى - وهو الغريب الحسن - يختلف باختلاف النِّسَب والإضافات ؛ وأما القسم الآخر من الوحشى الذى هو قبيح فإن الناس فى استقباحه

سواء ، ولا يختلف فيه عربي بادٍ ولا قروي مُتَحَضِّر ، وأحسن الألفاظ ما كان مألوفا متداولا ؛ لأنه لم يكن مألوفاً متداولا إلا لمكان حسنه ، وقد تقدم الكلام على ذلك فى باب الفصاحة ؛ فإن أرباب الخطابة والشعر نظروا إلى الألفاظ ونَقَّبُوا عنها ، ثم عدَلوا إلى الأحسن منها فاستعملوه ، وتركوا ماسواه ، وهو أيضاً يتفاوت فى دَرَجات حسنه ؛ فالألفاظ إذن تنقسم ثلاثة أقسام : قسمان حَسَنان ، وقسم قبيح ؛ فالقسمان الحسنان أحدهما ماتداول استعماله الأول والآخر ، من الزمن القديم إلى زماننا هذا ، ولا يطلق عليه أنه وحشى ، والآخر ماتداول استعماله الأول دون الآخر ، ويختلف فى استعماله بالنسبة إلى الزمن وأهله ، وهذا هو الذى لايعاب استعماله عند العرب ؛ لأنه لم يكن عندهم وَحْشِيًّا ، وهو عندنا وحشى ، وقد تضمن القرآن الكريم منه كلمات معدودة ، وهى التى يطلق عليها غريب القرآن ، وكذلك تضمن الحديث النبوى منه شيئاً ، وهو الذى يطلق عليه غريب الحديث .

وحضر عندى فى بعض الأيام رجل متفلسف فجرى ذكر القرآن الكريم ، فأخذت فى وصفه ، وذكر مااشتملت عليه ألفاظه ومعانيه من الفصاحة والبلاغة ، فقال ذلك الرجل : وأىُّ فصاحة هناك وهو يقول : (تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى)؟ فهل فى لفظة (ضيزَى) من الحسن ما يوصف ؟ فقلت له : اعلم أن لاُستعمال الألفاظ أسراراً لم تقف عليها أنت ولا أئمتك ، مثل ابن سينا والفارابى ، ولا من أضلهم مثل أرسطاليس وأفلاطون ، وهذه اللفظة التى أنكرتها فى القرآن ، وهى لفظة (ضِيزَى) فإنها فى موضعها لا يَسُدُّ غيرها مَسَدَّها ؛ ألا ترى أن السورة كلها التى هى سورة النجم مسجوعة على حرف الياء ، فقال تعالى : (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى) وكذلك إلى آخر السورة ، فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد وما كان يزعمه الكفار قال : (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ

الْأُنْثَى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى) فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذى جاءت السورة جميعها عليه ، وغيرها لايسدّ مسدها فى مكانها ، وإذا نزلنا معك أيها المعاند على ماتريد قلنا : إن غير هذه اللفظة أحسن منها ، ولكنها فى هذا الموضع لا ترد ملائمة لأخواتها ، ولا مناسبة ؛ لأنها تكون خارجة عن حرف السورة ، وسأبين ذلك فأقول : إذاجئنا بلفظةفى معنى هذه اللفظة قلنا قسمة جائرة أو ظالمة ولاشك أن جائرة أوظالمة أحسن من ضيزى ، إلاأنا إذانظمناالكلام فقلنا : ألكم الذكروله الأنثى تلك إذاً قسمة ظالمةلم يكن النظم كالنظم الأول وصارالكلام كالشىء المعوز الذى يحتاج إلى تمام ، وهذا لايخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام ، فلما سمع ذلك الرجل ما أوردته عليه رَبَا لسانه فى فمه إفحاما ، ولم يكن عنده فى ذلك شىء سوى العناد الذى مستنده تقليد بعض الزنادقة الذين يكفرون تشهياً ، ويقولون ما يقولونه جهلا وإذا حُوقِقُوا عليه ظهر عجزهم وقصورهم .

وحيث انتهى القول إلى ههنا فإنى أرجع إلى ما كنت بصدد ذكره فأقول:

وأما القبيح من الألفاظ الذى يعاب استعماله فلا يسمى وَحْشِيًّا فقط ، بل يسمى الوحشى الغليظ ، وسيأتى ذكره ، وإذا نظرنا إلى كتاب الله تعالى الذى هو أفصح الكلام وجدناه سهلا سلساً ، وما تضمنه من الكلمات الغريبة يسير جداً ، هذا ، وقد أنزل فى زمن العرب العرباء وألفاظه كلها من أسهل الألفاظ ، وأقربها استعمالا ، وكفى به قُدْوَةً فى هذا الباب ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِى الإِنْجِيلِ مِثْلَ أُمِّ القُرْآنِ ، وَهِيَ السَّبْعُ المَثَانِى » ، يريد بذلك فاتحة الكتاب ؛ وإذا نظرنا إلى ما اشتملت عليه من الألفاظ وجدناها سهلة قريبة المأخذ يفهمها كل أحد حتى صبيان المكاتب وعوامّ السوقة ، وإن لم يفهموا ماتحتها من أسرار الفصاحة والبلاغة ؛ فإن أحسن الكلام ماعرف الخاصة فضله ، وفهم العامة معناه ، وهكذا فلتكن الألفاظ المستعملة

فى سهولة فهمها وقرب متناولها ، والمُقْتَدِى بألفاظ القرآن يكتفى بها عن غيرها من جميع الألفاظ المنثورة والمنظومة .

وأما ما ورد من اللفظ الوحشى فى الأخبار النبوية فمن جملة ذلك حديث طَهْفَةَ بن أبى زهير النهدى ، وذلك أنه لما قدمت وفود العرب على النبى صلى الله عليه وسلم قام طَهْفَةَ بن أبى زهير فقال : أتيناك يا رسول الله من غَوْرَىْ تِهَامَة على أكْوَارِ المَيْسِ (١) ، ترتمى بِنا العِيس (٢) ، نَسْتَجْلِبُ الصَّبِير (٣) ، وَنَسْتَخْلِبُ الخَبِير (٤) ، ونَسْتَعْضِدُ البَرِير (٥) ، ونَسْتَخِيل الرِّهَامَ (٦) ، ونستخيل الجهام (٧) ،

---

(١) الميس — بفتح الميم وسكون الياء — هو شجر صلب تعمل منه أكوار الإبل ورحالها .

(٢) العيس — بكسر العين المهملة — الإبل البيض يخالط بياضها شقرة يسيرة ، واحدها أعيس وعيساء .

(٣) الصبير — بفتح الصاد المهملة — سحاب أبيض متراكم متكاثف .

(٤) الخبير : النبات ، ونستخلبه : نحصده ونقطعه بالمخلب ، والمخلب — بزنة منبر — المنجل .

(٥) البرير : ثمر الأراك مطلقا ، ويقال : إذا اسودّ وبلغ . ونستعضده : نجنيه للأكل .

(٦) نستخيل : نظن ، وهو نستفعل من خال يخال ، بمعنى ظن يظن . والرهام : جمع رهمة ، وهى المطر الضعيف ، ويقال : الرهمة أشد وقعا من الديمة ، ومعنى نستخيلها نظنها خليقة بالمطر ، وتقول : أخلت السحابة وأخيلتها واستخيلتها واستخلتها ، وقد روى ابن الأثير هذه العبارة كما رواها أخوه هنا فى مادة (ر ه م) من النهاية ، وروى فى مادة (خ ى ل) « ونستخيل الجهام » .

(٧) الجهام : السحاب الذى فرغ ماؤه ، وقد وقع فى ب ، ج « نستجيل » بالجيم ، وهو تحريف ، وهذه الكلمة قد رويت « نستحيل » بالحاء المهملة ، ورويت « نستخيل » بالخاء معجمة ، قال ابن الأثير فى النهاية (ج ه م) : « الجهام : السحاب الذى فرغ

فى أرض غائلة النِّطاء(١) ، غليظة الوِطَاء ، قد نَشِف المُدْهُنُ(٢) ، وَيَبِسَ الجِعْثِن(٣) ، وسَقَطَ الأمْلُوجُ(٤) ، وَماتَ العُسْلُوجُ(٥) ، وهَلَكَ الهَدِيُّ(٦) وَفَادَ الوَدِيُّ(٧) ، بَرِئْنا إليك يارسول الله من الوَثَنِ والفِتَنِ ، وما يحدث الزمن ،

ماؤه ، ومن روى نستخيل – بالخاء المعجمة – أراد لانتخيل فى السحاب خالا إلا المطر و إن كان جهاما لشدة حاجتنا إليه ، ومن رواه بالحاء المهملة أراد لاننظر من السحاب فى حال إلا إلى جهام من قلة المطر .

(١) وردت هـذه العبارة فى ب ، ج « غائلة الغطاء » بالغين المعجمة ، وصوابه « غائلة النطاء » بالنون ، والنطاء – بزنة كتاب – البعد ، وتقول : بلد نطىّ ، مثل بعيد وزنا ومعنى ، و يروى « غائلة المنطى » والمنطى : مصدر ميمى بمعنى البعد ، والمراد بقوله « غائلة النطاء » أنها تغول سالـكيها وتهلـكهم ببعدها .

(٢) نشف : جف ، والمدهن – بضم الميم والهاء بينهما دال مهملة ساكنة – نقرة فى الجبل يجتمع فيها المطر .

(٣) الجعثن – بكسر الجيم والثاء المثلثة بينهما عين مهملة ساكنة – هوأصل النبات

(٤) الأملوج : هو نوى المقل ، وقيل : هو ورق من أوراق الشجر يشبه الطرفاء والسرو ، وقيل : هو ضرب من النبات ورقه كالعيدان ؛ وفى رواية « سَقَطَ الأُمْلُوجُ مِنَ البِكَارَةِ » والبكارة : جمع بكر – بفتح فسكون – وهو الفتىّ السمين من الإبل : أى سقط عنها ماعلاها من السمن برعى الأملوج ؛ فسمى السمن نفسه أملوجا على سبيل الاستعارة ، قاله الزمخشرى .

(٥) العسلوج : هوالغصن إذا يبس وذهبت طراوته ، وقيل : هو الحديث الطلوع من قضبان الشجر ، يريد أن الأغصان يبست وهلـكت من الجدب ، وجمع العسلوج عساليج .

(٦) الهدى – على وزن فعيل – مثل الهدى – بفتح فسكون – وهو مايهدى إلى البيت الحرام من النعم لينحر هناك ، وأطلق على جميع الإبل و إن لم تـكن هديا ، من باب الإطلاق والتقييد .

(٧) فاد : مات ، والودىّ : صغار النخل ، واحدته وديّة ، و يروى « ومات الودىّ » كما رواه ابن الأثير فى النهاية

لنا دعوة السَّلاَم ، وشريعة الإسلام ، ماطَمَى الْبَحْرُ وقامَ تِعارُ[١] ، ولنا نعم هَمَل أغْفَال[٢] ماتَبِضُّ ببِلاَل[٣] ، وَوَقِير[٤] كَثِير الرَّسَل ، قَلِيل الرِّسْل[٥] ، أصابتنا سُنَيَّةٌ حَمْراء مُؤْزِلة[٦] ليس لها عَلَلٌ وَلا نَهَل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مَحْضِهَا[٧] وَمَخْضِهَا[٨] وَمَذْقِهَا[٩] وفِرْقِهَا[١٠] ، وابعث راعيها فى الدَّثْر[١١] بيانـعِ الثمر ، وافجُرْ له الثَّمَد[١٢] ، وبارك له فى المال

---

(١) تعار – بكسر التاء أوله – جبل بعينه ، ويجوز صرفه وترك صرفه .

(٢) وقع فى الأصول « نعم همل أعقال » والتصحيح عن ابن الأثير فى النهاية ، والأغفال : التى لاعلامة لها ولا سمة ، ويقال : المراد بالأغفال هنا التى لا ألبان لها ، واحدها غفل ، مثل قفل وأقفال .

(٣) « تبض » تسيل ؛ تقول : بض الماء ، إذا قطر وسال ، والبلال – بكسر الباء – مايبل الحلق ، يريد مايقطر منها لبن .

(٤) الوقير : الغنم ، ويقال : أصحابها ، ويقال : القطيع من الضأن خاصة ، وقيل : هو الغنم والـكلاب والرعاء جميعا ، وكثير الرسل : أى أنها كثيرة الإرسال فى المرعى ، وهو بفتح الراء والسين جميعا .

(٥) « قليل الرسل » بكسر الراء وسكون السين – أى اللبن ، يريد أن الذى يرسل إلى المرعى من الغنم كثير ولـكنه لالبن فيه ، ويقال : إن المعنى أنه شديد التفرق فى طلب المرعى .

(٦) مؤزلة – بضم الميم وسكون الهمزة ، ويروى بضم الميم وفتح الهمزة وتشديد الزاى مكسورة – يريد آتية بالأزل ، وهو الجدب والشدة والضيق .

(٧) المحض – بالحاء المهملة – الخالص .

(٨) المخض – بالخاء المعجمة – ماتمخض من اللبن وأخذ زبده .

(٩) المذق : المزج والخلط ، تقول : مذقت اللبن ، إذا خلطته بالماء ، والمراد هنا المخلوط .

(١٠) الفرق – بكسر الفاء ، و بعضهم يفتحها – مكيال يكال به اللبن .

(١١) الدثر – بفتح فسكون – المال الـكثير ، ويقال : المراد به هنا الخصب والنبات .

(١٢) الثمد – بفتح الثاء والميم – القليل ، ومعنى افجره : صيره لهم كثيرا .

والولد ، ومن أقام الصلاة كان مسلما ، ومن آتى الزكاة كان مُحْسناً ، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً ، لكم يابنى نَهْد وَدَائعُ الشرك[١] ، ووَضَائع[٢] المِلْك ، لاتُلطِطْ فى الزكاة[٣] ، ولا تُلْحِدْ فى الحياة[٤] ، ولا تَتَثَاقَلْ عن الصَّلاة .

وكتب معه كتابا إلى بنى نَهْدٍ « من محمد رسول الله إلى بنى نَهْدٍ ، السلام على من آمن بالله ورسوله ، لكم يابنى نَهْدٍ فى الوَظِيفَةِ الفريضة[٥] ، ولكم الفارض والفريش[٦] وذو العنان الركوب

(١) ودائع الشرك : العهود والمواثيق ، ويقال : توادع الفريقان ؛ إذا أعطى كل واحد منهما الآخر عهدا ألا يغزوه ، واسم ذلك العهد الوديع ، وتقول : أعطيته وديعا ؛ تريد عهدا .

(٢) الوضائع : جمع وضيعة ، وهى الوظيفة التى تكون على الملك ، وهى مايلزم الناس من أموالهم من الصدقة والزكاة : أى لكم الوظائف التى تلزم المسلمين لاتتجاوزها معكم ولا نزيد عليكم شيئا منها .

(٣) لاتلطط فى الزكاة : أى لاتمنعها ؛ يقال : لط الغريم ، وألط ، إذا منع الحق ؛ ويقال : لط الحق بالباطل ؛ إذا ستره ، ويروى « لايلطط فى الزكاة » بياء المضارعة و بناء الفعل للمجهول .

(٤) لا تلحد فى الحياة : أى لا يكن منك ميل عن الحق مادمت حيا ، ويروى «ولا يلحد فى الحياة» بياء المضارعة و بناء الفعل للمجهول ، ويروى ، « ولا نلطط فى الزكاة ، ولا نلحد فى الحياة » بنون المضارعة مع البناء للمعلوم .

(٥) لكم فى الفريضة الوظيفة : أى لكم فى فريضة الزكاة الهرمة المسنة ، يريد أنها تبق لكم ولا تؤخذ منكم ، ورويت هذه العبارة « عليكم فى الوظيفة الفريضة » والمراد على هذا الوجه أن عليهم فى كل نصاب من أنصبة الزكاة مافرض فيه لايزاد عليها ولا ينقص منها .

(٦) الفريض والفارض : المسن من الإبل . وقد رويت هذه العبارة على ثلاثة أوجه : أولها « لكم الفارض والفريض » وثانيها « لكم الفارض والفريش » وهى هكذا فى أصول كتابنا هذا ، وثالثها « لكم العارض والفريش » والعارض — بالعين المهملة — المريضة ، وقيل : هى التى أصابها كسر ، ويقال: عرضت الناقة ،

والفَلُوُ الضَّبِيس[(١)] ، لا يُمنَعُ سَرحكم[(٢)] ، ولا يُعضَدُ طَلحُكم[(٣)] ، ولا يُحبَسُ درّكم ، ولا يؤكل أكالكم ، مالم تضمروا الإماق[(٤)] ، وتأكلوا الرباق[(٥)] ، من أقرّ بما فى هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة ، ومن أبى فعليه الرَّبْوَة[(٦)] » .

وفصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتقتضى استعمال هذه الألفاظ ، ولا تكاد توجد فى كلامه ، إلا جوابا لمن يخاطبه بمثلها ، كهذا الحديث وما جرى مجراه ، على أنه قد كان فى زمنه متداولا بين العرب ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يستعمله إلا يسيراً ؛ لأنه أعلم بالفصيح والأفصح .

إذا أصابها كسر أو آفة، والمعنى إنا لا نأخذ ذات العيب. والفريش : الناقة الحديثة النتاج كالنفساء من النساء، ويقال : الفريش من النبات ما انبسط على وجه الأرض ولم يقم على ساق ، ويقال : فرس فريش ، إذا حمل عليها صاحبها بعد النتاج بسبع .

(١) الفلو الضبيس : أى المهر العسر الذى لم يرض .

(٢) السرح ـ بفتح فسكون ـ والسارح ، والسارحة : الماشية ، والمراد من قوله « لا يمنع سرحكم » أنها لا تصرف عن مرعى تريده .

(٣) يعضد : يقطع ، والطلح : شجر .

(٤) الإماق : مصدر أماق الرجل ، إذا صار ذا حمية وأنفة ، وقيل : صار ذا حدة وجراءة ، والمراد هنا مالم تضمروا فى أنفسكم الغدر بالعهود ونكث المواثيق ، فأطلق السبب وأراد المسبب وروى « الإماق » وهو بوزن كتاب مخفف من الأول.

(٥) الرباق ـ بكسر الراء ـ جمع ربقة ، وأصل الربقة عروة من حبل تجعل فى عنق البهيمة أوفى يدها تمسكها ، وقد شبه ما يلزم الأعناق من العهد بالرباق ، واستعار الأكل لنقض العهد ، فإن البهيمة إذا أكلت ربقتها خلصت من الشد .

(٦) «من أبى فعليه الربوة» أى من امتنع عن الزكاة وتقاعد عن أدائها وجب عليه الزيادة ، كعقوبة له ، ويروى «من أقر بالجزية فعليه الربوة » أى من امتنع عن الإسلام لأجل الزكاة كان عليه من الجزية أكثر مما عليه من الزكاة .

وهذا الكلام هو الذى نَعُدُّه نحن فى زماننا وحشياً لعدم الاستعمال ، فلا تظن أن الوحشى من الألفاظ ما يكرهه سمعك ، ويثقل عليك النطق به ، وإنما هو الغريب الذى يقل استعماله ، فتارةً يَخِفُّ على سمعك ولا تجد بِهِ كراهة ، وتارةً يثقل على سمعك وتجد منه الكراهة ، وذلك فى اللفظ عيبان : أحدهما أنه غريب الاستعمال ، والآخر أنه ثقيل على السمع كريه على الذوق ، وإذا كان اللفظ بهذه الصفة فلا مزيد على فظاظته وغلاظته ، وهو الذى يسمى الوحشى الغليظ ، ويسمى أيضاً المتوعِّر ، وليس وراءه فى القبح درجة أخرى ، ولا يستعمله إلا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله معرفة هذا الفن أصلا .

فإن قيل : فما هذا النوع من الألفاظ ؟

قلت : قد ثبت لك أنه ما كرهه سمعك ، وثقل على لسانك النطق به ، وسأضرب لك فى ذلك مثالا ؛ فمنه ماورد لتأبط شراً فى كتاب الحماسة(١) :

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمْسِي بِغَـيْرِهَا جَحِيشاً وَيَعْرَوْرِى ظُهُورَ الْمَسَالِكِ(٢)

فإن لفظة «جحيش» من الألفاظ المنكرة القبيحة ، ويالله العجب : أليس أنها بمعنى فريد ، وفريد لفظة حسنة رائقة ، ولو وضعت فى هذا البيت موضع جحيش لما اختلَّ شىء من وزنه ، فتأبط شراً ملوم من وجهين فى هذا الموضع : أحدهما أنه استعمل القبيح ، والآخر أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنها .

---

(١) من كلمة له رواها أبو تمام فى الحماسة (انظر شرح التبريزى : ١ – ٩٠) وأولها قوله :

وَإِنِّى لَمُهْدٍ مِنْ ثَنَائِى فَقَاصِـدٌ بِهِ لِابْنِ عَمِّ الصِّدْقِ شُمْسِ بْنِ مَالِكِ

(٢) الموماة : المفازة التى لاماء فيها ، وتجمع على الموامى ، وجحيشا : منفردا ، كما قال المؤلف ، ووقع فى ج «حجيش» بتقديم المهملة ، وهو تصحيف ، «ويعرورى» من قولهم : اعرورى الفرس ، إذا ركبه عريا . وفى الحماسة «ظهور المهالك» .

ومما هو أقبح منها ماورد لأبى تمام [من] قوله(١) :

قَدْ قُلْتُ لَمَّا اطْلَخَمَّ الأَمْرُ وَانْبَعَثَتْ عَشْوَاءُ تَالِيَةٌ غُبْساً دَهَارِيسَا(٢)

فلفظة « اطْلَخَمَّ » من الألفاظ المنكرة التى جمعت الوصفين القبيحين فى أنها غريبة وأنها غليظة فى السمع كريهة على الذوق ، وكذلك لفظة « دهاريس » أيضاً ، وعلى هذا ورد قوله من أبيات يصف فرساً من جملتها(٣) :

نِعْمَ مَتَاعُ الدُّنْيَا حَبَاكَ بِهِ أَرْوَعُ لَا حَيْدَرٌ وَلَا جِبْسُ(٤)

فلفظة « حيدر » غليظة ، وأغلظ منها قول أبى الطيب المتنبى(٥) :

جَفَخَتْ وَهُمْ لَا يَجْفَخُونَ بِهَا بِهِمْ شِيَمٌ عَلَى الْحَسَبِ الأَغَرِّ دَلَائِلُ(٦)

فإن لفظة « جَفَخَ » مُرَّة الطعم ، و إذا مرت على السمع أقشعرَّ منها ، وأبو الطيب فى استعمالها كاستعمال تأبط شراً لفظة جحيش ؛ فإن تأبط شراً كانت له مندوحة عن استعمال تلك اللفظة ، كما أشرنا إليه فيما تقدم ، وكذلك أبو الطيب

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها عياش بن لهيعة ، وأولها قوله :

أَحْيَا حُشَاشَةَ قَلْبٍ كَانَ مَخْلُوساً وَرَمَّ بِالصَّبْرِ عَقْلاً كَانَ مَأْلُوسَا

(٢) اطلخم : أظلم ، عشواء : مؤنث الأعشى ، وهو الذى لايبصرليلا ، والغبس: جمع غبساء أو أغبس ، وهى المظلمة ، والدهاريس : الدواهى .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها الحسن بن وهب، وأولها قوله :

هَلْ أَثَرٌ مِنْ دِيَارِهِمْ دَعْسُ حَيْثُ تَلَاقَى الأَجْرَاعُ وَالْوَعْسُ

(٤) حباك : منحك وأعطاك ، والأروع : الذى يعجب الإنسان ، والحيدر : القصير، والجبس : الجامد الثقيل الروح .

(٥) من قصيدة له يمدح فيها أبا الفضل أحمد بن عبدالله الأنطاكى ، وأولهاقوله :

لَكِ يَا مَنَازِلُ فِى الْقُلُوبِ مَنَازِلُ أَقْفَرْتِ أَنْتِ وَهُنَّ مِنْكِ أَوَاهِلُ

(٦) الشيم : جمع شيمة ؛ وهى الخليقة ، و « شيم » فاعل جفخت ، ونظام البيت : جفخت بهم شيم دلائل على الحسب الأغر وهم لايجفخون بها .

فى استعمال هذه اللفظة التى هى جَفَخَتْ ؛ فإن معناها فخرت ، والْجَفْخُ : الفخر ، يقال : جَفَخَ فلان ؛ إذا فخر ، ولو استعمل عوضاً عن جَفَخَتْ فَخَرَتْ لاستقام وزن البيت وحظى فى استعماله بالأحسن ، وما أعلم كيف يذهب هذا وأمثاله على مثل هؤلاء الفحول من الشعراء ؟

وهذا الذى ذكرته وما يجرى مجراه من الألفاظ هو الوحشى اللفظ الغليظ الذى ليس له مايدانيه فى قبحه وكراهته ، وهذه الأمثلة دليل على ماأوردناه ، والعرب إذن لاتُلَام على استعمال الغريب الحسن من الألفاظ ، وإنما تلام على الغريب القبيح ، وأما الحضرى فإنه يلام على استعمال القسمين معاً ، وهو فى أحدهما أشد مَلَامَة من الآخر .

على أن هذا الموضع يحتاج إلى قيد آخر ، وذلك شىء استخرجته أنا دون غيرى ؛ فإنى وجدت الغريب الحسن يسوغ استعماله فى الشعر ، ولا يسوغ فى الخطب والمكاتبات ، وهذا ينكره من يسمعه حتى ينتهى إلى ماأوردته من الأمثلة ، ولربما أنكره بعد ذلك إما عناداً وإما جهلا ؛ لعدم الذوق السليم عنده .

فمن ذلك قول الفرزدق[1] :

وَلَوْلَا حَيَاءٌ زِدْتُ رَأْسَكَ شَجَّةً ... إِذَا سُبِرَتْ ظَلَّتْ جَوَانِبُهَا تَغْلِى[2]
شَرَنْبَثَةٌ شَمْطَاءُ مَنْ يَرَ مَا بِهَا ... تَشِبْهُ وَلَوْ بَيْنَ الْخُمَاسِيِّ وَالطِّفْلِ[3]

فقوله « شَرَنْبَثَة » من الألفاظ الغريبة التى يسوغ استعمالها فى الشعر ،

---

(١) من قصيدة له يهجو فيها جريرا ، وأولها قوله :

أَلَا اسْتَهْزَأَتْ مِنِّى هُنَيْدَةُ أَنْ رَأَتْ ... أَسِيراً يُدَانِى خَطْوَهُ حَلَقُ الْحِجْلِ

(٢) فى الديوان والنقائض « زدت رأسك هزمة » .

(٣) البيتان ليسا متصلين فى الديوان والنقائض ، و بينهما خمسة أبيات ، وفيهما فى صدر هذا البيت « شرنبثة شمطاء من ير مابها » .

وهى هٰهنا غير مستكرهة ، إلا أنها لو وردت فى كلام منثور من كتاب أو خطبة لعيبت على مستعملها .

وكذلك وردت لفظة « مشمخر » فإن بشرا[١] قد استعملها فى أبياته التى يصف فيها لقاءه الأسد ، فقال :

وَأَطْلَقْتُ الْمُهَنَّدَ عَنْ يَمِينِى ... فَقَدَّ لَهُ مِنَ الْأَضْلَاعِ عَشْرَا

فَخَرَّ مُضَرَّجاً بِدَمٍ كَأَنِّى ... هَدَمْتُ بِهِ بِنَاءً مُشْمَخِرَّا

وعلى هذا ورد قول البحترى فى قصيدته التى يصف فيها إيوان كسرى[٢] ، فقال :

مُشْمَخِرٌّ تَعْلُو لَهُ شُرُفَاتٌ ... رُفِعَتْ فِى رُءُوسِ رَضْوَى وَقُدْسِ

فإن لفظة « مشمخر » لايحسن استعمالها فى الخطب والمكاتبات ، ولا بأس بها هٰهنا فى الشعر ، وقد وردت فى خطب الشيخ الخطيب ابن نُبَاتة ، كقوله فى خطبة يذكر فيها أهوال يوم القيامة ، فقال : « اقمطر وبالها ، واشمخر نكالها » فما طابت ولا ساغت .

ومن هذا الأسلوب لفظة « الكَنَهْوَر » فى وصف السحاب ، كقول أبى الطيب[٣] :

---

(١) هذه القصيدة لبديع الزمان الهمذانى نحلها بشر بن عوانة العبدى ، وأولها قوله :

أَفَاطِمَ لَوْ شَهِدْتِ بِبَطْنِ خَبْتٍ ... وَقَدْ لَاقَى الْهِزَبْرُ أَخَاكِ بِشْرَا

(٢) وأولها قوله :

صُنْتُ نَفْسِى عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِى ... وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جِبْسِ

(٣) من قصيدة له يمدح فيها أبا الفضل بن العميد ، وأولها قوله :

بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا ... وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

يَالَيْتَ بَاكِيَةً شَجَانِي دَمْعُهَا نَظَرَتْ إِلَيْكَ كما نَظَرْتُ فَتَعْذِرَا
وَتَرَى الْفَضِيلَةَ لَا تَرُدُّ فَضِيلَةً الشَّمْسَ تَشْرُقُ وَالسَّحَابَ كَنَهْوَرَا(١)

فلفظة « الكنهور » لاتعاب نظما ، وتعاب نثرا ، وكذلك يجرى الأمر فى لفظة « العرمس » وهى اسم الناقة الشديدة ؛ فإن هذه اللفظة يسوغ استعمالها فى الشعر، ولا يعاب مستعملها ، كقول أبى الطيب أيضاً (٢) :

وَمَهْمَهٍ جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِى تَعْجِزُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الذُّلُلُ (٣)

فإنه جمع هذه اللفظة ، ولا بأس بها ، ولو استعملت فى الكلام المنثور لما طابت ولا ساغت ، وقد جاءت موحدة فى شعر أبى تمام ، كقوله (٤) :

هِىَ الْعرمسُ الوَجْنَاء وابنُ ملمةٍ وَجَأْشٌ عَلَى ما يُحْدِثُ الدَّهْرُ خافِضُ (٥)

وكذلك ورد قوله أيضاً :

* يا مُوضِعَ الشَّدَنِيةِ الوَجْنَاءِ (٦) *

---

(١) نصب « الشمس والسحاب » بفعل مضمر ، كأنه قال : وترى الشمس والسحاب ، وكنهور : حال .

(٢) من قصيدة يمدح فيها بدر بن عمار ، وأولها قوله :

أَبْعَدُ نَأْيِ الْمَلِيحَةِ الْبَخَلُ فِى الْبُعْدِ مَالَا تُكَلَّفُ الإِبِلُ

(٣) المهمه : مابعد من الأرض واتسع ، وجبته : قطعته ، والعرامس : النوق الصلاب الشداد ، والذلل : المذللة بالعمل ، واحدها ذلول .

(٤) من قصيدة له يمدح فيها دينار بن عبد الله :

مَهَاةَ النَّقَا لَوْلَا الشَّوَى وَالْمَآبِضُ وَأَنْ مَحَضَ الإِعْرَاضَ لِى مِنْكِ مَاحِضُ

(٥) الذى فى الديوان (١٨٤ بيروت) « هى الحرة الوجناء » .

(٦) هـذا صدر بيت هو مطلع قصيدة يمدح فيها خالد بن يزيد الشيبانى ، وعجزه قوله :

* وَمُصَارِعَ الْإِدْلَاجِ وَالْإِسْرَاءِ *

وموضع : اسم فاعل من أوضع إذا سير ناقته سيرا سريعا .

فإن « الشدنية » لا تعاب شعرا ، وتعاب لو وردت فى كتاب أو خطبة ، وهكذا يجرى الحكم فى أمثال هذه الألفاظ المشار إليها .

وعلى هذا فاعلم أن كل ما يسوغ استعماله فى الكلام المنثور من الألفاظ يسوغ استعماله فى الكلام المنظوم ، وليس كل ما يسوغ استعماله فى الكلام المنظوم يسوغ استعماله فى الكلام المنثور ، وذلك شىء استنبطته ، واطلعت عليه ؛ لكثرة مُمَارستى لهذا الفن ، ولأن الذوق الذى عندى دَلَّنى عليه ؛ فمن شاء فليقلدنى فيه ، وإلا فليُدْمِنِ النظر حتى يطَّلع على ما اطلعت عليه ، والأذهان فى مثل هذا المقام تتفاوت .

وقد رأيت جماعةً من مُدَّعِى هذه الصناعة يعتقدون أن الكلام الفصيح هوالذى يَعِزّ فهمه ، وَيَبْعُدُ مُتَناوله ، و إذا رأوا كلاما وَحْشِيًّا غامض الألفاظ يُعْجَبون به و يصفونه بالفصاحة ، وهو بالضد من ذلك ؛ لأن الفصاحة هى الظهور والبيان ؛ لا الغموض والخفاء .

وسأبين لك ما تعتمد عليه فى هذا الموضع ؛ فأقول :

الألفاظ تنقسم فى الاستعمال إلى جَزْلة ورقيقة ، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه .

فالجزل منها يستعمل فى وصف مواقف الحروب ، وفى قوارع التهديد والتخويف ، وأشباه ذلك .

وأما الرقيق منها فإنه يستعمل فى وصف الأشواق وذكر أيام البعاد ، وفى استجلاب المودَّات ، وملاينات الاستعطاف ، وأشباه ذلك .

ولست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعّراً عليه عنجهية البداوة ، بل أعنى بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته فى الفم ولذاذته فى السمع ، وكذلك لست أعنى بالرقيق أن يكون ركيكا سفسفاً ، و إنما هو اللطيف الرقيق

الحاشية الناعم الملمس ، كقول أبى تمام (١) :

نَاعِمَاتُ الأَطْرَافِ لَوْ أَنَّهَا تُلْـــبَسُ أَغْنَتْ عَنِ المُلاَءِ الرِّقَاقِ (٢)

وسأضرب لك مثالا للجزل من الألفاظ والرقيق ، فأقول :

انظر إلى قوارع القرآن عند ذكر الحساب والعذاب والميزان والصراط ، وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا ، وما جرى هذا المجرى ؛ فإنك لا ترى شيئا من ذلك وحشىّ الألفاظ ، ولا متوعراً ، ثم انظر إلى ذكر الرحمة والرأفة والمغفرة ، والملاطفات فى خطاب الأنبياء ، وخطاب المنيبين والتائبين من العباد ، وما جرى هذا المجرى ؛ فإنك لا ترى شيئا من ذلك ضعيف الألفاظ ولا سفسفاً .

فمثال الأول ـ وهو الجزل من الألفاظ ـ قوله تعالى: (وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ، وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِىءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ، وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوا بَلَى وَلٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ، قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها إسماعيل بن شهاب ويشكره ؛ وأولها قوله :

أَيُّهَا الْبَرْقُ بِتْ بِأَعْلَى الْبِرَاقِ وَاغْدُ فِيهَا بِوَابِلٍ غَيْدَاقِ

وانظر الديوان (٣٢٠ بيروت) .

(٢) قبل هذا البيت قوله :

مَا تَمَلَّيْتُ مِثْلَ ذَاكَ الْحِجَى الْمُعْـــرِقِ فِى الْحِلْمِ وَالسَّجَايَا الْعِتَاقِ

مَعَ مَا قَدْ طَوَيْتُ مِنْ سَائِرِ النَّا سِ وَمَا قَدْ نَشَرْتُ فِى الآفَاقِ

فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ، وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) .

فتأمل هذه الآيات المضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله وذكر النار والجنة . وانظر هل فيها لفظة إلا وهى سَهْلة مستعذبة على ما بها من الجزالة .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) .

وأما مثال الثانى ـ وهو الرقيق الألفاظ ـ فقوله تعالى فى مخاطبة النبى صلى الله عليه وسلم : (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) إلى آخر السورة ، وكذلك قوله تعالى فى ترغيب المسألة (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

وهكذا ترى سبيل القرآن الكريم فى كلا هذين الحالين من الجزالة والرقة، وكذلك كلام العرب الأول فى الزمن القديم مما ورد عنها نثراً ، ويكفى من ذلك كلام قبيصة بن نعيم لما قدم على امرئ القيس فى أشياخ بنى أسد يسألونه العفو عن دم[١] أبيه ، فقال: إنك فى المحل والقدر من المعرفة[٢] بتصرف الدهر وما تحدثه أيامه وتنتقل به أحواله بحيث لاتحتاج إلى تذكير من واعظ، ولا تبصير من مُجرِّب[٣]

(١) وردت هذه القصة ، ومحاورة قبيصة وامرئ القيس فى الأغانى (ج ٩ ص ١٠٤ دار الكتب ، فانظرها هناك) .

(٢) فى الأغانى « والمعرفة » .

(٣) فى الأغانى « بحيث لاتحتاج إلى تبصير واعظ ولا تذكرة مجرب » .

ولك من سُؤْدُد مَنْصِبك وشرف أعْرَاقك وكرم أصلك فى العرب محتد[١] يَحْتَمِل ماحُمِل عليه من إقالة الْعَثْرَة ورُجُوع عن الهَفْوَة[٢] ، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك فوجَدَتْ عندك من فضيلة الرأى و بصيرة الفهم وكرم الصفح[٣] مايطول رغباتها و يستغرق طلباتها ، وقد كان الذى كان من الخطب الجليل الذى عَمَّتْ رَزِيَّته نزاراً واليمن ولم تخصص بذلك كندة دوننا للشرف البارع الذى كان لحجر[٤] ، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بَخِلت كرائمنا بها على مثله[٥] ، ولـكنه مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاه ، ولا يلحق أقصاه أدْناه ، فأحمد الحالات فى ذلك أن تعرف الواجبَ عليك فى إحدى خلال ثلاث : إما أن اخترت من بنى أسد أشرَفَها بيتا ، وأعلاها فى بناء المكرمات صَوْتا ، فَقُدْنَاهُ إليك بنِسْعَةٍ تذهب مع شفَرَاتِ حُسامك بباقى قُصْرته[٦] ، فنقول : رجل امْتُحِن بها لك عزيز فلم يَسْتَلَّ سَخِيمته إلا بمكنته[٧] من الانتقام ، أو فداء بما يروح على بنى أسد من نَعَمِها فهى ألوف تجاوز الحسبة[٨] ، فكان ذلك فداء رجعت به القُضُب إلى أجفانها لم يرددها تسليط الإحن على الْبُرَآء ، وإما أن وَادَعْتنا إلى

---

(١) فى الأغانى « محتمل » .

(٢) فى الأغانى « عن هفوة » .

(٣) فى الأغانى « وكرم الصفح فى الذى كان من الخطب الجليل » .

(٤) فى الأغانى « كان لحجر التاج والعمة فوق الجبين الكريم وإخاء الحمد وطيب الشيم » .

(٥) فى الأغانى زيادة « وافديناه منه » .

(٦) كذا فى الأصول ، والذى فى الأغانى «تذهب مع شفرات حسامك قصدته» والقصدة ـ بفتحات ـ العنق ، ولما فى أصول هذا الكتاب وجه ولكنه بعيد .

(٧) فى الأغانى « إلا بتمكينه من الانتقام » .

(٨) فى الأصول « الجسة » وهو تحريف ، والتصويب عن عدة مراجع منها الأغانى .

أن تضع الحوامل ، فتُسْدل الأزر ، وتعقد الخمر فوق الرايات ، قال : فبكى ساعة ثم رفع رأسه ، فقال : لقد علمت العرب أنه لا كفء لحجر فى دم ، وإنى لن أعتاض [به] جملاً ولا ناقة فأكتسب به سُبَّة الأبد ، وفتَّ الْعَضُد ، وأما النَّظِرَة فقد أوجبتها الأجِنَّة فى بطون أمهاتها ، ولن أكون لعَطَبِها سَبَبا ، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل فى القلوب حَنَقاً ، وفوق الأسنة عَلَقا

إِذَا جَالَتِ الْحَرْبُ فِي مَأْزِقٍ تُصَافِحُ فِيهِ الْمَنَايَا النُّفُوسَا[١]

أتقيمون أم تنصرفون ؟ قالوا : بل ننصرف بأسوأ الاختيار ، وأبلى الاجترار ، بمكروه وأذِيَّة ، وحرب وبَلِيَّة ، ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل :

لَعَلَّكَ أَنْ تَسْتَوخِمَ الْوِرْدَ إِنْ غَدَتْ كَتَائِبُنَا فِي مَأْزِقِ الحرب تمطر[٢]

فقال امرؤ القيس : لا والله ، ولكن أستعذبه ، فرُوَيْدًا ينفرج لك دُجَاها عن فرسان كندة وكتائب حمير ، ولقد كان ذكر غير هذا بى أولى ؛ إذ كُنْتَ نازلا بربعي ، ولكنك قلت فأوجبت[٣] [فقال قبيصة : ما نتوقع فوق المعاتبة والإعتاب][٤] فقال امرؤ القيس : هو ذاك .

فلتنظر إلى هذا الكلام من الرجلين قبيصة وامرىء القيس ، حتى يدع المتعمقون تعمقهم فى استعمال الوحشى من الألفاظ ؛ فإن هذا الكلام قد كان فى

---

(١) رواية الأغانى « إذا جالت الخيل » .

(٢) رواية الأغانى « لعلك أن تستوخم الموت » وفيه « فى مأزق الموت » .

(٣) فى الأغانى « فأجبت » ، ولما فى أصول هذا الكتاب وجه .

(٤) سقطت هذه العبارة من أصول هـذا الكتاب ، فلم يبن الكلام ، حتى اضطر مصحح نسخة بولاق إلى أن يكتب فى هامش النسخة «قوله ولكنك قلت إلخ ، كذا فى النسخ ، والظاهر أن يقول : فقال قبيصة ولكنك إلخ » وهـذا الذى استظهره غير سديد .

الزمن القديم قبل الإسلام بما شاء الله ، وكذلك كلام كل فصيح من العرب مشهور ، وما عداه فليس بشيء ، وهذا المشار إليه هٰهنا هو من جزْل كلامهم ، وعلى ماتراه من السلاسة والعذوبة .

وإذا تصفحت أشعارهم أيضاً وجدت الوحشيَّ من الألفاظ قليلاً بالنسبة إلى المسلسل فى الفم والسمع ، ألا ترى إلى هذه الأبيات الواردة للسموأل بن عاديا ، وهى :

إذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ ... فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ
وَإنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا ... فَلَيْسَ إلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ
تُعَيِّرُنَا أنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا ... فَقُلْتُ لَهَا إنَّ الْكِرَامَ قَلِيلُ
وَمَا ضَرَّنَا أنَّا قَلِيلٌ وَجَارُنَا ... عَزِيزٌ وَجَارُ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ
يُقَرِّبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا ... وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ
وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أنْفِهِ ... وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ
عَلَوْنَا إلَى خَيْرِ الظُّهُورِ وَحَطَّنَا ... لِوَقْتٍ إلَى خَيْرِ الْبُطُونِ نُزُولُ
فَنَحْنُ كَمَاءِ الْمُزْنِ مَا فِى نِصَابِنَا ... كَهَامٌ وَلَا فِينَا يُعَدُّ بَخِيلُ
إذَا سَيِّدٌ مِنَّا خَلَا قَامَ سَيِّدٌ ... قَؤُولٌ لِمَا قَالَ الْكِرَامُ فَعُولُ
وَأيَّامُنَا مَشْهُورَةٌ فِى عَدُوِّنَا ... لَهَا غُرَرٌ مَشْهُورَةٌ وَحُجُولُ
وَأسْيَافُنَا فِى كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ ... بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ
مُعَوَّدَةٌ ألَّا يُسَلَّ نِصَالُهَا ... فَتُغْمَدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ

فإذا نظرنا إلى ماتضمنته من الجزالة خلناها زُبَراً من الحديد ، وهى مع ذلك سهلة مستعذبة غير فظة ولا غليظة .

وكذلك قد ورد للعرب فى جانب الرقة من الأشعار مايكاد يذوب لرقته ،

كقول عُرْوَةَ بن أذينة(١) :

إنَّ الّتى زَعَمتْ فُؤادكَ مَلَّهَا ... خُلقتْ هَواكَ كما خُلقتَ هوًى لها
بيْضَاء بَاكَرَها النَّعيمُ فصَاغها ... بِلَبَاقَـةٍ فَأدقَّها وَأجلَّها
حَجَبَتْ تَحيَّتها فقُلْتُ لِصَاحِبِى ... مَا كانَ أكْثرَها لنا وَأقلَّها
وَإذَا وَجدْتُ لها وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ ... شَفَعَ الضَّميرُ إلى الفُؤَادِ فسلَّها

وكذلك ورد قول الآخر(٢) :

أقُولُ لِصَاحِبِى وَالعِيسُ تَهْوِى ... بنا بَيْنَ المنِيفَةِ فالضِّمارِ
تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرارِ نَجْدٍ ... فَما بَعْدَ العَشِـيَّةِ مِنْ عَرارِ
ألا يَاحَبَّـذا نَفَحَاتُ نَجْدٍ ... وَرَيَّا رَوْضِـهِ غِبَّ القِطارِ(٣)
وَأهْلُكَ إذْ يَحلُّ الحَىُّ نَجْداً ... وَأنْتَ عَلَى زَمَانِكَ غَيْرُ زَارِ
شُهُورٌ يَنْقَضِـينَ وَمَا شَعَرْنَا ... بِأنْصَافٍ لَهُنَّ وَلاَ سِرَارِ
فأمَّا لَيْلُهُنَّ فَخَيْـرُ لَيلٍ ... وَأطْيَبُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّهَارِ

ومما ترقص الأسماع له ، ويرن على صفحات القلوب ، قول يزيد بن الطَّثْرِيَّة في محبوبته من جرم :

بِنَفْسِى مَنْ لَوْ مَرَّ بَرْدُ بَنانِهِ ... عَلَى كَبِدِى كانَتْ شِفاءً أنامِلُهْ
وَمَنْ هابَنِى فى كلِّ شَىْءٍ وَهِبْتُهُ ... فَلاَ هُوَ يُعْطِينِى وَلاَ أنَا سَائِلُهْ

---

(١) روى هـذه الأبيات أبو تمام فى ديوان الحماسة (انظر شرح التبريزى : ٣ - ٢١١) .

(٢) وهذه الأبيات أيضا قد رواها إلا آخرها بيتا أبو تمام فى ديوان الحماسة (انظر شرح التبريزى : ٣ - ٢١٤) .

(٣) فى الحماسة «بعد القطار» .

وإذا كان هذا قول ساكن فى الفلاة لايرى إلا شِيحَةً أو قَيْصُومة ، ولا يأكل إلا ضَبًّا أو يَرْبُوعاً ، فما بَالُ قوم سكنوا الحضر ، ووجدوا رقة العيش ، يتعاطَوْنَ وَحْشِيَّ الألفاظ ، وشظَفَ العبارات ، ولا يُخْلِد إلى ذلك إلا إما جاهل بأسرار الفصاحة ، وإما عاجز عن سلوك طريقها ؛ فإنَّ كل أحد ممن شَدَا شيئاً مِنْ علم الأدب يمكنه أن يأتى بالوحشىِّ من الكلام ، وذاك أنه يلتقطه من كتب اللغة ، أو يتَلَقَّفُه من أربابها ، وأما الفصيح المتَّصِف بصفة الملاحة فإنه لايقدر عليه ، ولو قدر عليه لما علم أين يضع يده فى تأليفه وسبكه .

فإنْ مَارَى فى ذلك مُمارٍ فلينظر إلى أشعار علماء الأدب ممن كان مشاراً إليه حتى يعلم صحة ماذكرته .

هذا ابن دريد ، قد قيل : إنه أشعر علماء الأدب ، وإذا نظرت إلى شعره وجدته بالنسبة إلى شعر الشعراء المجيدين منحطًّا ، مع أن أولئك الشعراء لم يعرفوا من علم الأدب عُشْر مِعْشار ماعلمه .

هذا العباس بن الأحنف ، قد كان من أوائل الشعراء المجيدين ، وشعرُهُ كمرِّ نسيم على عَذَبات أغصان ، وكلؤلؤات طَلٍّ على طُرَر ريحان ، وليس فيه لفظة واحدة غريبة يحتاج إلى استخراجها من كتب اللغة ، فمن ذلك قوله :

وَإِنِّى لَيُرْضِينِى قَلِيلُ نَوَالِكُمْ ... وَإِنْ كانَ لاأَرْضَى لَكُمْ بِقَلِيلِ
بِحُرْمَةِ مَاقَدْ كانَ بَيْنِى وَبَيْنَكم ... مِنَ الْوُدِّ إلاَّ عُدْتُمُ بِجَمِيلِ

وهكذا ورد قوله فى فَوْزَ التى كان يُشَبِّب بها فى شعره :

يَافَوْزُ ، يَامُنْيَةَ عَبَّاسِ ... قَلْبِى يُفَدَّى قَلْبَكِ الْقَاسِى
أَسَأْتُ إِذْ أَحْسَنْتُ ظَنِّى بِكُمْ ... وَالْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ
يُقْلِقُنِى شَوْقِى فَآتِيكُمُ ... وَالقَلْبُ مَمْلُوءٌ مِنَ الْيَاسِ

وهل أعْذَب من هذه الأبيات وأعْلَق بالخاطر وأَسْرَى فى السمع ؟ ولمثلها

تخف رواجح الأوزان ، وعلى مثلها تَسْهَر الأجفان ، وعن مثلها تتأخر السوابق عند الرهان ، ولم أُجْرِها بلسانى يوما من الأيام إلا ذكرت قول أبى الطيب المتنبى :

إذا شاءَ أنْ يَلْهُوَ بِلِحْيَةِ أَحْمَقٍ أَرَاهُ غُبَارِى ثُمَّ قَالَ لَهُ الْحَقِ

ومن الذى يستطيع أن يسلك هذه الطريق التى هى سَهْلَة وَعْرة قريبة بعيدة ؟

وهذا أبو العتاهية ؛ كان فى عزة الدولة العباسية ، وشعراء العرب إذْ ذاك موجودون كثيراً ، وكانت مدائحه فى المهدىّ بن المنصور ، وإذا تأملت شعره وجدته كالماء الجارى رقَّةَ ألفاظ ولَطَافَةَ سَبْك ، وليس بركيك ولا واهٍ .

وكذلك أبو نواس ، وبهذا قُدِّمَ على شعراء عصره ، وناهيك بعصره وما جمعه من فحول الشعراء ، ويكفى منهم مُسْلِم بن الوليد الذى كان فارسَ الشعر ، وله الأسلوب الغريب العجيب ، غير أنه كان يَتَمَنْجَه فى أكثر ألفاظه.

ويحكى أن أبا نواس جلس يوما إلى بعض التجار ببغداد هو وجماعة من الشعراء ، فاستسقى ماء ، فلما شرب قال :

* عَذُبَ المَاءُ وَطَابَا *

ثم قال: أجيزوه ، فأخذ أولئك الشعراء يتردَّدون فى إجازته ، وإذا هم بأبى العتاهية ، فقال : ما شأنكم مجتمعين ؟ فقالوا : هو كيت وكيت ، وقد قال أبو نواس :

* عَذُبَ المَاءُ وَطَابَا *

فقال أبو العتاهية :

* حَبَّذَا المَاءُ شَرَابَا *

فعجبوا لقوله على الفور من غير تَلَبُّثٍ .

وكل شعر أبى العتاهية كذلك سهل الألفاظ ، وسأورد منه ههنا شيئا يستدل به على سلاسة طبعه وترويق خاطره :

فمن ذلك قصيدته التي يمدح فيها المهدي ، ويشبّب فيها بجاريته عتب :

أَلاَ مَا لِسَيِّدَتِي مَالَهَا تُدِلُّ فَأَحْمِلُ إِدْلاَلَهَا
أَلاَ إِنَّ جَارِيَةً لِلإِمَا مِ قَدْ سَكَنَ الْحُسْنُ سِرْبَالَهَا
لَقَدْ أَتْعَبَ اللهُ قَلْبِي بِهَا وَأَتْعَبَ فِي اللَّوْمِ عُذَّالَهَا
كَأَنَّ بِعَيْنَيَّ فِي حَيْثُمَا سَلَكْتُ مِنَ الأَرْضِ تِمْثَالَهَا

فلما وصل إلى المديح قال من جملته :

أَتَتْهُ الْخِلاَفَةُ مُنْقَادَةً إِلَيْهِ تُجَرِّرُ أَذْيَالَهَا
فَلَمْ تَكُ تَصْلُحُ إِلاَّ لَهُ وَلَمْ يَكُ يَصْلُحُ إِلاَّ لَهَا
وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ لَزُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا
وَلَوْ لَمْ تُطِعْهُ نِيَاتُ الْقُلُوبِ لَمَا قَبِلَ اللهُ أَعْمَالَهَا

ويحكى أن بَشَّاراً كان شاهداً عند إنشاد أبي المتاهية هذه الأبيات ، فلما سمع المديح قال : انظروا إلى أمير المؤمنين ، هل طار عن أعواده ؟ يريد هل زال عن سريره طَرَباً بهذا المديح ، ولعمري إنَّ الأمر كما قال بشار ، وخير القول ما أسكر السامع حتى ينقله عن حالته ، سواء كان في مديح أو غيره ، وقد أشرت إلى ذلك فيما يأتي من هذا الكتاب عند ذكر الاستعارة ؛ فليؤخذ من هناك .

واعلم أن هذه الأبيات المشار إليها ههنا من رقيق الشعر غزلا ومديحاً ، وقد أذعن لمديحها الشعراء من أهل ذلك العصر ، ومع هذا فإنك تراها من السلاسة واللطافة على أقصى الغايات ، وهذا هو الكلام الذي يسمى السَّهْل الممتنع ، فتراه يُطْمِعُك ثم إذا حاولت مُماثلته رَاغَ عنك كما يَرُوغُ الثَّعْلَبُ ، وهكذا ينبغي أن يكون من خاض في كتابة أو شعر ؛ فإن خير الكلام ما دخل الأذن بغير إذْنٍ .

وأما البداوة والعنجهية فى الألفاظ فتلك أمة قد خَلَتْ ؛ ومع أنها قد خلت وكانت فى زمن العرب العاربة فانها قد عيبت على مستعملها فى ذلك الوقت ، فكيف الآن وقد غلب على الناس رقة الحضر ؟

وبعد هذا ، فاعلم أن الألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر ، فالألفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مَهَابة وَوَقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذى دَمَاثة ولين أخلاق ولطافة مزاج ، ولهذا ترى ألفاظ أبى تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم ، واسْتَلأَموا[١] سِلاَحهم ، وتأهّبوا للطِّراد ، وترى ألفاظ البُحْتُرِى كَأَنها نساء حِسان عليهنّ غَلاَئل[٢] مُصَبَّغات وقد تحلَّيْنَ بأصناف الحلى ، وإذا أنعمت نظرك فيما ذكرته ههنا وجدتنى قد دللتك على الطريق ، وضربت لك أمثالاً مناسبة .

واعلم أنه يجب على الناظم والناثر أن يجتنبا مايضيق به مجال الكلام فى بعض الحروف ، كالثاء والذال والخاء والشين والصاد والطاء والظاء والغين ؛ فإن فى الحروف الباقية مندوحة عن استعمال مالا يحسن من هذه الأحرف المشار إليها ، والناظم فى ذلك أشدُّ مَلاَمة ؛ لأنه يتعرّض لأن ينظم قصيدة ذات أبيات متعددة فيأتى فى أكثرها بالبشع الكريه الذى يَمُجُّه السمع لعدم استعماله ، كما فعل أبو تمام فى قصيدته الثانية التى مطلعها :

* قِفْ بالطُّلُولِ الدَّارِسَاتِ عُلاَثَا[٣] *

---

(١) استلأموا : لبسوا اللأمة ؛ واللأمة — بفتح اللام وسكون الهمزة — هى الدرع المحكمة الملتئمة .

(٢) الغلائل : جمع غلالة — بالغين المعجمة — وهى شعار يلبس تحت الثوب .

(٣) هذا صدر البيت وعجزه قوله :

* أضحتْ حِبالُ قَطِينِهِنَّ رِثَاثَا *

وانظر الديوان (ص ٦٣ بيروت) . و « علاثا » منادى مرخم ، وأصله علاثة

وكما فعل أبو الطيب المتنبى فى قصيدته الشينية التى مطلعها :

* مَبِيتِى مِنْ دِمشْقَ عَلَى فِرَاشِ (١) *

وكما فعل ابن هانىء المغربى فى قصيدته الخائية التى مطلعها :

* سَرَى وَجَنَاحُ اللَّيْلِ أَقْتَمُ أَفْتَخُ (٢) *

والناظم لايعاب إذا لم ينظم هذه الأحرف فى شعره ، بل يعاب إذا نظمها وجاءت كريهة مُسْتَبْشَعة ، وأما الناثر فإنه أقرب حالاً من الناظم ، لأَن غاية ماياتى به سَجْعَتان أو ثلاث أو أربع على حرف من هذه الأَحرف ، وما يَعْدَم فى ذلك مايَرُوق إذا كان بهذه المدة اليسيرة ، فإن كلفت أيها الشاعر أن تنظم شيئاً على هذه الحروف فقل : هذه الحروف هى مَقَاتِل الفصاحة ، وعُذْرى واضح فى تركها ، فإن واضعَ اللغة لم يضع عليها ألفاظاً تَعْذُب فى الفم ، ولا تلذ فى السمع والذى هو بهذه الصفة منها فإنما هو قليل جداً ، ولا يصاغ منه إلا مقاطيع أبيات من الشعر ، وأما القصائد الْمُقَصَّدة فلا تُصَاغ منه ، وإن صيغت جاء أكثرها بَشِعاً كريهاً ، على أن هذه الحروف مُتفاوتة فى كراهة الاستعمال ، وأشدها كراهية أربعة أحرف ، وهى الخاء والصاد والظاء والغين ، وأما الثاء والذال والشين والطاء فإن الأمر فيهن أقربُ حالاً ، وهذا موضع ينبغى لصاحب الصناعة

---

(١) هى قصيدة يمدح فيها أبا العشائر على بن الحسين بن حمدان ، وهذا الذى ذكره المؤلف صدر مطلعها ، وعجزه قوله :

* حَشَاهُ لِى بِحَرٍّ حَشَاىَ حَاشِ *

(٢) هى قصيدة يمدح فيها المعز الفاطمى ، وهذا الذى ذكره المؤلف صدر مطلعها وعجزه قوله :

* حَبِيبٌ ضَجِيعٌ بِالْعَبِيرِ مُضَمَّخُ *

والأقتم : المظلم ، والأفتخ : المستطيل .

أن يُنْعِم نظره فيه ، وفيما أشرنا إليه كفاية للمتعلم ؛ فليعرفه وليقف عنده .

ومن أوصاف الكلمة ألاّ تكون مُبْتَذَلة بين العامة ، وذلك ينقسم قسمين :

الأول : ما كان من الألفاظ دالاًّ على معنى وضع له فى أصل اللغة فغيرته العامة وجعلته دالا على معنى آخر ، وهو ضربان :

الأول : مايكره ذكره ، كقول أبى الطيب(١) :

أَذَاقَ الْغَوَانِي حُسْنُهُ مَا أَذَقْنَنِي وَعَفَّ فَجَازَاهُنَّ عَنِّي بِالصَّرْمِ(٢)

فإن لفظة « الصرم » فى وضع اللغة هو الْقَطْع ، يقال : صرمه إذا قطعه ، فغيرتها العامة وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره ، فأبدلوا السين صاداً ، ومن أجل ذلك استكره استعمال هذه اللفظة ، وما جرى مجراها ، لكن المكروه منها مايستعمل على صيغة الاسمية ، كما جاءت فى هذا البيت ، وأما إذا استعملت على صيغة الفعل كقولنا صَرَمَه وصَرَمْتُه وتَصْرِمه فإنها لاتكون كريهة ؛ لأن استعمال العامة لايدخل فى ذلك ، وهذا الضرب المشار إليه لايعاب البدوى على استعماله كما يعاب المحتضر ؛ لأن البدوىّ لم تتغير الألفاظ فى زمنه ، ولا تصرفت العامة فيها كما تصرفت فى زمن المحتضرة من الشعراء ؛ فمن أجل ذلك عيب استعمال لفظة الصرم وما جرى مجراها على الشاعر المحتضر ، ولم يعب على الشاعر المتبدى(٣) ، ألا ترى إلى قول أبى صَخْر الهذلى(٤) :

(١) من قصيدة له يمدح فيها الحسين بن إسحاق التنوخى ، وأولها قوله :

مَلَامُ النَّوَى فى ظُلْمِهَا غَايَةُ الظُّلْمِ لَعَلَّ بِهَا مِثْلَ الَّذِي بِي مِنَ السُّقْمِ

(٢) رواية الديوان فى عجز هذا البيت هكذا :

* وَعَفَّ فَجَازَاهُنَّ عَنِّي عَلَى الصُّرْمِ *

(٣) فى نسخة « المبتدى » بتقديم الباء ، وهى توافق « المحتضر » .

(٤) من كلمة له رواها أبو تمام فى ديوان الحماسة وأولها قوله :

بِيَدِ الَّذِي شَعَفَ الْفُؤَادَ بِكُمْ تَفْرِيجُ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَمِّ

قَدْ كَانَ صُرْمٌ فِي ٱلْمَمَاتِ لنَا ... فَعَجِلْتِ قَبْلَ ٱلْمَوْتِ بِالصُّرْمِ

فإن هذا لا يعاب على صخر كما عيب على المتنبي قوله فى البيت المقدم ذكره .

وقد صنف الشيخ أبو منصور بن أحمد البغدادى المعروف بابن الجواليقى كتابا فى هذا الفن ، ووسمه باصلاح ما تغلط فيه العامة ؛ فمنه ماهذا سبيله ، وهو الذى أنكر استعماله ؛ لكراهته ، ولأنه مما لم ينقل عن العرب ، فهذان عيبان .

وأما الضرب الثانى ، وهو أنه وضع فى أصل اللغة لمعنى فجعلته العامة دالا على غيره ، إلا أنه ليس بمستقبح ولا مستكره ، وذلك كتسميتهم الإنسان ظريفاً إذا كان دَمِثَ الأخلاق حسن الصورة أو اللباس ، أو ما هذا سبيله ، والظَّرْف فى أصل اللغة مختص بالنطق فقط .

وقد قيل فى صفات خلق الإنسان ما أذكره ههنا ، وهو الصَّبَاحة فى الوجه ، الوَضَاءَة فى البشرة ، الجمال فى الأنف ، الحَلاَوَة فى العينين ، الْمَلاَحة فى الفم ، الظَّرْف فى اللسان ، الرَّشاقة فى القدّ ، اللَّباقة فى الشمائل ، كمال الحسن فى الشعر؛ فالظرف إنما يتعلق بالنطق خاصة ، فغيرته العامة عن بابه .

وممن غلط فى هذا الموضع أبو نواس حيث قال :

اخْتَصَمَ ٱلْجُودُ وَٱلْجَمَالُ ... فِيكَ فَصَارَا إِلَى جِدَالِ
فَقَالَ هٰـذَا يَمِينُهُ لِي ... لِلْعُرْفِ وَالْبَذْلِ وَالنَّوَالِ
وَقَالَ هٰذَاكَ وَجْهُهُ لِي ... لِلظَّرْفِ وَالْحُسْنِ وَالْكَمَالِ
فَافْتَرَقَا فِيكَ عَنْ تَرَاضٍ ... كِلاَهُمَا صَادِقُ الْمَقَالِ

وكذلك غلط أبو تمام ، فقال [١] :

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف ، ويعرض بوال ولى الثغر بعده ، وأولها قوله :

أَطْلاَلُهُمْ سُـلِبَتْ دُمَاهَا الْهِيفَا ... وَاسْتَبْدَلَتْ وَحْشاً بِهِنَّ عَكُوفَا

لكَ هَضْبَةُ الحِلْمِ الَّتِي لَوْ وَازَنَتْ أَجَأً إِذَنْ ثَقُلَتْ وَكَانَ خَفِيفَا[(١)]
وَحَلاوَةُ الشِّيَمِ الَّتِي لَوْ مَازَجَتْ خُلُقَ الزَّمَانِ الفَدْمِ عادَ ظَرِيفَا

فأبو نواس غلط ههنا فى أنه وصف الوجه بالظرف، وهو من صفات النطق، وأبو تمام غلط فى أنه وصف الخلق بالظرف، وهو من صفات النطق أيضاً، إلا أن هذا غلط لا يوجب فى هـذه اللفظة قبحاً، لـكنه جهل بمعرفة أصلها فى وضع اللغة.

القسم الثانى مما ابتذلته العامة؛ وهو الذى لم تغيره عن وصفه، وإنما أنكر استعماله لأنه مبتذل بينهم، لا لأنه مستقبح، ولا لأنه مخالف لما وضع له، وفى هذا القسم نظر عندى؛ لأنه إن كان عبارةً عما يكثر تداوله بين العامة فإنَّ من الـكثير المتداول بينهم ألفاظاً فصيحة، كالسماء والأرض والنار والماء والحجر والطين، وأشباه ذلك، وقد نطق بها القرآن الـكريم فى مواضع كثيرة منه، وجاءت فى كلام الفصحاء نظماً ونثراً، والذى ترجح فى نظرى أنَّ المراد بالمبتذل من هذا القسم إنما هو الألفاظ السخيفة الضعيفة، سواء تداولتها العامة أو الخاصة.

فمما جاء منه قول أبى الطيب المتنبى[(٢)]:

وَمَلْمُومَةٌ سَيْفِيَّةٌ رَبَعِيَّةٌ يَصِيحُ الحَصَا فِيها صِيَاحَ اللَّقَالِقِ[(٣)]

---

(١) الهضبة: الرابية، وأجأ: أحد جبلى طيء، وثانيهما سلمى.
(٢) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة، ويذكر إيقاعه بقبائل العرب، وأولها قوله:

تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ العُذَيْبِ وَبَارِقِ مَجَرَّ عَوَالِينَا وَمَجْرَى السَّوَابِقِ

(٣) الملمومة: الـكتيبة المجتمعة، سيفية: منسوبة إلى سيف الدولة، ربعية: منسوبة إلى ربيعة، وهى قبيلة سيف الدولة، واللقالق: جمع لقلق، وهو طائر كبير يسكن العمران فى أرض العراق.

فإن لفظة « اللقالق » مبتذلة بين العامة جداً ، وكذلك قوله[١] :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجُوزُ إِلَيْهِمْ شُعَرَاءُ كَأَنَّهَا الْخَازِبَازِ[٢]

وهذا البيت من مضحكات الأشعار ، وهو من جملة البرسام الذى ذكره فى شعره حيث قال[٣] :

إِنَّ بَعْضاً مِنَ الْقَرِيضِ هُرَاءُ لَيْسَ شَيْئاً وَبَعْضَهُ أَحْكَامُ[٤]

فِيهِ مَا يَجْلُبُ الْبَرَاعَةَ وَالْفَهْمُ وَفِيهِ مَا يَجْلُبُ الْبِرْسَامُ

ومثل هذه الألفاظ إذا وردت فى الكلام وضعت من قدره ، ولو كان معنى شريفاً .

وهذا القسم من الألفاظ المبتذلة لايكاد يخلو منه شعر شاعر ، لكن منهم المقلّ ومنهم المكثر ، حتى إنّ العاربة قداستعملت هذا ، إلا أنه فى أشعارها أقل.

فمن ذلك قول النابغة الذبيانى فى قصيدته التى أولها :

مِنْ آلِ مَيَّةَ رَائِحٌ أَوْ مُغْتَدِى

أَوْ دُمْيَةٍ فِى مَرْمَرٍ مَرْفُوعَةٍ بُنِيَتْ بِآجُرٍّ يُشَادُ بِقَرْمَدِ

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا بكر على بن صالح الكاتب ، وأولها قوله :

كَفِرِنْدِي فِرِنْدُ سَيْفِي الْجُرَازِ لَذَّةُ الْعَيْنِ عُدَّةٌ لِلْبِرَازِ

(٢) رواية الديوان «من يجوز عليه» ، والخازباز : حكاية صوت الذباب ، وهو اسم صوت مبنى على الكسر ، وربما سمى به الذباب نفسه . قال ابن أحمر :

تَفَقَّأَ فَوْقَهُ الْقَلَعُ السَّوَارِى وَجُنَّ الْخَازِبَازِ بِهِ جُنُونَا

(٣) من قصيدة له يمدح فيها على بن أحمد المرى الخراسانى ، وأولها قوله :

لَاافْتِخَارٌ إِلَّا لِمَنْ لَا يُضَامُ مُدْرِكٍ أَو مُحَارِبٍ لَا يَنَامُ

(٤) فى بعض نسخ الديوان « إن بعضا من القريض هذاء » بالذال معجمة ، وتقول : هذى يهذى هذاء وهذيانا ، إذا قال قولا لافائدة فيه .

فلفظة « آجُرّ » مبتذلة جداً ، و إن شئت أن تعلم شيئا من سر الفصاحة التى تضمنها القرآن فانظر إلى هذا الموضع ، فإنه لما جيء فيه بذكر الآجر لم يذكر بلفظه ، ولا بلفظ القرمد أيضاً ، ولا بلفظ الطُّوب الذى هو لغة أهل مصر ؛ فإن هذه الأسماء مبتذلة ، لكن ذكر فى القرآن على وجه آخر وهو قوله تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِى صَرْحاً) فعبر عن الآجر بالوقود على الطين .

ومن هذا القسم المبتذل قول الفرزدق فى قصيدته التى أولها :

* عَزَفْتَ بِأَعْشَاشٍ وَمَا كِدْتَ تَعْزِفُ[(١)] *

وَأَصْبَحَ مُبْيَضُّ الضَّرِيبِ كَأَنَّهُ عَلَى سَرَوَاتِ النِّيبِ قُطْنٌ مُنَدَّفُ[(٢)]

فقوله « مُنَدَّفُ » من الألفاظ العامية .

ومن هذا القسم قول البحترى[(٣)] :

وُجُوهُ حُسَّادِكَ مُسْوَدَّةٌ أَمْ صُبِغَتْ بَعْدِىَ بِالزَّاجِ

فلفظة « الزاج » من أشد ألفاظ العامة ابتذالا ، وقد استعمل أبو نواس هذا النوع فى شعره كثيراً ، كقوله :

---

(١) هذا صدر مطلع القصيدة ، وعجزه قوله :

* وَأَنكَرْتَ مِنْ حَدْرَاءَ مَا كُنْتَ تَعْرِفُ *

وعزفت : انصرفت ، وتقول : عزف الرجل عن اللهو ؛ إذا كان لايميل إليه ولا يشتهيه ، وتقول : عزف عن النساء ، إذا لم يصب إليهن .

(٢) رواية الديوان « وأصبح موضوع الصقيع كأنه » وقد وقع هنا فى ب ، ج « على سروات البيت » وما أثبتناه عن الديوان والنقائض ، وهو الصواب.

(٣) من قصيدة له يمدح فيها ابن كنداج ، وأولها قوله :

مُخْبِرَتِى بُرْقَةُ أَحْوَاجِ عَنْ ظُعُنٍ سَارَتْ وَأَحْدَاجِ

يَامَنْ جَفَانِى وَمَلاَّ نَسِيتَ أَهْلاً وَسَهْلاَ
وَمَاتَ مَرْحَبُ لَمَّا رَأَيْتَ مَالِىَ قَلاَّ
إِنِّى أَظُنُّكَ فِيمَا فَعَلْتَ تَحْكِى الْقِرِلَّى

وكقوله :

وَأَغَرُّ الْجِلْدَةِ صَيَّرْتُهُ فِى النَّاسِ زَاغًا وَشِقِرَّاقَا
مَازِلْتُ أُجْرِى كَلْكِى فَوْقَهُ حَتَّى دَعَا مِنْ تَحْتِهِ قَاقَا

وكقوله :

وَمُلِحَّةٍ بِالْعَذْلِ تَحْسَبُ أَنَّنِى بِالْجَهْلِ أَتْرُكُ صُحْبَةَ الشُّطَّارِ

وقد استعمل لفظة الشَّاطر والشَّاطرة والشُّطَّار والشَّطارة كثيراً ؛ وهى من الألفاظ التى ابتذلها العامة حتى سئمت من ابتذالها .

وهذه الأمثلة تمنع الواقف عليها من استعمال أشباهها وأمثالها .

ومن أوصاف الكلمة ألاَّ تكون مشتركة بين معنيين أحدهما يكره ذكره وإذا وردت وهى غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت ، وذلك إذا كانت مهملة بغير قرينة تميز معناها عن القبح ، فأما إذا جاءت ومعها قرينة فإنها لا تكون معيبة ، كقوله تعالى : (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ألا ترى أن لفظة التعزير مشتركة تطلق على التعظيم والإكرام وعلى الضرب الذى هو دون الحد ، وذلك نوع من الهوان ، وهما معنيان ضدان ، فحيث وردت فى هذه الآية جاء معها قرائن من قبلها ومن بعدها فخصت معناها بالحسن ؛ وميزته عن القبيح ، ولو وردت مهملة بغير قرينة وأريد بها المعنى الحسن لسبق إلى الوهم ما اشتملت عليه من المعنى القبيح . مثال ذلك لو قال قائل : لقيت فلانا فعزرته ، لسبق إلى الفهم أنه ضربه وأهانه ، ولو قال : لقيت فلاناً فأكرمته وعزرته ، لزال ذلك اللبس .

واعلم أنه قد جاء من الكلام مامعه قرينة فأوجبت قبحه ، ولو لم تجئ معه لما استقبح ، كقول الشريف الرضى (١) :

أَعْزِزْ عَلَيَّ بِأَنْ أَرَاكَ وَقَدْ خَلَا   عَنْ جَانِبَيْكَ مَقَاعِدُ الْعُوَّادِ (٢)

وقد ذكر ابن سنان الخفاجى هذا البيت (٣) فى كتابه فقال : إن إيراد هذه اللفظة فى هذا الموضع صحيح ، إلا أنه موافق لما يكره ذكره فى مثل هذا الشعر ، لاسيما وقد أضافه إلى من يحتمل إضافته إليه ، وهم العواد ، ولو انفرد لكان الأمر فيه سهلا ، فأما الإضافة إلى من ذكره ففيها قبح لاخفاء به ؛ هذا حكاية كلامه ، وهو مرضىٌّ واقع فى موقعه ، ولنذكر نحن ماعندنا فى ذلك فنقول : قد جاءت هذه اللفظة المعيبة فى الشعر فى القرآن الكريم ، فجاءت حسنة مرضية ، وهى قوله تعالى : (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ) وكذلك قوله تعالى : (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا) ألا ترى أنها فى هاتين الآيتين غير مضافة إلى من تقبح إضافته إليه كما جاءت فى الشعر ، ولو قال الشاعر بدلا من مَقَاعد العُوَّاد : مَقَاعد الزيارة ، أو ماجرى مجراه ؛ لذهب ذلك القبح ، وزالت تلك الْهُجْنة ، ولهذا جاءت هذه اللفظة فى الآيتين على ماتراه من الحسن ، وجاءت على ماتراه من القبح فى قول الشريف الرضى .

---

(١) من قصيدة له يرثى فيها أبا إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى الكاتب ، وأولها قوله :

أَعَلِمْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ   أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَا ضِيَاءُ النَّادِي

(٢) فى الديوان « مقاود العواد » وهو خطأ .

(٣) انظر كتاب « سر الفصاحة » لابن سنان الخفاجى (ص ٧٩) .

وعلى هذا ورد قول تأبط شرا[(١)] :

أَقُولُ لِلِحْيَانٍ وَقَدْ صَفِرَتْ لَهُمْ ... وِطَابِي وَيَوْمِي ضَيِّقُ الْجُحْرِ مُعْوِرُ[(٢)]

فإنه أضاف الجحر إلى اليوم فأزال عنه هجنة الاشتباه ، لأن الجحر يطلق على كل ثقب كثقب الحية واليربوع ، وعلى المحل المخصوص من الحيوان ، فإذا ورد مهملا بغير قرينة تخصصه سبق إلى الوهم مايقبح ذكره ؛ لاشتهاره به دون غيره ، ومن هٰهنا ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الْمُؤْمِنُ لَايُلْسَعُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ » وحيث قال : « يلسع » زال اللبس ؛ لأن اللَّسْع لايكون إلا للحية وغيرها من ذوات السموم .

وأما ماورد مهملا بغير قرينة فقول أبي تمام[(٣)] :

أَعْطَيْتَ لِي دِيَةَ الْقَتِيلِ وَلَيْسَ لِي ... عَقْلٌ وَلَا حَقٌّ عَلَيْكَ قَدِيمُ[(٤)]

فقوله « ليس لى عقل » يظن أنه من عَقَلَ الشيء إذا علمه ، ولو قال ليس لى عليك عقل لزال اللبس .

فيجب إذًا على صاحب هذه الصناعة أن يراعى فى كلامه مثل هذا الموضع ،

---

(١) من أبيات رواها أبو تمام فى ديوان الحماسة ، وأولها :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَحْتَلْ وَقَدْ جَدَّ جِدُّهُ ... أَضَاعَ وَقَاسَى أَمْرَهُ وَهْوَ مُدْبِرُ

(انظر شرح التبريزى : ١ - ٧٥) .

(٢) لحيان : بطن من هذيل ، وقوله « صفرت لهم وطابى » يريد خلا قلبى من ودهم ، ومعور : بادية عورته ، وهى مكان المخافة منه .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابة ، وأولها قوله :

أَسْقَى طُلُولَهُمُ أَجَشُّ هَزِيمُ ... وَغَدَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةٌ وَنَعِيمُ

انظر الديوان (٢٩٩ بيروت) .

(٤) رواية الديوان « أعطيتنى دية القتيل » .

وهو من جملة الألفاظ المشتركة التى يحتاج فى إيرادها إلى قرينة تخصصها ضرورة .

ومن أوصاف الكلمة أن تكون مؤلفة من أقل الأوزان تركيباً ، وهذا مما ذكره ابن سنان فى كتابه(١) ، ثم مثله بقول أبى الطيب المتنبى(٢) :

إِنَّ الْكِرَامَ بِلاَ كِرَامٍ مِنْهُمُ   مِثْلُ الْقُلُوبِ بِلاَ سُوَيْدَاوَاتِهَا(٣)

وقال : إن لفظة « سُوَيْدَاوَاتِهَا » طويلة ، فلهذا قبحت ؛ وليس الأمر كما ذكره ، فإن قبح هذه اللفظة لم يكن بسبب طولها ، وإنما هو لأنها فى نفسها قبيحة ، وقد كانت وهى مفردة حسنة ، فلما جمعت قَبُحَتْ ، لا بسبب الطول ، والدليل على ذلك أنه قد ورد فى القرآن الكريم ألفاظ طِوَال ، وهى مع ذلك حسنة ، كقوله تعالى : (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ) فإن هذه اللفظة تسعة أحرف ، وكقوله تعالى : (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ) فإن هذه اللفظة عشرة أحرف ، وكلتاهما حسنة رائقة ، ولو كان الطول مما يوجب قُبْحًا لقبحت هاتان اللفظتان ، وليس كذلك ، ألا ترى أنه لو أسقط من لفظة « سويداواتها » الهاء والألف اللتين هما عوض عن الإضافة لبقى منها ثمانية أحرف ، ومع هذا فإنها قبيحة ولفظة (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ) عشرة أحرف ، وهى أطول منها بحرفين ؛ ومع هذا فإنها حسنة رائقة .

والأصل فى هذا الباب ما أذكره ، وهو أن الأصول من الألفاظ لا تحسن إلا فى الثلاثى وفى بعض الرباعى ، كقولنا : عَذْب وعَسْجد ، فإن هاتين اللفظتين

---

(١) انظر سر الفصاحة (ص ٨١) .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمران ، وأولها قوله :

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا   دَانِى الصِّفَاتِ بَعِيدُ مَوْصُوفَاتِهَا

(٣) أبو الطيب مولع بمثل هذه المطولات ، انظر إلى قوله فى هذه القصيدة :

إِنِّى عَلَى شَغَفِى بِمَا فى خُمْرِهَا   لَأَعِفُّ عَمَّا فى سَرَاوِيلَاتِهَا

إحداهما ثلاثية والأخرى رباعية ، وأما الخماسى من الأصول فإنه قبيح ، ولا يكاد يوجد منه شىء حسن ، كقولنا : جَحْمَرِش [١] وصَهْصَلِق [٢] وما جرى مجراهما ، وكان ينبغى على ماذكره ابن سنان أن تكون هاتان اللفظتان حسنتين واللفظتان الواردتان فى القرآن قبيحتين ؛ لأن تلك تسعة أحرف وعشرة وهاتان خمسة وخمسة ، وترى الأمر بالضد مما ذكره ، وهذا لا يعتبر فيه طول ولا قصر ، وإنما يعتبر نظم تأليف الحروف بعضها مع بعض ، وقد تقدم الكلام على ذلك ، ولهذا لا يوجد فى القرآن من الخماسى الأصول شىء ، إلا ما كان من اسم نبى عُرِّب اسمه ولم يكن فى الأصل عربياً نحو إبراهيم وإسمعيل .

ومما يدخل فى هذا الباب أن تجتنب الألفاظ المؤلفة من حروف يثقل النطق بها ، سواء كانت طويلة أو قصيرة ، ومثال ذلك قول امرئ القيس فى قصيدته اللامية التى هى من جملة القصائد السبع الطوال :

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى الْعُلَا   تَضِلُّ الْمَدَارَى فى مُثَنًّى وَمُرْسَلِ [٣]

---

(١) الجحمرش : العجوز المسنة .

(٢) الصهصلق : العجوز الصخابة ، وهو أيضا الصوت الشديد .

(٣) البيت من معلقته المشهورة التى أولها :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ   بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقبل البيت قوله :

وَفَرْعٍ يَزِينُ الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ   أَثِيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ الْمُتَعَثْكِلِ

وأراد بالفرع شعرها ، والمتن : الظهر ، وفاحم : يشبه الفحم ، والمراد أنه شديد السواد ، وأثيث : كثير ، وقنو النخلة : ما يكون فيه البلح ، وهو الشمراخ ، والمتعثكل : الذى تداخل بعضه فى بعض لكثرته . ويقال : هو المتدلى . والغدائر : جمع غديرة والمراد خصلاته ، والضمير يعود إلى الفرع . ومستشزرات : مرتفعات . والمدارى : جمع مدراة ، والمراد بها المشط . والمثنى : الذى فتل بعضه على بعض ، والمرسل : الذى

فلفظة « مُسْتَشْزِرَاتٌ » مما يقبح استعمالها ؛ لأنها تثقل على اللسان ويشق النطق بها ، وإن لم تكن طويلة ؛ لأنا لو قلنا «مستنكرات» أو « مستنفرات » على وزن « مستشزرات » لما كان فى هاتين اللفظتين من ثقل ولا كراهة .

ولربما اعترض بعض الجهال فى هذا الموضع ، وقال : إن كراهة هذه اللفظة إنما هو لطولها ، وليس الأمر كذلك ؛ فإنا لو حذفنا منها الألف والتاء وقلنا « مُسْتَشْزِر » لكان ذلك ثقيلا أيضاً ، وسببه أن الشين قبلها تاء ، وبعدها زاى ، فثقل النطق بها ، وإلا فلو جعلنا عوضاً من الزاى راء ومن الراء فاء ، فقلنا « مستشرف » لزال ذلك الثقل .

ولقد رآنى بعض الناس وأنا أعيب على امرىء القيس هذه اللفظة المشار إليها ، فأكبر ذلك ؛ لوقوفه مع شهرة التقليد فى أن امرأ القيس أشعر الشعراء ، فعجبت من ارتباطه بمثل هـذه الشبهة الضعيفة ، وقلت له : لا يمنع إحسان امرىء القيس من استقباح ماله من القبح ، ومثال هذا كمثال غزال المسك فإنه يخرج منه المسك والبَعْر ، ولا يمنع طيبُ ما يخرج من مسكه من خبث ما يخرج من بعره ، ولا تكون لذاذة ذلك الطيب حاميةً للخبث من الاستكراه ، فأسكت الرجل عند ذلك .

وحضر عندى فى بعض الأيام رجل من اليهود ، وكنت إذا ذاك بالديار المصرية ، وكان لليهود فى هذا الرجل اعتقاد ؛ لمكان علمه فى دينهم وغيره ، وكان

ترك بغير فتل . ويروى « تضل العقاص فى مثنى ومرسل » والعقاص : جمع عقيصة ، وهو ماجمع من الشعر ففتل تحت الذوائب ، يريد أنها لكثرة شعرها تجعله ثلاثة أقسام فبعضه تعقصه ، وبعضه تفتله ، وبعضه ترسله ، وأن الذى تعقصه يكون بين المفتول والمرسل فيغيب فيهما حتى لايكاد يظهر .

لَعَمْرى كذلك ، فجرى ذكر اللغات ، وأن اللغة العربية هى سيدة اللغات ، وأنها أشرفهن مكانا ، وأحسنهن وضعاً ؛ فقال ذلك الرجل : كيف لا تكون كذلك ، وقد جاءت آخرا فنفت القبيح من اللغات قبلها وأخذت الحسن ؟ ثم إن واضعها تَصَرَّف فى جميع اللغات السالفة ؛ فاختصر ما اختصر ، وخفف ماخفف ، فمن ذلك اسم الجمل ؛ فإنه عندنا فى اللسان العبرانى « كوميل » مُمالاً على وزن فُوعيل ، فجاء واضع اللغة العربية وحذف منها الثقيل المستبشع ، وقال : جَمَل ، فصار خفيفاً حسناً ، وكذلك فعل فى كذا وكذا ، وذكر أشياء كثيرة ، ولقد صدق فى الذى ذكره ؛ وهو كلام عالم به .

ومن أوصاف الكلمة أن تكون مَبْنِيَّةً من حركات خفيفة ، ليخف النطق بها ، وهـــذا الوصف يترتب على ما قبله من تأليف الكلمة ، ولهذا إذا توالى حركتان خفيفتان فى كلمة واحدة لم تستثقل ، وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة ، فإنه إذا توالى منها حركتان فى كلمة واحدة استثقلت ، ومن أجل ذلك استثقلت الضمة على الواو والكسرة على الياء ؛ لأن الضمة من جنس الواو ، والكسرة من جنس الياء ، فتكون عند ذلك كأنها حركتان ثقيلتان .

ولنمثل لك مثالا لتهتدى به فى هذا الموضع ، وهو أنا نقول : إذا أتينا بلفظة مؤلفة من ثلاثة أحرف ، وهي « ج ز ع » فإذا جعلنا الجيم مفتوحة فقلنا الجَزْعُ أو مكسورة فقلنا الجِزْع كان ذلك أحسن من أن لو جعلنا الجيم مضمومة فقلنا الجُزْع ، وكذلك إذا والينا حركة الفتح فقلنا الجَزَع كان ذلك أحسن من موالاة حركة الضم عنـد قولنا الجُزُع ، ومن المعلوم أن هـذه اللفظة لم يكن اختلاف حركاتها مُغَيِّراً لمخارج حروفها ، حتى ينسب ذلك إلى اختلاف تأليف المخارج ، بل وجدناها تارة تكتسى حسناً ، وتارة يسلب ذلك الحسن عنها ، فعلمنا أن ذلك حادث عن اختلاف تأليف حركاتها .

واعلم أنه قد توالت حركة الضم فى بعض الألفاظ ، ولم يُحْدِث فيها كراهة ولا ثقلا ، كقوله تعالى : (وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ) وكقوله تعالى : (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ) وكقوله تعالى : (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ) فحركة الضم فى هذه الألفاظ متوالية ، وليس بها من ثقل ولا كراهة ، وكذلك ورد قول أبى تمام (١) :

نَفَسٌ يَحْتَثُّهُ نَفَسُ ... وَدُمُوعٌ لَيْسَ تُحْتَبَسُ
وَمَغَانٍ لِلْكَرَى دُثُرٌ ... عُطُلٌ مِنْ عَهْدِهِ دُرُسُ
شَهَرَتْ مَا كُنْتُ أَكْتُمُهُ ... نَاطِقَاتٌ بِالْهَوَى خُرُسُ

فانظر كيف جاءت هذه الألفاظ الأربعة مضمومات كلها ، وهى مع ذلك حسنة لا ثقل بها ، ولا ينبو السمع عنها .

وهذا لاينقض ما أشرنا إليه ؛ لأن الغالب أن يكون توالى حركة الضم مستثقلا ، فإذا شذ عن ذلك شىء يسير لاينقض الأصل المقيس عليه .

القسم الثانى : الألفاظ المركبة ، قد قدَّمْنا القول فى شرح أحوال اللفظة المفردة ، وما يختص بها ، وأما إذا صارت مركبة فإن لتركيبها حكما آخر ؛ وذاك أنه يحدث عنه من فوائد التأليفات والامتزاجات ما يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التى كانت مفردة ، ومثال ذلك كمن أخذ لآلئ ليست من ذوات القِيَم الغالية فألَّفها ، وأحسن الوضع فى تأليفها ؛ فخيل للناظر بحسن تأليفه وإتقان صنعته أنها ليست تلك التى كانت مَنثورة مُبَدَّدَة ، وفى عكس ذلك من يأخذ لآلئ من ذوات القِيَم الغالية فيفسد تأليفها ؛ فإنه يَضَعُ من حسنها ، وكذلك يجرى حكم

(١) هى أبيات فى الغزل مذكورة فى ديوانه (٤٤٨ بيروت) وليس معها شىء

الألفاظ العالية مع فساد التأليف ؛ وهذا موضع شريف ينبغى الالتفات إليه ، والعناية به .

واعلم أن صناعة تأليف الألفاظ تنقسم إلى ثمانية أنواع؛ هى: السجع ، ويختص بالكلام المنثور ، والتصريع ، ويختص بالكلام المنظوم ، وهو داخل فى باب السجع ؛ لأنه فى الكلام المنظوم كالسجع فى الكلام المنثور ، والتجنيس ، وهو يعم القسمين جميعاً ، والترصيع ، وهو يعم القسمين أيضاً جميعاً ، ولزوم مالا يلزم ، وهو يعم القسمين أيضاً ، والموازنة ، وتختص بالكلام المنثور ، واختلاف صيغ الألفاظ ، وهو يعم القسمين جميعاً ، وتكرير الحروف ، وهو يعم القسمين جميعاً :

النوع الأول : المسجع ؛ وحَدُّه أن يقال : تواطؤ الفواصل فى الكلام المنثور على حرف واحد :

وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم أن يأتوا به ، وإلا فلو كان مذموما لما ورد فى القرآن الكريم؛فإنه قد أتى منه بالكثير ، حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعةً ، كسورة الرحمن ، وسورة القمر ، وغيرهما ، وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور ؛ فمن ذلك قوله تعالى : (إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) وكقوله تعالى فى سورة طه : (طه ، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ، إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ، تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمٰوَاتِ الْعُلَى ، الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ، لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ، وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) وكذلك قوله تعالى فى سورة ق : (بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ، أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ

بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ، وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) وكقوله تعالى : (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) وأمثال ذلك كثيرة .

وقد ورد على هذا الأسلوب من كلام النبى صلى الله عليه وسلم شىء كثير أيضاً :

فمن ذلك مارواه ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ » قلنا : إنا لنستحيى من الله يارسول الله قال : « لَيْسَ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى ، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى ، وَتَذْكُرَ الْمَوْتَ وَالْبِلَى ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » .

ومن ذلك مارواه عبد الله بن سلام فقال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت فى الناس لأنظر إليه ، فلما تَبَيَّنْتُ وَجهه علمت أنه ليس بوجه كذاب ، فكان أول شىء تكلم به أن قال: « أَيُّهَا النَّاسُ ، أَفْشُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ » .

فإن قيل : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال لبعضهم مُنْكِراً عليه وقد كلمه بكلام مسجوع : « أَسَجْعاً كَسَجْعِ الْكُهَّانِ » ولولا أن السجع مكروه لما أنكره النبى صلى الله عليه وسلم .

فالجواب عن ذلك أنا نقول : لو كره النبى صلى الله عليه وسلم السجع مطلقاً لقال « أسَجْعاً » ثم سكت ، وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لِمَ كان ، فلما قال « أسجعا كسجع الكهان » صار المعنى معلقاً على أمر ، وهو إنكار الفعل لِمَ كان على هذا الوجه ، فعلم أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سَجْع

الكهان ، لاغير ، وأنه لم يذم السجع على الإطلاق ، وقد ورد فى القرآن الكريم ، وهو صلى الله عليه وسلم قد نطق به فى كثير من كلامه ، حتى إنه غيّر الكلمة عن وجهها إتباعاً لها بأخواتها من أجل السجع ، فقال لابن ابنته عليهما السلام: «أُعِيذُهُ مِنَ الْهَامَّة، وَالسَّامَّة، وَكُلِّ عَيْنٍ لَامَّة» وإنما أراد مُلِمة ، لأن الأصل فيها من ألَمَّ فهو مُلِم ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : «ارْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ» وإنما أراد مَوْزُورات من الْوِزْر ، فقال : «مأزورات» لمكان مأجورات ، طلباً للتوازن والسجع ، وهذا مما يدلك على فضيلة السجع .

على أن هذا الحديث النبوى الذى يتضمن إنكار سجع الكهان عندى فيه نظر ؛ فإن الوهم يسبق إلى إنكاره ، يقال : فما سَجْع الكُهَّان الذى يتعلق الإنكار به ونهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والجواب عن ذلك أن النهى لَمْ يكن عن السجع نفسه ، وإنما النهى عن حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع ؛ ألا ترى أنه لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجنين بغرة عبد أو أمة قال الرجل : «أَأَدِى مَنْ لَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ ، وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلّ ، وَمِثْلُ ذٰلِك يُطَلّ» فقال رسول الله صل الله عليه وسلم : «أَسَجْعاً كسجع الكهان» أى : أَتَتَبَّع سجعاً كسجع الكهان[1] .

وكذلك كان الكهنة كلهم ؛ فإنهم كانوا إذا سئلوا عن أمر جاءوا بالكلام مسجوعا ، كما فعل الكاهن فى قصة هند بنت عتبة ، فإنه قال لما امتحن قبل السؤال عن قصتها: «ثَمَرَة فى كَمَرَة» فقيل له : نريد أبين من هذا ؟ فقال: «حَبَّةُ بُرّ فى إحليل مُهْر» والحكاية مشهورة ، فلهذا اختصرناها هٰهنا .

وكذلك قال سطيح ؛ فإنه قال : عَبْد المسيح ، جاء إلى سَطيح ، وهو مُوفٍ

(١) فى بعض النسخ «أأتبع سجعا كسجع الكهان» .

على الضريح ، لِرُؤْيَا المُوبِذَانِ ، وَارْتِجَاس الإيوان ، وأتم الكلام إلى آخره مسجوعا ؛ والحكاية مشهورة أيضاً فلهذا اختصرناها .

فالسجع إذاً ليس بمنهى عنه ، وإنما المنهىّ عنه هو الحكم المتبوع فى قول الكاهن ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَسَجْعاً كَسَجْعِ الكُهّان » أى : أحكما كحكم الكهان ، وإلا فالسجع الذى أتى به ذلك الرجل لا بأس به ؛ لأنه قال : « أأدى من لاشرب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهلّ ، ومثل ذلك يُطَلّ » وهذا كلام حسن من حيث السجع ، وليس بمنكر لنفسه ؛ وإنما المنكر هو الحكم الذى تضمنه فى امتناع الكاهن أن يَدِىَ الجنين بغرةٍ عبد أو أمة .

واعلم أن الأصل فى السجع إنما هو الاعتدال فى مقاطع الكلام ؛ والاعتدال مطلوب فى جميع الأشياء ، والنفس تميل إليه بالطبع ، ومع هذا فليس الوقوف فى السجع عند الاعتدال فقط ، ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد ؛ إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل أديب من الأدباء سَجّاعا ، وما من أحد منهم ولو شدَا شيئاً يسيراً من الأدب إلا ويمكنه أن يؤلف ألفاظاً مسجوعة ، ويأتى بها فى كلامه ، بل ينبغى أن تكون الألفاظ المسجوعة حُلْوَة حادة طَنّانة رنانة ، لا غَثّة ولا باردة ، وأعنى بقولى غثة باردة أنّ صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مُفْرَدات الألفاظ المسجوعة ، وما يشترط لها من الحسن ، ولا إلى تركيبها وما يشترط له من الحسن ، وهو فى الذى يأتى به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثواباً من الكُرْسُفِ(١) ، أو ينظم عقداً من الخَزَفِ المُلَوّن .

وهذا مقام تزلّ عنه الأقدام ، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد ، ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا .

فإذا صفى الكلام المسجوع من الغَثَاثة والبرد فإن وراء ذلك مطلوباً آخر ،

(١) الكرسف ـ بزنة قنفذ ـ القطن .

وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى ، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ ؛ فإنه يجيء عند ذلك كظاهرٍ مُموَّه ، على باطن مُشوَّه ، ويكون مثله كغِمْدٍ من ذهب ، على نَصْلٍ من خَشَب ، وكذلك يجرى الحكم فى الأنواع الباقية الآتى ذكرها من التجنيس والترصيع وغيرهما .

وسأبين لك فى هذا مثالا تتبعه ؛ فأقول : إذا صوّرت فى نفسك معنى من المعانى ، ثم أردت أن تصوغه بلفظ مسجوع ولم يؤاتك ذلك إلا بزيادة فى ذلك اللفظ أو نقصان منه ، ولا يكون محتاجا إلى الزيادة ولا إلى النقصان ، وإنما تفعل ذلك لأن المعنى الذى قصدته يحتاج إلى لفظ يدل عليه ، وإذا دللت عليه بذلك اللفظ لا يكون مسجوعا إلا أن تضيف إليه شيئاً آخر أو تنقص منه ، فإذا فعلت ذلك فإنه هو الذى يُذَمّ من السجع ويستقبح ؛ لما فيه من التكلف والتعسف ، وأما إذا كان محمولا على الطبع غير متكلَّف فإنه يجيء فى غاية الحسن ، وهو أعلى درجات الكلام ، وإذا تهيَّأ للكاتب أن يأتى به فى كتابته كلها على هذه الشريطة فإنه يكون قد ملك رِقابَ الكلم : يَسْتَعْبِدُ كَرَائِمَها ، ويستولد عقائمها ، وفى مثل ذلك فليتنافس ، وعن مقامه فليُتَقَاعس ، ولَصَاحِبُهُ أولى بقول أبى الطيب المتنبى[(١)] :

أَنْتَ الْوَحِيدُ إِذَا رَكِبْتَ طَرِيقَةً ... وَمَنِ الرَّدِيفُ وَقَدْ رَكِبْتَ غَضَنْفَرَا؟[(٢)]

فإن قيل : فإذا كان السجع أعلى درجات الكلام على ماذهبت إليه ، فكان ينبغى أن يأتى القرآن كله مسجوعاً ؟ وليس الأمر كذلك ، بل منه المسجوع ومنه غير المسجوع .

---

(١) هو من قصيدته التى يمدح بها أبا الفضل بن العميد ، والتى أولها :

بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا ... وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

(٢) رواية الديوان « إذا ارتكبت » ولعل ماهنا أحسن .

قلت فى الجواب : إن أكثر القرآن مسجوع ، حتى إن السورة لتأتى جميعها مسجوعة ، وما منع أن يأتى القرآن كله مسجوعا إلا أنه سلك [به] مسلك الإيجاز والاختصار ، والسجع لايؤاتى فى كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار ، فترك استعماله فى جميع القرآن لهذا السبب .

وهٰهنا وجه آخر هو أقوى من الأول ، ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع ، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود غير المسجوع معجزاً أبلغ فى باب الإعجاز من ورود المسجوع ، ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين جميعاً .

واعلم أن للسجع سراً هو خلاصته المطلوبة فإن عرى الكلام المسجوع منه فلا يُعْتَدُّ به أصلا ، وهذا شىء لم ينبه عليه أحد غيرى ، وسأبينه ههنا ، وأقول فيه قولا هو أبين مما تقدم ، وأمثِّلُ لك مثالا إذا حَذَوْتَهُ أمِنْتَ الطاعن ، والعائب ، وقيل فى كلامك : لِيُبَلِّغ الشاهد الغائب ، والذى أقوله فى ذلك هو أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملةً على معنى غير المعنى الذى اشتملت عليه أختها ، فإن كان المعنى فيهما سواء فذاك هو التطويل بعينه ؛ لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها ، وإذا وردت سجعتان يَدُلَّان على معنى واحد كانت إحداهما كافيةً فى الدلالة عليه ، وجُلُّ كلام الناس المسجوع جارٍ عليه ، وإذا تأملت كتابة المُفْلِقِين ممن تقدم كالصابى وابن العَمِيد وابن عَبَّاد وفلان وفلان فإنك تَرَى أكثر المسجوع منه كذلك ، والأقلُّ منه على ما أشرتُ إليه .

ولقد تصفحت المقامات الحريرية والخطب النُّبَاتية ، على غرام الناس بهما ، وإكبابهم عليهما ، فوجدت الأكثر من السجع فيهما على الأسلوب الذى أنكرته .

فالكلام المسجوع إذاً يحتاج إلى أربع شرائط : الأولى : اختيار مفردات الألفاظ على الوجه الذى أشرت إليه فيما تقدم ، الثانية : اختيار التركيب على الوجه الذى أشرت إليه أيضاً فيما تقدم ، الثالثة : أن يكون اللفظ فى الكلام المسجوع تابعاً للمعنى ، لا المعنى تابعاً للفظ ، الرابعة : أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دَلَّت عليه أختها ؛ فهذه أربع شرائط لا بد منها .

وسأورد ههنا من كلامى أمثلة تَحْذى حذوها ، فانى لما سلكت هذه الطريق وأتيت بكلامى مسجوعا توخَّيْتُ أن تكون كل سَجْعة منه مختصة بمعنى غير المعنى الذى تضمنته أختها ، ولم أخلّ بذلك فى مكاتباتى كلها ، وإذا تأملتها علمت صحت ماقد ذكرته .

فمن ذلك ما كتبته فى صدر كتاب عن بعض الملوك إلى دار الخلافة ، وهو : الخادم واقف مَوْقِفَ رَاجٍ هائب ، لازم بكتابه هذا وقارَ حاضرٍ عن شخص غائب ، مُوجِّه وجهه إلى ذلك الجناب الذى تقسم فيه أرزاق العباد ، ويتأدب به الزمان تأدُّبَ ذوى الاستعباد ، وتستمد الملوك من خدمته شرف الجدود كما تستغنى بنسبها إليه عن شرف الأجداد ، ولو ملك الخادم نفسه لقصرها على خدمة قصره ، وأحظاها من النظر إليه ببرد العيش الذى عُمْرُها محسوبٌ من عُمْره ، وهذا القول يقوله وكل ماجد فيه حاسد ، وبتأمليه راكع ساجد ، والديوان العزيز محسود الاقتراب ، وهو موطن الرغبات الذى الاغتراب إليه ليس بالاغتراب ، وما ينافس فى القرب من أبوابه الكريمة إلا ذوو الهمم الكريمة ، وقد وَدَّت الكواكب بأسْرِها أن تكون له مُنادِمةً فضلا عن نَدْمانَىْ جَذِيمة .

ومن ذلك ما كتبته من كتاب يتضمن العناية ببعض الناس ، وهو :

الكريم من أوْجَبَ لسائله حقاً ، وجعل كواذب آماله صدقاً ؛ وكان خرق العطايا منه خُلُقاً ، ولم يَرَ بين ذِمَمه وبين رحمه فرْقاً ، وكل ذلك موجود فى كرم مولانا أجراه الله من فضله على وتيرة ، وجعل هِمَمَهَ على تمام كل نقص قديرة ، وأوطأه من كل مجد سريراً كما بَوّأه من كل قلبٍ سَرِيرةً ، ولا زالت يَدُه بالمكارم جَدِيرة ، ومن الأيام مُجِيرة ، ولضرائرها من البحار والسحاب مميرة ، ولا برحت تستولد عقائم المعانى وتستجد أبنيتها حتى يشهد الناسُ منها فى كل يوم عقيقة أو وكيرة ، ومن صفات كرمه أنه يسبك الأموال مآثر ، ويَتّخِذها عند السؤال ذخائر ، فهى تفنى لديهم بالإنفاق ، وذِكْرُها على مرور الأيام باق ، ومَنْ أرْبَحُ منه صَفْقَةً وقد باع صامتاً بناطق ، وما هو مُعرّض لحوادث السرقات بما لا تصل إليه يد سارق ، ومِثْلُه مَنْ عرَف الدنيا فرغب عن اقتنائها ، وجَدَّ فى ابتناء المحامد بهدم بنائها ، وعلم أن مالها ليس عند الضنين به إلا أحجاراً ، وأن غِناه منها لا يزيده إلا افتقاراً ؛ فهو لماله عبدٌ يخدمه ولا يستخدمه ، وأم ترضعه بسعيها ولا تَفْطِمُهُ .

ومنه ما كتبته فى جواب كتاب يتضمن إباق غلام ، وهو أول كتاب ورد من المكتوب عنه إلى المكتوب إليه ؛ فقلت : وأما الإشارة الكريمة فى أمر الغلام الآبق عن الخدمة فقد يَفِرُّ المُهْرُ من عَليقه ، ويطير الفَرَاش إلى حَرِيقه ، وغير بعيد أن يَنْبُوَ به مَضْجَعه ، أو يَكْبُو به مَطْمَعُهُ ، فيرجع وقد حمد من رجوعه ماذمه من ذهابه ، وعلم أن الغنيمة كل الغنيمة فى إيابه ، فما كل شجرة تحلو لذائقها ، ولا كل دارٍ تُرَحّب بطارقها ، ومن أبَقَ عن مولاه مغاضباً ، وجانَبَ محلّ إحسانه الذى لم يكن له مُجانباً ، فإنه يجد من مفارقة الإحسان ، مايجده من مفارقة معاهد الأوطان ، وهل أضلُّ سَعْياً مِمّنْ دفع فى صدر العافية وغدا يسأل عن الأسقام ، وألقى الثروة من يده ومضى فى طلب الإعدام ، ومع هذا فإن

الخادم يشكره على ذنب الإباق الذى أقدم على اجترامه ، وليس ذلك إلا لأنه صار سبباً لافتتاح باب المكاتبة الذى لم يطمع فى افتتاحه ، ولا جزاء له عنده إلا السعى فى إعادته إلى الخدمة التى تقلب فى إنشائها ، وهى أبَرُّ به من أمّه التى تقلب فى أحشائها ، ومن فضلها أنها تلقاه من حلمها بوسيلة الشافع ، ومن كرمها بالوجه الضاحك والفضل الواسع .

فانظر أيها المتأمل إلى هذه الأسجاع جميعها وأَعْطِهَا حقَّ النظر حتى تعلم أن كل واحدة منها تختص بمعنى ليس فى أختها التى تليها ، وكذلك فليكن السجع ، وإلا فلا .

وسأورد هٰهنا من كلام الصابى ماستراه :

فمن ذلك تحميد فى كتاب ؛ فقال : « الحمدُ لله الذى لاتدركه الأعين بألحاظها ، ولا تَحُدُّه الألسن بألفاظها ، ولا تخلقه العصور بمرورها ، ولا تهرمه الدهور بكرورها » .

ثم انتهى إلى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : « لم ير للكفر أثراً إلا طَمَسَه ومحاه ، ولا رسماً إلا أزاله وعَفَّاه » .

ولا فرق بين مرور العصور وكرور الدهور ، وكذلك لا فرق بين مَحْوِ الأثر وعفاء الرسم .

ومن كلامه أيضاً فى كتاب ، وهو : « وقد علمت أنّ الدولة العباسية لم تزل على سالف الأيام ، وتعاقب الأعوام[1] ، تعتلّ طَوْراً وتَصِحّ أطوارا ، وتَلْتَاث مرة وتستقل مراراً ، من حيث أصلها راسخ لايتزعزع ، و بنيانها ثابت لايتضعضع »

وهذه الأسجاع كلها متساوية المعانى ، فإن الاعتلال والالتياث والطَّوْر والْمَرَّة والرُّسوخ والثَّبات ، كلٌّ ذلك سَوَاء .

وكذلك ورد له فى جملة كتاب كتبه عن عز الدولة بن بُوَيْه جواباً عن كتاب وصله من الأمير عبد الكريم بن المطيع لله ، فقال : « وصلنى كتابه

(١) فى ا ، ب « ومعاقب الأيام » .

مُفْتَتَحاً من الاعتزاء إلى إمارة المؤمنين ، والتقلد لأمور المسلمين ، بما أعْرَاقه الزكية مُجَوِّزة لاستمراره ، وأرُومَتُه العلية مُسَوِّغة لاستقراره ، له ولكل نجيب أخذ بحظه من نسبه ، وضارب بسهم فى مَنْصِبه ؛ إذ كان ذلك جاريًا على الأصول المعهودة فيه ، والأسباب العاقدة له ، من إجماع المؤمنين كافة ، فإن تعذر اجتماعهم مع انبساطهم فى الأرض ، وانتشارهم فى الطول والعرض ؛ فلا بد من اتفاق أشراف كل قُطْر وأفاضله ، وأعيان كل صُقْع وأماثِله » .

وهذا الكلام كله متماثل المعانى فى أسجاعه ، فإن إمارة المؤمنين والتقلد لأمور المسلمين سواء فى المعنى ، وكذلك الأعراق والأرُومَة ، والتجويز والتسويغ ، والأشراف والأفاضل ، والأعيان والأماثل ، والقُطْر والصُّقْع ، كل ذلك سواء .

وعلى هذا جاء كلامه فى كتاب آخر ، فقال : « يسافر رأيه وهو دانٍ لم يَنْزَح ، ويَسِير تدبيره وهو ثاوٍ لم يَبْرَح » .

وكلا هٰذين سواء أيضاً . وما أحسن هذا المعنى لو قال : يسافر رأيه وهو دانٍ لم يَبْرَح ، ويُثْخِن الجراحَ فى عدوه وسيفه فى الغمد لم يجرح ؛ فإنه لو قال مثل هذا سلم من هُجْنة التكرار . وأمثال ذلك فى كلام الصابى كثير .

وعلى منواله نسج الصاحب ابن عَبَّاد .

فمن ذلك ما ذكره فى وصف مهزومين ، فقال : « طَارُوا واقين بظهورهم صُدُورَهم ، و بأصلابهم نُحُورَهم [(١)] » وكلا المعنيين سواء .

وكذلك قوله فى هذا الكتاب يصف ضيق مجال الحرب : « مَكَانٌ ضَنْك على الفارس والراجل ، ضَيِّق على الرَّامِح والنَّابِل » .

ومن كلامه فى كتاب ، وهو : « لاتتوجه هِمَّتُه إلى أعظم مرقوب إلا طَاعَ ودَان ، ولا تمتد عزيمته إلى أفخم مطلوب إلا كان واستكان » .

وكل هذا الذى ذكره شىء واحد .

(١) فى ا « و بأصلابهم فجورهم » وهو تصحيف ، ولا يتم عليه كلام المولف .

وله من كتاب، وهو: « وصل كتابه جامعاً من الفوائد أشدّها للشكر استحقاقاً، وأتمها للحمد استغراقاً، وتعرّفتُ من إحسان الله فيما وفره من سلامته، وهنأه من كرامته، أنفسَ موْهُوب ومطلوب، وأحْمَدَ مرقوب ومخطوب ».

وهذا كله متماثل المعانى، متشابه الألفاظ.

وفيما أوردته هٰهنا مَقْنَع؛ فأنعِمْ نظرك أيها الواقف على هذا الكتاب فيما بينته لك، ووضَعْتُ يدك عليه، حتى تعلم كيف تأتى بالمعانى فى الألفاظ المسجوعة، والله الموفق للصواب.

فإن قيل: إنك اشترطت أن تكون كل واحدة من الفقرتين فى الكلام المسجوع دالةً على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها، وإنما اشترطت هذه الشريطة فِراراً من أن يكون المعنيان شيئاً واحداً، ونرى قد ورد فى القرآن الكريم لفظتان بمعنى واحد فى آخر إحدى الفقرتين المسجوعتين، كقوله تعالى: (وَاذْكُرْ فى الْكِتَابِ إِسْمٰعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا) وكل رسول نبى.

قلت فى الجواب: ليس هذا كالذى اشترطته أنا فى اختصاص كل فقرة بمعنى غير المعنى الذى اختصت به أختها، وإنما هذا هو إيراد لفظتين فى آخر إحدى الفقرتين بمعنى واحد، وهذا لا بأس به؛ لمكان طلب السجع، ألا ترى أن أكثر هذه السورة التى هى سورة مريم عليها السلام مسجوعة على حرف الياء، وهذا يجوز لصاحب السجع أن يأتى به، وهو بخلاف ما ذكرته أنا؛ ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد غير اللفظة عن وضعها طلباً للسجع، فقال: «مأزُورَاتٍ» وإنما هى موْزُورات، وقال: « الْعَين اللَّامَّة» وإنما هى الْمُلِمَّة، إلا أنه ليس فى ذلك زيادة معنى، بل يفهم من لفظة مأزورات أنها قائمة مقام موزورات، وكذلك يفهم من لفظة لَامَّة أنها بمعنى مُلِمَّة؛ فالسجع قد أجيز معه تغيير وضع اللفظة،

وأجيز معه أن يورد لفظتان بمعنى واحد فى آخر إحدى الفقرتين ، ومع هذا فلم يجز فى استعماله أن يورد فقرتان بمعنى واحد ؛ لأنه تطويل مَحْضٌ لا فائدة فيه ، وبين الذى ذكرتَهُ أنت وبين الذى ذكرتُهُ أنا فرق ظاهر .

والذى قدمته من الأمثلة المسجوعة للصابى والصاحب ابن عباد ربما كانت يسيرة أُتَّهَمُ فيها بالتعصب ، ويقال : إنى الْتَقَطْتُها التقاطاً من جملة رسائلهما ، وقد خرجت من عُهْدَة هذه التهمة ، وذاك أنى وجدت للصابى تقليداً بنقابة الأشراف العلويين ببغداد ، وكنت أنشأت تقليداً بنقابة الأشراف العلويين بالموصل ؛ وقد أوردت التقليدين ههنا ؛ ليتأملهما الناظر فى كتابى هذا ، ويحكم بينهما إن كان عارفاً أو يسأل عنهما العارفَ إن كان مقلِّداً .

وقد أوردت تقليد الصابى أولا ؛ لأنه المقدم زمانا وفَضْلاً ، وهو : « هذا ما عهدَ أميرُ المؤمنينَ إلى محمد بن الحسين بن موسى العَلَوِىّ ، المُوسَوِى ، حين وصلته به الأنساب ، وتأكَّدَتْ له الأسباب ، وظهرت دلائل عقله ولَبَابَته ، ووضحت مَخايِلُ فضله ونجابته ، ومهد له بهاء الدولة وضياء الملة أبو نصر بن عضد الدولة وتاج الملة مولى أميرالمؤمنين ما مكن له عند أميرالمؤمنين من المحل المكين ، وَوَصَفَه به من الحِلْمِ الرَّزِينِ ، وأشاد به فيه من رفع المنزلة ، وتقديم المرتبة ، والتأهيل لولاية الأعمال ، والحمل للأعباء الثِّقال ، وحيث رغبه فيه ، سابقةُ الحسين أبيه ، فى الخدمة والنصيحة والمواقف المحمودة ، والمقامات المشهودة ، التى طابت بها أَخْبَاره ، وحَسُنَت فيها آثاره ، وكان محمد متخلقاً بخلائقه ، وذاهباً فى طرائقه ، عِلْماً وديانة ، وَوَرَعاً وصِيانة ، وعِفَّةً وأمانة ، وشهامة وصَرَامة ، بالحظ الجزيل ، من الفضل الجميل ، والأدب الجَزْل ، والتوجُّه فى الأهل ، والإيفاء بالمناقب على لِدَاته وأَتْرَابه ، والإبرار على قرَائبه وأضْرَابه ، فقلَّده ما كان داخلا فى أعمال أبيه من نِقابة نُقَباء الطالبيين أجمعين بمدينة السلام وسائر

الأعمال والأمصار شرقاً وغرباً ، وبعداً وقرباً ، واختصه ذلك جذباً بصنعه[(١)] ، وإنافة بقدره ، وقضاء لحق رحمه ، وترْفيها لأبيه ، وإسعافاً له بإيثاره فيه ، إلى أمير المؤمنين واستخلافه عليه من النظر فى المظالم ، وتسيير الحجيج فى المواسم ، والله يعقب أمير المؤمنين فيما أمرَ ودبَّرَ حسن العاقبة فيما قَضَى وأمْضَى ، وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب .

أمَرَه بتقوى الله التى هى شعار المؤمنين ، وسنا الصالحين ، وعِصْمَة عباد الله أجمعين ، وأن يَعْتقِدَها سِراً وجهراً ، ويعتمدها قولا وفعلا ، ويأخذ بها ويعطى ، ويُسِرُّ بها وينْوى ، ويأتى ويذر ، ويورد ويصدر ؛ فإنها السَّبب المتين ، والمعْقِلُ الحصين ، والزاد النافع يوم الحساب ، والمسلك المُفضِى إلى دار الثواب ، وقد حَضَّ الله أولياءه عليها ، وهداهم فى مُحْكم كتابه إليها ، فقال عزَّ من قائل : (يٰأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) .

وأمَرَه بتلاوة كتاب الله مواظباً ، وتَصفّحه مُداوماً ملازماً ، والرجوع إلى أحكامِهِ فيما أحل وحَرَّم ، ونَقَض وأبرم ، وأثاب وعاقب ، وباعد وقارب ، فقد صحح الله برهانه وحجته ، وأوضح مِنْهاجه ومَحجَّته ، وجعله نَجْماً فى الظلمات طالعاً ، ونوراً فى المشكلات ساطعاً ، فمن أخذ به نجا وسلم ، ومن عَدَل عنهُ هوَى ونَدِم ، قال الله تعالى : (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) .

وأمَرَه بتنزيه نفسه عما تدعو إليه الشبهات ، وتطلع إليه التَّبِعَات ، وأن يَضْبِطَها ضَبْطَ الحليم ، ويَكُفَّها كَفَّ الحكيم ، ويجعل عقله سلطاناً عليها ، وتمييزه آمراً ناهياً لها ، ولا يجعل لها عذراً إلى صَبْوَة ، ولا هفوة ، ولا يطلق منها عناناً عند ثَوْرة ، ولا فَوْرَة ، فإنها أمَّارة بالسُّوء ، منصبة إلى الغى ؛ فمن رَفضَها نجا ، ومن اتَّبعَها هوَى ، فالحازم متهم عند تحرك وطره وأربه واهتياج غيظه ،

(١) كذا فى جميع الأصول ؛ ولعله « جذبا بضبعه » .

ولا يَدَعْ أن يغضها بالشكيم ، ويَعْرُكها عَرْكَ الأديم ، ويقودَها إلى مصالحها بالخزائم ، ويفتقدها من مقارفة المآثم والمحارم[1] ، كما يعز بتذليلها وتأديبها ، ويُجِلّ برياضها وتقويمها ، والمُفَرّط [في أمر] تطمَحُ به إذا طمَحَت ، ويجمح معها إذا جمَحَت ، ولا يَلْبَثُ أن توردِه حيث لا يصدر ، وتلجئه إلى أن يعتذر ، وتقيمه مقام النادم الواجم ، وتتنكب به سبيل الراشد السالم ، وأحق من تحَلَّى بالمحاسن ، وتَصَدَّى لا كتساب المحامد ، مَنْ ضرب بمثل سهمه في نسب أمير المؤمنين الشريف ، ومنصبه المنيف ، واجتمع معه في ذُؤابة العِتْرَة الطاهرة ، واسْتظَلَّ بأوراق الدَّوْحَة الفاخرة ، فذلك الذى تتضاعف به المآثر إن آثرها ، والمثالب إن أسَفَّ إليها ، ولا سيما من كان مندوباً بالسياسة ومرشحاً للتقليد على أهله ؛ إذ ليس يفى بالصلاح لمن ولى عليه ، ولا يفى بإصلاح ما بَيْنَ جَنْبَيْهِ ، ومِنْ أعظم الهُجْنة عليه أن يأمر ولا يأتمر ، ويَزْجُر ولا يزدجر ، قال الله تعالى ذكره : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ).

وأمره أن يتصفح أحوال من ولى عليهم : من استقراء مذاهبهم ، والبحث عن بواطنهم ودخائلهم ، وأن يعرف لمن تقدمت قدَمُه منهم وتظاهر فضله فيهم منزلتَهُ ، ويُوَفّيه حقَّه وزينته ، وينتهى في إكرام جماعتهم إلى الحدود التى توجبها أنسابهم وأقدارهم ، وتقتضيها مواقعهم وأخطارهم ، فانَّ ذلك يلزمه لشيئين : أحدهما يخصه ، وهو النسب الذى بينه وبينهم ، والآخر يعمه والمسلمين جميعاً ، وهو قول الله جل ذكره : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) فالمودة لهم الإعظام لأكابرهم ، والاشتمال على أصاغرهم ؛ واجب متضاعف الوجوب عليه ، متأكد اللزوم له ، ومَنْ كان منهم في دون تلك الطبقة من أحداث لم يحتنكوا عليه ، وجذعان لم يقرحوا ، ومجرين إلى ما يُزْرِى بأنسابهم ، ويَغُضّ من أحسابهم ، عذلهم وأنَّبهم ، ونهاهم ووَعَظَهم ، فانْ نزَعوا وأقلعوا فذاك

(١) في ا « ويغتفرها من مقارفة المآثم والمحارم » .

المراد بهم ، والمقصد فيهم ، وإن أصرّوا وتتابعوا أنالهُمْ من العقوبة بقدر ما يكف ويردع ؛ فإن نفعَ وإلا تجاوزه إلى ما يلذع ويوجع ، من غير تطرّق لأعراضهم ، ولا امتهان لأحسابهم ؛ فإن الغرض منهم الصيانة ، لا الإهانة ، والإدالة ، لا الإذالة ، وإذا وجبت عليهم الحقوق ، أو تعلقت بهم دواعى الخصوم ، قادهم إلى الإغفاء بما يصح منها ويجب ، والخروج إلى سَنَن الحق فيما يشتبه ويلتبس ، ومتى لزمتهم الحدود أقامها عليهم بحسب ما أمره الله تعالى فيها ، بعد أن تثبت الجرائم وتصح ، وتبين وتتضح ، وتتجرد عن الشك ، وتتجلى من الظن والتهمة ، فإنَّ الذى يستحب فى حدود الله عز وجل أن تُدْرأ مع نقصان اليقين والصحة ، وأن تُمْضَى عليهم مع قيام الدليل والبينة ؛ قال الله عز وجل : (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

وأمره بحياطة أهل النسب الأطهر، والشرف الأفخر، عن أن يدّعيه الأدعياء ، أو يدخل فيه الدُّخَلاء ، ومن انتمى إليه كاذباً ، أو انتحله باطلاً ، ولم يوجد له بيت فى الشجرة ، ولا مِصْدَاق عند النسابين المهرة ، أوقع به كذبه وفسقه وشَهَرَه شُهْرَةً ينكشف بها غشه ولبسه ، وينزع بهـا غيره ممن تُسَوِّل له ذلك نفسه ، وأن يُحصن الفروج عن مناكحة من ليس كفئاً لها فى شرفها وفخرها ، حتى لا يطمع فى المرأة الحسيبة النسيبة إلا من كان مثلاً لها مساوياً ، ونظيراً موازياً ، فقد قال الله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) .

وأمره بمراعاة مُتبتّلى أهله ومتهجديهم ، وصلحائهم ومجاوريهم ، وأراملهم وأصاغرهم ، حتى تستد الْخَلَّة من أحوالهم ، وتدرّ المواد عليهم وتتعادل أقساطهم فيما يصل إليهم من وجوه أموالهم ، وأن يزوج الأيامى ، ويربى اليتامى ، وليلزمهم المكاتب فيتلقنوا القرآن ، ويعرفوا فرائض الإسلام والإيمان ، ويتأدبوا بالآداب

اللائقة بذوى الأحساب ؛ فإن شرف الأعْراق، محتاج إلى شرف الأخلاق ، ولا حمد لمن شرفه حسبه ، وسخف أدبه ، إذ كان لم يكتسب الفخر الحاصل بفضل سعى ولا طلب ولا اجتهاد ، بل بصنع الله تعالى له ، ومزيد المنة عليه ، و بحسب ذلك لزوم ما يلزمه من شكره سبحانه على هذه العطية ، والاعتداد بما فيها من المَزِيَّة . و إعمال النفس فى حيازة الفضائل والمناقب ، والتَّرَفُّعُ عن الرذائل والمَثالب .

وأمره بإجمال النيابة عن شيخه الحسين بن موسى فيما أمره أمير المؤمنين باستخلافه عليه من النظر ، والأخذ للمظلوم من الظالم ، وأن يجلس للمترافعين إليه جلوساً عاما ، ويتأمّل كلامهم تأملاً تاما ؛ فما كان منها متعلقاً بالحاكم رده إليه ، ليحمل الخصوم عليه ، وما كان من طريقة الغشم والظلم ، والتغلب والغصب ، قَبَضَ عنه اليد المبطلة ، وثَبَّتَ فيه اليدَ المستحِقَّة ، وتحرّى فى قضاياه أن تكون مُوافقة للعدل ، ومُجانبة للخذل ، فإن عادة الحكام وصاحب المظالم واحدة ، وهى إقامة الحق ونصرته ، و إبانته و إثارته ، و إنما يختلف سبيلا هما فى النظر ، إذ كان الحاكم يعمل بما ثبت عنده وظهر ، وصاحب المظالم يَفْحَص عما غمض واستتر ، وليس له مع ذلك أن يرد للحاكم حكومة ، ولا يحل له قَضِيَّة ، ولا يتعقب ماينفذه ويُمْضيه ، ولا يَتَتَبَّع مايحكم به و يقضيه ، والله يهديه و يوفقه ، ويُسَدِّده و يرشده .

وأمره أن يسير حجيج بيت الله عز وجل إلى مقصدهم ، ويحميهم فى بَدْأتهم وعَوْدتهم ، و يرتّبهم فى مسيرهم ومَسْلكهم ، ويَرْعاهم فى ليلهم ونهارهم ، حتى لاتنالهم شِدَّة ، ولاتَصِل إليهم مَضَرَّة ، وأن يُريحهم (١) فى المنازل، و يوردهم المناهل، ويُناوِب بينهم فى النَّهَل والعَلَل ، و يمكنهم من الارتواء والاكتفاء ، مجتهداً فى الصيانة لهم ، ومعذراً فى الذبّ عنهم ، ومُتلوّماً على متأخرهم ومتخلفهم ، ومُنْهضا

(١) كذا فى ب ، ج ؛ وفى ا « وأن ينزلهم فى المنازل » .

لضعيفهم ومَهِيضهم ، فإنهم حُجّاج بيت الله الحرام ، وزُوّار قبر رسوله عليه الصلاة والسلام ، قد هَجَرُوا الأهل والأوطان ، وفارقوا الجيرَةَ والإخوان ، وتَجَشَّمُوا المغارم الثِّقَال ، وتعَسَّفوا السُّهُولة والجبَال ، يُلَبُّون دعاء الله ، ويطيعون أمره ، ويُؤَدُّون فرضه ، ويرجون ثوابه ، وحَقِيقٌ على المسلم أن يحرسهم مُتَبَرِّعا ، ويحُوطهم متطوعا ، فكيف من تولى ذلك وضمنه ، وتقلده واعتقبه ؟ قال الله تعالى : (وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً) .

وأمره أن يراعي أمور المساجد بمدينة السلام وأطرافها ، وأقطارها وأكنافها ، وأن يَجْبِيَ أموال وَقْفِهَا ، ويستقصي جميع حقوقها ، وأن يَلُمَّ شَعَثها ، ويَسُدَّ خَلَلَهَا ، بما يتحصل من هذه الوجوه قبله ، لا يزيل رسماً جرى ، ولا ينقض عادة كانت لها ، وأن يكتب اسم أمير المؤمنين على ما يَعْمُرُه منها ، ويذكر اسمه بعده بأن عمارتها جَرَتْ على يده ، وصلاح أداه قول أمير المؤمنين في ذلك ، تنويهاً باسمه ، وإشادةً لذكره ، وأن يولّي ذلك من قبله مَنْ حَسُنَتْ أمانته ، وظهرت عفته وصيانته ؛ فقد قال الله جل من قائل : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) .

وأمره أن يستخلف على ما يرى استخلافه عليه من هذه الأعمال في الأمصار الدانية والنائية والبلاد القريبة والبعيدة مَنْ يثقُ به من صُلَحاء الرجال ، ذوي الوفاء والاستقلال ، وأن يعهد إليهم مثل ما عهد إليه ، ويعتمد عليهم مثل ما اعتمد عليه ، ويستقصي في ذلك آثارهم ، ويَتَعَرَّف أخبارهم ؛ فمن وجده محموداً قَرَّبه ، ومن وجده مذموماً صَرَفه ولم يمهله ، واعْتَاضَ مَنْ تُرْجَى الأمانة عنده ، وتكون الثقة معهودة منه ، وأن يختار لكتابته وحجابته والتصرُّف فيما قرب منه وبعد عنه مَنْ يَزِينه ، ولا يَشِينه ، وينصح له ولا يغشه ، ويجمله ولا يُهَجِّنه ، مِنَ

الطبقة المعروفة باللطف ، المتصوّنة عن النَّطَفِ ، ويجعل لهم من الأرزاق الكافية ، والأجرة الوافية ، ما يَصُدُّهم عن المكاسب الذميمة ، والمآكل الوخيمة ؛ فليس تجب عليهم الحجة إلا مع إعطاء الحاجة ، قال الله تعالى : (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَاسَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى) .

وأمره أن يكتب لمن تقوم بينته عنده وتنكشف له حجته إلى أصحاب المعارف بالشدّ على يده ، واتصال حقه إليه ، وحَسْمِ الطَّمَع الكاذب فيه ، وقبض اليد الظالمة عنه ؛ إذ هم مندوبون للتصرف بين أمره ونَهْيه ، والوقوف عند رسمه وحَدّه .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وحجته لك وعليك ، قد أبان منه سبيلك ، وأوضح دليلك ، وهَدَاكَ لِرشدك ، وجعلك على بينة من أمرك ، فاعمل به ولا تخالفه ، وأنْتَهِ إليه ولا تجاوزه ، وإن عَرَضَ لك عارض يُعْجِزك الوفاء به ويَشْتَبِه عليك الخروج منه أنْهِيْتَهُ إلى أمير المؤمنين مبادِراً ، وكنت إلى مايأمرك به صائراً ؛ إن شاء الله تعالى .

وأما التقليد الذى أنشأته أنا فقد أوردته بعد هذا التقليد ، وهو :

أما بعد فإن كل كلام لايبدأ فيه بحمد الله فهو أجْذَم ، وكل كتاب لايرقم باسمه فليس بمُعْلِم ، وعلى هذا فإن حمده يتنزل من الكلام ، منزلةَ الأعضاء من الأجسام ، واسمه يتنزل من الكتاب ، منزلةَ الرُّقُوم من الثياب ، وقد جمعنا فى كتابنا هذا بين التسمية والتحميد ، وجعلنا أحدهما مفتاحا للتيمن والآخر سبباً للمزيد ، ثم رَدَفْنَاها بالصلاة على سيدنا محمد الذى أيَّدَه الله بالقرآن المجيد ، وجعل شهادته قبل كل شَهيد ، وعلى آله وصحبه الذين هُدُوا إلى الطَّيِّب من القول وهُدُوا إلى صراط الحميد ، ومما يقترن بهذه الصلاة فى ثوَابها ، ويجىء على أعقابها ، النظر فى أمر الأسرة النبوية التى وَصَل وُدّها بوده ، وجعلها إحدى الثَّقَلَين

الْمُخَلَّفِين مِنْ بَعْدِهِ ، وقد تقادم الآن زمانها ، وتشعبتْ أغصانها ، ونُسِيَ مالها في الرقاب من عهدة الأمانة ، ولم توضع فيما وضع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من المكانة ، وأولى الناس بها مَنْ أضمر ولاءها حقا ، وأوجب أن يَرِدَ معها الحوضَ حين يقال لوارده : سُحْقاً ، وكان بمن تحت يده منها بَارًّا رَفيقا حتى لايسأله برًّا ولا رفقاً ، ونحن نرجو أن نفوز بفضيلة هذه الحسنة ، وأن نَسْبق إليها سَبْق المتقرب فى الجمعة ببَدَنَهْ ، ومِنْ أَهَمِّ أمورها أن يُخْتار لها زعيم يرأف بهارأفة الوالد بولده ، ويقوم بأمرها قيام الرأس بجسده ، حتى تأتلف أصولها كلها فى مَغْرسها ، ولا يَحْكُمُ عليها من ليس من أَنْفُسِها ، وقد اخترنالها من وُفِّقْنا فى اختياره ، وأخذنا فيه ببيان الرأى وحَزْمِهِ لابِشُبْهَة الهوى واغتراره ، ولو لم يكن من القوم الذين ولوها لكان استحقاقه لها بَيِّنًا ، والتعويل عليه مُتَعَيِّنًا ، فكيف وقَدَمُه فيها قديمة الميلاد ، ووِراثته إياها عن سيادة الجدود وسؤدد الأجداد ، وهو أنت أيها السيد الأجل الشريف الحسيب النسيب فلان بن فلان الحسينى ، ولو شئنا لأسندنا هذه النسبة كابراً عن كابر ، ونضَّدناها آخراً بعد أول عن أول قبل آخر ، حتى وصلنا هذا الفرعَ بشجرته الطيبة ، وهذا الْقَطْر بسحابته الصَّيِّبة ، وشرف الأنساب أصدقه ما كان الدهر به شهيداً ، وأجَدُّه ما كان قديماً وأَخْلَقُه ما كان جديداً ، وما تولى الروح الأمين مدحه قرآناً أكرم مما تولى الشعراء مدحه قصيداً ، ولا فَضْل للمُعْتَزِى إلى هذا النسب حتى تلحق البنوة بالأبوة ، ويضيف درجة الفضيلة إلى مَحْتِدِ النبوة ، وحينئذ يقال : ما أقرب الشَّبَهَ على قدم عهده ، وهذا ماء الوَرْد بعد ذهاب ورده ، وأنت ذلك الرجل الذى تردد الشرف فى مناسبه تردد القمر فى منازله ، وزَهَا المجد بمناقبه زهو الروض فى خمائله ، فَلَا لِيَ حَسَبُكَ تغنيك عن سؤال مَنْ ومَا ، وتملأ بودك وحمدك قلبا وفما ، والحسب ماحفظت أواخرُهُ أوائِلَه ، وأوضحت الليالى والأيامُ دلائِلَه ، وأقَرَّت به

الأعداء فما رَدَّتْ فضائله ، وهذه هى المآثرالتى إذا نظمت غارت الشِّعْرَى عليها من الشعر ، وإذا نثرت وجدت فى محكم الذكر ، وأنت صاحبها وابن صاحبها ، ومَنْ لم يرثها عن أباعدها بل عن أقاربها ، ولوجانبت رياستها مصانعاً ، ومَشَيْتَ بها الضَّرَاء متواضعاً ؛ لدل عليك وَصْفُها ، وعرف منك عَرْفُها .

وقد قلدناك أمر هذه الأسرة الطاهرة التى هى أسرتك ، وأمرناك عليها وإمرتها إمرتك ، فتوَلَّهَا تولِّيَ من خَفَضَ لها جناحه ، وأفاض عليها سَمَاحه ، وأنضى فيها غُدُوَّه ورَوَاحه ، حتى يقال : إنك الراعى الذى تناول ثلثه فأراح حسيرها ، وجَبَرَ كسيرها ، وارتاد لها خِصْباً ، وأوردها رِفْهاً لاغِبّاً ، وأذكى فى كلاءتها عَيْنا وقَلْبا .

ومن حقها عليك أن تنظر إلى ذات شمالها وذات يمينها ، وتتصفَّح أحوالها فى أمر دنياها ودينها ؛ فأوّل ذلك أن تعلّمها كتابَ الله تعالى الذى فى تعليمه نهج الصواب ، وفى تلاوته مضاعفة حسنات الثواب ، وقد مُثِّل قارئه بالبيت العامر وتاركه بالبيت الخراب ، وهو كتاب امتاز عن الكتب بنجوم التنزيل ، وتولى الله حفظه من التحريف والتبديل ، وافتتحه بالسبع المثانى التى لم ينزل مثلها فى التوراة ولا فى الإنجيل ، وهو الموصوف بأنه النورالمستضاء به فى غيابة الظلماء ، والْحَبْلُ الممدود من الأرض إلى السماء ، والبحر الذى لا يَسْتَخْرِج لؤلؤه ومرجانه إلا الراسخون من العلماء ، .

وكذلك فَخُذْ هذه الأسرة بتعليم الفضائل التى تتفاوت بها القيم ، وسُسْها برياضة الآداب وتهذيب الشِّيم ، ولا تتركها فَوْضَى لا يتّسم أحدها بسِمَة القدر المنيف ، ولا يرجع إلى حسب تليد ولا إلى سَعْى طريف ، وتكون غاية ماعنده من الفضيلة أن يقال فلان الشريف ، ومن حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها أن توفى فضل مكانها ، وتخالف بين شأن غيرها من المسلمين وبين شأنها ؛

فلا تبتذل بمجالس الولاة فى انتزاع ظلامة ، ولا فى إقامة حد يسلب معه رداء الكرامة ، وأنت تَتَوَلَّى ذلك منها فما وجب عليها من حق فخذها باقتضائه ، وأمْضِ فيها حكم الله الذى أمر بإمضائه ، وَلْيَكُنْ ذلك على وجه الرفق الذى يسلس له القياد ، ويتوطأ له المِهاد ، وإن أمكنك افتداء شئ من هذه الظلامات التى تتوجه عليها ففاد ، وقد أتم الله فضلها بمنع كرائمها إلا من كفء لا دناءة فى عنصره ، ولا غضاضة فى مَخْبَره ، وهو الذى إن فاته شرف النبوة فى مَغْرِسه فلم يَفُتْه شَرَف النباهة فى مَعْشَره ،وإذا تباينت الأقدار فلا فرق بين المنا كح المخطوبة ، وبين الأسلاب المسلوبة ،فاحْفَظْ لأسرتك حرمة هذه المنزلة ، واجعلها فى كتاب الوصايا التى وصيت بها مكان الْبَسْمَلَة ، وكما أمرناك بالنظر فى صَوْن أقْدَارِها ، فكذلك نأمرك بالنظر فى حفظ مادة درهمها وديناها ، وقدعلمت أن لها أوقافاً وقفها قوم لحظوا بأجرها واسمها ، وستحظى أنت بالعدل فى قسمها ، فأجْرِ على كل منها رزقه ، وأعْطِ كل ذى حق حقه ، وفى الناس طائفة أدعياء يرومون إلحاق الرأس بالذنب ، والنَّبْع بالغرب ، ويلحقون أباً لغير ابن وابناً لغير أب ، كُلُّ ذلك رغبة فى سحت يأكلونه ، لا فى نَسَبٍ يوصلونه ، فنقب عن حال هؤلاء تنقيباً ، واجعل النسيب نسيباً ، والغريب غريباً ، حتى تخلص السلالة من طرّاقها ، وتبقى الشجرة قائمة على أعراقها ، ومن علمت كذبه فازجره بأليم الازدجار ، وأعْلِمْه بأنه قد تبوّأ مقعده من النار ، وأشْهِرْه فى الناس حتى ينتهى وينتهى غيره بذلك الاشتهار . وههنا وصية هى أهم من هذه الوصية أمراً وأعظم أجْراً ، وأجْدَرُ بأن تكون هى الأولى وتكون هذه الأخْرَى ، وهى الأخذ على ألسنة السفهاء من الْخَوْض فيما شَجَرَ بين آل النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وإظهار العَصَبِيَّة التى تزحزح الحق عن نصابه ، وترجعه على أعقابه ، وليس مُسْتَنَدُها إلا مغالاة ذوى الجهل ، وربما نشأ منها فتنة والفتنة أشد من القتل ؛ فوكل بهؤلاء

غرباً قاطعاً ، ونهياً قامعاً ، وكن فى ذلك شارعاً لما كان الله شارعا ، فأولئك السادات هم النجوم الذين بأيّهم كان الاقتداء كان به الاهتداء ، وقُصارى المحسن فى هذا الزمان أن يتعلق منها سبباً ، ويأخذ عنهم ديناً أو أدبا ، ولا يَبْلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه ولو أنفق مثل أحد ذهباً ، ونحن نعلم أنك واقف على سُنَن اقتصادك ، وأن هذه الوصية هى محْضُ اعتقادك ، والمُنْصِف فى هذا المقام من رَمَقَه بنظر جلى ، ووفى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما حقهما وإن كان من نَسْل على ؛ فكل قد ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضله ، وهؤلاء من صحابته وهذا من أهله ، ونعوذ بالله من الأهواء الزائغة ، والأقوال التى ليست بسائغة ، ولا حجة إلا بالحق ولله الحجة البالغة ، وقد جعلنا لك فى مالنا عطاء دارًّا تستعين به على لوازم النفقات ، وتخرج نافلته فى وقاية عرضك التى هى محسوبة من الصدقات ، فإنّ مَنْ ساد قومًا يفتقر إلى تحمل أثقالهم ، والإفاضة من حاله على أحوالهم ، وهذا بر يكون منا أصله ومنك فرعه ، وثَوَاب يكون لك قَصْده ولنا شَرْعُهُ ، وصاحب الإحسان مَنْ سَنَّ سبيل الإحسان ، ولم نَرْض أنْ أريناك مكانه حتى أمددناك فيه بالإمكان ، فأعْطِ مالنا ، وتعلم من سنة إفضالنا ، ولدولتنا بذلك ثوب جمال كلما لُبسَ زاد جِدَّةً ، وعمر ذكر كلما مضت عليه مدد الأيام طال مُدَّة ، ولا ملك فى الدنيا لمن لم يجعل ملكه حديثاً حسناً ، ويَشْترى المحامد فيجعله لها ثمناً ، ومَنْ عرف قدر الثناء جَدَّ فى تحصيله ، ولو أنفق الكثير فى قليله ، فكم من دولة أعدمت منه فدَرَسَتْ آثار معالمها ، ولو كانت منهُ مُثْرية لما ذهبت مع بقاء مكارمها ، وإذ ذكرنا هذا فلنختمهُ بما يكون قِلَادَةً لصاحب هذا التقليد ، وهو أن نجرد العناية بوجاهته حتى يلبس تقدمًا بذلك التجريد ، وفَحْوَى ذلك أن يعلم الناس ماله فى الدولة من منزلة الكرامة ، ويعرفوا أنه فيها ابن جلاَ غير مُحْتاج إلى وَضْع العِمامة ، ونحن نأمر نوابنا وولاتنا وأصحابنا أن يُوَفُّوه حَقَّ أبُوَّته

الشريفة ، وفضيلته التى رَدَفتها فأضْحَتْ وهى لها رديفة ، وأن يُعْطوه ما شاء من إعلاء شأنه ، ويمضوا فِعْلَ يده وقول لسانه ، إن شاء الله تعالى .

وقد وَجَدْتُ للصابى أيضاً تقليدا أنشأه لفخر الدولة أبى الحسن بن ركن الدولة أبى على بن بويه ، عن الخليفة الطائع رحمه الله ، وهو مثبت ههنا على صورته ، وكان عرض على تقليد كتب للملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، من الخليفة المستضىء بالله رحمه الله فى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، فوجدت فيه كلامًا نازلاً بالمرة ، وسألنى بعض الإخوان بمدينة دمشق أن أعارضه ، فعارضته بتقليد فى معناه ، وهو مثبت ههنا أيضاً ، وكلا التقليدين باسم ملك كبير ، وفيهما ما يظهر من فصاحة وبلاغة .

فأما التقليد الذى أنشأه الصابى فهو : هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم الطائع لله أمير المؤمنين إلى فخر الدولة أبى الحسن بن ركن الدولة أبى على مولى أمير المؤمنين حين عرف غناه ، وبلاه ، واستصحَّ دينه ويقينه ، ورعى قديمه وحديثه ، واستنجب عُودَه ونِجارَه ، وأثنى عز الدولة أبو منصور بن معز الدولة أبى الحسين مولى أمير المؤمنين عليه ، وأشار بالمزيد فى الصنيعة إليه ، وأعلم أمير المؤمنين اقتداءه به فى كل مذهب ذهب فيه من الخدمة ، وغَرَضٍ رَمَى إليه من النصيحة ، دُخُولاً فى زُمْرَةِ الأولياء المنصورة ، وخروجاً عن جماعة الأعداء المدحورة ، وتَصَرُّفاً على موجبات البيعة التى هى بعز الدولة أبى منصور منوطة ، وعلى سائر ما يتلوه ويتبعه مأخوذة مشروطة ، فقلده الصَّلاة وأعمال الحرب والمعاون والأحداث والخراج والأعشار والضياع والجهبذة والصدقات والجوالى وسائر وجوه الجبايات والعرض والعطاء والنفقة فى الأولياء والمظالم وأسواق الرقيق والعيار فى دور الضرب والطرز والحسبة ، بكُورِ هَمَذَان واسْتَرَاباذ والدِّينَوَر وقرميسين والايغارين وأعمال أذْرَبيجان وأرَّان والسحانين

وموقان ، وَاثِقاً منه باستقبال [النعمة و] استدامتها ، والاستزادة بالشكر منها ، والتَّجَنُّب لغمطها وجحودها ، والتنكب لإيحاشها وتنفيرها ، والتعمد لما يمكن له الْحُظْوَة والزُّلْفَى ، ويحرس عليه الأثرة والقربى ، بما يظهره ويضمره من الوفاء الصحيح ، والولاء الصريح ، والغيب الأمين ، والصدر السليم ، والمقاطعة لكل من قطَع العصمة ، وفَارق الجملة ، والمواصلة لكل من حمى البيضة ، وأخلص النية ، والسكون تحت ظل أمير المؤمنين وذمته ، ومع عز الدولة أبى منصور وفى حوزته ، والله جل اسمه يعرف لأمير المؤمنين حُسْنَ العقبى فيما أَبْرَمَ ونَقَض ، وسَدَادَ الرأى فيمن رفع وخفض ، ويجعل عزائمه مقرونة بالسلامة ، محجوبة عن موارد الندامة ، وحسب أمير المؤمنين اللهُ ونعم الوكيل .

أمره بتقوى الله التى هى العصمة المتينة ، والجنة الحصينة ، والطود الأرفع ، والمعاذ الأمنع ، والجانب الأعزّ ، والملجأ الأحرز ، وأن يستشعرها سرا وجهراً ، ويستعملها قولا وفعلا ، ويتخذها ذُخْراً دافعاً لنوائب القدر ، وكهفاً حاميا من حوادث الغير ؛ فإنها أوجب الوسائل ، وأقرب الذرائع ، وأعودها على العبد بمصالحه ، وأدعاها إلى كل مَناجحه ، وأولاها بالاستمرار على هدايته ، والنجاة من غوايته ، والسلامة فى دنياه حين تُوبِق موبقاتها ، وتُرْدِى مُرْدِيَاتها ، وفى آخرته حين تروع رائعاتها ، وتخيف مخيفاتها ، وأن يتأدَّبَ بأدب الله فى التواضع والإخبات والسكينة ، وصدق اللهجة إذا نطق ، وغَضّ الطرف إذا رَمَق ، وكظم الغيظ إذا أحفظ ، وضبط اللسان إذا أغضب ، وكفّ اليد عن المآثم ، وصَوْن النفس عن المحارم . وأن يذكر الموت الذى هو نازل به ، والموقف الذى هو صائر إليه ، ويعلم أنه مسئول عما اكتسب ، مجزى عما تزَمَّلَ واحْتقَب ، ويتزود من هذا المَمَرّ لذلك المَقَر ، ويستكثر من أعمال البر لتنفعه ، ومن مساعى الخير لتنقذه ، ويأتمر بالصالحات قبل أن يأمر بها ، ويزدجر عن السَّيِّئات قبل أن يزجر عنها ،

ويبتدئ بإصلاح نفسه قبل إصلاح رعيته ، فلا يبعثهم على ما يأتى ضِدّه ، ولا ينهاهم عما يقترف مثله ، ويجعل ربه رقيباً عليه فى خلواته ، ومُرُوأته مانعة له من شهَوَاته ، فإن أحق من غلب سلطان الشهوة ، وأوْلَى من ضرع لغذاء[1] الحمية ؛ مَنْ ملك أزمة الأمور ، واقتدر على سياسة الجمهور ، وكان مُطاعاً فيما يرى ، مُتّبعاً فيما يشاء ، يلى على الناس ولا يلون عليه ، ويقتصّ منهم ولا يَقْتَصُّون منهُ ، فإذا اطلع الله منه على نقَاء جَيْبه ، وطهارة ذَيْله ، وصحة سريرته ، واستقامة سيرته ، أعانه على حفظ ما استحفظه ، وأنهضَه بثقل ما حَمَّله ، وجعل له مَخْلصًا من الشُّبْهَة ، ومَخْرَجًا من الحَيْرَة ، فقد قال الله تعالى : (وَمَنْ يَتَّقِ ٱللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) وقال عزّ مِنْ قائل : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتقوا ٱللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) وقال : (اتَّقُوا ٱللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) إلى آيٍ كثيرة حَضَّنا بها على أكرم الخلق ، وأسلم الطرق ، فالسعيد من نَصَبَها إزاء ناظره ، والشقى من نَبَذَها وراء ظهره ، وأشقى منهما من بَعَثَ عليها وهو صادفٌ عنها ، وأهاب إليها وهو بعيد منها ، وله ولأمثاله يقول الله تعالى ذكره : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) .

وأمره أن يتخذ كتاب الله إماماً مُتَّبَعًا ، وطريقاً مُتَوَقَّعاً ، ويكثر من تلاوته إذا خلا بذكره ، ويملأ بتأميله أرْجاء صدْره ، فيذهب معه فيما أباح وحظر ، ويقتدى به إذا نهى وأمر ، ويستبين ببيِّناته إذا استغلقت دونه المعضلات ، ويستضىء بمصابيحه إذا غُمّ عليه فى المشكلات ؛ فإنه عُرْوَة الإسلام الوُثْقَى ، ومَحَجَّتُه الوسطى ، ودليله المقنع ، وبرهانه المرشد ، والكاشف لظُلَم الخطوب ، والشافى من مرض القلوب ، والهادى لمن ضَلّ ، والمتلافى لمن زَلّ ؛ فمن نجا به فقد فاز وسلم ، ومن لها عنه فقد خاب وندم ، قال الله تعالى :

(١) فى رسائل الصحابى (ص ١٠١) « من أضرع خد الحمية » .

(وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) .

وأمره أن يحافظ على الصَّلَوات ، ويدخل فيها فى حقائق الأوقات ، قائماً على حدودها ، متبعاً لرسومها ، جامعاً فيها بين نيته ولفظه ، متوقياً لمطامح سهوه ولحظه ، منقطعاً إليها عن كل قاطع لها ، مشغولا بها عن كل شاغل عنها ، متثبتاً فى ركوعها وسجودها ، مستوفياً عددَ مفروضها ومسنونها ، موفّراً عليها ذِهْنَه ، صارفا إليها همه ، عالما بأنه واقف بين يدى خالقه ورازقه ، ومحييه ومميته ، ومعاقبه ومثيبه ، لا تُسْتَر دونه خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فإذا قضاها على هذه السبيل منذ تكبيرة الإحرام إلى خاتمة التسليم أتبعها بدعاء يرتفع بارتفاعها ، ويستمع باستماعها ، لا يتعدّى فيـــه مسائل الأبرار ، ورغائب الأخيار ، مِنَ استصفاح واستغفار ، واستقالة واسترحام ، واستدعاء لمصالح الدين والدنيا ، وعوائد الآخرة والأولى ؛ فقد قال الله تعالى : (إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا) وقال تعالى : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) .

وأمره بالسعى فى أيام الجمع إلى المساجد الجامعة ، وفى الأعياد إلى المصلّيات الضاحية ، بعد التقدم فى فرشها وكسوتها ، وجمع القوام والمؤذنين والمكبرين فيها ، واستسعاء الناس إليها ، وحَضّهم عليها ، آخذين الأُهْبَة ، متنظفين فى البِزَّة ، مؤدّين لفريضة الطهارة ، وبالغين فى ذلك أقصى الاستقصاء ، معتقدين خشية الله وخيفته ، مُدَّرعين تَقْواه ومراقبته ، مكثرين من دعائه عز وجل وسؤاله ، مصلين على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، بقلوب على اليقين موقوفة ، وهمم إلى الدين مصروفة ، وأَلْسُنٍ بالتقديس والتسبيح فصيحة ، وآمال فى المغفرة والرحمة فسيحة ؛ فإن هذه المُصَلَّيات والمتعبَّدات بيوتُ الله التى فضلها ، ومناسكه التى

شرفها ، وفيها يُتلى القرآن الكريم ، ويتعوذ العائذون ، ويتعبد المتعبدون ، ويتهجد المتهجدون ، وحَقيقٌ على المسلمين أجمعين مِنْ وَالٍ ومولى عليه أن يَصُونها ويَعْمُرَها ، ويواصلها ولا يهجرها ، وأن يقيم الدعوة على منابرها لأمير المؤمنين ثم لنفسه ، على الرسم الجارى فيها ؛ قال الله تعالى فى هذه الصلاة : (يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا إذَا نُودِىَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فاسْعَوْا إلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ) وقال فى عمارة المساجد : (إنَّما يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأقامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إلاَّ اللهَ فَعَسَى أُولئِكَ أنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) .

وأمره أن يراعى أحوال مَنْ يليه من طبقات جند أمير المؤمنين ومواليه ، ويطلق لهم الأرزاق ، فى أوقات الوجوب والاستحقاق ، وأن يُحْسِن فى معاملتهم ، ويُجمِل فى استخدامهم ، ويَتصرَّف فى سياستهم بين رِفْقٍ من غير ضَعْف ، وخُشُونة فى غير عُنْف ، مثيباً لمحسنهم مازاد بالإثابة فى حسن الأثر ، وسلم معها من دواعى الأشَر ، ومتغمداً لمسيئهم ما كان التغمد له نافعاً ، وفيه ناجعاً ، فإن تكرَّرت زَلاَّته ، وتتابعت عثَرَاته ، تناولته من عقوبته بما يكون له مصلحاً ، ولغيره واعظاً ، وأن يختص أكابِرَهُمْ وأماثلهم وأهل الرأى والخطر منهم بالمشاورة فى المُلِم ، والإطْلاَع على بعض المهم ، مستخلصاً مخايل صدورهم بالبسط والإدناء ، ومُسْتَشْحذاً بصائرهم بالإكرام والاجتباء ؛ فإن فى مُشاوَرَة هذه الطبقة استدلالاً على مواقع الصواب ، وتحرُّزاً عن غلط الاستبداد ، وأخذا بمجامع الحَزامة ، وأمْناً من مفارقة الاستقامة ، وقد حض الله عز وجل على الشورى حيث قال لرسوله عليه الصلاة والسلام : (وَشَاوِرْهُمْ فِى الأمْرِ فَإذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) .

وأمره بأن يصمد بما يتصل[١] بنواحيه من ثغور المسلمين ، و رباط المرابطين ، ويقسم لها قسماً وافراً من عنايته ، ويصرف إليها طرفاً بل شطراً من رعايته ، ويختار لها أهل الْجَلَد والشدة ، وذوى البأس والنجدة ، ممن عَجَمَتْه الخطوب ، وعَرَكَتْه الحروب ، واكتسب دِرْبة بخُدَع المتنازلين ، وتجربة بمكايد المتقارعين ، وأن يستظهر بكشف عددهم ، واعتبار عددهم ، وانتخاب خيلهم ، واستجادة أسلحتهم ، غيْرَ مجمر بعثاً إذا بعثه ، ولا مستكرهه إذا وجّهه ، بل يناوب بين رجاله مناوبةً تُريحهم ولا تمدهم ، وتُرَفّهُهم ولا تئودهم ؛ فإن فى ذلك من فائدة الإجمام ، والعدل فى الاستخدام ، زَيْنا ، فَلْيُسَوِّ بين رجال النوب فيما عاد عليهم بعز الظفر والنصر ، وبعد الصيت والذكر ، وإحراز النفع والأجر ، مايحق أن يكون الولاة به عاملين ، وللناس عليه حاملين ، وأن يكرر فى أسماعهم ، ويثبت فى قلوبهم؛ مواعيدَ الله تعالى لمن صبر ورابط وسامح بالنفس من حيث لايقدمون على تورط غرة ، ولا يحجمون عن انتهاز فرصة ، ولا ينكصون عن تَوَرُّد معركة ، ولا يُلْقُونَ بأيديهم إلى التَّهْلُكة ، فقد أخذ الله ذلك على خلقه ، والمرء أمين على دينه ، وأن يريح الْعَمَلَة فيما يحتاج إليه من راتب نفقات هذه الثغور وحادثها وبناء حصونها ومعاقلها ، واستطراق طرقها ومسالكها ، وإفاضة الأقوات والعلوفة فيها للمترتبين بها ، والمترددين إليها ، والحامين لها ، وأن يبذل أمانه لمن طلبهُ ، ويعرضه على من لم يطلبه ، ويفى بالعهد إذا عاهد . وبالعقد إذا عاقد ، غير مُخْفِرٍ ذِمَّةً ، ولا جارح أمانة ، فقد أمر الله تعالى بالوفاء ، فقال عز وجل : (يَأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) ونهى عن النَّكْثِ ؛ فقال عَزَّ مِنْ قائل: (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِه) .

وأمره أن يعرض مَنْ فى حبوس عمله على جرائمهم ، فمن كان إقراره واجباً أقره ، ومن كان إطلاقه سائغاً أطلقه ، وأن ينظر فى الشُّرْطَة والأحداث نظرَ

(١) كذا فى ا ، ب ، ج ؛ وفى رسائل الصابى « بأن يضم مايتصل بنواحيه » .

عدل وإنصاف ، ويختار لها من يخاف الله ويتقيه ، ولا يحابى ولا يراقب فيه ، ويتقدم إليهم بقَمْع الجهال ، وردع الضُلاَّل ، وتتبع الأشرار ، وطلب الدُّعّار ، مستدلين على أماكنهم ، متوغلين إلى مَكامنِهم ، مُتَوَلجين عليهم فى مظانهم ، متوثقين ممن يجدونه منهم ، منفذين أحكام الله تعالى فيهم ، بحسب الذى يتبين من أمرهم ، ويصح من فعلهم ، فى كبيرة ارتكبوها ، وعظيمة احْتَقَبُوها ، ومهجة إن أفاظوها واستهلكوها ، وحرمة إن استباحوها وانتهكوها ؛ فمن استحق حداً من حدود الله المعلومة أقاموه عليه غير مُخَفَّفِين منه ، وأحَلُّوه به غير مقصرين عنه ، بعد ألاَّ يكون عليهم فى الذى يأتونه حجة ، ولا يعترضهم فى وجوبه شبهة ، فإن الواجب فى الحدود أن تقام بالبينات ، وأن تدرأ بالشبهات ، فأولى ما توخَّاهُ رُعاة الرعايا فيها ألاَّ يقدموا عليها مع نقصان ، ولا يتوقفوا عنها مع قيام الدليل ، وَمَنْ وَجَب عليه القتل احتاط بما يحتاط به على مثله من الحبس الحصين ، والتوثق الشديد ، وكتب إلى أمير المؤمنين بخبره ، وشرح جنايته وثبوتها بإقرار يكون منه أو بشهادة تقع عليه ، ولينتظر مِنْ جوَابه ما يكون عمله بحسبه ؛ فإن أمير المؤمنين لا يطلق سفك دم مسلم أومعاهد ، إلا ماأحاط به علماً ، وأتقنه فَهْماً ، وكان مايمضيه فيه عن بصيرة لا يخالجها شك ، ولا يشوبها ريب ، ومن أَلَمَّ بصغيرة من الصغائر ، ويَسِيرة من الجرائر ، من حيث لم يعرف له مثلها ، ولم يتقدم له أختها ، وعَظَه وزجره ، ونهاه وحَذَّره ، واستتابه وأقاله ، مالم يكن عليه خصم فى ذلك يطالب بقِصَاصٍ منه ، وجزاء له ، فإن عاد تناوله من التقويم والتهذيب والتعزير والتأديب بما يرى أن قد كفى فيما اجترم ، ووفى بما قدم ؛ فقد قال الله تعالى : (وَمَنْ يَتعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

وأمره أن يعطل ما فى أعماله من الحانات والمواخير ، ويطهرها من القبائح والمناكير ، ويمنع من يجمع أهل الخنا فيها ، ويؤلف شملهم بها ، فإنه شمل يصلحه التشتيت ، وجمع يحفظه التفريق ، وما زالت هذه المواطن الذميمة ، والمطارح

الدنية ، داعيةً مَنْ يأوى إليها ، ويعكف عليها ، إلى ترك الصلوات ، وإهمال المفترضات ، وركوب المنكرات ، واقتراف المحظورات ، وهى بيوت الشيطان التى فى عمارتها لله معصية ، وفى إخرابها للخير مجلبة ، والله تعالى يقول لنا معشر المؤمنين : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ) ويقول عزَّ مِنْ قائل لغيرنا من المذمومين : (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ واتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) .

وأمره أن يولى الحماية فى هذه الأعمال ، أهْلَ الكفاية والعناية من الرجال ، وأن يضم إليهم كلَّ من خَفَّ ركابه ، وأسرع عند الصريخ ، مرتِّبا لهم فى المسالح وسادا بهم ثغر المسالك ، وأن يوصيهم بالتيقظ ، ويأخذهم بالتحفظ ، ويزيح عللهم فى علوفة خيلهم ، والمقرر من أزوادهم وميرهم ، حتى لا تثقل لهم على البلاد وطأة ولا يدعوهم إلى تحنقهم[(١)] وثلمهم حاجة ، وأن يحوطوا السابلَة بادئة وعائدة ، ويُبَذْرِقوا القوافل صادرة وواردة ، ويحرسوا الطريق ليلاً ونهاراً ، ويتفصَّوْها رواحاً وغدُوًّا ، وينصبوا لأهل العبث الأرصاد ، ويتكمنوا لهم بكل واد ، ويتفرقوا عليهم حيث يكون التفرق مضيقاً لفضائهم ، ومؤدياً إلى انفضاضهم ، ويجتمعوا حيث يكون الاجتماع مطفئاً لجمرتهم ، وصادعاً لِمَرْوَتهم ، ولا يُخْلُوا هذه السبل من حماة لها ، وسيارة فيها ، يترددون فى جوَادِّها ، ويتعسفون فى عواديها[(٢)] ، حتى تكون الدماء مَحْقونة ، والأموال مَصُونة ، والفتن محسومة ، والغارات مأمونة ، ومَنْ حصَل فى أيديهم من لِصٍّ خاتل ، وصُعْلوك خارب ، ومخيف لسبيل ، ومنتهك لحريم ؛ امتثل فى أمره أمْرَ أمير المؤمنين الموافق لقول الله عز وجل : (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا

(١) فى رسائل الصابى « تحيفهم » .

(٢) فيها « عوادلها » .

مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

وأمره بوضع الرَّصَد على من يجتاز فى أعماله من أبّاق العبيد ، والاحتياط عليهم وعلى ما يكون معهم ، والبحث عن الأماكن التى فارقوها ، والطرق التى استطرقوها ، ومواليهم الذين أبقوا منهم ، ونشزوا عنهم ، وأن يرُدُّوهم عليهم قهرا ، ويعيدوهم إليهم صُغْرًا ، وأن ينشد الضالة ما أمكن أن تنشد ، ويحفظوها على ربها بما جاز أن تحفظ ، ويَتجنّبُوا الامتطاء لظهورها ، والانتفاع بأوبارها ، وألبان ما يجز ويحلب ، وأن يعرّفوا اللُّقَطَة ، ويتّبعوا أثرها ، ويشيعوا خبرها ؛ فإذا حضر صاحبها وعلم أنه مستوجبها سُلّمت إليه ، ولم يعترض فيها عليه ، والله عز وجل يقول : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ حَرَقُ النَّارِ » .

وأمره أن يوصى عماله بالشد على يد الحكام ، وتنفيذ ما يصدر عنهم من الأحكام ، وأن يحضروا مجالسهم حضور الموقرين لها الذّابّين عنها المقيمين لرسوم الهيبة وحدود الطّواعية فيها ، ومن خرج عن ذلك من ذى عقل ضعيف وحلم سخيف ، نالوه بما يردعه ، وَأحلُّوا به ما يَزَعه ، ومتى تقَاعَسَ مُتَقَاعِسٌ عن حضور مع خصم يستدعيه بأمر يوجبه الحكم إليه ، أو الْتوَى مُلتوٍ بحق يحصل عليه ودين يستغرق ذمته ؛ قَادُوه إلى ذلك بأزِمَّةِ الصَّغار وخزائم الاضطرار ، وأن يحبسوا ويطلقوا بأقوالهم ، ويثبتوا الأيدى فى الأملاك والفروج ، وينزعوا بقضاياهم ؛ فإنهم أُمَناء الله فى فَصْل مايقضون ، وبث مايَبُثُّون ، وعن كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم يوردون ويصدرون ، وقد قال الله عزّ وجل : (يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) .

وأن يتوخّى بمثل هذه المعاملة عمال الخراج فى استيفاء حقوق ما استعملوا عليه ، واستنطاف بقاياهم فيه ، والرياضـــة لمن تسوء طاعته من معامليهم ، وإحضارهم طائعين أو كارهين بين أيديهم ؛ فمن آداب الله تعالى للعبد الذى يحق عليه أن يتخذها ويجعلها للرضا عنه سبباً قوله تعالى : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) .

وأمره أن يجلس للرعية جلوساً عامًّا ، وينظر فى مظالمها نظراً تامًّا ؛ يساوى فى الحق بين خاصها وعامها ، ويوازى فى المجالس بين عزيزها وذليلها ، ويُنْصِف المظلوم من ظالمه ، والمغصوبَ من غاصبه ، بعد الفَحْص والتأمل ، والبحث والتبين ، حتى لايحكم إلا بعـدل ، ولا ينطق إلا بفصْل ، ولا يثبت يداً إلا فيما وَجَبَ تثبيتها فيه ، ولا يقبضها إلا عما وجب قبضها عنه ، وأن يسهل الإذن لجماعتهم ، ويرفع الحجاب بينه وبينهم ، ويوليهم من حصَانة الْـكَنَف ، ولين المنعطف ، والاشتمال والعناية ، والصون والرعاية ؛ ما تتعادَلُ به أقسامهم ، وتتوازى منه أقساطهم ، ولا يصل الركين منهم إلى استضامة ما تأخر عنه ، ولا ذو السلطان إلى هضيمة من حل دونه ، وأن يدعوهم إلى أحسن العادات والخلائق ، ويحضهم على أحمد المذاهب والطرائق ، ويحمل عنهم كله ، ويمد عليهم ظله ، ولا يَسُومهم عَسْفاً ، ولايلحق بهم حَيفاً ، ولايكلفهم شَطَطاً ، ولا يجشمهم مُضْلِعاً ، ولا يثلم لهم معيشة ، ولا يداخلهم فى جريمة ، ولا يأخذ بريئاً بسقيم ، ولا حاضراً بعديم ؛ فإن الله عز وجل ينهى أن تزرَ وازرة وزر أخرى ، ويرفع عن هذه الرعية ماعسى أن يكون سُنَّ عليها من سـنة ظالمة ، وسُلِك بها من محجة جائرة ، وَيَسْتَقْرِى آثار الولاة قبله عليها ، فيما أزلفوه[(١)] من خير أو شر إليها ؛ فيقر من ذلك ماطاب وحسن ، ويزيل ماخبث وقبح فإنَّ مَنْ غَرَس الخير يحظى بمعسول ثمره ،

(١) فى ا ، ب ، ج « فيما رجوه » وفى رسائل الصابى « فيما أزلوه » .

ومن زرع الشر يَصْلَى بمرور رَيْعِهِ (١) ، والله تعالى يقول : (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَيَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) .

وأمره بأن يصون مال الخراج وأثمان الغلات ووجوه الجبايات مُوفَّراً ، ويزيد ذلك مثمراً ، بما يستعمله من الإنصاف لأهلها ، وإجرائهم على صحيح الرسوم فيها؛ فإنه مال الله الذى به قُوَّة عباده ، وحماية بلاده ، ودُرُور حَلَبه ، واتصال مدده ، وبه يحاط الحريم ، ويدفع العظيم ، ويحمى الذِّمار ، ويُذاد الأشرار ، وأن يجعل افتتاحه إياه بحسب إدراك أصنافه ، وعند حضور مَوَاقيته وأحْيانه ، غير متسلف شيئاً قبلها ، ولا مؤخر لها عنها ، وأن يَخُصَّ أهل الطاعة والسلامة بالترقية لهم ، وأهل الاستصعاب والامتناع بالتشديد عليهم ؛ لئلا يقع إرهاق لمذعِنٍ ، أو إهمال لطامع ، وعلى المتولى لذلك أن يضع كلاً من الأمرين موضعه ، ويوقعه موقعه ، متجنباً إحلال الغلظة بمن لا يستحقها ، وإعطاء الفسحة من ليس أهلها ، والله تعالى يقول : (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَاسَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى) .

وأمره أن يتخَيَّرَ عماله على الخراج والأعشار والضياع والجهبذة والصدقات والجوالى من أهل الظلف والنزاهة ، والضبط والصيانة ، والجزالة والشهامة ، وأن يستظهر مع ذلك عليهم بوصية تعيها أسماعهم ، وعهود يقلدها أعناقهم ، بألاَّ يضيعوا حقًّا ، ولا يأكلوا سُحْتاً ، ولا يستعملوا ظلما ، ولا يقارفوا غشما ، وأن يقيموا العمارات ، ويحتاطوا ويتحرزوا من إتْوَاء حق لازم ، أو تعطيل رسم عادل ، مؤدِّين فى جميع ذلك الأمانة ، مجتنبين للخيانة ، وأن يأخذوا جهابذتهم باستيفاء وزن المال على تمامه ، واستجادة نقده على عياره ، واستعمال الصحة فى قبض

(١) فى ا ، ب ، ج « يصلى بمرور زينه » والتصويب عن رسائل الصابى .

مايقبضون ، و إطلاق مايطلقون ، وأن يوعزوا إلى سُعاة الصدقات فى أخذ الفرائض من سائمة مواشى المسلمين دون عاملتها ، وكذلك الواجب فيها ، وألاّ يجمعوا فيها متفرقاً ، ولا يفرقوا مجتمعاً ، ولا يدخلوا فيها خارجاً عنها ، ولا يضيفوا إليها ماليس منها ، من فَحْل إبل ، وأَكولة راع ، أو عقيلة مال ؛ فإذا اجْتَبَوْها على حقها ، واستوفوها على رسمها ؛ أخرجوها فى سبيلها ، وقسموها على أهلها الذين ذكرهم الله عز وجل فى كتابه العزيز ، إلاّ المؤلَّفة قلوبهم الذين ذكرهم الله عز وجل فى كتابه الكريم وسقط سهمهم ؛ فإن الله تعالى يقول : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) ؛ وإلى جُباة أهل الذمة أن يأخذوا منهم الجزية فى المحرم من كل سنة ، بحسب منازلهم فى الأحوال ، وذات أيديهم فى الأموال ، وعلى الطبقات المطبقة فيها ، والحدود المعهودة لها ، وألاّ يأخذوها من النساء ، ولا ممن لم يبلغ الحلم من الرجال ، ولا من ذى سِنٍّ عالية ، ولا ذى عِلَّةٍ بادية ، ولا فقير معدم ، ولا مترهب متبتل ، وأن يراعى جماعة هؤلاء العمال مراعاة يُسِرُّها ويُظهِرها ، ويلاحظهم ملاحظة يخفيها ويبديها ؛ لئلا يزولوا عن الحق الواجب ، أو يعدلوا عن السَّنَن اللاحب ، فقد قال الله تعالى : (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً) .

وأمره بأن يندب لعرض الرجال وإعطائهم ، وحفظ جراياتهم ، وأوقات إطعامهم ، مَنْ يعرفه بالثقة فى متصرفه ، والأمانة فيما يجرى على يده ، والبعد عن الإسفاف إلى الدَّنِيَّة ، والاتباع للدناءة[1] ، وأن يبعثه على ضَبْط الرجال، وشيات الخيل، وتجديد العرض بعد الاستحقاق ، و إيقاع الاحتياط فى الإنفاق ، فمن صَحَّ عرضه ولم يبق فى نفسه شىء منهم من شك يعرض له أو ريبة يتوهمها أطلق أموالهم موفورة ، وحصلها فى أيديهم غير مثلومة ، وأن يرد على بيت المال أرزاق

(١) كذا فى ا ، ب ، ج . وفى رسائل الصابى «والاتباع للديانة» عطفا على الثقة.

من سقط بالوفاة والاخلال ، ناسباً ذلك إلى جهته ، مورداً له على حقيقته ، وأن يطالب الرجال بإحضار الخيل المختارة ، والآلات المستكملة ، على ما توجبه مبالغ أرزاقهم ، وحسب منازلهم ومراتبهم ، فإنْ أَخَّر أحدهم شيئاً من ذلك قاصه به من رزقه ، وأغرمه مثل قيمته ، فان المقصّر فيه خائن لأمير المؤمنين ، ومخالف لرب العالمين ؛ إذ يقول سبحانه : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ .

وأمره أن يعتمد فى أسواق الرقيق ودور الضرب والطرز والحسبة على من تجتمع فيه آلات هذه الولايات من ثقة ودراية ، وعلم وكتابة ، ومعرفة ورواية ، وتجربة وحنكة ، وحصافة ومسكة ، فانها أحوال تضارع الحكم وتناسبه ، وتدانيه وتقاربه ، وأن يتقدم إلى وُلاةِ أسواق الرقيق بالتحفظ فيمن يطلقون بيعه ، ويمضون أمره ، والتحرز من وقوع تخوّن فيه ، أو إهمال له ؛ إذ كان ذلك عائداً بتحصين الفروج ، وتطهير الأنساب ، وأن يبعدوا عنه أهل الريبة ، ويقربوا أهل العفة ، ولا يمضوا بيعاً على شبهة ، ولا عقداً على تهمة ، وإلى ولاة العيار ، بتخليص عين الدرهم والدينار ؛ ليكونا مضروبين على البراءة من الغش ، والنزاهة من المش(1) ، وبحسب الإمام المقدر بمدينة السلام ، وحراسة السكك من أن تتداولها الأيدى المزغلة ، وتتناقلها الجهات المنبية ، وإثبات اسم أمير المؤمنين على ما يضرب ذهباً وفضة ، وإجراء ذلك على الرسم والسنة ؛ وإلى ولاة الطرز أن يجروا الاستعمال فى جميع المناسج على أتم النيقة ، وأسلم الطريقة ، وأحكم الصنعة ، وأفضل الصحة ، وأن يكتبوا اسم أمير المؤمنين على طرر الكسا والفرش ، والأعلام والبنود ، وإلى وُلاَة الحسبة بتصفح أحوال العوام فى حرفهم ومتاجرهم ، ومجتمع أسواقهم ومعاملاتهم ، وأن يعايروا الموازين والمكاييل ، ويفرزوها على التعديل والتكميل ، ومَنِ اطلعوا منه على حيلة أو تلبيس ، أو غيلة أو تدليس ، أو بخس ما يوفيه ،

(1) كذا فى ب ، ج . وفى ا «من المس» . وفى الرسائل «والتهذيب من اللبس» .

واستفضال فيما يستوفيه ؛ نالوه بغليظ العقوبة وعظمها ، وخصوه بوجيعها وأَلمها ، واقفين فى ذلك عند الحد الذى يَرَوْنه لذنبه مجازيا ، وفى تأديبه كافيا ، فقد قال الله تعالى : (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) .

هــذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وحجته عليك ، وقد وقفك على سواء السبيل ، وأرشدك إلى واضح الدليل ، وأوسعك تعليما وتحكيما ، وأقنعك تعريفا وتفهيما[1] ، ولم يأْلُكَ جُهْدًا فيما عصمك وعصم على يدك ، ولم يدخرك ممكنا فيما أصلح بك وأصلحك ، ولا تَرَكَ لك عذراً فى غلط تغلطه ، ولا طريقاً إلى تورط تتورطه ، بالغاً بك فى الأوامر والزواجر إلى حيث يلزم الأئمــة أن يندبوا الناس إليــه ، ويحثّوهم عليه ، مقيما لك على مُنْجِيات المسالك ، صارفاً لك عن مُرْدِيات المَهالك ، مريداً فيك مايسلمك فى دينك ودنياك ، ويعود بالحظ عليك فى آخرتك وأولاك ، فإن اعتدلت وعَدَلت فقد فزت وغنمت ، وإن تجانَفْتَ واعوججت فقد فسدت وندمت ، والأَوْلَى بك عند أمير المؤمنين مع مَغْرِسك الزاكى ، ومنبتك النامى ، وعودك الأنجب ، وعنصرك الأطيب ، أن تكون لظَنّه مُحَقِّقا ، ولمخيلته فيك مُصَدِّقا ، وأن تستزيده بالأثر الجميل قربا [من رب العالمين] وثواباً يوم الدين ، وزلفى عند أمير المؤمنين ، وثناء حسناً من المسلمين ، فخذ مانبذ إليك أمير المؤمنين من معاذيره ، وأَمْسِك بيدك على ماأعطى من مواثيقه ، واجعل عهده مثالاً تحتذيه ، وإمامًا تقتفيه ، واسْتَعِنْ بالله يُعِنْك ، واستهده يَهْدِك ، وأخلص إليــه فى طاعته يخلص لك الحظ فى معونتك ، ومهما أشكل عليك من خطب ، أو أعضل عليك من صعب ، أو بهرك من باهر ، أو بَهَظَك من باهظ ، فاكتب إلى أمير المؤمنين مُنْهِياً ، وكن إلى ما يرد عليك [من جوابه متطلعا] إن شاء الله تعالى ؛ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

(١) فى ا ، ب ، ج «تعليما وتحكيما وأقنعك تعليما وتفهيما» وما أثبتناه عن الرسائل.

وأما التقليد الذى أنشأته أنا فهو هذا : أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذى يكون لكل خطبة قياداً ، ولكل أمر مهاداً ، ويستزيده من نعمه التى جعلت التقوى له زادا ، وحملته عبء الخلافة فلم يضعف عنهُ طوقا ولم يأل فيه اجتهادا ، وصغرت لديه أمر الدنيا فما تَسَوَّرت له محرابا ولا عرضت عليه جيادا ، وحققت فيه قول الله تعالى : (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فى الأَرْضِ وَلَا فَسَاداً) ، ثم يصلى على من أنزلت الملائكة لنصره أمداداً ، وأسرى به إلى السماء حتى ارتقى سبعاً شداداً ، وتجلى له ربهُ فلم يزغ منه بصراً ولا أكذب منه فؤادا ، ثم من بعده على أُسْرَته الطاهرة التى زكت أوراقاً وأعوادا ، وورثت النور المتين تلادا ، ووصفت بأنها أحد الثقلين هِدَايَةً وإرشادا ، وخصوصاً عمه العباس المدعو له بأن يُحفَظ نفساً وأولادا ، وأن تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة لا تخاف دركا ولا تخشى نفادا .

وإذا استوفى القلم مداده من هذه الحمدلة ، وأسند القول فيها عن فصاحته المرسلة ، فإنه يأخذ فى إنشاء هذا التقليد الذى جعله حليفاً لقرطاسه ، واستدام سجوده على صفحته حتى لم يكد يرفع من راسه ، وليس ذلك إلا لإفاضته فى وصف المناقب التى كثرت فحسن لها مقام الإكثار ، واشتبه التطويل فيها بالاختصار ، وهى التى لايفتقر واصفها إلى القول المعاد ، ولا يستوعر سلوك أطوادها ومن العجب وجود السهل فى سلوك الأطواد ، وتلك مناقبك أيها الملك الناصر الأجل السيد الكبير العالم العادل المجاهد المرابط صلاح الدين أبو المظفر يوسف ابن أيوب ، والديوان العزيز يتلوها عليك تحدثا بشكرك ، ويُباهى بك أولياءه تنويها بذكرك ، ويقول : أنت الذى تستكفى فتكون للدولة سهمها الصائب ، وشهابها الثاقب ، وكنزها الذى تذهب الكنوز وليس بذاهب ، وما ضرها وقد حضرت فى نصرتها إذا كان غيرك هو الغائب ، فاشكر إذاً مساعيك التى

أهلتك لما أهلتك ، وفضلتك على الأولياء بما فضلتك ، ولئن شُورِكت فى الولاء بعقيدة الإضمار ، فلم تُشارَك فى عزمك الذى انتصر للدولة فكان له بسطة الانتصار ، وفَرْقٌ بين مَنْ أمد بقلبه و بين من أمد بيده فى درجات الأمداد ، وما جعل الله القاعدين كالذين قالوا لوأمرتنا لضربنا أكبادها إلى بَرْك الغماد ، وقد كفاك من المساعى أنك كفيت الخلافة أمر منازعيها ، وطمست على الدعوة الكاذبة التى كانت تدعيها ، ولقد مضى عليها زمن ومحراب حقها محفوف من الباطل بمحرابين ، ورأت ما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم من السوارين اللذين أوَّلَهُمَا كذابين ، فبمصر منهما واحدٌ تاه بمجرى أنهارها من تحته ، ودعا الناس إلى عبادة طاغوته وجِبْتِهِ ، ولعب بالدين حتى لم يدر يوم جمعته من يوم أحده ولا يوم سبته ، وأعانه على ذلك قوم رمى الله بصائرهم بالعمى والصمم ، واتخذوه صنما بينهم ولم تكن الضلالة هناك إلا بِعِجْلٍ أوصَنَم ، فقمت أنت فى وجه باطله حتى قعد ، وجعلت فى جيده حبلا من مَسَد ، وقلت ليده تبت فأصبح وهو لايسعي بقدم ولا يبطش بيد ، وكذلك فعلت بالآخر الذى نجمت باليمن نَاجِمَتُهُ ، وسامت فيه سائمته ، فوضع بنية موضع الكعبة اليمانية ، وقال هذا ذو الخلصة الثانية ، فأى مقاميك يعترف الإسلام بسبقه ؟ أم أيها يقوم بأداء حقه ؟ وههنا فليصبح القلم للسيف من الحساد ، وليقصر مكانته عن مكانته وقد كان له من الأنْدَاد ، ولم يحظ بهذه المزية إلا لأنه أصبح لك صاحبا ، وفَخَر بك حتى طال فَخراً عما عزَّ جانبا ، وقضى بولايتك فكان بها قاضياً لما كان حَدُّه قاضبا .

وقد قلدك أميرالمؤمنين البلاد المصرية واليمنية غوراً ونجدا ، وما اشتملت عليه رعية وجنداً ، وما انتهت إليه أطرافها براً و بحرا ، وما يستنقذ من مجاوريها مسالمة وقهرا ، وأضاف إليها بلاد الشام ، وما تحتوى عليه من المدن الممدنة ، والمراكز

المحصنة ، مستثنياً منها ماهو بيد نور الدين إسمعيل بن نور الدين محمود رحمه الله ، وهو حلب وأعمالها ، فقد مضى أبوه عن آثار فى الإسلام ترفع ذكره فى الذاكرين ، وتخلفه فى عقبه فى الغابرين ، وولده هذا قد هَذَّبته الفطرة فى القول والعمل ، وليست هذه الرَّبْوَة إلا من ذلك الجبل ، فليكن له منك جار يدنو منه وداداً كما دنا أرضا ، ويُصْبح وهو له كالبنيان يشد بعضه بعضا .

والذى قدمناه من الثناء عليك ربما تجاوز بك درجة الاقتصاد ، ولفتك عن فضيلة الازدياد ، فإياك أن تنظر سعيك بالإعجاب ، وتقول هـــذه بلاد أنا فتحتها بعد أن أضرب عنها كثير من الأضراب ، ولكن اعلم أن الأرض لله ولرسوله ثم لخليفته من بعده ، ولا منَّةَ للعبد بإسلامه بل المنــة لله بهداية عبده ، وكم سلف من قبلك مَنْ لو رَامَ مارمته لدنا شاسعه ، وأجاب مانعه ، لــكن ذَخَرَهُ الله لك لتحظى فى الآخرة بمفازه ، وفى الدنيا برقم طرازه ، فألق بيدك عند هذا القول إلقاء التسليم ، وقل لَا عِلْمَ لَنَا إلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

وقد قرن تقليدك هذا بخلعة تكون لك فى الاسم شعاراً ، وفى الوسم فخاراً ، وتناسب محل قلبك و بصرك وخير ملابس الأولياء ماناسب قلوباً وأبصاراً ، ومن جملتها طوق يوضع فى عنقك موضع العهد والميثاق ، ويشير إليك بأن الإنعام قد أطاف بك إطافة الأطواق بالأعناق ، ثم إنك خوطبت بالملك وذلك خطاب يقضى لصدرك بالانشراح ، ولأملك بالانفساح ، وتؤمر معه بمد يدك إلى العليا لابضمها إلى الجناح ، وهذه الثلاثة المشار إليها هى التى تكمل بها أقسام السيادة ، وهى التى لامزيد عليها فى الإحسان فيقال إنها الحسنى وزيادة ، فإذا صارت إليك فانصب لها يوماً يكون فى الأيام كريم الأنساب ، واجعله لها عيداً وقل هذا عيد الخلعة والتقليد والخطاب .

هذا ، ولك عند أمير المؤمنين مكانة تجعلك لديه حاضراً وأنت ناء عن الحضور ، وتضنّ أن تكون مشتركة بينك وبين غيرك والضنة من شيم الغيور ، وهذه المكانة قد عرفتك نفسها وما كنت تعرفها ، وما تقول إلا أنها لك صاحبة وأنت يوسفها ، فاحرسها عليك حراسة تقضى بتقديمها ، واعمل لها فإن الأعمال بخواتيمها .

واعلم أنك قد تقلدت أمراً تعين به نفى الحلوم ، ولا ينفك صاحبه عن عهدة الملوم ، وكثيراً ما يرى حسناته يوم القيامة وهى مقتسمة بأيدى الخصوم ، ولا ينجو من ذلك إلا من أخذ أهبة الحذار ، وأشفق من شهادة الأسماع والأبصار ، وعلم أن الولاية ميزان إحدى كفتيه فى الجنة والأخرى فى النار ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ياأبا ذر ، إنى أحبُّ لك ماأحب لنفسى ، لاتأمَّرَنَّ على اثنين ، ولا تولين مال يتيم » ، فانظر إلى هذا القول النبوى نظر من لم يخدع بحديث الحرص والآمال ، ومَثِّل الدنيا وقد سيقت إليك بحذافيرها أليس مصيرها إلى زوال ، والسعيد إذا جاءته قضى بها أرب الأرواح لا أرب الجسوم ، واتخذ منها وهى السم دواء وقد تتخذ الأدوية من السموم ، وما الاغتباط بما يختلف على تلاشيه المساء والصباح ، وهو كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، والله يعصم أمير المؤمنين وولاة أمره من تباعتها التى لابستهم ولابسوها ، وأحصاها الله عليهم ونسوها ، ولك أنت من هذا الدعاء حظ على قدر محلك من العناية التى جذبت بضبعك ، ومحلك من الولاية التى بسطت من ذرعك ، فخذ هذا الأمر الذى تقلدته أخذ من لم يتعقبه بالنسيان ، وكن فى رعايته ممن إذا نامت عيناه كان قلبه يقظان .

وملاك ذلك كله فى إسباغ العدل الذى جعله الله ثالث الحديث والكتاب ، وأغنى بثوابه وَحْدَه عن أعمال الثواب ، وقدر يومًا منه بعبادة ستين عامًا فى الحساب ، ولم يأمر به آمر إلا زيد قوة فى أمره ، وتحصن به من عدوه ومن

دهره ، ثم يجاء به يوم القيامة وفى يديه كتابا أمان ، ويجلس على منبر من نور عن يمين الرحمن ، ومع هذا فإن مركبه صعب لايستوى على ظهره إلا من أمسك عنان نفسه قبل إمساك عنانه ، وغلبت لَمَّة ملكه على لمة شيطانه ، ومن أوكد فروضه أن تمحى السنن السيئة التى طالت مدد أيامها ، ويئس الرعايا من رفع ظلاماتها فلم يجعلوا أمداً لانحسار ظلامها ، وتلك السنن هى المكوس التى أنشأتها الهمم الحقيرة ، ولا غنى للأيدى الغنية إذا كانت ذات نفوس فقيرة ، وكلما زيدت الأموال الحاصلة منها قدراً زادها الله محقاً ، وقد استمرت عليها العوائد حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الواجبة فسَمَّوْها حقاً ، ولولا أن صاحبها أعظم الناس جرمًا لما أغلظ فى عقابه ، ومثلت توبة المرأة الغامدية بمتابه ، وهل أشقى ممن يكون السواد الأعظم له خصما ، ويصبح وهو مطالب بهم بما يعلم وبما لم يُحِطْ به علماً ؛ وأنت مأمور بأن تأتى هذه الظلامات فتنتحى على أبطالها [(١)] ، وتلحق أسماءها فى المحو بأفعالها ، حتى لايبقى لها فى العيان صور منظورة ، ولا فى الألسنة أحاديث مذكورة ، فإذا فعلت ذلك كنت قد أزلت عن الماضى سنة سوء سنتها يداه ، وعن الآتى متابعة ظلم وجده نهجاً مسلوكاً فجرى على مَدَاه ، فبادر إلى ماأمرت به مبادرة من لم يضق ذِراعاً ، ونظر إلى الحياة الدنيا بعينه فرآها فى الآخرة متاعاً ، واحمد الله تعالى على أن قيض للإمام هدى يقف بك على هُدَاك ، ويأخذ بحُجْزَتك عن خطوات الشيطان الذى هو أعدى عِدَاك .

وهــذه البلاد المنوطة بطرفك تشتمل على أطراف متباعدة ، وتفتقر فى سياستها إلى أيدٍ متساعدة ، ولهذا يكثر بها قضاة الأحكام ، وأولو تدبيرات السيوف والأقلام ، وكل من هؤلاء ينبغي أن يقف على باب الاختيار ، ويسلط عليه شاهدا عدل من أمانة الدرهم والدينار ، فما أضلَّ الناس شيء كحب المال الذى فورقت من أجله الأديان ، وهجرت بسببه الأولاد والإخوان ، وكثيراً

(١) فى ا ، ب ، ج « فتنجى على أبطالها » .

مانرى الرجل الصائم القائم وهو عابد له عبادة الأوثان ، فإذا استعنت بأحد منهم على شىء من أمرك فاضرب عليه بالأرصاد ، ولا ترض بما عرفته من مبدإ حاله فإن الأحوال تنتقل مُنْتَقَلَ الأجساد ، وإياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالربيع بن زياد . وكذلك أْوُمر هؤلاء على اختلاف طبقاتهم بأن يأمروا بالمعروف مواظبين ، وينهوا عن المنكر محاسبين ، ويعلموا أن ذلك من دأب حزب الله الذين جعلهم الله الغالبين ، وليبدءوا أولا بأنفسهم فيعدلوا بها عن هواها ، ويأمروها بما يأمرون به سواها ، ولا يكونوا ممن هَدَى إلى طريق البر وهو عنه حائد ، وانتصب لطلب المرضى وهو محتاج إلى طبيب وعائد ، فما تنزل بركات السماء إلا على من خاف مقام ربه ، وألزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه ، وإذا صلحت الولاة صلحت الرعية بصلاحهم ، وهم لهم بمنزلة المصابيح ولا يستضىء كل قوم إلا بمصباحهم ، ومما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم إخواناً فى الاصطحاب ، وجيراناً فى الاقتراب ، وأعواناً فى توزع الحمل الذى يثقل على الرقاب ، فالمسلم أخو المسلم وإن كان عليه أميراً ، وأولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كثيراً ، وليست الولاية لمن يستجدُّ بها كثرة ألفيف ، ويتولاها بالوطء العنيف ، ولكنها لمن يمال على جوانبه ، ويوُ كل من أطايبه ، ولمن إذا أُغضب لم يُرَ للغضب عنده أثر ، وإذا أُلحف فى سؤاله لم يلق الإلحاف بخلق الضجر ، وإذا حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم فى قسمة القول والنظر ، فذلك الذى يكون فى أصحاب اليمين ، والذى يدعى بالحفيظ العليم والقوىّ الأمين ، ومن سعادة المرء أن تكون ولاته متأدبين بآدابه ، وجارين على نهج صوابه ، وإذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانوا حسناتٍ مثبتة فى كتابه .

وبعد هذه الوصية فإن هٰهنا حسنة هى للحسنات كالأم الولود ، ولطالما أغنت

عن صاحبها إغناء الجنود ، وتيقظت لنصره والعُيُونُ رقود ، وهى التى تسبغ لها الآلاء ، ولا يتخطاها البلاء ، ولأمير المؤمنين بها عناية تبعثها الرحمة الموضوعة فى قلبه ، والرغبة فى المغفرة لما تقدم وتأخر من ذنبه ، وتلك هى الصَّدَقَة التى فضل الله بها بعض عباده لمزية إفضالها ، وجعلها سبباً إلى التعويض عنها بعشر أمثالها ، وهو يأمرك أن تتفقد أحوال الفقراء الذين قُدِرَت عليهم مادة الأرزاق ، وألبسهم التعفف ثوب الغنى وهم فى ضيق من الإملاق ، فأولئك أولياء الله الذين مَسَّتهم الضراء فصبروا ، وكثرت الدنيا فى يد غيرهم فما نظروا إليها إذ نظروا ، وينبغى أن يهيىء لهم من أمرهم مِرْفَقاً ، ويضرب بينهم وبين الفقر مَوْبِقاً ، وما أطلنا لك القول فى هذه الوصية إلا إعلاما بأنها من المهم الذى يستقبل ولا يستدبر ، ويستكثر منه ولا يستكثر ، وهذا يعد من جهاد النفس فى بذل المال ، ويتلوه جهاد العدو الكافر فى مواقف القتال ، وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه ما تجعل السيف فى ملازمته أخا ، وتَسْخُو له بنفسك إن كان أحد بنفسه سخا ، ومن صفاته أنه العمل المحبوّ بفضل الكرامة ، الذى ينمى أجره بعد صاحبه إلى يوم القيامة ، وبه تمتحن طاعة الخالق على المخلوق ، وكل الأعمال عاطلة لا خلوق لها وهو المختص دونها برتبة الخلوق ، ولولا فضله لما كان محسوباً بشطر الإيمان ، ولما جعل الله الجنة له ثمنا وليست لغيره من الأثمان ، وقد علمت أن العدو هو جارك الأدنى ، والذى يبلغك وتبلغه عيناً وأذناً ، ولا تكون للإسلام نعم الجار حتى تكون له بئس الجار ، ولا عذر لك فى ترك جهاده بنفسك ومالك إذا قامت لغيرك الأعذار ، وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مُكافحا ، أو تطرق أرضه مماسياً أو مُصَابحا ، بل يريد أن تقصد البلاد التى فى يده قصد المستنقذ لا قصد المغير ، وأن تحكم فيها بحكم الله الذى قضاه على لسان سعد فى بنى قُرَيْظَة والنَّضير ، وعلى الخصوص البيت المقدس فإنه تلاد الإسلام القديم ، وأخو البيت الحرام فى شرف

التعظيم ، والذى توجّهَتْ إليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم ، وقد أصبح وهو يشكو طول المدة فى أسر رقبته ، وأصبحت كلمة التوحيد وهى تشكو طول الوحشة فى غربتها عنه وغربته ، فانْهَضْ إليه نَهْضَةً توغل فى قرحه ، وتُبَدِّل صَعْبَ قياده بسمحه ، وإن كان له عام حديبية فأتبعه بعام فتحه ، وهذه الاستزادة إنما تكون بعد سَدَاد ما فى اليد من ثغر كان مهملا فحميت موارده ، أو متهدمًا فرفعت قواعده ، ومن أهمها ما كان حاضر البحر فإنه عورة مكشوفة ، وخطة مخوفة ، والعدو قريب منه على بُعْدِه ، وكثيراً ما يأتيه فجأة حتى يسبق برقه برَعْده ، فينبغى أن يرتب بهذه الثغور رابطة تكثر شجاعتها وتقل أقرانها ، ويكون قتالها لأن تكون كلمة الله هى العليا لا لأن يرى مكانها ، وحينئذ يصبح كل منها وله من الرجال أسوَار ، ويعلم أهله أن بناء السيف أمنع من بناء الأحجار ، ومع هذا لا بد لها من أصطول يكثر عدده ، ويقوى مدده ، فإنه العدة التى تستعين بها على كشف الغمّاء ، والاستكثار من سبايا العبيد والإماء ، وجيشه أخو الجيش السليمانى فذاك يسير على متن الريح وهذا على متن الماء ، ومن صفات خيله أنها جمعت بين العوم والمطار ، وتساوت أقدار خلقها على اختلاف مدة الأعمار ؛ فإذا أشرعت قيل جبال متعلقة بقطع من الغيوم ، وإذا نظر إلى أشكالها قيل إنها أهلة غير أنها تهتدى فى مسيرها بالنجوم ، ومثل هذه الخيل ينبغى أن يغالى فى جيادها ، ويستكثر من قيادها ، وليؤمر عليها أمير يلقى البحر بمثله من سعة صدره ، ويسلك طرقه سلوك من لم تقتله بجهلها ولكن قتلها بخُبْره ، وكذلك فليكن ممن أفنت الأيام تجاربه وزحمتها مناكِبُهْ ، وممن يذل الصعب إذا هو ساسه وإن لان جانبه ، وهذا هو الرجل يرأس على القوم فلا يجد هزة بالرياسة ، وإن كان فى الساقة فنى الساقة أو كان فى الحراسة فنى الحراسة ، ولقد أفلحت عصابة اعتصبت من ورائه وأيقنت بالنصر من رايته كما أيقنت بالنصر من رأيه .

واعلم أنه قد أخل من الجهاد بركن يقدح فى عمله ، وهو تمامه الذى يأتى فى آخره كما أن صدق النية تأتى فى أوله ، وذلك هو قَسْم الغنائم فإن الأيدى قد تداولته بالإجحاف ، وخلطت جهادها فيه بغلوها فلم ترجع بالكَفَاف ، والله قد جعل الظلم فى تعدّى حدوده المحدودة ، وجعل الأستئثار بالمغنم من أشراط الساعة الموعودة ، ونحن نعوذ به أن يكون زماننا هذا زمانه وباسُه شرباس ، ولم يستخلفنا على حفظ أركان دينه ثم نُهْمِله إهمالَ مُضيع ولا إهمالَ ناس ، والذى نأمرك به أن تجرى هذا الأمر المنصوص من حكمه ، وتبرىء ذمتك مما يكون غيرك الفائز بفوائده وأنت المطالب بإثمه ، وفى أرزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية ما يغنيهم عن هذه الأكلة التى تكون غداً أنكالاً وجحيماً ، وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً .

فتصفح ما سطرنا لك فى هذه الأساطير التى هى عزائم مُبرَمات ، بل آيات محكمات ، وتحبب إلى الله و إلى أمير المؤمنين باقتفاء كلماتها ، وابْنِ لك منها مَجْداً يبقى فى عقبك إذا أصيبت البيوت فى أعقابها ، وهذا التقليد ينطق عليك بأنه لم يأل فى الوصايا التى أوصاها ، وأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ثم إنه قد ختم بدعوات دعا بها أمير المؤمنين عند ختامه ، وسأل فيها خيرة الله التى تتنزل من كل أمر بمنزلة نظامه ، ثم قال : اللهم إنى أشهدك على من قلدته شهادةً تكون عليه رقيبة ، وله حسيبة ، فإنى لم آمره إلا بأوامر الحق التى فيها موعظة وذكرى ، وهى لمن تبعها هدى ورحمة وبشرى ، وإذا أخذ بها بَلَجَ بحجته يوم يسأل عن الحجج ، ولم يختلج دون رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحوض فى جملة من يختلج ، وقيل لاحرج عليك ولا إثم إذ نجوت من وَرَطات الاسم والحرج ، والسلام .

وهذا الذى ذكرته من كلامى وكلام الصابى فى هذه التقاليد الأربعة لم أقصد به الْوَضْع من الرجل ، وإنما ذكرت ماذكرته لبيان موضع السجع الذى

يثبت على المحك ، ولا شك أن هذا الوصف المشار إليه فى فقر الأسجاع لم يكن مقصوداً فى الزمن القديم ، إما لمكان عسره ، أو لأنه لم يتنبه له ، وكيف أضع من الصابى وعلم الكتابة قد رفعه وهو إمام هذا الفن والواحد فيه ؟ ولقد اعتبرت مكاتباته فوجدته قد أجاد فى السلطانيات كل الإجادة ، وأحسن كل الإحسان ، ولولم يكن له سوى كتابه الذى كتبه عن عز الدولة بختيار بن بويه إلى سبكتكين عند خروجه عليه ومجاهرته إياه بالعصيان لاستحق بِهِ فضيلة التقدم ، كيف وله من السلطانيات ما أتى فيه بكل عجيبة ؟ لكنه فى الإخوانيات مُقَصِّر وكذلك فى كتب التعازى .

وعندى فيه رأى لم يره أحد غيرى ، ولى فيه قول لم يقله أحد سواى ، وذاك أن عقل الرجل فى كتابته زائد على فصاحته وبلاغته ، وسأبين ذلك فأقول : لينظر الناظر فى هذين التقليدين اللذين أوردتهما له ، فإنه يرى وصايا وشروطا واستدراكات ، وأوامر مابين أصل وفرع وكل وجزء وقليل وكثير ، ولا نرى ذلك فى كلام غيره من الكتاب ، إلا أنه عَبَّرَ عن تلك الوصايا والأوامر والشروط والاستدراكات بعبارة فى بعضها ما فيه من الضعف والركة ، وقد قيل : إن زيادة العلم عَلَى المنطق هجنة ، وزيادة المنطق على العلم خدعة ، ومع هذا فإنى أُقِرُّ للرجل بالتقدم ، وأشهد له بالفضل .

وإذ فرغت مما أردت تحقيقه فى هذا الموضع ، فانى أرجع إلى ما كنت بصدد ذكره من الكلام على السجع ، وقد تقدم من ذلك ماتقدم ، وبقى ما أنا ذاكر ههنا . وهو أن السجع قد ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : أن يكون الفصلان متساويين لا يزيد أحدهما على الآخر ، كقوله تعالى : (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) وقوله تعالى : (وَالْعَادِيَاتِ

ضَبْحًا ، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) ألا ترى كيف جاءت هذه الفصول متساوية الأجزاء حتى كأنها أفرغت فى قالب واحد ، وأمثال ذلك فى القرآن الكريم كثيرة ، وهو أشرف السجع منزلة ؛ للاعتدال الذى فيه .

القسم الثانى : أن يكون الفصل الثانى أطول من الأول ، لاطولا يخرج به عن الاعتدال خروجاً كثيراً ؛ فإنه يقبح عند ذلك ويستكره ويعد عيباً .

فمما جاء من ذلك قوله تعالى : (بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ؛ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ، وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) ألا ترى أن الفصل الأول ثمان لفظات ، والفصل الثانى والثالث تسع تسع .

ومن ذلك قوله تعالى فى سورة مريم : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ، تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا) وأمثال هذا فى القرآن كثيرة .

ويستثنى من هذا القسم ما كان من السجع على ثلاثة فِقَرٍ ؛ فإن الفقرتين الأوليين يُحْسَبان فى عدة واحدة ، ثم باقى الثلاثة فينبغى أن تكون طويلة طولا يزيد عليهما ؛ فإذا كانت الأولى والثانية أربع لفظات أربع لفظات تكون الثالثة عشر لفظات أو إحدى عشرة .

مثال ذلك ماذكرته فى وصف صديق فقلت : الصديق من لم يَعْتَضْ عنك بخالف ، ولم يُعَامِلك معاملة حَالِف ، وإذا بَلَّغته أذنه وِشَايَةً أقام عليها حد سارق أو قاذف ؛ فالأولى والثانية ههنا أربع لفظات أربع لفظات لأن الأولى «لم يعتض عنك بخالف» والثانية «ولم يعاملك معاملة حالف» وجاءت الثالثة عشر لفظات ؛ وهكذا ينبغى أن يستعمل ما كان من هذا القبيل ؛ وإن زادت الأولى والثانية

عن هذه العدة فتزاد الثالثة بالحساب ، وكذلك إذا نقصت الأولى والثانية عن هذه العدة ، فافهم ذلك وقس عليه .

إلا أنه لاينبغى أن تجعله قياساً مطرداً فى السجعات الثلاث أين وقعت من الكلام ، بل تعلم أن الجواز يعم الجانبين من التساوى فى السجعات الثلاث ومن زيادة السجعة الثالثة ، ألا ترى أنه قد ورد ثلاث سجعات متساويات فى القرآن الكريم ، كقوله تعالى : (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ، فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ، وَظِلٍّ مَمْدُودٍ) فهذه السجعات كلها من لفظتين لفظتين ، ولو جعلت الثالثة منها خمس لفظات أو ستا لما كان ذلك معيبها .

القسم الثالث : أن يكون الفصل الآخر أقصر من الأول ، وهو عندى عيب فاحش ، وسبب ذلك أن السجع يكون قد استوفى أمده من الفصل الأول بحكم طوله ، ثم يجىء الفصل الثانى قصيرا عن الأول ، فيكون كالشىء المبتور ؛ فيبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها .

وإذ انتهينا إلى ههنا وَبَيَّنَّا أقسام السجع ولُبَّه وقُشُوره فسنقول فيه قولا كُلِّيًّا ، وهو أن السجع على اختلاف أقسامه ضربان :

أحدهما : يسمى السجع القصير ، وهو أن تكون كل واحدة من السجعتين مؤلفة من ألفاظ قليلة ، وكلما قلت الألفاظ كان أحسن ، لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع ، وهذا الضرب أوعر السجع مذهباً ، وأبعده مُتَناوَلا ، ولا يكاد استعماله يقع إلا نادراً .

والضرب الآخر : يسمى السجع الطويل ، وهو ضد الأول ؛ لأنه أسهل مُتَناوَلا .

وإنما كان القصير من السجع أوعر مسلكا من الطويل لأن المعنى إذا صيغ بألفاظ قصيرة عَزَّ مُوَاتاة السجع فيه ؛ لقصر تلك الألفاظ ، وضيق المجال

فى استجلابه ، وأما الطويل فإن الألفاظ تطول فيه ويستجاب له السجع من حيث وليس ، كما يقال ، وكان ذلك سهلا .

وكل واحد من هذين الضربين تتفاوت درجاته فى عدة ألفاظ .

أما السجع القصير فأحسنه ما كان مؤلفاً من لفظتين لفظتين ، كقوله تعالى : (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ، فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا) وقوله تعالى : (يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) ، ومنه ما يكون مؤلفاً من ثلاثة ألفاظ وأربعة وخمسة ، وكذلك إلى العشرة .

وما زاد على ذلك فهو من السجع الطويل .

فما جاء منه قوله تعالى : (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ، مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) وقوله تعالى : (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ، وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ، وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ) .

وأما السجع الطويل فإن درجاته تتفاوت أيضاً فى الطول ؛ فمنه مايقرب من السجع القصير ، وهو أن يكون تأليفه من إحدى عشرة إلى اثنتى عشرة لفظة ، وأكثره خمس عشرة لفظة ؛

كقوله تعالى : (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ، وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ) فالأولى إحدى عشرة لفظة ، والثانية ثلاث عشرة لفظة

وكذلك قوله تعالى : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) .

ومن السجع الطويل ما يكون تأليفه من العشرين لفظة فما حولها ؛ كقوله تعالى : (إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) .

ومن السجع الطويل أيضا مايزيد على هذه العدة المذكورة ، وهو غير مضبوط .

واعلم أن التصريع فى الشعر بمنزلة السجع فى الفصلين من الكلام المنثور ، وفائدته فى الشعر أنه قبل كمال البيت الأول من القصيدة تعلم قافيتها ، وشبه البيت الْمُصَرَّع بباب له مصراعان متشاكلان .

وقد فعل ذلك القدماء والمحدثون ، وفيه دلالة على سعة القدرة فى أفانين الكلام ؛ فأما إذا كثر التصريع فى القصيدة فلستُ أراه مختاراً ؛ إلا أنّ هذه الأصناف من التصريع والترصيع والتجنيس وغيرها إنما يحسن منها فى الكلام ماقلّ وجرى مَجْرَى الغُرّة من الوجه ، أو كان كالطراز من الثوب ، فأما إذاتواترت وكثرت فإنها لا تكون مرضية ؛ لما فيها من أمارات الكلفة وهو عندى ينقسم إلى سبع مراتب ، وذلك شىء لم يذكره على هذا الوجه أحد غيرى :

فالمرتبة الأولى ـ وهى أعلى التصريع درجة ـ أن يكون كل مصراع من البيت مستقلاً بنفسه فى فهم معناه غير محتاج إلى صاحبه الذى يليه ، ويسمى التصريع الكامل ، وذلك كقول امرئ القيس (١) :

---

(١) هو بيت من معلقته المعروفة التى أولها «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» وسيأتى هذا المطلع بعد هذا البيت ، وقد استعمل امرؤ القيس التصريع كثيرا فى أوائل قصائده وفى أثنائها .

أفاطِمَ مهْلاً بَعْضَ هٰـــذَا التَّدَلُّلِ   وَإنْ كُنْتِ قدْ أزْمَعْتِ هَجْراً فَأجْمِلِي

فإن كل مصراع من هذا البيت مفهوم المعنى بنفسه غير محتاج إلى مايليه .

وعليه ورد قول المتنبي (١) :

إذَا كَانَ مَدْحٌ فَالنَّسِـيبُ الْمُقَدَّمُ   أ كُلُّ فَصِيحٍ قالَ شِـــعْراً مُتَيَّمُ

المرتبة الثانية : أن يكون المصراع الأول مستقلاً بنفسه غير محتاج إلى الذى يليه ، فإذا جاء الذى يليه كان مرتبطاً به ، كقول امرئ القيس (٢) :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ   بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فالمصراع الأول غير محتاج إلى الثانى فى فهم معناه ، لـكن لما جاء الثانى صار مرتبطاً به .

وكذلك ورد قول أبى تمام (٣) :

ألَمْ يَأنِ أنْ تُرْوَى الظِّمَاءُ الْحَوَائِمُ   وَأنْ يَنْظِمَ الشَّـمْلَ الْمبَدَّدَ نَاظِمُ

وعليه ورد قول المتنبي (٤) :

الرَّأْىُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ   هُوَ أوَّلٌ وَهِيَ الَمحَـــلُّ الثَّانِي

المرتبة الثالثة : أن يكون الشاعر مخيراً فى وضع كل مصراع موضع صاحبه ، ويسمى التصريع الموجه ، وذلك كقول ابن الحجاج البغدادى :

---

(١) هو مطلع قصيدة من مدائحه فى سيف الدولة .

(٢) هذا مطلع القصيدة المعلقة التى تقدم بيت منها .

(٣) هذا مطلع قصيدة يمدح فيها أحمد بن أبى دواد ، و يقول فيها :

إلَى أحْمَدَ الَمحْمُودِ أمَّتْ بِنَا السُّرَى   نَوَاعِبُ فِي عُرْضِ الْفَـــلاَ وَرَوَاسِمُ

(٤) هو مطلع قصيدة من مدائحه فى سيف الدولة ، و بعده قوله :

فَإذَا هُما اجْتَمَعَـــا لِنَفْسٍ مِرَّةٍ   بَلَغَتْ مِنَ الْعَلْيَاءِ كُلَّ مَكَانِ

مِنْ شُرُوطِ الصَّبُوحِ فى الْمِهْرَجَانِ   خِفَّةُ الشُّرْبِ مَعْ خُلُوِّ الْمَكَانِ

فإن هذا البيت يجعل مصراعه الأول ثانياً ومصراعه الثانى أولا ؛ وهذه المرتبة كالثانية فى الجودة .

المرتبة الرابعة : أن يكون المصراع الأول غير مستقل بنفسه ، ولا يفهم معناه إلا بالثانى ، ويسمى التصريع الناقص ، وليس بمرضى ولا حسن .

فمما ورد منه قول المتنبى (١) :

مَغَانِى الشِّعْبِ طِيباً فِى الْمَغَانِى   بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

فإن المصراع الأول لايستقل بنفسه فى فهم معناه دون أن يذكر المصراع الثانى .

المرتبة الخامسة : أن يكون التصريع فى البيت بلفظة واحدة وسطاً وقافية ، ويسمى التصريع المكرر ، وهو ينقسم قسمين : أحدهما : أقرب حالا من الآخر ، فالأول أن يكون بلفظة حقيقية لا مجاز فيها ، وهو أنزل الدرجتين ؛ كقول عبيد بن الأبرص (٢) :

فَكُلُّ ذِى غَيْبَةٍ يَئُوبُ   وَغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يَئُوبُ

---

(١) هو مطلع قصيدة يمدح فيها عضد الدولة وولديه أبا الفوارس وأبا دلف ، ويصف فيها شعب بوان و بعده قوله :

وَلٰكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِىَّ فِيهَا   غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ

مَلَاعِبُ جِنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا   سُلَيْمَانٌ لَسَارَ بِتَرْجُمَانِ

(٢) هو من أثناء قصيدة له تعتبر من المطولات المسماة بالمعلقات ، وذلك عند من يعدها عشرا ، وأولها :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ   فَالْقُطَبِيَّاتُ فَالذَّنُوبُ

القسم الآخر : أن يكون التصريع بلفظة مجازية يختلف المعنى فيها ؛ كقول أبى تمام (١) :

فَتًى كَانَ شِرْبًا لِلْعُفَاةِ وَمَرْتَعًا ... فَأَصْبَحَ لِلْهِنْدِيَّةِ الْبِيضِ مَرْتَعَا

المرتبة السادسة : أن يذكر المصراع الأول ويكون معلقاً على صفة يأتى ذكرها فى أول المصراع الثانى ، ويسمى التصريع المعلّق ؛ فما ورد منه قول امرىء القيس (٢) :

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي ... بِصُبْحٍ وَمَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

فإن المصراع الأول معلق على قوله « بصبح » ؛ وهذا معيب جداً .

وعليه ورد قول المتنبي (٣) :

قَدْ عَلَّمَ الْبَيْنُ مِنَّا الْبَيْنَ أَجْفَانَا ... تَدْمَى وَأَلَّفَ فِى ذَا الْقَلْبِ أَحْزَانَا

فإن المصراع الأول معلق على قوله « تدمى » .

المرتبة السابعة : أن يكون التصريع فى البيت مخالفاً لقافيته ، ويسمى التصريع المشطور ، وهو أنزل درجات التصريع وأقبحها .

فمن ذلك قول أبى نواس :

أَقِلْنِى قَدْ نَدِمْتُ عَلَى الذُّنُوبِ ... وَبِالْإِقْرَارِ عُذْتُ عَنِ الْجُحُودِ

---

(١) هو من أثناء قصيدة له يرثى فيها أبا نصر محمد بن حميد الطائى ، وأولها قوله :

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِى وَإِنْ كَانَ أَسْمَعَا ... وَأَصْبَحَ مَغْنَى الْجُودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا

(٢) هو من أثناء طويلته المعلقة وقد تقدم مطلعها و بيت منها قريبا .

(٣) هذا مطلع قصيدة له يمدح فيها أبا سهل سعيد بن عبد الله ، والبين : الفراق والبعد ، والأجفان : جمع جفن ، و « تدمى » فى محل نصب صفة لأجفانا ، كأنه قال : أجفانا دامية ، وذهب الخطيب إلى أن تدمى على حذف أن المصدرية فيكون مفعولا ثانيا لعلم : أى علم أجفاننا أن تدمى .

فصرع بحرف الباء فى وسط البيت ، ثم قفاه بحرف الدال ، وهذا لا يكاد يستعمل إلا قليلا نادراً .

النوع الثانى : فى التجنيس ؛ اعلم أن التجنيس غُرَّة شادخة فى وجه الكلام ، وقد تصرَّف العلماء من أرباب هذه الصناعة فيه فغرَّبوا وشرَّقوا ، لاسيما المحدثين منهم ، وصنف الناس فيه كتباً كثيرة ، وجعلوه أبوابا متعددة ، واختلفوا فى ذلك ، وأدخلوا بعض تلك الأبواب فى بعض ؛ فمنهم عبد الله بن المعتز ، وأبو على الحاتمى ، والقاضى أبو الحسين الْجُرْجَانى ، وقُدَامة بن جعفر الكاتب ، وغيرهم .

وإنما سمى هذا النوع من الكلام مجانساً لأن حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد .

وحقيقته أن يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً ، وعلى هذا فإنه هو : اللفظ المشترك ، وما عداه فليس من التجنيس الحقيقى فى شىء ، إلا أنه قد خرج من ذلك ما يسمى تجنيساً ، وتلك تسمية بالمشابهة ، لا لأنها دالة على حقيقة المسمى بعينه .

وعلى هذا فإنى نظرت فى التجنيس وما شُبِّه به فأجرى مجراه فوجدته ينقسم إلى سبعة أقسام : واحد منها يدل على حقيقة التجنيس ؛ لأن لفظه واحد لا يختلف ، وستة أقسام مشبهة .

فأما القسم الأول فهو أن تتساوى حروف ألفاظه فى تركيبها ووزنها ، كقوله تعالى (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) وليس فى القرآن الكريم سوى هذه الآية ، فاعرفها ، ويروى فى الأخبار النبوية أن الصحابة نازعوا جرير بن عبد الله البجلى زمامه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خَلُّوا بَيْنَ جَرِيرٍ وَالْجَرِيرِ » أى : دعوا زِمَامه .

ومما جاء منه فى الشعر قول أبى تمام (١) :

فأَصْبَحَتْ غُرَرُ الأَيَّامِ مُشْرِقَةً   بِالنَّصْرِ تَضْحَكُ عَنْ أَيَّامِكَ الْغُرَرِ

فالغرر الأولى استعارة من غرر الوجه ، والغرر الثانية مأخوذة من غرة الشىء أكرمه ؛ فاللفظ إذاً واحد والمعنى مختلف .

وكذلك قوله (٢) :

مِنَ الْقَوْمِ جَعْدٌ أَبْيَضُ الْوَجْهِ وَالنَّدَى   وَلَيْسَ بَنَانٌ يُجْتَدَى مِنْهُ بِالْجَعْدِ

فالجعد : السيد ، والبنان الجعد : ضد السَّبْط ؛ فأحدهما يوصف به السخى ، والآخر يوصف به البخيل .

وكذلك قوله (٣) :

بِكُلِّ فَتًى ضَرْبٍ يُعَرِّضُ لِلْقَنَا   مُحَيًّا مُحَلًّى حَلْيُهُ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ

فالضَّرْب : الرجل الخفيف ، والضَّرْب بالسيف فى الحرب .

وكذلك قوله (٤) :

---

(١) لم أجد هذا البيت فى ديوان أبى تمام ، ولا فى أخباره التى ألفها الصولى ، ولا فى مختار شعره للجرجانى :

(٢) من قصيدة له يمدح فيها حفص بن عمر الأزدى ، ومطلعها قوله :

عَفَتْ أَرْبُعُ الْحَلَّاتِ لِلْأَرْبُعِ الْمُلْدِ   لِكُلِّ هَضِيمِ الْكَشْحِ مَجْدُولَةِ الْقَدِّ

وانظر الديوان (١٣٠ بيروت) .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، وأولها قوله :

لَقَدْ أَخَذَتْ مِنْ دَارِ مَاوِيَّةَ الْحُقْبُ   أَنُحْلُ الْمَغَانِى لِلْبِلَى هِىَ أَمْ نَهْبُ

وانظر الديوان (ص ٣٠ بيروت) .

(٤) من قصيدته التى يمدح فيها المعتصم ويهنئه بفتح عمورية ، والتى أولها :

السيف أصدق أنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

وعداك : صرفك ، والثغور الثانية : مواضع المخافة فى البلاد ، والثغور الأولى : جمع

عَدَاكَ حَرُّ الثُّغُورِ الْمُسْتَضَامَةِ عَنْ بَرْدِ الثُّغُورِ وَعَنْ سَلْسَالِهَا الْخَصِبِ

فالثغور : جمع ثغر ، وهو واحد الأسنان ، وهو أيضاً البَلَد الذى على تخوم العدو .

ثم قال فى هذه القصيدة :

كَمْ أَحْرَزَتْ قُضُبُ الهِنْدِىِّ مُصْلَتَةً تَهْتَزُّ مِنْ قُضُبٍ تَهْتَزُّ فى كُثُبِ

بِيضٌ إذَا انْتُضِيَتْ مِنْ حُجْبِهَا رَجَعَتْ أَحَقَّ بِالْبِيضِ أَبْدَانًا مِنَ الْحُجُبِ

فالقُضُب : السيوف ، والقُضُب : القدود على حكم الاستعارة ، وكذلك البيض : السيوف ، والبيض : النساء ، وهذا من النادر الذى لايتعلق به أحد .

وكذلك قوله (١) :

إذَا الْخَيْلُ جَابَتْ قَسْطَلَ الْحَرْبِ صَدَّعُوا صُدُورَ الْعَوَالِى فى صُدُورِ الْكَتَائِبِ

فلفظ الصدور فى هذا البيت واحد ، والمعنى مختلف .

وكذلك قوله (٢) :

عَامِى وَعَامُ الْعِيسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ مَسْجُورَةٍ وَتَنُوفَةٍ صَيْهُودِ (٣)

ثغر ، وهو الفم ، والخصب : وقع فى بعض نسخ الديوان بالخاء المعجمة ، وفى بعضها بالحاء المهملة ، وفسرت تفسيرا بعيدا .

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى ، وأولها قوله :

عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلَاعِبِ تُذَالُ مَصُونَاتُ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا عبد الله أحمد بن أبى دواد ، وأولها قوله :

أَرَأَيْتَ أَىَّ سَوَالِفٍ وَخُدُودِ عَنَّتْ لَنَا بَيْنَ اللِّوَى فَزَرُودِ

(٣) الوديقة : شدة الحر ، ومسجورة : متقدة ، والتنوفة : الفلاة البعيدة الأطراف . وصيهود — بالهاء — الفلاة التى لاينال ماؤها . وفى بعض نسخ الديوان « صيخود » بالخاء المعجمة — وهى المحماة كثيرا من شدة الحر .

حَتَّى أُغَادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِالْفَلَا لِلطَّيْرِ عِيداً مِنْ بَنَاتِ الْعِيدِ (١)

فالعيد : فحل من فحول الإبل ، والعيد : اليوم المعروف من الأيام .

وقد أكثر أبو تمام من التجنيس فى شعره ؛ فنه ما أغرب فيه فأحسن ؛ كالذى ذكرته ، ومنه ماأتى به كريها مستثقلا ، كقوله (٢) :

وَيَوْمَ أَرْشَقَ وَالهَيْجَاءُ قَدْ رَشَقَتْ مِنَ الْمَنِيَّةِ رَشْقاً وَابِلا قَصِفاً (٣)

وكقوله (٤) :

يَا مُضْغِناً خَالِداً لَكَ الثُّكْلُ إِنْ خَلَّدَ حِقْداً عَلَيْكَ فِى خَلَدِهْ (٥)

وكقوله (٦) :

---

(١) أغادر : أترك . عيدا : يعنى به وليمة ، وبنات العيد : النوق المنسوبة إلى عيد ، وهو فحل منجب .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى ، وأولها قوله :

أَمَّا الرُّسُومُ فَقَدْ أَذْكَرْنَ مَاسَلَفَا فَلَا تَكُفَّنَّ عَنْ شَأْنَيْكَ أَوْ يَكِفَا

(٣) أرشق : اسم موضع وقعت فيه واقعة مشهورة ضد بابك . ورشق السهم : رماه . والوابل: المطر الغزير . وقصفا : شديدا كقصف الرعد ، يريد أنه رشق سهامه على العدو فى هذه الواقعة كوابل المطر .

(٤) من قصيدة له يمدح فيها خالد بن يزيد الشيبانى ، وأولها قوله :

مَالِكَثِيبِ الْحِمَى إِلَى عَقَدِهْ مَابَالُ جَرْعَائِهِ إِلَى جَرَدِهْ

والكثيب : ما ارتفع من الرمل ، والعقد : الرمل المنعقد ، والجرعاء : الأرض فيها انبساط ، والجرد : السهل .

(٥) المضغن : الحاقد ؛ والثكل : الفقد ، والخلد ـ بفتح الخاء واللام ـ النفس والقلب .

(٦) من قصيدة له يمدح فيا أبا سعيد محمد بن يوسف الطائى ، وأولها قوله :

يَا بُعْدَ غَايَةِ دَمْعِ الْعَيْنِ إِنْ بَعُدُوا هِىَ الصَّبَابَةُ طُولَ الدَّهْرِ وَالسُّهُدُ

وَأَهْلُ مُوقَانَ إِذْ مَاقُوا فَلَا وَزَرٌ   أَنْجَاهُمُ مِنْكَ فى الْهَيْجَا وَلَا سَنَدُ (١)

وكقوله (٢) :

مَهْلًا بَنِى مَالِكٍ لَا تَجْلُبُنَّ إِلَى   حَىِّ الْأَرَاقِمِ دُؤْلُولَ ابْنَةِ الرَّقَمِ (٣)

ثم قال فيها :

مِنَ الرُّدَيْنِيَّةِ اللَّائى إِذَا عَسَلَتْ   تُشِمُّ بَوَّ الصَّغَارِ الْأَنْفَ ذَا الشَّمَمِ (٤)

وكقوله (٥) :

قَرَّتْ بِقُرَّانَ عَيْنُ الدِّينِ وَاشْتَتَرَتْ   بِالْأَشْتَرَيْنِ عُيُونُ الشِّرْكِ فَاصْطُلِمَا (٦)

وله من هذا الغث البارد المتكلف شيء كثير لاحاجة إلى استقصائه ، بل قد أوردنا منه قليلا يستدلّ به على أمثاله .

ومن الحسن فى هذا الباب قول أبى نُوَاس :

---

(١) ماقوا : حمقوا وجهلوا ، والوزر : الملجأ والحصن ، والهيجاء : الحرب .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها مالك بن طوق ، وأولها قوله :

سَلِّمْ عَلَى الرَّبْعِ مِنْ سَلْمَى بِذِى سَلَمٍ   عَلَيْهِ وَسْمٌ مِنَ الْأَيَّامِ وَالْقِدَمِ

(٣) وقع هذا البيت فى ا ، ب ، ج محرفا غاية فى التحريف ؛ فقد جاء فيها هكذا :

مَهْلًا بَنِى مالِكٍ لاتحلثن إلى   حَىِّ الْأَرَاقِمِ دؤلول الله الرقم

والأراقم : من بنى تغلب ، والدؤلول والرقم : من أسماء الداهية .

(٤) الردينية : الرماح ، منسوبة إلى ردينة . ووقع فى ا ، ب ، ج «إن الردينية» وما أثبتناه عن الديوان . وعسلت : اشتد اهتزازها . والبو : ولد الناقة ، أو جلده يحشى تبنا ثم يقرب من أمه لتدر عليه . والشمم : ارتفاع قصبة الأنف ، وهو من علامة العظمة عندهم .

(٥) من قصيدة له يمدح فيها إسحاق بن إبراهيم المصعبى ، وأولها قوله :

أَصْغَى إِلَى الْبَيْنِ مُغْتَرًّا فَلَا جَرَمَا   إِنَّ النَّوَى أَسْأَرَتْ فِى عَقْلِهِ لَمَمَا

(٦) قران : اسم مكان . واشترت : انشقت . واصطلم : قطع من أصله .

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إذَا احْتَدَمَ الْوَغَى وَالْفَضْلُ فَضْلٌ وَالرَّبِيعُ رَبِيعُ

وكذلك قوله :

فَقُلْ لِأَبِى الْعَبَّاسِ إنْ كُنْتُ مُذْنِبًا فَأَنْتَ أَحَقُّ النَّاسِ بِالْأَخْذِ بِالْفَضْلِ
فَلَا تَجْحَدُونِى وُدَّ عِشْرِينَ حِجَّةً وَلَا تُفْسِدُوا مَا كَانَ مِنْكُمْ مِنَ الْفَضْلِ

وعلى هذا النهج ورد قول البحترى (١) :

إذَا الْعَيْنُ رَاحَتْ وَهْىَ عَيْنٌ عَلَى الْهَوَى فَلَيْسَ بِسِرٍّ مَا تُسِرُّ الْأَضَالِعُ

فالعين : الجاسوس ؛ والعين : معروفة .

وكذلك ورد قول بعضهم :

وَتَرَى سَوَابِقَ دَمْعِهَا فَتَوًا كَفَتْ سَاق تجاوب فَوْقَ سَاقٍ سَاقَا

فالساق : ساق الشجرة ، والساق : القمرى من الطيور .

وعلى هذا الأسلوب جاء قول بعض المتأخرين ، وهو الشاعر المعروف بالْمَعَرِّى فى قصيدة قصد بها التجنيس فى كثير من أبياتها ، فمن ذلك ماأورده فى مطلعها :

لَوْ زَارَنَا طَيْفُ ذَاتِ الْخَالِ أَحْيَانَا وَنَحْنُ فِى حُفَرِ الْأَجْدَاثِ أَحْيَانَا

ثم قال فى أبياتها :

تَقُولُ : أَنْتَ امْرُؤٌ جَافٍ مُغَالَطَةً فَقُلْتُ : لَاهُوِّمَتْ أَجْفَانُ أَجْفَانَا (٢)

وكذا قال فى آخرها :

لَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ إنْسَانًا يُلَاذُ بِهِ فَلَا بَرِحْتَ لِعَيْنِ الدَّهْرِ إنْسَانَا

ورأيت الغانمى قد ذكر فى كتابه بابا ، وسماه « رد الأعجاز على الصدور »

(١) من قصيدة له يمدح فيها الفتح بن خاقان ، وأولها قوله :

أَلَمَّتْ ، وَهَلْ إلْمَامُهَا لَكَ نَافِعُ ؟ وَزَارَتْ خَيَالًا وَالْعُيُونُ هَوَاجِعُ

(٢) الأجفان : جمع جفن العين . و « أجفانا » هو أفعل تفضيل من الجفاء مضاف إلى « نا » .

خارجاً عن باب التجنيس ، وهو ضرب منه ، وقسم من جملة أقسامه ، كالذى نحن بصدد ذكره هٰهنا ، فما أورده الغانمى من الأمثلة فى ذلك قول بعضهم :

وَنَشْرِى بجَمِيلِ الصُّنْعِ ذِكْراً طَيِّبَ النَّشْرِ
وَنَفْرِى بِسُيُوفِ الْهِنْدِ مَنْ أَسْرَفَ فِى النَّفْرِ
وَبجْرِى فِى شَرَى الْحَمْدِ عَلَى شَاكِلَةِ الْبَحْرِ

وكذلك قول بعضهم فى الشيب :

يَا بَيَاضاً أَذْرَى دُمُوعِىَ حَتَّى عَادَ مِنْهَا سَوَادُ عَيْنِى بَيَاضَا

وكذلك قول البحترى :

وَأَغَرَّ فِى الزَّمَنِ الْبَهِيمِ مُحَجَّلٍ قَدْ رُحْتُ مِنْهُ عَلَى أَغَرَّ مُحَجَّلِ
كَالْهَيْكَلِ الْمَبْنِىِّ إِلاَّ أَنَّهُ فِى الْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِى هَيْكَلِ

وليس الأخذ على المعانى فى ذلك مناقشة على الأسماء ، وإنما المناقشة على أن ينصب نفسه لإيراد علم البيان وتفصيل أبوابه ، ويكون أحد الأبواب التى[١] ذكرناها داخلاً فى الآخر ؛ فيذهب عليه ذلك ، ويخفى عنه ، وهو أشهر من فلق الصباح .

وربما جهل بعض الناس فأدخل فى التجنيس ماليس منه ؛ نظراً إلى مساواة اللفظ دون اختلاف المعنى ؛ فمن ذلك قول أبى تمام[٢] :

أَظُنُّ الدَّمْعَ فِى خَدِّى سَيُبْقِى رُسُوماً مِنْ بُكَائِى فِى الرُّسُومِ

وهذا ليس من التجنيس فى شىء ؛ إذ حَدُّ التجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف

(١) ورد فى ب ، ج «الذى ذكرناها» وهو تحريف .
(٢) من قصيدة له يمدح فيها بعض بنى عبد الكريم الطائيين ، وأولها قوله :

أَرَامَةُ ، كُنْتِ مَأْلَفَ كُلِّ رِيمِ لَوِ اسْتَمْتَعْتِ بِالْأُنْسِ الْمُقِيمِ

المعنى ، وهذا البيت المشار إليه هو اتفاق اللفظ والمعنى معاً ، وهذا مما ينبغى أن ينبه عليه ليعرف .

ومن علماء البيان من جعل له اسما سَمَّاه به ، وهو الترديد : أى أن اللفظة الواحدة رُدِّدَت فيه .

وحيث نبهت عليه ههنا فلا أحتاج أن أعقد له بابا أفرده بالذكر فيه .

وأما الأقسام الستة المشبهة بالتجنيس؛ فالقسم الأول منها: أن تكون الحروف متساوية فى تركيبها مختلفة فى وزنها ، فما جاء من ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : « اَللّٰهُمَّ كما حَسَّنْتَ خَلْقِي حَسِّنْ خُلُقِي » ألا ترى أن هاتين اللفظتين متساويتان فى التركيب ، مختلفتان فى الوزن ؛ لأن تركيب الْخَلْق والخُلُق من ثلاثة أحرف ، وهى الخاء واللام والقاف ، إلا أنهما قد اختلفا فى الوزن ، إذ وزن الْخَلْق فَعْلٌ بفتح الفاء ، ووزن الخُلُق فعل بضم الفاء .

ومن هذا القسم قول بعضهم : « لاَتُنَالُ غُرَرُ الْمَعَالِي إلاَّ بِرُكُوبِ الْغَرَرِ وَاهْتِبَالِ الغرر » .

وقال البحترى[1] :

وَفَرَّ الْحَائِنُ الْمَغْرُورُ يَرْجُو ... أَمَاناً أَىُّ سَاعَةِ مَا أَمَانِ[2]

يَهَابُ الإِلْتِفَاتَ وَقَدْ تَهَيَّا ... لِلَحْظَةِ طَرْفِهِ طَرَفُ السِّنَانِ[3]

وكذلك ورد قول الآخر :

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها الهيثم الغنوى ، وأولها قوله :

رُوَيْدَكَ ؛ إنَّ شَأْنَكَ غَيْرُ شانِي ... وَقَصْرُكَ لَسْتُ طَاعَةَ مَنْ نَهَانِي

(٢) فى ا ، ب ، ج «الخائن» بالخاء المعجمة ، وصوابه «الحائن» بالحاء المهملة ، وهو كذلك فى الديوان ، والحائن : الذى قرب حينه ، وهو الموت .

(٣) قطع همزة الوصل فى « الالتفات » حين اضطر لاقامة الوزن .

قَدْ ذُبْتُ بَيْنَ حُشَاشَةٍ وذَمَاءِ ... مَا بَيْنَ حَرِّ هَوًى وَحَرِّ هَوَاءِ

القسم الثانى من المشبه بالتجنيس، وهو أن تكون الألفاظ متساوية فى الوزن مختلفة فى التركيب بحرف واحد لاغير، وإن زاد على ذلك خرج من باب التجنيس.

فمما جاء منه قوله تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) فإن هاتين اللفظتين على وزن واحد؛ إلا أن تركيبهما مختلف فى حرف واحد، وكذلك قوله تعالى: (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) وكذلك قوله تعالى: (ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ).

وعلى نحو من هذا ورد قول النبى صلى الله عليه وسلم: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ» وقال بعضهم: لَاتُنَالُ الْمَكَارِمُ إِلَّا بِالْمَكَارِهِ.

وقال أبو تمام (١):

يَمُدُّونَ مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ ... تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ (٢)

وقال البحترى (٣):

مِنْ كُلِّ سَاجِى الطَّرْفِ أَغْيَدَ أَجْيَدٍ ... وَمُهَفْهَفِ الْكَشْحَيْنِ أَحْوَى أَحْوَرِ (٤)

---

(١) من قصيدته التى يمدح فيها أبا دلف العجلى، والتى أولها:

عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلَاعِبِ ... تُذَالُ مَصُونَاتُ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ

وقد تقدم بيت منها قريبا (انظر ص ٢٤٨).

(٢) فى ب، ج «قواض قواضم» وهو تحريف؛ فقد عرفت أن القصيدة بائية، وانظر الديوان (ص ٤٣ بيروت)، وقد ورد فى ا على الصواب.

(٣) هو ثانى بيت فى قصيدة له يمدح فيها المتوكل على الله، ومطلعها قوله:

إِنَّ الظِّبَاءَ غَدَاةَ سَفْحِ مُحَجَّرٍ ... هَيَّجْنَ حَرَّ جَوًى وَفَرْطَ تَذَكُّرِ

(٤) فى ا، ب، ج «أغيد أحيد» بالحاء المهملة، والصواب «أغيد أجيد» بالجيم.

وكذلك قوله(١) :

شَـوَاجِرُ أَرْمَاحٍ تُقَطِّعُ بَيْنَهُمْ   شَـوَاجِنَ أَرْحامٍ مَلُومٍ قَطُوعُهَا

القسم الثالث من المشبه بالتجنيس ، وهو أن تكون الألفاظ مختلفة فى الوزن والتركيب بحرف واحد ، كقوله تعالى : (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ) وقوله تعالى : (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) وكذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ » .

ودخل ثعلب صاحب كتاب الفصيح على أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، ومجلسه غَاصٌّ ، فجلس إلى جانبه ، ثم أقبل عليه ، وقال : أخاف أن أكون ضَيَّقْتُ عليك ، عَلَى أنه لا يضيق مجلس بمتحابين ولا تسع الدنيا بأسرها متباغضين ؛ فقال له أحمد : الصَّدِيق لا يُحَاسَب والعَدُوُّ لا يحتسب له ، وهذا كلام حسن من كلا الرجلين ، والتجنيس فى كلام أحمد رحمه الله فى قوله : « يحاسب ويحتسب له » .

وقد جاءنى شىء من ذلك عليه خِفَّةُ الطبع ؛ لا ثقل التطبع .

فمنه ماذكرته فى فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة يتضمن ذكر الجهاد

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها المتوكل على الله ، وأولها قوله :

مُنَى النَّفْسِ فى أَسْماءَ لَوْ تَسْتَطِيعُها   بِهَا وَجْدُها مِنْ غَادَةٍ وَوَلُوعُها

وقبل البيت المستشهد به قوله :

وَفُرْسَانِ هَيْجاءٍ تَجِيشُ صُدُورُهَا   بِأَحْقادِها حَتَّى تَضِيقَ دُرُوعُها

تُقَتِّلُ مِنْ وِتْرٍ أَعَـزَّ نُفُوسِهَا   عَلَيْهَا بِأَيْدٍ مَاتَـكادُ تُطِيـعُهَا

إِذَا احْتَرَبَتْ يَوْمًا فَفَاضَتْ دِماؤُها   تَذَكَّرَتِ الْقُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعُها

فقلت: وخيل الله قد اشتاقت أن يقال لها اركبي، وسيوفه قد تَطَلَّعَتْ أن يقال لها اضربي ، ومواطن الجهاد قد بَعُدَ عهدها باستسقاء شآبيب النحور ، وإنبات ربيع الذباب والنسور ، وما ذاك إلا لأن العدو إذا طاب تقمص ثوب إذلاله ، وتَنَصَّل من صحة نصاله ، واعتصم بمعاقله التي لا فرق بينها وبين عِقاله .

ومن ذلك ماذكرته في وصف كريم ؛ فقلت : وقد جعل الله حرمه مَلْقَى الجِفان ، وَمُلْتَقى الأجفان ، فهو حِمًى لمن جَنَى عليه زَمَانُه ، وجارٌ لمن بعد عنه جيرَانُه .

ومن ذلك ماذكرته في فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة ، وهو : ولقد استبان الخادم من بَرَكة طاعته ما يعمى عنه غيره فما يراه ، ووَجَد من أثره في صلاح دنياه ماستدل به على صلاح أُخْرَاه ، فهو المركب الْمُنَجِّي ، والعمل المَرْجُوُّ لا المُرَجَّى ، والمعنى المراد بهداية الصراط المستقيم ، وتأويل قوله تعالى : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

ومن ذلك ماذكرته في أثناء كتاب إلى بعض الإخوان وذلك وصف بعض المنعمين ، فقلت : نحن من حُسْن شِيَمه وفَوَاضِل إحسانه بين هِنْد وهُنَيْدة ، ومن يُمْن نقيبته وأمانة غَيْبه بين أمِّ مَعْبَد وأبي عبيدة .

ومن ذلك ماذكرته في مطلع كتاب إلى بعض الإخوان ، فقلت : الكُتُبُ وإن عدَّهَا قوم عرضاً من الأعراض ، وتَقَالَوْهَا حتى قالوا هي سَواد في بياض ؛ فإن لها عند الإخوان وَجهاً وَسِيما ، ومحلا كريماً ، وهي تمائم القلوب إذا فارق حَميمٌ حميما ، ومن أحسنها كتاب سيدنا . . . ثم مضيت على هذا النهج إلى آخر الكتاب .

ومن هذا القسم قول أبى تمام (١) :

أيَّامَ تُدْمِى عَيْنَهُ تِلْكَ الدُّمَا ... فِيها وَتَقْمُرُ لُبَّهُ الأَقْمارُ

وكذلك قوله (٢) :

بيضٌ فَهُنَّ إذا رُمِقْنَ سَوَافِراً ... صُوَرٌ وَهُنَّ إذَا رُمِقْنَ صِوَارُ (٣)

وكذلك قوله (٤) :

بَدْرٌ أطالَتْ فيكَ بادِرَةَ النَّوَى ... وَلَعاً وَشمْسٌ أُولِعَتْ بِشِماسِ (٥)

وكذلك قوله (٦) :

---

(١) من قصيدة يمدح فيها أبا سعيد الثغرى ، وأولها قوله :

لاَ أَنْتَ أَنْتَ وَلاَ الدِّيَارُ دِيَارُ ... خَفَّ الْهوَى وَتَوَلَّتِ الْأَوْطَارُ

(٢) هذا البيت والذى قبله من قصيدة واحدة وليس بينهما إلا بيت واحد ، وهو :

إذْ لاَصَدُوقَ وَلاَ كَنُودَ اسْمَاهُما ... كَالْمَعْنيَيْنِ وَلاَ النَّوَارُ نَوَارُ

(٣) رمقن : أطيل النظر إليهنّ ، وسوافر : جمع سافرة ، وهى التى لم تستتر . والصوار : القطيع من بقر الوحش .

(٤) من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن المعتصم ، وأولها قوله :

ما فى وُقُوفِكَ ساعَةً مِنْ بَاسِ ... تَقْضِى ذِمامَ الْأَرْبُعِ الْأَدْرَاسِ

(٥) قبل هذا البيت قوله :

إنَّ الْمَنازِلَ ساوَرَتْها فُرْقَةٌ ... أخْلَتْ مِنَ الآرامِ كُلَّ كِناسِ

مِنْ كُلِّ ضاحِكَةِ التَّرائِبِ أُرْهِفَتْ ... إرْهافَ خوطِ الْبانَةِ الْمَيّاسِ

وفى الديوان « خطأ وشمس أولعت بشماس » . وبادرة النوى : أول ماخطر فى بالها من الهجران . والشماس : النفار وعدم الانقياد .

(٦) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ويذكر إحراق الأفشين ، وأولها قوله :

الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارِ ... فَحَذَارِ مِنْ أُسْدِ الْعَرِينِ حَذَارِ

كادُوا النُّبُوَّةَ وَالهُدَى فتقَطَّعتْ أعْناقُهُمْ في ذلكَ المِضْمارِ
جَهِلُوا فلَمْ يَسْتَكْثِرُوا مِنْ طاعَةٍ مَعْرُوفَةٍ بِعِمارَةِ الأعْمارِ

وكذلك قوله(١) :

إنَّ الرِّماحَ إذا غُرِسْنَ بِمَشْهَدٍ فَجَنَى العَوالى في ذُرَاهُ مَعالِى

وكذلك قوله(٢) :

إذا أحْسَنَ الأقْوامُ أنْ يَتطاوَلوا بِلا نِعْمَةٍ أحْسَنْتَ أنْ تَتطَوَّلا(٣)

وكذلك قوله(٤) :

أيُّ رَبْعٍ يُكَذِّبُ الدَّهْرُ عَنْهُ وَهْوَ مُلْقًى عَلَى طَرِيقِ اللَّيالِى
بَيْنَ حالٍ جَنَتْ عَلَيْهِ وَحَوْلٍ فَهْوَ نِضْوُ الأحْوالِ وَالأحْوالِ
شَدَّ مَا اسْتَنْزَلَتْكَ عَنْ دَمْعِكَ الأظْعانُ حَتَّى اسْتَهَلَّ صَوْبُ العَزالِى
أيُّ حُسْنٍ في الذَّاهِبِينَ تَوَلَّى وَجَمالٍ عَلَى ظُهُورِ الجِمالِ
وَدَلالٍ مُخَيِّمٍ في ذُرَى الخَيْمِ وَحِجْلٍ مُقَصَّمٍ في الحِجالِ

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ، ويذكر أخذ بابك ، وأولها قوله :

آلَتْ أُمُورُ الشِّرْكِ شَرَّ مَآلِ وَأقَرَّ بَعْدَ تَخَمُّطٍ وَصِيالِ

وآلت : رجعت ، والتخمط : التكبر ، والصيال : المصاولة ، وأراد التسلط والغلبة .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن عبد الملك الزيات ، وأولها قوله :

لَهانَ عَلَيْنا أنْ نَقُولَ وَتَفْعَلا وَنَذْكُرَ بَعْضَ الفَضْلِ مِنْكَ فَتَفْضُلا

(٣) في الديوان (ص ٢٥٢) « بلا منة » . والتطاول : الاعتداد والامتنان ، والتطول : التفضل والإنعام .

(٤) في الديوان قطعة فيها من هذه الأبيات الخمسة ثلاثة أبيات وهي الثالث والرابع والخامس ، وترتيبها فيه غير هذا الترتيب ، وهاك القطعة كلها برواية الديوان:

شَدَّ مَا اسْتَنْزَلَتْكَ مِنْ رَبْعِكَ الأظْعانُ حَتَّى اسْتَهَلَّ دَمْعُ الغَزالِ

فالبيت الثانى والخامس هما المقصودان بالتمثيل ههنا، والأبيات الباقية جاءت تبعاً.

ومما جاء من ذلك قول على بن جبلة:

وَكَمْ لكَ مِنْ يَوْمٍ رَفَعْتَ بِنَاءَهُ ... بِذَاتِ جُفُونٍ أوْ بِذَاتِ جِفَانِ

وكذلك قول محمد بن وهيب الحميرى:

قَسَمْتَ صُرُوفَ الدَّهْرِ بأسًا وَنائِلاً ... فَمَالُكَ مَوْتُورٌ وَسَيْفُكَ وَاتِرُ

وهذا من المليح النادر.

ومن هذا القسم قول البحترى(١):

جَدِيرٌ بِأَنْ تَنْشَقَّ عَنْ ضَوْءِ وَجْهِهِ ... ضَبَابَةُ نَقْعٍ تَحْتَها المَوْتُ نَاقِعُ

وكذلك قوله(٢):

نَسِيمُ الرَّوْضِ فى رِيحِ شَمَالٍ ... وَصَوْبُ المُزْنِ فى رَاحِ شَمُولِ

أَىُّ حُسْنٍ فِى الذَّاهِبِينَ تَوَلَّى ... وَجَمَالٍ عَلَى ظُهُــورِ الجِمَالِ

وَدَلَالٍ مُخَــيِّمٍ فِى ذُرَى الخيــمِ وَحِجْلٍ مُعَــذَّبٍ فِى الحِجَالِ

وَمَهًا مِنْ مَهَا الخُــدُورِ وَآجَا ... لِ ظِبَاءٍ يُسْرِعْنَ فِى الآجَالِ

عَادَكَ الزَّوْرُ لَيْلَةَ الرَّمْلِ من رَمْــلَةَ بَيْنَ الحِمَى وَبَيْنَ المَطَالِ

ثَمْ فَمَا زَارَكَ الخَيَالُ وَلَكِنَّــكَ بِالفِكْرِ زُرْتَ طَيْفَ الخَيَالِ

(١) من قصيدة له فى مدح الفتح بن خاقان أولها قوله:

أَلَمَّتْ وَهَلْ إِلْمَامُهَا لَكَ نَافِعُ ... وَزَارَتْ خَيالاً وَالعُيُونُ هَوَاجِعُ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها المتوكل، وأولها:

أَكُنْتَ مُعَنِّفِى يَوْمَ الرَّحِيـلِ ... وَقَـدْ لَجَّتْ دُمُوعِى فِى الهُمُولِ

وقبل البيت المستشهد به قوله:

وَذَكَّرَنِيكِ وَالذِّكْرَى عَنَاءٌ ... مَشَابِهُ فِيكِ بَيِّنَةُ الشُّكُولِ

وذم أعرابى رجلا فقال : كان إذا سأل أَلْحَفَ ، وإذا سُئِل سَوَّف ، يَحْسُدُ على الفضل ، ويَزْهَدُ فى الإفضال .

القسم الرابع من المشبه بالتجنيس ، ويسمى المعكوس ، وذلك ضربان : أحدهما : عكس الألفاظ ، والآخر عكس الحروف .

فالأول كقول بعضهم : عادَاتُ السَّادَاتِ ساداتُ العادَاتِ ؛ وكقول الآخر : شِيَمُ الْأَحْرَارِ أَحْرَارُ الشيم .

ومن هذا النوع مما ورد شعراً قول الأضبط بن قُرَيْع من شعراء الجاهلية(١) :

قَدْ يَجْمَعُ المَالَ غَيْرُ آكِلِهِ وَيَأْكُلُ المَالَ غَيْرُ مَنْ جَمَعَهْ
وَيَقْطَعُ الثَّوْبَ غَيْرُ لَابِسِهِ وَيَلْبَسُ الثَّوْبَ غَيْرُ مَنْ قَطَعَهْ

وكذلك ورد قول أبى الطيب المتنبى(٢) :

فَلَا مَجْدَ فِى ٱلدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلَا مَالَ فى الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

وكذلك قول الشريف الرضى من أبيات يذم فيها الزمان :

أَسَفٌ بِمَنْ يَطِيرُ إِلَى المَعَالِى وَطَارَ بِمَنْ يُسِفُّ إِلَى ٱلدَّنَايَا

وكذلك قول الآخر :

إِنَّ اللَّيَالِىَ لِلْأَنَامِ مَنَاهِلٌ تُطْوَى وَتُنْشَرُ بَيْنَهَا الْأَعْمَارُ
فَقِصَارُهُنَّ مِنَ الْهُمُومِ طَوِيلَةٌ وَطِوَالُهُنَّ مِنَ السُّرُورِ قِصَارُ

---

(١) من كلمة له أولها :

لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الْهُمُومِ سَعَهْ وَالصُّبْحُ وَالْمُسْىُ لَا فَلَاحَ مَعَهْ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها كافورا ، وأولها قوله :

أَوَدُّ مِنَ الْأَيَّامِ مَالَا تَوَدُّهُ وَأَشْكُو إِلَيْهَا بَيْنَنَا وَهْىَ جُنْدُهُ

وأحسن من هذا كله وألطف قول ابن الزقاق الأندلسى :

غَيَّرَتْنَا يَدُ الزَّما نِ فَقَدْ شِبْتُ وَالتَحى
فَاسْتَحَالَ الضُّحَى دُجًا وَاسْتَحَالَ الدُّجَا ضُحَى

وهذا الضرب من التجنيس له حلاوة ، وعليه رَوْنَق ، وقد سماه قُدَامة ابن جعفر الكاتب التَّبْدِيل ، وذلك اسم مناسب لمسماه ؛ لأن مُؤلِّف الكلام يأتى بما كان مقدَّمًا فى جزء كلامه الأول مؤخَّراً فى الثانى ، وبما كان مؤخراً فى الأول مقدَّمًا فى الثانى ، ومثله قدامة بقول بعضهم : اشْكُرْ لمن أنْعَمْ عليك وأنْعِمْ على من شكرك .

ومن هذا القسم قوله تعالى : (يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ) وكذلك ورد قول النبى صلى الله عليه وسلم : « جَارُ الدَّارِ أحَقُّ بدَارِ الجارِ » .

وكتب على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى عبد الله بن عباس رضى الله عنه كتابًا ؛ فقال : أما بعد فإن الإنسان يَسُرّه دَرَك ما لم يكن لِيَفُوتَه ، ويسوءه فَوْتُ ما لم يكن ليدركه ؛ فلا تكن بما نِلْتَ من دُنْياك فَرِحًا ، ولا بما فاتك منها تَرِحًا ، ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ، ويؤخر التوبة بطول أمل ، وكأنْ قدِ ؛ والسلام .

وروى عن أبى تمام أنه لما قصد عبد الله بن طاهر بن الحسين بخُرَاسان وامتدحه بقصيدته المشهورة التى مطلعها :

* أهُنَّ عَوَادِى يُوسُفٍ وَصَوَاحِبُهُ *

أنكر عليه أبو سَعيد الضَّرِيرُ وأبو الْعَمَيْثَل هذا الابتداء ، وقالا : لِمَ لا يقول ما يفهم ؟ فقال : لِمَ لا يفهمان ما يقال ؟ فاستحسن منه هذا الجواب على الْفَوْر ، وهو من التجنيس المشار إليه .

وقد جاءنى شىء منه ، كقولى فى فصل من كتاب يتضمن فتحاً ، وهو : فكم كان فى افتراع عُذْرَة الحِصْنِ من افتراع عذرة حَصَان ، وكم حِيزَ به من سِنَان لَحْظٍ اسْتَرَقَّهُ لَحْظُ سنان .

وكذلك قولى فى صدر كتاب إلى ديوان الخلافة ، وهو : الخادم يبلغ خدمته إلى ذلك الجناب التى تمطره الشفاه قُبَلاً ، وتوسعه العُفَاةُ أَمَلاً ، وترى الخَوَلَ به ملوكاً والملوكَ خَوَلا ، وطاعته هى مِحَكُّ الأعمال التى أشير إليها بقوله تعالى : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

وكذلك ورد قولى أيضاً ، وهو فصل من تقليد وزير ، فقلت : وقد صَدَّق الله لَهْجَةَ المثنِى عليك أن يقول : إنك الرجل الذى تضرب به الأمثال ، والمهذب الذى لايقال معه : أىُّ الرجال ، وإذا وازرت مملكة فقد حظيت منك بشد أزرها ، وسد ثغرها ، وأصْبَحْتْ وأنت صدر لِقَلْبِهَا وقلب لصدرها ، فهى مُزْدَانة منك بالفضل المتين ، مُعَانة بالقوىِّ الأمين .

وأما الضرب الثانى من هذا القسم ، وهو عكس الحروف ، فهو كقول بعضهم :

أَهْدَيْتُ شَيْئاً يَقِلُ لَوْلاَ ... أُحْدُوثَةُ الفَالِ وَالتَّبَرُّكْ
كُرْسِى تَفَاءَلْتُ فِيهِ لَمَّا ... رَأَيْتُ مَقْلُوبَه يَسُرُّكْ

وكذلك قول الآخر :

كَيْفَ السُّرُورُ بِإِقْبَالٍ وَآخِرُهُ ... إِذَا تَأَمَّلْتَهُ مَقْلُوبُ إِقْبَالِ[1]

وأجود من هذا كله قول الآخر :

جَاذَبْتُهَا وَالرِّيحُ تَجْذِبُ عَقْرَبَا ... مِنْ فَوْقِ خَدٍّ مِثْلَ قَلْبِ الْعَقْرَبِ
وَطَفِقْتُ أَلْثِمُ ثَغْرَهَا فَتَمَنَّعَتْ ... وَتَحَجَّبَتْ عَنِّى بِقَلْبِ الْعَقْرَبِ

• إذا قلب لفظ عقرب صار بُرْقُعا

(١) مقلوب الإقبال هو قولك «لاَ بَقَاء» .

وهذا الضرب نادر الاستعمال (١) ؛ لأنه قلَّ ما يقع كلمة تقلب حروفها فيجىء معناها صوابًا .

القسم الخامس من المشبه بالتجنيس ، ويسمى المُجَنَّب ، وذاك أن يجمع مؤلف الكلام بين كلمتين إحداهما كالتبع للأخرى والجنيبة لها ، كقول بعضهم :

أَبَا الْعَبَّاسِ لَا تَحْسَبْ بِأَنِّى ... لِشَىْءٍ مِنْ حُلَى الْأَشْعَارِ عارِى

فَلِى طَبْعٌ كَسَلْسَالٍ مَعِينٍ ... زُلَالٍ مِنْ ذُرَا الْأَحْجَارِ جَارِى

وهـذا القسم عندى فيه نظر ؛ لأنه بلزوم مالا يلزم أولى منه بالتجنيس ، ألا ترى أن التجنيس هو اتِّفاقُ اللفظ واختلاف المعنى ، وههنا لم يتفق إلا جزء من اللفظ ، وهو أقله ، وأما اللزوم فى الكلام المنثور فهو تَساوى الحروف التى قبل الفواصل المسجوعة ، وهذا هو كذلك ؛ لأن العين والراء تساويًا فى البيت الأول فى قوله الأشعار وعار والجيم والراء فى البيت الثانى فى قوله الأحجار وجار .

القسم السادس من المشبه بالتجنيس ، وهو ما يساوى وزنه تركيبه غير أن حُروفه تتقدم وتتأخر ، وذلك كقول أبى تمام (٢) :

بيضُ الصَّفَائحِ لاسُودُ الصَّحائِفِ فِى ... مُتُونِهِنَّ جِلاءُ الشَّكِّ وَالرِّيَبِ

فالصفائح والصحائف مما تقدمت حروفه وتأخرت ،

وقد ورد فى الكلام المنثور ، كقوله صلى الله عليه وسلم فى فضيلة تلاوة القرآن الكريم : « يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ : اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِى الدُّنْيَا فإنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيةٍ تَقْرَأُ » فقوله صلى الله عليه وسلم « اقرأ وارق » من التجنيس المشار إليه فى هذا القسم .

(١) للمرحوم الشيخ الحلوانى الخليجى رساله جمع فيها الشىء الكثير من هذا النوع
(٢) من قصيدته التى يمدح فيها المعتصم ويهنئه بفتح عمورية ، وقد سبق ذكرها مرارا .

النوع الثالث في الترصيع

وهو مأخوذ من ترصيع العقد، وذاك أن يكون فى أحد جانبي العقد من اللآلىء مثل ما فى الجانب الآخر، وكذلك نجعل هذا فى الألفاظ المنثورة من الأسجاع، وهو أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساويةً لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثانى فى الوزن والقافية، وهذا لايوجد فى كتاب الله تعالى؛ لما هو عليه من زيادة التكلف؛ فأما قول من ذهب إلى أن فى كتاب الله منه شيئاً ومثله بقوله تعالى: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) فليس الأمر كما وقع له؛ فإن لفظة (لفى) قد وردت فى الفقرتين معاً، وهذا يخالف شرط الترصيع الذى شرطناه، لكنه قريب منه، وأما الشعر فإنى كنت أقول: إنه لايتّزن على هذه الشريطة، ولم أجده فى أشعار العرب؛ لما فيه من تَعَمُّق الصنعة وتعسف الكلفة، وإذا جىء به فى الشعر لم يكن عليه مَحْضُ الطلاوة التى تكون إذا جىء به فى الكلام المنثور، ثم إنى عثرت عليه فى شعر المحدثين، ولكنه قليل جداً؛ فمن ذلك قول بعضهم:

فَمَكَارِمٌ أَوْلَيْتَهَا مُتَبَرِّعاً وَجَرَائِمٌ أَلْغَيْتَهَا مُتَوَرِّعاً(١)

فمكارم بإزاء جرائم، وأوليتها بإزاء ألغيتها، ومتبرعاً بإزاء متورعاً.

وقد أجاز بعضهم أن يكون أحد ألفاظ الفصل الأول مخالفاً لما يقابله من الفصل الثانى، وهذا ليس بشىء؛ لمخالفته حقيقة الترصيع.

فما جاء من هذا النوع منثوراً قول الحريرى فى مقاماته: « فَهُوَ يَطْبَعُ الْأَسْجَاعَ بِجَوَاهِرِ لَفْظِهِ، وَيَقْرَعُ الْأَسْمَاعَ بِزَوَاجِرِ وَعْظِهِ »؛ فإنه جعل ألفاظ الفصل الأول مساوية لألفاظ الفصل الثانى وَزْناً وقافية؛ فجعل يَطْبع بإزاء يَقرع،

(١) « ألغيتها » بالغين المعجمة فى ا، وفى ب، ج « ألفيتها » بالفاء وهو تحريف، وفى د « ألقيتها » بالقاف، ولها وجه.

والأسجاع بإزاء الأسماع ، وجواهر بإزاء زواجر ، ولفظه بإزاء وعظه .

ومما جاءني من هذا النوع ما ذكرته في جواب كتاب إلى بعض الإخوان ، وهو : قد أعدت الجواب ولم أستعِرْ له نظماً مُلفَّقا ، ولا جلبت إليه حُسْناً مُنَمَّقاً ، بل أخرجته على رسله ، وغنيت بصِقَال حسنه عن صَقْله ، فجاء كما تراه غير ممشوط ولا مخطوط ، فهو يَرفُلُ في أثواب بِذْلَتِهِ ، وقد حوَى الجمال بجُمْلَته ، والحسن ماوَشَّتْه فِطْرة التصوير ، لا ماحشته فكرة التزوير .

والترصيع في قولي : «وَشَّتْه فطرة التصوير» و « حَشَتْه فكرة التزوير» .

وكذلك ورد قولي في فصل من الكلام يتضمن تثقيف الأولاد ؛ فقلت : مَنْ قَوَّمَ أوَدَ أولاده ، ضَرَّمَ كَمَدَ حُسَّاده ؛ فهذه الألفاظ متكافئة في ترصيعها ، فقوَّم بإزاء ضَرَّم ، وأودَ بإزاء كَمَد ، وأولاده بإزاء حساده .

وكذلك قول بعضهم في الأمثال المولدة التي لم ترد عن العرب ، وهو : مَنْ أطَاعَ غَضَبَه أضَاعَ أدَبَه ؛ فأطاع بإزاء أضاع ، وغضبه بإزاء أدبه .

وقد ورد هذا الضرب كثيراً في الخطب التي أنشأها الشيخ الخطيب عبد الرحيم بن نُباتة رحمه الله :

فمن ذلك قوله في أول خطبة : الحمدُ لله عاقِدِ أزِمَّة الأمور بعزائم أمره ، وحاصِدِ أئمة الغُرُور بقَوَاصِمِ مَكْره ، ومُوفِّق عبيده لمغـــانم ذكره ، ومحقِّق مواعيده بلوازم شكره ؛ فالألفاظ التي جاءت في الفصلين الأولين متساوية وزناً وقافية ، والتي جاءت في الفصلين الآخرين فيها تخالف في الوزن ؛ فإن مواعيد تخالف وزن عبيد ، ولا تخالف قافيتها التي هي الدال .

ومن ذلك قوله أيضاً في جملة خطبة : أولئِكَ الذين أفَلُوا فَنجَمْتُمْ ، ورَحلُوا فأقمتم ، وأبَادَهُمُ الموت كما علمتم ، وأنتم الطامعون في البقاء بعدهم كما زعمتم ، كلا ! والله ماأُشْخِصُوا لتقروا ، ولا نُغِّصُوا لِتُسَرُّوا ، ولا بد أن تمروا حيث مروا ، فلا

تثقوا بخدع الدنيا ولا تغتروا ؛ وهذا الكلام فيه أيضاً ما فى الذى قبله من صحة الوزن والقافية وصحة القافية دون الوزن .

وكذلك قوله أيضاً فى خطبة أخرى : أيها الناس ، أسيموا القُلوبَ فى رياض الحِكَم ، وأديمُوا النَّحِيبَ على ابيضاض اللِّمَم ، وأطيلوا الاعتبار بانتقاص النعم ، وأجيلوا الأفكار فى انقراض الأمم .

وأما ماورد فى الشعر على مخالفة بعض الألفاظ بعضاً فكقول ذى الرمة[١] :

كَحْلاء فى بَرَجٍ صَفْراء فى دَعَجٍ كأنَّها فِضَّةٌ قَدْ مَسَّها ذَهَبُ[٢]

وصدر هذا البيت مرصع ، وعجزه خال من الترصيع ؛ وعذر الشاعر فى ذلك واضح ؛ لأنه مقيد بالوقوف مع الوزن والقافية ، ألا ترى أن ذا الرمة بنى قصيدته على حرف الباء ، ولو رصع هذا البيت الترصيع الحقيقى لكان يلزمه أن يأتى بألفاظه على حرفين أحدهما الباء ، أو كان يقسم البيت نصفين ويماثل بين ألفاظ هذا النصف وهذا النصف ، وذلك مما يعسر وقوعه فى الشعر .

وأرباب هذه الصناعات قد قسموا الترصيع إلى هذين القسمين المذكورين ، وهذه القسمة لا أراها صوابا ؛ لأن حقيقة الترصيع موجودة فى القسم الأول دون الثانى .

ومما جاء من هذا القسم الثانى قول الخنساء[٣] :

---

(١) من قصيدة له مطلعها قوله :

مَا بالُ عَيْنِكَ مِنْهَا المَاءُ يَنْسَكِبُ كَأَنَّهُ مِنْ كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ

(٢) رواية الديوان :

كَحْلاءُ فِى دَعَجٍ صَفْراءُ فِى نَعَجٍ كَأَنَّهَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَّهَا ذَهَبُ

(٣) من قصيدتها التى ترثى فيها أخاها صخرا ، والتى أولها قولها :

قَذًى بِعَيْنِكِ أَمْ بِالعَيْنِ عُوَّارُ أَمْ أَقْفَرَتْ إذْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ

حَامِى الحقيقةِ مَحْمُودُ الْخَلِيقَةِ مَهْـ ... دِىُّ الطَّرِيقَةِ نَفَّاعٌ وَضَرَّارُ

وكذلك قول الآخر[١] :

سُودٌ ذَوَائِبُهَا بِيضٌ تَرَائِبُهَا ... مَحْضٌ ضَرَائِبُهَا صِيغَتْ مِنَ الْكَرَمِ

النوع الرابع فى لزوم مالا يلزم

وهو من أشقّ هذه الصناعة مذهباً ، وأبْعَدِها مسلكا ، وذاك لأن مؤلفه يلتزم ما لا يلزمه ، فإن اللازم فى هذا الموضع وما جرى مجراه إنما هو السجع الذى هو تساوى أجزاء الفواصل من الكلام المنثور فى قوافيها ، وهذا فيه زيادة على ذلك ، وهو أن تكون الحروف التى قبل الفاصلة حرفاً واحداً ، وهو فى الشعر أن تتساوى الحروف التى قبل روى الأبيات الشعرية .

وقد جمع أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان فى ذلك كتابا ، وسماه كتاب اللزوم ، فأتى فيه بالجيد الذى يحمد ، والردىء الذى يذم ؛

وسأذكر فى كتابى هذا فى هذا الموضع أمثلة من المنثور والمنظوم يهتدى بها .

فمن ذلك ما ذكرته فى جملة كتاب فى فصل يتضمن ذم جبان ، فقلت : إذَا نَزَلَ به خَطْبٌ مَلَكه الْفَرَق ، وإذا ضلَّ فى أمْرٍ لم يُؤْمِن إلا إذا أدركه الْغَرَق .

ومن ذلك ما ذكرته فى مبدأ كتاب إلى بعض الإخوان ، فقلت : الخادم

و بعد البيت الذى ذكره المؤلف قولها :

جَوَّابُ قَاصِيَةٍ جَزَّازُ نَاصِيَةٍ ... عَقَّادُ أَلْوِيَةٍ لِلْخَيْلِ جَرَّارُ

حُلْوٌ حَلَاوَتُهُ فَصْلٌ مَقَالَتُهُ ... فَاشٍ حِمَالَتُهُ لِلْعَظْمِ جَبَّارُ

وهما من شواهد المسألة .

(١) البيت لأبى صخر الهذلى .

يُهْدِى من دعائه وثنائه ما يسلك أحدهما سماء والآخر أرضاً ، ويَصُون أحدهما نفساً والآخر عِرْضاً ، وأعجبُ ما فيهما أنهما توْأمان ، غير أن هذا مُسْتَنْتَج من ضمير القلب وهذا من نُطْقِ اللسان ؛ فاللزوم ههنا فى الراء والضاد .

وكذلك ورد قولى فى جملة كتاب إلى ديوان الخلافة ، فقلت : وقد علم من شيم الديوان العزيز أنه يُسَرُّ بامتداد الأيْدِى إلى بابه ، وإذا أغبّ أحدها فى المسألة نهاه عن إغْبَابه ، حتى لايخلو حَرَمُه الكريم من المَطاف ، ولا يَدُه الكريمة من الإسعاف ؛ فاللزوم ههنا فى لفظتى « بابه » و « إغبابه » .

ومن ذلك ما كتبته فى جملة كتاب إلى ديوان الخلافة أيضاً ، وهو : وَمَهْما شُدَّ به عضد الخادم من الإنعام فإنه قوة لليد التى خَوّلَتْه ، ولا يقوى تَصَعُّد السحب إلا بكثرة غَيْثها الذى أنْزَلَتْه ، وغير خاف أن عبيد الدولة لها كالعُمُد من طِرَافِها ، ومركز الدائرة من أطرافها ، ولا يؤيِّدُ السيف إلا بقائمه ، ولا ينهض الجناح إلا بقوادمه ؛ فاللزوم فى هذا الموضع فى الراء والفاء فى قولى « طراف » و « أطراف »

ومن ذلك ما كتبته فى صدر كتاب إلى الملك الأفضل على بن يوسف أهنئه بملك مصر فى سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، فقلت : المملوك يهنئ مولانا بنعمة الله المؤذنة باستخلاصه واجْتبائه ، وتمكينه حتى بلغ أشُدَّه واسْتَخْرَج كنز آبائه ، ولو أنصف لَهَنَّأَ الأرض منه بوابلها ، والأمة بكافلها ، وخصوصاً أرض مصر التى خصت بشرف سُكْناه ، وغدت بين بحرين من فيض البحر وفيض يمناه .

وكل هذه الفصول المذكورة من هذه المكتوبات التى أنشأتها لا كلفة على كلمات اللزوم فيها .

وقرأت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج : أن لَقِيط بن زُرَارة تزوج بنت قَيْس ابن خالد بن ذى الجدين ، فحظيت عنده وحظى عندها ، ثم قتل فآمَتْ بعده

وتزوجت زوجاً غيره ، فكانت كثيراً ماتذكر لقيطا ، فلامها على ذلك ؛ فقالت : إنه خَرَج فى يوم دَجْن وقد تَطَيَّب وشرب ، فطرد البقر فصرع منها . ثم أتانى وبه نضح دم ، فضمنّى ضمةً ، وشمّنى شمّة ، فليتنى مِتُّ ثَمَّة ، فلم أر مَنْظَراً كان أحسن من لقيط ، فقولها «ضمنى ضمة ، وشمنى شمة ، فليتنى مت ثمة» من الكلام الحلو فى باب اللزوم ، ولا كلفة عليه .

وهكذا فليكن ؛ فإن الكلفة وحشة تذهب بِرَوْنَق الصنعة ، وما ينبغى لمؤلف الكلام أن يستعمل هذا النوع حتى يجيء به متكلفاً ؛ ومثاله فى هذا المقام كمن أخذ موضوعاً رديئاً فأجاد فيه صنعته ؛ فإنه يكون عند ذلك قد راعى الفرع وأهمل الأصل ، فأضاع جودة الصنعة فى رداءة الموضوع .

وقد سلك ذلك أبو العلاء المعرى أحمد بن عبد الله بن سليمان ؛ فمما جاء من ذلك قوله فى حرف التاء مع الخاء :

بِنْتُ عَنِ ٱلدُّنْيَا وَلاَ بِنْتَ لِي ... فِيهَا وَلاَ عِرْسَ وَلاَ أُخْتُ
وَقَدْ تَحَمَّلْتُ مِنَ ٱلْوِزْرِ مَا ... تَعْجِزُ أَنْ تَحْمِلَهُ ٱلْبُخْتُ
إِنْ مَدَحُونِي سَاءَنِي مَدْحُهُمْ ... وَخِلْتُ أَنِّي فِي ٱلثَّرَى سِخْتُ

وله من ذلك الجيد ، كقوله :

لاَ تَطْلُبَنَّ بِآلَةٍ لَكَ حَاجَةً ... قَلَمُ ٱلْبَلِيغِ بِغَيْرِ جَدٍّ مِغْزَلُ
سَكَنَ ٱلسِّمَاكَانِ ٱلسَّمَاءَ كِلاَهُمَا ... هٰـذَا لَهُ رُمْحٌ وَهٰـذَا أَعْزَلُ

وهذا بين الاسترسال و بين الكلفة .

وأما ماتكلف له تكلفاً ظاهراً و إن أجاد فقوله :

تُنَازِعُ فى ٱلدُّنْيَا سِوَاكَ وَمَا لَهُ ... وَلاَ لَكَ شَيْءٌ فى ٱلْحَقِيقَةِ فِيهَا[1]

(١) فى اللزوميات « ولا لك شىء بالحقيقة » .

وَلٰكِنَّها مِلْكٌ لِرَبٍّ مُقَدِّرٍ يُعِيرُ جُنُوبَ الْأَرْضِ مُرْتَدِفِيهَا
وَلَمْ تَحْظَ مِنْ ذَاكَ النِّزَاعِ بِطَائِلٍ مِنَ الْأَمْرِ إِلَّا أَنْ تُعَدَّ سَفِيهَا(١)
فَيَانَفْسُ لَا تَعْظُمْ عَلَيْكِ خُطُوبُهَا فَتَخْفِقُوهَا مِثْلُ مُخْتَلِفِيهَا(٢)
تَدَاعَوْا إِلَى النَّزْرِ الْقَلِيلِ فَجَالَدُوا عَلَيْهِ وَخَلَّوْهَا لِمُغْتَرِفِيهَا
وَمَا أُمُّ صِلٍّ أَوْ حَلِيلَةُ ضَيْغَمٍ بِأَظْلَمَ مِنْ دُنْيَاكَ فَاعْتَرِفِيهَا
تُلَاقِي الْوُفُودَ الْقَادِمِيهَا بِفَرْحَةٍ وَتَبْكِي عَلَى آثَارِ مُنْصَرِفِيهَا(٣)
وَمَا هِيَ إِلَّا شَوْكَةٌ لَيْسَ عِنْدَهَا وَجَدِّكَ إِرْطَابٌ لِمُخْتَرِفِيهَا(٤)
كَمَا نَبَذَتْ لِلطَّيْرِ وَالْوَحْشِ رَازِمٌ فَأَلْقَتْ شُرُوراً بَيْنَ مُخْتَطِفِيهَا
تَنَاءَتْ عَنِ الْإِنْصَافِ مِنْ ضَيْمٍ لَمْ يَجِدْ سَبِيلاً إِلَى غَايَاتِ مُنْتَصِفِيهَا(٥)
فَأَطْبِقْ فَماً عَنْهَا وَكَفًّا وَمُقْلَةً وَقُلْ لِغَوِيِّ النَّاسِ فَاكَ لِفِيهَا(٦)

---

(١) فى اللزوميات « ولم تحظ فى ذاك النزاع » .

(٢) سقط بيت بين هذا البيت والذى بعده ، وهو فى اللزوميات :

وَصَفْتِ لِقَوْمٍ رَحْمَةً أَزَلِيَّةً وَلَمْ تُدْرِكِي بِالْقَوْلِ أَنْ تَصِفِيهَا

(٣) فى ب « على آثارها » وهو خطأ ، والذى أثبتناه عن ا ، ج واللزوميات وبين هذا البيت والذى بعده بيتان ، وهما عن اللزوميات :

وَلَمْ يَتَوَازَنْ فِى الْقِيَاسِ نَعِيمُهَا وَسَيِّئَةٌ أَوْدَتْ بِمُقْتَرِفِيهَا
وَأَرْزَاقُهَا تَغْشَى أُنَاساً بِفَتْرَةٍ وَتَقْصُرُ حِيناً دُونَ مُحْتَرِفِيهَا

(٤) فى اللزوميات «وما هى إلا شاكة » ، و بين هذا البيت والذى بعده بيت وهو:

فَقَالَتْ عَلَى الْخَضْرَاءِ شُرْبُ كُمَيْتِهَا وَعَالَتْ عَلَى الْغَبْرَاءِ مُعْتَسِفِيهَا

(٥) فى ب ، ج «بنات عن الإنصاف» وما أثبتناه عن اللزوميات و يحتمله ما فى ا .

(٦) فى ج « فأطبقوا فما عنها » وهو تحريف وما أثبتناه عن ا ، ب واللزوميات.

ومن ذلك(١) :

أرى الدُّنيا وما وُصِفَتْ بِبِرٍّ ⁂ إذا أغْنَتْ فقيرًا أرْهقَتْهُ(٢)

إذَا خُشِيَتْ لِشَرٍّ عَجَّلَتْهُ ⁂ وَإنْ رُجِيَتْ لِخَيْرٍ عوَّقَتْهُ(٣)

حيَاةٌ كَالْحُبَالَةِ ذَاتُ مَكْرٍ ⁂ وَنَفسُ المَرْءِ صَيْدٌ أعْلَقَتْهُ

فلاَ يُخْدَعْ بِحِيلَتِها أرِيبٌ ⁂ وَإنْ هِيَ سوَّرَتْهُ وَنَطَّقَتْهُ(٤)

أذَاقَتْهُ شَهِيًّا مِنْ جَنَاهَا ⁂ وَصدَّتْ فَاهُ عَمَّا ذَوَّقَتْهُ

وقد ورد للعرب شيء من ذلك إلا أنه قليل ؛ فمما جاء منه قول بعضهم فى أبيات الحماسة(٥) :

إنَّ الَّتِي زَعَمَتْ فُؤَادَكَ مَلَّها ⁂ خُلِقَتْ هَوَاكَ كَما خُلِقْتَ هَوًى لَهَا

بَيْضَاءُ بَاكَرَهَا النَّعِيمُ فَصَاغَهَا ⁂ بِلَبَاقَـــةٍ فَأدَقَّها وَأجَلَّها

حَجَبَتْ تَحِيَّتَها فَقُلْتُ لِصَاحِبِي ⁂ ما كَانَ أكْثَرَها لنَا وَأقَلَّها

وَإذَا وَجَدْتُ لَها وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ ⁂ شَفَعَ الضَّمِيرُ إلَى الفُؤادِ فَسَلَّها

وهذا من اللطافة على مايشهد لنفسه .

ومما يجرى هذا المجرى قول حُجْر بن حَيَّة العَبْسى من شعر الحماسة أيضاً(٦) .

وَلاَ أُدَوِّمُ قِدْرِى بَعْدَمَا نَضِجَتْ ⁂ بُخْلاً فتَمْنَعَ مَا فِيها أثَافِيها(٧)

---

(١) هذه الأبيات فى اللزوميات غير متصلة كما هنا فانظر (ج ٢ ص ٣٣٨ مصر).

(٢) فى اللزوميات « متى أغنت فقيرا » .

(٣) عوقته : أخرته .

(٤) سورته : ألبسته السوار ، ونطقته : ألبسته المنطقة أو النطاق .

(٥) الأبيات لعروة بن أذينة ، وقد سبق ذكرها فى هذا الكتاب (انظر الجزء الأول ص ١٧٤) .

(٦) انظر شرح التبريزى (٤ – ٢٠٠) .

(٧) فى الحماسة « بخلا لتمنع » .

حَتَّى تُقَسِّمَ شَتَّى بَيْنَ مَا وَسِعَتْ ... وَلَا يُؤَنَّبُ تَحْتَ اللَّيْلِ عَافِيهَا

ومما ورد من ذلك أيضاً قول طَرَفَة بن العَبْدِ البَكْرِى (١) :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَالَ يَكْسِبُ أَهْلَهُ ... فُضُوحًا إِذَا لَمْ يُعْطِ مِنْهُ نَوَاسِبُهْ

أَرَى كُلَّ مَالٍ لَا مَحَالَةَ ذَاهِبًا ... وَأَفْضَلُهُ مَا وُرِّثَ الحَمْدَ كَاسِبُهْ

وكذلك قول الفرزدق (٢) .

وَغَيَّرَ لَوْنَ رَاحِلَتِي وَلَوْنِي ... تَرَدِّيَّ الهَوَاجِرَ وَاعْتِمَامِي (٣)

أَقُولُ لَهَا إِذَا ضَجِرَتْ وَعَضَّتْ ... بِمَوْرِكَةِ الوِرَاكِ مَعَ الزِّمَامِ (٤)

عَلَامَ تَلَفَّتِينَ وَأَنْتِ تَحْتِي ... وَخَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمِ أَمَامِي (٥)

وكذلك قوله أيضاً (٦) :

---

(١) لم أجد هذين البيتين فى ديوان طرفة بن العبد ، ولا عثرت على نسبتهما إليه فى مرجع آخر ، وقد وجدت أبياتا نحلت طرفة على هذا الروى وأولها :

فَكَيْفَ يُرَجِّى المَرْءُ دَهْرًا مُخَلَّدًا ... وَأَعْمَالُهُ عَمَّا قَلِيلٍ تُحَاسِبُهْ

انظر (شعراء النصرانية ص ٣١٧) .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها هشام بن عبد الملك بن مروان ؛ وأولها قوله :

أَلَسْتُمْ عَائِجِينَ بِنَا لَعَنَّا ... نَرَى العَرَصَاتِ أَوْ أَثَرَ الخِيَامِ

والبيت الأول مما هنا غير متصل بالثانى فى رواية الديوان

(٣) فى ا « واعتمادى » وهو تحريف .

(٤) فى ا ، ب ، ج « أقول لها إذا ضجرت وغصت » وفى الديوان « أقول لها إذا عطفت وعضت » ولعله أنسب بقوله « علام تلفتين – إلخ » .

(٥) فى الديوان « إلام تلفتين وأنت – إلخ » .

(٦) روى أبو الفرج هذين البيتين مع ثالث ، وهو :

خَرَجَتْ إِلَيْكَ وَلَمْ تَكُنْ خَرَّاجَةً ... فَأَصِيبَ صَدْعُ فُؤَادِكِ انْهَاضِ

مَنَعَ الحياةَ مِنَ الرِّجَالِ وَنفعَهَا   حَدَقٌ تُقَلِّبُهَا النِّسَاءُ مِرَاضُ
وَكَأَنَّ أَفْئِدَةَ الرِّجَالِ إِذَا رَأَوْا   حَدَقَ النِّسَاءِ لِنَبْلِهَا أَغْرَاضُ

وإذا شئت أن تعلم مقادير الكلام وكان لك ذوق صحيح فانظر إلى هذا العربي فى كلامه السهل الذى كأنه ماء جار ، وانظر إلى ماأوردته لأبى العلاء المعرى ؛ فإن أثر الكلفة عليه باد ظاهر .

وممن قصد من العرب قصيده كله على اللزوم كُثَيِّر عزَّة ، وهى القصيدة التى أولها :

خَلِيلَيَّ هَـٰـذَا رَبْعُ عَزَّةَ فَاعْقِلَا   قَلُوصَيْكُمَا ثُمَّ احْلُلَا حَيْثُ حَلَّتِ (١)

وهذه القصيدة تزيد على عشرين بيتاً ، وهى مع ذلك سهلة لينة تكاد تترقرق من لينها وسهولتها ، وليس عليها من أثر الكلفة شىء ، ولولا خوف الإطالة لأوردتها بجملتها .

وقد ذكر بعضهم من هذا النوع ماورد فى أبيات الحماسة ، وهو(٢) :

وَفَيْشَــةٍ لَيْسَتْ كَهَذِى الْفَيْشِ   قَدْ مُلِئَتْ مِنْ تَرَفٍ وَطَيْشِ (٣)
إِذَا بَدَتْ قُلْتَ أَمِيرُ الْجَيْشِ   مَنْ ذَاقَهَا يَعْرِفُ طَعْمَ الْعَيْشِ

(١) كذا وقع هذا البيت فى ا ، ب ، ج ، وفى الديوان وغيره « ثم انزلا حيث حلت » وهو خير مما فى أصول الكتاب ؛ فانه لايقال « احللا » ولا « اشددا » ولا « اظللا » وهكذا من كل مضعف أسند إلى ألف الاثنين ، وإنما يقال « حلا » و « شدا » و « ظلا » ، وما أشبه ذلك .

(٢) انظر التبريزى (٤ ـ ٣٤٠) .

(٣) فى الحماسة :

* قَدْ مُلِئَتْ مِنْ خُرُقٍ وَطَيْشِ *

وهذا ليس من باب اللزوم ؛ لأن اللزوم هو أن يلتزم الناظم والناثر مالا يلزمه؛ كقولنا : شرق ، وفرق ؛ مثلا ؛ فانه لو قيل بدلا من ذلك شرق وحنق لجاز ذلك ، وفى هذه الأبيات لايقع الأمر كذلك ؛ لأنه لو قيل : طَيْش وعَرْش لماجاز، وهذا يقال له الردف فى الشعر ، وهو الياء والواو قبل حرف الروى ، وإذا جيء بذلك فى الشعر وفى الكلام المنثور لايقال إنه التزام مالا يلزم ؛ لأن الملتزم مالا يلزم له مندوحة فى العدول إلى غيره ، وههنا لا مندوحة .

ومن لطيف ذلك مايروى لامرأة من البصرة مَجَنَتْ بأبى نواس ، فقالت :

إنَّ حِرِى حزنبل حزابيه ‏ ‏ إذَا قعدْت فوْقهُ نبَا بِيَهْ

* كالأَرْنَبِ الْجاثِمِ فوْقَ الرَّابِيَهْ *

وكذلك ورد قول أبى تمام (١) ، وهو :

خَدَمَ الْعُلاَ فَخَدَمْنَهُ وَهْيَ الَّتِي ‏ ‏ لاَتخْدِمُ الْأَقْوَامَ مَالَمْ تُخْدَمِ

فَإذَا ارْتَقَى فِى قُلَّةٍ مِنْ سُودَدٍ ‏ ‏ قَالَتْ لَهُ الْأُخْرَى بَلَغْتَ تَقَدَّمِ

وعلى هذا الأسلوب قوله أيضاً (٢) :

وَلَوْ جَرَّبْتَنِي لَوَجَدْتَ خَرْقاً ‏ ‏ يُصَافِى الْأَكْرَمِينَ وَلاَيُصَادِى (٣)

جَدِيراً أنْ يَكُرَّ الطَّرْفَ شَزْراً ‏ ‏ إلَى بَعْضِ الْمَوَارِدِ وَهْوَ صَادِى (٤)

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابة ، وأولها :

نَثَرَتْ فَرِيدَ مَدَامِعٍ لَمْ تُنْظَمِ ‏ ‏ وَالدَّمْعُ يَحْمِلُ بَعْضَ شَجْوِ الْمُغْرَمِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا عبد الله أحمد بن أبى دواد ، وأولها قوله :

سَقَى عَهْدَ الْحِمَى سَبَلُ الْعِهادِ ‏ ‏ وَرَوَّضَ حَاضِرٌ مِنْهُ وَبَادِ

(٣) الخرق : السخى ، أو الظريف . ويصادى : يعارض :

(٤) جدير : خليق . وصاد : عطشان .

وله من أبيات تتضمن مرثية[١] :

لَقَدْ فُجِعَتْ عَتَّابُهُ وَزُهَيْرُهُ وَتَغْلِبُهُ أُخْرَى اللَّيَالِي وَوَائِلُهْ[٢]
وَمُبْتَدِرُ الْمَعْرُوفِ تَسْرِي هِبَاتُهُ إِلَيْهِمْ وَلاَ تَسْرِي إِلَيْهِمْ غَوَائِلُهْ
طَوَاهُ الرَّدَى طَيَّ الرِّدَاءِ وَغُيِّبَتْ فَضَائِلُهُ عَنْ قَوْمِهِ وفَوَاضِلُهْ
طَوَى شِيَماً كَانَتْ تَرُوحُ وَتَغْتَدِي وَسَائِلَ مَنْ أَعْيَتْ عَلَيْهِ وَسَائِلُهْ
فَيَاعَا ضاً لِلْعُرْفِ أَقْلَعَ مُزْنُهُ وَيَاوَادِيًا لِلْجُودِ جَفَّتْ مَسَايِلُهْ
أَلَمْ تَرَنِي أَنْزَفْتُ عَيْنِي عَلَى أَبِي مُحَمَّدٍ النَّجْمِ الْمُشَرِّقِ آفِلُهْ[٣]
وَأَخْضَلْتُهَا فِيهِ كَمَالَوْ أَتَيْتُهُ طَرِيدَ اللَّيَالِي أَخْضَلَتْنِي نَوَافِلُهْ[٤]

وهذا من أحسن ما يجيء فى هذا الباب ، وليس بمتكلف كشعر أبى العلاء ؛ فإن حسن هذا مطبوع ، وحسن ذاك مصنوع ، وكذلك أقول فى غير اللزوم من الأنواع المذكورة أولا ؛ فإن الألفاظ إذا صدرت فيها عن سهولة خاطر وسلاسة طبع وكانت غير مُسْتَجْلَبة ولا متكلفه جاءت غير محتاجة إلى التأنق ، ولا شك أن صورة الخلقة غير صورة التخلق .

فان قيل : ماالفرق بين المتكلَّف من هذه الأنواع وغير المتكلف ؟ .

قلت فى الجواب : أما المتكلف فهو الذى يأتى بالفكرة والروية ، وذلك أن يُنْفَى الخاطر فى طلبه ، ويُبْعَث على تتبعه واقتصاص أثره ، وغير المتكلف يأتى

(١) هى مرثية يرثى فيها القاسم بن طوق ، وأولها قوله :

جَوًى سَاوَرَ الْأَحْشَاءَ وَالْقَلْبُ وَاغِلُهْ وَدَمْعٌ يَضِيمُ الْعَيْنَ وَالْجَفْنُ هَامِلُهْ

(٢) « وتغلبه » كذا فى الديوان . وفى ا ، ب ، ج « وثعلبة » وهو تحريف .

(٣) فى الديوان « المغيب آفله » .

(٤) كذا فى الديوان ، وفى ا ، ب ، ج «وأخلصتها» و «وأخلصتنى» وهوتحريف.

مستريحاً من ذلك كله ، وهو أن يكون الشاعر فى نظم قصيدته أو الخطيب أو الكاتب فى إنشاء خطبته أو كتابته ، فبينا هو كذلك إذ سنح له نوع من هذه الأنواع بالاتفاق لا بالسعى والطلب ؛ ألا ترى إلى قول أبى نُوَاس فى مثل هذا الموضع :

أُتْرُكِ الأَطْلاَلَ لاَ تَعْبأْ بِهَا   إِنَّها مِنْ كلِّ بُؤْسٍ دَانِيَهْ
وَانْعَتِ الرَّاحَ عَلَى تَحْرِيمِها   إِنَّما دُنْيَاكَ دَارٌ فانِيَهْ
مِنْ عُقَارٍ مَنْ رَآها قالَ لِى   صِيدَتِ الشَّمْسُ لَنا فى آنِيَهْ

وعلى هذه السهولة واللطافة ورد قوله أيضاً :

كَمْ مِنْ غُلاَمٍ ذِى مَحَاسِين   أَفْسَدَهُ نَاطِفُ يَاسِين

وهذا ياسين كان يبيع الناطف ببغداد .

وحكى إبراهيم البندنيجى قال : رأيت شيخاً ضعيفاً يبيع ناطفاً ، فقلت له : ياشيخ ، أما زلت فى هذه الصناعة ؟ قال : مذ كنت ، ولكن الحال كانت واسعة والسلعة نافقة ، وكنت ممن يشار إلىّ ، حتى قال أبو نواس فىّ ، وأنشده هذا البيت.

فانظر أيها المتأمل ما أحلى لفظ أبى نواس فى لزومه ، وما أعراه عن الكلفة ، وكذلك فلتكن الألفاظ فى اللزوم وغيره .

واعلم أنه إذا صُغِّرَتْ الكلمة الأخيرة من الشعر أو من فواصل الكلام المنثور فإن ذلك ملحق باللزوم ، ويكون التصغير عوضاً عن تساوى الحروف التى قبل روى الأبيات الشعرية والحروف التى قبل الفاصلة من النثر ؛ فمن ذلك قول بعضهم :

عَزَّ عَلَى لَيْلَى بِذِى سُدَيْرِ   سُوءُ مَبِيتِى لَيْلَةَ الْغُمَيْرِ

مُقَضَّباً نَفْسِيَ فى طُمَيْرِ ... تَنْتَهِزُ الرِّعْدَةُ فى ظُهَيْرِى (١)
يَهْفُو إِلَىَّ الزَّوْرُ مِنْ صُدَيْرِى ... ظَمْآنَ فى رِيحٍ وَفى مُطَيْرِ
وَازِرَ قُرٍّ لَيْسَ بِالْغُرَيْرِ ... مِنْ لَدُ مَا ظُهْرٍ إِلَى سُحَيْرِ (٢)
حَتَّى بَدَتْ لِى جَبْهَةُ الْقُمَيْرِ ... لِأَرْبَعٍ خَلَوْنَ مِنْ شُهَيْرِ

وهذا من محاسن الصنعة فى هذا الباب فاعرفه .

وأحسن منه ماورد عن أبى نواس وعن عنان جارية النطاف ، وله معها حكايات كثيرة غير هذه ، فقال أبو نواس :

أَمَا تَرِقِّ لِصَبٍّ ... يَكْفِيهِ مِنْكِ نُظَيْرَهْ (٣)

فقالت عنان :

إِيَّاىَ تَعْنِى بِهٰذَا ... عَلَيْكَ فاجْلِدْ عُمَيْرَهْ

فقال أبو نواس :

أَخافُ إِنْ رُمْتُ هٰذَا ... عَلَى يَدِى مِنْكِ غَيْرَهْ

فالبيتان الأول والثانى من هذا الباب ، والثالث جاء تبعاً .

وقد ورد فى القرآن الكريم شىء من اللزوم إلا أنه يسير جداً .

فمن ذلك قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ، الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) وقوله تعالى : (وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ) وكذلك ورد قوله تعالى فى

(١) هذا البيت ورد فى شواهد العينى :

* تَنْتَهِضُ الرِّعْدَةُ فى ظُهَيْرِى *

(٢) ورد فى شواهد العينى :

* مِنْ لَدُنِ الظُّهْرِ إِلى الْعُصَيْرِ *

(٣) فى ا ، ب ، ج « قطيره » .

هذه السورة : (فَذَكِّرْ فَما أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ ، أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ) .

وربما وقع بعض الجهال فى هذا الموضع ؛ فأدخل فيه ماليس منه ؛ كقوله تعالى : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ، فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) وهذا لايدخل فى باب اللزوم ؛ لأن الأصل فيه نعم وجحم . والياء هى من حروف المد واللين ، فلا يعتد بها ههنا .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ، فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ) .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) .

وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى فى قصة إبراهيم عليه السلام : (يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ، قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا) .

وعلى نحو هذا جاء قوله تعالى : (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ، قَالَ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ) .

ولا تجد أمثال ذلك فى القرآن إلا قليلا .

النوع الخامس : فى الموازنة

وهى أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية فى الوزن ، وأن يكون صدر البيت الشعرى وعجزه متساوى الألفاظ وزناً ، وللكلام بذلك طلاوة

ورونق ، وسببه الاعتدال ؛ لأنه مطلوب فى جميع الأشياء ، وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلةً وقعت من النفس موقع الاستحسان ، وهذا لامراء فيه لوضوحه .

وهذا النوع من الكلام هو أخو السجع فى المعادلة دون المماثلة ؛ لأن فى السجع اعتدالا وزيادة على الاعتدال ، وهى تماثل أجزاء الفواصل لورودها على حرف واحد ، وأما الموازنة ففيها الاعتدال الموجود فى السجع ، ولا تماثل فى فواصلها ؛ فيقال إذاً : كل سجع موازنة ، وليس كل موازنة سجعاً ، وعلى هذا فالسجع أخص من الموازنة .

فمما جاء منها قوله تعالى (وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ، وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) فالمستبين والمستقيم على وزن واحد .

وكذلك قوله تعالى فى سورة مريم عليها السلام : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ، أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ، فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا) .

وكذلك قوله تعالى فى سورة طه : (مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ، خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا) .

وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة حم عسق : (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ، يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ، اللَّهُ

لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ، مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ، أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَالَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) ، وهذه الآيات جميعها على وزن واحد ؛ فإن « شديد » و « قريب » و « بعيد » و « عزيز » و « نصيب » و « أليم » و « كبير » كل ذلك على وزن فَعِيل ، وإن اختلف حروف المقاطع التى هى فواصلها .

وأمثال هذا فى القرآن كثير ، بل معظم آياته جارية على هذا النهج ، حتى إنه لا تخلو منه سورة من السور ، ولقد تَصَفَّحْتُه فوجدته لا يكاد يخرج منه شىء عن السجع والموازنة .

وأما ماجاء من هذا النوع شعراً فقول ربيعة بن ذؤابة(١) :

إِنْ يَقْتُلُوكَ فَقَدْ ثَلَلْتَ عُرُوشَهُمْ ... بِعُتَيْبَةَ بْنِ الْحَرِثِ بْنِ شِهَابِ
بِأَشَدِّهِمْ بَأْساً عَلَى أَصْحَابِهِ ... وَأَعَزِّهِمْ فَقْداً عَلَى الأَصْحَابِ(٢)

فالبيت الثانى هو المختص بالموازنة ؛ فإن بأسا وفَقْدا على وزن واحد .

(١) كذا وقع فى ا ، ب ، ج . والذى فى شرح الحماسة للتبريزى (٢ - ٣٢٢) أن اسم الشاعر رُبَيِّعَة بن عُبَيْد بن سعد بن جذيمة بن مالك من نصر بن قُعَيْن ، وهو أبو ذؤاب الأسدى .

(٢) فى الحماسة :

* بِأَشَدِّهِمْ كَلَباً عَلَى أَعْدَائِهِمْ *

النوع السادس : فى اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها

وهو من هذه الصناعة بمنزلة علية ، ومكانة شريفة ، وجُلّ الألفاظ اللفظية مَنُوطة به ، ولقد لقيت جماعة من مدعى فن الفصاحة ، وفاوضتهم وفاوضونى ، وسألتهم وسألونى ، فما وجدت أحداً منهم تَيَقّنَ معرفة هذا الموضع كما ينبغى ، وقد استخرجت فيه أشياء لم أسبق إليها ، وسيأتى ذكرها هٰهنا .

أما اختلاف صيغ الألفاظ فإنها إذا نقلت من هيئة إلى هيئة ؛ كنقلها مثلا من وزن من الأوزان إلى وزن آخر وإن كانت اللفظة واحدة ، أو كنقلها من صيغة الاسم إلى صيغة الفعل، أو من صيغة الفعل إلى صيغة الأسم ، أوكنقلها من الماضى إلى المستقبل أو من المستقبل إلى الماضى ، أو من الواحد إلى التثنية أو إلى الجمع أو إلى النسب أو إلى غير ذلك ؛ انتقل قُبْحُها فصار حسناً ، وحسنها صار قبحاً .

فمن ذلك لفظة « خَوْد » فإنها عبارة عن المرأة الناعمة ، وإذا نقلت إلى صيغة الفعل قيل خَوَّدَ على وزن فَعَّل ـ بتشديد العين ـ ومعناها أسرع ، يقال : خَوَّدَ البعيرُ ؛ إذا أسرع ؛ فهى على صيغة الاسم حسنة رائقة ، وقد وردت فى النظم والنثر كثيراً ، وإذا جاءت على صيغة الفعل لم تكن حسنة ، كقول أبى تمام[1] :

وَإِلَى بَنِى عَبْدِ الْكَرِيمِ تَوَاهَقَتْ رَتْكَ النَّعَامِ رَأَى الظَّلَامَ فَخَوَّدَا

وهذا يقاس عليه أشباهه وأنظاره ، إلا أن هذه اللفظة التى هى خود قد

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن عبد الكريم ، وأولها قوله :

يَادَارُ دَارَ عَلَيْكِ إِرْهَامُ النَّدَى وَاهْتَزَّ رَوْضُكِ فى الثَّرَى فَتَأَوَّدَا

نقلت عن الحقيقة إلى المجاز ، خف عنها ذلك القبح قليلا ؛ كقول بعض شعراء الحماسة (١) :

أَقولُ لِنَفْسِي حِينَ خَوَّدَ رَأْلُهَا رُوَيْدَكِ لَمَّا تُشْفِقِي حِينَ مُشْفَقِ
رُوَيْدَكِ حَتَّى تَنْظُرِي عَمَّ تَنْجَلِي غَيابَةُ هٰذَا البَارِقِ الْمُتَأَلِّقِ (٢)

والرَّأْل : النعام ، والمراد به ههنا أن نفسه فرّت وفزعت ، وشبه ذلك بإسراع النعام فى فراره وفزعه ، ولما أورده على حكم المجاز خفّ بعضُ القبح الذى على لفظة خَوَّد ، وهذا يدرك بالذوق الصحيح ، ولا خفاء بما بين هــذه اللفظة فى إيرادها ههنا و إيرادها فى بيت أبى تمام ؛ فإنها وردت فى بيت أبى تمام قبيحة سمجة ، ووردت ههنا بين بين .

ومن هذا النوع لفظة وَدَعَ وهى فعل ماض ثلاثى لاثقل بها على اللسان ، ومع ذلك فلا تستعمل على صيغتها الماضية إلا جاءت غير مستحسنة ، ولـكنها تستعمل مستقبلة ، وعلى صيغة الأمر ، فتجىء حسنة ، أما الأمر فكقوله تعالى : (فَدَعْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا) (٣) ولم تأت فى القرآن الـكريم إلا على هذه الصيغة ؛ وأما كونها مستقبلة فكقول النبى صلى الله عليه وسلم وقد واصل فى شهر رمضان فواصل معه قوم : « لَوْ مُدَّ لَنَا الشَّهْرُ لَوَاصَلْنَا وِصَالاً يَدَعُ لَهُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ » وقال أبو الطيب المتنبى (٤) :

---

(١) نسبهما أبو تمام لرجل من بنى أسد ولم يعينه (انظر شرح التبريزى : ١ - ١٤١)

(٢) فى الحماسة :

* عَمَايَةُ هٰذَا الْعَارِضِ الْمُتَأَلِّقِ *

(٣) القرآن الـكريم : (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا) .

(٤) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ، وأولها قوله :

غَيْرِى بِأَكْثَرِ هٰذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجُعُوا

تَشُقُّكُمْ بِقَنَاهَا كُلُّ سَلْهَبَةٍ وَالضَّرْبُ يَأْخُذُ مِنْكُمْ فَوْقَ مَا يَدَعُ[(١)]

وأما الماضى من هذه اللفظة فلم يستعمل إلا شاذاً ولا حسن له ، كقول أبى العتاهية :

أَثْرَوْا فَلَمْ يُدْخِلُوا قُبُورَهُمْ شَيْئاً مِنَ الثَّرْوَةِ الَّتِى جَمَعُوا

وَكَانَ مَا قَدَّمُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ نَفْعاً مِنَ الَّذِى وَدَعُوا

وهذا غير حسن فى الاستعمال ، ولا عليه من الطلاوة شىء ، وهذه لفظة واحدة لم يتغير من حالها شىء ، سوى أنها نقلت من الماضى إلى المستقبل لاغير

وكذلك لفظه وذَرَ ، فإنها لاتستعمل ماضية ، وتستعمل على صيغة الأمر ، كقوله تعالى : (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا) وتستعمل مستقبلة أيضاً ، كقوله تعالى:(سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَاسَقَرُ ، لَاتُبْقِى وَلَا تَذَرُ) فهى لم ترد فى القرآن إلا على هاتين الصيغتين ، وكذلك فى فصيح الكلام غير القرآن ، وأما إذا جاءت على صيغة الماضى فإنها لاتستعمل ، وهى أقبح من لفظة ودع ، لأن لفظة وَدَعَ قد استعملت ماضية ، وهذه لم تستعمل .

وههنا فلينعم الخائضون فى هذا الفن نظرهم ، ويعلموا أن فى الزوايا خبايا ، وإذا أنعموا الفكر فى أسرار الألفاظ عند الاستعمال ، وأغرقوا فى الاعتبار والكشف ؛ وجدوا غرائب وعجائب .

ومن هذا النوع لفظة الأَخْدَعِ ، فإنها وردت فى بيتين من الشعر ، وهى فى أحدهما حسنة رائقة ، وفى الآخر ثقيلة مستكرهة ، كقول الصِّمَّة بن عبد الله من شعراء الحماسة[(٢)] .

---

(١) وقع فى ا ، ب ، ج «يشقكم بقناها» وهو تحريف ، والذى أثبتناه عن الديوان.

(٢) وقع فى ا ، ب ، ج «ابن الصمة عبد الله» والصواب أنه « الصمة بن عبد الله

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي وَجِعْتُ مِنَ الإِصْغَاءِ لِيتاً وَأَخْدَعَا(١)

وكقول أبي تمام(٢) :

يَادَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضْجَجْتَ هٰذَا الأَنَامَ مِنْ خُرُقِكْ

ألا ترى أنه وجد لهذه اللفظة فى بيت أبى تمام من الثقل على السمع والكراهة فى النفس أضعاف ماوجد لها فى بيت الصمة بن عبد الله من الروح والخفة والإيناس والبهجة ، وليس سبب ذلك إلا أنها جاءت مُوَحَّدَة فى أحدهما مُثَنَّاه فى الآخر ، وكانت حسنة فى حالة الإفراد ، مستكرهة فى حالة التثنية ، و إلا فاللفظة واحدة ، و إنما اختلاف صيغتها فعل بها ماترى .

ومن هذا النوع ألفاظ يعدل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العدول عنها ، ولا يستفتى فى ذلك إلا الذوق السليم ، وهذا موضع عجيب لا يعلم كنه سره .

فمن ذلك لفظة اللب الذى هو العقل ، لا لفظة اللب الذى تحت القشر ، فإنها لا تحسن فى الاستعمال إلا مجموعة ، وكذلك وردت فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة وهى مجموعة ، ولم ترد مفردة ، كقوله تعالى : (وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) و (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْبَابِ) وأشباه ذلك ، وهذه اللفظة ثلاثية خفيفة على النطق ، ومخارجها بعيدة ، وليست بمستثقلة ولا مكروهة

القشيرى » والبيت من أبيات اختارها أبو تمام فى باب النسيب من ديوان الحماسة ، وأول هذه الأبيات قوله :

حَنَنْتَ إِلَى رَيَّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ مَزَارَكَ مِنْ رَيَّا وَشَعْبَا كُمَا مَعَا

(١) وقع فى ب ، ج ، « لينا وأخدعا » وهو تحريف .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن الهيثم ، وأولها قوله :

قَدْ مَاتَ مَحْلُ الزَّمَانِ مِنْ فَرَقِكْ وَاكْتَنَّ أَهْلُ الإِعْدَامِ مِنْ وَرَقِكْ

وقد تستعمل مفردة بشرط أن تكون مضافة أو مضافا إليها : أما كونها مضافا إليها فكقولنا : لايعلم ذلك إلا ذو لُبٍّ ، وإن فى ذلك لعبرة لذى لب ، وعليه ورد قول جرير :

إنَّ العُيُونَ الَّتِي فى طَرْفِها حَوَرٌ   قَتَلْنَنا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلانَا
يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حَتَّى لاَ حِرَاكَ بِهِ   وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ أَرْكَانَا

وأما كونها مضافة فكقول النبى صلى الله عليه وسلم فى ذكر النساء : « مَا رَأَيْتُ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ » ؛ فإن كانت هذه اللفظة عارية عن الجمع أو الإضافة فإنها لاتأتى حسنة ؛ ولا تجد دليلا على ذلك إلا مجرد الذوق الصحيح ، وإذا تأملت القرآن الكريم ودققت النظر فى رموزه وأسراره وجدت مثل هذه اللفظة قد روعى فيها الجمع دون الإفراد كلفظة كُوب ، فإنها وردت فى القرآن مجموعة ، ولم ترد مفردة ، وهى وإن لم تكن مستقبحة فى حال إفرادها فإن الجمع فيها أحسن ، لكن قد ترد مفردة مع ألفاظ أخر تندرج معهن فيكسوها ذلك حسناً ليس لها ؛ وذلك كقولى فى جملة أبيات أصف بها الخمر وما يجرى معها من آلاتها :

ثَلاثَةٌ تُعْطِى الْفَرَحْ   كَأْسٌ وَكُوبٌ وَقَدَحْ
مَا ذَبَحَ الذَّوْقُ بِهَا   إِلاَّ وَلِلْهَمِّ ذَبَحْ

فلما وردت لفظة الكوب مع الكأس والقدح على هذا الأسلوب حسنها ، وكأنه جلاها فى غير لباسها الذى كان لها إذ جاءت بمفردها .

وكذلك وردت لفظة رَجًا بالقصر ، والرَّجَا : الجانب ، فإنها لم تستعمل مُوَحَّدَة وإنما استعملت مجموعة ، كقوله تعالى : (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ) فلما وردت هذه اللفظة مجموعة ألبسها الجمع

ثوبا من الحسن لم يكن لهـا فى حال كونها مُوَحَّدة ، وقد تستعمل موحدة بشرط الإضافة ، كقولنا : رَجَا الْبِئْرِ .

ولربمـا أخطأ بعض الناس فى هذا الموضع وقاسَ عليه ماليس بمقيس ؛ وذلك أنه وقف على ماذكرته ههنا واقف ؛ فقال : وكذلك قد وردت لفظة الصوف فى القرآن الكريم ، ولم ترد إلا مجموعة ، كقوله تعالى : (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَومَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ) وهذا بخلاف ماوردت عليه فى شعر أبى تمام[(١)]

كانُوا بُرُودَ زَمانِهِمْ فَتَصَدَّعُوا فَكَأَنَّمَا لَبِسَ الزَّمانُ الصُّوفَا

وهـذا ليس كالذى أشرت إليه ؛ فإن لفظة الصوف لفظة حسنة مفردة ومجموعة ، وإنما أزرى بها فى قول أبى تمام أنها جاءت مجازِيَّةً فى نسبتها إلى الزمان .

وعلى هذا النهج وردت لفظة خبر وأَخْبَار ؛ فان هذه اللفظة مجموعة أحسن منها مفردة ، ولم ترد فى القرآن إلا مجموعة .

وفى ضد ذلك ماورد استعماله من الألفاظ مفرداً ولم يرد مجموعا ، كلفظة الأرض ؛ فإنها لم ترد فى القرآن إلا مفردة فإذا ذكرت السماء مجموعة جىء بها مفردة معها فى كل موضع من القرآن ، ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل : (وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) فى قوله تعالى : (اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) .

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد يوسف ، وأولها قوله :

أَطْلَالُهُمْ سُلِبَتْ دُمَاهَا الْهِيفَا وَاسْتَبْدَلَتْ وَحْشاً بِهِنَّ عُكُوفَا

ومما ورد من الألفاظ مفرداً فكان أحسن مما يرد مجموعا لفظة البُقْعة ، قال الله تعالى فى قصة موسى عليه السلام : (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ مِنْ شاطِىءِ الْوَادِى الْأَيْمَنِ فى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا اللهُ) والأحسن استعمالها مفردة لامجموعة ، و إن استعملت مجموعة فالأولى أن تكون مضافة كقولنا : بِقاع الأرض ، أو ماجرى مجراها .

وكذلك لفظة طَيْف ، فى ذكر طَيْفِ الخيال ؛ فإنها لم تستعمل إلا مفردة ، وقد استعملها الشعراء قديماً وحديثاً فلم يأتوا بها إلا مفردة ، لأن جمعها جمع قبيح ؛ فإذا قيل طُيُوف كان من أقبح الألفاظ وأشدها كراهة على السمع ، ويالله للعجب من هذه اللفظة ومن أختها عدة و وزنا وهى لفظة ضَيْف ؛ فإنها تستعمل مفردة ومجموعةً ، وكلاهما فى الاستعمال حسن رائق ، وهذا مما لايعلم السر فيه ؛ والذوق السليم هو الحاكم فى الفرق بين هاتين اللفظتين وما يجرى مجراهما .

وأما جمع المصادر فإنه لا يجىء حسناً ، والإفراد فيه هو الحسن ، ومما جاء فى المصادر مجموعاً قول عنترة(١) :

فإِنْ يَبْرَأْ فلَمْ أَنْفِثْ عَلَيْهِ وَإِنْ يُفْقَدْ فَحُقَّ لهُ الْفُقُودُ

قوله الفقود جمع مصدر من قولنا فَقَدَ يَفْقِدُ فَقْداً ، واستعمال مثل هذه اللفظة غير سائغ ولالذيذ ، و إن كان جائزاً ، ونحن فى استعمال ما نستعمله من الألفاظ واقفون مع الحسن ، لا مع الجواز .

وهذا كله يرجع إلى حاكم الذوق السليم ؛ فإن صاحب هذه الصناعة يصرف الألفاظ بضروب التصريف ، فما عذب فى فَمِهِ منها استعمله ، وما لَفَظَهُ فَمُهُ

---

(١) من أبيات له أولها قوله :

تَرَكْتُ بَنِى الْهُجَيْمِ لَهُمْ دَوَارٌ إِذَا تَمْضِى جَمَاعَتُهُمْ تَعُودُ

تركه، ألا ترى أنه يقال : الأمَّة بالضم عبارة عن الجمع الكثير من الناس ، ويقال الإمة بالكسر وهى النعمة ، فإن الأُمة بالضم لفظة حسنة ، و بالكسر ليست بحسنة ، واستعمالها قبيح .

ورأيت صاحب كتاب الفصيح قد ذكرها فيما اختاره من الألفاظ الفصيحة؛ وياليت شعرى ! ما الذى رآه من فصاحتها حتى اختارها ؟ وكذلك قد اختار ألفاظاً أخر ليست بفصيحة ، ولا لوْمَ عليه ؛ لأن صدور مثل ذلك الكتاب عنه كثير ، وأسرار الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية ، و إنما تؤخذ منهم مسألة نحوية أو تصريفية ، أو نقل كلمة لغوية ، وما جرى هذا المجرى ؛ وأما أسرار الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها . و إذا شذ عن صاحب كتاب الفصيح ألفاظ معدودة ليست بفصيحة فى جملة كثيرة ذكرها من الفصيح فإن هذا منه كثير .

ومما يذكر فى هذا الباب أنه يقال : سَهْم صائب ؛ فإذا جمع الجمع الحسن الذى يعذب فى الفم قيل : سِهَام صَوَائب وصَائِبات وصُيَّب ؛ فإذا جمع الجمع الذى يقبح قيل : سهام صُيُب ، على وزن كُتُب ، قال أبو نواس :

مَا أَحَلَّ اللهُ مَا صَنَعَتْ عَيْنُهُ تِلْكَ الْعَشِيَّةَ بِى
قَتَلَتْ إِنْسَانُهَا كَبِدِى بِسِهَامٍ لِلرَّدَى صُيُبِ

فقوله « سهامٍ صُيُبِ » من اللفظ الذى ينبو عنه السمع ، و يحيد عنه اللسان ، ومثله ورد قول عُوَيف القوافى (١) من أبيات الحماسة :

ذَهَبَ الرُّقَادُ فَمَا يُحَسُّ رُقَادُ مِمَّا شَجَاكَ وَنَامَتِ الْعُوَّادُ
لَمَّا أَتَانِى مِنْ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ أَمْسَتْ عَلَيْهِ تَظَاهَرُ الأَقْيَادُ (٢)

---

(١) فى ا ، ب ، ج « عريف القوافى » وهو تحريف . والبيتان فى ديوان الحماسة وليسا بمتصلين (انظر شرح التبريزى : ١ — ٢٥٣) .

(٢) فى ا ، ب ، ج « بظاهر أقياد » وهو تحريف ، والتصويب عن الحماسة .

فقوله « أقياد » فى جمع قَيْد مما لايحسن استعماله ، بل الحسن أن يقال فى جمعه : قُيُود ، وكذلك قول مرة بن مَحْكَان التميمى من أبيات الحماسة ، وذلك من جملة الأبيات المشهورة التى أولها(١) :

يَارَبَّةَ الْبَيْتِ قُومِى غَيْرَ صَاغِرَةٍ ضُمِّى إِلَيْكِ رِحَالَ الْقَوْمِ وَالْقُرُبَا

فقال فيها :

مَاذَا تَرَيْنَ أَنُدْنِيهِمْ لِأَرْحُلِنَا فِى جَانِبِ الْبَيْتِ أَمْ نَبْنِى لَهُمْ قُبَبَا

فإنه جمع قُبَّةً على قُبَب ، وذلك من المستبشع الكريه ، والأحسن المستعمل هو قِبَاب لاقُبَب ، وكذلك يجرى الأمر فى غير هذا .

ومن المجموع مايختلف استعماله ، وإن كان متفقاً فى لفظة واحدة ، كالعين الناظرة وعين الناس وهو النبيه فيهم ؛ فإن العين الناظرة تجمع على عُيُون ، وعَيْن الناس تجمع على أعْيان ، وهذا يرجع فيه إلى الاستحسان ، لا إلى جائز الوضع اللغوى .

وقد شذ هذا الموضع عن أبى الطيب المتنبى فى قوله(٢) :

وَالْقَوْمُ فِى أَعْيَانِهِمْ خَزَرٌ وَالْخَيْلُ فى أَعْيَانِهَا قَبَلُ

فجمع العين الناظرة على أعيان ، وكان الذوق يأبى ذلك ، ولا تجد له على اللسان حلاوة وإن كان جائزًا .

ولولا خوف الإطالة لأوردت من هذا النوع وأمثاله أشياء كثيرة ، وكشفت

---

(١) انظر شرح التبريزى على الحماسة (٤ – ١٢٣) .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها عضد الدولة ، وأولها قوله :

إِثْلِثْ فَإِنَّا أَيُّهَا الطَّلَلُ نَبْكِى وَتُرْزِمُ تَحْتَنَا الْإِبِلُ

عن رموز وأسرار تخفى على كثير من متعاطى هذا الفن ؛ لكن فى الذى أشرت إليه مُنَبِّه لأهل الفطانة والذكاء أن يحملوه على أشباهه وأنظاره .

وأعجب من ذلك كله أنك ترى وزناً واحداً من الألفاظ ؛ فتارةً تجد مفرده حسناً ، وتارة تجد جمعه حسناً ، وتارة تجدهما جميعاً حسنين ؛ فالأول نحو حُبْرُور وهو فَرْخُ الْحُبارَى ؛ فإن هذه اللفظة يحسن مفردها لا مجموعها ؛ لأن جمعها على حَبَارِير ، وكذلك طُنْبُور وطنابير ، وعرقوب وعراقيب ؛ وأما الثانى فنحو بُهْلُول وبَهالِيل ، ولُهْمُوم ولَهَامِيم ، وهذا ضد الأول ؛ وأما الثالث فنحو جُمْهُور وجماهير ، وعُرْجُون وعَرَاجين ، فانظر إلى الوزن الواحد كيف يختلف فى أحواله مفرداً ومجموعا ؟ وهذا من أعجب مايجىء فى هذا الباب .

وهكذا قد جاءت ألفاظ على وزن واحد ثلاثية مسكنة الوسط وجميعها حسن فى الاستعمال ، وإذا أردنا أن نثقل وسطها حسن منها شىء دون شىء .

فمن ذلك لفظة الثُّلْث والرُّبْع إلى العُشْر فإن الجميع على وزن واحد ، وإذا ثقلنا أوساطها فقلنا ثُلُث ورُبُع وخُمُس ، وكذلك إلى عُشُر ؛ فإن الْحَسَن من ذلك جميعه ثلاثة ، وهى الثُّلُث والْخُمُس والسُّدُس ، والباقى وهو الرُّبُع والسُّبُع والثُّمُن والتُّسُع والعُشُر ، ليس كالأول فى حسنه ، هذا ، والجميع على وزن واحد وصيغة واحدة ، والجميع حسن فى الاستعمال قبل أن يثقل وسطه ، ولما ثقل صار بعضه حسناً وبعضه غير حسن .

وكذلك تجد الأمر فى أسماء الفاعلين كالثلاثى منها نحو فَعَل بفتح الفاء والعين وفَعِلَ بفتح الفاء وكسر العين وفَعُل بفتح الفاء وضم العين ، فإن هذه الأوزان الثلاثة لها أسماء فاعلين ، أما فَعَل بفتح الفاء والعين فليس له إلا اسم واحد أيضاً وهو فاعِل ، لاغير ، ولا يقع فيه اختلاف ، وكذلك فَعُل بفتح الفاء وضم العين فليس له إلا اسم واحد أيضاً ، وهو فَعِيل ، ولا يقع فيه اختلاف إلا

ماشذ ، لكن فَعِل بفتح الفاء وكسر العين يقع فى اسم فاعله الاختلاف استحسانا واستقباحا ، لأن له ثلاثة أوزان نحو فاعِل وفعِل وفعْلان ، تقول منه : حَمِدَ فهو حَامِد وحَمِد وحَمْدَان ، وقد جاء على وزنه فَرِحَ ، تقول منه : فَرِحَ زيد فهو فَرِح ، وهو الأحسن ، ولا يحسن أن يقال : فارِح ، ولا فَرْحَان ، وإن كان جائزا ، لكن فَرْحان أحسن من فارح ، وقد وردت هذه اللفظة فى القرآن الكريم فلا تستعمل إلا على فَرِحٍ لا غير ، كقوله تعالى : (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) وكقوله تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ) وقد جاءت هذه اللفظة فى شعر بعض شعراء الحماسة فى باب المراثى[1] :

فَمَا أَنَا مِنْ حُزْنٍ وَإِنْ جَلَّ جَازِعٌ ... وَلَا بِسُرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ

وهذا غير حسن ، وإن جاز استعماله .

وعلى نحو منه يقال : غَضِب وهو غَضْبَان ، ولا يقال : غَاضِب ، وإن كان جائزاً ، وقد تقدم القول أنَّا فى تأليف الكلام بصَدَد استعمال الحسن والأحسن. لا بصدد استعمال الجائز وغير الجائز .

ومما يجرى هذا المجرى قولنا فَعَلَ وافْتَعَلَ ، فإن لفظة فعل لها موضع تستعمل فيه ، ألا ترى أنك تقول : قَعَدْت إلى فلان أحَدِّثه ، ولا تقول : اقْتَعَدت إليه ، وكذلك تقول : اقْتَعَدْتُ غاربَ الجمل ، ولا تقول : قعَدْت عَلَى غارِب الجمل ، وإن جاز ذلك ، لكن الأول أحسن ، وهذا لا يحكم فيه غير الذوق السليم ، فإنه لا يمكن أن يقام عليه دليل .

وأما فعل وافْعَوْعَلَ فإنا نقول : أعْشَبَ الْمَكَانُ[2] ، فإذا كثر عشبه

---

(١) البيت لأشجع بن عمرو السلمى ، من كلمة اختارها أبو تمام فى الحماسة وأولها قوله :

مَضَى ابْنُ سَعِيدٍ حِينَ لَمْ يَبْقَ مَشْرِقٌ ... وَلَا مَغْرِبٌ إِلَّا لَهُ فِيهِ مَادِحُ

(انظر شرح التبريزى : ٢ - ٣٢٨) .

(٢) كذا فى جميع أصول الكتاب ، وهو صحيح لغة ، ولكنه لا يوافق ماقبله .

قلنا : اعْشَوْشَبَ ، فلفظة افْعَوْعَلَ للتكثير ، على أنى استقريت هذه اللفظة فى كثير من الألفاظ فوجدتها عَذبة طيبة على تكرار حروفها ، كقولنا : اخْشَوْشَنَ المكان ، واغْرَوْرَقَت العين ، واحْلَوْلَى الطعم ، وأشباهها .

وأما فُعَلَة نحو هُمَزَة ولُمَزَة وجُثَمَة ونُوَمَة ولُكَنَة ولُحَنَة ، وأشباه ذلك ؛ فالغالب على هذه اللفظة أن تكون حسنة ، وهذا أخذته بالاستقراء ، وفى اللغة مواضع كثيرة هكذا لا يمكن استقصاؤها .

فانظر إلى ما يفعله اختلاف الصيغة بالألفاظ ، وعليك أن تَتَفَقَّدَ أمثال هذه المواضع ، لتعلم كيف تضع يدك فى استعمالها ، فكثيراً مايقع فحول الشعراء والخطباء فى مثلها ، ومؤلف الكلام من كاتب وشاعر إذا مرّت به ألفاظ عَرَضَها على ذوقه الصحيح ، فما يجد الحسن منها موحداً وَحَّده ، وما يجد الحسن منها مجموعا جمعه ، وكذلك يجرى الحكم فيما سوى ذلك من الألفاظ .

النوع السابع : فى المعاظلة اللفظية

والمعاظلة معاظلتان : لفظية ، ومعنوية .

أما المعنوية فسيأتى ذكرها فى باب التقديم والتأخير من المقالة الثانية ، فليؤخذ من هناك .

وأما المعاظلة اللفظية ـ وهى المخصوصة بالذكر ههنا فى باب صناعة الألفاظ ـ وحقيقتها مأخوذة من قولهم : تعَاظَلَتِ الجرادتان ؛ إذا ركبت إحداهما الأخرى ، فسمى الكلام المتراكب فى ألفاظه أو فى معانيه المعاظلة مأخوذاً من ذلك ، وهو اسم لائق بمسماه .

ووصف عمر بن الخطاب رضى الله عنه زُهَيْر بن أبى سلمى فقال : كَانَ لَايُعَاظِلُ بَيْنَ الْكَلَامِ .

وقد اختلف علماء البيان فى حقيقة المعاظلة :

فقال قدامة بن جعفر الكاتب[١] : التعاظل فى الكلام هو أن يدخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه ، ولا أعرف ذلك إلا فاحش الاستعارة ، كقول أوس بن حجر[٢] :

وَذَاتِ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا   تُصْمِتُ بِالْمَاءِ تَوْلَبًا جَدِعًا[٣]

فسمى الظبى تولباً ، والتولب : ولد الحمار .

هذا ماذكره قدامة بن جعفر ، وهو خطأ ؛ إذ لو كان ماذهب إليه صوابًا لكانت حقيقة المعاظلة دخول الكلام فيما ليس من جنسه ، وليست حقيقتها هذه ، بل حقيقتها ماتقدم ، وهو التراكب ، من قولهم : تَعَاظَلَتِ الجرادتان ، إذا ركبت إحداهما الأخرى ، وهذا المثال الذى مثل به قُدامة لاتَرَكُّبَ فى ألفاظه ولا فى معانيه .

وأما غير قدامة فإنه خالفه فيما ذهب إليه ، إلا أنه لم يقسم المعاظلة إلى لفظية ومعنوية ، ولكنه ضرب لها مثالاً ، كقول الفرزدق[٤] :

وَمَا مِثْلُهُ فى النَّاسِ إلاَّ مُمَلَّكاً   أَبُو أُمِّهِ حَىٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

---

(١) انظر نقد الشعر لقدامة بن جعفر الكاتب (ص ٦٩ الجوائب) .

(٢) البيت من قصيدة له يمدح فيها فضالة بن كلدة فى حياته ويرثيه بعد وفاته وهى فى كثير من مراجع الأدب (انظر ذيل الأمالى ٣٤ دار الكتب) وأول هذه القصيدة قوله :

أَيَّتُهَا النَّفْسُ أَجْمِلِى جَزَعًا   إِنَّ الَّذِى تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

(٣) الهدم - بكسر فسكون - الأخلاق من الثياب ، والنواشر : عروق ظاهر الكف . والجدع - بفتح الجيم وكسر الدال - السيء الغذاء . ولهذا البيت قصة ظريفة انظرها فى ترجمة المفضل الضبى .

(٤) من قصيدة له يمدح فيها إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى خال هشام ابن عبد الملك بن مروان . كذا قاله العباسى فى معاهد التنصيص (ص٢١ بولاق) ولم أعثر على هذه القصيدة فى الديوان .

وهذا من القسم المعنوى ، لامن القسم اللفظى ، ألا ترى إلى تراكب معانيه بتقديم ما كان يجب تأخيره وتأخير ما كان يجب تقديمه ؛ لأن الأصل فى معناه : وما مثله فى الناس حىٌّ يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه ، وسيجيء شرح ذلك مستوفى فى بابه من المقالة الثانية ؛ إن شاء الله تعالى .

وإذ حققت القول فى بيان المعاظلة والكشف عن حقيقتها فإنى أتبع ذلك بتقسيم القسم اللفظى منها الذى أنا بصدد ذكره ههنا ، فأقول :

إنى تأملته بالاستقراء من الأشعار قديمها وَمُحْدَثِها ، ومن النظر فى حقيقتها نفسها ، فوجدتها تنقسم إلى خمسة أقسام :

الأول منها : يختص بأدوات الكلام ، نحو مِنْ و إلى وعَنْ وعلى ، وأشباهها؛ فإن منها مايسهل النطق به إذا ورد مع أخواته ، ومنها مالا يسهل ، بل يرد ثقيلا على اللسان ، ولكلٍّ موضعٌ يخصه من السبك .

فمما جاء منه قول أبى تمام[1] :

إِلَى خَالِدٍ رَاحَتْ بِنَا أَرْحَبِيَّةٌ مَرَافِقُهَا مِنْ عَنْ كَرَاكِرِهَا نُكْبُ[2]

فقوله : « من عن كراكرها » من الكلام المتعاظل الذى يثقل النطق به ، على أنه قد وردت هاتان اللفظتان ، وهما مِنْ وعَنْ ، فى موضع آخر فلم يثقل النطق بهما ، كقول القائل : مِنْ عَنْ يَمِينِ الطَّرِيقِ ، والسبب فى ذلك أنهما وردتا فى بيت أبى تمام مضافتين إلى لفظة الْكَرَاكر ، فثقلت منهما ، وجعلتهما

(١) من قصيدة له يمدح فيها خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، وأولها قوله :

لَقَدْ أَخَذَتْ مِنْ دَارِ مَاوِيَّةَ الْحُقْبُ أَنُحْلُ الْمَغَانِي لِلْبِلَى هِيَ أَمْ نَهْبُ

(٢) الأرحبية : ناقة منسوبة إلى أرحب ، وهو فحل من فحولة الإبل الكريمة ، والكراكر : جمع كركرة ، وهى رحى صدرها وخواصرها ، والنكب : جمع ، نكباء ، وهى المائلة .

مكروهتين كما ترى ، و إلا فقد وردتا فى شعر قَطَرِىّ بن الفُجَاءة فكانتا خفيفتين ، كقوله[١] :

وَلَقَدْ أَرَانِى لِلرِّمَاحِ دَرِيئَةً ... مِنْ عَنْ يَمِينِى مَرَّةً وَأَمَامِى

والأصل فى ذلك راجع إلى السبك ، فإذا سبكت هاتان اللفظتان أو مايجرى مجراهما مع ألفاظ تسهل منهما لم يكن بهما من ثقل ، كما جاءتا فى بيت قطرى ، و إذا سبكتا مع ألفاظ تثقل منهما جاءتا كما جاءتا فى بيت أبى تمام .

ومن هذا القسم قول أبى تمام أيضاً[٢] :

كَأَنَّه لاُجْتِمَاعِ الرُّوحِ فِيـهِ لَهُ ... فِى كُلِّ جارِحَةٍ مِنْ جِسْمِهِ رُوحُ

فقوله فى بعد قوله فيه له مما لا يحسن وروده .

وكذلك ورد قول أبى الطيب المتنبى :

وَتُسْعِدُنِى فِى غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ ... سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

فقوله « لها منها عليها » من الثقيل الثقيل الثقيل .

وكذلك قوله[٣] :

تَبِيتُ وُفُودُهُمْ تَسْرِى إِلَيْهِ ... وَجَدْوَاهُ الَّـتِى سَأَلُوا اغْتِفَارُ

فَخَلَّفَهُمْ بِرَدِّ الْبِيضِ عَنْهُمْ ... وَهَامُهُمُ لَهُ مَعَهُمْ مُعَـارُ

---

(١) من كلمة له اختارها أبو تمام فى الحماسة (انظر شرح التبريزى : ١ - ١٣٠) وأولها قوله :

لاَيَرْكَنَنْ أَحَدٌ إِلَى الإِحْجَامِ ... يَوْمَ الْوَغَى مُتَخَوِّفاً لِحِمَـامِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى ، وأولها قوله :

قُلْ لِلأَمِيرِ لَقَدْ قَلَّدْتَنِى نِعَماً ... فُتَّ الثَّنَاءَ بِهَا مَاهَبَّتِ الرِّيحُ

(٣) من قصيدة له فى سيف الدولة ، وأولها قوله :

طِوَالُ قَناً تُطَاعِنُهَا قِصَارُ ... وَقَطْرُكَ فى نَدًى وَوَغًى بِحَارُ

وقوله « وهامهم له معهم » مما يثقل النطق به ، ويتعثَّر اللسان فيه ، لكنه أقرب حالاً من الأول .

ومن الحسن فى هذا الموضع قول أبى تمام[(١)] :

دَارٌ أُجِلُّ الْهَوَى عَنْ أَنْ أُلِمَّ بِهَا فِي الرَّكْبِ إِلَّا وَعَيْنِي مِنْ مَنَائِحِهَا

فقوله « عن أن » فى هذا البيت من الخفيف الحسن الذى لابأس به .

القسم الثانى من المعاظلة اللفظية ، تختص بتكرير الحروف ، وليس ذلك مما يتعلق بتكرير الألفاظ ، ولا بتكرير المعانى ، مما يأتى ذكره فى باب التكرير فى المقالة الثانية ، وإنما هو تكرير حرف واحد أو حرفين فى كل لفظة من ألفاظ الكلام المنثور أو المنظوم ، فيثقل حينئذ النطق به .

فمن ذلك قول بعضهم[(٢)] :

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرِ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

فهذه القافات والراآت كأنها فى تتابعها سلسلة ، ولاخفاء بما فى ذلك من الثقل .

وكذا ورد قول الحريرى فى مقاماته :

وَازْوَرَّ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِراً وَعَافَ عَافِي الْعُرْفِ عِرْفَانَهُ

فقوله « وعاف عافى العرف عرفانه » من التكرير المشار إليه .

وكذلك ورد قوله أيضاً فى رسالتيه اللتين صاغهما على حرفى السين والشين ، فإنه أتى فى إحداهما بالسين فى كل لفظة من ألفاظها وأتى فى الأخرى بالشين فى كل لفظة من ألفاظها ، فجاءتا كأنهما رُقَى الْعَقَارب ، أو خُذْرُوفَة العزائم ، وما

(١) من قصيدة له يمدح فيها الفضل بن صالح الهاشمى ، وأولها قوله :

أَهْدَى الدُّمُوعَ إِلَى دَارٍ وَمَاصِحِهَا فَلِلْمَنَازِلِ سَهْمٌ مِنْ سَوَافِحِهَا

(٢) زعموا أن الجن قتلوا حرب بن أمية بن عبد شمس فى بادية بعيدة وأنهم قالوا هذا البيت فيه .

أعلم كيف خفي مافيهما من القبح على مثل الحريري مع معرفته بالجيد والرديء من الكلام .

ويحكى عن بعض الوعاظ أنه قال في جملة كلام أورده : جَنَى جَنَّاتِ وَجَنَاتِ الْحَبِيب ، فصاح رجل من الحاضرين في المجلس وماد وتغاشى ، فقال له رجل كان إلى جانبه : ما الذي سمعت حتى حدث بك هذا ؟ فقال: سمعت جيما في جيم في جيم فصحت .

وهذا من أقبح عيوب الألفاظ .

ومما جاء منه قول أبي الطيب المتنبي في قصيدته التي مطلعها :

* أَتُرَاهَا لِكَثْرَةِ الْعُشَّاقِ(١) *

كَيْفَ تَرْثِي الَّتِي تَرَى كُلَّ جَفْنٍ رَاءهَا غَيْرَ جَفْنِهَا غَـيْرَ رَاقِ(٢)

وهذا وأمثاله إنما يعرض لقائله في نوبة الصرع التي تنوب في بعض الأيام .

ومن هذا القسم قول الشاعر المعروف بكُشَاجم في قصيدته التي مطلعها :

* دَاوِ خُمَارِي بِكَأْسِ خَمْرِ(٣) *

وَالزَّهْرُ وَالْقَطْرُ فِي رُبَاهَا مَا بَيْنَ نَظْمٍ وَبَيْنَ نَثْرِ(٤)

---

(١) هذا صدر البيت ، وعجزه قوله :

* تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِي الْمَآقِي *

(٢) « راءها » أراد رآها ، فقلب الكلمة قلبا مكانيا

(٣) هذا صدر البيت ، وعجزه قوله :

* وَأَحْيِ سُكْرَ الْهَوَى بِسُكْرِ *

(٤) رواية الديوان :

فَالنَّوْرُ وَالطَّلُّ فِي رُبَاهُ مَا بَيْنَ نَظْمٍ وَبَيْنَ نَثْرِ

حَدَائِقُ كَفُّ كُلِّ رِيحٍ حَلَّ بِهَا خَيْطُ كُلِّ قَطْرٍ (١)

وهذا البيت يحتاج الناطق به إلى بركار يضعه فى شدقه حتى يديره له .

وعلى هذا الأسلوب ورد قول بعضهم وهو البيت المشهور الذى يتذاكره الناس

مَلِلْتُ مِطَالَ مَوْلُودٍ مُفَدًّى مَلِيحٍ مَانِعٍ مِنِّى مُرَادِى

وهذه الميمات كأنها عقد متصلة بعضها ببعض .

وكان بعض أهل الأدب من أهل مصرنا هذا يستعمل هذا القسم فى ألفاظه كثيراً فى كلامه نثراً ونظماً ، وذلك لعدم معرفته بسلوك الطريق .

وأنا أذكر نبذة من ذلك ، كقوله فى وصف رجل سخى : أنت المديح كبدأً تريح ، والمليح إن تجهّم المليح بالتّكليح ، عند سائل تلوح ، بل يفوق إذ يروق مرأى لوح ، يامَغْبُوقَ كأس الحمد يامصبوح ، ضاق عن نداك اللوح ، وببابك المفتوح تستريح ، وتريح ذا التبريح ، وترقه الطليح .

فانظر إلى حرف الحاء كيف قد لزمه فى كل لفظة من هذه الألفاظ فجاء كما تراه من الثقل والغثاثة ؟ .

واعلم أن العرب الذين هم الأصل فى هذه اللغة قد عَدَلوا عن تكرير الحروف فى كثير من كلامهم ، وذلك أنه إذا تكرر الحرف عندهم أدغموه استحسانا فقالوا فى جَعَلَ لَكَ : جَعَلَّكَ ، وفى تضربوننى : تَضْرِبُونِّى ، وكذلك قالوا : استَعَدَّ فلان للأمر ؛ إذا تأهَّبَ له ، والأصل فيه اسْتَعْدَدَ ، واستَتَبَّ الأَمْرُ ؛ إذا تهيأ ، والأصل فيه استَتْبَبَ ، وأشباه ذلك كثير فى كلامهم ، حتى إنهم لشدة كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا أحد الحرفين المكررين حرفا آخر غيره ،

---

(١) رواية الديوان :

حَكَتْ أَكُفُّ الرِّيَاحِ لَيْلاً بِرَوْضِه خيط كُلِّ قَطْرٍ

فقالوا : أمْلَيْتُ الكتابَ ، والأصل فيه أمْلَلْتُ ، فأبدلوا اللام ياء طلباً للخفة ، وفراراً من الثقل ، وإذا كان قد فعلوا ذلك فى اللفظة الواحدة فما ظنك بالألفاظ الكثيرة التى يتبع بعضها بعضاً ؟ .

القسم الثالث من المعاظلة : أن ترد ألفاظ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضاً ؛ فمنها مايختلف بين ماض ومستقبل ، ومنها ما لايختلف .

فالأول كقول القاضى الأرَّجَانى فى أبيات يصف فيها الشمعة ، وفيها مَعْنًى هو له مُبْتَدَع ، ولم يسمع من غيره ، وذلك أنه قال عن لسان الشمع : إنه ألف العسل وهو أخوه الذى ربى معه فى بيت واحد ، وإن النار فرقت بينه وبينه ، وإنه نذر أن يقتل نفسه بالنار أيضاً من ألم الفراق ، إلا أنه أساء العبارة ؛ فقال[(١)] :

بالنَّارِ فَرَّقَتِ الحَوَادِثُ بَيْنَنَا ... وَبِهَا نَذَرْتُ أَعُودُ أَقْتُلُ رُوحِى

فقوله « نذرت أعود [أقتل] » من المعاظلة المشار إليها .

وأما ما يرد على نهج واحد من الصيغة الفعلية : فكقول أبى الطيب المتنبى[(٢)] :

---

(١) قبل هذا البيت من أول الكلمة قوله :

وَلَقَدْ أَقُولُ لِشَمْعَةٍ نُصِبَتْ لَنَا ... وَسُتُورُ جُنْحِ ٱللَّيْلِ ذَاتُ جُنُوحِ

أَنَا مَنْ يَحِنُّ إِلَى ٱلْأَحِبَّةِ قَلْبُهُ ... وَلَكِ ٱلْبُكَاءُ بِدَمْعِكِ المَسْفُوحِ

قَالَتْ : عَجِلْتَ إِلَى المَلَامِ مُسَارِعًا ... فَٱسْمَعْ بَيَانَ حَدِيثِىَ المَشْرُوحِ

أُفْرِدْتُ مِنْ إِلْفٍ شَهِىٍّ وَصْلُهُ ... حُلْوِ الْجَنَى عَذْبِ المَذَاقِ صَرِيحِ

و بعده البيت ، وهو آخر القطعة ، وانظر الديوان (ص ٨٣ بيروت) .

(٢) من قصيدة له أولها قوله :

أَجَابَ دَمْعِى وَمَا الدَّاعِى سِوَى طَلَلِ ... دَعَا فَلَبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْبِ وَالإِبِلِ

أَقِلْ أَنِلْ اَقْطِعِ اَحْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ ... زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ (١)

فهذه ألفاظ جاءت على صيغة واحدة ، وهى صيغة الأمر ، كأنه قال افعلْ افعلْ ، هكذا إلى آخر البيت ، وهذا تكرير للصيغة وإن لم يكن تكريراً للحروف ، إلا أنه أخوه ، ولا أقول ابن عمه ، وهذه ألفاظ متراكبة متداخلة ، ولو عطفها بالواو لكانت أقرب حالا ، كما قال عبد السلام بن رَغْبان (٢) :

فَسَدَ النَّاسُ فاطْلُبِ الرِّزْقَ بالسَّيْـ ... ـفِ وَإلاَّ فَمُتْ شَدِيدَ الهُزَالِ
احْلُ وَامْرُرْ وَضُرَّ وَانْفَعْ وَلِنْ وَاخْـ ... ـشُنْ وَأَبْرِزْ ثُمَّ انْتَدِبْ لِلْمَعَالِى

ألا ترى أنه لما عطف ههنا بالواو لم تتراكب الألفاظ كتراكبها فى بيت أبى الطيب المتقدم ذكره .

فإن قيل : إنك جعلت ما كان وارداً على صيغة واحدة على سبيل التكرار معاظلةً ، وقد ورد ذلك فى القرآن الكريم ، كقوله تعالى : (فإذا انْسَلَخَ

(١) هكذا ورد فى الديوان وفى أصول الكتاب ، ويروى على وجه آخر ، وهو هكذا :

أَقِلْ أَنِلْ أَنْ صُنِ احْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ
زِدْ هَشَّ بَشَّ هَبِ اغْفِرْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

وله بيت آخر من هذا القبيل ، وهو قوله :

عِشِ ابْقَ اسْمُ سُدْ قُدْ جُدْ مُرِ انْهَ رِفِ اسْرِ نِلْ
غِظِ ارْمِ صِبِ احْمِ اغْزُ اسْبِ رُعْ زَعْ دِلِ اثْنِ نُلْ
وَهٰذَا دُعَاءٌ لَوْ سَكَتُّ كُفِيتُهُ ... لِأَنِّى سَأَلْتُ اللهَ فِيكَ وَقَدْ فَعَلْ

وبديع الزمان الهمذانى يسمى هذا « حماقات المتنبى » .

(٢) هو المعروف بديك الجن ، ووقع فى ا ، ب ، ج « بن رعبان » بالعين المهملة فى اسم أبيه ، وصوابه بالغين المعجمة ، وانظر (ص ١١٤ هـ ١ من هذا الجزء) .

الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) ولو كان معاظلة لما ورد فى القرآن الكريم مثله .

فالجواب عن ذلك أنى أقول : هذه الآية ليست كالذى أنكرته ؛ فإن هذا الموضع ينظر فيه إلى الكثير والقليل ، فإذا كثر كان تعاظلا ؛ لتراكبه وثقله على النطق ، وقد عرّفتك أن ما يفصل بين صيغه بواو العطف يكون أقل ثقلا مما لايفصل ، والذى أنكرته من ذلك هو أن تأتى ألفاظ مكررة على صيغة واحدة كأنها عُقَد متصلة ، فحينئذ يثقل النطق بها ، ويكره موقعها من السمع ، كبيت أبى الطيب المتنبى ، وأما هٰذه الآية المشار إليها فإنها خارجة عن هذا الحكم ، ألا ترى أنها لما وردت ألفاظها على صيغة واحدة فرق بينها بواو العطف ، ثم مع التفريق بينها بواو العطف لم يرد التكرير فيها إلا بين ثنتين ، وهما (خُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ) ، وأما الصيغة الأولى فانها أضيف إليها كلام آخر ، فقيل : (اقتلوا المشركِينَ حيثُ وَجدتموهُمْ) ولم يقل اقتلوا المشركين وخذوهم ، ثم لما جاءت الصيغة الرابعة أضيف إليها كلام آخر أيضاً فقيل : (وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) لاجرَم أن الآية جاءت غير ثقيلة على النطق مع توارد صيغة الأمر فيها أربع مرار ، وهذه رموز ينبغى أن يتنبه لها فى استعمال الألفاظ إذا جاءت هكذا .

القسم الرابع من المعاظلة : وهو الذى يتضمن مضافات كثيرة ، كقولهم : سَرْجُ فَرَسِ غُلَامِ زَيْدٍ ، وإن زِيدَ على ذلك قيل : لبدُ سرجِ فرس غُلَامِ زَيْدٍ ، وهذا أشد قبحاً وأثقل على اللسان ، وعليه ورد قول ابن بابك الشاعر فى مُفْتَتَح قصيدة له :

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ الْجَنْدَلِ اسْجَعِى فَأَنْتِ بِمَرْأًى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ

القسم الخامس من المعاظلة : أن ترد صفات متعددة على نحو واحد ، كقول أبى تمام فى قصيدته التى مطلعها :

* مَا لِكَثِيبِ الْحِمَى إِلَى عَقِدِهْ[١] *

فقال يصف جملا :

سَأَخْرِقُ الْخَرْقَ بِابْنِ خَرْقَاءَ كَالْـ ـهَيْقِ إِذَا مَا اسْتَحَمَّ مِنْ نَجَدِهْ[٢]

مُقَابَلٌ فِى الْجَدِيلِ صُلْبُ الْقَرَا لَوْحُكَّ مِنْ عَجْبِهِ إِلَى كَتَدِهْ[٣]

تَامِكِهِ نَهْدِهِ مُدَاخَلِهِ مَلْمُومِهِ مُحْزَئِلِّهِ أُجُدِهْ[٤]

فالبيت الثالث من المعاظلة التى قلع الأسنان دون إيرادها .

وكذلك قال من هذه القصيدة يصف رمحاً :

وَمَرَّ تَهْفُو ذُؤَابَتَاهُ عَلَى أَسْمَرَ مَتْنٍ يَوْمَ الْوَغَى جَسِدِهْ[٥]

مَارِنِهِ لَدْنِهِ مُثَقَّفِهِ عَرَّاصِهِ فِى الْأَكُفِّ مُطَّرِدِهْ[٦]

---

(١) هذا صدر مطلع القصيدة ، وعجزه قوله :

* مَا بَالُ جَرْعَائِهِ إِلَى جَرَدِهْ *

وهى قصيدة يمدح فيها خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى (انظر الديوان ٩١ بيروت).

(٢) سأخرق : يريد سأقطع ، والخرق ـ بفتح فسكون ـ الفلاة الواسعة ، وابن الخرقاء : الجمل ، والخرقاء : الناقة التى تشبه بالريح ؛ والهيق : ذكر النعام ، والنجد : العرق .

(٣) مقابل : يريد كريم الأبوين ، والجديل : فحل نجيب مشهور عند العرب ، والقرا : الظهر ، والعجب : طرف السلسلة الفقارية مما يلى الذنب ، والكتد : مجتمع الأكتاف ، والمراد بقوله « لوحك إلخ » أنه لو امتحن وجرب .

(٤) التامك : السنام ، والنهد : الثدى ، والمداخل : المحكم الجدل ، والملموم : المجتمع ، والمحزئل : المرتفع فى سيره . والأجد : فقار الظهر .

(٥) تهفو : تخفق ، والذؤابة : ضفيرة الشعر المرسلة ، وجسد ـ بفتح فكسر صفة مشبهة من قولك : جسد الدم يجسد فهو جاسد وجسد ؛ إذا لصق ، وأراد بالأسمر الرمح الذى عليه اللواء .

(٦) مارنه : هو من أوصاف الرمح ، وهو الصلب اللين ، واللدن : اللين ،

وهذا كالأول فى قبحه وثقله ، فقاتله الله ! ! ماأمتن شعره ! وما أسخفه فى بعض الأحوال ! .

وعلى هذا جاء من هذه القصيدة أيضاً يصف الممدوح :

إِلَيْكَ عَنْ سَيْلِ عَارِضٍ خَضِلِ الشُّؤْبُوبِ يَأْتِي الْحِمَامُ مِنْ نَضَدِهْ (١)

مُسِفِّهِ ثَرِّهِ مُسَحْسِحِهِ وَابِلِهِ مُسْتَهِلِّهِ جَرِدِهْ (٢)

ولو لم يكن لأبي تمام من القبيح الشنيع إلا هذه الأبيات لحطَّت من قدره .

وعلى هذا ورد قول أبي الطيب المتنبي (٣) :

دَانٍ بَعِيدٍ مُحِبٍّ مُبْغِضٍ بَهِجٍ أَغَرَّ حُلْوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ (٤)

والمثقف : المهذب المقوم بالثقاف ، والعراص : الذى يهتز أو يضطرب ، والمطرد : الذى أنابيبه بنسبة واحدة ، ووقع «عراضه» بكسر العين المهملة و بعد الألف ضاد معجمة ، فى بعض نسخ الديوان ، وهو صفحته ، وما أثبتناه أليق بما قبله و بما بعده ، وهو موافق لنسخة من الديوان وهو الثابت فى ا ، ب ، ج .

(١) الخضل : الندىّ ، والشؤبوب : الدفعة القوية من المطر ، والحمام : الموت ، والنضد : المتراكم . يصفه بالشدة والقوة العظيمة التى تجلب الموت لمن حلت به .

(٢) المسف : القريب من الأرض ، والثر : الكثير الماء ، والمسحسح : الذى يسيل من فوق ، والوابل : المطر الغزير ، والمستهل : المنصب ، وكل هذه نعوت للعارض فى البيت الذى قبله .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها عبيد الله الطرابلسى ، وأولها قوله :

أَظَبْيَةَ الْوَحْشِ لَوْلَا ظَبْيَةُ الْأَنَسِ لَمَا غَدَوْتُ بِجَدٍّ فِي الْهَوَى تَعِسِ

(٤) البهج — بالباء الموحدة — الفرح ، وورد فى ا ، ب ، ج «نهج» بالنون ، والشرس الصعب ، و يراد به السيء الخلق فى غير هذا المكان ، يريد أنه قريب ممن يقصده ، بعيد عمن ينازله ، محب للفضل وأهله ، ومبغض للنقص وأهله ، يبهج بالقصاد ، حلو لأوليائه مر على أعدائه ، لين حسن الخلق على الأولياء صعب الشكيمة على الأعداء .

نَدٍ أَبِيٍّ غَرٍ وَافٍ أَخِي ثِقَةٍ جَعْدٍ سَرِيٍّ نَهٍ نَدْبٍ رِضًى نَدُسِ (١)

وهذا كأنه سلسلة بلا شك ، وقليلا مايوجد فى أشعار الشعراء ، ولم أجده كثيراً إلا فى شعر الفرزدق ، وتلك معاظلة معنوية ، وسيأتى بيانها فى بابها ، وهذه معاظلة لفظية ، وهى توجد فى شعر أبى الطيب كثيراً .

النوع الثامن : فى المنافرة بين الألفاظ فى السبك

وهذا النوع لم يحقق أحد من علماء البيان القول فيه ، وغاية ما يقال : إنه ينبغى ألاّ تكون الألفاظ نافرة عن مواضعها ، ثم يكتفى بهذا القول ، من غير بيان ولا تفصيل ، حتى إنه قد خلط هذا النوع بالمعاظلة ، وكل منهما نوع مفرد برأسه له حقيقة تخصّه ، إلا أنهما قد اشتبها على علماء البيان ، فكيف على جاهل لايعلم .

وقد بَيَّنْتُ هذا النوع وفصّلته عن المعاظلة ، وضربت له أمثلة يستدلّ بها على أخواتها وما يجرى مجراها .

وجملة الأمر أن مَدَار سَبْكِ الألفاظ على هذا النوع والذى قبله دون غيرهما من تلك الأنواع المذكورة ؛ لأن هٰذين النوعين أصْلاَ سَبْكِ الألفاظ ، وما عداهما فرع عليهما ، وإذا لم يكن الناثر أو الناظم عارفاً بهما فإن مَقَاتِلَه تبدو كثيراً .

وحقيقة هذا النوع الذى هو المنافرة : أن يذكر لفظ أو ألفاظ يكون غيرها مما هو فى معناها أولى بالذكر .

(١) الندى : الجواد ، والأبى : الذى يمتنع من الدنايا ، والوافى : الذى يفى بما يؤمل فيه ، والغرى : المولع بفعل الجميل ، والجعد : الماضى فى الأمر ههنا ، والسرى : الشريف ذو المروءة ، والنهى : ذو النهية وهى العقل ، والندب : السريع فيما يندب له من الأمور ، والندس - بضم الدال أو كسرها - الذى يعرف حقائق الأمور لكثرة مايبحث عنها .

وعلى هذا فإن الفرق بينه وبين المعاظلة أن المعاظلة هى التراكب والتداخل إما فى الألفاظ أو فى المعانى ، على ماأشرت إليه ، وهذا النوع لاتراكب فيه ، وإنما هو إيراد ألفاظ غير لائقة بموضعها الذى ترد فيه .

وهو ينقسم قسمين : أحدهما يوجد فى اللفظة الواحدة ، والآخر فى الألفاظ المتعددة .

فأما الذى يوجد فى اللفظة الواحدة فإنه إذا ورد فى الكلام أمكن تبديله بغيره مما هو فى معناه ، سواء كان ذلك الكلام نثراً أو نظما .

وأما الذى يوجد فى الألفاظ المتعددة فإنه لايمكن تبديله بغيره فى الشعر ، بل يمكن ذلك فى النثر خاصة ؛ لأنه يعسر فى الشعر من أجل الوزن .

فمما جاء من القسم الأول قول أبى الطيب المتنبى [1] :

فَلاَ يُبْرَمُ الْأَمْرُ الَّذِى هُوَ حَالِلٌ   وَلاَ يُحْلَلُ الْأَمْرُ الَّذى هُوَ يُبْرِمُ

فلفظة « حالل » نافرة عن موضعها ، وكانت له مَنْدُوحة عنها ؛ لأنه لو استعمل عوضاً عنها لفظة « ناقض » فقال :

فَلاَ يُبْرَمُ الْأَمْرُ الَّذى هُوَ نَاقِضٌ   وَلاَ يُنْقَضُ الْأَمْرُ الَّذى هُوَ يُبْرِمُ

لجاءت اللفظة قارَّةً فى مكانها ، غير قلقة ولا نافرة .

وبلغنى عن أبى العلاء بن سليمان المعرّى أنه كان يَتَعَصَّب لأبى الطيب ، حتى إنه كان يسميه « الشاعر » ويسمى غيره من الشعراء باسمه ، وكان يقول :

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها عمر بن سليمان الشرابى ، وأولها قوله :

نَرَى عِظَماً بِالْبَيْنِ ، وَالصَّدُّ أَعْظَمُ   وَنَتَّهِمُ الْوَاشِينَ ، وَالدَّمْعُ مِنْهُمُ

ليس فى شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ماهو فى معناها فيجىء حسناً مثلها؛ فياليت شعرى أماوقف على هذا البيت المشار إليه، لكن الْهوى كما يقال أعمى؛ وكان أبو العلاء أعمى العين خِلْقَةً وأعماها عَصَبِيَّةً، فاجتمع له العمى من جهتين.

وهذه اللفظة التى هى « حالل » وما يجرى مجراها قبيحة الاستعمال، وهى فكّ الإدغام فى الفعل الثلاثى، ونقله إلى اسم الفاعل، وعلى هذا فلا يحسن أن يقال: بَلّ الثوب فهو بَالِل، ولا سَلّ السيفَ فهو سَالِل، ولا أن يقال: هَمّ بالأمر فهو هامِم، ولا خَطّ الكتابَ فهو خاطِط، ولا حَنّ إلى كذا فهو حانِن، وهذا لو عرض على من لاذوق له لأدركه وفهمه، فكيف من له ذوق صحيح كأبى الطيب، لكن لابد لكل جواد من كَبْوَة.

وأنشد بعض الأدباء بيتاً لِدِعْبل، وهو:

شَفِيعُكَ فَاشكُرْ فى الْحَوَائِجِ إنَّهُ ... يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهْوَ يَخْلَقُ

فقلت له: عجز هذا البيت حسن، وأما صدره فقبيح؛ لأنه سبكه قلقاً نافراً، وتلك الفاء التى فى قوله « شفيعك فاشكر » كأنها ركبة البعير، وهى فى زيادتها كزيادة الكرش، فقال: لهذه الفاء فى كتاب الله أشباه، كقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) فقلت له: بين هذه الفاء وتلك الفاء فرق ظاهر يدرك بالعلم أولا، وبالذوق ثانياً؛ أما العلم فإن الفاء فى (وربك فكبر وثيابك فطهر) هى الفاء العاطفة؛ فإنها واردة بعد (قم فأنذر) وهى مثل قولك: امْشِ فَأَسْرِع، وَقُلْ فَأَبْلِغ، وليست الفاء التى فى « شفيعك فاشكر » كهذه الفاء؛ لأن تلك زائدة لاموضع لها، ولو جاءت فى السورة كما جاءت فى قول دعبل ـ وَحَاشَ لِلّهِ من ذلك ـ لابتدىء الكلام، فقيل: ربك فكبر وثيابك فطهر؛ لكنها لما جاءت بعد (قم فأنذر) حسن ذكرها فيما يأتى بعدها من (وربك فكبر وثيابك فطهر)؛ وأما الذوق فإنه ينبو عن الفاء الواردة

فى قول دعبل ويستثقلها ، ولا يوجد ذلك فى الفاء الواردة فى السورة ، فلما سمع ماذكرته أَذْعَنَ بالتسليم .

ومثل هذه الدقائق التى ترد فى الكلام نظماً كان أونثراً لا يتفطن لها إلا الراسخ فى علم الفصاحة والبلاغة .

ومن هذا القسم وَصْلُ همزة القطع ، وهو محسوب من جائزات الشعر التى لا تجوز فى الكلام المنثور ، وكذلك قطع همزة الوصل ، لكن وصل همزة القطع أقبح ؛ لأنه أثقل على اللسان .

فما ورد من ذلك قول أبى تمام [١] :

قَرَانِى اللُّهَا وَالْوُدَّ حَتَّى كَأَنَّمَا   أَفَادَ الْغِنَى مِنْ نَائِلِى وَفَوَائِدِى

فَأَصْبَحَ يَلْقَانِى الزَّمَانُ مِنَ اُجْلِهِ   بِإِعْظَامِ مَوْلُودٍ وَرَأْفَةِ وَالِدِ [٢]

فقوله « مِنَ اُجله » وصل لهمزة القطع .

وعليه ورد قول أبى الطيب المتنبى [٣] :

تُوَسِّطُهُ الْمَفَاوِزَ كُلَّ يَوْمٍ   طِلَابُ الطَّالِبِينَ لَا الْاُنْتِظَارُ

فقوله « لا الانتظار » كلام نافر عن موضعه .

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن الهيثم بن شبابة ، وأولها قوله :

قِفُوا جَدِّدُوا مِنْ عَهْدِكُمْ بِالْمَعَاهِدِ   وَإِنْ هِىَ لَمْ تَسْمَعْ لِنِشْدَانِ نَاشِدِ

(٢) فى جميع نسخ الديوان التى بين يدى :

* فَأَصْبَحَ يَلْقَانِى الزَّمَانُ لِأَجْلِهِ *

ولا شىء فى هذه الرواية .

(٣) من قصيدة له فى سيف الدولة ، وأولها قوله :

طِوَالُ قَنًا تُطَاعِنُهَا قِصَارُ   وَقَطْرُكَ فِى نَدًى وَوَغًى بِحَارُ

ومن هذا القسم أن يفرق بين الموصوف والصفة بضمير من تقدم ذكره، كقول البحترى (١) :

حَلَفْتُ لَهَا بِاللهِ يَوْمَ التَّفَرُّقِ وَبِالْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهَا الْمُتَعَلِّقِ

تقديره « من قلبي المتعلق بها » فلما فصل بين الموصوف الذى هو قلبي والصفة التى هى المتعلِّق بالضمير الذى هو بها قبح ذلك، ولو كان قال « من قلبٍ بهَا مُتَعَلِّق » لزال ذلك القبح وذهبت تلك الهجنة .

ومن هذا القسم أيضاً أن تزاد الألف واللام فى اسم الفاعل، ويقام الضمير فيه مقام المفعول، كقول أبى تمام (٢) :

فَلَوْ عَايَنْتَهُمْ وَالزَّائِرِيهِمْ لَمَا مِزْتَ الْبَعِيدَ مِنَ الْحَمِيمِ (٣)

فقوله « الزائرى » اسم فاعل، وقوله « هم » الذى هو الضمير فى موضع المفعول، تقديره الزائرين أرضهم أو دارهم أو الزائرين إياهم ؛ فاستعمال هذا مع الألف واللام قبيح جداً ، وإذا حذفتا زال ذلك القبح ، وقد استعملها الشعراء المتقدمون كثيراً .

---

(١) هذا مطلع قصيدة له يمدح فيها الفتح بن خاقان ، و بعده قوله :

وَبِالْعَهْدِ مَا الْبَذْلُ الْقَلِيلُ بِضَائِعٍ لَدَىَّ وَلَا الْعَهْدُ الْقَدِيمُ بِمُخْلَقِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها بنى عبد الكريم الطائيين ، وأولها قوله :

أَرَامَةُ ، كُنْتِ مَأْلَفَ كُلِّ رِيمِ لَوِ اسْتَمْتَعْتِ بِالْأُنْسِ الْمُقِيمِ

(٣) الذى فى نسخ الديوان :

* فَلَوْ عَايَنْتَهُمْ مَعَ زَائِرِيهِمْ *

ولا شىء فى هذه الرواية .

ومما جاء من القسم الثانى الذى يوجد فى الألفاظ المتعددة قول أبى الطيب أيضاً[١] :

لاَ خَلْقَ أَكْرَمُ مِنْكَ إلاَّ عَارِفٌ ... بِكَ رَاءِ نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِهَا[٢]

فإن عجز هذا البيت نافر عن مواضعه ، وأمثال هذا فى الأشعار كثير .

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمران ، وأولها قوله :

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا ... دَانِى الصِّفَاتِ بَعِيدُ مَوْصُوفَاتِهَا

(٢) فى رواية الديوان «لاخلق أسمح منك» ؛ وقد سمع أبوالطيب قول أبى تمام فى مدح المعتصم :

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِى كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ ... لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللّٰهَ سَائِلُهْ

فأخذ منه هذا المعنى .

المقالة الثانية

فى الصناعة المعنوية

وهى تنقسم إلى قسمين : الأول منها فى الكلام على المعانى مجملا ، والثانى فى الكلام عليها مفصلا .

وقبل الكلام على ذلك لا بد من توطِئَة تكون شاملةً لما نحن بصدد ذكره ههنا ، فأقول :

أعلم أن المعانى الْخَطَابية قد حصرت أصولها ، وأول من تكلم فى ذلك حُكماء اليونان ، غير أن ذلك الْحَصْرَ كلىٌّ لا جزئى ، ومحال أن تحصر جزئيات المعانى وما يتفرع عليها من التفريعات التى لا نهاية لها ، لا جَرَم أن ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحب هذا العلم ، ولا يفتقر إليه ؛ فان البدوى البادى رَاعِىَ الإبل ما كان يمرُّ شىء من ذلك بفهمه ، ولا يخطر بباله ، ومع هذا فانه كان يأتى بالسحر الحَلَال إن قال شعراً أو تكلم نثراً .

فان قيل : إن ذلك البدوىّ كان له ذلك طَبْعاً وخليقةً ، والله فطره عليه كما فطر ضروبَ نوع الآدمى على فِطَرٍ مختلفة هى لهم فى أصل الخلقة ؛ فإنه فطر الترك على الإحسان فى الرمى والإصابة فيه من غير تعليم ، وكذلك فطر أهل الصين على الإحسان فى صنعة اليد فيما يباشرونه من مَصُوغ أوخشب أو فخّار أو غير ذلك ، وكذلك فطر أهل المغرب على الشجاعة ، وهذا لا نزاع فيه ، فإنه مشاهد .

فالجواب عن ذلك أنى أقول : إن سلمت إليك أن الشعر والخطابة كانا للعرب بالطبع والفطرة فماذا تقول فيمن جاء بعدهم من شاعر وخطيب تحضَّرُوا وسكنوا البلاد ، ولم يَرَوُا البادية ولا خلقوا بها ، وقد أجادوا فى تأليف النظم والشعر ، وجاءوا بمعانٍ كثيرة ماجاءت فى شعر العرب ولا نطقوا بها .

فان قلت : إن هؤلاء وقفوا على ماذكره علماء اليونان وتعلموا منه .

قلت لك فى الجواب : هذا شىء لم يكن ، ولا عَلِمَ أبو نواس شيئاً منـــه ، ولا مسلم بن الوليد ، ولا أبو تمام ، ولا البحترى ، ولا أبو الطيب المتنبى ، ولا غيرهم ، وكذلك جرى الحكم فى أهل الكتابة كعبدالحميد ، وابن العميد ، والصابى ، وغيرهم ، فإن ادعيت أن هؤلاء تعلموا ذلك من كتب علماء اليونان قلت لك فى الجواب : هذا باطل بى أنا ؛ فإنى لم أعلم شيئا مما ذكره حكماء اليونان ، ولا عرفته ، ومع هذا فانظر إلى كلامى ، فقد أوردت لك نبذة منه فى هـــذا الكتاب ، وإذا وقفت على رسائلى ومكاتباتى وهى عِدَّةُ مجلدات ، وعَرَفْتَ أنى لم أتعرض لشىء مما ذكره حكماء اليونان فى حصر المعانى عَلِمْتَ حينئذ أن صاحب هذا العلم من النظم والنثر بنَجْوَةٍ من ذلك كله ، وأنه لا يحتاج إليه أبداً ؛ وفى كتابى هذا مايغنيك ، وهو كافٍ .

ولقد فاوضنى بعض المتفلسفين فى هذا ، وانساق الكلام إلى شىء ذكر لأبى على بن سينا فى الخطابة والشعر ، وذكر ضربا من ضروب الشعر اليونانى يسمى اللاغوذيا ، وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبى على ، ووَقَفَنى على ماذكره ، فلما وقفت عليه استجهلته ؛ فإنه طوّل فيه وعرض ، كأنه يخاطب بعض اليونان ، وكل الذى ذكره لَغْوٌ لا يستفيد به صاحب الكلام العربى شيئاً ، ثم مع هذا جميعه فإن مُعَوّل القوم فيما يذكر من الكلام الخطابى أنه يورد على مقدمتين ونتيجة ، وهذا مما لم يخطر لأبى على بن سينا ببال فيما صاغه من شعر أو كلام مسجوع ، فإن له شيئاً من ذلك فى كلامه ، وعند إفاضته فى صوغ ماصاغه لم تخطر المقدمتان والنتيجة له ببال ، ولو أنه أفكر أولا فى المقدمتين والنتيجة ثم أتى بنظم أو نثر بعد ذلك لما أتى بشىء ينتفع به ، ولطال الخطب عليه ، بل أقول شيئاً آخر ، وهو : أن اليونان أنفسهم لما نظموا مانظموه من أشعارهم لم ينظموه فى وقت نظمه وعندهم فكرة فى مقدمتين ولا نتيجة ، وإنما هذه أوضاع توضع

ويطول بها مصنفات كتبهم فى الخطابة والشعر ، وهى كما يقال : فقاقع ليس لها طائل ، كأنها شعر الأبيوردى .

وحيث أوردت هذه المقدمة قبل الخوض فى تقسيم المعانى فإنى راجع إلى إلى شرح ما أجملته ، فأقول :

أما القسم الأول فإن المعانى فيه على ضربين : أحدهما : يبتدعه مؤلف الكلام من غير أن يقتدى فيه بمن سبقه ، وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ، ويتنبه له عند الأمور الطارئة ، ولنشر فى هذا الموضع إلى نبذة لتكون مثالا للمتوشح لهذه الصناعة .

فمن ذلك ماورد فى شعر أبى تمام فى وصف مصلبين[1] :

بَكَرُوا وَأَسْرَوْا فِي مُتُونِ ضَوَامِرٍ … قِيدَتْ لَهُمْ مِنْ مَرْبِطِ النَّجَّارِ
لَا يَبْرَحُونَ وَمَنْ رَآهُمْ خَالَهُمْ … أَبَدًا عَلَى سَفَرٍ مِنَ الْأَسْفَارِ

وهذا المعنى مما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ، والخاطر فى مثل هذا المقام ينساق إلى المعنى المخترع من غير كبير كلفة ؛ لشاهد الحال الحاضرة .

وكذلك قال فى هذه القصيدة فى صفة من أحرق بالنار :

مَا زَالَ سِرُّ الْكُفْرِ بَيْنَ ضُلُوعِهِ … حَتَّى اصْطَلَى سِرَّ الزِّنَادِ الْوَارِى
نَاراً يُسَاوِرُ جِسْمَهُ مِنْ حَرِّهَا … لَهَبٌ كَمَا عَصْفَرْتَ شِقَّ إِزَارِ
طَارَتْ لَهَا شُعَلٌ يُهَدِّمُ لَفْحُهَا … أَرْكَانَهُ هَدْمًا بِغَيْرِ غُبَارِ
فَصَّلْنَ مِنْهُ كُلَّ مَجْمَعِ مَفْصِلٍ … وَفَعَلْنَ فَاقِرَةً بِكُلِّ فَقَارِ
مَشْبُوبَةً رُفِعَتْ لِأَعْظَمِ مُشْرِكٍ … مَا كَانَ يُرْفَعُ ضَوْءُهَا لِلسَّارِى
صَلَّى لَهَا حَيًّا وَكَانَ وَقُودَهَا … مَيْتًا وَيَدْخُلُهَا مَعَ الْفُجَّارِ

(١) هذه الأبيات من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ويذكر إحراق الأفشين ، وأولها قوله :

أَلْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارِ … فَحَذَارِ مِنْ أُسْدِ الْعَرِينِ حَذَارِ

وهذا مما يعين على استخراج المعانى فيه شاهد الحال .

وقد ذيل البحترى على ما ذكره أبو تمام فى وصف المصلبين فقال :

كَمْ عَزِيزٍ أَبَادَهُ فَغَدَا يَرْ كَبُ عُودًا مُرَكَّبًا فِى عُودِ
أَسْلَمَتْهُ إِلَى الرُّقَادِ رِجَالٌ لَمْ يَكُونُوا عَنْ وِتْرِهِمْ بِرُقُودِ
تَحْسُدُ الطَّيْرُ فِيهِ ضَبْعَ الْبَوَادِى وَهْوَ فِى غَيْرِ حَالَةِ الْمَحْسُودِ
غَابَ عَنْ صَحْبِهِ فَلَا هُوَ مَوْجُو دٌ لَدَيْهِمْ وَلَيْسَ بِالْمَفْقُودِ
وَكَأَنَّ امْتِدَادَ كَفَّيْهِ فَوْقَ الْـ ـجِذْعِ فى مَحْفِلِ الرَّدَى الْمَشْهُودِ
طَائِرٌ مَدَّ مُسْتَرِيحًا جَنَاحَيْـ ـهِ اسْتِرَاحَاتِ مُتْعَبٍ مَكْدُودِ
أَخْطَبُ النَّاسِ رَاكِبًا فَإِذَا أُرْ جِلَ خَاطَبْتَ مِنْهُ عَيْنَ الْبَلِيدِ

وهذه أبيات حسنة قد استوعبت أقسام هذا المعنى المقصود ، إلا أن فيها معنى مأخوذا من شعر مسلم بن الوليد الأنصارى ، وهو قوله(١) :

نَصَبْتَهُ حَيْثُ تَرْتَابُ الرِّيَاحُ بِهِ وَتَحْسُدُ الطَّيْرُ فِيهِ أَضْبُعَ الْبِيدِ(٢)

لكن البحترى زاد فى ذلك زيادة حسنة ، وهى قوله « وهو فى غير حالة المحسود » .

ومن هذا الضرب ما جاء فى شعر أبى الطيب المتنبى فى وصفه الحمى ،

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها داود بن يزيد بن حاتم بن خالد بن المهلب ، وأولها قوله :

لَا تَدْعُ بِى الشَّوْقَ إِنِّى غَيْرُ مَعْمُودِ نَهَى النُّهَى عَنْ هَوَى الْهِيفِ الرَّعَادِيدِ

انظر الديوان (ص ١٢١ ليدن) .

(٢) رواية الديوان « وضعته حيث ترتاب الرياح به » وذكر الناشر أنه يروى « نصبته » كما هنا ، وفى بعض روايات الديوان « ويحسد الطير » بياء المضارعة ، وفى بعضها « أسبع البيد » .

وهو قوله[(١)] :

وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً   فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ
بَذَلْتُ لَهَا المَطَارِفَ وَالحَشَايَا   فَعَافَتْهَا وَبَاتَتْ فِى عِظَامِى
كَأَنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُهَا فَتَجْرِى   مَدَامِعُهَا بِأَرْبَعَةٍ سِجَامِ
أُرَاقِبُ وَقْتَهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ   مُرَاقَبَةَ المَشُوقِ المُسْتَهَامِ

وقد شرح أبو الطيب بهذه الأبيات حاله مع الحمى .

ومن بديع ما أتى به فى هذا الموضع أن سيف الدولة بن حمدان كان مخيما بأرض ديار بكر على مدينة مَيَّافارِقين ، فعصفت الريح بخَيْمَته ، فتَطَيَّر الناس لذلك ، وقالوا فيه أقوالا ، فمدحه أبو الطيب بقصيدة يعتذر فيها عن سقوط الخيمة أولها :

* أَيَنْفَعُ فِى الْخَيْمَةِ الْعُذَّلُ[(٢)] *

فمنه ما أحسن فيه كل الإحسان ، وهو قوله :

تَضِيقُ بِشَخْصِكَ أَرْجَاؤُهَا   وَيَرْكُضُ فى الْوَاحِدِ الْجَحْفَلُ
وَتَقْصُرُ مَا كُنْتَ فى جَوْفِهَا   وَتُرْكَزُ فِيهَا الْقَنَا الذُّبَّلُ
وَكَيْفَ تَقُومُ عَلَى رَاحَةٍ   كَأَنَّ الْبِحَارَ لَهَا أَنْمُلُ
فَلَيْتَ وَقَارَكَ فَرَّقْتَهُ   وَحَمَّلْتَ أَرْضَكَ مَا تَحْمِلُ
فَصَارَ الْأَنَامُ بِهِ سَادَةً   وَسُدْتَهُمُ بِالَّذِى يَفْضُلُ

---

(١) من قصيدة يذكر فيها الحمى التى كانت تدنا به وهو بمصر ، وأولها قوله :

مَلُومُكُمَا يَجِلُّ عَنِ المَلَامِ   وَوَقْعُ فَعَالِهِ فَوْقَ الْكَلَامِ

(٢) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* وَتَشْمَلُ مَنْ دَهْرَهَا يَشْمَلُ *

رَأَتْ لَوْنَ نُورِكَ فِي لَوْنِهَا ... كَلَوْنِ الْغَزَالَةِ لَا يُغْسَلُ
وَأَنَّ لَهَا شَرَفًا بَاذِخًا ... وَأَنَّ الْخِيَامَ بِهَا تَخْجَلُ
فَلَا تُنْكِرَنَّ لَهَا صَرْعَةً ... فَمِنْ فَرَحِ النَّفْسِ مَا يَقْتُلُ
وَلَوْ بُلِّغَ النَّاسُ مَا بُلِّغَتْ ... لَخَانَتْهُمُ حَوْلَكَ الْأَرْجُلُ
وَلَمَّا أَمَرْتَ بِتَطْنِيبِهَا ... أُشِيعَ بِأَنَّكَ لَا تَرْحَلُ
فَمَا اعْتَمَدَ اللهُ تَقْوِيضَهَا ... وَلٰكِنْ أَشَارَ بِمَا تَفْعَلُ
وَعَرَّفَ أَنَّكَ مِنْ هَمِّهِ ... وَأَنَّكَ فِي نَصْرِهِ تَرْفُلُ
فَمَا الْعَانِدُونَ وَمَا أَمَّلُوا ... وَمَا الْحَاسِدُونَ وَمَا قَوَّلُوا
هُمُ يَطْلُبُونَ فَمَنْ أَدْرَكُوا ... وَهُمْ يَكْذِبُونَ فَمَنْ يَقْبَلُ
وَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ مَا يَشْتَهُونَ ... وَمِنْ دُونِهِ جَدُّكَ الْمُقْبِلُ

هذه الأبيات قد اشتملت على معانٍ بديعة ، وكفى المتنبي فضلا أن يأتي بمثلها ، وهذا مقام يظهر في مثله براعة الناظم والناثر .

وقرأت في كتاب الروضة لأبي العباس المبرد ، وهو كتاب جمعه واختار فيه أشعار شعراء بدأ فيه بأبي نواس ، ثم بمن كان في زمانه ، وانسحب على ذيله ، فقال فيما أورده من شعره : وله معنى لم يسبق إليه بإجماع ، وهو قوله[1] :

تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسْجَدِيَّةٍ ... حَبَتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارَتُهَا كِسْرَى وَفِي جَنَبَاتِهَا ... مَهًا تَدَّرِيهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ[2]
فَلِلرَّاحِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا ... وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

---

(١) قد كرر المؤلف اختيار هذه الأبيات في غير ما مناسبة ، وأكثر من التمدح بها (انظر الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ١٢٢) .

(٢) في ا ، ب ، ج « نورتها بالعشيّ » وما أثبتناه عن الديوان ، وتدريها : تختلها لتصطادها .

وقدأ كثر العلماء من وصف هذا المعنى وقولهم فيه : إنه معنى مبتدع .

ويحكى عن الجاحظ أنه قال : مازال الشعراء يتناقلون المعنى قديماً وحديثاً ، إلا هذا المعنى ، فإن أبا نواس انفرد بابداعه ، وما أعلم أنا ما أقول لها ولأبى[1] سوى أن أقول : قد تجاوز بهم حد الإكثار ، ومن الأمثال السائرة : بدون هذا يباع الحمار ، وفصاحة هذا الشعر عندى هى الموصوفة ، لا هذا المعنى ؛ فإنه لا كبير كلفة فيه ؛ لأن أبا نواس رأى كأساً من الذهب ذات تصاوير فحكاها فى شعره ، والذى عندى فى هذا أنه من المعانى المشاهدة ؛ فان هذه الخمر لم تحمل الماء إلا يسيراً ، وكانت تستغرق صور هذا الكأس إلى مكان جيوبها ، وكان الماء فيها قليلا بقدر القلانس التى على رءوسها ، وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر.

وكذلك ورد قوله فى الخمر أيضاً :

يَاشَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكَمٍ ... نِمْتَ عَنْ لَيْلِي وَلَمْ تَنَمِ

فَاسْقِنِي الْخَمْرَ الَّتِي اخْتَمَرَتْ ... بِخِمَارِ الشَّيْبِ فِي الرَّحِمِ

وهذا معنى مخترع لم يسبق إليه ، وهو دقيق يكاد لدقته أن يلتحق بالمعانى التى تستخرج من غير شاهد حال متصور .

و بلغنى أنه اختلف فى هذا المعنى بحضرة الرشيد هرون رحمه الله ، فقيل : إنه يريد بخمار الشيب فى الرحم أن الخمر تكون فى جوانبها ذات زبد أبيض على وجهها ، فقال الأصمعى: إن أبا نواس ألطف خاطراً من هذا ، وأسد غرضاً ، فاسألوه ، فأحضر وسئل ، فقال : إن الكَرْم أول مايجرى فيه الماء يخرج شبيهاً بالقطنة ، وهى أصل العنقود ؛ فقال الأصمعى : ألم أقل لكم إن الرجل ألطف خاطراً وأسد غرضاً .

(١) كذا ؛ ولعل أصل العبارة « لها ولأبى نواس »

وقد جاء لابن حَمْديس الصقلى فى الهلال لآخر الشهر مالم يأت به غيره ، وهو من الحسن واللطافة فى الغاية القصوى ، وذلك قوله :

كأنّما أدْهَمُ الظّلْماء حين نجا ... من أشهبِ الصُّبْحِ ألقَى نَعْلَ حافرِه

وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر ، إلا أنه أبدع فى التشبيه .

وأمثال هذا كثيرة فى أقوال المجيدين من الشعراء .

وجملة الأمر فى ذلك أن الشاعر أو الكاتب ينظر إلى الحال الحاضرة ثم يستنبط لها ما يناسبها من المعانى ، كما فعل النابغة فى مدح النعمان وقد أتاه وفد من الوفود فمات رجل منهم قبل أن يرفدهم[1] ، فلما رفدهم جعل عطاء ذلك الميت على قبره ، حتى جاء أهله وأخذوه ، فقال النابغة فى ذلك[2] :

حِباءُ شَقيقٍ فَوْقَ أحْجارِ قَبْرِهِ ... وَمَا كانَ يُحْبَى قَبْلَهُ قَبْرُ وَافِدِ

وهذا بيت من جملة أبيات ، فانظر كيف فعل النابغة فى هذا المعنى ؟

وكذلك ورد قول أخت جسّاس زوجة كُلَيْب ؛ فإنه لما قتل جساسٌ كليبا اجتمع النساء إليها وندبنه ، فتحدث بعضهن إلى بعض ، وقلن : هذه ليست ثاكلة ، وإنما هى شامتة ؛ فإنّ أخاها هو القاتل ، فنم ذلك إليها ، فقالت :

يَا ابْنَةَ الأقْوَامِ إنْ شِئْتِ فَلَا ... تَعْجَلِي بِاللّوْمِ حَتَّى تَسْألِي

فَإذَا أنْتِ تَبَيَّنْتِ الّذِي ... يُوجِبُ اللّوْمَ فَلُومِي وَاعْذُلِي

---

(١) فى ا ، ب ، ج « يوفدهم فلما وفدهم » بالواو ، ورفده : أعطاه ، ولعل أدنى تأمل يدل على أن الصواب ما أثبتناه .

(٢) قبل هذا البيت قوله :

أبْقَيْتَ لِلْعَبْسِيِّ فَضْلاً وَنِعْمَةً ... وَمَحْمَدَةً مِنْ بَاقِيَاتِ الْمَحَامِدِ

وبعده قوله :

أتَى أهْلَهُ مِنْهُ حِبَاءٌ وَنِعْمَةٌ ... وَرُبَّ امْرِئٍ يَسْعَى لآخَرَ قَاعِدِ

إنَّ أُخْتاً لِامْرِئٍ لِيمَتْ عَلَى شَفَقٍ مِنْها عَلَيْهِ فَافْعَلِي (١)
جَلَّ عِنْدِي فِعْلُ جَسَّاسٍ فَوَا حَسْرَتَا عَمَّ انْجَلَتْ أَوْ تَنْجَلِي
فِعْلُ جَسَّاسٍ عَلَى وَجْدِي بِهِ قَاطِعٌ ظَهْرِي وَمُدْنٍ أَجَلِي
لَوْ بِعَيْنٍ فُقِئَتْ عَيْنٌ سِوَى أُخْتِها فانفقأتْ لَمْ أَحْفِلِ
يَاقَتِيلاً قَوَّضَ الدَّهْرُ بِهِ سَقْفَ بَيْتَيَّ جَمِيعاً مِنْ عَلِ
هَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي اسْتَحْدَثْتُهُ وَانْثَنَى فِي هَدْمِ بَيْتِي الْأَوَّلِ
يَشْتَفِي الْمُدْرِكُ بِالثَّأْرِ وَفِي دَرَكِي ثَارِيَ ثُكْلٌ مُثْكِلِي
إِنَّنِي قَاتِــلَةٌ مَقْتُولَةٌ وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يَرْتَاحَ لِي

وهذه الأبيات لو نطق بها الفحول المعدودون من الشعراء لاستعظمت ، فكيف امرأة وهى حزينة فى شرح تلك الحال المشار إليها .

واعلم أنه قد يستخرج من المعنى الذى ليس بمبتدع معنى مبتدع ؛ فمن ذلك قول الشاعر المعروف بابن السراج فى الفهد :

تَنَافَسَ اللَّيْلُ فيهِ وَالنَّهارُ مَعاً فَقَمَّصَاهُ بِجِلْبَابٍ مِنَ المُقَلِ

وليس هذا من المعانى الغريبة ، ولكنه تشبيه حسن واقع فى موقعه .

وقد جاء بعده شاعر من أهل الموصل يقال له ابن مسهر فاستخرج من هذا البيت معنى غريباً ، فقال :

وَنَقَّطَتْهُ حِبَاءً كَيْ يُسَالِمَها عَلَى المَنَايَا نِعَاجُ الرَّمْلِ بِالْحَدَقِ

وهذا معنى غريب لم أسمع بمثله فى مقصده الذى قصد من أجله ، وقليلا

(١) فى أخبار كليب وائل ، وفى أخبار المهلهل أخيه ، يروى هذا البيت :

إِنْ تَكُنْ أُخْتُ امْرِئٍ لِيمَتْ عَلَى شَــفَقٍ مِنْهَا عَلَيْهِ فَافْعَلِي

وهى أوضح مما فى أصل هذا الكتاب .

ما يقع هذا فى الكلام المنظوم والمنثور ، وهو موضع ينبغى أن توضع اليد عليه ، ويتنبه له ، وكذلك فلتكن سياقة ماجرى هذا المجرى .

وقدجاءنى شىء من ذلك فى الكلام المنثور .

فمن ذلك ما ذكرته فى وصف نساء حسان ، وهو : أقبلت رَبائبُ الكِناس، فى مُخْضَرّ اللِّباس ، فقيل : إنما يَخْتَرْنَ الخضرة من الألوان ، ليصح تشبيههن بالأغصان .

وهذا معنى غريب ، وربما يكون قد سبقت إليه ، إلا أنه لم يبلغنى ، بل ابتدعته ابتداعاً .

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب يتضمن منازلة بلد ؛ فذكرت القتال بالمنجنيق ، وهو : فنزلنا بمَرْأى منه ومسمع ، واستَدَرْنَا به استدارة الخاتم بالإصْبَع ، ونصبت المنجنيقات فأنشأت سُحُباً صعبة القياد ، مختصَّة بالرُّبا دون الْوِهَاد ، فلم تزل تقذف السور بوَبْلٍ من جُلْمُودِها ، وتَفْجَؤُه برعودها قبل بروقها وبروقُ السحب قبل رعودها ، حتى غادرت الحزْنَ منه سَهْلاً ، والعامر بَلْقَعاً محلى .

وفى هـذا معنيان غريبان : أحدهما أن هذه السحب تخصُّ الربا دون الوهاد ، والآخر أن رعودها قبل بروقها ، وكل ذلك يتفطن له بالمشاهدة .

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب ، فقلت : إذا تَخَلَّق المرء بخلق البأس والندى لم يخف عرضهُ دَنَسا ، كما أن الماء إذا بلغ قُلَّتَين لم يحمل نجسا .

وهذا المعنى مبتدع لى ، وهو مستخرج من الحديث النبوى فى قوله صلى الله عليه وسلم «إذَا بَلَغَ المـاءُ قُلَّتَيْنِ لَمْ يَحْمِلْ خَبثاً » .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف مَفازة ، فقلت: مَفازة لا توطأ بأجفان ساهر ، ولا تقتل باقتحام خابر ، ولولا مسير الهلال من فوقها لما عرفت تمثال حافر .

ومن ذلك ما ذكرته فى كتاب أصف فيه نزول العدو على حصار بلد من بلاد المكتوب عنه ، وكان ذلك فى زمن الشتاء فسقط على العدو ثلج كثير صار به محصوراً ، فقلت :

وقد عاجله قِتال البروق قبل البوَارق ، وأحاط به الثلجُ فصار خَنادق تحول بينه وبين الخنادق ، والشتاء قد لقى عسكره من البرد بعسكره ، والسماء قد قابلته بأغبر وجهها لا بأخضره ، والأرض كأنها قُرْصةُ النَّقىّ وعسى أن تكون أرض محشره .

والمعنى المخترع من هذا الكلام قولى «والأرض كأنها قُرْصةُ النَّقىّ وعسى أن تكون أرض محشره» وهو مستخرج من الحديث النبوى فى قوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاء كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ » يريد الخبزة البيضاء[1] ولما كان الثلج على الأرض مُمَاثِلاً لذلك ومشابها له استنبطت أنا له هذا المعنى المخترع ، فجاء كما تراه ، وهو من المعانى التى يدل عليها شاهد الحال .

وأحسن من هذا كله ما كتبته فى فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة ببغداد ، فقلت : ودولته هى الضاحكة وإن كان نَسَبُهَا إلى العَبَّاس ، وهى خير دولة أخرجت للزمن كما أن رعاياها خير أمة أخرجت للناس ، ولم يجعل شعارها من لون الشَّبَاب إلا تفاؤلا بأنها لا تَهْرَم ، وأنها لا تزال مَحْبُوَّة من أبكار السعادة بالحبِّ الذى لا يُسْلَى والوصْلِ الذى لا يُصْرَم ، وهذا معنى استنبطه الخادم للدولة وشعارها ، وهو مما لم تخطّ به الأقلام فى خطها ولا أجالته الخواطر فى أفكارها .

وغرابة هذا المعنى ظاهرة ، ولم يأت بها أحد قبلى .

وبلغنى من المعانى المخترعة أن عبد الملك بن مروان بنى بابا من أبواب

---

(١) فى النهاية (ن ق ى) بعد ذكر الحديث قال : « هو الخبز الحوارى » .

المسجد الأقصى بالبيت المقدس ، و بنى الحجاج بابا إلى جانبه ، فجاءت صاعقة فأحرقت الباب الذى بناه عبد الملك ، فتطير لذلك ، وشق عليه ، فبلغ ذلك الحجاج فكتب إليه كتابا : بلغنى كذا وكذا ، فليهن أمير المؤمنين أن الله تقبل منه ، وما مثلى ومثله إلا كابنى آدم إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ؛ فلما وقف عبد الملك على كتابه سُرِّىَ عنه . وهذا معنى غريب استخرجه الحجاج من القرآن الكريم ، وهو من المعانى المناسبة لما ذكرت فيه ؛ ويكفى الحجاج من فطانة الفكرة أن يكون عنده استعداد لاستخراج مثل ذلك .

وأما المعانى التى تستخرج من غير شاهد حال متصورة فإنها أصعب مثالا مما يستخرج بشاهد الحال ، ولأمرٍ مّا كان لأبكارها سِرٌّ لا يهجم على مكامنه إلا جَنَان الشَّهْم ، ولا يفوز بمحاسنه إلا من دَقّ فهمه حتى جَلّ عن دقة الفهم، ولَلْهُجُومُ على عَذَارَى المغانى المحميَّة بحجُب البَوَاتر أيْسَرُ من الهجوم على عذارى المعانى المحمية بحجب الخواطر ، وما ذلك مما يلقيه إليك الأستاذ ، وليس يقوم به إلا الفذ ولا أقول الأفذاذ ، وأين الذى ينشىء فيحسن فيها الإنشاء ، و يبرز فيها صُوَراً يركبها كيف يشاء ؟ ومن نظر إلى هذا الموضع حق النظر ، وأخذ فيه بالعين دون الأثر ، عَلِمَ أنه مقام يزلق بمعارف الأفهام ، فكيف بمواقف الأقدام، وليست المعانى فيه إلا كالأرواح ، ولا الألفاظ إلا كالأجسام ، فمن شاء أن يخلق خلقاً من الكلام فليأت به على صورة الأناسىّ لا على صورة الأنعام ، فإن من القول الغانية التى هى أحسن من الغانية ، ومنه البهيمة التى لا تشبه إلا بالسانية .

فما جاء فى هذا الباب قول أبى نواس[1] :

---

(١) لم أجد هذين البيتين فى باب الهجاء من ديوان أبى نواس .

شَرابُكَ فِى السَّرابِ إذا عَطِشْنا　　وَخُبْزُكَ عِنْدَ مُنْقَطَعِ التُّرابِ

وَما رَوَّحْتَنا لِتَذُبَّ عَنَّا　　وَلٰكِنْ خِفْتَ مَرْزِئَةَ الذُّبابِ

فالبيت الثانى من هذين البيتين هو المشار إليه بأنه معنى مبتدع ، ويُحْكَى عن الرشيد هرون رحمه الله أنه قال : لم يُهْجَ بادٍ ولا حاضر بمثل هذا الهجاء .

ومن هذا الباب قول مسلم بن الوليد(١) :

تَنالُ بِالرِّفْقِ ما تَعْيا الرِّجالُ بِهِ　　كَالْمَوْتِ مُسْتَعْجِلاً يأْتِى عَلَى مَهَلِ

ومن هذا الباب قول على بن جبلة :

تَكَفَّلَ ساكِنَ الدُّنْيا حُمَيْدٌ　　فَقَدْ أضْحَتْ لَهُ الدُّنْيا عِيالاَ

كَأنَّ أباهُ آدَمَ كانَ أوْصَى　　إلَيْهِ أنْ يَعُولَهُمُ فَعالاَ

وهذا معنى دَنْدَن حوله الشعراء، وفاز على بن جبلة بالإفصاح عنه .

وقد قيل : إن أبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعانى ، وقد عُدَّت معانيه المبتدعة فوجدت مايزيد على عشرين معنى .

وأهل هذه الصناعة يكبرون ذلك ، وما هذا من مثل أبى تمام بكبير ؛ فإنى أنا عددت معَانِىَّ المبتدعة التى وردت فى مكاتباتى فوجدتها أكثر من هذه العدة ، وهى مما لا أنازع فيه ، ولا أدافع عنه ؛ فأما ماورد لأبى تمام فمن ذلك قوله(٢) :

(١) من قصيدة له يمدح فيها يزيد بن مزيد الشيبانى ، وأولها قوله :

أجْرَرْتُ حَبْلَ خَليعٍ فى الْهَوَى غَزِلِ　　وَشَمَّرَتْ هِمَمُ الْعُذَّالِ فى الْعَذَلِ

(٢) البيتان من أربعة أبيات يعاتب فيها أبا دلف العجلى ، واللذان قبلهما قوله :

صَبْراً عَلَى المَطْلِ مالَمْ يَتْلُهُ الْكَذِبُ　　فَلِلْخُطُوبِ إذا سامَحْتَها عُقَبُ

عَلَى الْمَقادِيرِ لَوْمٌ إنْ مُنِيتُ بِهِ　　مِنْ عاذِلٍ وَعَلَىَّ السَّعْىُ وَالطَّلَبُ

وانظر الديوان (ص ٢٢ بيروت) .

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ النَّائِي بِرُؤْيَتِهِ ... وَجُودُهُ لِمُرَاعِي جُودِهِ كَثَبُ
لَيْسَ الْحِجَابُ بِمُقْصٍ عَنْكَ لِي أَمَلاً ... إِنَّ السَّمَاءَ تُرَجَّى حِينَ تَحْتَجِبُ

وكذلك قوله(١) :

رَأَيْنَا الْجُودَ فِيكَ وَمَا عَرَضْنَا ... لِسَجْلٍ مِنْــهُ بَعْدُ وَلاَ ذَنُوبِ
وَلٰكِنْ دَارَةُ الْقَمَرِ اسْتَتَمَّتْ ... فَدَلَّتْنَــا عَلَى مَطَرٍ قَرِيبِ

وكذلك قوله فى الهجاء(٢) :

وَأَنْتَ تُدِيرُ قُطْبَ رَحًا عَلِيًّا ... وَلَمْ نَرَ لِلرَّحَا الْعَلْيَــاءِ قُطْبَا
تَرَى ظَفَراً بِكُلِّ صِرَاعِ قِرْنٍ ... إِذَا مَا كُنْتَ أَسْفَلَ مِنْهُ جَنْبَا(٣)

وكذلك قوله(٤) :

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيــلَةٍ ... طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ
لَوْلاَ اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ

وكذلك قوله(٥) :

---

(١) لم أجد هذين البيتين فى ديوان أبى تمام .

(٢) من كلمة له يهجو فيها عتبة بن أبى عاصم ، وأولها قوله

أَعُتَيْبَةُ أَجْبَنَ الثَّقَلَيْنِ عُتْبَا ... بِجَهْلِكَ صِرْتَ لِلْمَكْرُوهِ نُصْبَا

(٣) فى ١ ، ب ، ج « ترى قطر بكل صراع قرن » وما أثبتناه عن الديوان (ص ٤٨٦ بيروت) .

(٤) من قصيدة له يمدح فيها أبا عبد الله أحمد بن أبى دواد ، وأولها قوله :

أَرَأَيْتَ أَيَّ سَوَالِفٍ وَخُدُودِ ... عَنَّتْ لَنَا بَيْنَ اللِّوَى فَزَرُودِ

(٥) من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن المعتصم ، وأولها قوله :

مَا فِي وُقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسِ ... نَقْضِي ذِمَامَ الْأَرْبُعِ الْأَدْرَاسِ

لَا تُنْكِرُوا ضَرْبِى لَهُ مَنْ دُونَهُ ... مَثَلاً شَرُوداً فى النَّدَى وَالْبَاسِ
فَاللّٰهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقَلَّ لِنُورِهِ ... مَثَلاً مِنَ الْمِشْكَاةِ وَالنِّبْرَاسِ

وكذلك قوله (١)

لَا تُنْكِرِى عَطَلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغِنَى ... فَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِى

وكذلك له فى الشيب (٢) :

شُعْلَةٌ فِى الْمَفَارِقِ اسْتَوْدَعَتْنِى ... فِى صَمِيمِ الْفُؤَادِ ثُكْلاً صَمِيمَا
يَسْتَثِيرُ الْهُمُومَ مَا اكْتَنَّ مِنْهَا ... صُعُداً وَهْىَ تَسْتَثِيرُ الْهُمُومَا

فالبيت الثانى من المعانى المخترعة ، وقد تفقه فيه فجعله مسألة من مسائل الدور ، وهذا من إغراب أبى تمام المعروف .

وهذا القدر كاف من جملة معانيه ؛ فإنا لم نستقصها ههنا .

ومن هذا الباب قول ابن الرومى (٣) :

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها الحسن بن رجاء ، وأولها قوله :

يَكْفِى وَغَاكَ فَإِنَّنِى لَكَ قَالِ ... لَيْسَتْ هَوَادِى عَزْمَتِى بِتَوَالِ

انظر الديوان (ص ٢٤٦ بيروت) .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد ، وأولها قوله :

إِنَّ عَهْدًا لَوْ تَعْلَمَانِ عَظِيمَا ... أَنْ تَنَامَا عَنْ لَيْلَتِى أَوْ تُنِيمَا

انظر الديوان (ص ٢٩٠ بيروت) .

(٣) البيتان من أربعة أبيات فى الديوان (ص ٩٧ ج ١) و بعدهما قوله :

عَذْرِى فَإِنِّى لَا أُطِيلُ مَدَائِحِى ... إِلَّا لِأَوْفَى مَنْ مَدَحْتُ ثَنَاءَهُ
وَأَعُدُّ ظُلْماً أَنْ أُقِلَّ مَدِيحَهُ ... عَمْدًا ، وَأَسْخَطُ أَنْ أُقِلَّ عَطَاءَه

وهذا المعنى مما كثر فى شعر ابن الرومى ؛ فمن ذلك قوله فى إسماعيل بن بلبل :

كُلُّ امْرِئٍ مَدَحَ امْرَأً لِنَوَالِهِ وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَسَاءَ هِجَاءَهُ
لَوْ لَمْ يُقَدِّرْ فِيهِ بُعْدَ الْمُسْتَقَى عِنْدَ الْوُرُودِ لَمَا أَطَالَ رِشَاءَهُ

وكذلك قوله[1] :

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلَا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصِّحَابِ
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرُ مَا تَرَاهُ يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوِ الشَّرَابِ

وكذلك قوله :

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ

أَتَيْتُكَ لَمْ أَشْفَعْ إِلَيْكَ بِشَافِعٍ وَلَوْ شِئْتُ كَانَ النَّاسُ لِي شُفَعَاءَ
وَلٰكِنَّنِي وَفَّرْتُ حَمْدِي بِأَسْرِهِ عَلَيْكَ وَلَمْ أُشْرِكْ بِهِ الشُّرَكَاءَ
نَدَاكَ مَعِينٌ كَالَّذِي قَدْ عَلِمْتَهُ وَلَوْ كَانَ غَوْرًا لَالْتَمَسْتُ رِشَاءَ
وَهٰذَا شِتَاءٌ قَدْ أَظَلَّ رِوَاقُهُ وَجَارُكَ جَارٌ لَا يَخَافُ شِتَاءَ

وكقوله يعتذر إلى صاعد من طول قصيدته :

لَمْ أُطِلْهَا كَمَا أَطَالَ رِشَاءٌ مَائِحٌ سَاءَ ظَنُّهُ بِقَلِيبِ
حَاشَ لِلّٰهِ ! لَيْسَ مِثْلِي تَظَنَّى ظَنَّ سُوءٍ بِمُسْتَقَاكَ الْقَرِيبِ
غَيْرَ أَنِّي امْرُؤٌ وَجَدْتُ مَقَالًا مُسْتَتِبًّا فِي كُلِّ قَرْمٍ نَجِيبِ
فَأَطَلْتُ الْمَدِيحَ مَا طَالَ فِيهِمْ مَعَ أَنِّي قَصَّرْتُ غَيْرَ مَعِيبِ

(١) البيتان أول كلمة له فى الحث على مجانبة الناس (انظر الديوان : ١ – ٣١٣).
و بعدهما قوله :

إِذَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ غَدَا عَدُوًّا مُبِينًا وَالْأُمُورُ إِلَى انْقِلَابِ
وَلَوْ كَانَ الْكَثِيرُ يَطِيبُ كَانَتْ مُصَاحَبَةُ الْكَثِيرِ مِنَ الصَّوَابِ

وَإلا فما يُبْكِيهِ مِنْهَا وَإِنَّهُ لأَوْسَعُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ
إذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهَلَّ كَأَنَّهُ بِمَا هُوَ لاَقٍ مِنْ أَذَاهَا يُهَدَّدُ

وكذلك قوله :

رَدَدْتَ عَلَيَّ مَدْحِي بَعْدَ مَطْلٍ وَقَدْ دَنِسَتْ مَلَابِسُهُ الْجَدِيدَا
وَقُلْتَ امْدَحْ بِهِ مَنْ شِئْتَ غَيْرِي وَمَنْ ذَا يَقْبَلُ الْمَدْحَ الرَّدِيدَا
وَهَلْ لِلْحَيِّ فِي أَكْفَانِ مَيْتٍ لَبُوسٌ بَعْدَمَا امْتَلأَتْ صَدِيدَا

وقد ورد لأبي الطيب المتنبي من ذلك كقوله(١) :

أَجِزْنِي إذَا أُنْشِدْتَ مَدْحًا فَإِنَّمَا بِشِعْرِي أَتَاكَ الْمَادِحُونَ مُرَدَّدَا
وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ بَعْدَ صَوْتِي فَإِنَّنِي أَنَا الصَّائِحُ الْمَحْكِيُّ وَالآخَرُ الصَّدَى

فالبيت الأول قد توارد على معناه الشعراء قديماً وحديثاً ، لكن البيت الثانى فى التمثيل الذى مثله ليس لأحد إلا له .

وكذلك قوله(٢) :

بِهَجْرِ سُيُوفِكَ أَغْمَادَهَا تَمَنَّى الطُّلَى أَنْ تَكُونَ الْغُمُودَا(٣)
إلَى الْهَامِ تَصْدُرُ عَنْ مِثْلِهِ تَرَى صَدَراً عَنْ وُرُودٍ وُرُودَا(٤)

---

(١) البيتان من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة و يهنئه بعيد الأضحى ، وأولها قوله :

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فى الْعِدَى

(٢) البيتان من قصيدة له يمدح فيها بدر بن عمار الأسدى ، وأولها قوله :

أَحُلْماً نَرَى أَمْ زَمَاناً جَدِيداً أَمِ الْخَلْقُ فى شَخْصِ حَيٍّ أُعِيدَا

(٣) تمنى : أصله تتمنى ، فحذف إحدى التاءين ، والطلى : الأعناق ، والغمود : جمع غمد ، وهو قراب السيف .

(٤) الهام : اسم جنس جمعى ، واحده هامة ، وهى الرأس ، والصدر : الخروج من الماء بعد الرى ، والورود : الدخول إلى الماء للشرب منه .

وكذلك قوله فى بدر بن عمار يهنيه ببرئه من مرض (١) :

قُصِدْتَ مِنْ شَرْقِهَا وَمَغْرِبِهَا حَتَّى اشْتَكَتْكَ الرِّكَابُ وَالسُّبُلُ

لَمْ تُبْقِ إِلَّا قَلِيلَ عَافِيَةٍ قَدْ وَفَدَتْ تَجْتَدِيكَهَا الْعِلَلُ

وقد وقفت على ما شاء الله من أشعار الفحول من الشعراء قديماً وحديثاً فلم أجد لأحد منهم فى ذكر المرض ما يعدّ معنًى مخترعاً ، لا ، بل لم أجد من أقوالهم شيئاً مرضيا ، ما عدا المتنبى ؛ فإنه ذكر المرضَ فى عدة مواضع من شعره فأجاد ، وهذ البيت الثانى من هذين البيتين معنًى مخترع له ؛ وقد أحسن فيه كل الإحسان .

ومما ابتدعه بإجماعٍ قولُه فى مدح عَضُد الدولة فى قصيدته النونية التى مطلعها :

* مَغَانِى الشِّعْبِ طِيبًا فى المَغَانِى (٢) *

قال عند ذكره :

فَعَاشَا عِيشَةَ الْقَمَرَيْنِ يُحْيَا بِضَوْئِهِمَا وَلَا يَتَحَاسَدَانِ

وَلَا مَلَكَا سِوَى مُلْكِ الْأَعَادِى وَلَا وَرِثَا سِوَى مَنْ يَقْتُلَانِ

وَكَانَ ابْنَا عَدُوٍّ كَاثَرَاهُ لَهُ يَاءَىْ حُرُوفِ أُنَيْسِيَانِ

أى : جعل الله ابنى عدو كاثَرَاه يعنى ابنى عضد الدولة كياءى حروف تصغير إنسان ؛ فإن ذلك زيادة ، وهو نقص فى المقدار ، إلا أن سبك هذا البيت قد شوّهه وأذهب طلاوة المعنى المندرج تحته .

---

(١) البيتان من قصيدة له يمدح فيها بدر بن عمار ، وأولها قوله :

أَبْعَدُ نَأْىِ المَلِيحَةِ الْبَخَلُ فى الْبُعْدِ مَالَا تُكَلَّفُ الْإِبِلُ

(٢) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ *

ومن معانيه المبتدعة قوله(١) :

فَإِنْ تَفُقِ الْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ   فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

وأحسن من ذلك قوله(٢) :

صَدَمْتَهُمْ بِخَمِيسٍ أَنْتَ غُرَّتُهُ   وَسَمْهَرِيَّتُهُ فِي وَجْهِهِ غَمَمُ

فَكَانَ أَثْبَتَ مَا فِيهِمْ جُسُومُهُمُ   يَسْقُطْنَ حَوْلَكَ وَالْأَرْوَاحُ تَنْهَزِمُ

وهذا من أعاجيب أبى الطيب التى بَرَّزَ فيها على الشعراء .

ومن الإحسان فى هذا الباب قول بعضهم :

وَقَدْ أَشُقُّ الْحِجَابَ الصَّعْبَ مَأْرَبُهُ   دُونِي وَآبَى وُلُوجًا فِيهِ إِنْ طَرُقَا(٣)

كَالطَّيْفِ يَأْبَى دُخُولَ الْجَفْنِ مُنْفَتِحًا   وَلَيْسَ يَدْخُلُهُ إِلَّا إِذَا انْطَبَقَا

ورأيت ابن حمدون البغدادى صاحب كتاب التذكرة قد أورد هٰذين البيتين فى كتابه ، وقال : قد أغرب هذا الشاعر ، ولكنه خلط وجرى على عادة الشعراء ؛ لأن الطيف لايدخل الجفن ، وإنما يتخيل إلى النفس ؛ وهذا كلام من لم يَطْعَمْ من شجرة الفصاحة والبلاغة ، وليس مثله عندى إلا كما يحكى عن

---

(١) البيت آخر قصيدة له يرثى فيها والدة سيف الدولة ، وأولها قوله :

نُعِدُّ الْمَشْرَفِيَّةَ وَالْعَوَالِي   وَتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلَا قِتَالِ

وقبل البيت الذى أنشده المؤلف قوله :

وَحَالَاتُ الزَّمَانِ عَلَيْكَ شَتَّى   وَحَالُكَ وَاحِدٌ فِي كُلِّ حَالِ

فَلَا غِيضَتْ بِحَارُكَ يَا جَمُومًا   عَلَى عَلَلِ الْغَرَائِبِ وَالدِّخَالِ

رَأَيْتُكَ فِي الَّذِينَ أَرَى مُلُوكًا   كَأَنَّكَ مُسْتَقِيمٌ فِي مُحَالِ

(٢) البيتان من قصيدة له هى آخر ماقاله بحضرة سيف الدولة ، وأولها قوله :

عُقْبَى الْيَمِينِ عَلَى عُقْبَى الْوَغَى نَدَمُ   مَاذَا يَزِيدُكَ فِي إِقْدَامِكَ الْقَسَمُ

(٣) فى ا ، ب ، ج « الصعب ماذيه » وهو تحريف .

ملك الروم إذ أنشد عنده بيت المتنبي الذي هو[١]:

كأنَّ العِيسَ كانَتْ فوقَ جَفْني ... مُناخاةً فلمّا ثُرْنَ سالاَ

فسأل عن المعنى ففسر له ، فقال : ما سمعت بأعذب من هذا الشاعر : أرأيت من أناخ الجمل على عينه لا يهلكه .

ومن محاسن هذا القسم قول بعضهم :

تَحَيَّرَهُ اللهُ مِنْ آدَمٍ ... فَما زالَ مُنْحَدِرًا يَرْتَقِي

وكذلك قول الآخر :

بِأَبِي غَزالٌ غازَلَتْهُ مُقْلَتِي ... بَيْنَ الغُوَيْرِ وَبَيْنَ شَطَّيْ بارِقِ

عاطَيْتُهُ وَاللَّيْلُ يَسْحَبُ ذَيْلَهُ ... صَهْباءَ كَالْمِسْكِ الفَتِيقِ لِناشِقِ

وَضَمَمْتُهُ ضَمَّ الْكَمِيِّ لِسَيْفِهِ ... وَذُؤابَتاهُ حَمائِلٌ فِي عاتِقِي

حَتَّى إذا مالَتْ بِهِ سِنَةُ الْكَرَى ... زَحْزَحْتُهُ شَيْئًا وَكانَ مُعانِقِي

أَبْعَدْتُهُ عَنْ أَضْلُعٍ تَشْتاقُهُ ... كَيْ لاَ يَنامَ عَلَى وِسادٍ خافِقِ

وهذا من الحسن والملاحة بالمكان الأقصى ، ولقد خَفَّت معانيه على القلوب حتى كادت ترقص رقصاً ، والبيت الأخير منه هو الموصوف بالإبداع ، وبه وبأمثاله أقرَّت الأبصار بفضل الأسماع .

ومن هذا الضرب قولُ بعض المصريين يهجو إنسانا يقال له ابن طليل احترقت داره :

انْظُرْ إلَى الْأَيَّامِ كَيْفَ تَسُوقُنا ... طَوْعًا إلَى الْإِقْرارِ بِالْأَقْدارِ

ما أَوْقَدَ ابْنُ طُلَيْلٍ قَطُّ بِدارِهِ ... نارًا وَكانَ هَلاَكُها بِالنَّارِ

---

(١) البيت من قصيدة له يمدح فيها بدر بن عمار ، وأولها قوله :

بَقائِي شاءَ لَيْسَ هُمُ ارْتِحالاَ ... وَحُسْنَ الصَّبْرِ زَمُّوا لاَ الْجِمالاَ

وكذلك ورد قول ابن قلاقس من شعراء مصر :

زِدْ رِفعةً إنْ قِيلَ أنغضْ وَانخفضْ إنْ قيلَ أثْرَى
كالغُصْنِ يَدْنو ما اكتسَى ثمراً وَينْأى ما تعرَّى

وهذا من المعانى الدقيقة .

ومن هذا الأسلوب قول الشاعر المعروف بالحافظ فى تشبيه البهار ، وهو :

عُيُونُ تِبْرٍ كأنَّما سَرَقَتْ سَوادَ أحْداقِها مِنَ الْغسَقِ
فَإنْ دَجَا لَيْلُها بِظُلْمَتِهِ ضَمَّمْنَ مِنْ خَوْفِها عَلى السَّرَقِ

وهذا تشبيه بديع لم يسمع بمثله ، وهو من اللطافة على مالا خفاء به .

ومن هذا القسم قول بعض المتأخرين من أهل زماننا :

لاتَضَعْ مِنْ عَظِيمِ قَدْرٍ وَإنْ كُنْتَ مُشاراً إليْهِ بِالتَّعْظِيمِ
فَالشَّرِيفُ الْعَظِيمُ يَنْقُصُ قَدْراً بِالتَّعَدِّى عَلَى الشَّرِيفِ الْعَظِيمِ
وَلَعُ الْخَمْرِ بِالْعُقُولِ رَمَى الْخَمْرَ بِتَنْجِيسِها وَبِالتَّحْرِيمِ

ومن غريب ما سمعته فى هذا الباب قول بعض الشعراء المغاربة يرثى قتيلا :

غدَرَتْ بِهِ زُرْقُ الأسِنةِ بَعْدَ مَا قَدْ كُنَّ طَوْعَ يَمِينِهِ وَشِمالِهِ
فَلْيَحْذَرِ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ نُجُومَهُ إذْ بَانَ غَدْرُ مِثالِها بِمِثالِهِ

وكذلك جاء قول بعض المغاربة فى الخمر وكاساتها :

ثَقُلَتْ زُجَاجَاتٌ أَتَتْنا فُرَّغًا حَتَّى إذَا مُلِئَتْ بِصِرْفِ الرَّاحِ
خَفَّتْ فَكَادَتْ أنْ تَطِيرَ بِمَا حَوَتْ وَكَذَا الْجُسُومُ تَخِفُّ بِالأرْوَاحِ

وهذا معنى مبتدع أشهد أنه يفعل بالعقول فعل الخمر سكراً ، ويروق كما رقت لطفاً ، ويفوح كما فاحت نشراً .

وكذلك ورد قول ابن حمديس الصقلي :

يَاسَالِباً قَمَرَ السَّمَاءِ جَمَالَهُ أَلْبَسْتَنِى لِلْحُزْنِ ثَوْبَ سَمَائِهِ
أَضْرَمْتَ قَلْبِى فَارْتَمَى بِشَرَارَةٍ وَقَعَتْ بِخَدِّكَ فَانْطَفَتْ مِنْ مَائِهِ

وهذا المعنى دقيق جداً .

وقد سمعت فى الخال ماشاء الله أن أسمع ، فلم أجد مثل هذا .

وقد جاءنى فى الكلام المنثور من هذا الضرب شىء ، وسأذكر ههنا منه نبذة .

فمن ذلك ماذكرته فى وصف صورة مليحة ، فقلت : ألبس من الحسن أنضر لباس ، وخلق من طينة غير طينة الناس ، وكما زاد حسناً فكذلك ازداد طيباً ، واتفقت فيه الأهواء حتى صار إلى كل قلب حبيباً ، فلو صافح الورد لتعطرت أوراقه ، أو مر على النَّيْلوفر ليلا لتفتحت أحداقه .

والمعنى الغريب ههنا أن الشمس إذا طلعت على النيلوفر تفتّح أوراقه ، وإذا غربت عنه انضم ، ثم إنى سمعت هذا فى شعر الفرس لبعض شعرائهم ، فحصل عندى منه تعجب .

ومن ذلك ماذكرته فى ذم الشيب ، فقلت : الشيب إعدام للإيسار ، وظلام للأنوار ؛ وهو الموت الأول الذى يصلى ناراً من الهم أشد وقوداً من النار ، ولئن قال قوم إنه جلالة فإنهم دقّوا به وماجلّوا ، وأفتَوا فى وصفه بغير علم فضَلُّوا وأضلّوا ، وما أُراه إلا محراثا للعمر ولم تدخل آلة الحرث دار قوم إلا ذلّوا ، ومن عجيب شأنه أنه المملول الذى يشفق من بُعْدِه ، والخلق الذى يكره نزع برده ، ولما فقد الشباب كان عنه عوضاً ولا عوض عنه فى فقده .

والمعنى المخترع ههنا فى قولى « وماأُراه إلا محراثا للعمر ولم تدخل آلة الحرث دار قوم إلا ذلوا » وهو مستنبط من الحديث النبوى ، وذاك أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى آلة حرث فقال : « مادَخَلَتْ هٰذِهِ دَارَ قَوْمٍ إلاَّ ذَلُّوا » فأخذت

أنا هذا ونقلته إلى الشيب ، فجاء كما تراه فى أعلى درجات الحسن ، وذلك لما بينه وبين الشيب من المناسبة الشبيهة ؛ لأن الشيب يفعل فى البدن ما يفعله المحراث فى الأرض ، وإذا نزل بالإنسان أحدث عنده ذلا .

ومن هذا الباب ماذكرته فى فصل من كتاب إلى بعض الناس أعبث به ، فقلت : وإذا كتبتُ مَثَالبه فى كتاب اجتمع عليه بنات وردان ، وحرم على أن أبدأ فيه بالبسملة لأنها من القرآن .

وهذا معنى لطيف فى غاية اللطافة ، وهو مخترع لى .

وكذلك كتبت إلى بعض الناس كتاباً من هذا الجنس أهزل معه ، فقلت فى فصل منه ما أذكره ، وهو : ينبغى له أن يشكرنى على وسْمِه بهجائى دون امتداحى ، فانى لم أسمه إلا لتحرم به الأضحية فى يوم الأضاحى ، ولا شك أن سيدنا معدود فى جملة الأنعام ، غير أنه من ذوات القرون والقرن عـدوه عند الخصام .

وهذا معنى ابتدعته ابتداعاً ، ولم أسمعه لأحد من قبلى .

ومن ذلك ماذكرته فى جملة كتاب يتضمن هزيمة الـكفار ، وذلك فصل منه ، فقلت : وكانت الوقعة يوم الأحد منتصف شهر كذا وكذا ، وهذا هو اليوم الذى تخيره الـكفار من أيام الأسبوع ، ونصبوه موسما لشرع كفرهم المشروع ، فحصل ارتيابهم به إذ تضمَّن للاسلام مزيدا ، وقالوا : هذا يوم قد أسلم فلا نجعله لنا عيدا ، وقد أفصح لهم لسانه لو كانوا يعلمون ، بأن الدين عند الله هو الإسلام وأن أولياءه هم المسلمون .

وهذا معنى انفردت بابتداعه ، ولم يأت به أحد ممن تقدمنى .

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة ببغداد ، وهو فى وصف القلم ، فقلت : وقَلَمُ الديوان العزيز هو الذى يخفض ويرفع ، ويعطى

ويمنع ، وهو المطاع لِجَدْعِ أنفه وسواد لباسه وقد ورد الأمر بطاعة الحبشى الأجدع ، ومن أحسن صفاته أن شِعَاره من شعار مولاه ، فهو يخلع على عبيده من الكرامة مايخلع .

فى هذه الأوصاف معانٍ حسنة لطيفة ، ومنها معنى غريب لم أسبق إليه ، وهو قولى « إنه المطاع لجدع أنفه وسواد لباسه وقد ورد الأمر بطاعة الحبشى الأجدع » فإن هذا مما ابتكرته ، وهو مستخرج من الحديث النبوى فى ذكر الطاعة والجماعة ، فقال صلى الله عليه وسلم « أَطِعْ وَلَوْ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعًا مَاأَقَامَ عَلَيْكَ كِتَابَ اللهِ » فاستخرجت أنا للقلم معنى من ذلك ، وهو أن القلم يجدع ويقمص لباس السواد فصار حبشيا أجدع ، وهذا كما فعل أبو تمام حبيب بن أوس الطائى فى قصيدته السينية ، فإنه استخرج المعنى المخترع من القرآن الكريم ، وأنا استخرجت المعنى من الخبر النبوى كما أريتك ، وهذا المعنى المشار إليه فى وصف القلم أوردته بعبارة أخرى على وجه آخر ونبهت عليه فى كتاب « الوشى المرقوم فى حل المنظوم » وهذا كتاب ألفته فى صناعة حل الشعر وغيره .

وبعد هذا فسأقول لك فى هذا الموضع قولاً لم يقله أحد غيرى ، وهو أن المعانى المبتدعة شبيهة بمسائل الحساب المجهول من الجبر والمقابلة ، فكما أنك إذا وردت عليك مسألة من المجهولات تأخذها وتقلبها ظهراً لبطن ، وتنظر إلى أوائلها وأواخرها ، وتعتبر أطرافها وأوساطها ، وعند ذلك تخرج بك الفكرة إلى معلوم ؛ فكذلك إذا ورد عليك معنًى من المعانى ينبغى لك أن تنظر فيه كنظرك فى المجهولات الحسابية ، إلا أن هذا لايقع فى كل معنى ؛ فإن أكثر المعانى قد طرق وسبق إليه ، والإبداع إنما يقع فى معنى غريب لم يطرق ، ولا يكون ذلك إلا فى أمر غريب لم يأت مثله ، وحينئذ إذا كتب فيه كتاب أو نظم فيه شعر فإن

الكاتب والشاعر يعثران على مظنة الإبداع فيه ، وقد لابَسْتُ ذلك فى مواضع كثيرة وسأورد ههنا مايُحْذَى حذوه لمن استطاع إليه سبيلاً .

ومن ذلك ما كتبته عن نفسى إلى بعض ملوك الشام ، وأهديت إليه رطباً ، وهو: خَلَّدَ الله دولة مولانا ، وعَمَرَ لها مجداً وجنانا ، وخَوَّلها السعادة عطاء حسابا، وأنشأ الليالى لخدمتها عُرُباً أتْرَابا ، وأبقى شبيبتها بقاء لا يستحدث معه خِضَابا ، ولا جَعَلَ لها فى محاسن الدول السابقة أشباها ولا أضْرَابا ، وألقى البأسَ بين أعدائها وحسادها حتى يبعث لهم فى الأرض غرابا ، إذا أراد العبيد أن يُهْدُوا لمواليهم قصَّرَت بهم يَدُ وُجْدِهِم ، وعلموا أن كل ماعندهم من عندهم ، لكن فى الأشياء المستطرفة مايهدى و إن كان قدره خفيفاً ، ولولا اختلاف البلاد فيما يوجد بها لما كان شىء من الأشياء طريفاً ، وقد أهدى المملوكُ من الرطب مايتجلّى فى صفة الوارس ، ويَزْهى بحسنه حتى كأنه لم يُدَنَّسْ بيد لامس ، وما سمى رطباً إلا لاشتقاقه من الرطب الذى هو ضد اليابس ، وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ثناء جما ، وفَضَّلَ شجرته على الشجر بأن سَمَّاها أمّا ، ولئن عدم عَرْفاً لذيذاً فإنه لم يعدم منظراً لذيذاً ولا طعماً ، وله أوصاف أخرى هى لفضله بمنزلة الشهود ، فمنها أنه أول غذاء يفطر عليه الصائم وأول غذاء يدخل بطن المولود ، وأحسن من ذلك أنه معدود من الحلواء و إن كان من ذوات الغراس، ولا فرق بينهما سوى أنه من خلق الله وتلك من خلق الناس ، و إذا أنصف واصفه قال : ما من ثمرة إلا وهى عنه قاصرة ، ولو تفاخرت البلاد بمحاسن ثمارها لقامت أرض العراق به فاخرة ، وها قدسار إلى باب مولانا وهومجنى المنابت سار إلى مجنى الكرم ، وملك الفاكهة وفد على ملك الشِّيَم ، ولما استقلّت به الطريق أنشأ الحسد لغيره من الفواكه أربا ، وما منها إلا من قال : ياليتنى كنت رطباً ، ولئن كان من الثمرات التى تختلف فى الصور والأسماء ، ويفضل بعضها على بعض ويسقى بشراب واحد

من المـاء ، فـكذلك تلك الشيم العريقة تتحد فى عنصرها وهى مختلفة الوتيرة ، ومن أفضلها شيمةُ السماح التى تَقْبَلُ القليلَ من عبيدها ، وتسمَحُ لهم بالعطايا الـكثيرة ، وقد ضرب لهـا الملوك مثالا فقال هى : تَجَنَّة بَرَبْوَة ، بل ضرب لهـا ماضرب للمثل النبوى ، وهى نخلة بكبوة ، ولا يختم كتابه بأحسن من هذا القول الذى طاب سمعاً ، وزكا أصلا وفرعا ، وتصرف فى أساليب البلاغة فجاء به وتراً وشفعاً ؛ والسلام .

وهذا كتاب غريب فى معناه ، وقد اشتمل على معان كثيرة ؛ فمن جملتها أن الرطب مشتق من الرطب الذى هوضد اليابس ، ومن جملتها أن النبى صلى الله عليه وسلم سمى النخلة أما فقال « أمكم النخلة » ، ومن جملتها أنه كان صلى الله عليه وسلم يفطر على رُطَبات فإن لم يجد فتمرات ، ومن جملتها أنه كان يَلُوكُ التمرةَ ويُحَنِّكُ بها المولود عند ميلاده ، ولمـا ولد عبد الله بن الزبير جاءت أمه أسماء بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنه ووضعته فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلاك تمرة ووضعها فى فيه ، ومن جملتها أنه والحلواء شىء واحد ، إلا أنه من خلق الله وتلك من خلق الناس ، ومن جملتها أن العباس رضى الله عنه قال : يارسول الله ؛ إن قريشاً تذاكرت أحسابها فضربوا لك مثالا بنخلة بكبوة ، وكل هذه المعانى حسنة واردة فى موضعها ، ومن كتب فى معنى من المعانى فليكتبه هكذا ، وإلاَّ فَلْيَدَعْ .

ومن ذلك رقعة كتبتها إلى بعض حُجّاب السلطان فى حاجة عرضت لى ، وأرسلت معها هدية من ثياب ودراهم ، وهى :

مَامِنْ صَدِيقٍ وَإِنْ صَحَّتْ صَدَاقَتُهُ ... يَوْماً بِأَنْجَحَ فى الْحَاجَاتِ مِنْ طَبَقِ

إِذَا تَلَثَّمَ بِالْمِنْدِيلِ مُنْطَلِقاً ... لَمْ يَخْشَ نَبْوَةَ بَوّابٍ وَلاَ غَلَقِ

الهديَّةُ مشتقة من الهُدَى ، غير أنها ترفّ إلى القلب لا إلى الندى ، وصهارتها أنفع من الصهارة ، وكلما تردّدت كانت بكراً فهى لا تنفك عن البكارة ، ومن خصائصها أنها تمسك بمعروف أمِنَ من السراح ، وإذا رامت فتح باب لا تفتقر فى علاجه إلى مفتاح ، وقد قيل : إنها الحسناء المتأنقة فى عمارة بيتها ، التى توصَفُ بأن القِنْدِيل يضىء بزيْتها ، وقد أرسلتها إلى المولى وهي تَهادى فى إعجابها ، وتُدِلُّ بكثرة دراهمها وثيابها ، وتقول : أنا الكريمة فى قومها الشريفة فى أنسابها ، وأحسن مافيها أنها جاءت سِرًّا ، لم تعلم بها اليد اليمنى من اليسرى ؛ فخذها يامولاى وا كشف نقابها ، وأمِطْ عنها جلْبَابَها ، وقد كانت منك حرة وهى الآن فى حيز المملكة ، ومن السنة فى مثلها أن تؤخذ بالناصية ويدعى [لها] بالبركة ، والسائربها فلان وهو فى الجهل بها حامل أسفار ، وناقل لها من دار إلى دار ، ولربما نطق لسان حالها الذى هو أفصح من نطق اللسان ، وأذكرت بحاجة مرسلها وحاش فطانة الكريم من النسيان ، وليس المطلوب إلا فضيلة من الجاه تسفر بين السائل والمسئول ، وتَنْقُل البعيد إلى درجة القريب والممنوعَ إلى درجة المبذول ، فإذا فعل المولى ذلك كان له منة السِّفارة ومنة الإنعام ، وإن سمع بأن سعياً واحداً فاز بشكرين اثنين ففى مثل هذا المقام ، ومن الناس من يقول : ليس على جانب السلطان ثقل فى صُنْعِه ، وهل هٰهنا إلا كلمات تقال والكلام َماعُونٌ لارُخْصَةَ فى مَنْعِه ، ولم يَدْرِ أن ملاطفة الخطاب ضرب من الاحتيال ، وأن نقل الخطوات فيه أثقل من نقل الجبال ، وأن صاحب الحاجة يحظى بحلاوة النجاح والحاجب يلقى مرارة السؤال . وهذا يقوله الخادم إيجابا لإحسان المولى الذى هو إحسان شامل ، ولا يعلمه إلا عالم بفضله ولا يجهله إلا جاهل ، والله تعالى يجعل الحاجات مغدوقة ببابه ، حتى لاتنفك فى الدنيا من إمداد شكره وفى الآخرة من إمداد ثوابه ؛ والسلام .

فتأمل أيها الناظر فى كتابى هذا إلى ما اشتملت عليه هذه الرقعة من المعانى حتى تعلم كيف تضع يدك[١] فيما تكتبه .

ومن ذلك رقعة أخرى كتبتها فى هذا المعنى المتقدم ذكره ، وأرسلت معها هدية من المسك ، وهي : الهدية رَسُولٌ يخاطِبُ عن مرسله بغير لسان ، ويدخل على القلوب من غير استئذان ، وقد قيل أخت السحر فى ملاطفة قصدها ، غير أنها لا تحتاج إلى نَفْثِها ولا إلى عَقْدِها ، وما من قلب إلا وصورتها تجلى عليه فى سرَقَة ، ولولا شرف مكانها لما حُلِّتْ للنبى صلى الله عليه وسلم مع تحريم الصدقة ، ولها صفات غير هذه كريمة الأخطار ، حسنة لدى الأسماع والأبصار ، ومن أحسنها أنها تستجدّ وُدًّا ، وتجعل قربًا ما كان بعدًا[٢] ، وتقول لنار الإحنة يانار كونى بردًا ، ولهذا قيل : تهادَوْا تحابُّوا ، ولا شك أنها وُصْلَة بين المودات فإذا تواصل الناس تقاربوا ، وقد أرسل الخادم منها شيئًا إذا كتمه ذاع ، وإذا خزنه ضاع ، وقد شبِّهَ به الجليس الصالح بعدد أسباب الأنتفاع ، ومما زاد مزية على مزيته أنه وَشِيجَ المولى توأمان ، غير أن شيمته تَنْتَمِى إلى كرم مَحْتِدِها وهو ينتمى إلى سُرَرَ الغزْلان ، فإذا ورد على مجلسه قيل : هذا عِطْر ورد على جونة عطار ، وعرف له حق المشاركة فإن أدنى الشرك فى الشيم جِوَار ، وقد نطق الخبر النبوى بأنه أحد الثلاثة التى لا تُرَدّ على من أهْدَاها ، وإذا نظر إلى محصول بقائها وفائدتها وجد أطولها عمرًا وأجْدَاها ، وهذا يحكم على المولى بقبول ما استرسل الخادم فى إرساله ، وإذا سأل غيره فى قبول هديته كفاه نص الخبر مؤنة سؤاله ؛ والسلام .

وهذه الرقعة أحسن من التى قبلها ؛ فما اشتملت عليه من المعانى قولى « وما من قلب إلا وصورتها تجلى عليه فى سَرَقَة ، ولولا شرف مكانها لما حلت للنبى صلى الله عليه وسلم مع تحريم الصدقة » وهذان المعنيان مستخرَجان من خبرين

(١) فى ا ، ب ، ج «حتى تعلم كيف تصنع يدك» .

(٢) فى ب ، ج « وتجعل قربا مكان بعدا » وهو تحريف ، وما أثبتناه عن ا .

نبويين : أحدهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «جاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ وَمَعَهُ سَرَقَةٌ مِنْ حَرِيرٍ » يعنى حريرة بيضاء « وَفِيها صُورَةُ عائشَةَ » رضى الله تعالى عنها « وَقالَ : هٰذِهِ زَوْجَتُكَ فى الدُّنْيا وَالآخِرَةِ » والخبر الآخر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « حُرِّمَتْ عَلَىَّ الصَّدَقَةُ ، وَأُحِلَّتْ لِي الهَدِيَّةُ » .

ومما اشتملت عليه أيضاً قولى « وقد أرسل الخادم منها شيئاً إذا كتمه ذاع وإذا خزنه ضاع » وهذه مغالطة حسنة ؛ لأن المسك إذا كتم ذاعت رائحته ، وإذا خُزِن ضاعَ : أى فاحَ ، ويقال : ضاعَ الشىء ؛ إذا ذهب ، فالمغالطة ههنا فى الجمع بين الضدين.

وكذلك قولى « وقد شبه به الجليس الصالح » وهذا مستخرج من الخبر النبوى أيضاً ، وذاك أنه قال صلى الله عليه وسلم : « مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ حامِلِ المِسْكِ ، إمَّا أَنْ يحْذِيَكَ ، وَإمَّا أَنْ تَبْتاعَ مِنْهُ ، وَإمَّا أَنْ تجِدَ مِنهُ عَرْفاً طَيِّباً ، وَمَثَلُ جَلِيسِ السُّوءِ مَثَلُ نَافِخِ الْكِيرِ ، إمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثَوْبَكَ ، وَإمَّا أَنْ تجِدَ مِنْهُ رائحَةً كَرِيهَةً » .

ومما اشتملت عليه من المعانى أيضاً قولى « إنه أحد الثلاثة التى لا ترد على من أهداها » وهذا مستخرج من الخبر النبوى أيضاً ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « ثَلاثَةٌ لاَ تُرَدُّ : الطِّيبُ ، والرَّيْحانُ ، وَالدُّهْنُ » .

ومن ذلك رقعة كلفنى بعضُ أصدقائى إملاءَها عليه ، وهى رقعة من عاشق إلى معشوق ، وهى :

وَإذَا قِيلَ مَنْ تحِبُّ تخَطَّا كَ لِسانِي وَأَنْتَ فِى الْقَلْبِ ذَا كا

يامن لا أسميه ، ولا أكنيه ، وأذكر غيْرَه وهو الذى أعنيه ، لا تكن ممن أوتى ملكا فلم ينظر فى زواله ، وعرَفَ مكانه من القلوب فجار فى إدلاله ، ولا تغتَرّ بقول من رأى الْحُسْنَ للاساءة ماحياً[1] ، واعلم أن اللاحى يقول كفى بالتذلل

(١) مثل قول الشاعر :

وَإذَا الحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ تَأْتِي محَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعِ

لاحِيًا ، وكثيراً ما يزول العشق بجنايات الصدود ، والزيادةُ فى الحد نقصان فى المحدود ، وقد قيل : إن الحسن عليه زكاة كزكاة المال ، وليست زكاته عند علماء المحبة إلا عبارة عن الوصال ، وهذه صَدَقة تقسَّم على أربابها ، ولا ينتظر أن يحول الحول فى إيجابها ، فهى مستمرة على تجدد الأيام ، والمستحقُّون لها قِسْمٌ واحد ولا يقال إنهم ثمانية أقسام ، وهؤلاء هم المخصوصون بفك الرقاب ، ورقبة العشق أشدّ أسراً من رقبة تتحرَّرُ بالكتاب ، فأخْرِجْ يامولاى من هذا الحق الواجب ، وإلا فتأتٍ لطالب مُنًى ومَطَالب ، ولا تقل هذا غريم أكثر عد الليالى فى مَطْلِه ، وأعِدُه والمواعيد زادٌ لمثله ، فهذه سِلْعَة قد عاملتنى بها مرة ساخرا ومرة ساحرا ، ومن الأقوال السائرة أن الغر تجعله التجربة ماهرا ، ولعمرى إن ممارسة الحب تجدد لصاحبه علماً ، وتبصِّره وإن كان كما يقال أعمى ، وقد كذب القائل :

عَرِّضَنْ لِلَّذِى تُحِبُّ بِحُبٍّ ثُمَّ دَعْهُ يَرُوضُهُ إبْلِيسُ

فإنْ كانت الرياضة كما قيل لإبليس فما أراه صَنَعاً فى الذى صنع ، وأراك استعصيت عليه استعصاء القارح وأنْتَ جَذَع ، ولا شك أنك تهدم مايشيده من البناء ، أو أنك مستثنًى فى جملة من دخل فى حكم الاستثناء ، وأنا الآن له عائب ، وعليه عاتب ، فأين نَفَثَاته التى هى أخدع من الحبائل ، وأين قوله لآتِيَنَّهُمْ عَنِ الْأَيْمَانِ والشمائل ، وأين جنوده المسترقة مافى السَّماء ، التى تجرى من بنى آدم مجرى الدماء ، وكل هذا قد بطل عندى خَبَرُه ، كما بطل عندى أثَرُه ؛ فإن أدركته النخوة بأنى أستهزىء بتصديق أفعاله ، فَلْيَحْلُلْ معقولَ حاجتى هذه حتى أعلم أنه قادر على حل عِقَاله ، وإلاّ فليخف راسه ، وليمح وسواسه ، وإن كان له عرش على البحر فَلْيُقَوِّض من عرشه ، وليعلم أن السحر ليس فى عقده ونفثه ولكنه فى الأصفر ونَقْشِه ، وها أنا قد بعثت منه مايجعل العزم محلولا ، والود مبذولا ،

وما أقول إلا أنى بعثت معشوقًا إلى معشوق ، وكلاهما محلّه القلبُ بل القلب من حبهما مخلوق ، وما أكرمه وهو وسيلة إلى مثله ، وحسنه من حسنه وإن لم يكن شكله من شكله ، وما وصفه واصف إلا كان ماراه منه فوق مارواه ، ومن أغرب أوصافه وأحسنها أنه لم يُرَ ذو وجهين وَجِيهاً سواه ، لاجرم أنه إذا سَفَرَ فى أمر(١) تلطّف فى فتح أبوابه ، وتناول وَعْرَه فبدّله بسهله و بُعْدَه فبدله باقترابه ، ولو بعثت غيره لخفت ألاّ يكون فى سِفَارته صادقا ، أو أنه كان يمضى سفيرا و يعود عاشقا ، فليس على الحسن أمانة ، وفى مثله تُعذر الخيانة ، ولا لوم على العقول إذا نسيت هناك عزيمة رشدها ، ورأت مالا يحتمله كاهل جهدها ، ومَنِ الذى يَقْوَى درعه على تلك السهام ، أو يروم النجاة منها وقد حيل بينه و بين المرام ، وهذا الذى مَنَعَنى أن أرسل إلا كِيساً وكتابا ، فأحدهما يكون فى السفارة والآخر على السر حجابا ، والسلام إن شاء الله تعالى .

وفى هذه الرقعة من المعانى الغريبة ما أذكره ؛ فالأول : ماذكرته فى قَسْمِ الصدقات وفَكِّ الرقاب ، والثانى ماذكرته فى وصف الدينار وهو أنه وجيه ذو وجهين ؛ وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ذُو الْوَجْهَيْنِ لَايَكُونُ وَجِيهاً » وهذا معنى لم يسبقنى أحد إليه ، وقد وصف الحريرى الدينار فى مقامة من مقاماته ولم يظفر بهذا المعنى ولا جاء من الأوصاف التى ذكرها بمثله ، والثالث أنى بعثت معشوقا إلى معشوق .

ومن ذلك ما كتبته ، وكان توفيت زوجة بعض الملوك وتوفى معها ولد لها وهو طفل صغير ، وكان بينهما يومان ، وتلك المرأة بنت ملك من الملوك أيضاً ، فـكتب إليه من الأطراف المجاورة يعزونه ، وحضر عندى بعض الأدباء ممن يحب أن يكون كاتبا ، وعرض على نسخة ما كوتب به ذلك الملك فى التعزية بزوجته وولدها ، فوجدتها كتبا باردة غثة لاتعرب عن الحادثة ، بل بينها و بينها

(١) فى ا ، ب ، ج « إذا أسفر فى أمر» .

بعد المشرقين ، ومن شرط الكتابة أن يكون الكتاب مضمنا فض المعنى المقصود ، والتعازى مختلفة الأنحاء : فتعازى النساء غير تعازى الرجال ، وهى من مستصعبات فنّ الكتابة والشعر ، وتعازى الرجال أيضاً تختلف ، فلا يُعَزَّى بالميت على فراشه كما يعزى بالميت قتيلا ، ولا يعزى بالقتيل كما يعزى بالغريق ، وهكذا يجرى الحكم فى المعانى جميعها ، وهذا شىء لايتنبه له إلا الراسخون فى هذا الفن من أرباب النثر والنظم ، وسألنى ذلك الرجل عن هذه التعزية المشار إليها فى المرأة وولدها الصغير ، وقال : أحب أن أعلم كيف تكون ، فأمليت عليه ثلاثة كتب ، كل كتاب يتضمَّن معنى لايتضمنه الكتاب الآخر .

فما جاء منها كتاب أناذا كره ههنا ، وهو : أشْجَى التعازى ما أتبع فيه المفقود بمفقود ، لاسيما إذا جمع بين سعد الأخبية وسَعْد السُّعُود ، وكل منهما يعظم حزنا كما يعظم مكانا ، وهذا يحسر عن الوجوه خُمُرًا وهذا يلقى عن الرءوس تيجاناً ، ولم يوفهما حقهما مَنْ بَكَى ولا مَنْ نَدَب ، ولا من شعر ولا من كتب ، وليت فدى أحدهما بصاحبه فعاش درهما المفدى بالذهب .

وَلَوْ كَانَ خَطْباً وَاحِداً خَفَّ كَلْمُهُ وَلَـكِنَّهُ خَطْبٌ أُعِيدَ عَلَى خَطْبِ

وقد أصدر الخادم كتابه هذا ومن حقه أن يخرج فى ثوب من الحداد ، وأن يتعثر فى أذيال كلمه والكتابُ عنوان الفؤاد ، وغاية مايقول : أحسن الله عزاء المجلس السامى الملك الأجل السيد ، على أن هذا الدعاء قد شهدت الحال بلحنه ، وكيف يملك قلبه عزاء وقد أوثقه الهم فى سجنه ، وصار له ولدا دون ولده وخدنا دون خدنه ، لـكن يُدْعَى له بامتداد البقاء ، وأن تعامله الحوادث بعد هذه معاملة الإبقاء ، ثم نتبع ذلك بطلب الجنة لمن نقلته المنايا عن أرائك الخدور ، وجعلته فى بطون القبور ، ولمن فاجأت الأيام غصنه فقصفته ، ولم يعش حتى عرف الدنيا ولا عرفته ؛ فوَاهًا لهما وقد نزلا بمنزل عديم الإيناس ، وإن كان

ما هولاً بأكثر الناس؛ فهو القريب دارا، البعيد مَزَارا، الذى حجب من اليأس بأمنع حجاب، وذهب عن الوجوه المنعمة لذل التراب، فمن كان مُسْمِدًا للمجلس فليأخذ بوَلَه الجزع لا بعزيمة الاصطبار، وليقل: هذا حادث بَانَ فيه تحامل الأقدار، وجرت همومه مجرى الخواطر من القلوب والرقاد من الأبصار، فالْأُسْوَة إلا فيه معدودة من الإحسان، والسُّلْوة إلا عنه داخلة فى حَيِّز الإمكان، والخادم أولى من لقى المجلس فيه بالإسعاد، وقام بما يجب من قضاء حق الوداد، وفعل مايفعله القريب الحاضر وإن كان على شقة من البعاد، وقد أرسل مَنْ ينوب عنه فى التعزية وإن لم يَكْفِ فيها المناب، وكما رخص العذر فى قصر الصلاة فكذلك رخص فى الاقتصار على الرسول والكتاب، وقد وَدَّ لو حضر بنفسه فاستسق لذلك الضريح سحابا، وعَقَرَ عنده ركابا، وسأل الله له مغفرة وثوابا؛ والسلام .

فى هذا الكتاب معنى غريب، وهو قولى « سعد الأخبية » كناية عن المرأة، و« سعد السعود » كناية عن ولدها؛ لأن سعد الأخبية اسم منزلة من منازل القمر، والأخبية: جمع خِبَاء، ومن شأن المرأة أن تحتجب فى الأخبية، فهى سعدها، وهذا من المعانى الغريبة فى مثل هذا المقصد، وقد اتفق سعد الأخبية وسعد السعود معا، وهذا أيضا غريب .

ومن ذلك أنى كتبت كتابا عن الملك الأفضل على بن يوسف إلى أخيه الملك الظاهر غازى بن يوسف صاحب حلب، فى أمر شخص كان أبوه صاحب مدينة تكريت، وتكريت هذه كان يتولاها قديما الأمير أيوب جد الملك الأفضل والملك الظاهر، وأولد بها ولده صلاح الدين يوسف أباهما، وعلى عقب ولادته انتقل والده عن تكريت هو وعشيرته لأمر طرأ لهم، وجاء إلى الموصل، ثم إلى الشام، وهناك سعدوا، وكانت السعادة على يد صلاح الدين يوسف، فلما

أردت أن أكتب هذا الكتاب علمت أنه مظنة المعانى المبتدعة ؛ لأن الأمر المكتوب فيه غريب لم يقع مثله ، فحينئذ كتبت هذا الكتاب ، وهو : رفع الله شأن مولانا الملك الظاهر ولازال الدهر فاخرا بمآثر سلطانه ، ناظما مناقبه فى جيده ومحامده فى لسانه ، ناسخاً بمساعى دولته ماتقدم من مساعى آل بويه وآل حَمْدَانِه ،
كتاب الخادم هذا واردٌ من يد الأمير شمس الدين ابن صاحب تكريت ، وهى أولُ أرض مَسَّ جلدُ الوالد تُرابها ، ورقمت بها السعادة على جبينه كتابهاَ ، ومنها ظَهَرَ نور البيت الأيوبى مشرقا ، وأشام إذ خرج مُعْرِقا ، وكفاه بذلك وسيلة يكتنفها الإحسان والإرعاء ، ويكفى صاحبهاَ أن يقول لا أسْقى حتى يُصْدِر الرِّعاء ، وقد قرنها بوسيلة قصد الخدمة التى توجب لقاصدها ذِمَاما ، وتقول له سلاما إذا قال سلاما ، ثم ثلث هاتين الوسيلتين بكتاب الخادم أخْذًا بالسنة النبوية فى الدعاء وعدده ، وتفاؤلاً بتثليث النجوم فيما يقصده المرء من سعادة مقصده ، ولا قدح فى كرم الكريم إذا استكثر طالبه من الأسباب ؛ فإن الله على كرمه قد استكثر إليه من أعمال الثواب ، وكتاب الخادم على انفراده كافٍ لحامله ، ومكثر من حقوق وسائله ، وقد صدر مخاطبا عن نجوى ضميره ، فإنما تحقّ السفارة إذا قعد بكل طالبٍ سَعْىُ سفيره ، وهو مع ذلك خفيفة صَفْحَتُه ، وَجيزة لَمْحَتُهُ ، وإذا وجد لدى مولانا معولا ، فليس عليه أن يرد مطولا ، إذ التعويل على نجح مصدره ، لا على كثرة أسطره .

فانظر أيها المتأمل إلى هذا الكتاب ، وأعطه حقه من التأمل ، حتى ترى ما اشتمل عليه من المعانى ، وانظر كيف ذكرت الأول ، ثم الثانى ، ثم الثالث ؛ أما المعنى الأول فإنه يختص بذكر سعادة البيت الأيوبى ومنشئها وأنها ولدت بتكريت ، وهذا الرجل ينبغى أن يرعى بسببها ، إذ كان أبوه صاحبها ، وأما المعنى الثانى فإنه قصد الخدمة الظاهرية ، وهذا وسيلة ثانية توجب له ذماما ،

وأما المعنى الثالث فإنه حرمة الكتاب الصادر على يده ، ثم إنى مثلت ذلك بالدعاء النبوى و بتثليت النجوم ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا دعا دعا ثلاثا ، و إنما مثلت ذلك بالدعاء لأمرين : أحدهما : أنه موضع سؤال وضراعة ، والآخر أن الكتاب وسيلةٌ ثالثة ، والدعاء ثلاث مرار ، وأما تثليث النجوم فإن التثليث سعد ، والتربيع نحس ، وأحسن المعانى الثلاثة التى تضمنها هذا الكتاب هو الأول والثالث ، وأما الثانى فإنه متداول ، فتأمل ما أشرت إليه ، و إذا شئت أن تكتب كتابا فافعل كما فعلت فى هذا الكتاب إن كان الأمر الذى تكتب فيه غريب الوقوع .

واعلم أنه قد يقع المعنى المبتدع فى غير أمر غريب الوقوع ، وذلك يكون قليلا بالنسبة إلى الوقائع الغريبة التى هى مَظِنَّة المعانى المبتدعة .

ومن هذا الباب ما أوردته فى جملة رسالة طردية فى وصف قسى البندق وحامليها ، وهو : فإذا تناولوها فى أيديهم قيل: أهِلّةٌ طالعة من أكف أقمار ، و إذا مثل غناؤها وغناؤهم قيل: منايا مَسُوقة بأيدى أقدار ، وتلك قِسِىّ وضعت لِلَعب لا للنضال ، ولِرَدَى الأطيار لا لِرَدَى الرجال ، وإذا نعتها ناعت قال : إنها جمعت بين وصفى اللين والصلابة ، وصنعت من نوعين غريبين فحازت معنى الغرابة ، فهى مركبة من حيوان ونبات ، مؤلفة منهما على بعد الشَّتَات ، فهذا من سكان البحر وسواحله ، وهذا من سكان البر ومجاهله ، ومن صفاتها أنها لا تتمكن من البطش إلا حين تُشَدّ ، ولا تنطلق فى شأنها إلا حين تُعْطَف وتُرَدّ ، ولها نثار أحكم تصويرها ، وصحح تدويرها ، فهى فى لونها صَنْدَلية الإهاب ، وكأنما صيغت لقوتها من حجر لا من تراب ، فإذا قذفتها إلى الأطيار قيل و يصعد من الأرض من جبال فيها من برد ، ولا يرى حينئذ إلا قتيل ولكن بالمثقل الذى لا يجب فى مثله قوَد ، فهى كافلة من تلك الأطيار بقبض نفوسها ، منزلة لها من جو السماء على أم رءوسها .

هذا الفصل يشتمل على معان غريبة ، منها قولى « إنها لا تتمكن من البطش إلا حين تشد ، ولا تنطلق فى شأنها إلا حين تعطف وترد » ومنها قولى «ويصعد من الأرض من جبال فيها من برد» ؛ وكل هذا من المعانى التى تبتدع بالنظر إلى المقصد المكتوب فيه ، فإنَّ الكاتب إذا أفكر فيما لديه وتأمله وكان قادراً على استخراج المعنى والمناسبة بينه وبين مقصده جاء هكذا كما تراه ، إلا أن القادر على ذلك من أقدره الله عليه ؛ فما كل خاطر بحكيم ، ولا كل من أوحى إليه بكليم ، وفى الأقلام هاشم لمن ناوأه ومنها هشيم .

وسأنبه فى هذا الموضع على طريق يسلك إلى شىء من المعانى المخترعة ، وهو ما استخرجته وانفردت باستخراجه دون غيرى ، فإن المعانى المخترعة لم يتكلم فيها أحد بالإشارة إلى طريق يسلك فيها ؛ لأن ذلك مما لا يمكن ، ومن ههنا أضرب علماء البيان عنه ، ولم يتكلموا فيه كما تكلموا فى غيره ، وكيف تتقيَّد المعانى المخترعة بقيد أو يفتح إليها طريق تسلك وهى تأتى من فَيْض إلٰهىّ بغير تعليم ؟ ولهذا اختص بها بعض الناثرين والناظمين دون بعض ، والذى يخص بها يكون فذًّا واحداً يوجد فى الزمن المتطاول ، ولما مارست أنا هذا الفن ــ أعنى فن الكتابة ــ وقلبته ظهراً لبطن ، وفتشت عن دفائنه وخباياه ، وأكثرت من تحصيل مواده والأسباب الموصلة إلى الغاية منه ؛ سَنَحَ لى فى شىء من المعانى المخترعة طريقٌ سلكته ، وهو يستخرج من كتاب الله تعالى وأحاديث نبيه صلوات الله عليه وسلامه ، وقد تقدَّم لى منه أمثلة فى هذا الكتاب ، وذلك أنه ترد الآية من كتاب الله ، أو الحديث النبوى ، والمراد بهما معنًى من المعانى ، فآخذ أنا ذلك وأنقله إلى معنى آخر ؛ فيصير مخترعاً لى .

وسأورد ههنا منه نبذة يسيرة يعلم منها كيف فعلت حتى يسلك إليها فى الطريق الذى سلكته .

فمن ذلك قصةُ أصحاب الكهف والرقيم ؛ فإنى أخذت ذلك ونقلته إلى الإحسان والشكر ، ألا ترى أن الإحسان يستعار له كَهْف وكَنَف وظِلٌ ، وأشباه ذلك ، والشكر كلمات تقال فى التَّنْوِيه بذكر المحسن وإحسانه ، والرَّقيم هو الكتاب المكتوب ، فهو والشكر متماثلان ، والذى أتيت به قد أوردته ، وهو فصل من كتاب إلى بعض المنعمين :

الخادم يشكر إحسان المولى الذى ظلَّ عنده مقيما ، وغدا بمطالبه زعيما ، وأصبح بتواليه إليه مغرما كما أصبح له غريما ، ولما تَمثَّلَ فى الاشتمال عليه كهفاً صار شكره فيه رقيما .

فانظر كيف فعلت فيه فى هذا الموضع ؛ لتعلم أنى قد فتحت لك فيه طريقاً تسلكه .

وأما الحديث النبوى فإنى أخذت قصة قَتْلَى بدر كأبى جهل وعُتْبة وشَيْبة وغيرهم ونقلتها إلى القلم ، وذاك أن النبى صلى الله عليه وسلم وَقفَ على القَلِيب الذى ألقاهم فيه وناداهم بأسمائهم فقال : ياعتبة ، ياشيبة ، ياأبا جهل ، يا فلان ، يافلان ؛ والحديث مشهور فلا حاجة إلى استقصائه ، والذى أتيت به فى وصف القلم هو أنى قلت :

ولقد مَرَحَ القلم فى يدى وحُقَّ له أن يَمْرَح ، وأبدع فيما أتى به وكُلُّ إناء بالَّذِى فِيهِ يَنْضَحُ ، ومن شأنه أن يستقل على أعواد المنبر فلا ينتهى من خطبتها إلى فَصْلها ، وَيَقِفَ على جَانب القليب إلا أنه لايناديِ من المعانى أبا جَهْلها .

فالدَّوَاة قليبٌ ، والقلم يقف عليه ، والمعانى التى ينشئها من باب العلم ، لامن باب الجهل ؛ فتأمل هذه الكلمات التى ذكرتها فإنها لطيفة جداً ، وهى مخترعة لى .

وهذا القدر كافٍ فى طريق التعليم ؛ فليحذ حذوه إن أمكن ، والله الموفق للصواب .

وأما الضرب الآخر من المعانى ـ وهو الذى يُحْتَذى فيه على مثال سابق ، ومنهج مطروق ـ فذلك جلُّ مايستعمله أرباب هذه الصناعة ، ولذلك قال عنترة :

* هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ (١) *

إلا أنه لاينبغى أن يرسخ هذا القول فى الأذهان ؛ لئلا يُؤْيِس من الترقى إلى درجة الاختراع ، بل يعول على القول المطمع فى ذلك ، وهو قول أبى تمام (٢) :

لَازِلْتَ مِنْ شُكْرِى فى حُلَّةٍ　　لَابِسُهَا ذُو سَلَبٍ فَاخِرِ
يَقُولُ مَنْ تَقْرَعُ أَسْمَاعَهُ　　كَمْ تَرَكَ الْأَوَّلُ لِلْآخِرِ

وعلى الحقيقة فإن فى زوايا الأفكار خبايا ، وفى أبكار الخواطر سبايا ، لكن قد تَقَاصَرَت الهِمَم ونَكَصت العزائم ، وصار قُصَارى الآخر أن يتبع الأول ، وليته تَبِعه ولم يُقَصِّر عنه تقصيراً فاحشا .

ووقفت على كتاب يقال له « مقدمة ابن أفلح البغدادى » قد قصرَها على تفصيل أقسام علم الفصاحة والبلاغة ، وللعراقيين بها عناية ، وهم واصفون لها ، ومكبون عليها ، ولما تأمَّلتُها وجدتها قشوراً لالبَّ تحتها ؛ لأن غاية ماعند الرجل أن يقول : وأما الفصاحة فانها كقول النابغة مثلا ، أو كقول الأعشى ، أوغيرهما ، ثم يذكر بيتاً من الشعر أو أبياتا ، وما بهذا تعرف حقيقة الفصاحة ، حتى إذا

---

(١) هذا صدر مطلع معلقته ، وعجزه قوله :

* أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ *

(٢) من كلمة له فى أبى سعيد ، وأولها قوله :

قُلْ لِلْأَمِيرِ الْأَرْيَحِيِّ الَّذِى　　كَفَّاهُ لِلْبَادِى وَلِلْحَاضِرِ
لِتَجْزِكَ الْأَيَّامُ مَنْدُوحَةً　　وَنُضْرَةً عَنْ عُودِىَ النَّاضِرِ

وردت فى كلامٍ عرفنا أنه فصيح بما عرفنا من حقيقتها الموجودة فيه ، وكذلك يقول فى غير الفصاحة .

ومن أعجب ما وجدته فى كتابه أنه قال : أما المعانى المبتدعة فليس للعرب منها شىء ، وإنما اختصَّ بها المحدَثُون ، ثم ذكر للمحدثين معانى ، وقال : هذا المعنى لفلان ، وهو غريب ، وهذا القول لفلانٍ ، وهو غريب ، وتلك الأقوال التى خَصَّ قائليها بأنهم ابتدعوها قد سُبِقوا إليها ؛ فإما أن يكون غير عارف بالمعنى الغريب ، وإما أنه لم يقِفْ على أقوال الناظمين والناثرين ولا تبَحَّرَ فيها حتى عرف ما قاله المتقدم ، مما قاله المتأخر ، وأما قوله « إنه ليس للعرب معنى مبتدع وإنما هو للمحدثين » فياليت شعرى مَنِ السابقُ إلى المعانى ؟ مَنْ تقَدَّم زمانه أم من تأخر زمانه ؟! .

وأنا أورد ههنا ما يستدل به على بطلان ما ذكره ، وذاك أنه قد ورد من المعانى أن صُوَرَ المنازل تَمَثَّلَت فى القلوب فإذا عفت آثارها لم تَعْفُ صورها من القلوب ، وأول من أتى بذلك العرب ، فقال الحرث بن خالد من أبيات الحماسة(١) :

إِنِّى وَمَا نَحَرُوا غَدَاةَ مِنًى عِنْدَ الْجِمَارِ يَئُودُهَا الْعُقْلُ(٢)
لَوْ بُدِّلَتْ أَعْلَى مَسَاكِنِهَا سِفْلاً وَأَصْبَحَ سِفْلُهَا يَعْلُو
لَعَرَفْتُ مَغْنَاهَا بِمَا ضَمِنَتْ مِنِّى الضُّلُوعُ لِأَهْلِهَا قَبْلُ(٣)

---

(١) انظر شرح التبريزى على الحماسة (٣ – ٢٤٥) .
(٢) فى ا ، ب ، ج « إنى وإن نحروا » والتصويب عن الحماسة .
(٣) فى ج « معناها » بعين مهملة ، وهو تحريف ، وصوابه عن ا ، ب والحماسة . وفى الحماسة « لما ضمنت » ومعناهما واحد .

ثم جاء المحدثون من بعده فانسحبوا على ذَيْله وحَذَوْا حـذوه ؛ فقال أبو تمام[(١)] :

وَقَفْتُ وَأَحْشَائى مَنَازِلُ لِلْأَسَى … بِهِ وَهْوَ قَفْرٌ قَدْ تَعَفَّتْ مَنَازِلُهْ

وقال البحترى[(٢)] :

عَفَتِ الرُّسُومُ وَمَا عَفَتْ أَحْشَاؤُهُ … مِنْ عَهْدِ شَوْقٍ مَا تَحُولُ فَتَذْهَبُ

وقال المتنبى[(٣)] :

لَكِ يَامَنَازِلُ فى الْقُلُوبِ مَنَازِلُ … أَقْفَرْتِ أَنْتِ وَهُنَّ مِنْكِ أَوَاهِلُ

وهـذا المعنى قد تداوله الشعراء ، حتى إنه ما من شاعر إلاَّ ويأتى بِهِ فى شِعره .

وكذلك ورد لبعضهم من شعراء الحماسة[(٤)] :

---

(١) هو ثانى بيت من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ، وقبله وهو المطلع قوله :

أَجَلْ أَيُّهَا الرَّبْعُ الَّذِى خَفَّ آهِلُهْ … لَقَدْ أَدْرَكَتْ فِيكَ النَّوَى ما تُحَاوِلُهْ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، وأولها قوله :

عَارَضْنَنا أُصُلاً فَقُلْنا الرَّبْرَبُ … حَتَّى أَضَاءَ الأُقْحُوَانُ الأَشْنَبُ

(٣) هو مطلع قصيدة له يمدح فيها أبا الفضل أحمد بن عبد الله الأنطاكى ، وبعده قوله :

يَعْلَمْنَ ذَاكِ وَمَا عَلِمْتِ وَإِنَّمَا … أَوْلاَكُمَا يُبْكَى عَلَيْهِ الْعَاقِلُ

ومثل ذلك قول ابن المعتز :

بُؤْساً لِدَهْرٍ غَيَّرَتْكَ صُرُوفُهُ … لَمْ يَمْحُ مِنْ قَلْبِى الْهَوَى وَمَحَاكَا

(٤) انظر شرح التبريزى (٤ ـ ١٠٠) فهما بيتان اختارهما أبو تمام ولم ينسبهما التبريزى .

أَنَاخَ اللُّؤمُ وَسْطَ بَنِي رِيَاحٍ مَطِيَّتَهُ وَأَقْسَمَ لَا يَرِيمُ[(١)]
كَذَلِكَ كُلُّ ذِي سَفَرٍ إِذَا مَا تَنَاهَى عِنْدَ غَايَتِهِ يُقِيمُ

وهذان البيتان من أبيات المعانى المبتدعة ، وعلى أثرهما مشى الشعراء .

وكذلك ورد لبعضهم فى شعر الحماسة[(٢)] :

تَرَكْتُ ضَأْنِي تَوَدُّ الذِّئْبَ رَاعِيَهَا وَأَنَّهَا لَا تَرَانِي آخِرَ الأَبَدِ
الذِّئْبُ يَطْرُقُهَا فِى الدَّهْرِ وَاحِدَةً وَكُلَّ يَوْمٍ تَرَانِي مُدْيَةٌ بِيَدِي

وكذلك ورد قول الآخر :

قَوْمٌ إِذَا مَاجَنَى جَانِيهِمُ أَمِنُوا لِلُؤْمِ أَحْسَابِهِمْ أَنْ يُقْتَلُوا قَوَدَا

وكم للعرب من هذه المعانى التى سبقوا إليها .

ومن أدل الدليل على فساد ماذهب إليه من أن المحدثين هم المختصون بابتداع المعانى أن أول من بكى على الديار فى شعره رجل يقال له ابن حزام ، وكان هو المبتدى لهذا المعنى أولا ، وقد ذكره امرؤ القيس فى شعره فقال :

عُوجَا عَلَى الطَّلَلِ المُحِيلِ لَعَلَّنَا نَبْكِى الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ حِزَامِ[(٣)]

وقد أجمع نقلة الأشعار أن لامرىء القيس فى صفات الفرس أشياء كثيرة لم يُسْبَق إليها ولا قيلت من قبله .

ويكفى من هذا كله ماقدمت القول فيه ، وهو أن العرب السابقون بالشعر ،

---

(١) فى ا ، ب ، ج « بنى رماح » بالميم ، والتصويب عن الحماسة .

(٢) هما بيتان مفردان اختارهما أبو تمام ولم ينسبهما ولا نسبهما شراحه (انظر شرح التبريزى : ٤ — ١٣٠) .

(٣) الطلل المحيل : المتغير ، وهو بالحاء المهملة ، ووقع فى ا ، ب ، ج « المخيل » بالخاء المعجمة — وهى غير المعروف فى رواية البيت ، ولكن لها وجها . وابن حذام قد اختلف فى ضبط اسمه على وجوه كثيرة .

وزمانُهُم هو الأول ، فكيف يقال : إن المتأخرين هم السابقون إلى المعانى ؟ وفى هذه الأمثلة التى أوردتها كفاية فى نقض ماذكره ، ولو قال : إن المحدثين أكثر ابتداعا للمعانى ، وألطف مأخذاً ، وأدق نظراً ؛ لكان قوله صوابا ؛ لأن المحدثين عظم الملك الإسلامى فى زمانهم ، ورأوا مالم يره المتقدمون ، وقد قيل : إن اللُّها تَفْتَحُ اللَّها ؛ وهو كذلك فإن نَفَاق السوق جَلَّاب .

وقد رأيت جماعة من متخلقى هـذه الصناعة يجعلون هَمَّهُم مقصوراً على الألفاظ التى لاحاصل وراءها ، ولا كبير معنى تحتها ، وإذا أتى أحدهم بلفظ مسجوع على أى وجه كان من الغَثَاثة والبرد يعتقد أنه قد أتى بأمر عظيم ، ولا يشك فى أنه صار كاتباً مُفْلِقاً ، وإذا نظر إلى كُتَّاب زماننا وجدوا كذلك ؛ فقاتل الله القلم الذى يمشى فى أيدى الجهال الأغمار ، ولا يعلم أنه كجواد يمشى تحت حمار ، ولو أنه لايتطاول إليه إلا أهله لبَان الفاضل من الناقص ، على أنه كالرمح الذى إذا اعتقله حامله بين الصَّفَّيْن بَانَ به المقدم من الناكص ، وقد أصبح اليوم فى يدِ قومٍ هم أحوج من صبيان المكاتب إلى التعليم ، وقد قيل : إن الجهل بالجهل داء لاينتهى إليه سقم السقيم ، وهؤلاء لاذنب لهم ؛ لأنهم لو لم يستخدموا فى الدول ويستكتبوا ، وإلا ماظهرت جهالتهم ، وفى أمثال العوام : لاتُعرِ الأحمق شيئاً فيظنه له ، وكذلك يجرى الأمر مع هؤلاء ؛ فإنهم استكتبوا فى الدول فظنوا أن الكتابة قد صارت لهم بأمر حق واجب .

ومن أعجب الأشياء أنى لا أرى إلا طامعاً فى هذا الفن ، مُدَّعيا له على خلوه عن تحصيل آلاته وأسبابه ، ولا أرى أحداً يطمع فى فن من الفنون غيره ولا يدعيه ، هذا ، وهو بحر لاساحل له ، يحتاج صاحبه إلى تحصيل علوم كثيرة حتى ينتهى إليه ، ويحتوى عليه ؛ فسبحان الله ! هل يدعى بعض هؤلاء أنه فقيه أو طبيب أو حاسب أو غير ذلك من غير أن يحصل آلات ذلك ويتقن معرفتها ؟

فإذا كان العلم الواحد من هذه العلوم الذى يمكن تحصيله فى سنة أو سنتين من الزمان لايدعيه أحد من هؤلاء فكيف يجىء إلى فن الكتابة وهو مالا تحصل معرفته إلا فى سنين كثيرة فيدعيه وهو جاهل به ؟

ومما رأيته من المدَّعين لهذا الفن الذين حصلوا منه على القشور ، وقصروا معرفتهم على الألفاظ المسجوعة الغثة التى لاحاصل وراءها ؛ أنهم إذا أنكرت هذه الحال عليهم ، وقيل لهم : إن الكلام المسجوع ليس عبارة عن تواطؤ الفِقَر على حرف واحد فقط ؛ إذ لو كان عبارة عن هذا وحده لأمكن أكثر الناس أن يأتوا به من غير كلفة ، وإنما هو أمر وراء هذا ، وله شروط متعددة ؛ فإذا سمعوا ذلك أنكروه ؛ لخلوهم عن معرفته ، ثم لو عرفوه وأتَوْا به على الوجه الحسن من اختيار الألفاظ المسجوعة لاحتَاجوا إلى شَرْط آخر قد نبهت عليه فى باب السجع ؛ وإذا أنكر عليهم الاقتصار على الألفاظ المسجوعة ، وهُدُوا إلى طريق المعانى ؛ يقولون : لنا أُسْوَة بالعرب الذين هم أرباب الفصاحة ، فإنهم إنما اعتنوا بالألفاظ ولم يعتنوا بالمعانى اعتناءكم بها ، فلم يكفهم جهلهم فيما ارتكبوه حتى ادّعَوا الأسوة بالعرب فيه ، فصارت جهالتهم جهالتين .

ولنذكر ههنا فى الرد عليهم ماإذا تأمله الناظر فى كتابنا عرف منه مايؤنقه ، ويذهب به الاستحسان كل مذهب ؛ فنقول :

اعلم أن العرب كما كانت تعتنى بالألفاظ فتصلحها وتهذبها فإن المعانى أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأشرف قدراً فى نفوسها ؛ فأول ذلك عنايتها بألفاظها ، لأنها لما كانت عنوان معانيها وطريقها إلى أظهار أغراضها أصلحوها وزينوها ، وبالغوا فى تحسينها ؛ ليكون ذلك أوقع لها فى النفس ، وأذهب بها فى الدلالة على القصد ، ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعاً لَذَّ لسامعه فحفظه ، وإذا لم يكن مسجوعًا لم يأنس به أنسه فى حالة السجع ، فإذا رأيت العرب قد أصلحوا

ألفاظهم وحسّنوها ، ورقّقوا حواشيها ، وصقلوا أطرافها ، فلا تظن أن العناية إذ ذاك إنما هى بألفاظ فقط ، بل هى خدمة منهم للمعانى ، ونظير ذلك إبراز صورة الحسناء فى الحلل الْمَوْشيّة والأثواب الْمُحَبَّرة ؛ فإنا قد نجد من المعانى الفاخرة مايشوه من حسنه بذاذة لفظه وسوء العبارة عنه .

فإن قيل : إنا نرى من ألفاظ العرب ماقد حسنوه وزخرفوه ، ولسنا نرى تحته مع ذلك معنى شريفاً ، فمما جاء منه قول بعضهم (١) :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

ألا ترى إلى حسن هذا اللفظ وصقالته ، وتدبيج أجزائه ، ومعناه مع ذلك ليس مدانيا له ولا مقاربا ، فإنه إنما هو لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين وتحدثنا على ظهور الإبل ، ولهذا نظائر كثيرة شريفة الألفاظ خسيسة المعانى .

فالجواب عن ذلك أنا نقول : هذا الموضع قد سبق إلى التشبث به من لم ينعم النظر فيه ، ولا رأى ماراه القوم ، وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر ، وعدم معرفته ، وهو أن فى قول هذا الشاعر « كل حاجة » مما يستفيد منه أهل النسيب والرقة والأهواء والْمِقَة مالا يستفيده غيرهم ، ولا يشاركهم فيه من ليس منهم ، ألا ترى أن حوائج مِنًى أشياء كثيرة : فمنها التلاقى ، ومنها التشاكى ، ومنها

---

(١) بين البيتين بيت آخر ، وهو :

وَشُدَّتْ عَلَى دُهْمِ الْمَهَارَى رِحَالُنَا ... وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِى الَّذِى هُوَ رَائِحُ

وللإمام عبد القاهر الجرجانى بحث فى هذه الأبيات وهو خليق بأن تعود إليه وتقرأه وتقارن بينه و بين ماذكره المؤلف ههنا (انظر أسرار البلاغة ص ١٥) والأبيات تنسب لكثير عزة ، وتنسب ليزيد بن الطثرية ، وتنسب لعقبة بن كعب بن زهير .

التخلى للاجتماع ، إلى غير ذلك مما هو تالٍ له ومعقود السكون به ، فكأنّ الشاعر صانعَ عن هذا الموضع الذى أومأ له وعقد غَرَضَه عليه بقوله فى آخر البيت « ومَسّحَ بالأركان من هو ماسح » أى : إنما كانت حوائجنا التى قضيناها وآرابنا التى بلغناها من هذا النحو الذى هو مسح الأركان وما هو لاحق به وجارٍ فى القربة من الله مَجْرَاه : أى لم نتعدَّ هذا القدر المذكور إلى مايحتمله أول البيت من التعريض الجارى مجرى التصريح ، وأما البيت الثانى فإن فيه « أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا » وفى هذا ماذكره لتعجب به وبمن تجب منه ووضع من معناه ، وذلك أنه لو قال أخذنا فى أحاديثنا أو نحو ذلك لكان فيه مايكبره أهل النسيب ؛ فإنه قد شاع عنهم واتّسع فى محاوراتهم علو قدر الحديث بين الإلْفَيْن والجذل بجمع شمل المتواصلين ، ألا ترى إلى قول بعضهم :

وَحَدَّثْتَنِي يَاسَعْدُ عَنْهَا فَزِدْتَنِي ... جُنُوناً فَزِدْنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَاسَعْدُ

وقول الآخر :

وحَدِيثُهَا السِّحْرُ الْحَلَالُ لَوَ أنَّهُ ... لَمْ يَجْنِ قَتْلَ الْمُسْلِمِ الْمُتَحَرِّزِ

فإذا كان قَدْرُ الحديث عندهم على ماترى فكيف به إذا قيَّده بقوله « أخذنا بأطراف الأحاديث » ؟ فإن فى ذلك وَحْياً خفيًّا ، ورَمْزًا حلواً ، ألا ترى أنه قد يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة من التعريض والتلويح والإيماء دون التصريح ، وذلك أحلى وأطيب ، وأغزل وأنسب ، من أن يكون كشفا ومصارحة وجهراً ، وإن كان الأمر كذلك فمَعْنَى هذين البيتين أعلى عندهم ، وأشد تقدما فى نفوسهم ، من لفظهما ، وإن عذب ولذ مستمعه ، نعم فى قول الشاعر :

* وَسَالَتْ بِأعْنَاقِ المطِيِّ الأَبَاطِحُ *

من لطافة المعنى وحسنه مالا خفاء به ، وسأنبه على ذلك فأقول : إن هؤلاء

القوم لما تحدَّثوا وهم سائرون على المَطَايا شغلتهم لذة الحديث عن إمساك الأَزِمَّة فاسْتَرْخَتْ عن أيديهم ، وكذلك شأن من يَشْرَه وتغلبه الشهوة فى أمر من الأمور ، ولما كان الأمر كذلك وارتخت الأَزِمَّة عن الأيدى أسرعت المطايا فى المسير ، فشبهت أعناقها بمرور السيل على وجه الأرض فى سرعته ، وهذا موضع كريم حسن لامزيد على حسنه ، والذى لاينعم نظره فيه لايعلم ما اشتمل عليه من المعنى ، فالعرب إنما تحسِّن ألفاظها وتزخرفها عنايةً منها بالمعانى التى تحتها ، فالألفاظ إذاً خَدَمُ المعانى ، والمخدوم لاشك أشرف من الخادم ، فاعرف ذلك وقس عليه .

النوع الأول

فى الاستعارة

ولنقدم قبل الكلام فى هذا الموضع قولا جامعا ، فنقول : اعلم أن للفصاحة والبلاغة أوصافا خاصة ، وأوصافا عامة ؛ فالخاصة كالتجنيس فيما يرجع إلى اللفظ ، وكالمطابقة فيما يرجع إلى المعنى ، وأما العامة فكالسَّجْع فيما يرجع إلى اللفظ ، وكالاستعارة فيما يرجع إلى المعنى ، وهذا الموضع الذى نحن بصدد ذكره – وهو الاستعارة – كثير الإشكال ، غامض الخفاء .

وسأورد فى كتابى هذا ما استخرجته ، ولم أسمع فيه قولا لغيرى ، وكنت قدمت القول فى الفصل السابع من مُقَدِّمة الكتاب فيما يختص بإثبات المجاز ، والرد على من ذهب إلى أنّ الكلام كله حقيقة لامجاز فيه ، وأقمت الدليل على ذلك ، ولا حاجة إلى إعادته ههنا ، بل الذى أذكره ههنا هو مايختص بالاستعارة التى هى جزء من المجاز ، ولم سميت بهذا الاسم ، وكشفت عن حقيقتها ، وميزتها

عن التشبيه المضمر الأداة ، والكلام فى هذا يحتاج إلى إعادة ذكر المجاز ، وإدخاله فيه ، ليتقرر ويتبين .

والذى انكشف لى بالنظر الصحيح أن المجاز ينقسم قسمين : توسع فى الكلام، وتشبيه ، والتشبيه ضربان: تشبيه تام ، وتشبيه محذوف ؛ فالتشبيه التام : أن يذكر المشبه والمشبه به ، والتشبيه المحذوف : أن يذكر المشبه دون المشبه به ، ويسمى استعارة ، وهذا الاسم وضع للفرق بينه وبين التشبيه التام ، وإلا فكلاهما يجوز أن يطلق عليه اسم التشبيه ، ويجوز أن يطلق عليه اسم الاستعارة ؛ لاشتراكهما فى المعنى ، وأما التوسع فإنه يذكر للتَّصَرُّف فى اللغة ، لا لفائدة أخرى ، وإن شئت قلت : إن المجاز ينقسم إلى : توسع فى الكلام ، وتشبيه ، واستعارة ، ولا يخرج عن أحد هذه الأقسام الثلاثة ، فأيها وجد كان مجازاً .

فإن قيل : إن التوسع شامل لهذه الأقسام الثلاثة ؛ لأن الخروج من الحقيقة إلى المجاز اتساع فى الاستعمال .

قلت فى الجواب : إن التوسع فى التشبيه والاستعارة جاء ضمناً وتبعاً ، وإن لم يكن هو السبب الموجب لاستعمالهما ؛ وأما القسم الآخر الذى هو لاتشبيه ولا استعارة فإن السبب فى استعماله هو طلب التوسع لاغير ، وبيان ذلك أنه قد ثبت أن المجاز فرع عن الحقيقة ، وأن الحقيقة هى الأصل ، وإنما يعدل عن الأصل إلى الفرع لسبب اقتضاه ، وذلك السبب الذى يعدل فيه عن الحقيقة إلى المجاز : إما أن يكون لمشاركة بين المنقول والمنقول إليه فى وصف من الأوصاف ، وإما أن يكون لغير مشاركة ؛ فإن كان لمشاركة : فإما أن يذكر المنقول والمنقول إليه معاً ، وإما أن يذكر المنقول إليه دون المنقول ؛ فإن ذكر المنقول والمنقول إليه معاً كان ذلك تشبيهاً ، والتشبيه تشبيهان : تشبيه مظهر الأداة ؛ كقولنا : زيد

كالأسد ، وتشبيه مضمر الأداة ، كقولنا : زيد أسد ، وهذا التشبيه المضمر الأداة قد خَلَطَه قوم بالاستعارة ، ولم يفرقوا بينهما ، وذلك خطأ محض .

وسأوضح وجه الخطأ فيه ، وأحقق القول فى الفرق بينهما تحقيقاً جلياً ، فأقول : أما التشبيه المظهر الأداة فلا حاجة بنا إلى ذكره هٰهنا ؛ لأنه معلوم لاخلاف فيه ، لكن نذكر التشبيه المضمر الأداة الذى وقع فيه الخلاف ، فنقول : إذا ذكر المنقول والمنقول إليه على أنه تشبيه مضمر الأداة قيل فيه : زيد أسد ، أى كالأسد ، فأداة التشبيه فيه مضمرة ، وإذا أظهرت حسن ظهورها ، ولم تقدح فى الكلام الذى أظهرت فيه ، ولا تزيل عنه فصاحة ولا بلاغة ، وهذا بخلاف ما إذا ذكر المنقول إليه دون المنقول ، فإنه لايحسن فيه ظهور أداة التشبيه ، ومتى أظهرت أزالت عن ذلك الكلام ما كان متصفاً به من جنس فصاحة وبلاغة ، وهذا هو الاستعارة ، ولنضرب لك مثالا نوضحه ، فنقول : قد ورد هذا البيت لبعض الشعراء ، وهو :

فَرْعاءُ إنْ نَهَضَتْ لِحَاجَتِها   عَجِلَ القَضِيبُ وَأبْطأَ الدِّعْصُ

وهذا قد ذكر فيه المنقول إليه دون المنقول ؛ لأن تقديره عَجِلَ قَدٌّ كالقضيب وأبطأ رِدْفٌ كالدِّعْص ، وبين إيراده على هذا التقدير وبين إيراده على هيئته فى البيت بَوْنٌ بعيد فى الحسن والملاحة ، والفرق إذًا أنَّ التشبيه المضمر الأداة يحسن إظهار أداة التشبيه فيه ، والاستعارة لايحسن ذلك فيها ، وعلى هذا فإن الاستعارة لاتكون إلا بحيث يُطْوَى ذكر المستعار له الذى هو المنقول إليه ويكتفى بذكر المستعار الذى هو المنقول .

فإن قيل : لانسلم أن الفرق بين التشبيه وبين الاستعارة ماذهبت إليه ، بل الفرق بينهما أن التشبيه إنما يكون بأداته كالكاف وكأنَّ وما جرى مَجْرَاهما ؛ فما لم يظهر فيه أداة التشبيه لايكون تشبيهاً ، وإنما يكون استعارة ، فإذا قلنا :

زيد أسد ، كان ذلك استعارة ، وإذا قلنا : زيد كالأسد ، كان ذلك تشبيهاً .

قلت فى الجواب عن ذلك : إذا لم نجعل قولنا « زيد أسد » تشبيهاً مضمر الأداة استحال المعنى ؛ لأن زيداً ليس أسداً ، وإنما هو كالأسد فى شجاعته ؛ فأداة التشبيه تقدر ههنا ضرورة كى لايستحيل المعنى .

فإن قيل : وكذلك أيضاً إذا لم تقدّر أداة التشبيه فى الاستعارة استحال المعنى ؛ لأنا إذا قلنا « عَجِلَ القضيبُ وأبطأ الدِّعْصُ » فما لم نقدّر فيه أداة التشبيه وإلا استحال المعنى

قلت فى الجواب عن ذلك : تقدير أداة التشبيه لابد منه فى الموضعين ؛ لكن يحسن إظهارها فى التشبيه ، دون الاستعارة ، وجملة الأمر أنا نرى أداة التشبيه يحسن إظهارها فى موضع دون موضع ؛ فعلمنا أن الموضع الذى يحسن إظهارها فيه غير الموضع الذى لايحسن إظهارها فيه ، فسمينا الموضع الذى يحسن إظهارها فيه تشبيهاً مضمر الأداة ، والذى لايحسن إظهارها فيه استعارة ، وإنما فعلنا ذلك لأن تسمية مايحسن إظهار أداة التشبيه فيه بالتشبيه أليق ، وتسمية ما لا يحسن إظهار أداة التشبيه فيه بالاستعارة أليق ، فإذا قلنا : « زيدٌ أسد » حسن إظهار أداة التشبيه فيه ، بأن نقول : زيد كالأسد ، وإذا قلنا كما قال الشاعر :

فَرْعَاه إنْ نَهَضَتْ لِحَاجَتِهـــا عَجِلَ الْقَضِيبُ وَأَبْطَأَ الدِّعْصُ

لايحسن إظهار أداة التشبيه فيه ، على ماتقدم من ذكر ذلك أولا .

فإن قيل : إذا أجزت إضمار أداة التشبيه وقدّرت إظهارها فى قولك « زيد أسد » أى : كالأسد ، فنحن نضمر أيضاً المستعار له ونقدر إظهاره ؛ فإنه لما قال الشاعر « عجل القضيب وأبطأ الدعص » أضمر المستعار له ، وهو القَدُّ والرِّدْف ، وإذا أظهر قيل : عجل قَدٌّ كالقضيب ، وأبطأ رِدْفٌ كالدِّعْص ، ولا فرق بين

الإضمارين ، فكما يسعُكَ إضمار أداة التشبيه فى قولك « زيد أسد » فكذلك يسعنا نحن إضمار المستعار له فى قول الشاعر .

فالجواب عن ذلك أنى أقول : نحن فى هذا المقام واقفون مع الاستحسان لا مع الجواز ، ولو تأملت ما أوردته فى أول كلامى بالعَيْن الصحيحة لما أوردت علىّ هذا الاعتراض ههنا ؛ فإنى قلت : التشبيه المضمر الأداة يحسن إظهار أداة التشبيه فيه ، والاستعارة لا يحسن إظهار أداة التشبيه فيها ، ولو قلت يجوز أو لا يجوز لورَدَ علىّ هذا الاعتراض الذى ذكرته ، وقد علم وتحقق أن من الواجب فى حكم الفصاحة والبلاغة ألاّ يظهرَ المستعار له ، و إذا أظهر ذهب ما على الكلام من الحسن والرونق ، ألا ترى أنا إذا أوردنا هذا البيت الذى هو :

فأَمْطَرَتْ لُؤْلُؤاً مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ   وَرْداً وَعَضَّتْ عَلَى الْعُنَّابِ بِالْبَرَدِ

وجد عليه من الحسن والرونق مالا خفاء به ، وهو من باب الاستعارة ، فإذا أظهرنا المستعار له صرنا إلى كلام غثّ ، وذاك أنا نقول : فأمطرت دَمْعاً كاللؤلؤ من عين كالنرجس وسقَتْ خداً كالورد وعضّت عَلَى أناملَ مخضوبةٍ كالعُنَّاب بأسنان كالبَرَدِ ، وفَرْقٌ بين هذين الكلامين للمتأمل واسع .

وهكذا يجرى الحكم فى البيت المتقدم ذكره الذى هو :

فرْعاء إنْ نَهَضَتْ لِحَاجَتِها   عَجِلَ الْقَضِيبُ وَابطَأَ الدِّعْصُ

فإن هذا البيت لاخفاء بما عليه من الحسن ، و إذا ظهر فيه المستعار له زال ذلك الحسن عنه ، لا ، بل تبدل بضده ، وليس كذلك التشبيه المضمر الأداة، فإنا إذا أظهرنا أداة التشبيه وأضمرناها كان ذلك سواء ؛ إذ لا فرق بين قولنا « زيد أسد » و بين قولنا « زيد كالأسد » وهذا لا يخفى على جاهل بعلم الفصاحة والبلاغة ، فضلا عن عالم ، والمعوَّلُ عليه فى تأليف الكلام من المنثور والمنظوم إنما هو حسنه وطلاوته ، فإذا ذهب ذلك عنه فليس بشىء ، ونحن فى الذى

نورده فى هذا الكتاب واقفون مع الحسن ، لا مع الجواز .

ثم لو تنزَّلنا معك أيها المعترض عن درجة الحسن إلى درجة الجواز لما استقام لك ماذكرته ، وذاك أن إضمار أداة التشبيه ظاهر فى قولنا « زيد أسد » أى كالأسد ، وهو مضمر واحد ، وأما قول الشاعر « فرعاء إن نهضت لحاجتها » فإنه لا يضمر فيه أداة التشبيه إلا بعد أن يظهر المستعار له ، وحينئذ يكون فيه إضماران : أحدهما : المستعار له ، والآخر أداة التشبيه ، وإضمار واحد أيسر من إضمارين أحدهما معلق على الآخر ، وإذا كان الأمر كذلك فالفرق بين الاستعارة والتشبيه هو ماقدمت القول فيه من أنّ الاستعارة لاتكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له ، فتأمل ما أشرت إليه وتدبره حتى تعلم أنى ذكرت مالم يذكره أحد غيرى على هذا الوجه .

وإنما سمى هذا القسم من الكلام استعارة لأن الأصل فى الاستعارة المجازية مأخوذ من العارية الحقيقية التى هى ضرب من المعاملة ، وهى أن يستعير بعض الناس من بعض شيئاً من الأشياء ، ولا يقع ذلك إلا من شَخْصَيْن بينهما سبب معرفةٍ مَايقتضى استعارةَ أحدهما من الآخر شيئاً ، وإذا لم يكن بينهما سبب معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر شيئاً ؛ إذ لا يعرفه حتى يستعير منه ، وهذا الحكم جار فى استعارة الألفاظ بعضها من بعض ، فالمشاركة بين اللفظين فى نقل المعنى من أحدهما إلى الآخر كالمعرفة بين الشخصين فى نقل الشىء المستعار من أحدهما إلى الآخر .

واعلم أنه قد ورد من الكلام ما يجوز حمله على الاستعارة وعلى التشبيه المضمر الأداة معاً ، باختلاف القرينة ، وذاك أن يرد الكلام محمولا على ضمير من تقدم ذكره فينتقل عن ذلك إلى غيره ويرتجل ارتجالا .

فمما جاء منه قول البحترى[١] :

إِذَا سَفَرَتْ أضاءتْ شَمْسَ دَجْنٍ وَمَالَتْ فى التَّعَطُّفِ غُصْنَ بَانِ

فلما قال « أضاءت شمسَ دَجْنٍ » بنصب الشمس كان ذلك محمولا على الضمير فى قوله « أضاءت » كأنه قال أضاءت هى ، وهذا تشبيه ؛ لأن المشبه مذكور ، وهو الضمير فى « أضاءت » الذى نابت عنه التاء ، ويجوز حمله على الاستعارة بأن يقال « أضاءت شمسُ دجن » برفع الشمس ، ولا يعود الضمير حينئذ إلى من تقدم ذكره ، وإنما يكون الكلام مرتجلا ، ويكون البيت :

إِذَا سَفَرَتْ أضاءتْ شَمْسُ دَجْنٍ وَمَالَ مِنَ التَّعَطُّفِ غُصْنُ بَانِ

وهذا الموضع فيه دقة غموض ، وحرف التشبيه يحسن فى الأول دون الثانى .

وأما القسم الذى يكون العدول فيه عن الحقيقة إلى المجاز لغير مشاركة بين المنقول والمنقول إليه فذلك لا يكون إلا لطلب التوسع فى الكلام ، وهو سبب صالح ؛ إذ التوسع فى الكلام مطلوب .

وهو ضربان : أحدهما : يرد على وجه الإضافة ، واستعماله قبيح؛ لبعد ما بين المضاف والمضاف إليه ، وذاك لأنه يلتحق بالتشبيه المضمر الأداة ، وإذا ورد التشبيه ولا مناسبة بين المشبه والمشبه به كان ذلك قبيحاً ، ولا يستعمل هذا الضربَ من التوسع إلا جاهل بأسرار الفصاحة والبلاغة ، أو ساهٍ غافل يذهب به خاطره إلى استعمال ما لا يجوز ولا يحسن ، كقول أبى نواس[٢] :

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن المدبر وأخاه إبراهيم ، وأولها قوله :

عَنَانِي مِنْ صُدُودِكَ مَا عَنَانِي وَعَاوَدَنِي هَوَاكَ كَمَا بَدَانِي

(٢) من قصيدة له يمدح فيها العباس بن عبيد الله بن أبى جعفر المنصور ، وأولها قوله :

غَرَّدَ الدِّيكُ الصَّدُوحُ فَاسْقِنِي طَابَ الصَّبُوحُ

انظر الديوان (ص ٦٨) .

بُحَّ صَوْتُ المَالِ مِمَّا مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ

فقوله « بح صوت المال » من الكلام النازل بالمرة ، ومراده من ذلك أن المال يتظلم من إهانتك إياه بالتمزيق ، فالمعنى حسن ، والتعبير عنه قبيح ، وما أحسن ما قال مسلم بن الوليد فى هذا المعنى (١) :

تَظَلَّمَ المَالُ والأعْدَاءُ مِنْ يَدِهِ لا زَالَ لِلْمَالِ وَالأعْدَاءِ ظلامَا

وكذلك ورد قول أبي نواس أيضاً (٢) :

مَا لِرِجْلِ المَالِ أمْسَتْ تَشْتَكِى مِنْكَ الكَلالاَ

فإضافة الرِّجْل إلى المال أقبح من إضافة الصوت .

ومن هذا الضرب قول أبي تمام (٣) :

وَكَمْ أحْرَزَتْ مِنكُمْ عَلَى قُبْحِ قَدِّهَا صُرُوفُ النوَى مِنْ مُرْهَفٍ حَسَنِ الْقَدِّ

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها يزيد بن مزيد الشيبانى ، وأولها قوله :

طَيْفَ الْخيالِ حَمِدْنَا مِنْكَ إلْمَامَا دَاوَيْتَ سُقْماً وَقَدْ هَيَّجْتَ أسْقَامَا

(٢) من قصيدة له يمدح فيها إبراهيم بن عبيد الله الحجبي ، وأولها قوله :

هَلْ عَرفْتَ الرَّبْعَ أجْلَى أهْلُهُ عَنْـــــهُ فزَالاَ

انظر الديوان (ص ١١٨) .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها موسى بن إبراهيم الرافقى و يعتذر إليه ، وأولها قوله :

شَهِدْتُ لَقَدْ أقْوَتْ مَغَانِيكُمُ بَعْدِى وَمَحَّتْ كَمَا مَحَّتْ وَشَائِعُ مِنْ بُرْدِ

وله بيت آخر شبيه بهـذا من قصيدة له يمدح فيها أبا العباس نصر بن منصور ابن بسام ، وأولها قوله :

أأطْلاَلَ هِنْدٍ سَاءَ مَا اعْتَضْتِ مِنْ هِنْدِ أقَايَضْتِ حُورَ الْعِينِ بِالْعُورِ وَالرُّبْدِ

والبيت المشار إليه هو قوله :

وَمَقْدُودَةٍ رُودٍ تَكَادُ تَقُدُّهَا إصَابَتُها بِالْعَيْنِ مِنْ حَسَنِ الْقَدِّ

فإضافة القدّ إلى النوى من التشبيه البعيد البعيد ، وإنما أوقعه فيه المماثلة بين القد والقد ، وهذا دأب الرجل فى تتبع المماثلة تارة والتجنيس أخرى ، حتى إنه ليخرج إلى بناء يعاب به أقبح عيب وأفحشه .

وكذلك ورد قوله[1] :

بَلَوْنَاكَ أمَّا كَعْبُ عِرْضِكَ فِي الْعُلَا فَعَالٍ وَأَمَّا خَدُّ مَالِكَ أَسْفَلُ[2]

فقوله كعب عرضك وخد مالك مما يستقبح ويستنكر ، ومراده من ذلك أن عرضك مصون ومالك مبتذل ، إلا أنه عبر عنه أقبح تعبير ، وأبو تمام يقع فى مثل ذلك كثيراً .

وأما الضرب الآخر من التوسع فإنه يرد على غير وجه الإضافة ، وهو حسن لاعيب فيه ، وقد ورد فى القرآن الكريم ؛ كقوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) فنسبة القول إلى السماء والأرض من باب التوسع ؛ لأنهما جماد ، والنطق إنما هو للإنسان لا للجماد ، ولا مشاركة هٰهنا بين المنقول والمنقول إليه .

وكذلك قوله تعالى : (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ) .

وعليه ورد قول النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه نظر إلى أُحُدٍ يوماً فقال : «هٰذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ» فإضافة المحبة إلى الجبل من باب التوسع ؛ إذ لا مشاركة بينه وبين الجبل الذى هو جماد .

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا المستهل محمد بن شقيق الطائى ، وأولها قوله :

تَحَمَّلَ عَنْهُ الصَّبْرُ يَوْمَ تَحَمَّلُوا وَعَادَتْ صَبَاهُ فِي الصِّبَا وَهِيَ شَمْأَلُ

(٢) رواية الديوان فى عجز البيت :

* فَعَالٍ ، وَلٰكِنْ خَدُّ مَالِكَ أَسْفَلُ *

ورواية « لكن » خير من رواية « وأما » ؛ لأن أما يلزم بعد ما بعدها الفاء كما قال « أما كعب عرضك فى العلا فعال » .

وعلى هذا ورد مخاطبة الطلول ، ومساءلة الأحجار ، كقول أبي تمام (١) :

أَمَيْدَانَ لَهْوِى مَنْ أَتَاحَ لَكَ الْبِلَى فَأَصْبَحْتَ مَيْدَانَ الصَّبَا وَالْجَنَائِبِ

وكقول أبي الطيب المتنبي (٢) :

إِثْلِثْ فَإِنَّا أَيُّهَا الطَّلَلُ نَبْكِى وَتُرْزِمُ تَحْتَنَا الإِبِلُ (٣)

فأبو تمام سائل ربوعا عافية وأحجاراً دارسة ، ولا وجه لها هٰهنا إلا مساءلة الأهل ؛ كالذى فى قوله تعالى : (وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ) أى : أهل القرية ، وكل هذا توسع فى العبارة ؛ إذ لامشاركة بين رسوم الديار و بين فهم السؤال والجواب ، وكذلك قال أبو الطيب المتنبي فى أمره الطلل بأن يكون ثالثاً لهما : أى الركب والإبل ، وهذا واضح لانزاع فيه .

فإذ قد تبين وتحقق ما أشرت إليه من هذا الموضع فالمجاز لايخرج عن هذه الأقسام الثلاثة : إما توسع ، أو تشبيه ، أو استعارة ، و إذا حققنا النظر فى الاستعارة والتشبيه وجدناهما أمراً قياسياً فى حمل فرْعٍ على أصل لمناسبة بينهما ، وإن كانا يفترقان بحدهما وحقيقتهما .

فأما حَدُّ الاستعارة فقيل : إنه نقل المعنى من لفظ إلى لفظ بسبب مشاركة بينهما ، وهذا الحد فاسد ؛ لأن التشبيه يشارك الاستعارة فيه ، ألا ترى أنا إذا

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى ، وأولها قوله :

عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلَاعِبِ تُذَالُ مَصُونَاتُ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ

(٢) هذا مطلع قصيدة يمدح فيها عضد الدولة ، و بعده قوله :

أَوْلَا فَلَا عَتْبٌ عَلَى طَلَلٍ إِنَّ الطُّلُولَ لِمِثْلِهَا فُعُلُ

(٣) يريد كن أيها الطلل ثالثا فى البكاء على فقد الأحبة ؛ فنحن نبكى والإبل من تحتنا تساعدنا بحنينها ، وهو قريب من قول البحترى :

أُطْلُبَا ثَالِثاً سِوَاىَ فَإِنِّى رَابِعُ الْعِيسِ وَالدُّجَى وَالْبِيدِ

قالنا : « زيد أسد » أى كأنه أسد ، وهذا نقل المعنى من لفظ إلى لفظ بسبب مشاركة بينهما ؛ لأنا نقلنا حقيقة الأسد إلى زيد فصار مجازاً ، وإنما نقلناه لمشاركة بين زيد وبين الأسد فى وصف الشجاعة .

والذى عندى من ذلك أن يقال : حَدُّ الاستعارة نَقْلُ المعنى من لفظ إلى لفظ لمشاركة بينهما مع طىّ ذكر المنقول إليه ؛ لأنه إذا احترز فيه هذا الاحتراز اختصّ بالاستعارة ، وكان حدًّا لها دون التشبيه ، وطريقه أنك تريد تشبيه الشىء بالشىء مظهراً ومضمراً ، وتجىء إلى المشبه فتميره اسم المشـــبه به ، وتجريه عليه ، مثال ذلك أن تقول : رأيت أسداً ، وهذا كالبيت الشعر المقدم ذكره ، وهو :

فَرْعَاء إنْ نَهضَتْ لِحَاجَتِها عَجِلَ القَضِيبُ وَأَبْطأَ الدِّعْصُ

فإن هذا الشاعر أراد تشبيه القدّ بالقضيب ، والرِّدْف بالدِّعص الذى هو كثيب الرمل ؛ فترك ذكر التشبيه مظهراً ومضمراً ، وجاء إلى المشبه ــ وهو القدُّ [والرِّدْف] ــ فأعاره المشبه به ــ وهو القضيب والدعص ــ وأجراه عليه .

إلا أن هذا الموضع لابدّ له من قرينة تفهم من فحوى اللفظ ؛ لأنه إذا قال القائل : رأيت أسداً ، وهو يريد رجلاً شجاعًا ؛ فإن هذا القول لايفهم منه ماأراد ، وإنما يفهم منه أنه أراد الحيوان المعروف بالأسد ، لكن إذا اقْتَرَنَ بقوله هذا قرينة تدل على أنه أراد رجلاً شجاعًا اخْتَصّ الكلام بما أراد ، ألا ترى إلى إلى قول الشاعر : « عَجِلَ القَضِيبُ وأبطأ الدِّعْصُ » فإنه دل عليه من نفس البيت ؛ لأن قوله « فرعاء إن نهضت » دليل على أن المراد هو القدّ والرِّدف[1] ؛

(١) وشىء آخر فى هذا البيت يدل على أن المراد القد والردف ؛ لاالقضيب الحقيق والدعص الحقيق ، وهو قوله « عجل » و « أبطأ » ؛ فإن الذى يعجل ويبطىء هما المشبهان لا القضيب والدعص المشبه بهما .

لأن القضيب والدِّعص لا يكونان لامرأة فرعاء تنهض لحاجتها ، وكذلك كل مايجيء على هذا الأسلوب : لأن المستعار له وهو المنقول إليه مَطْوِيُّ الذكر .

وكنت تصفحت كتاب « الخصائص » لأبى الفتح عثمان بن جنى ، فوجدته قد ذكر فى المجاز شيئاً يتطرق إليه النظر ، وذلك أنه قال : لا يُعْدَل عن الحقيقة إلى المجاز إلا لمعان ثلاثة ، وهى الاتساع ، والتشبيه ، والتوكيد : فإن عدمت الثلاثة كانت الحقيقة البتة .

فمن ذلك قوله تعالى : (فَأَدْخَلْنَاهُ فِى رَحْمَتِنَا) فهذا مجاز ، وفيه الثلاثة المذكورة : أما الاتِّساع فهو أنه زاد فى أسماء الجهات والمحالّ اسما ، وهو الرحمة ، وأما التشبيه فإنه شبَّه الرحمة وإن لم يَصِحَّ دخولها بما يصحّ دخوله ، وأما التوكيد فهو أنه أخبر عما لا يُدْرَك بالحاسة بما يدرك بالحاسة ؛ تعالياً بالمخبر عنه ، وتفخيماً له إذا صير بمنزلة ما يشاهد ويعاين

هذا مجموع قول أبى الفتح رحمه الله من غير زيادة ولا نقص .

والنظر يتطرق إليه من ثلاثة أوجه :

الأول : أنه جعل وجود هذه المعانى الثلاثة سبباً لوجود المجاز ، بل وجود واحد منها سبباً لوجوده ؛ ألا ترى أنه إذا وجد التشبيه وحده كان ذلك مجازاً ، وإذا وجد الاتساع وحده كان ذلك مجازاً ، ثم إن كان وجود هذه المعانى الثلاثة سبباً لوجود المجاز كان عدم واحد منها سبباً لعدمه ، ألا ترى أنا إذا قلنا : لا يوجد الإنسان إلا بأن يكون حيوانا ناطقاً ؛ فالحيوانية والنطق سبب لوجود الإنسان ، وإذا عدم واحد منهما بطل أن يكون إنسانا ، وكذلك كل صفات تكون متقدمة لوجود الشيء ؛ فإن وجودها بوجوده ، وعدم واحد منها يوجب عدمه ؛

وأما الوجه الثانى : فإنه ذكر التوكيد والتشبيه ، وكلاهما شيء واحد على الوجه الذى ذكره ؛ لأنه لما شبهت الرحمة ، وهى معنى لا يدرك بالبصر ، بمكان

يُدْخَل ، وهو صورة تدرك بالبصر ، دخل تحته التوكيد الذى هو إخبار عما لايدرك بالحاسة بما قد يدرك بالحاسة ، على أن التوكيد ههنا ، على وجه ما أورده فى تمثيله ، لا أعلم ما الذى أراد به ، لأنه لا يؤتى به فى اللغة العربية إلا لمعنيين : أحدهما : أنه يرد أبداً فيما استقرى بألفاظ محصورة نحو نفسه وعينه وكله ، وما أضيف إليها مما استقرى ، وهو مذكور فى كتب النحاة ، وقد كفيت مؤنته ، الآخر : أنه يرد على وجه التكرير ، نحو : قام زيد قام زيد ، كرر اللفظ فى ذلك تحقيقاً للمعنى المقصود : أى توكيداً ، والذى ذكره أبو الفتح رحمه الله تعالى لا يدل على أن المراد به أحد هذين المعنيين المشار إليهما ، ولا شك أنه أراد به المبالغة والمغالاة فى إبراز المعنى الموهوم إلى الصورة المشاهدة ، فعبر عن ذلك بالتوكيد ، ولا مُشَاحَّة له فى تعبيره ، وإذا أراد به ذلك فهو والتشبيه سواء على ما ذكره ، ولا حاجة إلى ذكر التوكيد مع ذكر التشبيه .

وأما الوجه الثالث فإنه قال « أما الاتساع فهو أنه زاد فى أسماء الجهات والمحال كذا وكذا » وهذا القول مضطرب شديد الاضطراب ؛ لأنه ينبغى على قياسه أن يكون جَناح الذل فى قوله تعالى : (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ) زيادة فى أسماء الطيور ، وذلك أنه زاد فى أسماء الطيور اسماً هو الذل ، وهكذا يجرى الحكم فى الأقوال الشعرية كقول أبى تمام[1] :

لَبِسْتُ سِوَاهُ أَقْوَامًا فَكَانُوا ... كَمَا أَغْنَى التَّيَمُّمُ بِالصَّعِيدِ

فزاد فى أسماء اللباس اسما ، هو الآدمى ، وهذا مما يضحك منه ، نعوذ بالله من الخطل !! والاتساع فى المجال لايقال فيه كذا ، وإنما يقال : هو أن تجرى صفة

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الطائى ، وأولها قوله :

أَظُنُّ دُمُوعَهَا سَنَنَ الْفَرِيدِ ... وَهِى سِلْكَاهُ مِنْ نَحْرٍ وَجِيدِ

انظر الديوان (ص ١٠٤)

من الصفات على موصوف ليس أهلا لأن تجرى عليه ؛ لبعد ما بينه و بينها ؛ كقول أبي الطيب المتنبي :

إثْلِثْ فَإنَّا أيُّهَا الطَّلَلُ   نَبْكِى وَتُرْزِمُ تَحْتَنا الإبِلُ(١)

فإنه أجرى الكلام على ذلك ، وإنما يستعمل طلباً للاتساع فى أساليب الكلام ، لا لمناسبة بين الصفة والموصوف ؛ إذ لو كان لمناسبة لما كان ذلك اتساعا ، و إنما كان ضربا من القياس فى حمل الشيء على ما يناسبه ويشاكله ، وحينئذ يكون ذلك تشبيهاً أو استعارة ، على ما أشرت إليه من قبل .

وكنت اطلعت فى كتاب من مصنفات أبي حامد الغزالى رحمه الله ألفه فى أصول الفقه ، و وجدته قد ذكر الحقيقة والمجاز ، وقسم المجاز إلى أربعة عشر(٢) قسما ، وتلك الأربعة عشر ترجع إلى الثلاثة التى أشرت إليها ، وهى : التوسع ،

---

(١) سبق قريبا ذكر هذا البيت (انظر ص ٣٦٤ من هذا الجزء) .

(٢) هذا الذى ذكره المؤلف من الاعتراض على أبي حامد ليس سديدا ؛ ونحن نذكر لك شيئا من التفصيل فى التقسيم ؛ فنقول : هب أنك تريد أن تقسم الموجودات ؛ فقلت فى التقسيم : الموجودات تنقسم إلى ثلاثة أقسام : حيوان ، ونبات ، وجماد ؛ فهذه أقسام ثلاثة تحصر جميع الموجودات ، وكل قسم منها يقابل الآخر ولا يجتمع معه فى شيء ؛ فإذا قلت : الموجودات تنقسم إلى أقسام كثيرة : منها الجماد ، ومنها النبات ، ومنها الإنسان ، ومنها الأسد ، ومنها الفرس ، ومنها الجمل ؛ فهذا تقسيم صحيح أيضا ، والفرق بينه و بين التقسيم الأول أنه فصل النوع الثالث فى التقسيم الأول بعض التفصيل ؛ فلو أنه ذكر جميع أنواع الحيوان فلم يترك منها شيئا كان فى الاستيعاب والصحة مثل الأول تماما ، فإن ترك منها شيئا ولم يقل فى العبارة ما يدل على أنه لا يستقرئ ، كان التقسيم غير حاصر . وتقسيم أبي حامد رحمه الله من النوع الثانى ؛ فإنه عدد بعض أنواع القسم الذى سماه المؤلف هنا التوسع ، وهو نوع من المجاز يسميه المتأخرون المجاز المرسل . والذى ذكره أبو حامد أولى مما ذكره المؤلف ؛ لاشتماله على تفصيل المجمل فى كلامه ؛ فتدبر ذلك وتفهمه جيدا .

والتشبيه ، والاستعارة ، ولا تخرج عنها ؛ والتقسيم لايصح فى شىء من الأشياء إلا إذا اختص كل قسم من الأقسام بصفة لايختص بها غيره ، وإلا كان التقسيم لغواً لا فائدة فيه .

وسأورد ماذكره وأبين فساده .

فالقسم الأول من الأقسام التى ذكرها هو : ما جعل للشىء بسبب المشاركة فى خاصة ، كقولهم للشجاع : أسد ، وللبليد : حمار ، وهذا القسم داخل فى الاستعارة ، إن ذكر المنقول وحده ، مثل أن يقول القائل : رأيت أسداً ، ومراده رجلا شجاعاً ، أو رأيت حماراً ، ومراده رجلا بليداً ، وداخل فى التشبيه المضمر الأداة ، إن ذكر المنقول والمنقول إليه معاً ، كقول القائل : زيد أسد : أى كالأسد ، أوحمار : أى كالحمار .

القسم الثانى : تسمية الشيء باسم ما يئُول إليه ، كقوله تعالى : (إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمراً) وإنما كان يَعْصِرُ عنباً ، وهذا القسم داخل فى القسم الأول ؛ لصفة المشابهة بين المنقول والمنقول إليه ، وهومن باب الاستعارة[(١)] ، لا ، بل أوغل فى المشابهة من ذاك ؛ لأن الخمر من العنب ، وليس الأسد من الرجل ، ولا الرجل من الأسد .

القسم الثالث : تسمية الشىء باسم فرعه ، كقول الشاعر :

وَمَا الْعَيْشُ إِلاَّ نَوْمَةٌ وَتَشَرُّقٌ   وَتَمْرٌ عَلَى رَأْسِ النَّخِيلِ وَماء

(١) لا ، ليس هذامن الاستعارة وإن حلف المؤلف على ذلك، بل هومما سماه المؤلف التوسع ، وهو فى التحقيق كما ذكر أبو حامد من باب تسمية الشىء باسم مايئول إليه ؛ فان العصير الذى هو ماء العنب يصير خمرا ، وهو إنما يقصد لما يصير إليه، وسترى أثر العنت فى الجدل ظاهرا على كثير من نقد المؤلف لأبى حامد ، فنكتفى بهذه الإشارة عن القول عن كل كلمة منه بمفردها .

فسمى الرطب تمراً ، وهـذا القسم والقسم الذى قبله سواء ؛ لأن هناك سمى العنب خمراً ، وههنا سمى الرطب تمراً ؛ فالعنب أصل ، والخمر فرع ، وكذلك الرطب أصل والتمر فرع ، وكلا هذين القسمين داخل فى القسم الأول .

وهب أن الغزالى لم يحقق أمر المجاز وانقسامه إلى تلك الأقسام الثلاثة التى أشرت إليها ، ألم ينظر إلى هذين القسمين اللذين هما العنب والخمر والرطب والتمر ويعلم أنهما شىء واحد لافرق بينهما ؟ .

القسم الرابع : تسمية الشىء باسم أصله ، كقولهم للآدمى : مُضْغَة ، وهذا ضد القسم الذى قبله ؛ لأن ذاك جعل الأصل فيه فرعا ، وهذا جعل الفرع فيه أصلا ، وهو داخل فى القسم الأول أيضاً .

القسم الخامس : تسمية الشىء بدواعيه ، كتسميتهم الاعتقاد قَوْلاً ، نحو قولهم : هذا يقولُ بقول الشافعى رحمه الله : أى يعتقد اعتقاده ، وهذا القسم داخل فى القسم الأول ؛ لأن بين القول وبين الاعتقاد مناسبة كالمناسبة بين السبب والمسبب والباطن والظاهر .

القسم السادس : تسمية الشىء باسم مكانه ، كقولهم للمطر : سماء ؛ لأنه ينزل منها ، وهذا القسم داخل فى الأول ؛ لصفة المناسبة بين المنقول والمنقول إليه ، وهو النزول من عالٍ ، وكل ماعلاك فأظَلَّكَ فهو سماء ، على أن الأغلب على ظنى أن هذا القسم من الأسماء المشتركة ، وتسمية المطر بالسماء حقيقة فيه ، وليس من المجاز فى شىء .

القسم السابع : تسمية الشىء باسم مجاوِرِه ، كقولهم للمَزَادَةِ : راوية ، وإنما الراوية الجملُ الذى يحملها ، وهذا القسم من باب التوسع ، لامن باب التشبيه ، ولا من باب الاستعارة ؛ لأن على قياسه ينبغى أن يسمى الجمل زاملة لأنه يحملها .

القسم الثامن : تسمية الشيء باسم جزئه ، كقولك لمن تبغضه : أبعدَ الله وَجْهَه عنى ، وإنما تريد سائر جثته ، وهذا القسم داخل فى القسم الأول ، وهو شبيه بتسمية الشيء باسم فرعه .

القسم التاسع : تسمية الشيء باسم ضِدِّهِ ، كقولهم للأسود والأبيض : جَوْن ، وهذا القسم ليس من المجاز فى شىء البتة ، وإنما هو حقيقة فى هذين المسميين معا ؛ لأنه من الأسماء المشتركة ، كقولهم : شِمْتُ السيف ، إذا سللته ، وشمته ، إذا أغمدته ، فدل الشيم على الضدين معا بالوضع الحقيقى ؛ وفى اللغة من هذا شىء كثير ، فكيف يجعل هذا القسم من المجاز ؟

ولا شك أن الغزالى نظر إلى أن الضدين لايجتمعان فى محل واحد ، فقاس الاسم على الذات ، وظن أن الذاتين لايجتمعان فى اسم واحد ، كما أنهما لايجتمعان فى محل واحد .

فإن قيل : لانسلم أن اللفظ المشترك حقيقة بالوضع فى المعنيين معا ؛ لأن ذلك يخلُّ بفائدة الوضع الذى هو البيان ، وإنما هو حقيقة فى أحد معنييه مجاز فى الآخر .

فالجواب عن ذلك أن هذا الموضع تَقَدَّمَ الكلام عليه فى الفصل الثانى من مقدمة الكتاب ، وهو الفصل الذى يشتمل على آلات علم البيان وأدواته ، فليؤخذ من هناك ، فإنى قد أشبعت القول فيه إشباعا لا مزيد عليه .

القسم العاشر : تسمية الشيء بفعله ، كتسمية الخمر مُسْكرا ، وهذا القسم داخل فى القسم الأول ، وأىُّ مشاركة أقرب من هذه المشاركة ؟ فإن الإسكار صفة لازمة للخمر ، وليست الشجاعة صفة لازمة لزيد ؛ لأنه يمكن أن يكون زيد ولا شجاعة ، ولا يمكن أن يكون خمر ولا إسكار ، ألا ترى أنها لم تسم خمرا إلا لإسكارها ، فإنها تخمر العقل : أى تستره .

القسم الحادى عشر: تسمية الشىء بكله، كقولك فى جواب «مافعل زيد»: القيام، والقيام جنس يتناول جميع أنواعه، وهذا القسم لاينبغى أن يوصل بأقسام المجاز؛ لأن القيام لزيد حقيقة.

فإن قيل: إن القيام يشمل جميع أنواع القيام من الماضى والحاضر والمستقبل.

قلت: وهذا من أقرب أقسام المجاز مناسبة؛ لأنه إقامة المصدر مقام الفعل الماضى، والمصدر أصل الفعل، وعلى هذا فإن هذا داخل فى القسم الأول.

القسم الثانى عشر: الزيادة فى الكلام لغير فائدة، كقوله تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ) فما ههنا زائدة لا معنى لها: أى فبرحمة من الله لنت لهم، وهذا القول لا أراه صوابا، وفيه نظر من وجهين: أحدهما: أن هذا القسم ليس من المجاز؛ لأن المجاز هو دلالة اللفظ على غير ماوضع له فى أصل اللغة، وهذا غير موجود فى الآية، وإنما هى دالة على الوضع اللغوى المنطوق به فى أصل اللغة؛ والوجه الآخر: أنى لو سلمت أن ذلك من المجاز لأنكرت أن لفظة «ما» زائدة لامعنى لها، ولكنها وردت تفخيما لأمر النعمة التى لاَنَ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم، وهى محض الفصاحة، ولو عرى الكلام منها لما كانت له تلك الفخامة، وقد ورد مثلها فى كلام العرب، كالذى يحكى عن الزباء، وذاك أن الوَضَّاح الذى هو جَذِيمة الأبرش تزوّجها، والحكاية فى ذلك مشهورة، فلما دخل عليها كشفت له عن فرجها وقد ضفرت الشعر من فوقه ضفيرتين، وقالت: أذات عرس ترى[1]؛ أما إنه ليس ذلك من عوز المواس، ولامن قلة الأواس، ولكنه شيمةُ ما أُناس، فمعنى الكلام ولكنه شيمة أناس، وإنما جاءت لفظة «ما» ههنا تفخيما لشأن صاحب تلك الشيمة وتعظيما لأمره، ولو أسقطت لما كان للكلام ههنا هذه الفخامة والجزالة، ولا يعرف ذلك إلا أهله من علماء الفصاحة والبلاغة، وأما الغزالى رحمه الله تعالى فإنه معذور عندى فى

(١) فى ب، ج «أذات عروس ترى»

ألاَّ يعرفَ ذلك ؛ لأنه ليس فنه ، ومن ذهب إلى أن فى القرآن لفظا زائدا لامعنى له فإما أن يكون جاهلا بهذا القول ، و إما أن يكون متسمحا فى دينه واعتقاده ، وقول النحاة إن « ما » فى هذه الآية زائدة فإنمـا يعنون به أنها لاتمنع ماقبلها عن العمل ، كما يسمونها فى موضع آخر كَافَّةً : أى أنها تكفّ الحرف العامل عن عمله ؛ كقولك : إنما زيدٌ قائم ، فما قد كفت إنّ عن العمل فى زيد ، وفى الآية لم تمنع عن العمل ، ألا ترى أنها لم تمنع الباء عن العمل فى خفض الرحمة .

القسم الثالث عشر : تسمية الشيء بحكمه ، كقوله تعالى : (وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أنْ يَسْتَنْكِحَهَا) فسمى النكاح هبة ، وهذا القسم داخل فى القسم الأول ؛ لأن النكاح هو تمكين الزوج من الوطء على عوض على هيئة مخصوصة ، والهبة : تمكينه من الشيء الموهوب على غير عوض ، فشاركت الهبة النكاح فى نفس التمكين من الوطء ، وإن اختلفا فى الصورة .

القسم الرابع عشر : النقصان الذى لا يبطل به المعنى ، كحذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، قال الله تعالى : (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا) أى : شخصاً بريئاً ، وكحذف المضاف و إقامة المضاف إليه مقامه ؛ قال الله تعالى : (وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ) أى : أهل القرية ؛ وهذا القسم داخل فى القسم الأول : أما حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه فلأن الصفة لازمة للموصوف ، وأما حذف المضاف و إقامة المضاف إليه مقامه فلأنه دل بالمسكون على الساكن ، وتلك مقارنة قريبة .

فهذه أقسام المجاز التى ذكرها الغزالى رحمه الله تعالى ، وقد بينت فساد التقسيم فيها ، وأنها ترجع إلى ثلاثة أقسام ، هى : التوسع ، والتشبيه ، والاستعارة . وحيث انتهى بى الكلام إلى ههنا ، وفرغت مما أردت تحقيقه ، و بينت

ما أردت بيانه ؛ فإنى أتبع ذلك بضرب الأمثلة للاستعارة التى يستفيد بها المتعلم ما لا يستفيده بذكر الحد والحقيقة .

فمما جاء من ذلك فى القرآن الكريم قوله تعالى فى أول سورة إبراهيم صلوات الله عليه: (الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) فالظلمات والنور: استعارة للكفر والإيمان ، أو للضلال والهدى ، والمستعار له مطوىّ الذكر ، كأنه قال : لتخرج الناس من الكفر الذى هو كالظلمة إلى الإيمان الذى هو كالنور .

وكذلك ورد قوله تعالى فى هذه السورة أيضاً : (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) والقراءة برفع لتزول منه الجبال ليست من باب الاستعارة ، ولكنها فى نصب تزول ، واللام لام كى ، والجبال ههنا : استعارة طوى فيها ذكر المستعار له ، وهو أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الآيات والمعجزات : أى أنهم مكروا مكرهم لكى تزول منه هذه الآيات والمعجزات التى هى فى ثباتها واستقرارها كالجبال .

وعلى هذا ورد قوله تعالى : (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) فاستعار الأودية للفنون والأغراض من المعانى الشعرية التى يقصدونها ، وإنما خص الأودية بالاستعارة ولم يستعر الطرق والمسالك أو ماجرى مجراها لأنّ معانى الشعر تستخرج بالفكرة والروية ، والفكرة والروية فيهما خفاء وغموض ؛ فكان استعارة الأودية لها أشبه وأليق .

والاستعارة فى القرآن قليلة ، لكن التشبيه المضمر الأداة كثير ، وكذلك هى فى فصيح الكلام من الرسائل والخطب والأشعار ؛ لأن طىّ المستعار له لا يتيسر

فى كل كلام ، وأما التشبيه المضمر الأداة فكثير سهل ؛ لمكان إظهار المشبه والمشبه به معاً .

ومما ورد من الاستعارة فى الأخبار النبوية قول النبى صلى الله عليه وسلم: « لَا تَسْتَضِيئُوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ » فاستعار النار للرأى والمشورة : أى لا تهتدوا برأى المشركين ولا تأخذوا بمشورتهم .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه دخل يوماً مُصَلَّاه فرأى أناساً كأنهم يكثرون ، فقال: « أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ أَكْثَرْتُمْ مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ لَشَغَلَكُمْ عَمَّا أَرَى » وهاذم اللذات أراد به الموت ، وهو مطوى الذكر .

وبلغنى عن العرب أنهم يقولون عند رؤية الهلال : لَا مَرْحَباً بِالُّلجَيْنِ مُقَرِّبُ أَجَلٍ وَمُحِلٍّ ، وهذا من باب الاستعارة فى طى ذكر المستعار له .

وكذلك بلغنى عن الحجاج بن يوسف أنه خطب خطبة عند قدومه العراق فى أول ولايته إياه ، والخطبة مشهوره ، من جملتها أنه قال : إنَّ أميرَ المؤمنين نَثَلَ كنانَتَهُ وعَجَمَها عُوداً عُوداً ، فرآنى أصْلَبَها نِجاراً وأَقْوَمَها عُوداً وأنْفَذَها نَصْلاً ، فقوله « نثل كنانته وعجمها عوداً عوداً » يريد أنه عَرَضَ رجاله واختبرهم واحداً واحداً جد اختباره[1] فرآنى أشدهم وأمضاهم ، وهذا من الاستعارة الحسنة الفائقة .

وقد جاءنى من الاستعارة فى رسائلى ما أذكر شيئاً منه ، ولو مثالا واحدا ، وذلك أنه سألنى بعض الأصدقاء أن أصف له غلامين تركيين كان يهواهما ، وكان أحدهما يلبس قباء أحمر ، والآخر قباء أسود ، فقلت : إذا تشَعَّبَتْ أسبابُ الهوى كانت لسره أظهر ، وأضحت أمْرَاضُهُ خطرا كلها ولا يقال فى أحدها هذا أخطر ، وقد هويت بدرين على غصنين ، ولا طَاقَةَ للقلب بهوى واحد فكيف إذا حمل هوى اثنين ، ومما شجانى أنهما يتلونان فى أصباغ الثياب ، كما يتلونان فى

(١) فى ا ، ب ، ج « حد اختباره » بالحاء المهملة .

فنون التجرم والعتاب ، وقد استجدا الآن زيا لامزيد على حسنهما فى حسنه ، فهذا يخرج فى ثوب من حمرة خده وهذا فى ثوب من سواد جفنه ، وما أدرى من دلّهما على هذا العجيب ، غير أنه ليس على فتنة المحب أهدى من حبيب .

وهذا الفصل بجملته مما تواصفه الناس وأغروا بحفظه .

وأما ماورد من ذلك شعراً فكقول مسكين الدارمى من شعراء الحماسه (١) :

لِحَافِى لِحَافُ الضَّيْفِ وَالْبَيْتُ بَيْتُهُ ... وَلَمْ يُلْهِنِى عَنْهُ غَزَالٌ مُقَنَّعُ

أُحَدِّثُهُ ؛ إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقِرَى ... وَتَعْلَمُ نَفْسِى أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ

فالغزال المقنع هنا استعارة للمرأة الحسناء .

وكذا ورد قول رجل من بنى يسار فى كتاب الحماسة أيضاً (٢) :

أَقُولُ لِنَفْسِى حِينَ خَوَّدَ رَأْلُهَا ... رُوَيْدَكِ لَمَّا تُشْفِقِى حِينَ مُشْفَقِ (٣)

رُوَيْدَكِ حَتَّى تَنْظُرِى عَمَّ تَنْجَلِى ... عَمَايَةُ هٰذَا الْعَارِضِ الْمُتَأَلِّقِ (٤)

فالعارض المتألق : استعارة للحرب ، أوالذى أطل بمكروهه كالبارق المتألق .

ويحكى أن امرأة وقفت لعبد الملك بن مروان وهو سائر إلى قتال مُصْعَب

---

(١) البيتان نسبهما أبو تمام فى الحماسة لعتبة بن بجير ، لكن قال التبريزى « ويقال إنهما لمسكين الدارمى » انظر شرح التبريزى (١ – ٢٤٣) .

(٢) البيتان نسبهما أبو تمام لرجل من بنى أسد ، يقولهما فى يوم اليمامة ، وقد تقدم ذكرهما فى هذا الجزء (ص ٢٨٢) .

(٣) وقع هذا البيت محرفا فى ا ، ب ، ج ههنا ، فورد فيها هكذا :

أَقُولُ لِنَفْسِى حِينَ حقّ زوالها ... رُوَيْدَكِ لَمَّا تشتق حين مشفق

مع أنه ورد فى الموضع الذى أشرنا إليه من هذا الجزء صحيحا فيها .

(٤) ورد فى ا ، ب ، ج هنا « غمامة هذا العارض المتألق » وورد فى الموضع السابق فيها « غيابة هذا العارض » وما أثبتناه ههنا عن الحماسة .

ابن الزبير ، فقالت : يا أمير المؤمنين ؛ فقال : رويدك حتى تنظرى عمَّ تنجلى ، وأنشد البيت .

ومن هذا الباب قول عبد السلام بن رَغْبان (١) المعروف بديك الجن :

لَمَّا نَظَرْتَ إلَىَّ عَنْ حَدَقِ المَهَا وَبَسَمْتَ عَنْ مُتَفَتِّحِ النُّوَّارِ
وَعقَدْتَ بَيْنَ قَضِيبِ بَانٍ أَهْيَفٍ وَكَثِيبِ رَمْلٍ عُقْدَةَ الزُّنَّارِ
عَفَّرْتُ خَدِّى فى الثَّرَى لَكَ طَائِعاً وَعَزَمْتُ فِيكَ عَلَى دُخُولِ النَّارِ

وهذه الأبيات لا تجد لها فى الحسن شريكاً ، ولأن يسمى قائلها شحرورا أولى من أن يسمى ديكاً .

وكذلك ورد قوله :

لَا وَمَكَانِ الصَّلِيبِ فِي النَّحْرِ مِنْـــكَ وَمَجْرَى الزُّنَّارِ فِي الْخَصْرِ
وَالْخَالِ فِي الْخَدِّ إذْ أُشَــبِّهُهُ وَرْدَةُ مِسْـــكٍ عَلَى ثَرَى تِبْرِ
وَحَاجِبٍ مُذْ خَطَّهُ قَلَمُ الْـــحُسْنِ بِحِبْرِ الْبَهَـــاءِ لَا الْحِبْرِ
وَأُقْحُوَانٍ بِفِيــــكَ مُنْتَظِمٍ عَلَى شَــبِيهٍ مِنْ رَائِقِ الْخَمْرِ

فالبيت الرابع هو المخصوص بالاستعارة ، والمستعار له هو الثغر والريق .

ومما ورد لأبى تمام فى هذا المعنى قوله(٢) :

لَمَّا غدَا مُظْلِمَ الْأَحْشَاءِ مِنْ أَشَرٍ أَسْكَنْتَ جَانِحَتَيْهِ كَوْكَبًا يَقِدُ

فالكوكب : استعارة للرمح .

---

(١) وقع فى ا ، ب ، ج «بن رعبان» بالعين المهملة فى اسم أبيه (انظر ص ١١٤ هـ ١ ، وص ٣٠٠ هـ ٢ من هذا الجزء) .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الطائى ، وأولها قوله :

يَابُعْدَ غَايَةِ دَمْعِ الْعَيْنِ إنْ بَعُدُوا هِىَ الصَّبَابَةُ طُولَ الدَّهْرِ وَالسُّهُدُ

وكذلك ورد قوله فى الاعتذار(١) :

أسرى طريداً لِلحَياءِ مِنَ الّتِى زَعمُوا وَليْسَ لِرَهْبَةٍ بِطَرِيدِ
وَغداً تبيَّنُ مَابَرَاءَةَ سَاحَتِى لَوْ قدْ نفضْتَ تهائِمِى وَنجُودِى

والتهائم والنجود : هما استعارة مما استعاره من باطن أمره وظاهره .

وكذلك ورد قوله(٢) :

كمْ أحْرَزَتْ قُضُبُ الهِنْدِيّ مُصْلَتَةً تهْتَزُّ مِنْ قُضُبٍ تهْتَزُّ فى كُثُبِ

فالقضُب والكُثُب : استعارة للقدود والأرداف .

وكذلك ورد فى هذه القصيدة أيضاً عند ذكر ملك الروم وانهزامه لما فتحت مدينة عمُّورية ، فقال :

إنْ يَعْدُ مِنْ حَرِّهَا عَدْوَ الظَّلِيمِ فَقَدْ أوْسَعْتَ جَاحِمَهَا مِنْ كَثْرَةِ الحَطَبِ

فالحطب : استعارة للقتلى

وقبل هذا البيت مايدل عليه ؛ لأنه قال :

أَلْذِى قَرَابِينَهُ صَرْفَ الرَّدَى وَمَضَى يَحْتَثُّ أنْجَى مَطَايَاهُ مِنَ الهَرَبِ
مُوَكَّلاً بِيفَاعِ الأَرْضِ يُشْرِفُهَا مِنْ خِفَّةِ الْخَوْفِ لاَمِنْ خِفَّةِ الطَّرَبِ
إن يعد من حرها عدو الظليم ... البيت

(١) من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن أبى دواد ، ويستشفع له بخالد بن يزيد ، وأولها قوله :

أرأَيْتَ أىّ سَوَالِفٍ وَخُدُودِ عَنَّتْ لنَا بَيْنَ اللّوَى فزَرُودِ

(٢) من قصيدته المشهورة التى يمدح فيها المعتصم بعد فتح عمورية ، وأولها قوله :

السَّيْفُ أصْدَقُ إنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ فِى حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ

وأحسن من هذا كله قوله[١] :

تُطِلُّ الطلولُ الدَّمعَ فى كُلِّ مَنْزِلٍ ... وَتَمْثُلُ بِالصَّبْرِ الدِّيارُ المَوَاثِلُ

دَوَارِسُ لَمْ يَجْفُ الرَّبِيعُ رُبُوعَهَا ... وَلاَ مَرَّ فى أَغْفالِهَا وَهْوَ غَافِلُ

يُعَفِّينَ مِنْ زَادِ الْعُفَاةِ إِذَا انْتَحَى ... عَلَى الْحَىِّ صِرْفُ الأَزْمَةِ المُتَحامِلُ،[٢]

فقوله «زاد العفاة» : استعارة طوى فيها ذكر المستعار له ، وهو أهل الديار ، كأنه قال : يعفين من قوم هم زاد العفاة .

وله فى الغزل من الأستعارة مابلغ به غاية اللطافة والرقة ، وذلك فى قصيدته التى مطلعها :

* إِنَّ عَهْدًا لَوْ تَعْلَمَانِ ذَمِيماً[٣] *

فقال :

قَدْ مَرَرْنَا بِالدَّارِ وَهْىَ خَلاَءٌ ... فَبَكَيْنَا طُلُولَهَا وَالرُّسُومَا

وَسَأَلْنَا رُبُوعَها فَانْصَرَفْنَا ... بِسَقَامٍ وَمَا سَأَلْنَا حَكِيمَا[٤]

كُنْتُ أَرْعَى النُّجُومَ حَتَّى إِذَا مَا ... فَارَقُونِى أَمْسَيْتُ أَرْعَى النُّجُومَا[٥]

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن عبد الملك الزيات ، وأولها قوله :

مَتَى أَنْتَ عَنْ ذُهْلِيَّةِ الْحَىِّ ذَاهِلُ ... وَقَلْبُكَ مِنْهَا مُدَّةَ الدَّهْرِ آهِلُ

(٢) فى ا ، ب ، ج « ضرب الأزمة » وهو تحريف ، وتصويبه عن الديوان .

(٣) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد ، وعجزه قوله :

* أَنْ تَنَامَا عَنْ لَيْلَتِى أَوْ تُنِيمَا *

(٤) فى الديوان :

* بِشِفَاءٍ وَمَا سَأَلْنَا حَكِيمَا *

(٥) الذى فى الديوان :

كُنْتُ أَرْعَى الْبُدُورَ حَتَّى إِذَا مَا ... فَارَقُونِى أَمْسَيْتُ أَرْعَى النُّجُومَا

وروايةُ الديوان خير مما هنا .

والبيت الثالث هو المخصوص بالاستعارة .

وعلى هذا المنهاج ورد قول البحترى :

وَأَغَرَّ فى الزَّمَنِ الْبَهِيمِ مُحَجَّلٍ قَدْ رُحْتُ مِنْهُ عَلَى أَغَرَّ مُحَجَّلِ

والأغر المحجل الأول : هو الممدوح ، والأغر المحجل الثانى : هو الفرس الذى أعطاه إياه .

وكذلك ورد قوله(١) :

وَصَاعِقَةٍ فى كَفِّهِ تَنْكَفِى بِهَا عَلَى أَرْؤُسِ الْأَعْدَاءِ خَمْسُ سَحَائِبِ

وهذا من النمط العالى الذى شغلت براعة معناه وحسن سبكه عن النظر إلى استعارته ؛ والمراد بالسحائب الخمس الأصابع .

وكذلك ورد فى أبيات الحماسة(٢) :

دَكَّ طَوْدَ الْكُفْرِ دَكًّا صَاعِقٌ مِنْ وَقْعِ سَيْفِكْ

أَرْسَلَتْهُ خَمْسُ سُحْبٍ نَشَأَتْ مِنْ بَحْرِ كَفِّكْ

وكذلك ورد قوله فى أبيات يصف فيها السيف :

حَمَلَتْ حَمَائِلُهُ الْقَدِيمَةُ بَقْلَةً مِنْ عَهْدِ عَادٍ غَضَّةً لَمْ تَذْبُلِ

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن يوسف ، وأولها قوله :

هَبِيهِ لِمُنْهَلِّ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ وَهَبَاتِ شَوْقٍ فِى حَشَاهُ لَوَاعِبِ

(٢) هذان البيتان ليسا من شعر الحماسة الذى اختاره أبو تمام حبيب بن أوس الطائى ، وقد يفهم من كلام المؤلف أنها منه ؛ فقد اشتهر على ألسنة العلماء والأدباء أنهم يقولون « قال الحماسى » أو « وفى شعر الحماسة » فينصرف ذلك إلى أنه من ديوان الحماسة .

وهذا من الحسن على ما يشهد لنفسه ، كأنه قال : حمات حمائله سيفاً أخضر الحديد كالبقلة .

وعلى هذا الأسلوب ورد قول أبى الطيب المتنبى (١) :

فى الْخَدِّ إنْ عَزَمَ الْخَلِيطُ رَحِيلاَ مَطَرٌ تَزِيدُ بِهِ الْخُدُودُ مُحُولاَ (٢)

وكذلك ورد قوله :

* يمد يديه فى المفاضة ضيغم *

وأحسن من هذا قوله فى قصيدته التى مطلعها :

* عُقْبَى الْيَمِينِ عَلَى عُقْبَى الْوَغَى نَدَمُ (٣) *

وَأَصْبَحَتْ بِقُرَى هِنْزِيطَ جَائِلَةً تَرْعَى الظُّبَى فى خَصِيبٍ نَبْتُهُ اللِّمَمُ (٤)

---

(١) هذا مطلع قصيدة له يمدح فيها بدر بن عمار .

(٢) الخليط فى الأصل : الذى يعاشرك ، وأراد ههنا الحبيب ، ومحول الخدود : ذهاب نضرتها وشحوبها . وقد نظر أبو الطيب فى هذا إلى قول الشاعر :

لَوْ نَبَتَ الْعُشْبُ مِنْ دُمُوعٍ لَكَانَ فِى خَدِّىَ الرَّبِيعُ

(٣) هذا صدر المطلع وعجزه قوله :

* مَاذَا يَزِيدُكَ فِى إقْدَامِكَ الْقَسَمُ *

وهى قصيدة يمدح فيها سيف الدولة ، ويعرض بابن شمشقيق بطريق الروم ؛ وكان قد حلف لملك الروم أن يلقى سيف الدولة فى بطارقته ، ففعل ، فخيب الله ظنه ، وأتعس جده .

(٤) هنزيط : بلد من بلاد الروم ، والظبى : جمع ظبة ، وهى حد السيف ؛ والخصيب : المكان الكثير النبات ، واللمم : جمع لمة ، وهى ما ألم وأحاط بالمنكب من شعر الرأس ، يريد أن خيل سيف الدولة أصبحت فى هذا المكان تجول للقتل والغارة والسيوف ترعى فى مكان خصيب من رءوسهم إلا أن نبته الشعر .

فَمَا تَرَكْنَ بِهَا خُلْدًا لَهُ بَصَرٌ ... تَحْتَ التُّرَابِ وَلَا بَازًا لَهُ قَدَمُ (١)
وَلَا هِزَبْرًا لَهُ مِنْ دِرْعِهِ لِبَدٌ ... وَلَا مَهَاةً لَهَا مِنْ شِبْهِهَا حَشَمُ (٢)

وهذا من المليح النادر ؛ فالخلد : استعارة لمن اختفى تحت التراب خائفاً ، والباز : استعارة لمن طار هاربا ، والهزبر والمهاة : استعارتان للرجال المقاتلة والنساء من السبايا .

ومن هذا الباب قوله (٣) :

كُلُّ جَرِيحٍ تُرْجَى سَلَامَتُهُ ... إِلَّا جَرِيحًا دَهَتْهُ عَيْنَاهَا (٤)
تَبُلُّ خَدَّيَّ كُلَّمَا ابْتَسَمَتْ ... مِنْ مَطَرٍ بَرْقُهُ ثَنَايَاهَا (٥)

والبيت الثانى من الأبيات الحسان التى تتواصف ، وقد حسن الاستعارة التى فيه أنه جاء ذكر المطر مع البرق .

---

(١) الخلد : ضرب من الفأر ليست له عيون ، يريد أن الروم كانوا قسمين: أحدهما دخلوا الأسراب والمطامير ، شأنهم فى ذلك شأن الفأر إذا فزعت من شىء انطلقت هاربة إلى جحرها ، والثانى الذين صعدوا إلى الجبال يعتصمون بها ، شأنهم فى ذلك شأن البازى الذى يطير عن الأرض عاليا .

(٢) الهزبر فى الأصل : الأسد ، واللبد : جمع لبدة ، وهى الشعر الذى على كتفى الأسد ، والمهاة فى الأصل : بقرة الوحش ، والحشم : الخدم ، وهم حاشية العظيم من الناس ؛ يريد أن سيوف سيف الدولة لم تترك فارسا من فرسان أعدائه الا جندلته ، ولا امرأة جميلة من ذوات الحشم واليسار الا أوقعوها فى أسرهم .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها عضد الدولة أبا شجاع فنا خسرو ، وأولها قوله :

أَوْهِ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي وَاهَا ... لِمَنْ نَأَتْ وَالْبَدِيلُ ذِكْرَاهَا

(٤) يريد أن من أصابته هذه الحسناء الفاتنة بعينها لم ترج له السلامة من دائه .

(٥) عبارة ابن جنى كما نقلها الواحدى عنه فى شرح هذا البيت «دل بهذا البيت على أنها كانت متكئة عليه وعلى غاية القرب منه » اه . وقال ابن فورجة : «أظنها وقعت عليه تبكى فوقع دمعها عليه » اه .

وبلغني عن أبي الفتح بن جني رحمه الله أنه شرح ذلك في كتابه الموسوم بالمفسر الذي ألفه في شرح شعر أبي الطيب ؛ فقال : إنها كانت تبزق في وجهه؛ نظن أن أبا الطيب أراد أنها كانت تبسم فيخرج الريق من فمها ويقع على وجهه فشبهه بالمطر ، وما كنت أظن أن أحداً من الناس يذهب وهمه وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره ، وإذا كان هذا قول إمام مِنْ أئمة العربية تُشَدُّ إليه الرحال فما يقال في غيره ؟ لكن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والإعراب .

وكذلك ورد قول الشريف الرضى (١) :

إذَا أَنْتَ أَفْنَيْتَ الْعَرَانِينَ وَالْذُرَى ... رَمَتْكَ اللَّيَالِي مِنْ يَدِ الْخَامِلِ الْغَمْرِ
وَهَبْكَ اتقيْتَ السَّهْمَ مِنْ حَيْثُ يُتَّقَى ... فَمَنْ لِيَدٍ تَرْمِيكَ مِنْ حَيْثُ لاَتَدْرِي

فالعَرانين والذرى : هما عظماء الناس وأشرافهم ، كأنه قال : إذا أفنيت عظماء الناس رُمِيتَ من يد الخامل .

وإذ قد بينت أن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يُطْوى ذكر المستعار له فإنها لاتجيء إلا ملائمة مناسبة ، ولا يوجد فيها مباينة ولا تباعد ؛ لأنها لاتذكر مَطْوِيَّةً إلا لبيان المناسبة بين المستعار منه والمستعار له ، ولو طويت ولم يكن هناك مناسبة بين المستعار منه والمستعار له لعسر فهمها ، ولم يبن المراد منها .

ورأيت أبا محمد عبد الله بن سنان الخفاجي رحمه الله تعالى قد خلط الاستعارة

---

(١) البيتان من كلة له عدتها سبعة أبيات (الديوان: ١ - ٤٠٧) وقبلهما قوله :

تَجَافَ عَنِ الْأَعْدَاءِ بُقْيَا فَرُبَّمَا ... كُفِيتَ وَلَمْ تُعْقَرْ بِنَابٍ وَلاَ ظُفْرِ
وَلاَ تَبْرِ مِنْهُمْ كُلَّ عُودٍ تَخَافُهُ ... فإِنَّ الْأَعَادِي يَنْبُتُونَ مَعَ الدَّهْرِ
إذَا شِئْتَ أَنْ تَبْقَى خَلِيًّا مِنَ الْعِدَى ... فَعِشْ عَيْشَ خَالٍ مِنْ عَلاَءٍ وَمِنْ وَفْرِ

بالتشبيه المضمر الأداة ، ولم يفرق بينهما ، وتأسّى فى ذلك بغيره من علماء البيان، كأبى هلال العسكرى والغانمى وأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، على أن أبا القاسم بن بشر الآمدى كان أثْبَتَ القومِ قدمًا فى فن الفصاحة والبلاغة ، وكتابه المسمى بـ«الموازنة بين شعر الطائيين » يشهد له بذلك ، وما أعلم كيف خفى عليه الفرق بين الاستعارة والتشبيه المضمر الأداة .

ومما أورده ابن سنان فى كتابه الموسوم بـ« سر الفصاحة(١) » قول امرئ القيس فى صفة الليل :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمطَّى بِصُلْبِهِ ... وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ(٢)

وهذا البيت من التشبيه المضمر الأداة ؛ لأن المستعار له مذكور ، وهوالليل، وعلى الخطأ فى خَلْطه بالاستعارة فإن ابن سنان أخطأ فى الرد على الآمدى ، ولم يوفق للصواب ، وأنا أتكلم على ماذكره ولا أضايقه فى الاستعارة والتشبيه ، بل أنزل معه على مارآه من أنه استعارة ، ثم أبين فساد ماذهب إليه .

وذاك أن الآمدى قال فى كتاب الموازنة(٣) : « إن امرأ القيس وصف أحوال

---

(١) انظر سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى (ص ١١٤) .

(٢) البيت فى وصف الليل من معلقة امرئ القيس ، وقبله قوله :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ ... عَلَىَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِى

وقد وقع فى ا ، ب ، ج « وماء بكلكل » بالميم ، وهو تحريف غريب مع شهرة البيت ، ومع قول المؤلف فيما نقله عن الآمدى « واستعار له اسم الكلكل وجعله نائيا لتثاقله » .

(٣) قد تصرف المؤلف فى عبارة الآمدى ، ونحن ننقلها لك عن كتاب الموازنة بحروفها؛ لتكون فيصلا بين الرجال الثلاثة فيما اختلفوا فيه ؛ قال(ص ١٠٨ الجوائب عام ١٢٨٧) : « وقد عاب امرأ القيس بهذا المعنى من لم يعرف موضوعات المعانى ولا المجازات ، وهو فى غاية الحسن والجودة والصحة، وهو إنما قصد وصف أجزاء الليل

الليل الطويل ، فذكر امتداد وسطه ، وتثاقل صدره ، وتَرَادُفَ أعجازه ، فلما جعل له وسطا ممتدا وصدرا ثقيلا وأعجازا رادفة لوسطه استعار له اسْمَ الصُّلْبِ ، وجعله متمطيا من أجل امتداده ، واسْمَ الْكَلْكَل وجعله نائيا لتثاقله ، واسْمَ العجز من أجل نهوضه » .

فقال ابن سنان الخفاجي معترضا عليه[1] : « إن هذا الذى ذكره الآمدى ليس بمرضى غاية الرضا ؛ وإن بيت امرىء القيس ليس من الاستعارة الجيدة ، ولا الرديئة ، بل هو وسط ؛ فإن الآمدى قد أفصح بأن أمرأ القيس لما جعل لليل[2] وَسَطا ممتدا استعار له اسم الصُّلْب وجعله متمطِّيا من أجل امتداده ، وحيث

الطويل ، فذكر امتداد وسطه ، وتثاقل صدره للذهاب والانبعاث ، وترادف أعجازه وأواخره شيئا فشيئا ؛ وهذا عندى منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته ، وذلك أشدّ ما يكون على من يراعيه ويترقب تصرمه ؛ فلما جعل له وسطا يمتد ، وأعجازا رادفة للوسط ، وصدرا متثاقلا فى نهوضه ؛ حسن أن يستعير للوسط اسم الصلب ، وجعله متمطيا من أجل امتداده ؛ لأن تمطى وتمدّد بمنزلة واحدة ؛ وصلح أن يستعير للصدر اسم الكلكل من أجل نهوضه ؛ وهذه أقرب الاستعارات من الحقيقة ، وأشدّ ملاءمة لما استعيرت له ، وكذلك قول زهير :

* وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصِّبَا وَرَوَاحِلُهْ *

لما كان من شأن ذى الصبا أن يوصف أبدا بأن يقال : ركب جواده ، وجرى فى ميدانه ، وجمح فى عنانه ، ونحو هذا ؛ حسن أن يستعار للصبا اسم الأفراس ، وأن يجعل النزوع عنه أن تعرى أفراسه ورواحله ، وكانت هذه الاستعارة أيضا من أليق شىء بما استعيرت له » اﻫ .

(١) انظر سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى (ص ١١٤) .

(٢) فى ا ، ب ، ج « لما جعل الليل وسطا » وهو تحريف بزيادة الألف ، وصوابه عن سر الفصاحة فى الموضع المشار إليه .

جعل له آخراً وأوّلا استعار له عجزاً وكلكلا ، وهذا كله إنما يحسن بعضه مع بعض ؛ فذكر الصلب إنما يحسن من أجل العجز والوسط ، والتمطّى من أجل الصلب ، والكلكل لمجموع ذلك ، وهذه استعارة مبنية على استعارة أخرى » .

هذا حكاية كلامه فى الاعتراض على الآمدى .

وفيه نظر من وجهين :

الأول : أنه قال « هذا بيت من الاستعارة الوسطى التى ليست بجيدة ولا رديئة » ثم جعلها استعارة مبنية على استعارة أخرى ، وعنده أن الاستعارة المبنية على الاستعارة من أبعد الاستعارات ، وذاك أنه قسّم الاستعارة إلى قسمين : قريب مختار ، وبعيد مُطَّرَحٌ ، فالقريب المختار : ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوى وشبه واضح ، والبعيد المطَّرح : إما أن يكون لبعده مما استعير له فى الأصل ، أو لأنه استعارة مبنية على استعارة أخرى ؛ فيضعف لذلك ؛ هذا ماذكره ابن سنان الخفاجى فى تقسيم الاستعارة ، وإذا كانت الاستعارة المبنية على استعارة أخرى عنده بعيدةً مطَّرَحَةً فكيف جعلها وسطا ؟ هذا تناقض فى القول .

الوجه الثانى : أنه لم يأخذ على الآمدى فى موضع الأخذ ؛ لأنه لم يختر إلا ما حسن اختياره ، وذاك أن حَدَّ الاستعارة على ماراه الآمدى وابن سنان هو نقل المعنى من لفظ إلى لفظ بسبب مشاركة بينهما ، وإن كان المذهب الصحيح فى حد الاستعارة غير ذلك ، على ماتقدم الكلام عليه ، ولكنى فى هذا الموضع أنزل معهما على ما رأياه حتى يتوجّه الكلام على الحكم بينهما فى بيت امرىء القيس ، وإذ حَدَدنا الاستعارة بهذا الحدّ فبه يفرق على رأى ابن سنان بين الاستعارة المرضية والاستعارة المطرحة ؛ فإذا وجدنا استعارة فى كلام ما عرضناها على هذا الحد ؛ فما وجدنا فيه مناسبة بين المنقول عنه والمنقول إليه حكمنا له

بالجودة ، وما لم نجد فيه تلك المناسبة حكمنا عليه بالرداءة ، و بيت امرىء القيس من الاستعارات المرضية ؛ لأنه لو لم يكن لليل صدر أعنى أوّلاً ولم يكن له وسط وآخر لما حسنت هذه الاستعارة ، ولمّا كان الأمر كذلك استعار لوسطه صُلْبا وجعله متمطّيا واستعار لصدره المتثاقل ـ أعنى أوّله ـ كَلْكَلاً وجعله نائيا ، واستعار لآخره عَجُزًا وجعله رَادِفاً لوسطه ؛ وكل ذلك من الاستعارة المناسبة .

وأما قول ابن سنان الخفاجى « إن الاستعاره المبنية على استعارة أُخرى بعيدة مطرحة » فإن فى هذا القول نظراً ، وذاك أنه قد ثبت لنا أصلٌ نقيسُ عليه فى الفرق بين الاستعارة المرضية والمطّرحة ، كما أريناك ، ولا يمنع ذلك من أن تجىء استعارة مبنية على استعارة أخرى وتوجد فيها المناسبة المطلوبة فى الاستعارة المرضية فإنه قد ورد فى القرآن الكريم ماهو من هذا الجنس ، وهو قوله تعالى : (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ) ؛ فهذه ثلاث استعارات ينبنى بعضها على بعض ؛ فالأولى استعارة القرية للأهل ، والثانية استعارة الذَّوْق للباس ، والثالثة استعارة اللباس للجوع والخوف ، وهذه الاستعارات الثلاث من التناسب على مالا خفاء به ، فكيف يذُمُّ ابن سنان الخفاجى الاستعارةَ المبنية على استعارة أخرى ؟ وما أقول إن ذلك شذ عنه ، إلا لأنه لم ينظر إلى الأصل المقيس عليه ، وهو التناسب بين المنقول عنه والمنقول إليه ، بل نظر إلى التقسيم الذى هو قسّمه فى القرب أو البعد ، ورأى أن الاستعارة المبنية على استعارة أخرى تكون بعيدة ، فحكم عليها بالاطراح ، و إذا كان الأصل إنما هو التناسب فلا فرق بين أن يوجد فى استعارة واحدة أو فى استعارة مبنية على استعارة ، ولهذا أشباه ونظائر فى غير الاستعارة ، ألا ترى أن المنطقىّ يقول فى المقدمة والنتيجة : كل إنسان حيوان ، وكل حيوان نام ، فكل

إنسان نام ، وكذلك يقول المهندس فى الأشكال الهندسية : إذا كان خط اب مثل خط بج ، وخط بج مثل خط جد ؛ فخط اب مثل خط جد ، وهكذا أقول أنا فى الاستعارة : إذا كانت الاستعارة الأولى مناسبة ثم بنى عليها استعارة ثانية وكانت أيضاً مناسبة فالجميع متناسب ، وهذا أمر برهانى لا يتصور إنكاره .

وهذا الكلام الذى أوردته ههنا هو اعتراض على ماذكره ابن سنان الخفاجى فى الاستعارة ، فلا تظن أنى موافقه فى الأصل ، وإنما وافقته قصداً لتبيين وجه الخطأ فى كلامه ، وكيف يسوغ لى موافقته ، وقد ثبت عندى بالدليل أن الاستعارة لاتكون إلا بحيث يُطوَى ذكر المستعار له ؟.

وفيما قدمته من الكلام كفاية .

النوع الثانى

فى التشبيه

وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه والتمثيل ، وجعلوا لهذا باباً مفرداً ، ولهذا باباً مفرداً ، وهما شىء واحد لا فرق بينهما فى أصل الوضع ، يقال : شبهت هذا الشىء بهذا الشىء ، كما يقال : مثلته به ، وما أعلم كيف خفى ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه . وكنت قدمت القول فى باب الاستعارة على الفرق بين التشبيه وبينها ، ولا حاجة إلى إعادته ههنا مرة ثانية .

والتشبيه ينقسم قسمين : مظهر ، ومضمر ، وفى المضمر إشكال فى تقدير أداة التشبيه فيه فى بعض المواضع .

وهو ينقسم أقساما خمسة ؛ فالأول : يقع موقع المبتدأ والخبر مفردين ، والثانى : يقع موقع المبتدأ المفرد وخبره جملة مركبة من مضاف ومضاف إليه ، والثالث :

يقع موقع المبتدأ والخبر جملتين ، والرابع : يرد على وجه الفعل والفاعل ، والخامس يرد على وجه المثل المضروب .

وهذان القسمان الأخيران هما أشكل الأقسام الخمسة فى تقدير أداة التشبيه .

أما الأول فكقولنا : زيد أسد ؛ فهذا مبتدأ وخبره ، وإذا قدرت أداة التشبيه فيه كان ذلك ببديهة النظر على الفور ، فقيل : زيد كالأسد .

وأما القسم الثانى والثالث فإنهما متوسطان فى تقدير أداة التشبيه فيهما ؛ فالثانى كقول النبى صلى الله عليه وسلم : « اَلْكَمْأَةُ جُدَرِىُّ الْأَرْضِ » وهذا يتنوع نوعين ، فإذا كان المضاف إليه معرفة كهذا الخبر النبوىّ لا يحتاج فى تقدير أداة التشبيه إلى تقديم المضاف إليه ، بل إن شئنا قدمناه ، وإن شئنا أخرناه ، فقلنا : الكمأة للأرض كالجدرى ، أو الكمأة كالجدرى للأرض ، وإذا كان المضاف إليه نكرة فلا بد من تقديمه عند تقدير أداة التشبيه .

فمن ذلك قول البحترى[1] :

غَمَامُ سَمَاحٍ لَا يَغِبُّ لَهُ حَيًا وَمِسْعَرُ حَرْبٍ لَا يَضِيعُ لَهُ وِتْرُ[2]

فإذا قدرنا أداة التشبيه هٰهنا قلنا : سماح كالغمام : ولا يقدر إلا هكذا ، والمبتدأ فى هذا البيت محذوف ، وهو الإشارة إلى الممدوح ، كأنه قال : هو غمام سماح .

ومن هذا النوع مايشكل تقدير أداة التشبيه فيه على غير العارف بهذا الفن ؛

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين المتوكل على الله ، وأولها قوله :

مَتَى لَاحَ بَرْقٌ أَوْ بَدَا طَلَلٌ قَفْرٌ جَرَى مُسْتَهِلٌّ لَا بَكِىءٌ وَلَا نَزْرُ

انظر الديوان (١ - ٢١٧ مصر) .

(٢) فى ا ، ب ، ج «غمام سحاب لايغب» وهو تحريف ، وما أثبتناه عن الديوان والمعنى أن جدواه لاتتأخر على العافين ، بل هى دائمة عليهم .

كقول أبي تمام(١) :

أيُّ مَرْعَى عَيْنٍ وَوَادِي نَسِيبِ ... لحبتْهُ الْأَيَّامُ فِي مَلْحُـــوبِ

ومراد أبي تمام أن يصف هذا المكان بأنه كان حسناً ثم زال عنه حسنه ، فقال : إن العين كانت تلتذ بالنظر إليه كالتذاذ السائمة بالمرعى ؛ فإنه كان يشبب به فى الأشعار لحسنه وطيبه ، و إذا قدرنا أداة التشبيه هٰهنا قلنا : كأنه كان للعين مرعًى وللنسيب منزلاً ومألفاً .

و إذا جاء شيء من الأبيات الشعرية على هذا الأسلوب أو مايجرى مجراه فإنه يحتاج إلى عارف بوضع أداة التشبيه فيه .

وأما الثالث فكقول النبي صلى الله عليه وسلم : « وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ » كأنه قال : كلام الألسنة كحصائد الْمَناجِل .

وهذا القسم لايكون المشبه به مذكوراً فيه ، بل تذكر صفته ، ألا ترى أن الْمِنْجَل لم يذكر هٰهنا ، و إنما ذكرت صفته ، وهى الحصد ؛ وكل مايجيء من هذا القسم فإنه لايرد إلا كذلك .

وأما القسم الرابع والخامس اللذان هما أشكل الأقسام المذكورة فى تقدير أداة التشبيه فيهما فإنهما لايتفطن لهما أنهما تشبيه .

فما جاء من القسم الرابع قوله تعالى : (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ

(١) هذا مطلع قصيدة له يمدح فيها سليمان بن وهب ، و بعده قوله :

مَلَكتْهُ الصَّبَا الْوَلُوعُ فَأَلْقَتْـــهُ قَعُودَ الْبِلَى وَسُـــؤْرَ الْخُطُوبِ

نَدَّ عَنْكَ الْعَزَاءُ فِيهِ فَقَادَ الدَّ ... مْعَ مِنْ مُقْلَتَيْكَ قَوْدَ الجَنِيبِ

انظر الديوان (ص ٣٦ بيروت) .

قَبْلِهِمْ) وتقدير أداة التشبيه فى هذا الموضع أن يقال : هم فى إيمانهم كالمتبوئ داراً : أى أنهم قد اتخذوا الإيمان مسكناً يسكنونه ، يصف بذلك تمكنهم منه .

وعلى هذا ورد قول أبى تمام (١) :

نَطَقَتْ مُقْلَةُ الْفَتَى الْمَلْهُوفِ فَتَشَكَّتْ بِفَيْضِ دَمْعٍ ذَرُوفِ

وإذا أردنا أن نقدر أداة التشبيه هٰهنا قلنا : دمع العين كنطق اللسان ، أو قلنا : العين الباكية كأنما تنطق بما فى الضمير .

وأما ماجاء من القسم الخامس فكقول الفرزدق يهجو جريراً (٢) :

مَاضَرَّ تَغْلِبَ وَائِلٍ أَهَجَوْتَهَا أَمْ بُلْتَ حَيْثُ تَنَاطَحَ الْبَحْرَانِ

فشبه هجاء جرير تغلب وائل ببوله فى مجمع البحرين ، فكما أن البول فى مجمع البحرين لايؤثر شيئاً فكذلك هجاؤك هؤلاء القوم لايؤثر شيئاً ، وهذا البيت من الأبيات الذى أقرَّ له الناس بالحسن (٣) .

---

(١) هذا مطلع كلمة له يعاتب فيها أبا سعيد ، و بعده قوله :

تَرْجَمَ الدَّمْعُ فى صَحَائِفِ خَدَّيْـــهِ سُطُوراً مُؤَلَّفَاتِ الحُرُوفِ

فَلَئِنْ شَطَّتِ الدِّيَارُ وَغَالَ الدَّ هْـــرُ فى آلِفٍ وَفِى مَأْلُوفِ

وَتَبَدَّلْتُ بِالْبَشَاشَــةِ حُزْناً بَعْدَ لَهْوٍ فى مَرْبَعٍ وَمَصِــيفِ

فَعَزَائِى بِأَنَّ عِرْضِى مَصُـــونٌ سَائِغُ الوِرْدِ ، وَالسَّمَاحَ حَلِيفِى

انظر الديوان (ص ٤٠٤ بيروت) .

(٢) هذا هو البيت الثانى من قصيدة له طويلة يهجو فيها جريرا و يمدح بنى تغلب ويذكر تفضيل الأخطل إياه ، والبيت الأول قوله :

يَابْنَ المَرَاغَةِ وَالْهِجَاء إِذَا الْتَقَتْ أَعْنَاقُهُ وَتَمَاحَكَ الْخَصْمَانِ

و بعده البيت الذى أنشده المؤلف ، و بعده قوله :

يَابْنَ المَرَاغَةِ إِنَّ تَغْلِبَ وَائِلٍ رَفَعُوا عِنَانِى فَوْقَ كُلِّ عِنَانِ

(٣) كذا فى ا ، ب ، ج ؛ والصواب أن يقال « وهذا البيت من الأبيات التى أقر الناس لها بالحسن » .

وكذلك ورد قوله أيضاً(١) :

قَوَارِصُ تَأْتِينِي وَتَحْتَقِرُونَهَا وَقَدْ يَمْلَأُ الْقَطْرُ الْإِنَاءَ فَيُفْعَمُ

فإنه شبه القوارص التي تأتيه محتقرة بالقطر الذي يملأ الإناء على صغر مقداره ، يشير بذلك إلى أن الكثرة تجعل الصغير من الأمر كبيراً .

وهذا الموضع يشكل على كثير من علماء البيان ويخلطونه بالاستعارة ، كقول البحتري في التعزية بولد(٢) :

تَعَزَّ فَإِنَّ السَّيْفَ يَمْضِي وَإِنْ وَهَتْ حَمَائِلُهُ عَنْهُ وَخَلَّاهُ قَائِمُهْ

وهذا ليس من التشبيه ، وإنما هو استعارة ؛ لأن المستعار له مطوى الذكر ، وهو المعزَّى ، كأنه قال : تعز فإنك كالسيف الذي يمضي وإن وهت حمائله وخلاه قائمه .

فإن قيل : إنك قدمت القول في باب الاستعارة بأن التشبيه المضمر الأداة يحسن تقدير أداة التشبيه فيه ، والاستعارة لا يحسن تقدير أداة التشبيه فيها ، وجعلت ذلك هو الفرق بين التشبيه المضمر الأداة وبين الاستعارة ، وقررت ذلك تقريراً طويلا عريضاً ، ثم نراك قد نقضته ههنا بقولك : إن من التشبيه المضمر

---

(١) لم أجد هذا البيت في شعر الفرزدق الذي بين يدي ، وهو في اللسان (ق ر ص) منسوبا للفرزدق .

(٢) هو من قصيدة يرثي فيها ابن أبي الحسن بن عبد الملك بن صالح الهاشمي ، وأولها قوله :

لِأَيَّةِ حالٍ أَعْلَنَ الْوَجْدَ كَاتِمُهْ وَأَقْصَرَ عَنْ دَاعِي الصَّبَابَةِ لَائِمُهْ

وقبل البيت الذي أنشده المؤلف قوله :

أَبَا حَسَنٍ ، وَالصَّبْرُ مَنْكِبُ مَنْ غَدَا عَلَى سَنَنٍ وَالْحَادِثَاتُ تُزَاحِمُهْ

وَلَوْلَا التُّقَى لَمْ يَرْدُدِ الدَّمْعَ رَبُّهُ وَلَوْلَا الْحِجَى لَمْ يَكْظِمِ الْغَيْظَ كَاظِمُهْ

الأداة ما يشكل تقدير أداة التشبيه فيه ، وإنه يحتاج فى تقديرها إلى نظر ، كهذين البيتين المذكورين للفرزدق وما يجرى مجراهما .

فالجواب عن ذلك أنى أقول : هذا الذى ذكرته لاينقض علىّ شيئاً مما قدّمت القول فيه فى باب الاستعارة ؛ لأنى قلت : إن التشبيه المضمر الأداة يحسن تقدير الأداة فيه : أى لا يتغير بتقديرها فيه عن صفته التى اتَّصَف بها من فصاحة و بلاغة ؛ وليس كذلك الاستعارة ؛ فإنها إذا قدرت أداة التشبيه فيها تغيرت عن صفتها التى اتصفت بها من فصاحة و بلاغة ، وأما الذى ورد ههنا من بيتى الفرزدق وما يجرى مجراهما من التشبيه المضمر الأداة فإن أداة التشبيه لا تتقدر فيه ، وهو على حالته من النظم ، حتى تتبين هل تغيرت صفته التى اتصف بها من فصاحة و بلاغة أم لا ، و إنما تتقدر أداة التشبيه فيه على وجه آخر ، وهذا لا ينقض ما أشرت إليه فى باب الاستعارة .

و إذا ثبتت هذه الأقسام الأربعة فأقول : إن التشبيه المضمر أبلغ من التشبيه المظهر وأوجز : أما كونه أبلغ فلجعل المشبه مُشَبها به من غير واسطة أداة ؛ فيكون هو إياه ؛ فإنك إذا قلت : زيد أسد ، كنت قد جعلته أسداً من غير إظهار أداة التشبيه ، وأما كونه أوجز فلحذف أداة التشبيه منه ، وعلى هذا فإن القسمين من المظهر والمضمر كليهما فى فضيلة البيان سواء ؛ فإن الغرض المقصود من قولنا « زيد أسد » أن يتبين حال زيد فى اتصافه بشهامة النفس وقوة البطش وجراءة الإقدام وغير ذلك مما يجرى مجراه ، إلا أنا لم نجد شيئاً ندلّ به عليه سوى أن جعلناه شبيهاً بالأسد ؛ حيث كانت هذه الصفات مختصة به ، فصار ماقصدناه من هذا القول أكشف وأبين من أن لو قلنا : زيد شهم شجاع قوى البطش جرىء الجنان ، وأشباه ذلك ، لما قد عرف وعهد من اجتماع هذه الصفات فى المشبه به ، أعنى الأسد ، وأما زيد الذى هو المشبه فليس معروفا بها و إن كانت موجودة فيه .

وكلا هذين القسمين أيضاً يختصّ بفضيلة الإيجاز ، وإن كان المضمر أوجز من المظهر ؛ لأن قولنا : زيد أسد ، أو كالأسد ، يسدُّ مسدَّ قولنا : زيد من حاله كيت وكيت ، وهو من الشجاعة والشدة على كذا وكذا ، مما يطول ذكره

فالتشبيه إذاً يجمع صفات ثلاثة ، هى : المبالغة ، والبيان ، والإيجاز ، كما أريتك ، إلا أنه من بين أنواع علم البيان مستوعر المذهب ، وهو مَقْتَل من مقاتل البلاغة ، وسبب ذلك أن حمل الشىء على الشىء بالمماثلة إما صورة وإما معنى يعز صوابه وتعسر الإجادة فيه ، وقلّما أكثر منه أحَدٌ إلا عثر ، كما فعل ابن المعتز من أدباء العراق ، وابن وكيع من أدباء مصر ؛ فإنهما أكثرا من ذلك لاسيما فى وصف الرياض والأشجار والأزهار والثمار ، لا جرم أنهما أتيا بالغث البارد الذى لايثبت على محكّ الصواب ؛ فعليك أن تتوقى ما أشرت إليه .

وأما فائدة التشبيه من الكلام فهى أنك إذا مثلت الشىء بالشىء فإنما تقصد به إثبات الخيال فى النفس بصورة المشبه به أو بمعناه ، وذلك أوكد فى طرفى الترغيب فيه ، أو التنفير عنه ، ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هى أحسن منها كان ذلك مثبتا فى النفس خيالاً حسنا يدعو إلى الترغيب فيها ، وكذلك إذا شبهتها بصورة شىء أقبح منها كان ذلك مثبتا فى النفس خيالاً قبيحا يدعو إلى التنفير عنها ، وهذا لا نزاع فيه .

ولنضرب له مثالا يوضحه فنقول : قد ورد عن ابن الرومى فى مدح العسل وذمه بيت من الشعر ، وهو :

تَقُولُ هٰذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ ... وَإِنْ تَعِبْ قُلْتَ ذَا قَىْءُ الزَّنَابِيرِ

ألا ترى كيف مدح وذم الشىء الواحد بتصريف التشبيه المجازى المضمر الأداة الذى خَيَّلَ به إلى السامع خيالا يحسن الشىء عنده تارة ويقبحه أخرى ،

ولولا التوصُّل بطريق التشبيه على هذا الوجه لمـا أمكنه ذلك ، وهذا المثال كاف فيما أردناه .

واعلم أن محاسن التشبيه أن يجىء مَصْدَرِيًّا ؛ كقولنا : أقدم إقْدَامَ الأسد، وفَاضَ فَيْضَ البحر ، وهو أحسن ما استعمل فى باب التشبيه ، كقول أبى نُوَاس فى وصف الخمر(١) :

وَإِذَا مَا مَزَجُوهَا وَثَبَتْ وَثْبَ الْجَرَادِ
وَإِذَا مَا شَرِبُوهَا أَخَذَتْ أَخْذَ الرُّقَادِ

وقيل : إن من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الشىء بمـا هو أكبر منه وأعظم ، ومن ههنا غلط بعض الكتاب من أهل مصر فى ذكر حصن من حصون الجبال مشبها له ؛ فقال : هَامَةٌ عليها من الغمامة عِمَامة ، وأنملة خَضَّبَهَا الأصيلُ فكان الهلال منها قُلَامَة ؛ وهذا الكاتب حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء ؛ فإنه أخطأ فى قوله « أنملة » وأى مقدار للأنملة بالنسبة إلى تشبيه حِصْنٍ على رأس جبل ؛ وأصاب فى المناسبة بين ذكر الأنملة والقُلَامة وتشبيهها بالهلال .

فإن قيل : إن هذا الكاتب تأسّى فيما ذكره بكلام الله تعالى حيث قال : (اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) فمثل نوره بطَاقَةٍ فيها ذبالة ، وقال الله تعالى : (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) فمثل الهلال بأصل عِذْقِ النخلة .

---

(١) من كلمة له أولها قوله :

إِسْقِنِيهَا بِسَوَادٍ قَبْلَ تَغْرِيدِ الْمُنَادِى
مِنْ عُقَارٍ بَلَغَتْ فِى الـدَّنِّ أَقْصَى مُسْتَزَادِ
رَضَعَتْ وَالدَّهْرُ ثَدْيًا وَتَلَتْهُ فِى الْأَوْلَادِ

انظر الديوان (ص ٢٦٤ مصر ١٨٩٨) .

فالجواب عن ذلك أني أقول: أما تمثيل نور الله تعالى بمشكاة فيها مصباح فإن هذا مثال ضربه للنبي صلى الله عليه وسلم، ويدلّ عليه أنه قال: (تُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ) وإذا نظرت إلى هذا الموضع وجدته تشبيها لطيفا عجيبا، وذاك أن قلب النبي صلى الله عليه وسلم وما ألقى فيه من النور وما هو عليه من الصفة الشَّفَّافة كالزجاجة التي كأنها كوكب لصفائها وإضاءتها؛ وأما الشجرة المباركة التي لاشرقية ولا غربيَّة فإنها عبارة عن ذات النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه من أرض الحجاز التي لاتميل إلى الشرق ولا إلى الغرب، وأما زَيْت هذه الزجاجة فإنه مضيء من غير أن تمسّه نار، والمراد بذلك أن فِطْرَتَه فِطْرَةٌ صافية من الأكدار، مُنيرة من قبل مصالحة الأنوار؛ فهذا هو المراد بالتشبيه الذي ورد في هذه الآية.

وأما الآية الأخرى فإنه شَبَّه الهلال فيها بالعُرْجُون القديم، وذلك في هيئة نحوله واستدارته، لافي مقداره؛ فإن مقدار الهلال عظيم، ولا نسبة للعرجون إليه، لكنه في مَرْأى النظر كالعُرْجُون هيئةً، لا مقداراً.

وأما هذا الكاتب فإن تشبيهه ليس على هذا النسق؛ لأنه شبه صورة الحصن بأنملة في المقدار، لافي الهيئة والشكل، وهذا غير حسن ولا مناسب، وإنما ألقاه فيه أنه قصد الهلال والقُلاَمة مع ذكر الأنملة، فأخطأ من جهة، وأصاب من جهة، لكن خطؤه غطَّى على صوابه.

والقول السديد في بلاغة التشبيه هو ما أذكره، وهو: أن إطلاق من أطلق قوله في أن من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الأصغر بالأكبر غيرُ سديد؛ فإن هذا قول غير حاصرٍ للغرض المقصود؛ لأن التشبيه يأتي تارة في معرض المدح، وتارة في معرض الذم، وتارة في غير معرض مدح ولا ذم، وإنما يأتي قصداً للابانة والإيضاح، ولا يكون تشبيه أصغر بأكبر، كما ذهب إليه من

ذهب ، بل القول الجامع فى ذلك أن يقال : إن التشبيه لا يعمد إليه إلا لضرب من المبالغة : فإما أن يكون مدحاً ، أو ذما ، أو بياناً وإيضاحاً ، ولا يخرج عن هذه المعانى الثلاثة ، وإذا كان الأمر كذلك فلا بُدَّ فيه من تقدير لفظة أَفْعَلَ ، فإن لم تقدر فيه لفظة أفعل فليس بتشبيه بليغ ، ألا ترى أنا نقول فى التشبيه المضمر الأداة : زيد أسد ، فقد شبهنا زيداً بأسد الذى هو أشجع منه ، فإن لم يكن المشبه به فى هذا المقام أشجع من زيد الذى هو المشبه ، وإلا كان التشبيه ناقصاً ؛ إذ لا مبالغة فيه .

وأما التشبيه المظهر الأداة فكقوله تعالى: (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) وهذا تشبيه كبير بما هو أكبر منه ؛ لأن خلق السفن البحرية كبير وخلق الجبال أكبر منه ، وكذلك إذا شبه شيء حسن بشيء حسن ، فإنه إذا لم يشبه بما هو أحسن منه فليس بوارد على طريق البلاغة ، وإن شبه قبيح بقبيح ، وهكذا[1] ينبغى أن يكون المشبه به أقبح ، وإن قصد البيان والإيضاح فينبغى أن يكون المشبه به أبين وأوضح ، فتقدير لفظة أَفْعَلَ لابد منه فيما يقصد به بلاغة التشبيه ، وإلا كان التشبيه ناقصاً ، فاعلم ذلك وقس عليه .

واعلم أنه لا يخلو تشبيه الشيئين أحدهما بالآخر من أربعة أقسام : إما تشبيه معنى بمعنى ، كالذى تقدم ذكره من قولنا : زيد كالأسد ، وإما تشبيه صورة بصورة ، كقوله تعالى : (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ) ، وإما تشبيه معنى بصورة ، كقوله تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ) وهذا القسم أبلغ الأقسام الأربعة ؛ لتمثيله المعانى الموهومة بالصور المشاهدة ، وإما تشبيه صورة بمعنى ، كقول أبى تمام[2] :

(١) هذه الكلمة ثابتة فى جميع الأصول ؛ ولا داعى لها .

(٢) لم أجد هذا البيت فى شعر أبى تمام .

وَفَتَكْتَ بِالمَالِ الْجَزِيلِ وَبِالْعِدَا فَتْكَ الصَّبَابَةِ بِالْمُحِبِّ الْمُغْرَمِ

فشبه فَتْكَهُ بالمال وبالعِدَا وذلك صورة مرئية بِفَتْكِ الصبابة وهو فتك معنوى ، وهذا القسم ألطف الأقسام الأربعة ؛ لأنه نقل صورة إلى غير صورة .

وكل واحد من هذه الأقسام الأربعة المشار إليها لا يخلو التشبيه فيه من أربعة أقسام أيضاً : إما تشبيه مفرد بمفرد ، وإما تشبيه مركب بمركب ، وإما تشبيه مفرد بمركب ، وإما تشبيه مركب بمفرد .

والمراد بقولنا مفرد ومركب : أن المفرد يكون تشبيه شيء واحد بشيء واحد ، والمركب تشبيه شيئين اثنين بشيئين اثنين ، وكذلك المفرد بالمركب ، والمركب بالمفرد ؛ فإن أحدهما يكون تشبيه شيء واحد بشيئين ، والآخر يكون تشبيه شيئين بشيء واحد ، ولست أعنى بقولى « تشبيه شيئين بشيئين » أنه لا يكون إلا كذلك ، بل أردت تشبيه شيئين بشيئين فما فوقهما ، كقول بعضهم فى الخمر :

وَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّ حَامِلَ كَأْسِهَا إِذْ قَامَ يَجْلُوهَا عَلَى النُّدَمَاء

شَمْسُ الضُّحَى رَقَصَتْ فَنَقَّطَ وَجْهَهَا بَدْرُ الدُّجَى بِكَوَاكِبِ الْجَوْزَاء

فشبه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء ؛ فإنه شبه الساقى بالبدر ، وشبه الخمر بالشمس ، وشبه الْحَبَبَ الذى فوقها بالكواكب .

وإذ بَيَّنْتُ أن التشبيه ينقسم إلى تلك الأقسام الأربعة فإنى أقول : إن التشبيه المضمر الأداة قد قدمت القول فى أنه ينقسم إلى خمسة أقسام ؛ فالقسم الأول لا يرد إلا فى تشبيه مفرد بمفرد ، والقسم الثانى لا يرد إلا فى تشبيه مفرد بمركب ، والقسم الثالث لا يرد إلا فى تشبيه مركب بمركب ، والقسم الرابع والخامس لا يردان إلا فى تشبيه مركب بمركب ؛ ألا ترى أنا إذا قلنا فى القسم الأول : زيد أسد ، كان ذلك تشبيه مفرد بمفرد ، وإذا قلنا فى القسم الثانى ما مثلناه به من الخبر النبوى وهو « الكمأة جدرىُّ الأرض » كان ذلك تشبيه

مفرد بمركب ، وكذلك بيت البحترى وبيت أبى تمام المشار إليهما فيما تقدم ، وإذا قلنا فى القسم الثالث ما أشرنا إليه من الخبر النبوى أيضاً الذى هو «وهَلْ يكبُّ الناسَ على مناخرهم فى نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم» كان ذلك تشبيه مركب بمركب ، وإذا قلنا فى القسم الرابع والخامس ما مَثَّلنا به من بيتى الفرزدق والبحترى كان ذلك تشبيه مركب بمركب ، وإذا كان الأمر كذلك وجاءك شىء من التشبيه المضمر الأداة وهو من القسم الأول فاعلم أنه تشبيه مفرد بمفرد ، وإذا جاءك شىء من القسم الثانى فاعلم أنه تشبيه مفرد بمركب ، وإذا جاءك شىء من القسم الثالث فاعلم أنه تشبيه مركب بمركب ، وكذلك إذا جاءك شىء من القسم الرابع والقسم الخامس ؛ فانهما من باب تشبيه المركب بالمركب .

ولنرجع إلى ذكر ما أشرنا إليه أولا فى تقسيم التشبيه إلى الأربعة الأقسام الأخرى التى هى : تشبيه مفرد بمفرد ، وتشبيه مركب بمركب ، وتشبيه مفرد بمركب ، وتشبيه مركب بمفرد .

فالقسم الأول منها كقوله تعالى فى المضمر الأداة: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً) فشبه الليل باللباس . وذاك أنه يَسْتُرُ الناس بعضهم عن بعض لمن أراد هرباً من عدو أو ثباتا لعدو أو إخفاء ما لا يُحِبُّ الاطلاع عليه من أمره ، وهذا من التشبيهات التى لم يأت بها إلا القرآن الكريم ، فإن تشبيه الليل باللباس مما اختصّ به دون غيره من الكلام المنظوم والمنثور .

وكذلك قوله تعالى : (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) فشبه المرأة باللباس للرجل وشبه الرجل باللباس للمرأة .

ومن محاسن التشبيهات قوله تعالى : (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ) وهذا يكاد ينقله تناسبه عن درجة المجاز إلى الحقيقة ، والحرث : هو الأرض التى تحرث للزرع ، وكذلك الرحم يُزْدَرَع فيه الولد ازدراعاً كما يزدرع البذر فى الأرض .

ومن هذا الأسلوب قوله تعالى : (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ) فشبه تبرؤ الليل من النهار بانسلاخ الجلد عن الجسم المسلوخ ، وذلك أنه لما كانت هوَادى الصبح عند طلوعه ملتحمةً بأعجاز الليل أجْرَى عليهما اسم السَّلْخ ، وكان ذلك أولى من أن لو قيل «يُخْرِج» لأن السلخ أدلّ عَلَى الالتحام من الإخراج ، وهذا تشبيه فى غاية المناسبة .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً) فشبه انتشار الشيب باشتعال النار ، ولما كان الشيب يأخذ فى الرأس ويَسْعَى فيه شيئاً فشيئاً حتى يُحيله إلى غير لونه الأول بمنزلة النار التى تشتعل فى الجسم وتَسْرِى فيه حتى تُحيله إلى إلى غير حاله الأولى ، وأحسن من هذا أن يقال : إنه شبه انتشار الشيب باشتعال النار : فى سرعة التهابه ، وتعذر تلافيه ، وفى عظم الألم فى القلب به ، وأنه لم يبق بعده إلا الخمود ، فهذه أوصاف أربعة جامعة بين المشبه والمشبه به ، وذلك فى الغاية القصوى من التناسب والتلاؤم .

وقد ورد فى الأمثال « اللَّيْلُ جُنَّةُ الْهَارِب » وهذا تشبيه حسن

وكل ذلك من التشبيه المضمر الأداة .

ومما ورد منه شعراً قول أبى الطيب المتنبى (١) :

وَإِذَا اهْتَزَّ لِلنَّدَى كَانَ بَحْراً وَإِذَا اهْتَزَّ لِلْوَغَى كَانَ نَصْلَا
وَإِذَا الْأَرْضُ أَظْلَمَتْ كَانَ شَمْسًا وَإِذَا الْأَرْضُ أَمْحَلَتْ كَانَ وَبْلَا

فحرف التشبيه ههنا مضمر ، وتقديره كان كأنه بحر ، وكان كأنه نَصْلٌ ، وكذلك يقال فى البيت الثانى : كان كأنه شمس ، وكان كأنه وبل ، وهذا تشبيه صورة بصورة ، وهو حسن فى معناه .

---

(١) من قصيدة له يعزى فيها سيف الدولة بأخته الصغرى ، وأولها قوله :

إنْ يَكُنْ صَبْرُ ذِى الرَّزِيَّةِ فَضْلاً فَكُنِ الْأَفْضَلَ الْأَعَزَّ الْأَجَلَّا

وكذلك ورد قول أبي نواس ، وهو في تشبيه الْحَبَب (١) :

فَإِذَا مَا اعْتَرَضَتْهُ الْـعَيْنُ مِنْ حَيْثُ اسْتَدَارَا
خِلْتَهُ فِي جَنَبَاتِ الْـكَأْسِ وَاوَاتٍ صِغَارَا

وهذا تشبيه صورة بصورة أيضاً .

وقد أبرز هذا المعنى في لباس آخر ؛ فقال (٢) :

وَإِذَا عَلَاهَا الْمَاءُ أَلْبَسَهَا ... حَبَباً شَبِيهَ جَلَاجِلِ الْحِجْلِ
حَتَّى إِذَا سَكَنَتْ جَوَامِحُهَا ... كَتَبَتْ بِمِثْلِ أَكَارِعِ النَّمْلِ

ومن هذا قول البحتري (٣) :

تَبَسُّمٌ وَقُطُوبٌ فِي نَدًى وَوَغًى ... كَالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ تَحْتَ الْعَارِضِ الْبَرِدِ

---

(١) من كلمة له أولها قوله :

دَعْ لِبَاكِيهَا الدِّيَارَا ... وَانْفِ بِالْخَمْرِ الْخُمَارَا
وَاشْرَبَنْهَا مِنْ كُمَيْتٍ ... تَدَعُ اللَّيْـلَ نَهَارَا

وانظر الديوان (ص ٢٧٤ مصر) .

(٢) من كلمة له أولها قوله :

كَانَ الشَّبَابُ مَطِيَّةَ الْجَهْلِ ... وَمُحَسِّنَ الضَّحِكَاتِ وَالْهَزْلِ
كَانَ الْجَمَالَ إِذَا ارْتَدَيْتُ بِهِ ... وَمَشَيْتُ أَخْطِرُ صَيِّتَ النَّعْلِ

انظر الديوان (ص ٣١١) .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها أبا نهشل بن حميد ، وأولها قوله :

إِنِّي تَرَكْتُ الصِّبَا عَمْداً وَلَمْ أَكَدِ ... مِنْ غَيْرِ شَيْبٍ وَلَا عَذْلٍ وَلَا فَنَدِ

انظر الديوان (ج ١ ص ١٥١ مصر)

وهذا من أحسن التشبيه وأقربه ، إلا أن فيه إخلالا من جهة الصنعة ، وهى ترتيب التفسير ؛ فإن الأولى أن كان قدَّمَ تفسير التبسم على تفسير القطوب : بأن كان قال : كالبرق والرعد ، فانظر أيهما المنتمى إلى الفن كيف ذهب على البحترى مثل هذا الموضع على قربه ، مع تقدمه فى صناعة الشعر ، وليس فى ذلك كبير أمر ، سوى أن كان قدم ما أخر لاغير ، وإنما يعذر الشاعر فى مثل هذا المقام إذا حكم عليه الوزن والقافية واضطر إلى ترك ما يجب عليه ، وأما إذا كانت الحال كالتى ذكرها البحترى فحينئذ لاعذر له ، وسيأتى لذلك باب مفرد فى موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، وهو باب ترتيب التفسير .

وكذلك ورد قول البحترى (١) :

فِى مَعْرَكٍ ضَنْكٍ تَخَالُ بِهِ الْقَنَا بَيْنَ الضُّلُوعِ إذا انْحَنَيْنَ ضُلُوعَا

ومن تشبيه المفرد بالمفرد قول أبى الطيب المتنبى (٢) :

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن يوسف ، وأولها قوله :

فِيمَ ٱبْتِدَارُكُمُ ٱلْمَلَامَ وَلُوعَا أَبَكَيْتُ إِلاَّ دِمْنَةً وَرُبُوعَا

انظر الديوان (ج ٢ ص ٨٤ مصر) :

(٢) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ويذكر استنقاذه أبا وائل تغلب بن داود من الأسر ، وأولها قوله :

إِلاَمَ طَمَاعِيَةُ الْعَاذِلِ وَلاَ رَأْىَ فِى الْحُبِّ لِلْعَاقِلِ

وقبل البيتين اللذين أنشدهما المؤلف قوله :

كأَنَّ خَلاَصَ أَبِى وَائِلٍ مُعَاوَدَةُ الْقَمَرِ الْآفِلِ
دَعَا فَسَمِعْتَ وَكَمْ سَاكِتٍ عَلَى الْبُعْدِ عِنْدَكَ كَالْقَائِلِ
فَلَبَّيْتَهُ بِكَ فِى جَحْفَلٍ لَهُ ضَامِنٍ وَبِهِ كَافِلِ

خَرَجْنَ مِنَ النَّقْعِ فِى عَارِضٍ   وَمِنْ عَرَقِ الرَّكْضِ فِى وَابِلِ (١)
فَلَمَّا نَشِفْنَ لَقِينَ السِّيَاط   بِمِثْلِ صَفَا الْبَلَدِ الْمَاحِلِ (٢)

وقد حوى هذان البيتان قرب التشبيه مع براعة النظم وجزالة اللفظ .

وأما القسم الثانى ـ وهو تشبيه المركب بالمركب ـ فمما جاء منه مُضْمَرَ الأداة ما يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث يَرْوِيه مُعَاذُ بن جَبَل رضى الله عنه ، وهو حديث طويل يشتمل على فضائل أعمال متعددة ، ولا حاجة إلى إيراده ههنا على نَصِّهِ ، بل نذكر الغَرَض منه ، وهو أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَمْسِكْ عَلَيْكَ هٰذَا » وأشار إلى لسانه ، فقال مُعَاذ : أو نحن مُؤَاخذون بما نتكلم به ؟ فقال « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَامُعَاذ ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِى نَارِ جَهَنَّمَ إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ » فقوله « حصائد ألسنتهم » من تشبيه المركب بالمركب ؛ فإنه شَبَّه الألسنة وما تمضى فيه من الأحاديث التى يؤاخذ بها بالْمَنَاجل التى تَحْصِد النبات من الأرض ، وهذا تشبيه بليغ عجيب لم يسمع إلا من النبى صلى الله عليه وسلم .

ومما ورد منه شعرا قول أبى تمام (٣) :

---

(١) النقع : الغبار ، والعارض : السحاب ، والوابل : المطر الكثير . يريد أن خيل سيف الدولة خرجت من الغبار فيما يشبه السحاب ومن العرق الذى أوجبه الركض فيما يشبه المطر الشديد .

(٢) الصفا : اسم جنس جمعى ، واحده صفاة ، وهى الصخرة الملساء ، والسياط : جمع سوط ، والماحل : الذى لم يمطر ، يريد أن الخيل لما نشفت من العرق لقيت السياط من جلودها بمثل الحجر الأملس الذى يكون فى البلد الممحل ، وذلك أبلغ ليبس الحجر .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن أبى دواد ، وأولها قوله :

بُدِّلَتْ عَبْرَةً مِنَ الإِيمَاضِ   يَوْمَ شَدُّوا الرِّحَالَ بِالأَغْرَاضِ

مَعْشَر أَصْبَحُوا حُصُونَ الْمَعَالِي وَدُرُوعَ الْأَحْسَابِ وَالْأَعْرَاضِ

فقوله « حصون المعالى » من التشبيه المركب ، وذاك أنه شبههم فى مَنْعهم المعالى أن ينالها أحدٌ سواهم بالحصون فى منعها مَنْ بها وحمايته ، وكذلك قوله « دروع الأحساب » .

وأما الْمُظْهَرُ الأداةِ فمما جاء منه قوله تعالى : (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ) فشبّهت حالُ الدنيا فى سرعة زوالها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض فى جَفافه وذهابه حُطاما بعد ما التفّ وتكاثَفَ وزَيَّنَ الأرض ، وذاك تشبيه صورة بصورة ، وهو من أبدع ما يجىء فى بابه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى فى وصف حال المنافقين : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ) تقديره أن مثل هؤلاء المنافقين كمثل رجل أَوْقَدَ ناراً فى ليلة مظلمة بمفازة فاستضاء بها ما حوْله ، فاتّقَى ما يخاف وأَمِنَ ، فبينا هو كذلك إذ طَفِئَتْ ناره ، فبقى مظلماً خائفاً ، وكذلك المنافق إذا أظهر كلمة الإيمان استنار بها واعتزّ بعزها وأَمِنَ على نفسه وماله وولده ، فإذا مات عاد إلى الخوف وبقى فى العذاب والنقمة .

ومما ورد منه فى الأخبار النبوية قول النبى صلى الله عليه وسلم : « مَثَلُ

أَعْرَضَتْ بُرْهَةً فَلَمَّا أَحَسَّتْ بِالنَّوَى أَعْرَضَتْ عَنِ الْإِعْرَاضِ
غَصَبَتْنِي تَحِيبُهَا عَزَمَاتٌ غَصَبَتْنِي تَصَبُّرِى وَاغْتِمَاضِى

الْمؤمِنِ الَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤمِنِ الَّذِى لَايَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلاَ رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنُ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَلاَ طَعْمَ لَهَا، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِى لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لاَ رِيحَ لَها وَطَعْمُهَا مرٌّ» وهذا من باب تشبيه المركب بالمركب، ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم شبه المؤمن القارئ وهو مُتَّصِف بصفتين ـ هما الإيمان والقراءة ـ بالأُتْرُجَّة، وهى ذات وصفين، هما الطعم والريح، وكذلك يجرى الحكم فى المؤمن غير القارىء، وفى المنافق القارىء، والمنافق غير القارىء.

وقد جاءنى شىء من ذلك أوردته فى فصــل من كتاب أصف فيه البر والمسير، فقلت: ولم أزل أصل الذَّميل بالذميل، وألفَ الضُّحَى بالأصِيل، والأرضُ كالبحر فى سَعَة صدره، والمَطَايا كالجوارى راكدة على ظهره، فكان الركب منها كسكانهم من الأكوار، ومسيرهم فيها على كرة لا تستقربها حركة الأدوار.

وأما ما ورد من ذلك شعراً فكقول البحترى (١):

خُلُقٌ مِنهُمُ تَرَدَّدَ فِيهِمْ ... وَلِيَتْهُ عِصَابَةٌ عَنْ عِصَابَهْ (٢)

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها ابن ثوابة، وأولها قوله:

أنْ دَعَاهُ دَاعِى الْهَوَى فَأَجَابَهْ ... وَرَمَى قَلْبَهُ الصِّـبَا فَأَصَابَهْ

عِبْتَ مَاجَاءَهُ وَرُبَّ جَهُول ... جَاءَ مَا لاَ يُعَابُ يَوْماً فَعَابَهْ

(٢) قبل هذين البيتين قوله:

هِمَـمٌ فى السَّمَاءِ تَذْهَبُ عُلْوًا ... وَرِبَاعٌ مَغْشِيَّـــةٌ مُنْتَابَهْ

وَرِجَالٌ إنْ ضَيَّعَ النَّاسُ أمْراً ... حَفِظُوا المَجْدَ أنْ يُضِيعُوا طِلاَبَهْ

كالحُسام الجُرازِ يَبْقى عَلَى الدَّهْــرِ وَيُفْنِى فى كلِّ حِينٍ قِرابَهْ

وكذلك ورد قول ابن الرومى (١) :

أَدْرِكْ ثِقاتَكَ إِنَّهُمْ وَقَعُوا فى نَرْجِسٍ مَعَهُ ابْنَةُ الْعِنَبِ
فَهُمُ بِحالٍ لَوْ بَصُرْتَ بِها سَبَّحْتَ مِنْ عُجْبٍ وَمِنْ عَجَبِ
رَيْحانُهُمْ ذَهَبٌ عَلَى دُرَرٍ وَشَرابُهُمْ دُرَرٌ عَلَى ذَهَبِ

وهذا تشبيه صنيع ، إلا أن تشبيه البحترى أصنع ، وذلك أن هذا التشبيه صدر عن صورة مشاهدة ، وذاك إنما استنبطه استنباطاً من خاطره ، وإذا شئت أن تفرق بين صناعة التشبيه فا نظر إلى ما أشرت إليه ههنا : فإن كان أحد التشبيهين عن صورة مشاهدة والآخر عن صورة غير مشاهدة فاعلم أن الذى هو عن صورة غير مشاهدة أصنع ، ولعمرى إن التشبيهين كليهما لا بُدَّ فيهما من صورة تحكى ، لكن أحدهما شوهدت الصورة فيه فحكيت ، والآخر استنبطت له صورة لم تشاهد فى تلك الحال ، وإنما الفكر استنبطها ، ألا ترى أن ابن الرومى نظر إلى النرجس وإلى الخمر فشبَّه ، وأما البحترى فإنه مدح قوما بأن خُلُق السماح باقٍ فيهم ينتقل عن الأول إلى الآخر ، ثم استنبط لذلك تشبيها ،

مَاسعَوْا يَخْلُفُونَ غَيْرَ أَبِيهِمْ كُلُّ ساعٍ مِنّا يُرِيدُ نِصابَهْ
جَمَعَتْهُمْ أُكْرُومَةٌ لَمْ يَجُوزُوا مُنْتَهاها جَمْعَ القِداحِ الرَّبابَهْ

(١) البيت من كلمة له يقولها لعلى بن عبد الله ، وقبله قوله :

يَابْنَ المُسَيَّبِ عِشْتَ فى نِعَمٍ وَسَلِمْتَ مِنْ هُلْكٍ وَمِنْ عَطَبِ
يَاشَاعِرَ الْعَجَمِ الْكِرامِ كما أَنَّ ابْنَ حُجْرٍ شاعِرُ الْعَرَبِ
يا قَائِدَ الظُّرَفاءِ لا كَذِبًا يَاقُدْوَةَ الْأُدَباءِ فى الْأَدَبِ

انظر الديوان (١ - ١١٨) .

فأدّاه فكره إلى السيف وقُرُبه التى تفنى فى كل حين وهو باق لا يفنى بفنائها ، ومن أجل ذلك كان البحترى أصنع فى تشبيهه .

وسأورد ههنا من كلامى نبْذَة يسيرة ؛ فن ذلك ما كتبتهُ من جملة كتاب إلى ديوان الخلافة أذكر فيه نزول العدو الكافر على ثغر عَكاً فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، فقلت : وأحاط بها العدوُّ إحاطة الشِّفَاه بالثغور ، ونزل عليها نزول الظلماء على النور . وهذا من التشبيهات المناسبة ، ثم لما جئت إلى ذكر قتال المسلمين إياه وإزالته عن جانب الثغر قلت : وقد اصطدم من الإسلام والكفر ابْنَا شمام ، والتَقى من مَجاجتهما ظلام ، وعند ذلك أخذ العدوُّ فى التحيز إلى جانب ، وكان كحاجب على عين فصار كمين فى حاجب ، وإذا تزعزع البناء فقد هوى ، وإذا قبض من طرف البساط فقد انطوى . وهذا التشبيه فى مناسبته كالأول ، بل أحسن .

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب إلى بعض الإخوان ، فقلت : وما شَبّهْتُ كتابه فى وروده وانقباضه ، إلا بنظر الحبيب فى إقباله وإعراضه ، وكلا الأمرين كالسَّهْم فى ألم وقعه وألم نزعه ، والمَشُوقُ مَنِ استوت صبابته فى حالتى وَصْلِهِ وقَطْعه ، وما أزال على وَجَل من إرسال كتبه وإجمامها واشتباه لمها بإلمامها .

ومما جاء من هذا القسم فى الشعر قولُ بَكْرِ بن النطاح :

تَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إلَى الْمَعَالِي كَمَا نَظَرَتْ إلَى الشَّيْبِ الْمِلاَحُ
يُحِدُّونَ الْعُيُونَ إلَيَّ شَزْراً كَأَنِّي فِي عُيُونِهِمُ السَّمَاحُ

وهذا بديع فى حسنه بليغ فى تشبيهه .

وعلى هذا النهج ورد قول أبى تمام (١) :

(١) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ويذكر أخذ بابك ، وأولها قوله :

آلَتْ أُمُورُ الشِّرْكِ شَرَّ مَآلِ وَأَقَرَّ بَعْدَ تَخَمُّطٍ وَزِيَالِ

انظر الديوان (ص ٢٥٩ بيروت) .

خَلَطَ الشَّجَاعَةَ بِالْحَيَاءِ فَأَصْبَحَا ... كَالْحُسْنِ شِيبَ لِمُغْرَمٍ بِدَلَالِ

وهذا من غريب ما يأتى فى هذا الباب ، وقد تغالت شيعة أبى تمام فى وصف هذا البيت ، وهو لعمرى كذلك .

ومن هذا القسم أيضاً قوله(١) :

كَمْ نِعْمَةٍ لِلّٰهِ كَانَتْ عِنْدَهُ ... فَكَأَنَّهَا فِى غُرْبَةٍ وَإِسَارِ

كُسِيَتْ سَبَائِبَ لُؤْمِهِ فَتَضَاءَلَتْ ... كَتَضَاؤُلِ الْحَسْنَاءِ فِى الْأَطْمَارِ(٢)

وكذلك قوله(٣) :

صَدَفَتْ عَنْهُ وَلَمْ تَصْدِفْ مَوَاهِبُهُ ... عَنِّى ، وَعَاوَدَهُ ظَنِّى فَلَمْ يَخِبِ

كَالْغَيْثِ إِنْ جِئْتَهُ وَافَاكَ رَيِّقُهُ ... وَإِنْ تَرَحَّلْتَ عَنْهُ لَجَّ فِى الطَّلَبِ

وعلى هذا الأسلوب ورد قول على بن جبلة :

إِذَا مَا تَرَدَّى لَأْمَـــةَ الْحَرْبِ أَرْعَدَتْ ... حَشَا الْأَرْضِ وَاسْتَدْمَى الرِّمَاحُ الشَّوَارِعُ

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ، ويذكر إحراق الأفشين ، وأولها قوله :

الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارِ ... فَحَذَارِ مِنْ أُسْدِ الْعَرِينِ حَذَارِ

وقبل البيتين اللذين أنشدهما المؤلف قوله :

يَارُبَّ فِتْنَةِ أُمَّةٍ قَدْ بَزَّهَا ... جَبَّارُهَا فى طَاعَةِ الْجَبَّارِ

جَالَتْ بِخَيْذَرَ جَوْلَةُ الْمِقْدَارِ ... فَأَحَلَّهُ الطُّغْيَانُ دَارَ بَوَارِ

(٢) السبائب : جمع سبيبة ، وهى شقة رقيقة . وتضاءلت : أخفت شخصها وتصاغرت ، والأطمار : الثياب البالية ، واحدها طمر؛ بكسر فسكون .

(٣) من كلمة له يمدح فيها الحسن بن سهل ، وأولها قوله :

أَبْدَتْ أَسًى أَنْ رَأَتْنِى مُخْلِسَ الْقُصَبِ ... وَآلَ مَا كَانَ مِنْ عُجْبٍ إِلَى عَجَبِ

وَأَسْفَرَ تَحْتَ النَّقْعِ حَتَّى كأَنَّهُ   صَبَاحٌ مَشَى فى ظُلْمَةِ اللَّيْلِ طَالِعُ

وقد أحسن على بن جبلة فى تشبيهه هذا كلَّ الإحسان .

وكذلك فى الحسن قوله أيضاً فى تشبيه الْحَبَبَ فوق الخمر :

تَرَى فَوْقَهَا نَمَشاً لِلْمِزَاجِ   تباذير لايَتَّصِلْنَ اتِّصَالاَ

كَوَجْهِ الْعَرُوسِ إذَا خَطَّطَتْ   عَلَى كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْهُ خَالاَ

ومن هذا القسم قول مسلم بن الوليد[(١)] :

تَلْقَى الْمَنِيَّةَ فِى أَمْثَالِ عُدَّتِهَا   كَالسَّيْلِ يَقْذِفُ جُلْمُوداً بِجُلْمُودِ

وعلى هذا الأسلوب ورد قول العباس بن الأحْنَفِ[(٢)] :

لاَجَزَى اللهُ دَمْعَ عَيْنِىَ خَيْراً   وَجَزَى اللهُ كُلَّ خَيْرٍ لِسَانِى

نَمَّ دَمْعِى فَلَيْسَ يَكْتُمُ شَيْئاً   وَوَجَدْتُ اللِّسَانَ ذَا كِتْمَانِ

كُنْتُ مِثْلَ الْكِتَابِ أَخْفَاهُ طَىٌّ   فَاسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِالْعُنْوَانِ

وهذا من اللطيف البديع .

ويروى أن أبا نُوَاس لما دخل مصر مادحا للخصيب جلس يوماً فى رَهْطٍ من الأدباء ، وتذكروا مَنَازِهَ بغداد ، فأنشد مرتجلا[(٣)] :

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها داود بن حاتم بن خالد بن المهلب ، وأولها قوله :

لاَ تَدْعُ بِى الشَّوْقَ إِنِّى غَيْرُ مَعْمُودِ   نَهَى النُّهَى عَنْ هَوَى الْهِيفِ الرَّعَادِيدِ

لَوْ شِئْتُ لاشِئْتُ رَاجَعْتُ الصِّبَا وَمَشَتْ   فِىَّ الْعُيُونُ وَفَاتَتْنِى بِمَجْلُودِ

(٢) هذه الأبيات مشهورة النسبة إلى العباس بن الأحنف ، ومن العجيب أنها ليست فى ديوانه المطبوع فى الجوائب عام ١٢٩٨ من الهجرة .

(٣) هذا مطلع قصيدة له فى مديح الخصيب كما قال المؤلف ، وبعده قوله :

لَيْسَ لِى مُسْعِدٌ بِمِصْرَ عَلَى الشَّوْ   قِ إِلَى أَوْجُهٍ هُنَاكَ حِسَانِ

ذَكَرَ الْكَرْخَ نَازِحُ الأَوْطَانِ   فَصَبَا صَبْوَةً وَلاَتَ أَوَانِ[١]

ثم أتم ذلك قصيداً مدح به الخصيب ، فلما عاد إلى بغداد دخل عليه العباس ابن الأحنف ، وقال : أنشدنى شيئاً من شعرك بمصر ، فأنشده :

* ذَكَرَ الْكَرْخَ نَازِحُ الأَوْطَانِ[١] *

فلما استتم الأبيات قال له : لقد ظلمك من ناواك ، وتخلف عنك من جاراك ، وحرام على أحد يتفوه بقول الشعر بعدك ، فقال له أبو نواس : وأنت أيضاً ياأبا الفضل تقول هذا ؟ ألست القائل :

* لاجَزَى اللهُ دَمْعَ عَيْنِيَ خَيْراً *

وأنشد الأبيات ، ثم قال : ومن الذى يحسن أن يقول مثل هذا ؟.

ومن تشبيه المركب بالمركب قول البحترى[٢] :

جِدَةٌ يَذُودُ الْبُخْلَ عَنْ أَطْرَافِهَا   كَالْبَحْرِ يَمْنَعُ مِلْحُهُ عَنْ مَائِهِ

وهذا من محاسن التشبيهات .

وكذلك ورد قوله[٣] :

إِذْ لِبَابِ الأَمِيرِ صَدْرُ نَهَارِى   وَرَوَاحِى إِلَى بُيُوتِ الْقِيَانِ

وانظر الديوان (ص ٩٧ مصر) .

(١) فى ا ، ب ، ج « ذكر الكرج » وهو تحريف .

(٢) من كلمة له يمدح فيها يوسف بن محمد ، وأولها قوله :

يَاغَادِياً وَالثَّغْرُ خَلْفَ مَسَائِهِ   يَصِلُ السُّرَى بِأَصِيلِهِ وَضُحَائِهِ

وانظر الديوان (ج ١ ص ٩ مصر) .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها مالك بن طوق ، وأولها قوله :

رَحَلُوا فَأَيَّةُ عَبْرَةٍ لَمْ تُسْكَبِ   أَسَفاً ؟ وَأَىُّ عَزِيمَةٍ لَمْ تُغْلَبِ ؟

وانظر الديوان (ج ١ ص ١٩ مصر) .

وَتَرَاهُ فِي ظُلَمِ الْوَغَى فَتَخَالُهُ قَمَراً يَكُرُّ عَلَى الرِّجَالِ بِكَوْكَبِ[1]

وفي هذا البيت تشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء ؛ فإنه شبه العجاج بالظلمة ، والممدوح بالقمر ، والسنان بالكوكب ، وهذا من الحسن النادر .

وكذلك ورد قوله[2] :

يَمْشُونَ فِي زَغْفٍ كَأَنَّ مُتُونَهَا فِي كُلِّ مَعْرَكَةٍ مُتُونُ نِهَاءِ[3]

بِيضٌ تَسِيلُ عَلَى الْكُمَاةِ نُصُولُهَا سَيْلَ السَّرَابِ بِقَفْرَةٍ بَيْدَاءِ[4]

فَإِذَا الأَسِنَّةُ خَالَطَتْهَا خِلْتَهَا فِيهَا خَيَالَ كَوَاكِبٍ فِي مَاءِ

فالبيتان الأخيران هما اللذان تضمنا تشبيه المركب بالمركب ، وإنما جئنا بالبيت الأول سياقة إلى معناهما ، وهو من التشبيه الذى أحسن فيه البحترى وأغرب .

ومن هذا الباب ماورد لبعض الشعراء فى وصف الخمر ، فقال :

كَانَتْ سِرَاجَ أُنَاسٍ يَهْتَدُونَ بِهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ قَبْلَ النَّارِ وَالنُّورِ

تَهْتَزُّ فِي الْكَأْسِ مِنْ ضَعْفٍ وَمِنْ هَرَمٍ

كَأَنَّهَا قَبَسٌ فِي كَفِّ مَقْرُورِ

وقد يندر للناظم أو الناثر شيء من كلامه يبلغ الغاية التى لاأمد فوقها ، وهذان البيتان من هذا القبيل .

---

(١) فى الديوان « قمرا يشد على الرجال » .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف ، وأولها قوله :

زَعَمَ الغُرَابُ مُنَبِّئُ الأَنْبَاءِ أَنَّ الأَحِبَّةَ آذَنُوا بِتَنَاءِ

وانظر الديوان (ج ١ ص ٣ مصر) .

(٣) الزغف : اسم جنس جمعى ، واحده زغفة ، وهى الدرع ، والنهاء : جمع نهى ــ بكسر النون وفتحها مع سكون الهاء ــ وهو الغدير .

(٤) فى الديوان « بيض تسيل على الكماة فضولها » .

ومن أغرب ماسمعته فى هـــذا الباب قول الحُسَيْن بن مُطَير يرثى مَعْنَ ابن زائدة(١) :

فَتًى عِيشَ فِى مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ   كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعَا

القسم الثالث : فى تشبيه المفرد بالمركب .

فما ورد منه قوله تعالى : (اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ) .

وكذلك قوله تعالى : (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ) .

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب يتضمن استنجاداً ؛ فقلت : وهو إذا اسْتُصْرِخ أَصْرَخ بعَزْمٍ كالشهاب فى رَجْمِه ، وهو كالقَوْس الممتلئ بنزع سَهْمِه ، ويرى أن صريخه لم يجب ، وأنه إذا لم يجبه بالسيف فكأنه لم يجب ؛ فهو مغرى جواده وحسامه ، ومسمع العدو صَرِيرَ رُمْحه قبل قَعْقَعَة لجامه .

وكذلك أيضاً ما كتبته فى كتاب إلى بعض الإخوان أذم الفراق ، فقلت : والفِراق شىء لا كالأشياء ، وصاحبه ميت لا كالأموات وحىٌّ لا كالأحياء ، وما أراه إلا كَنَارِ الله الموقَدَة ، التى تطَّلع على الأفئدة ، وما يجعل صاحبها فى ضَحْضَاحٍ منها إلا تواتر الكتب التى تقيه بعض الوقاء ، وتقوم له وإن لم يُسْقَ مقام الإسقاء .

---

(١) من كلمة له رواها أبو تمام فى باب الرثاء من الحماسة ، وأولها قوله :

أَلِمَّا عَلَى مَعْنٍ وَقُولَا لِقَبْرِهِ   سَقَتْكَ الغَوَادِى مَرْبَعاً ثُمَّ مَرْبَعا

انظر شرح التبريزى (٢ - ٣٩٠) .

وأما ماورد منه فى الشعر فكقول أبى نواس(١) :

إذا امْتَحَنَ الدُّنْيا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِى ثِيَابِ صَدِيقِ

وكذلك قول أبى تمام يصف قصيداً له(٢) :

خُذْهَا مُثَقَّفَةَ الْقَوافِى رَبُّهَا لِسَوَابِغِ النَّعْمَاءِ غَيْرُ كَنُودِ(٣)

كَالدُّرِّ وَالْمَرْجَانِ أُلِّفَ نَظْمُهُ بِالشَّذْرِ فِى عُنُقِ الْفَتَاةِ الرُّودِ(٤)

---

(١) البيت من خمسة أبيات له فى الزهد، وهو آخرها بيتا، وقبله قوله :

أَيَارُبَّ وَجْهٍ فى التُّرَابِ عَتِيقٍ وَيَارُبَّ حُسْنٍ فى التُّرَابِ رَقِيق

وَيَارُبَّ حَزْمٍ فى التُّرَابِ وَنَجْدَةٍ وَيَارُبَّ رَأْيٍ فى التُّرَابِ وَثِيقِ

أرَى كُلَّ حَيٍّ هَالِكاً وَابْنَ هَالِكٍ وَذَا حَسَبٍ فى الْهَالِكِينَ عَرِيق

فَقُلْ لِقَرِيبِ الدَّارِ إنَّكَ ظَاعِنٌ إِلَى مَنْزِلٍ نَائِى المَحَلِّ سَحِيق

وانظر الديوان (ص ١٩٢ مصر) .

(٢) البيتان من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن أبى دواد، وأولها قوله :

أَرَأَيْتَ أَىَّ سَوَالِفٍ وَخُدُودِ عَنَّتْ لَنَا بَيْنَ اللِّوَى فَزَرُودِ

وقد وقع فى ا، ب، ج «يصف قيدا» وهو تحريف بحذف الصاد المهملة .

(٣) وقع فى ج «لسوابغ النعمان» وهو تحريف، و بين هذا البيت والذى بعده بيتان آخران، وهما قوله :

حَذَّاءَ تَمْلأُ كُلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً وَبَلاغَةً وَتُدِرُّ كُلَّ وَرِيدِ

كالطَّعْنَةِ النَّجْلاَءِ مِنْ يَدِ ثَائِرٍ بِأَخِيهِ أَوْ كَالضَّرْبَةِ الأُخْدُودِ

(٤) وقع فى ا، ب، ج «بالشد فى عنق» وهو تحريف، وتصويبه عن الديوان، وفى الديوان «الكعاب الرود» . والشذر : قطع من الذهب تلقط من معدنه ولا تستخرج باذابة الحجارة، والرود : الجارية الناعمة .

وكذلك ورد قول البحترى ، وهو من جملة قصيدته المشهورة التى وصف فيها الفرس والسيف ، وأولها :

* أَهْلاً بِذَلِكُمُ الْخَيَالِ الْمُقْبِلِ(١) *

فقال فيها من أبيات تضمَّنتْ وصف السيف بيتاً أجاد فى تشبيهه :

وَكَأَنَّمَا سُودُ النِّمَالِ وَحُمْرُهَا   دَبَّتْ بِأَيْدٍ فِى قُوَاهُ وَأَرْجُلِ

فشبه فِرِنْدَ السيف بدَبيب النمل سودِها وحمرِها ، وذلك من التشبيه الحسن .

وأما ماورد منه مضمر الأداة فكقول النبى صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الْعَزْلِ فقال : « هُوَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ » وهذا تشبيه بليغ ، والوأد : هو ما كانت العرب تفعله فى دفن البنات أحْياء ، فجعل الْعَزْلَ فى الجماع كالوأد إلا أنه خفىٌّ ، وذاك أنهم كانوا يفعلون بالبنات ذلك هرَبًا منهن ، وهكذا من يعزِلُ فى الجماع فإنما يفعل ذلك هرباً من الولد .

وكذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « هُوَ الوَأْدَةُ الصُّغْرَى » وهذا من الحسن إلى غاية تغضّ لها العيون طرفَها ، ولا ينتهى الوصف إليها فيكون ترك وصفها كوصفها .

ومما جاءنى من ذلك فصل من جملة كتاب ضمنته وصف القلم ، فقلت : جدع أنفه فصار فى الكيد قصيراً ، وأرهف صدره فصار فى المَضاء عَضْباً شهيراً ، وقمص لباس السواد وهو شعار الخطباء فنطق بفصل الخطاب ، ونكس رأسه وهى صورة الإذلال فاختال فى مشيه من الإعجاب ، وأوحى إليه بنَجْوَى الخواطر وهو الأصم فأفضَى بما سمعه إلى الكتاب .

وهذه الأوصاف غريبة جداً ، ومن أغربها ذكر قَصِير عند جَدْع الأنف .

وأما القسم الرابع ، وهو تشبيه المركب بالمفرد ؛ فإنه قليل الاستعمال بالنسبة

---

(١) لم أجد هذه القصيدة ، ولا هذا البيت ، فى شعر البحترى .

إلى الأقسام الثلاثة ، وليس ذلك إلا لعدم النظير بين المشبه والمشبه به ، وعلى كثرة ما حفظته من الأشعار لم أجد ما أمثل به هذا القسم إلا مثالا واحداً ، وهو قول أبي تمام فى وصف الربيع (١) :

يَا صَاحِبَيَّ تَقَصَّيَا نَظَرَيْكُمَا   تَرَيَا وُجُوهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تُصَوَّرُ
تَرَيَا نَهَاراً مُشْمِساً قَدْ شَابَهُ   زَهْرُ الرُّبَا فَكَأَنَّمَا هُوَ مُقْمِرُ

فشبه النهار المشمس مع الزهر الأبيض بضوء القمر ، وهو تشبيه حسن واقع فى موقعه ، مع ما فيه من لطف الصنعة .

ولربما اعترض فى هذا الموضع معترض ، وقال : إنك أوردت هذا القسم من التشبيه ، وذكرت أنه قليل ، وليس كذلك ؛ فإن تشبيه شيئين بشىء واحد كثير ، كقول أبي الطيب المتنبى (٢) :

تُشْرِقُ أَعْرَاضُهُمْ وَأَوْجُهُهُمْ   كَأَنَّهَا فِى نُفُوسِهِمْ شِيَمُ (٣)

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ، وأولها قوله :

رَقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فَهْيَ تَمَرْمَرُ   وَغَدَا الثَّرَى فى حَلْيِهِ يَتَكَسَّرُ

انظر الديوان (ص ١٢٦ بيروت) .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها على بن إبراهيم التنوخى ، وأولها قوله :

أَحَقُّ عَافٍ بِدَمْعِكَ الْهِمَمُ   أَحْدَثُ شَىْءٍ عَهْدًا بِهَا الْقِدَمُ

العافى : الدارس الذاهب ، والهمم : جمع همة ، والقدم : خلاف الحدوث ؛ قال أبو الفتح : سألته عن معنى هذا البيت ، فقال : أحق ما صرفت إليه بكاءك هِمم الناس لأنها قد عفت ودرست فصار أحدثها عهدا قديما ، وقال الخطيب : أحق عاف بأن يبكى عليه همم الكرام ؛ لأنها عفت كما تعفو الربوع ؛ فهى أحق بدمعك من كل الدارسات ، وجعل القدم أحدث الأشياء عهدا بالهمم : أى دروسها قديم ؛ فلا همم فى الأرض .

(٣) قبل هذا البيت قوله :

فشبه إشراق الأعراض والوجوه بإشراق الشيم .

الجواب عن ذلك أني أقول : هذا البيت المعترض به على ماذكرته ليس كالذى ذكرته ؛ فإنى أردت أن يشبه شيآن هما كشىء واحد فى الاشتراك بشىء واحد ، ألا ترى أن نور الشمس مع بياض الزهر وهما شيآن مشتركان قد شُبِّها بضوء القمر ؛ وأما هذا البيت الذى لأبى الطيب المتنبى فإنه تشبيه شيئين كل واحد منهما مفرد برأسه بشىء واحد ؛ لأنه شبه إشراق الأعراض وإشراق الوجوه بإشراق الشِّيَم ، وهذا غير ما أردته أنا .

لكن ينبغى أن تعلم أن تشبيه المركب بالمفرد ينقسم قسمين : أحدهما : تشبيه شيئين مشتركين بشىء واحد ، كالذى أوردته لأبى تمام ؛ وهو قليل الاستعمال ، والآخر تشبيه شيئين منفردين بشىء واحد ، كالذى ذكرته أنت لأبى الطيب المتنبى ، وهو كثير الاستعمال .

وإذْ ذكرنا أقسام التشبيه ، وبَيَّنَّا المحمودَ منها الذى ينبغى اقتفاء أثره واتباع مذهبه ، فَلْنُتْبِعْه بضده مما ينبغى اجتنابه والإضراب عنه ، على أنه قد قدمنا

قَوْمٌ بُلُوغُ الْغُلَامِ عِنْدَهُمُ ... طَعْنُ نُحُورِ الْكُمَاةِ لَا الْحُلُمُ
كَأَنَّمَا يُولَدُ النَّدَى مَعَهُمْ ... لَا صِغَرٌ عَاذِرٌ وَلَا هَرَمُ
إِذَا تَوَلَّوْا عَدَاوَةً كَشَفُوا ... وَإِنْ تَوَلَّوْا صَنِيعَةً كَتَمُوا
تَظُنُّ مِنْ فَقْدِكَ اعْتِدَادَهُمُ ... أَنَّهُمُ أَنْعَمُوا وَمَا عَلِمُوا
إِنْ بَرَقُوا فَالْحُتُوفُ حَاضِرَةٌ ... أَوْ نَطَقُوا فَالصَّوَابُ وَالْحِكَمُ
أَوْ حَلَفُوا بِالْغَمُوسِ وَاجْتَهَدُوا ... فَقَوْلُهُمْ خَابَ سَائِلِي الْقَسَمُ
أَوْ رَكِبُوا الْخَيْلَ غَيْرَ مُسْرَجَةٍ ... فَإِنَّ أَفْخَاذَهُمْ لَهَا حُزُمُ
أَوْ شَهِدُوا الْحَرْبَ لَاقِحًا أَخَذُوا ... مِنْ مُهَجِ الدَّارِعِينَ مَا احْتَكَمُوا

القول بأن حَدَّ التشبيه هو : أن يُثْبَتَ للمشبه حُكْمُ من أحكام المشبه به ، فإذا لم يكن بهذه الصفة ، أو كان بين المشبه والمشبه به بُعْدٌ ؛ فذلك الذى يُطْرَح ولا يستعمل ، والذى يرد منه مضمر الأداة لايكون إلا فى القسم الواحد من أقسام المجازى ، وهو التوسع ، وقد قدمت القول فى ذلك فى أول باب الاستعارة ، وضربت له أمثلة منها قول أبى نواس[1] :

مالِرِجْلِ المَالِ أمْسَتْ تَشْتَكِى مِنْكَ الْكَلالَا

فجعل للمال رجلا ، وذلك تشبيه بعيد ، ولا حاجة إلى إعادة ذلك الكلام ههنا بجملته ، لكن قد أشرت إليه إشارة خفيفة .

ومن أقبح ماسمعته من ذلك قول أبى تمام[2] :

وَتَقَاسَمَ الناسُ السَّخاء مُجَزَّأً وَذَهَبْتَ أَنْتَ بِرَأْسِهِ وَسَنَامِهِ[3]

وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ الْإِهَابَ وَمَا بَقِى مِنْ فَرْثِهِ وَعُرُوقِهِ وَعِظَامِهِ[4]

والقبح الفاحش فى البيت الثانى ، وكل هذا التعسف فى التشبيه البعيد دَنْدَنة حول مَعْنًى ليس بطائل ؛ فإن غرضه أن يقول : ذهب بالأعلى وترك للناس الأدنى ، أو ذهبت بالجيد وتركت للناس الردىء .

---

(١) انظر هذا البيت و بيان مافيه فى (ص ٣٦٢ من هذا الجزء) .

(٢) من كلمة له يمدح فيها أبا سعيد ، وأولها قوله :

قُلْ لِلْأَمِيرِ أَبِى سَعِيدٍ ذِى النَّدَى وَالْمَجْدِ زَادَ اللهُ فِى إِكْرَامِهِ

وقبل هذين البيتين وهو داخل فيما دخلا فيه قوله :

قُسِمَ الْحَيَاءُ عَلَى الْأَنَامِ جَمِيعِهِمْ فَنَهَضْتَ أَنْتَ فَقُدْتَهُ بِزِمَامِهِ

(٣) فى الديوان « وتقسم الناس » .

(٤) الإهاب ــ بكسر الهمزة ــ الجلد ؛ والفرث : ما فى الكرش من السرجين .

وقد عيب عليه قوله(١) :

لاَ تَسْــقِنِى ماء الملاَمِ فإنَّنى صبٌّ قَدِ اُسْتَعْذَبْتُ ماء بكائى

وقيل : إنه جعل للملام ماء ، وذلك تشبيه بعيد ، وما بهذا التشبيه عندى من بأس ، بل هو من التشبيهات المتوسطة التى لاتحمد ولا تذم ، وهو قريب من وجه بعيد من وجه : أما سبب قربه فهو أن الملام هو القول الذى يُعنَّفُ به المَلُوم لأمرٍ جناه ، وذاك مختصٌّ بالسمع ، فنقله أبو تمام إلى السقيا التى هى مختصة بالحلق ، كأنه قال : لاتُذِقْنى الملامَ ، ولو تهيأ له ذلك مع وزن الشعر لكان تشبيها حسنا ، لكنه جاء بذكر الماء فحط من درجته شيئاً ، ولما كان السمع يتجرَّع الملامَ أولا أولا كتجرع الحلق الماء صار كأنه شبيه به ، وهو تشبيه معنى بصورة ؛ وأما سبب بُعْدِ هذا التشبيه فهو أن الماء مستلَذٌّ ، والملام مستكره ، فحصل بينهما مخالفة من هذا الوجه ، فهذا التشبيه إن بعد من وجه فقد قرب من وجه ، فيغفر هذا لهذا ، ولذلك جعلته من التشبيهات المتوسطة التى لاتحمد ولا تذم .

وقد روى ـ وهو رواية ضعيفة ـ أن بعض أهل المَجَانة أرسل إلى أبى تمام قارورةً ، وقال : ابْعَثْ فى هذه شيئاً من ماء الملام ، فأرسل إليه أبو تمام ، وقال : إذا بعثت إلى ريشةً من جَنَاح الذل بعثت إليك شيئا من ماء الملام ، وما كان أبو تمام ليذهب عليه الفرق بين هذين التشبيهين ؛ فإنه ليس جعلُ الجناح للذل كجعل الماء للملام ، فإن الجناح للذل مناسب ، وذاك أن الطائر إذا وَهَن أو تعِبَ بَسَطَ جناحه وخفَضه وألقى نفسه على الأرض ، وللانسان أيضا جناح ، فإن يَدَيْه جَناحاه ، وإذا خضع واستكان طأطأ من رأسه ، وخفض من

(١) هو ثانى بيت من قصيدة له يمدح فيها يحيى بن ثابت ، وقبله ، وهو المطلع :

قَدْكَ اتَّئِبْ أَرْبَيْتَ فى الغُلَوَاءِ كَمْ تَعْذِلُونَ وَأَنْتُمُ سُجَرَائى

يديه ؛ فحسن عند ذلك جعلُ الجناح للذل ، وصار تشبيها مناسبا ، وأما الماء للملام فليس كذلك فى مناسبة التشبيه .

وأما التشبيه المضمر الأداة من هذا الباب فقد أوردت له أمثلة يستدل بها على أشباهه وأمثاله ؛ فإن لذكر المثال فائدة لاتكون لذكر الحد وحده .

فمن ذلك قول بعضهم :

مَلاَ حَاجِبَيْكَ الشَّيْبُ حَتَّى كَأَنَّهُ ظِبَاءٌ جَرَتْ مِنْهَا سَنِيحٌ وَبَارِحُ

وكذلك قول الآخر يصف السهام(١) :

كَسَاهَا رَطِيبُ الرِّيشِ فَاعْتَدَلَتْ لَهُ قِدَاحٌ كَأَعْنَاقِ الظِّبَاءِ الْفَوَارِقِ

فإنه شبه السهام بأعناق الظباء ، وذلك من أبعد التشبيهات .

وعلى نحو منه قول الفرزدق :

يَمْشُونَ فى حَلَقِ الْحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ جُرْبُ الْجِمَالِ بِهَا الْكُحَيْلُ الْمُشْعَلُ

فشبه الرجال فى دروع الزرد بالجمال الجُرْب ، وهذا من التشبيه البعيد ؛ لأنه إن أراد السواد فلا مقاربة بينهما فى اللون ؛ لأن لَوْنَ الحديد أبيضُ ، ومن أجل ذلك سميت السيوف بالبيض ؛ ومع كون هذا التشبيه بعيداً فإنه تشبيه سخيف .

ومن التشبيهات الباردة قول أبى الطيب المتنبى(٢) :

وَجَرَى عَلَى الْوَرَقِ النَّجِيعُ الْقَانِي فَكَأَنَّهُ النَّارَنْجُ فى الْأَغْصَانِ(٣)

---

(١) البيت لساعدة بن جؤية ، ويروى « قداح كأعناق الظباء رقاق » انظر الصناعتين (١٩٧) .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ، وأولها قوله :

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلٌ وهِىَ الْمَحلُّ الثَّانِى

(٣) قبل هذا البيت قوله :

هَيْهَاتَ عَاقَ عَنِ الْعِوَادِ قَوَاضِبٌ كَثُرَ الْقَتِيلُ بِهَا وَقَلَّ الْعَانِى

وَمُهَذَّبٌ أَمَرَ الْمَنَايَا فِيهِمُ فَأَطَعْنَهُ فِى طَاعَةِ الرَّحْمَانِ

قَدْ سَوَّدَتْ شَجَرَ الْجِبَالِ شُعُورُهُمْ فَكَأَنَّ فِيهِ مُسِفَّةَ الْغِرْبَانِ

وهذا تشبيه ينكره أهل التجسيم ، وإذا قسمت التشبيهات بين البعد والبرد(١) حاز طرفى ذلك التقسيم .

وأبشع من هذا قول أبى نواس فى الخمر(٢) :

كَأَنَّ بَرَانِساً رَوَاكِدَ حَوْلَهَا وَزُرْقَ سَنَانِيرٍ تُدِيرُ عُيُونَهَا(٣)

والعجب أنه يقول مثل هذا الغث الذى لاملاءمة بينه وبين ما شبه به ويقرنه بالبديع الذى(٤) أحسن فيه وأبدع ، وهو :

كَأَنَّا حُلُولٌ بَيْنَ أَكْنَافِ رَوْضَةٍ إِذَا مَا سَلَبْنَاهَا مَعَ اللَّيْلِ طِينَهَا

فانظر كيف قرَنَ بين وَرْدِهِ وسَعْدَانه ، لا ، بل بين بَعَره ومَرْجانه ، وقد أكثر فى تشبيه الخمر فأحسن فى موضع وأساء فى موضع ، ومن إساءته قوله أيضاً فى أبيات لامية(٥) :

وإذَا مَا المَاءُ وَاقَعَهَا أَظْهَرَتْ شَكْلاً مِنَ الْغَزَلِ
لُؤْلُؤَاتٌ يَنْحَدِرْنَ بِهَا كَانْحِدَارِ الذَّرِّ مِنْ جَبَلِ(٦)

فشبه الحَبَبَ فى انحداره بنَمْل صغار ينحدر من جبل ، وهذا من البعد على غاية لايحتاج إلى بيان وإيضاح .

(١) فى ا ، ب ، ج « وإذا قسمت التشبيهات بعد البعد والبرد » .
(٢) بحثت ديوان أبى نواس كله فلم أجد هذين البيتين .
(٣) كذا فى ا ، وفى ب ، ج « كأن بواسار » .
(٤) فى ا ، ب ، ج « ويقرنه بالبديع البارد الذى أحسن فيه وأبدع » .
(٥) البيتان من كلمة له أولها قوله :

يَامُبِيحَ الدَّمْعِ فى الطَّلَلِ رَاكِباً مِنْهُ إِلَى أَمَلِ

انظر الديوان (ص ٣١٦ مصر) .
(٦) رواية الديوان ليست كما رواها المؤلف واعترض عليه ، بل هى هكذا :

لُؤْلُؤَاتٌ يَنْحَدِرْنَ بِهَا كَانْحِدَارِ الدَّمْعِ فى عجل

واعلم أن من التشبيه ضربا يسمى الطرد والعكس ، وهو أن يجعل المشبه به مشبهاً والمشبه مشبهاً به ، وبعضهم يسميه غلبة الفروع على الأصول ، ولا تجد شيئاً من ذلك إلا والغرض به المبالغة

فمما جاء من ذلك قول ذى الرمة (١) :

وَرَمْلٍ كأَرْدَافِ الْعَذَارَى قطعْتُهُ إذَا أُلْبِسَتْهُ الْظُّلماتُ الْحنادِسُ

ألا ترى إلى ذى الرمة كيف جعل الأصل فرعا والفرع أصلا ؟ وذاك أن العادة والعُرْفَ فى هذا أن تشبه أعجاز النساء بكُثْبان الأنْقاء ، وهو مُطَّرِد فى بابه ، فعكس ذو الرمة القصّة فى ذلك ، فشبه كُثبان الأنقاء بأعجاز النساء ، وإنما فعل ذلك مبالغةً : أى قد ثبت هذا الموضع وهذا المعنى لأعجاز النساء وصار كأنه الأصل حتى شبهت به كُثْبَان الأنقاء .

وعلى نحو من هذا جاء قول البحترى (٢) :

فِى طَلْعَةِ الْبَدْرِ شَىْءٌ مِنْ مَحَاسِنِهَا وَلِلْقَضِيبِ نَصِيبٌ مِنْ تَثَنِّيهَا

وكذلك ورد قول عبد الله بن المعتز فى قصيدته المشهورة التى أولها :

* سَقَى المَطِيرَةَ ذَاتَ الطَّلِّ وَالشَّجَرِ (٣) *

---

(١) من قصيدة له أولها قوله :

أَلَمْ تَسْأَلِ الْيَوْمَ الرُّسُومُ الدَّوَارِسُ بِحُزْوَى ؟ وَهَلْ تَدْرِى القفارُ البسابِسُ ؟

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين المتوكل ، وأولها قوله :

أَنَافِعِى عِنْدَ لَيْلَى فَرْطُ حُبِّيهَا وَلَوْعَةٌ لِىَ أُبْدِيهَا وَأُخْفِيهَا

أَمْ لاَ تُقَارِبُ لَيْلَى مَنْ يُقَارِبُهَا وَلاَ تُدَانِى بِوَصْلٍ مَنْ يُدَانِيهَا

بَيْضَاءُ أَوْقَدَ خَدَّيْهَا الصِّبَا وَسَقَى أَجْفَانَهَا مِنْ مُدَامِ الرَّاحِ سَاقِيهَا

(٣) هذا صدر المطلع وعجزه قوله :

* وَدَيْرِ عَبْدُونَ هَطَّالٌ مِنَ المَطَرِ *

فقال فى تشبيه الهلال :

وَلَاحَ ضَوْءُ قُمَيْرٍ كَادَ يَفْضَحُنَا مِثْلُ الْقُلَامَةِ قَدْ قُدَّتْ مِنَ الظُّفُرِ

ولما شاع ذلك فى كلام العرب واتسع صار كأنه هو الأصل ، وهو موضع من علم البيان حسن الموقع ، لطيف المأخذ .

وهذا قد ذكره أبو الفتح بن جنى فى كتاب الخصائص ، وأورده هكذا مهملا .

ولما نظرت أنا فى ذلك ، وأنعمت نظرى فيه ؛ تبين لى ما أذكره ، وهو: أنه قد تقرر فى أصل الفائدة المستنتجة من التشبيه أن يشبه الشيء بما يطلق عليه لفظة أفْعَلَ : أى يشبه بما هو أبين وأوضح ، أو بما هو أحسن منه أو أقبح ، وكذلك يشبه الأقل بالأكثر ، والأدنى بالأعلى .

وهذا الموضع لا ينقض هذه القاعدة ؛ لأن الذى قدمنا ذكره مطرد فى بابه ، وعليه مدار الاستعمال ، وهذا غير مطرد ، وإنّما يحسن فى عكس المعنى المتعارف ، وذاك أن تجعل المشبه به مشبها ، والمشبه مشبها به ، ولا يحسن فى غير ذلك مما ليس بمتعارف ، ألا ترى أن من العادة والْعُرْف أن تشبه الأعجاز بالكُثْبَان ، فلما عكس ذو الرمة هذه القضية فى شعره جاء حسناً لائقاً ؟ وكذلك فعل البحترى ؛ فإن من العادة والعرف أن يشبه الوجه الحسن بالبدر والقدّ الحسن بالقضيب ، فلما عكس البحترى القضية فى ذلك جاء أيضاً حسنا لائقاً ، ولو شبه ذو الرمة الكثبان بما هو أصغر منها غير الأعجاز لما حسن ذلك ؛ وهكذا لو شبه البحترى طلعة البدر بغير طلعة الحسناء ، والقضيب بغير قدّها لما حسن ذلك أيضاً ، وهكذا القول فى تشبيه عبد الله بن المعتز صورة الهلال بالقُلَامة ؛ لأن من العادة أن تشبه القلامة بالهلال ، فلما صار ذلك مشهوراً متعارفا حسن عكس القضية فيه .

النوع الثالث

فى التجريد

وهذا اسم كنت سمعته ؛ فقال القائل : التجريد فى الكلام حسن ، ثم سكت ، فسألته عن حقيقته ، فقال : كذا سمعت ، ولم يزد شيئاً ؛ فأنعمت حينئذ نظرى فى هذا النوع من الكلام ، فألقى فى روعى أنه ينبغى أن يكون كذا وكذا ، وكان الذى وقع لى صوابا ، ثم مضى على ذلك برهة من الزمان ، ووصل إلى ماذكره أبو على الفارسى رحمه الله تعالى ، وقد أوردته ههنا ، وذكرت ماأتيت به من ذات خاطرى من زيادة لم يذكرها ، وستقف أيها المتأمل على كلامه وكلامى .

فأما حد التجريد فإنه إخْلَاصُ الخطاب لغيرك ، وأنت تريد به نفسك ، لا المخاطب نفسه ؛ لأن أصله فى وضع اللغة من جَرَّدْتُ السيف ؛ إذا نَزَعْتَه من غِمْدِه ، وجَرَّدْت فلانا ؛ إذا نزعت ثيابه ، ومن ههنا قال صلى الله عليه وسلم : « لاَ مَدَّ وَلاَ تَجْرِيدَ » وذلك فى النهى عند إقامة الحد أن يُمَدَّ صاحبه على الأرض وأن تجرَّد عنه ثيابه ، وقد نقل هذا المعنى إلى نوع من أنواع علم البيان .

وقد تأملته فوجدت له فائدتين إحداهما أبلغ من الأخرى :

فالأولى : طلب التوسع فى الكلام ، فإنه إذا كان ظاهره خطاباً لغيرك وباطنهُ خطاباً لنفسك فان ذلك من باب التوسع ؛ وأظن أنهُ شىء اختصت بهِ اللغة العربية دون غيرها من اللغات .

والفائدة الثانية — وهى الأبلغ — وذاك أنه يتمكن المخاطب من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره عَلَى نفسه ؛ إذ يكون مخاطباً بها غيره ؛ ليكون أعذر وأبرأ من العهدة فيما يقوله غير محجور عليهِ .

وعلى هذا فان التجريد ينقسم قسمين : أحدهما تجريد محض ، والآخر تجريد غير محض .

فالأول ـ وهو المحض ـ أن تأتى بكلام هو خطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك ، وذلك كقول بعض المتأخرين وهو الشاعر المعروف بالْحَيْصَ بَيْصَ فى مطالع قصيدة له[١] :

إلَامَ يَرَاكَ الْمَجْدُ فى زِىّ شاعِرٍ وَقَدْ نَحلت شَوْقاً فُرُوعُ الْمَنَابِرِ

كَتَمْتَ بِعَيْبِ الشِّعْرِ حِلْماً وَحِكْمَةً بِبَعْضِهِمَا يَنْقَادُ صَعْبُ الْمَفَاخِرِ

أَمَا وَأَبِيكَ الْخَيْرِ إنَّكَ فارسُ الْـمَقَالِ وَمُحْيِى الدَّارِسَاتِ الْغَوَابِرِ

وَإنَّكَ أعْيَيْتَ الْمَسَامِعَ وَالنُّهى بِقَوْلِكَ عَمَّا فى بُطُونِ الدَّفَاتِرِ

فهذا من محاسن التجريد ، ألا ترى أنه أجرى الخطاب على غيره وهو يريد نفسه ، كى يتمكن من ذكر ما ذكره من الصفات الفائقة ، وعدَّ ما عدَّه من الفضائل التائهة ، وكل مايجىء من هذا القبيل فهو التجريد المحض .

وأما ماقصد به التوسع خاصة فكقول الصِّمَّة بن عبد الله من شُعَراء الحماسة[٢] :

حَنَنْتَ إلى رَيَّا وَنفْسُكَ بَاعَدَتْ مَزَارَكَ مِنْ رَيَّا وَشَعْبَا كُمَا مَعَا

فَمَا حَسَنٌ أنْ تأتِىَ الْأَمْرَ طَائِعاً وَتَجْزَعَ أنْ دَاعِى الصَّبَابَةِ أسْمَعَا

وقد ورد بعد هذين البيتين مايدل على أن المراد بالتجريد فيهما التوسع ، لأنه قال[٣] :

---

(١) هو أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد ، التميمى ، ويلقب شهاب الدين له ترجمة فى وفيات الأعيان ، لابن خلكان (١ ـ ٣٦٠ الوطن) .

(٢) هذه الأبيات أول ما اختاره أبو تمام فى باب النسيب من ديوان الحماسة ؛ انظر شرح التبريزى (٣ ـ ١٩٦) .

(٣) هذان البيتان ليسا متصلين فى رواية الحماسة ، وهاك القطعة كلها برواية الحماسة :

حَنَنْتَ إلى رَيَّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ مَزَارَكَ مِنْ رَيَّا وَشَعْبَا كُمَا مَعَا

وَأَذْكُرُ أَيَّامَ الحِمَى ثُمَّ أَنْثَنِي ... عَلَى كَبِدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعَا
بِنَفْسِي تِلْكَ الأَرْضُ مَا أَطْيَبَ الرُّبَا ... وَما أَحْسَنَ المُصْطَافَ وَالمُتَرَبَّعَا

فانتقل من الخطاب التجريدى إلى خطاب النفس ، ولو استمر على الحالة الأولى لما قضى عليه بالتوسع ، وإنما كان يقضى عليه بالتجريد البليغ الذى هو الطرف الآخر ، ويتأول له بأن غرضه من خطاب غيره أن ينفى عن نفسه سمعة الهوى ومَعَرَّة العشق ؛ لما فى ذلك من الشهرة والفضاضة ، لكن قد زال هذا التأويل بانتقاله عن التجريد أولا إلى خطاب النفس .

وعلى هذا الأسلوب ورد قول أبى الطيب المتنبى :

لاَ خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلاَ مالُ ... فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الحَالُ
وَاجْزِ الأَمِيرَ الَّذِى نُعْمَاهُ فاجِئَةٌ ... بِغَيْرِ قَوْلٍ وَنُعْمَى القَوْمِ أَقْوَالُ

وهذان البيتان من مطلع قصيدة يمدح بها فاتكا الإخشيدى بمصر ، وكان وَصَله بِصِلة سنية من نفقة وكسوة قبل أن يمدحه ، ثم مدحه بعد ذلك بهذه القصيدة ، وهى من غُرَر شعره ، وقد بنى مطلعها على المعنى المشار إليه من ابتداء فاتك إياه بالصلة قبل المديح ، وليس فى التجريد المذكور فى هذين البيتين مايدل

فَمَا حَسَنٌ أَنْ تَأْتِيَ الأَمْرَ طَائِعاً ... وَتَجْزَعَ أَنْ دَاعِي الصَّبَابَةِ أَسْمَعَا
قِفَا وَدِّعَا نَجْداً وَمَنْ حَلَّ بِالحِمَى ... وَقَلَّ لِنَجْدٍ عِنْدَنَا أَنْ يُوَدَّعَا
بِنَفْسِي تِلْكَ الأَرْضُ مَا أَطْيَبَ الرُّبَا ... وَمَا أَحْسَنَ المُصْطَافَ وَالمُتَرَبَّعَا
وَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الحِمَى بِرَوَاجِعٍ ... عَلَيْكَ وَلَكِنْ خَلِّ عَيْنَيْكَ تَدْمَعَا
وَلَمَّا رَأَيْتُ البِشْرَ أَعْرَضَ دُونَنَا ... وَحَالَتْ بَنَاتُ الشَّوْقِ يَحْنِنَّ نُزَّعَا
بَكَتْ عَيْنِيَ اليُسْرَى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا ... عَنِ الجَهْلِ بَعْدَ الحِلْمِ أَسْبَلَتَا مَعَا
تَلَفَّتُّ نَحْوَ الحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي ... وَجِعْتُ مِنَ الإِصْغَاءِ لِيتاً وَأَخْدَعَا
وَأَذْكُرُ أَيَّامَ الحِمَى ثُمَّ أَنْثَنِي ... عَلَى كَبِدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعَا

على وصف النفس ولا على تزكيتها بالمديح ، كما ورد فى الأبيات الرائية المتقدم ذكرها ، وإنما هو توسع لاغير .

وأما القسم الثانى – وهو غير المحض – فإنه خطاب لنفسك لا لغيرك ، ولئن كان بين النفس والبدن فرق إلا أنهما كأنهما شىء واحد ؛ لعلاقة أحدهما بالآخر

وبين هذا القسم والذى قبله فرق ظاهر ، وذاك أولى بأن يسمى تجريداً ؛ لأن التجريد لائق به ، وهذا هو نصف تجريد ؛ لأنك لم تجرّد به عن نفسك شيئاً ، وإنما خاطبت نفسك بنفسك ، كأنك فصلتها عنك وهى منك .

فمما جاء منه قول عمرو بن الإطنابة [1] :

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ جَشَأَتْ وَجَاشَتْ ... رُوَيْدَكِ تُحْمَدِى أَوْ تَسْتَرِيحِى

وكذلك قول الآخر [2] :

---

(١) هذا البيت من كلمة له اختارها البحترى فى كتاب الحماسة وافتتح بها هذا الكتاب ، وها كها بروايته :

أَبَتْ لِى عِفَّتِى وَأَبَى بَلَائِى ... وَأَخْذِى الحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ

وَإِعْطَائِى عَلَى المَعْسُورِ مَالِى ... وَضَرْبِى هَامَةَ البَطَلِ المُشِيحِ

وَقَوْلِى كُلَّمَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ ... مَكَانَكِ تُحْمَدِى أَوْ تَسْتَرِيحِى

لِأَدْفَعَ عَنْ مَكَارِمَ صَالِحَاتٍ ... وَأَحْمِىَ بَعْدُ عَنْ عِرْضٍ صَحِيحِ

(٢) هذا بيت من شعر الحماسة يقوله أعرابى قتل أخوه ابنا له ؛ فقدم إليه أخوه ليقتاد منه ، فألقى السيف من يده وأنشأ يقول :

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءً وَتَعْزِيَةً ... إِحْدَى يَدَىَّ أَصَابَتْنِى وَلَمْ تُرِدِ

كِلَاهُمَا خَلَفٌ مِنْ فَقْدِ صَاحِبِهِ ... هٰذَا أَخِى حِينَ أَدْعُوهُ وَذَا وَلَدِى

انظر شرح التبريزى على ديوان الحماسة (١ – ٢٠٥) .

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْساءً وَتَعْزِيَةً إِحْدَى يَدَىَّ أَصَابَتْنِى وَلَمْ تُرِدِ

وليس فى هذا مايصلح أن يكون خطابا لغيرك كالأول ، وإنما المخاطب هو المخاطب بعينه ، وليس ثَمَّ شىء خارج عنه .

وأما الذى ذكره أبو على الفارسى رحمه الله فإنه قال : إن العرب تعتقد أن فى الإنسان مَعْنى كامناً فيه كأنه حقيقته ومحصوله ، فتخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجرداً من الإنسان كأنه غيره ، وهو هو بعينه ، نحو قولهم : لَئِنْ لقيت فلاناً لَتَلْقَيَنَّ به الأسد ، ولئن سألته لتسألنَّ منه الْبَحْرْ ، وهو عينه الأسد والبحر ، لا أن هناك شيئاً منفصلا عنه أو متميزاً منه .

ثم قال : وعلى هذا النمط كون الإنسان يخاطب نفسه حتى كأنه يقاول غيره كما قال الأعشى :

* وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ[1] *

وهو الرجل نفسه لاغيره .

هذا خلاصة ماذكره أبو على رحمه الله .

والذى عندى فيه أنه أصاب فى الثانى ، ولم يصب فى الأول ؛ لأن الثانى هو التجريد ، ألا ترى أن الأعشى جرد الخطاب عن نفسه وهو يريدها ، وأما الأول – وهو قوله : « لئن لقيت فلاناً لتلقين به الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر » – فإن هذا تشبيه مضمر الأداة ؛ إذ يحسن تقدير أداة التشبيه فيه ؛ وبيان ذلك أنك تقول : لئن لقيت فلاناً لتلقينّ منه كالأسد ، ولئن سألته لتسألن منه كالبحر ، وليس هذا بتجريد ؛ لأن حقيقة التجريد غير موجودة فيه ، وإنما هو

(١) هذا عجز بيت هو مطلع قصيدة طويلة للأعشى ميمون يعدها بعض الناس فى المعلقات ، وصدره قوله :

* وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ *

تشبيه مضمر الأداة ، ألا ترى أن المذكور هو كالأسد ، وهو كالبحر ، وليس ثمّ شىء مجرد عنه ، كما تقدم فى الأبيات الشعرية .

ويبطل على أبى علىّ قوله أيضا من وجه آخر ، وذاك أنه قال « إن العرب تعتقد أن فى الإنسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله ؛ فتخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجردا من الإنسان كأنه غيره ، وهو هو » كالمثال الذى مثله فى تشبيهه بالأسد وتشبيهه بالبحر ، وهذا ينتقض بقولنا : لئن رأيت الأسد لَتَرَيَنّ منه هضبة ، ولئن لقيته لتلقينّ منه الموت ؛ فإن الصورة التى أوردها فى الإنسان وزعم أن العرب تعتقد أن ذلك معنى كامن فيه قد أوردنا مثلها فى الأسد ؛ فتخصيصه ذلك بالإنسان باطل ، وكلا الصورتين ليس بتجريد ، وإنما هو تشبيه مضمر الأداة ، وقد سبق القول بأن التجريد هو أن تطلق الخطاب على غيرك ولا يكون هو المراد ، وإنما المراد نفسك ، وهذا لا يوجد فى هذا المثال المضمر الأداة ، بل المخاطب هو هو لا غيره ؛ فلا يطلق عليه إذاً اسم التجريد ؛ لأنه خارج عن حقيقته ، ومُناف لموضوعه ، فإذا قال القائل : لئن لقيته لتلقَيَنَّ به كالأسد ، ولئن سألته لتسألن منه كالبحر ؛ لم يجرد عن القول عنه شيئاً ، وإنما شبهه تارة بالأسد فى شجاعته وتارة بالبحر فى سخائه .

وما أعلم كيف ذهب هذا على مثل أبى على رحمه الله حتى خلطه بالتجريد وأجراه مجراه .

وأما قوله « إن العرب تعتقد أن فى الإنسان معنى كامناً فيه كأنه حقيقته ومحصوله » فأقول : وغير العرب أيضاً تعتقد ذلك : فإن عنى بالمعنى الكامن معنى الإنسانية الذى هو الاستعداد للعلوم والصنائع ، فما هذا من الشىء الغريب الخفى الذى علمته العرب خاصة وانفرد باستخراجه أبو على رحمه الله ، وإن عنى بالمعنى الكامن ما فيه من الأخلاق كالشجاعة والسخاء فى المثال الذى ذكره

حتى يشبه بالأسد تارة و بالبحر أخرى فليس الإنسان مختصًّا بهذا المعنى الكامن دون غيره من الحيوانات ، بل الأسد فيه من معنى الشجاعة ماليس فى الإنسان ؛ ولهذا إذا بولغ فى وصف الإنسان بالشجاعة شبه بالأسد ، وكذلك فى بعض الحيوانات من السخاء ماليس فى الإنسان ، ومن الأمثال : أكرم من ديك ؛ لأنه إذا ظفر بحبة من الحنطة أخذها فى منقاره وطاف بها على الدجاج حتى يضعها فى منقار واحدة منهن ؛ فالأخلاق إذًا مشتركَةٌ بين الإنسان و بين غيره من الحيوانات ، غير أن الإنسان يجتمع فيه ماتفرق فى كثير منها .

وما أعلم ما أراد أبو على رحمه الله بقوله : « إن فى الإنسان معنى كامناً فيه كأنه حقيقته ومحصوله » إلا أن يكون أحد هذين القسمين اللذين أشرت إليهما على أن القسم الواحد الذى هوخلق الشجاعة والسخاء وغيره من الأخلاق ليس عبارة عن حقيقة الإنسان ؛ إذ لايقال فى حده : حيوان شجاع ، ولا سخى ، بل يقال : حيوان ناطق ، فالنطق الذى هو الاستعداد للعلوم والصنائع هو حقيقة الإنسان ؛ فبطل إذاً قول أبى على رحمه الله فى تمثيله حقيقة الإنسان بالشجاعة والسخاء .

فالخطأ توَجَّه فى كلامه من وجهين : أحدهما : أنه جعل حقيقة الإنسان عبارةً عن خلقه ، والآخر : أنه أدخل فى التجريد ماليس منه

وهذا القدر كاف فى هذا الموضع ؛ فليتأمل .

قد تم - بحمد الله تعالى وحسن توفيقه -
الجزء الأول من كتاب :

المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر

ويليه - إن شاء الله تعالى - الجزء الثانى :
مفتتحاً بـ« النوع الرابع فى الالتفات »

المثل السائر

فى أدب الكاتب والشاعر

تأليف

أبى الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم
المعروف بابن الأثير، الموصلى، المتوفى فى عام ٦٣٧ من الهجرة

بتحقيق

محمد محيى الدين عبد الحميد
المدرس فى قسم التخصص بكلية اللغة العربية
بالجامع الأزهر

الجزء الثانى

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر
١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م / ٨٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى ، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى

النوع الرابع

فى الالتفات

وهذا النوع وما يليه هو خُلَاصة علم البيان التى حولها يُدَنْدَن ، وإليها تستند البلاغة ، وعنها يعنعن ، وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله ، فهو يقْبِل بوجهه تارة كذا وتارة كذا ، وكذلك يكون هـذا النوع من الكلام خاصة ؛ لأنه ينتقل فيه عن صيغة إلى صيغة ، كالانتقال من خطابِ حاضرٍ إلى غائب ، أو من خطاب غائب إلى حاضر . أو من فعل ماض إلى مستقبل ، أو من مستقبل إلى ماض ، أو غير ذلك مما يأتى ذكره مفصلا ، ويسمى أيضا « شجاعة العربية » وإنما سمى بذلك لأن الشجاعة هى الإقدام ، وذاك أن الرجل الشجاع يركب مالا يستطيعه غيره ، ويَتَوَرَّد مالا يتورّده سواه ، وكذلك هذا الالتفات فى الكلام ؛ فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات .

وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : فى الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة .

اعلم أن عامة المنتمين إلى هـذا الفن إذا سُئِلوا عن الانتقال عن الغيبة إلى الخطاب وعن الخطاب إلى الغيبة ، قالوا : كذلك كانت عادة العرب فى أساليب كلامها ، وهذا القول هو عُكَّاز العميان ، كما يقال ، ونحن إنما نسأل عن السبب الذى قصدت العرب ذلك من أجله .

وقال الزمخشرى رحمه الله : إن الرجوع من الغيبة إلى الخطاب إنما يستعمل للتفنن فى الكلام ، والانتقال من أسلوب إلى أسلوب ؛ تَطْرِيةً لنشاط السامع ، وإيقاظا للإصغاء إليه .

وليس الأمر كما ذكره ؛ لأن الانتقال فى الكلام من أسلوب إلى أسلوب إذا لم يكن إلا تطريةً لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه ؛ فإن ذلك دليل على

أنّ السامع يَمَل من أسلوب واحد فينتقل إلى غيره ليجد نشاطا للاستماع ، وهذا قدح فى الكلام ، لاوصف له ؛ لأنه لوكان حسنا لما مل ، ولو سلمنا إلى الزمخشرى ماذهب إليه لكان إنما يوجد ذلك فى الكلام المطوّل ، ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك ؛ لأنه قد ورد الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ، فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، ويكون مجموع الجانبين معا يبلغ عشرة ألفاظ ، أو أقل من ذلك ، ومفهوم قول الزمخشرى فى الانتقال من أسلوب إلى أسلوب إنما يستعمل قصداً للمخالفة بين المنتقَلِ عنه والمنتقَلِ إليه ، لاقصدًا لاستعمال الأحسن ، وعلى هذا فإذا وجدنا كلاما قد استعمل فى جميعه الإيجاز ولم ينتقل عنه ، أو استعمل فيه جميعه الإطناب ولم ينتقل عنه ، وكان كلا الطرفين واقعا فى موقعه ؛ قلنا : هذا ليس بحسن؛ إذ لم ينتقل فيه من أسلوب إلى أسلوب ، وهذا قول فيه مافيه ، وما أعلم كيف ذهب على مثل الزمخشرى مع معرفته بفن الفصاحة والبلاغة .

والذى عندى فى ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، أو من الغيبة إلى الخطاب ؛ لايكون إلا لفائدة اقْتَضَتْه ، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب ، غير أنها لا تُحَدُّ بحدٍّ ، ولا تُضْبَط بضابط ، لكن يشار إلى مواضع منها ليقاس عليها غيرها ؛ فانا قد رأينا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب ، ثم رأينا ذلك بعينه وهو ضد الأول قد استعمل فى الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، فعلمنا حينئذ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لايجرى على وتيرة واحدة ، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود ، وذلك المعنى يَتَشَعَّبُ شُعَباً كثيرة لا تنحصر ، وإنما يؤتى بها على حسب الموضع الذى ترد فيه .

وسأوضح ذلك فى ضرب من الأمثلة الآتى ذكرها .

فأما الرجوع من الغيبة إلى الخطاب فكقوله تعالى فى سورة الفاتحة: (الْحَمْدُ لِلهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) هـذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب ، ومما يختص به هـذا الكلام من الفوائد قوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) بعد قوله : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فإنه إنما عَدَل فيه من الغيبة إلى الخطاب لأن الحمد دون العبادة ، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده ، فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة فى الخبر فقال : (الحمد لله) ولم يقل « الحمد لك » ولما صار إلى العبادة التى هى أقصى الطاعات قال : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) نخاطب بالعبادة إصْرَاحًا بها وَتقرُّباً منه عَزَّ اسمه بالانتهاء إلى محدود منها ، وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة ، فقال : (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة ، ثم قال : (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) عطفا على الأول ؛ لأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه ، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفاً عن ذكر الغاضب ؛ فأسند النعمة إليه لفظا ، وَزَوَى عنه لفظ الغضب تحننا ولطفا ، فانظر إلى هذا الموضع ، وتناسب هذه المعانى الشريفة التى الْأَقْدَامُ لاتكاد تطؤها ، والأفهام مع قربها صافحة عنها ، وهذه السورة قد انتقل فى أولها من الغيبة إلى الخطاب ؛ لتعظيم شأن المخاطب ، ثم انتقل فى آخرها من الخطاب إلى الغيبة ؛ لتلك العلة بعينها ، وهى تعظيم شأن المخاطب أيضاً ؛ لأن مخاطبة الربّ تبارك وتعالى بإسناد النعمة إليه تعظيم لخطابه ، وكذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه تعظيم لخطابه ، فينبغى أن يكون صاحب هـذا الفن من الفصاحة والبلاغة عالماً بوضع أنواعه فى مواضعها على اشتباهها .

ومن هذا الضرب قوله تعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا) وإنما قيل : (لقد جئتم) وهو خطاب للحاضر بعد قوله : (وقالوا) وهو خطاب للغائب لفائدة حسنة ، وهى زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى

والتعرض لسخطه ، وتنبيه لهم على عظم ماقالوه ، كأنه يخاطب قوماً حاضرين بين يديه منكراً عليهم ومُوَبِّخاً لهم .

ومما جاء من الالتفات مراراً على قصر متنه ، وتقارب طرفيه ، قوله تعالى أول سورة بنى إسرائيل : (سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) فقال أولاً : (سبحان الذى أسرى) بلفظ الواحد ، ثم قال : (الذى باركنا) بلفظ الجمع ، ثم قال: (إنه هو السميع البصير) وهو خطاب غائب ، ولو جاء الكلام على مساق الأول لكان : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك حوله ليريه من آياته إنه هو السميع البصير ، وهذا جميعه يكون معطوفاً على أسرى ، فلما خولف بين المعطوف والمعطوف عليه فى الانتقال من صيغة إلى صيغة كان ذلك اتِّساعاً وتفنناً فى أساليب الكلام ، ولمقصد آخر معنوى هو أعلى وأبلغ .

وسأذكر ماسنح لى فيه فأقول : لما بدأ الكلام بسبحان ردفه بقوله الذى أسرى ؛ إذ لايجوز أن يقال الذى أسرينا ؛ فلما جاء بلفظ الواحد والله تعالى أعظم العظماء ، وهو أولى بخطاب العظيم فى نفسه الذى هو بلفظ الجمع ، استدرك الأول بالثانى ؛ فقال : (باركنا) ثم قال : (لنريه من آياتنا) فجاء بذلك على نَسَقِ (باركنا) ثم قال : (إنه هو) عطفاً على أسرى ، وذلك موضع متوسط الصفة ؛ لأن السمع والبصر صفتان يشاركه فيهما غيره ، وتلك حال متوسطة ، فخرج بهما عن خطاب العظيم فى نفسه إلى خطاب غائب ، فانظر إلى هذه الالتفاتات المترادفة فى هذه الآية الواحدة التى جاءت لمعانٍ اختصت بها ، يعرفها من يعرفها ويجهلها من يجهلها .

ومما ينخرط فى هذا السلك الرجوع من خطاب الغيبة إلى خطاب النفس ، كقوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا

طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) وهذا رجوع من الغيبة إلى خطاب النفس، فانه قال: (وَزَيَّنَّا) بعد قوله: (ثُمَّ اسْتَوَى) وقوله: (فَقَضَاهُنَّ) (وأَوْحَى) والفائدة فى ذلك أن طائفة من الناس غير المتشرعين يعتقدون أن النجوم ليست فى سماء الدنيا، وأنها ليست حفظاً ولا رجوماً، فلما صار الكلام إلى ههنا عدل به عن خطاب الغائب إلى خطاب النفس؛ لأنه مهم من مهمات الاعتقاد، وفيه تكذيب للفرقة المكذبة المعتقدة بطلانه، وفى خلاف هذا الرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الغيبة.

ومما ينخرط فى هذا السلك أيضاً الرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الجماعة، كقوله تعالى: (وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم لأنه أبرز الكلام لهم فى مَعْرِض المناصحة، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويُدَارِيهم، لأن ذلك أدخل فى إمحاض النصح حيث لايريد لهم إلا مايريد لنفسه، وقد وضع قوله: (وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي) مكان قوله: وما لكم لاتعبدون الذى فطركم، ألا ترى إلى قوله: (وإليه ترجعون) ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذى فطرنى وإليه أرجع، وقد ساقه ذلك المَسَاقَ إلى أن قال: (إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ) فانظر أيها المتأمل إلى هذه النكت الدقيقة التى تمر عليها فى آيات القرآن الكريم وأنت تظن أنك فهمت فَحْوَاهَا واستنبطت رُمُوزَهَا.

وعلى هذا الأسلوب يجرى الحكم فى الرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الواحد، كقوله تعالى: (حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) والفائدة ههنا فى الرجوع من خطاب

النفس إلى خطاب الواحد تخصيص النبيّ صلى الله عليه وسلم بالذكر ، والإشارة بأن إنزال الكتاب إنما هو إليه ، وإن لم يكن ذلك صريحاً . لكن مفهوم الكلام يدلّ عليه .

وإذا تأملت مَطاوِى القرآن الكريم وجدت فيه من هذا وأمثاله أشياء كثيرة ، وإنما اقتصرنا على هذه الأمثلة المختصرة ليقاس عليها مايجرى على أسلوبها.

وقد ورد فى فصيح الشعر شىء من ذلك ، كقول أبى تمام [1] :

وَرَكْبٍ يُسَاقُونَ الرِّكَابَ زُجَاجَةً ... مِنَ السَّيْرِ لَمْ تَقْصِدْ لَهَا كَفُّ قَاطِبِ [2]

فَقَدْ أَكَلُوا مِنْهَا الْغَوَارِبَ بِالسُّرَى ... وَصَارَتْ لَهَا أَشْبَاحُهُمْ كَالْغَوَارِبِ [3]

يُصَرِّفُ مَسْرَاهَا جُذَيْلُ مَشَارِقٍ ... إِذَا آبَهُ هَمٌّ عُذَيْقُ مَغَارِبِ [4]

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى ، وأولها قوله :

عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلَاعِبِ ... تُذَالُ مَصُونَاتُ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ

وقد تقدم لها فى هذا الكتاب ذكر ، فانظر (ج ١ ص ٥٦) .

(٢) الركب : الجماعة الراكبون ، قيل : هو خاص بركاب الإبل ، والركاب - بكسر الراء - الركائب ، والقاطب : الذى يمزج الخمر بالماء ، يريد أن هؤلاء الراكبين يسيرون هذه الركائب سيرا شديدا فيه إجهاد وعنف ، ولا يمزجونه باللين والشفقة ؛ والمقصود أنهم مغذون فى السير مجدون .

(٣) الغوارب : جمع غارب ، وهو الكاهل ، والسرى : سير الليل ، ولها : الضمير يعود إلى الركاب ، يريد أن شدة سير هؤلاء وإدامته ، قد أكلت غوارب ركائبهم ، ولقد صارت الركائب تحسب الراكبيها غوار بها ؛ لكثرة ماألفتهم واعتادتهم .

(٤) يصرف مسراها : يسيرها ويميل بها كما يشاء ، والجذيل : تصغير جذل وهو عود ينصب لتحتك به الجمال الجربى ، والعذيق : تصغير عذق ، وهو فى الأصل قنو النخلة ، ويكنى بهذين الوصفين عن الرجل المحنك المجرب للأمور ، ومنه قول القائل :

« أَنَا جُذَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ وَعُذَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ »

يَرَى بِالْكَعَابِ الرودِ طَلْعَةَ ثَائِرٍ وَبِالْعِرْمِسِ الْوَجْنَاء غُرَّةَ آيِبِ (١)
كَأَنَّ بِهَا ضِغْنًا عَلَى كُلِّ جَانِبٍ مِنَ الْأَرْضِ أَوْ شَوْقًا إِلَى كُلِّ جَانِبِ (٢)
إِذَا الْعِيسُ لَاقَتْ بِى أَبَادُلَفٍ فَقَدْ تَقَطَّعَ مَا بَيْنِى وَبَيْنَ النَّوَائِبِ (٣)
هُنَالِكَ تَلْقَى الْجُودَ مِنْ حَيْثُ قُطِّعَتْ تَمَائِمُهُ وَالْمَجْدَ مُرْخَى الذَّوَائِبِ (٤)

ألا ترى أنه قال فى الأول : « يُصَرِّفُ مَسْرَاها » مخاطبة للغائب ، ثم قال بعد ذلك : « إذا العيسُ لاقت بى » مخاطباً نفسه ، وفى هذا من الفائدة أنه لما صار إلى مشافهة الممدوح والتصريح باسمه خاطب عند ذلك نفسه مبشراً لها بالبعد عن المكروه والقرب من المحبوب ، ثم جاء بالبيت الذى يليه معدولاً به عن خطاب نفسه إلى خطاب غيره ، وهو أيضاً خطاب لحاضر ، فقال : « هُنَالِكَ تَلْقَى الجود » والفائدة بذلك أنه يخبر غيره بما شاهده ، كأنه يصف له جود الممدوح وما لاقاه منه ؛ إشادةً بذكره ، وتنويهاً باسمه ، وحملاً لغيره على قصده ، وفى صفته جود الممدوح بتلك الصفة الغريبة البليغة ، وهى قوله : « حيث قُطِّعَتْ تمائمه » مايقتضى

(١) الكعاب: البارزة النهدين ، والرود : الجارية الناعمة ، والثائر : الهائج للقتال ، والعرمس : الناقة الشديدة ، والوجناء : القوية .

(٢) الضغن – بكسر فسكون هنا – الحقد ، يريد أنه كثير الترحال ؛ فهو إما كاره لجميع بقاع الأرض فهو لايبقى فى بقعة منها إلا ريثما يتحول عنها ، وإما محب لجميع البقاع فهو فى شغف شديد إلى رؤية كل بقعة منها .

(٣) العيس : الإبل البيض التى يخالط بياضها شقرة ، واحدها أعيس وعيساء ، والنوائب : المصائب ، واحدها نائبة ، وهى فى الأصل اسم فاعل من نابت تنوب : أى عرت وعرضت .

(٤) رواية الديوان فى هذا البيت هكذا :

هُنَالِكَ تَلْقَى الْمَجْدَ حَيْثُ تَقَطَّعَتْ تَمَائِمُهُ ، وَالْجُودَ مُرْخَى الذَّوَائِبِ

والتمائم : جمع تميمة ، وهى مايعلق على الصبى ليحفظه فى زعمهم ، والذوائب : جمع ذؤابة ، وهى الخصلة من الشعر .

له الرجوع إلى خطاب الحاضر ، والمراد بذلك أن محل الممدوح هو مألف الجود ومنشؤه ووطنه ، وقد يراد به معنى آخر ، وهو أن هذا الجود قد أمن عليه الآفات العارضة لغيره من المَنّ والمَطْل والاعتذار وغير ذلك ، إذ التمائم لاتقطع إلا عمن أمنت عليه المخاوف .

وعلى هذا النهج ورد قول أبى الطيب المتنبي فى قصيد[1] يمدح به ابن العميد فى النوروز ، ومن عادة الفرس فى ذلك اليوم حمل الهدايا إلى ملوكهم ، فقال فى آخر القصيد :

كَثُرَ الفِكْرُ كَيْفَ نُهْدِى كما أَهْدَتْ إِلَى رَبِّهَا الَمِليكِ عِبادُهْ[2]
وَالَّذِى عِنْدَنَا مِنَ المَالِ وَالْخَيْلِ فَمِنْهُ هِبَاتُهُ وَقِيَادُهْ[3]
فَبَعَثْنَا بِأَرْبَعِينَ مِهَاراً كُلُّ مُهْرٍ مَيْدَانُهُ إِنْشَادُهْ[4]
عَدَدٌ عِشْتَهُ يَرَى الْجِسْمُ فِيهِ أَرَبًا لَا يَرَاهُ فِيمَا يُزَادُهْ[5]

(١) أول هذه القصيدة قوله :

جَاءَ نَيْرُوزُنَا وَأَنْتَ مُرَادُهْ وَوَرَتْ بِالَّذِى أَرَادَ زِنَادُهْ

(٢) يقول : قد أكثرت الفكر ، وترددت كيف أهدى إليك شيئا ، كما تهدى العبيد إلى ربها .

(٣) يقول : كل ماعندنا من الأموال والخيول ، فهو من هباته ومنائحه ، وما قاده لنا من الخيول فهو من عنده ، وقد أخذ هذا المعنى من قول ابن الرومى :

أَفَنُهْدِى إِلَيْكَ مَامِنْكَ يُهْدَى مِنْكَ يَا جَنَّةَ النَّعِيمِ الهَدَايَا

(٤) المهر : الفتى من أولاد الخيل ، وتقول : مهر ومهرة ، والجمع مهار وأمهار ومهرات ، وأراد هنا بالمهر البيت من الشعر ، ويروى « مهار » بالجر وبالنصب ؛ فالجر على أنه بدل أو صفة ، والنصب ليس على التميز؛ لأن تمييز هذا العدد مفرد ، تقول : عندى أربعون دينارا ، وفى التنزيل العزيز (وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً) ولكنه على النعت على المعنى ؛ لأن المجرور فى المعنى مفعول به .

(٥) المعنى زاد الله فى عمرك هذا العدد ، وهو الأربعون ؛ وكان ابن العميد قد جاوز السبعين .

فَارْتَبِطْهَا فَإِنَّ قَلْبًا نَمَاهَا مَرْبِطٌ تَسْبِقُ الْجِيَادَ جِيَادُهْ(١)

وهذا من إحسان أبى الطيب المعروف ، وهو رجوع عن خطاب الغائب إلى الحاضر ، واحتج أبو الطيب عن تخصيص أبياته بالأربعين دون غيرها من العدد بحجة غريبة ، وهى أنه جعلها كعدد السنين التى يرى الإنسان فيها من القوة والشباب وقضاء الأوطار ما لا يراه فى الزيادة عليها ، فاعتذر بألطف اعتذار فى أنه لم يزد القصيد على هذه العدة ، وهذا حسن غريب .

وأما الرجوع من الخطاب إلى الغيبة فكقوله تعالى : (هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) فإنه إنما صرف الكلام ههنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة ، وهى أنه ذكر لغيرهم حالهم لِيُعَجِّبَهُمْ منها كالمخبر لهم ويستدعى منهم الإنكار عليهم ، ولو قال : حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها ، وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية ؛ لذهبت تلك الفائدة التى أنتجها خطاب الغيبة ، وليس ذلك بخاف عن نَقَدَة الكلام ،

ومما ينخرط فى هذا السلك قوله تعالى : (إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) الأصل فى تَقَطَّعُوا تقطعتم ، عَطْفًا على الأول ، إلا أنه صرف (٢) الكلام من الخطاب إلى

(١) يريد بالقلب الذى نماها قلبه ، ويريد بالجياد الأبيات التى أنشأها وصنعها ، ولما عبر فيما سبق عن الأبيات بالمهار عبر ههنا عن حفظها بالارتباط ؛ ليجانس الكلام بعضه بعضا .

(٢) فى ب ، ج « حرف الكلام » بالحاء المهملة ، وهو تحريف ، وصوابه « صرف الكلام » بالصاد المهملة ، كما أثبتناه .

الغيبة على طريقة الالتفات ، كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى قوم آخرين ، ويقبح عندهم مافعلوه ، ويقول : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله تعالى . فجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قِطعاً ، وذلك تمثيل لاختلافهم فيه وتباينهم ، ثم تَوَعَّدَهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون ؛ فهو مُجازيهم على مافعلوا

ومما يجرى هذا المجرى قوله تعالى : (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) فإنه إنما قال : (فآمنوا بالله ورسوله) ولم يقل فآمنوا بالله و بى عطفا على قوله إنى رسول الله إليكم لكى تجرى عليه الصفات التى أجريت عليه ، وليعلم أن الذى وجب الإيمان به والاتباع له هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبى الأمى الذى يؤمن بالله و بكلماته كائنا من كان أنا أو غيرى ؛ إظهاراً للنَّصَفَةِ ، و بعداً من التعصب لنفسه ، فقدّر أولا فى صدر الآية إنى رسول الله إلى الناس ، ثم أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة لغرضين : الأول منهما إجراء تلك الصفات عليه ، والثانى الخروج من تهمة التعصب لنفسه .

القسم الثانى : فى الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر ، وعن الفعل الماضى إلى فعل الأمر .

وهذا القسم كالذى قبله فى أنه ليس الانتقال فيه من صيغة إلى صيغة طلباً للتوسع فى أساليب الكلام فقط ، بل لأمر وراء ذلك ، و إنما يُقصَد إليه تعظيماً لحال من أجرى عليه الفعل المستقبل ، وتفخيماً لأمره ، وبالضد من ذلك فيمن أجرى عليه فعل الأمر .

فمما جاء منه قوله تعالى : (يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) فإنه إنما قال : (أشهد الله واشهدوا)

ولم يقل وأشهدكم ليكون موازناً له و بمعناه لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت ، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاونٌ بهم ، ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم ، ولذلك عدل به عن لفظ الأول ؛ لاختلاف مابينهما ، وجيء به على لفظ الأمر ، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه : أُشْهَدْ علىَّ أنى أحبك ، تهكماً به ، واستهانة بحاله .

وكذلك يرجع عن الفعل الماضى إلى فعل الأمر ؛ إلا أنه ليس كالأول ، بل إنما يفعل ذلك توكيداً لما أجرى عليه فعل الأمر ؛ لمكان العناية بتحقيقه ، كقوله تعالى : (قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ـ الآية) وكان تقدير الكلام أمر؛ ربى بالقسط و بإقامة وجوهكم عند كل مسجد ، فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر ؛ للعناية بتوكيده فى نفوسهم ؛ فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ، ثم أتبعها بالإخلاص الذى هو عمل القلب ، إذ عمل الجوارح لايصح إلا بإخلاص النية ، ولهذا قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » .

واعلم أيها المتوشّح لمعرفة علم البيان ، أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لايكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك ، وهو لايَتَوخَّاه فى كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة ، الذى اطلع على أسرارهما ، وفتش عن دفائنهما ، ولا تجد ذلك فى كل كلام ؛ فإنه من أشكل ضروب علم البيان ، وأدقّها فَهْماً ، وأغمضها طريقاً .

القسم الثالث : فى الإخبارعن الفعل الماضى بالمستقبل ، وعن المستقبل بالماضى ، فالأول الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضى : اعلم أن الفعل المستقبل إذا أتى به فى حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضى ، وذاك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التى يقع فيها ، ويستحضر تلك الصورة حتى كأنّ السامع يشاهدها ، وليس كذلك الفعل الماضى ، وربما أدخل فى هذا

الموضع ماليس منه جهْلاً بمكانه ؛ فإنه ليس كل فعل مستقبل يعطف على ماض بمجارٍ هذا المجرى .

وسأبين ذلك فأقول : عطف المستقبل على الماضى ينقسم إلى ضربين : أحدهما بلاغى ، وهو إخبار عن ماض بمستقبل ، وهو الذى أنا بِصَدَدِ ذكره فى كتابى هذا الذى هو موضوع لتفصيل ضروب الفصاحة والبلاغة ، والآخر غير بلاغى ، وليس إخبارا بمستقبل عن ماض ، وإنما هو مستقبل دلّ على معنى مستقبل غير ماض ، ويراد به أن ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمض .

فالضرب الأول كقوله تعالى : (وَاللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ) فإنه إنما قال : (فتثير) مستقبلا وما قبله ومابعده ماض لذلك المعنى الذى أشرنا إليه ، وهو حكاية الحال التى يقع فيها إثارةُ الريح السحابَ ، واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة ، وهكذا يفعل بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية ، لحال تُسْتَغْرَبُ أوتهمّ المخاطب أو غير ذلك .

وعلى هـذا الأسلوب ما ورد من حديث الزبير بن العوام رضى الله عنه فى غزوة بدر ؛ فإنه قال : لقيتُ عبيدة بن سعيد بن العاص وهو على فرس وعليه لَأْمَةٌ(١) كاملة لا يُرَى منه إلاعيناه ، وهو يقول : أنا أبوذات الكئوس ، وفى يدى عَنَزَة(٢) فأطعن بها فى عينه ، فوقع ، وأطأ برجلى على خده حتى خرجت الْعَنَزَة مُتَعَقِّفَةً(٣) ؛ فقوله : «فأطعن بهـا فى عينه ، وأطأ برجلى» معدول به عن لفظ

---

(١) اللأمة ـ بفتح اللام وسكون الهمزة ، وقد تخفف همزته فتقلب ألفا ، كما يقال : راس ، وسـال ـ وهى الدرع ، ويقال : اللأمة السلاح ، ولأمة الحرب : أداته .

(٢) العنزة ـ بفتح العين والنون ـ مثل نصف الرمح ، أوأكبر شيئا ، وفيها سنان مثل سنان الرمح ، والعكازة : قريب منها .

(٣) متعقفة : ملوية .

الماضى إلى المستقبل ؛ ليمثل للسامع الصورة التى فعل فيها ما فعل من الإقدام والجراءة على قتل ذلك الفارس المستلئم ، ألا ترى أنه قال أولا : لقيت عبيدة ، بلفظ الماضى ، ثم قال بعد ذلك : فأطعن بها فى عينه ، ولو عطف كلامه على أوله لقال : فطعنت بها فى عينه .

وعلى هذا ورد قول تأبَّطَ شرًّا(١) :

بِأَنِّى قَدْ لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوِى   بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ (٢)

فَأَضْرِبُهَا بِلَا دَهَشٍ فَخَرَّتْ   صَرِيعاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ (٣)

فإنه قصد أن يصوّر لقومه الحال التى تَشَجَّعَ فيها على ضرب الغول ، كأنه يبصرهم إياها مشاهَدَةً ، للتعجب من جراءته على ذلك الهول ، ولو قال فضربتها عطفاً على الأول لزالت هذه الفائدة المذكورة .

فإن قيل : إن الفعل الماضى أيضاً يَتَخَيَّل منه السامع مايتخيله من المستقبل قلت فى الجواب : إن التخيل يقع فى الفعلين معاً ، لكنه فى أحدهما ــ وهو المستقبل ــ أوكد وأشد تخيلا ؛ لأنه يستحضر صورة الفعل حتى كأن السامع ينظر

(١) من كلمة له رواها غير واحد من حملة الشعر ، منهم أبو الفرج الإصبهانى فى الأغانى (١٨ ــ ٢١٠ بولاق) وأول هذه الكلمة قوله :

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ فِتْيَانَ فَهْمٍ   بِمَا لَاقَيْتُ عِنْدَ رَحَى بِطَانِ

(٢) وقع فى ب ، ج « بشهب كالصحيفة » وهو تحريف ، وتصويبه عن الأغانى فى الموضع السابق ذكره ، والسهب ــ بفتح فسكون ــ الأرض المستوية ، وجمعه سهوب ، ولذلك شبهه بالصحيفة ، والصحصحان ومثله الصحصح : الأرض الواسعة المستوية

(٣) روى أبو الفرج وغيره بين هذين البيتين بيتين آخرين ، وهما قوله :

فَقُلْتُ لَهَا : كِلَانَا نِضْوُ أَيْنٍ   أَخُو سَفَرٍ ؛ فَخَلِّى لِى مَكَانِى

فَشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوِى فَأَهْوَى   لَهَا كَفِّى بِمَصْقُولٍ يَمَانِ

وبعد ذلك البيت الثانى الذى ذكره المؤلف .

إلى فاعلها فى حال وجود الفعل منه ، ألا ترى أنه لما قال تأبط شرا « فأضربها » تخيل السامع أنه مباشر للفعل ، وأنه قائم بإزاء الغول ، وقد رفع سيفه ليضربها ، وهذا لا يوجد فى الفعل الماضى ؛ لأنه لا يتخيل السامع منه إلا فعلاً قد مضى من غير إحضار للصورة فى حالة سماع الكلام الدال عليه ، وهذا لا خلاف فيه ، وهكذا يجرى الحكم فى جميع الآيات المذكورة ، وفى الأثر عن الزبير رضى الله عنه ، وفى الأبيات الشعرية .

وعليه ورد قوله تعالى أيضاً ، وهو : (ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) فقال أولا « خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ » بلفظ الماضى ، ثم عطف عليه المستقبل الذى هو « فَتَخْطَفُهُ » وَ « تَهْوِي » ، وإنما عدل فى ذلك إلى المستقبل لاستحضار صورة خطف الطير إياه وهُوِىّ الريح به ، والفائدة فى ذلك ما أشرت إليه فيما تقدم ، وكثيراً مايراعى أمثال هذا فى القرآن .

وأما الضرب الثانى ـ الذى هو مستقبل ـ فكقوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) فإنه إنما عطف المستقبل على الماضى لأن كفرهم كان ووجد ، ولم يستجدُّوا بعده كفرا ثانياً ، وصَدُّهم متجدد على الأيام لم يمض كونه ، وإنما هو مستمر يستأنف فى كل حين ، وكذلك ورد قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضى ههنا إلى المستقبل فقال : (فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) ولم يقل فأصبحت عطفاً على أنزل ، وذلك لإفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان ؛ فإنزال الماء مَضَى وجوده ، واخضرار الأرض باقٍ لم يَمْضِ ، وهذا

كما تقول : أَنْعَمَ عَلَيَّ فُلَانٌ فَأَرُوحُ وَأَغْدُو شاكرا له ، ولو قلت : فَرُحْتُ وَغَدَوْتَ شاكراً له ، لم يقع ذلك الموقع ؛ لأنه يدل على ماضٍ قد كان وانقضى ، وهذا موضع حسن ينبغى أن يتأمل .

وأما الإخبار بالفعل الماضى عن المستقبل فهو عكس ما تقدم ذكره ، وفائدته أن الفعل الماضى إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذى لم يوجد بَعْدُ كان ذلك أبلغ وأوكد فى تحقيق الفعل وإيجاده ؛ لأن الفعل الماضى يعطى من المعنى أنه قد كان ووجد ، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التى يستعظم وجودها .

والفرق بينه وبين الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضى أن الغرض بذاك تَبْيينُ هيئة الفعل واستحضار صورته ؛ ليكون السامع كأنه يشاهدها ، والغرض بهذا هو الدلالة على إيجاد الفعل الذى لم يوجد بعد .

فمن أمثلة الإخبار بالفعل الماضى عن المستقبل قوله تعالى : (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) فإنه إنما قال (ففزع) بلفظ الماضى بعد قوله (يُنْفَخُ) وهو مستقبل للإشعار بتحقيق الفزع ، وأنه كائن لامحالة ؛ لأن الفعل الماضى يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به .

وكذلك جاء قوله تعالى : (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) وإنما قيل (وَحَشَرْنَاهُمْ) ماضيا بعد (نُسَيِّرُ) وَ (تَرَى) وهما مستقبلان للدلالة على أن حَشْرَهُمْ قبل التسيير والبروز ليشاهدوا تلك الأحوال ، كأنه قال: وحشرناهم قبل ذلك ؛ لأن الحشر هوالمهم ؛ لأن من الناس من ينكره كالفلاسفة وغيرهم ، ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضى

ومما يجرى هذا المجرى الإخبار باسم المفعول عن الفعل المستقبل ، وإنما يفعل ذلك لتضمنه معنى الفعل الماضى ، وقد سبق الكلام عليه .

فمن ذلك قوله تعالى : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) فإنه إنما آثر اسم المفعول الذى هو (مجموع) على الفعل المستقبل الذى هو يجمع لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه الموصوف بهذه الصفة ، وإن شئت فوازن بينه و بين قوله تعالى : (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ) فإنك تعثر على صحة ماقلت .

النوع الخامس

فى توكيد الضميرين

إن قيل فى هذا الموضع : إن الضمائر مذكورة فى كتب النحو ؛ فأى حاجة إلى ذكرها ههنا ولم نعلم أن النحاة لايذكرون ماذكرته ؟

قلت : إن هذا يختص بفصاحة و بلاغة ، وأولئك لايتعرضون إليه ، وإنما يذكرون عدد الضمائر ، وأنّ المنفصل منها كذا ، والمتصل كذا ، ولا يتجاوزون ذلك ، وأما أنا فإنى أوردت فى هذا النوع أمراً خارجاً عن الأمر النحوىّ ، وأعنى بقولى « توكيد الضميرين » أن يؤكد المتصل بالمنفصل ، كقولك : إنَّكَ أَنْتَ ، أو يؤكد المنفصل بمنفصل مثله ، كقولك : أَنْتَ أَنْتَ ، أو يؤكد المتصل بمتصل مثله ، كقولك : إنَّكَ إنَّكَ لَعَالِم ، أو إنَّكَ إنَّكَ لَجَوَادٌ .

و إنما يؤتى بمثل هذه الأقوال فى معرض المبالغة ، وهو من أسرار علم البيان .

ولنقدم فى ذلك قولا يحصره و يجمع أطرافه ؛ فنقول :

إذا كان المعنى المقصود معلوما ثابتاً فى النفوس فأنت بالخيار فى توكيد أحد الضميرين فيه بالآخر ، و إذا كان غير معلوم ، وهو مما يشك فيه ؛ فَالأَوْلَى حينئذ أن يؤكد أحد الضميرين بالآخر فى الدلالة عليه ؛ لتقرره وتثبته .

فمما جاء من ذلك قوله تعالى : (قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ) فإن إرادة السَّحَرَة الإلقاء قبل موسى لم تكن معلومة عنده ؛ لأنهم لم يُصَرِّحُوا بما فى أنفسهم من ذلك ، لكنهم لما عدلوا عن مقابلة خطابهم موسى بمثله إلى توكيد ماهو لهم بالضميرين اللذين هما نكون ونحن دَلَّ ذلك على أنهم يريدون التقدم عليه والإلقاء قبله ؛ لأنّ من شأن مقابلة خطابهم موسى بمثله أن كان قالوا : إما أن تلقى و إما أن نلقى ؛ لتكون الجملتان متقابلتين ، فحيث قالوا عن أنفسهم : (وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ) استدل بهذا القول على رغبتهم فى الإلقاء قبله .

وأما توكيد المتصل بالمتصل فكقوله تعالى فى سورة الكهف : (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) وهذا بخلاف قصة السفينة ، فإنه قال فيها: (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) والفرق بين الصورتين أنه أكد الضمير فى الثانية دون الأولى فقال فى الأولى : (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ) وقال فى الثانية : (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ) وإنما جيء بذلك للزيادة فى مكافحة العتاب على رفض الوصية مرة على مرة ، والوَسْم بعدم الصبر، وهذا كما لوأتى الإنسانُ مانَهَيْتَهُ عنه فَلُمْتَهُ وَعَنَّفْتَه ، ثم أتى ذلك مرة ثانية ، أليس أنك تزيد فى لومه وتعنيفه ؟ وكذلك فعل ههنا ؛ فإنه قيل فى الملامة أولا: (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ) ثم قيل ثانياً : (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ) وهذا موضع يَدِقُّ عن العثور عليه بِبَادِرَةِ النظر مالم يُعْطَ التأمل فيه حَقَّهُ .

وأما توكيد المتصل بالمنفصل فنحو قوله تعالى : (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى) فتوكيد الضميرين ههنا فى قوله : (إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى) أنفى للخوف من قلب موسى ، وأثبت فى نفسه للغلبة والقهر ، ولوقال

لاتخف إنك الأعلى أو فأنت الأعلى لم يكن له من التقرير والإثبات لنفى الخوف مالقوله : (إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى) .

وفى هذه الكلمات الثلاث وهى قوله (إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى) ست فوائد :

الأولى : « إنَّ » المشددة التى من شأنها الإثبات لما يأتى بعدها ، كقولك: زيد قائم ، ثم تقول : إنَّ زيداً قائم ، ففى قولك إنَّ زيداً قائم من الإثبات لقيام زيد ماليس فى قولك زيد قائم .

الثانية : تكرير الضمير ، فى قوله (إنك أنت) ولواقتصر على أحد الضميرين لما كان بهذه المكانة فى التقرير لغلبة موسى والإثبات لقهره .

الثالثة : لام التعريف فى قوله (الأعلى) ولم يقل أعلى ولا عال ؛ لأنه لوقال ذلك لكان قد نكره ، وكان صالحا لكل واحد من جنسه ، كقولك : رجل ؛ فإنه يصلح أن يقع على كل واحد من الرجال ، وإذا قلت «الرجل» فقد خَصَّصْته من بين الرجال بالتعريف ، وجعلته علما فيهم ، وكذلك جاء قوله تعالى : (إنك أنت الأعلى) أى : دون غيرك .

الرابعة : لفظ أفْعَل الذى من شأنه التفضيل ، ولم يقل العالى .

الخامسة : إثبات الغلبة له من العلو ؛ لأن الغرض من قوله (الأعلى) أى الأغلب ، إلا أن فى الأعلى زيادة ، وهى الغلبة من عال .

السادسة : الاستئناف ، وهوقوله تعالى : (لاَتَخَفْ إنك أنت الأعلى) ولم يقل لأنك أنت الأعلى ؛ لأنه لم يجعل علة انتفاء الخوف عنه كونه عالياً ، وإنما نفى الخوف عنه أولا بقوله : (لاتخف) ثم استأنف الكلام فقال: (إنك أنت الأعلى) فكان ذلك أبْلَغَ فى إيقان موسى عليه السلام بالغلبة والاستعلاء ، وأثْبَتَ لذلك فى نفسه .

وربما وقع لبعض الأغمار أن يعترض على ماذكرناه فى توكيد أحد الضميرين

بالآخر فيقول: لو كان توكيدهما أبلغ من الاقتصار على أحدهما لو رد ذلك عند ذكر الله تعالى نفسه ، حيث هو أولى بما هو أبلغ وأوكد من القول ، وقد رأينا فى القرآن الكريم مواضع تختص بذكر الله تعالى ، وقد ورد فيها أحد الضميرين دون الآخر ، كقوله عز اسمه : (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ولم يقل إنك أنت على كل شىء قدير ، فما الموجب لذلك إن كان توكيد أحد الضميرين بالآخر أبلغ من الاقتصار على أحدهما ؟

الجواب عن ذلك أنا نقول : قد قدّمنا القول فى أول هذا النوع أنه إذا كان المعنى المقصود معلوماً ثابتاً فصاحب الكلام مُخَيَّر فى توكيد أحد الضميرين بالآخر ؛ فإن أكَّدَ فقد أتى بفَضْل بيانٍ ، وإن لم يؤكد فلأنّ ذلك المعنى ثابت لايفتقر فى تقريره إلى زيادة تأكيد ، كهذه الآية المشار إليها ، وهى قوله تعالى : (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ) فإن العلم بأن الله على كل شىء قدير لايفتقر إلى تأكيد يقرره ، وقد ورد مايجرى مجرى هذه الآية مؤكداً ، كقوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) فوكد فى هذه الآية ولم يوكد فى الآية الأخرى ، وقد عرفتك الطريق فى ذلك ، وأما إذا كان المعنى المقصود غير معلوم ؛ وهو مما يشك فيه ؛ فالأَوْلَى أن يؤكد بالضميرين فى الدلالة عليه ، كقوله تعالى : (قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى) فإن موسى لم يكن متيقناً أنه غَالِبٌ للسَّحَرَة ؛ فلذلك وكد خطابه بالضميرين ؛ ليكون أبلغ فى تقرير ذلك فى نفسه .

وأما توكيد المنفصل بمنفصل مثله فكقول أبي تمام(١) :

لَا أَنْتَ أَنْتَ وَلَا الدِّيَارُ دِيَارُ   خَفَّ الْهَوَى وَتَوَلَّتِ الْأَوْطَارُ

فقوله « لا أنت أنت ولا الديار ديار » من المليح النادر فى هذا الموضع ؛ لأنه هو هو والديار الديار ، وإنما البواعث التى كانت تبعث على قضاء الأوطار زالت ، فبقى ذلك الرجل وليس هو هو على الحقيقة ولا الديار فى عينه من الحسن تلك الديار ، وعلى هذا ورد قول أبي الطيب المتنبي(٢) :

قَبِيلٌ أَنْتَ أَنْتَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ   وَجَدُّكَ بِشْرٌ الْمَلِكُ الْهُمَامُ(٣)

فقوله « أنت أنت » من توكيد الضميرين المشار إليهما ، وفائدته المبالغة فى مدحه ، ولو مدحه بما شاء الله لما سدَّ مسدَّ قوله « أنت أنت » أى : أنك المشار إليه بالفضل دون غيرك ، وأما قوله « وأنت منهم » بخارج عن هذا الباب ، وهو كلام مستأنف لا يتعلق بتوكيد الضميرين ، كأنه قال : أنت الموصوف بكذا وكذا ، وأنت من هذا القبيل ، يريد بذلك مَدْحَ قبيله به .

وهذا البيت لم أمثل به اختياراً له واستجادة ، وإنما مثلت به ليعلم مكان توكيد المنفصل بالمنفصل ، وإلا فالبيت ليس من المرضى ، لأن سبكه سبك عار من الحسن ، وفيه تقديم وتأخير(٣) .

---

(١) هذا البيت مطلع قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد الثغرى ، و بعده قوله :

كَانَتْ مُجَاوَرَةُ الطُّلُولِ وَأَهْلِهَا   زَمَناً عِذَابَ الْوِرْدِ وَالْإِصْدَارِ

وانظر الديوان (ص ١٤٤ بيروت) .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها المغيث بن على العجلى ، وأولها قوله :

فُؤَادٌ مَا تُسَلِّيهِ الْمُدَامُ   وَعُمْرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللِّئَامُ

(٣) كان من حقه أن يقول : قبيل أنت منهم وأنت أنت ، يريد أنت على شرف قدرك وعراقة مجدك منهم ، وإذا كنت منهم و بشر جدك فقد كفاهم ذلك فخرا وشرفا ؛ فهم يفخرون بك و بنسبك .

وقرأت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج أن عمرو بن ربيعة قال لزياد بن الهبولة: ياخير الفتيان، اردد علىّ ما أخذته من إبلى، فَرَدَّها عليه وفيها فحلها، فنازعه الفحل إلى الإبل، فصرعه عمرو، فقال له زياد: لو صرعتم يا بنى شيبان الرجال كما تصرعون الإبل لـكنتم أنتم أنتم، فقال عمرو له: لقد أعطيت قليلا، وسُمْتَ جليلا، وجررت على نفسك ويلاً طويلا، فقوله «لـكنتم أنتم أنتم» أى: أنتم الأشداء، أو الشجعان، أو ذوو النجدة والبأس، أو ماجرى هـذا المجرى، إلا أن فى «أنتم» الثانية تخصيصاً لهم بهذه الصفة دون غيرهم، كأنه قال: لـكنتم أنتم الشجعان دون غيركم، ولو مدحهم بأى شىء مدحهم [به] من وصف البأس والشدة والشجاعة لما بلغ هذه الـكلمة، أعنى «أنتم» الثانية، وهذا موضع من علم البيان تتكاثر محاسنه فاعرفه.

النوع السادس

فى عطف المظهر على ضميره والإفصاح به بعده

وهذا إنمـا يعمد إليه لفائدة، وهى تعظيم شأن الأمر الذى أظهر عنده الاسم المضمر أولاً، ومثال ذلك قول القائل: ولَمَّا تلاقينا وبنو تميم أقبلوا نحونا يركضون فرأينا منهم أسوداً شكلا تسابق الأسـنة إلى الورود، ولا ترتد على أعقابها إذا ارتدت أمثالها من الأسود، وتناجد بنو تميم علينا بحملة، فلذْنا بالفرار، واستبقنا إلى تولية الأدبار؛ فإنه إنمـا قيل «وتناجد بنو تميم» مصرحاً باسمهم ولم يقل وتناجدوا كما قيل «أقبلوا» للدلالة على التعجب من إقدامهم عند الحملة، وثباتهم عند الصَّدمة، لاسيا وقد أردف ذلك بقوله «لذنا بالفرار، واسْتبَقْنا إلى تولية الأدبار» كأنه قال: وتناجد أولئك الفرسان المشاهير والـكماة المناكير، وحملوا علينا حملة واحدة فولينا مدبرين منهزمين.

ومما جاء من ذلك قوله تعالى: (أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ

ثُمَّ ٱللَّهُ يُنْشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ) ألا ترى كيف صرح باسمه تعالى فى قوله : (ثم الله ينشىء النشأة الآخرة) مع إيقاعه مبتدأ فى قوله: (كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ) وقد كان القياس أن يقول كيف يبدئ الله الخلق ثم ينشىء النشأة الآخرة ، والفائدة فى ذلك أنه لما كانت الإعادة عندهم من الأمور العظيمة ، وكان صدر الكلام واقعاً معهم فى الإبداء ، وقررهم أن ذلك من الله ؛ احْتجَّ عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء ، و إذا كان الله الذى لايعجزه شىء هو الذى لايعجزه الإبداء ، فوجب أن لاتعجزه الإعادة ، فللدلالة والتنبيه على عظم هذا الأمر الذى هو الإعادة أبرز اسمه تعالى ، وأوقعه مبتدأ ثانياً .

وعلى هذا ورد قوله تعالى : (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ) ألا ترى أنه قال أولاً :(ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم) فذكر مضمراً تقدم الكلام فيه ، ثم عطف المظهر الذى هو له وهو قوله :(ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) وكان العطف لو أضمر كما أضمر الأول لقيل ثم أنزل الله سكينته عليكم وأنزل جنوداً لم تروها ، وفائدة الإظهار ههنا للمعطوف بعد إضماره أولا التَّنْوِيهُ بذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر المؤمنين ، أو لأن الأمر عظيم ، وهو الانتصار بعد الفرار ، فأى الأمرين قدّر كان لإظهار المعطوف مناسباً ، وهكذا يكون عطف المظهر على ضميره ؛ فإنه يستند إلى فائدة يهمّ ذكرها ؛ فإن لم يكن(١) هناك مثل هذه الفائدة و إلا فلا يحسن الإظهار بعد الإضمار .

(١) كذا ، ولعل أصل العبارة «فان تكن هناك مثل هذه الفائدة و إلا ـ إلخ» بإسقاط « لم » و يكون جواب إن محذوفا ، أى: فإن تكن هناك مثل هذه الفائدة حسن الإظهار و إلا فلا يحسن .

وكذلك جاء قوله تعالى : (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) فإنه إنما قال : (وقال الذين كفروا) ولم يقل وقالوا كالذى قبله للدلالة على صدور ذلك عن إنكار عظيم ، وغضب شديد ، وتعجب من كفرهم بليغ ، لاسيما وقد أُنضاف إليه قوله : (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم) وما فيه من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه ، وما فى ذلك من المُبَادَهَة ، كأنه قال : وقال أولئك الكفرة المتمردون بجَرَاءتهم على الله ومُكابرتهم لمثل ذلك الحقّ المبين قبل أن يتدبّروه إنْ هذا إلا سحر مبين .

وعلى نحو من ذلك ورد قوله تعالى : (صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) وكان القياس أن يقال : وقالوا هـذا ساحر كذاب ، عطفاً على « عجبوا » وإنما أتى باسم الكافرين مظهراً بعد إضماره للإشعار بتعظيم ما اجْتَرءوا عليه من القول فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم ؛ أو لأن هذا القول كان أهمَّ عندهم ، وأرسخ فى نفوسهم ؛ فصرح باسم قائله دِلالةً على ما كان فى أنفسهم منه .

النوع السابع
فى التفسير بعد الإبهام

اعلم أن هذا النوع لايُعْمَد إلى استعماله إلا لضرب من المبالغة ، فإذا جيء به فى كلام فإنما يفعل ذلك لتفخيم أمر المبهم و إعظامه ؛ لأنه هو الذى يطرق السمع أولاً فيذهب بالسامع كلَّ مَذْهَب ؛ كقوله تعالى : (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ) ففسر ذلك الأمر بقوله : (أن دابر هؤلاء مقطوع) وفى إبهامه أولا وتفسيره بعد ذلك تفخيم للأمر ، وتعظيم لشأنه ؛ فإنه لو قال وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع لما كان بهذه المكانة من الفخامة ، فإن الإبهام أولاً يوقع السامع فى حيرة وتفكر واستعظام لما قَرَعَ سمعه ، وتَشَوُّفٍ إلى معرفته والاطلاع على كُنْهِه .

وعلى نحو من هذا جاء قوله تعالى :(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ) ففسر (مايوحى) بقوله (أن اقذفيه) وهذا كالأول فى إبهامه أولا وتفسيره ثانيا .

ومثل هذا ورد قوله تعالى فى سورة أم الكتاب : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) فإنه إنما قال ذلك ولم يقل اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم لما فى الأول من التنبيه والإشعار بأن الصراط المستقيم هو صراط المؤمنين ؛ فدل عليه بأبلغ وجه ، كما تقول : هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل؛ لأنك تثبت ذكره مجملا ومفصلا ، فجعلته علما فى الكرم والفضل ؛ كأنك قلت : مَنْ أراد رجلا جامعاً للخصلتين جميعا فعليه بفلان .

فان قيل : فما الفرق بين عطف المظهر على ضميره و بين التفسير بعد الإبهام فإن المضمر كالمبهم ؟

فالجواب عن ذلك أنى أقول : إنْ كان سؤالك عن فائدتهما فإنهما فى الفائدة سواء ، وذلك أنهما إنما يُرادانِ لتعظيم الحال ، والإعلام بفخامة شأنهما ، وإن كان سؤالك عن الفرق بينهما فى العبارة فإنى أقول : المضمر يأتى بعد مظهر تقدم ذكره أولا ، ثم يعطف المظهر على ضميره : أى على ضمير نفسه ، كالمثال الذى ضربناه فى بنى تميم ، وأما التفسير بعد الإبهام فإن المبهم يقدّم أولا ، وهو أن يذكر شيء يقع عليه محتملات كثيرة ، ثم يفسر بإيقاعه على واحد منها ، وليس كذلك عطف المظهر على ضميره .

ومما جاء من التفسير بعد الإبهام قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَاقَوْمِ إِنَّمَا هٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِىَ دَارُ الْقَرَارِ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) ألا ترى كيف قال : (أهدكم سبيل الرشاد) فأبهم سبيل الرشاد ولم يبين أى سبيل هو ، ثم فسر ذلك فافتتح كلامه بذم الدنيا وتصغير شأنها ، ثم ثنَّى ذلك بتعظيم الآخرة والإطْلاع على حقيقتها ، ثم ثلَّث بذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما ؛ ليُثبِّطَ عما يُتلف ، ويُنشِّط لما يُزْلِف ، كأنه قال : سبيل الرشاد هو الإعراض عن الدنيا ، والرغبة فى الآخرة ، والامتناع من الأعمال السيئة خوف المقابلة عليها ، والمسارعةُ إلى الأعمال الصالحة رجاء المجازاة عليها .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمٰعِيلُ) فإنه إنما قال : (القواعد من البيت) ولم يقل قواعد البيت لما فى إبهام القواعد أولاً وتبيينها بعد ذلك من تفخيم حال المبين ماليس فى الإضافة .

ومما يجرى هذا المجرى قوله تعالى : (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِى صَرْحًا لَعَلِّى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى) فإنه لما أراد

تفخيم ما أمّل فرعون من بلوغه أسباب السموات أبهمها أوّلا ثم فسرها ثانياً ، ولأنه لما كان بلوغها أمراً عجيباً أراد أن يورده على نفس متشوّفة إليه ؛ ليعطيه السامع حقه من التعجُّب ، فأبهمه ليشوف إليه نفس هامان ، ثم أوضحه بعد ذلك .

وعلى هذا الأسلوب ورد قوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) فإنه قال أولاً : (أعظكم بواحدة) فأبهم الواحدة ، ثم فسرها بقوله : (أَنْ تَقُوموا لله مثنى وفرادى وأن تتفكروا) .

وهذا فى القرآن الكريم كثير الاستعمال .

وأما الإبهام من غير تفسير فكثير شائع فى القرآن الكريم أيضاً ، كقوله تعالى : (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ) وكذلك ورد قوله تعالى : (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) أى : للطريقة أو الحالة أو المِلَّة التى هى أقومها وأسَدُّها ، وأى ذلك قدرت لم تجد له مع الإفصاح ذَوْقَ البلاغة التى تجده مع الإبهام ، وذلك لذهاب الوهم فيه كلَّ مَذْهَبٍ ، وإيقاعه على محتملات كثيرة .

وهذا كقول القائل : لو رأيت عليا بين الصفين ، فإنه لو وصفه مَهْمَا وصف من نجدة وشجاعة وثبات وإقدام وأطال القول فى ذلك لم يكن بمثابة ما يترامى إليه الوهم مع الإبهام ، وهذا للعارف برموز هذه الصناعة وأسرارها .

وعلى هذا الأسلوب ورد قوله تعالى : (فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ) وأبلغ من ذلك قوله تعالى : (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى) فإنه قال فى تلك الآية : (فغشيهم من اليم ماغشيهم) فذكر اليم ، وهو البحر ؛ فصار الذى غشيهم إنما هو منه خاصة ، وقال فى هذه الآية : (فغشَّاها ماغشى) فأبهم الأمر الذى غشَّاها به ، وجعله عاما ، وذلك أبلغ ؛ لأن السامع يذهب وَهْمُه فيه كل مذهب .

وأما ماجاء من ذلك شعراً فكقول البحترى (١) :

بَعِيدُ مَقِيلِ الصَّدْرِ لَا يُدْرِكُ الَّتِى ... يُحَاوِلُهَا مِنْهُ الْأَرِيبُ الْمُخَادِعُ (٢)

فقوله « التى يحاولها » من الإبهام المقدم ذكره فى الآية .

ومما ينتظم بذلك قول الشاعر فى أبيات الحماسة (٣) :

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ ... فَلَمَّا عَلَاهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ ابْعُدِ

فقوله « صبا ما صبا » من الإبهام الذى لو قدرت ماقدرت فى تفسيره لم تجد له من فضيلة البيان ما تجد له مع الإبهام .

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها الفتح بن خاقان ، وأولها قوله :

أَلَمَّتْ وَهَلْ إِلْمَامُهَا لَكَ نَافِعُ ... وَزَارَتْ خَيَالاً وَالْعُيُونُ هَوَاجِعُ

(٢) كذا ورد هذا البيت فى ب ، ج ؛ والذى فى الديوان (٢ – ٧٧ مصر) :

مُبِيدُ مَقِيلِ السِّرِّ لَا يُدْرِكُ الَّذِى ... يُحَاوِلُهَا مِنْهُ الْأَرِيبُ الْمُخَادِعُ

والذى نعتقده أن مافى الديوان وما هنا قد عراهما التحريف ، وأن صواب الإنشاد :

بَعِيدُ مَقِيلِ السِّرِّ لَا يُدْرِكُ الَّتِى ... يُحَاوِلُهَا مِنْهُ الْأَرِيبُ الْمُخَارِعُ

وأصل نظام البيت لايدرك الأريب الخادع التى يحاولها منه ؛ يصفه بأنه لايطلع على سره أحدا ولا يصل إلى غوره إنسان ، وأقرأ ماقبل البيت وما بعده تدرك تمام هذا المعنى :

تَذُودُ الدَّنَايَا عَنْهُ نَفْسٌ أَبِيَّةٌ ... وَعَزْمٌ كَحَدِّ الْهُنْدُوَانِى قَاطِعُ

بَعِيدُ مَقِيلِ السِّرِّ لَا يُدْرِكُ الَّتِى ... يُحَاوِلُهَا مِنْهُ الْأَرِيبُ الْمُخَادِعُ

وَلَا يَعْلَمُ الْأَعْدَاءُ مِنْ فَرْطِ عَزْمِهِ ... مَتَى هُوَ مَصْبُوبٌ عَلَيْهِمْ فَوَاقِعُ

(٣) من أبيات لدريد بن الصمة اختارها أبو تمام فى ديوان الحماسة ، وأولها قوله :

نَصَحْتُ لِعَارِضٍ وَأَصْحَابِ عَارِضٍ ... وَرَهْطِ بَنِى السَّوْدَاءِ وَالْقَوْمُ شُهَّدِى

انظر شرح التبريزى (٢ – ٣٠٤) .

وعليه ورد قول أبي نواس :

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ الْغُوَاةِ بِدَلْوِهِمْ وَأَسَمْتُ سَرْحَ اللَّحْظِ حِينَ أَسَامُوا

وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ امْرُؤٌ بِشَبَابِهِ فَإِذَا عُصَارَةُ كُلِّ ذَاكَ أَثَامُ

فقوله « وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه » من هذا النمط المشار إليه ، وهو من المليح النادر .

ومما يجرى على هذا النهج قول الآخر فى وصف الخمر :

مَضَى بِهَا مَا مَضَى مِنْ عَقْلِ شَارِبِهَا وَفِى الزُّجَاجَةِ بَاقٍ يَطْلُبُ الْبَاقِى

والكلام على هذا البيت كالكلام على البيت الذى قبله .

ومثله ورد قول بعض المتأخرين : فؤاد فيه ما فيه .

وعلى هذا ورد قولى فى فصل من تقليد لبعض الوزراء ، فقلت : وأنت مؤهل لواحدة متخلق لها غرر الجياد ، وتناديها العلياء بلسان الإحماد ، وتفخر بها سمر الأقلام على سُمْر الصِّعاد ، فابسط يدك لأخذ كتابها ، واسْمَعْ لطيب ذكرها بعد سعيك فى طِلَابها ، واعلم أن الخُطّاب إليها كثير لكنها صدَّت بك عن خُطَّابها ، ولقد مضى عليها زمن وهى نفور حتى استقادها الآن تأنيسُك ، ولم تسبق الأقدار باسمك إلا لتكون سُلَيْمَانَهَا وهى بَلْقِيسُك .

وهذا الوزير كان اسمه سليمان ؛ فسقت المعنى إليه ، فجاء كما تراه من الحسن واللطافة .

وأما قولى « وأنت مؤهل لواحدة » فإنه من الإبهام من غير تفسير ، وذلك بخلاف ماورد فى الآية المقدم ذكرها ؛ لأن تلك من التفسير بعد الإبهام .

ومما ينتظم في هذا السلك الاستثناء العددى ، وهو ضرب من المبالغة لطيف المأخذ ، وفائدته أنَّ أول مايطرق سَمْعَ المخاطب ذِكْرُ العقد من العدد ، فيكثر موقع ذلك عنده ، وهو شبيه بما ذكرناه من الإبهام أولاً ثم التفسير بعده ثانياً ، وذلك

كقول القائل : أعطيته مائة إلا عشرة ، أو أعطيته ألفاً إلا مائة ، فإن ذلك أبلغ من أن لو قال : أعطيته تسعين ، أو تسعمائة .

وعليه ورد قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) ولم يقل تسعمائة وخمسين عاماً ؛ لفائدة حسنة ، وهى ذكر ما ابتلى به نوح من أمته ، وما كابده من طول المصابرة ؛ ليكون ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يلقاه من أمته ، وتثبيتاً له ؛ فإن ذكر رأس العدد الذى هو منتهى العقود وأعظمها أَوْقَعُ وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدة صبره وما لاقاه من قومه .

النوع الثامن

فى استعمال العام فى النفى والخاص فى الإثبات

اعلم أنه إذا كان الشيئان أحدهما خاصًّا والآخر عامًّا فإن استعمال العام فى حالة النفى أبلغ من استعماله فى حالة الإثبات ، وكذلك استعمال الخاص فى حالة الإثبات أبلغ من استعماله فى حالة النفى .

ومثال ذلك الإنسانية والحيوانية فإن إثبات الإنسانية يوجب إثبات الحيوانية ، ولا يوجب نَفْيُهَا نَفْىَ الحيوانية ، وكذلك نَفْىُ الحيوانية يوجب نفىَ الإنسانية ، ولا يوجب إثباتُهَا إثباتَ الإنسانية .

ومما ينتظم بذلك الأسماء المفردة الواقعة على الجنس التى يكون بينها و بين واحدها تاء التأنيث ؛ فإنه متى أريد النفى كان استعمال واحدها أبلغ ، ومتى أريد الإثبات كان استعمالها أبلغ .

وكذلك يتصل بهذا النوع الصفتان الواردتان على شىء واحد ؛ فإنه إذا لزم

من وجود إحداهما وجود الأخرى اكتفى بها فى الذكر ، ولم يحتج إلى ذكر الأخرى ؛ لأنه يجيء ضمنا وتبعا ، أو أن يبدأ بها فى الذكر أولا ثم تجيء الأخرى بعدها ، وأما الصفات المتعدّدة فإنه ينبغى أن يبدأ فى الذكر بالأدنى مرتبةً ثم بعدها بما هو أعلى منها إلى أن ينتهى إلى آخرها ، هذا فى مقام المدح ، فإن كان فى مقام الذم عكست القضية .

فالأوّل ـ وهو الخاص والعام ـ نحو قوله تعالى : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ) ولم يقل ذهب بضوئهم موازناً لقوله:(فلما أضاءت) لأن ذكر النور فى حالة النفى أبلغ ، من حيث إن الضوء فيه الدلالة على النور وزيادة ، فلو قال ذهب الله بضوئهم لكان المعنى يعطى ذهاب تلك الزيادة وبقاء مايسمى نوراً ، لأن الإضاءة هى فرط الإنارة ، قال الله تعالى : (هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا) فكل ضوء نور ، وليس كل نور ضوءا ، فالغرض من قوله تعالى:(ذهب الله بنورهم) إنما هو إزالة النور عنهم أصلا ، فهو إذا أزاله فقد أزال الضوء ، وكذلك أيضاً قوله تعالى: (ذهب الله بنورهم) ولم يقل أذهب نورهم ؛ لأن كل من ذهب بشىء فقد أذهبه ، وليس كل من أذهب شيئاً فقد ذهب به ؛ لأن الذهاب بالشىء هو استصحاب له ومضىٌّ به ، وفى ذلك نوع احتجار بالمذهوب به وإمساك له عن الرجوع إلى حالته والعَوْد إلى مكانه ، وليس كذلك الإذهاب للشىء ؛ لزوال معنى الاحتجار عنه .

ومما يحمل على ذلك الأوصاف الخاصة إذا وقعت على شيئين ، وكان يلزم من وصف أحدهما وصف الآخر ، ولا يلزم عكس ذلك ، ومثاله قوله تعالى : (سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَاتُ وَٱلْأَرْضُ) فإنه إنما خصّ العرض بالذكر دون الطول للمعنى الذى أشرنا إليه ، والمراد بذلك أنه إذا كان هذا عرضها فكيف يكون طولها ؟

وهذا فى حالة الإثبات ؛ ولو أريد النفى لكان له أسلوب غير ماذكرناه ، وهو أنه كان يخص به الطول دون العرض .

وأما الأسماء المفردة الواقعة على الجنس فنحو قوله تعالى فى قصة نوح عليه السلام: (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فإنه إنما قال: (ليس بى ضلالة) ولم يقل ليس بى ضلال كما قالوا لأن نفى الضلالة أبلغ من نفى الضلال عنه ، كما لو قيل : ألك تمر ؟ فقلت فى الجواب : مالى تمرة ، وذلك أنفى للتمر ، ولو قلت « مالى تمرة » لما كان يؤدى من المعنى ما أداه القول الأول .

وفى هذا الموضع دقة تحتاج إلى فضل تمام ، فينبغى لصاحب هذه الصناعة مراعاته والعناية به .

فان قيل : لافرق بين الضلالة والضلال ، وكلاهما مصدر قولنا ضَلَّ يَضِلُّ ضَلَالاً وضَلَّ يَضِلُّ ضَلَالَة ، كما يقال : لَذَّ يَلَذُّ [لَذَاذًا و] لَذَاذة .

فالجواب عن ذلك أن الضلالة تكون مصدراً كما قلت ، وتكون عبارة عن المرة الواحدة ، تقول : ضل يضل ضلالةً : أى مرة واحدة ، كما تقول : ضرب يضرب ضَرْبَةً ، وقام يقوم قَوْمَة ، وأكل يأكل أَكْلَة ، والمراد بالضلالة فى هذه الآية إنما هو عبارة عن المرة الواحدة من الضلال ؛ فقد نفى ما فوقها من المرتين والمرار الكثيرة .

وأما الصفتان الواردتان على شيء واحد فكقول الأشتر النخعى (١) :

خَلَّفْتُ وَفْرِى وانْحَرَفْتُ عَنِ الْعُلَى وَلَقِيتُ أَضْيَافِى بِوَجْهِ عَبُوسِ (٢)

---

(١) هو من شعر ديوان الحماسة ، وانظر شرح التبريزى (١ - ١٤٣) .

(٢) وقع فى ب ، ج « حلقت وفدى وانحرفت على العلى » وهو تصحيف شنيع ، والذى فى ديوان الحماسة :

* بَقَّيْتُ وَفْرِى وَانْحَرَفْتُ عَنِ الْعُلَى *

والوفر : المال ، يدعو على نفسه بأن يموت ويترك ماله ؛ والعبوس - بفتح العين - وصف من العبوس بضمها ، وهو الكلوح عن غضب ، ومن أقبح القبائح عند العرب أن يلقى أحدهم ضيفه عابسا ؛ فهو يدعو على نفسه بأن يرتكب هذه المنقصة إن لم يفعل ما ذكره فى البيت الثانى .

إنْ لَمْ أَشُنَّ عَلَى ٱبْنِ حَرْبٍ غَارَةً لَمْ تَخْلُ يَوْمًا مِنْ نِهَابِ نُفُوسِ
خَيْــلاً كَأَمْثَالِ السَّعَالِي شُزَّبًا تَعْدُو بِبِيضٍ فِي ٱلْكَرِيهَةِ شُوسِ (١)
حَمِيَ ٱلْحَدِيدُ عَلَيْهِمُو فَكَأَنَّهُ لَمَعَانُ بَرْقٍ أَوْ شُعَاعُ شُمُوسِ (٢)

ألا ترى أنه رقى فى التشبيه من الأدنى إلى الأعلى فقال « لمعان برق أوشعاع شموس » ؟ لأن لَمَعَانَ البرق دون شعاع الشموس .

ومما ورد من ذلك فى القرآن الكريم قوله تعالى : (مَا لِهَذَا ٱلْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إلاَّ أَحْصَاهَا) فإن وجود المؤاخذة على الصغيرة يلزم منه وجود المؤاخذة على الكبيرة ، وعلى القياس المشار إليه أولا فينبغى أن يكون لايغادر كبيرة ولا صغيرة لأنه إذا لم يغادر صغيرة فمن الأولى ألاَّ يغادر كبيرة ، وأما إذا لم يغادر كبيرة فإنه يجوز أن يغادر صغيرة ؛ لأنه إذا لم يَعْفُ عن الصغيرة فيقضى القياس أنه لايعفو عن الكبيرة ، وإذا لم يعف عن الكبيرة فيجوز أن يعفو عن الصغيرة ، غير أن القرآن الكريم أحق أن يتبع ، وأجدر بأن يقاس عليه ، لاعلى غيره ، والذى ورد فيه من هذه الآية ناقض لما تقدم ذكره .

وكذلك ورد قوله تعالى : (فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا) لأن التأفيف أدنى درجة ، وقد تقدم قولى فى أول هـذا النوع أنه إذا جاءت صفتان يلزم من وجود إحداهما وجود الأخرى أن يكتفى بذكرها دون الأخرى ؛ لأن الأخرى تجىء ضمنا وتبعا ، وأن يبدأ بها فى الذكر ثم تجىء الأخرى بعدها ، وعلى هذا فيقال أولا فلا تنهرهما ولا تقل لهما أف ، لكن إذا لم يقل لهما أف أُمتنع أن

(١) وقع فى ب ، ج « خيل كأمثال السعالى شرما » وهو تحريف ، وتصحيحه عن ديوان الحماسة . والشزب ــ بضم الشين وتشديد الزاى مفتوحة ــ الضمر . والشوس : جمع أشوس ، وهو الذى ينظر نظرة الغاضب المتكبر .
(٢) فى الحماسة :

* وَمَضَانُ بَرْقٍ أَوْ شُعَاعُ شُمُوسِ *

بنهرهما ، وقد كان هذا هو المذهب عندى حتى وجدت كتاب الله تعالى قد ورد بخلافه ، وحينئذ عُدْتُ عما كنت أراه وأقول به .

وأما الصفات المتعددة الواردة على شيء واحد فكقول أبى عُبادة البحترى فى وصف نحول الرِّكاب (١) :

يَتَرَقْرَقْنَ كَالسَّرَابِ وَقَدْ خُضْـ ـنَ غِمَاراً مِنَ السَّرَابِ الْجَارِى
كَالْقِسِيِّ الْمُعَطَّفَاتِ بَلِ الْأَسْـ ـهُمِ مَبْرِيَّةً بَلِ الْأَوْتَارِ

ألا ترى أنه رقى فى تشبيه نحولها من الأدنى إلى الأعلى ؛ فشبهها أولاً بالقسىّ ، ثم بالأسهم المبرية ، وتلك أبلغ فى النحول ، ثم بالأوتار ، وهى أبلغ فى النحول من الأسهم ، وكذلك ينبغى أن يكون الاستعمال فى مثل هذا الباب .

وقد أغفل كثير من الشعراء ذلك ، فمن جملتهم أبو الطيب المتنبى فى قوله (٢) :

يَا بَدْرُ يَا بَحْرُ يَا غَمَامَةُ يَا لَيْثَ الشَّرَى يَا حِمَامُ يَا رَجُلُ (٣)

وينبغى أن يبدأ فيه بالأدنى فالأدنى ، فإنه إذا فعل ذلك كان كالمرتفع من محل إلى محل أعلى منه ، وإذا خالفه كان كالمنخفض من محل إلى محل أدنى منه ، فأما قوله « يابدر » فإنه اسم الممدوح ، والابتداء به أولى ، ثم بعده فيجب أن يقول : يارجل ، ياليث ، ياغمامة ، يابحر ، ياحمام ؛ لأن الليث أعظم من الرجل ، والبحر أعظم من الغمامة ، والحمام أعظم من البحر ، وهذا مقام مدح فيجب أن يرقى

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا جعفر بن حميد ، وأولها قوله :

أَبُكَاءٌ فِى الدَّارِ بَعْدَ الدَّارِ وَسُلُوًّا بِزَيْنَبٍ عَنْ نَوَارِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها بدر بن عمار وقد فصد لعلة ، وأولها قوله :

أَبْعَدُ نَأْىِ الْمَلِيحَةِ الْبَخَلُ فِى الْبُعْدِ مَالاَ تُكَلَّفُ الْإِبِلُ

(٣) يقول : يابدر أنت فى جودك بحر وسحاب ، وفى إقدامك وشجاعتك ليث ، وفى تمكنك من قتل الأعداء موت ، وقد جمعت كل هذه الصفات وأنت مع ذلك رجل . والشرى : مكان تنسب إليه الأسود . والحمام ــ بكسر الحاء المهملة ــ الموت .

فيه من منزلة إلى منزلة حتى ينتهى إلى المنزلة العليا آخراً[١] ، ولو كان مقام ذم لعكس القضية.

وعلى مثله ورد قول أبى تمام يفتخر[٢] :

سَمَا بِيَ أَوْسٌ فِي الْفَخَارِ وَحَاتِمٌ وَزَيْدُ الْقَنَا وَالْأَثْرَمَانِ وَرَافِعُ[٣]

نُجُومٌ طَوَالِعٌ جِبَالٌ فَوَارِعٌ غُيُوثٌ هَوَامِعٌ سُيُولٌ دَوَافِعُ[٤]

فإن السيول دون الغيوث ، والجبال دون النجوم ، ولو قدّم ما أخر لما اختل النظم[٥] بأن قال :

سيول دوافع غيوث هوامع جبال فوارع نجوم طوالع

وهذا عندى أشد ملامة من المتنبى ، لأن المتنبي لا يمكنه تقديم ألفاظ بيته وتأخيرها ، وأبو تمام متمكن من ذلك ، وما أعلم كيف ذهب عليه هذا الموضع مع معرفته بالمعانى .

---

(١) لا نسلم للمؤلف هذا الاعتراض ؛ لأن الذى ذكره إنما يتجه لو كان يشبهه بشيئين فى شىء واحد ؛ أما وهو يريد بكل واحد لايتلاقى مع الباقى كما بيناه فى شرح البيت فهو بالخيار فى أن يقدم أيها شاء .

(٢) من قصيدة له يفتخر فيها ويصف قومه ، وأولها قوله :

أَلَا صَنَعَ الْبَيْنُ الَّذِي هُوَ صَانِعُ فَإِنْ تَكُ مِجْزَاعاً فَمَا الْبَيْنُ جَازِعُ

وانظر الديوان (٤٧٧ بيروت) :

(٣) رواية الديوان هكذا .

سَمَا بِيَ أَوْسٌ فِي السَّمَاحِ وَحَاتِمٌ وَزَيْدُ الْقَنَا وَالْأَثْرَمَانِ وَنَافِعُ

(٤) وقع فى الديوان « طواليع » و « هواميع » بزيادة ياء الإشباع ، وبين البيتين بيت وهو قوله :

وَكَانَ إِيَاسٌ مَا إِيَاسٌ ، وَعَارِفٌ وَحَارِثَةٌ أَوْفَى الْوَرَى وَالْأَصَابِعُ

(٥) على رواية الديوان لا يستطيع التقديم بالصورة التى ذكرها المؤلف .

النوع التاسع

فى التقـديم والتأخير

وهذا باب طويل عريض ، يشتمل على أسرار دقيقة ، منها ما استخرجته أنا ، ومنها ماوجدته فى أقوال علماء البيان ، وسأورد ذلك مبيناً

وهو ضربان : الأول يختص بدلالة الألفاظ على المعانى ، ولوأخر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى ، والثانى يختص بدرجة التقدم فى الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك ، ولو أخر لما تغير المعنى .

فأما الضرب الأول فإنه ينقسم إلى قسمين : أحدهما يكون التقديم فيه هو الأبلغ ؛ والآخر يكون التأخير فيه هو الأبلغ .

فأما القسم الذى يكون التقديم فيه هو الأبلغ فكتقديم المفعول على الفعل ، وتقديم الخبر على المبتدإ ، وتقديم الظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل .

فمن ذلك تقديم المفعول على الفعل ، كقولك : زَيْداً ضَرَبْتُ ، وضربت زيداً ، فإن فى قولك « زيداً ضربت » تخصيصاً له بالضرب دون غيره ، وذلك بخلاف قولك « ضربت زيداً » ؛ لأنك إذا قدمت الفعل كنت بالخيار فى إيقاعه على أىّ مفعول شئت ، بأن تقول : ضربت خالداً ، أو بكراً ، أو غيرهما ، وإذا أخَّرْته لزم الاختصاص للمفعول .

وكذلك تقديم خبر المبتدإ عليه ، كقولك : زيد قائم ، وقائم زيد ؛ فقولك « قائم زيد » قد أثبتَّ له القيام دون غيره ، وقولك « زيد قائم » أنت بالخيار فى إثبات القيام له ونفيه عنه ؛ بأن تقول : ضارب ، أو جالس ، أو غير ذلك ،

وهكذا يجرى الحكم فى تقديم الظرف ، كقولك : إن إلىّ مصيرَ هذا الأمر ، وقولك : إنَّ مصير هذا الأمر إلى ؛ فإن تقديم الظرف دلّ على أن مصير الأمر ليس إلا إليك ، وذلك بخلاف قولك : إن مصير هذا الأمر إلى ؛ إذ

يحتمل إيقاع الكلام بعد الظرف على غيرك ؛ فيقال : إلى زيد ، أو عمرو ، أو غيرهما .

وكذلك يجرى الأمر فى الحال والاستثناء .

وقال علماء البيان ــ ومنهم الزمخشرى رحمه الله ــ : إن تقديم هذه الصورة المذكورة إنما هو للاختصاص ، وليس كذلك ، والذى عندى فيه أن يستعمل على وجهين : أحدهما الاختصاص ، والآخر مراعاة نظم الكلام ، وذاك أن يكون نظمه لايحسن إلا بالتقديم ، و إذا أخر المقدَّمُ ذهب ذلك الحسن ، وهذا الوجه أبلغ وأوكد من الاختصاص .

فأما الأول الذى هو الاختصاص فنحو قوله تعالى : (أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَاهِلُونَ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُنْ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ) فإنه إنما قيل (بل الله فاعبد) ولم يقل « بل اعبد الله » لأنه إذا تقدم وجب اختصاص العبادة به دون غيره ، ولو قال « بل اعبد » لجاز إيقاع الفعل على أى مفعول شاء .

وأما الوجه الثانى الذى يختص بنظم الكلام فنحو قوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وقد ذكر الزمخشرى فى تفسيره أن التقديم فى هذا الموضع قصد به الاختصاص ، وليس كذلك ؛ فإنه لم يقدم المفعول فيه على الفعل للاختصاص ، وإنما قدم لمكان نظم الكلام ؛ لأنه لو قال نعبدك ونستعينك لم يكن له من الحسن ما لقوله : (إياك نعبد و إياك نستعين) ألا ترى أنه تقدم قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) فجاء بعد ذلك قوله : (إياك نعبد و إياك نستعين) وذاك لمراعاة حسن النظم السَّجْعِىِّ الذى هو على حرف النونُ ، ولو قال نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة ، وزال ذلك الحسن ، وهذا غير خافٍ على أحد من الناس ، فضلا عن أرباب علم البيان .

وعلى نحو منه ورد قوله تعالى : (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ، قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى) وتقدير الكلام فأوجس موسى فى نفسه خيفة ، وإنما قدم المفعول على الفاعل وفَصَل بين الفعل والفاعل بالمفعول وبحرف الجر قصدًا لتحسين النظم ، وعلى هذا فليس كل تقديم لما مكانه التأخير من باب الاختصاص ؛ فبطل إذًا ما ذهب إليه الزمخشرى وغيره .

ومما ورد من هذا الباب قوله تعالى : (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ) فإن تقديم الجحيم على التَّصْلِية وإن كان فيه تقديم المفعول على الفعل إلا أنه لم يكن ههنا للاختصاص ، وإنما هو للفضيلة السجعية ، ولا مِراء فى أن هذا النظم على هذه الصورة أحسن من أن لو قيل خذوه فغلوه ثم صلوه الجحيم .

فإن قيل : إنما قدمت الجحيم للاختصاص ؛ لأنها نار عظيمة ، ولو أخرت لجاز وقوع الفعل على غيرها ، كما يقال : ضربت زيداً ، وزيداً ضربت ، وقد تقدم الكلام على ذلك .

فالجواب عن ذلك أن الدَّرْكَ الأسفل أعظم من الجحيم ؛ فكان ينبغى أن يخص بالذكر دون الجحيم ، على ما ذهب إليه ؛ لأنه أعظم ، وهذا لا يذهب إليه إلا مَنْ هو بِنَجْوَةٍ عن رموز الفصاحة والبلاغة ، ولفظة الجحيم ههنا فى هذه الآية أولى بالاستعمال من غيرها ؛ لأنها جاءت ملائمة لنظم الكلام ، ألا ترى أن من أسماء النار السعير ولظى وجهنم ، ولو وضع بعض هذه الأسماء مكان الجحيم لما كان له من الطلاوة والحسن ما للجحيم ، والمقصود بذكر الجحيم إنما هو النار : أى صَلُّوه النار ، وهكذا يقال فى (ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ) فإنه لم يقدم السلسلة على السَّلْكِ للاختصاص ، وإنما قدمت لمكان نظم الكلام ، ولا شك أن هذا النظم أحسن من أن لو قيل ثم اسلكوه فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا ، والكلام على هذا كالكلام على الذى قبله ، وله

فى القرآن نظائر كثيرة ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) فقوله : (والقمر قدرناه منازل) ليس تقديم المفعول فيه على الفعل من باب الاختصاص ، وإنما هو من باب مراعاة نظم الكلام ؛ فإنه قال : (اللَّيْلُ نسلخ منه النهار) ثم قال : (والشمس تجرى) فاقتضى حسن النظم أن يقول : (والقمر قدرناه) ليكون الجميع على نَسَقٍ واحد فى النظم ، ولو قال وقدرنا القمر منازل لما كان بتلك الصورة فى الحسن ، وعليه ورد قوله تعالى : (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) وإنما قدم المفعول لمكان حسن النظم السجعى .

وأما تقديم خبر المبتدإ عليه فقد تقدمت صورته ، كقولك : زيد قائم ، وقائم زيد ؛ فما ورد منه فى القرآن الكريم قوله تعالى : (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ) فإنه إنما قال ذلك ولم يقل وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم لأن فى تقديم الخبر الذى هو مانعتهم على المبتدإ الذى هو حصونهم دليلا على فرط اعتقادهم فى حصانتها ، وزيادة وثوقهم بمنعها إياهم ، وفى تصويب ضميرهم اسماً لأنَّ وإسناد الجملة إليه دليل على تقريرهم فى أنفسهم أنهم فى عِزَّة وامتناع لايبالى معها بقصد قاصد ولا تعرض متعرض ، وليس شىء من ذلك فى قولك : وظنوا أن حصونهم مانعتهم من الله .

ومن تقديم خبر المبتدإ قوله تعالى : (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِى يَا إِبْرَاهِيمُ[1]) فإنه إنما قدم خبر المبتدإ عليه فى قوله : (أراغب أنت) ولم

(١) جمهور النحاة فى هذه الآية على أن « أنت » فاعل براغب ، وليس مبتدأ مؤخرا ؛ لما يلزم على كونه مبتدأ من الفصل بين العامل الذى هو «راغب» والمعمول الذى هو «عن آلهتى» بأجنبى وهو «أنت» ؛ فإنك تعلم أن الخبر غير عامل فى المبتدإ

يقل أأنت راغب لأنه كان أهمّ عندهم ، وهو به شديد العناية ، وفى ذلك ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عن آلهته ، وأن آلهته لا ينبغى أن يرغب عنها ، وهذا بخلاف مالو قال أأنت راغب عن آلهتى .

ومن غامض هذا الموضع قوله تعالى : (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا) فإنه إنما قال ذلك ولم يقل فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة لأمرين : أحدهما تخصيص الأبصار بالشخوص دون غيرها ؛ أما الأول فلو قال فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة لجاز أن يضع موضع شاخصة غيره ، فيقول : حائرة ، أو مطموسة ، أو غير ذلك ، فلما قدم الضمير اختصّ الشخوص بالأبصار دون غيرها ، وأما الثانى فإنه لما أراد أن الشخوص خاصّ بهم دون غيرهم دلّ عليه بتقديم الضمير أوّلا ثم بصاحبه ثانياً ، كأنه قال : فإذا هم شاخصون دون غيرهم ، ولولا أنه أراد هذين الأمرين المشار إليهما لقال فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة ؛ لأنه أخصر بحذف الضمير من الكلام .

ومن هذا النوع قول النبىّ صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن ماء البحر ؛ فقال : « هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الحِلُّ مَيْتَتُهُ » وتقدير الكلام : هو الذى ماؤه طهور وميتته حلّ ؛ لأن الألف واللام ههنا بمعنى الذى .

وأما تقديم الظرف ، فإنه إذا كان الكلام مقصودا به الإثبات فإن تقديمه أولى من تأخيره ، وفائدته إسناد الكلام الواقع بعده إلى صاحب الظرف دون غيره ، فإذا أريد بالكلام النفى فيحسن فيه تقديم الظرف وتأخيره ، وكلا هٰذَيْن الأمرين له موضع يختص به .

على ماهو الراجح من أقوال النحاة . فإما أن يكون المؤلف جاريا فى هذا على رأى أهل الكوفة الذين يرون أن المبتدأ والخبر ترافعا ؛ و إما أن يكون قصده إلى المبتدإ والخبر ولو بحسب المعنى .

فأما تقديمه فى النفى فإنه يقصد به تفضيل المنفى عنه على غيره .

وأما تأخيره فإنه يقصد به النفى أصلاً من غير تفضيل .

فأما الأول ـ وهو تقديم الظرف فى الإثبات ـ فكقولك فى الصورة المقدمة : إنَّ إلىّ مصير هذا الأمر ، ولو أخرت الظرف فقلت : إن مصير هذا الأمر إلى ؛ لم يُعْطِ من المعنى ما أعطاه الأول ، وذلك أن الأول دلّ على أن مصير الأمر ليس إلا إليك ، وذلك بخلاف الثانى ؛ إذ يحتمل أن توقع الكلام بعد الظرف على غيرك ؛ فيقال : إلى زيد ، أو عمرو ، أو غيرهما ، وعلى نحو منه جاء قوله تعالى : (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) وكذلك جاء قوله تعالى : (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ) فإنه إنما قدم الظرفين ههنا فى قوله (له الملك وله الحمد) ليدلّ بتقديمهما على اختصاص الملك والحمد بالله لا بغيره .

وقد استعمل تقديم الظرف فى القرآن كثيراً كقوله تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) أى : تنظر إلى ربها دون غيره ، فتقديم الظرف ههنا ليس للاختصاص[1] ، و إنما هو كالذى أشرت إليه فى تقديم المفعول ، وأنه لم يقدم للاختصاص ، و إنما قدم من أجل نظم الكلام ، لأن قوله تعالى : (وجوهٌ يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) أحسن من أن لو قيل : وجوه يومئذ ناضرة ناظرة إلى ربها ، والفرق بين النظمين ظاهر ، وكذلك قوله تعالى : (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ) فإن هذا روعى فيه حسن النظم ، لا الاختصاص ، فى تقديم الظرف ، وفى القرآن مواضع كثيرة من هذا القبيل يقيسها غير العارف بأسرار الفصاحة على مواضع أخرى وردت للاختصاص وليست كذلك ، فمنها قوله تعالى : (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) وقوله تعالى : (أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) و (لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) و (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) فإن هذه

(١) كيف وقد فسر المعنى بقوله « أى تنظر إلى ربها دون غيره » فالأحسن أنه مع إفادته الاختصاص قدم للغرض اللفظى الذى أشار إليه .

جميعها لم تقدم الظروف فيها للاختصاص ، وإنما قدمت لمراعاة الحسن فى نظم الكلام ؛ فاعرف ذلك .

وأما الثانى ـ وهو تأخير الظرف وتقديمه فى النفى ـ فنحو قوله تعالى : (الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ) وقوله تعالى : (لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ) فإنه إنما أخر الظرف فى الأول لأن القصد فى إيلاء حرفِ النفى الريبَ نفىُ الريبِ عنه ، وإثبات أنه حق وصدق ، لا باطل وكذب ، كما كان المشركون يدعونه ، ولو أَوْلَاهُ الظرفَ لقصد أن كتاباً آخر فيه الريب لا فيه ، كما قصد فى قوله تعالى : (لا فيها غول) فتأخير الظرف يقتضى النفى أصلاً من غير تفضيل ، وتقديمه يقتضى تفضيل المنفى عنه ، وهو خمر الجنة ، على غيرها من خمور الدنيا : أى ليس فيها مافى غيرها من الغَوْل ، وهذا مثل قولنا : لاعيب فى الدار ، وقولنا : لا فيها عيب ، فالأول نفى للعيب عن الدار فقط ، والثانى تفضيل لها على غيرها : أى ليس فيها مافى غيرها من العيب ، فاعرف ذلك فإنه من دقائق هذا الباب .

وأما تقديم الحال فكقولك : جاء راكباً زيد ، وهذا بخلاف قولك : جاء زيد راكباً ؛ إذ يحتمل أن يكون ضاحكاً أو ماشياً أو غير ذلك .

وأما الاستثناء فجارٍ هذا المجرى ، نحو قولك : ماقام إلا زيداً أحد ، أو ماقام أحد إلا زيداً ، والكلام على ذلك كالكلام على ماسبق .

وأما القسم الثانى فهو أن يقدم ما الْأَوْلَى به التأخير لأن المعنى يختل بذلك ويضطرب ، وهذا هو المعاظلة المعنوية ، وقد قدمنا القول فى المقالة الأولى المختصة بالصناعة اللفظية بأن المعاظلة تنقسم قسمين : أحدهما لفظى ، والآخر معنوى ، أما اللفظى فذكرناه فى بابه ، وأما المعنوى فهذا بابه وموضعه ، وهو كتقديم الصفة أو ما يتعلق بها على الموصوف ، وتقديم الصلة على الموصول ، وغير ذلك مما يرد بيانه .

فمن هذا القسم قول بعضهم :

فَقَدْ وَالشـك بين لى عناء   بِوَشْكِ فِراقِهِمْ صُرَدُ يَصِيحُ

فإنه قدم قوله « بوشك فراقهم » وهو معمول « يصيح » و « يصيح » صفة لصرد على صرد ، وذلك قبيح ؛ ألا ترى أنه لايجوز أن يقال : هذا مِنْ موضع كذا رَجُلٌ وَرَدَ اليوم ، وإنما يجوز وقوع المعمول بحيث يجوز وقوع العامل ؛ فكما لايجوز تقديم الصفة على موصوفها فكذلك لايجوز تقديم ما اتصل بها على موصوفها .

ومن هذا النحو قول الآخر :

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجَتِهَا   كَأَنَّ قَفْراً رُسُومَهَا قَلَمَا

فإنه قدم خبر كأَنَّ عليها وهو قوله « خَطَّ » ؛ وهذا وأمثاله مما لايجوز قياس عليه ، والأصل فى هذا البيت : فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأن قَلَماً خطَّ رُسُومَهَا ، إلا أنه على تلك الحالة الأولى فى الشعر مختل مضطرب .

والمعاظلة فى هذا الباب تتفاوت درجاتها فى القبح ، وهذا البيت المشار إليه من أقبحها ؛ لأن معانيه قد تداخلت وركب بعضها بعضاً .

ومما يجرى هذا المجرى قول الفرزدق :

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ   أَبُوهُ وَلَا كَانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهْ

وهو يريد : إلى ملك أبوه ما أمه من محارب ، وهذا أقبح من الأول ، وأكثر اختلالا .

وكذلك جاء قوله أيضاً :

وَلَيْسَتْ خُرَاسَانُ الَّتِى كَانَ خَالِدٌ   بِهَا أَسَدٌ إِذْ كَانَ سَيْفاً أَمِيرُهَا

وحديث هذا البيت ظريف ، وذلك أنه ، فيما ذكر ، يمدح خالد بن عبد الله القَسْرِىَّ ، ويهجو أسدا ، وكان أسد وليها بعد خالد ، وكأنه قال : وليست خراسان بالبلدة التى كان خالد بها سيفاً إذ كان أسد أميرها ، وعلى هذا التقدير ففى « كان »

الثانية ضمير الشأن والحديث ، والجملة بعدها خبر عنها ، وقد قدم بعض ما إذْ مضافة إليه وهو « أسد » عليها ، وفى تقديم المضاف إليه أو شيء منه على المضاف من القبح ما لاخفاء به ، وأيضاً فإن أسداً أحد جزأى الجملة المفسرة للضمير ، والضمير لايكون تفسيره إلا من بعده ، ولو تقدم تفسيره قبله لما احتاج إلى تفسير ، ولما سماه الكوفيون الضمير المجهول .

وعلى هذا النحو ورد قول الفرزدق أيضاً :

وَمَا مِثْلُهُ فى النَّاسِ إلاَّ مُمَلَّكاً أبُو أُمِّهِ حَىٌّ أبُوهُ يُقَارِبُهْ

ومعنى هذا البيت : وما مثله فى الناس حَىٌّ يقاربه إلا مملَّكاً أبو أمه أبوه ، وعلى هذا المثالُ المصوغُ فى الشعر قد جاء مشوَّهاً كما تراه

وقد استعمل الفرزدق من التعاظل كثيراً ، كأنه كان يقصد ذلك ويتعمده ؛ لأن مثله لايجيء إلا متكلَّفاً مقصوداً ، وإلا فإذا ترك مؤلف الكلام نَفْسَهُ تجرى على سجيتها وطبعها فى الاسترسال لم يعرض له شيء من هذا التعقيد ، ألا ترى أن المقصود من الكلام معدوم فى هذا الضرب المشار إليه ؛ إذ المقصود من الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة و إفهام المعنى ، فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به ، ولا فرق عند ذلك بينه و بين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما .

واعلم أن هذا الضرب من الكلام هوضد الفصاحة ؛ لأن الفصاحة هى الظهور والبيان ، وهذا عارٍ عن هذا الوصف .

وأما الضرب الثانى الذى يختص بدرجة التقدم فى الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك فإنه مما لايَحْصُره حَدٌّ ، ولا ينتهى إليه شرح ، وقد أشرنا إلى نبذة منه فى هذا الكتاب ليستدل بها على أشباهها ونظائرها .

فمن ذلك تقديم السبب على المسبب ، كقوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فإنه إنما قدّم العبادة على الاستعانة لأن تقديم القُرْبة والوَسِيلة قبل

طاب الحاجة أَنْجَحُ لحصول الطلب ، وأسرع لوقوع الإجابة ، ولو قال إياك نستعين وإياك نعبد لكان جائزاً إلا أنه لايسدُّ ذلك المسدَّ ، ولا يقع ذلك الموقع ، وهذا لايخفى على المنصف من أرباب هذه الصناعة ، وعلى نحو منه جاء قوله تعالى : (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً) فقدّم حياة الأرض وإسقاء الأنعام على إسقاء الناس ، وإن كانوا أشرف محلاً ؛ لأن حياة الأرض هى سبب لحياة الأنعام والناس ، فلما كانت بهذه المثابة جعلت مقدمة فى الذكر ، ولما كانت الأنعام من أسباب التعيش والحياة للناس قدمها فى الذكر على الناس ؛ لأن حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم ، فقدم سقى ما هو سبب نمائهم ومعاشهم على سقيهم .

ومن هذا الضرب تقديم الأكثر على الأقل ، كقوله تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) . وإنما قدم الظالم لنفسه للايذان بكثرته ، وأن معظم الخلق عليه ، ثم أتى بعده بالمقتصدين لأنهم قليل بالإضافة إليه ، ثم أتى بالسابقين وهم أقل من القليل أعنى من المقتصدين ؛ فقدم الأكثر ، وبعده الأوسط ، ثم ذكر الأقل آخرا ، ولوعكست القضية لكان المعنى أيضاً واقعاً فى موقعه ؛ لأنه يكون قد روعى فيه تقديم الأفضل فالأفضل .

ولنوضح لك فى هذا وأمثاله طريقا تقتفيه ، فنقول : اعلم أنه إذا كان الشيئان كل واحد منهما مختصا بصفة فأنت بالخيار فى تقديم أيهما شئت فى الذكر ، كهذه الآية ؛ فإن السابق بالخيرات مختص بصفة الفضل ، والظالم لنفسه مختص بصفة الكثرة ، فَقِسْ على هذا ما يأتيك من أشباهه وأمثاله .

ومن هذا الجنس قوله تعالى : (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ) فإنه إنما قدم الماشى على بطنه لأنه أدل على القدرة من الماشى على رجلين ؛ إذ

هو ماش بغير الآلة المخلوقة للمشى ، ثم ذكر الماشى على رجلين وقدّمه على الماشى على أربع ؛ لأنه أدل على القدرة أيضاً حيث كثرت آلات المشى فى الأربع ، وهذا من باب تقديم الأعجب فالأعجب .

فان قيل : قد ورد فى القرآن الكريم فى مواضع منه ما يخالف هذا الذى ذكرته ، كقوله تعالى فى سورة هود : (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ) ثم قال : (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ) فقدم أهل النار فى الذكر على أهل الجنة ، وهذا مخالف للأصل الذى أصلته فى هذا الموضع .

فالجواب عن ذلك أن هذا الذى أشرت إليه فى سورة هود وما أشبهه له أسرار تحتاج إلى فضل تأمل وإمعان نظر ، حتى تفهم : أما هذا الموضع فإنه لما كان الكلام مسوقا فى ذكر التخويف والتحذير ، وجاء على عقب قصص الأولين وما فعل الله بهم من التعذيب والتدمير ؛ كان الأليق أن يوصل الكلام بما يناسبه فى المعنى ، وهو ذكر أهل النار ؛ فمن أجل ذلك قدموا فى الذكر على أهل الجنة ، وإذا رأيت فى القرآن شيئاً من هذا القبيل وما يجرى مجراه فتأمله وأمعن نظرك فيه حتى يتبين لك مكان الصواب منه .

واعلم أنه إذا كان مطلع الكلام فى معنى من المعانى ثم يجىء بعده ذكر شيئين أحدهما أفضل من الآخر وكان المعنى المفضول مناسبا لمطلع الكلام ؛ فأنت بالخيار فى تقديم أيهما شئت ؛ لأنك إن قدمت الأفضل فهو فى موضعه من التقديم ، وإن قدمت المفضول فلأن مطلع الكلام يناسبه ، وذكر الشىء مع ما يناسبه أيضاً وارد فى موضعه .

فمن ذلك قوله تعالى : (وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ

وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) فإنه إنما قدم الإناث على الذكور مع تقدمهم عليهن لأنه ذكر البلاء فى آخر الآية الأولى وكفران الإنسان بنسيانه للرحمة السابقة عنده ، ثم عقب ذلك بذكر ملكه ومشيئته وذكر قسمة الأولاد ، فقدم الإناث لأن سياق الكلام أنه فاعل مايشاء ، لامايشاؤه الإنسان فكان ذكر الإناث اللاتى هُنَّ من جملة مالايشاؤه الإنسان ولايختاره أَهَمَّ ، والأهم واجب التقديم ، ولِيَلِىَ الجنس الذى كانت العرب تعده بلاء ذكر البلاء ، ولما أخر ذكر الذكور ، وهم أحقاء بالتقديم ، تدارك ذلك بتعريفه إياهم ؛ لأن التعريف تنويه بالذكر ، كأنه قال ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لايخفَوْنَ عليكم ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، وعرف أن تقديم الإناث لم يكن لتقدمهنّ ، ولكن لمقتض آخر ، فقال (ذكرانا وإناثا) وهذه دقائق لطيفة قَلَّ من يتنبه لها أو يعثر على رموزها .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) فإنه إنما قدم الأرض فى الذكر على السماء ، ومن حقها التأخير ، لأنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم ووصل ذلك بقوله : (وما يعزب) لاءم بينهما ؛ ليلى المعنى المعنى .

فإن قيل : قد جاء تقديم الأرض على السماء فى الذكر فى مواضع كثيرة من القرآن .

قلنا : إذا جاءت مقدمة فى الذكر فلا بد لتقديمها من سبب اقتضاه ، وإن خفى ذلك السبب ، وقد يستنبطه بعض العلماء دون بعض .

النوع العاشر

فى الحروف العاطفة والجارّة

وهذا موضع لطيف المأخذ ، دقيق المَغْزَى ، وما رأيت أحداً من علماء هذه الصناعة تعرّض إليه ، ولا ذكره ، وما أقول إنهم لم يعرفوه ؛ فإن هذا النوع من الكلام أشهر من أن يخفى ؛ لأنه مذكور فى كتب العربية جميعها ، ولست أعنى بإيراده ههنا مايذكره النحويون من أن الحروف العاطفة تُتْبِع [المعطوف] المعطوف عليه فى الإعراب ، ولا أن الحروف الجارة تجرّ ماتدخل عليه ، بل أمْرًا وراء ذلك ، وإن كان المرجع فيه إلى الأصل النحوى ، فأقول :

إن أكثر الناس يَضَعُون هذه الحروف فى غير مواضعها ؛ فيجعلون ماينبغى أن يجرّ بعلى بفى فى حروف الجرّ ، وفى هذه الأشياء دقائق أذكرها لك .

أما حروف العطف فنحو قوله تعالى : (وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ) فالأول عطفه بالواو التى هى للجمع ، وتقديم الإطعام على الإسقاء والإسقاء على الإطعام جائز لولا مراعاة حسن النظم ، ثم عطف الثانى بالفاء ؛ لأن الشفاء يعقب المرض بلا زمان خالٍ من أحدهما ، ثم عطف الثالث بثم ؛ لأن الإحياء يكون بعد الموت بزمان ، ولهذا جىء فى عطفه بثم التى هى للتراخى ، ولو قال قائل فى موضع هذه الآية الذى يطعمنى ويسقين ويمرضنى ويشفين ويميتنى ويحيين لكان للكلام معنى تام إلا أنه لايكون كمعنى الآية ؛ إذ كل شىء منها قد عطف بما يناسبه ويقع موقع السداد منه .

ومما جاء من هذا الباب قوله تعالى : (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ) ألا ترى أنه لما قال : (من نطفة خلقه) كيف قال : (فقدّره) ولم

يقل ثم قدّره ؛ لأن التقدير لما كان تابعاً للخلقة وملازماً لها عطفه عليها بالفاء ، وذلك بخلاف قوله : (ثم السبيل يَسَّرَه) ؛ لأن بين خلقته وتقديره فى بطن أمه و بين إخراجه منه وتسهيل سبيله مهلة وزمانا ؛ فلذلك عطفه بثم ، وعلى هذا جاء قوله تعالى : (ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره) ؛ لأن بين إخراجه من بطن أمه و بين موته تراخياً وفُسْحَة ، وكذلك بين موته ونشوره أيضاً ، ولذلك عطفهما بثم ، ولما لم يكن بين موت الإنسان و إقباره تراخٍ ولا مهلة عطفه بالفاء ، وهذا موضع من علم البيان شريف ، وقلما يتفطن لاستعماله كما ينبغى .

ومما جاء من ذلك أيضاً قوله تعالى فى قصة مريم وعيسى عليهما السلام : (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا) وفى هذه الآية دليل على أن حملها به ووضعها إياه كانا متقاربين ؛ لأنه عطف الحمل والانتباذ إلى المكان الذى مضت إليه والمخاض الذى هو الطَّلْق بالفاء ، وهى للفور ، ولو كانت كغيرها من النساء لعطف بثم التى هى للتراخى والمهلة ، ألا ترى أنه قد جاء فى الأخرى (قُتِلَ الْإِنْسَانُ ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدّره ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) فلما كان بين تقديره فى البطن و إخراجه منه مُدَّةٌ مُتَراخية عطف ذلك بثم ، وهذا بخلاف قصة مريم عليها السلام ، فإنها عطفت بالفاء ، وقد اختلف الناس فى مدة حملها ؛ فقيل : إنه كان كَحَمْلِ غيرها من النساء ، وقيل : لا ، بل كان مدة ثلاثة أيام ، وقيل : أقل ، وقيل : أكثر ، وهذه الآية مُزِيلة للخلاف ؛ لأنها دلت صريحاً على أن الحمل والوضع كانا متقاربين على الفور من غير مهلة ، وربما كان ذلك فى يوم واحد أو أقل ؛ أخذا بما دلت عليه الآية .

ومما ورد من هذا الأسلوب قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ

مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) فى الآية المتقدم ذكرها قال: (مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ) فعطف التقدير على الخلق بالفاء؛ لأنه تابع له، ولم يذكر تفاصيل حال المخلوق، وفى هذه الآية ذكر تفاصيل حاله فى تنقله؛ فبدأ بالخلق الأول، وهو خلق آدم من طين، ولما عطف عليه الخلق الثانى الذى هو خلق النسل عطفه بثم؛ لما بينهما من التراخى، وحيث صار إلى التقدير الذى يتبع بعضه بعضاً من غير تراخ عطفه بالفاء، ولما انتهى إلى جعله ذكراً أو أنثى ـ وهو آخر الخلق ـ عطفه بثم.

فإن قيل: إنه قد عطف المضغة على العلقة فى هذه الآية بالفاء، وفى أخرى بثم، وهى قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ).

فالجواب عن ذلك[1].

واعلم أن فى حروف العطف موضعا تلتبس [فيه] الفاء بالواو، وهو موضع يحتاج فيه إلى فضل تأمل، وذلك أن فعل المطاوعة لا يعطف عليه إلا بالفاء، دون الواو، وقد يجىء من الأفعال ما يلتبس بفعل المطاوعة، ويعطى ظاهره أنه كذلك إلا أن معناه يكون مخالفاً لمعنى فعل المطاوعة فيعطف حينئذ بالواو؛ لا بالفاء، كقوله تعالى: (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) فقوله: (أغفلنا قلبه)

(١) سقط هذا الجواب من جميع أصول الكتاب التى بين أيدينا. ونريد أن ننبهك إلى شىء، وهو أن الزمن الذى تصير فيه النطفة علقة طويل، ولكن الحالتين متصلتان، فأحيانا ينظر إلى طول الزمان فيعطف بثم، وأحيانا ينظر إلى اتصال الحالين ثانيهما بأولهما من أن غير أن يفصل بينهما بغيرهما فيعطف بالفاء، ومثل هذا «تزوج محمد فولد له»؛ وشىء آخر، وهو أن صيرورة التراب نطفة أمر مستبعد فى ظاهر الحال، ومثل ذلك صيرورة النطفة علقة؛ لاختلاف إحداهما عن الأخرى اختلافا ظاهرا، ولكن صيرورة العلقة مضغة لا غرابة فيه لتقاربهما؛ فلهذا الوجه عطف فى الآية الأولى فى الحالين الأولين بثم، وعطف فيما بعدهما بالفاء، وفى الآية الثانية لوحظت أطوار الخلق وتباعد الأوقات بين كل طورين.

هٰهنا بمعنى صادفناه غافلا ، وليس منقولا عن غَفَل حتى يكون معناه صَدَدْناه ؛ لأنه لو كان كذلك لكان معطوفا عليه بالفاء ، وقيل : فاتبع هواه ، وذلك أنه يكون مطاوعا ، وفعل المطاوعة لا يعطف إلا بالفاء ، كقولك : أعطيته فأخذ ، أو دعوته فأجاب ، ولا تقول : أعطيته وأخذ ، ولا دعوته وأجاب ، كما لا يقال : كسرته وانكسر . وكذلك لو كان معنى أغفلنا فى الآية صددنا ومنعنا لكان معطوفا عليه بالفاء ، وكان يقال : ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه ، فلما لم يكن كذلك وكان العطف عليه بالواو ؛ فطريقه أنه لما قال : (أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه) أن يكون معناه وجدناه غافلا ؛ فقد غفل لا محالة ؛ فكأنه قال : ولا تطع من غفل قلبه عن ذكرنا واتبع هواه : أى لا تطع من فعل كذا وكذا ، يُعَدِّدُ أفعاله التى توجب ترك طاعته ، فاعرف ذلك .

وأما حروف الجر فإن الصواب يشذ عن وضعها فى مواضعها ، وقد علم أن « فى » للوعاء ، و « على » للاستعلاء ، كقولهم : زيد فى الدار ، وعمرو على الفرس ، لكن إذا أريد استعمال ذلك فى غير هذين الموضعين مما يشكل استعماله عدل فيه عن الأولى .

فمما ورد منه قوله تعالى : (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللّٰهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ) ألا ترى إلى بداعة هذا المعنى المقصود لمخالفة حرفى الجر هٰهنا ؛ فإنه إنما خولف بينهما فى الدخول على الحق والباطل لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جوادٍ يَرْكُض به حيث شاء ، وصاحب الباطل كأنه مُنْغَمِس فى ظلام مُنْخَفض فيه لا يدرى أين يتوجه ، وهذا معنى دقيق قلما يراعى مثله فى الكلام ، وكثيراً ما سمعت إذا كان الرجل يلوم أخاه أو يعاتب صديقه على أمر من الأمور ؛ فيقول له : أنت على ضلالك القديم كما أعهدك ، فيأتى بعلى فى موضع فى ، وإن كان هذا جائزا ، إلا أنّ استعمال

«فى» هٰهنا أولى ؛ لما أشرنا إليه ، ألا ترى إلى قوله تعالى فى سورة يوسف : (قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) .

ومن هذا النوع قوله تعالى : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ) فإنه إنما عدل عن اللام إلى « فى » فى الثلاثة الأخيرة للإيذان بأنهم أرسخ فى استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره باللام ؛ لأن « فى » للوعاء ، فنبه على أنهم أحِقاء بأن توضع فيهم الصدقات كما يوضع الشىء فى الوعاء ، وأن يُجْعلوا مَظِنة لها ، وذلك لما فى فك الرقاب وفى الغرم من التخلص ، وتكرير « فى » فى قوله : (وفى سبيل الله) دليل على ترجيحه على الرقاب وعلى الغارمين ، وسياق الكلام أن يقال : وفى الرقاب والغارمين وسبيل الله وابن السبيل ، فلما جىء بفى مرة ثانية وفصل بها بين الغارمين و بين سبيل الله علم أن سبيل الله أوكد فى استحقاق النفقة فيه ، وهذه لطائف ودقائق لاتوجد إلافى هذا الكلام الشريف ، فاعرفها وقس عليها .

النوع الحادى عشر

فى الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية

والفرق بينهما

ولم أذكر هذا الموضع لأن يجرى الأمر فيه على مايجرى مجراه فقط ، بل لأن يقاس عليه مواضع أخرى مما تماثله وتشابهه ، ولو كان شبهاً بعيداً .

وإنما يعدل عن أحد الخطابين إلى الآخر لضرب من التأكيد والمبالغة .

فمن ذلك قولنا : قَامَ زَيْدٌ ، وَإِنَّ زَيْدًا قائم ، فقولنا « قام زيد » معناه

الإخبار عن زيد بالقيام ، وقولنا « إن زيداً قائم » معناه الإخبار عن زيد بالقيام أيضاً ، إلاأن فى الثانى زيادة ليست فى الأول ، وهى توكيده بإنَّ المشددة التى من شأنها الإثبات لما يأتى بعدها ، وإذا زيد فى خبرها اللام فقيل : إنَّ زيداً لقائم؛ كان ذلك أكثر توكيداً فى الإخبار بقيامه ، وهذا مثال ينبنى عليه أمثلة كثيرة من غير هذا النوع .

فمما جاء من ذلك قوله تعالى : (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ) فإنهم إنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بإنَّ المشددة لأنهم فى مخاطبة إخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه على صِدْقِ ورغبةٍ ووُفُور نشاطٍ ، فكان ذلك مُتقبَّلا منهم ، ورائجاً عند إخوانهم ؛ وأما الذى خاطبوا به المؤمنين ، فإنما قالوه تكلفا وإظهاراً للإيمان خوفاً ومُداجاة ، وكانوا يعلمون أنهم لو قالوه بأوكد لفظ وأسدّه لما راج لهم عند المؤمنين إلا رواجًا ظاهراً لا باطناً ، ولأنهم ليس لهم فى عقائدهم باعث قوى على النطق فى خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به إخوانهم من العبارة المؤكدة ؛ فلذلك قالوا فى خطاب المؤمنين (آمنا) وفى خطاب إخوانهم (إنا معكم) وهذه نكت تخفى على من ليس له قدم راسخة فى علم الفصاحة والبلاغة .

ومما يجرى هذا المجرى ورود لام التوكيد فى الكلام ، ولا يجىء ذلك إلا لضرب من المبالغة ، وفائدته أنه إذا عبر عن أمرٍ يعِزُّ وجوده أو فعل يكثر وقوعه جىء باللام تحقيقا لذلك .

فمما جاء منه قوله تعالى فى أول سورة المنافقين : (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) فانظر إلى هذه اللامات الثلاثة الواردة فى خبر إنّ ، والأولى وردت فى قول المنافقين ، وإنما وردت مؤكدة لأنهم أظهروا من أنفسهم التصديق

برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتملقوا له ، و بالغوافى التملق ، وفى باطنهم خلافه ، وأما ماورد فى الثانية والثالثة فصحيح لا ريب فيه ، واللام فى الثانية لتصديق رسالته ، وفى الثالثة لتكذيب المنافقين فيما كانوا يظهرونه من التصديق الذين هم على خلافه .

وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام : (قَالُوا يَـٰأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) فانه إنما جيء باللام ههنا لزيادة التوكيد فى إظهار المحبة ليوسف عليه السلام والإشفاق عليه ؛ ليبلغوا الغرض من أبيهم فى السماحة بإرساله معهم .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمْ مَاتَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ) ثم قال : (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ) ألا ترى كيف أدخلت اللام فى آية المطعوم دون آية المشروب ! و إنما جاءت كذلك لأن جعل الماء العذب ملحا أسهل إمكانا فى العرف والعادة ، والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب ، وكثيراً ماإذا جرت المياه العذبة على الأراضى المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة فلم يحتج فى جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد ، فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق ، وأما المطعوم فإن جعله حُطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد ، وإذا وقع فلا يكون إلا عن سَخَطٍ من الله شديد ، فلذلك قرن بلام التأكيد زيادة فى تحقيق أمره وتقريره إيجاده .

ومما يتصل بذلك قوله تعالى : (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) فاللام فى (لنحن) هى اللام المشار إليها .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) فإن هـذه اللام فى قوله : (ليستخلفنهم) و (ليمكنن) و (ليبدلنهم) إنما جاءت لتحقيق الأمر و إثباته فى نفوس المؤمنين ، وأنه كائن لا محالة .

ومما يجرى هذا المجرى فى التوكيد لام الابتداء المحققة لما يأتى بعدها ، كقوله تعالى : (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا) فاللام فى (ليوسف) لام الابتداء ، وفائدتها تحقيق مضمون الجملة الواردة بعدها : أى أن زيادة حبه إياهما أمر ثابت لامراء فيه .

ومن هذا النوع قول بعضهم :

وَالشَّيْبُ إِنْ يَظْهَرْ فَإِنَّ وَرَاءَهُ ... عُمُرًا يَكُونُ خِلَالَهُ مُتَنَفَّسُ
لَمْ يَنْتَقِصْ مِنِّي الْمَشِيبُ قُلَامَةً ... وَلَمَا بَقِى مِنِّى أَلَبُّ وأَكْيَسُ

فقوله « ولما بقى منى » تقديره وما بقى منى ، وإنما أدخل على « ما » هذه اللام قصداً لتأكيد المعنى ؛ لأنه موضع يحتاج إلى التأكيد ، ألا ترى أن قوّة العمر فى الشباب ، ولما أراد هذا الشاعر أن يصف المشيب ، وليس مما يوصف وإنما يذم ، أتى باللام لتؤكد ما قصده من الصفة .

وكذلك ورد قول الشاعر من أبيات الحماسة (١) :

إِنَّا لَنَصْفَحُ عَنْ مَجَاهِلِ قَوْمِنَا ... وَنُقِيمُ سَالِفَةَ الْعَدُوِّ الْأَصْيَدِ (٢)
وَمَتَى نَجِدْ يَوْمًا فَسَادَ عَشِيرَةٍ ... نُصْلِحْ وَإِنْ نَرَ صَالِحًا لَا نُفْسِدِ (٣)

(١) البيتان لمضرس بن ربعى من أبيات رواها له أبو تمام فى ديوان الحماسة ، وانظر شرح التبريزى (٣ - ١٧٤) .

(٢) السالفة : صفحة العنق ، والأصيد : المتكبر ، وصف من الصيد - بفتح الصاد والياء - وهو ميل فى العنق من الكبر .

(٣) رواية الحماسة « ومتى نخف » .

وهذا كثير سائغ فى الكلام ، إلا أنه لايتأتى لمكان العناية بما يعبر به عنه ، ألا ترى إلى قول الشاعر : « إنا لنصفح عن مجاهل قومنا » فإنه لما كان الصفح مما يشقُّ على النفس فعله ؛ لأنه مقابلة الشر بالخير والإساءة بالإحسان ؛ أكَّده باللام، تحقيقاً له . فإن عرى الموضع الذى يؤتى فيه بهذه اللام من هذه الفائدة المشار إليها وما يجرى مجراه ، فإنّ ورود اللام فيه لغير سبب اقتضاه .

وأكثر ماتستعمل هذه اللام فى جواب القسم لتحقيق الأمر المُقْسَم عليه ، وذلك فى الإيجاب ، دون النفى ؛ لأنها لاتستعمل فى النفى ، ألا ترى أنه لايقال : والله لَلَاقُمْتُ ، وإنما يقال : والله لاقمت ، لكن فى الإيجاب تستعمل ، ويكون استعمالها حَسَناً ، كقولك : والله لَأقوم ، فإن أضيف[1] إليها النونان الخفيفة والثقيلة كان ذلك أبلغ فى التأكيد ، كقولك : والله لَأَقُومَنَّ ، وعلى ذلك وردت الآية المتقدم ذكرها ، وهى قوله تعالى : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات) ؛ وإن لم يكن جواباً لقسم فالنون الواردة بعد اللام زيادة فى التأكيد ، وهما تأكيدان أحدهما مردف بالآخر .

وكذلك فاعلم أن النون الثقيلة متصلة بهذا الباب ، فإذا استعملت فى موضع فإنما يقصد بها التأكيد .

فمما جاء منها قول البحترى فى معاتبة الفتح بن خاقان[2] :

---

(١) النون واجبة فى كل مضارع مثبت يقع جوابا لقسم ؛ إذا اتصل به اللام ؛ فما يفيده ظاهر عبارة المؤلف من جواز اقترانه بالنون وتركه غير مقصود .

(٢) الأبيات من قصيدة له مروية فى ديوانه على أنه يمدح فيها المتوكل على الله ، وأولها قوله :

شَوْقٌ إِلَيْكَ تَفِيضُ مِنْهُ الْأَدْمُعُ وَجَوًى عَلَيْكَ تَضِيقُ عَنْهُ الْأَضْلُعُ

وفى القصيدة نفسها مايؤكد أن الممدوح بها هو المتوكل ، انظر إلى قوله فيها :

شَرَفًا بَنِى الْعَبَّاسِ ؛ إِنَّ أَبَاكُمُ عَمُّ النَّبِىِّ وَعِيصُهُ الْمُتَفَرِّعُ

هَلْ يَجْلُبَنَّ إِلَيَّ عطفكَ مَوْقِفٌ ثَبْتٌ لَدَيْكَ أَقُولُ فِيهِ وَتَسْمَعُ(١)
مَازَالَ لِي مِنْ حُسْنِ رَأْيِكَ مَوْئِلٌ آوِي إِلَيْهِ مِنَ الْخُطُوبِ وَمَفْزَعُ
فَعَلَامَ أَنْكَرْتَ الصَّدِيقَ وَأَقْبَلَتْ نَحْوِي جَنَابُ الْكَاشِحِينَ تَطَلَّعُ(٢)
وَأَقَامَ يَطْمَعُ فِي تَهَضُّمِ جَانِبِي مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ فِيهِ يَطْمَعُ
إِلَّا يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ وَاسِعٌ أَوْ كَانَ لِي ذَنْبٌ فَعَفْوُكَ أَوْسَعُ

وهذه أبيات حسنة مليحة فى بابها ، يمحى بها حَرّ الصدود ، ويستمال بها صَعَر الخدود ، وإنما ذكرتها بجملتها لمكان حسنها ، والبيت الأول هو المراد ، ألا ترى أنه قال : « هل يَجْلُبَنَّ إلى عطفك موقف(١) » فالنون جاءت قصداً للتأكيد ، وهو فى هذا المقام متمنٍّ ، فأحبّ أن يؤكد هذه الأمنية ، وكل مايجىء من هذا الباب فإنه واقع هذا الموقع ، وإذا استعمل عبثاً لغير فائدة تقتضيه فإنه لايكون استعماله إلا من جاهل بالأسرار المعنوية ، وأما مايمثل به النحاة من قول القائل : والله لأقومَنّ ، فإنه مثال نحوىّ يضرب للجواز ، وإلا فإذا قال القائل : والله لأقومنّ ، وأكده ، كان ذلك لغواً ، لأنه ليس فى قيامه من الأمر العزيز ولا من الأمر العسير مايحتاج معه إلى التأكيد ، بل لو قال : والله لأقومنّ إليك ، مهدّداً له ، لكان ذلك واقعاً فى موقعه ، فافهم هذا وقس عليه .

إِنَّ الْفَضِيلَةَ لِلَّذِى اسْتَسْقَى بِهِ عُمَرٌ وَشُفِّعَ إِذْ غَدَا يَسْتَشْفِعُ
وَأَرَى الْخِلَافَةَ وَهْيَ أَعْظَمُ رُتْبَةً حَقّاً لَكُمْ وَوِرَاثَةً مَا تُنْزَعُ

وفيها قوله :

يَأَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِى سَقَتِ الْوَرَى مِنْ رَاحَتَيْهِ غَمَامَةٌ مَا تُقْلِعُ

(١) وقع فى ب ، ج فى أول هذا البيت «هل تجلين» والتصحيح عن الديوان .
(٢) فى الديوان « نحو ركاب الكاشحين تطلع » .

النوع الثانى عشر

فى قوة اللفظ لقوة المعنى

هذا النوع قد ذكره أبو الفتح بن جنى فى كتاب « الخصائص » ، إلا أنه لم يورده كما أوردته أنا ، ولا نبّه على مانبهت عليه من النكت التى تضمنته ، وهذا يظهر بالوقوف على كلامى وكلامه ، فأقول :

اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه فلا بدّ من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أوّلاً ؛ لأن الألفاظ أدلّة على المعانى ، وأمثلة للإبانة عنها ، فإذا زيد فى الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعانى ، وهذا لا نزاع فيه ؛ لبيانه ، وهذا النوع لايستعمل إلا فى مقام المبالغة .

فمن ذلك قولهم : خشن واخْشَوْشَنَ ، فمعنى خشن دون معنى اخْشَوْشَنَ ؛ لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو نحو فَعَلَ وافْعَوْعَل ، وكذلك قولهم : أَعْشَبَ المكان ، فإذا رأوا كثرة العشب قالوا : اعْشَوْشَبَ .

ومما ينتظم بهذا السلك قَدَرَ واقْتَدَر ، فمعنى اقتدر أقوى من معنى قَدَر ، قال الله تعالى : (فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ) فمقتدر ههنا أبلغ من قادر ، وإنما عدل إليه للدلالة على تفخيم الأمر وشدة الأخذ الذى لايَصْدر إلا عن قوّة الغضب ، أو للدلالة على بَسْطة القدرة ، فإن المقتدر أبلغ فى البسطة من القادر ، وذاك أن مقتدراً اسم فاعل من اقتدر ، وقادر اسم فاعل من قَدَر ، ولا شك أن افتعل أبلغ من فعل .

وعلى هذا ورد قول أبى نواس :

فَعَفَوْتَ عَنِّى عَفْوَ مُقْتَدِرٍ   حَلَّتْ لَهُ نِقَمٌ فَأَلْغَاهَا

أى : عفوت عنى عفو قادر متمكن القدرة لا يردّه شىء عن إمضاء قدرته ؛ وأمثال هذا كثيرة .

وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة نوح عليه السلام : (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً) فإن غفاراً أبلغ فى المغفرة من غافر ، لأن فعّالاً يدل على كثرة صدور الفعل ، وفاعلاً لا يدلّ على الكثرة .

وعليه ورد قوله تعالى : (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) فالتوّاب هو الذى تتكرر منه التوبة مرّة على مرّة ، وهو فعّال ، وذلك أبلغ من التائب الذى هو فاعل ، فالتائب اسم فاعل من تَابَ يَتُوب فهو تائب : أى صدرت منه التوبة مرة واحدة ؛ فإذا قيل : تَوّابٌ ؛ كان صدور التوبة منه مراراً كثيرة .

وهذا وما يجرى مجراه إنما يعمد إليه لضرب من التوكيد ، ولا يوجد ذلك إلا فيما فيه معنى الفعلية ؛ كاسم الفاعل والمفعول ، وكالفعل نفسه ، نحو قوله تعالى : (فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ) فإنّ معنى كُبْكِبوا من الكَبّ ، وهو القلب ، إلا أنه مكرّر المعنى ، وإنما استعمل فى الآية دلالة على شدة العقاب ؛ لأنه موضع يقتضى ذلك .

ولربما نظر بعض الجهال فى هذا فقاس عليه زيادة التصغير وقال : إنها زيادة ، ولكنها زيادة نقص ، لأنه يزاد فى اللفظ حرف ، كقولهم فى الثلاثى فى رجل : رُجَيْل ، وفى الرباعى فى قنديل : قُنَيْدِيل ، فالزيادة وردت ههنا فنقصت من معنى هاتين اللفظتين ، وهذا ليس من الباب الذى نحن بصدد ذكره ؛ لأنه عارٍ عن معنى الفعلية ، والزيادة فى الألفاظ لا توجب زيادة فى المعانى ، إلا إذا تضمّنت معنى الفعلية ، لأن الأسماء التى لا معنى للفعل فيها إذا زيدت استحال معناها ، ألا ترى أنا لو نقلنا لفظة عَذْب ، وهى ثلاثية ، إلى الرباعى فقلنا : عَذْيَب ، على وزن جعفر ؛ لاستحال معناها ، ولم يكن لها معنى ، وكذلك لو نقلنا لفظة عَسْجَد ، وهى رباعية ،

إلى الخماسى فقلنا : عَسْجَدِد ، على وزن جَحْمَرِش ؛ لاستحال معناها ، وهذا بخلاف ما فيه معنى الفعلية ؛ كقادر ومقتدر ؛ فإن قادراً اسم فاعل قدَر ، وهو ثلاثى ، ومقتدراً اسم فاعل اقتدر ، وهو رباعى ؛ فلذلك كان معنى القدرة فى اقتدر أشد من معنى القدرة فى قدر ، وهذا لا نزاع فيه .

وهذا الباب بجملته لا يقصد به إلا المبالغة فى إيراد المعانى ، وقد يستعمل فى مقام المبالغة فينعكس المعنى فيه إلى ضده ، كما جاء لأبى كِرَامٍ (١) التميمى من شعراء الحماسة ، وهو قوله (٢) :

لِلّٰهِ تَيْمٌ أَىُّ رُمْحِ طِرَادِ لَاقَى الْحِمَامَ وَأَىُّ نَصْلِ جِلَادِ (٣)
وَمِحَشُّ حَرْبٍ مُقْدِمٍ مُتَعَرِّضٍ لِلْمَوْتِ غَيْرِ مُكَذِّبٍ حَيَّادِ (٤)

فلفظة « حَيَّاد » قد وردت ههنا ، وإنما أوردها هذا الشاعر وقصد بها المبالغة فى وصف شجاعة هذا الرجل فانعكس عليه المقصد الذى قصده ، لأن حيادا من حَيَّد فهو حَيَّاد : أى وجد منه الحَيْدُودة مراراً ، كما يقال : قَتَّل فهو قَتَّال : أى وجد منه القتل مراراً ، وإذا كان هذا الرجل غير حَيَّاد كان حائداً : أى وجدت منه الحيدودة مرة واحدة ، وإذا وجدت منه مرة كان ذلك جبنا ، ولم يكن شجاعة ، والأولى أن كان قال : غير مكذب حائد .

(١) ويقال : هو أبو كدام ، بالدال ، بزنة كتاب

(٢) رواها أبو تمام فى الحماسة فى باب الرثاء ، وانظر شرح التبريزى (٢ – ٢١٣).

(٣) تيم : رجل من بنى يشكر ، وكان قد بارز أبا كرام ، فقتله ، فأخذ يفخم شأنه لأنه إذا أثنى عليه بالشجاعة والإقدام كان ذلك أعظم لفخره له .

(٤) محش الحرب : موقدها ومثيرها ، وفى الحماسة « غير معرد » والتعريد : ترك القصد وسرعة الانهزام ، ومنه قول الشاعر :

ظَنَنْتُكَ إِنْ شُبَّتْ لَظَى الْحَرْبِ صَالِيًا فَعَرَّدْتَ فِيمَنْ كَانَ عَنْهَا مُعَرِّدَا

ووقع هنا فى ب ، ح « جياد » بالجيم ، وهو تصحيف ، وصوابه « حياد » بالحاء المهملة من حاد يحيد ، إذا مال ونكص ، ووقع على الصواب فى الحماسة .

وينبغى أن يعلم أنه إذا وردت لفظة من الألفاظ ويجوز حملها على التضعيف الذى هو طريق المبالغة وحملها على غيره أن يُنْظَر فيها ؛ فإن اقتضى حملها على المبالغة فهو الوجه .

فمن ذلك قول البحترى فى قصيدته التى مطلعها :

* مُنَى النَّفْسِ فِى أَسْمَاءَ لَوْ تَسْتَطِيعُهَا (١) *

وهى قصيدة مدح بها الخليفة المتوكل رحمه الله ، وذكر فيها حديث الصلح بين بنى تغلب ؛ فمما جاء فيها قوله :

رَفَعْتَ بِضَبْعَىْ تَغْلِبَ ابْنَةِ وَائِلٍ ... وَقَدْ يَئِسَتْ أَنْ يَسْتَقِلَّ صَرِيعُهَا
فَكُنْتَ أَمِينَ اللهِ مَوْلَى حَيَاتِهَا ... وَمَوْلاَكَ فَتْحٌ يَوْمَ ذَاكَ شَفِيعُهَا
تَأَلَّفْتَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَاشَرَّدَتْ بِهِمْ ... حَفَائِظُ أَخْلاَقٍ بَطِىءٍ رُجُوعُهَا
فَأَبْصَرَ غَاوِيهَا الْمَحَجَّةَ فَاهْتَدَى ... وَأَقْصَرَ غَالِيهَا وَدَانَى شُسُوعُهَا

فقوله « تألفتهم من بعد ماشردت بهم » يجوز أن تخفف لفظة « شردت » ويجوز أن تثقل ، والتثقيل هو الوجه ؛ لأنه فى مقام الإصلاح بين قوم تنازعوا واختلفوا ، وتباينت قلوبهم وآراؤهم ، وكل مايجىء من الألفاظ على هذا النحو فينبغى أن يجرى هذا المجرى .

وههنا نكتة لابد من التنبيه عليها ، وذلك أن قوة اللفظ لقوة المعنى لاتستقيم إلا فى نقل صيغة إلى صيغة أكثر منها ، كنقل الثلاثى إلى الرباعى ، وإلا فإذا كانت صيغة الرباعى مثلا موضوعة لمعنى فإنه لايراد به ما أريد من نقل الثلاثى إلى مثل تلك الصيغة ، ألا ترى أنه إذا قيل فى الثلاثى قَتَلَ ثم نقل إلى الرباعى فقيل قَتَّلَ — بتشديد التاء — فإن الفائدة من هذا النقل هى التكثير : أى أن القتل

---

(١) هذا صدر البيت ، وعجزه قوله :

* بِهَا وَجْدُهَا مِنْ غَادَةٍ وَوَلُوعُهَا *

وجد منه كثيراً ، وهـذه الصيغة الرباعية بعينها لو وردت من غير نقل لم تـكن دالة على التكثير ، كقوله تعالى : (وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) فإن كلّم على وزن قتّل ، ولم يرد به التكثير ، بل أريد به أنه خاطبه ، سواء كان خطابه إياه طويلا أو قصيراً ، قليلا أو كثيراً ، وهذه اللفظة رباعية ، وليس لها ثلاثى نقلت عنه إلى الرباعى ، لـكن قد وردت بعينها ولها ثلاثى ورباعى فكان الرباعى أكثر وأقوى فيما دل عليه من المعنى ؛ وذاك أن تكون كَلَّمَ من الجرح : أى جَرَّح ، ولها ثلاثى وهو كَلَمَ مخففا : أى جَرَح ؛ فإذا وردت مخففة دلت على الجراحة مرة واحدة ، وإذا وردت مثقلة دلت على التكثير .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) فإن لفظة « رتّل » على وزن لفظة قتّل ، ومع هـذا ليست دالة على كثرة القراءة ، وإنما المراد بها أن تكون القراءة على هيئة التأنى والتدبر ، وسبب ذلك أن هـذه اللفظة لاثلاثى لها حتى تنقل عنه إلى رباعى ، وإنما هى رباعية موضوعة لهذه الهيئة المخصوصة من القراءة ؛ وعلى هذا فلا يستقيم معنى الـكثرة والقوة فى اللفظ والمعنى إلا بالنقل من وزن إلى وزن أعلى منه ، فاعرف ذلك .

ومن ههنا شذ الصواب عمن شذ عنه فى عالم وعليم ؛ فإن جمهور علماء العربية يذهبون إلى أن عليما أبلغ فى معنى العلم من عالم ، وقد تأمّلْت ذلك وأنعمت نظرى فيه ، فحصل عندى شك فى الذى ذهبوا إليه ، والذى أوجب ذلك الشك هو أنّ عالما وعليما على عدة واحدة ؛ إذ كل منهما أربعة أحرف ، وليس بينهما زيادة ينقل فيها الأدنى إلى الأعلى ، والذى يوجبه النظر أن يكون الأمر على عكس ماذكروه ، وذاك أن يكون عالم أبلغ من عليم ، وسببه أن عالما اسم فاعل من علم ، وهو متعد ، وأن عليما اسم فاعل من علم ، إلا أنه أشبه وزن الفعل القاصر ، نحو شَرُف فهو شريف ، وكَرُمَ فهو كريم ، وعَظُم فهو عظيم ؛ فهذا الوزن لايكون إلا فى الفعل القاصر ؛ فلما أشبهه عليم انحط عن رتبة عالم الذى هو متعد ؛ ألا ترى أن فعِل

ـ بفتح الفاء وكسر العين ـ يكون متعديا نحو عَلِمَ وحَمِدَ، ويكون قاصراً غير متعد نحو غَضِبَ وشَبِعَ، وأما فَعُلَ ـ بفتح الفاء وضم العين ـ فإنه لايكون إلا قاصراً غيرمتعد، ولما كان فَعِلَ ـ بفتح الفاء وكسر العين ـ متردداً بين المتعدى والقاصر، وكان فَعُلَ ـ بفتح الفاء وضم العين ـ قاصراً غير متعد؛ صار القاصر أضعف مما يدور بين المتعدى والقاصر، وحيث كان الأمر كذلك، وأشبه وزن المتعدى وزن القاصر؛ حَطَّ ذلك من درجته، وجعله فى الرتبة دون المتعدى الذى ليس بقاصر، هذا هو الذى أوجب لى التشكيك فيما ذهب إليه غيرى من علماء العربية، ولربما كان ماذهبوا إليه لأمر خفى عنى ولم أطلع عليه.

النوع الثالث عشر
فى عكس الظاهر

وهو نفى الشىء بإثباته، وهو من مستطرفات علم البيان، وذاك أنك تذكر كلاماً يدلُّ ظاهره أنه نفى لصفة موصوف، وهو نفى للموصوف أصلاً.

فمما جاء منه قول على بن أبى طالب رضى الله عنه فى وصف مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم «لَا تُنْثَى فَلَتَاتُه» (١) أى لاتذاع سقطاته، فظاهر هذا اللفظ أنه كان ثَمَّ فَلَتَات غير أنها لاتذاع، وليس المراد ذلك، بل المراد أنه لم يكن ثَمَّ فلتات فتنثى، وهذا من أغرب ماتوسعت فيه اللغة العربية، وقد ورد فى الشعر

(١) فى النهاية: «وفى الحديث فى صفة مجلسه عليه الصلاة والسلام: لا تُنْثَى فَلَتَاتُهُ، أى لاتشاع ولا تذاع، يقال: نَثَوْتُ الحديث أنْثُوهُ نَثْواً، والنَّثَا فى الكلام يطلق على القبيح والحسن، يقال: ما أقبح نثاه، وما أحسنه، والفلتات: جمع فلتة، وهى الزلة، أراد أنه لم يكن لمجلسه فلتات فتنثى» اهـ.

كقول بعضهم :

* وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ (١) *

فإن ظاهر المعنى من هذا البيت أنه كان هناك ضبٌ ولكنه غير منجحر ، وليس كذلك ، بل المعنى أنه لم يكن هناك ضبٌ أصلاً .

وهذا النوع من الكلام قليل الاستعمال ، وسبب ذلك أن الفَهْم يكاد يأباه ، ولا يقبله إلا بقرينة خارجة عن دلالة لفظه على معناه ، وما كان عارياً عن قرينة فإنه لايفهم منه ما أراد قائله .

وسأوضح ذلك فأقول : أما قولنا عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا تُنْثَى فلتاته » فإن مفهوم هذا اللفظ أنه كان هناك فلتات إلا أنها تُطْوى ولا تنشر ، وتكتم ولا تذاع ، ولا يفهم منه أنه لم يكن هناك فلتات إلا بقرينة خارجة عن اللفظ ، وهى أنه قد ثبت فى النفوس ، وتقرر عند العقول ، أن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنَزَّه عن فلتات تكون به ، وهو أكرم من ذلك وأوقر ؛ فلما قيل : « إنه لا تنثى فلتاته » فهمنا منه أنه لم يكن هناك فلتات أصلاً ، وأما قول القائل :

* وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ (١) *

فإنه لا قرينة تخصصه حتى يفهم منه مافهم من الأوّل ، بل المفهوم أنه كان هناك ضبٌ ولكنه غير منجحر .

ولقد مكثت زماناً أطوف على أقوال الشعراء قصداً للظفر بأمثلة من الشعر جرية هذا المجرى فلم أجد إلا بيتاً لامرئ القيس (٢) ، وهو :

---

(١) هذا عجز بيت لعمرو بن أحمر من كلة يصف فيها فلاة ، وصدره قوله :

* لَا تُفْزِعُ الْأَرْنَبَ أَهْوَالُهَا *

ووقع فى ب ، ج « ينحجر » بتقديم الحاء المهملة ، والصواب تقديم الجيم .

(٢) من قصيدة له مطلعها :

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِى عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ لِنَقْضِىَ حَاجَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ

عَلَى لَاحِبٍ لَا يُهْتَدَى لِمَنَـــارِهِ إذَا سَافَهُ الْعَوْدُ الدِّيَافِيُّ جَرْجَرَا (١)

فقوله « لايهتدى لمناره » أى : أن له مناراً إلا أنه لايهتدى به ، وليس المراد ذلك ، بل المراد أنه لا منار له يهتدى به .

ولى أنا فى هذا بيت من الشعر ، وهو :

أَدْنَيْنَ جِلْبَابَ الْحَيَاءِ فَلَنْ يُرَى لِذُيُولِهِنَّ عَلَى الطَّرِيقِ غُبَارُ

وظاهر هذا الكلام أن هؤلاء النساء يَمْشِينَ هَوْناً لحيائهن فلا يظهر لذيولهن غبار على الطريق ، وليس المراد ذلك ، بل المراد أنهن لا يَمْشِين على الطريق أصلا : أى أنهنّ مُخَبَّآت لايَخْرُجْن من بيوتهن؛ فلا يكون إذاً لذيولهن على الطريق غبار ، وهذا حسن رائق ، وهو أظهر بياناً من قوله :

* وَلاَ تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ *

فمن استعمل هــذا النوع من الكلام فليستعمله هكذا ، و إلا فَلْيَدَعْ ، على أن الإكثار من استعماله عَسِر ؛ لأنه لايظهر المعنى فيه .

---

(١) اللاحب : الطريق الواضح ، والمنار : اسم جنس جمعى ، واحده منارة ، وسافه — بالفاء — شمه ، ووقع فى ج ، ب « ساقه » بالقاف ، وهو تحريف ، والعود — بفتح العين المهملة وسكون الواو — البعير الهرم ، والديافى — بكسر الدال المهملة بعدها ياء — المنسوب إلى دياف ، وهى قرية بالشام ، ويقال : بالجزيرة ، ووقع فى ب ، ج ، « النياطى » وجرجر : ردد صوته .

النوع الرابع عشر

فى الاستدراج

وهذا الباب أنا استخرجته من كتاب الله تعالى ، وهو مُخادَعات الأقوال التى تقوم مَقَام مُخادعات الأفعال ؛ والكلام فيه و إن تضمن بلاغةً فليس الغرض ههنا ذكر بلاغته فقط ، بل الغرض ذكر ماتضمنه من النكت الدقيقة فى استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم ، و إذا حقق النظر فيه علم أن مدار البلاغة كلها عليه ؛ لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ولا المعانى اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها ، والكلام فى مثل هذا ينبغى أن يكون قصيراً فى خلابه ، لا قصيراً فى خطابه ، فإذا لم يتصرّف الكاتب فى استدراج الخصم إلى إلقاء يده ، و إلا[1] فليس بكاتب ، ولا شبيه له إلا صاحب الْجدَل ؛ فكما أن ذاك يَتَصرّف فى المغالطات القِياسية فكذلك هذا يتصرف فى المغالطات الخطابية .

وقد ذكرت فى هذا النوع ما يُتَعلَّم منه سلوك هذه الطريق .

فمن ذلك قوله تعالى : (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) ألا ترى ما أحسن مَاخَذ هذا الكلام وألطفه ؛ فإنه أخَذَهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم ؛ فقال : لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذباً فكذبه يعود عليه ولا يتعداه ، أو يكون صادقاً [وإنْ يَكنْ صادقاً] يصبكم بعض الذى يَعِدكم إن تعرضتم له ، وفى هذا الكلام من حسن الأدب والإنصاف ما أذكره لك فأقول : إنما قال (يُصِبْكم بعض الذى يعدكم)

(١) كذا . ونرى الصواب حذف كلمة « وإلا » .

وقد علم أنه نبيٌّ صادق وأن كلَّ ما يعدهم به لابد وأن يصيبهم ، لا بعضه ؛ لأنه احتاج فى مُقاولة خصوم موسى عليـه السلام أن يسلك معهم طريق الإنصاف والملاطفة فى القول ، ويأتيهم من جهة المناصحة ؛ ليكون أدعى إلى سكونهم إليه ؛ فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله ، وأدخل فى تصديقهم إياه ، فقال : (وإنْ يَكُ صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم) وهو كلام المنصف فى مقابلة غير المشتط ، وذلك أنه حين فَرَضَهُ صادقاً فقد أثبت أنه صادق فى جميع ما يَعِدُ به ، لكنه أردف بقوله : (يصبكم بعض الذى يعدكم) ليَهْضِمَهُ بعضَ حقه فى ظاهر الكلام ، فَيُرِيهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافياً ، فضلاً عن أن يتعصَّب له ، وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل ؛ كأنه بَرْطَلهم فى صدر الكلام بما يزعمونه ؛ لئلا ينفروا منه ، وكذلك قوله فى آخر الآية : (إنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) أى : هو على الهدى ، ولو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله للنبوّة ، ولا عَضَّده بالبينات ، وفى هذا الكلام من خِداع الخصم واستدراجه ما لا خفاء به ، وقد تضمن من اللطائف الدقيقة ما إذا تأملته حقَّ التأمل أعطيته حقه من الوصف .

ومما يجرى على هذا الأسلوب قوله تعالى : (وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) هذا كلام يَهُزُّ أعطاف السامعين ، وفيه من الفوائد ما أذكره ، وهو أنه لما أراد إبراهيم عليه السلام أن يَنْصَح أباه ويَعِظَهُ ويُنْقِذه مما كان متورِّطاً فيه من الخطأ العظيم الذى عَصَى به أمر العقل ؛ رتَّبَ الكلام معه فى أحسن نظام ، مع استعمال

المجاملة واللطف والأدب الحميد والخلق الحسن ، مُسْتَنْصحاً فى ذلك بنصيحة ربه ، وذاك أنه طلب منه أولا العلَّة فى خطيئته طلبَ مُنبِّهٍ على تماديه مُوقِظٍ من غفلته ؛ لأن المعبود لو كان حيًّا مميزاً سميعاً بصيراً مقتدراً على الثواب والعقاب إلا أنه بعضُ الخلق يَسْتخِفُّ عقلَ مَنْ أهّله للعبادة ووَصَفه بالربوبية ، ولو كان أشرف الخلائق كالملائكة والنبيين ، فكيف بمن جعل المعبودَ جماداً لا يسمع ولا يبصر ، يعنى به الصنم ، ثم ثَنَّى ذلك بدعوته إلى الحق مُتَرَفِّقًا به ، فلم يَسِمْ أباه بالجهل المطلق ، ولا نفسَهُ بالعلم الفائق ، ولكنه قال : إنَّ معى لَطَائفةً من العلم وشيئاً منه ، وذلك علم الدلالة على سلوك الطريق ، فلا تستنكف ؛ وَهَبْ أنى وإياك فى مسير ، وعندى معرفة بهداية الطريق دونك ، فاتَّبعنى أُنْجِكَ من أن تضل ، ثم ثَلَّث ذلك بتثبيطه عما كان عليه ونهيه ، فقال : إن الشيطان الذى استعصى على ربك وهو عَدُوُّك وعدو أبيك آدم هو الذى وَرَّطَك فى هذه الورطة ، وألقاك فى هذه الضلالة ، وإنما ألغى إبراهيم عليه السلام ذكر معاداة الشيطان آدم وذريته فى نصيحة أبيه لأنه لإمْعَانِهِ فى الإخلاص لم يذكر من جنايتى الشيطان إلا التى تختصّ بالله ، وهى عصيانه واستكباره ، ولم يلتفت إلى ذكر معاداته آدم وذريته ، ثم رَبَّع ذلك بتخويفه إياه سوء العاقبة ، فلم يُصَرِّح بأن العقاب لاحِقٌ به ، ولكنه قال : (إنى أخاف أن يمسك عذاب) فنكر العذاب ملاطَفَةً لأبيه ، وصدَّر كل نصيحة من هذه النصائح بقوله : (يا أبَتِ) توسُّلاً إليه واستعطافاً ، وهذا بخلاف ما أجابه به أبوه ، فإنه قال : (أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِى يا إِبْرَاهِيمُ) فأقبل عليه بفظاظة الكفر ، وغلظ العناد ، فناداه باسمه ، ولم يقابل قوله يا أبت بقوله يا بنىّ وقدَّم الخبر على المبتدأ فى قوله : (أَرَاغِبٌ أَنْتَ) لأنه كان أهمّ عنده ، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عن آلهته .

وفى القرآن الكريم مواضع كثيرة من هذا الجنس ، لا سيما فى مخاطبات

الأنبياء صلوات الله عليهم للكفار ، والرد عليهم ، وفى هذين المثالين المذكورين ههنا كفاية ومَقْنَع .

وبلغنى حديث تفاوض فيه الحسين بن علىّ رضى الله عنهما ومعاوية بن أبى سفيان فى أمر ولده يزيد ، وذاك أن معاوية قال للحسين : أما أُمُّكَ فاطمة فإنها خير من أمه ، وبنت رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من امرأة من كلب ، وأما حُبِّى يزيدَ فإنى لو أعطيت به مثلك مِلْء الغُوطَة لما رضيت ، وأما أبوك وأبوه فإنهما تحاكما إلى الله فحكم لأبيه على أبيك ؛ وهذا كلام من معاوية كلما أمررته بفكرى عجبتُ من سَدَاده ، فَضْلاً عن بلاغته وفصاحته ، فإن معاوية عَلِمَ ما لعلى رضى الله عنه من السَّبْق إلى الإسلام والأثر فيه ، وما عنده من فضيلة العلم ؛ فلم يعرض فى المنافرة إلى شىء من ذلك ، ولم يقل أيضاً : إن الله أعطانى الدنيا ونزعها منكم ؛ لأن هذا لا فضل فيه ؛ إذ الدنيا ينالها البر والفاجر ، وإنما صانعَ عن ذلك كله بقوله : « إن أباك وأباه تحاكما إلى الله فحكم لأبيه على أبيك » وهذا قول إيهامى يُوهِم شبهة من الحق ، وإذا شاء من شاء أن ينافر خصمه ويستدرجه إلى الصمت عن الجواب فليقل هكذا .

النوع الخامس عشر

فى الإيجاز

وهو حذف زيادات الألفاظ ؛ وهذا نوع من الكلام شريف لا يتعلق به إلا فُرْسان البلاغة من سَبَقَ إلى غايتها وما صَلَّى ، وضَرَبَ فى أعلى درجاتها بالقِدْحِ المُعَلَّى ، وذلك لعلو مكانه ، وتعذر إمكانه .

والنظر فيه إنما هو إلى المعانى لا إلى الألفاظ ، ولست أعنى بذلك أن تهمل

الألفاظ بحيث تعرى عن أوصافها الحسنة ، بل أعنى أن مَدَار النظر فى هذا النوع إنما يختصّ بالمعانى ؛ فَرُبَّ لفظٍ قليل يدل على معنى كثير ، وربّ لفظ كثير يدل على معنى قليل ، ومثال هـذا كالجوهرة الواحدة بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة ؛ فمن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها ، ومن ينظر إلى شرف المعانى يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها ، ولهـذا سَمَّى النبىّ صلى الله عليه وسلم الفاتحة أم الكتاب ، وإذا نظرنا إلى مجموعها وَجَدْناه يسيرا ، وليست من الكثرة إلى غاية تكون بها أم البقرة وآل عمران وغيرهما من السور الطوال ؛ فعلمنا حينئذ أن ذلك الأمر يرجع إلى معانيها ،

والكلام فى هذا الموضع يخرج بنا إلى غير مانحن بصدده ؛ لأنه يحتاج فيه إلى ذكر المراد بالقرآن الكريم وما يشتمل عليه سوره وآياته إلى حصر أقسام معانيه ، لكنا نشير فى ذلك إشارة خفيفة ؛ فنقول :

المراد بالقرآن هو دعوة العباد إلى الله تعالى ، ولذلك انحصرت سوره وآياته فى ستة أقسام : ثلاثة منها هى الأصول ، وثلاثة هى الفروع .

أما الأصول فالأول منها : تعريفُ المدعوّ إليه ، وهو الله تعالى ، ويشتمل هذا الأصل على ذِكْرِ ذاته وصفاته وأفعاله ؛ والأصل الثانى : تعريف الصراط المستقيم الذى تجب مُلازمته فى السلوك إلى الله تعالى ، ويشتمل هذا الأصل على التبَتُّلِ بعبادة الله بأفعال القلب وأفعال الجوارح ؛ والأصل الثالث : تعريف الحال بعد الوصول إلى الله تعالى ، أعنى بعد الموت ، ويشتمل هـذا الأصل على تفصيل أحوال الدار الآخرة من الجنة والنار والصراط والميزان والحساب ، وأشباه ذلك ؛ فهذه الأصول الثلاثة .

وأما الفروع فالأول منها : تعريف أحوال المجيبين للدعوة ، ولطائف صنع الله بهم من النُّصْرَة والإدَالة ، وتعريف أحوال المخالفين للدعوة والمحادِّينَ لها ، وكيفية صُنْع الله فى التَّدْمير عليهم والتنكيل بهم ، والفرع الثانى : ذكر مُجادلة

الخصوم ومحاجّتهم ، وحملهم بالمجادلة والمحاجّة على طريق الحق ، وهؤلاء هم اليهود والنصارى ومن يجرى مجراهم من أرباب الشرائع ، والفلاسفة والملحدة من غير أرباب الشرائع ؛ والفرع الثالث : تعريف عِمَارة منازل الطريق ، وكيفية أخذ الزاد والأهْبَة للاستعداد ، وذاك قياس الشريعة ، وتبيين الحكمة فى أوامرها التى تتعلق بأفعال أهل التكليف .

فهذه الأقسام الستة المشار إليها هى التى تدور معانى القرآن عليها ولا تتعداها وههنا تقسيم آخر يطول الخطب فيه ، ولا حاجة إلى ذكره .

وإذا نظرنا إلى سورة الفاتحة وتأمّلنا مافيها من المعانى وجدناها مشتملة على أربعة أقسام من الستة المذكورة ، ولذلك سماها النبى صلى الله عليه وسلم « أم الكتاب » كما أنه قال : « إن سورة الإخلاص تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآن » وإذا نظرنا فى الأقسام الستة وجدنا سورة الإخلاص بمنزلة ثلث القرآن ، وكذلك قال صلى الله عليه وسلم : « آية الكرسى سيدة آى القرآن » ويروى أنه سأل أُبَيَّ بن كعب رضى الله عنه فقال : « أى آيةٍ مَعَكَ فِى كِتَابِ اللهِ أعْظَم ؟ » فقال : الله لا إله إلا هو الحى القيوم ؛ فضرب فى صدره ، وقال : « لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ » وكل هذا يرجع إلى المعانى لا إلى الألفاظ ، فاعرف ذلك وبينه لرموزه وأسراره .

واعلم أن جماعة من مُدّعى علم البيان ذهبوا إلى أن الكلام ينقسم قسمين : فمنه مايحسن فيه الإيجاز كالأشعار والمكاتبات ، ومنه مايحسن فيه التطويل كالخطب والتقليدات وكتب الفتوح التى تقرأ فى مَلَإٍ من عوامّ الناس ؛ فإن الكلام إذا طال فى مثل ذلك أثّر عندهم وأفهمهم ، ولو اقتصر فيه على الإيجاز والإشارة لم يقع لأكثرهم حتى يقال فى ذكر الحرب : التقى الجمعان ، وتطاعن الفريقان ، واشتد القتال ، وحمى النضال ، وما جرى هذا المجرى .

والمذهب عندى فى ذلك ما أذكره ، وهو أن فَهْمَ العامة ليس شرطا معتبرا فى اختيار الكلام ؛ لأنه لو كان شرطا لوجب على قياسه أن يستعمل فى الكلام

الألفاظ العامية المبتذلة عندهم ؛ ليكون ذلك أقرب إلى فهمهم ؛ لأن العلة فى اختيار تطويل الكلام إذا كانت فهم العامة إياه فكذلك تجعل تلك العلة بعينها فى اختيار المبتذل من الكلام ؛ فإنه لاخلاف فى أن العامة إلى فهمه أقربُ من فَهْم مايقلّ ابتذالهم إياه ، وهذا شىء مدفوع ، وأما الذى يجب توَخِّيه واعتماده فهوأن يُسْلَك المذهب القويم فى تركيب الألفاظ على المعانى ، بحيث لا تزيد هذه على هذه ، مع الإيضاح والإبانة ، وليس على مُسْتعْمِل ذلك أن يَفْهم العامة كلامه ؛ فإن نور الشمس إذا لم يَرَه الأعمى لايكون ذلك نقصاً فى استنارته ، وإنما النقص فى بصر الأعمى حيث لم يستطع النظر إليه :

عَلَىَّ نَحْتُ الْقَوَافِى مِنْ مَعَادِنِهَا ... وَمَا عَلَىَّ بِأَنْ لاَ تَفْهَمَ الْبَقَرُ

وحيث انتهى بنا القول إلى هذا الموضع فلنرجع إلى ماهو غرضنا ومهمنا من الكلام على الإيجاز ، وحدّه ، وأقسامه ، ونوضح ذلك إيضاحا جليا ، والله الموفق للصواب .

فنقول : حدُّ الإيجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه ، والتطويل هو ضد ذلك ، وهو أن يُدَلَّ على المعنى بلفظ يكفيك بعضه فى الدلالة عليه ، كقول الْعُجَيْر السَّلُولى من أبيات الحماسة (١) :

طَلُوعُ الثَّنَايَا بِالْمَطَايَا وَسَابِقٌ ... إِلَى غَايَةٍ مَنْ يَبْتَدِرْهَا يُقَدَّمِ (٢)

فصدر هذا البيت فيه تطويل لاحاجة إليه ، وعجزه من محاسن الكلام

---

(١) من كلمة له رواها أبو تمام فى حماسته وأولها قوله :

إِنَّ ابْنَ عَمِّى لاَبْنُ زَيْدٍ ؛ وَإِنَّهُ ... لَبَلاَّلُ أَيْدِى جِلَّةِ الشَّوْلِ بِالدَّمِ

(انظر شرح التبريزى : ٤ — ١٦١) .

(٢) « طلوع الثنايا » أراد أنه يسمو إلى المكارم لأنه بعيد الهمة « يبتدرها » يخف إليها ويسبق غيره إلى بلوغها « يقدم » يجعل له السبق والغلب على أقرانه .

المتواصفة ، وموضع التطويل من صدره أنه قال : « طُلُوع الثنايا بالمطايا » فان لفظة المطايا فضلة لا حاجة إليها ، وبيان ذلك أنه لا يخلو الأمر فيها من وجهين : إما أن يريد أنه سابق الهمة إلى معالى الأمور ، كما قال الحجاج على المنبر عند وصوله العراق :

* أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا *

أى : أنا الرجل المشهور السابق إلى معالى الأمور ؛ فإن أراد المُجَير بقوله « طلوع الثنايا » ما أشرت إليه فذكر المطايا يفسد ذلك المعنى ؛ لأن معالى الأمور لا يُرْقَى إليها بالمطايا ، وإن أراد الوجه الآخر ، وهو أنه كثير الأسفار ؛ فاختصاصه الثنايا بالذكر دون الأرض من المفاوز وغيرها لا فائدة فيه ، وعلى كلا الوجهين فإن ذكر المطايا فضلة لا حاجة إليه ، وهو تطويل بارد غَثّ .

فقِسْ على هذا المثال ما يجرى مجراه من التطويلات التى إذا أسقطت من الكلام بقى على حاله لم يتغير شىء .

وكذلك يجرى الأمر فى ألفاظ يُوصَل بها الكلام ؛ فتارةً تجىء لفائدة ، وذلك قليل ، وتارةً تجىء لغير فائدة ، وذلك كثير ؛ وأكثر ما ترد فى الأشعار ليوزن بها الأبيات الشعرية ، وذلك نحو قولهم : لعمرى ، ولعمرك ، ونحو أصْبَح وأمْسَى وظَلّ وأضْحَى وبات ، وأشباه ذلك ، ونحو ياصاحبى وياخليلى ، وما يجرى هذا المجرى .

فما جاء منه قول أبى تمام [١] :

أَقَرُّوا لَعَمْرِى لِحُكْمِ السُّيُوفِ وَكَانَتْ أَحَقَّ بِفَصْلِ الْقَضَاء [٢]

(١) من قصيدة له يرثى فيها خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، وأولها قوله :

نَعَاءِ إِلَى كُلِّ حَيٍّ نَعَاءِ فَتَى الْعَرَبِ اخْتَطَّ رَبْعَ الْفَنَاءِ

(٢) فى الديوان « أقروا لعمرى بحكم السيوف » .

فإن قوله « لعمرى » زيادة لاحاجة للمعنى إليها ، وهى حشو فى هـذا البيت ، لافائدة فيه إلا إصلاح الوزن لاغير ، ألاترى أنها من باب القَسَم ، وإنما يرد القسم فى موضع يؤكد به المعنى المراد ، إمّا لأنه مما يشك فيه أو مما يعَزّ وجوده ، أو ماجرى هذا المجرى ، وهذا البيت الشعرى لايفتقر معناه إلى توكيد قسمىّ ؛ إذ لا شك فى أن السيوف حاكمة ، وأن كل أحد يقِرُّ لحكمها ، ويذعن لطاعتها.

وكذلك قوله أيضاً (١) :

إذَا أنَا لَمْ أُلِمْ عَثَرَاتِ دَهْرٍ   بُلِيتُ بِهِ الْغَـدَاةَ فَمَنْ أَلُومُ

فقوله « الْغَـدَاةَ » زيادة لاحاجة للمعنى إليها ؛ لأنه يتم بدونها ؛ لأن عـثرات الدهر لم تنله الغداة ولا العشى ، وإنما نالته ، ونيلها إياه لابد وأن يقع فى زمن من الأزمنة كائنا ما كان ، ولا حاجة إلى تعيينه بالذكر

وعلى هذا ورد قول البحترى (٢) :

مَا أَحْسَنَ الْأَيَّامَ إلاَّ أَنَّهَـــا   يَا صَاحِبَيَّ إذَا مَضَتْ لَمْ تَرْجِـعِ (٣)

فقوله « ياصاحبى » زيادة لاحاجة بالمعنى إليها ؛ إلا أنها وردت لتصحيح الوزن لاغير .

وهذه الألفاظ التى ترد فى الأبيات الشعرية لتصحيح الوزن لاعيب فيها ، لأنا لوعبناها على الشعراء لحجّرنا عليهم وضيقنا ، والوزن يضطر فى بعض الأحوال إلى مثل ذلك ، لـكن إذا وردت فى الكلام المنثور فإنها إن وردت حشوا ولم ترد لفائدة كانت عَيْبا .

---

(١) من قصيدة له يشكو فيها دهره ، وأولها قوله :

صَرِيعُ هَوًى تُغَادِيهِ الْهُمُومُ   بِنَيْسَابُورَ لَيْسَ لَهُ حَمِـــيمُ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها يوسف بن محمد ، وأولها قوله :

بَيْنَ الشَّقِيقَةِ فَاللِّوَى فَالْأَجْرَعِ   دِمَنٌ حُبِسْنَ عَلَى الرِّيَاحِ الْأَرْبَعِ

(٣) فى الديوان « ما أحسن الأيام لولا أنها » .

وقد ترد فى الأبيات الشعرية ويكون ورودها لفائدة وذلك هو الأحسن، كقول البحترى (١) :

قَوْمٌ أهَانُوا الْوَفْرَ حَتَّى أصْبَحُوا أوْلَى الْأنَامِ بِكُلِّ عِرْضٍ وَافِرِ (٢)

فقوله « أصبحوا » بمعنى صاروا : أى أنهم صاروا أولى الناس بالأعراض الوافرة، وهذه اللفظة لم ترد فى هذا البيت حشواً كما وردت فى بيتى أبى تمام المقدم ذكرهما

وسأزيد هذا الموضع بياناً بمثال أضربه للتطويل، حتى يستدل به على أمثاله وأشباهه، والمثال الذى أضربه هو حكاية أوردت بمحضر منى، وذلك أنه جلس إلىّ فى بعض الأيام جماعة من الإخوان، وأخذوا فى مفاوضة الأحاديث، وانساق ذلك إلى ذكر غرائب الوقائع التى تقع فى العالم، فذكر كل من الجماعة شيئاً، فقال شخص منهم : إنى كنت بالجزيرة العمرية فى زمن الملك فلان، وكنت إذ ذاك صبياً صغيراً، فاجتمعت أنا ونفر من الصبيان فى الحارة الفلانية، وصعدنا إلى سطح طاحون لبنى فلان، وأخذنا نلعب على السطح، فوقع صبى منا إلى أرض الطاحون، فوطئه بغل من بغال الطاحون، فخفنا أن يكون آذاه، فأسرعنا النزول إليه، فوجدناه قد وطئه البغل؛ فختنه ختانة صحيحة حسنة لا يستطيع الصانع الحاذق أن يفعل خيراً منها؛ فقال له شخص من الحاضرين : والله إن هذا عىّ فاحش، وتطويل كثير لا حاجة إليه؛ فإنك بصدد أن تذكر أنك كنت صبياً تلعب مع الصبيان على سطح طاحون، فوقع صبي منكم إلى أرض الطاحون،

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن عبد الله بن طاهر، وأولها قوله :

لَا زَالَ مُحْتَفِلُ الْغَمَامِ الْبَاكِرِ يَهْمِى عَلَى حُجُرَاتِ أعْلَى الْحَاجِرِ

(٢) قبل هذا البيت قوله :

كَشَفَتْ لَنَا سِيَرُ الْأمِيرِ مُحَمَّدٍ عَنْ أمْرِ نَاهٍ بِالسَّدَادِ وَآمِرِ
لَا يَقْتَفِى أثَرَ الْغَرِيبِ وَلَا يَرَى قَلَقَ الْمَطِىِّ عَلَى الطَّرِيقِ الْجَائِرِ
مُتَقَيِّلٌ شَرَفَ الْحُسَيْنِ وَمُصْعَبٍ وَفَعَالَ عَبْدِ اللهِ بَعْدُ وَطَاهِرِ

فوطئه بغل من بغال الطاحون فختنه ولم يؤذه ، ولا فرق بين أن تكون هذه الواقعة فى بلد نعرفه أو فى بلد لانعرفه ، ولو كانت بأقصى المشرق أو بأقصى المغرب لم يكن ذلك قدحا فى غرابتها ، وأما أن تذكر أنها كانت بالجزيرة العمرية فى الحارة الفلانية فى طاحون بنى فلان ، وكان زمن الملك فلان ؛ فإن مثل هذا كله تطويل لاحاجة إليه ، والمعنى المقصود يفهم بدونه .

فاعلم أيها الناظر فى كتابى هذا أن التطويل هو زيادات الألفاظ فى الدلالة على المعانى ، ومهما أمكنك حذف شىء من اللفظ فى الدلالة على معنى من المعانى فإن ذلك اللفظ هو التطويل بعينه .

وأما الإيجاز فقد عرفتك أنه دلالة اللفظ على المعنى ، من غير أن يزيد عليه .

وهو ينقسم قسمين : أحدهما : الإيجاز بالحذف ، وهو مايحذف منه المفرد ، والجملة ؛ لدلالة فَحْوَى الكلام على المحذوف ، ولا يكون إلا فيما زاد معناه على لفظه ؛ والقسم الآخر : مالايحذف منه شىء ، وهو ضربان : أحدهما : ماساوى لفظه معناه ، ويسمى التقدير ، والآخر مازاد معناه على لفظه ، ويسمى القصر .

واعلم أن القسم الأول الذى هو الإيجاز بالحذف يتنبه له من غير كبير كلفة فى استخراجه ؛ لمكان المحذوف منه .

وأما القسم الثانى فإن التنبه له عسر ؛ لأنه يحتاج إلى فَضْل تأمل ، وطول فكرة ؛ لخفاء مايستدل عليه ، ولا يستنبط ذلك إلا من رَسَتْ قَدَمُهُ فى ممارسة علم البيان ، وصار له خليقةً وملكة ، ولم أجد أحداً عَلَّمَ هذين القسمين بعلامة ، ولا قَيَّدَهما بقيد ، وقد أشرت إلى ذلك فيما يأتى من هذا الباب عند تفصيل أمثلتهما فليؤخذ من هناك .

فإن قيل : إن هـذا التقسيم الذى قسمته فى المحذوف وغير المحذوف ليس بصحيح ؛ لأن المعانى ليست أجْساماً كالألفاظ حتى يصحَّ التقدير بينهما ، ثم لو سلمت جواز التقدير فى المُساواة لم أسَلِّم جواز الزيادة ، فليس لقائل أن يقول :

هذا المعنى زائد على هذا اللفظ ؛ لأنه إن قال ذلك قيل : فمن أين فهمت تلك الزيادة الخارجة عن اللفظ ، وقد علم أن الألفاظ إنما وضعت للدلالة على إفهام المعانى ؟ فإن قال : إنها فُهِمَتْ من شىء خارج عن اللفظ ، قيل له : فتلك الزيادة بإزاء ذلك الشىء الخارج عن اللفظ ، والباقى مساوٍ للفظ ، و إن قال : إنها فهمت من اللفظ ، قيل : فكيف تفهم منه وهى زائدة عليه ؟ فإن قال : إنها فهمت من تركيبه ؛ لأن التركيب أمر زائد على اللفظ ، قيل : الألفاظ تدلّ بانفرادها على معنى ، و بتركيبها على معنى آخر ، واللفظ المركب يدلّ على معنى مركب ، واللفظ المفرد يدلّ على معنى مفرد ، وتلك الزيادة إن أريد بها زيادة معنى المركب على المركب فلا يخلو : إما أن تكون تلك الزيادة مفهومة من دلالة اللفظ المركب عليها ، أو من دلالة شىء خارج ؛ فإن كانت مفهومة من دلالته عليها لم تكن زائدة عليه ؛ إذ لو كانت زائدة عليه لما دلّ عليها ، و إن كانت مفهومة من دلالة الشىء الخارج عنه فهى بإزاء ذلك الشىء الخارج ، والباقى مساوٍ للباقى .

فالجواب عن ذلك أن نقول : هذا الذى ذكره كلام شبيه بالسفسطة ، وهو باطل من وجهين : أحدهما : أن المعانى إذا كانت لا تزيد على الألفاظ فيلزم من ذلك أن الألفاظ لا تزيد أيضاً على المعانى ؛ لأنهما متلازمان على قياسك ، ونحن نرى معنى قد دلّ عليه بألفاظ ، فإذا أسقط من تلك الألفاظ شىء لاينقص ذلك المعنى ، بل يبقى على حاله ، والوجه الآخر : أن الإيجاز بالحذف أقوى دليلاً على زيادة المعانى على الألفاظ ؛ لأنا نرى اللفظ يدلّ على معنى لم يتضمنه ، وفهم ذلك المعنى ضرورة لابد منه ، فعلمنا حينئذ أن ذلك المعنى الزائد على اللفظ مفهوم من دلالته عليه .

فإن قيل : إن المعنى الزائد على اللفظ المحذوف لابد له من تقدير لفظ آخر يدل عليه ، وتلك الزيادة بإزاء ذلك اللفظ المقدر .

قلت فى الجواب عن ذلك : هذا لاينقض ماذهبت إليه من زيادة المعنى

على اللفظ ؛ لأن المعنى ظاهر ، واللفظ الدال عليه مضمر ، وإذا كان مضمراً فلا ينطق به ، وإذا لم ينطق به فكأنه لم يكن ، وحينئذ يبقى المعنى موجوداً ، واللفظ الدال عليه غير موجود ، وكذلك كل مايعلم من المعانى بمفهوم الخطاب ؛ ألا ترى أنك إذا قلت لمن دخل عليك : أهلاً وسهلاً ، علم أن الأهل والسهل منصوبان بعامل محذوف تقديره وَجَدْتَ أَهْلاً وَلَقِيتَ سَهْلاً ، إلا أن لفظتى وجدت ولقيت محذوفتان ، والمعنى الذى دَلاَّ عليه باقٍ ، فصار المعنى حينئذ مفهوماً مع حذفهما ، فهو إذاً زائد لا محالة ، وكذلك جميع المحذوفات على اختلافها وتَشَعُّب مقاصدها ، وهذا لا نزاع فيه ؛ لبيانه ووضوحه .

وقد سنح لى فى زيادة المعنى على اللفظ فى غير المحذوفات دليل أنا ذاكره ، وهو أنا نجد من الكلام مايدل على معنيين وثلاثة ، واللفظ واحد ، والمعانى التى تحته متعددة .

فأما الذى يدل على معنيين فالكنايات جميعها ، كالذى ورد فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضى الله عنهم أنهم كانوا إذا خرجوا من عنده لايتفرقون إلا عن ذَوَاقٍ ، وهذا يدلّ على معنيين: أحدهما : إطعام الطعام : أى أنهم لايخرجون من عنده حتى يَطْعَمُوا ، الآخر : أنهم لايتفرقون إلا عن استفادة علم وأدب يقوم لأنفسهم مقام الطعام لأجسامهم .

وأما الذى يدل على ثلاثة معانٍ فكقول أبى الطيب المتنبى(١) :

وَأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً ... لِمَنْ بَاتَ فِى نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

فهذا يدلّ على ثلاثة معانٍ : الأول : أنه يحسُد من أنعم عليه ، الثانى : ضد الأول ،

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها كافورا ، وأولها قوله :

أُغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ ، والشَّوْقُ أَغْلَبُ ... وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ ، والْهَجْرُ أَعْجَبُ

وقد مضى أول الكتاب ذكر هذا البيت ، وذكر المؤلف مثل ماذكر هنا (انظر ص ٣٤ من الجزء الأول) .

الثالث : أنه يحسد كل ربِّ نعمة كائناً من كان : أى يحسد من بات فى نعماء نفسِهِ يتقلب .

وهذا وأمثاله من أدلّ الدليـل على زيادة المعنى على اللفظ ، وهو شىء استخرجته ، ولم يكن لأحد فيه قول سابق .

وحيث فرغنا من الـكلام على هذا الموضع فلنتبعه بذكر أقسام الإيجاز المشار إليها أولاً وما ينصرف إليـه ؛ فنقول : أما الإيجاز بالحذف فإنه عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، وذاك أنك ترى فيه تَرْكَ الذكر أفصح من الذكر ، والصَّمْتَ عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدُك أنْطَقَ ماتكون إذا لم تنطق ، وأتم ماتكونُ مبيناً إذا لم تبين ، وهذه جملة تنكرها حتى تَخْبُرَ ، وتدفعها حتى تَنْظُرُ .

والأصل فى المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون فى الـكلام مايدلّ على المحذوف ؛ فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف فإنه لغو من الحديث لايجوز بوجه ، ولا سبب ، ومِنْ شَرْطِ المحذوف فى حكم البلاغة أنه متى أظهر صار الكلام إلى شىء غثّ لايناسب ما كان عليه أولاً من الطلاوة والحسن ؛ وقد يظهر المحذوف بالإعراب كقولنا : أهلاً وسهلاً ، فإن نصب الأهل والسهل يدلّ على ناصب محذوف ، وليس لهذا من الحسن ما للذى لايظهر بالإعراب ، وإنما يظهر بالنظر إلى تمـام المعنى ، كقولنا : فلان يَحُلّ ويَعْقِد ؛ فإن ذلك لايظهر المحذوف فيه بالإعراب ، وإنما يظهر بالنظر إلى تمام المعنى : أى أنه يحلّ الأمور ويعقدها ، والذى يظهر بالإعراب يقع فى المفردات من المحذوفات كثيرا ، والذى لايظهر بالإعراب يقع فى الجمل من المحذوفات كثيراً .

وسأذكر فى كتابى هذا ماوصل إلىّ علمه ، وهو ينقسم قسمين : أحدهما : حذف الجمل ، والآخر : حذف المفردات ، وقد يرد كلام فى بعض المواضع ويكون مشتملا على القسمين معاً .

فأما القسم الأول ، وهو الذى تحذف منه الجمل ؛ فانه ينقسم إلى قسمين أيضاً : أحدهما : حذف الجمل المفيدة التى تستقل بنفسها كلاما ، وهذا أحسن المحذوفات جميعها ، وأدلها على الاختصار ، ولا تكاد تجده إلا فى كتاب الله تعالى؛ والقسم الآخر : حذف الجمل غير المفيدة ، وقد وردا ههنا مختلطين ، وجملتهما أربعة أضرب :

الضرب الأول : حذف السؤال المقدر ، ويسمى الاستئناف ، ويأتى على وجهين :

الوجه الأول : إعادة الأسماء والصفات ، وهذا يجىء تارة باعادة اسم مَنْ تقدم الحديث عنه ، كقولك : أَحْسَنْتُ إلى زيدٍ زَيْدٌ حقيق بالإحسان ، وتارة يجىء باعادة صفته ، كقولك : أحسنت إلى زيد صديقُكَ القديم أهلٌ لذلك منك ؛ وهو أحسن من الأول وأبلغ ؛ لانطوائه على بيان الموجب للإحسان وتخصيصه .

فممّا ورد من ذلك قوله تعالى : (الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) والاستئناف واقع فى هذا الكلام على (أولئك) لأنه لما قال (ألم ذلك الكتاب) إلى قوله (بالآخرة هم يوقنون) اتجه لسائل أن يقول : مابال المستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى ؟ فأجيب بأنّ أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا وبالفلاح آجلا .

الوجه الثانى : الاستئناف بغير إعادة الأسماء والصفات ، وذلك كقوله تعالى : (وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

إِنِّى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ) فمخرج هذا القول مخرج الاستئناف ؛ لأن ذلك من مظان المسألة عن حاله عند لقاء ربه ، وكأن قائلا قال : كيف حال هذا الرجل عند لقاء ربه بعد ذلك التصلب فى دينه والتسخى لوجهه بروحه ؟ فقيل : قيل ادخل الجنة ؛ ولم يقل قيل له لانصباب الغرض إلى المقول لا إلى المقول له مع كونه معلوما ، وكذلك قوله تعالى (ياليت قومى يعلمون) مُرتّب على تقدير سؤال سائل عما وجد

ومن هذا النحو قوله عز وجل : (يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ) والفرق بين إثبات الفاء فى سوف كقوله تعالى : (قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ) وبين حذف الفاء ههنا فى هذه الآية أن إثباتها وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، وحذفها وصل خفى تقديرى بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مقدر ، كأنهم قالوا : فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت ؟ فقال : سوف تعلمون ، فوصل تارة بالفاء ، وتارة بالاستئناف ؛ للتفنن فى البلاغة ، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف ؛ وهو قسم من أقسام علم البيان تتكاثر محاسنه ، فاعرفه إن شاء الله تعالى .

الضرب الثانى : الاكتفاء بالسبب عن المسبب ، وبالمسبب عن السبب :

فأما الاكتفاء بالسبب عن المسبب فكقوله تعالى : (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) كأنه قال : وما كنت شاهداً لموسى وما جرى له وعليه ولكنا أوحيناه إليك ، فذكر سبب الوحى الذى هو إطالة الْفَتْرَة ، ودل به على المسبب الذى هو الوحى ، على عادة اختصارات القرآن ؛ لأن تقدير الكلام :

ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحى إلى موسى إلى عهدك قروناً كثيرة فتطاول على آخرهم ـ وهو القرن الذى أنت فيهم ـ العمر : أى أَمَدُ انقطاع الوحى ، فاندرست العلوم ، فوجب إرسالك إليهم ، فأرسلناك ، وعرفناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى ؛ فالمحذوف إذاً جملة مفيدة ، وهى جملة مطولة دل السبب فيها على المسبب

وكذلك ورد قوله تعالى عقيب هذه الآية أيضاً : (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) فان فى هـذا الكلام محذوفا لولاه لما فهم ، لأنه قال : (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك) وهذا لا بدله من محذوف حتى يستقيم نظم الكلام ، وتقديره : ولكن عرفناك ذلك وأوحيناه إليك رحمة من ربك لتنذر قوما ماأتاهم من نذير من قبلك ؛ فذكر الرحمة التى هى سبب إرساله إلى الناس ، ودل بها على المسبب الذى هو الإرسال .

وأما حذف الجملة غير المفيدة من هذا الضرب فنحو قوله تعالى حكاية عن مريم عليها السلام : (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا) فقوله (ولنجعله آية للناس) تعليل مُعَلَّله محذوف : أى وإنما فعلنا ذلك لنجعله آية للناس ، فذكر السبب الذى صدر الفعل من أجله ، وهو جعله آية للناس ، ودل به على المسبب الذى هو الفعل .

ومما ورد من ذلك فى الأخبار النبوية قصة الزبير بن العوام رضى الله عنه والرجل الأنصارى الذى خاصمه فى شراج الحرة التى يسقى منها النخل ، فلما حَضَرا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للزبير : « اسْقِ ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ » فغضب الأنصارى ، وقال : يارسول الله ؛ أَنْ كان ابْنَ عمتك ؛ فتلوَّن وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ احْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجُدُرِ » وفى هذا الكلام محذوف تقديره : أن كان ابن عمتك حكمت

له ، أو قضيت له ، أو ماجرى هذا المجرى ، فذكر السبب الذى هو كونه ابن عمته، ودل به على المسبب الذى هو الحكم أو القضاء ؛ لدلالة الكلام عليه .

وأما الاكتفاء بالمسبب عن السبب فكقوله تعالى : (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) أى : إذا أردت قراءة القرآن ، فاكتفى بالمسبب الذى هو القراءة عن السبب الذى هو الإرادة ، والدليل على ذلك أنَّ الاستعاذة قبل القراءة ، والذى دلَّت عليه أنها بعد القراءة ، كقول القائل : إذا ضربت زيداً فاجلس ؛ فإن الجلوس إنما يكون بعد الضرب ، لاقبله ، وهذا أولى من تأول من ذهب إلى أنه أراد فإذا تعوذت فاقرأ ، فإن ذلك قلبالاضرورة تدعو إليه ، وأيضاً فليس كل مستعيذ واجبة عليه القراءة .

وعلى هذا ورد قوله تعالى : (إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ) والوضوء إنما يكون قبل الصلاة ، لا عند القيام إليها ؛ لأن القيام إليها هو مباشرة لأفعالها من الركوع والسجود والقراءة وغير ذلك ، وهذا إنما يكون بعد الوضوء ، وتأويل الآية إذا أردت القيام إلى الصلاة فاغسل ، فاكتفى بالمسبب عن السبب.

وكذلك ورد قول النبى صلى الله عليه وسلم : «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَلْيَتَوَضَّأْ » أى : إذا أراد القيام إلى الصلاة ، وإنما يعبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل لأن الفعل مسبب عن الإرادة ، وهو مع القصد إليه موجود ، فكان منه بسبب وملابسة ظاهرة .

ومن ذلك قوله تعالى : (فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا) أى : فضرب فانفجرت منه ، فاكتفى بالمسبب الذى هو الانفجار عن السبب الذى هو الضرب .

الضرب الثالث : وهو الإضمار على شريطة التفسير ، وهو أن يحذف من صدر الكلام مايؤتى به فى آخره ؛ فيكون الآخر دليلا على الأول .

وهو ينقسم إلى ثلاثة أوجه :

الأول : أن يأتى على طريق الاستفهام ، فتذكر الجملة الأولى دون الثانية ، كقوله تعالى : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) تقدير الآية : أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن أقسى قلبه ، ويدل على المحذوف قوله : (فويل للقاسية قلوبهم) .

الوجه الثانى : يرد على حدّ النفى والإثبات ، كقوله تعالى : (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا) تقديره : لايستوى منكم مَنْ أنفق من قبل الفتح وقاتل ومَنْ أنفق من بعده وقاتل ، ويدل على المحذوف قوله : (أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) .

الوجه الثالث : أن يرد على غير هذين الوجهين؛ فلا يكون استفهاماً ، ولا نفياً وإثباتاً ، وذلك كقول أبى تمام(١) :

يَتَجَنَّبُ الآثَامَ ثُمَّ يَخَافُهَا ... فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ آثَامُ

وهذا البيت تختلف نسخ ديوانه فى إثباته ؛ فمنها مايجىء فيه :

يَتَجَنَّبُ الْأَيَّامَ خِيفَةَ غِبِّهَا ... فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ آثَامُ

وليس بشىء ؛ لأن المعنى لايصح به ، وكنت سُئلت عن معناه ، وقيل : كيف ينطبق عجز البيت على صدره ، وإذا تجنب الآثام وخافها فكيف تكون حسناته آثاماً ؟ فأفكرت فيه وأنعمت نظرى فسنح لى فى القرآن الكريم آية مثله ، وهى قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) وفى صدر البيت

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها المأمون العباسى ، وأولها قوله :

دِمَنٌ أَلَمَّ بِهَا فَقَالَ سَلَامُ ... كَمْ حَلَّ عُقْدَةَ صَبْرِهِ الْإِلْمَامُ

انظر الديوان (٢٧٩ بيروت) .

إضمار مُفسَّر فى عجزه ، وتقديره أنه يتجنب الآثام فيكون قد أتى بحسنة ، ثم يخاف تلك الحسنة ، فكأنما حسناته آثام ، وهو على طباق الآية سواء .

ومن الإضمار على شريطة التفسير قول أبى نواس :

سُـنَّةُ الْعُشَّاقِ وَاحِدَةٌ فَإِذَا أَحْبَبْتَ فَاسْتَكِنِ

فحذف لفظ الاستكانة من الأول ، وذكره فى الثانى : أى سنة العشاق واحدة ، وهى الاستكانة ، فإذا أحببت فاستكن ، ومن الناس من يقول : « فإذا أحببت فاستَنِنِ » وهذا لامعنى له ؛ لأنه إذا لم يبين سنة العشاق ماهى فبأى شىء يستنّ المستنّ منها ؛ لكنه ذكر السنة فى صدر البيت من غير بيان ثم بينها فى عجزه .

الضرب الرابع : ما ليس بسبب ولا مسبب ، ولا إضمار على شريطة التفسير ، ولا استئناف .

فأما ماحذف فيه من الجمل المفيدة ، فكقوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام : (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ، وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ) قد حذف من هذا الكلام جملة مفيدة ، تقديرها : فرجع الرسول إليهم فأخبرهم بمقالة يوسف ، فعجبوا لها ، أو فصدقوه عليها ، وقال الملك ائتونى به ، والمحذوف إذا كان كذلك دلّ عليه الكلام دلالة ظاهرة ؛ لأنه إذا ثبتت حاشيتا الكلام وحذف وسطه ظهر المحذوف ؛ لدلالة الحاشيتين عليه .

وكذلك ورد قوله تعالى فى هذه السورة أيضاً : (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ

هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) قد حذف أيضاً من هذا الكلام جملة مفيدة ، تقديرها : ثم إنهم تجهَّزوا وساروا إلى مصر ، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه .

وقد ورد هذا الضرب فى القرآن الكريم كثيراً ، كقوله تعالى فى سورة القصص : (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا) فى هذا محذوف ، وهو جواب الاستفهام ؛ لأنها لما قالت : (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم) احتاج إلى جواب لينتظم بما بعده من ردّه إلى أمه ، والجواب : فقالوا نعم ، فدلّتهم على امرأة ، فجىء بها وهى أمه ولم يعلموا بمكانها ، فأرضعته ، وهذه الجملة الثانية ـ أعنى قوله تعالى: (فرددناه إلى أمه) ـ تدلّ على المحذوف؛ لأنّ ردّه إلى أمه لم يكن إلا بعد ردّ الجواب على أخته ، ودلالتها إياهم على امرأة ترضعه ، ويكفى هذا الموضع وحده لمن يتبصر فى مواقع المحذوفات وكيفيتها .

ومما يجرى على هذا المنهج قوله تعالى فى قصة سليمان عليه السلام وقصة الهدهد فى إرساله بالكتاب إلى بلقيس (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ) وفى هذا محذوف ، تقديره : فأخذ الكتاب وذهب به ، فلما ألقاه إلى المرأة وقرأته قالت يا أيها الملأ .

ومن حذف الجمل المفيدة مايعسر تقدير المحذوف منه ، بخلاف ماتقدم ، ألا ترى أنّ الآيات المذكورة كلها إذا تأملها المتأمل وجد معانيها متصلة من غير تقدير للمحذوفات التى حذفت منها ، ثم إذا قدر تلك المحذوفات سهل تقديرها ببديهة النظر ، والذى أذكره الآن ليس كذلك ، بل إذا تأمله المتأمل وجده غير متصل المعنى ، وإذا أراد أن يقدر المحذوف عسر عليه .

فمما جاء منه قوله تعالى : (وَمَا يَنْظُرُ هٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ، وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ، اُصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ) فهذا الكلام إذا تأمله المتأمل لم يجده متصل المعنى ، ولم يتبين له مجىء ذكر داود عليه السلام رَادِفاً لقوله تعالى : (اصبر على مايقولون) وإذا أراد أن يقدر ههنا محذوفاً يوصل به المعنى عسر عليه ، وتقديره يحتمل وجهين : أحدهما : أنه قال : (اصبر على مايقولون) وخوّفهم أمر معصية الله وعَظِّمْهَا فى عيونهم بذكر قصة داود الذى كان نبيًّا من الأنبياء وقد آتاه الله ما آتاه من النبوة والملك العظيم ، ثم لما زلّ زلّة قوبل بكذا وكذا ، فما الظن بكم أنتم مع كفركم ؟ الوجه الآخر : أنه قال : (اصبر على مايقولون) واحفظ نفسك أن تزلّ فى شىء مما كُلِّفْتَهُ من مصابرتهم واحتمال أذاهم ، واذكر أخاك داود وكرامته على الله كيف زلّ تلك الزلّة فلقى من توبيخ الله مالقى ؛ فهذا الكلام كما تراه يحتاج إلى تقدير حتى يتصل بعضه ببعض ، وهو من أغمض ما يأتى من المحذوفات ، وبه يتنبه على مواضع أخرى غامضة .

وأما ماورد من هذا الضرب فى حذف الجمل التى ليست بمفيدة فنحو قوله تعالى : (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) هذا الكلام قد حذف منه جملة دلّ عليها صدره ، وهو البشرى بالغلام ، وتقديرها : ولما جاءه الغلام ونشأ وترعرع قلنا له : يايحيى خذ الكتاب بقوّة ، فالجملة المحذوفة ليست من الجمل المفيدة .

وعلى هذا النهج ورد قوله تعالى: (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هٰرُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰنُ فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى قَالَ يَا هٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِى أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى) وقد حذف من هذا الكلام جملة ، إلا أنها غير مفيدة ، وتقديرها : فلما رجع موسى ورآهم على تلك الحال من عبادة العجل قال لأخيه هٰرون : ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألَّا تتبعنى .

وكذلك ورد قوله تعالى فى قصة سليمان عليه السلام من سورة النمل : (قَالَ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ) وفى هذا محذوف ، تقديره : فلما جاء به قال نكروا لها عرشها ؛ لأن تنكيره لم يكن إلا بعد أن جىء به إليه ، وقد أغنى عن المحذوف صدر الكلام وآخره ، وكان ذلك دليلا عليه .

ومما ورد على ذلك شعراً قول أبى الطيب المتنبى [1] :

لَا أُبْغِضُ الْعِيسَ لٰكِنِّى وَقَيْتُ بِهَا قَلْبِى مِنَ الْهَمِّ أَوْ جِسْمِى مِنَ السَّقَمِ

وهذا البيت فيه محذوف ، تقديره : لا أبغض العيس لإنضائى إياها فى الأسفار ،

(١) من قصيدة له يذكر مسيره من مصر ويرثى فيها فاتكا ، وأولها قوله :

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِى النَّجْمَ فِى الظُّلَمِ وَمَا سُرَاهُ عَلَى خُفٍّ وَلَا قَدَمِ

ولكنى وقيت بها كذا وكذا ؛ فالثانى دليل على حذف الأول .

وهذا موضع يحتاج فى استخراجه واستخراج أمثاله إلى فكرة وتدقيق نظر .

ومما يتصل بهذا الضرب حذف مايجيء بعد أفْعَلَ ؛ كقولنا « الله أكبر » فإنّ هذا يحتاج إلى تمام : أى أكبر من كل كبير ، أو أكبر من كل شيء يتوهم كبيرا ، أو ماجرى هذا المجرى ، ومثله يرد قولهم : زيد أحسن وجها ، وأكرم خلقاً ، تقديره : أحسن وجهاً من غيره ، وأكرم خلقاً من غيره ، أو مايسدّ هذا المسد من الكلام .

وعليه ورد قول البحترى[(١)] :

اللهُ أَعْطَاكَ المَحَبَّـــةَ فِى الْوَرَى ... وَحَبَاكَ بِالْفَضْلِ الَّذِى لاَ يُنْكَرُ
وَلَأَنْتَ أَمْلَأُ فِى الْعُيُونِ لَدَيْهِمُ ... وَأَجَلُّ قَدْرًا فِى الصُّدُورِ وَأَكْبَرُ

أى : أنت أملأ فى العيون من غيرك .

أما القسم الثانى المشتمل على حذف المفردات فإنه يتصرف على أربعة عشر ضرباً :

الأول : حذف الفاعل ، والاكتفاء فى الدلالة عليه بذكر الفعل ، كقول العرب : أرْسَلَتْ ، وهم يريدون جاء المطر ؛ ولايذكرون السماء ، ومنه قول حاتم :

أَمَاوِىَّ ؛ مَا يُغْنِى الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى ... إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

يريد النفس ، ولم يجر لها ذكر .

وعلى هذا ورد قوله تعالى : (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِىَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ) والضمير فى (بَلَغَتْ) للنفس ، ولم يجر لها ذكر .

وقد نص عثمان بن جنى رحمه الله تعالى على عدم الجواز فى حذف الفاعل ،

---

(١) البيتان آخر قصيدة له يمدح فيها المتوكل على الله ويهنئه بالصوم ، ويذكر خروجه يوم الفطر ، وأولها قوله :

أُخْفِى هَوًى لَكِ فِى الضُّلُوعِ وَأُظْهِرُ ... وَأُلَامُ فِى كَمَدٍ عَلَيْكِ وَأُعْذَرُ

وهذه الآية وهذا البيت الشعرى وهذه الكلمة الواردة عن العرب على خلاف(١) ماذهب إليه ، إلا أن حذف الفاعل لايجوز على الإطلاق ، بل يجوز فيما هذا سبيله ؛ وذاك أنه لايكون إلا فيما دل الكلام عليه ، ألاترى أن التى تبلغ التراقى إنما هى النفس ، وذلك عند الموت ، فعلم حينئذ أن النفس هى المرادة ، وإن كان الكلام خالياً عن ذكرها ، وكذلك قول حاتم «حشرجت» فإن الحشرجة إنما تكون عند الموت .

وأما قول العرب « أرسلت » وهم يريدون أَرْسَلَت السماء فان هذا يقولونه نظرا إلى الحال ، وقد شاع فيما بينهم أن هذه كلمة تقال عند مجىء المطر ، ولم ترد فى شىء من أشعارهم ، ولا فى كلامهم المنثور ، وإنما يقولها بعضهم لبعض إذا جاء المطر ، فالفرق بينها و بين «حشرجت» و بين (بلغت التراقى) ظاهر ، وذاك أنّ « حشرجت » و (بلغت التراقى) يفهم منها أن النفس التى حشرجت ، وأنها هى التى بلغت التراقى ، وأما « أرسلت » فلولا شاهد الحال و إلا لم يجز أن تكون دالة على مجىء المطر ، ولو قيل فى معرض الاستسقاء : إنا خرجنا نسأل الله فلم نزلْ

---

(١) أخطأ المؤلف رحمه الله فى فهم كلام أبى الفتح وكلام غيره من نحاة البصريين، ولم يفرق بين الإضمار والحذف ؛ ونحا منحاة أهل الكوفة الذين جعلوا هذه الأمثلة ونحوها من باب حذف الفاعل ، ولولا أن الكتاب ليس موضعا لهذه المجادلات لأوفيتك هذه المسألة بحثا حتى تعلم علم اليقين أن أبا الفتح عثمان بن جنى معترف بأن الضمير فى الآية عائد إلى النفس وأنها لم يتقدم لها مرجع وأن الضمير فى بيت حاتم راجع إلى النفس أيضا وأنها لم يتقدم ذكرها ، ومثلهما قول الله تعالى : (حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ) فإن فاعل « توارت » يعود إلى الشمس ولم يتقدم لها ذكر ، وغاية ما فى الأمر أن مرجع ضمير الغائب قد لايكون مذكورا فى الكلام متقدما ولا متأخرا ولامدلولا عليه بشىء فى الكلام ، وإنما يكون مفهوما من قرائن الحال ، ومن قرائن الحال انحصار الفاعل فى شىء معين بسبب فعله ، كالنفس بالنظر لبلوغ التراقى والحشرجة ، وهلم جرا .

حتى أرسلت ؛ لفهم من ذلك أن التى أرسلت هى السماء ، ولا بد فى الكلام من دليل على المحذوف ، وإلا كان لغواً لايلتفت إليه .

الضرب الثانى : حذف الفعل وجوابه ؛ اعلم أن حذف الفعل ينقسم قسمين : أحدهما يظهر بدلالة المفعول عليه ، كقولهم فى المثل : أَهْلَكَ وَاللَّيْلَ ، فنصب « أهلك والليل » يدل على محذوف ناصب ، تقديره : الْحَقْ أَهْلَكَ وَبَادِرِ اللَّيْلَ ، وهـذا مثل يضرب فى التحذير ؛ وعليه ورد قوله تعالى : (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا) .

ومما ورد منه فى الأخبار النبوية أن جابرا تزوج فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماتزوجت ؟ قال : ثيباً ؛ فقال له: « فَهَلاَّ جَارِيَةً تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ » يريد فهلا تزوجت جارية ، فحذف الفعل لدلالة الكلام عليه .

ومما ورد منه شعراً قول أبى الطيب المتنبى فى قصيدته الكافية التى يمتدح بها عضد الدولة أبا شجاع بن بويه ، ومطلعها :

* فِدًى لَكَ مَنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكَا (١) *

وسأذكر الموضع الذى حذف منه الفعل وجوابه لتعلق الأبيات بعضها ببعض، وهى من محاسن مايؤتى به فى معنى الوداع ، ولم يأت لغيره مثلها ، وهى :

إِذَا التَّوْدِيعُ أَعْرَضَ قَالَ قَلْبِى ... عَلَيْكَ الصَّمْتَ لاَ صَاحَبْتَ فَاكَا

وَلَوْلاَ أَنَّ أَكْثَرَ مَا تَمَنَّى ... مُعَاوَدَةٌ لَقُلْتُ وَلاَ مُنَاكَا

قَدِ اسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بِدَاءٍ ... وَأَقْتَلُ مَا أَعَلَّكَ مَا شَفَاكَا

فَأَسْتُرُ مِنْكَ نَجْوَانَا وَأُخْفِى ... هُمُوماً قَدْ أَطَلْتُ لَهَا الْعِرَاكَا

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* فَلاَ مَلِكٌ إِذًا إِلاَّ فَدَاكَا *

إِذَا عَاصَيْتُهَا كَانَتْ شِــدَادًا ... وَإِنْ طَاوَعْتُهَا كَانَتْ رِكَا كَا

وَكَمْ دُونَ الثَّوِيَّةِ مِنْ حَزِينٍ ... يَقُولُ لَهُ قُدُومِى : ذَا بِذَا كَا

وَمِنْ عَذْبِ الرُّضَابِ إِذَا أَنَخْنَا ... يُقَبِّلُ رَحْلَ تُرْوَكَ وَالْوِرَا كَا(١)

يُحَرِّمُ أَنْ يَمَسَّ الطِّيبَ بَعْدِى ... وَقَدْ عَبِقَ الْعَبِيرُ بِهِ وَصَاكَا(٢)

يُحَدِّثُ مُقْلَتَيْهِ النَّوْمُ عَــنِّى ... فَلَيْتَ النَّوْمَ حَدَّثَ عَنْ نَدَا كَا

وَمَا أَرْضَى لِمُقْلَتِهِ بِحُــلْمٍ ... إِذَا انْتَبَهَتْ تَوَهَّمَــهُ ابْتِشَا كَا(٣)

وَلَا إِلَّا بِأَنْ يُصْغِى وَأَحْكِى ... فَلَيْتَكَ لَا يُتَيِّمُهُ هَوَا كَا

فقوله « ولامنا كا » فيه محذوف ، تقديره : ولا صاحبت منا كا ، وكذلك قوله « ولا إلا بأن يصغى وأحكى » فإن فيه محذوفاً ، تقديره : ولا أرضى إلا بأن يصغى وأحكى .

وأما القسم الآخر ؛ فإنه لايظهرفيه قسم الفعل ؛ لأنه لايكون هناك منصوب يدل عليه ، وإنما يظهر بالنظر إلى ملاءمة الكلام .

فمما جاء منه قوله تعالى (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) فقوله (لقد جئتمونا) يحتاج إلى إضمار فعل : أى فقيل لهم لقد جئتمونا ، أو فقلنا لهم .

وقد استعمل هذا فى القرآن الكريم فى غير موضع ؛ كقوله تعالى : (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) فقوله :

---

(١) تروك ـ بضم فسكون ففتح ـ اسم ناقة كان أهداها له عضد الدولة .

(٢) فى الأصول « وقد علق العبير » ولها وجه لكنه ضعيف ، وما أثبتناه عن الديوان . وصاك الشىء بالشىء : لصق به . قال الأعشى :

وَمِثْلِكِ مُعْجَبَةٍ بِالشَّبَابِ ... وَصَاكَ الْعَبِيرُ بِأَجْلَادِهَا

(٣) الابتشاك ومثله التبشك : الكذب .

(أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا) يحتاج إلى تقدير الفعل المضمر .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا) فقوله : (وإن جاهداك) لابد له من إضمار القول : أى وقلنا له إن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما .

ومن هذا الضرب إيقاع الفعل على شيئين وهو لأحدهما ، كقوله تعالى : (فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ) وهو لأمركم وحده ، وإنما المراد أجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم ؛ لأن معنى أجمعوا من أجمع الأمر إذا نواه وعزم عليه ، وقد قرأ أبىّ رضى الله عنه (فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم) وهذا دليل على ما أشرت إليه ، وكذلك هو مثبت فى مصحف عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

ومن حذف الفعل باب يسمى باب إقامة المصدر مقام الفعل ؛ وإنما يفعل ذلك لضرب من المبالغة والتوكيد ، كقوله تعالى : (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ) قوله : (فضرب الرقاب) أصله فاضربوا الرقاب ضربا ؛ فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه ، وفى ذلك اختصار مع إعطاء معنى التوكيد المصدرى .

وأما حذف جواب الفعل فإنه لا يكون فى الأمر المحتوم ، كقوله تعالى : (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا) فجزم يخوضوا ويلعبوا لأنهما جواب أمر (فذرهم) وحذف الجواب فى هذا لايدخل فى باب الإيجاز ؛ لأنا إذا قلنا ذرهم أى اتركهم لايحتاج ذلك إلى جواب ، وكذلك مايجرى مجراه ، وإنما يكون الجواب بالفاء فى ماض ، كقولنا : قلت له اذهب فذهب ، وحينئذ يظهر الجواب المحذوف ، كقوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هٰرُونَ وَزِيراً فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً) ألا ترى كيف حذف جواب الأمر فى هذه الآية ؛ فإن تقديره فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا

بآياتنا فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم تدميراً ، فذكر حاشيتى القصة أولها وآخرها لأنهما المقصود من القصة بطولها ، أعنى إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم .

ومن هذا الضرب أيضاً قوله تعالى : (قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ) فجواب الأمر من هذا الكلام محذوف ، تقديره : فأرسله معهم ، ويدلنا على ذلك ماجاء بعده من قوله : (فلما ذهبوا به) كما حذف أيضاً فى قوله عزّ وجلّ : (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ) الآية ، فجواب الأمر من هذا الموضع محذوف ، وتقديره : فأرسلوه إلى يوسف ، فأتاه ، فقال له : يوسف أيها الصديق ؛ وكذلك قوله تعالى : (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ) الآية ؛ ففى هذا الكلام حذف واختصار استغنى عنه بدلالة الحال عليه ، وتقديره : فرجع الرسول إلى الملك برسالة يوسف ، فدعا الملك بالنسوة ، وقال لهنّ : ماخطبكنّ .

وهكذا ورد قوله تعالى : (ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) وقد حذف جواب الأمر ههنا ، وتقديره : فأتوهُ به ، فلما كلمه ، وفى سورة يوسف عليه السلام محذوفات كثيرة من أولها إلى آخرها .

فانظر أيها المتأمل إلى هـذه المحذوفات المذكورة ههنا التى كأنها لم تحذف من هذا الـكلام ؛ لظهور معناها و بيانه ، ودلالة الحال عليه ، وعلى نحو من ذلك ينبغى أن تكون محذوفات الـكلام .

الضرب الثالث : حذف المفعول به ، وذلك مما نحن بصدده أخص ؛ فإن اللطائف فيه أكثر وأعجب ، كقولنا : فلان يَحُلّ ويعْقِد ، ويُبْرِم ويَنْقُض ، ويضر وينفع ، والأصل فى ذلك على إثبات المعنى المقصود فى نفسك للشيء على الإطلاق .

وعلى هذا جاء قوله تعالى : (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا) .

ومن بديع ذلك قوله عزّ وجلّ : (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) فإن فى هاتين الآيتين قد حذف المفعول به فى أربعة أماكن ؛ إذ المعنى وجد أمةً من الناس يسقون مواشيهم ، وامرأتين تذودان مواشيهما ، وقالتا لانسقى مواشينا ، فسقى لهما مواشيهما ؛ لأن الغرض[1] أن يعلم أنه كان من الناس سقى ومن الامرأتين ذود وأنهما قالتا لايكون منا سقى حتى يصدر الرعاء وأنه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك سقى ؛ فأما كون المسقى غنماً أو إبلاً أو غير ذلك فخارج عن الغرض .

وقد ورد فى الشعر من هذا النوع قول البُعَيث بن حريث من أبيات الحماسة[2] :

(١) هذه علة الحذف .

(٢) من كلمة له اختارها أبو تمام فى باب الحماسة ، وأولها قوله :

خَيَالٌ لِأُمِّ السَّلْسَبِيلِ وَدُونَهَا   مَسِيرَةُ شَهْرٍ لِلْبَرِيدِ المُذَبْذَبِ

انظر شرح التبريزى (١ - ٣٥١) .

دَعَانِي يَزِيدُ بَعْدَ مَاسَاءَ ظَنُّهُ وَعَبْسٌ وَقَدْ كَانَا عَلَى جِدِّ مَنْكِبِ
وَقَدْ عَلِمَا أَنَّ الْعَشِــــيرَةَ كُلَّهَا سِوَى مَحْضَرِي مِنْ حَاضِرِينَ وَغُيَّبِ

فالمفعول الثانى من « علما » محذوف ؛ لأن قوله : « أن العشيرة » فى موضع مفعول علما الأول ، وتقدير الكلام : قد علما أن العشيرة سوى محضرى من حاضرين وغيب لاغناء عندهم ، أو سواءٌ حضورُهم وغيبتهم ، أو ماجرى هذا المجرى .

ومن هذا الضرب أيضاً حذف المفعول الوارد بعد المشيئة والإرادة ، كقوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ) فمفعول شاء ههنا محذوف ، وتقديره ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها .

وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى) .

ومما جاء على مثال ذلك شعراً قول البحترى (١) :

لَوْ شِئْتَ لَمْ تُفْسِدْ سَمَاحَةَ حَاتِمٍ كَرَمًا ، وَلَمْ تَهْدِمْ مَآثِرَ خَالِدِ

الأصل فى ذلك : لوشئت ألاّ تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ؛ فحذف ذلك من الأول استغناء بدلالته عليه فى الثانى .

وقد تقدم أن من الواجب فى حكم البلاغة ألاّ تنطق بالمحذوف ولاتظهره إلى اللفظ ، ولو أظهرت لصرت إلى كلام غث .

ومجىء المشيئة بعد «لو» و بعد حروف الجزاء هكذا موقوفةً غير مُعَدّاة إلى شىء كثيرٌ شائع بين البلغاء ، ولقد تكاثر هذا الحذف فى « شاء » و « أراد » حتى إنهم لايكادون يبرزون المفعول ، إلا فى الشىء المستغرب ، كقوله تعالى : (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) .

---

(١) من كلمة له يمدح فيها الخضر بن أحمد الثعلبى ، وأولها قوله :

عَجَبًا لِطَيْفِ خَيَالِكِ الْمُتَعَاهِدِ وَلِوَصْلِكِ الْمُتَقَارِبِ الْمُتَبَاعِــدِ

وعلى هذا الأسلوب جاء قول الشاعر(١) :

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبكِى دَمًا لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلٰكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوسَعُ

فلو كان على حد قوله تعالى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) لوجب أن يقول : ولو شئت لبكيت دما ، ولـكنه ترك تلك الطريقة وعدل إلى هذه ؛ لأنه أليق فى هذا الموضع ، وسبب ذلك أنه كان بدْعاً عجيباً أن يشاء الإنسان أن يبكى دماً ؛ فلما كان مفعول المشيئة مما يستعظم و يستغرب كان الأحسن أن يذكر ولا يضمر .

الضرب الرابع : وهو حذف المضاف والمضاف إليه ، وإقامة كل واحد منهما مقام الآخر ، وذلك باب عريض طويل شائع فى كلام العرب ، وإن كان أبو الحسن الأخفش رحمه الله لايرى القياس عليه .

فأما حذف المضاف فكقوله تعالى : (حَتَّى إذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) فحذف المضاف إلى يأجوج ومأجوج ، وهو سدُّها ، كما حذف المضاف إلى القرية فى قوله تعالى : (وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ) أى : أهل القرية .

ومن ذلك أيضاً قوله عزّ وجلّ : (وَلٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى) أى : خصْلة من اتقى ، وإن شئت كان تقديره ولـكن ذا البر من اتقى ، والأولى أولى ؛ لأن حذف المضاف ضرب من الاتساع ، والخبر أولى بذلك من المبتدأ ؛ لأن الاتساع بحذف الأعجاز أولى منه بحذف الصدور .

وقد حذف المضاف مكرراً فى قوله تعالى: (فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ) أى : من أثر حافر فرس الرسول ؛ وهذا الضرب أكثر اتساعاً من غيره .

ومما جاءمنه شعراً قول بعضهم من شعراء الحماسة(٢) :

---

(١) هو للخزيمى يرثى أبا الهيذام من كلمة أولها قوله :

قَضَى وَطَراً مِنْكَ الْحَبِيبُ الْمُوَدِّعُ وَحَلَّ الَّذِى لَا يُسْتَطَاعُ فَيُدْفَعُ

(٢) نسبهما أبو هلال لجثامة بن قيس أخى بلعاء بن قيس ، وانظر شرح التبريزى (٤ — ١٧٥) .

إذَا لاَقَيْتِ قَوْمِى فاسْأَلِيهِـمْ ... كَفَى قَوْمًا بِصَاحِبِهِمْ خَبِيرَا[١]

هَلَ اعْفُو عَنْ أُصُولِ الْحَقِّ فِيهِمْ ... إذَا عَسُرَتْ وَأَقْتَطِـعُ الصُّدُورَا

أراد أنه يقتطع ما فى الصدور من الضغائن والأوغام : أى يزيل ذلك بإحسانه من عفو وغيره ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه .

وأما حذف المضاف إليه فإنه قليل الاستعمال ؛ فمما جاء منه قوله تعالى : (لِلّٰهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ) أى : من قبل ذلك ومن بعده .

وربمـا أدخل فى هذا الموضع ما ليس منه ، كقوله تعالى : (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَـا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ) قيل : أراد ظهر الأرض ، فحذف المضاف إليه ، وليس كذلك ؛ فإن الهاء والألف قائمة مقام الأرض ، ألا ترى أن قوله : (ظهرها) يريد الأرض ؛ لأنه ضمير راجع إليها .

وكذلك ورد قول جرير[٢] :

إذا أَخَذَتْ قَيْسٌ عَلَيْكَ وَخِنْدِفٌ ... بِأَقْطَارِهَا لَمْ تَدْرِ مِنْ أَيْنَ تَسْرَحُ[٣]

وهذا لا يسمى إيجازاً ، وإنمـا هو تعويض[٤] بالضمير عن الضمير .

الضرب الخامس : وهو حذف الموصوف والصفة ، وإقامة كل منهما مقام الآخر ، ولا يكون اطراده فى كل موضع ، وأكثره يجىء فى الشعر ، وإنمـا كانت كثرته فى الشعر دون الكلام المنثور لامتناع القياس فى اطراده .

(١) رواية الحماسة « كفى قومى بصاحبهم خبيرا » .

(٢) من قصيدة له أولها :

أَجَدَّ رَوَاحُ الْقَوْمِ أَمْ لاَ تَرَوُّحُ ... نَعَمْ كُلُّ مَنْ يُعْنَى بِجُمْلٍ مُتَرَّحُ

(٣) وقع فى ب ، ج « بأنظارها » وهو تحريف ، وصوابه من الديوان والنقائض .

(٤) فى ب ، ج « تعريض » بالراء المهملة ، وهو تحريف ، والتصويب عن ا .

فمما جاء منه فى الشعر قول البحترى من أبيات فى صفة إيوان كسرى[١] ؛ فقال فى ذكر التصاوير التى فى الإيوان ، وذلك أن الفُرْسَ كانت تحارِبُ الروم فَصَوَّرُوا صورةَ مدينة أنْطاكية فى الإيوان وحرب الروم والفرس عليها ؛ فمما ذكره فى ذلك قوله :

وَإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَا ... كِيَّةَ ارْتَعْتَ بَيْنَ رُومٍ وَفُرْسِ

وَالْمَنَايَا مَوَاثِلٌ وَأَنُوشِرْ ... وَانَ يُزْجِي الصُّفُوفَ تَحْتَ الدِّرَفْسِ[٢]

فِي اخْضِرَارٍ مِنَ اللِّبَاسِ عَلَى أَصْـ ... ـفَرَ يَخْتَالُ فِي صَبِيغَةِ وَرْسِ

فقوله « على أصفر » أى : على فرس أصفر ، وهذا مفهوم من قرينة الحال ؛ لأنه لما قال « على أصفر » علم بذلك أنه أراد فرساً أصفر .

والصفة تأتى فى الكلام على ضربين : إما للتأكيد والتخصيص ، وإما للمدح والذم ، وكلاهما من مقامات الإسهاب والتطويل ، لا من مقامات الإيجاز والاختصار ، وإذا كان الأمر كذلك لم يلق الحذف به ، هذا ، مع ماينضاف إليه من الالتباس وضد البيان ، ألا ترى أنك إذا قلت : مررت بطويل ، لم يبن من هذا اللفظ الممرور به إنسان هو أم رُمْح أم ثَوْب أم غير ذلك ، وإذا كان الأمر على هذا فحذف الموصوف إنما هو شىء قام الدليل عليه أو شهدت به الحال ، وإذا استبهم كان حذفه غير لائق .

---

(١) من قصيدته التى مطلعها قوله :

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِي ... وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جِبْسِ

(٢) وقع هذا البيت فى ب ، ج محرفا تحريفا شنيعا ، ونحن نثبته لك على صورته الصحيحة ، ونذكر لك ههنا صورته فيهما لتعرف مقدار الفساد الذى أصابه ، فقد ورد على هذه الصورة :

والمنـــايا موائلٌ وأنو شِرْ ... وان يرمى الصفوف تحت الدرس

والدرفس : اسم راية أنوشروان .

ومما يؤكد عندك ضعف حذفه أنك تجد من الصفات ما لا يمكن حذف موصوفه ، وذاك أن تكون الصفة جملة ، نحو : مررت برَجُلٍ قام أبوه ، ولقيت غلاماً وَجْهُهُ حسن ، ألا تراك لو قلت : مررت بقام أبوه ، ولقيت وجهه حسن ؛ لم يجز .

وقد ورد حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه فى غير موضع من القرآن الكريم ، كقوله تعالى : (وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً) فإنه لم يرد أن الناقة كانت مبصرة ، ولم تكن عمياء ، وإنما يريد آية مبصرة ، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه .

ولقد تأملت حذف الموصوف فى مواضع كثيرة فوجدت أكثر وقوعه فى النداء وفى المصدر ؛ أما النداء فكقولهم : يا أيُّهَا الظَّرِيف ، تقديره : يا أيها الرجل الظريف ، وعليه ورد قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ) تقديره : يا أيها الرجل الساحر ، وكذلك قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) تقديره : يا أيها القوم الذين آمنوا ، وأما المصدر فكقوله تعالى : (وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا) تقديره : ومن تاب وعمل عملاً صالحاً .

وقد أقيمت الصفة الشبيهة بالجملة مقام الموصوف المبتدأ فى قوله تعالى : (وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ) أى : قوم دون ذلك .

وأما حذف الصفة وإقامة الموصوف مقامها ، فإنه أقلُّ وجوداً من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، ولا يكاد يقع فى الكلام إلا نادراً ؛ لمكان استبهامه .

فمن ذلك ما حكاه سيبويه رحمه الله من قولهم : سِيرَ عَلَيْهِ لَيْلٌ ، وهم يريدون ليل طويل ، وإنما حذفت الصفة فى هذا الموضع لما دلَّ من الحال عليه ، وذلك أنه يحس فى كلام القائل لذلك من التطريح والتطويح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله : طويل ، وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته ، وهو أن يكون

فى مدح إنسان والثناء عليه فتقول : « كان والله رجلاً » أى رجلاً فاضلاً ، أو شجاعاً، أو كريماً ، أو ماجرى هذا المجرى من الصفات ، وكذلك تقول : «سألناه فوجدناه إنساناً » أى إنساناً سَمْحاً ، أو جواداً ، أو ما أشبهه ، فعلى هذا ونحوه تحذف الصفة ، فأما إن عَرِيَت عن الدلالة عليها من اللفظ أو الحال فإن حذفها لا يجوز .

وقد تأملت حذفها فوجدته لا يسوغ إلا فى صفة تقدمها مايدل عليها ، أو تأخر عنها ، أو فهم ذلك من شىء خارج عنها :

أما الصفة التى تقدمها مايدل عليها فقوله تعالى : (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً) فحذف الصفة : أى كان يأخذ كل سفينة صحيحة غصباً ، ويدلّ على المحذوف قوله : (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) فإن عَيْبَهُ إياها لم يخرجها عن كونها سفينة ، وإنما المأخوذ هو الصحيح دون المعيب ، فحذفت الصفة ههنا ؛ لأنه تقدمها مايدلّ عليها .

وأما التى تأخر عنها مايدلّ عليها فقول بعض شعراء الحماسة (١) :

كُلُّ امْرِئٍ سَتَئِيمُ مِنْـــهُ الْعِرْسُ أَوْ مِنْهَا يَئِيمُ (٢)

فإنه أراد كل امرىء متزوّج ؛ إذ دلّ عليه مابعده من قوله : « ستئيم منه أو منها يئيم » إذ لا تئيم هى إلا من زوج ولا يئيم هو إلا من زوجة ، فجاء بعد الموصوف

(١) هو يزيد بن الحكم الثقفى ، والكلمة التى منها هـذا البيت يعظ فيها ابنه بدرا ، وأولها قوله :

يَا بَدْرُ وَالْأَمْثَالُ يَضْــرِبُهَا لِذِى اللُّبِّ الْحَكِيمُ

(٢) وقع فى ج ، ب « ستئيم » بالنون فى كل موضع ذكرت فيه هذه الكلمة وهو تحريف شنيع ، والتصحيح عن ديوان الحماسة وشرحه (انظر شرح التبريزى: ٣ — ١٨٣) . وتقول : آمت المرأة تئيم أيْماً وأَيْمَةً وأُيُوماً ؛ إذا مات زوجها .

مادلّ عليه ، ولولا ذلك لما صح معنى البيت ؛ إذ ليس كل امرىء يئيم من عرس إلا إذا كان متزوّجاً .

وأما ما يفهم حذف الصفة فيه من شىء خارج عن الكلام فقول النبىّ صلى الله عليه وسلم : « لَا صَلَاةَ لِجَارِ المَسْجِدِ إلاَّ فِى المَسْجِدِ » فإنه قد علم جواز صلاة جار المسجد فى غير المسجد من غير هذا الحديث ؛ فعلم حينئذ أن المراد به الفضيلة والكمال ، وهذا شىء لم يعلم من نفس اللفظ ، وإنما علم من شىء خارج عنه .

الضرب السادس : وهو حذف الشرط وجوابه .

فأما حذف الشرط فنحو قوله تعالى : (يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ) فالفاء فى قوله تعالى : (فاعبدون) جواب شرط محذوف ، لأن المعنى إن أرضى واسعة فإن لم تُخْلِصُوا لى العبادة فى أرض فأخلصوها فى غيرها ، ثم حذف الشرط وعوض من حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص .

ومن هذا الضرب قوله تعالى : (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ) أى : فَحَلَقَ فعليه فدية .

وكذلك قولهم : الناس مَجْزِيُّونَ بأعمالهم : إنْ خَيْرًا فخيرا ، وإن شرًّا فشرا : أى إن فعلَ المرء خيراً جُزى خيرا ، وإن فعلَ شرًّا جزى شرا .

وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى : (وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) تقدير ذلك : فأفطر فعدة من أيام أخر ؛ ولهذا ذهب داود الظاهرى إلى الأخذ بظاهر الآية ، ولم ينظر إلى حذف الشرط ؛ فأوجب القضاء على المريض والمسافر ، سواء أفطر أم لم يفطر .

ومن حذف الشرط قوله تعالى : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ المُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَالإِيمَانَ

لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) اعلم أن هذه الفاء التى فى قول الشاعر : « فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَا(١) » وحقيقتها أنها فى جواب شرط محذوف يدلّ عليه الكلام ، كأنه قال : إن صحّ ماقلتم إن خراسان أقصى مايراد بنا فقد جئنا خراسان وآن لنا أن نخلص ، وكذلك هذه الآية ، يقول : إن كنتم منكرين للبعث فهذا يوم البعث : أى قد تبين بطلان قولكم .

وأما حذف جواب الشرط فكقوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) فإن جواب الشرط ههنا محذوفٌ تقديره : إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين ، ويدل على المحذوف قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .

الضرب السابع ؛ وهو حذف القسم وجوابه :

فأما حذف القسم فنحو قولك « لَأَفْعَلَنَّ » أى والله لأفعلن ، أو غير ذلك من الأقسام المحلوف بها .

وأما حذف جوابه فكقوله تعالى : (وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ) فجواب القسم ههنا محذوف ، تقديره : لَيُعَذَّبُنَّ ، أو نحوه ، ويدل على ذلك مابعده من قوله: (ألم تر كيف فعل ربك بعاد) إلى قوله : (سَوْطَ عذاب) .

---

(١) يشير إلى قول الشاعر :

قَالُوا خُرَاسَانُ أَقْصَى مَا يُرَادُ بِنَا ... ثُمَّ الْقُفُولُ ، فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَا

ومما ينتظم فى هذا السلك قوله تعالى : (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ، بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ) فإن معناه ق والقرآن المجيد لتبعثن ، والشاهد على ذلك مابعده من ذكر البعث فى قوله : (أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رَجْعٌ بعيد) .

وقد ورد هذا الضرب فى القرآن كثيراً ؛ كقوله تعالى فى سورة النازعات : (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) فجواب القسم ههنا محذوفٌ ، تقديره : لَتُبْعَثُنَّ أو لَتُحْشَرُنَّ ، ويدل على ذلك ما أتى من بعده من ذكر القيامة فى قوله: (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة) وكذلك إلى آخر السورة .

الضرب الثامن : وهو حذفُ « لو » وجوابها ؛ وذاك من ألطف ضروب الإيجاز وأحسنها .

فأما حذف « لو » فكقوله تعالى : (مَا اتَّخَذَ اللّٰهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) تقديره ذلك إذا لوكان معه آلهة لذهب كل إلٰه بما خلق .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) تقديره : إذا لوفعلت ذلك لارتاب المبطلون ، وهذا من أحسن المحذوفات .

ومما جاء من ذلك شعراً قول بعضهم فى صدر الحماسة(١) :

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِلِي ... بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا
إِذًا لَقَامَ بِنَصْرِى مَعْشَرٌ خُشُنٌ ... عِنْدَ الْحَفِيظَةِ إِنْ ذُو لُوثَةٍ لَانَا

(١) هو قريط بن أنيف (بزنة التصغير فيهما) أحد بنى العنبر .

فلو فى البيت الثانى محذوفة ؛ لأنها فى البيت الأول قد استوفت جوابها بقوله: «لم تستبح إبلى» ثم حذفها فى الثانى ، وتقدير حذفها إذا لو كنت منهم لقام بنصرى معشر خشن ، وإذا لو كانوا قومى لقام بنصرى معشر خشن .

وأما حذف جواب « لو » فإنه كثير شائع ، وذلك كقولك : لو زُرْتَنَا ، لو أَلْمَمْتَ بنا ، معناه لأحسنا إليك ، أولأكرمناك ، أو ماجرى هذا المجرى .

ومما ورد منه فى القرآن الكريم قوله تعالى : (وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ) ؛ فإن جواب « لو » ههنا محذوف ، تقديره : لرأيت أمراً عظيما ، وحالا هائلة ، أو غير ذلك مما جرى مجراه .

ومما جاء على نحو من هذا قوله عز وجل : (وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) تقديره لو يعلمون الوقت الذى يستعجلونه ، وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام ولا يقدرون على دفعها عن أنفسهم ولا يجدون ناصراً ينصرهم ؛ لَمَا كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ، ولكن جهلهم به هو الذى هوَّنه عليهم .

ومما يجرى على هذا النهج قوله تعالى : (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) فجواب لو فى هذا الموضع محذوفٌ ، كما حذف فى قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) أى : لوأن لى بكم قوة لدفعتكم ، أو منعتكم ، أو ما أشبهه ، وكذلك قوله: (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) لكان هذا القرآن .

وهذا الضرب من المحذوفات أظهر الضروب المذكورة وأوضحها ؛ لعلم المخاطب به ؛ لأن قوله تعالى حكاية عن لوط عليه السلام : (لو أن لى بكم قوة أوآوى إلى ركن شديد) يتسارع الفهم [فيه] إلى أن الكلام يحتاج إلى جواب .

ومما جاء منه شعراً قول أبي تمام فى قصيدته البائية التى يمدح بها المعتصم عند فتحه مدينة عَمُّورية(١) .

لَوْ يَعْلَمُ الْكُفْرُ كَمْ مِنْ أَعْصُرٍ كَمَنَتْ ... لَهُ الْعَوَاقِبُ بَيْنَ السُّمْرِ وَالْقُضُبِ(٢)

فإن هذا محذوف الجواب ، تقديره : لو يعلم الكفر ذلك لأخذ أُهْبَة الحذار ، أو غير ذلك .

واعلم أن حذف هذا الجواب لايسوغ فى أى موضع كان من الكلام ، وإنما يحذف مادلّ عليه مكان المحذوف ، ألا ترى أنه قد ورد فى القرآن الكريم غير محذوف ، كقوله تعالى : (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ) وهذا ليس كالذى تقدم من الآيات ؛ لأن تلك علم مكان المحذوف منها ، وهذه الآية لو حذف الجواب فيها لم يعلم مكانه ؛ لأنه يحتمل وجوها ، منها أن يقال : لَمَا آمنوا ، أو لَطَلَبُوا ما وراء ذلك ، وقد تقدم القول فى أول باب الإيجاز أنه لابد من دلالة الكلام على المحذوف .

الضرب التاسع : وهو حذف جواب « لولا »

فمن ذلك قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) فجواب

---

(١) أول هذه القصيدة قوله :

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ ... فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

(٢) فى الديوان « كمنت له المنية » .

« لولا » ههنا محذوف ، تقديره : لَمَا أنزل عليكم هذا الحكم بطريق التلاعن وستر عليكم هذه الفاحشة بسببه

وكذلك ورد قوله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) تقديره : ولولا فضل ٱلله عليكم ورحمته لعجّل لكم العذاب ، أو فعل بكم كذا وكذا .

الضرب العاشر : وهو حذف جواب « لَمَّا » وجواب « أمّا » .

فأما حذف جواب « لما » فكقوله تعالى : (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ) فإن جواب « لما » ههنا محذوف ، وتقديره : فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا كان ما كان مما ينطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حُلوله ، وما أشبه ذلك مما اكتسباه بهذه المِحْنة من عظائم الوصف دنيا وآخرة ، وقوله « إنا كذلك نجزى المحسنين » تعليل لِتَخْوِيل ما خوّلهما من الفرح والسرور بعد تلك الشدة العظيمة .

وأما حذف جواب «أما» فنحو قوله تعالى : (فَأَمَّا ٱلَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) .

الضرب الحادى عشر : وهو حذف جواب « إذا »

فما جاء منه قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) ألا ترى كيف حذف الجواب عن « إذا » فى هذا الكلام ، وهو مدلول عليه بقوله : (إلا كانوا عنها معرضين) كأنه قال : و إذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم أعرضوا ، ثم قال : ودأبهم الإعراض عن كل آية وموعظة .

الضرب الثانى عشر : حذف المبتدأ والخبر .

أما حذف المبتدأ فلا يكون إلا مفرداً ، والأحسن هو حذف الخبر ؛ لأن منه مايأتى جملة ؛ كقوله تعالى : (وَاللَّائِى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِى لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) وههنا قد حذف خبر المبتدأ ، وهو جملة من مبتدإ وخبر ، وتقديرها : واللائى لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر (١) .

ومما ورد منه شعراً قول أبى عُبادة البحترى (٢) :

كُلُّ عُذْرٍ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَلٰكِنْ أَعْوَزَ الْعُذْرُ مِنْ بَيَاضِ الْعِذَارِ

وهذا قد حذف منه خبر المبتدإ ، إلا أنه مفرد غير جملة ، وتقديره : كل عذر من كل ذنب مقبول ، أو مسموع ، أو ماجرى هذا المجرى

الضرب الثالث عشر : وهو حذف «لا» من الكلام ، وهى مرادة .

وذلك كقوله تعالى : (قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ) يريد به لاتفتؤ : فحذفت «لا» من الكلام وهى مرادة .

وعلى هذا جاء قول امرىء القيس (٣) :

فَقُلْتُ يَمِينُ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِى لَدَيْكِ وَأَوْصَالِى

---

(١) لايلزم هذا التقدير حتى يكون من حذف الجملة ، بل يجوز أن يكون التقدير : واللائى لم يحضن كذلك ؛ فيكون من حذف الجار والمجرور ، أو يكون التقدير : واللائى لم يحضن مثلهن ؛ فيكون من حذف اسم مفرد.

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا جعفر بن حميد ويستوهبه غلاما ، وأولها قوله :

أَبُكَاءٌ فِى الدَّارِ بَعْدَ الدَّارِ وَسُلُوًّا بِزَيْنَبٍ عَنْ نَوَارِ

وانظر الديوان (٢ ــ ٢٤ مصر) .

(٣) من قصيدة له مطلعها قوله :

أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِى وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِى الْعُصُرِ الْخَالِى

أى : لا أبرح قاعدا ، فحذفت «لا» فى هذا الموضع وهى مرادة .

ومما جاء منه قول أبى مِحْجَنٍ الثقفى لما نهاه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه عن شرب الخمر ، وهو إذ ذاك فى قتال الفرس بالقادسية (١) :

رَأَيْتُ الْخَمْرَ صَالِحَةً وَفِيهَا مَنَاقِبُ تُهْلِكُ الرَّجُلَ الْحَلِيمَا
فَلَا وَاللهِ أَشْرَبُهَا حَيَاتِى وَلَا أَسْقِى بِهَا أَبَدًا نَدِيمَا

يريد « لا أشربها » ؛ فحذف «لا» من الكلام وهى مفهومة منه .

الضرب الرابع عشر : وهو حذف الواو من الكلام وإثباتها .

وأحسن حذوفها فى المعطوف والمعطوف عليه ، وإذا لم يذكر الحرف المعطوف به كان ذلك بلاغة وإيجازا ، كقول أنس بن مالك رضى الله عنه : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يَنَامُونَ ثم يُصَلُّون ولا يَتَوَضَّئُون ، أو قال : ثم يصلون لا يَتَوَضَّئُونَ ، فقوله « لا يتوضئون » ــ بحذف الواو ــ أبلغ فى تحقيق عدم الوضوء من قوله «ولا يتوضئون» بإثباتها ؛ كأنه جعل ذلك حالةً لهم لازمة : أى أنها داخلة فى الجملة ، وليست جملة خارجة عن الأولى ؛ لأن واو العطف تؤذن بانفراد المعطوف عن المعطوف عليه ، وإذا حذفت فى مثل هذا الموضع صار المعطوف والمعطوف عليه جمله واحدة .

وقد جاء مثل ذلك فى القرآن الكريم ، وذلك أنه يذكر جمل من القول كل واحدة منها مستقلة بنفسها ، ثم تسرد سرداً بغير عاطف ، كقوله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) تقدير هذا الكلام : لا يألونكم خبالا ووَدُّوا ماعنتم وقد بدت البغضاء من أفواههم ، فلما

(١) لم أجد هذين البيتين فى ديوان أبى محجن الثقفى الذى رواه وشرحه أبوهلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى صاحب الصناعتين وهو مطبوع فى ليدن (عام ١٣٠٣ من الهجرة) .

حذفت الواو جاء الكلام أوجز ، وأحسن طلاوة ، وأبلغ تأليفاً ونظما ، وأمثاله فى القرآن الكريم كثير .

واعلم أنه قد حذفت الواو وأثبتت فى مواضع ؛ فأما إثباتها فنحو قوله تعالى : (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ) ،وأما حذفها فنحو قوله تعالى: (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ) .

وعلى هذا فلا يجوز حذف الواو وإثباتها فى كل موضع ، وإنما يجوز ذلك فيما هذا سبيله من هاتين الآيتين .

ولنبين لك فى ذلك رَسْماً تَتَّبعه ، فنقول : اعلم أن كل اسم نكرة جاء خبره بعد « إلاّ » يجوز إثبات الواو فى خبره وحذفها ، كقولك : ما رأيت رجلا إلا وعليه ثياب ، وإن شئت قلت : إلا عليه ثياب ، بغير واو ؛ فإن كان الذى يقع على النكرة ناقصاً فلا يكون إلا بحذف الواو ، نحو قولك : ما أظن درهَماً إلا هو كافيك ، ولايجوز إلا وهو كافيك ، بالواو ؛ لأن الظن يحتاج إلى شيئين ، فلا يعترض فيه بالواو ؛ لأنه يصير كالمكتفى من الأفعال باسم واحد ، وكذلك جواب ظَنَنْتُ وكَانَ وإنّ وأشباهها ، فخطأ أن تقول : إن رجلا وهو قائم ، ونحو ذلك ، ويجوز هذا فى «ليس» خاصة ، تقول : ليس أحد إلا وهو قائم ؛ لأن الكلام يتوهم تمامه بليس وبحرف ونكرة[(١)] ألا ترى أنك تقول : ليس أحد ، وما من أحد ، فجاز فيها إثبات الواو ، ولم يجز فى أظن ؛ لأنك لاتقول : ماأظن أحداً ، فأما أصبح وأمسى ورأى فإن الواو فيهن أسهل ؛ لأنهن توأم فى حال[(٢)] ، وكان وأظن ونحوهما بنين على النقص ، إلا إذا كانت تامة ، وكذلك « لا » فى التنزيه وغيرها ، نحو : لارجل ، وما من رجل ؛ فيجوز إثبات الواو فيها وحذفها .

(١) فى جميع الأصول « بليس وبحرف نكرة » ونرى أنه لابد من زيادة الواو حتى تصير العبارة «يتوهم تمامه بليس وبحرف ونكرة» والمعنى أن الكلام قد يتوهم تمامه بليس ونكرة نحو ليس أحد ، وبحرف ونكرة نحو مامن أحد .

(٢) يريد أخوات الحال ؛ إذ يقرب معناهن من معنى الحال ، وهو «فى حال كذا»

واعلم أن العرب قد حذفت من أصل الألفاظ شيئا لا يجوز القياس عليه ، كقول بعضهم (١) :

كَأَنَّ إبْرِيقَهُمْ ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ مُفَدَّمٌ بِسَبَا الْكِتَّانِ مَلْثُومُ (٢)

فقوله « بِسَبَا الكتان » يريد بسبائب الكتان (٣) ، وكذلك قول الآخر :

يُذْرِينَ جَنْدَلَ حَائِرٍ لِجُنُوبِهَا فَكَأَنَّمَا تُذْكِي سَنَابِكُهَا الْحُبَا (٤)

---

(١) هو علقمة بن عبدة ، من قصيدة طويلة أولها قوله :

هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا اسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ أَمْ حَبْلُهَا إذْ نَأَتْكَ الْيَوْمَ مَصْرُومُ

(٢) شبه الإبريق بظبي فى طول عنقه و إشرافه ، وجعله على شرف وهو المكان العالى المشرف لأن ذلك مما يزيد فى طول عنقه للناظر ، ومفدم — بالفاء — جعل الفدام — بزنة كتاب — على فيه ، والفدام : خرقة تجعل فى فم الإبريق ، ووقع فى الأصول « مقدم » بالقاف ، وهو تحريف .

(٣) سبائب الكتاب : جمع سبيبة ، وهى الشقة مطلقا ، وقيل : هى الشقة البيضاء ، ومثل الحذف فى هذا البيت قول لبيد :

دَرَسَ الْمَنَا بِمُتَالِعٍ فَأَبَانِ وَتَقَادَمَتْ بِالْحُبْسِ فَالسُّوبَانِ

(٤) وقع هذا البيت فى ا ، ب ، ج على صورة من التحريف الغريب ، وهى :

بَدْرُ بْنُ جَنْدَلَ حائز لجنوبها فكأنما تذكى سنابكها الحبا

والصواب ما أثبتناه ، وهو فى اللسان (ح ب ح ب) ويذرين : مضارع أذرى مسندا إلى نون النسوة والمراد بها الخيل ، والجندل : الصخر ، والحائر — بالراء المهملة ، وأراد الحباحب وهو رجل من بنى محارب بن خصفة ، وكان لا يوقد ناره إلا بالحطب الشخت لئلا ترى ، فضرب بناره المثل ؛ لأنه كان لا يوقد إلا نارا ضعيفة مخافة الضيفان ، فقالوا : نار الحباحب ، لما تثيره الخيل بحوافرها ، وربما جعلوا الحباحب اسما لتلك النار ، كما قال الكسعى :

مَا بَالُ سَهْمِى يُوقِدُ الْحُبَاحِبَا قَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَكُونَ صَائِبَا

فهذا وأمثاله مما يقبح ولا يحسن ، وإن كانت العرب قد استعملته فإنه لا يجوز لنا أن نستعمله .

وأما القسم الثانى من الإيجاز فهو مالا يحذف منه شيء ، وذلك ضربان : أحدهما : ماساوى لفظه معناه ، ويسمى التقدير ، والآخر : مازاد معناه على لفظه ، ويسمى الإيجاز بالقصر .

فأما الإيجاز بالتقدير فإنه الذى يمكن التعبير عن معناه بمثل ألفاظه وفى عدتها .

وأما الإيجاز بالقصر فإنه ينقسم قسمين : أحدهما : مادل لفظه على محتملات متعددة ، وهذا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفى عدتها ، والآخر : ما يدل لفظه على محتملات متعددة ، ولا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفى عدتها ، لا ، بل يستحيل ذلك .

ولنورد الآن الضرب الأول الذى هو الإيجاز بالتقدير؛ فمما جاء منه قوله تعالى: (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) فقوله (قتل الإنسان) دعاء عليه ، وقوله (ما أكفره) تعجب من إفراطه فى كفران نعمة الله عليه ، ولا نرى أسلوبا أغلظ من هـذا الدعاء والتعجب ، ولا أخشن مَسًّا ، ولا أدل على سخط مع تقارب طرفيه ، ولا أجمع للأئمة على قِصَر متنه، ثم إنه أخذ فى صفة حاله من ابتداء حدوثه إلى منتهى زمانه ، فقال (من أى شيء خلقه) ثم بين الشيء الذى خلق منه بقوله (من نطفة خلقه فقدره) أى : هيأه لما يصلح له (ثم السبيل يسره) أى : سَهَّل سبيله وهو مخرجه من بطن أمه ، أو السبيل الذى يختار سلوكه من طريق الخير والشر ، والأول أولى ؛ لأنه

ويقال : الحباحب : طائر أطول من الذباب فى دقة يطير فيما بين المغرب والعشاء كأنه شرارة .. ومعنى البيت الذى نحن بصدد شرحه أن هذه الخيل تذرى الحصا فى جريها فتصيب به جنوبها .

تال لخلقته وتقديره ، ثم بعد ذلك يكون تيسير سبيله لما يختاره من طريقى الخير والشر (ثم أماته فأقبره) أى : جعله ذاقبر يُوَارَى فيه (ثم إذا شاء أنشره) أى : أحياه (كلا) ردع للإنسان عما هو عليه (لما يقض ما أمره) أى : لم يقض مع تَطَاوُل زمانه ما أمره الله به ، يعنى أن إنسانا لم يخل من تقصير قط ، ألا ترى إلى هذا الكلام الذى لو أردت أن تحذف منه كلمة واحدة لما قدرت على ذلك ، لأنك كنت تذهب بجزء من معناه ، والإيجاز : هو ألاّ يمكنك أن تسقط شيئا من ألفاظه .

والآيات الواردة من هذا الضرب كثيرة ، كقوله تعالى : (فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَاسَلَفَ) فقوله (فله ماسلف) من جوامع الكلم ، ومعناه أن خطاياه الماضية قد غفرت له وتاب الله عليه فيها ، إلا أن قوله (فله ماسلف) أبلغ : أى أن السالف من ذنوبه لايكون عليه إنما هو له ، وكذلك ورد قوله تعالى (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) فعليه كفره كلمة جامعة تغنى عن ذكر ضروب من العذاب ؛ لأن من أحاط به كفره فقد أحاطت به كل خطيئة .

وعلى نحو من هـذا جاء قوله تعالى : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) فهذه الآية من جوامع الآيات الواردة فى القرآن الكريم ؛ وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأها على الوليد بن المغيرة فقال له : يا ابن أخى ، أعدْ ، فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم قراءتها عليه ، فقال له : إنّ له لَحلاوة ، وَإنّ عَليه لَطَلاوة ، وإنّ أعلاه لَمُثمِر ، وإن أسفله لَمُغْدِق ، وما هو بقول البشر .

ومن هذا النحو قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ

بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) وهـذه الآيات من قوارع القرآن العجيبة التى دلّت على تخويف وإرهاب ترقّ له القلوب ، وتَقْشَعِرّ منه الجلود ، وهى مشتملة مع قصرها على حال الإنسان منذ خلقه إلى حين حشره وحشر غيره من الناس ، وتصوير ذلك الأمر الفظيع فى أسهل لفظ وأقربه ، وما مررت عليها إلا جَدَّدَتْ لى موعظةً ، وأحدثت عندى إيقاظاً .

ومن هذا الضرب ماورد عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى دعائه لأبى سلمة عند موته فقال : « اللَّهُمَّ ارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِى الْمُهْتَدِينَ ، وَاخْلُفْهُ فِى عَقِبِهِ فِى الْغَابِرِينَ لَنَا وَلَهُ يَارَبَّ الْعَالَمِينَ » وهذا دعاء جامع بين الإيجاز و بين مناسبة الحال التى وقع فيها ؛ فأوله مفتتح بالمهمّ الذى يفتقر إليه المدعوّ له فى تلك الحال ، وهو رفع درجته فى الآخرة ، وثانيه مردف بالمهم الذى يؤثره المدعو له من صلاح حال عقبه من بعده في الدنيا ، وثالثه مختتم بالجمع بين الداعى والمدعو له ، وهذا من الإيجاز البليغ الذى هو طباق ماقصد له ، وكلام النبىّ صلى الله عليه وسلم كله هكذا كما قال : «أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ » .

وكذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ؛ فإنه قال : « هٰذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ » وهو شبيه بقوله تعالى : (فله ماسلف) .

ولما جرح عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجراحة التى مات بها اجتمع إليه الناس ، فجاءه شابٌّ من الأنصار ، وقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله ، لَكَ مِنْ صُحْبَة رسول الله وقدم فى الإسلام ماعلمت ، ووليت فعدلت ، ثم شهادة .

وهذا كلام سديد قد حوى المعنى المقصود ، وأتى به فى أوجز لفظ وأحسنه ، ومع مافيه من الإيجاز فإنه مستغرب ، وسبب استغرابه أنه جعل المَسَاءة بُشْرَى ،

وأخرجها مُخْرَج المسرة ، وتلطف فى ذلك فأبلغ ، ولو أراد الكاتب البليغ والخطيب المِصْقَع أن يأتى بذلك على هذا الوجه لأعوزه .

ومن هذا النمط ما كتبه طاهر بن الحسين إلى المأمون عند لقائه عيسى بن مَاهَان وهَزْمه إياه وقتله ، فكتب إليه : كتابى إلى أمير المؤمنين ورأسُ عيسى ابن مَاهَانَ بين يدىّ ، وخاتمه فى يدى ، وعسكره مصرف تحت أمرى ، والسلام .

وهذا من الكتب المختصرة التى حَوَتِ الغرضَ المطوّل ، وما يكتب فى هذا المقام مثله .

ولما أرسل المهلب بن أبى صفرة أبا الحسن المدائنى إلى الحجاج بن يوسف يخبره أخبار الأزارقة كلمه كلاماً مُوجَزاً كالذى نحن بصدد ذكره ههنا ، وذاك أن الحجاج سأله فقال : كيف تركت المهلب ؟ فقال : أدرك ما أمَّل ، وأمِنَ مما خاف ؛ فقال : كيف هو لجنده ؟ قال : والد رءوف ، قال : كيف جنده له ؟ قال : أولاد بَرَرَة ؛ قال : كيف رِضاهم عنه ؟ قال : وَسِعَهُم بفضله ، وأغْناهم بِعَدْله ؛ قال : كيف تَصْنعُون إذا لقيتم العدوّ ؟ قال : نلقاهم بجدنا ، ويلقوننا بجدهم ، قال : كذلك الجد إذا لقى الجد ؛ قال : فأخبرنى عن بنى المهلب ؛ قال : هم أحْلاَسُ القتال بالليل ، حُماة السرج بالنهار ، قال : أيهم أفضل ؟ قال : هم كحلقة مَضْرُوبة لايُعْرَفُ طرَفاها ؛ فقال الحجاج لجلسائه : هذا والله هو الكلام الْفَصْل الذى ليس بمصنوع .

وقد ورد فى الأخبار النبوية من هذا الضرب شىء كثير ، وسأورد منه أمثلة يسيرة .

فمن ذلك قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : « الْحَلاَلُ بَيِّنٌ ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُتَشَابِهَاتٌ » وهذا الحديث من أجمع الأحاديث للمعانى الكثيرة ، وذاك أنه يشتمل على جلّ الأحكام الشرعية ؛ فإن الحلال والحرام إما أن يكون

الحكم فيهما بيناً لا خلاف فيه بين العلماء ، و إما أن يكون خافياً يتجاذبه وُجُوه التأويلات ؛ فكل منهم يذهب فيه مذهباً .

وكذلك جاء قوله صلى الله عليه وسلم : « الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ أمْرِئٍ مَانَوَى » فإن هذا الحديث أيضاً من جوامع الأحاديث للأحكام الشرعية .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « المُضْعِفُ أَمِيرُ الرَّكْبِ » وقد ورد آخر هذا الحديث بلفظ آخر ، فقال صلى الله عليه وسلم : « سيروا بسير أضعفكم » إلا أن الأول أحسن ؛ لأنه أبلغ معنى فإن الأمير واجب الحكم فهو يُتَبَّع ، و إذا كان المضعف أمير الركب كانوا مؤتمرين له فى سيرهم ونزولهم ، وهذا المعنى لا يوجد فى قوله : « سيروا بسير أضعفكم » .

وأحسن من هذا كله ماورد عنه صلى الله عليه وسلم فى حديث مطوّل يتضمن سؤال جبريل عليه السلام فقال من جملته : « مَا الْإِحْسَانُ ؟ قَالَ : أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » فقوله : « تعبد الله كأنك تراه » من جوامع الكلم ؛ لأنه ينوب مناب كلام كثير ، كأنه قال : تعبد الله مخلصاً فى نيتك ، واقفاً عند أدب الطاعة من الخضوع والخشوع ، آخذاً أُهْبَة الحذر ، وأشباه ذلك ؛ لأن العبد إذا خدم مولاه ناظراً إليه استقصى فى آداب الخدمة بكل مايجد إليه السبيل وما ينتهى إليه الطَّوْق .

ومما أطربنى من ذلك حديث الحديبية ، وهو أنه جاء بُدَيْلُ بن ورْقاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : إنى تركتُ كَعْبَ بن لؤى بن عامر بن لؤى معهم العُوذُ المَطافيلُ ، وهم مُقَاتِلُوك وصَادُّوك عن البيت ؛ فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الْحَرْبُ ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْنَاهُمْ مُدَّةً وَيَدَعُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ فَإِنْ أَظْهَرْ عَلَيْهِمْ وَأَحَبُّوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ وَإِلَّا كَانُوا قد جموا ، وَإِنْ أَبَوْا فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِى

هٰذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي هٰذِهِ وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ » وهذا الحديث من جوامع الكلم ، وهو من الفصاحة والبلاغة على غاية لاينتهى إليها وصف الواصف .

وأما ماورد من ذلك شعراً فقول النابغة (١) :

وَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي ... وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وتخصيصه الليل دون النهار مما يُسْأَلُ عنه .

وكذلك قوله (٢) :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ ... عَلَى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ

وعلى هذا الأسلوب ورد قول الأعشى فى اعتذاره إلى أوْسِ بن لام عن هجائه إياه (٣) :

وَإِنِّي عَلَى مَا كَانَ مِنِّي لَنَادِمٌ ... وَإِنِّي إِلَى أَوْسِ بْنِ لَامٍ لَتَائِبُ

وَإِنِّي إِلَى أَوْسٍ لِيَقْبَلَ عِذْرَتِي ... وَيَصْفَحَ عَنِّي مَا حَيِيتُ لَرَاغِبُ

فَهَبْ لِي حَيَاتِي فَالْحَيَاةُ لِقَائِمٍ ... بِشُكْرِكَ فِيهَا خَيْرُ مَا أَنْتَ وَاهِبُ

سَأَمْحُو بِمَدْحٍ فِيكَ إِذْ أَنَا صَادِقٌ ... كِتَابَ هِجَاءٍ سَارَ إِذْ أَنَا كَاذِبُ

وهذا من المعانى الشريفة فى الألفاظ الخفيفة ، وهو من طنانات الأعشى المشهورة

وعلى نحو منه جاء قول الفرزدق (٤) :

---

(١) من قصيدة له يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر ، وأولها قوله :

عَفَا ذُو حُسًى مِنْ فَرْتَنَى فَالْفَوَارِعُ ... فَشَطَّا أَرِيكٍ فَالتِّلَاعُ الدَّوَافِعُ

(٢) من كلمة له يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر أيضا ، وأولها قوله :

أَتَانِي ـ أَبَيْتَ اللَّعْنَ ! ـ أَنَّكَ لُمْتَنِي ... وَتِلْكَ الَّتِي أَهْتَمُّ مِنْهَا وَأَنْصَبُ

(٣) هذه الأبيات مذكورة فى زيادات ديوان الأعشى ، وليس معها شىء .

(٤) من قصيدة له أولها :

سَمَوْنَا لِنَجْرَانَ الْيَمَانِي وَأَهْلِهِ ... وَنَجْرَانُ أَرْضٌ لَمْ تُدَيَّثْ مَقَاوِلُهْ

وهى إحدى مناقضاته لجرير .

صَبَحْنَاهُمُ الشُّعْثَ الْجِيَادَ كَأَنَّهَا قَطًا هَيَّجَتْهُ يَوْمَ رِيحٍ أَجَادِلُهْ (١)
إِلَى كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَطَبْنَا بَنَاتِهِمْ بِأَرْعَنَ جَرَّارٍ كَثِيرٍ صَوَاهِلُهْ (٢)
إِذَا مَا الْتَقَيْنَا أَنْكَحَتْنَا رِمَاحُنَا مِنَ الْقَوْمِ أَبْكَارًا كِرَامًا عَقَائِلُهْ
وَإِنَّا لَمَنَّاعُونَ تَحْتَ لِوَائِنَا حِمَانَا إِذَا مَا عَادَ بِالسَّيْفِ حَامِلُهْ

وهذا من محاسن ما يجىء فى هذا الباب .

ومما يجرى هذا المجرى قول جرير (٣) :

تَمَنَّى رِجَالٌ مِنْ تَمِيمٍ مَنِيَّتِى وَمَا ذَادَ عَنْ أَحْسَابِهِمْ ذَائِدٌ مِثْلِى (٤)
فَلَوْ شَاءَ قَوْمِى كَانَ حِلْمِى فِيهِمُ وَكَانَ عَلَى جُهَّالِ أَعْدَائِهِمْ جَهْلِى (٥)

---

(١) رواية النقائض :

صَبَحْنَاهُمُ الْجُرْدَ الْجِيَادَ كَأَنَّهَا قَطًا أَفْزَعَتْهُ يَوْمَ طَلٍّ أَجَادِلُهْ

(٢) رواية النقائض :

إِلَى كل حَيٍّ قَدْ خَطَبْنَا بَنَاتِهِمْ بِأَرْعَنَ مِثْلِ الطَّوْدِ جَمٍّ صَوَاهِلُهْ

والمراد بالأرعن الجيش ، وهذا البيت متصل بما بعده فى النقائض ولكن بينه و بين الذى قبله فى رواية النقائض أبيات كثيرة .

(٣) من قصيدة له يهجو فيها البعيث والفرزدق ، وأولها قوله :

عُوجِى عَلَيْنَا وَارْبَعِى رَبَّةَ الْبَغْلِ وَلَا تَقْتُلِينِى لَا يَحِلُّ لَكُمْ قَتْلِى

(٤) رواية النقائض والديوان :

* تَمَنَّى رِجَالٌ مِنْ تَمِيمٍ لِىَ الرَّدَى *

(٥) فى ا ، ب ، ح :

* وَكَانَ عَلَى جُهَّالِ أَعْدَائِهِمْ مِثْلِى *

وهو تحريف ، وما أثبتناه عن الديوان والنقائض . هذا ، و بين البيتين بيت آخر ؛ وهو قوله :

كَأَنَّهُمُ لَا يَعْلَمُونَ مَوَاطِنِى وَقَدْ عَلِمُوا أَنِّى أَنَا السَّابِقُ الْمُبْلِى

وكذلك ورد قوله متغزلاً ، وهو من محاسن أقواله (١) :

سَرَتِ الْهُمُومُ فَبِتْنَ غَيْرَ نِيَامِ ... وَأَخُو الْهُمُومِ يَرُومُ كُلَّ مَرَامِ
ذُمَّ الْمَنَازِلَ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللِّوَى ... وَالْعَيْشَ بَعْدَ أُولَئِكَ الْأَقْوَامِ
وَلَقَدْ أَرَاكِ وَأَنْتِ جَامِعَةُ الْهَوَى ... أَثْنِي بِعَهْدِكِ خَيْرَ دَارِ مُقَامِ
طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ فَلَيْسَ ذَا ... حِينَ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامِ
تُجْرِي السِّوَاكَ عَلَى أَغَرَّ كَأَنَّهُ ... بَرَدٌ تَحَدَّرَ مِنْ مُتُونِ غَمَامِ
لَوْ كَانَ عَهْدُكِ كَالَّذِي حَدَّثْتِنَا ... لَوَصَلْتِ ذَاكِ فَكَانَ خَيْرَ ذِمَامِ
وَلَقَدْ أَرَانِي وَالْجَدِيدُ إِلَى بِلًى ... فِي مَوْكِبٍ طُرُفِ الْحَدِيثِ كِرَامِ (٢)
لَوْلَا مُرَاقَبَةُ الْعُيُونِ أَرَيْتِنَا ... حَدَقَ الْمَهَا وَسَوَالِفَ الْآرَامِ (٣)
وَإِذَا صَرَفْنَ عُيُونَهُنَّ بِنَظْرَةٍ ... نَفَذَتْ نَوَافِذُهَا بِغَيْرِ سِهَامِ (٤)
هَلْ تَنْفَعَنَّكَ إِنْ قَتَلْنَ مُرَقِّشاً ... أَوْ مَا فَعَلْنَ بِعُرْوَةَ بْنِ حِزَامِ

وحلاوة هذا الكلام أحسن من إيجازه ، ولقد أعوز غيره أن يأتى بمثله حتى أقرّ بإعوازه .

ومن باب الإيجاز الذى يسمى التقدير قول على بن جبلة :

وَمَا لِامْرِئٍ حَاوَلْتَهُ عَنْكَ مَهْرَبٌ ... وَلَوْ حَمَلَتْهُ فِي السَّمَاءِ الْمَطَالِعُ

---

(١) هذه قصيدة من نقائضه للفرزدق ، والأبيات التى ذكرها المؤلف ههنا ليست متصلة فى أصل النقائض .

(٢) يروى : * فِي فِتْيَةٍ طُرُفِ الْحَدِيثِ كِرَامِ *

ويروى : * فِي فِتْيَةٍ طُرْفَى الْحَدِيثِ كِرَامِ *

وطرف وطرفى : كلاهما جمع طريف مثل مريض ومرضى ومثل نذير ونذر ، وهو قليل .

(٣) فى النقائض « أرينا » بنون جماعة الإناث ، وفيها « مقل المها » .

(٤) هذا البيت والذى بعده ليسا فى رواية النقائض .

بَلَى هَارِبٌ مَا يَهْتَدِى لِمَكَانِهِ ظَلَامٌ وَلَا ضَوْءٌ مِنَ الصُّبْحِ سَاطِعُ

فهذا هو الكلام الذى ألفاظه وِفَاقُ معانيه ؛ فإنه قد اشتمل على مدح رجل بشُمول ملكه وعموم سلطانه ، وأنه لا مَهْرَب عنه لمن يحاوله ، و إن صعد السماء ، ثم ذكر جميع المَهَارب فى المشارق والمغارب ، وأشار إلى أنه يبلغ الظلام والضياء ، وذلك مما لم تزد عبارته على المعنى المندرج تحته ، ولا قصرت عنه .

ومن هذا الضرب قول أبى نواس(١) ، وهو من نادر مايأتى فى هذا الموضع :

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَدْلَجُوا بِهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ
مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزِّقَاقِ عَلَى الثَّرَى وَأَضْغَاثُ رَيْحَانٍ جَنِيٌّ وَيَابِسُ
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِى فَجَدَّدْتُ عَهْدَهُمْ وَإِنِّى عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ لَحَابِسُ
تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِى عَسْجَدِيَّةٍ حَبَتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارَتُهَا كِسْرَى وَفِى جَنَبَاتِهَا مَهًا تَدَّرِيهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ(٢)
فَلِلرَّاحِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا وَلِلْمَاءِ مَادَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

ومما انتهى إلىّ من أخبار ابن المزرع قال : سمعت الجاحظ يقول : لا أعرف شعراً يفضل هذه الأبيات التى لأبى نواس ، ولقد أنشدتها أبا شعيب القلال فقال : والله يا أبا عثمان إن هذا لهو الشعر ، ولو نقر لطن ، فقلت له : ويحك ! ! ماتفارق

(١) فى الديوان (ص ٢٩٥) وقد ترك المؤلف بيتين يقعان بين الثالث والرابع فيما ذكره ، وهما قوله :

وَلَمْ أَدْرِ مِنْهُمْ غَيْرَ مَا شَهِدَتْ بِهِ بِشَرْقِىِّ سَابَاطَ الدِّيَارُ الْبَسَابِسُ
أَقَمْنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالِثًا وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ التَّرَحُّلِ خَامِسُ

(٢) فى ا ، ب ، ج « قرار بها كسرى » وهو تحريف ، وما أثبتناه عن الديوان . والمها : اسم جنس جمعى واحده مهاة ، وهى البقرة من أبقار الوحش ، وتدريها : تختلها لتصطادها .

عمل الجرار والخزف ، ولعمرى إن الجاحظ عرف فوصف ، وخبر فشكر ، والذى ذكره هو الحق .

وعلى هذا الأسلوب جاء قول أبى تمام[١] :

إِنَّ الْقَوَافِيَ وَالْمَسَاعِيَ لَمْ تَزَلْ ... مِثْلَ النِّظَامِ إِذَا أَصَابَ فَرِيدَا[٢]
هِيَ جَوْهَرٌ نَثْرٌ فَإِنْ أَلَّفْتَهُ ... بِالشِّعْرِ صَارَ قَلَائِدًا وَعُقُودَا
فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ وَكُلِّ مُقَامَةٍ ... يَأْخُذْنَ مِنْهُ ذِمَّةً وَعُهُودَا
فَإِذَا الْقَصَائِدُ لَمْ تَكُنْ خُفَرَاءَهَا ... لَمْ تَرْضَ مِنْهَا مَشْهَدًا مَشْهُودَا
مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَتِ الْعَرَبُ الْأُلَى ... يَدْعُونَ هَذَا سُودَدًا مَحْدُودَا
وَتَنِدُّ عِنْدَهُمُ الْعُلَا إِلَّا عُلًا ... جُعِلَتْ لَهَا مِرَرُ الْقَرِيضِ قُيُودَا

وأما الضرب الثانى ، وهو الإيجاز بالقصر ؛ فإن القرآن الكريم ملآن منه ، وقد تقدم القول أنه قسمان : أحدهما : مايدلّ على محتملات متعددة .

فمن ذلك قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى) فقوله : (فغشيهم من اليم ماغشيهم) من جوامع الكلم التى يستدلّ على قلتها بالمعانى الكثيرة : أى غشيهم من الأمور الهائلة والخطوب الفادحة مالا يعلم كُنْهَهُ إلا الله ، ولا يحيط به غيره .

ومن هذا الضرب قوله تعالى : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) فجمع فى الآية جميعَ مكارم الأخلاق ؛ لأن فى الأمر بالمعروف صلة

(١) من قصيدة له يمدح فيها خالد بن يزيد الشيبانى ، وأولها قوله :

طَلَلَ الْجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا ... وَكَفَى عَلَى رُزْئِي بِذَاكَ شَهِيدَا

(٢) فى الديوان « مثل الجمان » .

الرحم ، ومنعَ اللسان عن الغيبة وعن الكذب ، وغَضّ الطرف عن المحرمات ، وغير ذلك ، وفى الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم ، وغيرهما .

وقال بعض الأعراب فى دعائه : اللهم هَبْ لِي حَقَّكَ ، وأَرْضِ عنى خلقك ؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « هذا هو البلاغة » .

ومن ذلك قوله عزّ وجلّ : (أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ) ؛ فإنه دخل تحت الأمن جميع المحبوبات ، وذلك أنه نفى به أن يخافوا شيئاً من الفقر والموت وزوال النعمة ونزول النقمة ، وغير ذلك من أصناف المكاره .

وأشباهُ هذا فى القرآن الكريم كثيرة ؛ فهو يكثر فى بعض الصور ، ويقلّ فى بعض ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ شَاءَ يَرْتَعُ فى الرِّيَاضِ الأَنَائِقِ فَعَلَيْهِ بِآلِ حٰمۤ » .

ومن ذلك قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : « الْخَرَاجُ بِالضَّمَانِ » ؛ وذاك أن رجلاً اشترى عبداً ، فأقام عنده مدة ، ثم وجد به عيباً ، فخاصم البائع إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فرَدَّه عليه ؛ فقال : يارسول الله ، إنه استغلّ غلامى ، فقال : « الخراج بالضمان » ومعنى قوله : « الخراج بالضمان » أن الرجل إذا اشترى عبداً فاستغلّه ثم وَجَدَ به عيباً دلّسه عليه البائعُ فله أن يردّه ويسترجع الثمن جميعه ، ولو مات العبد أو أبق أو سرقه سارق كان فى مال المشترى ، وضمانُهُ عليه ، وإذا كان ضمانه عليه فخراجه له : أى له ماتحصّل من أجرة عمله .

وأما ماورد شعراً ، فقول السَّمَوْءَل بن عاديا الغسّانى من جملة أبياته اللامية المشهورة ، وذلك قوله منها(١) :

وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا ... فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ

فإن هذا البيت قد اشتمل على مكارم الأخلاق جميعها : من سماحة ، وشجاعة ،

(١) تقدم كثير من أبيات هذه القصيدة فى الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ١٧٣) .

وعفة ، وتواضع ، وحلم ، وصبر ، وغير ذلك ؛ فإن هـذه الأخلاق كلها من ضَيْم النفس ؛ لأنها تجد بحملها ضَيْماً : أى مشقة وعَنَاء .

وقد تقدم القول أن الإيجاز بالقصر يكون فيما تضمن لفظه محتملات كثيرة ، وهذا البيت من ذلك القبيل ، ولا أعلم أن شاعراً قديماً ولا حديثاً أتى بمثله ، وقد أخذه أبو تمام فأحسن فى أخذه ، وهو :

وَظَلَمْتَ نَفْسَكَ طَالِباً إِنْصَافَهَا فَعَجِبْتُ مِنْ مَظْلُومَـــةٍ لَمْ تُظْلَمِ

ففاز فى بيته هذا بالمقابلة بين الضدين فى الظلم والإنصاف ، ثم قال : « فعجبت من مظلومة لم تظلم » وهـذا أحسن من الأول ، ومعنى قوله : « ظلمت نفسك طالباً إنصافها » أى : أنك أكرهتها على مشاقّ الأمور وإذا فعلت ذلك فقد ظلمتها ، ثم إنك مع ظلمك إياها قد أنصفتها؛ لأنك جلبت إليها أشياء حسنة تكسبها ذكراً جميلاً ومجداً مؤثَّلاً ، فأنت مُنْصِف لها فى صورة ظالم ، وكذلك قوله : « فعجبت من مظلومة لم تظلم » أى أنك ظلمتها وما ظَلَمْتَهَا لأن ظلمك إياها أدّى إلى ماهو جميل حسن .

وهذا القدر فى الأمثلة كاف فى هذا الباب .

القسم الآخر من الضَّرب الثانى : فى الإيجاز بالقصر وهو الذى لايمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفى عدتها ، وهو أعلى طبقات الإيجاز مكانا ، وأعْوَزُها إمكانا ، وإذا وجد فى كلام بعض البلغاء فإنما يوجد شاذاً نادراً .

فمن ذلك ماورد فى القرآن الكريم ؛ كقوله تعالى : (وَلَـكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) فإن قوله تعالى : (الْقِصَاصُ حياة) لايمكن التعبير عنه إلا بألفاظ كثيرة ، لأن معناه أنه إذا قُتِلَ القاتل امتنع غيره عن القتل ؛ فأوجب ذلك حياةً للناس ، ولا يلتفت إلى ماورد عن العرب من قولهم : الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ ؛ فإن مَنْ لايعلم يظن أن هذا على وزن الآية ، وليس كذلك ، بل بينهما فرق من ثلاثة أوجه :

الأول : أن (القصاص حياة) لفظتان ، و « القتل أنفى للقتل » ثلاثة ألفاظ ؛ الوجه الثانى : أن فى قولهم « القتل أنفى للقتل » تكريراً ليس فى الآية ؛ الثالث : أنه ليس كل قتل نافيا للقتل ؛ إلا إذا كان على حكم القِصاص .

وقد صاغ أبو تمام هذا الوارد عن العرب فى بيت من شعره ، فقال [1] :

وَأَخَافَكُمْ كَىْ تُغْمِدُوا أَسْيَافَكُمْ إِنَّ الدَّمَ الْمُعْتَرَّ يَحْرُسُهُ الدَّمُ [2]

فقوله « إن الدم المعتر يحرسه الدم » أحسن مما ورد عن العرب من قولهم « القتل أنفى للقتل .

ويروى عن معن بن زائدة أنه سأله أبو جعفر المنصور فقال له : أيما أحبُّ إليك دولتنا أو دولة بنى أمية ؟ فقال : ذاك إليك ، فقوله « ذاك إليك » من الإيجاز بالقصر الذى لايمكن التعبير عنه إلا بألفاظ كثيرة ؛ لأن معنى قوله «ذاك إليك» وهو لفظتان أنه زاد إحسانك على إحسان بنى أمية فأنتم أحب إلى ، وهذه عشرة ألفاظ

فإن قيل : كيف لايمكن التعبير عن ألفاظ بألفاظ أخرى مثلها وفى عدتها وفى المترادف من الألفاظ ما هو دليل على خلاف ذلك ؟ فإنه إذا قيل راح ثم قيل مُدامة أو سُلافة كان ذلك سواء ، وقامت هذه اللفظة مقام هذه اللفظة .

قلت فى الجواب : ليس كل الألفاظ المترادفة يقوم بعضها مقام بعض ، ألا ترى أن لفظة « القصاص » لايمكن التعبير عنها بما يقوم مقامها ، ولما عبر عنها بالقتل فى قول العرب « القتل أنفى للقتل » ظهر الفرق بين ذلك وبين الآية فى قوله

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها مالك بن طوق ، وأولها قوله :

أَرْضٌ مُصَرَّدَةٌ وَأُخْرَى تُثْجَمُ تِلْكَ التِى رُزِقَتْ وَأُخْرَى تُحْرَمُ

ومصردة : لاشجر بها ، وتثجم : تمطر على الدوام . انظر الديوان (٢٧١ بيروت) .

(٢) « المعتر » المضطرب ، وهو هكذا فى الديوان . ووقع فى ا ، ب ، ج «المغبر» .

تعالى : (ولكم فى القصاص حياة) فالذى أردته أنا إنما هو الكلام الذى لايمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفى عدتها ، فإن كان كذلك وإلا فليس داخلا فى هذا القسم المشار إليه .

النوع السادس عشر

فى الإطناب

هذا النوع من الكلام أنْعَمْتُ نظرى فيه ، وفى التكرير ، وفى التطويل ؛ فملكتنى حَيْرة الشّبَه بينها طويلا ، وكنت فى ذلك كعُمَرَ بن الخطاب رضى الله عنه فى الْكَلَالَة حيث قال : قَدْ أعيانى أمْرُ الْكَلَالَة ، وكنت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها كثيراً حتى ضَرَبَ فى صدرى ، وقال : « ألاَ يَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ[١] » .

وبعد أن أنعمت نظرى فى هذا النوع الذى هو الإطناب وجدتُ ضربا[٢] من ضروب التأكيد التى يؤتى بها فى الكلام قصداً للمبالغة ، ألا ترى أنه ضَرْبٌ مفرد من بينها برأسه لايشاركه فيه غيره ؛ لأن من التأكيد مايتعلق بالتقديم والتأخير ؛ كتقديم المفعول ، وبالاعتراض[٣] ؛ كالاعتراض بين القسم وجوابه وبين المعطوف والمعطوف عليه ، وأشباه ذلك ، وسيأتى الكلام عليه فى بابه . وهذا الضرب الذى هو الإطناب ليس كذلك .

ورأيت علماء البيان قد اختلفوا فيه ؛ فمنهم من ألحقه بالتطويل الذى هو ضد

---

(١) فى ا ، ب ، ج « أنه الصنف » بصاد ونون وفاء ، وهو تحريف وانظر النهاية .

(٢) كذا فى جميع الأصول ، ولعله «وجدته ضربا من ضروب التأكيد ـ إلخ» .

(٣) فى ا ، ب ، ج « بالاعتراض » بدون الواو .

الإيجاز ، وهوعنده قسم غيره ، فأخطأ من حيث لايدرى ؛ كأبى هلال العسكرى، والغانمى ، حتى إنه قال : إن كتب الفتوح وما جَرَى مجراها مما يُقْرَأ على عوامّ الناس ينبغى أن تكون مُطوَلة مُطْنَبًا فيها ؛ وهذا القول فاسد ؛ لأنه إن عنى بذلك أنها تكون ذات معانٍ متعددة قد استقصى فيها شرح تلك الحادثة من فتح أو غيره فذلك مُسَلَّم ، وإن عنى بذلك أنها تكون مُكَرَّرة المعانى مُطوَلة الألفاظ قصداً لإفهام العامة فهذا غير مُسَلَّم ، وهو مما لايذهب إليه مَنْ عنده أدنى معرفة بعلم الفصاحة والبلاغة ، ويكفى فى بطلانه كتاب الله تعالى ؛ فإنه لم يُجْعل لخواصّ الناس فقط ، وإنما جعل لعوامهم وخواصّهم ، وأكثره لابل جميعه مفهومُ الألفاظ للعوام ، إلا كلمات معدودة ، وهى التى تسمى غريب القرآن ، وقد تقدم الكلام على ذلك فى المقاله الأولى المختصة بالألفاظ ، وعلى هذا فينبغى أن تكون الكتب جميعها مما يقرأ على عوامّ الناس وخواصهم ذاتَ ألفاظٍ سَهْلَة مفهومة ، وكذلك الأشعار والخطب ، ومن ذهب إلى غير ذلك فإنه بِنَجْوَة عن هذا الفن ، وعلى هذا فإن الإطناب لايختص به عوام الناس ، وإنما هو للخواصّ كما هو للعوام . وسأبين حقيقته فى كتابى هذا ، وأحقق القول فيه بحيث تزول الشبهة التى خَبَط أرباب علم البيان من أجلها ، وقالوا أقوالا لاتعرب عن فائدة .

والذى عندى فيه أنه إذا رجعنا إلى الأسماء واشتقاقها وجدنا هذا الاسم مناسباً لمسماه ، وهو فى أصل اللغة مأخوذ من أَطْنَبَ فى الشىء إذا بالغ فيه ، ويقال : أَطْنَبَتِ الريح ؛ إذا اشتدَّتْ فى هُبُوبها ، وأطنب فى السير ؛ إذا اشتد فيه ، وعلى هذا فإنْ حملناه على مقتضى مسماه كان معناه المبالغة فى إيراد المعانى ، وهذا لايختص بنوع واحد من أنواع علم البيان ، وإنما يوجد فيها جميعها ؛ إذ مامن نوع منها إلا ويمكن المبالغة فيه ، وإذا كان الأمر كذلك فينبغى أن يفرد هذا النوع من بينها ، ولايتحقق إفراده إلا بذكر حَدِّه الدال على حقيقته .

والذى يُحَدُّ به أن يقال : هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة ؛ فهذا حَدُّه الذى

يميزه عن التطويل ؛ إذ التطويل هو : زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة ، وأما التكرير فإنه : دلالة اللفظ على المعنى مردّداً ، كقولك لمن تستدعيه : أَسْرِعْ أَسْرِعْ ؛ فإن المعنى مردّد واللفظ واحد ، وسيرد بيان ذلك مفصّلاً فى بابه بعد باب الإطناب ؛ لأنى ذكرت الإيجاز ، ثم الإطناب ، ثم التكرير ، وهى أبواب يتبع بعضها بعضاً ، وإذا كان التكرير هو إيراد المعنى مردداً فمنه مايأتى لفائدة ومنه مايأتى لغير فائدة ؛ فأما الذى يأتى لفائدة[1] فإنه جزء من الإطناب وهو أخص منه ؛ فيقال حينئذ : إن كل تكرير يأتى لفائدة فهو إطناب وليس كل إطناب تكريراً يأتى لفائدة ، وأما الذى يأتى من التكرير لغير فائدة فإنه جزء من التطويل ، وهو أخص منه ، فيقال حينئذ : إن كل تكرير يأتى لغير فائدة تطويل ، وليس كل تطويل تكريراً يأتى لغير فائدة .

وكنت قدمت القول فى باب الإيجاز بأن الإيجاز هو : دلالة اللفظ على المعنى من غير زيادة عليه .

وإذا تقررت هذه الحدود الثلاثة المشار إليها فإن مثال الإيجاز والإطناب والتطويل مثال مقصد يسلك إليه فى ثلاثة طرق ؛ فالإيجاز هو أقرب الطرق الثلاثة إليه ، والإطناب والتطويل هما الطريقان المتساويان فى البعد إليه ، إلا أن طريق الإطناب تشتمل على مُنَزَّه من المنازه لايوجد فى طريق التطويل ، وسيأتى بيان ذلك بضرب الأمثلة التى تسهل من معرفته .

والإطناب يوجد تارةً فى الجملة الواحدة من الكلام ، ويوجد تارةً فى الجمل المتعددة ، والذى يوجد فى الجمل المتعددة أبلغ ؛ لاتساع المجال فى إيراده

وعلى هذا فإنه بجملته ينقسم قسمين :

(١) فى ا ، ب ، ج « فأما الذى يأتى لغير فائدة » وهو خطأ أجمعت عليه هذه النسخ ، والصواب حذف كلمة « غير » وذلك يدرك بالتأمل البسيط .

القسم الأول : الذى يوجد فى الجملة الواحدة من الكلام ، وهو يرد حقيقة ، ومجازاً ؛ أما الحقيقة فمثل قولهم : رأيته بعينى ، وقَبَضْتُه بيدى ، ووطئته بقدمى ، وذُقْتُه بفمى ، وكل هذا يظن الظان أنه زيادة لا حاجة إليها ، ويقول : إن الرؤية لاتكون إلا بالعين ، والْقَبْض لا يكون إلا باليد ، والوطء لا يكون إلا بالقدم ، والذَّوْق لايكون إلا بالفم ، وليس الأمر كذلك ، بل هذا يقال فى كل شىء يعظم مَنَالُه[1] ويعز الوصول إليه ، فيؤكد الأمر فيه على هذا الوجه دلالةً على نيله والحصول عليه ، كقول أبى عُبَادَةَ البحترى[2] :

تَأَمَّلْ مِنْ خِلَالَ السَّجْفِ وَانْظُرْ ... بِعَيْنِكَ مَا شَرِبْتُ وَمَنْ سَقَانِى[3]

تَجِدْ شَمْسَ الضُّحَى تَدْنُو بِشَمْسٍ ... إِلَيَّ مِنَ الرَّحِيقِ الْخُسْرُوَانِى

ولما كان الحضور فى هذا المجلس مما يعز وجوده ، وكان الساقى فيه على هذه الصفة من الحسن ؛ قال : انظر بعينك .

وعلى هذا ورد قوله تعالى : (ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ) ؛ فإن هذا القول لما كان فيه افتراء عَظَّمَ الله تعالى على قائله ، ألا ترى إلى قوله تعالى فى قصة الإفك : (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) فصرّح فى هذه الآية بما أشرت إليه من تعظيم الأمر المقول .

وفى مساق الآية المشار إليها جاء قوله تعالى : (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ

(١) فى ا ، ب ، ج « يعظم مثاله » وتأمل فى قوله بعد ذلك « دلالة على نيله والحصول عليه » تدرك أن « يعظم مناله » بالنون أولى .

(٢) من قصيدة يمدح فيها الهيثم الغنوى ، وأولها قوله :

رُوَيْدَكَ إِنَّ شَأْنَكَ غَيْرُ شَانِى ... وَقَصْرَكَ ؛ لَسْتُ طَاعَةَ مَنْ نَهَانِى

(٣) فى الديوان « تأمل من خلال الشك فانظر » .

أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ) ألا ترى أن مَساق الكلام أن الإنسان يقول لزوجته : أنتِ علىَّ كظهر أمى ، ويقول لمملوكه : يابنىّ ؛ فضرب الله لذلك مثالاً ، فقال : كيف تكون الزوجة أمًّا ؟ وكيف يكون المملوك ابناً ؟ والجمع بين الزوجية والأمومة وبين العبودية والبنوّة فى حالة واحدة كالجمع بين القلبين فى الجوف ، وهذا تعظيم لما قالوه ، وإنكار له ؛ ولما كان الكلام فى حال الإنكار والتعظيم أتى بذكر الجوف ، وإلا فقد علم أن القلب لايكون إلا فى الجوف ، والتمثيل يصح بقوله : (ماجعل الله لرجل من قلبين) وهو تام ، لكن فى ذكر الجوف فائدة ، وهى ما أشرت إليها ، وفيها أيضاً زيادة تصوير للمعنى المقصود ؛ لأنه إذا سمعه المخاطب به صوّر لنفسه جَوْفاً يشتمل على قلبين ، فكان ذلك أسرع إلى إنكاره .

وعليه ورد قوله تعالى : (فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ) فكما أن القلب لايكون إلا فى الْجَوْف فكذلك السقف لايكون إلا من فَوْقُ ، وهذا مقام ترهيب وتخويف ، كما أن ذاك مقام إنكار وتعظيم ، ألا ترى إلى هذه الآية بكمالها وهى قوله تعالى : (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) ولذكر لفظة (فوقهم) فائدة لا توجد مع إسقاطها من هذا الكلام ، وأنت تحسُّ هذا من نفسك ؛ فإنك إذا تَلَوْتَ هذه الآية يخيَّل إليك أن سقفاً خرَّ على أولئك من فوقهم ، وحصل فى نفسك من الرعب ما لايحصل مع إسقاط تلك اللفظة .

وفى القرآن الكريم من هذا النوع كثير ؛ كقوله تعالى : (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً) وقوله : (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) وكل هذه الآيات إنما أطنب فيها بالتأكيد لمعانٍ اقتضتها ؛ فإن النفخ فى الصور الذى تقوم به الأموات

من القبور مَهُول عظيم دلّ على القدرة الباهرة ، وكذلك حمل الأرض والجبال ؛ فلما كانا بهذه الصفة قيل فيهما : (نفخة واحدة) و (دكة واحدة) أى : أن هذا الأمر المهول العظيم سَهْلٌ يسير على الله تعالى يفعل ويمضى الأمر فيه بنفخة واحدة ودكة واحدة ، ولا يحتاج فيه إلى طول مدة ولا كلفة مشقة ، فجىء بذكر الواحدة لتأكيد الإعلام بأن ذلك هين سهل على عظمه .

وهذه المواضع وأمثالها ترد فى القرآن الكريم ويتوهم بعض الناس أنها ترد لغير فائدة اقتضتها ، وليس الأمر كذلك ؛ فإن هذه الأسرار البلاغية لايتنبه لها إلا العارفون بها ، وهكذا يرد مايرد منها فى كلام العرب .

وههنا نكتة لابد من الإشارة إليها ؛ وذاك أنى نظرت فى قوله تعالى : (نفخة واحدة) و (دكة واحدة) وفى قوله تعالى : (وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى) فوجدت ذلك غَيْرَ مَقِيس على ما تقدم ، وسأبينه ببيان شاف ؛ فأقول : إن قوله تعالى : (ومناة الثالثة الأخرى) إنما جىء به لتوازن الفقر التى نظمت السورة كلها عليها ، وهى : (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) ولو قيل : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة) ولم يقل الثالثة الأخرى لكان الكلام عاريًا عن الطلاوة والحسن ، وكذلك لو قيل : ومناة الأخرى ، من غير أن يقال الثالثة لأنه نقص فى الفقرة الثانية عن الأولى ، وذاك قبيح ، وقد تقدم الكلام عليه فى باب السجع ؛ لكن التأكيد فى هذه الآية جاء ضِمْناً لتوازن الفقر وتَبَعاً ، وأما (نفخة واحدة) و (دكة واحدة) فإنما جىء بلفظ الواحدة فيهما وقد علم أن النفخة هى واحدة والدكة هى واحدة لمكان نظم الكلام ؛ لأن السورة التى هى (الحاقة) جارية على هذا المنهاج فى توازنها السجعى ، ولو قيل نفخة من غير واحدة ودكة من غير واحدة ثم قيل بعدهما : (فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) لكان الكلام منثوراً[1] محتاجاً إلى تمام ، لكن التأكيد جاء فيهما ضمناً وتبعا ، وإذا تبين ذلك واتضح فاعلم أن الفرق بين هذه الآيات وبين

(١) كذا فى ا ، ب ، ج ؛ ولعله « مبتورا » بباء موحدة فتاء مثناة .

قوله تعالى : (مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ) ظاهر ، وذاك أن نفخة هي واحدة ومناة هي الثالثة .

وأما ماجاء منه على سبيل المجاز فقوله تعالى : (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) ففائدة ذكر الصدور ههنا أنه قد تعورف وعلم أن العمى على الحقيقة مكانه البصر ، وهو أن تصاب الْحَدَقة بما يطمس نورها ، واستعماله فى القلب تشبيه ومثل ؛ فلما أريد إثبات ماهو خلاف المتعارف من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار احتاج هذا الأمر إلى زيادة تصوير وتعريف ؛ ليتقرر أن مكان العمى إنما هو القلوب لا الأبصار .

وهذا موضع من علم البيان كثيرة محاسنه ، وافرة لطائفه ، والمجاز فيه أحسن من الحقيقة ؛ لمكان زيادة التصوير فى إثبات وصف الحقيقى للمجازى ، ونفيه عن الحقيقى .

وأما القسم الثانى المختص بالجمل فإنه يشتمل على ضروب أربعة :

الأول منها : أن يذكر الشيء فيؤتى فيه بمعان متداخلة ، إلا أن كل معنى يختص بخصيصة ليست للآخر ، وذلك كقول أبى تمام[١] :

قَطَعَتْ إِلَيَّ الزَّابِيَيْنِ هِبَاتُهُ ... وَالْتَاثَ مَأْمُولُ السَّحَابِ الْمُسْبِلِ[٢]

مِنْ مِنَّةٍ مشهُورَةٍ وَصَنِيعَةٍ ... بِكْرٍ وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلِ

فقوله : « منة مشهورة وصنيعة بكر وإحسان أغر محجل » تداخلت معانيه ؛

(١) من قصيدة له يمدح فيها الحسن بن وهب ، وأولها قوله :

لَيْسَ الْوُقُوفُ يَكُفُّ شَوْقَكَ فَانْزِلِ ... تَبْلُلْ غَلِيلاً بِالدُّمُوعِ فَيُبْلَلِ

(٢) وقع هذ البيت فى ب ، ج هكذا :

قطعت إلىَّ الرائبـين هباته ... التاث مأمور السحاب المسبل

وفى ا « الزابيين » وبقية البيت كما فى ب ، ج . والزابيان : نهران ، والهبات : العطايا ، واحدها هبة . والتاث : أبطأ . والمسبل : الممطر .

إذ المنة والصنيعة والإحسان متقارب بعضه من بعض ، وليس ذلك بتكرير ؛ لأنه لو اقتصر على قوله منة وصنيعة وإحسان لجاز أن يكون تكريراً ، ولكنه وصف كل واحدة من هذه الثلاث بصفة أخرجتها عن حكم التكرير ، فقال : « منة مشهورة » فوصفها بالاشتهار لعظم شأنها ، و « صنيعة بكر » فوصفها بالبكارة : أى أنها لم يُؤتَ بمثلها من قبل ، و « إحسان أغر محجل » فوصفه بالغرة والتحجيل : أى هو ذو محاسن متعددة ، فلما وصف هذه المعانى المتداخلة التى تدل على شىء واحد بأوصاف متباينة صار ذلك إطناباً ، ولم يكن تكريراً .

ولم أجد فى ضروب الإطناب أحسن من هذا الموضع ، ولا ألطف ، وقد استعمله أبو تمام فى شعره كثيراً ، بخلاف غيره من الشعراء ، كقوله(١) :

زَكِىٌّ سَجَايَاهُ تُضِيفُ ضُيُوفَهُ ... وَيُرْجَى مُرَجِّيهِ وَيُسْأَلُ سَائِلُهْ(٢)

فإن غرضه من هذا القول إنما هو ذكر الممدوح بالكرم وكثرة العطاء ، إلا أنه وصفه بصفات متعددة ؛ فجعل ضيوفه تضيف ، وراجيه يُرْجَى ، وسائله يُسْأَل ، وليس هذا تكريراً ؛ لأنه لايلزم من كون ضيوفه تضيف أن يكون راجيه مرجواً ، ولا أن يكون سائله مسئولاً ؛ لأن ضيفه يستصحب ضيفاً طمعاً فى كرم مضيفه ، وسائله يسأل : أى [أنه] يُعْطِى السائلَ عطاء كثيراً يصير به مُعْطياً ، وراجيه يرجى : أى أنه إذا تعلق به رجاء راج فقد أيْقَنَ بالفلاح والنجاح فهو حَقِيق بأن يُرْجَى ؛ لمكان رجائه إياه ، وهذا أبلغ الأوصاف الثلاثة .

---

(١) من قصيدة له يرثى فيها القاسم به طوق ، وأولها قوله :

جَوًى سَاوَرَ الأَحْشَاءَ وَالْقَلْبُ وَاغِلُهْ ... وَدَمْعٌ يُضِيمُ الْعَيْنَ وَالْجَفْنُ هَامِلُهْ

انظر الديوان (٣٧٧ بيروت) .

(٢) فى الديوان « ولكن سجاياه ـ إلخ » وقد أكثر أبو تمام من ذكر هذا المعنى ، فمنه قوله فى قصيدة يمدح فيها المعتصم :

إِذَا آمِلٌ سَامَاهُ قَرْطَسَ فِى الْمُنَى ... مَوَاهِبُــــهُ حَتَّى يُؤَمَّلَ آمِلُهْ

الضرب الثانى : يسمى النفى والإثبات ، وهو أن يذكر الشىء على سبيل النفى ، ثم يذكر على سبيل الإثبات ، أو بالعكس ، ولا بد أن يكون فى أحدهما زيادة ليست فى الآخر ، وإلا كان تكريراً ، والغرض به تأكيد ذلك المعنى المقصود .

فمما جاء منه قوله تعالى : (لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ) .

واعلم أن لهذا الضرب من الإطناب فائدة كبيرة ، وهو من أوكد وجوهه ، ألا ترى أنه قال : (لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) ثم قال : (إنما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر) والمعنى فى ذلك سواء ، إلا أنه زاد فى الثانية قوله : (وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون) ولولا هذه الزيادة لكان حكم هاتين الآيتين حكم التكرير ، وهذا الموضع ينبغى أن يتأمل وينعم النظر فيه .

وعليه ورد قوله تعالى : (الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) فقوله : (يعلمون) بعد قوله : (لايعلمون) من الباب الذى نحن بصدد ذكره ، ألا ترى أنه نفى العلم عن الناس بما خفى عنهم من تحقيق وعده ، ثم أثبت لهم العلم بظاهر الحياة الدنيا ؛ فكأنهم علموا وما علموا ؛ إذ العلم بظاهر الأمور ليس بعلم ، وإنما العلم هو ما كان بالباطن من الأمور .

الضرب الثالث : هو أن يذكر المعنى الواحد تامًّا لا يحتاج إلى زيادة ،

ثم يضرب له مثال من التشبيه ، كقول أبى عبادة البحترى (١) :

ذَاتُ حُسْنٍ لوِ استَزَادَتْ مِنَ الْحُسْـــنِ إِلَيْهِ لَمَا أَصَابَتْ مَزِيدَا
فَهْىَ كَالشَّمْسِ بَهْجَةً وَالْقَضِيبِ اللَّـــدْنِ قَدًّا وَالرِّيمِ طَرْفًا وَجِيدَا (٢)

ألا ترى أن الأول كاف فى بلوغ الغاية فى الحسن ؛ لأنه لما قال : « لو استزادت لما أصابت مزيدا » دخل تحته كل شىء من الأشياء الحسنة ، إلا أن للتشبيه مزية أخرى تفيد السامع تصويراً وتخييلاً لايحصل له من الأول ، وهذا الضرب من أحسن مايجىء فى باب الإطناب .

وكذلك ورد قوله (٣) :

تَرَدَّدَ فِى خُلُقَىْ سُودَدٍ سَمَاحًا مُرَجًّى وَبَأْسًا مَهِيبَا
فَـكَالسَّيْفِ إِنْ جِئْتَهُ صَارِخًا وَكَالْبَحْرِ إِنْ جِئْتَهُ مُسْتَثِيبَا

فالبيت الثانى يدلّ على معنى الأول ؛ لأن البحر والسيف للبأس المهيب ، إلا أن فى الثانى زيادة التشبيه التى تفيد تخيلاً وتصويرا .

الضرب الرابع : أن يستوفى معانى الغرض المقصود من كتاب أو خطبة أو قصيدة ، وهذا أصعب الضروب الأربعة طريقًا ، وأضيقها باباً ؛ لأنه يتفرع إلى أساليب كثيرة من المعانى ، وأرباب النظم والنثر يتفاوتون فيه ، وليس الخاطر الذى يقذف بالدرر فى مثله إلا معدوم الوجود ، ومثاله ومثال الإيجاز مثال مجمل

(١) من قصيدة له يفتخر فيها ، وأولها قوله :

إِنَّمَا الْغَىُّ أَنْ يَكُونَ رَشِيدَا فَانْقُصَا مِنْ مَلَامِهِ أَوْ فَزِيدَا

(٢) رواية الديوان :

فَهِىَ الشَّمْسُ بَهْجَةً وَالْقَضِيبُ الْـــغَضُّ لِينًا وَالرِّيمُ طَرْفًا وَجِيدَا

(٣) من قصيدة له يمدح فيها الفتح بن خاقان ، وأولها قوله

لَوَتْ بِالسَّلَامِ بَنَانًا خَضِيبًا وَلَحْظًا يَشُوقُ الْفُؤَادَ الطَّرُوبَا

ومفصل ؛ وقد تقدم القول بأن الإيجاز والإطناب والتطويل بمنزلة مقصد يسلك إليه ثلاثة طرق ، وقد أوردت ههنا أمثلة لهـذه الأساليب الثلاثة ، وجعلتها على هيئة المقصد الذى تسلك إليه الطرق الثلاثة .

فمن ذلك ماذكرته فى وصف بستان ذات فواكه متعددة ؛ فإذا أريد وصفه على حكم الإيجاز قيل : فيه من كل فاكهة زوجان ؛ وهذا كلام الله تعالى ؛ وقد جمع جميع أنواع الفاكهة بأحسن لفظ وأخصره . وإذا أريد وصف ذلك البستان على حكم الإطناب قيل فيـه ما أذكره ، وهو فصل من كتاب أنشأته ، وهو : جنة عَلَتْ أرضها أن تمسك ماء ، وغنيت بيَنْبُوعها أن تَسْتَجْدِىَ سماء ، وهى ذات ثمـار مختلفة الغرابة ، وتربة مُنْجِبة وما كل تربة توصف بالنَّجَابة ، ففيها المشمش الذى يسبق غيره بقدومه ، ويقذف أيدى الجانين بنجومه ، فهو يَسْمُو بطيب الفرع والنِّجَار ، ولو نظم فى جيد الحسناء لاشتبه بقلادة من نُضَار ، وله زَمَنُ الربيع الذى هو أعدل الأزمان ، وقد شبه بسن الصبا فى الأسنان ، وفيهـا التفاح الذى رقّ جِلْدُه ، وعظم قَدُّه ، وتورّد خَدُّه ، وطابت أنفاسه فلا البَانُ الوادى ولا رَنْدُه ، وإذا نظر إليه وجد منه حظ الشم والنظر ، ونسبته من سرر الغزلان أولى من نسبته إلى منابت الشجر ؛ وفيها العنب الذى هو أكرم الثمـار طينة ، وأكثرها ألوان زينة ، وأول غرس اغترسه نوح عليه السلام عند خروجه من السفينة ، فَقِطْفُهُ يميل بكف قاطفه ، ويُغْرِى بالوصف لسان واصفه ، وفيهـا الرُّمَّان الذى هو طعام وشراب ، وبه شبهت نهود الـكعاب ، ومن فضله أنه لانَوَى له فيرمى نواه ، ولا يخرج اللؤلؤ والمرجان من فاكهة سواه ، وفيها التين الذى أقسم الله به تنويهاً بذكره ، واستتر آدم عليه السـلام بورقه إذ كَشَفَت المعصية من ستره ، وخصّ بطول الأعناق فمـا يرى بها من مَيْل فهو نَشْوَة من سكره ، وقد وصف بأنه راق طعماً ، ونعم جسماً ، وقيل هذا كُنَيِّفٌ مُلِىء شهداً لا كنيف ملىء علماً ، وفيها من ثمرات النخيل ما يزهى بلونه وشكله ، ويشغل

بلذة منظره عن لذة أكله ، وهو الذى فَضَلَ ذوات الأفنان بعرجونه ، ولا تماثل بينه و بين الحلواء هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، وفيها غير ذلك من أشكال الفاكهة وأصنافها ، وكلها معدود من أوساطها لا من أطرافها ، ولقد دخلتها فاسْتَهْوَتْنى حَسَداً ، ولم أَلُم صاحبها على قوله لن تبيد هذه أبداً .

فهذا الوصف على هذه الصورة يسمى إطناباً ؛ لأنه لم يَعْرَ عن فائدة ، وذاك الأول هو الإيجاز ؛ لأنه اشتمل باختصاره على جميع أصناف الفاكهة .

وأما التطويل فهو أن تعد الأصناف المذكورة تَعْدَاداً من غير وصف لطيف ، ولا نعت رائق ، فيقال : مشمش وتفاح وعنب ورمان ونخل ، وكذا وكذا .

وانظر أيها المتأمل إلى ما أشرت إليه من هـذه الأقسام الثلاثة فى الإيجاز والإطناب والتطويل ، وقس عليها مايأتى منها .

وسأزيد ذلك بياناً بمثال آخر ؛ فأقول :

قد ورد فى باب الإيجاز كتاب كتبه طاهر بن الحسين إلى المأمون رحمه الله تعالى ، يخبره بهزيمة عيسى بن مَاهَان وقتله إياه ، وهو : كتابى إلى أمير المؤمنين ورأس عيسى بن ماهان بين يَدَىَّ ، وخاتمه فى يَدِى ، وعسكره مُصَرَّف تحت أمرى ، والسلام .

وهذا كتاب جامع للمعنى ، شديد الاختصار .

و إذا كتب ما هو فى معناه على وجه الإطناب قيل فيــه ما أذكره ، وهو ما أنشأته مثالاً فى هـذا الموضع ؛ ليعلم به الفرق بين الإيجاز والإطناب ، وهو : أصدر كتابه هذا وقد نُصِرَ بالفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، وانقلب باليد المَلْأَى والعين القَرِيرة ، وكان انتصاره بجَدِّ أمير المؤمنين لا بجَدِّ نصله ، والجد أغنى من الجيش و إن كثرت أمداد خيله ورَجْلِهِ ، وجىء برأس عيسى بن ماهان وهو على جسد غير جسده ، وليس له قدم فيقال إنه يسعى بقدمه ولا يد فيقال إنه يبطش بيده ، ولقد طال وطُولُه مؤذن بقصر شأنه ، وحسدت الضباع الطير على

مكانها منه وهو غير محسود على مكانه ، وأحضر خاتمه وهو الخاتم الذى كان الأمر يجرى على نقش أسطره ، وكان يرجو أن يصدر كتاب الفتح بختمه فحال ورود المنية دون مصدره ، وكذلك البغى مَرْتَعُهُ و بيل ، ومَصْرَعُه جليل ، وسَيْفُه و إن مضى فإنه عند الضرب كَليل ، وقد نطق الفأل بأن الخاتم والرأس مشيران بالحصول على خاتم الملك وراسه ، وهذا الفتح أساس لما يستقبل بناؤه ولا يستقر البناء إلا على أساسه ، والعساكر التى كانت على أمير المؤمنين حرباً صارت له سِلْماً ، وأعطته البيعة عِلْما بفضله وليس من تَابَعَ تقليداً كمن تابع علما ، وهم الآن مُصَرَّفون تحت الأوامر ، مُمْتَحَنُون بكشف السرائر ، مطيفون باللواء الذى خصه الله باستفتاح المقالد واستيطاء المنابر ، وكما سرت خطوات القلم فى أثناء هذا القرطاس ، فكذلك سرت طلائع الرعب قبل الطلائع فى قلوب الناس ، وليس فى البلاد مايغلق بمشيئة الله باباً ، ولا يحسر نقابا ، وعلى الله إتمام النعم التى افتتحها ، و إجابة أمير المؤمنين إلى مقترحاته التى اقترحها ، والسلام

وهذا الكتاب يشتمل على ما اشتمل عليه كتاب طاهر بن الحسين من المعنى ؛ إلا أنه فصل ذلك الإجمال .

ولو كتبت على وجه التطويل الذى لا فائدة فيه لقيل : أصدر كتابه فى يوم كذا من شهر كذا ، والتقى عسكر أمير المؤمنين وعسكر عدوه الباغى ، وتطاعن الفريقان ، وتزاحف الجمعان ، وحمى القتال ، واشتد النزال ، وترادفت الكتائب ، وتلاحقت المقانب ، وقتل عيسى بن ماهان واحتز رأسه وقطع ، ونزع الخاتم من يده وخلع ، وترك جسده طعاما للطيور والسباع ، والذئاب والضباع ، وانجلت الوقعة عن غلب أمير المؤمنين ونصره ، وخذلان عدوه وقهره ؛ والسلام .

فهذا الكتاب يشتمل على تطويل لافائدة فيه ؛ لأنه كرر فيه معانى يتم

الغرض بدونها ، وذكر مالا حاجة إليه فى الإعلام بالواقعة .

فانظر إلى هذه الكتب الثلاثة وتأملها كما تأملت الذى تقدمها .

و بعد ذلك إنى أورد لك كتاباً وتقليداً يوضحان لك فائدة الإطناب ، أما الكتاب فإنه كتاب كتبته عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله إلى ديوان الخلافة ببغداد يتضمن فتح البيت المقدس واستنقاذه من أيدى الكفار ، وذلك فى معارضة كتاب كتبه عبد الرحيم بن على البيسانى عنه ، وكان الفتح فى السابع والعشرين من شهر رجب من سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة : خلد الله سلطان الديوان العزيز النبوى ، وجعل أيام دولته أترابا ، ومناقب مجدها هِضَابا ، وزادها على مرور الأيام شبابا ، وأوسعها توشية و إذهابا ، إذا أوسع غيرها تلاشيا وذَهَابا ، ومنحها فى الدنيا والآخرة عطاء وفاقا لاعطاء حسابا ، ومثل جدودها فى عيون الأعداء شيئاً عُجابا ، وأراهم منها وراءهم فى اليقظة إرهابا و إرعابا ، وفى المنام إبلاصعابا تقود خيلا عرابا ، لو جمعت العصور فى صعيد واحد لكان هذا العصر عليها فاخراً ، وفاز بسبق أوائلها وإن جاء آخرا ، وليس ذلك إلا لحظوته بالدولة الناصرية التى كسته حبراً وقلدته دُرَرَا ؛ ودونت له من المحامد سيرا ، وجعلت فى كل ناحية من وجهه شمساً وقمرَا ، وقَيَّض الله لها من الخادم ولياً يوصل يومه فى طاعتها بأمسه ؛ ولا يرى إلا ومن نفسه فى خدمتها رقيب على نفسه ، وطالما سعى بين يديها بمَسَاعٍ تغصّ بأخبارها محافل القوم ، ويقال له فيها : ماضَرَّكَ ماصَنَعْتَ بعد اليوم ، وقد سلفت منها آيات تتمايل فى أشباهها وأضرابها ، واستؤنف لها الآن واحدة تدعى بأم كتابها ، وهى فتح البيت المقدس الذى تفتحت له أبواب السماء ، وكثرت بأحاديث مجده كواكب الظلماء ، واسترد حَقّ الإسلام وطالما سعت الهمم فى طلبه بالزاد والماء ، ومن أحسن ما أتى به أنه آنس قبلته الثانية بقبلته الأولى ، وأطال منه كل ماقصَّرته يد الكفر وكانت هى الطولى ، و به صحّ لهذا البيت معنى اسمه ، وانتقل إلى

الطهارة ونزاهتها عن الرِّجس ووَصْمه ، ولم يحزه الخادم حتى طوى ماحوله من البلاد المنجدة والغائرة ، وكان مركزاً لدائرتها فغادره وهو طرف من أطراف الدائرة ، ولما شارفه نظر منه إلى ظُلَّة من الظلَل ، ورأى بلداً قد اسْتَقَرَّ على متن الجبل مثل الجبل ، ويطيف به وادٍ تستهزئ عصمته بنُوَبِ الدهر ، وقد انعطف على جوانبه انعطاف الحبوة على الظهر ، والمسالك إليه مع ذلك ذات تعاريج ومعارج ، وهى ضَيِّقة مُسْتَوْعِرة يطلق عليها اسم الطرق ولا يطلق عليها اسم المناهج ؛ فلما رآه قال : هذا أمنية لمن يرى ، وعلم حينئذ أن كُلَّ الصَّيْدِ فى جَوْفِ الفَرَا ، إلا أن لسان حاله خاطبه وهو أفصح الخطاب ، وقال : امْدُدْ يدك فليس دونها من حجاب ، وكان قد بَرَزَ من السلاح فى لباس رائع من المنعة ، وأخرج من السواد الأعظم ماخدع العيون والحرب خُدْعَة ، وما يمنع رقاب البلاد بكثرة السواد ، ولا يحمى بعوَالى الأسوار بل بعوَالى الصِّعَاد ، وفى يوم كذا وكذا خَيَّم المسلمون فى عقد داره ، ونزلوا منه نزول الجار إلى جانب جاره ، ثم ارتادوا مَوْقِفاً للقتال وإن لم يكن هناك موقف يقرب مناله ولا يتسع مجاله ، واتفق الرأى على لسان المنجنيق فى خطبة عقيلية أبلغ خطابا ، وأدنى من المطلوب طلابا ، وأنه إذا ضرب بعصاه الحجر انْبَجَسَتْ عيون أهله دماء ، كما انبجست عيون الحجر ماء ، هذا ، والعزائم تنظر إلى هذا الرأى نظر المستجهل ، وتَصُدُّ عنه صدود المستعجل ، وتقول: ما بارْتِيَادِ السهل تملك الصعاب ، ومن ابتنى السيف صرحاً لم ينأ عنه بلوغ الأسباب ، والحديد لا يُفْلَح إلا بالحديد ، والركن الشديد لا يصدم إلا بركن شديد ، فعندها صَمَّم الخادم أن يلقى البلد مُوَاثباً لا موار با ، وأن يجعل للزحف جانباً وللمنجنيق جانبا ، ونَوَى أن يبدى صفحة وجهه أمام الناس ، وتأسَّى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى الاتقاء به إذا اشتد الباس ، ولا شك أن قلوب الجيوش بمنزلة قلوبها ، وأن النفاذ لأسنة الرماح لا لكعوبها ، ولا يشتفى من الوغى إلا من كان طرفه أمام طرفه ، ومن وقف خلف جنوده فقد جعل عزائمها من خلفه ،

ولما وقع الزَّحْف صُورع البلد صراعا ، بعد أن قورع قراعا ، ثم هزَّ هزة طوته يمينها ونشرته بشمالها ، وأذاقته العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من نكالها ، وبدون ذلك يكون عَرْكُ أدِيمه ، وعطف شكيمه ، ولم يكن قتاله بالسهام التى غايتها أن تصفّ أجنحتها لمطار ، وتنال بكلومها من فوق الأسوار ، بل بالسيوف التى إذا جالدت بلداً أخذت بكظمه ، وتوغلت فى هجمه ، وأغنت بسرعة خطواتها إليه عن المنجنيق و إبطاء هدمه، والسيف ليس بمُرْتَوٍ من النفس التى تظل طائشة عند لقائها ، جائشة عند استيفائها ؛ فالقلوب توصف بأنها تجيش إذا كانت أعداداً ، والنفوس لا تجيش إلا إذا كانت ثمادا ، وما يستوى وجوه الأقران فى إقدامها وإحجامها ، فمنها المظلم إذا رَاءَهَا الروع بإشراقها ، ومنها المشرق إذا شابَهَا الروع بإظلامها ، وكانت وجوه المؤمنين فى هذا المقام أحظى بلباس الإشراق ، وأتم أبدراً والبدور لا يكون تمامها فى المُحَاق ؛ فما منهم إلا من عرض نفسه ليوم العرض ، ومشى إلى جنة عرضها السموات والأرض ، حتى اتسع المكرُّ وضاق بأعداء الله المقر ، وحرقت أوعار الخنادق ، وصار الرجاء لمنطقة السور كالمناطق ، ولم يستشهد منهم إلا عدد يسير لا تدخله لام التعريف ، وكانت أجنحة الملائكة مطيفة بهم فأكرم بالمُطَاف به وبالمطيف ، وقد أسعد الله أولئك بالشهادة التى هى الفوز الأكبر ، وقرَنَها بإدناء مضاجعهم من الأرض المقدسة التى هى أرض المحشر ، فما يسرهم أن يعودوا إلى الدنيا إلا للاستزادة من ثواب الجهاد ، وأيسر ذلك أن أرواحهم فى حواصل طير خضر تعلق من ثمار الجنة إلى يوم المعاد ، ولما رأى الكفار أن صَليبَهُمْ قد صار خوارا ، وأن زئيرهم قد انقلب خوارا ؛ أذعنت أيديهم باستسلامها ، وصانعت بالمال عن الرقاب واسترقاقها ، وبالبلد عن النفوس وحمامها ، فأبى السيف أن يترك رقابا تغذى بأكلها ، ويحل من عشقها على مداومة وصلها ، وذكر الخادم أنَّ سلف هؤلاء انتزع هذا البلد قَسْرًا ، وفتك بمن كان به من المسلمين غَدْرًا ، وذلك ثأر ذخره الله لك حتى تحظى فى

الآخرة بثوابه ، وتتجمل فى الدنيا بزينة أثوابه ، والمسلم أخو المسلم يأخذ بدمه ، وإن تطاولت أمداد السنين على قدمه ، فيابُعْدَ عهد هذا الثأر من ثائره ، وياطيب خبره عند سامعه وحسن أثره عند ناظره ، ولما تحقق العزم على ذلك أشار ذووالرأى بقبول الفدية المبذولة ، وألا يحمل العدو على ما ليست نفسه عليه بمحمولة ، فإن النقد إذا أخرج صار ذا أنياب وأظفار ، واستَضْرَى حتى يلتحق بالسباع الضَّوار ، وهؤلاء إذا رأوا عين القتل تجردوا للقتال ، وركبوا الأهوال للنجاة من الأهوال ، ومن يُدْعَ إلى خطة رشد فليقبلها ، ومن أنشط له عقل الأمور فلايعقلها ، وعلى كل حال فإن الفدية للمسلمين أرغب ، وأموال يُتَقَوَّى بها على العدو خير من دماء تذهب ، هذا ، وبالبلد من أسارى المسلمين مَنْ حَيَاةُ أحدهم بحياة كل نفس ، ومَنْ حُرْمَتُه عند الله خير مما طلعت عليه الشمس ، ولا يُوَازَى فتحه عنوة أن يتعدى إليهم أضراره ، ولا شك أنهم يعاجلون بالقتل قبل أن تدخل أقطاره ، فرأى الخادم عند ذلك أن الرأى مشترك ، وأن له معتركا كما أن السيف له معترك ، وتقرر تسليم البلد ودموع أهله قد خضبت أحداقها وأقرحت آماقها ، ولم تطب أنفسهم بفراق قمامه حتى كادت الهام تفارق أعناقها ، فعلى حب ذلك التراب تقوم قيامتهم ، وتشيل نعامتهم ، ولطالما ابتهلوا عنده أيام الحصار ، واستنصروه فلم يحظوا منه بمعونة الانتصار ، وكيف يرجى النصر من معبود تقر شيعته بقتله ، أم كيف يدفع عن غيره من كان هو مبتلى بمثله ، وهذه عقول سخيفة نفذ فيها كيد شيطانها ، وأخفى عنها محجة الحق على وضوح بيانها ، ولقد كان يوم التسليم عريض الفخار ، زائد العمر على عمر أبويه من الليل والنهار ، واشتق من اسمه معنى السلامة للمسلمين والهلاك للكفار ، وزاده فخراً إلى فخره أنه وافق اليوم المسفر عن ليلة المراج النبوى الذى كان فى تلك الأرض موعده ، ومن صخرتها مَصْعَدُه ، وذلك هو الإسراء الذى ركب إليه ظهر البراق ، واستفتح له أبواب السبع الطِّباق ، ولَقِىَ فيه الأنبياء على اختلاف درجاتهم

فظفر خير ملق بخير لاق ، وبركة ذلك اليوم سرت إلى هذا فأطالت من شهرته ، وضمنته نصرة الدين الحنيف الذى لله عناية بنصرته ، وجعلته تاريخا يؤرخ بفتحه كما أرخ للنبى صلى الله عليه وسلم بدار هجرته ، وإذا أنصف واصفه قال : إنه لليوم البدرى فى اقتراب النسب ، وإنه العجيبة التى لم تجفل عنها الأيام فى صفر وإنما أجفلت عنها فى رجب ، فما أكثر الفائز فيه والمغبون ، والمسرور والمحزون ، فمن جد راكب ومن جد راجل ، ومن عز قادم وذل راحل ، ولطالما جد الخادم فى السعى له وأبصار العدا تزلقه ، وألسنتهم تَسْلُقُه ، وما منهم إلا من أكثر الشناعة بأن ذلك السعى للاستكثار من البلاد ، والله يعلم أنه لم يكن إلا للاستكثار من موارد الجهاد ، لاجرم أن صدق النية كان له عقبى الدار ، وتلك الأقوال الكاذبة كان لها عقبى البْوَار ، ويوم هذا الفتح يفتقر قبله إلى أيام تجلو بياضه عن سوادها ، ويلقح لها بطون المساعى حتى يكون هو نتيجة ميلادها ، ولما ظفر به الخادم لم يكن لأهل النِّجامة فيه قول يرد كذابه ، ولا يقبل صوابه ، والشهب الطالعة على ذوات السروج ، أصدق نبأ من الشهب الطالعة من ذوات البروج ، على أنهما وإن اتفقا رَجْمًا فإنهما يختلفان علما ، فعلم هذه يسأل عنه ثغر الأعناق ، وعلم هذه يسأل عنه بطون الأوراق ، ولما دخل البلد وجد به أمما لولا أن ضربت عليهم الذلة لدافعوا المنايا مكاثرة ، وغالبوا السيوف مصابرة ، وهم طوائف مختلفو الألسنة والألوان ، وإن قيل إنهم أناسى فإِنَّ صُوَرَهُمْ صور الجان ، ومنهم طائفة استشعرت حبس نفوسها ، وفحصت الشعر عن أوساط رءوسها ، وتوحشت بالرهبانية حتى ارتاعت العيون من أشكالها ولبوسها ، ولما رأوا طلعة الإسلام داخلة عليهم أعلنوا بالْجُؤَار ، واصطرخوا جميعا كما يَصْطَرِخون غدا فى النار ، وزادهم غيظاً إلى غيظهم أنهم رأوا الصلاة قائمة ، وقد صار الناقوس أذانا ، وكلمة الكفر إيمانا ، وأقيمت الجمعة ، وهى أول جمعة حظى الأقصى بمشهدها ، وحضرتها الأمة الإسلامية بأحمرها وأسودها ، فمن باكٍ بدمعة سروره الباردة ، ومن مُجِيل نظرَه فى نعمة الله

الواردة ، ومن شاكر للزمن ٱلذى أبقاه إلى يومه هذا ٱلذى كُلُّ الأيام له حاسدة ، مَنْ كان مَوْلِدُه تقدم قبله أو بعده فكأنه لم يولد ، وكانت هذه الجمعة فى رابع شعبان ، وهو الشهر ٱلذى جعله ٱلله طليعة لشهر الصيام ، وليلة نصفه هى ٱلليلة المعروفة بإحياء قيامها إلى حين وفاة شخص الظلام ، والتى يغفر فيها لأكثر من شعر غنم كلب من ذوى الذنوب والآثام ، وجىء باللِّواء الأسود فركز من المنبر فى أعلاه ، ونطق لسان حاله فقال: من كان رسولُ ٱلله صلى ٱلله عليه وسلم مولاه فأنا مَوْلَاه ، ولم يكن لسان الخطيب بأفصح بيانا من لسانه ، غير أن هذا يُزْهى ببلاغ موعظته وهذا يزهى بعزة سلطانه ، ولما ذُكِرَتْ سِمات الخلافة المعظمة أتبعها الناس بالدعاء ٱلذى ملأ المسجد بِعَجِيجه ، وسَبَقَ الكرامُ الكاتبون بزميله إلى السماء ووشيجه ، وكان اليوم فَصْلاً ، والموقف حَفْلاً ، وذلك الدعاء فرضا لا نفلا ، ولا ينتهى الوصف إلى ماشوهد بالبلد من الآثار العجيبة التى تَسْتَلْبِثُ العَجْلَانِ ، وتستحلب الأذهان وتستنطق الألسنة بالتسبيح لله ٱلذى فطر الإنسان ، ومن جملة ذلك ما تُبُوهِىَ فى حسنه من البِيَع والصَّوامع ، ذوات الأبنية الروائع ، التى روضت بالزخارف ترويض الأزهار ، ورفعت معاقدها حتى كادت النجوم توحى إليها بالأسرار ، وما منها إلا ما يقال : إنه إرَمُ ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، ولقد ألان الله لهم الحجارة حتى تخيروا فى توسيعها بضروب الاختيار ، وجعلوها أعاجيب للأسماع والأبصار ، وقيل فيها : هذه روضات جنان لا أفنية ديار ، هذا إلى غيره مما وجد من معبودات القوم الموصوفة بأنها آلهة الصُّلُب ، اللاتى من ذوات النصب ، وأكثر ذلك وجد فى المسجد موضوعاً ، وعلى قبته مرفوعاً ، فأنزلت على قرونها ، وأُسْتُنَّ بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طعن عيونها ، واستوطن المؤمن مكان الكَفُور ، وبُدِّلت الظلمات بالنور ، وقالت الصخرة : الآن جمع بينى وبين الحجر الأسود لخاطب الإسلام ، والجمع بين

الأختين فى هذا الأمر من الحلال لامن الحرام ، وقال الأقصى : سبحان الذى أسرى إلىَّ بجنده ، كما أسرى بعبده ، وأعاد لى عهود الفتح الأول بهذا الفتح ألذى أتى من بعده ، وعَوْدُ الذاهب أرْجَى لدوام أحقابه ، وخُلُودُ الإنسان لايكون إلا فى مآبه ، وهذا هو الخطب ألذى جدد للاسلام عهود أبْن خَطَّابه ، رضى أللّه عنه ! إلا أن مستنقذ الطريدة أولى بها من صاحبها ، ولئن غصبتها يد غالبة فقد جاء أللّه باليد التى غصبتها من غاصبها ، هذا ، ولم يستنقذها الخادم إلا بإنضاء سلاح أنفته الوقعة الأولى التى استأصلت حماة البلاد ، واستباحت أغيالها بقتل الآساد ، فكانت لهذا الفتح عنوانا ، ولتقرير أصوله بنيانا ، ولم يَنْجُ بها من طواغيت الكفر إلا طاغية ترابلس ، فإن السيوف أسْأَرَتْهُ و بفؤاده قلق من أوجالها ، وفى عينه دهش من أهوالها ، وقد قرَنَ أللّه هذا الفتح يبشرى موته ، وكفى المسلمين مؤنة الأهتمام لِفَوْتِهِ ؛ ففر من الوقعة ولم ينج بذلك الفرار ، واعتصم بذات جداره فقتله الخوف من وراء الجدار ، ولا فرق بين قتيل خوف السفار ، و بين قتيل الشفار ، ولقد فرّ من المكروه إلى مثله ، لكنه انتقل من ميتة عِزِّهِ إلى ميتة ذُلِّهِ ، وكذلك آثار الخادم فى أعداء أللّه فهم هلكى بسيفه فى مواقف الطراد ، فإن فرُّوا فبخوفه على جنوب الوساد ، و بعد هذه فهل يَمْتَرُونَ فى أن دماءهم قد استجابت لمراده ، وأن سواء لديه من أمكن منها فى دنوه ومن امتنع منها فى بعاده ، وكل ذلك مستمد من الاستنصار بعناية الديوان العزيز التى من شأنها أن تجعل الرؤيا حقا ، وأحاديث الآمال صدقا ، وتُقرِّبَ بعيداتِ الأمور حتى تجعل الشرق غربا والغرب شرقا ، فهذا الفتح منسوب إليها ، وإن كان الخادم هو الساعى فى تسهيله ، والمجاهد بنفسه وماله فى سبيله ، فعلى عطف دولتها ترقم أعلامه ، وفى أيامها تؤرخ أيامه ، ولو أبيح للقلم الخيلاء فى مقام المقال ، كما أبيح لصاحبه فى مقام القتال ، لاختالت مشيته فى هذا الكتاب ، ولقال وأسهب فليس الإكثار ههنا من الإسهاب ، لكنه منعه من ذلك أن يكون ممن نخر

بعمله فأبطله ، وأرسل خطابه إلى الديوان العزيز فلم يقبضه بالأدب حين أرسله ، وقد ارتاد مَنْ يُبلِّغ عنه مشاريح هذه الوقائع التى اختصرها ، ويمثل صورها لمن غاب عنها كما تمثلت لمن حضرها ، ويكون مكانه من النباهة كريماً كمكانها ، وهى عرائس المساعى فَأَحْسَنُ الناس بيانا مؤهل لإيداع حسانها ، والسائر بها فلان وهو راوى أخبار نصرها التى صحبها فى تجريح الرجال ، وَعَوَالِى إسنادها مأخوذة من طرق العَوَال ، والأيام والليالى رواة فما الظن برواية الأيام والليال ، وستتلو هذه الأخبار الصادقة بمشيئة ٱلله أخبار مثلها صادقة ، وما دامت السيوف ناطقة فى يد الخادم فالألسنة عنها ناطقة ، وللآراء العالية مزيد العلو ، إن شاء ٱلله تعالى .

وأما التقليد فإنه تقليد أنشأته لمنصب الحسبة ، وهو : أما بعد ؛ فقد جعل ٱلله جزاء التمكين فى أرضه ، أن يقام بحدود فرضه ، ونحن نسأله التوفيق لهذا الأمر الذى ثقل حمله ، وعدم أهله ، فقد جىء بنا فى زمن أصبح الناس فيه سدى ، وعاد الإسلام فيه غريباً كما بدا ، وهو الزمن ٱلذى كثرت فيه أشراط اليوم الأخير ، وغربلت فيه الأمة حتى لم يبق إلا حُثالة كحُثالة التمر والشعير ، ومِنْ أَهَمّ ما تقرر بناءه ونقدم عناءه ، ونصلح به الزمن وأبناءه ، أن نمضى أحكام الشريعة المطهرة على ما قررته ، فى تعريف ما عرفته وتنكير ما نكرته ، ومَدَارُ ذلك على النظر فى أمر الحِسْبَة التى تتنزل منه بمنزلة السلك من العقد ، والكف من الزَّنْدِ ، وقد أخلصنا النية فى ارتياد من يقوم فيها ويكفيها ، ويُصْطَفَى لها ولا يصطفيها ، وهو أنت أيها الشيخ الأجل فلان أحسن ٱلله لك الأثر ، وصدق فيك النظر ؛ فتولها غير موكول إليها ، بل مُعَانًا عليها . واعلم أن الناس قد أماتوا سننا وأحْيَوْا بِدَعًا ، وتفرقوا فيما أحدثوهُ من المحدثات شيعا ، وأظلم منهم من أَقَرَّهُمْ على أمرهم ، ولم يأخذهم بقوارع زجرهم ؛ فإن السكوت عن البدعة رضاً بمكانها ، وترك النهى عنها كالأمر بإتيانها ، ولم يأت بنا ٱلله تعالى إلا ليعيد ٱلدين قائما على أصوله ،

صادعا بحكم ٱلله فيه وحكم رسوله .

ونحن نأمرك أن تتصفح أحول الناس فى أمر دينهم ٱلذى هو عصمة مالهم ، وأمر معاشهم ٱلذى يتميز به حرامهم من حلالهم ، فابدأْ أولا بالنظر فى العقائد ، واهْدِ فيها إلى سبيل الفِرْقَة الناجية ٱلذى هو سبيل واحد ، وتلك الفِرْقة هى السلف الصالح ٱلذين لزموا مواطن الحق فأقاموا ، وقالوا رَبُّنَا ٱللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا ، وَمَنْ عداهم شُعَبٌ دانوا أديانا ، وَعَبَدُوا من الأهواء أوثانا ، واتبعوا ما لم ينزل به ٱلله سلطانا ، ولو نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول وٱلله يعلم أعمالكم ؛ فمن انتهى من هؤلاء إلى فلسفة فاقتله ولا تسمع له قولا ، ولا تقبل منه صرفا ولاعدلا ، وليكن قتله على رءوس الأشهاد ، مابين حاضر وباد ، فما تَكَدَّرَتِ الشرائع بمثل مقالته ، ولاتدنست علومها بمثل أثر جهالته ، والمنتمى إليها يُعْرَفُ بنكره ، ويستدل عليه بظلمة كفره ، وتلك ظلمة تدرك بالقلوب لا بالأبصار ، وتظهر زيادتها ونقصها بحسب ما عند رائيها من الأنوار ، وما تجده من كتبها التى هى سموم ناقعة ، لاعلوم نافعة ، وأفاعى ملففة ، لا أقوال مؤلفة ؛ فاستأصل شأفتها بالتمزيق ، وافعل بها مايفعله ٱلله بأهلها من التحريق ؛ ولايقنعك ذلك حتى تجتهد فى تتبع آثارها ، والكشف عن مكامن أسرارها ؛ فمن وُجِدَتْ فى بيته فليؤخذ جهارا ، ولينكل به إشهاراً ، وليقل : هذا جزاء من استكبر استكباراً ، وَلَمْ يَرْجُ لله وَقاراً ، وأما من تَحَدَّثَ فى القَدَرِ ، وقال فيه بمخالفة نص الخبر ؛ فليس فى شيء من رِبْقَة الإسلام ، وإن تَنَسَّكَ بمداومة الصلاة والصيام ، قال النبى صلى ٱلله عليه وسلم : « الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هٰذِهِ الأُمَّةِ » . والمراد بذلك أنهم ماثلوا بين ٱلله والعبد والضياء والظلمة ، فعلاج هذه الطائفة أن تجزى بأن تُخْزَى فليقابل جمعها بالتكسير ، واسمها بالتصغير ، ولتنقل إلى ثقل الحدود عن خفة التعزير ، ومن كان منها ذا مكانة نابهة فليهبط ، أو شهادة عادلة فليسقط ، وكذلك يجرى الحكم فيمن قال بالتشبيه والتجسيم ، أوقال بحدوث القرآن القديم ،

ومن مُلْحِدِي القرآن فرقة فرقت بين المعنى والخط ، وفرقة قالت فيه بالشكل والنقط ، وكل هؤلاء قوم خَبُثَتْ سرائرهم ، وعميت بصائرهم ، وعظمت عند الله جرائمهم ، نخذهم بالتوبة التى تطهر أهلها ، وتجُبُّ ما قبلها ، وليست التوبة عبارة عن ذكرى ألسان ، والقلبُ لاهٍ فى قبضة النسيان ، بل هى عبارة عن الندم على مافات ، واستئناف الإخلاص فيما هوآت ، وقد جعل ألله التائب من أحبابه ، ووصفه فى مواضع كثيرة من كتابه ، ومن فضله أن الملائكة يستغفرون لذنبه ، ويشفعون له إلى ربه ، فإن أبَتْ هذه الطوائف إلا إصرارا ، ولم يزدهم دعاؤك إلا فراراً ؛ فاعلم أن ألله قد طبع على قلوبهم طبعا ، وألحقهم بالذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكره وكانوا لايستطيعون سمعاً ، نخذهم عند ذلك بحد الجلد ، فإن لم ينجع فبحد ذوات الحد ؛ فإن هذه أمراض عمى لا ترجى لها الإفاقة ، ولا تبرىء منها إلا الدماء المراقة .

وأما الفرقة المدعوة بالرافضة ، التى هى لما رفعه ألله خافضة ، فإنهم أناس ليس لهم من الدين إلا اسمه ، ولا من الإسلام إلا رَسْمه ، وإذا نُقِّبَ عن مذهبهم وجد على العصبية موضوعا ، ولغير ماشرعه الله ورسوله مشروعا ، ذبُّوا عَنْ علىٍّ رضى ألله عنه فأسلموه ، وأخروه إذ قدَّمُوه ، وهؤلاء وضعوا أحاديث فنقلوها ، وأولوها على ما أولوها ، فتبع الآخر منهم الأول على غمة ، وقالوا: إنَّا وجدنا آباءنا على أمة ، وههنا غير ماذكرناه من عقائد محلولة[1] ، ومذاهب غير منقولة ولا مقبولة ، وبالهدى يتبين طريق الضلال ، وبالصحة يظهر أثر الأعتلال ، ولا عقيدة إلا عقيدة السنة والكتاب ، ولا دين إلا دين العجائز الماء والمحراب .

وإذا فرغنا من الوصية بالأصول التى هى للدين مِلَاك ، فَلْنَتْبِعْهَا بالفروع التى هى له مِسَاك ، وأول ذلك الصلاة ، وهى فى مبانى الإسلام الخمس أوكد خَمْسِهِ ، وآخر ماوَصَّى به رسول ألله صلى ألله عليه وسلم عند مفارقة نَفْسِهِ ، ومن فضلها أنها العَمَلُ الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر ، ولا عذر فى تركها لأحد من

(١) كذا فى ا ، ب ، ج ؛ ولعلها « منحولة » .

الناس فيقال إنه يعذر ، فأجمع الناس إليها ، وأحملهم عليها ، ومُرْهم بالاجتماع لها فى المساجد ، ونادِ فيهم بفضيلة صلاة الجماعة على صلاة الواحد ، وراقبهم عند أوقات الأذان ، فى الأسواق التى هى معركة الشيطان ؛ فمن شغل بتثمير مكسبه ، ولَهَا عنها بالإقبال على لهوه ولعبه ؛ فَخُذْهُ بالآلة العمرية التى تَضَعُ من قَدْره ، وتُذِيقه وَبَالَ أمْرِهِ ، ولا يمنعك عن ذى هيبة هيبته ، ولا عن ذى شيبة شيبته ، فإنما أهلك ألذين قبلكم أنهم كانوا إذا سَرَق فيهم الشريفُ تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، ومِنْ مهمات الصلاة يوم الجمعة الذى هو فى الأيام بمنزلة الأعياد فى الأعوام ، وفيه الساعة المخصوصة بالدعاء المجاب ، التى ما صادفها عبد إلا ظفر بالطِّلاَب ، فمر الناس بابتداره فى البواكر ، والفوز فيه بقربان البدنات الأخاير ، فإنه اليوم الذى لم تطلع الشمس على مثله ، وبه فضل هذا الدين على أهل الكتاب من قبله ، فهو وَاسِطَةَ عِقْدِ الأيام السبعة ، ولاشتماله على مجموع فضلها سمى يوم الجمعة ، وفى الأعوام مواسم لصلوات مخصوصة كالتراويح فى شهر رمضان والرغائب فى أول جمعة من رجب وليلة النصف من شعبان ، فلتملأ المساجد فى هذه المواسم التى تكثر فيها شهادات الأقلام ، فى كَتْبِ الطاعات ومحو الآثام ، ومَنْ حَضَرَها وليس همه إلا أن يمر بها طروقا ، ويواعد إليه أخدانه رَفَثاً أو فسوقاً ؛ فهؤلاء هم الخَلْفُ الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فابعث عليهم قوماً يسلبونهم سلباً ، ويوجعونهم ضَرْباً ، ويملئون عيونهم مهابة وقلوبهم رعباً ، فبيوت ألله مطهرة من هذه الأدناس ، ولم تعمر لشياطين الإنس وإنما عمرت للناس ، فلا يحضرها إلا راكع وساجد ، أو ذاكر وحامد .

وههنا عظيمة عضيهة ، وفاحشة يفقه لها من ليست نفسه بفقيهة ، وهى الرِّبَا ؛ فإنه قد كثر أكله ، وتظاهر به فاعله ، وقال فساق الفقهاء بتأويله ، وتوصلوا إلى شبهة تحليله ، ولا يتسارع إلى ذلك إلا من أعمى الله قلبه ، ومَحَقَ كسبه ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « لعَنَ أللهُ اليهودَ حُرِّمَتْ عَلَيهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا

وَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا » ونحن نأمرك أن تشمر فى هـذا الأمر تشميراً يرهبه الناس[(١)]، ولا تدع ربًا حتى تضعه وأول ربا تضعه ربا العباس، فتأديب الكبير قاض بتهذيب الصغير، والأسوة بالرفيع خلاف الأسوة بالنظير، وجل معاملة الربا تجرى فى سوق الصرف الذى تختلف به النقود، وتفترض فيه العقود، ويخاض فى نار نيره إلى النار ذات الوقود، وبه قوم أوسعوا عيون الموازين غمزاً، وألسنتها همزاً ولمزا، وأصبح الدرهم والدينار عندهم بمنزلة الصنمين اللات والعُزَّى، ولا يُرَى منهم إلا مَنِ الحرصُ مُفَاضٌ على ثيابه، وقد جمع بين المعرفة بالحرام والهجوم على ارتكابه، فعَدِّل مَيْلَ هؤلاء تعديلا، وتَخَوَّلْهُمْ على مرور الأيام تخويلا، واعلم أنك قد وليت من الكيل والميزان أمرين هلكت فيهما الأمم السالفة فباشرهما بيدك مباشرة الاختيار والاختبار، ولا تُقِلْ أَهْلَهُمَا عَثْرَةً فإن الإقالة لاتنهى عن العِثَار، وكل هؤلاء من سواد الناس ممن لم يَزْكُ غَرْسُه، ولا فقهت نَفْسُه، وليس همه إلا فرجه أو ضِرْسُه، فخذهم بآلة التعزير التى هى نزاعة للشَّوَى، تدعو من أدبر وتولى، ومن آثارها أنها ترجّ أرض الرأس رجًّا، وتفرج سماءه فرجا، ويسلك بصاحبه هدياً ونهجا.

وقد كثر فى الأسواق الخِلَابة والنَّجْش وتَلَقِّى الرُّكْبَان وبَيْعُ الْحَاضِرِ للبادى وتَنْفِيق السِّلعة باليمين الكذابة، وكل هذه من المحظورات التى وردت الأخبار النبوية ببيانها، والنهى عن تورُّد مكانها، فَمَنْ قارف شيئاً منها جاهلاً بتحريمه فقوِّمه بالتعليم، واهده إلى الصراط المستقيم، ومَنْ عَرَفَ ما اقترف فأَذِقْهُ حَرَّ التأديب، قَبْلَ أن يُذَاق غداً حَرَّ التعذيب، وأعلمه أن الأرزاق بيد الله تعالى لاينقصها عجز القاعد ولا يزيدها حرص الكادح، وقد ينقلب الجاهد فيها بصفقة الخاسر والْوَادِعُ بصفقة الرابح، ومن سنة الله تعالى أن ينمى الحلال وإن كان يسيراً، ويَمْحَقَ الحرام وإن كان كثيراً، ومن الناس من آتاه الله مالاً فَبَثَّ فى الأسواق جنود ذهبه ووَرِقِهِ، واحتكر ماحمله الميزان من ذوات رطله ووسعه

(١) فى ا، ب، ج « برهة الباس » وما أثبتناه عن د.

الكيل من ذوات وسْقِه ، فأصْبَحَ فقراء بلده فى ضيق من عدم الرفق ، ومدد الرزق ، فليمنع هؤلاء أن يجعلوا رزق الله مُحْتَكَرا ، ومعاش عباده مُحْتَجَرا ، وليؤمروا بأن يتراحموا ، ولا يتزاحموا ، وأن يأخذ الغنى منهم بقدر الكَفَاف ، ويترك للفقير مايعينه على الإسعاف ، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لاحكرة فى سوقنا ، لايَعْمِدْ رجال بأيديهم فضول من أذهاب إلى رزق من أرزاق الله تعالى ينزل بساحتنا فيحتكرونه علينا ، ولكن أيُّما جَالب جلب على عمود كبده فذلك ضيف عمر فليبع كيف شاء الله وليمسك كيف شاء الله » وأما التسعير فإنه وإن آثره القاطنون ، وحكم به القاسطون ، وقيل : إن فى ذلك للفقير تيسير العسير ؛ فليس لأحد أن يكون يَدَ الله فى حفظ مارفع ، وبذل مامنع ، فقف أنت حيث أوقفك حكم الحق ، ودَعْ مايَعِنُّ لك من مصلحة الخلق ، ولا تكن ممن اتبع الرأى والنظر ، وترك الآية والخبر ، فحكمة الله مطوية فيما يأمر به على ألسنة رسله ، وليست مما يستنبطه ذو العلم بعلمه ولا يستدل عليه ذو العقل بعقله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

ومما نأمرك به أن تمحو الصغيرة ، كما تمحو الكبيرة ؛ فإن لَمَمَ الذنوب كالقطر يصير مُجْتَمِعُه سيلاً متدفقاً ، وكان أوله قَطْراً متفرقا .

وقد استمر فى الناس عوائد تهاونوا باستمرارها ، ولم ينظروا إلى ثقل أوْزَارِها ؛ فمن ذلك لُبْسُ الذهب والحرير الذى لم يلبسه إلا مَنْ عدم عند الله خَلاقاً ، وإن قيل إنه شعار للغنى فلم يزد صاحبه من الحسنات إلا إملاقا ، ولَلُبْسُ عباءة مع التقوى أحسن فى العيون شعاراً ، وأعظم فى الصدور وقاراً ، ويلتحق بهذه المعصية صَوْغُ الذهب والفضة آنيةً يمنع منها حق الصدقات وهو حق يُقَاتَلُ مانعه ، ويُعْصَى فى استعمالها أمْرُ الله وهو حدٌّ من حدوده يعاقب عاصيه ويثاب طائعه ، وكذلك يجرى الحكم فى الصور المرقومة فى البيوت والثياب ، وعلى الستور المعلقة على الأبواب ، وإخراجها فى ضروب أشكال الحيوان لملاعبة الصبيان ، وذلك مماثلة

لخلق الله فى التقدير ، ولهذا يؤمر صانعه بنفخ الروح فيما صوّره من التصوير .

ومما يغلظ نكيره إطالة الذيول للاجترار ، والمباهاة لما فيها من عنجهية التيه والاستكبار ، ولَنْ يَخْرِقَ صاحبُها الأرضَ بإعجابه ، ولا يبلغ طول الجبال بإطالة ثيابه ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللّهَ لاَ يَنْظُرُ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيلاَءَ » .

ومما هو أشد نكيراً أمر الحمامات ؛ فإن الناس قد أصروا بها على الإجهار ، وترك الاستتار ، والتهاون بأمر العورات التى لصاحبها اللعنة وله سوء الدار ، والنساء فى هذا المقام أشد تهالكاً من الرجال ، وقد ابتذلن أنفسهن حتى أفرطن فى فاحشة الابتذال ، ولهن مُحْدَثَات من المنكر أحدثها كثرة الإرفاه والإسراف ، وأهمل إنكارها حتى سرت فى الأوساط والأطراف ، وقد أحدثن الآن من الملابس ما لم يخطر للشيطان فى حساب ، وتلك من لباس الشُّهْرَة الذى لا يستر منه إسبال مِرْطٍ ولا إدناء جلباب ، ومن جملتها أنهن يَعْتَصِبْنَ عصائب كأمثال الأسنمة ، ويخرجن من جهارة أشكالها فى الصور المعلمة ، وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بها فيما ورد عنه من الأخبار ، وجعل صاحبها معدوداً من زمرة أصحاب النار .

ومما حِيدَ فيه عن السنن قراءةُ القرآن بضروب الألحان ، وتلك قراءة تخرج حروفها من غير مَخْرَج ، وتبدو معوجة وهو قرآن عربى غير ذى عِوَج ، وقد أمر الله بترتيله ، وإيراده على هيئة تنزيله ؛ فَمَنْ قرأه بالترجيع والترديد ، وزَلْزَلَ حروفه بالتمطيط والتمديد ؛ فقد ألحقه بدرجات الأغانى ، وذهب بما فيه من طلاوة الألفاظ والمعانى ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اقْرَءوا الْقُرْآنَ بِلُحُونِ الْعَرَبِ وَأَصْوَاتِهَا وَإِيَّاكُمْ وَلُحُونَ أَهْلِ الْفِسْقِ وَلُحُونَ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ ، وَسَيَجِيء بَعْدِى قَوْمٌ يُرَجِّعُونَ بِالْقُرْآنِ تَرْجِيعَ الْغِنَاءِ وَالنَّوْحِ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ ، مَفْتُونَةٌ قُلُوبُهُمْ وَقُلُوبُ الَّذِينَ يُعْجِبُهُمْ شَأْنُهُمْ » ويلتحق بذلك اقتناء الْقَيْنَاتِ المغنيات

اللاتى يلعبن بالعقول لعبهن بالأسماع ، ويُغْنِين الشيطانَ بغنائهن عن بثّ الجنود والأشياع ، وفُتْيَا النفس الأمارة فى ذلك أن تقول : هؤلاء إماء يحل نغمة سماعهن ، كما يحل ماتحت قناعهن ، وقد علم أن لكل شىء تماما ، وقد ينقلب الحلال فيصير حراما ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، قال النبى صلى الله عليه وسلم « لاَ تَبِيعُوا الْقَيْنَاتِ الْمُغَنِّيَاتِ وَلاَ تَشْتَرُوهُنَّ وَلاَ تُعَلِّمُوهُنَّ وَلاَ خَيْرَ فِي تِجَارَةٍ فِيهِنَّ وَثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ » وفى مثل هـذا أنزلت : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ) وكذلك يجرى الحكم فى المواشط اللاتى يجعلن الحسن موفوراً ، والقبح مستوراً ، ويخدعن نظر الناظر حتى يجعلنه مسحوراً ؛ فهن يُبْدِين صدقا من كذب ، وَجداً من لعب ، وفعلهن هذا من الغش الذى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، وقال : إنه ليس منه ، وقد لعَنَ الْوَاصِلَةَ والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والواشرة والمستوشرة ، ومِنْ غِشّ المنكرات أيضاً خِضَابُ الشَّيْب الذى يخالف فيه الظاهر الباطن ، ويتخلَّق صاحبه بخلق الكاذب الخائن ، وهَبْ أنه أخفى لون شعره وهل يخفى أخْلاَق لباسه ، وإذا استسَنّ ملائم المرء فلا يغنيه سواد عارضه ولا سواد راسه ، وقد جعل الله الشيب من نعمه المبشرة بطول الأعمار ، وسماه نوراً للونه وهدايته ولا تستوى الظلمات والأنوار ، قال النبى صلى الله عليه وسلم[١] الشيب أن يشتغل بتغيير صيغة الكتاب ، ويدأب فى محو سواد العقاب ببياض الثواب ، فى بقية عمره مندوحة لادخار مايُحْمَد ذخره ، وتبديل ماتقدم سطره .

ومما خولفت فيه السنة عقد مجالس التعازى لحضور الناس ، وإظهار شعار الأسود والأزرق من اللباس ، والتشبيه بالجاهلية فى النوح والندب ، ومجاوزة دمع العين وخشوع القلب إلى الإعلان بإسخاط الرب ، وقد تواطأ النساء على ضَرْب

---

(١) هكذا ورد فى ا ، ب ، ج ، د ؛ ونعتقد أنه قد سقط من جميع هذه النسخ الحديث النبوى الدال على فضيلة الشيب ، وقد يكون المؤلف بيض له ثم غفل عنه ، ومن الأحاديث فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « الشيب نور المؤمن ، لايشيب الرجل شيبة فى الإسلام إلا كانت له بكل شيبة حسنة ورفع بها درجة » .

الخيام على القبور ، وجعل الأعياد مواسم لاجتماع الزائر والمزور ، فصارت المآتم بينهم ولائم والمناذب عندهم مآدب ، وربما نشأ من ذلك مايغض طرفا ، ويجدع أنفا ، ويوجب حداً وقذفا .

وهكذا أهمل أمر الإسلام فى تشبيه أهل الذمة بأهله ، وما كانوا ليشابهوه فى زى غرته ويخالفوه فى سلوك سبله ، ولا بد من الغِيار بأن يَشُدَّ النصرانى عقدة زُناره ، ويُصَفِّر اليهودى أعلى إزاره ، وليمنعوا من الظاهر بطغيان النعمة وعلو الهمة ، ويؤمروا بالوقوف عند ماحكم عليهم من الأحكام ، وأخذوا فيه بالاختفاء والاكتتام ، فخمورهم تستر ، وشعائر دينهم لاتظهر ، وموتاهم تقبر بالخمول قبل أن تقبر ؛ فلا يوقد خلف ميتهم مصباح ، ولا يتبع بنَدْب ولا صياح .

ومما عرف الناس منكره إثارة التحريش بين الحيوانات ، وهى ذوات أكباد رطبة ، وأخلاق صعبة ، وما منها إلا مايحل أكله ، ولايحل قتله ، كالكبش والحجلة والديك والسمانى وما أشبهها ، وقد أكثر الناس من اقتنائها ، والمواظبة على إضرام شَحْنائها ، ولربما نشأ من ذلك فتنة تئول إلى ضراب ، وشق ثياب ، وإحداث شِجَاج ، وإثارة عَجَاج ، وتحزب إلى أحزاب كثيرة وأفواج .

ويتصل بهذه المنكرات المذكورة أشياء أخرى تجرى مَجْرَاها فى التقديم ، وتتنزل منزلتها فى التحريم ، فاحكم فيها بحكمك ، وامض فى شبهاتها بدليل علمك ، ونُبْ عنا فى التذكير والتحذير ، والتعريف والتنكير ، حتى يتقوَّمَ الأوَد ، ويتضح الرشد ، ويمكث فى الأرض ماينفع ويذهب الزَّبَد ، وليكن عملك لله الذى يسمع ويرى ، وله ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

واعلم أن الأمر بالمعروف عبادة يتعدى نفع صاحبها إلى غيره ، وتستضيف خير المأمور بها إلى خيره ، وهى الجهاد الأكبر الذى تقاتل فيه عواصى النفوس ، وتضرب به رءوس الشهوات التى هى أمنع من معاقد الرءوس ، فقتيله يحيا بقتله ، وجريحه يوسى بجراحة نصله ، وبمثل هذا الجهاد تستنزل أمْدَادُ النعم مضعفة ، كما تستنزل أمداد النصر مردفة ، فأقدِمْ عليه ذا عزم باتر ، وطرف ساهر ،

وقدم ثابت صابر ، حتى تظل لمعاقل الشيطان فاتحا ، وتكون فيمن دعا إلى الله وعمل صالحا .

واعلم أنك فى صبيحة كل يوم يَبْتَدِرُكَ المَلَكُ والشيطان ، وكل منهما يقول: يأيها الإنسان ، فإن أجبت نداء الملك كتبك فى زمرة من مهد لجنبه ، وخاف مقام ربه ، وعَرَج بك إلى الله طيبا نَشْرُه ، مُضَاعَفاً أجره ، وإن أجبت نداء الشيطان كتبك فى زمرة من أغواه ، وقَرَنَك بمن أغفل الله قلبه واتبع هواه ، ثم نزل به إلى الأرض خبيثاً مخبثاً ، وأقبل به على إخوانه من الشياطين محدثا .

وهذا آخر ماعهدناه إليك من العهد الذى طوقت اليوم بكتابه ، وستُنَاقش غداً على حسابه ، وكما جعلناه لك فى الدنيا ذكراً ، فاجعله لك فى الآخرة ذخراً ، إن شاء الله تعالى ؛ والسلام .

وهذا الذى ذكرته فى هذين من الكتاب والتقليد يتضمن إطنابا مستوفى الأقسام ، ولولا خوف الإطالة التى لاحاجة إليها لأوردت قصائد من الشعر أيضاً ، حتى لايخلو الموضع من ضرب أمثلة من المنظوم والمنثور ، لكن فى الذى ذكرته كفاية لمن يحمله على أشباهه ونظائره .

فان قيل : إن الإطناب فى الكلام قد وضعتموه اسما على غير مسمى ؛ فإن الكلام لايخلو من حالين : إما ألاَّ يزيد لفظه على معناه ، وهو الإيجاز ، أو يزيد لفظه على معناه ، وهو التطويل ، وليس ههنا قسم ثالث ، فما الإطناب إذاً ؟

قلت فى الجواب : اعلم أن الإيجاز هو ضد التطويل ، كما أن السواد ضد البياض ، غير أن بين الضدين مراتب ومنازل ليست أضداداً ؛ فالإطناب لا إيجاز هو ولا تطويل ، كما أن الحمرة أو الخضرة ليست بياضاً ولا سواداً ، وقد قدمنا القول أن الإطناب يأتى فى الكلام مؤكدا كالذى يأتى بزيادة التصوير للمعنى المقصود إما حقيقة وإما مجازا ، والتطويل ليس كذلك ؛ فإنه التعبير عن المعنى بلفظ زائد عليه يفهم ذلك المعنى بدونه ، فإذا حذفت تلك الزيادة بقى المعنى المعبر عنه على حاله لم يتغير منه شىء ، وهذا بخلاف الإطناب ؛ فإنه إذا حذفت منه

تلك الزيادة المؤكدة للمعنى تغير ذلك المعنى وزال ذلك التأكيد عنه ، وذهبت فائدة التصوير والتخييل التى تفيد السامع مالم يكن إلا بها ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) وهذا لايسمى إيجازاً ؛ لأنه أتى فيه بزيادة لفظ ، وهو ذكر الصدور ، وقد علم أن القلوب لاتكون إلا فى الصدور ، ولايسمى تطويلا ؛ لأن التطويل لا فائدة فيه أصلا ، وهذا فيه فائدة ، وهى ما أشرنا إليه ، وكذلك باقى أقسام الإطناب التى نبهنا عليها ، وهذا لا نزاع فيه .

النوع السابع عشر

فى التكرير

قد تقدم الكلام فى صدر كتابى هذا على تكرار الحروف ، وما [أشبه] ذلك مما يختلط بهذا النوع الذى هو تكرار المعانى والألفاظ .

واعلم أن هذا النوع من مقاتل علم البيان ، وهو دقيق المأخذ .

وحدّه هو : دلالة اللفظ على المعنى مردّدًا ، وربما اشتبه على أكثر الناس بالإطناب مرة ، وبالتطويل أخرى ، وقد تقدم الكلام على الفرق بين هذه الأنواع الثلاثة فى باب الإطناب ، فلا حاجة إلى إعادته ههنا ، وأما التكرير فقد عرفتكه .

وهو ينقسم قسمين : أحدهما يوجد فى اللفظ والمعنى ، والآخر يوجد فى المعنى دون اللفظ .

فأما الذى يوجد فى اللفظ والمعنى فكقولك لمن تستدعيه : أَسْرِعْ أَسْرِعْ ، ومنه قول أبى الطيب المتنبى (١) :

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها المغيث بن على العجلى ، وأولها قوله :

فُؤَادٌ مَا تُسَلِّيهِ الْمُدَامُ ... وَعُمْرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللِّئَامُ

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ جِيرَانِى وَمِثْلِى ... لِمِثْلِى عِنْدَ مِثْلِهِمُ مُقَامُ

وأما الذى يوجد فى المعنى دون اللفظ فكقولك : أَطِعْنِى ولا تَعْصِنِى ، فإن الأمر بالطاعة نهى عن المعصية .

وكل من هذين القسمين ينقسم إلى مفيد وغير مفيد ، ولا أعنى بالمفيد ههنا مايعنيه النحاة ؛ فإنه عندهم عبارة عن اللفظ المركب ؛ إما من الاسم مع الاسم ، بشرط أن يكون للأول بالثانى علاقة معنى يسع مكلفاً جهله ، وإما من الاسم مع الفعل التام المتصرف ، على هذا الشرط أيضاً ، وإما من حرف النداء مع الاسم ؛ فهذا هو المفيد عند النحاة ، وأنا لم أقصد ذلك ههنا ، بل مقصودى من المفيد أن يأتى لمعنى ، وغير المفيد أن يأتى لغير معنى .

واعلم أن المفيد من التكرير يأتى فى الكلام تأكيداً له ، وتشييداً من أمره ، وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشىء الذى كررت فيه كلامك ؛ إما مبالغة فى مدحه أو فى ذمه ، أو غير ذلك ، ولا يأتى إلا فى أحد طرفى الشىء المقصود بالذكر ، والوسط عارٍ منه ؛ لأن أحد الطرفين هو المقصود بالمبالغة إما بمدح أو ذم أو غيرهما ، والوسط ليس من شرط المبالغة ؛ وغير المفيد لا يأتى فى الكلام إلا عيًّا وخَطَلاً من غير حاجة إليه .

فأما الأول ــ وهو الذى يوجد فى اللفظ والمعنى ــ فإنه ينقسم إلى ضربين : مفيد ، وغير مفيد .

فالأول المفيد وهو فرعان : الأول : إذا كان التكرير فى اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد ، والمقصود به غرضان مختلفان ، كقوله تعالى : (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) هذا تكرير فى اللفظ والمعنى ، وهو قوله :

(يحق الحق) و (ليحق الحق) ، إنما جيء به ههنا لاختلاف المراد ، وذلك أن الأول تميز بين الإرادتين ، والثانى بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها ، وأنه مانصرهم وخذل أولئك إلا لهذا الغرض .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ ٱلدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِى فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ) فكرر قوله تعالى : (قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) وقوله : (قل الله أعبد مخلصاً له دينى) والمراد به غرضان مختلفان ، وذلك أن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالعبادة له والإخلاص فى دينه ، والثانى إخبار بأنه يخصُّ الله وحده دون غيره بعبادته مخلصاً له دينه ؛ ولدلالته على ذلك قدّم المعبود على فعل العبادة فى الثانى ، وأخّره فى الأول ؛ لأن الكلام أولاً واقع فى الفعل نفسه وإيجاده ، وثانياً فيمن يفعل الفعل من أجله ، ولذلك رتب عليه (فاعبدوا ماشئتم من دونه)

وعليهورد قوله تعالى: (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ) وظاهر الأول والثانى أنهما سواء فى المعنى ، وليس كذلك ؛ لأن الثانى فيه تخصيص غير موجود فى الأول ، ألا ترى أنا إذا قلنا : زيد الأفضل ، وقلنا : الأفضل زيد ، كان فى الثانى تخصيص له بالفضل ، وهذا التخصيص لايوجد فى القول الأول ألذى هو زيد الأفضل ، ويجوز أن تبدل صفة الفضل فيه بغيرها أو بضدها ؛ فيقال : زيد الأجمل ، أو زيد الأنقص ، وإذا قلنا : الأفضل زيد ، وجب تخصيصه بالفضل ، ولم يمكن تغييره عنه ، وكذلك يجرى الحكم فى هذه الآية ؛ فإن ألله تعالى قال : (إنما المؤمنون ألذين آمنوا بألله ورسوله) ، ثم قال : (لم يذهبوا حتى يستأذنوه) فوصفهم بالامتناع عن الذهاب

إلا بإذنه ، وهذه صفة يجوز أن تبدل بغيرها من الصفات ، كما قال تعالى فى موضع آخر : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) فجاء بصفة غير تلك الصفة ، ولما قال : (إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) وجب تخصيصهم بذلك الوصف دون غيره ؛ وهذا موضع حسن فى تكرير المعانى .

ومما يُعَدّ من هذا الباب قوله تعالى : (قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) وقد ظن قوم أن هذه الآية تكرير لا فائدة فيه ، وليس الأمر كذلك ؛ فإن معنى قوله (لا أعبد) يعنى فى المستقبل : من عبادة آلهتكم ، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلبه منكم من عبادة إلهى ، (ولا أنا عابد ما عبدتم) أى : وما كنت عابداً قط فيما سلف ما عبدتم فيه ، يعنى أنه لم يعهد منى عبادة صنم فى الجاهلية فى وقت مّا فكيف يرجي ذلك منى فى الإسلام ؟ (ولا أنتم عابدون) فى الماضى فى وقت مّا ما أنا على عبادته الآن .

ومما يجرى هذا المجرى قوله تعالى : (بسم الله الرحمن الرحيم الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) فكرر (الرحمن الرحيم) مرتين والفائدة فى ذلك أن الأول يتعلق بأمر الدنيا ، والثانى يتعلق بأمر الآخرة ؛ فما يتعلق بأمر الدنيا يرجع إلى خلق العالمين فى كونه خَلَق كلاًّ منهم على أكمل صفة ، وأعطاه جميع ما يحتاج إليه ، حتى البقة والذباب ، وقد يرجع إلى غير الخلق كإدرار الأرزاق وغيرها ، وأما مايتعلق بأمر الآخرة فهو إشارة إلى الرحمة الثانية فى يوم القيامة الذى هو يوم الدين .

وبالجملة فاعلم أنه ليس فى القرآن مكرر لا فائدة فى تكريره ؛ فإن رأيت شيئاً منه تكرر من حيث الظاهر فأنعم نظرك فيه ؛ فانظر إلى سوابقه ولواحقه ؛ لتنكشف لك الفائدة منه .

ومما ورد فى القرآن الكريم مكرراً قوله تعالى : (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) [فكرر قوله : (فاتقوا الله وأطيعون)] ليؤكده عندهم ويقرره فى نفوسهم ، مع تعليق كل واحد منهما بعلة ؛ فجعل علة الأول كونه أميناً فيما بينهم، وجعل علة الثانى حَسْمَ طمعه عنهم ، وخُلُوَّه من الأغراض فيما يدعوهم إليه .

ومن هذا النحو قوله تعالى : (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ) وإنما كرر تكذيبهم ههنا لأنه لم يأت به على أسلوب واحد ، بل تنوع فيه بضروب من الصنعة ؛ فذكره أولاً فى الجملة الخبرية على وجه الإبهام ، ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه بأن كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل ؛ لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم فقد كذبوا جميعهم ، وفى تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه والتنوع فى تكريره بالجملة الخبرية أولاً وبالاستثنائية ثانياً وما فى الاستثناء من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص المبالغةُ المسجّلة عليهم باستحقاق أشد العذاب وأبلغه .

وهذا باب من تكرير اللفظ والمعنى حسن غامض ، وبه يعرف مواقع التكرير، والفرق بينه وبين غيره ؛ فافهمه إن شاء الله تعالى .

الفرع الثانى من الضرب الأول : إذا كان التكرير فى اللفظ والمعنى يدلّ على معنى واحد ، والمراد به غرض واحد ؛ كقوله تعالى : (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) والتكرير دلالة [على] التعجب من تقديره وإصابته الغرض ، وهذا كما يقال : قتله الله ما أشجعه ! أو ما أشعره ! وعليه ورد قول الشاعر :

* أَلاَ يَا أُسْلَمِي ثُمَّ أُسْلَمِي ثُمَّتَ أُسْلَمِي (١) *

وهذا مبالغة فى الدعاء لها بالسلامة ، وكل هذا يجاء به لتقرير المعنى المراد وإثباته .

وعليه ورد الحديث النبوى ؛ وذاك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ بَنِي هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُونِي أَنْ يُنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ عَلِيًّا فَلاَ آذَنُ ثُمَّ لاَ آذَنُ ثُمَّ لاَ آذَنُ إِلاَّ أَنْ يُطَلِّقَ عَلِيٌّ ابْنَتِي وَيَنْكِحَ ابْنَتَهُمْ » فقوله : « لا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن » من التكرير الذى هو أشد موقعاً من الإيجاز ؛ لانصباب العناية إلى تأكيد القول فى منع علىّ رضى الله عنه من التزوج بابنة أبى جهل ابن هشام .

وهذا مثل قوله تعالى : (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) ومن أجل ذلك نقول : لا إلَهَ إلاَّ الله وحده لا شريك له ؛ لأن قولنا : « لا إلَهَ إلاَّ الله » مثل قولنا : « وحده لا شريك له » وهما فى المعنى سواء ، وإنما كررنا القول فيه لتقرير المعنى وإثباته ، وذاك لأن مِنَ الناس مَنْ يخالف فيه كالنصارى والثَّنَوِية ، والتكرير فى مثل هذا المقام أبلغ من الإيجاز ، وأحسن ، وأسَدُّ موقعاً .

ومما جاء فى مثل هذا قوله تعالى : (وَاللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ) فقوله : (من قبله) بعد قوله : (من قبل) فيه دلالة على أن عهدهم بالمطر قد بعد وتطاول ؛ فاستحكم بأسهم ، وتمادى إبلاسهم ، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك .

وعلى ذلك ورد قوله تعالى : (قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ

---

(١) عجز هذا البيت قوله :

* ثَلاَثَ تَحِيَّاتٍ وَإِنْ لَمْ تَكَلَّمِي *

الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ) فقوله : (لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) يقوم مقام قوله : (ولا يدينون دين الحق) لأن مَنْ لايؤمن بالله ولا باليوم الآخر لايدين دين الحق ، وإنما كرر ههنا للخطب على المأمور بقتالهم ، والتسجيل عليهم بالذم ، ورجمهم بالعظائم ؛ ليكون ذلك أدْعَى لوجوب قتالهم وحربهم ، وقد قلنا : إن التكرير إنما يأتى لما أهَمَّ من الأمر الذى بِصَرْفِ العناية إليه يثبت ويتقرر .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) فتكرير لفظة (أولئك) من هذا الباب الذى أشرنا إليه ؛ لمكان شدة النكير ، وإغلاظ العقاب بسبب إنكارهم البعث .

وعلى هذا ورد قوله تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ) فإنه إنما تكررت لفظة (هم) للإيذان بتحقيق الْخَسار ، والأصل فيها وهم فى الآخرة الأخسرون ؛ لكن لما أريد تأكيد ذلك جىء بتكرير هذه اللفظة المشار إليها .

وكذلك قوله تعالى : (فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا) .

وأمثال هذا فى القرآن كثير .

وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة القصص : (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ) فقوله تعالى : (فلما أن أراد أن يبطش) بتكرير أنْ مرتين دليل على أن موسى عليه السلام لم تكن مسارعته إلى قتل الثانى كما كانت مسارعته إلى قتل الأول ، بل كان عنده إبطاء فى بَسْط يده إليه ، فعبر

القرآن عن ذلك فى قوله تعالى : (فلما أن أراد أن يبطش) .

وجرت بينى و بين رجل من النحويين مفاوضة فى هذه الآية ؛ فقال : إن أنْ الأولى زائدة ، ولو حذفت فقيل فلما أراد أن يبطش لكان المعنى سواء ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ) وقد اتفق النحاة على أنّ أنْ الواردة بعد لمّا وقبل الفعل زائدة ، فقلت له : النحاة لا فُتْيَا لهم فى مواقع الفصاحة والبلاغة ، ولا عندهم معرفة بأسرارهما ، من حيث إنهم نحاة ، ولا شك أنهم وَجَدُوا أنْ ترد بعد لمّا وقبل الفعل فى القرآن الكريم وفى كلام فصحاء العرب فظنوا أن المعنى بوجودها كالمعنى إذا أسقطت ، فقالوا : هذه زائدة ، وليس الأمر كذلك ، بل إذا وردت لمّا وورد الفعل بعدها بإسقاط أنْ دلّ ذلك على الفور ، وإذا لم تسقط لم يدلنا ذلك على أن الفعل كان على الفور ، وإنما كان فيه تراخٍ و إبطاء .

و بيان ذلك من وجهين :

أحدهما : أنى أقول : فائدة وضع الألفاظ أن تكون أدلّة على المعانى ، فإذا أوردت لفظة من الألفاظ فى كلام مشهود له بالفصاحة والبلاغة فالأَوْلَى أن تحمل تلك اللفظة على معنى ، فإن لم يوجد لها معنى بعد التنقيب والتنقير والبحث الطويل قيل : هذه زائدة دخولها فى الكلام كخروجها منه ، ولما نظرت أنا فى هذه الآية وجدت لفظة « أنْ » الواردة بعد « لمّا » وقبل الفعل دالة على معنى ، وإذا كانت دالة على معنى فكيف يسوغ أن يقال : إنها زائدة .

فإن قيل : إنها إذا كانت دالة على معنى فيجوز أن تكون دالة على غير ما أشرت أنت إليه .

قلت فى الجواب : إذا ثبت أنها دالّة على معنى فالذى أشرت إليه معْنًى مناسب واقع فى موقعه ، و إذا كان مناسباً واقعاً فى موقعه فقد حصل المراد منه ، ودلّ الدليل حينئذ أنها ليست بزائدة .

الوجه الآخر : أن هذه اللفظة لو كانت زائدة لكان ذلك قدحاً فى كلام الله تعالى ، وذلك أنه يكون قد نطق بزيادة فى كلامه لاحاجة إليها ، والمعنى يتم بدونها ، وحينئذ لايكون كلامه معجزاً ؛ إذ من شرط الإعجاز عدم التطويل الذى لا حاجة إليه ، وإن التطويل عيب فى الكلام ، فكيف يكون ماهو عيب فى الكلام من باب الإعجاز ؟ هذا محال .

وأما قوله تعالى : (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ) فإنه إذا نظر فى قصة يوسف عليه السلام مع إخوته منذ ألقوه فى الجب وإلى أن جاء البشير إلى أبيه عليه السلام وجد أنه كان ثَمَّ إبطاء بعيد ، وقد اختلف المفسرون فى طول تلك المدة ، ولو لم يكن ثَمَّ مدة بعيدة وأَمَدٌ مُتَطَاول لما جىء بأنْ بعد لمّا وقبل الفعل ، بل كانت تكون الآية فلما جاء البشير ألقاه على وجهه .

وهذه دقائق ورموز لا تؤخذ من النحاة ؛ لأنها ليست من شأنهم .

واعلم أن من هذا النوع قسماً يكون المعنى فيه مضافاً إلى نفسه مع اختلاف اللفظ ، وذلك يأتى فى الألفاظ المترادفة ، وقد ورد فى القرآن الكريم ، واستعمل فى فصيح الكلام .

فمنه قوله تعالى : (وَالَّذِينَ سَعَوْا فى آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ) والرجز هو العذاب .

وعليه ورد قول أبى تمام[1] :

نَهُوضٌ بِثِقْلِ الْعِبْءِ مُضْطَلِعٌ بِهِ وَإِنْ عَظُمَتْ فِيهِ الْخُطُوبُ وَجَلَّتِ

والثقل : هو العبء ، والعبء : هو الثقل ، وكذلك ورد قول البحترى[2] :

(١) من قصيدة له يمدح فيها حبيش بن المعافى ، وأولها قوله :

نُسَائِلُهَا أَىَّ الْمَوَاطِنِ حَلَّتِ وَأَىَّ بِلَادٍ أَوْطَنَتْهَا وَأَيَّتِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها المتوكل ، وأولها قوله :

مَتَى لَاحَ بَرْقٌ أَوْ بَدَا طَلَلٌ قَفْرُ جَرَى مُسْتَهِلٌّ لَا بَكِىٌّ وَلَا نَزْرُ

وَيَوْمَ تَثَنَّتْ لِلْوَدَاعِ وَسَلَّمَتْ بِعَيْنَيْنِ مَوْصُولٍ بِلَحْظِهِمَا السِّحْرُ
تَوَهَّمْتُهَا أَلْوَى بِأَجْفَانِهَا الْكَرَى كَرَى النَّوْمِ أَوْ مَالَتْ بِأَعْطَافِهَا الْخَمْرُ

فإن الكرى هو النوم .

وربما أشكل هذا الموضع على كثير من متعاطى هذه الصناعة وظنوه مما لا فائدة فيه ، وليس كذلك ، بل الفائدة فيه هى التأكيد للمعنى المقصود ، والمبالغة فيه .

أما الآية فالمراد بقوله تعالى : (عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ) أى : عذاب مُضاعف من عذاب .

وأما بيت أبى تمام فإنه تضمن المبالغة فى وصف الممدوح بحمله للأثقال .

وأما بيت البحترى فإنه أراد أن يشبه طَرْفَها لِفُتُوره بالنائم ؛ فكرر المعنى فيه على طريق المضاف والمضاف إليه تأكيداً له وزيادة فى بيانه .

وهذا الموضع لم ينبه عليه أحد سواى .

ولربما أدخل فى التكرير من هذا النوع ما ليس منه ، وهو موضع لم ينبه عليه أيضاً أحد سواى .

فمنه قوله تعالى : (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) فلما تكرر (إن ربك) مرتين عُلم أن ذلك أدل على المغفرة .

وكذلك قوله تعالى : (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) .

ومثل هذا قوله تعالى : (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ) .

وهذه الآيات يظن أنها من باب التكرير ، وليست كذلك ، وقد أنعمت

نظرى فيها فرأيتها خارجةً عن حكم التكرير ، وذاك أنه إذا طال الفصل من الكلام ، وكان أوله يفتقر إلى تمام لايفهم إلا به ؛ فالأولَى فى باب الفصاحة أن يُعَاد لفظ الأول مرة ثانية ؛ ليكون مقارنا لتمام الفصل ؛ كى لايجىء الكلام منثوراً ؛ لا سيما فى إنَّ وأخواتها ؛ فإذا وردت إنَّ وكان بين اسمها وخبرها فُسْحَة طويلة من الكلام فإعادة إنَّ أحسن فى حكم البلاغة والفصاحة ؛ كالذى تقدم من هذه الآيات .

وعليه ورد قول بعضهم من شعراء الحماسة[1] :

أَسِجْناً وَقَيْدًا وَاشْتِياقًا وَغُرْبَةً ... وَنَأْىَ حَبِيبٍ إِنَّ ذَا لَعَظِيمُ
وَإِنَّ امْرَأً دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ ... عَلَى مِثْلِ هَـٰذَا إِنَّهُ لَكَرِيمُ

فإنه لما طال الكلام بين اسم إنَّ وخبرها أعيدت إنَّ مرة ثانية ؛ لأن تقدير الكلام ، وإنَّ امرأ دامت مواثيق عهده على مثل هذا لكريمٌ ؛ لكن بين الأسم والخبر مَدًى طويل ؛ فإذا لم تُعَدْ إنَّ مرة ثانية لم يأت على الكلام بَهْجَة ولا رَوْنَقٌ ، وهذا لايتنبه لاستعماله إلا الفصحاء إما طبعاً وإما علماً .

وكذلك يجرى الأمر إذا كان خبر إنَّ عاملا فى معمول يَطُول ذكره ؛ فإن إعادة الخبر ثانية هو الأحسن .

وعلى هذا جاء قوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام : (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ) فلما قال (إنى رأيت) ثم طال الفصل كان الأحسن أن يعيد لفظ الرؤية فيقول (رأيتهم لى ساجدين) .

وكذلك جاءت الآية المذكورة ههنا قبل هذه ، وهى قوله تعالى : (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا) فإنه لما طال الفصل أعاد قوله (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) فاعلم ذلك ، وضع يدك عليه .

(١) انظر البيتين فى الحماسة (شرح التبريزى : ٣ — ٢٧٠)

وكذلك الآية التى قبلها ، وهى قوله تعالى : (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ) .

وكذلك الآية الأخرى ، وهى : (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا) .

ومن باب التكرير فى اللفظ والمعنى الدال على معنى واحد قوله عز وجل : (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) ؛ فإنه إنما كرر نداء قومه ههنا لزيادة التنبيه لهم والإيقاظ عن سِنَة الغَفْلة ، ولأنهم قومه وعشيرته ، وهم فيما يُوبِقهم من الضلال ، وهو يعلم وَجْهَ خلاصهم ، ونصيحتُهُمْ عليه واجبة ؛ فهو يتحزن لهم ، ويتلطف بهم ، ويستدعى بذلك ألاّ يتهموه ؛ فإن سرورهم سروره ، وغمهم غمه ، وأن ينزلوا على نصيحته لهم ، وهذا من التكرير الذى هو أبلغ من الإيجاز ، وأسد موقعاً من الاختصار ؛ فاعرفه إن شاء الله تعالى .

وعلى نحو منه جاء قوله تعالى فى سورة القمر : (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) فإنه قد تكرر ذلك فى السورة كثيراً ، وفائدته أن يجدِّدوا عند استماع كل نبا من أنباء الأولين ادّكاراً وإيقاظاً ، وأن يستأنفوا تَنَبُّهاً واستيقاظا إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث إليه ، وأن تُقْرَعَ لهم العصا مرّاتٍ لئلا يغلبهم السهو وتستولى عليهم الغفلة .

وهكذا حكم التكرير فى قوله تعالى فى سورة الرحمن : (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) وذلك عند كل نعمة عَدَّدها على عباده .

وأمثال هذا فى القرآن الكريم كثير .

ومما ورد من هذا النوع شعراً قول بعض شعراء الحماسة(١) :

---

(١) البيت من كلة نسبها أبو تمام لخلف بن خليفة مولى قيس بن ثعلبة (انظر شرح التبريزى : ٤ – ٢٧٩)

إِلَى مَعْدِنِ الْعِزِّ الْمُؤَثَّلِ وَالنَّــدَى هُنَاكَ هُنَاكَ الْفَضْلُ وَالْخُلُقُ الْجَزْلُ

فقوله « هناك هناك » من التكرير الذى هو أبلغ من الإيجاز ؛ لأنه فى معرض مدح ، فهو يقرر فى نفس السامع ما عند الممدوح من هذه الأوصاف المذكورة مشيراً إليها ، كأنه قال : أدلكم على معدن كذا وكذا ومقره ومفاده .

وكذلك ورد قول المساور بن هند :

جَزَى اللهُ عَنِّى غَالِباً مِنْ عَشِيرَةٍ إِذَا حَدَثَانُ الدَّهْرِ نَابَتْ نَوَائِبُهْ

فَكَمْ دَافَعُوا مِنْ كُرْبَةٍ قَدْ تَلَاحَمَتْ عَلَىَّ وَمَوْجٍ قَدْ عَلَتْنِى غَوَارِبُهْ

فصدر البيت الثانى وعجزه يدلان على معنى واحد ؛ لأن تلاحم الكرب عليه كتعالى الموج من فوقه ، وإنما سوغ ذلك لأنه مقام مدح وإطراء ، ألا ترى أنه يصف إحسان هؤلاء القوم عند حَدَثَان دهره فى التكرير ، وفى قبالته لو كان القائل هاجيا ؛ فإن الهجاء فى هذا كالمدح ، والتكرير إنما يحسن فى كلا الطرفين ، لا فى الوسط .

واعلم أنه إذا وردت « إِنِ » المكسورة المخففة بعد « ما » كانت بمعناها سواء ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ) فإنْ وما بمعنى واحد ، وإذا أوردت من بعد ما كانت من باب التكرير ، كقولنا : ما إنْ يَكُونُ كذا وكذا : أى ما يكون كذا وكذا ، وإذا وردت فى الكلام فإنما ترد في مثل ما أشرنا إليه من التكرير ؛ فإن استعملت فى غير ما يكون منها لفائدة ينتجها تكريرها كان استعمالها لغوا لا فائدة فيه .

وقد زعم قوم من مدعى هذه الصناعة أن أبا الطيب المتنبي أتى فى هذا البيت بتكرير لا حاجة به إليه ، وهو قوله[1] :

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا عبيد الله محمد بن عبد الله القاضى الأنطاكى ، وأولها قوله :

أَفَاضِلُ النَّاسِ أَغْرَاضٌ لِذَا الزَّمَنِ يَخْلُو مِنَ الْهَمِّ أَخْلَاهُمْ مِنَ الْفِطَنِ

الْعَارِضُ الْهَتِنُ ابْنُ الْعَارِضِ الْهَتِنِ ابْـــنِ الْعَارِضِ الْهَتِنِ ابْنِ الْعَارِضِ الْهَتِنِ

وليس فى هذا البيت من تكرير؛ فإنهُ كقولك: الموصوف بكذا وكذا ابن الموصوف بكذا وكذا: أى أنهُ عريق النسب فى هذا الوصف .

وقد ورد فى الحديث النبوى مثل ذلك ؛ كقول النبى صلى الله عليه وسلم فى وصف يوسف الصديق عليه السلام : «الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحٰقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ» .

ولقد فاوضنى فى هذا البيت المشار إليه بعض علماء الأدب ، وأخذ يطعن فيه من جهة تكراره ، فوقفته على مواضع الصواب منه ، وعرفته أنه كالخبر النبوى من جهة المعنى سواء بسواء ، لكن لفظه ليس بمرضىّ على هذا الوجه الذى قد استعمل فيه ؛ فإنّ الألفاظ إذا كانت حِسَاناً فى حال انفرادها فإن استعمالها فى حال التركيب يزيدها حسناً على حسنها ، أو يذهب ذلك الحسن عنها ، وقد تقدم الكلام على ذلك فى المقالة الأولى من الصناعة اللفظية ، ولو تهيأ لأبى الطيب المتنبى أن يبدل لفظة العارض بلفظة السحاب ، أو ما يجرى مجراها ؛ لكان أحسن ، وكذلك لفظة الْهَتِنِ ، فإنها ليست بمرضية فى هذا الموضع على هذا الوجه ، ولفظة العارض وإن كانت قد وردت فى القرآن وهى لفظة حسنة فالفرق بين ورودها فى القرآن الكريم وورودها فى هذا البيت الشعرى ظاهر ؛ وقد تقدم الكلام على مثلها من آية وبيت لأبى الطيب أيضاً ، وهو فى المقالة اللفظية عند الكلام على الألفاظ المفردة فليؤخذ من هناك ، وكثيراً ما يقع الجهالُ فى مثل هذه المواضع ، وهم الذين قيل فيهم :

وَكَذَا كُلُّ أَخِى حَـــذْلَقَةٍ مَا مَشَى فِى يَابِسٍ إِلاَّ زَلَقْ

فترى أحدهم قد جمع نفسه وظنّ على جهله أنه عالم ، فيسرع فى وصف كلام بالإيجاز وكلام بالتطويل أو بالتكرير ، وإذا طولب بأن يبدى سبباً لما ذكره

لم يوجد عنده من القول شيء إلا تحكما محضاً صادراً عن جهل محض .

الضرب الثانى من التكرير فى اللفظ والمعنى ، وهو غير المفيد ؛ فمن ذلك قول مَرْوَان الأصغر :

سَقَى اللهُ نَجْدًا وَالسَّلَامُ عَلَى نَجْدِ وَيَا حَبَّذَا نَجْدٌ عَلَى النَّأْيِ وَالْبُعْدِ
نَظَرْتُ إِلَى نَجْدٍ وَبَغْدَادُ دُونَهَا لَعَلِّي أَرَى نَجْدًا وَهَيْهَاتَ مِنْ نَجْدِ

وهذا من العىّ الضعيف ؛ فإنه كرر ذكر نجد فى البيت الأول ثلاثاً ، وفى البيت الثانى ثلاثاً ، ومراده فى الأول الثناء على نجد ، وفى الثانى أنه تلفت إليها ناظراً من بغداد ، وذلك مَرْمًى بعيد ، وهـــذا المعنى لا يحتاج إلى مثل هذا التكرير ؛ أما البيت الأول فيُحْمَل على الجائز من التكرير ؛ لأنه مقام تشوق وتحرق ومَوْجِدَة بفراق نجد ، ولما كان كذلك أجيز فيه التكرير ، على أنه قد كان يمكنه أن يصوغ هذا المعنى الوارد فى البيتين معاً من غير أن يأتى بهذا التكرير المتتابع ست مرات .

وعلى هذا الأسلوب ورد قول أبى نواس(١) :

أَقَمْنَا بِهَا يَوْماً وَيَوْماً وَثَالِثاً وَيَوْماً لَهُ يَوْمُ التَّرَحُّلِ خَامِسُ

ومراده من ذلك أنهم أقاموا بها أربعة أيام ، ويا عجبا له يأتى بمثل هذا البيت السخيف الدال على العىّ الفاحش فى ضمن تلك الأبيات(١) العجيبة الحسن التى تقدم ذكرها فى باب الإيجاز ، وهى :

* وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَدْلَجُوا *

ومن هذا الباب أيضا ما أوردناه فى صدر هـــذا النوع وهو قول أبى الطيب(٢) المتنبى :

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ جِيرَانِي وَمِثْـــلِي لِمِثْلِي عِنْدَ مِثْلِهِمُ مُقَـــامُ

(١) انظر الكلمة التى منها هذا البيت فى (ص ١٢٢) من هذا الجزء
(٢) مضى هذا البيت فى (ص ١٥٨) من هذا الجزء

فهذا هو التكرير الفاحش الذى يؤثر فى الكلام نقصاً ، ألا ترى أنه يقول : لم أر مثل جيرانى فى سوء الجوار ، ولا مثلى فى مصابرتهم ومقامى عندهم ، إلا أنه قد كرر هذا المعنى فى البيت مرتين .

وعلى نحو من ذلك جاء قوله أيضاً :

وَقَلْقَلْتُ بِالْهَمِّ الَّذِى قَلْقَلَ الْحَشَى قَلَاقِلَ عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلَاقِلُ

وأما القسم الثانى من التكرير ، وهو الذى يوجد فى المعنى دون اللفظ ؛ فذلك ضربان : مفيد ، وغير مفيد .

الضرب الأول : المفيد ، وهو فرعان .

الأول : إذا كان التكرير فى المعنى يدل على معنيين مختلفين ، وهو موضع من التكرير مشكل ؛ لأنه يسبق إلى الوهم أنه تكرير يدل على معنى واحد .

فمما جاء منه حديث حاطب بن أبى بَلْتَعَة فى غزوة الفتح ، وذاك أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر على بن أبى طالب والزُّبَيْر والمِقْدَاد رضى الله عنهم فقال : « اذهبوا إلى رَوْضَة خاخ ؛ فإن بها ظَعِينَةً معها كتاب ، فأتونى به » قال على رضى الله عنه : فخرجنا تتعادى بنا خَيْلُنَا حتى أتينا الروضة ، وإذا فيها الظعينة ، فأخذنا الكتاب من عقاصها ، وأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا هو من حَاطِب بن أبى بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ما هذا يا حاطب ؟ فقال : يا رسول الله ، لا تعجل على ، إنى كنت أمرأ ملصقاً فى قريش ، ولم أكن من أنفسهم ، وكان مَنْ معك من المهاجرين لهم قرابة يَحْمُون بها أموالهم وأهليهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كُفْرًا ، ولا ارْتِدَادًا عن دينى ، ولا رِضاً بالكفر بعد الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّهُ قَدْ صَدَقَكُم » فقوله : ما فعلت ذلك كفرا ، ولا ارتدادا عن دينى ، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ، من التكرير

الحسن ، و بعضُ الجهال يظنه تكريراً لا فائدة فيه ، فإن الكفر والارتداد عن الدين سواء ، وكذلك الرضا بالكفر بعد الإسلام ، وليس كذلك ، والذى يدل عليه اللفظ هو أنى لم أفعل ذلك وأنا كافر : أى باق على الكفر ، ولا مرتداً : أى أنى كفرت بعد إسلامى ، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام : أى ولا إيثاراً لجانب الكفار على جانب المسلمين ، وهذا حسن فى مكانه ، واقع فى موقعه ؛ وقد يحمل التكرير فيه على غير هذا الفرع الذى نحن بصدد ذكره ههنا ، وهو الذى يكون التكرير فيه يدل على معنى واحد ، وسيأتى بيانه فى الفرع الثانى الذى يلى هذا الفرع الأول ، والذى يجوزه أن هذا المقام هو مقام اعتذار وتنصُّل عما رُمِى به من تلك القارعة العظيمة التى هى نِفَاق و كفر ؛ فكرر المعنى فى اعتذاره قَصْدًا للتأكيد والتقرير لما ينفى عنه ما رمى به .

ومما ينتظم بهذا السلك أنه إذا كان التكرير فى المعنى يدلّ على معنيين أحدهما خاص والآخر عام كقوله تعالى : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) فإن الأمر بالمعروف داخل تحت الدعاء إلى الخير ؛ لأن الأمر بالمعروف خاص ، والخير عام ، فكل أمر بالمعروف خير ، وليس كل خير أمراً بالمعروف ، وذاك أن الخير أنواع كثيرة من جملتها الأمر بالمعروف ، ففائدة التكرير ههنا أنه ذكر الخاص بعد العام للتنبيه على فضله ، كقوله تعالى : (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى) وكقوله تعالى : (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) وكقوله تعالى : (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا) فإن الجبال داخلة فى جملة الأرض ، لكن لفظ الأرض عام ، والجبال خاص ، وفائدته ههنا تعظيم شأن الأمانة المشار إليها ، وتفخيم أمرها ، وقد ورد هذا فى القرآن الكريم كثيراً .

ومما ورد منه شعراً قول [الْمُقنَّع الكِنْدِىّ(١)] من أبيات الحماسة :

(١) فى جميع الأصول بياض فى مكان اسم الشاعر مما يدل على أن المؤلف بيض له ثم غفل عنه ، والأبيات فى الحماسة وانظر (شرح التبريزى : ٣ - ١٧١) .

وَإِنَّ الَّذِى بَيْنِى وَبَيْنَ بَنِى أَبِى ... وَبَيْنَ بَنِى عَمِّى لَمُخْتَلِفٌ جِـدًّا
إِذَا أَكَلُوا لَحْمِى وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ ... وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِى بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدَا
وَإِنْ ضَيَّعُوا غَيْبِى حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ ... وَإِنْ هُمْ هَوُوا غَيِّى هَوِيتُ لَهُمْ رُشْدَا

فهذا من الخاص والعام ؛ فإن كل لحم يؤكل للإنسان فهو تضييع لغيبه ، وليس كل تضييع لغيبه أكلا لحمه ، ألا ترى أن أكل اللحم هو كناية عن الاغتياب ، وأما تضييع الغيب فمنه الاغتياب ومنه التخلى عن النصرة والإعانة ومنه إهمال السعى فى كل ما يعود بالنفع كائناً ما كان ، وعلى هذا فإن هذين البيتين من الخاص والعام المشار إليه فى الآية المقدم ذكرها ، وهو موضع يرد فى الكلام البليغ ويظن أنه لافائدة فيه .

الفرع الثانى : إذا كان التكرير فى المعنى يدل على معنى واحد لا غير ، وقد سبق مثال ذلك فى أول هذا الباب ، كقولك : أطعنى ولا تَعْصِنِى ؛ فإن الأمر بالطاعة نهى عن المعصية ، والفائدة فى ذلك تثبيت الطاعة فى نفس المخاطب .

والكلام فى هذا الموضع كالكلام في الموضع الذى قبله من تكرير اللفظ والمعنى إذا كان الغرض به شيئاً واحدا ، ولا نجد شيئاً من ذلك يأتى فى الكلام إلا لتأكيد الغرض المقصود به ؛ كقوله تعالى : (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فإنه إنما كرّر العفو والصفح والمغفرة ، والجميع بمعنى واحد ؛ للزيادة فى تحسين عفو الوالد عن ولده والزوج عن زوجته ، وهذا وأمثاله يُنْظَر فى الغرض المقصود به ، وهو موضع يكون التكرير فيه أوجز من لَمْحَة الإيجاز ، وأولى بالاستعمال .

وقد ورد فى القرآن الكريم كثيراً ، كقوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام : (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ) فان البثَّ

والحزن بمعنى واحد ، وإنما كرره ههنا لشدة الخطب النازل به ، وتكاثر سهامه النافذة فى قلبه ، وهذا المعنى كالذى قبله .

وكذلك ورد قوله تعالى : (تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ) بعد ثلاثة وسبعة تنوب مناب قوله ثلاثة وسبعة مرتين لأن عشرة هى ثلاثة وسبعة ، ثم قال (كاملة) وذلك توكيد ثالث ، والمراد به إيجاب صوم الأيام السبعة عند الرجوع فى الطريق على الفور ، لاعند الوصول إلى البلد كما ذهب إليه بعض الفقهاء ، وبيانه أنى أقول : إذا صَدَرَ الأمر من الآمر على المأمور بلفظ التكرير مجرداً من قرينة تُخْرِجه عن وصفه ولم يكن مُوَقَّتاً بوقت معين كان ذلك حَثًّا له على المبادرة إلى امتثال الأمر على الفور ؛ فإنك إذا قلت لمن تأمره بالقيام : قم ، قم ، قم ، فإنما تريد بهذا اللفظ المكرر أن يبادر إلى القيام فى تلك الحال الحاضرة .

فان قلت : الغرض بتكرير الأمر أن يتكرر فى نفس المأمور أنه مُرَاد منه ، وليس الغرض الحثَّ على المبادرة إلى امتثال الأمر .

قلت فى الجواب : إن المرة الواحدة كافية فى معرفة المأمور أن الذى أُمِرَ به مُرَاد منه ، والزيادة على المرة الواحدة لاتخلو : إما أن تكون دالة على مادلت عليه المرة الواحدة أو دالة على زيادة معنى لم تكن فى المرة الواحدة ؛ فإن كانت دالة على مادلت عليه المرة الوحدة كان ذلك تطويلا فى الكلام لاحاجة إليه ، وقد ورد مثله فى القرآن الكريم ، كهذه الآية المشار إليها وغيرها من الآيات ، والتطويل فى الكلام عَيْبٌ فاحش عند البلغاء والفصحاء ، والقرآن مُعْجز ببلاغته وفصاحته ، فكيف يكون فيه تطويل لا حاجة إليه ؟ فينبغى أن تكون تلك الزيادة دالة على معنى زائدٍ على مادلَّت عليه المرة الواحدة ، وإذا ثبت هذا فتلك الزيادة هى الحث على المبادرة إلى امتثال الأمر ؛ فإن سلمت لى ذلك وإلا فَبَيِّن معنى تلك الزيادة ببيان غير ماذكرته أنا ، ولا أراك أن تستطيع ذلك .

فإن قلت : إن الواو فى قوله تعالى : (وسبعة إذا رجعتم) لولا أن تؤكد بقوله

(تلك عشرة) لظن أنها وردت بمعنى أو : أى فثلاثة أيام فى الحج أو سبعة إذا رجعتم ، فلما قيل (تلك عشرة) زال هـذا الظن ، وتحققت الواو أنها عاطفة ، وليست بمعنى أو .

قلت فى الجواب : هـذا باطل من أربعة أوجه : الوجه الأول : أن الواو العاطفة لا تجعل بمعنى أو أين وردت من الكلام ، وإنما تجعل بمعنى أو حال ضرورة ترجيح جانبها على جانب جعلها عاطفة ؛ لأن الأصل فيها أن تكون عاطفة ، فإذا عُدِل بها عن أصلها احتاج إلى ترجيح ، ولاترجيح ههنا ؛ الوجه الثانى بلاغى ، وذاك أن القرآن الكريم منتهى البلاغة والفصاحة لمكان إعجازه ، فلو كان معنى الواو فى هذه الآية بمعنى أو لقيل فثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم ، ولم يحتج إلى هذا التطويل ، فى قوله (فثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة) الوجه الثالث : أن هـذا الصوم حكم من أحكام العبادات ، والعبادات يجب فيها الاحتياط أن تُؤَدَّى على أكمل صورة ؛ لئلا يدخلها النقص ، وإذا كان الأمر على ذلك فكيف يظن أن الواو فى هذه الآية بمعنى أو ؟ الوجه الرابع : أن السبعة ليست مماثلة للثلاثة ، حتى تجعل فى قُبالتها ؛ لأن معنى الآية إذا كانت الواو فيها بمعنى أو إما أن تصوموا ثلاثة أيام فى الحج أو سبعة إذا رجعتم .

فإن قلت : هذا تعبد لايعقل معناه كغيره من التعبدات التى لايعقل معناها .

قلت فى الجواب : إن لنا من التعبدات مالا يعقل معناه ؛ كعدد ركعات الصلوات ، وعدد الطواف والسعى ، وأشباه ذلك ، ولنا ما يُعْقَل معناه ، كهذه الآية ، فإنا نعقل التَّفاوُتَ بين الصوم فى الحضر والسفر ، ونعقل التفاوت بين العدد الكثير والعدد القليل ، وعلى هذا فلا يخلو : إما أن يكون صوم الأيام السبعة عند الرجوع فى الطريق ، أو عند الوصول إلى البلد ؛ فإذا كان فى الطريق فإنه أشق من الصوم بمكة ؛ لأن الصوم فى السفر أشَقُّ من الصوم فى الحضر ؛ فكيف يجعل صوم سبعة أيام فى السفر فى مقابلة صوم ثلاثة أيام بمكة ؟ وإن كان الصوم

عند الوصول إلى البلد فلا فرق بين الصوم بمكة والصوم عند الوصول إلى البلد ؛ لأن كليهما صوم فى المُقَام ببلد من البلاد لاتفاوت بينهما حتى يجعل صوم ثلاثة أيام فى مقابلة سبعة أيام على غير مثال ولا تساوٍ ؛ فعلى كلا التقديرين لا يجوز أن تكون الواو فى (وسبعة إذا رجعتم) بمعنى أو ؛ فتحقق إذاً أنها للعطف خاصة ، وإذا كانت للعطف خاصة فتأكيدها بعشرة كاملة دليل على أن المراد وجود صوم الأيام السبعة فى الطريق قبل الوصول إلى البلد .

فإن قلت : إن الصوم بمكة أشق من الصوم فى الطريق ؛ لأن الواجب عليه الصوم بمكة فى نَصَبٍ وتعب بتصريف زمانه فى السعى والطواف والصلاة والعمرة وغير ذلك .

قلت فى الجواب : هـذا لايلزم ؛ إذ الواجب عليه سعى واحد ، وطواف واحد ، لاغير ، وماعدا ذلك نافلة لايلزم ، ونحن فى هذا المقام ناظرون إلى مايجب لا إلى النافلة ، والذى يجب أداؤه بمكة يفرغ منه فى ساعة واحدة ، فكيف تجعل الزيادة على ذلك دليلا يُورَدُ فى هذا المقام ؟ هذا غير وارد .

وهكذا ورد قوله تعالى : (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ) فقوله (غير يسير) بعد قوله (عسير) من هـذا النوع المشار إليه ، وإلا فقد علم أن العسير لايكون يسيراً ، وإنما ذكر ههنا على هـذا الوجه لتعظيم شأن ذلك اليوم فى عُسْره وشِدَّته على الكافرين ،

وكذلك ورد قوله تعالى : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ) فإن البغضاء والعداوة بمعنى واحد ، وإنما حسن إيرادهما معاً فى مَعْرِض واحد لتأكيد البراءة بين إبراهيم صلوات الله عليه والذين آمنوا به وبين الكفار من

قومهم ؛ حيث لم يؤمنوا بالله وحده ، وللمبالغة فى إظهار القطيعة والمُصارَمة .

وورود مثل ذلك فى مثل هذا الموضع كالإيجاز فى موضعه ، ولن ترى شيئاً يرد فى القرآن الكريم من هذا القبيل إلا وهو لأمر اقتضاه ؛ وإن خَفِيَ عنك موضعُ السر فيه فاسأل عنه أهله العارفين به .

ومما ورد منه شعراً قول بعضهم فى أبيات الحماسة (١)

نَزَلْتُ عَلَى آلِ الْمُهَلَّبِ شَاتِياً ... بَعِيدًا عَنِ الْأَوْطَانِ فِى زَمَنِ الْمَحْلِ (٢)

فَمَا زَالَ بِي إِكْرَامُهُمْ وَافْتِقَادُهُمْ ... وَإِحْسَانُهُمْ حَتَّى حَسِبْتُهُمُ أَهْلِي (٣)

فإن الإكرام والافتقاد داخلان تحت الإحسان ، وإنما كرر ذلك للتنويه بذكر الصنيع ، والإيجاب لحقه .

وعلى هذا ورد قول الأعشى فى قصيدته المشهورة التى يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال منها (٤) :

فَآلَيْتُ لَا أَرْثِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ ... وَلَا مِنْ وَجًى حَتَّى تُلَاقِي مُحَمَّدَا

فإن الْوَجَى والْكَلَالَة معناهما سواء ، وإنما حسن تكريره ههنا للإشعار ببعد المسافة .

الضرب الثانى من القسم الثانى : فى تكرير المعنى دون اللفظ ، وهو غير المفيد ؛ فمن ذلك قول أبى تمام (٥) :

---

(١) هذان البيتان فى الحماسة غير منسوبين ، ولم ينسبهما التبريزى ولا غيره من الشراح (انظر التبريزى : ١ - ٢٩١) .

(٢) فى الحماسة « فى زمن محل » .

(٣) فى الحماسة « إكرامهم واقتفاؤهم وإلطافهم » .

(٤) أولها قوله :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا ... وَبِتَّ كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ مُسَهَّدَا

(٥) هذا البيت هو التالى لمطلع القصيدة ، والمطلع قوله :

قِفْ بِالطُّلُولِ الدَّارِسَاتِ عُلَاثَا ... أَضْحَتْ حِبَالُ قَطِينِهِنَّ رِثَاثَا

قَسَمَ الزَّمَانُ رُبُوعَهَا بَيْنَ الصَّبَا وَقَبُولِهَا وَدَبُورِهَا أَثْلَاثَا

فإنّ الصَّبَا هى القَبُولُ ، وليس ذلك مثل التكرير فى قوله تعالى : (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى) فيما يرجع إلى تكرير اللفظ والمعنى ، ولا مثل التكرير فى قوله تعالى : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ) فيما يرجع إلى تكرير المعنى دون اللفظ ، وقول أبى تمام الصَّبَا وَالقَبُول لايشتمل إلا على معنى واحد لاغير .

وهذا الضرب من التكرير قد خَبَطَ فيه علماء البيان خبطاً كثيراً ، والأكثر منهم أجازه ؛ فقالوا : إذا كانت الألفاظ متغايرة والمعنى المعبر عنه واحداً فليس استعمال ذلك بمعيب ، وهذا القول فيه نظر ؛ والذى عندى فيه أن الناثر يعاب على استعماله مطلقاً إذا أتى لغير فائدة ، وأما الناظم فإنه يعاب عليه فى موضع دون موضع ؛ أما الموضع الذى يعاب استعماله فيه فهو صُدُور الأبيات الشعرية وماوالاها ، وأما الموضع الذى لايعاب استعماله فيه فهو الأعجاز من الأبيات ؛ لمكان القافية ، وإنما جاز ذلك ولم يكن عيباً لأنه قافية ، والشاعر مضطر إليها ، والمضطر يحل له ما حرم عليه ؛ كقول امرىء القيس فى قصيدته اللامية التى مطلعها :

* أَلَا انْعِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي *

فقال :

وَهَلْ يَنْعَمَنْ إلَّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ قَلِيلُ الهُمُومِ لَايَبِيتُ بِأَوْجَالِ

وإذا كان قليل الهموم فإنه لايبيت بأوجال ، وهذا تكرير للمعنى ، إلا أنه ليس بمعيب ؛ لأنه قافية ؛ وكذلك ورد قول الحطيئة[1] :

(١) من قصيدة له أولها قوله :

طَافَتْ أُمَامَةُ بِالرُّكْبَانِ آوِنَةً يَا حُسْنَهُ مِنْ قَوَامٍ مَا وَمُنْتَقَبَا

قَالَتْ أُمَامَةُ لاَ تَجْزَعْ فَقُلْتُ لَهَا   إِنَّ الْعَزَاءَ وَإِنَّ الصَّبْرَ قَدْ غُلِبَا
هَلاَّ الْتَمَسْتِ لَنَا إِنْ كُنْتِ صَادِقَةً   مَالاً نَعِيشُ بِهِ فِي النَّاسِ أَوْ نَشَبَا

فالبيت الأول معيب ؛ لأنه كرر العزاء والصبر ؛ إذ معناهما واحد ، ولم يردا قافية ؛ لأن القافية هى الباء ، وأما البيت الثانى فليس بمعيب ؛ لأن التكرير جاء فى النَّشَب وهو قافية .

ومما يجرى هذا المجرى قول المنخل اليشكرى (١) :

وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى الْفَتَا   ةِ الْخِدْرَ فِي الْيَوْمِ الْمَطِيرِ
الْكَاعِبِ الْحَسْنَاءِ تَرْ   فُلُ فِي الدِّمَقْسِ وَفِي الْحَرِيرِ

فإن الدِّمَقْسَ والحرير سواء ، وقد ورد قافية فلا بأس به من أجل ذلك .

فإن قيل : إن الحرير هو الإبريسم المنسوج ، بدليل قوله تعالى : (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا) فإنه لم يرد خيوط إبريسم ، وإنما أراد أثوابا من الإبريسم ، وأما الدِّمَقْسُ فإنه خيوط الإبريسم محلولة ، بدليل قول امرىء القيس :

* وَشَحْمٍ كَهُدَّابِ الدِّمَقْسِ الْمُفَتَّلِ (٢) *

فإنه لم يرد إبريسما منسوجا ، وإنما أراد خيوط الإبريسم .

فالجواب عن ذلك : أنه لو حمل بيت المنخل على ذلك لفسد معناه ؛ لأن

---

(١) من كلمة اختارها أبو تمام فى الحماسة ، وأولها قوله :

إِنْ كُنْتِ عَاذِلَتِي فَسِيرِي   نَحْوَ الْعِرَاقِ وَلاَ تَحُورِي

وانظر شرح التبريزى (٢ – ١٠٣) .

(٢) هذا عجز بيت من معلقته المعروفة ، وصدره مع بيت سابق عليه :

وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَى مَطِيَّتِي   فَيَا عَجَبًا مِنْ كُورِهَا الْمُتَحَمَّلِ
فَظَلَّ الْعَذَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا   وَشَحْمٍ كهداب الدمقس المفتل

المرأة لا ترفل فى خيوط من الإبريسم ، وإنما ترفل فى الأثواب منه ، وأما قول امرىء القيس « كهداب الدِّمَقْسِ » فإنه لو كان الدمقس هو الخيوط المحلولة من الإبريسم لما احتاج أن يقول « كهداب » فإن الهُدَّابَ جمع هدب ، ثم قال « المُفَتَّلِ » فدلّ بذلك على أن الدمقس يطلق على الإبريسم ، سواء كان منسوجا أو غير منسوج ، وكذلك الحرير أيضاً ، وعند الاستعمال يفهم المراد منه بالقرينة ، ألا ترى أنه لما قال المنخل « ترفل فى الدمقس وفى الحرير » فهم من ذلك أنه أراد أثوابا من الدمقس ومن الحرير ؛ لأن الرفول لا يكون فى خيوط من الإبريسم ، وإنما يكون فى أثوابه .

ومما يجرى على هذا النهج قول الآخر من شعراء الحماسة (١) :

إِنِّى وَإِنْ كَانَ ابْنُ عَمِّى غَائِباً ... لَمُقَاذِفٌ مِنْ خَلْفِهِ وَوَرَائِهِ

فإنّ خلفاً ووراء بمعنى واحد ، وإنما جاز تكرارهما لأنهما قافية .

وعلى هذا ورد قول أبى تمام (٢) :

دِمَنٌ كَأَنَّ الْبَيْنَ أَصْبَحَ طَالِباً ... دِمَناً لَدَى آرَامِهَا وَحُقُودَا (٣)

فإن الدمنة هى الحقد .

وكذلك قول أبى الطيب المتنبى (٤) :

---

(١) هو الهذيل بن مشجعة البولانى ، والبيت من كلمة له فى الحماسة ، وهو أولها بيتا ، وانظر شرح التبريزى (٤ — ٢١٣) .

(٢) هذا البيت هو البيت التالى لمطلع القصيدة ، وهى من مدائحه فى خالد بن يزيد الشيبانى ، والمطلع قوله :

طَلَلَ الْجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا ... وَكَفَى عَلَى رُزْئِى بِذَاكَ شَهِيدَا

(٣) وقع فى ب ، ج «دمنا لدى آثارنا» وهو تحريف ، وما أثبتناه عن الديوان .

(٤) من قصيدته التى أولها :

الرَّأْىُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ ... هُوَ أَوَّلٌ وَهِىَ الْمَحَلُّ الثَّانِى

وهى من مدائحه فى سيف الدولة الحمدانى .

بَحْرٌ تَعَوَّدَ أَنْ يُذِمَّ لِأَهْلِهِ مِنْ دَهْرِهِ وَطَوَارِقِ الْحِدْثَانِ
فَتَرَكْتَهُ وَإِذَا أَذَمَّ مِنَ الْوَرَى رَاعَاكَ وَاسْتَثْنَى بَنِى حَمْدَانِ

فإن الدهر وطوارق الحدثان سواء ، وإنما جاز استعمال ذلك لأنه قافية .

وأما ماورد فى أثناء الأبيات الشعرية فكقول عنترة(١) :

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ

فقوله «أقوى وأقفر» من المعيب؛ لأنهما لفظان وردا بمعنى واحد لغير ضرورة ؛ إذ الضرورة لا تكون إلا فى القافية كما أريتك .

وأما ماورد من صدور الأبيات فكقول البحترى فى قصيدته العينية(٢) :

أَلَمَّتْ وَهَلْ إِلْمَامُهَا بِكَ نَافِعٌ وَزَارَتْ خَيَالاً وَالْعُيُونُ هَوَاجِعُ

فإن قوله « ألمت » وقوله « زارت خيالا » سواء ، ولا فرق إذاً بين صدر البيت وعجزه .

فإن قيل : إنه أراد بالإلمام زيارة اليقظة ، ثم قال « وزارت خيالا » .

فالجواب عن ذلك أنه لم يرد إلا زيارة المنام فى الحالتين ؛ لأنه قال « ألمت وهل إلمامها بك نافع » ولو كان الإلمام فى اليقظة لما قال « وهل إلمامها بك نافع » ؛ فإنه لانفع أنفع من زيارة المحبوب فى اليقظة ، وهذا غير خاف لايحتاج إلى السؤال عنه .

فإن قيل : لم أجزت ذلك للناظم وحظرته على الناثر ؟ .

قلت فى الجواب : أما الناثر فإنه إذا سجع كلامه فالغالب أن يأتى به مزدوجا على فقرتين من الفقر ، ويمكنه إبدال تلك الفقرتين بغيرهما ، فيَسْلَم منه ؛

---

(١) من معلقته التى أولها قوله :

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

(٢) هذا مطلع قصيدة له يمدح فيها الفتح بن خاقان ، و بعده قوله :

بِنَفْسِيَ مَنْ تَنْأَى وَيَدْنُو ادِّكَارُهَا وَيَبْذُلُ عَنْهَا طَيْفُهَا وَتُمَانِعُ

وأما الشاعر فإنه يصوغ قصيداً ذا أبيات متعددة على قافية من القوافى ؛ فإذا تكرر لديه شىء من الكلام فى آخر بيت من الأبيات عسر إبداله من أجل القافية ، وهذا غير خافٍ ، والسؤال عنه غير وارد .

وهذا الذى ذكرته إذا ورد فى غير القافية سمى إخلاء ، ويقال : إن البحترى كان يُخْلِى كثيراً فى شعره ، وهو لعمرى كذلك ، إلا أن حسن سبكه ورَوْنق ديباجته يغفر له ذلك .

ويروى عنه أنه كان إذا مثل بين يدى الفتح بن خاقان وزير المتوكل مادحا له اخْتَالَ بين يديه مُعْجَباً بنفسه ، فتقدَّم خطوات ثم تأخر ، وقال : أىّ شىء تسمعون ، فنقم عليه ذلك بعض حسدته ، وحمل الفتح بن خاقان عليه ، فقال له الفتح : لو رمانا بالحجارة لكان ذلك مغفوراً له فيما يقوله .

النوع الثامن عشر

فى الاعتراض

وبعضهم يسميه الحشو .

وحدّه : كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب لو أسقط لبقى الأول على حاله .

مثال ذلك أن تقول : زيد قائم ؛ فهذا كلام مفيد ، وهو مبتدأ وخبر ؛ فإذا أدخلنا فيه لفظاً مفرداً قلنا : زيد واُللهِ قائم ، ولو أزلنا القَسَمَ منه لبقى الأول على حاله ، وإذا أدخلنا فى هذا الكلام لفظا مركباً قلنا : زيد عَلَى مابِهِ مِنَ المرضِ قائم ، فأدخلنا بين المبتدأ والخبر لفظاً مركباً ، وهو قولنا « على مابه من المرض » فهذا هو الاعتراض ، وهذا حده .

وأعلم أن الجائز منه وغير الجائز إنما يؤخذ من كتب العربية ؛ فإنه يكون مُسْتَقْصًى فيها ، كالاعتراض بين القَسَم وجوابه ، وبين الصفة والموصوف ، وبين المعطوف والمعطوف عليه ، وأشباه ذلك مما يحسن استعماله ، وكالاعتراض بين المضاف والمضاف إليه ، وبين إنَّ واسمها ، وبين حرف الجر ومجروره ، وأمثال ذلك مما يقبح استعماله ، وليس هذا مكانه ؛ لأن كتابنا هذا موضوع لمن استكمل معرفة ذلك وغيرِه مما أشرنا إليه فى صدر الكتاب .

وليس المراد ههنا من الاعتراض إلا مايفرق به بين الجيد والردىء ، لا مايعلم به الجائز وغير الجائز ؛ لأن كتابى هذا موضوع لذكر مايتضمنه الكلام على اختلاف أنواعه من وصفى الفصاحة والبلاغة ، فالذى أذكره فى باب الاعتراض إنما هو ما اشتمل على شىء من هذين الوصفين المشار إليهما .

واعلم أن الاعتراض ينقسم قسمين : أحدهما : لايأتى فى الكلام إلا لفائدة ، وهو جار مجرى التوكيد ، والآخر : أن يأتى فى الكلام لغير فائدة ؛ فإما أن يكون دخوله فيه كخروجه منه ، وإما أن يؤثر فى تأليفه نقصاً وفى معناه فساداً .

فالقسم الأول ـ وهو الذى يأتى فى الكلام لفائدة ـ كقوله تعالى : (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) ؛ ففى هـذا الكلام اعتراضان : أحدهما قوله : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) وذلك اعتراض بين القسم الذى هو (فلا أقسم بمواقع النجوم) وبين جوابه الذى هو (إنه لقرآن كريم) وفى نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الموصوف الذى هو (قَسَم) وبين صفته التى هى (عظيم) وهو قوله : (لو تعلمون) فذانك اعتراضان كما ترى ، وفائدة هـذا الاعتراض بين القسم وجوابه إنما هى تعظيم لشأن المقسم به فى نفس السامع ، ألا ترى إلى قوله : (لو تعلمون) اعتراضاً بين الموصوف والصفة وذلك الأمر بحيث لو علم وُفِّىَ حقه من التعظيم ، وهذا مثل قولنا : إن هذا الأمر لعظيم بحيث لو تعلم يافلان عظمه لقدَرْتَهُ حقَّ قَدْره ؛ فإن

ذلك يكبر فى نفس المخاطب ، ويظل متطلعاً إلى معرفة عظمه .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) وتقديره : ويجعلون لله البنات ولهم مايشتهون ؛ فاعترض بين المفعولين[١] بسبحانه ، وهو مصدر يدلّ على التنزيه[٢] فكأنه قال : ويجعلون لله البنات ، وهو منزّه عن ذلك ، ولهم مايشتهون ، وفائدة هذا الاعتراض ههنا ظاهرة .

وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام : (قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) فقوله : (لقد علمتم) اعتراض بين القسم وجوابه ، وفائدته تقرير إثبات البراءة من الفساد والنزاهة من تهمة السرقة : أى إنكم قد علمتم هذا منا ، ونحن مع علمكم به نُقْسِم بالله على صدقه .

وقد ورد الاعتراض فى القرآن كثيراً ، وذلك فى كل موضع يتعلق بنوع من خصوصية المبالغة فى المعنى المقصود .

ومن هذا القسم قوله تعالى : (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) فهذا الاعتراض بين إذا وجوابها ؛ لأن تقدير الكلام وإذا بدّلنا آية مكان آية قالوا إنما أنت مفتر ، فاعترض بينهما بقوله تعالى : (والله أعلم بما ينزّل) وهو مبتدأ وخبر ، وفائدته إعلام القائلين إنه مفتر أن ذلك من الله وليس منه ، وأنه أعلم بذلك منهم .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) ألا ترى إلى هذا الاعتراض الذى قد طبق مَفْصِل البلاغة ، وفائدته أنه لما وصّى بالوالدين ذكر

---

(١) الأحسن أن يقول « بين المتعاطفين » .

(٢) فى ج « يدل على التنزيل » وهو خطأ .

ما تكابده الأم من المشاق فى حمل الولد وفِصاله ؛ إيجاباً للتوصية بها ، وتذكيراً بحقها ، وإنما خصَّها بالذكر دون الأب لأنها تتكلَّف من أمر الولد ما لا يتكلفه ، ومن ثم قال النبىّ صلى الله عليه وسلم لمن قال له : مَنْ أَبَرُّ ؟ فقال : « أُمَّكَ ثُمَّ أُمَّكَ ثُمَّ أُمَّكَ ثُمَّ أَبَاكَ » .

ومما جاء على هذا الأسلوب قوله عزّ وجلّ : (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) فقوله : (والله مخرج ما كنتم تكتمون) اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ، وفائدته أن يقرر فى نفوس المخاطبين وقلوب السامعين أن تَدَارُؤ بنى إسرائيل فى قتل تلك النفس لم يكن نافعاً لهم فى إخفائه وكتمانه ؛ لأن الله تعالى مظهرٌ لذلك ، ولو جاء الكلام غير معترض فيه لكان : وإذ قتلتم نفساً فادَّارأتم فيها فقلنا اضربوه ببعضها ، ولا يخفى على البليغ الفرق بين ذلك وبين كونه معترضاً فيه .

ومما ورد من ذلك شعراً قول امرىء القيس (١) :

وَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ
وَلٰكِنَّمَا أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤَثَّلَ أَمْثَالِي

تقديره : كفانى قليل من المال ؛ فاعترض بين الفعل والفاعل بقوله : « ولم أطلب » وفائدته تحقير المعيشة وأنها تحصل بغير طلب ولا عناء ، وإنما الذى يحتاج إلى الطلب هو المجد المؤثل .

(١) من قصيدة له طويلة أولها قوله :

أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصُرِ الْخَالِي

وقد تقدم بيت منها قريبا ، انظر (س ١٨ ص ١٧٩ من هذا الجزء) .

وكذلك قول جرير (١) :

وَلَقَدْ أَرَانِي وَالْجَدِيدُ إِلَى بِلًى فِي مَوْكِبٍ طُرُفِ الْحَدِيثِ كِرَامِ

تقديره : ولقد أرانى فى موكب طرف الحديث ؛ فاعترض بين المفعولين ، وإنما جاء بهذا الاعتراض تعزِّياً عما مضى من تلك اللذة وذلك النعيم الذى فاز به من عِشْرَة أولئك الأحباب ، ولقد أعهدنى فى كذا وكذا من اللذة ، وذلك قد مضى وسلف وبَلِيَ جديده ، وكذلك كلُّ جديد فإنه إلى بِلًى .

والاعتراض إذا كان هكذا كسا الكلام لطفاً إن كان غزلاً ، وكساه أبهة وجلالاً إن كان مديحاً أو مايجرى مجراه من أساليب الكلام ، وإن كان هجاء كساه تأكيداً وإثباتا ، كقول كثيِّر (٢) :

لَوَ أَنَّ الْبَاخِلِينَ وَأَنْتِ مِنْهُمْ رَأَوْكِ تَعَلَّمُوا مِنْكِ الْمِطَالاَ

فقوله « وأنت منهم » من محمود الاعتراض ونادره ، وفائدته ههنا التصريح بما هو المراد ، وتقدير هذا الكلام قبل الاعتراض : لو أن الباخلين رأوك ؛ فاعترض بين اسم إنَّ وهو الباخلين وبين خبرها وهو رأوك بالمبتدأ والخبر الذى هو « وأنت منهم » .

ومن محاسن ماجاء فى هذا الباب قول المضرب السعدى (٣) :

فَلَوْ سَأَلَتْ سَرَاةَ الْحَيِّ سَلْمَى عَلَى أَنْ قَدْ تَلَوَّنَ بِي زَمَانِي
لَخَبَّرَهَا ذَوُو أَحْسَابِ قَوْمِي وَأَعْدَائِي فَكُلٌّ قَدْ بَلاَنِي

(١) هو من قصيدة له من نقائضه مع الفرزدق ، وتقدم ذكر أبيات منها وفى أثنائها هذا البيت فانظر (ص ١٢١ من هذا الجزء) .

(٢) هو بيت مفرد ثابت فى ديوانه (١ - ١٥١) .

(٣) كذا وقع فى ا ، ب ، ج ، نسبة هذين البيتين للمضرب السعدى ، وهما من شعر الحماسة (انظر شرح التبريزى : ١ -١٢٥) وهما لسوّار بن المضرب السعدى فلعل أصل العبارة « قول ابن المضرب السعدى » فسقطت كلمة ابن .

وهذا اعتراض بين « لو » وجوابها ، وهو من فائق الاعتراض ونادره ، وتقديره : فلو سألت سراة الحى سلمى لخبرها ذوو أحساب قومى وأعدائى ، وفائدة قوله : « على أن قد تلوّن بى زمانى » أى : أنهم يخبرون عنى على تَلوُّن الزمان بى ، يريد تنقُّلَ حالاته من خير وشر ، وليس مَنْ عَجَمَه الزمان وأبان عن جوهره كغيره ممن لم يعجمه ولا أبان عنه .

ومن ذلك قول أبى تمام[(١)] :

وَإِنَّ الْغِنَى لِى إِنْ لَحَظْتَ مَطَالِبِى ... مِنَ الشِّعْرِ إِلَّا فِى مَدِيحِكَ أَطْوَعُ

وهذا البيت فيه اعتراضان : الأول بين اسم « إن » وخبرها ، تقديره : وإن الغنى أطوع لى من الشعر ، فاعترض بين الاسم والخبر بقوله : « إن لحظت مطالبى » وأما الاعتراض الثانى فقوله : « إلا فى مديحك » فجاء بالجملة الاستثنائية مقدمة ، وموضعها التأخير ؛ فاعترض بها بين الجملة التى هى خبر إن ، وتقدير البيت بجملته : وإن الغنى أطوع لى من الشعر إن لحظت مطالبى إلا فى مديحك ، وفائدة قوله : «إلا فى مديحك» من الاعتراض الذى اكتسب به الكلام [رقةً] فائدةٌ حسنة ، والمراد به وصف جود الممدوح بالإسراع ، ووصف خاطر شعره بالإسراع إذا كان فى مدحه خاصة دون غيره ، فهذا الاعتراض يتضمن مدح الممدوح والمادح معاً ، وهو من محاسن مايجىء فى هذا الموضع .

وكذلك ورد قوله[(٢)] :

رَدَدْتَ رَوْنَقَ وَجْهِى فِى صَحِيفَتِهِ ... رَدَّ الصِّقَالِ بَهَاءَ الصَّارِمِ الْخَذِمِ

وَمَا أُبَالِى وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ ... حَقَنْتَ لِى مَاءَ وَجْهِى أَمْ حَقَنْتَ دَمِى

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعد محمد بن يوسف ، وأولها قوله :

أَمَا إِنَّهُ لَوْلَا الْخَلِيطُ الْمُوَدِّعُ ... وَرَبْعٌ خَلَا مِنْهُ مَصِيفٌ وَمَرْبَعُ

(٢) من أبيات له يمدح فيها أبا سعيد ، وأولها قوله :

أَبَا سَعِيدٍ وَمَا وَصْفِى بِمُتَّهَمٍ ... عَلَى الْمَعَالِى ، وَمَا شُكْرِى بِمُخْتَرَمِ

فقوله « وخير القول أصدقه » اعتراض بين المفعول والفعل ؛ لأن موضع حَقَقْتَ نصب ؛ إذ هو مفعول أُبَالى ، وفائدته إثبات ما ماثل به بين ماء الوجه والدم : أى أن هذا القول صدق ليس بكذب .

وأما القسم الثانى ــ وهو والذى يأتى فى الكلام لغير فائدة ــ فهو ضربان :

الضرب الأول : يكون دخوله فى الكلام كخروجه منه لا يكتسب به حسناً ولا قبحاً ؛ فمن ذلك قول النابغة(١) :

يَقُولُ رِجَالٌ يَجْهَلُونَ خَلِيقَتِى لَعَلَّ زِيَادًا لَا أَبَالَكَ غَافِلُ

فقوله « لا أبالك » من الاعتراض الذى لا فائدة فيه ، وليس مؤثرًا فى هذا البيت حسناً ولا قبحاً .

ومثله جاء قول زهير(٢) :

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلاً لَا أَبَالَكَ يَسْأَمِ

وقد وردت هذه اللفظة ــ وهى « لا أبالك » ــ فى موضع آخر فكان للاعتراض بها فائدة حسنة ، كقول أبى تمام :

* عِتَابَكِ عَنِّى لَا أَبَالَكِ وَاقْصِدِى *

فإنه لما كره عتابها اعترض بين الأمر والمعطوف عليه بهذه اللفظة على طريق الذم .

الضرب الثانى ــ وهو الذى يؤثر فى الكلام نقصاً ، وفى المعنى فسادًا ــ وقد تقدم ذكر أمثاله وأنظاره فى باب التقديم والتأخير ، وإنما جىء بذكره ههنا

(١) من قصيدة له يرثى فيها النعمان بن المنذر ، وأولها قوله :

دَعَاكَ الْهَوَى وَاسْتَجْهَلَتْكَ الْمَنَازِلُ وَكَيْفَ تَصَابِى الْمَرْءِ وَالشَّيْبُ شَامِلُ

ووقع فى ا ، ب ، ج « لعل زيادا لا أبا لك عاقل » وهو تصحيف ، وأثبتنا ما فى نسخ الديوان .

(٢) من قصيدته المعلقة التى أولها :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ

مُكَرَّرًا لإتمام التقسيم الاعتراضى فيما أفاد وفيما لا يفيد ، وقد ذكرت من ذلك مثالا واحداً أو مثالين ؛ فمما وردمنه قول بعضهم (١) :

فَقَدْ وَالشَّكُّ بَيَّنَ لِى عَنَاءٌ بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ صُرَدٌ يَصِيحُ

فإن فى هذا البيت من ردىء الاعتراض ما أذكره لك ، وهو الفصل بين قَدْ والفعل الذى هو بَيَّنَ ، وذلك قبيح ؛ لقوة اتصال قَدْ بما تدخل عليه من الأفعال ألاتراها تُعَدُّ مع الفعل كالجزء منه ، ولذلك أدخلت عليها اللام المراد بها توكيد الفعل ، كقوله تعالى : (وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ) وقوله تعالى : (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ) وقول الشاعر (٢) :

وَلَقَدْ أَجْمَعُ رِجْلَىَّ بِهَا حَذَرَ المَوْتِ وَإِنِّى لَفَرُورُ (٣)

إلا إن فُصِلَ بين قَدْ والفعل بالقسم فإن ذلك لا بأس به ، نحو قولك : قَدْ وَاللهِ كان ذاك ، وقد فصل فى هذا البيت أيضاً بين المبتدأ الذى هو الشَّكُّ و بين الخبر الذى هو عَنَاءٌ بقوله بَيَّنَ لى ، وفصل بين الفعل الذى هو بَيَّنَ و بين فاعله الذى هو صُرَدٌ بخبر المبتدأ الذى هو عَنَاءٌ ؛ فجاء معنى البيت كما تراه ، كأنه صورة مُشَوَّهة قد نقلت أعضاؤها بعضها إلى مكان بعض .

---

(١) سبق ذكر هذا البيت فارجع إليه فى (ص ٤٥ من هذا الجزء) .

(٢) البيت أول كلمة لعمرو بن معديكرب الزبيدى اختارها أبو تمام فى الحماسة ، و بعده قوله :

وَلَقَدْ أَعْطِفُهَا كَارِهَةً حِينَ لِلنَّفْسِ مِنَ المَوْتِ هَرِيرُ

(٣) وقع فى ا ، ب ، ج « وإنى لقرور » بالقاف ، وما أثبتناه عن الحماسة « لفرور » بالفاء . وانظر شرح التبريزى (١ - ١٧٦) وقد ذكر أن بعضهم يرويه « لقرور » بالقاف ؛ اعتمادا على أن المرء لايمدح نفسه بالفرار ، ثم غلط من يروى ذلك ، استنادا إلى قول الشاعر نفسه بعد ذلك :

كُلُّ مَا ذٰلِكَ مِنِّى خُلُقٌ وَبِكُلٍّ أَنَا فِى الرَّوْعِ جَدِيرُ

ومن هذا الضرب قول الآخر :

نَظَرْتُ وَشَخْصِى مَطْلِعَ الشَّمْسِ ظِلُّهُ   إلى الْغَرْبِ حَتَّى ظله الشمس قَدْ عقل

أراد نظرت مطلعَ الشمس وشخصى ظله إلى الغرب حتى عقل الشمس : أى حاذاها ، وعلى هذا التقدير فقد فصل بمطلع الشمس بين المبتدأ الذى هو شَخْصى و بين خبره الجملة ، وهو قوله ظِلُّه إلى الغرب ، وأغلظ من ذلك أنه فصل بين الفعل وفاعله بالأجنبى ، وهذا وأمثاله مما يفسد المعانى و يورثها اختلالا .

واعلم أن الناثر فى استعمال ذلك أكثر مَلاَمَةً من الناظم ، وذاك أن الناظم مضطر إلى إقامة ميزان الشعر ، وربما كان مَجَالُ الكلام عليه ضيقاً ؛ فيلقيه طلبُ الوزن فى مثل هذه الورطات ؛ وأما الناثر فلايضطر إلى إقامة الميزان الشعرى، بل يكون مَجَالُ الكلام عليه واسعاً ، ولهذا إذا اعترض فى كلامه اعتراضاً يُفْسِدُهُ توجه عليه الإنكار ، وحق عليه الذم .

النوع التاسع عشر
فى الكناية والتعريض

وهذا النوع مقصور على الميل مع المعنى وترك اللفظ جانباً .

وقد تكلم علماء البيان فيه ؛ فوجدتهم قد خلطوا الكناية بالتعريض ، ولم يفرقوا بينهما ، ولا حَدُّوا كلاً منهما بحد يفصله عن صاحبه ، بل أوردوا لهما أمثلة من النظم والنثر ، وأدخلوا أحدهما فى الآخر ؛ فذكروا للكناية أمثلة من التعريض ، وللتعريض أمثلة من الكناية ؛ فمن فعل ذلك الغانمى وابن سنان الخفاجى والعسكرى ؛ فأما ابن سنان فإنه ذكر فى كتابه(١) قول امرئ القيس :

(١) انظر سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ١٧٦

فَصِرْنَا إِلَى الْحُسْنَى وَرَقَّ كَلَامُهَا وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أَيَّ إِذْلَالِ[1]

وهذا مثال ضرب به للكناية عن المباضعة ، وهو مثال للتعريض .

ووجدت فى كتاب التذكرة لابن حَمْدُون البغدادى ، وكان مشارًا إليه عندهم بفضيلة ومعرفة ، لاسيما فن الكتابة ؛ فوجدت فى كتابه ذلك بابًا مقصورًا على ذكر الكناية والتعريض ، وما قيل فيهما نظماً ونثرا ، وهو محشوٌّ بالخلط بين هذين القسمين من غير فصل بينهما ، وقد أورد أيضاً فى بعضه أمثلة غَثَّة باردة .

وسأذكر ما عندى فى الفرق بينهما ، وأميز أحدهما عن الآخر ؛ ليعرف كل منهما على انفراده ؛ فأقول :

أما الكناية فقد حُدَّت بحد ؛ فقيل : هى اللفظ الدالّ على الشىء على غير الْوَضْع الحقيقى بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه ، كاللَّمْس وَالْجِمَاع ؛ فإن الجماع اسم موضوع حقيقى واللمس كناية عنه ، وبينهما الوصف الجامع ؛ إذ الجماع لمس وزيادة ، فكان دالا عليه بالوضع المجازى .

وهذا الحد فاسد ؛ لأنه يجوز أن يكون حَدًّا للتشبيه ؛ فإن التشبيه هو اللفظ الدال على غير الوضع الحقيقى لجامع بين المشبه والمشبه به وصفة من الأوصاف ؛ ألا ترى أنا إذا قلنا : زيد أسد ، كان ذلك لفظاً دالا على غير الوضع الحقيقى ، بوصف جامع بين زيد والأسد ، وذلك الوصف هو الشجاعة ، ومن ههنا وقع الغلط لمن أشرت إليه فى الذى ذكره فى حد الكناية .

وأما علماء أصول الفقه فإنهم قالوا فى حد الكناية : إنها اللفظ المحتمل ،

---

(١) البيت من طويلته التى أولها :

أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِى وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِى الْعُصُرِ الْخَالِى

وقد تقدم الاستشهاد بأبيات منها غير مرة ، وذكرنا لك فى كل مرة هذا المطلع مبالغة فى تذليل الأمر وتيسيره عليك (انظر ص ١٧٩ و ١٨٦ من هذا الجزء) .

يريدون بذلك أنها اللفظ الذى يحتمل الدلالة على المعنى وعلى خلافه .

وهذا فاسد أيضا ؛ فإنه ليس كل لفظ يدل على المعنى وعلى خلافه بكناية ، دليل ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم « إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ » فإن هذا اللفظ يدلّ على المعنى وعلى خلافه ، و بيان ذلك أنه يقول فى أحد معنييه : إنك إذا لم يكن لك وازع يَزَعُك عن الحياء فافعل ما شئت ، وأما معناه الآخر فإنه يقول : إذا لم تفعل فعلاً يُسْتَحَى منه فافعل ما شئت ، وهذا ليس من الكناية فى شىء ؛ فبطل إذاً هذا الحد ؛ ومثال الفقيه فى قوله « إن الكناية هى اللفظ المحتمل » مثال مَنْ أراد أن يَحُدَّ الإنسان فأتى بحد الحيوان ؛ فعبر بالأعم عن الأخص ؛ فانه يقال : كل إنسان حيوان ، وليس كل حيوان إنسانا ، وكذلك يقال ههنا ، فإن كل كناية لفظ محتمل ، وليس كل لفظ محتمل كناية .

والذى عندى فى ذلك أن الكناية إذا وردت تجاذبها جانبا حقيقة ومجاز ، وجاز حَمْلها على الجانبين معا ، ألا ترى أن اللمس فى قوله تعالى : ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ يجوز حمله على الحقيقة والمجاز ، وكل منهما يصح به المعنى ، ولا يختلّ ، ولهذا ذهب الشافعى رحمه الله إلى أن اللمس هو مصافحة الجسد الجسد ، فأوجب الوضوء على الرجل إذا لمس المرأة ، وذلك هو الحقيقة فى اللمس ، وذهب غيره إلى أن المراد باللمس هو الجماع ، وذلك مجاز فيه ، وهو الكناية ، وكل موضع تَرِدُ فيه الكناية فإنه يتجاذبه جانبا حقيقة ومجاز ، و يجوز حمله على كليهما معا ، وأما التشبيه فليس كذلك ، ولا غيره من أقسام المجاز ؛ لأنه لا يجوز حمله إلا على جانب المجاز خاصة ، ولو حمل على جانب الحقيقة لا استحال المعنى ، ألا ترى أنا إذا قلنا : زيد أسد ، لا يصح إلا على جانب المجاز خاصة ، وذاك أنا شبهنا زيدا بالأسد فى شجاعته ، ولو حملناه على جانب الحقيقة لا استحال المعنى ؛ لأن زيدا ليس ذلك الحيوان ذا الأربع والذَّنَب والوَبَر والأنياب والمخالب .

وإذا كان الأمر كذلك فحدُّ الكناية الجامع لها هو : أنها كل لفظةٍ دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز ، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز .

والدليل على ذلك أن الكناية فى أصل الوضع أن تتكلم بشىء وتريد غيره ، يقال : كَنَيْتُ بكذا عن كذا ، فهى تدل على ما تكلمت به ، وعلى ما أردته من غيره ، وعلى هذا فلا تخلو : إماأن تكون فى لفظ تجاذبه جانباً حقيقة ومجاز ، أو فى لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز ، أو فى لفظ تجاذبه جانبا حقيقة وحقيقة ، وليس لنا قسم رابع ، ولا يصح أن تكون فى لفظ تجاذبه جانباً حقيقة وحقيقة ؛ لأن ذلك هو اللفظ المشترك ، وإذا أُطلق من غير قرينة تخصصه كان مبهماً غير مفهوم ، وإذا أُضيف إليه القرينة صار مختصاً بشىء بعينه ، والكناية أن تتكلم بشىء وتريد غيره ، وذلك مخالف للفظ المشترك إذا أُضيف إليه القرينة ؛ لأنه يختص بشىء واحد بعينه لايتعداه إلى غيره ، وكذلك لا يصح أن تكون الكناية فى لفظ تجاذَبَه جانبا مجاز ومجاز ؛ لأن المجاز لا بدَّ له من حقيقة نقل عنها ؛ لأنه فَرْعٌ عليها ، وذلك اللفظ الدال على المجازين إما أن يكون للحقيقة شركة فى الدلالة عليه أو لا يكون لها شركة ، فإن كان لها شركة فى الدلالة فيكون اللفظ الواحد قد دلّ على ثلاثة أشياء أحدها الحقيقة ، وهذا مخالف لأصل الوضع ؛ لأن أصل الوضع أن تتكلم بشىء وأنت تريد غيره ، وههنا تكون قد تكلمت بشىء وأنت تريد شيئين غيره ؛ وإن لم يكن للحقيقة شركة فى الدلالة كان ذلك مخالفاً للوضع أيضاً ؛ لأن أصل الوضع أن تتكلم بشىء وأنت تريد غيره ؛ فيكون الذى تكلمت به دالا على ما تكلمت به وعلى غيره ، وإذا أخرجت الحقيقة عن أن يكون لها شركة فى الدلالة لم يكن الذى تكلمت به دالا على ما تكلمت به ، وهذا محال ؛ فتحقق حينئذ أن الكناية أن تتكلم بالحقيقة وأنت تريد المجاز ،

وهذا الكلام فى حقيقة الدليل على تحقيق أمر الكناية لم يكن لأحد فيه قول سابق .

واعلم أن الكناية مشتقة من الستر ، يقال : كَنَيْتُ الشىء ؛ إذا سَتَرْتَه ، وأجرى هذا الحكم فى الألفاظ التى يستتر فيها المجاز بالحقيقة ؛ فتكون دالة على الساتر وعلى المستور معا ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ) فإنه إن حمل على الجماع كان كناية ؛ لأنه ستر الجماع بلفظ اللمس الذى حقيقته مصافحة الجسد الجسد ، وإن حمل على الملامسة التى هى مصافحة الجسد الجسد كان حقيقة ، ولم يكن كناية ، وكلاهما يتمُّ به المعنى ، وقد تأولت الكناية بغير هذا ، وهى أنها مأخوذة من الكُنْيَة التى يقال فيها : أبو فلان ، فإنا إذا نادينا رجلا اسمه عبد الله وله ولد اسمه محمد فقلنا : يا أبا محمد ، كان ذلك مثل قولنا : يا عبد الله ؛ فإن شئنا ناديناه بهذا ، وإن شئنا ناديناه بهذا ، وكلاهما واقع عليه ، وكذلك يجرى الحكم فى الكناية ، فإنا إذا شئنا حملناها على جانب المجاز ، وإذا شئنا حملناها على الحقيقة ، إلا أنه لابدَّ من الوصف الجامع بينهما ؛ لئلا يلحق بالكناية ما ليس منها ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (إِنَّ هٰذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ) فكنى بذلك عن النساء ، والوصف الجامع بينهما هو التأنيث ، ولولا ذلك لقيل فى مثل هذا الموضع : إن أخى له تسع وتسعون كبشاً ولى كبش واحد ، وقيل : هذه كناية عن النساء ، ومن أجل ذلك لم يلتفت إلى تأويل من تأول قوله تعالى : (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) أنه أراد بالثياب القلبَ ، على حكم الكناية ؛ لأنه ليس بين الثياب والقلب وصفٌ[1] جامع ، ولو كان بينهما وصف جامع لكان التأويل صحيحاً .

---

(١) قد استعمل العرب الثياب وهم يريدون القلب ، فمن ذلك قول عنترة :

فَشَكَكْتُ بِالرُّمْحِ الْأَصَمِّ ثِيَابَهُ   لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمِ

فان قيل : فما الدليل على اشتقاق الكناية من كَنَيْتُ الشىء إذا سترته ، ومن الكنية ؟

قلت فى الجواب : أما اشتقاقها من كَنَيْتُ الشىء إذا سترته فإن المستور فيها هو المجاز ؛ لأن الحقيقة تفهم أولا ، ويتسارع الفهم إليها قبل المجاز ؛ لأن دلالة اللفظ عليها دلالة وضعية ، وأما المجاز فإنه يفهم منه بعد فهم الحقيقة ، وإنما يفهم بالنظر والفكرة ، ولهذا يحتاج إلى دليل ، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ ؛ فالحقيقة أظهر ، والمجاز أخفى ، وهو مستور بالحقيقة ، ألا ترى إلى قوله تعالى: (أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ) فإن الفهم يتسارع فيه إلى الحقيقة التى هى مصافحة الجسد الجسد ، وأما المجاز الذى هو الجماع فإنه يفهم بالنظر والفكر ، ويحتاج الذاهب إليه إلى دليل ؛ لأنه عدول عن ظاهر اللفظ . وأما اشتقاقها من الكنية فلأن محمداً فى هذه الصورة المذكورة هو حقيقة هذا الرجل : أى الاسم الموضوع بإزائه أولا ، وأما أبوعبدالله فإنه طارٍ عليه بعد محمد ؛ لأنه لم يكن له إلا بعد أن صار له ولد اسمه عبد الله ، وكذلك الكناية ؛ فإن الحقيقة لها هو الاسم الموضوع بإزائها أولا فى أصل الوضع ، وأما المجاز فإنه طارٍ عليها بعد ذلك ؛ لأنه فرع ، والفرع إنما يكون بعد الأصل ، وإنما يعمد إلى ذلك الفرع للمناسبة الجامعة بينه وبين الأصل على ما تقدم الكلام فيه ، وهذا القدر كاف فى الدلالة على اشتقاق الكناية من ذينك المعنيين المشار إليهما .

فإن قيل : إنك قد ذكرت أقسام المجاز فى باب الاستعارة التى قدمت ذكرها فى كتابك هذا ، وحصرتها فى أقسام ثلاثة ، وهى : التوسع فى الكلام ، والاستعارة ، والتشبيه ، ونراك قد ذكرت الكناية فى المجاز أيضا ، فهل هى قسم رابع لتلك الأقسام الثلاثة أم هى من جملتها ؟ فإن كانت قسما رابعا ، فذلك نَقْضٌ للحَصْر الذى حصرته ، وإن كانت من جملتها فقد أعدت ذكرها ههنا مرة ثانية ، وهذا المكرر لا حاجة إليه .

فالجواب عن ذلك أنى أقول : أما الحصر الذى حصرته فى باب الاستعارة فهو ذاك ، ولا زيادة عليه ، وأما الكناية فإنها جزء من الاستعارة ، ولا تأتى إلا على حكم الاستعارة خاصة ، لأن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يُطْوَى ذكر المستعار له ، وكذلك الكناية ، فإنها لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المكنى عنه ، ونسبتها إلى الاستعارة نسبة خاص إلى عام ؛ فيقال : كل كناية استعارة ، وليس كل استعارة كناية ، ويفرق بينهما من وجه آخر ، وهو أن الاستعارة لفظها صريح ، والصريح هو : مادل عليه ظاهر لفظه ، والكناية : ضد الصريح ؛ لأنها عدول عن ظاهر اللفظ ، وهذه ثلاثة فروق : أحدها : الخصوص والعموم ، والآخر الصريح ، والآخر الحمل على جانب الحقيقة والمجاز .

وقد تقدم القول فى باب الاستعارة أنها جزء من المجاز ، وعلى ذلك فتكون نسبة الكناية إلى المجاز نسبة جزء الجزء وخاص الخاص .

وكان ينبغى أن نذكر الكناية عند ذكر الاستعارة فى النوع الأول من هذه الأنواع المذكورة فى المقالة الثانية ، وإنما أفردتها بالذكر ههنا من أجل التعريض ؛ لأن من العادة أن يذكرا جميعا فى مكان واحد .

وقد يأتى فى الكلام ما يجوز أن يكون كناية ويجوز أن يكون استعارة ، وذلك يختلف باختلاف النظر إليه بمفرده والنظر إلى مابعده ، كقول نصر بن سيار فى أبياته المشهورة التى يحرض بها بنى أمية عند خروج أبى مسلم :

أرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وميضَ جَمْرٍ ... وَيُوشِكُ أنْ يَكونَ لَهُ ضِرَامُ
فَإنَّ النَّارَ بِالزَّنْدَيْنِ تُورَى ... وَإنَّ الْحَرْبَ أوَّلُهَا كَلَامُ
أقُولُ مِنَ التَّعَجُّبِ : لَيْتَ شِعْرِى ... أأيْقَاظٌ أمَيَّةُ أمْ نِيَامُ
فَإنْ هَبُّوا فَذَاكَ بَقَاءُ مُلْكٍ ... وَإنْ رَقَدُوا فَإنِّى لَا أُلَامُ

فالبيت الأول لو ورد بمفرده كان كناية ؛ لأنه يجوز حمله على جانب الحقيقة وحمله على جانب المجاز : أما الحقيقة فإنه أخبر أنه رأى وميض جمر فى خلل الرماد ، وأنه سيضطرم ، وأما المجاز فإنه أراد أن هناك ابتداء شرٍّ كامنٍ ومثله بوَميض

جمر من خلل الرماد ، و إذا نظرنا إلى الأبيات جملتها اختصّ البيت الأول منها بالاستعارة دون الكناية .

وكثيراً ما يرد مثل ذلك ويشكل ؛ لتجاذبه بين الكناية والاستعارة ، على أنه لا يشكل إلا على غير العارف .

وأما التعريض : فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم ، لا بالوضع الحقيقى ولا المجازى ، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب : واللهِ إنى لمحتاج وليس فى يدى شىء وأنا عُرْيَان والبرد قد آذانى ؛ فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب ، وليس هذا اللفظ موضوعاً فى مقابلة الطلب ، لا حقيقة ولا مجازاً ، إنما دَلَّ عليه من طريق المفهوم ، بخلاف دلالة اللمس على الجماع ، وعليه ورد التعريض فى خطبة النكاح ، كقولك للمرأة : إنَّكِ لَخَلِيَّةٌ وإنى لعَزَبٌ ؛ فإن هذا وأمثاله لا يدلّ على طلب النكاح حقيقة ولا مجازاً ، والتعريض أخفى من الكناية ؛ لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقى ولا المجازى ، وإنما سمى التعريض تعريضاً لأن المعنى فيه يفهم من عُرْضه : أى من جانبه ، وعُرْض كل شىء : جانبه .

وأعلم أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً ؛ فتأتى على هذا تارة ، وعلى هذا أخرى ، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب ، ولا يأتى فى اللفظ المفرد البتة ، والدليل على ذلك أنه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز ، وإنما يفهم من جهة التَّلْوِيح والإشارة ، وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد ، ولكنه يحتاج فى الدلالة عليه إلى اللفظ المركب ، وعلى هذا فإن بيت أمرىء القيس[(١)] الذى ذكره ابن سِنَان مثالا للكناية هو مثال للتعريض ؛

(١) هو قوله :

فَصِرْنَا إلَى الْحُسْنَى وَرَقَّ كَلَامُنَا وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أَىَّ إذْلَالِ

وقد سبق فى أول الكلام على هذا النوع .

فإن غَرَضَ أمرىء القيس من ذلك أن يذكر الجماع ، غير أنه لم يذكره ، بل ذكر كلاماً آخر يفهم الجماع من عرضه ؛ لأن المصير إلى الْحُسْنَى ورقة الكلام لا يفهم منهما ما أراده أمرؤ القيس من المعنى لا حقيقة ولا مجازاً ، وهذا لاخفاء به فاعرفه .

وحيث فرقنا بين الكناية والتعريض وميزنا أحدهما عن الآخر فلنفصلهما ، ونذكر أقسامهما ، ولنبدأ أولا بالكناية ؛ فنقول :

أعلم أن الكناية تنقسم قسمين : أحدهما : ما يحسن استعماله ، والآخر ما لا يحسن استعماله ، وهو عيب فى الكلام فاحش .

وقد ذهب قوم إلى أن الكناية تنقسم أقساماً ثلاثة : تمثيلا ، وإردافاً ، ومجاورة .

فأما التمثيل فهو أن تراد الإشارة إلى معنى فَيُوضَعَ لفظ لمعنى آخر ، ويكون ذلك مثالا للمعنى الذى أريدت الإشارة إليه ، كقولهم : فُلَانٌ نَقِيُّ الثوب : أى مُنَزَّه من العيوب .

وأما الإرداف فهو أن تُرَاد الإشارة إلى معنى فَيُوضَعَ لفظ لمعنى آخر ، ويكون ذلك رادفاً للمعنى الذى أريدت الإشارة إليه ولازما له ، كقولهم : فلان طويلُ النِّجَاد : أى طويل القامة ؛ فطول النجاد رادف لطول القامة ولازم له ، بخلاف نَقَاء الثوب فى الكناية عن النزاهة من العيوب ؛ لأن نَقَاء الثوب لا يلزم منه النزاهة من العيوب ، كما يلزم من طول النِّجَاد طولُ القامة .

وأما المجاورة فهى أن تريد ذكر الشىء فتتركه إلى ما جاوره ، كقول عنترة(١) :

بِزُجَاجَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أَسِرَّةٍ ... قُرِنَتْ بِأَزْهَرَ فِى الشِّمَالِ مُفَدَّمِ

(١) البيت من معلقته التى أولها قوله :

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ ... أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

يريد بالزجاجة الخمر ، فذكر الزجاجة وكنى بها عن الخمر ؛ لأنها مجاورة لها .

وهذا التقسيم غير صحيح ؛ لأن من شرط التقسيم أن يكون كل قسم منه مختصاً بصفة خاصة تفصله عن عموم الأصل ، كقولنا : الحيوان ينقسم أقساماً منها الإنسان ، وحقيقته كذا وكذا ، ومنها الأسد وحقيقته كذا وكذا ، ومنها الفرس وحقيقته كذا وكذا ، ومنها غير ذلك ؛ وههنا لم يكن التقسيم كذلك ؛ فإن التمثيل على ما ذكر عبارة عن مجموع الكناية ؛ لأن الكناية إنما هى أن تُراد الإشارة إلى معنى فيوضع لفظ لمعنى آخر ، ويكون ذلك اللفظ مثالا للمعنى الذى أريدت الإشارة إليه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (إِنَّ هٰذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ) فإنه أراد الإشارة إلى النساء ، فوضع لفظاً لمعنى آخر ، وهو النعاج ، ثم مثل به النساء ، وهكذا يجرى الحكم فى جميع مايأتى من الكنايات ؛ لكن منها مايَتَّضِح التمثيل فيه وتكون الشَّبَهِيَّة بين الكناية والمكنىّ عنه شديدةَ المناسبة ، ومنه مايكون دون ذلك فى الشبهية ، وقد تأمَّلْت ذلك ، وحَقَّقْت النظر فيه ؛ فوجدت الكناية إذا وردت على طريق اللفظ المركب كانت شديدة المناسبة واضحة الشبهية ، وإذا وردت على طريق اللفظ المفرد لم تكن بتلك الدرجة فى قوة المناسبة والمشابهة ، ألا ترى إلى قولهم : فلانٌ نقىّ الثوب ، وقولهم اللمس كناية عن الجماع ؛ فإن نقاء الثوب أشدُّ مناسبة وأوضح شبهاً ؛ لأنا إذا قلنا نقاء الثوب من الدنس كنزاهة العرض من العيوب اتضحت المشابهة ووجدت المناسبة بين الكناية والمكنى عنه شديدة الملاءمة ، وإذا قلنا اللمس كالجماع لم يكن بتلك الدرجة فى قوة المشابهة ، وهذا الذى ذكر من أن من الكناية تمثيلا وهو كذا وكذا غير سائغ ولا وارد ، بل الكناية كلها هى ذاك ، والذى قدمته من القول فيها هو الحاصر لها ، ولم يأت به أحد غيرى كذلك .

وأما الإرداف فإنه ضرب من اللفظ المركب ، إلا أنه اختصَّ بصفة تخصه ، وهى أن تكون الكناية دليلا على المكنى عنه ولازمة له ، بخلاف غيرها من

الكنايات ، ألا ترى أن طول النِّجَاد دليلٌ على طول القامة ولازم له ، وكذلك يقال : فلان عظيم الرَّماد : أى كثير إطعام الطعام ، وعليه ورد قول الأعرابية فى حديث أم زَرْع فى وصف زوجها : له إبلٌ قليلاتُ المَسارح كثيرات المَبَارِك ، إذا سَمِعْنَ صوت المزهر أيقن أنهن هَوَالك ، وغرضُ الأعرابية من هذا القول أن تصفَ زوجها بالجود والكرم ، إلا أنها لم تذكر ذلك بلفظه الصريح ، وإنما ذكرته من طريق الكناية على وجه الإرداف الذى هو لازم له .

وكذلك ورد فى الأخبار النبوية أيضاً ، وذاك أن امرأة جاءت إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فسألته عن غسلها من الحيض ، فأمرها أن تغتسل ، ثم قال : « خُذِى فِرْصَةً مِنْ مِسْكٍ فتَطَهَّرِى بِهاَ » قالت : كيف أتطهر بها ؟ فقال : « تَطَهَّرِى بِهاَ » قالت : كيف أتطهر بها ؟ قال : « سُبْحَانَ اللهِ ! تَطَهَّرِى بِهاَ » فاجتذبتها عائشة رضى الله عنها إليها ، وقالت : تَتَبَّعِى بها أثَرَ الدم ، فقولها « أثر الدم » كناية عن الفرج على طريق الإرداف ؛ لأن أثر الدم فى الحيض لا يكون إلا فى الفرج ، فهو رادف له .

ومما ورد من ذلك شعراً قول عمر بن أبى ربيعة[1] :

بَعِيدَةُ مَهْوَى القُرْطِ إمَّا لِنَوْفَلٍ ... أبُوهاَ وَإمَّا عَبْدُ شَمْسٍ وَهاَشِمُ

فإن بُعْدَ مَهْوَى القُرْط دليل على طول العنق .

ومن لطيف هذا الموضع وحسنه ما يأتى بلفظة مثل ؛ كقول الرجل إذا نفى عن نفسه القبيح : مثلى لا يفعل هذا : أى أنا لا أفعله ، فنفى ذلك عن مثله ويريد نفيه عن نفسه ؛ لأنه إذا نفاه عمن يماثله ويشابهه فقد نفاه عن نفسه لا محالة ؛ إذ هو بنفى ذلك عنه أجدر ، وكذلك يقال : مِثْلُكَ إذا سُئِلَ أعطى :

(١) البيت من أبيات له رواها أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى (١ – ١٥٧ دار الكتب) وأول هذه الأبيات قوله :

نَظَرْتُ لَهَا بِالْمُحَصَّبِ مِنْ مِنًى ... وَلِى نَظَرٌ لَوْلاَ التَّحَرُّجُ عارِمُ

أى أنت إذا سئلت أعطيت ، وسبب ورود هذه اللفظة فى هذا الموضع أنه يجعل من جماعة هـذه أوصافهم تثبيتا للأمر وتوكيدا ، ولو كان فيه وحده لقلق منه موضعه ، ولم يَرْسُ فيه قدمه ، وهذا مثل قول القائل إذا كان فى مدح إنسان : أنت من القوم الـكرام : أى لك فى هذا الفعل سابقة ، وأنت حقيق به ، ولست دخيلا فيه .

وقد ورد هذا فى القرآن الـكريم ، كقوله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) والفرق بين قوله (ليس كمثله شىء) وبين قوله ليس كالله شىء هو ما أشرت إليه ، وإن كان الله سبحانه وتعالى لا مثل له حتى يكون لمثله مثل ، وإنما ذكر ذلك على طريق المجاز قصداً للمبالغة .

وقد يأتى هذا الموضع بغير لفظة مثل وهى مقصودة ، كقولك للعربى : العربُ لا تَخفِرُ الذِّمَمَ : أى أنت لا تخفر الذمم ، وهذا أبلغ من قولك : أنت لا تخفر الذمم ؛ لما أشرت إليه .

وعلى نحو من هذا جاء قول أبى الطيب المتنبى[1] :

أَلَسْتُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِى مِنْ رِمَاحِهِمْ ... نَدَاهُمْ وَمِنْ قَتْلاَهُمُ مُهْجَةُ الْبُخْلِ[2]

(١) البيت من قصيدة له يرثى فيها أبا الهيجاء عبدالله بن سيف الدولة ، وأولها قوله :

بِنَا مِنْكَ فَوْقَ الرَّمْلِ مَابِكَ فى الرَّمْلِ ... وَهٰذَا الَّذِى يُضْنِى كَذَاكَ الَّذِى يُبْلِى

(٢) « من القوم الذى » حذف النون من الذين ، كما حذفها الأشهب بن رميلة فى قوله :

وَإِنَّ الَّذِى حَانَتْ بِفَلْجٍ دِمَاؤُهُمْ ... هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدِ

وكما حذفها أمية بن الأسكر الـكنانى فى قوله :

قَوْمِى الَّذُو بِعُكَاظٍ طَيَّرُوا شَرَرًا ... مِنْ رُوسِ قَوْمِكَ ضَرْبًا بِالْمَصَاقِيلِ

وكما حذفها عمرو بن كلثوم التغلبى فى قوله :

أَبَنِى كُلَيْبٍ إِنَّ عَمَّىَّ اللَّذَا ... قَتَلاَ الْمُلُوكَ وَفَكَّكَا الْأَغْلاَلاَ

والتلاعب بالاسم الموصول فى العربية كثير ؛ لأنهم يستكثرون ثلاثة أشياء تدل على

وإذا فرغت من ذكر الأصول التى قدمت ذكرها فإنى أتبعها بضرب الأمثلة نثراً ونظماً ، حتى يزداد ما ذكرته وضوحا .

فمن ذلك ما ورد فى القرآن الكريم ، نحو قوله تعالى : (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً) فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتا ، ثم جعل ما هو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة ؛ فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له مطابقة للمعنى الذى وردت من أجله ؛ فأما جعل الغيبة كأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله فشديد المناسبة جداً ؛ لأن الغيبة إنما هى ذكر مَثَالب الناس وتمزيق أعراضهم ، وتمزيقُ العرض مماثل لأكل الإنسان لحم مَنْ يغتابه ؛ لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة ، وأما جعله كلحم الأخ فلِما فى الغيبة من الكراهة ؛ لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها آمران بتركها والبعد عنها ، ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ فى كراهته ، ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر ، إلا أنه لا يكون مثل كراهته لحم أخيه ، فهذا القول مُبَالغة فى استكراه الغيبة ، وأما جَعْلُ اللحم ميتا فمن أجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس بها ، وأما جَعْلُه ما هو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة فلما جُبِلَت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة والشَّهْوَة لها مع العلم بقبحها ؛ فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبها ؛ لأنك إذا نظرت

شىء واحد ، وهى الموصول والصلة والعائد ، فلما استطالوا هذه الأشياء مع أنها لا تكون جملة مستقلة استهانوا بها واستساغوا الحذف فيها ؛ فأحيانا يحذفون من الموصول ، وأحيانا يحذفون الموصول برمته ، وأحيانا يحذفون الصلة ، وأحيانا يحذفون العائد ، وهذا كله كثير الشواهد فى العربية ، ولولا أن يكون فى الإتيان بها إطالة عليك ، مع أن هذا الكتاب ليس مختصا بمثل هذه المباحث ، لجئتك بالكثير من شواهد هذه الحذوف .

إلى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع التى أشرنا إليها وجدتها مناسبة لما قصدت له .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا) والأرض التى لم يطئوها كناية عن مناكح النساء ، وذلك من حسن الكناية ونادره .

وكذلك ورد قوله تعالى : (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً) فكنى بالماء عن العلم وبالأودية عن القلوب وبالزبد عن الضلال ، وهذه الآية قد ذكرها أبو حامد الغزالى رحمه الله فى كتابه الموسوم بـ « بإحياء علوم الدين » وفى كتابه الموسوم بـ « بالجواهر » و « الأربعين » وأشار بها إلى أن فى القرآن الكريم إشارات وإيماآت لا تنكشف إلا بعد الموت ، وهذا يدلّ على أن الغزالى رحمه الله لم يعلم أن هذه الآية من باب الكنايات الذى لفظها يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز .

وقد رأيت جماعة من أئمة الفقه لايحققون أمر الكناية ، وإذا سئلوا عنها عبروا عنها بالمجاز ، وليس الأمر كذلك ، وبينهما وصف جامع ، كهذه الآية وما جرى مجراها ؛ فإنه يجوز حمل الماء على المطر النازل من السماء ، وعلى العلم ، وكذلك يجوز حمل الأودية على مهابط الأرض ، وعلى القلوب ، وهكذا يجوز حمل الزَّبَد عل الْغُثَاء الرابى الذى تقذفه السيول ، وعلى الضلال ، وليس فى أقسام المجاز شىء يجوز حمله على الطرفين معاً سوى الكناية .

وبلغنى عن الفراء النحوى أنه ذكر فى تفسيره آية ، وزعم أنها كناية ، وهى قوله تعالى : (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) فقال : إن الجبال كناية عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الآيات ، وهذه الآيةُ من باب الاستعارة ، لا من باب الكناية ؛ لأن الكناية لا تكون إلا فيما جاز حمله على جانبى المجاز والحقيقة ،

والجبال ههنا لا يصح بها المعنى إلا إذا حملت على جانب المجاز خاصة ؛ لأن مكر أولئك لم يكن لتزول منه جبال الأرض ؛ فإن ذلك محال .

وأما ما ورد منها فى الأخبار النبوية فقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إنَّهُ كانت امرأة فيمن كان من قبلنا ، وكان لها ابنُ عمٍّ يُحِبُّهَا ، فَرَاوَدَها عن نفسها ، فامتنعت عليه ، حتى إذا أصابتها شِـــدَّةٌ فجاءت إليه تسأله ، فَرَاوَدَها ، فمكنته من نفسها ؛ فلما قَعَدَ منها مَقْعَدَ الرجل من المرأة قالت له : لا يَحِلُّ لك أن تَفُضَّ الخاتم إلا بحقه » فقام عنها وتركها ، وهذه كناية واقعة فى موقعها .

ومن ذلك أيضاً قول النبى صلى الله عليه وسلم : « رُوَيْدَكَ سَوْقَكَ بِالقَوَارِيرِ » يريد بذلك النساء ، فكنى عنهنَّ بالقوارير ، وذاك أنه كان فى بعض أسفاره وغُلَامٌ أسود اسمه أَنْجَشَةُ يَحْدُو ، فقال له : « يا أنجشة ، رويدك سوقك بالقوارير » وهذه كناية لطيفة .

وكذلك ورد حديث الحديبية ، وذاك أنه لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الركية جاءه بُدَيْل بن وَرْقَاء الْخُزَاعى فى نفر من قومه من أهل تهامة ، فقال : تركْتُ كعبَ بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا عداد مياه الحديبية معهم الْعُوذُ الْمَطَافيل ، وهم مقاتلوك وصَادُّوك عن البيت ، وهذه كناية عن النساء والصبيان ، والعوذ : جمع عائذ ، وهى الناقة التى وضعت وقَوِىَ ولدها ، وهذا يجوز حمله على طريق الحقيقة ، كما جاز حمله على طريق المجاز : أى معهم الأموال من الإبل ، وهى كانت جُلَّ أموال العرب : أى أنهم قد أحضروا أموالهم ليقاتلوا دونها ؛ ولما جاز حمل العوذ المطافيل على النساء والصبيان وعلى الأموال كان من باب الكناية .

ومن ذلك ما ورد فى إقامة الحد على الزانى ، وهو أن يشهد عليه برؤية المِيلِ فى المُكْحُلة ، وذلك كناية عن رؤية الفرج فى الفرج .

ومن لطيف الكناية أن امرأة جاءت إلى عائشة رضى الله عنها فقالت لها :

أقيِّدُ جملى ؟ فقالت عائشة رضى الله عنها : لا ، أرادت المرأة أنها تصنع لزوجها شيئاً يمنعه عن غيرها : أى تربطه أن يأتى غيرها ، فظاهر هذا اللفظ هو تقييد الجمل ، وباطنه ما أرادته المرأة وفهمته عائشة منها .

وكذلك يروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وذاك أنه جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، هلكت ، قال : « وَمَا أَهْلَكَكَ » قال : حولتُ رَحْلِى البارِحَة ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ وَاتَّقِ الدُّبُرَ والْحَيْضَة » .

ويروى أن عمرو بن العاص زوج ولده عبد الله رضى الله عنه ، فمكثت المرأة عنده ثلاث ليال لم يدن منها ، وإنما كان ملتفتاً إلى صلاته ، فدخل عليها عمرو بعد ثلاث ، فقال : كيف تَرَيْنَ بعلك ؟ فقالت : نعم البعل إلا أنه لم يُفَتِّشْ لنا كنفاً ولا قرب لنا مضجعاً ، فقولها « لم يفتش لنا كنفاً ولا قرب لنا مضجعاً » من الكناية الغراء الظاهرة .

ومن ألطف ما بلغنى فى هذا قول عبد الله بن سلام ، فإنه رأى على رجل ثوبا معصفراً ، فقال : لوأن ثوبك فى تَنُّور أهلك أوتحت قدرهم كان خيراً ، فذهب الرجل فأحرقه ، نظراً إلى حقيقة قول عبد الله وظاهر مفهومه ، وإنما أراد المجاز منه ، وهو أنك لوصَرَفْتَ ثمنه إلى دقيق تخبزه أو حطب تطبخ به كان خيراً ، والمعنى متجاذب بين هذين الوجهين ، فالرجل فهم منه الظاهر الحقيقى فمضى فأحرق ثوبه ، ومراد عبد الله غيره .

ومن هذا القسم ما ورد فى أمثال العرب كقولهم : إيَّاكَ وَعَقِيلَةَ الْمِلْحِ ، وذاك كناية عن المرأة الحسناء فى مَنْبِتِ السوء ؛ فإن عقيلة الملح هى اللؤلؤة تكون فى البحر ، فهى حسنة وموضعها ملح .

وكذلك قولهم : لَبِسَ لَهُ جِلْدَ النَّمِرِ ، كناية عن العداوة ، وقد يقاس على هذا أن يقال : لبس له جلد الأسد ، ولبس له جلد الذئب ، ولبس له جلد الأرقم ؛

لأن هذا كله مثل قولهم : لبس له جلد النمر ، إذ العداوة محتملة فى الجميع .

وكذلك قولهم : قَلَبَ لهُ ظَهْرَ المِجَنّ ، كناية عن تغيير المودة .

ومما ورد فى ذلك شعراً قول أبى نُوَاس :

لاَ أذُودُ الطَّيْرَ عَنْ شجَرٍ ‏ قَدْ بَلَوْتُ المُرَّ مِنَ ثَمَرِهْ

وهذا له حكاية ، وهو أنه كان لأبى نواس صديقة تغشاه ، فقيل له : إنها تختلف إلى آخر من أهل الريب ، فلم يصدق ذلك حتى تبعها يوما من الأيام فرآها تدخل منزل ذلك الرجل ، ثم إن ذلك الرجل جاءه ، وكان صديقاً له ، فكلمه ، فصرف وجهه عنه ، ثم نظم قصيدته المشهورة التى مطلعها :

* أيُّهَا المُنْتَابُ عَنْ عُفُرِهْ[1] *

وهذا البيت من جملة أبياتها .

وكذلك ورد قوله أيضاً :

وَنَاظِرَةٍ إلَيَّ مِنَ النِّقَابِ ‏ تُلاَحِظُنِى بِطَرْفٍ مُسْتَرَابِ
كَشَفْتُ قِنَاعَهَا فَإِذَا عَجُوزٌ ‏ مُمَوَّهَـةُ المَفَارِقِ بِالْخِضَابِ
فَمَا زَالَتْ تُحَمِّسُنِى طَوِيلاً ‏ وَتَأْخُذُ فِى أَحَادِيثِ التَّصَابِى
تُحَاوِلُ أَنْ يَقُومَ أَبُو زِيَادٍ ‏ وَدُونَ قِيَامِهِ شَيْبُ الْغُرَابِ
أَتَتْ بِجِرَابِهَا تَكْتَالُ فِيهِ ‏ فَقَامَتْ وَهْىَ فَارِغَةُ الْجِرَابِ

فقوله « أتت بجرابها تكتال فيه » من باب الكناية ؛ إذ الجراب يجوز حمله على الحقيقة والمجاز ، وكذلك الكيل أيضاً .

ومما جاء من هذا الباب قول أبى تمام فى قصيدته التى يستعطف بها مالك بن طَوْق على قومه ؛ ومطلعها :

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* لَسْتَ مِنْ لَيْلِى وَلاَ سَحَرِهْ *

انظر الديوان (٦٦) .

* أَرْضٌ مُصَرَّدَةٌ وَأَرْضٌ تُثْجَمُ(١) *

مَالِى رَأَيْتُ تُرَابَكُمْ يَبِسَ الثرى مَالِى أَرَى أَطْوَادَكُمْ تَتَهَدَّمُ(٢)

« فيبس الثرى » كناية عن تنكر ذات البين ، تقول : يَبِسَ الثرى بينى و بين فلان ؛ إذا تنكر الود الذى بينك و بينه ، وكذلك « تهدُّم الأطواد » ؛ فإنه كناية عن خفَّة الحلوم وطَيْش العقول .

ومن الكناية الحسنة قول أبى الطيب المتنبى فى قصيدته التى يعاتب فيها سيف الدولة بن حمدان التى مطلعها :

* وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ(٣) *

وَشَرُّ مَا قَنَصَتْهُ رَاحَتِى قَنَصٌ شُهْبُ الْبُزَاةِ سَوَاءٌ فِيهِ وَالرَّخَمُ

يشير بذلك إلى أن سيف الدولة يستوى فى المنال منه هو وغيره ؛ فهو البازى ، وغيره الرَّخمة ، و إن حمل المعنى على جانب الحقيقة كان جائزاً .

---

(١) هذا صدر مطلع القصيدة ، وعجزه قوله :

* تِلْكَ الَّتِى رُزِقَتْ وَأُخْرَى تُحْرَمُ *

ووقع فى ب ، ج « وأخرى منجم » بالميم ، والصواب عن الديوان و يحتمله مافى ا .

(٢) رواية الديوان على غير هذا الوجه ، وهاك البيت فى وسط أبيات يتضح بها معناه :

فَسَتَذْكُرُونَ غَدًا صَنَائِعَ مَالِكٍ إِنْ جَلَّ خَطْبٌ أَوْ تُدُوفِعَ مَغْرَمُ

مَنِ النَّقِىُّ مِنَ الْعُيُوبِ وَقَدْ غَدَا عَنْ دَارِكُمْ ؟ وَمَنِ الْعَفِيفُ الْمُسْلِمُ ؟

مَالِى رَأَيْتُ ثَرَاكُمُ يَبِسًا لَهُ مَالِى أَرَى أَطْوَادَكُمْ تَتَهَدَّمُ ؟

مَا هٰذِهِ الْقُرْبَى الَّتِى لاَ تُتَّقَى مَا هٰذِهِ الرَّحِمُ الَّتِى لاَ تُرْحَمُ ؟

حَسَدُ الْعَشِيرَةِ لِلْعَشِيرَةِ قُرْحَةٌ تَلِدَتْ وَسَائِلُهَا وَجُرْحٌ أَقْدَمُ

(٣) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

وَمَنْ بِجِسْمِى وَحَالِى عِنْدَهُ سَقَمُ

وعلى هذا ورد قول الأُقَيْشِرِ الأسدى[١] ، وكان عِنِّيناً لا يأتى النساء ، وكان كثيراً ما يصف ذلك من نفسه ، فجلس إليه يوما رجل من قيس ، فأنشده الأُقَيْشِرُ[١] :

وَلَقَدْ أَرُوحُ بِمُشْرِفٍ ذِى مَيْعَةٍ   عَسِرِ الْمَكَرَّةِ مَاؤُهُ يَتَفَصَّدُ
مَرِحٍ يَطِيرُ مِنَ الْمِرَاحِ لُعَابُهُ   وَيَكَادُ جِلْدُ إِهَابِهِ يَتَقَدَّدُ

ثم قال له : أتبصر الشعر؟ قال: نعم ، قال : فما وصفت ؟ قال : فرسا ، قال : أفكنت تركبه لو رأيته ؟ قال : إى والله وأثنى عطفه ، فكشف له عن أيره ، وقال : هذا وصفت ، فقم فاركبه ، فوثب الرجل عن مكانه ، وقال : قبحك الله من جليسٍ سائرَ اليوم !.

وكذلك أيضاً يحكى أنه وفد سعيد بن عبد الرحمن على هشام بن عبد الملك ، وكان جميل الوجه ، فاختلف إلى عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد ، فراوده عن نفسه ، فوثب من عنده ، ودخل على هشام مغضبا ، وهو يقول :

إِنَّهُ وَاللهِ لَوْلَا أَنْتَ لَمْ   يَنْجُ مِنِّى سَالِمًا عَبْدُ الصَّمَدْ

فقال هشام : ولم ذلك ؟ قال :

إِنَّهُ قَدْ رَامَ مِنِّى خُطَّةً   لَمْ يَرُمْهَا قَبْلَهُ مِنِّى أَحَدْ

قال : ما هى ؟ قال :

رَاحَ جَهْلاً بِى وَجَهْلاً بِأَبِى   يُدْخِلُ الْأَفْعَى عَلَى حَبْسِ الْأَسَدْ

قال : فضحك هشام ، وقال : لو فعلت به شيئاً لم أنكره عليك .

ومن ألطف ما سمعته فى هذا الباب قول أبى نُوَاس فى الهجاء :

إِذَا مَا كُنْتَ جَارَ أَبِى حُسَيْنٍ   فَنَمْ وَيَدَاكَ فِى طَرَفِ السِّلَاحِ

(١) وقع فى ا ، ب ، ج ، د « الأقيس » وهو خطأ ، وصوابه الأقيشر ، وانظر البيتين مع نسبتهما فى آخر شرح التبريزى على الحماسة (٤-٣٥٦) وانظر (ص ٢٢٣ من هذا الجزء) .

فإنَّ لهُ نساءً سارقاتٍ ـ إذا ما بتنَ أطرافَ ـ الرِّماحِ
سرقنَ وقدْ نزلتُ عليهِ أيرى فلمْ أظفرْ بهِ حتّى الصّباحِ
فجاء وقدْ تخدّشَ جانباهُ يئنُّ إلىَّ منْ ألمِ الجراحِ

فتعبيره عن العضو المشار إليه بأطراف الرماح تعبير فى غاية اللطافة والحسن .

وقد أدخل فى باب الكناية ماليس منه ، كقول نُصَيب :

فعاجُوا فأثنَوْا بالّذى أنتَ أهلُهُ ولوْ سكتُوا أثنتْ عليكَ الحقائبُ

وهذا يروى عن الجاحظ ، وما أعلم كيف ذهب عليه مع شهرته بالمعرفة بفن الفصاحة والبلاغة ؛ فإن الكناية هى ما جاز حمله على جانب الحقيقة كما يجوز حمله على جانب المجاز ، وههنا لايصح ذلك ، ولايستقيم ؛ لأن الثناء للحقائب لا يكون إلا مجازاً ، وهذا من باب التشبيه المضمر الأداة الخارج عن الكناية ، والمراد به أن فى الحقائب من عطاياك مايعرب عن الثناء لوسكت أصحابها عنه (١) .

وأما القسم المختص بما يقبح ذكره من الكناية ، فإنه لايحسن استعماله ؛ لأنه عيب فى الكلام فاحش ، وذلك لعدم الفائدة المرادة من الكناية فيه .

فمما جاء منه قول الشريف الرضى يرثى امرأة :

* إنْ لمْ تكنْ نصلاً فغمدُ نصالِ (٢) *

وفى هذا من سوء الكناية ما لاخفاء به ؛ فإن الوهم يسبق فى هذا الموضع إلى

(١) فى البيت على هذا التفسير استعارة مكنية أو مجاز عقلىّ .

(٢) هكذا ورد هذا الشاهد فى ا ، ب ، ج ، د ؛ وهو بهذه الصورة غيرما فى ديوان الشريف الرضى (٢ ـ ٦٧٧) والبيت بتمامه هكذا :

إلاّ يكنْ نصلاً فغمدُ نصولِ غالتْهُ أحداثُ الزّمانِ بغولِ
أوْ لا يكنْ بأبى شبولٍ ضيغمٍ تدمى أظافرُهُ فأمُّ شبولِ

وهو مطلع قصيدة يعزى فيها أبا سعد على بن محمد بن أبى خلف عن وفاة أخته .

مايقبح ذكره ، وهذا المعنى أخذه من قول الفرزدق فمسخه وشوّه صورته ؛ فإن الفرزدق رثى امرأته فقال[(١)] :

وَجَفْنِ سِلَاحٍ قَدْ رُزِئْتُ فَلَمْ أَنُحْ عَلَيْهِ وَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْهِ البَوَاكِيَا[(٢)]

وَفِى جَوْفِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ لَوَ اَنَّ المَنَايَا أَمْهَلَتْهُ لَيَالِيَا[(٣)]

وهذا حسن بديع فى معناه ، وما كنى عن امرأة ماتت بجمع أحسن من هذه الكناية ، ولا أفخم شأناً ، فجاء الشريف الرضى فأخذ معناها وفعل به ماترى ، وليس كل من تصرف فى المعانى أحسن فى تصريفها ، وأبقى هـــذه الرموز فى تأليفها .

وقد عكس هذه القصة مع أبى الطيب المتنبى فأحسن فيما أساء به أبو الطيب طريق الكناية فأخطأ حيث قال[(٤)] :

إِنِّى عَلَى شَغَفِى بِمَا فِى خُمْرِهَا لَأَعِفُّ عَمَّا فِى سَرَاوِيلَاتِهَا

وهذه كناية عن النزاهة والعفة ، إلا أن الفجور أحسن منها .

وقد أخذ الشريف الرضى هذا المعنى فأبرزه فى أجمل صورة حيث قال[(٥)] :

---

(١) البيتان أول كلمة له يقولها وقد ماتت جارية له وهى حبلى ، و بعدهما قوله :

وَلٰكِنْ رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَعْثُرُ بِالفَتَى وَلَا يَسْتَطِيعُ رَدَّ مَا كَانَ جَائِيَا

(٢) فى الديوان « وغمد سلاح » .

(٣) « لو » هذه هى الدالة على التمنى ، أو هى شرطية وجوابها محذوف : أى لو أمهلته المنايا لظهر فضله . وفى ا ، ب ، ج « وفى جوفه فى دارم » وما أثبتناه هو الصواب ، ودارم : قوم الفرزدق .

(٤) من قصيدة له يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمران ، وأولها قوله :

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا دَانِى الصِّفَاتِ بَعِيدُ مَوْصُوفَاتِهَا

واعجب لذوق المتنبى وغلظ طبعه وفساد اختياره ! كيف يجعل هذا الكلام فى قصيدة من قصائد المدح ؟ .

(٥) من قصيدة له يمدح فيها أباه ، وأولها قوله :

بِغَيْرِ شَفِيعٍ نَالَ عَفْوَ المَقَادِرِ أَخُو الجِدِّ لَا مُسْتَنْصِرًا بِالمَعَاذِرِ

أَحِنُّ إِلَى مَا تَضْمَنُ الْخُمْرُ وَالْحُلَى   وَأَصْدِفُ عَمَّا فِي ضَمَانِ الْمَآزِرِ (١)

وأمثال هذا كثير ، وفيما ذكرناه من هذين المثالين مَقْنَع .

وأما التعريض فقد سبق الإعلام به ، وعرفناك الفرق بينه وبين الكناية .

فمما جاء منه قوله تعالى : (قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) وغرض إبراهيم صلوات الله عليه من هذا الكلام إقامة الحجة عليهم ؛ لأنه قال : (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) وذلك على سبيل الاستهزاء ، وهذا من رموز الكلام ، والقول فيه أن قَصْدَ إبراهيم عليه السلام لم يرد به نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه ، وإثباته على أسلوب تعريضٍ يبلغ فيه غرضه من إلزام الحجة عليهم ، والاستهزاء بهم ، وقد يقال فى هذا غير ما أشرت إليه ، وهو أن كبير الأصنام غضب أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها ، وغرض إبراهيم عليه السلام من ذلك أنه لا يجوز أن يعبد مع الله تعالى من هو دونه ؛ فإن مَنْ دونه مخلوق من مخلوقاته ، فجعل إحالة القول إلى كبير الأصنام مثالا لما أراده .

ومن هذا القسم أيضا قوله تعالى : (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) فقوله : (ما نراك إلا بشرا مثلنا) تعريض بأنهم أحقُّ بالنبوة منه ، وأن الله لو أراد أن يجعلها فى أحد من البشر لجعلها فيهم ، فقالوا : هب أنك واحد من الملأ ومُوازٍ لهم فى المنزلة فما جعلك أحق منهم بها ؟ ألا ترى إلى قولهم : (وما نرى لكم علينا من فضل) .

(١) رواية الديوان هكذا :

وَلِلّٰهِ قَلْبِي مَا أَرَقَّ عَلَى الْهَوَى   وَأَصْبَى إِلَى لَثْمِ الْخُدُودِ النَّوَاضِرِ
يَحِنُّ إِلَى مَا تَضْمَنُ الْخُمْرُ وَالْحُلَى   وَيَصْدِفُ عَمَّا فِي ضَمَانِ الْمَآزِرِ

وكان مروان بن الحكم واليا على المدينة من قبل معاوية فعزله ؛ فلما قدم عليه قال له : عزلتك لثلاث لو لم تكن إلا واحدة منهن لأَوْجَبَتْ عزلك : إحداهن أنى أمَّرْتُكَ على عبد الله بن عامر وبينكما ما بينكما فلم تستطع أن تشتفى منه ، والثانية كراهتك أمر زياد ، والثالثة أن ابنتى رملة استَعْدَتْكَ على زوجها عمر بن عثمان فلم تُعْدِها ؛ فقال له مروان : أما عبد الله بن عامر فإنى لا أنتصر منه فى سلطانى ، ولكن إذا تساوت الأقدام علم أين موضعه ، وأما كراهتى أمر زياد فإن سائر بنى أمية كرهوه ، وأما استعداء رملة على عمر بن عثمان فوالله إنه لتأتى على سَنَة وأكثر وعندى بنت عثمان فما أكشف لها ثوبا ، يريد بذلك أن رملة بنت معاوية إنما استعدت لطلب الجماع ، فقال له معاوية : يا ابن الوَزَغ لست هناك ، فقال له مروان : هو ذاك ؛ وهذا من التعريضات اللطيفة .

ومثله فى اللطافة ما يروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وذاك أنه كان يخطب يوم جمعة ، فدخل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فقال عمر : أَيَّةُ ساعة هذه ؟ فقال عثمان : ياأمير المؤمنين ، انْقَلَبْتُ من أمر السوق فسمعت النداء ، فما زدت على أن توضأت ، فقال عمر : والوضوء أيضاً ، وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا بالغسل ؛ فقوله « أية ساعة هذه » تعريض بالإنكار عليه لتأخره عن المجىء إلى الصلاة وترك السبق إليها ؛ وهو من التعريض المعرب عن الأدب .

ووقفت فى كتاب العقد على حكاية تعريضية حسنة الموقع ، وهى أن امرأة وقفت على قيس بن عبادة ؛ فقالت : أشكو إليك قلة الفأر فى بيتى ؛ فقال : ما أحسن ما وَرَّتْ عن حاجتها ، املئوا لها بيتها خبزا وسمنا ولحما .

ومن خفى التعريض وغامضه ما ورد فى الحديث النبوى ، وهو أن النبىّ صلى الله عليه وسلم خرج وهو مُحْتَضِن أحد ابنى ابنته ، وهو يقول : « وَاللهِ إنكم لتجبنون وتبخلون وتجهلون ، وإنكم لَمِنْ رَيْحَانِ اللهِ ، وَإِنَّ آخِرَ وَطْأَةٍ وَطِئَهَا اللهُ

بوَجّ » أعلم أنَّ وَجًّا واد بالطائف ، والمراد به غزاة حُنَين ، وحُنَين : وادٍ قبل وجّ ؛ لأن غزاة حنين آخر غزاة أوقع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المشركين ، وأما غزوتا الطائف وتَبُوك اللتان كانتا بعد حُنَين فلم يكن فيهما وطأة : أى قتال ، وإنما كانتا مجرد خروج إلى الغزو من غير ملاقاة عدو ولا قتال ، ووجه عطف هذا الكلام وهو قوله صلى الله عليه وسلم « وإن آخر وطأة وطئها الله بوج » على ما قبله من الحديث هو التأسُّف على مفارقة أولاده ؛ لقرب وفاته ؛ لأن غزوة حنين كانت فى شوال سنة ثمان ، ووفاته صلى الله عليه وسلم كانت فى ربيع الأول من سنة إحدى عشرة ، وبينهما سنتان ونصف ، فكأنه قال : وإنكم لمن ريحان الله : أى من رزقه ، وأنا مفارقكم عن قريب ، إلا أنه صانعَ عن قوله وأنا مفارقكم عن قريب بقوله « إن آخر وطأة وطئها الله بوج » وكان ذلك تعريضاً بما أراده وقصده من قرب وفاته صلى الله عليه وسلم .

ومما ورد من هذا الباب شعراً قول الشَّمَيْذَر الحارثى (١) :

بَنِي عَمِّنَا ، لاتَذْكُرُوا الشِّعْرَ بَعْدَمَا ... دَفَنْتُمْ بِصَحْرَاءِ الْغُمَيْرِ الْقَوَافِيَا (٢)

وليس قصده ههنا الشعر ، بل قصده ماجرى لهم فى هذا الموضع من الظهور عليهم والغلبة ، إلا أنه لم يذكر ذلك بل ذكر الشعر ، وجعله تعريضاً بما قصده : أى لا تفخروا بعد تلك الواقعة التى جرت لكم ولنا بذلك المكان .

ومن أحسن التعريضات ما كتبه عَمْرو بن مَسْعدة الكاتب إلى المأمون فى أمر بعض أصحابه ، وهو : أما بعد ؛ فقد استشفع بى فلان إلى أمير المؤمنين ليتطَوَّل فى إلحاقه بنُظَرائه من الخاصة ، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجْعَلْنِى فى مَرَاتب

(١) وقع فى ا ، ب ، ج « الشميرد الحارثى » وهو تحريف ، وتصويبه عن شرح الحماسة (١ – ١١٨) .

(٢) البيت أول كلة اختارها أبو تمام فى مستهل كتاب الحماسة (انظر شرح التبريزى : ١ – ١١٨) .

المُسْتَشْفِعِين ، وفى ابتدائه بذلك تعدّى طاعَتِهِ ، فوقَّع المأمون فى ظهر كتابه : قد عرفتُ تصريحَكَ له وتعريضَكَ لنفسك ، وقد أجبناك إليهما .

واعلم أن هـذين القسمين من الكناية والتعريض قد وردا فى غير اللغة العربية ، ووجدتهما كثيرًا فى اللغة السريانيـة ؛ فإن الإنجيل الذى فى أيدى النصارى قد أتى منهما بالكثير .

ومما وجدته من الكناية فى لغة الفرس أنه كان رجل من أساورة كسرى وخواصه فقيل : إن الملك يختلف إلى امرأتك ، فهجرها لذلك ، وترك فراشها ، فأخبرت كسرى ، فدعاه وقال له : قد بلغنى أن لك عيناً عذبة وأنك لا تشرب منها ؛ فما سبب ذلك ؟ قال : أيها الملك ، بلغنى أن الأسد يَرِدُها نخفته ، فاستحسن كسرى منه هذا الكلام ، وأسْنَى عطاءه .

النوع العشرون

فى المغالطات المعنوية

وهذا النوع من أحلى ما استعمل من الكلام وألطفه ؛ لما فيه من التورية .

وحقيقته : أن يذكر معنى من المعانى له مثل فى شيء آخر ونقيض ، والنقيض أحسن موقعاً ، وألطف مأخذا .

فالأول الذى يكون له مثل يقع فى الألفاظ المشتركة ، فن ذلك قول أبى الطيب المتنبى (١) :

(١) من قصيدة له يقولها وقد أوقع سيف الدوله ببنى عقيل و بنى قشير و بنى العجلان و بنى كلاب حين عاثوا فى عمله وخالفوا عليه ، و يذكر إجفالهم من بين يديه وظفره بهم ، وأول هذه القصيدة قوله :

طِوَالُ قَنًا تُطَاعِنُهَا قِصَارُ وَقَطْرُكَ فى نَدًى وَوَغًى بِحَارُ

يَشُلُّهُمُ بِكُلِّ أَقَبَّ نَهْدٍ لِفَارِسِهِ عَلَى الْخَيْلِ الْخِيَارُ(١)
وَكُلِّ أَصَمَّ يَعْسِلُ جَانِبَاهُ عَلَى الْكَعْبَيْنِ مِنْهُ دَمٌ مُمَارُ(٢)
يُغَادِرُ كُلَّ مُلْتَفِتٍ إِلَيْهِ وَلَبَّتُهُ لِثَعْلَبِهِ وِجَارُ(٣)

فالثعلب : هو هــذا الحيوان المعروف ، والْوِجَار : اسم بيته ، والثعلب أيضا هو طَرَف سنان الرمح ؛ فلما اتفق الاسمان بين الثعلبين حسن(٤) ذكر الوِجار فى طرف السنان ، وهذا نقل المعنى من مثل إلى مثله .

وعليه ورد قول المتنبي أيضا(٥) :

بِرَغْمِ شَبِيبٍ فَارَقَ السَّيْفَ كَفُّهُ وَكَانَا عَلَى الْعِلَّاتِ يَصْطَحِبَانِ(٦)
كَأَنَّ رِقَابَ النَّاسِ قَالَتْ لِسَيْفِهِ : رَفِيقُكَ قَيْسِيٌّ وَأَنْتَ يَمَانِي

(١) يشلهم : يطردهم ، والأقب : الضامر البطن ، والنهد : العالى المرتفع .

(٢) الأصم : الشديد الذى ليس بأجوف . يعسل : يضطرب ، والكعبان : اللذان فى عامل الرمح ، وهما يغيبان فى المطعون ، والممار : السائل الجارى .

(٣) قد فسر المؤلف الثعلب والوجار . والوجار : بكسر الواو وفتحها ، يريد أن الرمح الموصوف يترك من التفت إليه ونحره مطعون .

(٤) قال العكبرى : « وأحسن فى هــذه التورية والاستعارة بذكر الوجار والثعلب » اهـ (انظر : ١ - ١٠٤ طبع مطبعة الحلبى) .

(٥) من قصيدة له يذكر فيها خروج شبيب ومخالفته كافورا ، وأولها قوله :

عَــدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ القَمَرَانِ

(٦) شبيب : هو ابن جرير العقيلى ، من قوم أصلهم من القرامطة ، وكانوا مع سيف الدولة ، وولى شبيب معرة النعمان دهرا طويلا ، واجتمع إليه جماعة من العرب فوق عشرة آلاف ، وأراد أن يخرج على كافور ، وقصد دمشق لحاصرها ؛ فيقال : إن امرأة ألقت عليه رحا فصرعته ؛ فانهزم الذين كانوا معه لما مات ؛ ويقال : إنه أكثر من شرب الخمر فحدث به صرع ، ففى ساعة القتال أتته نوبة الصرع فتركه أصحابه ومضوا ، فأخذه أهل دمشق فقتلوه .

فإن شَبيباً الخارجي الذى خرج على كافور الإخشيدى ، وقصد دمشق وحاصرها، وقتل على حصارها ؛ كان من قيس ، ولم تزل بين قيس واليمن عداوات وحروب ، وأخبار ذلك مشهورة ، والسيف يقال له « يمانى » فى نسبته إلى اليمن ، ومراد المتنبى من هذا البيت أن شبيبا لما قتل وفارق السيف كفه فكأن الناس قالوا لسيفه : أنت يمانى وصاحبك قيسى ، ولهذا جانبه السيف وفارقه . وهذه مغالطة حسنة ، وهى كالأولى إلا أنها أدق وأغمض .

وكذلك ورد قول بعضهم من أبيات يهجو بها شاعرا ، فجاء من جملتها قوله :

وَخَلَطْتُمُ بَعْضَ الْقُرْانِ بِبَعْضِهِ ... فَجَعَلْتُمُ الشعَرَاءَ فِى الأَنْعَامِ

ومعنى ذلك أن الشُّعَراء اسم سورة من القرآن الكريم والأنْعَام اسم سورة أيضا ، والشعراء : جمع شاعر ، والأنعام : ما كان من الإبل والبقر .

وكذلك ورد قول بعض العراقيين يهجو رجلا كان على مذهب أحمد ابن حنبل رضى الله عنه ، ثم انتقل إلى مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه ، ثم انتقل إلى مذهب الشافعى رضى الله عنه :

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى الْوَجِيهَ رِسَالَةً ... وَإِنْ كَانَ لاَ تُجْدِى لَدَيْهِ الرسَائِلُ
تَمَذْهَبْتَ لِلنُّعْمَانِ بَعْدَ ابْنِ حَنْبَلٍ ... وَفَارَقْتَهُ إِذْ أَعْوَزَتْكَ الْمَآكِلُ
وَمَا اخْتَرْتَ رَأْىَ الشَّافِعِىِّ تَدَيُّناً ... وَلٰكِنَّمَا تَهْوَى الَّذِى مِنْهُ حَاصِلُ
وَعَمَّا قَلِيلٍ أَنْتَ لاَ شَكَّ صَائِرٌ ... إِلَى مَالِكٍ فَافْطِنْ لِمَا أَنَا قَائِلُ

ومالك : هو مالك بن أنس صاحب المذهب رضى الله عنه ، ومالك : هو خازن النار ، وهذه مغالطة لطيفة .

ومن أحسن ما سمعته فى هذا الباب قول أبى العلاء بن سليمان فى الإبل :

صلْبُ الْعَصَا بِالضَّرْبِ قَدْ دَمَّاهَا ... تَوَدُّ أَنَّ اللهَ قَدْ أَفْنَاهَا
إِذَا أَرَادَتْ رَشَداً أَغْوَاهَا ... محاله من رقه إياها

فالضرب : لفظ مشترك ؛ يطلق على الضرب بالعصا ، وعلى الضَّرْب فى الأرض ،

وهو المسير فيها ، وكذلك دَمَّاها فإنه لفظ مشترك يطلق على شيئين : أحدهما يقال : دماه ؛ إذا أسالَ دمه ، ودماه ؛ إذا جعله كالدُّمْيَة ، وهى الصورة ، وهكذا لفظ الْفَنَاء فإنه يطلق على عِنَب الثَّعْلب ، وعلى إذهاب الشىء إذا لم يبق منه بقية ، يقال : أفناه ؛ إذا أذهبه ، وأفناه ؛ إذا أطعمه الْفَنَاء ، وهو عنب الثعلب ، والرشد والغوى : نبتان ، يقال : أغواه ؛ إذا أضَلّه ، وأغواه ؛ إذا أطعمه الغوى ، ويقال : طلب رشداً ؛ إذا طلب ذلك النبت ، وطلب رشداً ؛ إذا طلب الهداية ، وبعض الناس يظن هذه الأبيات من باب اللغز ، وليس كذلك ؛ لأنها تشتمل على ألفاظ مشتركة ، وذلك معنى ظاهر يستخرج من دلالة اللفظ عليه ، واللغز : هو الذى يستخرج من طريق الْحَزْر والْحَدْس ، لا من دلالة اللفظ عليه ، وسأوضح ذلك إيضاحاً جليًّا فى النوع الحادى والعشرين ، وهو الذى يتلو هذا النوع ؛ فليؤخذ من هناك .

ويروى فى الأخبار الواردة فى غَزَاة بدر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان سائراً بأصحابه يقصد بَدْراً ، فلقيهم رجل من العرب ، فقال : مِمَّن القومُ ؟ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « مِنْ مَاء » ، فأخذ ذلك الرجل يفكر ويقول : من ماء ، من ماء ؛ لينظر أىّ بطون العرب يقال لها ماء ، فسار النبىّ صلى الله عليه وسلم لوجهته ، وكان قصده أن يكتم أمره ، وهذا من المغالطة المثلية ؛ لأنه يجوز أن يكون بعض بطون العرب يسمى ماء ، ويجوز أن يكون المراد أن خَلَقْهُمْ مِنْ مَاء .

وقد جاءنى شىء من ذلك فى الكلام المنثور .

فمنه ما كتبته فى فصل من كتاب عند دخولى إلى بلاد الروم أصِفُ فيه الْبَرَدَ والثلج ؛ فقلت : ومن صفات هذا الْبَرَد أنه يعقد الدر فى خَلْقِهِ ، والدمعَ فى طَرْفه ، وربما تَعَدَّى إلى قليب الخاطر فأجَمَّه أن يجرى بوَصْفِهِ ؛ فالشمس مأسورة ، والنار مقرورة ، والأرض شهباء غير أنها حولية لم تُرَضْ ، ومَسِيلات الجبال أنهار غير أنها جامدة لم تخض .

ومكان المغالطة من هذا الكلام فى قولى : « والأرض شهباء غير أنها حولية لم تُرَضْ » فإن الشهباء من الخيل يقال فيها حَوْلية : أى لها حول ، ويقال : إنها مَرُوضَة : أى ذُلِّلت للركوب ، وهذه الأرض مَضَى للثلج عليها حول فهى شهباء حَوْلية ؛ وقولى : « لم تُرَضْ » أى لم تسلك بعد .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف كريم ؛ فقلت : ولقد نزلت منه بمُهَلَّبيِّ الصُّنع ، أحْنَفِى الأخلاق ، ولقيته فكأنى لم أُرَعْ ممَّنْ أحبُّ بلَوْعة الفِراق ، ولا كرامة للأهل والوطن حتى أقول إنى قد استبدلت به أهلاً ووطناً ، وعهدى بالأيام وهى من الإحسان فاطمة فاستولدتها بجواره حَسَناً .

وهذه تورية لطيفة فإن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم والْحَسَن رضى الله عنهما ولدها ، وفاطمة : هى اسم فاعلة من الفِطَام ، يقال : فَطَمَتْ فهى فاطمة ، كما يقال : فَطَم فهو فاطم ، والْحَسَن : هو الشىء الحسن .

ومن هـذا الأسلوب ما كتبته فى فصل من كتاب إلى بعض الإخوان ، فقلت : وعَهْدُه بقلمِى وهو يتَحَلَّى من البيان بأسمائه ، وتبرز أنوار المعانى من ظلمائه ، وقد أصْبَحَتْ يدى منه وهى حَمَّالة الحطب ، وأصبح خاطرى أبا جَهْلٍ بعد أن كان أبا لَهَب .

وهذا أحسن من الأول ، وأخلب عبارة ، فانظر أيها المتأمل إلى مافيه من التورية اللطيفة ، ألا ترى أن الخاطر يحمد فيوصف بأنه وَقَّاد ومُلْتَهِب ، ويُذَم فيوصف بأنه بليد وجاهل ؛ وأبو لهب وأبو جهل : هما الرجلان المعروفان ، وكذلك حَمَّالة الحطب هى المرأة المعروفة ، وإذا ذُمَّ القلم قيل : إنه حطب ، وإن صاحبه حَاطِب ؛ فلما نقلت أنا هـذا إلى المعنى الذى قصدته جئت به على حكم المغالطة ، ووَرَّيْت فيه تورية ، والمسلك إلى مثل هذه المعانى وتصحيح المقصد فيها عَسِرٌ جداً ، لا جَرَم أن الإجادة فيها قليلة .

ومما يجرى هذا المجرى ماذكرته فى وصف شخص بمعالى الأمور ، وهو :

مِنْ أبَرِّ مَساعيه أنه حاز قُفْلَ المكرمات ومِفتاحها ، فإذا سُئِل مَنْقَبةً كان مَنّاعها وإذا سُئِلَ مَوْهبة كان مَنّاحها ، وأحسن أثراً من ذلك أنه أخذ بأعِنّةِ الصِّعاب وألان جِماحها ، فإذا شهد حَوْمَة حربٍ كان مَنْصُورَها و إذا لقى مُهْجَة خطب كان سَفّاحها .

والمغالطة فى هذا الكلام فى ذكر المنصور والسفاح ؛ فإنهما لقبُ خليفتين من بنى العباس ، والسفاح : أول خلفائهم ، والمنصور : أخوه الذى ولى الخلافة من بعده ، وهما أيضاً من النصر فى حَوْمَة الحرب والسَّفْح الذى هو الإراقة ، والمُهْجَة : دم القلب ؛ فكأنى قلت : هو منصور فى حومة الحرب ، ومُرِيق لدم الخطوب ، وقد اجتمع فى هذا الكلام المنصور والمنصور ، والسفاح والسفاح[1] ، وهذا من المغالطة المثلية لا من النقيضية ، ولا خفاء بما فيها من الحسن .

ومن ذلك ما كتبته فى كتاب إلى بعض الإخوان ؛ فقلت : وقد علمت أن ذلك الأنس بقربه يعقب إيحاشاً ، وأن تلك النَّهْلَة من لقائه تجعل الأكباد عِطاشاً ؛ فإن من شيمة الدهر أن يُبدِّلَ الصَّفْوَ كدَرًا ، ويوسع أيام عُقوقه طولا وأيام بِرِّه قِصَرًا ، وما أقول إلا أنه شعر بتلك المسرة المسروقة فأقام عليها حدّ القطع ، ورأى العيش فيها خَفْضاً فأزاله بعامل الرفع .

والمغالطة فى هذا الكلام هى فى ذكر الخفض والرفع ؛ فإن الْخَفْض : هو سَعَة العيش ، والخفض : هو أحد العوامل النحوية ، والرفع : هو من قولنا : رفعت الشىء ، إذا أزلته ، والرفع : هو أحد العوامل النحوية أيضاً ، وهذا من المغالطات الخفية .

ومن ذلك ما كتبته فى فصل أصف فيه الْحُمَّى ، وكنت إذ ذاك بحصن سُمَيْساط ، وهو بلد من بلاد الأرمن ، فقلت : ومما أكْرَهُ فى حال المرض بهذه الأرض أنّ الْحُمَّى خَيَّمَتْ بها فاستقرّت ، ولم تقنع بأهلها حتى سَرَتْ إلى تربتها فَتُرَى وقد أخذتها النافِضُ فاقشعرّت ، ولم يشكل أمرها إلا لأنها حمى أرمنية

(١) كذا ؛ ولعله «وقد اجتمع فى هذا الكلام المنصور والسفاح» من غير تكرير

مستعجمة اللسان ، وقد تشتبه الأمراض وأهل بلادها فى الابان ، وإذا كانت الحمى كافرة لم تزل للمسلم حربا ، وشَكَاتُها لا تسمى شكاة وإنما تسمى طعناً وضربا ، ولهذا صارت الأدوية فى علاجها ليست بأدوية ، وأصبحت أيامُ نَحْرِها فى الناس غيرَ مبتداةٍ بأيام تَرْوِيَة ، وليس مَوْسِمُهَا فى فَصْل معلوم بل كُلُّ فصول العام من مواسمها ، ولو كاتبتها نصيبين أو ميا فارقين بكتاب لترجمته بعبدها وخادمها .

والمغالطة ههنا فى قولى : « وأصبحت أيام نحرها فى الناس غير مبتداة بأيام تروية » والمراد بذلك أنها تقبل بَغْتَةً من غير تروٍّ : أى من غير تَلَبُّث ، ويوم النحر : هو يوم عيد الأضحى ، وقبله يومٌ يسمَّى يوم التروية ؛ فالمغالطة حصلت بين نحر الحمى للناس ونحر الضحايا ، إلا أن يوم النحر مبتدأ بيوم تروية ، ولا خفاء بما فى هذه المغالطة من الحسن واللطافة .

وأما القسم الآخر - وهو النقيض - فإنه أقل استعمالاً من القسم الذى قبله ؛ لأنه لايتهيأ استعماله كثيراً .

فمن جملته ماورد شعراً لبعضهم ، وهو قوله :

وَمَا أَشْيَاءُ تَشْرِيهَا بِمَالٍ ... فَإِنْ نَفَقَتْ فَأَكْسَدُ مَا تَكُونُ

يقال : نَفَقَت السلعة ؛ إذا راجت ، وكان لها سوق ، ونَفَقَت الدابة ؛ إذا ماتت ، وموضع المناقضة ههنا فى قوله : إنها إذا نفقت كسدت ، فجاء بالشىء ونقيضه ، وجعل هذا سبباً لهذا ، وذلك من المغالطة الحسنة .

ومن ذلك ما كتبته فى جملة كتاب إلى ديوان الخلافة يتضمن فتوح بلد من بلاد الكفار ؛ فقلت فى آخر الكتاب (١) : وقد ارتاد الخادم من يُبَلِّغ عنه

(١) قد مضت هذه القطعة فى آخر كتاب طويل كتبه المؤلف إلى دار الخلافة عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب يتضمن الإخبار بفتح البيت المقدس واستنقاذه من أيدى الكفار ، والكتاب يبتدى فى (ص ١٤٠ من الجزء الثانى من هذا الكتاب) والقطعة المذكورة تجدها فى أول (ص ١٤٧ منه) .

مشاريحَ هذه الوقائع التى اخْتَصَرَها ، ويُمَثِّل صورها لمن غاب عنها كما تمثلت لمن حضرها ، ويكون مكانُهُ من النباهة كريمًا كمكانها ، وهى عرائس المساعى فأحسَنُ الناس بيانًا مؤهَّل لإبداع حسانها ، والسائر بها فلان وهو راوى أخبار نَصْرِها التى صَحَّحتْها فى تجريح الرجال، وعَوَالى إسنادهامأخوذةمن طرق العَوَال(١) ، واللَّيالى والأيامُ لها رُوَاة فما الظن برواية الأيام والليال .

فى هذا الفصل مغالطة نقيضية ، ومغالطة مثلية ؛ أما المغالطة المثلية فهى فى قولى : « وعوالى إسنادها مأخوذة من طرق العَوَال »(١) وقد تقدم الكلام على هذا وما يجرى مجراه فى القسم الأول ؛ وأما المغالطة النقيضية فهى قولى : « وهو راوى أخبار نصرها التى صححتها فى تجريح الرجال » وموضع المغالطة منه أنه يقال فى رواة الأخبار : فلان عَدْل صحيح الرواية ، وفلان مَجْرُوح : أى سقيم الرواية غير موثوق به ، فأتيت بهذا المعنى على وجه النقيض ، فقلت : صحة أخبار هذه الفتوح فى تجريح الرجال : أى تجريحهم فى الحرب ، وفى هذا من الحسن ما لاخفاء به .

وقد أوردت من هذه الأمثلة مافيه كفاية ومقنع .

فإن قيل : إن الضرب الأول من هذا النوع هو التجنيس الذى لفظه واحد ومعناه مختلف ، كالمثال الذى مثلته فى قول أبى الطيب المتنبى ثعلب ووجار ؛ فإن الثعلب هو الحيوان المعروف ، وهو أيضاً طَرَف السنان ، وكذلك باقى الأمثلة .

قلت فى الجواب : إن الفرق بين هذين النوعين ظاهر ، وذلك أن التجنيس يذكر فيه اللفظ الواحد مرتين ؛ فهو يَسْتَوِى فى الصورة ويختلف فى المعنى ، كقول أبى تمام(٢) :

---

(١) هذا من باب الجناس على مايقرر هو بعد سطور .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، وأولها قوله :

لَقَدْ أَخَذَتْ مِنْ دَارِ مَاوِيَّةَ الحُقْبُ   أَنُحْلُ المَغَانِي لِلْبِلَى هِيَ أَمْ نَهْبُ

وقد تقدم الاستشهاد بهذا البيت فى التجنيس (انظر الجزء الأول ص ٢٤٧) .

بِكُلِّ فَتًى ضَرْبٍ يُعَرِّضُ لِلْقَنَا مُحَيًّا مُحَلًّى حَلْيُهُ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ

فالضَّرْب : الرجل الخفيف ، والضرب : هو الضرب بالسيف فى القتال ، فاللفظ لابد من ذكره مرتين والمعنى فيه مختلف ، والمغالطة ليست كذلك ، بل يذكر فيها اللفظ مرة واحدة ، ويدلّ به على مثله ، وليس بمذكور .

النوع الحادى والعشرون

فى الأحاجى

وهى الأغاليط من الكلام ، وتسمى الألغاز ، جمع لُغَز ، وهو : الطريق الذى يلتوى ويشكل على سالكه ، وقيل : جمع لَغْز ــ بفتح اللام ــ وهو : مَيْلك بالشىء عن وجهه ، وقد يسمى هذا النوع أيضا المُعَمَّى ، وهو يشتبه بالكناية تارة ، وبالتعريض أخرى ، ويشتبه أيضا بالمُغَالَطات المعنوية ، ووقع فى ذلك عامة أرباب هذا الفن .

فمن ذلك أن أبا الفرج الأصفهانى ذكر بيتى الأقيشر الأسدى [1] فى جملة الألغاز ، وهما :

وَلَقَدْ أَرُوحُ بِمُشْرِفٍ ذِى مَيْعَةٍ عَسِرِ المَكَرَّةِ مَاؤُهُ يَتَفَصَّدُ [2]

---

(١) وقع فى ا ، ب ، ج «الأقيس» وهو تصحيف ، وقد سبق مثله فى باب الكناية والتعريض (ص ٢٠٩ من هذا الجزء) .

(٢) وقع فى ا ، ب ، ج « يتقصد » بالقاف ، وهو تحريف ، وصوابه « يتفصد » بالفاء ، والبيتان رواهما الخطيب التبريزى فى آخر شرح الحماسة (٤ ــ ٣٥٦) وروى معهما بيتا ثالثا ، وهو قوله :

حَتَّى عَلَوْتُ بِهِ مِشَقَّ ثَنِيَّةٍ طَوْرًا أَغُورُ بِهَا وَطَوْرًا أُنْجِدُ

مَرِحٍ يَطِيرُ مِنَ المِرَاحِ لُعَابُهُ ... وَيَكَادُ جِلْدُ إهَابِهِ يَتَقَدَّدُ[1]

وهذان البيتان من باب الكناية ؛ لأنهما يُحْمَلان على الفرس ، وعلى العضو المخصوص ، وإذا حمل اللفظ على الحقيقة والمجاز فكيف يعد من جملة الألغاز .؟

وكذلك فعل الحريرى فى مقاماته ؛ فإنه ذكر فى الأحاجىّ التى جعلها على حكم الفتاوى كنايةً ومغالطةً معنوية ، وظن أنهما من الأحاجىّ الملغزة ، كقوله : أيحلُّ للصائم أن يأكل نهارًا ، والنهار : من الأسماء المشتركة بين النهار الذى هو ضد الليل وبين فَرْخِ الحُبَارَى ؛ فإنه يسمى نهارا ، وإذا كان من الأسماء المشتركة صار من باب المغالطات المعنوية ، لا من باب الأحاجىّ ، والإلغاز شىء منفصل عن ذلك كله ، ولو كان من جملته لما قيل : لغز ، وأُحْجِيَّة ، وإنما قيل : كناية ، وتعريض ، أو مغالطة ، ولكن وجد من الكلام ما يطلق عليه الكناية ، ومنه ما يطلق عليه التعريض ، ومنه ما يطلق عليه المغالطة ، ومنه شىء آخر خارج عن ذلك ؛ فجعل لغزا وأحجية .

وكنتُ قدَّمْتُ القول بأن الكناية هى اللفظ الدال على جانب الحقيقة وعلى جانب المجاز ، فهو يحمل عليهما معا ، وأن التعريض هو ما يفهم من عُرْض اللفظ لا من دلالته عليه حقيقة ولا مجازا ، وأن المغالطة هى التى تطلق ويراد بها شيئان: أحدهما دلالة اللفظ على معنيين بالاشتراك الوضعى ، والآخر دلالة اللفظ على المعنى ونقيضه .

وأما اللغز والأحجية فإنهما شىء واحد ، وهو : كل معنى يُسْتَخْرَج بالحَدْس

وروى أبو تمام هذين البيتين بغير هذه الرواية ولم ينسبهما لمعين ، وهما بروايته :

وَلَقَدْ غَدَوْتُ بِمُشْرِفٍ يَافُوخُهُ ... عَسِرِ المَكَرَّةِ مَاؤُهُ يَتَدَفَّقُ

أَرِنٍ يَسِيلُ مِنَ النَّشَاطِ لُعَابُهُ ... وَيَكَادُ جِلْدُ إهَابِهِ يَتَمَزَّقُ

(١) فى ا ، ب ، ج « يطير من المزاح » والتصويب عن التبريزى وهو المناسب لقوله « مرح » .

والحزْر ، لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازا ، ولا يفهم من عرضه ؛ لأن قول القائل فى الضرس :

وَصَاحِبٍ لاَ أَمَلُّ ٱلدَّهْرَ صُحْبَتَهُ ... يَشْقَى لِنَفْعِي وَيَسْعَى سَعْيَ مُجْتَهِدِ[(١)]

مَا إِنْ رَأَيْتُ لَهُ شَخْصًا فَمُذْ وَقَعَتْ ... عَيْنِي عَلَيْهِ افْتَرَقْنَا فُرْقَةَ ٱلْأَبَدِ

لا يدل على أنه الضرس ، لا من طريق الحقيقة ، ولا من طريق المجاز ، ولا من طريق المفهوم ، وإنما هو شىء يحدس ويحزر ، والخواطر تختلف فى الإسراع والإبطاء عند عثورها عليه .

فإن قيل : إن اللغز يعرف من طريق المفهوم ، وهـــذان البيتان يعلم معناهما بالمفهوم .

قلت فى الجواب : إن الذى يعلم بالمفهوم إنما هو التعريض ، كقول القائل : إنى لفقير ، وإنى لمحتاج ؛ فإن هذا القول لا يدلّ على المسألة والطلب ، لا حقيقة ولا مجازاً ، وإنما فهم منه أن صاحبه مُتعرّض للطلب ، وهذان البيتان ليسا كذلك ؛ فإنهما لا يشتملان على ما يفهم منه شىء إلا بالحدس والحزر ، لا غير ، وكذلك كل لغز من الألغاز .

وإذا ثبت هذا فاعلم أن هذا الباب الذى هو اللغز والأحجية والمعمّى يتنوع أنواعًا : فمنه المصحَّف ، ومنه المعكوس ، ومنه ما ينقل إلى لغة من اللغات غير العربية ، كقول القائل : اسمى إذا صحفته بالفارسية آخر ، وهذا اسمه اسم تركى ، وهو دنكر ـ بالدال المهملة والنون ، وآخر بالفارسية ديكر ـ بالدال المهملة والياء المعجمة بثنتين من تحت ـ وإذا صحفت هذه الكلمة صارت دنكر ، بالنون ، فانقلبت الياء نونًا بالتصحيف ، وهذا غير مفهوم إلا لبعض الناس دون بعض .

---

(١) فى ج «لا أمن الدهر صحبته» بالنون ، وهو تحريف ، وما أثبتناه عن ا ، ب ، د .

و إنما وضع واستعمل لأنه مما يَشْحَذ القريحة ، ويُحِدّ الخاطر ؛ لأنه يشتمل على معان دقيقة يحتاج فى استخراجها إلى توقّد الذهن ، والسلوك فى معاريج خفية من الفكر .

وقد استعمله العرب فى أشعارهم قليلا ، ثم جاء المحدثون فأكثروا منه ، وربما أتى منه بما يكون حسنا وعليه مسحة من البلاغة ، وذلك عندى بين بين ؛ فلا أعده من الأحاجىّ ، ولا أعدُّه من فصيح الكلام .

فمما جاء منه قول بعضهم :

قَدْ سُقِيَتْ آبَالُهُمْ بِالنَّارِ وَالنَّارُ قَدْ تَشْفِى مِنَ الْأُوَارِ

ومعنى ذلك أن هؤلاء القوم الذين هم أصحاب الإبل ذوو وجاهة وتقدم ، ولهم وسم معلوم ؛ فلما وَرَدَت إبلهم الماء عُرِفت بذلك الوَسْم ؛ فأَفْرَج لها الناسُ حتى شَرِبَت ؛ وقد اتفق له أنه أتى فى هذا البيت بالشىء وضده ، وجعل أحدهما سببا للآخر ؛ فصار غريبا عجيبا ، وذاك أنه قال : سقيت بالنار ، وقال : إن النار تشفى من الأوار ، وهو العطش ، وهذا من محاسن ما يأتى فى هذا الباب .

ومما يجرى على هذا النهج قول أبى نُوَاس فى شجر الكرم[1] :

لَنَا هَجْمَةٌ لا يَدَّرِى الذِّئْبُ سَخْلَهَا وَلاَ رَاعِهَا غَضُّ الْفِحَالَةِ وَالْخَطْرُ

(١) البيتان من ستة أبيات وردت فى الديوان (ص ٢٨٤) وفيهما بعض تغيير ، ونحن نثبت لك الأبيات كلها على ما فى الديوان :

لَنَا هَجْمَةٌ لاَ يُدْرِكُ الذِّئْبُ سَخْلَهَا وَلاَ رَاعِهَا نَزْوُ الْفِحَالَةِ وَالْخَطْرُ
إِذَا امْتُحِنَتْ أَلْوَانُهَا مَالَ صَفْوُهَا إِلَى الْجَوِّ إِلاَّ أَنَّ أَوْبَارَهَا خُضْرُ
فَإِنْ قَامَ فِيهَا الْحَالِبُونَ اتَّقَتْهُمُ بِنَجْلاَءَ ثقب الجوف دِرَّتُهَا الْخَمْرُ
مَسَارِحُهَا الْغَرْبِىُّ مِنْ نَهْرِ صَرْصَرٍ فَقُطْرُبُلٌ فَالصَّالِحِيَّةُ فَالْعُقْرُ
تُرَاثُ أَنُوشِرْوَانَ كِسْرَى،وَلَمْ تَكُنْ مَوَارِيثَ ما أَبْقَتْ تَمِيمٌ وَلاَ بَكْرُ
قَصَرْتَ بِهَا لَيْلِى وَلَيْلُ ابْنِ حُرَّةٍ لَهَا حَسَبٌ زَاكٍ وَلَيْسَ لَهُ وَفْرُ

إذَا امْتُحِنَتْ أَلْوَانُهَا مَالَ صَفْوُهَا ... إلَى الْحُوِّ إلاَّ أَنَّ أَوْبَارَهَا خُضْرُ

ومن هذا القبيل قول بعضهم :

سَبْعٌ رَوَاحِلُ مَا يُنِخْنَ مِنَ الْوَنَا ... شِيمٌ تُسَاقُ بِسَبْعَةٍ زُهْرِ

مُتَوَاصِلاَتٌ لاَ الدُّءُوبُ يُمِلُّهَا ... بَاقٍ تَعَاقُبُهَا عَلَى الدَّهْرِ

هذان البيتان يتضمنان وصف أيام الزمان ولياليه ، وهى الأسبوع ؛ فإن الزمان عبارة عنه ، وذلك من الألغاز الواقعة فى موقعها .

وعلى هذا الأسلوب ورد قول أبى الطيب المتنبى فى السفن من جملة قصيدته التى مدح بها سيف الدولة عند ذكر عبوره الفرات ، وهى :

* الرَّأْىُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ(١) *

---

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* هُوَ أَوَّلٌ وَهِىَ الْمَحَلُّ الثَّانِى *

وقبل البيتين اللذين أنشدها المؤلف مما يتم به معناهما قوله :

والمَاءُ بَيْنَ عَجَاجَتَيْنِ مُخَلِّصٌ ... تَتَفَرَّقَانِ بِهِ وَتَلْتَقِيَانِ

رَكَضَ الأَمِيرُ وَكَاللُّجَيْنِ حَبَابُهُ ... وَثَنَى الأَعِنَّةَ وَهْىَ كَالْعِقْيَانِ

فَتَلَ الْحِبَالَ مِنَ الْغَدَائِرِ فَوْقَهُ ... وَبَنَى السَّفِينَ لَهُ مِنَ الصُّلْبَانِ

يريد أن جيش الأمير صار فريقين فى عبور النهر ؛ فريق عبروا ، وفريق لم يعبروا ، ولكل واحد منهما عجاج ، والماء بينهما ؛ فالعجاجتان تفترقان وتلتقيان ، وقال أبو الفتح بن جنى : بل يعنى عجاجة المسلمين وعجاجة الروم ، والأولى ماذكرناه أولا؛ فإن جيش الأمير عند عبور النهر لم يكن قاتل الروم بعد . واللجين : الفضة ، والعقيان الذهب ، والأعنة : جمع عنان ، وهو ما يكون فى رأس الفرس ، والأعنة للخيل بمنزلة الأرسان لغيرها . يريد أن سيف الدولة عبر هذا النهر بجيشه وماؤه أبيض كالفضة ، فلما قاتل الروم جرت دماؤهم إلى النهر فعاد أحمر كالذهب . والغدائر : جمع غديرة ، وهى الذؤابة من الشعر والسفين : اسم جنس جمعى ، واحده سفينة ،

فقال :

وَحَشَاهُ عَادِيَةً بِغَيْرِ قَوَائِمٍ عُقْمَ الْبُطُونِ حَوَالِكَ الْأَلْوَانِ (١)

تَأْتِي بِمَا سَبَتِ الْخُيُولُ كَأَنَّهَا تَحْتَ الْحِسَانِ مَرَابِضُ الْغِزْلَانِ (٢)

وهذا حسن فى بابه .

ومن ذلك قول بعضهم فى حجر المحكّ :

وَمُدَّرِعٍ مِنَ صَنْعَةِ اللَّيْلِ بُرْدَهُ يُفَوِّقُ طَوْرًا بِالنُّضَارِ وَيُطْلَسُ (٣)

إِذَا سَأَلُوهُ عَنْ عَوِيصَيْنِ أَشْكَلَا أَجَابَ بِمَا أَعْيَا الْوَرَى وَهْوَ أَخْرَسُ

وهذا من اللطافة على ما يشهد لنفسه ، وكان سمعه بعض المتأخرين من أهل زماننا ، فأجاب عنه ببيتين على وزنه وقافيته ، وهما :

سُوَالُكَ جُلْمُودٌ مِنَ الصَّخْرِ أَسْوَدٌ خَفِيفٌ لَطِيفٌ نَاعِمُ الْجِسْمِ أَطْلَسُ

أُقِيمَ بِسُوقِ الصَّرْفِ حُكْمًا كَأَنَّهُ مِنَ الزَّنْجِ قَاضٍ بِالْخَلَاوِقِ مُطْلَسُ

وقد رأيت هذا الشاعر ، وهو حائك بجزيرة ابن عمر ، وليس عنده من أسباب الأدب شىء سوى أنه قد أصلح لسانه بطرف يسير من علم النحو لا غير ، وهو مع ذلك يقول الشعر طبعاً ، وكان يجيد فى الكثير منه .

ومن الألغاز ما يرد على حكم المسائل الفقهية ، كالذى أورده الحريرى فى مقاماته ، وكنت سئلت عن مسألة منه ، وهى :

والصلبان : جمع صليب ، وهو الذى تعظمه النصارى ، يريد اتخذ حبال سفنه من شعر القتلى و بناها من صلبانهم ، أراد أنه غنم منهم وأسر الشىء الكثير .

(١) العقيم : الذى لا يلد ، والحوالك : جمع حالكة ، وهى السوداء . يريد أنه حشا الماء سفنا عادية بغير قوائم ، و بطونها عقم ؛ لأنها لا تلد ، وهى سود الألوان ؛ لأنها مقيرة .

(٢) الحسان : جمع حسناء ، والمرابض : جمع مربض ، وهو مأوى الغنم والوحش . يريد أن السفن تحمل الجوارى التى سبتها الفوارس ؛ فشبههن بالغزلان والسفن لها مرابض .

(٣) كذا فى ا ، ب ، ج ؛ وفى د « يفوف طهورا » .

وَلِى خَالَةٌ وَأَنَا خَالُهَا ... وَلِى عَمَّةٌ وَأَنَا عَمُّهَا
فَأَمَّا الَّتِى أَنَا عَمٌّ لَهَا ... فَإِنَّ أَبِى أُمُّهُ أُمُّهَا
أَبُوهَا أَخِى وَأَخُوهَا أَبِى ... وَلِى خَالَةٌ هٰكَذَا حُكْمُهَا
فَأَيْنَ الْفَقِيهُ الذِى عِنْدَهُ ... فُنُونُ الدِّرَايَةِ أَوْ عِلْمُهَا
يُبَيِّنْ لَنَا نَسَباً خَالِصاً ... وَيَكْشِفُ لِلنفْسِ مَا هَمُّهَا
فَلَسْنَا مَجُوسًا وَلَا مُشْرِكِينَ ... شَرِيعَةُ أَحْمَدَ نَأْتَمُّهَا

وهذه المسألة كتبت إلىَّ فتأملتها تأمل غير ملجلج فى الفكر، ولم ألبث أن انكشف لى ما تحتها من اللغز، وهو أن الخالة التى الرجل خالُها تصور على هذه الصورة، وذاك أن رَجُلاً تزوج امرأتين : اسم إحداهما عائشة، واسم الأخرى فاطمة، فأولد عائشة بنتا، وأولد فاطمة ابنا، ثم زوج بنته من أبى امرأته فاطمة، فجاءت ببنت، فتلك البنت هى خالة ابنه، وهو خالها؛ لأنه أخو أمها. وأما العمة التى هو عَمُّها فصورتها أن رجلا له ولد، ولولده أخ من أمه، فزوج أخاه من أمه أمَّ أبيه، فجاء ببنت، فتلك البنت هى عمته؛ لأنها أخت أبيه، وهو عمها؛ لأنه أخو أبيها، وأما قوله «ولى خالة هكذا حكمها» فهو أن تكون أمها أخته، وأختها أمه، كما قال « أبوها أخى وأخوها أبى » وصورتها أن رجلا له ولد، ولولده أخت من أمه، فزوجها من أبى أمه، فجاءت ببنت؛ فأختها أمه، وأمها أخته.

وأحسن من ذلك كله وألطف وأحلى قول بعضهم فى الْخَلْخَال :

وَمَضْرُوبٍ بِلاَ جُرْمٍ ... مَلِيحِ اللَّوْنِ مَعْشُوقِ
لَهُ قَدُّ الْهِلاَلِ عَلَى ... مَلِيحِ الْقَدِّ مَمْشُوقِ
وَأَكْثَرُ مَا يُرَى أَبَدًا ... عَلَى الْأَمْشَاطِ فى السُّوقِ

وبلغنى أن بعض الناس سمع هذه الأبيات؛ فقال : قد دخلت السوق فما رأيت على الأمشاط شيئاً، وظن أنها الأمشاط التى يُرَجَّلُ بها الشعر، وأن السوق سوق البيع والشراء .

واعلم أنه قد يأتى من هذا النوع ماهو ضروب وألوان ؛ فمنه الحسن الذى أوردت شيئاً منه كما تراه ، ومنه المتوسط الذى هو دونه فى الدرجة ، فلا يوصف بحسن ولاقبح ؛ كقول بعضهم(١) :

رَاحَتْ رَكَائِبُهُمْ وَفى أَكْوَارِهَا ... أَلْفَانِ مِنْ عُمِّ الْأُثَيْلِ الْوَاعِدِ
مَا إِنْ رَأَيْتُ ولا باركب هكذا ... حَمَلَتْ حَدَائِقَ كَالظَّلَامِ الرَّاكِدِ

وهذا يصف قوما وفدوا على ملك من الملوك فأعطاهم نخلا، وكتب لهم بها كتابا ، والأثيل : الموضع الذى كتب لهم إليه ، والعم : العظام الرءوس من النخيل ، والواعد: الأقناء من النخل، فلما حملوا الكتب فى أكوارهم فكأنهم حملوا النخل ، وهذا من متوسط الألغاز .

وقد جاء من ذلك ما هو بشع بارد ؛ فلا يستخرج إلا بمسائل الجبر والمقابلة ، أو بخطوط الرمل من القبض الداخل أو القبض الخارج والبياض والحمرة وغيرها ، ولئن كان معناه دقيقاً يدلّ على فرط الذكاء فإنى لا أعده من اللغة العربية ، فضلا عن أن يوصف بصفات الكلام المحمودة ، ولافرق بينه و بين لغة الفرس والروم وغيرهما من اللغات فى عدم الفهم .

وأما ماورد من الألغاز نثرا فقد ألغز الحريرى فى مقاماته ألغازاً ضمنها ذكر الإبرة والمِرْوَد(٢) وذكر الدينار ، وهى أشهر كما يقال من قِفَا نَبْكِ ؛ فلا حاجة إلى إيرادها فى كتابى هذا .

---

(١) بحثت طويلا عن هذين البيتين فلم يتيسر لى العثور عليهما فى مرجع آخر ، وقد أثبت ما فى أصول هذا الكتاب مع أن صدر البيت الثانى قلق نافر يدل على حدوث تحريف كثير فيه .

(٢) للحريرى كثير من الألغاز فى عدة مقامات ؛ فانظر المقامة الثانية والثلاثين وهى تتضمن أن أبا زيد قام بمائة مسألة فقهية ملغزة ، وانظر المقامة السادسة والثلاثين ، وانظر المقامة الثانية والأربعين ، وانظر المقامة الرابعة والأربعين ؛ وممن ألغز فى الإبرة أبو العلاء ، فقال :

سَعَتْ ذَاتُ سُمٍّ فى قَمِيصِى فغادرت ... بِهِ أَثَرًا وَاللهُ يَشْفِى مِنَ السُّمّ
كَسَتْ قَيْصَرًا ثَوْبَ الْجَمَالِ وَتُبَّعًا ... وَكِسْرَى ، وَعَادَتْ وهْىَ عَارِيَةُ الْجِسْمِ

وقد ورد من الألغاز شيء في كلام العرب المنثور غير أنه قليل بالنسبة إلى ماورد في أشعارها ، وقد تأملت القرآن الكريم فلم أجد فيه شيئاً منها ، ولا ينبغي أن يتضمن منها شيئاً ؛ لأنه لا يستنبط بالحَدْس والحزر كما تستنبط الألغاز .

وأما ما ورد للعرب فيروى عن امرىء القيس وزوجته عدة من الألغاز ، وذاك أنه سألها قبل أن يتزوجها ؛ فقال : ما اثنان وأربعة وثمانية ؟ فقالت : أما الاثنان فثَدْيا المرأة ، وأما الأربعة فأخْلافُ النَّاقة ، وأما الثمانية فأطْباء الكَلْبَة ؛ ثم إنه تزوجها وأرسل إليها هدية على يدِ عَبْدٍ له ، وهي حُلَّة من عَصْب اليمن ونِحْيٌ من عَسَلٍ ونِحْيٌ من سَمْن ، فنزل العبدُ ببعض المياه ، ولبس الحلة فَعَلِقَ طرفُها بسَمُرَة فانْشَقَّ ، وفتح النِّحْيين وأطعم أهلَ الماء ، ثم قدم على المرأة وأهلها خُلُوفٌ ، فسأل عن أبيها وأمها وأخيها ، ودفع إليها الهدية ، فقالت له : أَعْلِمْ مولاك أن أبي ذهب يُقَرِّبُ بعيداً ويبعد قريبا ، وأن أمي ذهبت تَشُقُّ النفسَ نَفْسَين ، وأن أخي يَرْقُبُ الشمس ، وأَخْبِرْهُ أن سماءكم انشقَّتْ ، وأن وعاءيكم نضبا ؛ فعاد العبد إلى امرىء القيس وأخبره بما قالته له ، فقال : أما أبوها فإنه ذهب يُحَالف قومًا على قومه ، وأما أمُّهَا فإنها ذهبت تُقَبِّل امرأة ، وأما أخوها فإنه في سَرْحٍ يرعاه إلى أن تغرب الشمس ، وأما قولها : « إن سماءكم انشقت » فإن الحُلَّة انشقت ، وأما قولها : « إن وعاءيكم نضبا » فإن النِّحْيَيْن نقصا ، ثم قال للعبد : أصدقني ، فقال له : إني نزلت بماء من مياه العرب ، وفعلت كذا وكذا .

فهذا وأمثاله قد وَرَدَ عنهم إلا أنه يسير .

وكذلك يروى عن شن بن أفصى ، وكان ألزم نفسه ألاَّ يتزوَّج إلا امرأة تلائمه ، فصاحبه رجل في بعض أسفاره ، فلما أخذ منهما السير قال له شن : أتحمِلُني أم أحملك ؟ فقال له الرجل : يا جاهِلُ ؛ هل يحمل الراكب راكباً ؟ فأمسك عنه ، وسارا حتى أتيا على زَرْع ، فقال شن : أترى هذا الزرع قد أُكِلَ ؟ فقال له :

ياجاهل ؛ أما تراه فى سُنْبُله ، فأمسك عنه ، ثم سارا ، فاستقبلتهما جنازة ، فقال شن : أترى صاحبها حيًّا ؟ فقال له الرجل : ما رأيت أجهل منك ! أتراهم حملوا إلى القبر حيًّا ؟ ثم إنهما وصلا إلى قرية الرجل ، فسار به إلى بيته ، وكانت له بنت ، فأخذ يطرفها بحديث رفيقه ، فقالت : مانطق إلا بالصواب ، ولا استفهم إلا عما يُسْتَفْهم عن مثله ، أما قوله : « أتحملنى أم أحملك » فإنه أراد أتُحَدِّثنى أم أحدثك حتى نقطع الطريق بالحديث ، وأما قوله : « أترى هذا الزرع قد أكل » فإنه أراد هل استسلف ربه ثمنه أم لا ، وأما استفهامه عن صاحب الجنازة فإنه أراد هَلْ خلّف له عقِباً يحْيَا بذكره أم لا ، فلما سمع كلام ابنته خرج إلى شن وحَدَّثه بتأويلها ، فخطبها ، فزوّجه إياها .

وأدق من هذا كله وألطف ما يحكى عن رجل من المناقذة أصحاب شيزر ، وهو أولهم الذى استنقذه من أيدى الروم بالمكر والخديعة ، ولذلك قصة ظريفة ، وليس هذا موضع ذكرها ، وكان قبل ملكه إياها فى خدمة محمود بن صالح صاحب حلب ، وكان إذ ذاك يلقب بسديد الملك ، فنبا به مكانه ، وحدثت له حادثة أوجبت له أن هرب ومضى إلى مدينة ترابلس فى زمن بنى عمار أصحاب البلد ، فأرسل إليه ابن صالح واستعطفه ليعود إليه ، فخافه ولم يعد ، فأحضر ابن صالح رجلاً من أهل حلب صديقاً لابن منقذ وبينه وبينه لُحْمَةُ مَوَدَّة أكيدة ، وأجلسه بين يديه ، وأمره أن يكتب إليه كتاباً عن نفسه يوثّقه من جهة ابن صالح ليعود ، فما وسعه إلا أن يكتب وهو يعلم أن باطن الأمر فى ذلك خلاف ظاهره ، وأنه متى عاد ابن منقذ إلى حلب هلك ، فأفكر وهو يكتب فى إشارة عمياء لاتُفْهَم ؛ ليضعها فيه يحذر بها ابن منقذ ، فأدّاهُ فكره أن كتب فى آخر الكتاب عند إنهائه «إن شاء الله تعالى» ، وشدد إن وكسرها ، ثم سلم الكتاب إلى ابن صالح ، فوقف عليه ، وأرسله إلى ابن منقذ ، فلما صار فى يده وعلم ما فيه قال : هذا كتاب صديقى ، وما يَغُشُّنى ، ولولا أنه يعلم صفاء قلب ابن صالح لى لما كتب إلىّ ولا غرّنى ، ثم

عزم على العود ، وكان عنده ولده ، فأخذ الكتاب وكرّر نظره فيه ، ثم قال له : يا أبت ، مَكَانَكَ ، فإن صديقك قد حَذَّرك ، وقال : لاتعد ، فقال : وكيف ؟ قال : إنه قد كتب إن شاء الله تعالى فى آخر الكتاب ، وشَدَّد إن وكسرها ، وضبطها ضبطاً صحيحاً لايصدر مثله عن سهو ، ومعنى ذلك أنه يقول : إنَّ المَلَا يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ، وإن شككت فى ذلك فأرسل إلى حلب .

وهذا من أعجب مابلغنى من حِدَّة الذهن وفطانة الخاطر ، ولولا أنه صاحب الحادثة المخوفة لما تفطَّن إلى مثل ذلك أبداً ؛ لأنه ضرب من علم الغيب ، وإنما الخوف دَلَّه على استنباط ما استنبطه .

ووجد لبعض الأدباء لغز فى حَمَّام ؛ فمنه ما أجاد فيه ؛ كقوله : وقد أظَلَّتْهَا سماء ذات نُجوم ، لااسْتِرَاقَ لها ولارجوم ، وهى مركبة فى فلك صحت استدارته ، وسكنت إدارته :

أَعْجِبْ بِهَا مِنْ أَنْجُمٍ عِنْدَ الصَّبَاحِ ظَاهِرَهْ
لَـكِنَّهَـــا إِذَا بَدَا نَجْمُ الظَّلَامِ غَائِرَهْ

فهى على القياس جنة نعيم ، مبنية على لظى جحيم ، لا خلود فيها ولا مُقَام ، ولا تَزَاوُرَ بين أهلها ولا سلام ، أنهارها متدفقة ، ومياهها مُتَرَقْرِقَة ، والأكواب بها موضوعة ، والنمارق عنها منزوعة :

يُطِيعُ بِهَا الْمَوْلَى أَوَامِرَ عَبْدِهِ وَيُصْبِـحُ طَوْعًا فِي يَدَيْهِ مَقَادَتُهْ
وَيُرْفَعُ عَنْهُ التَّاجُ عِنْدَ دُخُولِهِ وَتُسْلَبُ مِنْ قَبْلِ الْجُلُوسِ غِلَالَتُهْ

التجمُّل بها معدوم ، والخادم فيها مخدوم ، ينكر بها التستر من البرد ، ويكره حرُّها إذا جاوز الحد .

هذا اللغز من فصيح الألغاز ، ولا يقال : إن صاحبه فى العمى صانع العكاز ، وإذا تطرز غيره بلمعة من الوشى فهذا كله طراز .

ومما سمعته من الألغاز الحسان التى تجرى فى المحاورات ما يحكى عن عمر ابن هبيرة وشريك النميرى ، وذاك أن عمر بن هبيرة كان سائراً على بِرْذَوْنٍ له ، وإلى جانبه شريك النميرى على بغلة ، فتقدمه شريك فى المسير ، فصاح به عمر : اغْضُضْ من لجامها ، فقال : أصلح الله الأمير ، إنها مكتوبة[١] ، فتبسم عمر ثم قال له : ويحك ! لم أرد هـذا ، فقال له شريك : ولا أنا أردته .

وكان عمر أراد قول جرير[٢] :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ... فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

فأجابه شريك بقول الآخر[٣] :

لَا تَأْمَنَنَّ فَزَارِيًّا نَزَلْتَ بِهِ ... عَلَى قَلُوصِكَ وَاكْتُبْهَا بِأَسْيَارِ[٤]

وهذا من الألغاز اللطيفة ، وتفَطُّن كل من هذين الرجلين لمثله ألطف وأحسن .

ومما يجرى هذا المجرى أن رجلاً من تميم قال لشريك النميرى : ما فى الجوارح أحب إلىّ من البازى ؟ فقال له شريك : إذا كان يَصِيدُ القطا .

وكان التميمى أراد قول جرير[٥] :

---

(١) فى ا ، ب ، ج «مكبوبة» بتقديم الباء الموحدة ، وهو خطأ وصوابه «مكتوبة» بتقديم التاء المثناة ، وتقول : كتب الدابة والبغلة والناقة ــ من باب نصر وضرب ــ إذا خزم حياءها بحلقة حديد أو صفر تضم شفريها لئلا ينزى عليها . وهذه القصة فى خزانة الأدب (٤ ــ ١٦٨ بولاق) .

(٢) هذا البيت من قصيدة له يهجو فيها الراعى النميرى ، وأولها قوله :

أَقِلِّى اللَّوْمَ عَاذِلَ وَالْعِتَابَا ... وَقُولِى إِنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا

(٣) هذا البيت لسالم بن دارة من كلمة له يهجو فيها رافعا الفزارى ، وكان ابن دارة هجاء ، وقد قتله رافع الفزارى بسبب ذلك (انظر الشعراء لابن قتيبة ٢٣٦ أوربة) .

(٤) فى ا ، ب ، ج « واكبتها بأسيار » بتقديم الباء الموحدة ، وهو تحريف وانظر اللسان (ك ت ب) والشعراء لابن قتيبة (ص ٢٣٧ أوربة) .

(٥) هـذا البيت من قصيدته التى يهجو فيها الراعى النميرى ، والتى منها البيت السابق فى القصة التى قبل هذه .

أَنَا الْبَازِى الْمُطِلُّ عَلَى نُمَيْرٍ   أُتِيحَ مِنَ السَّمَاءِ لَهَا انْصِبَابَا

وأراد شريك قول الطِّرِمَّاح (١) :

تَمِيمٌ بِطُرْقِ اللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا   وَلَوْ سَلَكَتْ طُرْقَ الْمَكَارِمِ ضَلَّتِ

واعلم أن خواطر الناس تتفاضل كتفاضل الأشخاص ، ومن ههنا قيل : سبحان خالق أبى موسى وعمرو بن العاص .

النوع الثانى والعشرون

فى المبادى والافتتاحات

هذا النوع هو أحد الأركان الخمسة البلاغية المشار إليها فى الفصل التاسع من مقدمة الكتاب .

---

(١) هو الطرماح بن حكيم أحد بنى طيىء ، والبيت من كلمة له يهجو فيها تميما ، وقبله قوله :

وَلَوْ خَرَجَ الدَّجَّالُ يَنْشُدُ دِينَهُ   لَوَافَتْ تَمِيمٌ حَوْلَهُ وَاُخْزَأَلَّتِ
فَرَاشَ ضَلَالٍ بِالْعِرَاقِ وَجَفْوَةٍ   إِذَا مَاتَ مَيْتٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَهَلَّتِ
فَخَرْتَ بِيَوْمِ الْعُقْرِ شَرْقِىَّ بَابِلٍ   وَقَدْ جُبُنَتْ فِيهِ تَمِيمٌ وَفَلَّتِ
فَخَرْتَ بِيَوْمٍ لَمْ يَكُنْ لَكَ فَخْرُهُ   وَقَدْ نَهِلَتْ مِنْكَ الرِّمَاحُ وَعَلَّتِ
كَفَخْرِ الْإِمَاءِ الرَّائِحَاتِ عَشِيَّةً   بِرَقْمِ حُدُوجِ الْحَىِّ لَمَّا اُسْتَقَلَّتِ

و بعد ذلك البيت الذى رواه المؤلف ، و بعد قوله :

وَلَوْ أَنَّ بُرْغُوثًا عَلَى ظَهْرِ قَمْلَةٍ   يَكُرُّ عَلَى صَفَّىْ تَمِيمٍ لَوَلَّتِ
وَلَوْ جَمَعَتْ يَوْمًا تَمِيمٌ جُمُوعَهَا   عَلَى ذَرَّةٍ مَعْقُولَةٍ لَاسْتَقَلَّتِ
وَلَوْ أَنَّ أُمَّ الْعَنْكَبُوتِ بَنَتْ لَهَا   مَظَلَّتَهَا يَوْمَ النَّدَى لَا كَنَّتِ

وحقيقة هذا النوع : أن يجعل مطلع الـكلام من الشعر أو الرسائل دالاً على المعنى المقصود من ذلك الكلام : إن كان فتحاً ففتحا ، وإن كان هناء فهناء ، أو كان عزاء فعزاء ، وكذلك يجرى الحكم فى غير ذلك من المعانى .

وفائدته أن يعرف من مبدأ الـكلام ما المراد به ولم هذا النوع .

والقاعدة التى يبنى عليها أساسُه أنه يجب على الشاعر إذا نظم قصيداً أن ينظر؛ فإن كانت مديحاً صرفاً لايختص بحادثة من الحوادث فهو مخير بين أن يفتتحها بغَزَل أو لايفتتحها بغزل ، بل يرتجل المديح ارتجالاً من أولها ، كقول القائل :

إنْ حَارَتِ الْأَلْبَابُ كَيْفَ تَقُولُ   فِى ذَا الْمَقَامِ فَعُذْرُهَا مَقْبُولُ
سَامِحْ بِفَضْلِكَ مَادِحِيكَ فَمَا لَهُمْ   أَبَدًا إلَى مَا تَسْتَحِقُّ سَبِيلُ
إنْ كَانَ لَا يُرْضِيكَ إلَّا مُحْسِنٌ   فَالْمُحْسِنُونَ إذاً لَدَيْكَ قَلِيلُ

فإن هذا الشاعر ارتجل المديح من أول القصيدة فأتى به كما ترى حسناً لائقاً .

وأما إذا كان القصيد فى حادثة من الحوادث ؛ كفتح مُقْفَل أو هزيمة جيش أو غير ذلك ؛ فإنه لاينبغى أن يبدأ فيها بغزل ، وإن فعل ذلك دلّ على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية ، أو على جهله بوضع الـكلام فى مواضعه .

فإن قيل : إنك قلتَ : يجب على الشاعر كذا وكذا ، فلم ذلك ؟

قلت فى الجواب : إن الغزل رقّة محضة ، والألفاظ التى تنظم فى الحوادث المشار إليها من فَحْلِ الكلام ومتين القول ، وهى ضدُّ الغزل ، وأيضاً فإن الأسماع تكون متطلعة إلى مايقال فى تلك الحوادث ، والابتـداء بالخوض فى ذكرها ، لا الابتداء بالغزل ؛ إذ المهم واجبُ التقديم .

ومن أدب هــذا النوع ألَّا يذكر الشاعر فى افتتاح قصيدة المديح مايتطير منه ، وهذا يرجع إلى أدب النفس ، لا إلى أدب الدرس ؛ فينبغى أن يحترز منه فى مواضعه ، كوصف الديار بالدُّثُور والمنازل بالْعَفَاء ، وغير ذلك من تشتت الآلاف وذم الزمان ، لاسيما إذا كان فى التهانى ؛ فإنه يكون أشد قبحاً ، وإنما يستعمل

ذلك فى الخطوب النازلة والنوائب الحادثة ، ومتى كان الكلام فى المديح مفتتحاً بشىء من ذلك تَطَيَّرَ منه سامعه .

وإنما خصت الابتداءات بالاختيار لأنها أول مايطرق السمع من الكلام ؛ فإذا كان الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعده توَفَّرت الدواعى على استماعه ، ويكفيك من هذا الباب الابتداءات الواردة فى القرآن ، كالتحميدات المفتتح بها أوائل السور ، وكذلك الابتداءات بالنداء ، كقوله تعالى فى مفتتح سورة النساء : (يـٰأيُّهَا النَّاسُ اتقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) وكقوله تعالى فى أول سورة الحج : (يـٰأيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ) فإن هذا الابتداء مما يوقظ السامعين للإصغاء إليه ، وكذلك الابتداءات بالحروف ، كقوله تعالى : (ألم) و (طس) و (حم) وغير ذلك ؛ فإن هذا أيضاً مما يبعث على الاستماع إليه ؛ لأنه يَقْرَعُ السمع شىء غريب ليس له بمثله عادة ؛ فيكون ذلك سبباً للتطلع نحوه والإصغاء إليه .

ومن قبيح الابتداءات قول ذى الرمة :

* مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا المَاءُ يَنْسَكِبُ[1] *

لأن مقابَلَةَ الممدوح بهذا الخطاب لا خَفَاء بقبحه وكراهته .

ولما أنشد الأخطل عبد الملك بن مروان قصيدته التى أولها :

* خَفَّ القَطِينُ فَرَاحُوا مِنْكَ أوْ بَكَرُوا[2] *

---

(١) هذا صدر المطلع وعجزه قوله :

* كَأَنَّهُ مِنْ كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرَبُ *

قال العباسى فى معاهد التنصيص : « وكانت عين عبد الملك تدمع دائماً ، فتوهم أنه خاطبه ، وعرض به ، فقال له : وما سؤالك عن هذا يا ابن الفاعلة ؟ ومقته ، وأمر بإخراجه » اه .

(٢) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* وَأزْعَجَتْهُمْ نَوًى فِى صَرْفِهَا غِيَرُ *

قال له عند ذلك : لا ، بل منك ، وتطير من قوله ؛ فغيرها ذو الرمة ؛ وقال :

* خَفَّ الْقَطِينُ فَرَاحُوا الْيَوْمَ أَوْ بَكَرُوا *

ومَنْ شاء أن يذكر الديار والأطلال فى شعره فليتأدب بأدب القَطَامى على جَفَاء طبعه ، و بُعْدِه عن فطانة الأدب ؛ فإنه قال :

* إنَّا مُحَيُّوكَ فَاسْلَمْ أَيُّهَا الطَّلَلُ(١) *

فبدأ قبل ذكر الطلل بذكر التحية والدعاء له بالسلامة ،

وقد قيل : إن امرأ القيس كان يجيد الابتداء ، كقوله :

* ألاَ أنْعِمْ صَبَاحًا أيُّهَا الطَّلَلُ البالى(٢) *

وكقوله :

* قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ(٣) *

ومما يكره من الابتداءات قول أبى تمام :

* تَجَرَّعْ أَسًى قَدْ أَقْفَرَ الْجَرَعُ الْفَرْدُ(٤) *

وإنما ألقى أبا تمام فى مثل هذا المكروه تتبُّعه للتجنيس بين تجرع والجرع ،

---

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* وَإِنْ بَلِيتَ وَإِنْ طَالَتْ بِكَ الطِّيَلُ *

(٢) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* وَهَلْ يَنْعَمَنْ مَنْ كَانَ فى الْعُصُرِ الْخَالِى *

ويروى « ألا عم » ، و « وهل يعمن » .

(٣) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ *

(٤) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها محمد بن الهيثم بن شبابة ، وعجزه قوله :

* وَدَعْ حِسْىَ عَيْنٍ يَحْتَلِبْ مَاءَهُ الْوَجْدُ *

وهذا دأب الرجل ؛ فإنه كثيرًا ما يقع فى مثل ذلك .

وكذلك استقبح قول البحترى :

* فُؤادٌ مَلاهُ الحُزْنُ حَتَّى تَصَدَّعا(١) *

فإن ابتداء المديح بمثل هذا طِيَرَةٌ ينبو عنها السمع ، وهو أجدر بأن يكون ابتداء مَرْثِية لامديح ، وما أعلم كيف يخفى على مثل البحترى وهو من مفلقى الشعراء .

وحكى أنه لما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان جلس فيه وجمع أهله وأصحابه ، وأمرهم أن يخرجوا فى زينتهم ؛ فما رأى الناسُ أَحْسَنَ من ذلك اليوم ؛ فاستأذن إسحٰق بن إبراهيم المَوْصِلى فى الإنشاد ، فأذن له ، فأنشد شعرًا حسناً أجاد فيه ، إلا أنه استفتحه بذكر الديار وعفائها ، فقال :

يَا دَارُ غـيَّرَكِ الْبِلَى وَمَحَاكِ يَا لَيْتَ شِعْرِى مَا الَّذِى أَبْلَاكِ

فتطير المعتصم بذلك ، وتغامز الناس على إسحٰق بن إبراهيم كيف ذهب عليه مثل ذلك مع معرفته وعلمه وطول خدمته للملوك ، ثم أقاموا يَوْمَهم وانصرفوا ، فما عاد منهم اثنان إلى ذلك المجلس ، وخرج المعتصم إلى سُرَّ مَنْ رأى ، وخرب القصر .

فإذا أراد الشاعر أن يذكر دارا فى مديحه فليذكر كما ذكر أشجعُ السُّلَمِىُّ حيث قال :

قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وسَـلَامُ خَلَعَتْ عَلَيْهِ جَمَالَهَا الأيَّامُ

وما أجدر هذا البيت بمفتتح شعر إسحٰق بن إبراهيم الذى أنشده للمعتصم ؛ فإنه لو ذكر هذا أو ما جرى مجراه لكان حسنا لائقا .

---

(١) لم أجد هذا فى شعر البحترى ، وإنما وجدت له بيتا قريبا من معنى ذلك وهو قوله رابع بيت من قصيدة يمدح فيها الحسن بن وهب :

عَلَى أنَّ قَلْبِى قَدْ تَصَدَّعَ شَمْلُهُ فُنُوناً لِشَمْلِ البِيضِ حِينَ تَصَدَّعَا

وسئل بعضهم عن أحذق الشعراء ، فقال : مَنْ أجاد الابتداء والمَطْلَع ؛ ألا ترى إلى قصيدة أبى نواس التى أولها :

يَا دَارُ ؛ مَا فَعَلَتْ بِكِ الْأَيَّامُ لَمْ تُبْقِ فِيكِ بَشَاشَةً تُسْتَامُ

فإنها من أشرف شعره وأعلاه منزلة ، وهى مع ذلك مستكرهة الابتداء ؛ لأنها فى مدح الخليفة الأمين ، وافتتاح المديح بذكر الديار ودُثُورها مما يُتَطَيَّر منه ، لا سيما فى مشافهة الخلفاء والملوك .

ولهذا يختار فى ذكر الأماكن والمنازل ما رَقَّ لفظه ، وحسن النطق به ، كالعُذَيْب والْغُوَيْر ورَامَة وبَارِق والْعَقِيق ، وأشباه ذلك .

ويختار أيضا أسماء النساء فى الغزل نحو سُعَاد وأُمَيْم وفَوْز ، وما جرى هذا المجرى .

وقد عيب على الأخطل فى تغزله بقذور ، وهو اسم امرأة ؛ فإنه مستقبح فى الذكر ، وقد عيب على غيره التغزل باسم تُماضر ، فإنه وإن لم يكن مستقبحا فى معناه فإنه ثقيل على اللسان ، كما قال البحترى :

إِنَّ لِلْبَيْنِ مِنَّةً لَا تُؤَدَّى وَيَداً فِي تُمَاضِرٍ بَيْضَاءَ

فتغزله بهذا الاسم مما يشوه رقة الغزل ، ويثقل من خفته ، وأمثال هذه الأشياء يجب مراعاتها والتحرز منها .

وقد استثنى من ذلك ما كان اسم موضع تضمن وقعة من الوقائع ؛ فإن ذكره لا يكره ، وإن كان فى اسمه كراهة ، كما ذكر أبو تمام فى شعره مواضع مكروهة الأسماء لضرورة ذكر الوقائع التى كانت بها ، كذكر الحشال وعقوقس وأمثالهما ، وكذلك ذكر أبو الطيب المتنبى هنزيط وشميصاط وما جرى مجراها ، وهذا لا عيب فى ذكره ؛ لمكان الضرورة التى تدعو إليه ، وهكذا يسامح الشاعر والكاتب أيضا فى ذكر مالا بد من ذكره وإن قبح ، ومهما أمكنه من التورية فى هذا المقام فليسلكها ، ومالا يمكنه فإنه معذور فيه .

واعلم أنه ليس من شرط الابتداء ألَّا يكون مما يتطير منه فقط ؛ فإن من الابتداءات ما يستقبح وإن لم يتطير منه ، كقول أبي تمام :

* قَدْكَ اتَّئِبْ أَرْبَيْتَ فِي الْغُلَوَاءِ(١) *

وكقوله(٢) :

* تَقِي جَمَحَاتِي لَسْتُ طَوْعَ مُؤَنِّبِي(٣) *

وكقول أبي الطيب المتنبي :

* أَقَلُّ فَعَالِي بَلْهَ أَكْثَرَهُ مَجْدُ(٤) *

وكقوله :

* كُفِّي أَرَانِي وَيْكِ لَوْمَكِ أَلْوَمَا(٥) *

---

(١) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها يحيى بن ثابت ، وعجزه قوله :

* كَمْ تَعْـذِلُونَ وَأَنْتُمُ سُجَرَائِي *

(٢) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها عياش بن لهيعة الحضرمي ، وعجزه قوله :

* وَلَيْسَ حَبِيبِي إِنْ عَذَلْتِ بِمُصْحِبِي *

(٣) تقي : فعل أمر مسند إلى ياء المؤنثة المخاطبة ، وهو مقتطع من اتقي ، ومثله قول الشاعر :

زِيَادَتَنَا نُعْمَانُ لَا تَقْرَبَنَّهَا تَقِ اللّٰهَ فِينَا وَالْكِتَابَ الَّذِي تَتْلُو

(٤) هـذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها محمد بن سيار بن مكرم التميمي ، وعجزه قوله :

* وَذَا الْجِدُّ فِيهِ ـ نِلْتُ أَمْ لَمْ أَنَلْ ـ جَدُّ *

(٥) هذا صدر مطلع قصيدة له في مديح إنسان غير معين ، وهو مما قاله في صباه ، وعجزه قوله :

* هَـــمٌّ أَقَامَ عَلَى فُؤَادٍ أَنْجَمَا *

والعجب أن هذين الشاعرين المفلقين يبتدئان بمثل ذلك ، ولهما من الابتداءات الحسنة ما أذكره .

أما أبو تمام فإنه افتتح قصيدته التى مدح بها المعتصم عند فتحه مدينة عَمُّورية فقال :

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ ... فِى حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ لَاسُودُ الصَّحَائِفِ فِى ... مُتُونِهِنَّ جِلَاءُ الشَّكِّ وَالرِّيَبِ

وهذه الأبيات لها قصة ، وذلك أنه لما حضر المعتصم مدينة عمورية زعم أهل النجامة أنها لا تفتح فى ذلك الوقت ، وأفاضوا فى هذا ، حتى شاع ، وصار أحدوثة بين الناس ، فلما فُتحت بنى أبو تمام مطلع قصيدته على هذا المعنى ، وجعل السيف أصدق من الكتب التى خَبَّرَتْ بامتناع البلد واعتصامها ؛ ولذلك قال فيها :

وَالْعِلْمُ فِى شُهُبِ الْأَرْمَاحِ لَامِعَةً ... بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ لَا فِى السَّبْعَةِ الشُّهُبِ
أَيْنَ الرِّوَايَةُ أَمْ أَيْنَ النُّجُومُ وَمَا ... صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ
تَخَرُّصًا وَأَحَادِيثًا مُلَفَّقَةً ... لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُدَّتْ وَلَا غَرَبِ

وهذا من أحسن ما يأتى فى هذا الباب .

وكذلك قوله فى أول قصيدة يمدحه بها أيضاً ، ويذكر فيها خروج بابك الخرمى عليه ، وظفره به ، وهى من أمهات شعره ، فقال :

الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارِ ... فَحَذَارِ مِنْ أُسْدِ الْعَرِينِ حَذَارِ

وكذلك قوله متغزلاً :

عَسَى وَطَنٌ يَدْنُو بِهِمْ وَلَعَلَّمَا ... وَأَنْ تُعْتِبَ الْأَيَّامُ فِيهِمْ فَرُبَّمَا

وهذا من الأغزال الحلوة الرائقة ، وهو من محاسن أبى تمام المعروفة .

وكذلك قوله فى أول مرثية :

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِى وَإِنْ كَانَ أَسْمَعَا وَأَصْبَحَ مَغْنَى الجُودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا

وأما أبو الطيب فإنه أكثر من الابتداءات الحسنة فى شعره ؛ كقوله فى قصيدة يمدح بها كافوراً ؛ وكان قد جرت بينه و بين ابن سيده نزغة ، فبدأ قصيدته بذكر الغرض المقصود ، فقال :

حَسَمَ الصُّلْحُ مَا اشْتَهَتْهُ الْأَعَادِى وَأَذَاعَتْـــهُ أَلْسُنُ الْحُسَّادِ

وهذا من بديع الابتداء ونادره .

وكذلك ورد قوله فى سيف الدولة ، وكان ابن الشُّمُشْقِيق (١) حلف لَيَلْقَيَنَّهُ كِفَاحًا ، فلما التقيا لم يطق ذلك ، وولى هاربا ، فافتتح أبو الطيب قصيدته بفَحْوَى الأمر ، فقال :

عُقْبَى الْيَمِينِ عَلَى عُقْبَى الْوَغَى نَدَمُ مَاذَا يَزِيدُكَ فى إِقْدَامِكَ الْقَسَمُ
وَفى الْيَمِينِ عَلَى مَا أَنْتَ وَاعِدُهُ مَا دَلَّ أَنَّكَ فى الْمِيعَـــادِ مُتَّهَمُ

وكذلك قوله وقد فارق سيف الدولة وسار إلى مصر ، فجمع بين ذكر فراقه إياه ولقائه كافورًا فى أول بيت من القصيدة ، فقال :

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتَ غَيْرُ مُذَمَّمٍ وَأَمٌّ وَمَنْ يَمَّمْتَ خَـــيْرُ مُيَمَّمٍ

ومن البديع النادر فى هذا الباب قوله متغزلاً فى مطلع قصيدته القافية ، وهى :

أَتُرَاهَا لِـكَثْرَةِ الْعُشَّاقِ تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِى المَآقِى

---

(١) قال العكبرى : « وهذا إشارة إلى تكذيب البطريق الذى حلف لملك الروم أنه لابد أنه يلقى سيف الدولة فى بطارقته ، و يجتهد فى لقائه بالبطارقة ؛ ففعل ، فخيب الله ظنه ، وأتعس جده ، فذكر ذلك أبو الطيب يرد عليه و يهجوه ، و يريد لو كنت ممن إذا قال وفى لم تحتج إلى اليمين » اه ، و بعد البيتين قوله :

آلَى الْفَتَى ابْنُ شُمُشْقِيقٍ ، فَأَحْنَثَهُ فَتًى مِنَ الضَّرْبِ تُنْسَى عِنْدَهُ الْكَلِمُ
وَفَاعِلٌ مَا اشْتَهَى يُغْنِيهِ عَنْ حَلِفٍ عَلَى الْفِعَالِ حُضُورُ الْفِعْلِ وَالْكَرَمُ

وله مواضع أخر كثيرة لا حاجة إلى ذكرها .

ومن محاسن الابتداءات التى دلت على المعنى من أول بيت فى القصيدة ما قرأته فى كتاب الروضة لأبى العباس المبرد ، فإنه ذكر غَزْوَةً غزاها الرشيد هٰرون رحمه الله فى بلاد الروم ، وأن نقفُورَ مَلِكَ الروم خضع له ، وبذل الجزية ، فلما عاد عنه واستقر بمدينة الرقة وسقط الثلج نقَضَ نقفورُ العهدَ ، فلم يجسر أحد على إعلام الرشيد ؛ لمكان هيبته فى صدور الناس ، وبذل يحيى بن خالد للشعراء الأموال على أن يقولوا أشعارًا فى إعلامه ، فكلهم أشْفَقَ من لقائه بمثل ذلك ، إلا شاعرا من أهل جدة يكنى أبا محمد ، وكان شاعرا مُفْلِقًا ، فنظم قصيدًا وأنشدها الرشيد ، أولها :

نَقَضَ الَّذى أعْطَيْتَهُ نقفُورُ فعَلَيْهِ دائِرَةُ البَوارِ تَدُورُ
أبْشِرْ أمِيرَ المُؤْمنِينَ فإنَّهُ فَتْحٌ أتاكَ بِهِ الإلٰهُ كَبِيرُ
نقفُورُ؛ إنَّكَ حِينَ تَغْدِرُ - أنْ نأَى عَنْكَ الإمَامُ - لَجَاهِلٌ مَغْرُورُ
أظَنَنْتَ حِينَ غَدَرْتَ أنَّكَ مُفْلِتٌ هَبِلَتْكَ أُمُّكَ ! مَاظَنَنْتَ غُرُورُ

فلما أنهى الأبيات قال الرشيد : أوقد فعل ؟ ثم غزاه فى بقيـــة الثلج وفتح مدينة هِرَقْلَةَ .

وقرأت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الإصبهانى ما رواه من شعر سَدِيف فى تحريض الخليفة السَّفَّاح رحمه الله على بنى أمية ، فقال : قدم سَـدِيفٌ من مكة إلى الحيرة ، والسفاحُ بها ، ووافق قدومه جلوس السفاح للناس ، وكان بنو أمية يجلسون عنده على الكراسى تَكْرِمَةً لهم ؛ فلما دخل عليه سديف حَسَرَ لثامه ، وأنشده أبياتًا من الشـعر ؛ فالتفت رجل من أولاد سليمان بن عبد الملك ، وقال لآخر إلى جانبه : قتلَنا والله العبدُ ، فلما أنهى الأبيات أمر بهم السفاح فأُخرجوا من بين يديه وقُتلوا عن آخرهم ، وكتب إلى عماله بالبلاد يأمرهم بقتل من وَجدُوه منهم ، ومن الأبيات :

أَصْبَحَ الدِّينُ ثَابِتاً فى الأَسَاسِ ... بِالْبَهَالِيلِ مِنْ بَنِى الْعَبَّاسِ (١)
أَنْتَ مَهْدِىُّ هَاشِمٍ وَهُدَاهَا ... كَمْ أُنَاسٍ رَجَوْكَ بَعْدَ إِيَاسِ
لاَ تُقِيلَنَّ عَبْدَ شَمْسٍ عِثَارًا ... وَاقْطَعَنْ كُلَّ رَقْلَةٍ وَغِرَاسِ
أَنْزِلُوهَا بِحَيْثُ أَنْزَلَهَا اللّهُ بِدَارِ الْهَوَانِ وَالإِتْعَاسِ
خَوْفُهُمْ أَظْهَرَ التَّوَدُّدَ فِيهِمْ ... وَبِهِمْ مِنْكُمُ كَحَزِّ الْمَوَاسِى
أَقْصِهِمْ أَيُّهَا الْخَلِيفَةُ وَاحْسِمْ ... عَنْكَ بِالسَّيْفِ شَأْفَةَ الأَرْجَاسِ
وَاذْكُرَنْ مَصْرَعَ الْحُسَيْنِ وَزَيْدٍ ... وَقَتِيلاً بِجَانِبِ الْمِهْرَاسِ (٢)
وَلَقَدْ سَاءَنِى وَسَاءَ سِوَائِى ... قُرْبُهُمْ مِنْ نَمَارِقٍ وَكَرَاسِى

وهذه الأبيات من فاخر الشعر ونادره افتتاحاً وابتداء وتحريضاً وتأليباً ، ولو وصفتها من الأوصاف بما شاء الله وشاء الإسهاب والإطناب لما بلغتُ مقدار مالها من الحسن .

ومن لطيف الابتداءات ما ذكره مِهْيار (٣) ، وهو :

---

(١) الذى فى شعر سديف ، وهو مروى فى كثير من كتب التاريخ والأدب :

أَصْبَحَ الْمُلْكُ ثَابِتَ الآسَاسِ ... بِالْبَهَالِيلِ مِنْ بَنِى الْعَبَّاسِ

(٢) وقع فى ا ، ب ، ح « بجانب الهرماس » وهو تحريف ، وصوابه « بجانب المهراس » . والمهراس — بكسر الميم وسكون الهاء — ماء بجبل أحد . والقتيل الذى بجانب المهراس : هو حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان مقتله فى غزاة أحد ، قتله عبد اسمه وحشى بتحريض هند أمّ معاوية ابن أبى سفيان ، انظر ياقوت فى « مهراس » أما الهرماس — بكسر الهاء وسكون الراء فنهر نصيبين ، وموضع فى المعرة .

(٣) انظر الديوان (٣ — ١٩٤ دار الكتب) وبعد البيتين اللذين رواهما المؤلف قوله :

وَقَالَ فَلَمْ تَقْبَلْ وَلٰكِنْ تَلَوَّمَتْ ... عَلَى أَنَّهُ مَا قَالَ إِلاَّ لِتَقْبَلاَ

أَمَا وَهَوَاهَا عِذْرَةً وَتَنَصُّلاً ... لَقَدْ نَقَلَ الْوَاشِى إِلَيْهَا فَأَمْحَلاَ
سَعَى جُهْدَهُ ، لَكِنْ تَجَاوَزَ حَدَّهُ ... وَكَثَّرَ فَارْتَابَتْ ، وَلَوْ شَاءَ قَلَّلا

فإنه أبرز الاعتذار فى هيئة الغزل ، وأخرجه فى مَعْرِض النسيب ، وكان وشى به إلى الممدوح ، فافتتح قصيدته بهذا المعنى فأحسن .

ومما جاء على نحو من ذلك قول بعض المتأخرين من العراقيين :

وَرَاءَكِ أَقْوَالُ الْوُشَاةِ الْفَوَاجِرِ ... وَدُونَكِ أَحْوَالُ الْغَرَامِ الْمُخَامِرِ
وَلَوْلاَ وَلُوعٌ مِنْكِ بِالصَّدِّ مَا سَعَوْا ... وَلَوْلاَ الْهَوَى لَمْ أَنْتَدِبْ لِلْمَعَاذِرِ

فسلك فى هذا القول مسلك مهيار ، إلا أنه زاد عليه زيادة حسنة ، وهى المعاتبة على الإصغاء إلى أقوال الوشاة والاستماع منهم ، وذلك من أغرب ما قيل فى هذا المعنى .

ومن الْحَذَاقة فى هذا الباب أن تجعل التحميدات فى أوائل الكتب السلطانية مناسبةً لمعانى تلك الكتب ، وإنما خصصت الكتب السلطانية دون غيرها لأن التحاميد لا تصدر فى غيرها ؛ فإنها تكون قد تضمنت أموراً لائقة بالتحميد ، كفتح مُقْفَل أو هزيمة جيش ، أو ما جرى هذا المجرى .

ووجدت أبا إسحق الصابى — على تقدمه فى فن الكتابة — قد أخلّ بهذا

وَطَارَحَهَا أَنِّي سَلَوْتُ ، فَهَلْ رَأَى ... لَهُ الذَّمُّ مِثْلِي عَنْ هَوَى مِثْلِهَا سَلاَ

وفى الديوان قبل ذكر القصيدة : «واتفق أن بعض الحسدة والسعاة وشى به فى أمر محال اتصل بحضرة الملك شاهنشاه جلال الدولة ركن الدين أبى طاهر بن بويه ، فاقتضى أن استدعى إلى داره ، واعتقل ليلة على كشف الصورة اعتقالا مميزا جميلا ، ثم انكشفت له البراءة مما حكاه الساعى به ، وقنع الملك بقوله ووثق بصحته ، وبالغ فى الإنعام بتمييزه وأفرج عنه إفراجا طيبا مجملا ، وكان فى عرض ذلك استبطأ منه خدمة مجلسه بالشعر ، واستنكر ما يستعمله مع خدمة أوليائه من المدح ، وما يخل به من فروض خدمته ، فقال يشكر نعمته ويذكر القصة ، ويعرض بالساعى ، ويمدحه ، وأنشدها بحضرته يوم عيد الفطر من سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة» اه .

الركن الذى هو من أوكد أركان الكتابة ، فإذا أتى بتحميدة فى كتاب من هذه الكتب لاتكون مناسبةً لمعنى ذلك الكتاب ، وإنما تكون فى وادٍ والكتاب فى واد ، إلا ما قل من كتبه .

فما خالف فيه مطلع معناه(١) أنه كتب كتابا يتضمن فتح بغداد وهزيمة الأتراك(٢) عنها ، وكان ذلك فتحاً عظيما ؛ فابتدأ بالتحميد ، فقال : الحمدُ لله رب العالمين ، الملكِ الحقِّ المبين ، الوحيد الفريد ، العلى المجيد ، الذى لا يوصف إلا بسلب الصفات ، ولا ينعت إلا برفع النعوت ، الأزلى بلا ابتداء ، الأبدى بلا انتهاء ، القديم لا منذ أمد محدود ، الدائم لا إلى أجل معدود ، الفاعل لا من مادة استمدَّها ، ولا بآلة استعملها ، الذى لا تُدْرِكه الأعين بِلِحَاظها ، ولا تحدُّه الألسن بألفاظها ، ولا تخلقه العصور بمرورها ، ولا تهرمه الدهور بكرورها ، ولا تضارعه الأجسام بأقطارها ، ولاتجانسه الصور بأعراضها ، ولا تجاريه أقدام النظر أوالأشكال ، ولاتزاحمه مناكب القرناء والأمثال ، بل هو الصَّمد الذى لا كفء له ، والفَذُّ الذى لا توْأم معه ، والحى الذى لا تخرمه المنون ، والقيوم الذى لا تشغله الشئون ، والقدير الذى لا تئودُه المعضلات ، والخبير الذى لا تُعْيِيه المُشْكِلات .

وهذه التحميدة لا تناسب الكتاب الذى افتتح بها ، ولكنها تصلح أن توضع فى صدر مُصَنَّف من مصنفات أصول الدين ، ككتاب الشامل للجوينى ، أو كتاب الاقتصاد ، أو ما جرى مجراها ، وأما أن توضع فى صدر كتاب فتحٍ فلا .

(١) كذا فى ا ، ب ، ج ؛ والأحسن « فما خالف فيه المطلع معناه » .

(٢) هذه الرسالة موجودة فى رسائل الصابى (ص ١٠) بدون هذه التحميدة التى نقدها المؤلف ، وأول الرسالة كما فى الرسائل : « أما بعد فإن لله قضايا نافذة وأقدارا ماضية فيهنّ النعم السوابغ والنقم الدوامغ » .

وهو و إن أساء فى هذا الموضع فقد أحسن فى مواضع أخر ، وذاك أنه كتب كتابا عن الخليفة الطائع رحمه الله تعالى إلى الأطراف عند عَوْدِهِ إلى كرسى ملكه ، وزوال ما نزل به و بأبيه المطيع رحمه الله من فادحة الأتراك ؛ فقال [١] :

الحمد لله ناظم الشمل بعد شتَاته ، وواصل الحبل بعد بتَاته ، وجابر الوَهْن إذا ثلم [٢] ، وكاشف الخطب إذا أظلم ، والقاضى للمسلمين بما يَضُمُّ نشرهم ، ويَشُدُّ أَزْرَهُم ، ويصلح ذاتَ بَيْنِهِمْ [٣] ، ويحفظ الألفة عليهم ، و إن شابت ذلك فى الأحيان شوائب من الحدثان فلن يتجاوز [٤] بهم الحد الذى يُوقِظُ غافلَهم ، ويُنَبِّهُ ذاهِلَهم ، ثم إنهم عائدون إلى فضل [٥] ما أولاهم الله وعوّدهم ، ووثّق لهم ووَعَدَهم ، من إيمان سِرْبِهِمْ [٦] ، و إعْذاب شُرْبهم ، و إعزاز جانبهم ، و إذلال مُجَانبهم ، و إظهار دينهم على الدين كله ولو كره المشركون .

وهذه تحميدة مناسبة لموضوع الكتاب ، و إن كانت المعانى فيها مكررة كالذى أنكرته عليه وعلى غيره من الكُتّاب ، وقدمت القول فيه فى باب السجع ؛ فليؤخذ من هناك .

ومن المبادى التى قد أُخْلِقَتْ وصارت مُزْدَرَاة أن يقال فى أوائل التقليدات: إن أحق الخِدَم بأن ترعى خدْمَةُ كذا وكذا ، و إن أحق من قُلِّدَ الأعمال مَن اجتمع فيه كذا وكذا ؛ فإن هذا ليس من المبادى المستحسنة ، ومَن استعمله أوّلاً

---

(١) انظر رسائل الصابى (ص ١٦٠ بيروت) .

(٢) فى الرسائل « إذا انثلم » .

(٣) سقطت هذه الجملة من الرسائل .

(٤) فى ا ، ب ، ج « تتجاوز » والذى أثبتناه عن الرسائل .

(٥) فى الرسائل « إلى أفضل ما أولاهم » .

(٦) فى الرسائل « من أثمان » والذى هنا أحسن ، وهذا إشارة إلى الحديث « من أصبح آمنا فى سربه » والسرب : النفس .

فقد ضعفت فكرته عن اقتراح ما يحسن استعماله من المبادى ، والذى تبعه فى ذلك إما مُقلِّد ليس عنده قوة على أن يختار لنفسه ، وإما جاهل لا يفرق بين الحسن والقبيح والجيد والردىء ، وأهلُ زماننا هذا من الكتاب قد قصَرُوا مبادئَ تقاليدهم على هذه الفاتحة دون غيرها ، وإن أتوا بتحميدة من التحاميد كانت مباينة لمعنى التقليد الذى وضعت فى صدره ، وكذلك قد كان الكتاب يستعملون فى التقليدات مَبْدَأً واحدًا لا يتجاوزونه إلى غيره ، وهو « هذا ما عهد فلان إلى فلان» والتحميد خير ما افتتح به التقليدات وكتب الفتوح وما جرى مجراها ، وقد أنكرتُ ذلك على مستعمله فى مفتتح تقليد أنشأته بولاية وال فقلت : كانت التقليدات تُفْتَتَح بكلام ليس بذى شان ، ولا يوضع فى ميزان ، ولا يجتنى من أفنان ، وغاية ما يقال هذا ما عهد فلان إلى فلان ، وتلك فاتحة لم تكن جديدة فتخلق بتطاول الأيام ، ولا حسنة النظم فيُضَاهى بمثلها من ذوات النِّظَام ، وهذا التقليد مفتتح بحمد الله الذى تكفَّل لحامده بالزيادة ، وبدأ النعمة ثم قرنها من فضله بالإعادة ، وهو الذى بلغ بنا [مِنْ] مآرِب الدنيا مُنْتَهَى الإرادة ، وسَلَّم إلينا مَقَادَه فذلل لنا بها كل مَقَادة ، ووسَّد الأمر منا إلى أهله فاستوطأت الرعايا منه على وسادة ، ونرجو أن يَجْمَعَ لنا بين سعادة الأولى والأخرى حتى تتصل هذه السعادة بتلك السعادة ، ثم نُصَلِّى على نبيه محمدٍ الذى مَيَّزَه الله على الأنبياء بشرف السيادة ، وجعل انشقاق القمر له من آيات النبوة وانشقاق الإيوان من آيات الولادة ، وعلى آله وأصحابه الذين شادوا الدين من بعده فأحسنوا فى الإشادة ، وبُسِطت عليهم الدنيا كما بسطت على الذين من قبلهم فلم يَحُولُوا عن خُلق الزَّهادة ، أما بعد كذا وكذا ، ثم أنهيت التقليد إلى آخره .

ومن الْحَذَاقة فى هذا الباب أن يجعل الدعاء فى أول الكتاب من السلطانيات والإخوانيات وغيرهما مضمنًا من المعنى ما بُنِيَ عليه ذلك الكتاب ،

وهذا شيء انفردت بابتداعه ، وتراه كثيرا فيما أنشأته من المكاتبات ؛ فانى توخَّيْتُه فيها وقصدته .

فمن ذلك ما كتبته فى الهناء بفتح ، وهو : هذا الكتاب مشافه بخدمة الهناء للمجلس السامى الفلانى جَدَّد الله له فى كل يوم فتحا ، وبدل عرش كل ذى سلطان لديه صَرْحا ، وجعل كلَّ موقف من مواقف جوده و بأسه يومَ فِطْرٍ ويومَ أَضْحَى ، وكتب له على لسان الإسلام ولسان الأيام ثناء خالداً ومَدْحا ، وأسكنه بعد العمر الطويل داراً لا يظمأ فيها ولا يَضْحَى ، ثم أخذتُ بعد ذلك فى إنشاء الكتاب المتضمن ما يقتضيه معانى ذلك الفتح .

ومن ذلك ما ذكرته فى الهناء بمولود ، وهو : جَدَّدَ الله مَسَرَّاتِ المجلس السامى الفلانى ووصل صَبُوحَ هنائه بغَبُوقه ، وأمتعه بسليله المبشَّر بطروقه ، وأبقاه حتى يستضىء بنوره و يرمى عن فُوقِهِ ، ومَرَّ به أبكار المعانى حتى تخلق أعطافها بخَلُوقه ، وجعله كزَرْع أخرج شَطْأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سُوقِهِ ، ثم أخذتُ فى إتمام الكتاب بالهناء بالمولود على حسب ما اقتضاه ذلك المعنى .

فتأمل ما أوردته ههنا من هذين المثالين ، وانْسُجْ على منوالهما فيما تقصده من المعانى التى تبنى عليها كتبك ؛ فان ذلك من دقائق هذه الصناعة .

وأما فواتح الكتب التى أنشأتها فمنها ما اخترعته اختراعا ولم أسبق إليه ، وهى عدة كثيرة ، وقد أوردت ههنا بعضها .

فمن ذلك مفتتح كتاب إلى ديوان الخلافة ، وهو : نشأت سحابة من سَماء الديوان العزيز النبوى جعل الله الخلود لدولته أوطانا ، والحدود لها أركانا ، ونصب أيامها فى أيام الدهر أحْياناً ، وصَوَّرها فى وجهه عيناً وفى عينه إنساناً ، ومَدَّ ظِلَّها على الناس عدلا وإحسانا ، وجمع الأمم على دين طاعتها و إن تفرّقوا أدْيَاناً ، وأتاها من معجزات سلطانه مالم ينزل به لغيرها سلطاناً ، فارتاح الخادمُ

لالتقائها ، وبسط يده لاستسقائها ، وقال : رحمة مرسلة لا تخشى رعودها ، وَلا تُخْلَف وعودها ، ومن شأنها تَرْوِيضُ الصنائع التى تبقى آثارها ، لا الخمائل التى تَذْوِى أزهارها ، وقد يعبر عن الكتاب ونائله ، بالسحاب ووابله ؛ فإن صَدَر عن يَدِ كَيَدِ الديوان العزيز فقد وقع التشبيه موقع الصواب ، وصدق حينئذ قول القائل : إن البحر عُنْصُر السحاب ، لكن فَرْقٌ بين مايجود بمائه ، ومايجود بنعمائه ، و بين مايَسِمِ الأرض الماحلة ، و بين مايُسْمِى الأقدار الخاملة ، ومازالت كتبُ الديوان العزيز تُضْرَبُ لها الأمثال ، وتُصْرَفُ نحوها الآمال ، وَيُرَى الحسد فيها حسنًا و إن عُدَّ فى غيرها من سيئ الأعمال . وهذا فصل من أول الكتاب .

ومن جملة الكتب المشار إليها مفتتح كتاب كتبته إلى بعض الإخوان وأرسلته إليه من المَوْصِل إلى أرض الشمال من بلاد الروم ، وهو : طلَعَ كوكبٌ من أفق المجلس السامى لا خلَتْ سيادته من عدو وحاسد ، ولا شينت بتَوْأم يخرجها عن حكم الواحد ، ولا عَدِمَتْ صحبة الجُدُود المتيقِّظة فى الزمن الراقد ، ولا أوحشت الدنيا من ذكره الخالد الذى هو عمر خالد ، ولا زال مرفوعا إلى المحل الذى يعلم به أن الدهر للناس ناقد ، والكواكب تختلف مطالعها فى الشمال والجنوب ؛ فمنها ما يطلع دائما فى أحدهما وهو فى الآخر دائم الغروب ، وكتابُ المجلسِ كوكبٌ لم يُرَ بهذه الأرض مطلعه ، وإن عُلم من السماء أين موضعه ، ولما ظهر الآن للخادم سَبَّحَ له حامداً ، وخرّ له ساجداً ، وقال : قد عُبِدَتِ الكواكبُ من قبلى فلا عَجَبَ أن أكون لهذا الكوكب عابدا ، وهاأنا قدأصبحت بالعكوف على عبادته مُغْرًى ، وقال الناس : هذا ابنُ كَبْشَةِ الْكِتَابِ[1] لاابْنُ أبى كَبْشَةِ الشِّعْرَى .

وهذا مطلع غريب ، والسياقة التالية لمطلعه أغرب ، ومن أغرب ما فيها قولى «وهاأناقدأصْبَحْتُ بالعكوف على عبادته مغرى ، وقال الناس هذا ابن كبشة الكتاب[1]

(١) كذا فى جميع الأصول ، والصواب « هذا ابن أبى كبشة الكتاب »

لا ابن أبى كبشة الشعرى » والمراد بذلك أن ابن كبشة[(١)] كان رجلا فى الجاهلية يَعْبُدُ الشِّعْرَى فخالف بذلك دينَ قومه ، ولما بعث النبى صلى الله عليه وسلم قالت قريش : هذا قد خالف ديننا ، وسموه « ابن أبى كبشة » أى أنه قد خالفنا كما خالف أبو كبشة قومه فى عبادة الشعرى ، فأخذت أنا هذا المعنى وأودعته كتابى هذا فجاء كما تراه مبتدعا غريبا .

ومن جملة الكتب المشار إليها مفتتح كتاب كتبته إلى بعض الإخوان بالشام ، وهو : طَلَعَتْ من الغرب شمسٌ فقيل : قد آذنت أشراط الساعة بالاقتراب ، ولم يعلم أن تلك الأنوار إنما هى أنوار الكتاب ، لم تألف الأبصار من قبله أن تطلع الشمس من المغرب ، وليس ذلك إلا كتاب المجلس لا سَلَبَهُ الله مزية هذا الوصف الكريم ، وأتاه من الفضل ما يقال معه وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم ، وأحيا النفوس من كَلْمِهَا بروح كَلِمِهِ كما شفى غليلها من أقلامه بسقيا الكليم ، ولما ورد عن الخادم صار ليله نهارا ، وأصبح الناس فى الحديث به أطوارا ، والمنصف منهم يقول : قد جرت الشمس إلى مُسْتَقَرِّهَا والشمس لا تجد قرارا .

وهذا الكتاب فى الحسن والغرابة كالذى قبله .

ومن جملة الكتب المشار إليها مُفْتَتَح كتاب كتبته إلى بعض الإخوان ، وهو : تأوَّبَ زَوْرٌ من جانب المجلس السامى أدنى الله داره ، وجعل كلماتِهِ التامةَ جَارَه ، وأشهد أفعال التقوى ليله وأفعال المكارم نهاره ، ووهبه من أعوام العمر طواله ومن أعوام العيش قصاره ، ولا أقدر السابقين إلى المعالى أن يَجْرُوا معه ولا أن يَشُقوا غُبارَه ، وليس ذلك الزَّوْرُ إلا سطورا فى قرطاس ، ولا فرق بين الكتاب و بين مُرْسِلِهِ فى مُلاطفة الإيناس ، والله لا يصغر ممشى هذا الزائر ، ويُقِر عينى برؤيته حتى لا أزال به قرير الناظر ، ومع هذا فإنى عاتب لتأخره

(١) كذا ، والصواب « أن أبا كبشة » على ما يأتى .

وههنا مظنة العتاب ، ومَنْ تأخر عنه كتابُ صديقِهِ فلا بدَّ أن يخطر له خاطر الارتياب ، والضَّنِين بالمودَّة(١) لا يرى إلا ظَنيناً ، وقد قيل إنها وديعة وقليلاً ماتجد على الودائع أميناً .

وهذا فصل من أول الكتاب .

ومن جملة الكتب المشار إليها مفتتح كتاب كتبته إلى بعض الإخوان ، وهو : سَنَحَتْ رَوْضَةٌ من جانب المجلس السامى جعل الله المعالىَ له رِدَاء ، ونهاياتِ المساعى له ابتداء ، وفَدَاه بمن يقصر عن درجته حتى تكون الأكارم له فداء ، وهَدَى المحامدَ لأفعاله وأهدى البقاء لأيامه حتى يجتمع له الأمران هُدًى وإهداء ، وأتاه من السيادة مايجعل أعداءه أصادقَ ومن السعادة مايجعل أصدقاءه أعداء ، فاستنشق الخادم رُبَاها ، وتلقى بالتحية مُحيَّاها ، واستمتع بأزهارها التى أنبتها سقيا الأقلام لا سقى الغمام ، وقال : هذا ربيع الأرواح لا ربيع الأجسام ، ولو رام الإحاطة بوصفها لكانت الأقوال المطولة فيها مختصرة ، ولكنه اكتفى بأن رفعها على رأسه حتى يتمثل أن الجنة فى شجرة ، ومن أوصافها أنها جاءت رائدة ومن شأن الروض أن يُرْتَاد ، وحلت محاسنها التى هى فى غيرها من حظ البصر وفيها من حظ السمع والبصر والفؤاد ، ولما سَرَّحَ فيها نظره وجد شوقه حمامة تغرد فى أكنافها ، وتُرَدِّد الشَّجَى لبعد أليفها إذا رددته الحمائم لقرب أُلاَّفها ، وهذا قول له عند إخوان الصفاء علامة ، وإذا تمثل كتاب الحبيب روضة فهل يتمثل شوق مُحِبِّه إلا حمامة ، وأىُّ فرق بين هذه وبين أخواتها من ذوات الأطواق ؟ لولا أنها تملى شجوها على صفحات القلوب وتلك تمليه على عَذَبَات الأوراق .

وهذا فصل من الكتاب ، وهو غريب عجيب ، وفيه معنيان مبتدعان ، وأعجبهما وأغربهما قولى : « حتى يتمثل أن الجنة فى شجرة » وهذا مستخرج من الحديث النبوى .

ومن جملة الكتب المشار إليها مفتتح كتاب كتبته إلى بعض الإخوان ،

(١) فى ا ، ب ، ج « والظنين بالمودة » .

وهو : تَضَوَّعَتْ نَفْحَةٌ من تلقاء المجلس السامى رعى الله عهده وسقاه ، وصان وُدَّه ووقاه ، ويسر لى إلقاء العصا بمُلْقَاه ، فمطرت الطريق التى سايرتها ، والريح التى جاورتها ، وأتت فأفرشتها خدى ، وضممت عليها ودى ، وجعلتها درعا لجيبى ولطيمة لردنى وسخابا لعقدى ، وعلمت أنها ليست بنفحة طيب ، ولـكنها كتاب حبيب ، فإن مَنَاشِقَ الأرواح غير مناشق الأجسام ، ولا يستوى عَرْفُ الطِّيب وعَرْفُ الأقلام ، ثم مددت يدى إلى الـكتاب بعد أن صافحت يد موصله ، كما صافحت عَبْقَةَ مَنْدَلِه ، وقلت : أهلاً بمن أدْنَى من الحبيب مزارا ، وأهدى لعينى قُرَّةً ولقلبى قرَارا .

وهذا فى الغرابة كأخواته التى تقدمت .

ولم أستقص ما اخترعته من هذا الباب فى مطالع الـكتب .

وأما ما أتيت فيه بالحسن من المعانى ولـكنه غير مخترع ؛ فمن ذلك مطلع كتاب كتبته عن الملك نور الدين أرسلان بن مسعود صاحب الموصل إلى الملك الأفضل على بن يوسف يتضمن تعزيةً وتهنئة : أما التعزية فبوفاة أخيه الملك العزيز عثمان صاحب مصر ، وأما التهنئة فبوراثة الملك من بعده ، وهو : لايَعْلَمُ القلمُ أينطق بلسان التعزية أم بلسان التهنية ، لـكنه جمعهما جميعاً فأتى بهما على حكم التثنية ، وفى مثل هذا الخطب يظل القلم حائرا ، وقد وَقَفَ موقفَ السخط والرضا فسخط أولاً ثم رضى آخرا ، وهذا البيت الناصرىّ يَتَدَاوَلُ درجاتِ الْعُلَى فما تمضى إلا وإليه ترجع ، وشموسه وأقماره تتناقل مطالع السعود فما يغيب منها غائب إلا وآخر يطلع ، والناس إن فُجِعوا بماجدٍ رَدِفَه من بعده ماجد ، وإن قيل إن الماضى كان واحداً قيل بل الآتى هو الواحد .

وهذا فصل من أول الـكتاب ، ثم كتبت فى هذا المعنى كتابين آخرين ، وفى الذى أوردته من هذا الفصل مقنع .

ومن هذا الأسلوب ما كتبته إلى بعض الإخوان جواباً عن كتابه ، وكانت

الكتب قد انقطعت بيني وبينه زماناً ، وهو : لقاء كُتُبِ الأحباب كلقاء الأحباب ، وقد تأتى بعد يأسٍ منها فيشتبه لها دمع السرور بدمع الاكتئاب ، ومن أحسنها كتاب المجلس السامى الفلاني جعل الله الليالى له صحباً والمعالى له عقبا ، ورفع مجده فوق كل ماجد حتى تكون حسناتهم لدى حسناته ذنبا ، ولا زال اسمه فى الأفواه عَذْبا وذكره فى الألسنة رَطْباً ،ووده لكل إنسان إنساناًولكل قلب قلبا.

ثم انتهيت إلى آخر الكتاب على هذا النَّسَق . وإنما ذكرت ههنا مبتدأه لأنه الغرض المقصود فى هذا الموضع .

ومن ذلك ما كتبته إلى بعض الإخوان جواباً عن كتابه ، وهو : البشرى تُعْطى للكتاب كما تعطى لمرسله ، وكل منهما يُوَفَّى حق قدره وينزل فى منزله ، وكذلك فعل الخادم بكتاب المجلس السامى الفلانى لا زال محله أنيسا ، وذكره للفرقدين جليسا ، وسعيه على المكارم حبيسا ، ومجده جديد الملابس إذا كان المجد لَبيسا

وههنا ذكرت من هذا الكتاب(١) كما ذكرته من الذى قبله فإنى لم أذكر إلا مبدأه الذى هو الغرض .

ومما ينتظم فى هذا السلك ما كتبته فى صدر كتاب يتضمن تعزية ، وهو : لو لم يلبس قلمى ثوب الحداد لهجر مداده ، ونضى عنه سواده ، وبعد عن قرينته ، وعاد إلى طينته ، وحرم على نفسه أن يمتطى يدا ، أو يجرى إلى مَدَى ، لكنه أَحَدَّ فندب ، وبكى فسكب ، وسطر هذا الكتاب من دموعه ، وضمنه ماحملته أحناء ضلوعه ، وإنما استعار ذلك من صاحبه الذى أعداه ، وأبدى إليه من حزنه ما أبداه ، وهو نائب عنه فى تعزية سيدنا أَحْسَنَ الله صبره ، ويسر أمره ، وأرضى عنه دهره .. ثم أنهيت الكتاب إلى آخره .

ومن محاسن هذا الباب أن يفتتح الكتاب بآية من القرآن الكريم ، أو بخبر من الأخبار النبوية ، أو ببيت من الشعر ، ثم يبنى الكتاب عليه .

(١) فى ا ، ب ، ج « وههنا ذكرت فى هذا الكتاب ـ إلخ»

فمن ذلك ما كتبته فى ابتداء كتاب يتضمن البشرى بفتح ، وهو :

وَمَنْ طَلَبَ الْفَتْحَ الْجَلِيلَ فَإِنَّمَا مَفَاتِيحُهُ الْبِيضُ الْخِفَافُ الصَّوَارِمُ(١)

وقد أخذنا بقول هذا الشاعر الحكيم ، وجعلنا السيف وسيلة إلى استنتاج الْمُلْكِ الْعَقِيمِ ، وراية المجد لاتنصب إلا على النَّصَب ، والراحة الكبرى لاتنال إلا على جسر من التعب(٢) ، وكتابنا هذا وقد استولينا على مملكة فلانة ، وهى المملكة التى تمسى الآمال دونها صَرْعَى ، وإذا قِيسَ إليها غيرها من الممالك كانت أصلاً وكان غيرها فرعاً . وهذا فصل من أول الكتاب .

ومن ذلك ما كتبته فى مفتتح تقليد بالْحِسْبَة ، وهو : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) هذا أمر يشتمل على معنى الخصوص دون العموم ، ولا يختصُّ به إلا ذوو الأوامر المطاعة وذوو العلوم ، وقد جمع الله لنا هٰذين الوصفين كِلَيْهِما ، وجعلنا من المستخلفين عليهما ، فَلْنَبْدَأْ أولا بحمده الذى هو سبب للمزيد ، ثم لنأخذ فى القيام بأمره الذى هو على كل نفس منه رقيب عتيد ، ولا رَيْبَ أن إصلاح العباد يسرى إلى الأرض حتى تزكو بطونها وتنام عيونها ، ويشترك فى بركات السماء ساكنها ومسكونها ، والأمر بذلك حمل إن لم تَتَوَزَّعْه الأكفُّ ثقل على الرقاب ، وإذا انتشرت أطراف البلاد فإنها تفتقر إلى مساعدة من مستنيب ومستناب ، وقد اخترنا لمدينة فلانة رجلاً لم نَأْلُ فى اختياره جهداً ، وقدَّمْنا فيه خِيَرَةَ الله التى إذا صَدَقَتْ نيتها صادفت رشدا ، وهو أنت أيها الشيخ فلان ، فَابْسُطْ يدك بقوة إلى أخذ هذا الكتاب ، وكن كحسنة من حسناتنا التى

(١) هذا البيت من قصيدة لأبى الطيب المتنبى يمدح فيها سيف الدولة ، وأولها قوله :

على قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تأتِى الْعَزَائِمُ وَتَأْتِى عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ

(٢) يشير بهذا إلى قول أبى تمام :

بَصُرْتَ بِالرَّاحَةِ الكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا تُنَالُ إلاَّ عَلَى جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ

يرجح بها ميزان الثواب ، وحقّقْ نظرنا فيك فإنه من نور الله الذى ليس دونه حجاب . فتأمل كيف فعلت فى هذه الآية التى بنيت التقليد عليها ، وهو من محاسن المبادى والافتتاحات .

وكذلك فعلت فى موضع آخر ، وهو مفتتح كتاب كتبته إلى شخص كلفته السفارة إلى مخدومه فى حاجة عرضت ، وهو : (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا) هذا القول تتبع آثاره ، وتحمل عليه أنظاره ، وأولى الناس بسيدنا من شاركه فى لحمةِ أدبِهِ ، وإن لم يشاركه فى لُحْمةِ نسبه ؛ فإن المناقب أقارب والمآثر أواصر :

وَلَيْسَ يَعْرِفُ لِي فَضْلِي وَلاَ أَدَبِي ... إِلاَّ امْرُؤٌ كانَ ذَا فَضْلٍ وَذَا أَدَبِ

ونتيجة هذه المقدمة بعث خلقه الكريم على عوارف أفضاله ، واستهداء صنيعة جاهِهِ التى هى أكرم من صنيعة ماله[1] ، ولا تجارة أربح من هذه التجارة ، والساعى فيها شريك فى الكسب برىء من الخسارة .

وأما الأخبار النبوية فيسلك بها هذا المسلك : بأن يذكر الخبر فى صدر الكتاب ، ثم يبنى عليه .

ولنذكر منها ولو مثالا واحدا ، وهو توقيع كتبته لولد رجل من أصحاب السلطان توفى والده ونقل ما كان باسمه إليه ، فقلت : قال النبي صلى الله عليه وسلم « أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَمَنْ مَاتَ وَتَرَكَ مَالاً فَلِوَرَثَتِهِ وَمَنْ تَرَكَ دَيْناً أَوْ كَلاًّ أَوْ ضِيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ » وهذا خلق من الأخلاق

---

(١) أخذ هذا من قول أبى تمام :

وَإِذَا امْرُؤٌ أَهْدَى إِلَيْكَ صَنِيعَةً ... مِنْ جَاهِهِ فَكَأَنَّهَا مِنْ مَالِهِ

وهو بيت من قصيدة له يمدح فيها كاتب أبى دلف إسحاق بن أبى ربعى ، وأولها قوله :

إِنَّ الأَمِيرَ بَلاَكَ فِي أَحْوَالِهِ ... فَرَآكَ أَهْزَعَهُ غَدَاةَ نِضَالِهِ

بلاك : اختبرك وجرّبك . والأهزع : السهم الذى يخبأ للنازلة الشديدة .

النبوية لامزيد على حسنه ، وأساليب المكارم بأسرها موضوعة فى ضمنه ، ونحن نرجو أن نمشى على أثره فنتنزل منزلة رديفه ، أو أن نتشبه به فنبلغ مبلغ مُدِّه أو نَصِيفه ، وقد أرانا الله ذلك فى قوم صحبونا فأسعفناهم بمَبَاغِى الإنعام ، وأحمدناهم صحبة الليالى والأيام ، وتكفَّلْنَا أيتامهم من بعدهم حتى وَدُّوا أن يكونوا هم الأيتام ، وهـذا فلان ابن فلان رحمه الله ممن كان له فى خدمة الدولة قدمُ صِدْق ، وأولية سَبْق ، وحفظ كتاب المحافظة عليها فقيل له فى تلاوته اقْرَأْ وَارْقَ ؛ ثم أنهيت التوقيع إلى آخره ،

فتأمل مُفْتَتَح هذا التوقيع فإنه تضمن نَصَّ الخبر من غير تغيير ، وقد ضمنته بعض خبر آخر من الأخبار النبوية ، وهو قوله « اقرأوارق » قال النبى صلى الله عليه وسلم : «يقال لصاحب القرآن اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كما كُنْتَ تُرَتِّلُ فِى الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا» .

وقد مثلت لك ههنا أمثالا يقتدى بها ، فاحْذُ حَذْوَها ، وامض على نهجها . والله الموفق للصواب .

النوع الثالث والعشرون

فى التخلص والاقتضاب

وهذا النوع أيضا كالذى قبله فى أنه أحد الأركان الخمسة التى تقدمت الإشارة إليها فى الفصل التاسع من مقدمة الكتاب .

وينبغى لك أيها المتوشح لهذه الفضيلة أن تصرف إليه جُلَّ همتك ؛ فإنه مهمٌّ عظيم من مهمات البلاغة .

أما التخلص ـ وهو أن يأخذ مؤلِّفُ الكلام فى معنى من المعانى فبينما هو فيه إذ أخذ فى معنى آخر غيره وجعل الأول سببا إليه ـ فيكون بعضه آخذاً

برقابِ بعض ؛ من غير أن يقطع كلامه ، ويستأنف كلامًا آخر ، بل يكون جميع كلامه كأنما أُفْرِغَ إفراغًا ، وذلك مما يدلّ على حذق الشاعر ، وقوة تصرفه ؛ من أجل أن نطاق الكلام يضيق عليه ، ويكون متبعاً للوزن والقافية فلا تواتيه الألفاظ على حسب إرادته ، وأما الناثر فإنه مطلق العنان يمضى حيث شاء ؛ فلذلك يَشُقُّ التخلص على الشاعر أكثر مما يشق على الناثر .

وأما الاقتضاب فإنه ضدُّ التخلص ، وذاك : أن يقطع الشاعر كلامه الذى هو فيه ويستأنف كلاما آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك ، ولا يكون للثانى علاقة بالأول .

وهو مذهب العرب ومن يليهم من المخضرمين ، وأما المحدَثُون فإنهم تصرفوا فى التخلص فأبدعوا وأظهروا منه كل غريبة .

فمن ذلك قول أبى تمام[1] :

يَقُولُ فى قُومِسٍ صَحْبِى وَقَدْ أَخَذَتْ مِنَّا السُّرَى وَخُطَا المَهْرِيَّةِ الْقُودِ[2]
أَمَطْلَعَ الشَّمْسِ تَبْغِى أَنْ تَؤُمَّ بنَا فَقُلْتُ : كَلاَّ ! وَلَـكِنْ مَطْلَعَ الْجُودِ[3]

وهذان البيتان من بديع ما يأتى فى هذا الباب ونادره .

وكذلك قوله[4] أيضا فى وصف أيام الربيع ثم خرج من ذكر الربيع وما وصفه به من الأوصاف ؛ فقال :

---

(١) هما بيتان مفردان يمدح فيهما عبد الله بن طاهر وكان قد خرج إليه .

(٢) قومس : صقع كبير بين خراسان والجبل ، السرى : السير ليلا ، والمهرية : الإبل الكريمة ، منسوب إلى مهرة ، وقد قيل : مهرة أبو قبيلة تنسب إليها هذه الإبل ، وقيل : مكان . والقود : جمع قوداء ، وهى الطويلة العنق ، ومعنى «أخذت منا» نالت من أجسامنا وأتعبتنا .

(٣) تبغى : تريد ، وتؤم : تقصد ، والجود : الكرم .

(٤) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ، وأولها قوله :

رَقَّتْ حَوَاشِى الدَّهْرِ فَهْىَ تَمَرْمَرُ وَغَدَا الثَّرَى فى حَلْيِهِ يَتَكَسَّرُ

خُلقٌ أطَلَّ من الرَّبيعِ كأنّه خُلُقُ الإمامِ وَهَدْيُهُ المُتَنَشِّرُ(١)
فى الأرضِ من عدلِ الإمامِ وَجودِهِ وَمِنَ النَّباتِ الغَضِّ سُرْجٌ تُزْهِرُ(٢)
تُنْسِى الرِّياضَ وَما يُرَوِّضُ ؛ جُودُهُ أبداً عَلَى مَرِّ اللَّيالى يُذْكَرُ(٣)

وهذا من ألطف التخلصات وأحسنها .

وكذلك قوله فى قصيدته الفائية التى أولها :

* أمّا الرُّسُومُ فَقَدْ أذْكَرْنَ ما سَلَفَا(٤) *

فقال فيها :

غَيْدَاءُ جَادَ وَلِيُّ الْحُسْنِ سُنَّتَها فَصَاغَهَا بِيَدَيْهِ رَوْضَةً أُنُفَا
يُضْحِى الْعَذُولُ عَلَى تَأْنِيبِهِ كَلِفاً بِعُذْرِ مَنْ كَانَ مَشْغُوفاً بِها كَلِفَا

ومن هذه القصيدة فى وصف الرياض قوله : (انظر ص ٤١٥ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .

يَا صَاحِبَيَّ تَقَصَّيَا نَظَرَيْكُمَا تَرَيَا وُجُوهَ الأرْضِ كَيْفَ تُصَوَّرُ
تَرَيَا نَهَاراً مُشْمِساً قَدْ شَابَهُ زَهْرُ الرُّبَى فَكَأَنَّمَا هُوَ مُقْمِرُ
دُنْيَا مَعَاشٌ لِلْوَرَى حَتَّى إذَا جُلِيَ الرَّبِيعُ فَإِنَّمَا هِيَ مَنْظَرُ
أضْحَتْ تَصُوغُ بُطُونُهَا لِظُهُورِهَا نَوْراً تَكَادُ لَهُ الْقُلُوبُ تَنَوَّرُ

(١) فى ا ، ب، ج « وهديه المتيسر » والموجود فى جميع نسخ الديوان « المتنشر » أى المنتشر الذائع فى الناس ، ولما فى أصول الكتاب وجه وجيه .

(٢) سرج : جمع سراج ، وأصله سرج بضمتين مثل كتاب وكتب فأسكن الراء تخفيفا ولأنه احتاج إلى إقامة الوزن ، وتزهر : تضىء .

(٣) فى ا ، ب ، ج « على مر الزمان ويذكر » وما أثبتناه عن نسخ الديوان ، وهو الصواب ؛ فإن « جوده » مبتدأ ، خبره قوله « يذكر » فلا معنى للواو ههنا .

(٤) هذا صدر مطلع قصيدة يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى ، وعجزه قوله :

* فَلَا تَكُفَّنَّ عَنْ شَأْنَيْكَ أَوْ يَكِفَا *

وَدِّعْ فُؤَادَكَ تَوْدِيعَ الْفِرَاقِ فَمَا ... أَرَاهُ مِنْ سَفَرِ التَّوْدِيعِ مُنْصَرِفَا
يُجَاهِدُ الشَّوْقَ طَوْرًا ثُمَّ تَجْذِبُهُ ... جِهَادُهُ لِلْقَوَافِي فِي أَبِي دُلَفَا

وهذا أحسن من الذى قبله ، وأدخل فى باب الصنعة .

وكذلك جاء قوله[1] :

زَعَمَتْ هَوَاكَ عَفَا الْغَدَاةَ كَمَا عَفَتْ ... مِنْهَا طُلُولٌ بِاللِّوَى وَرُسُومُ
لَا وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى ... أَجَلٌ وَأَنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمُ[2]
مَا حُلْتُ عَنْ سَنَنِ الْوِدَادِ وَلَا غَدَتْ ... نَفْسِي عَلَى إِلْفٍ سِوَاكَ تَحُومُ[3]

وهذا خروج من غزل إلى مديح أغزل منه .

ومن البديع فى هذا الباب قول أبى نواس من جملة قصيدته المشهورة التى أولها :

* أَجَارَةَ بَيْتَيْنَا أَبُوكِ غَيُورُ[4] *

فقال عند الخروج إلى ذكر الممدوح :

تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ مَرْكَبِي ... عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَاكَ تَسِيرُ
أَمَا دُونَ مِصْرٍ لِلْغِنَى مُتَطَلَّبٌ ... بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ
فَقُلْتُ لَهَا وَاسْتَعْجَلَتْهَا بَوَادِرٌ ... جَرَتْ فَجَرَى فِي جَرْيِهِنَّ عَبِيرُ:

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابة ، وأولها قوله :

أَشْقَى طُلُولَهُمُ أَجَشُّ هَزِيمُ ... وَغَدَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةٌ وَنَعِيمُ

(٢) فى الديوان ومعاهد التنصيص « أن النوى صبر » .

(٣) فى الديوان « مازلت عن سنن الوداد » .

(٤) هذا صدر مطلع قصيدة يمدح فيها الخصيب وكان والى مصر من قبل الرشيد ، وعجزه قوله :

* وَمَيْسُورُ مَا يُرْجَى لَدَيْكِ عَسِيرُ *

انظر الديوان (ص ٩٨) ، ويروى « تقول التى من بيتها خف محملى » .

ذَرِينِى أُكَثِّرْ حَاسِدِيكِ بِرِحْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهَا الخَصِيبُ أَمِيرُ

ومما جاء من التخلصات الحسنة قول أبى الطيب المتنبى فى قصيدته الدالية التى أولها :

* عَوَاذِلُ ذَاتِ الخَالِ فِىَّ حَوَاسِدُ (١) *

وأُورِدُ نَفْسِى وَالمُهَنَّدُ فى يَدِى مَوَارِدَ لاَ يُصْدِرْنَ مَنْ لاَ يُجَالِدُ

وَلٰكِنْ إِذَا لَمْ يَحْمِلِ القَلْبُ كفه عَلَى حَالَةٍ لَمْ يَحْمِلِ الكَفَّ سَاعِدُ

خَلِيلَىَّ إِنِّى لاَ أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ فَكَمْ مِنْهُمُ الدَّعْوَى وَمِنِّى القَصَائِدُ

فَلاَ تَعْجَبَا إِنَّ السُّيُوفَ كَثِيرَةٌ وَلٰكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ اليَوْمَ وَاحِدُ

وهذا هو الكلام الآخذ بعضه برقاب بعض ؛ ألا ترى إلى الخروج إلى مدح الممدوح فى هذه الأبيات كأنه أفرغ فى قالب واحد ؛ ثم إن أبا الطيب جمع بين مدح نفسه ومدح سيف الدولة فى بيت واحد ، وهو من بدائعه المشهورة .

وكذلك قوله أيضاً ، وهو من أحسن ما أتى به من التخلصات ؛ وهو فى قصيدته التى أولها :

* سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا (٢) *

فقال فى أثنائها :

وَمَطَالِبٍ فِيهَا الهَلاَكُ أَتَيْتُهَا ثَبْتَ الجَنَانِ كَأَنَّنِى لَمْ آتِهَا

وَمَقَانِبٍ بِمَقَانِبٍ غَادَرْتُهَا أَقْوَاتَ وَحْشٍ كُنَّ مِنْ أَقْوَاتِهَا

أَقْبَلْتُهَا غُرَرَ الجِيَادِ كَأَنَّمَا أَيْدِى بَنِى عِمْرَانَ فى جَبَهَاتِهَا

---

(١) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ، وعجزه قوله :

* وَإِنَّ ضَجِيعَ الخَوْدِ مِنِّى لَمَاجِدُ *

(٢) هذا صدر مطلع قصيدة يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمران ، وعجزه قوله :

* دَانِي الصِّفَاتِ بَعِيدُ مَوْصُوفَاتِهَا *

الثَّابِتِينَ فُرُوسَــةً كَجُلُودِهَا ... فى ظَهْرِهَا وَالطَّعْنِ فى لَبَّاتِهَا
فَكَأَنَّهَا نُتِجَتْ قِيَامًا تَحْتَهُمْ ... وَكَأَنَّهُمْ وُلِدُوا عَلَى صَهَوَاتِهَا
تِلْكَ النُّفُوسُ الْغَالِبَاتُ عَلَى الْعُلاَ ... وَالمَجْــدُ يَغْلِبُهَا عَلَى شَهَوَاتِهَا
سُقِيَتْ مَنَابِتُهَا الَّتِى سَقَتِ الْوَرَى ... بِيَدَىْ أَبِى أَيُّوبَ خَــيْرِ نَبَاتِهَا

فانظر إلى هذين التخلصين البديعين ؛ فالأول خرج به إلى مدح قوم الممدوح ، والثانى خرج به إلى نفس الممدوح ، وكلاهما قد أغرب فيه كل الإغراب .

وعلى هذا جاء قوله[1] :

إِذَا صُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَصَالاً لِفَاتِكٍ ... وَإِنْ قُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَقَالاً لِعَالِمِ[2]
وَإِلاَّ فَخَانَتْنِى الْقَوَافِى وَعَاقَنِى ... عَنِ ابْنِ عُبَيْدِ اللهِ ضُعْفُ العَزَائِمِ

والشعراء متفاوتون فى هذا الباب ، وقد يقصر عنه الشاعر المفلق المشهور بالإجادة فى إيراد الألفاظ واختيار المعانى ، كالبحترى ؛ فإن مكانه من الشعر لا يجهل ، وشعره هو السهل الممتنع الذى تراه كالشمس قريباً ضَوْؤُها بعيداً مكانُهَا ، وكالقناة ليِّناً مسُّها خشِناً سِنَانُهَا ، وهو على الحقيقة قَيْنَةُ الشعراء فى الإطراب ، وعَنْقَاؤهم فى الإغراب ، ومع هذا فإنه لم يُوَفَّق فى التخلص من الْغَزَل إلى المديح ، بل اقتضبه اقتضاباً ، ولقد حفظت شعره فلم أجد له من ذلك شيئاً مرضياً إلا

(١) البيتان من قصيدة له يمدح فيها أبا محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج ، وكان أبو محمد قد كثرت مراسلاته إلى أبى الطيب من الرملة ، فسار إليه ، فلما دخل الرملة أكرمه أبو محمد فمدحه بهذه القصيدة ، وهى أول ما قاله أبو الطيب فيه ، ومطلعها قوله :

أَنَا لاَئِمِى إِنْ كُنْتُ وَقْتَ اللَّوَائِمِ ... عَلِمْتُ بِمَا بِى بَيْنَ تِلْكَ المَعَالِمِ

(٢) فى الديوان «لم أترك مصالا لصائل» وتقول : صال عليه ؛ إذا استطال عليه ، وصال عليه أيضا ؛ إذا وثب عليه . والمصال : اسم مكان من الصولة .

اليسير ، كقوله فى قافية الباء من قصيدة[١] :

وَكَفَانِي إِذَا الْحَوَادِثُ أَظْلَمْـــنَ شِهَابًا بِغُرَّةِ ابْنِ شِهَــابِ

وكقوله فى قافية الدال من قصيدة[٢] :

قَصَدَتْ لِنَجْرَانِ الْعِرَاقِ رِكَابُنَا يَطْلُبْنَ أَرْحَبَهَا مَحِـلَّةَ مَاجِدِ[٣]
آلَيْتُ لاَ تَلْقَيْنَ جِدًّا صَاعِـدًا فِي مَطْلَبٍ حَـتَّى تُنَاخَ بِصَاعِدِ[٤]

وكقوله فى قصيدته التى أولها :

* حَلَفْتُ لَهَا بِاللهِ يَوْمَ التَّفَرُّقِ[٥] *

فإنه تشوّق فيها إلى العراق من الشام ، ووصف العراق ومنازله ورياضه ، فأحسن فى ذلك كله ، ثم خرج إلى مَدْح الفتح بن خاقان بسياقة آخذ بعضها برقاب بعض ، فقال :

رِبَاعٌ مِنَ الْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ لَمْ تَزَلْ غِنًى لِعَدِيمٍ أَوْ فَكَاكًا لِمُوثَقِ

ثم أخذ فى مدحه بعد ذلك بضروب من المعانى .

---

(١) هى قصيدة له يمدح فيها أحمد بن إسماعيل بن شهاب ، وأولها قوله :

مَاعَلَى الرَّكْبِ مِنْ وُقُوفِ الرِّكَابِ فِى مَغَانِي الصِّبَا وَرَسْمِ التَّصَابِي

(٢) هى قصيدة يمدح فيها صاعد بن مخلد ، وأولها قوله :

قُلْ لِلْخَيَالِ إِذَا أَرَدْتَ فَعَاوِدِ تُدْنِي الْمَسَافَةَ مِنْ هَوًى مُتَبَاعِدِ

(٣) فى ا ، ب ، ج ، د « فظللن أزجيها محلة ماجد » وما أثبتناه عن ثلاث نسخ من الديوان ، ولا يصح ما فى أصول هذا الكتاب إلا مع تكلف وتمحل .

(٤) فى الديوان « حتى ينخن بصاعد » وهو أنسب لما فى صدر البيت ، ولكن لما فى أصول هذا الكتاب وجه فى العربية .

(٥) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها الفتح بن خاقان ، وعجزه قوله :

* وَبِالْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهَا الْمُتَعَلِّقِ *

وانظر نقد المؤلف لهذا المطلع فى (ص ٣٠٨ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .

وكذلك ورد قوله فى قصيدته التى أولها[١] :

* مِيلُوا إلى الدَّارِ مِنْ ليلى نُحَيِّيهَا *

فإنه وصف البركة فأبدع فى أوصافها ، ثم خرج منها إلى مدح الخليفة المتوكل ؛ فقال :

كَأَنَّهَا حِينَ لَجَّتْ فِي تَدَفُّقِهَا يَدُ الْخَلِيفَةِ لَمَّا سَالَ وَادِيهَا

وأحسن ما وجدته له ، وهو مما لطف فيه كل التلطيف ، قوله فى قصيدته التى يمدح بها ابن بسطام ومطلعها :

* نَصِيبُ عَيْنِكَ مِنْ سَحٍّ وَتَسْجَامِ *

فقال عند تخلصه إلى المديح :

هَلِ الشَّبَابُ مُلِمٌّ بِي فَرَاجِعَةٌ أَيَّامُهُ لِي فِي أَعْقَابِ أَيَّامِ

لَوْ أَنَّهُ بَابِل عمر يجاذبه إذًا تَطَلَّبْتُهُ عِنْدَ ابْنِ بِسْطَامِ

وهذا من الملائح فى هذا الباب .

وله مواضع أخرى يسيرة بالنسبة إلى كثرة شعره .

وقال أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمى : إن كتاب الله خالٍ من التخلص .

وهذا القول فاسد ؛ لأن حقيقة التخلص إنما هى الخروج من كلام [إلى] آخر غيره بلطيفة تلائم بين الكلام الذى خرج منه والكلام الذى خرج إليه ، وفى القرآن الكريم مواضع كثيرة من ذلك ، كالخروج من الوعظ والتذكير بالإنذار والبشارة بالجنة إلى أمر ونهى ووعد ووعيد ، ومن محكم إلى متشابه ، ومن صفة

---

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* نَعَمْ وَنَسْأَلُهَا عَنْ بَعْضِ أَهْلِيهَا *

لنبى مرسل وملك منزل إلى ذم شيطان مَرِيد وجبّار عَنيد ، بلطائف دقيقة ، ومعان آخذ بعضُها برقاب بعض .

فمما جاء من التخلص فى القرآن الكريم قوله تعالى : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) .

هذا كلام يسكر العقول ، ويسحر الألباب ، وفيه كفاية لطالب البلاغة ، فإنه متى أنعم فيه نظره وتدبر أثناءه ومَطَاوِيَ حكمته علم أن فى ذلك غنى عن تصفح الكتب المؤلفة فى هذا الفن ، ألا ترى ما أحسن ما رتّب إبراهيم عليه السلام كلامَهُ مع المشركين حين سألهم أولا عمّا يعبدون سُؤَالَ مُقرِّرٍ لا سؤال مستفهم ، ثم أنْحَى على آلهتهم ؛ فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر

ولا تسمع ، وعلى تقليد آبائهم الأقدمين فكَسَرَه وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة ، ثم أراد الخروج من ذلك إلى ذكر الإله الذى لا تجب العبادة إلا له ، ولا ينبغى الرجوع والإنابة إلا إليه ، فَصَوَّرَ المسألة فى نفسه دونهم ، بقوله (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي) على معنى إنى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادةً للعدو وهو الشيطان ؛ فاجتنبتها ، وآثرت عبادة مَنِ الخيرُ كله فى يده ، وأراهم بذلك أنها نصيحةٌ ينصح بها نفسه ؛ لينظروا فيقولوا : ما نَصَحَنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، فيكون ذلك أدعى لهم إلى القبول لقوله ، وأبْعَثَ على الاستماع منه ، ولو قال فإنهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة ، فتخلص عند تصويره المسألة فى نفسه إلى ذكر الله تعالى ؛ فأجرى عليه تلك الصفات العظام : من تفخيم شأنه وتعديد نعمه من لَدُن خَلَقه وأنشأه إلى حين وفاته مع ما يرجى فى الآخرة من رحمته ؛ ليعلم من ذلك أنَّ مَنْ هذه صفاتُهُ حقيق بالعبادة ، واجب على الخلق الخضوع له ، والاستكانة لعظمته ؛ ثم خرج من ذلك إلى ما يلائمه ويناسبه ، فدعا الله بدعوات المخلصين ، وابتهل إليه ابتهال الأوَّابين ؛ لأن الطالب من مولاه إذا قَدَّمَ قبل سؤاله وتضرعه الاعترافَ بالنعمة كان ذلك أسرع للإجابة ، وأنجح لحصول الطَّلِبة ، ثم أدرج فى ضمن دعائه ذكر البعث ويوم القيامة ، ومجازاة الله تعالى من آمن به واتقاه بالجنة ومن ضل عن عبادته بالنار ، فجمع بين الترغيب فى طاعته والترهيب من معصيته ؛ ثم سأل المشركين عما كانوا يعبدون سؤالا ثانيا عند معاينة الجزاء ، وهو سؤال مُوبِّخ لهم مستهزئٍ بهم ، وذكر ما يدفعون إليه عند ذلك من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال ، وتمنى العودة ؛ ليؤمنوا ؛ فانظر أيها المتأمل إلى هذا الكلام الشريف الآخذ بعضُه برقاب بعض ، مع احتوائه على ضروب من المعانى فيخلص من كل واحد منها إلى الآخر بلطيفة ملائمة ، حتى كأنه أفرغ فى قالب واحد ، نخرج من ذكر الأصنام وتنفير أبيه وقومه من عبادتهم إياها مع ما هى فيه من التعَرِّى عن

صفات الإلٰهيّة حيث لا تضرّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع إلى ذكر الله تعالى فوصفه بصفات الإلٰهية فعظّم شأنه وعدّد نعمه ؛ ليعلم بذلك أن العبادة لا تصحّ إلا له ، ثم خرج من هذا إلى دعائه إياه وخضوعه له ؛ ثم خرج منه إلى ذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه ، فتدبر هذه التخلصات اللطيفة المودعة فى أثناء هذا الكلام .

وفى القرآن مواضع كثيرة من التخلصات ، كالذى ورد فى سورة الأعراف ؛ فانه ذكر فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية من آدم إلى نوح عليهما السلام ، وكذلك إلى قصة موسى عليه السلام ، حتى انتهى إلى آخرها الذى هو (وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

هذا تخلص من التخلصات الحسان ؛ فإن الله تعالى ذكر الأنبياء والقرونَ الماضية إلى عهد موسى عليه السلام ؛ فلما أراد ذكر نبينا صلوات الله عليه وسلامه ذَكَرَه بتخلّص انتظم به بعضُ الكلام ببعض ؛ ألا ترى أنه قال موسى عليه السلام : (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) فأجيب بقوله تعالى :

(قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين) من حالهم كذا وكذا ، ومن صفتهم كيت وكيت ، وهم الذين (يتبعون الرسول النبيّ الأميّ) ثم وصفه صلوات الله عليه بصفاته إلى آخر الكلام .

ويالله العجب ! ! كيف يزعم الغانمي أن القرآن خالٍ من التخلص ؟ ألم يكفه سورة يوسف عليه السلام فإنها قصة برأسها ، وهي مُضَمَّنَةٌ شرحَ حاله مع إخوته من أول أمره إلى آخره ، وفيها عدة تخلصات في الخروج من معنى إلى معنى ، وكذلك إلى آخرها ؟

ولو أخذت في ذكر مافي القرآن الكريم من هذا النوع لأطلت ، ومَنْ أنْعَمَ نظره فيه وجد من ذلك أشياء كثيرة .

وقد جاءني من التخلصات في الكلام المنثور أشياء كثيرة ، وسأذكر ههنا نبذة يسيرة منها .

فمن ذلك ما أوردته في كتاب إلى بعض الإخوان أصِفُ فيه الربيع ، ثم خرجت من ذلك إلى ذكر الأشواق ، فقلت : وكما أنَّ هذه الأوصاف في شأنها بديعة ، فكذلك شوقي في شأنه بديع ، غير أنه لحرّه فصل مصيف وهذا فصل ربيع ، فأنا أملي أحاديثه العجيبة على النوى ، وقد عرفت حديث من قتله الشوق فلا أستفض حديث من قتله الهوى .

ومن هذا الأسلوب ما كتبته في كتاب إلى بعض الإخوان أيضاً ، وأرسلته إليه من بلاد الروم ، وهو كتاب يشتمل على وصف البرد وما لاقيته منه ، ثم خرجت من ذلك إلى ذكر الشوق ، فقلت : ومما أشكوه من بَرْدِها أن الفرو لايلبس إلا في شهر ناجر ، وهو قائم مقام الظل الذي يتبرّد به من لفح الهواجر ، ولفرط شدّته لم أجد مايخففه فضلاً عما يذهبه ، فإن النار المعدّة له تطلب من الدفء أيضاً ما أطلبه ، لكن وجدت نار أشواقي أشدَّ حراً فاصطليت بجمرها التي لاتذكى بزناد ولا تَئول إلى رماد ، ولا يدفع البرد الوارد على الجسد بأشدّ من حَرّ الفؤاد ،

غير أنى كنت فى ذلك كمن سد خلة بخلة ، واستشفى من علة بعلة ، وأقتلُ مَا أَعَلّكَ مَاشَفَاكَ (١) فما ظنك بمن يصطلى نار الأشواق ، وقد قنع من أخيه بالأوراق فضن عليه بالأوراق .

ومما ينتظم فى هذا العقد ماذكرته فى مفتتح كتاب يتضمن عناية ببعض المتظلمين ، فاستطردت فيه المعنى إلى ذكر المكتوب إليه ؛ وهو : هدايا المكارم أنفس من هدايا الأموال ، وأبقى على تعاقب الأيام والليال ، وقد حمل هذا الكتاب منها هدية تورث حمداً وتكسب مجداً ، وهى خير ثواباً وخير مَرَدّا ، ولا يسير بها إلا سجية طبعت على الكرم ، وخلقت من عُنْصُر الدِّيَم ، كسجية مولانا أعلاه الله علوًّا تفخر به الأرض على السماء ، وتحسده شمس النهار ونجوم الظلماء ، ولا زالت أياديه مُخْجلة صَوْبَ الغمام ، معدية على نُوَبِ الأيام . مغنية بشرف فضلها على شرف الأخوال والأعمام ، وتلك الهديَّة هى تجريد الشفاعة فى أمر فلان ومن إيمان المرء سعيه فى حاجة أخيه ، وإن لم يمسّه بشىء من أسباب أواخيه ؛ فإن المؤمنين إخوة وإن تباينت مناسبهم ، وتفاوتت مراتبهم ، ومن صفتهم أن يَسْعَى بذِمّتهم أدناهم ، وخيرهم من عناه من الأمر ماعناهم . ثم مضيت على هذا النهج إلى آخر الكتاب .

ومن ذلك ما كتبته من كتاب إلى صديق استحدثت مودته ، وهو من أهل العراق ، وكنت اجتمعت به بالموصل ثم سارعَنّى ، فكتبت إليه أستهديه رطبا ؛ فقلت : هذه المكاتبة ناطقة بلسان الشوق الذى ترف كلمه زفيف الأوراق ،

---

(١) هذا عجز بيت لأبى الطيب المتنبى ، وصدره قوله :

* قَدِ اُسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بِدَاءٍ *

وهذا بيت من قصيدة له يمدح فيها أبا شجاع عضد الدولة ، وأولها قوله :

فدًى لَكَ مَنْ يُقصِّرُ عَنْ مَدَاكَا فَلَا مَلِكٌ إذًا إلا فدَاكا

وتَسْجَع سَجْعَ ذوات الأطْوَاق ، وتهتف وهى مقيمة بالموصل فتسمع من هو مقيم بالعراق، وأبْرَحُ الشوق ما كان عن فراق غير بعيد ،ووُدٍّ استجدت حلته واللذة مقترنة بكل شىء جديد ، وارجو ألاَّ يبلى قدم الأيام لهذه الجدة لباسا ، وأن يعاذ من نظرة الجن والإنس حتى لايخشى جنة ولا باسا ، وقد قيل : إن للمودَّات طعماً كما أن لها وَسْماً ، وإن ذا اللب يصادق نفساً قبل أن يصادق جسما ، وإنى لأجد لمودَّة سيدنا حلاوة يستلذ دوامها ، ولا يمل استطعامها ، وقد أذكرتنى الآن بحلاوة الرطب الذى هو من أرضها ، وغير عجيب لمناسبة الأشياء أن يذكِّر بعضها ببعضها ، إلا أن هـذه الحلاوة تنال بالأفواه وتلك تنال بالأسرار ، وفَرْقٌ بين مايغترس بالأرض وما يغترس بالقلب فى شرف الثمار ؛ فلا ينظر سيدنا علىَّ فى هذا التمثيل ، ولربما كان ذلك تعريضاً ينوب مناب التطفيل .

وهذا من التخلصات البديعة ؛ فانظر أيها المتأمل كيف سُقْتُ الكلام إلى استهداء الرطب ، وجعلت بعضه آخذاً برقاب بعض ، حتى كأنه أفرغ فى قالب واحد ؟ وكذلك فليكن التخلص من معنى إلى معنى .

وهذا القدر من الأمثلة كاف للمتعلم .

ومما أستظرف من هذا النوع فى الشعر قول ابن الزمكرم الموصلى ، وهو :

وَلَيْلٍ كَوَجْهِ الْبَرْقَعِيدِىِّ مُظْلِمٍ ... وَبَرْدِ أَغَانِيهِ وَطُولِ قُرُونِهِ
سَرَيْتُ وَنَوْمى فِيهِ نَوْمٌ مُشَرَّدٌ ... كَعَقْلِ سُلَيْمَانَ بْنِ فَهْدٍ وَدِينِهِ
عَلَى أَوْلَقٍ فِيـهِ الْتفاتٌ كَأنَّهُ ... أَبُو جَابِرٍ فِى خَبْطِهِ وَجُنُونِهِ
إِلَى أَنْ بَدَا ضَوْءُ الصَّبَاحِ كَأَنَّهُ ... سَنَا وَجْهِ قِرْوَاشٍ وَضَوْءُ جَبِينِهِ

وهذه الأبيات لها حكاية ، وذاك أن هذا الممدوح ، وهو شرف الدولة قرواش مَلِكُ العرب ، وكان صاحب الموصل ؛ فاتفق أنه كان جالسا مع ندمائه فى ليلة من ليالى الشتاء ، وفى جملتهم هؤلاء الذين هجاهم الشاعر ، وكان البرقعيدى مغنيا ،

وسليمان بن فهد وزيرا ، وأبو جابر حاجبا ، فالتمس شرف الدولة من هذا الشاعر أن يهجو المذكورين ويمدحه ؛ فأنشد هذه الأبيات ارتجالا ، وهى غريبة فى بابها : لم يسمع بمثلها ، ولم يرض قائلها بصناعة التخلص وحدها ، حتى رقى فى معانيه المقصودة إلى أعلى منزلة ، فابتدأ البيت الأول بهَجْو البرقعيدى ؛ فجاء فى ضمن مُرَاده ذكر أوصاف ليل الشتاء جميعها ، وهى الظلمة والبرد والطول ، ثم إن هذه الأوصاف الثلاثة جاءت ملائمة لما شبهت به مطابقة له ، وكذلك البيت الثانى والثالث ، ثم خرج إلى المديح بألطف وجه ، وأدَقّ صنعة ، وهذا يسمى الاستطراد ، وما سمعت فى هذا الباب بأحسن من هذه الأبيات .

ومما يجرى على هذا الأسلوب ما ورد لابن الحجاج البغدادى ، وهى أبيات لطيفة جدا[1] :

أَلاَ يَامَاءَ دِجْلَةَ لَسْتَ تَدْرِى ... بِأَنِّى حَاسِدٌ لَكَ طُولَ عُمْرِى
وَلَوْ أَنِّى اسْتَطَعْتُ سَكِرْتُ سُكْرًا ... عَلَيْكَ فَلَمْ تَكُنْ يَا مَاءُ تَجْرِى
فَقَالَ المَاءُ : مَا هٰـذَا عَجِيبٌ ... بِمَ اسْتَوْجَبْتَهُ يَا لَيْتَ شِعْرِى[2]
فَقُلْتُ لَهُ : لِأَنَّكَ كُلَّ يَوْمٍ ... تَمُرُّ عَلَى أَبِى الفَضْلِ بْنِ بِشْرِ
تَرَاهُ وَلاَ أَرَاهُ ، وَذَاكَ شَىْءٌ ... يَضِيقُ عَنِ احْتِمَالِكَ فِيهِ صَبْرِى

وما علمت معنى فى هذا المقصد ألطف ولا أرقّ ولا أعذب ولا أحلى من هذا اللفظ ، ويكفى ابن الحجاج من الفضيلة أن يكون له مثل هذه الأبيات .

ولا تظن أن هذا شىء انفرد به المحدثون لما عندهم من الرقة واللطافة ، وفاتَ مَنْ تَقَدَّمهم لما عندهم من قَشَف العيش وغِلَظِ الطبع ، بل قد تقدم أولئك إلى هذا الأسلوب ، وإن أقلوا منه وأكثر منه المحدثون ، وأى حسن من محاسن

---

(١) هذه الأبيات فى معاهد التنصيص (ص ٦٢٩ بولاق) بهذا الترتيب .
(٢) فى معاهد التنصيص « فقال الماء قل لى كل هذا ـ الخ » .

البلاغة والفصاحة لم يسبقوا إليه ؟ وكيف لا وَهُمْ أَهْلُه ، ومنهم علم ، وعنهم أخذ ؟
فمن ذلك ماجاء للفرزدق ، وهو (١) :

وَرَكْبٍ كأنَّ الرِّيحَ تَطْلُبُ عِنْدَهُمْ لَهَا تِرَةً مِنْ جَذْبِهَا بِالْعَصَائِبِ (٢)
سَرَوْا يَخْبِطُونَ اللَّيْلَ وَهْيَ تَلُفُّهُمْ إِلَى شُعَبِ الْأَكْوَارِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ (٣)
إِذَا آنَسُوا نَاراً يَقُولُونَ لَيْتَهَا وَقَدْ خَصِرَتْ أَيْدِيهِمُ نَارُ غَالِبِ (٤)

فانظر إلى هذا الاستطراد ما أحلاه وأفخمه !!.

واعلم أنه قد يقصد الشاعر التخلص فيأتى به قبيحاً ، كما فعل أبو الطيب المتنبي فى قصيدته التى أولها :

* مُلِثَّ الْقَطْرِ أَعْطِشْهَا رُبُوعَا (٥) *

---

(١) هذه الأبيات الثلاثة وردت كما هنا فى معاهد التنصيص (ص ٦٢٨ بولاق) وقد وردت فى الديوان ضمن ستة أبيات ، ومما فى الديوان زيادة على ماهنا بيت يقع بين أول هذه الأبيات وثانيها ، وهو قوله :

يَعَضُّونَ أَطْرَافَ الْعِصِيِّ كَأَنَّهَا تُخَرِّمُ بِالأَطْرَافِ شَوْكَ الْعَقَارِبِ

ثم بعد هذه الأبيات قوله :

إِلَى نَارِ ضَرَّابِ الْعَرَاقِيبِ لَمْ يَزَلْ لَهُ مِنْ ذُبَابَيْ سَيْفِهِ خَيْرُ حَالِبِ
تَدُرُّ بِهِ الْأَنْسَاءُ فِي لَيْلَةِ الصَّبَا وتنتفخُ اللَّبَّاتُ عِنْدَ التَّرَائِبِ

(٢) وقع فى ا ، ب ، ج « تطلب عندها لها قوة » وهو تحريف ، وتصويبه عن الديوان ومعاهد التنصيص .

(٣) فى ا ، ب ، ج « سروا يخطبون » وهو تحريف ، وتصويبه عن الديوان ، وفى الأغانى « سروا يركبون الليل » وفى الديوان « على شعب الأكوار » .

(٤) فى الأغانى «اذا استوضحوا نارا» وفى الديوان «اذا مارأوا نارا» وفى معاهد التنصيص كما هنا .

(٥) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها على بن إبراهيم التنوخى ، وعجزه قوله :

* وَإِلَّا فَاسْقِهَا السَّمَّ النَّقِيعَا *

فقال عند الخروج من الغزل إلى المديح :

غَدَا بِكِ كُلُّ خِلْوٍ مُسْتَهَامًا   وَأَصْبَحَ كُلُّ مَسْتُورٍ خَلِيعَا
أُحِبُّكِ أَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٌ   ثَبِيرًا وَابْنُ إِبْرَاهِيمَ رِيعَا

وهذا تخلص كما تراه بارد ، ليس عليه من مسحة الجمال شىء ، وههنا يكون الاقتضاب أحسن من التخلص ؛ فينبغى لسالك هذه الطريق أن ينظر إلى مايَصُوغه ؛ فإن واتاه التخلّص حسناً كما ينبغى و إلا فَلْيَدَعْه ، ولا يستكرهه حتى يكون مثل هذا ، كما فعل أبو الطيب ، ولهذا نظائر وأشباه ، وقد استعمل ذلك فى موضع آخر فى قصيدته التى أولها :

* أَحْيَا وَأَيْسَرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلَا[1] *

فقال :

عَلَّ الأَمِيرَ يَرَى ذُلِّى فَيَشْفَعَ لِى   إِلَى الَّتِى تَرَكَتْنِى فِى الْهَوَى مَثَلَا[2]

والإضراب عن مثل هذا التخلص خير من ذكره ، وما ألقاه فى هذه الهُوّة إلا أبو نواس ؛ فإنه قال[3] :

والملث : الدائم المقيم ، والقطر : المطر ، والربوع : جمع ربع ، وهو الدار مطلقا ، وقيل : خاص بما يسكنه القوم أيام الربيع ، والنقيع : القاتل .

(١) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها سعيد بن عبد الله بن الحسين الكلابى المنبجى ، وعجزه قوله :

* وَالْبَيْنُ جَارَ عَلَى ضَعْفِى وَمَا عَدَلَا *

(٢) قال الواحدى : أخذه من قول أبى نواس (وذكر البيت الذى ذكره المؤلف) وقول أبى نواس أحسن من قول المتنبى ؛ لأن الجمع يمكن بأن يعطيه مايتوصل به إلى محبوبته ، والشفاعة تكون باللسان ، وذلك نوع من القيادة » اه .

(٣) هو من قصيدة له يمدح فيها الفضل بن يحيى ، وأولها قوله :

طَرَحْتُمْ مِنَ التَّرْحَالِ ذِكْرًا فَغَمَّنَا   فَلَوْ قَدْ شَخَصْتُمْ صَبَّحَ الْمَوْتُ بَعْضَنَا

سأشكو إلى الفضلِ بْنِ يحيى بْنِ خالدٍ ... هواكِ لعلَّ الفضلَ يجمعُ بيننا(١)

على أن أبا نواس أخذ ذلك من قيس بن ذريح ، لكنه أفسده ولم يأت به كما أتى به قيس ، ولذلك حكاية ، وهو أنه لما هام بلُبْنَى فى كل وادٍ وجُنَّ بها رَقَّ له الناس ورحموه ، فسعى له ابن أبى عَتيق إلى أن طلقها من زوجها ، وأعادها إلى قيس ، فزوجها إياه ؛ فقال عند ذلك :

جَزَى الرَّحْمنُ أفضلَ ما يُجازِى ... عَلَى الإحْسَانِ خيْرًا مِنْ صَدِيق
وَقَدْ جَرَّبْتُ إخْوانِي جَميعًا ... فَمَا أُلْفِيتُ كَابْنِ أَبِى عَتِيقِ
سَعَى فى جَمْعِ شَمْلِي بَعْدَ صَدْعٍ ... وَرَأْى حِرْتُ فِيهِ عَنْ طَرِيقِي
وَأَطفَى لَوْعَــةً كانَتْ بِقَلْبِي ... أَغَصَّتْنِي حَرَارَتُهَا بِرِيــقِي

و بين هذا الكلام و بين كلام أبى نواس بَوْنٌ بعيد ؛ وقد حكى عن ابن أبى عتيق أنه قال : يا حبيبى أمسك عن هذا المديح فما يسمعه أحد إلا ظننى قوَّاداً .

وأما الاقتضاب فهو الذى أشرنا إليه فى صدر هذا النوع ، وهو : قَطْعُ الكلام واستئناف كلام آخر غيره ؛ بلا علاقة تكون بينه و بينه .

فمن ذلك ما يقرب من التخلص ، وهو فصل الخطاب ، والذى أَجْمَعَ عليه المحققون من علماء البيان أنه « أما بعد » ؛ لأن المتكلم يفتتح كلامه فى كلِّ أمر ذى شأن بذكر الله وتحميده ، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه فَصَل بينه و بين ذكر الله تعالى بقوله « أما بعد » .

ومن الفصل الذى هو أحسن من الوصل لفظة « هذا » وهى علاقة وكيدة

---

(١) حدثوا أن الفضل لما سمع هذا البيت قال لأبى نواس : مازدت على أن تجعلنى قوادا !؟ فقال له : أيها الأمير ؛ إنه جمع تفضل ، لاجمع توصل ، قال : صدقت ، وأمر له بخمسمائة دينار ، وكان يعطى الشعراء أكثر من ذلك .

بين الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره ، كقوله تعالى : (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِى وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ وَاذْكُرْ إِسْمٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ هٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَاب) ألا ترى إلى ما ذكر قبل (هذا ذكر) من ذكر من الأنبياء عليهم السلام ، وأراد أن يذكر على عقبه بابا آخر غيره ، وهو ذكر الجنة وأهلها ، فقال : (هذا ذكر) ثم قال : (وإن للمتقين لحسن مآب) ثم لما أتمَّ ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار قال : (هٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآب) وذلك من فصل الخطاب الذى هو ألطف مَوْقعاً من التخلص .

وقد وردت لفظة « هذا » فى الشعر إلا أن ورودها فيه قليل بالنسبة إلى الكلام المنثور ؛ فمن ذلك قول الشاعر المعروف بالخباز البلدى فى قصيدة أولها :

* اَلْعَيْشُ غَضٌّ وَالزَّمَانُ غَرِيرُ *

إِنِّى لَيُعْجِبُنِى الزِّنَا فى سُحْرَةٍ ... وَيَرُوقُ لِى بِالْجَاشِرِيَّةِ زِيرُ
وَأَكَادُ مِنْ فَرَحِ السُّرُورِ إِذَا بَدَا ... ضَوْءُ الصَّبَاحِ مِنَ السُّتُورِ أَطِيرُ
وَإِذَا رَأَيْتُ الْجَوَّ فى فِضِّيَّةٍ ... لِلْغَيْمِ فى جَنَبَاتِهَا تَكْسِيرُ
مَنْقُوشَةٍ صَدْرَ الْبُزَاةِ كَأَنَّهُ ... فَيْرُوزَجٌ قَدْ زَانَهُ بَلُّورُ
نَادَتْ بِيَ اللَّذَّاتُ وَيْحَكَ فَانْتَهِزْ ... فُرَصَ الْمُنَى يَأَيُّهَا الْمَغْرُورُ
مِلْ بِي إِلَى جَوْرِ السُّقَاةِ فَإِنَّنِى ... أَهْوَى سُقَاةَ الْكَأْسِ حِينَ تَجُورُ
هٰذَا ، وَكَمْ لِي بِالْجُنَيْنَةِ سَكْرَةٌ ... أَنَا مِنْ بَقَايَا شُرْبِهَا مَخْمُورُ
بَاكَرْتُهَا وَغُصُونُهَا مَغْرُوزَةٌ ... وَالْمَاءُ بَيْنَ مُرُوزِهَا مَذْعُورُ
فى سِتَّةٍ : أَنَا ، وَالنَّدِيمُ ، وَقَيْنَةٌ ، ... وَالْكَأْسُ ، وَالْمِزْمَارُ ، وَالطُّنْبُورُ

هذه الأبيات حسنة ، وخروجها من شِدْق هذا الرجل الخبّاز عجيب ، ولو جاءت فى شعر أبى نواس لزانت ديوانه .

والاقتضاب الوارد فى الشعر كثيرٌ لا يُحْصَى ، والتخلص بالنسبة إليه قَطْرة من بحر ؛ ولا يكاد يوجد التخلص فى شعر الشاعر المجيد إلا قليلا بالنسبة إلى المقتضب من شعره .

فمن الاقتضاب قولُ أبى نواس فى قصيدته النونية التى أولها(١) :

* يَا كَثِيرَ النَّوْحِ فِى ٱلدِّمَنِ *

وهذه القصيدة هى عَيْنُ شعرِه والملاحةُ لِلعُيُون ، وهى تَنْزِل منه منزلة الألف لامنزلة النون ، إلا أنه لم يكمل حسنها بالتخلص من الغزل إلى المديح ، بل اقتضبه اقتضابا ؛ فبينا هو يصف الخمر ويقول :

فَاسْقِنِى كَأْساً عَلَى عَذَلٍ   كَرِهَتْ مَسْمُوعَهُ أُذُنِى
مِنْ كُمَيْتِ اللَّوْنِ صَافِيَةٍ   خَيْرِ مَا سَلْسَلْتَ فِى بَدَنِى
مَا ٱسْتَقَرَّتْ فِى فُؤَادِ فَتًى   فَدَرَى مَا لَوْعَةُ الْحَزَنِ

حتى قال :

تَضْحَكُ الدُّنْيَا إِلَى مَلِكٍ   قَامَ بِالْآثَارِ وَالسُّنَنِ
سَنَّ لِلنَّاسِ النَّدَى فَنَدُوا   فَكَأَنَّ الْبُخْلَ لَمْ يَكُنِ

فأكثر مدائح أبى نواس مقتضبة هكذا ، والتخلص غير ممكن فى كل الأحوال ، وهو من مستصعبات علم البيان .

ومن هذا الباب الذى نحن بصدد ذكره قول البحترى فى قصيدته المشهورة

---

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* لَا عَلَيْهَا بَلْ عَلَى السَّكَنِ *

وهى قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين الرشيد ، وانظر معاهد التنصيص (ص ٦٣٨).

بالجودة التى مدح بها الفتح بن خاقان وذكر لقاءه الأسَدَ وقَتْلَه إياه ، وأولها :

* أَجِدَّكَ مَا يَنْفَكُّ يَسْرِى لِزَيْنبا[1] *

وهى من أمهات شعره ، ومع ذلك لم يوفق فيها للتخلص من الغزل إلى المديح ؛ فإنه بينما هو فى تغزله وهو يقول :

عَهِدْتُكِ إنْ مَنَّيْتِ مَنَّيْتِ مَوْعِدًا جِهَامًا وَإِنْ أَبْرَقْتِ أَبْرَقْتِ خُلَّبَا
وَكُنْتُ أَرَى أَنَّ الصُّدُودَ الَّذِى مَضَى دَلَالٌ فَمَا إِنْ كَانَ إِلَّا تَجَنُّبَا
فَوَا أَسَفَا حَتَّامَ أَسْأَلُ مَانِعًا وَآمَنُ خَوَّانًا وَأُعْتِبُ مُذْنِبَا

حتى قال فى أثر ذلك :

أَقُولُ لِرَكْبٍ مُعنفين تَدَرَّعُوا عَلَى عَجَلٍ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ غَيْهَبَا
رِدُوا نَائِلَ الفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ إِنَّهُ أَعَمُّ نَدًى فِيكُمْ وَأَيْسَرُ مَطْلَبَا

فخرج إلى المديح بغير وصلة ولا سبب .

وكذلك قوله فى قصيدته المشهورة بالجودة التى مدح بها الفتح بن خاقان أيضاً ، وذكر نجاته عند انخساف الجسر به ، وقد أغرب فيها كل الإغراب ، وأحسن كل الإحسان ، وأولها :

* مَتَى لَاحَ بَرْقٌ أَوْ بَدَا طَلَلٌ قَفْرُ[2] *

فبينا هو فى غزلها حتى قال :

---

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* خَيَالٌ إِذَا آبَ الظَّلَامُ تَأَوَّبَا *

وانظر الديوان (ج ١ ص ٥٥ مصر) .

(٢) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* جَرَى مُسْتَهِلٌّ لَا بَكِئٌ وَلَا نَزْرُ *

وانظر الديوان (ج ١ ص ٢١٧ مصر) .

لَعَمْرُكَ مَا الدُّنْيَا بِنَاقِصَةِ الْجَدَى إذَا بَقِيَ الْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ وَالْقَطْرُ

نخرج إلى المديح مقتضباً له ، لا متعلقاً به ، وأمثال هذا فى شعره كثير .

النوع الرابع والعشرون

فى التناسب بين المعانى

وينقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : فى المطابقة .

وهذا النوع يسمى البديع أيضاً ، وهو فى المعانى ضد التجنيس فى الألفاظ ؛ لأن التجنيس هوأن يتحد اللفظ مع اختلاف المعنى ، وهذا هو أن يكون المعنيان ضدين .

وقد أجمع أرباب هذه الصناعة على أن المطابقة فى الكلام هى الجمع بين الشىء وضده ؛ كالسواد والبياض ، والليل والنهار .

وخالفهم فى ذلك قُدامة بن جعفر الكاتب ؛ فقال : المطابقة إيراد لفظين متساويين فى البناء والصيغة مختلفين فى المعنى .

وهذا الذى ذكره هو التجنيس بعينه ، غير أن الأسماء لامُشَاحَّة فيها ، إلا إذا كانت مشتقة .

ولننظر نحن فى ذلك ، وهوأن نكشف عن أصل المطابقة فى وضع اللغة ، وقد وجدنا الطِّباق فى اللغة من طَابَقَ البعيرُ فى سيره ؛ إذا وضع رجله موضع يده ، وهذا يؤيد ماذكره قُدامة ؛ لأن اليدَ غيرُ الرجل ، لاضدها ، والموضع الذى يقعان فيه واحد ، وكذلك المعنيان يكونان مختلفين واللفظ الذى يجمعهما واحد ؛ فقُدامة سمى هذا النوع من الكلام مطابقاً ، حيث كان الاسم مشتقا مما سمى به ، وذلك مناسب

وواقع فى موقعه ، إلا أنه جعل للتجنيس اسماً آخر ، وهو المطابقة ، ولا بأس به ، إلا إن كان مَثَّله بالضدين ؛ كالسواد والبياض ؛ فإنه يكون قد خالف الأصل الذى أصَّله بالمثال الذى مَثَّله .

وأما غيره من أرباب هذه الصناعة فإنهم سَمَّوْا هـذا الضرب من الكلام مطابقاً لغير اشتقاق ولا مناسبة بينه و بين مسماه ، هذا الظاهر لنا من هذا القول ، إلا أن يكونوا قد علموا لذلك مناسبة لطيفة لم نعلمها نحن .

ولنرجع إلى ذكر هذا القسم من التأليف وإيضاح حقيقته ؛ فنقول :

الأليق من حيث المعنى أن يسمى هذا النوع المقابلة ؛ لأنه لا يخلو الحال فيه من وجهين : إما أن يقابَلَ الشىء بضده ، أو يقابل بما ليس بضده ، وليس لنا وجه ثالث .

فأما الأول — وهو مقابلة الشىء بضده ، كالسواد والبياض ، وما جرى مجراهما — فإنه ينقسم قسمين : أحدهما مقابلة فى اللفظ والمعنى ، والآخر مقابلة فى المعنى دون اللفظ .

أما المقابلة فى اللفظ والمعنى فكقوله تعالى : (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا)؛ فقابل بين الضحك والبكاء والقليل والكثير ، وكذلك قوله تعالى : (لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) ؛ وهذا من أحسن ما يجىء فى هذا الباب ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُ المَالِ عَيْنٌ سَاهِرَةٌ لِعَيْنٍ نَائِمَةٍ » .

ومن الحسن المطبوع الذى ليس بمتكلف قول على رضى الله عنه لعثمان رضى الله عنه : إن الحق ثقيلٌ مَرِىءٌ والباطل خفيف وَبِىءٌ ، وأنت رجل إن صدقتُ سخطتَ ، وإن كذبتُ رضيتَ ؛ فقابل الحق بالباطل ، والثقيلَ المرئَ بالخفيف الوبِىءِ ، والصدقَ بالكذب ، والسخطَ بالرضا . وهذه خمس مقابلات فى هذه الكلمات القصار .

وكذلك ورد قوله رضى الله عنه لما قال الخوارج : لا حكم إلا لله تعالى : هٰذِهِ كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بها باطل .

وقال الحجاج بن يوسف لسعيد بن جبير رضى الله عنه وقد أحضره بين يديه ليقتله ، فقال له : ما اسمك ؟ قال : سعيد بن جبير ، قال : بل أنت شقى ابن كسير ، وقد كان الحجاج من الفصحاء المعدودين ، وفى كلامه هذا مطابقة حسنة ؛ فإنه نقل الاسمين إلى ضدهما ، فقال فى سعيد : شقى ، وفى جبير : كسير .

وهذا النوع من الكلام لم تختص به اللغة العربية دون غيرها من اللغات .

ومما وجدته فى لغة الفرس أنه لما مات قباذ أحد ملوكهم قال وزيره : حَرَّكنا بسكونه .

وأول كتاب الفصول لأبقراط فى الطب قوله : العمر قصير ، والصناعة طويلة . وهذا الكتاب على لغة اليونان .

ومن كلامى فى هذا الباب ما كتبته فى صدر مكتوب إلى بعض الإخوان ، وهو : صَدَرَ هذا الكتاب عن قلب مقيم وجسد سائر ، وصبر مليم وجزع عاذر ، وخاطر أدهشته لوعة الفراق فليس بخاطر .

وكذلك كتبت إلى بعض الإخوان أيضا ، فقلت : صَدَرَ هذا الكتاب عن قلب مأنوس بلقائه ، وطرف مستوحش لفراقه ، فهذا مُرَوَّع بكآبة إظلامه ، وهذا ممتنع ببهجة إشراقه ، غير أن لقاء القلوب لقاء عنيت بمثله خواطر الأفكار ، وتتناجى به من وراء الأستار ، وذلك أخو الطَّيْف المُلِمّ فى المنام ، الذى يُمَوِّهُ بلقاء الأرواح على لقاء الأجسام .

ومن هذا النوع ما ذكرته فى كتاب أصِفُ المسيرَ من دمشق إلى الموصل على طريق المناظر ، فقلت من جملته : ثم نزلت أرضَ الخابور فغرَّبَت الأرواح وشرَّقَتِ الجسوم ، وحصل الاعدام من المسار والإنزال من الهموم ، وطالبتنى النفس بالعود والقدرة مُفْلِسة ، وأويت إلى ظل الآمال والآمال مشمسة .

ومن ذلك ما ذكرته فى جملة كتاب إلى بعض الإخوان ، وعرضت فيه بذكر جماعة من أهل الأدب ، فقلت : وهم مسئولون ألّا ينسونى فى نادى فضلهم الذى هو منبع الآمال ، وملتقط اللآل ، فوجوه ألفاظه مشرقة بأيدى الأقلام المتسودة ، وقلوب معانيه مستنبطة بنار الخواطر المتوقدة ، والواغل إليه يَسْكَرُ من خمرته التى تُنَبِّه العقول من إغفائها ، ولا يشربها أحد غير أكفائها .

وهذه الفصول المذكورة لا خفاء بما تضمنته من محاسن المقابلة .

ومما ورد من هذا النوع شعراً قولُ جرير(١) :

وَأَعْوَرَ مِنْ نَبْهَانَ أَمَّا نَهَارُهُ ... فَأَعْمَى ، وَأَمَّا لَيْلُهُ فَبَصِيرُ

وهكذا ورد قول الفرزدق(٢) :

قَبَحَ الْإِلٰهُ بَنِى كُلَيْبٍ إِنَّهُمْ ... لَا يَغْدِرُونَ وَلَا يَفُونَ بِجَارِ(٣)

---

(١) من كلمة له يجيب فيها أعور بنى نبهان ، وأولها قوله :

عَفَا ذُو حَمَامٍ بَعْدَنَا وَحَفِيرُ ... وَبِالسِّرِّ مَبْدًى مِنْهُمُ وَحُضُورُ

وقبل البيت الذى أنشده المؤلف قوله :

وَجَدْنَا بَنِى نَبْهَانَ أَذْنَابَ طَيِّئٍ ... وَلِلنَّاسِ أَذْنَابٌ تُرَى وَصُدُورُ

تَرَى شَرَطَ الْمِعْزَى مُهُورَ نِسَائِهِمْ ... وَفِى قَزَمِ الْمِعْزَى لَهُنَّ مُهُورُ

إِذَا حَلَّ مِنْ نَبْهَانَ أَذْنَابُ ثَلَّةٍ ... بِأَوْشَالِ سَلْمَى دِقَّةٌ وَفُجُورُ

أَلَسْتَ لِنَبْهَانِيَّةٍ طَالَ بَظْرُهَا ... وَبَاعُ ابْنِهَا عِنْدَ الْفَخَارِ قَصِيرُ

كَثِيرَةُ صِئْبَانِ النِّطَاقِ كَأَنَّهَا ... إِذَا رَشَحَتْ مِنْهَا الْمَغَابِنُ كِيرُ

(٢) من قصيدة له يهجو فيها جريرا ، وأولها قوله :

يَا ابْنَ الْمَرَاغَةِ إِنَّمَا جَارَيْتَنِى ... بِمُسَبَّقِينَ لَدَى الْفَعَالِ قِصَارِ

وَالْحَابِسِينَ إِلَى الْعَشِىِّ لِيَأْخُذُوا ... نُزُحَ الرَّكِىِّ وَدِمْنَةَ الْأَسْآرِ

(٣) فى الديوان « ولا يفون لجار »

يَسْتَيْقِظُونَ إِلَى نَهِيقِ حِمَارِهِمْ وَتَنَامُ أَعْيُنُهُمْ عَنِ الأَوْتَارِ[(١)]

فقابل بين الغدر والوفاء ، و بين التيقظ والنوم ، وفى البيت الأول مَعْنًى يُسْأل عنه .

وكذلك ورد قول بعضهم[(٢)] :

فَلَا الْجُودُ يُفْنِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُقْبِلٌ وَلَا الْبُخْلُ يُبْقِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُدْبِرُ

وقد أكثر أبو تمام من هذا فى شعره فأحسن فى موضع وأساء فى موضع ؛ فمن إحسانه قوله[(٣)] :

مَا إِنْ تَرَى الْأَحْسَابَ بِيضاً وُضَّحاً إِلَّا بِحَيْثُ تَرَى الْمَنَايَا سُودَا

وكذلك قال من هذه القصيدة أيضا :

شَرَفٌ عَلَى أُولَى الزَّمَانِ وَإِنَّمَا خَلَقُ الْمَنَاسِبِ مَا يَكُونُ جَدِيدَا[(٤)]

وعلى هذا النهج ورد قوله[(٥)] :

إِذَا كَانَتِ النُّعْمَى سَلُوبًا مِنَ امْرِئٍ غَدَتْ مِنْ خَلِيجَيْ كَفِّهِ وَهْيَ مُتْبِـعُ[(٦)]

---

(١) فى الديوان والنقائض « يستيقظون إلى نهاق حمارهم » .

(٢) نسب العباسى فى معاهد التنصيص (ص ٢٧٧) هـذا البيت لأبى الطيب المتنبى ، ولم أجده فى ديوانه ، بل ليس للمتنبى كلمة على هذا الروى .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها خالد بن يزيد الشيبانى ، وأولها قوله :

طَلَلَ الْجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا وَكَفَى عَلَى رُزْئِي بِذَاكَ شَهِيدَا

(٤) فى ا ، ب ، ج « سوف على أولى الزمان » وضبط بتشـديد الواو ، وهو تصحيف ، والتصويب عن ثلاث نسخ من الديوان .

(٥) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف ، وأولها قوله :

أَمَا إِنَّهُ لَوْلَا الْخَلِيطُ الْمُوَدِّعُ وَرَبْعٌ خَلَا مِنْهُ مَصِيفٌ وَمَرْبَعُ

(٦) السلوب : التى مات ولدها . والمتبـع : التى يتبعها ولدها ، يريد أن غيره إذا كان لايجود إلا مرة واحدة فجود الممدوح يتلو بعضه بعضا ، ووقع فى ا ، ب ، ج « وهو متبع » والتصويب عن الديوان .

وَإِنْ عثَرَتْ بِيضُ اللَّيَالِي وَسُودُهَا ... بِوُحْدَتِهِ أَلْفَيْتَهَا وَهْيَ مُجْمِعُ(١)

وَيَوْمٍ يَظَلُّ الْعِزُّ يُحْفَظُ وَسْطَهُ ... بِسُمْرِ الْعَوَالِي وَالنُّفُوسُ تُضَيَّعُ(٢)

مَصِيفٌ مِنَ الْهَيْجَا وَمِنْ حَاجِمِ الْوَغَى ... وَلٰكِنَّهُ مِنْ وَابِلِ الدَّمِ مَرْبَعُ(٣)

ومن هذا الأسلوب قوله أيضا(٤) :

تُقَرِّبُ الشُّقَّةَ الْقُصْوَى إِذَا أَخَذَتْ ... سِلَاحَهَا وَهُوَ الْإِرْقَالُ وَالرَّمَلُ

إِذَا تَظَلَّمَتُ مِنْ أَرْضٍ فَصَلْتُ بِهَا ... كَانَتْ هِيَ الْعِزَّ إِلَّا أَنَّهَا ذُلُلُ

الْمُرْضِيَاتُكَ مَا أَرْغَمْتَ آنُفَهَا ... وَالْهَادِيَاتُكَ وَهْيَ الشُّرَّدُ الضُّلُلُ

---

(١) فى الديوان «و إن عثرت سود الليالى و بيضها» . والمجمع: التى اتفقت آراؤها فهو يذيق العذاب و يورد الحتوف ، وهو ينيل المحتاجين و يرفد السائلين :

(٢) يريد أنه رب حرب طاحنة تسيل فيها النفوس على شفرات السيوف فتضيع ليبنى عليها العز والعلا و يشيد عليها المجد وآساسه سمر العوالى .

(٣) فى ا ، ب ، ج « مصيف من الهيجاء ومن حاجم الوغى » وهو تحريف من وجهين .

(٤) من كلمة له يصف فيها شدة البرد بخراسان ، وأولها قوله :

لَمْ يَبْقَ لِلضَّيْفِ لَا رَسْمٌ وَلَا طَلَلُ ... وَلَا قَشِيبٌ فَيُسْتَكْسَى وَلَا سَمَلُ

وهى فى الديوان بتقديم البيت الثالث على أول هذه الأبيات ، وها كها برواية الديوان مع بيت سابق عليها يوضح المعنى والارتباط بينها :

فَمَا صِلَاتِيَ إِنْ كَانَ الصَّلَاءُ بِهَا ... جَمْرَ الْغَضَا الْجَزْلَ إِلَّا السَّيْرُ وَالْإِبِلُ

الْمُرْضِيَاتُكَ مَا أَرْغَمْتَ آنُفَهَا ... وَالْهَادِيَاتُكَ وَهْيَ الرُّشْدُ وَالضَّلَلُ

تُقَرِّبُ الشُّقَّةَ الْقُصْوَى إِذَا أَخَذَتْ ... سِلَاحَهَا وَهْيَ الْإِرْقَالُ وَالرَّمَلُ

إِذَا تَظَلَّمْتُ مِنْ أَرْضٍ فَصَلْتُ بِهَا ... كَانَتْ هِيَ الْعِزَّ إِلَّا أَنَّهَا ذُلُلُ

وعلى هذا النحو ورد قوله(١) :

وَنَاضِرَةِ الصِّبَاحِينَ اسْتَبْكَرَتْ   طِلَاعَ الْمِرْطِ وَالدِّرْعِ الْبَدِيِّ
تَشَكَّى الأَيْنَ مِنْ نِصْفٍ سَرِيعٍ   إِذَا قَامَتْ وَمِنْ نِصْفٍ بَطِيِّ

وقد جاء لأبي نواس ذلك فقال :

أَقِلْنِي قَدْ نَدِمْتُ عَلَى الذُّنُوبِ   وَبِالْإِقْرَارِ عُذْتُ مِنَ الْجُحُودِ
أَنَا اسْتَهْدَيْتُ عَفْوَكَ مِنْ قَرِيبٍ   كَمَا اسْتَعْفَيْتُ سُخْطَكَ مِنْ بَعِيدِ

فقابل بين الأضداد : من الجحود والإقرار ، والعفو والسخط ، والقرب والبعد .

وعلى نحو من ذلك ورد قول على بن جَبَلة فى أبى دُلَف العجلى ، وهو :

أَيْمُ الْمُهِيرِ وَنِكَاحُ الأَيِّمِ   يَوْمَاكَ يَوْمُ أَبْؤُسٍ وَأَنْعُمِ

* وجمع مَجْدٍ وَنَدًى مُقَسَّمِ *

وكذلك قوله أيضا :

هُوَ الأَمَلُ الْمَبْسُوطُ وَالأَجَلُ الَّذِى   يُمِرُّ عَلَى أَيَّامِهِ الدَّهْرُ أَوْ يَحْلُو
وَلَا تُحْسِنُ الأَيَّامُ تَفْعَلُ فِعْلَهُ   وَإِنْ كَانَ فِى تَصْرِيفِهَا النَّقْضُ وَالْفَعْلُ
فَعِشْ وَاحِدًا أَمَّا الثَّرَاءُ فَمُسْلَمٌ   مُبَاحٌ وَأَمَّا الْجَارُ فَهْوَ حِمًى بَسْلُ(٢)

ومما جاء من هذا القسم قول البحترى(٣) :

(١) من قصيدة له يمدح فيها الحسن بن وهب ، وأولها قوله :

أَلَا وَيْلَ الشَّجِىِّ مِنَ الْخَلِىِّ   وَبَالِى الرَّبْعِ مِنْ إِحْدَى بَلِىِّ
وَمَا لِلدَّارِ إِلَّا كُلُّ سَمْحٍ   بِأَدْمُعِهِ وَأَضْلُعِهِ سَخِىِّ

(٢) بسل ـ بفتح الباء وسكون السين ـ معناه حرام .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف ، وأولها قوله :

يَا أَخَا الأَزْدِ مَا حَفِظْتَ الإِخَاءَ   لِمُحِبٍّ وَلَا رَعَيْتَ الْوَفَاءَ

أَحْسَنَ اللّٰهُ فِى ثَوَابِكَ عَنْ ثَغْـــرٍ مُضَاعٍ أَحْسَنْتَ فِيــهِ الْبَلَاءَ
كَانَ مُسْـتَضْعَفًا فَعَزَّ وَمَحْرُو مًا فَأَجْدَى وَمُظْلِمًا فَأَضَاءَ

ومن أحسن ما ورد له فى هذا الباب قوله (١) :

أَشْكُو إِلَيْكَ أَنَامِلًا مَاتَنْطَوِى بُخْلًا وَإِمْـــلَاقًا تقصفها الْيَدُ (٢)
أَرْضِيهِمُ قَوْلًا وَلَا يَرْضَوْنَنِى فِعْلًا وَتِلْكَ قَضِـــيَّةٌ لا تقصد
فَأَذُمُّ مِنْهُمْ مَا يُذَمُّ وَرُبَّمَا سَامَحْتُهُمْ فَحَمِدْتُ مَالَا يُحْمَدُ

وعلى هذا النهج ورد قوله (٣) :

ـــذَلًا يَتْرُكُ الْحَنِينَ أَنِينًا فِى هَوًى يَتْرُكُ الدُّمُوعَ دِمَاءَ
لَا تَلُمْنِى عَلَى الْبُكَاءِ فَإِنِّى نِضْوُ شَجْوٍ مَالُمْتُ فِيهِ الْبُكَاءَ

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا أيوب ابن أخت أبى الوزير ، وأولها قوله :

يَايَوْمُ عَرِّجْ ، بَلْ وَرَاءَكَ يَاغَدُ قَدْ أَجْمَعُوا بَيْنًا وَأَنْتَ الْمَوْعِدُ

(٢) فى الديوان « يبسا وأخلاقا تقصفها اليد » ؛ و بين هذا البيت والذى بعده عدة أبيات ، وهى قوله :

وَأَنَا لَبِيدُ عِنْـدَ آخِرِ دَمْعَةٍ يَصِفُ الصَّبَابَةَ وَالْمَكَارِمَ أَرْبَدُ
النَّاسُ حَوْلَكَ رَوْضَةٌ مَاتُرْتَقَى رَبًّا النَّبَاتِ وَمَنْهَلٌ مَا يُورَدُ
جِدَةٌ وَلَا جُودٌ وَطَالِبُ بُغْيَةٍ فِى الْبَاخِلِينَ وَبُغْيَةٌ لَا تُوجَدُ
تَرَكُوا الْعُلَا وَهُمُ يَرَوْنَ مَكَانَهَا وَدَعَا اللُّجَيْنُ قُلُوبَهُمْ وَالْعَسْجَدُ
وَتَمَاحَكُوا فِى الْبُخْلِ حَتَّى خِلْتُهُ دِينًا يُدَانُ بِهِ الْإِلٰهُ وَيُعْبَدُ

(٣) من قصيدة له يعاتب فيها أبا العباس بن بسطام ، وأولها قوله :

أَمَّا الْعُدَاةُ فَقَدْ أَرَوْكَ نُفُوسَهُمْ فَاقْصِدْ بِسُوءِ ظُنُونِكَ الْإِخْوَانَا

وانظر الديوان (ص ٢٧٩ ج ٢ مصر).

وَتوقُّعِي مِنْكَ الإِسَاءَةَ جَاهِداً ... وَالْعَدْلُ أَنْ أَتوقَّعَ الإِحْسَانَا
وَكَمَا يَسُرُّكَ لِينُ مَسِّي رَاضِياً ... فَكَذَاكَ فَاخْشَ خُشُونَتِي غَضْبَانَا

وأما أبو الطيب المتنبى فإنه استعمل هذا النوع قليلا فى شعره؛ فمن ذلك قوله(١) :

ثِقَالٌ إِذَا لاَقَوْا خِفَافٌ إِذَا دُعُوا ... كَثِيرٌ إِذَا شَدُّوا قَلِيلٌ إِذَا عُدُّوا

وكذلك قوله(٢) :

إِلَى رَبِّ مَالٍ كُلَّمَا شَتَّ شَمْلُهُ ... تَجَمَّعَ فِي تَشْتِيتِهِ لِلعُلاَ شَمْلُ

ومما استعذبته من قوله فى هذا الباب(٣) :

كَأَنَّ سُهَادَ اللَّيْلِ يَعْشَقُ مُقْلَتِي ... فَبَيْنَهُمَا فى كُلِّ هَجْرٍ لَنَا وَصْلُ

ومما جاء من هذا الباب :

لَمَّا اعْتَنَقْنَا لِلْوَدَاعِ وَأَعْرَبَتْ ... عَـــبَرَاتُنَا عَنَّا بِدَمْعٍ نَاطِقِ

---

(١) هذا ثالث بيت من قصيدة له يمدح فيها محمد بن سيار بن مكرم التميمى ، والذى قبله قوله :

أَقَلُّ فَعَالِي بَلْهَ أَكْثَرَهُ مَجْدُ ... وَذَا الْجِدُّ فِيهِ نِلْتُ أَمْ لَمْ أَنَلْ جَدُّ
سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالقَنَا وَمَشَايِخٍ ... كَأَنَّهُمُ مِنْ طُولِ مَا الْتَثَمُوا مُرْدُ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها شجاع بن محمد الطائى المنبجى ، وأولها قوله :

عَزِيزُ أَسًى مَنْ دَاؤُهُ الْحَدَقُ النُّجْلُ ... عَيَاءٌ بِهِ مَاتَ المُحِبُّونَ مِنْ قَبْلُ
فَمَنْ شَاءَ فَلْيَنْظُرْ إِلَيَّ فَمَنْظَرِي ... نَذِيرٌ إِلَى مَنْ ظَنَّ أَنَّ الهَوَى سَهْلُ

(٣) هذا البيت من القصيدة التى منها البيت السابق ؛ وقبله قوله :

كَأَنَّ رَقِيباً مِنْكِ سَدَّ مَسَامِعِي ... عَنِ الْعَذْلِ حَتَّى لَيْسَ يَدْخُلُهَا الْعَذْلُ

و بعده البيت الذى أنشده المؤلف ، و بعده قوله :

أُحِبُّ الَّتِي فِي الْبَدْرِ مِنْهَا مَشَابِهٌ ... وَأَشْكُو إِلَى مَنْ لاَ يُصَابُ لَهُ شَكْلُ

فَرَّقْنَ بَيْنَ مَعَاجِرٍ وَمَحَاجِرٍ   وَجَمَعْنَ بَيْنَ بَنَفْسَجٍ وَشَقَائِقِ

وهذا تحته معنى يسأل عنه غير المقابلة .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالبنفسج والشقائق هو عارض الرجل وخد المرأة ؛ لأن من العادة أن يشبه العارض بالبنفسج .

وهذا قول غير سائغ ؛ لأن العارض إنما يشبه بالبنفسج عند أول ظهوره ، فإذا طرّ وظهرت خضرته فى ابتداء سن الشباب شُبِّه بالبنفسج ؛ لأنه يكون بين الأخضر والأسود ، وليس فى الشعر ما يدل على أن المودّع كان شابا قد طرّ عارضه ؛ والذى يقتضيه المعنى أن المرأة قامت للوداع فمزّقت خمارَها ولطمت خدها ؛ فجمعت بين أثر اللطم ، وهو شبيه بالبنفسج ، وبين لون الخد ، وهو شبيه الشقائق ، وفرّقت بين خمارها وبين وجهها بالتمزيق وَلَهًا وموجدة على الوداع ؛ هذا هو معنى البيت ، لا ما ذهب إليه هذا الرجل .

وأما المقابلة فى المعنى دون اللفظ فى الأضداد فما جاء منه قول المُقَنَّع الكِنْدِىّ من شعراء الحماسة[1] .

---

(١) المقنع الكندى ــ بصيغة اسم المفعول ــ اسمه محمد بن عميرة ، وأصل المقنع : الذى يغطى رأسه ، والذى يلبس السلاح مقنع أيضا ، وذكروا أن محمد بن عميرة هذا كان جميلا وضىء الوجه ، فكان يستر وجهه لجماله ، ولهذا سمى المقنع ؛ والبيت من كلمة له اختارها أبو تمام فى الحماسة (انظر شرح التبريزى : ٣ ــ ١٧١) وأولها قوله :

يُعَاتِبُنِى فِى الدَّيْنِ قَوْمِى وإنَّمَا   دُيُونِىَ فِى أَشْيَاءَ تَكْسِبُهُمْ حَمْدَا

أَسُدُّ بِهِ مَا قَدْ أَخَلُّوا وَضَيَّعُوا   ثُغُورَ حُقُوقٍ مَا أَطَاقُوا لَهَا سَدَّا

وَفِى جَفْنَةٍ مَا يُغْلَقُ الْبَابُ دُونَهَا   مُكَلَّلَةٍ لَحْماً مُدَفَّقَةٍ ثُرْدَا

وَفِى فَرَسٍ نَهْدٍ عَتِيقٍ جَعَلْتُهُ   حِجَابًا لِبَيْتِى ثُمَّ أَخْدَمْتُهُ عَبْدَا

لَهُمْ جُلُّ مَالِي إنْ تَتَابَعَ لِي غِنًى ... وَإنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أُكَلِّفْهُمْ رِفْدَا

فقوله « تتابع لى غنى » بمعنى قوله « كثر مالى » فهو إذًا مقابلة من جهة المعنى ؛ لا من جهة اللفظ ؛ لأن حقيقة الأضداد اللفظية إنما هى فى المفردات من الألفاظ ، نحو : قام وقعد ، وحلّ وَعقَد ، وقل وكثر ؛ فإن القيام ضد القعود ، والْحَلّ ضد الْعَقْد ، والقليل ضد الكثير ؛ فإذا ترك المفرد من الألفاظ وتوصل إلى مقابلته بلفظ مركب كان ذلك مقابلة من جهة المعنى ، لا من جهة اللفظ ؛ كقول هذا الشاعر « تَتَابَعَ لِي غِنًى » فى معنى كثر مالى ، وهذه مقابلة معنوية ، لا لفظية ، فاعرف ذلك .

وأما مقابلة الشىء بما ليس بضده فهى ضربان : أحدهما ألاّ يكون مثلا ، والآخر أن يكون مثلا .

فالضرب الأول يتفرع إلى فرعين :

الأول : ما كان بين المقابِلِ والمقابَلِ نَوْعُ مناسبة وتقارب ، كقول قُرَيْط ابن أُنَيْفٍ(١) :

وَإنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي ... وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لَمُخْتَلِفٌ جِدَّا
فَإنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ ... وَإنْ هُمْ هَوَوْا غَيِّي هَوِيتُ لَهُمْ رُشْدَا
وَإنْ زَجَرُوا طَيْرًا بِنَحْسٍ تَمُرُّ بِي ... زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْرًا تَمُرُّ بِهِمْ سَعْدَا
وَلاَ أَحْمِلُ الْحِقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمُ ... وَلَيْسَ رَئِيسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحِقْدَا

وبعد ذلك البيت الذى ذكره المؤلف ، وبعده قوله :

وَإنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلاً ... وَمَا شِيمَةٌ لِي غَيْرُهَا تُشْبِهُ الْعَبْدَا

(١) البيت من كلمة اختارها أبو تمام فى مستهل الحماسة ، وأولها قوله :

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إبِلِي ... بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا

فقابل الظلم بالمغفرة ، وليس ضدا لها ، وإنما هو ضد العدل ، إلا أنه لما كانت المغفرة قريبة من العدل حَسُنَت المقابلة بينها و بين الظلم .

وعلى هذا جاء قوله تعالى : (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) ؛ فإن الرحمة ليست ضدا للشدة ، و إنما ضد الشدة اللين ، إلا أنه لما كانت الرحمة من مُسَبَّبات اللين حَسُنت المقابلة بينها و بين الشدة .

وكذلك ورد قوله تعالى : (إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ) ؛ فإن المصيبة سيئة ؛ لأن كل مصيبة سيئة ، وليس كل سيئة مصيبة ؛ فالتقابل ههنا من جهة العام والخاص .

الفرع الثانى : ما كان بين المقابِل والمقابَل به بُعْدٌ ، وذاك مما لا يحسن استعماله ، كقول أم النُّحَيْف[1] ، وهو سعد بن قرط[2] ، وقد تزوج امرأة كانت نهته عنها ، فقالت من أبيات تذمُّها فيها[3] :

---

(١) فى ا ، ب ، ج « أم المحنف » والتصويب عن شرح الحماسة للتبريزى (٤ — ٣٥٢) قال : « يقال : نَحِفَ الرجل يَنْحَفُ ، وَنَحُفَ يَنْحُفُ ، نَحَافَةً ، وهو نَحِيفٌ ؛ فيجوز أن يكون النُّحَيْفُ تحقير ترخيم النَّحِيف » اه .

(٢) فى ا ، ب ، ج «وهو سعد بن قرظ» بالظاء المعجمة ، والتصويب عن التبريزى فى الموضع المذكور .

(٣) الأبيات رواها أبو تمام فى أخريات ديوان الحماسة ، وقبل البيتين اللذين أنشدهما المؤلف قولها :

لَعَمْرِى لَقَدْ أَخْلَفْتَ ظَنِّى وَسُؤْتَنِى فَحُزْتَ بِعِصْيَانِى النَّدَامَةَ فَاصْبِرِ

وَلَا تَكُ مِطْلَاقًا مَلُولاً ؛ فَسَامِحِ الْـــقَرِينَةَ وَافْعَلْ فِعْلَ حُرٍّ مُشَهَّرِ

فَقَدْ حُزْتَ بِالْوَرْهَاءِ أَخْبَثَ خِبْثَةٍ فَدَعْ عَنْكَ مَاقَدْقُلْتَ يَا سَعْدُ وَاحْذَرِ

تَرَبَّصْ بِهَا الْأَيَّامَ عَلَّ صُرُوفَهَا سَتَرْمِي بِهَا فِي جَاحِمٍ مُتَسَعِّرِ
فَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ قَدْ مَنَاهُ إِلٰهُهُ بِمَذْمُومَةِ الْأَخْلَاقِ وَاسِعَةِ الْحِرِ

فقولها « بمذمومة الأخلاق واسعة الحر » من المقابلة البعيدة ، بل الأولى أن كانت قالت « بضيقة الأخلاق واسعة الحر » حتى تصح المقابلة .

وهذا مما يدل على أن العربىَّ غَيْرُ مُهْتَدٍ إلى استعمال ذلك بصنعته ، وإنما يجىء له منه ما يجىء بطبعه ، لابتكلفه ، وإذا أخطأ فإنه لا يعلم الخطأ ، ولا يشعر به ، والدليل على ذلك أنه لو أبدلت لفظة مذمومة بلفظة ضيقة لصح الوزن ، وحصلت المقابلة ، وإنما يعذر من يعذر فى ترك المقابلة فى مثل هذا المقام إذا كان الوزن لا يواتيه .

وأما الْمُحْدَثُونَ من الشعراء فإنهم اعتنوا بذلك خلاف ما كانت العرب عليه ، لا جَرَمَ أنهم أشدُّ مُلَاءَمَة من العرب .

فمن ذلك قول أبى الطيب المتنبى (١) :

لِمَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ يُرِدْ بِهَا سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمِ (٢)

---

(١) هو من قصيدة له يمدح فيها كافورا الإخشيدى ، وأولها قوله :

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتَ غَيْرُ مُذَمَّمِ وَأَمٌّ وَمَنْ يَمَّمْتَ خَيْرُ مُيَمَّمِ

(٢) رواية الديوان التى شرح عليها العكبرى :

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُرِدْ بِهَا سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمِ

والخطاب والغيبة جائزان لاعلى جهة الالتفات فحسب ؛ بل لأن فيما قبل البيت خطابا وغيبة فهو بأحد الوجهين يطابق أحد السابقين ، وما قبله هو قوله :

قَدِ اخْتَرْتُكَ الْأَمْلَاكَ فَاخْتَرْ لَهُمْ بِنَا حَدِيثًا ، وَقَدْ حَكَّمْتُ رَأْيَكَ فَاحْكُمِ
فَأَحْسَنُ وَجْهٍ فِي الْوَرَى وَجْهُ مُحْسِنٍ وَأَيْمَنُ كَفٍّ فِيهِمُ كَفُّ مُنْعِمِ
وَأَشْرَفُهُمْ مَنْ كَانَ أَشْرَفَ هِمَّةً وَأَكْبَرَ إِقْدَامًا عَلَى كُلِّ مُعْظَمِ

فإن المقابلة الصحيحة بين المحب والمبغض ، لا بين المحب والمجرم ، وليست متوسطة أيضاً حتى يقرب الحال فيها ، وإنما هى بعيدة ؛ فإنه ليس كل من أجْرَم إليك كان مُبْغِضاً لك .

ومما يتصل بهذا الضرب ضرب من الكلام يسمى « المواخاة بين المعانى ، والمواخاة بين المبانى » وكان ينبغى أن نعقد له بابا مفرداً لكنا لما رأيناه ينظر إلى التقابل من وجه وصلناه به .

أما المواخاة بين المعانى فهو : أن يذكر المعنى مع أخيه ، لا مع الأجنبى ؛ مثاله أن تذكر وصفا من الأوصاف ، وتقرنه بما يقرب منه ويلتئم به ، فإن ذكرته مع ما يبعد منه كان ذلك قَدْحًا فى الصناعة ، وإن كان جائزا .

فمن ذلك قول الكميت (١) :

أَمْ هَلْ ظَعَائِنُ بِالْعَلْيَاءِ رَافِعَةٌ وَإِنْ تَكَامَلَ فِيهَا الدَّلُّ وَالشَّنَبُ (٢)

فإن الدَّلَّ يذكر مع الْغَنج وما أشبهه ، والشَّنَب يذكر مع اللَّعَس وما أشبهه ، وهذا موضع يغلط فيه أرباب النظم والنثر كثيرا ، وهو مَظِنَّة الغلط ؛ لأنه يحتاج إلى ثاقب فكرة وحِذْقٍ بحيث توضع المعانى مع أخواتها ، لا مع الأجنبى منها .

وقرأت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج (٣) أنه اجْتمَعَ نُصَيْبٌ والكُمَيْت

(١) البيت من قصيدة للكميت بن زيد الأسدى ، ومطلعها قوله :

هَلْ أَنْتَ عَنْ طَلَبِ الْإِيقَاعِ مُنْقَلِبُ أَمْ هَلْ يُحَسِّنُ مِنْ ذِى الشَّيْبَةِ اللَّعِبُ

وهى قصيدة يعارض فيها قصيدة ذى الرمة التى أولها :

ما بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا المَاءُ يَنْسَكِبُ كَأَنَّهُ مِنْ كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرَبُ

(٢) روى هذا البيت بروايات مختلفة ؛ فوقع فى ا ، ب ، ج « بالعلياء رافعة » ووقع فى رواية لثعلب « بالعلياء نافعة » ووقع فى رواية لإسحاق الموصلى « بالخلصاء رابعة » ووقع فى رواية لمحمد بن يزيد :

وَقَدْ رَأَيْنَا بِهَا حُورًا مُنَعَّمَةً بِيضًا تَكَامَلَ فِيهَا الدَّلُّ وَالشَّنَبُ

انظر الموشح ص ١٩١ .

(٣) انظر هذه القصة بروايات متعددة فى الموشح للمرزبانى (١٩١ – ١٩٨) .

وذُو الرُّمَّة ، فأنشد الكميت « أم هل ظعائن ـ البيت » فعقَدَ نصيبٌ واحدة ؛ فقال له الكميت : ماذا تحصى ؟ قال : خطاك ؛ فإنك تباعدت فى القول ، أين الدَّلُّ من الشَّنَبِ ؟ ألاَّ قُلْتَ كما قال ذو الرمة :

لَمْيَاءُ فى شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ ... وَفِى اللِّثَاتِ وَفِى أَنْيَابِهَا شَنَبُ

ورأيت أبا نواس يقع فى ذلك كثيرا ؛ كقوله فى وصف الديك[1] :

لَهُ اعْتِدَالٌ وانتِصَابُ قَدٍّ ... وَجِـلْدُهُ يُشْبِهُ وَشْىَ الْبُرْدِ

كَأَنَّهَا الْهُدَّابُ فِى الْفِرِنْدِ ... مُحْدَوْدِبُ الظَّهْرِ كَرِيمُ الْجَدِّ

فإنه ذكر الظهر وقَرَنَه بذكر الجد ، وهذا لا يناسب هذا ؛ لأن الظهر من جملة الْخَلْق ، والجَدّ من النسب ، وكان ينبغى أن يذكر مع الظهر ما يقرب منه ويواخيه أيضاً .

وكذلك أخطأ أبو نواس فى قوله :

---

(١) الأبيات من أرجوزة له يصف فيها الديك ، وليس ترتيبها فى الديوان كترتيبها فيما ذكر المؤلف ؛ ونحن نذكر لك من هذه الأرجوزة ما يجمع الأبيات التى رواها المؤلف ، لهذا ، ولأن فى رواية الديوان بعض اختلاف يحسن أن نقفك عليه ؛ قال :

أَنْعَتُ دِيكاً مِنْ دُيُوكِ الْهِنْدِ ... أَحْسَنَ مِنْ طَاوُوسِ قَصْرِ الْمَهْدِى

أَشْجَعَ مِنْ عَادِى عَرِينِ الْأَسْدِ ... تَرَى الدَّجَاجَ حَوْلَهُ كَالْجُنْدِ

يُقْعِينَ مِنْهُ خِيفَةً لِلسَّـفْدِ ... لَهُ سُقَاعٌ كَدَوِىِّ الرَّعْـدِ

مِنْقَارُهُ كَالْمِعْوَلِ الْمُحَـدِّ ... يَقْهَرُ مَا نَاقَرَهُ بِالنَّقْـدِ

عَيْنَاهُ مِنْهُ فى الْقَفَا وَالْخَـدِّ ... ذُو هَامَـةٍ وَعُنُقٍ كَالْوَرْدِ

وَجِلْدَةٍ تُشْـبِهُ وَشْىَ الْبُرْدِ ... ظَاهِرُهَا زِفٌّ شَـدِيدُ الْوَقْدِ

كَأَنَّهُ الْهُـدَّابُ فى الْفِرِنْدِ ... مُضَمَّرُ الْخَلْقِ عَمِيمُ الْقَـدِّ

لَهُ اعْتِـدَالٌ وَانْتِصَابُ قَدِّ ... مُحْدَوْدِبُ الظَّهْرِ كَرِيمُ الْجَدِّ

وَقَدْ حَلَفْتُ يَمِيناً مَبْرُورَةً لَا تُكْذَبْ
بِرَبِّ زَمْزَمَ وَالحَوْ ضِ وَالصَّفَا وَالمحَصَّبْ

فإن ذكر الحَوْض مع زمزم والصَّفا والمحصَّب غَيْرُ مناسب ، وإنما يذكر الحوض مع الصراط والميزان ، وما جرى مجراهما ، وأما زَمْزَم والصَّفا والمحصَّب فيذكر معها الرُّكْنُ وَالحَطِيم، وما جرى مجراها .

وعلى هذا الأسلوب ورد قوله أيضاً :

أَحْسَنُ مِنْ مَنْزِلٍ بِذِى قَارِ مَنْزِلُ خَمَّارَةٍ وَخَمَّارِ (١)
وَشَمُّ رَيْحَانَةٍ وَنَرْجِسَةٍ أَحْسَنُ مِنْ أَيْنُقٍ بِأَكْوَارِ

فالبيت الثانى لا مقارنة بين صدره وعجزه ، وأين شَمُّ الريحان من الأينق بالأكوار ؟ وكان ينبغى له أن يقول : شمُّ الريحان أحسن من شم الشِّيح والقَيْصُوم ، وركوب الفَتَيَات الرُّود أَحْسَنُ من ركوب الأينق بالأكوار ، وكلُّ هذا لا يتفطن لوضعه فى مواضعه فى كل الأوقات ، وقد كان يغلب علىَّ السهوُ فى بعض الأحوال حتى أسلك هذه الطريق فى وضع المعانى مع غير أنسابها وأقاربها ، ثم إنى كنت أتأمل ما صنعته بعد حين فأصلح ما سهوت عنه .

---

(١) فى الديوان (ص ٢٨٨ مصر) :

أَحْسَنُ مِنْ مَنْزِلٍ بِذِى قَارِ مَنْزِلُ خَمَّارَةٍ بِالْأَنْبَارِ
وَشَمُّ رَيْحَانَةٍ وَنَرْجِسَةٍ أَحْسَنُ مِنْ أَيْنُقٍ بِأَكْوَارِ
وَعِشْرَةٌ لِلْقِيَانِ فى دَعَةٍ مَعْ رَشَإٍ عاقِدٍ لِزُنَّارِ
أَلَذُّ مِنْ مَهْمَهٍ أَكُدُّ بِهِ وَمِنْ سَرَابٍ أَجُوبُ غَرَّارِ
وَنَقْرُ عُودٍ إِذَا تُرَجِّعُهُ بَنَانُ رُودِ الشَّبَابِ مِعْطَارِ
أَحْسَنُ عِنْدِى مِنْ أُمِّ نَاجِيَةٍ وَأُمِّ عَمْرٍو وَأُمِّ عَمَّارِ

وأما المواخاة بين المبانى فإنه يتعلق بمبانى الألفاظ .

فمن ذلك قول أبي تمام في وصف الرماح(١) :

مُثَقَّفَاتٌ سَلَبْنَ الْعُرْبَ سُمْرَتَهَا وَالرُّومَ زُرْقَتَهَا وَالعَاشِقَ الْقَضَفَا(٢)

وهذا البيت من أبيات أبى تمام الأفراد ، غير أن فيه نظرا ، وهو قوله العُرْب والروم ثم قال العاشق ، ولو صح أن يقول العشاق لكان أحسن ؛ إذ كانت الأوصاف تجرى على [سَنَن] واحد ، وكذلك قوله سمرتها وزرقتها ثم قال القضفا ، وكان ينبغى أن يقول : قضفها أو دقتها .

وعلى هذا ورد قول مُسْلِم بن الْوَلِيد :

نفضت بكَ الْأَحْلَاسُ نَفْضَ إقامَةٍ وَاسْــتَرْجَعَتْ نُزَّاعَهَا الْأَمْصَارُ

فَاذْهَبْ كما ذَهَبَتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ يُثْــنِي عَلَيْهَا السَّهْلُ وَالْأَوْعَارُ

والأحسن أن يقال : السَّهْلُ والْوَعْرُ ، أوالسهول والأوعار ؛ ليكون البناء اللفظى واحداً : أى أن يكون اللفظان واردين على صيغة الجمع أو الإفراد ، ولا يكون أحدهما مجموعا والآخر مفردا .

وكذلك ورد قول أبي نواس فى الخمر(٣) :

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا دلف العجلى ، وأولها قوله :

أَمَّا الرُّسُومُ فَقَدْ أَذْكَرْنَ مَا سَلَفَا فَلَا تَكُفَّنَّ عَنْ شَأْنَيْكَ أَوْ يَكِفَا

(٢) مثقفات : مقومات معدلات ، وتقول : ثقفت الرمح تثقيفا ؛ إذاقومته وعدلته بالثقاف ، بزنة كتاب ، والقضف ـ بفتح القاف والضاد جميعا ـ النحافة ؛ يريد أن هذه الرماح معدلات مقومات؛وأنها زرقاء السنان صافية الجوهر كلون الروم ، وأنها سمراء كلون العرب ، وأنها نحيفة كالعاشق .

(٣) من كلمة له أولها قوله :

كَانَ الشَّــبَابُ مَطِيَّةَ الْجَهْلِ وَمُحَسِّنَ الضحكَاتِ وَالْهَزْلِ

صَفْرَاء مَجْدُهَا مَرَازِبُهَا جَلَّتْ عَنِ النُّظَرَاءِ وَالْمِثْلِ (١)

فجمع وأفرد فى معنى واحد ، وهو أنه قال « النظراء » مجموعا ثم قال « المثل » مفردا ، وكان الأحسن أن يقول : النظير والمثل ، أو النظراء والأمثال .

وعلى ذلك ورد قوله أيضاً ، والإنكار يتوجّه فيه أكثر من الأول ، وهو (٢) :

أَلَا يَاابْنَ الَّذِينَ فَنُوا فَمَاتُوا أَمَا وَاللهِ مَامَاتُوا لِتَبْقَى
وَمَالَكَ فَاعْلَمَنْ فِيهَا مُقَامٌ إِذَا اسْتَكْمَلْتَ آجَالاً وَرِزْقَا

وموضع الإنكار ههنا أنه قال « آجالا ورزقا » وكان ينبغى أن يقول : أرزاقا ، أو أن يقول : أجلاً ورِزْقاً ، وقد زاده إنكارا أنه جمع الأجل فقال « آجالا » والإنسان ليس له إلا أجل واحد ، ولو قال أجلا وأرزاقا لما عيب ؛ لأن الأجل واحد والأرزاق كثيرة ؛ لِاخْتِلَافِ ضروبها وأجناسها .

---

(١) قبل هذا البيت قوله :

وَالرَّاحُ أَهْوَاهَا وَإِنْ رَزَأَتْ بُلَغَ المَعَاشِ وَقَلَّتْ فَضْلِي

و بعده قوله :

ذُخِرَتْ لِآدَمَ قَبْلَ خِلْقَتِهِ فَتَقَدَّمَتْهُ بِخُطْوَةِ الْقَبْلِ

(٢) البيتان من خمسة أبيات له فى الزهد ، ورواية الديوان (ص ١٩٨) فيهما تخالف رواية المؤلف بعض المخالفة ، وهاك الأبيات كلها برواية الديوان :

أَخِي ؛ مَابَالُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَنْقَى كَأَنَّكَ لَا تَظُنُّ المَوْتَ حَقَّا
أَلَا يَاابْنَ الَّذِينَ فَنُوا وَبَادُوا أَمَا وَاللهِ مَا بَادُوا لِتَبْقَى
وَمَالَكَ فَاعْلَمَنْ بِهَا مُقَامٌ إِذَا اُسْتَكْمَلْتَ آجَالاً وَرِزْقَا
وَمَالَكَ غَيْرُ مَا قَدَّمْتَ زَادٌ إِذَا جَعَلَتْ إِلَى اللَّهَوَاتِ تَرْقَى
وَمَا أَحَدٌ بِزَادِكَ مِنْكَ أَحْظَى وَمَا أَحَدٌ بِزَادِكَ مِنْكَ أَشْقَى

وإذا أنصفنا فى هذا الموضع وجدنا الناثر مُطَالَبا به دونَ الناظم ؛ لمكان إمكانه من التصرف .

وقد كنت أرى هذا الضرب من الكلام واجباً فى الاستعمال ، وأنه لايحسن المَحِيدُ عنه ، حتى مر بى فى القرآن الكريم مايخالفه ، كقوله تعالى فى سورة النحل : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ) ولوكان الأحسن لزوم البناء اللفظى على سنن واحدٍ لجمع اليمين كما جمع الشمال أو أفرد الشمال كما أفرد اليمين ، وكذلك ورد قوله تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) فجمع القلوب والأبصار وأفرد السمع ، وكذلك ورد قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ) فذكر السمع بلفظ الإفراد وذكر الأبصار والجلود بلفظ الجمع ؛ وفى القرآن الكريم مواضع كثيرة هكذا ، ولوكان هذا معتبرا فى الاستعمال لورد فى كلام الله تعالى الذى هو أفصح من كل كلام ، والأخذ فى مقام الفصاحة والبلاغة إنما يكون منه ، والمعوّل عليه ، وما ينبغى أن يقاس على هذا قوله تعالى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) وربما قيل : إن هذه الآية اشتملت على تثنية وجمع وإفراد ، وظن أنها من هذا الباب ، وليس كذلك ؛ لأنها مشتملة على خطاب موسى وهرون عليهما السلام أوّلا فى اتخاذ المساجد لقومهما ، ثم ثنى الخطاب لهما ولقومهما جميعا ، ثم أفرد موسى عليه السلام ببشارة المؤمنين ؛ لأنه صاحب الرسالة .

الضرب الثانى : فى مقابلة الشىء مثله ، وهو يتفرع إلى فرعين : أحدهما : مقابلة المفرد بالمفرد ، والآخر مقابلة الجملة بالجملة .

الفرع الأول : كقوله تعالى : (نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ) وكقوله تعالى :

(وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً) وقد روعى هذا الموضع فى القرآن الكريم كثيراً ؛ فإذا ورد فى صدر آية من الآيات ما يحتاج إلى جواب كان جوابه مماثلا ، كقوله تعالى : (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) وكقوله تعالى : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) وهذا هو الأحسن ، وإلا فلو قيل من كفر فعليه ذنبه كان ذلك جائزا ، لكن الأحسن هو ما ورد فى كتاب الله تعالى ، وعليه مدار الاستعمال .

وهذا الحكم يجرى فى النظم والنثر من الأسجاع والأبيات الشعرية .

فأما إن كان ذلك غير جواب ؛ فإنه لايلتزم فيه هذه المراعاة اللفظية ، ألا ترى أنه قد قوبلت الكلمة بكلمة هى فى معناها ، وإن لم تكن مساوية لها فى اللفظ ، وهذا يقع فى الألفاظ المترادفة ؛ ولذا يستعمل ذلك فى الموضع الذى ترد فيه الكلمة غير جواب .

فمما جاء منه قوله تعالى : (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ) ولو كان لا تورد الكلمة إلا مثلا لقيل وهو أعلم بما تعملون ، وكذلك قوله تعالى : (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ) فقال (لاتخف) بعد قوله (ففزع) ولما كان هذا فى معنى هذا قوبل أحدهما بالآخر ، ولم يقابل اللفظ بنفسه .

وكذلك جاء قوله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ) فذكر الاستهزاء الذى هو فى معنى الخوض واللعب وقابل به الخوض واللعب ، ولو ذكره على حد المماثلة والمساواة لقال : أفى الله وآياته ورسوله كنتم تخوضون وتلعبون .

فإن قيل : إنك قد احتججت بالقرآن الكريم فيما ذكرته ، ونرى قد ورد

فى القرآن الكريم ماينقضه ، كقوله تعالى : (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا) ولم يقل جزاء سيئة سيئة مثلها .

الجواب عن ذلك أنى أقول : أردت أن تنقض علىّ ما ذكرته فلم تنقضه ، ولكنك شيّدْته ، والذى ذكرته هو دليل لى لا لك ، ألا ترى أنه لا فرق بين قوله تعالى (جزاء سيئة بمثلها) و بين قوله جزاء سيئة سيئة مثلها ؛ إذ المعنى واحد لايختلف ، ولو جاء عوضاً عن السيئة لفظة أخرى فى معناها كالأذى والسوء أو ما جرى مجراهما لصح لك ما ذهبت إليه .

وقد ذهب بعض المتصدرين فى علم البيان أنه إذا ذكرت اللفظة فى أول كلام يحتاج إلى تمام ، و إن لم يكن جوابا كالذى تقدم ؛ فينبغى أن تُعاد بعينها فى آخره ، ومتى عدل عن ذلك كان معيباً ، ثم مثل ذلك بقول أبى تمام وقَوْل أبى الطيب المتنبى ، فقال : إن أبا تمام أخطأ فى قوله[1] :

بَسَطَ الرَّجَاءُ لَنَا بِرَغْمِ نَوَائِبٍ كَثُرَتْ بِهِنَّ مَصَارِعُ الآمَالِ[2]

فحيث ذكر الرجاء فى صدر البيت فكان ينبغى أن يعيد ذكره أيضاً فى عجزه ، أو كان ذكر الآمال فى صدر البيت وعجزه ، وكذلك أخطأ أبو الطيب المتنبى فى قوله[3] :

---

(١) البيت من كلمة له يمدح فيها الحسن بن رجاء ، وأولها قوله :

يَكْفِى وَغَاكَ فَإِنَّنِى لَكَ قَالِ لَيْسَتْ هَوَادِى عَزْمَتِى بِتَوَالِ

ومثل هذا البيت قول أبى تمام أيضا :

ثَكِلَتْ رَجَاءَ أَخِيكَ فُرْقَتُكَ الَّتِى قَدْ أَمْسَكَتْ بِمُخَنَّقِ الآمَالِ

(٢) فى الديوان (ص ٢٤٦ بيروت) : « أحيا الرجاء لنا برغم نوائب » .

(٣) هذا مطلع قصيدة له يرثى فيها محمد بن إسحاق التنوخى ، و بعده قوله :

وَرَأَيْتُ كُلاًّ مَا يُعَلِّلُ نَفْسَهُ بِتَعِلَّةٍ ، وَإِلَى الْفَنَاءِ يَصِيرُ

إِنِّى لَأَعْلَمُ وَاللَّبِيبُ خَبِيرُ أَنَّ الحَيَاةَ وَإِنْ حَرَصْتَ غُرُورُ

فإنه قال « إنى لأعلم واللبيب خبير » وكان ينبغى أن يقول : إنى لأعلم واللبيب عليم ؛ ليكون ذلك تقابلا صحيحاً .

وهذا الذى ذكره هذا الرجل ليس بشىء ، بل المعتمد عليه فى هذا الباب أنه إذا كانت اللفظة فى معنى أختها جاز استعمالها فى المقابلة بينهما ، والدليل على ذلك ما قدمناه من آيات القرآن الكريم ، وكفى به دليلا .

وهذه الرموز التى هى أسرار الكلام لا يتفطَّن لاستعمالها إلا أحد رجلين : إما فقيه فى علم البيان قد مارسه ، وإما مشقوق اللسان فى الفصاحة قد خلق عارفا بلطائفها مستغنيا عن مطالعة صحائفها ، وهذا لا يكون إلا عَرَبِىَّ الفطرة يقول ما يقوله طبعا ، على أنه لايسدد فى جميع أقواله ، مالم تكن معرفته الفطرية ممزوجة بمعرفته العرفية .

الفرع الثانى فى مقابلة الجملة بالجملة : اعلم أنه إذا كانت الجملة من الكلام مستقبلة قوبلت بمستقبلة ، وإن كانت ماضية قوبلت بماضية ، وربما قوبلت الماضية بالمستقبلة ، والمستقبلة بالماضية ؛ إذا كانت إحداهما فى معنى الأخرى .

فمن ذلك قوله تعالى : (قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبِّى) فإن هذا تقابل من جهة المعنى ، ولو كان التقابل من جهة اللفظ لقال : وإن اهتديت فإنما أهتدى لها ، وبيان تقابل هذا الكلام من جهة المعنى هو أن النفس كل ما عليها فهو بها ؛ أعنى أن كل ما هو وَبَال عليها وضارٌّ لها فهو بسببها ومنها ؛ لأنها الأمارة بالسوء ، وكل ما هو لها مما

أَمُجَاوِرَ الدَّيْمَاسِ رَهْنَ قَرَارَةٍ فِيهَا الضِّيَاءُ بِوَجْهِهِ وَالنُّورُ

ما كُنْتُ أَحْسَبُ قَبْلَ دَفْنِكَ فى الثَّرَى أَنَّ الكَوَاكِبَ فى التُّرَابِ تَغُورُ

ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه إياها ، وهذا حكم عام لكل مُكَلَّف ، وإنما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسند ذلك إلى نفسه لأن الرسول إذا دخل تحته مع عُلُوّ محله وسداد طريقته كان غيره أولى به .

ومن هذا الضرب قوله تعالى : (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً) فإنه لم يراع التقابل فى قوله ليسكنوا فيه ومبصرا ؛ لأن القياس يقتضى أن يكون والنهار لتبصروا فيه ، وإنما هو مراعى من جهة المعنى ، لامن جهة اللفظ ، وهذا النظم المطبوع غير المتكلف ؛ لأن معنى قوله مبصرا لتبصروا فيه طرقَ التقلّب فى الحاجات .

واعلم أن فى تقابل المعانى باباً عجيبَ الأمر ، يحتاج إلى فضل تأمل ، وزيادة نظر ، وهو يختص بالفواصل من الكلام المنثور ، وبالأعجاز من الأبيات الشعرية .

فمما جاء من ذلك قوله تعالى فى ذم المنافقين : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) وقوله تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ) ألا ترى كيف فصل الآية الأخرى بيعلمون والآية التى قبلها بيشعرون ، وإنما فعل ذلك لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر العلم والمعرفة بذلك ، وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدّى إلى الفتنة والفساد فى الأرض فأمر دُنْيَوِىّ مبنى على العادات معلوم عند الناس خصوصاً عند العرب وما كان فيهم من التحارب والتغاور ، فهو كالمحسوس عندهم ؛ فلذلك قال فيه (لايشعرون) وأيضاً فإنه لما ذكر السفه فى الآية الأخيرة وهو جهل كان ذكر العلم معه أحسن طباقا فقال (لايعلمون) .

وآيات القرآن جميعها فصلت هكذا ، كقوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) وكقوله : (لَهُ

مافِى السَّمٰوٰاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ) وكقوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِى الْأَرْضِ وَالْفُلْكُ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) فإنه إنما فصلت الآية الأولى بلطيف خبير لأن ذلك فى موضع الرحمة لخلقه بإنزال الغيث وغيره، وأما الآية الثانية فإنما فصلت بغنى حميد لأنه قال: (له مافى السموٰات وما فى الأرض) له لا لحاجة، بل هو غنى عنها، جوادبها؛ لأنه ليس كل غنيٍّ نافعا بغناه إلا إذا كان جوادا منعما، وإذا جاد وأنعم حمده الْمُنْعَمُ عليه، واستحق عليه الحمد، فذكر الحميد ليدل على أنه الغنىُّ النافع بغناه خلقه، وأما الآية الثالثة[1] فإنها فصلت برءوف رحيم؛ لأنه لما عدَّدللناس ماأنعم به عليهم من تسخير ما فى الأرض لهم وإجراء الفلك فى البحر بهم وتسييرهم فى ذلك الهول العظيم وخلقه السماءفوقهم وإمساكه إياهاعن الوقوع حَسُنَ أن يفصل ذلك بقوله: (رءوف رحيم) أى: أنَّ هذا الفعلَ فعلُ رءوفٍ بكم رحيم لكم.

واعلم أيها المتأمل لكتابنا هذا أنه قلَّمَا توجد هذه الملاءمة والمناسبة فى كلام ناظم أو ناثر.

ومن الآيات ما يشكل فاصلته فيحتاج إلى فكرة وتأمل، كقوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) فإنه قد وردت الفاصلة فى غير هذا الموضع بتواب

(١) فى ج «وأما الآية الثانية» وهو تحريف، وصوابه عن ا، ب، د.

رحيم ، ويظن الظان أن هذا كذلك ، ويقول : إن التوبة مع الرحمة ، لا مع الحكمة ؛ وليس كما يظن ، بل الفاصلة بتوّاب حكيم أولى من توّاب رحيم ؛ لأن الله عز وجل حكم بالتلاعن على الصورة التى أمر بها ، وأراد بذلك ستر هذه الفاحشة على عباده ، وذلك حكمة منه ، ففصلت الآية الواردة فى آخر الآيات بتواب حكيم ، فجمع فيها بين التوبة المرجوّة من صاحب المعصية وبين الحكمة فى سَتْرِها على تلك الصورة .

وهذا الباب ليس فى علم البيان أكثر منه نفعاً ، ولا أعظم فائدة .

ومما جاء من هذا الباب قول أبى الطيب المتنبى :

وَقَفْتَ وَمَا فِى المَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ ... كَأَنَّكَ فِى جَفْنِ الرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً ... وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

وقد أُوخذ على ذلك ، وقيل : لو جعل آخر البيت الأول آخرا للبيت الثانى وآخر البيت الثانى آخرا للبيت الأول لكان أولى .

ولذلك حكاية ، وهى أنه لما استنشده سيف الدولة يوما قصيدته التى أولها :

* عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِى الْعَزَائِمُ(١) *

فلما بلغ إلى هذين البيتين قال : قد انتقدتُهُمَا عليك كما انْتُقِدَ على امرىء القيس قوله(٢) :

كَأَنِّىَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلَذَّةٍ ... وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ

(١) هذا صدر مطلع القصيدة التى منها البيتان السابقان ، وعجزه قوله :

* وَتَأْتِى عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ *

(٢) هذا البيتان من قصيدته التى أولها قوله :

أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِى ... وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِى الْعُصُرِ الْخَالِى

وَلَمْ أَسْبَأِ الزِّقَّ الرَّوِىَّ وَلَمْ أَقُلْ ... لِخَيْلِيَ كُرِّى كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

فبيتاك لم يلتئم شطراها، كما لم يلتئم شطرا بيتى امرئ القيس، وكان ينبغي لك أن تقول :

وَقَفْتَ وَمَا فِى المَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ ... وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ
تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً ... كَأَنَّكَ فِى جَفْنِ الرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ

فقال المتنبى : إن صح أن الذى استدرك على امرئ القيس هذا هو أعلم بالشعر منه فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأتُ أنا، ومولانا يعلم أن الثوب لايعلمه البزّاز كما يعلمه الحائك ؛ لأن البزاز يعرف جملته ، والحائك يعرف تفاصيله ، وإنما قَرَنَ امرؤ القيس النساء بلذة الركوب للصيد ؛ وقَرَنَ السماحة بسباء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء ، وكذلك لما ذكرتُ الموت فى صدر البيت الأول أتبعته بذكر الردى فى آخره ، ليكون أحسن تلاؤما ، ولما كان وجه المنهزم الجريح عبوسا وعينه باكية قلت « وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ » لأجمع بين الأضداد .

القسم الثانى : فى صحة التقسيم وفساده .

ولسنا نريد بذلك ههنا ماتقتضيه القسمة العقلية ، كما يذهب إليه المتكلمون؛ فإن ذلك يقتضى أشياء مستحيلة ، كقولهم : الجواهر لاتخلو : إما أن تكون مجتمعة، أومفترقة، أولا مجتمعة ولا مفترقة ، أومجتمعة ومفترقة معا ، أوبعضها مجتمعة و بعضها مفترقة ؛ ألاترى أن هذه القسمة صحيحة من حيث العقل ؛ لاستيفاء الأقسام جميعها وإن كان من جملتها مايستحيل وجوده .

وإنما نريد بالتقسيم ههنا مايقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير أن يترك منها قسم واحد ، وإذا ذكرت قام كلُّ قسم منها بنفسه ، ولم يشارك غيره ، فتارة يكون التقسيم بلفظة «إما» وتارة بلفظة بين كقولنا : بين كذا وكذا ،وتارة منهم،

كقولنا : منهم كذا ، ومنهم كذا ، وتارة بأن يذكر العدد المراد أولا بالذكر ، ثم يقسم ؛ كقولنا: فانشعب القوم شعباً أربعة ؛ فشعبة ذهبت يميناً ، وشعبة ذهبت شمالا ، وشعبة وقفت بمكانها ، وشعبة رجعت إلى ورائها .

فمما جاء من هذا القسم قوله تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) وهذه قسمة صحيحة ؛ فإنه لا يخلو أقسام العباد من هذه الثلاثة : فإما عاصٍ ظالم لنفسه ، وإما مُطيع مبادر إلى الخيرات ، وإما مقتصِد بينهما .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : (وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) وهذه الآية منطبقة المعنى على الآية التى قبلها ؛ فأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم ، وأصحاب الميمنة هم المقتصدون ، والسابقون هم السابقون بالخيرات .

وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا) فإن الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع ، وليس لنا قسم ثالث .

فإن قيل : إن استيفاء الأقسام ليس شرطاً ، وترك بعض الأقسام لا يَقدح فى الكلام ، وقد ورد فى القرآن الكريم ، كقوله تعالى : (لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ) فذكر أصحاب الجنة دون أصحاب النار .

فالجواب عن ذلك أنى أقول : هذا لا ينقض على ما ذكرته ؛ فإن استيفاء الأقسام يلزم فيما استبهم الإجمال فيه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ) فإنه حيث قال (فمنهم) لزم استيفاء الأقسام الثلاثة ، ولو اقتصر على قسمين منها لم يجُزْ ، وأما هذه الآية التى هى

(لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) فإنه إنما خَصَّ أصحاب الجنة بالذكر للعلم بأن أصحاب النار لا فَوْزَ لهم ، ولو خص أصحاب النار بالذكر لعلم أيضا ما لأصحاب الجنة ، وكذلك كل ما يجرى هذا المجرى ؛ فإنه إنما ينظر فيه إلى المستبهم وغير المستبهم ، فاعرفه .

وكان جماعة من أرباب هذه الصناعة يعجبون بقول بعض الأعراب ، ويزعمون أن ذلك من أصح التقسيمات ، وهو قولهم : النِّعَمُ ثلاثة : نعمة فى حال كونها ، ونعمة تُرْجَى مستقبلة ، ونعمة تأتى غير محتسبة ، فأبقى الله عليك ما أنت فيه ، وحَقَّق ظنك فيما ترتجيه ، وتَفَضَّل عليك بما لم تحتسبه .

وهذا القول فاسد ؛ فإن فى أقسام النعم التى قسمها نقصاً لابد منه ، وزيادة لا حاجة إليها ، فأما النقص فإغفال النعمة الماضية ، وأما الزيادة فقوله بعد المستقبلة : ونعمة تأتى غير محتسبة ؛ لأن النعمة التى تأتى غير محتسبة داخلة فى قسم النعمة المستقبلة ، وذاك أن النعمة المستقبلة تنقسم قسمين : أحدهما يُرْجَى حصوله ، والآخر لا يحتسب ، فقوله : ونعمة تأتى غير محتسبة ؛ يُوهِمُ أنَّ هذا القسم غير المستقبل ، وهو داخل فيه ، وعلى هذا فكان ينبغى له أن يقول النعم ثلاث : نعمة ماضية ، ونعمة فى حال كونها ، ونعمة تأتى مستقبلة ؛ فأَحْسَنَ اللهُ آثار النعمة الماضية ، وأبقى عليك النعمة التى أنت فيها ، ووفَّر حظك من النعمة التى تستقبلها ؛ ألا تراه لو قال ذلك لكان قد طبق به مَفْصِلَ الصواب ؟

وقد استوفى أبو تمام هذا المعنى فى قوله[١] :

جُمِعَتْ لنَا فِرَقُ الأَمَانِى مِنكُمُ بأَبَرَّ مِنْ رُوحِ الحيَاةِ وَأَوْصَلِ[٢]

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا الوليد أحمد بن أبى دواد ، وأولها قوله :

بَوَّأتُ رَحْلِى فى المَرَادِ المُبْقِلِ وَرَتَعْتُ فى أَثَرِ الغَمَامِ المُسْبِلِ

(٢) فى ا ، ب ، ج « جمعت لها فوق » وهو تصحيف صوابه عن الديوان .

فَصَنِيعَةٌ فِي يَوْمِهَا وَصَنِيعَــةٌ قَدْ أَحْوَلَتْ وَصَنِيعَةٌ لَمْ تُحْوِلِ
كَالمُزْنِ مِنْ مَاءِ الرَّبَابِ فَمُقْبِلٍ مُتَنَظِّرٍ وَمُخَــيِّمٍ مُتَهَلِّلِ (١)

ووقف أعرابى على مجلس الحسن البصرى رضى الله عنه فقال : رحم الله عبداً أعطى من سَعَة ، أو آسى من كَفاف ، أو آثر من قِلَّة ، فقال الحسن البصرى : ماترك لأحد عذرا .

وقد عاب أبو هلال العسكرى على جَميل قوله (٢) :

لَوْ كَانَ فى قَلْبِي كَقَدْرِ قُلَامَةٍ حُبًّا وَصَلْتُكِ أَوْ أَتَتْكِ رَسَائِلِي (٣)

فقال أبو هلال (٤) : إن إتيان الرسائل داخل فى جملة الْوَصْل . وليس الأمر كما وقع له ؛ فإن جميلا إنما أراد بقوله وصلتك أى أتيتك زائرًا وقاصداً أو كنت راسلتك مراسلة ، والوصل لايخرج عن هذين الوصفين : إما زيارة ، و إما رسالة .

ومن أعجب ماوجدته فى هذا الباب ماذكره أبو العلاء محمد بن غانم المعروف

---

(١) فى ا ، ب ، ج « كالمزن من ماضى الرباب » وفى الديوان « كالمزن من ماء السحاب » ، وما أثبتناه عن د ، وفى جميع النسخ « ومقبل متنظر » بالواو وما أثبتناه عن الديوان .

(٢) من كلمة له أولها قوله :

أَبُثَيْنَ إِنَّكِ قَدْ مَلَكْتِ فَأَسْجِحِي وَخُذِى بِحَظِّكِ مِنْ كَرِيمٍ وَاصِلِ
فَلَرُبَّ عارِضَــةٍ عَلَيْنَا وَصْلَهَا بِالجِـدِّ تَخْلِطُهُ بِقَوْلِ الْهَازِلِ
فَأَجَبْتُهَا بِالرِّفْقِ بَعْدَ تَسَــتُّرٍ حُبِّي بُثَيْنَةَ عَنْ وِصَالِكِ شَاغِلِي

و بعد هذا البيت الذى أنشده المؤلف .

(٣) فى الديوان « كقدر قلامة فضلا » .

(٤) انظر كتاب « الصناعتين » لأبى هلال (ص ٢٧٠ الآستانة) .

بالغانمى ، وهو قول العباس بن الأحنف(١) :

وِصَالُكُمُ هَجْرٌ وَحُبُّكُمُ قِلًى وَعَطْفُكُمُ صَدٌّ وَسِلْمُكُمُ حَرْبُ(٢)

ثم قال الغانمى : هـذا والله أصح من تقسيمات إقليدس ، ويالله العجب ! أين التقسيم من هذا البيت ؟ هذا والله فى واد والتقسيم فى واد ، ألا ترى أنه لم يذكر شيئاً تحصره القسمة ، وإنما ذم أحبابه فى سوء صنيعهم به ، فذكر بعض أحواله معهم ، ولو قال أيضاً :

وَلِينُكُمُ عُنْفٌ وَقُرْبُكُمُ نَوًى وَإِعْطَاؤُكُمْ مَنْعٌ وَصِدْقُكُمُ كِذْبُ

لكان هذا جائزا ، وكذلك لو زاد بيتا آخر لجاز ، ولو أنه تقسيم لما احتمل زيادة ، والأولى أن يضاف هذا البيت الذى ذكره الغانمى إلى باب المقابلة ؛ فإنه أولى به ؛ لأنه قابل الوصل بالهجر ، والعطف بالصد ، والسلم بالحرب .

ومن فساد التقسيم قول البحترى فى قصيدته التى مطلعها :

* ذَاكَ وَادِى الْأَرَاكِ فَاحْبِسْ قَلِيلاً(٣) *

فقال :

قِفْ مَشُوقاً أَوْ مُسْعِداً أَوْ حَزِيناً أَوْ مُعِيناً أَوْ عَاذِراً أَوْ عَـذُولاَ

فإن المشوق يكون حزينا ، والمسعد يكون معينا ، وكذلك يكون المسعد عاذرا ، وكثيرا ما يقع البحترى فى مثل ذلك .

(١) من كلمة له أولها قوله :

أَلاَ لَيْتَ ذَاتَ الخَالِ تَلْقَى مِنَ الهَوَى عُشَيْرَ الَّذِى أَلْقَى فَيَلْتَئِمَ الشَّعْبُ

(٢) فى الديوان (ص ١٣ الجوائب) : « وصالكم صرم » .

(٣) هـذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها محمد بن على بن عيسى القمى ، وعجزه قوله :

* مُقْصِراً مِنْ صَبَابَةٍ أَوْ مُطِيلاَ *

والبيت الذى ذكره المؤلف ونقده هو التالى لهذا المطلع (الديوان : ٢ - ٢١٠) .

وكذلك ورد قول أبي الطيب المتنبي ، وهو[١] :

فَافْخَرْ فَإِنَّ النَّاسَ فِيكَ ثَلَاثَةٌ   مُسْتَعْظِمٌ أَوْ حَاسِدٌ أَوْ جَاهِلُ[٢]

فإن المستعظم يكون حاسداً ، والحاسد يكون مستعظما .

ومن شرط التقسيم ألاّ تتداخل أقسامه بعضها في بعض .

ومن هذا الأسلوب ما ورد في أبيات الحماسة ، وهو[٣] :

وَكُنْتَ امْرَأً إِمَّا ائْتَمَنْتُكَ خَالِياً   فَخُنْتَ وَإِمَّا قُلْتَ قَوْلاً بِلَا عِلْمِ[٤]

فَأَنْتَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ أَتَيْتَهُ   بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْخِيَانَةِ وَالْإِثْمِ

فإن الخيانة من الإثم ، وهذا تقسيم فاسد .

ومما جاء من ذلك نثرا قول بعضهم في ذكر منهزمين : فمن جريح متضرج

---

(١) هذا البيت من قصيدة له يمدح فيها القاضي أبا الفضل أحمد بن عبد الله الأنطاكي ، وأولها قوله :

لَكِ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ   أَقْفَرْتِ أَنْتِ وَهُنَّ مِنْكِ أَوَاهِلُ

(٢) كذا في أصول الكتاب ؛ وفي الديوان « يا افخر فإن الناس – إلخ » وقال أبو البقاء في شرحه : « يريد ياهذا افخر ، فحذف المنادى ، كقراءة علي بن حمزة : (أَلَا يَا اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ) ويجوز أن يكون جعله تنبيها بمنزلة ألا ، كقول ذي الرمة :

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَمَيَّ عَلَى الْبِلَى   وَلَا زَالَ مُنْهَلاً بِجَرْعَائِكِ الْقَطْرُ

ومثله في الشعر كثير » اهـ .

(٣) البيتان من شعر الحماسة ، اختارهما أبو تمام ولم ينسبهما لمعين ، ونسبهما التبريزي لعبد الله بن همام السلولي ، وكان قد وشى به واش إلى زياد بن أبي سفيان ، ثم جمع زياد بينهما ، فقال عبد الله للواشي ذينك البيتين .

(٤) الذي في الحماسة وشرحه «وأنت امرؤ إما ائتمنتك – إلخ» انظر شرح التبريزي على الحماسة (٣ – ١٤٢) .

بدمائه ، وهارب لا يلتفت إلى ورائه ؛ فإن الجريح قد يكون هاربا ، والهارب قد يكون جريحا ، ولو قال : فمن بين قتيل ومأسور وناج ؛ لصح له التقسيم ، أو لو قال : فمن بين قتيل ومأسور ؛ لصح له التقسيم أيضاً ؛ لعدم الناجى بينهما .

وقد أحسن البحترى فى هذا المعنى حيث قال :

غَادَرَتْهُمْ أَيْدِى المَنِيَّةِ صُبْحًا ... بِالْقَنَا بَيْنَ رُكَّعٍ وَسُجُودِ

فَهُمُ فِرْقَتَانِ بَيْنَ قَتِيلٍ ... قُنِصَتْ نَفْسُهُ بِحَدِّ الحَدِيدِ

أَوْ أَسِيرٍ غَدَا لَهُ السِّجْنُ لَحْدًا ... فَهْوَ حَىٌّ فى حَالَةِ المَلْحُودِ

فِرْقَةٌ لِلسُّيُوفِ يَنْفُذُ فِيهَا الْـحُكْمُ قَصْدًا وَفِرْقَةٌ لِلْقُيُودِ

ومن فساد التقسيم قول أبى تمام (١) :

وَمَوْقِفٌ بَيْنَ حُكْمِ الذُّلِّ مُنْقَطِعٍ ... صَالِيهِ أَوْ بِحِبَالِ المَوْتِ مُتَّصِلُ (٢)

فإنه جعل صالى هذا الموقف إما ذليلا عنه أو هالكا فيه ، وههنا قسم ثالث ، وهو ألا يكون ذليلا ولا هالكا ، بل يكون مُقْدِما فيه ناجياً .

وفى هذا نظر على من ادعى فساد تقسيمه ؛ فإن أبا تمام قصد الغلو فى وصف هـذا الموقف ، فقال : إن الناس فيه أحد رجلين : إما ذليل عن مورده ، وإما هالك فيه : أى أنه لا ينجو منه أحد يَرِدُه ، وهذا تقسيم صحيح لا فساد فيه .

القسم الثالث : فى ترتيب التفسير ، وما يصح من ذلك وما يفسد .

اعلم أن صحة الترتيب فى ذلك أن يُذْكر فى الكلام معانٍ مختلفة ، فإذا عيد إليها بالذكر لتفسر قدم المقدم وأخر المؤخر ، وهو الأحسن ، إلا أنه قد ورد

---

(١) من قصيدة له يمدح المعتصم بالله ، وأولها قوله :

فَحْوَاكَ عَيْنٌ عَلَى نَجْوَاكَ يَا مَذِلُ ... حَتَّامَ لَا يَتَقَضَّى قَوْلُكَ الخَطِلُ

(٢) فى الديوان (ص ٢٢٨) : « ومشهد بين حكم الذل » .

فى القرآن الكريم وغيره من الكلام الفصيح ولم يُرَاعَ فيه تقديم المقدم ولا تأخير المؤخر؛ كقوله تعالى: (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) ولو قدم تفسير المقدم فى هذه الآية وأخر تفسير المؤخر لقيل: إن يشأ يسقط عليهم كسفاً من السماء أو يخسف بهم الأرض.

وكذلك ورد قوله تعالى: (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ) فقدم المؤخر وأخر المقدم.

والقسمان قد وردا جميعاً فى القرآن الكريم:

فمما روعى فيه تقديم المقدم وتأخير المؤخر قوله تعالى: (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ).

ومن ذلك قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً).

وكذلك قوله تعالى: (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) فلما قدم الليل فى الذكر على النهار قدم سبب الليل، وهو السكون، على سبب النهار، وهو التعيش.

ومن ذلك ما كتبته فى كتاب تعزية، وهو فصل منه، فقلت: ولقد أَوْحَشَت منه المعالى كما أوحشت المنازل، وآمَتِ المكارمُ كما آمت الحَلَائل، وعَمَّتْ لَوْعَة خطبه فما تشتكى ثكلى إلا إلى ثاكل، وما أقول فيمن عدمت

الأرضُ منه حَيَاها ، والمحامد مَحْيَاها ، فلو نطق الجماد بلسان ، أو تصور المعنى لعيان ؛ لأَعْرَبَتْ تلك عن ظمأ صعيدها ، وبرزت هذه حاسرة حول فقيدها .

ومن ذلك ما كتبته فى فصل من كتاب إلى بعض الإخوان ؛ فقلت : وما زالت أيادى سيدنا متنوعة فى زيادة جودها وكتابها ، فهذه مُتَطَوَّلة بترقية وردها وهذه آخذة بسنة أغبابها ، وأحسن مافى الأولى أنها تأتى متحلية بفواضل الإكثار ، وفى الثانية أنها تأتى متحلية بفضائل الاختصار ؛ فاختصار هذه فى فوائد أقلامها ، كتطويل تلك فى عوائد إنعامها ، وقد أصبحت خواطرى مستغرقة بإنشاء القول المبتكر ، فى شكر الفضل المطول وجواب البيان المختصر ، وما جعل الله لها من سلطان البلاغة ما يستقلّ بأداء حقوق تنقل على الرقاب ، ومقابلة بلاغات تثقل على الألباب .

ومما جاء من ذلك شعرًا قول إبراهيم بن العباس (١) :

لَنَا إِبِلٌ كُومٌ يَضِيقُ بِهَا الْفَضَا ... وَيَفْتَرُّ عَنْهَا أَرْضُهَا وَسَمَاؤُهَا

فَمِنْ دُونِهَا أَنْ تُسْتَبَاحَ دِمَاؤُنَا ... وَمِنْ دُونِنَا أَنْ تُسْتَبَاحَ دِمَاؤُهَا (٢)

حِمًى وَقِرًى فَالْمَوْتُ دُونَ مَرَاحِهَا ... وَأَيْسَرُ خَطْبٍ يَوْمَ حَقٍّ فَنَاؤُهَا (٣)

وهذه الأبيات من نادر ما يجىء فى هذا الباب معنى وترتيب تفسير .

ومما جاء منه أيضاً قول أبى تمام (٤) .

---

(١) هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول تكين ، والأبيات الثلاثة فى ديوانه (ص ١٥٣) فى الافتخار .

(٢) فى الديوان « ومن دونها أن يستذم دماؤها » وما هنا أروع .

(٣) فى ا ، ب ، ج « دون مرامها » وهو تصحيف ، وصوابه عن الديوان .

(٤) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ، ويذكر الأفشين ، وأولها قوله :

غَدَا الْمُلْكُ مَعْمُورَ الْحَرَا وَالْمَنَازِلِ ... مُنَوَّرَ وَحْفِ الرَّوْضِ عَذْبَ الْمَنَاهِلِ

الحرا : الجهة والناحية ؛ والوحف : الريان ؛ والمناهل : جمع منهل ، وهو الحوض .

وَمَا هُوَ إلاَّ الْوَحْىُ أَوْ حَدُّ مُرْهَفٍ تَمِيلُ ظُبَاهُ أَخْدَعَىْ كُلِّ مَائِلِ (١)
فَهٰذَا دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ عَالِمٍ وَهٰذَا دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ جَاهِلِ

وكذلك قوله أيضا :

وَكَانَ لَهُمْ غَيْثًا وَعِلْمًا فَمُعْدِمٌ فَيَسْأَلُهُ أَوْ بَاحِثٌ فَيُسَائِلُهْ

وهذا من بديع ما يأتى فى هذا الباب .

ومما ورد منه قول على بن جَبَلة :

فَتًى وقَفَ الْأَيَّامَ بِالسُّخْطِ وَالرِّضَا عَلَى بَذْلِ عُرْفٍ أَوْ عَلَى حَدِّ مُنْصُلِ

ومن الحسن فى هذا الباب قول أبى نواس (٢) :

يُرْجُو وَيَخْشَى حَالَتَيْكَ الْوَرَى كَأَنَّكَ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ

وكذلك ورد قول بعض المتأخرين ، وهو القاضى الأرجانى (٣) :

يَوْمُ الْمُتَيَّمِ فِيكَ حَوْلٌ كَامِلٌ يَتَعَاقَبُ الْفَصْلَانِ فِيهِ إذا أَتَى
ما بَيْنَ حَرِّ جَوًى وَماءِ مَدَامِعٍ إِنْ حَنَّ صَافَ وَإِنْ بَكَى وَجْدًا شَتَا

ومما أخذ على الفرزدق فى هذا الباب قوله (٤) :

---

(١) المرهف : السيف ، والأخدعان : عرقان فى المحجتين ، وظبة السيف : حده .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها العباس بن الفضل بن الربيع ، وأولها قوله :

هَلْ مِنْكَ لِلْمَكْتُومِ إِظْهَارُ أَمْ مِنْكَ تَغْيِيبٌ وَإِنْكَارُ

انظر الديوان (ص ٩١ مصر) .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها الفقيه جمال الدين بن الحسن بن سليمان مدرس النظامية ببغداد ، وأولها قوله :

يَا مُعْرِضًا قَدْ آنَ أَنْ تَتَلَفَّتَا تَعْذِيبُ قَلْبِي الْمُسْتَهَامِ إِلَى مَتَى

انظر الديوان (ص ٦٧ بيروت) .

(٤) البيتان من شواهد سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى (٢٥٤) وهما من قصيدة للفرزدق يقولها فى مقتل هبيرة بن ضمضم القعقاع بن عوف بن القعقاع بن معبد

لَقَدْ جِئْتَ قَوْمًا لَوْ لَجَأْتَ إِلَيْهِمُ طَرِيدَ دَمٍ أَوْ حامِلاً ثِقْلَ مَغْرَمِ (١)
لَأَلْفَيْتَ مِنْهُمْ مُعْطِياً أَوْ مُطَاعِناً وَرَاءَكَ شَزْراً بِالْوَشِيجِ الْمُقَوَّمِ (٢)

لأنه أصاب فى التفسير وأخطأ فى الترتيب ، وذاك أنه أتى بتفسير ما هو أول فى البيت الأول ثانيا فى البيت الثانى ، والأولى أن كان أتى بتفسير ذلك مرتبا ؛ ففسر ما هو أول فى البيت الأول بما هو ثان فى البيت الثانى .

واعلم أن الناظم لا ينكر عليه مثل هذا ما ينكر على الناثر ؛ لأن الناظم يضطره الوزن والقافية إلى ترك الأولى .

وأما فساد التفسير فإنه أقبح من فساد ترتيبه ، وذاك أن يؤتى بكلام ثم يفسر تفسيراً لا يناسبه ، وهو عيب لا تسامح فيه بحال ، وذلك كقول بعضهم (٣) :

فَيَأَيُّهَا الْحَيْرَانُ فِى ظُلْمَةِ الدُّجَى وَمَنْ خَافَ أَنْ يَلْقَاهُ بَغْىٌ مِنَ الْعِدَى
تَعَالَ إِلَيْهِ تَلْقَ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ ضِيَاءً وَمِنْ كَفَّيْهِ بَحْراً مِنَ النَّدَى

ابن زرارة ، وأولها قوله :

وَقَائِلَةٍ وَالدَّمْعُ يَحْدُرُ كُحْلَهَا لَبِئْسَ الْمَدَى أَجْرَى إِلَيْهِ ابْنُ ضَمْضَمِ

(١) كذا فى جميع أصول الكتاب وفى سر الفصاحة ، والذى فى الديوان « لقد خنت قوما — إلخ » وهو أنسب بما قبله ، وهو قوله :

فَلَوْ كُنْتَ صُلْبَ الْعُودِ أَوْ ذَا حَفِيظَةٍ لَوَرَّيْتَ عَنْ مَوْلَاكَ فى لَيْلِ مُظْلِمِ
لَجُرْتَ بِهَادٍ أَوْ لَقُلْتَ لِمُدْلِجٍ مِنَ الْقَوْمِ لَمَّا يَقْضِ نَعْسَتَهُ نَمِ
وَكُنْتَ كَذِئْبِ السُّوءِ لَمَّا رَأَى دَماً بِصَاحِبِهِ يَوْماً أَحَالَ عَلَى الدَّمِ

(٢) كذا فى أصول هذا الكتاب ، وفى سر الفصاحة أيضا (٢٥٥) وفى الديوان « لألفيت فيهم مطعما ومطاعنا » .

(٣) البيتان من شواهد سر الفصاحة (٢٥٥) ، وفيه « فى ظلم الدجى » .

وكان يجب لهذا الشاعر أن يقول بإزاء بغى العدا مايناسبه من النصرة والإعانة ، أو ما جرى مجراهما ؛ ليكون ذلك تفسيرًا له ، كما جعل بإزاء الظلمة الضياء وفسرها به ، فأما أن جعل بإزاء ما يتخوف منه بحرًا من الندى فإن ذلك غير لائق .

النوع الخامس والعشرون

فى الاقتصاد والتفريط والإفراط

اعلم أن هذه المعانى الثلاثة من الاقتصاد والتفريط والإفراط توجد فى كل شىء : من علم ، وصناعة ، وخلق ؛ ولا بد لنا من ذكر حقيقتها فى أصل اللغة حتى يتبين نقلها إلى هذا النوع من الكلام .

فأما الاقتصاد فى الشىء فهو من الْقَصْد الذى هو الوقوف على الوسط الذى لايميل إلى أحد الطرفين ، قال الله تعالى : (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) فظلم النفس والسبق بالخيرات طرفان ، والاقتصاد وسط بينهما ، وقال تعالى : (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) فالإسراف والإقتار طرفان ، والْقَوَام وسط بينهما ، وقال الشاعر (١) :

عَلَيْكَ بِالْقَصْدِ فِيمَا أَنْتَ فَاعِلُهُ ... إِنَّ التَّخَلُّقَ يَأْتِى دُونَهُ الْخُلُقُ

---

(١) هذا البيت لسالم بن وابصة ، وهو من شعر الحماسة ، وانظر شرح التبريزى (٢ - ٢٣٦) ، وقد روى ابن منظور فى لسان العرب (خ ل ق) هذا البيت على وجه آخر ونسبه لسالم بن وابصة أيضا ، وهو :

يَأَيُّهَا الْمُتَحَلِّى غَيْرَ شِيمَتِهِ ... إِنَّ التَّخَلُّقَ يَأْتِى دُونَهُ الْخُلُقُ

وأما التفريط فهو التقصير والتضييع ، ولهذا قال الله تعالى : (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) أى : ما أهملنا ولا ضيعنا .

وأما الإفراط فهو : الإسراف وتجاوُز الحد ، يقال : أفرط فى الشىء ؛ إذا أسرف وتجاوز الحد .

والتفريط والإفراط هما الطرفان البعيدان ، والاقتصادُ هو الوسط المعتدل ؛ وقد نُقِلَتْ هٰذه المعانى الثلاثة إلى هذا النوع من علم البيان .

أما الاقتصاد فهو : أن يكونَ المعنى المضمر فى العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه فى منزلته .

أما التفريط والإفراط فهما ضدان : أحدهما : أن يكون المعنى المضمر فى العبارة دون ما تقتضيه منزلة المعبر عنه ، والآخر : أن يكون المعنى فوق منزلته .

والتفريطُ فى إيراد المعانى الْخَطَابية قبيحٌ لا يجوز استعماله بوجه من الوجوه ، والإفراط يجوز استعماله ؛ فمنه الحسن ، ومنه دون ذلك .

فمما جاء من التفريط قول الأعشى[(١)] :

وَمَا مُزْبِدٌ مِنْ خَلِيجِ الفُرَا تِ جَوْنٌ غَوَارِبُهُ تَلْتَطِمْ[(٢)]

---

(١) البيتان من قصيدة للأعشى ميمون بن قيس ، وأولها قوله :

أَتَهْجُرُ غَانِيَةً أَمْ تُلِمْ أَمِ الْحَبْلُ وَاهٍ بِهَا مُنْجَذِمْ

أَمِ الصَّبْرُ أَحْجَى فَإِنَّ امْرَأً سَيَنْفَعُهُ عِلْمُهُ إِنْ عَلِمْ

انظر ديوانه (ص ٢٨ طبع بيانة) .

(٢) المزبد : الموج ، وأراد به ماءه ، والجون : الأسود ، وإذا وصف الماء بالسواد فعلى أنه كثير ، والغوارب : جمع غارب ، وغارب كل شىء : أعلاه . والبيتان غير متصلين فى الديوان ، وبينهما قوله :

يَكُبُّ الخَلِيَّةَ ذَاتَ الْقِلاَ عِ قَدْ كَادَ جُؤْجُؤُهَا يَنْحَطِمْ

تَكَأْكَأَ مَلاَّحُهَا وَسْطَهَا مِنَ الخَوْفِ كَوْثَلَهَا يَلْتَزِمْ

الخلية : السفينة الكبيرة ، والقلاع : الشراع ، وجؤجؤها : صدرها ، وينحطم :

بأجْوَدَ مِنْـــــهُ بِمَاعُونِهِ إذا مَا سَمَـــاؤُهُمُ لَمْ تُغِمْ[(١)]

فإنه مدح ملكاً بالجود بِمَاعُونِهِ ، والماعُون : كل ما يُسْتَعار من قدوم أو قَصْعَة أو قِدْرٍ ، أو ما أشبه ذلك ، وليس الملوك فى بذله مدح ، ولا لأوساط الناس أيضاً ، وفى مدح السوقة به قولان ، ومدح الملوك به عيب وذم فاحش ، وهذا من أقبح التفريط .

ومما يجرى هذا المَجْرَى قول الفرزدق[(٢)] :

أَلاَ لَيْتَنَا كُنَّا بَعِيرَيْنِ لاَ نَرِدْ عَلَى حَاضِرٍ إلاَّ نُشَلُّ وَنُقْذَفُ[(٣)]

كِلاَنَا بِهِ عُرٌّ يُخَافُ قِرَافُهُ عَلَى النَّاسِ مَطْلِيُّ المَسَاعِرِ أَخْشَفُ[(٤)]

يتكسر ، وتكأكأ : تمايل ، أو تأخر ، وانتصب « وسطها » على الظرفية ، وانتصب « كوثلها » لأنه مفعول مقدم ليلتزم .

(١) هذه رواية أبى عبيدة فى هذا البيت وفسر الماعون بالعطية ، ورواه ثعلب :

بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا عِنْدَهُ إِذَا ما سَمَاؤُهُمُ لَمْ تُغِمْ

(٢) هذان البيتان من قصيدة له أولها قوله :

عَزَفْتَ بِأَعْشَاشٍ وَما كِدْتَ تَعْزِفُ وَأَنْكَرْتَ مِنْ حَدْرَاءَ ما كُنْتَ تَعْرِفُ

يريد انصرفت نفسك عما كنت فيه من باطلك ، وحدراء : امرأته .

(٣) رواية الديوان والنقائض « فياليتنا كنا بعيرين لانرد على منهل » وذكر شارح النقائض أنه يروى « لانرى على حاضر » والمنهل : الماء فى الآبار ، والحاضر : أصله القوم عند الماء ، وأراد منه ههنا الماء ، ونشل : نطرد ، ونقذف: نرمى بالحجارة

(٤) العر ــ بفتح العين ــ الجرب ، والعر ــ بضم العين ــ قرح ليس بالجرب ، وقوله « يخاف قرافه » يعنى يتقى لئلا يعديها بجربه ؛ ووقع فى ا ، ب ، ج « مجاف قرافه » وهو تحريف . والمساعر : أصول الفخذين والإبطين ، ووقع فى ا ، ب ، ج « المشاعر » وأخشف : يابس الجلد من الجرب ، و بعد البيتين قوله :

بِأَرْضٍ خَلاَءٍ وَحْدَنَا ، وَثِيَابُنَا مِنَ الرَّيْطِ وَالدِّيبَاجِ دِرْعٌ وَمِلْحَفُ

وَلاَ زَادَ إلاَّ فَضْلَتَانِ سُلاَفَةٌ وَأَبْيَضُ مِنْ ماءِ الْغَمَامَةِ قَرْقَفُ

هذا رجل ذَهَب عقله حين نظم هذين البيتين ؛ فإن مُرَاده منهما التغزل بمحبوبه ، وقد قصر تمنيه على أن يكون هو ومحبوبه كبعيرين أجْرَبَيْن : لا يقرَبُهما أحد ، ولا يقرُبَان أحداً ، إلا طردهما ، وهذا من الأمانىّ السخيفة ، وله فى غير هذه الأمنية مَنْدُوحات كثيرة ، وما أشبه هذا بقول القائل :

يَارَبِّ إنْ قَدَّرْتَهُ لِمُقبِّلٍ ... غَيْرِى فَلِلأَقْدَاحِ أَوْ لِلأَكْؤُسِ

وَإِذَا حَكَمْتَ لَنَا بِعَيْنِ مُرَاقِبٍ ... فِى الدَّهْرِ فَلْتَكُ مِنْ عُيُونِ النَّرْجِسِ

فانظر كم بين هاتين الأمنيتين .

ومما أخذ على أبى نُواس فى قصيدته الميمية الموصوفة التى مدح بها الأمين محمد بن الرشيد ، وهو قوله[1] :

وَأَشْلاَءُ لَحْمٍ مِنْ حُبَارَى يَصِيدُهَا ... إِذَا نَحْنُ شِئْنَا صَاحِبٌ مُتَأَلِّفُ

لَنَا مَا تَمَنَّيْنَا مِنَ الْعَيْشِ مَا دَعَا ... هَدِيلاً حَمَامَاتٌ بِنَعْمَانَ هُتَّفُ

وقد تبع كثير عزة الفرزدق فى هذه الأمنية حيث يقول :

وَدِدْتُ وَبَيْتِ اللهِ أَنَّكِ بَكْرَةٌ ... وَأَنِّى هِجَانٌ مُصْعَبٌ ثُمَّ نَهْرُبُ

كِلاَنَا بِهِ عَرٌّ فَمَنْ يَرَنَا يَقُلْ ... عَلَى حُسْنِهَا جَرْبَاءُ تُعْدِى وَأَجْرَبُ

نَكُونُ لِذِى مَالٍ كَثِيرٍ مُغَفَّلٍ ... فَلاَ هُوَ يَرْعَانَا وَلاَ نَحْنُ نُطْلَبُ

إِذَا مَاوَرَدْنَا مَنْهَلاً صَاحَ أَهْلُهُ ... عَلَيْنَا فَلاَ نَنْفَكُّ نُرْمَى وَنُضْرَبُ

ويروى أن عزة حين سمعت ذلك قالت : لقد أردت بنا الشقاء ! أما وجدت أمنية أوطأ من هذه ؟ ! . وأقبح من هذين ومن كل أمنية قول الآخر :

سَلاَمَ ؛ لَيْتَ لِسَانًا تَنْطِقِينَ بِهِ ... قَبْلَ الَّذِى نَالَهُ مِنْ صَوْتِهِ قُطِعَا

(١) هو من قصيدة له أولها قوله :

يَا دَارُ ، مَا فَعَلَتْ بِكِ الأَيَّامُ ؟ ... ضَامَتْكِ ، وَالأَيَّامُ لَيْسَ تُضَامُ

أَصْبَحْتَ يَا بْنَ زُبَيْدَةَ ٱبْنَةِ جَعْفَرٍ ... أَمَلاً لِعَقْدِ حِبَالِهِ ٱسْتِحْكَامُ (١)

فإن ذكر أمّ الخليفة فى مثل هذا الموضع قبيح .

وكذلك قوله فى موضع آخر (٢) .

وَلَيْسَ كَجَدَّتَيْهِ أُمِّ مُوسَى ... إِذَا نُسِبَتْ وَلَا كَالْخَيْزُرَانِ (٣)

وهذا لغو من الحديث لا فائدة فيه ؛ فإن شرف الأنساب إنما هو إلى الرجال ، لا إلى النساء ، وياليت شعرى أما سمع أبو نواس قَوْلَ قُتَيْلَة بنت النضر فى النبى صلى ٱلله عليه وسلم (٤) :

أَمُحَمَّدٌ ؛ وَلَأَنْتَ نَجْلُ كَرِيمَةٍ ... مِنْ قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ

مَا كَانَ ضَرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرُبَّمَا ... مَنَّ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيظُ الْمُحْنَقُ

فإنها ذكرت الأم بغير اسم الأم ، وأبرزت هذا الكلام فى هذا اللباس الأنيق .

وكذلك فليكن المادح إذا مدح ، وأبو نواس ـ مع لطافة طبعه ، وذكائه ، وما كان يوصف به من الفطنة ـ قد ذهب عليه مثل هذا الموضع مع ظهوره .

---

(١) بعد هذا البيت قوله :

فَسَلِمْتَ لِلْأَمْرِ ٱلَّذِى تُرْجَى لَهُ ... وَتَقَاعَسَتْ عَنْ يَوْمِكَ الْأَيَّامُ

(٢) هو من كلمة له أولها قوله :

رَضِينَا بِالْأَمِينِ عَنِ الزَّمَانِ ... فَأَضْحَى الْمُلْكُ مَعْمُورَ الْمَكَانِ

تَمَنَّيْنَا عَلَى الْأَيَّامِ شَيْئًا ... فَقَدْ بَلَّغْتَنَا تِلْكَ الْأَمَانِى

(٣) موسى : هو موسى الهادى أمير المؤمنين ابن المهدى ، والخيزران : زوج المهدى ، وأم هرون الرشيد .

(٤) من كلمة رواها ابن إسحاق فى السيرة ؛ انظر سيرة ابن هشام : (٢ ـ ٤٢٠) ورواها أبو تمام فى باب المراثى من ديوان الحماسة ؛ وانظر شرح التبريزى (٣ ـ ١٧) وأول هذه الكلمة قولها :

وليس لقائل أن يعترض على ما ذكرته بقوله تعالى حكاية عن موسى وأخيه هرون عليهما السلام : (قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي) فإن الفرق بين الموضعين ظاهر ؛ لأن المنكر على أبى نُوَاس إنما هو التلفظ باسم الأم ، وهى زُبَيْدَة ، وكذلك اسم الجدة ، وهى الخَيْزُرَان ، وليس كذلك ما ورد فى الآية .

فإن قيل : قد ورد فى القرآن الكريم ما يسوّغ لأبى نواس مقالته ، وهو قوله تعالى : (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ) فناداه باسم أمه .

قلت : الجواب عن ذلك من وجهين : أحدهما أن عيسى عليه السلام لم يكن له أب ، فنودى باسم أمه ضرورةً ؛ إذ لو كان له أب لنودى باسم أبيه ؛ الوجه الآخر : أن هذا النداء إنما هو من الأعلى إلى الأدنى ؛ إذ الله سبحانه وتعالى هو الربُّ ، وعيسى عليه السلام عبده ، وهذا لا يكون تفريطا ؛ لأنه لم يعبر عنه بما هو دون منزلته .

على أن أبا نواس لم يوقعه فى هذه العثرة إلا ماسمعه عن جرير فى مدح عمر بن عبد العزيز ، كقوله[1] :

يَا رَاكِباً إِنَّ الْأُثَيْلَ مَظِنَّةٌ ... مِنْ صُبْحِ خَامِسَةٍ وَأَنْتَ مُوَفَّقُ
بَلِّغْ بِهِ مَيْتاً ؛ فَإِنَّ تَحِيَّةً ... مَا إِنْ تَزَالُ بِهَا الرَّكَائِبُ تَخْفِقُ
مِنِّي إِلَيْهِ وَعَبْرَةً مَسْفُوحَةً ... جَادَتْ لِمَائِحِهَا وَأُخْرَى تَخْنُقُ

وكان النبى صلى الله عليه وسلم قتل النضر بن كنانة بعد غزاة بدر ، ويروى أنه لما سمع كلمتها هذه قال : « لو سمعنا كلامها قبل قتله لتركناه لها » .

(١) من قصيدة له أولها قوله :

أَبَتْ عَيْنَاكَ بِالْحَسَنِ الرُّقَادَا ... وَأَنْكَرْتَ الْأَصَادِقَ وَالْبِلَادَا

وَتَبْنِي المَجْدَ يَا عُمَرَ ابْنَ لَيْلَى ... وَتَكْفِي المُمْحِلَ السَّنَةَ الجَمَادَا(١)

وكذلك قال فيه كثير عزة أيضاً(٢) .

وليس المعيب من هذا بخافٍ ؛ فإن العرب قد كان يعير بعضها بعضاً بنسبته إلى أمه دون أبيه ، ألا ترى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقال له : ابن حَنْتَمَةَ ، وإنما كان يقول ذلك من يَغُضُّ منه ، وأما قول النبى صلى الله عليه وسلم للزبير بن صفية : «بَشِّرْ قَاتِلَ ابْنِ صَفِيَّةَ بِالنَّارِ» فإن صفية كانت عمة النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما نسبه إليها رَفْعاً لقدره فى قرب نسبه منه ، وأنه ابن عمته ، وليس هذا كالأول فى الغض من عمر رضى الله عنه فى نسبه إلى أمه .

وقد عاب بعض من يتهم نفسه بالمعرفة قول أبى نواس فى قصيدته السينية التى أولها :

* نَبِّهْ نَدِيمَكَ قَدْ نَعَسْ(٣) *

فقال من جملتها :

وَرِثَ الخِلَافَةَ خَامِساً ... وَبِخَيْرِ سَادِسِهِمْ سَدَسْ

قال : وفى ذكر السادس نظر ، ويا عجبا له ! مع معرفته بالشعر كيف ذهب عليه

---

(١) قبل هذا البيت قوله :

هَنِيئًا لِلْمَدِينَةِ إذْ أَهَلَّتْ ... بِأَهْلِ المُلْكِ أَبْدَأَ ثُمَّ عَادَا

يَعُودُ الحِلْمُ مِنْكَ عَلَى قُرَيْشٍ ... وَتَفْرُجُ عَنْهُمُ الكُرَبَ الشِّدَادَا

وَقَدْ لَيَّنْتَ وَحْشَهُمُ بِرِفْقٍ ... وَتُعْيِي النَّاسَ وَحْشُكَ أَنْ تُصَادَا

وابن ليلى : هو عبد العزيز بن مروان أبو عمر بن عبد العزيز .

(٢) فى جميع النسخ بدون ذكر شعر كثير عزة ، وكثير يذكر «ابن ليلى» كثيرا فى مدیحه لعبد العزيز بن مروان ؛ فمن ذلك قوله :

فَبُورِكَ مَا أَعْطَى ابْنُ لَيْلَى بِنِيَّةٍ ... وَصَامِتُ مَا أَعْطَى ابْنُ لَيْلَى وَنَاطِقُهْ

(٣) لم أقف على هذه القصيدة فى شعر أبى نواس .

هذا الموضع ؟ أما قرأ سورة الكهف ، يريد قوله تعالى : (وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ) وهذا ليس بشىء ؛ لأنه قد ورد فى القرآن الكريم ما ينقضه ، وهو قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ) .

ومما عبته على البحترى قوله فى مدح الفتح بن خاقان فى قصيدته المشهورة عند لقائه الأسد التى مطلعها :

* أَجِدَّكَ مَا يَنْفَكُّ يَسْرِي لِزَيْنَبَا[(١)] *

فقال :

شَهِدْتُ لَقَدْ أَنْصَفْتَهُ حِينَ تَنْبَرِى　　　لَهُ مُصْلِتاً عَضْباً مِنَ الْبِيضِ مِقْضَبَا[(٢)]
فَلَمْ أَرَ ضِرْغَامَيْنِ أَصْدَقَ مِنْكُمَا　　　عِرَاكاً إِذَا الْهَيَّابَةُ النِّكْسُ كَذَّبَا[(٣)]

قوله « إذا الهيابة النكس » تفريط فى المدح ، بل كان الأولى أن يقول : إذا البطل كذب ، و إلافأىُّ مدح في إقدام المُقْدِمِ فى الموضع الذى يَفِرُّ منه الجبان ؟ وألاَّ [قال] كما قال أبو تمام[(٤)] :

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* خَيَالٌ إِذَا آبَ الظَّلَامُ تَأَوَّبَا *

(٢) وقع فى ا ، ب ، ج « حين تبترى » وهو تحريف ، وصوابه عن الديوان .

(٣) بعد هذا البيت قوله :

لِهِزَبْرٌ مَشَى يَبْغِي هِزَبْراً وَأَغْلَبٌ　　　مِنَ الْقَوْمِ يَغْشَى بَاسِلَ الْوَجْهِ أَغْلَبَا
أَدَلَّ بِشَغْبٍ ثُمَّ هَالَتْهُ صَوْلَةٌ　　　رَآكَ لَهَا أَمْضَى جَنَاناً وَأَشْغَبَا
فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْمَعاً　　　وَأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبَا

(٤) من قصيدة له يرثى فيها أبا نصر محمد بن حميد الطائى ، وأولها قوله :

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِي وَإِنْ كَانَ أَسْمَعَا　　　وَأَصْبَحَ مَغْنَى الْجُودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا

فتى كلما ارتاد الشجاعُ من الردى مفرًّا غداة المأزق ارتاد مصرعا(١)

وعلى أسلوب البحترى ورد قول بعضهم من شعراء الحماسة(٢) :

وإنى لقوّالٌ لعافىّ مرحبا وللطالب المعروفَ إنك واجدُهْ

وإنى لمن أبسط الكف بالندى إذا شنجت كفُّ البخيل وساعدُهْ(٣)

وهذا معيبٌ من جهة أنه لا فضلَ فى بسط يده عند قبضِ يد البخيل ، وإنما الفضيلة فى بسطها عند قبض الكرام أيديهم .

ومن هذا الباب قول أبى تمام(٤) :

---

(١) بعد هذا البيت قوله :

إذا ساء يومٌ فى الكريهة منظرًا تصلاه علمًا أن سيحسن مسمعا

فإن ترم عن عمرٍ تدانى به المدى فخانك حتى لم تجد فيه منزعا

فما كنت إلا السيف لاقى ضريبة فقطعها ثم انثنى فتقطعا

(٢) البيتان لإياس بن الأرتّ ، وهما من شعر الحماسة الذى اختاره أبو تمام ، وانظر شرح التبريزى (٤ – ٢١٨) .

(٣) ذكر التبريزى أنه يروى « وإنى لمما أبسط الكف » ورواية أبى تمام « وإنى لمن يبسط الكف بالندى » والشنج – بفتح الشين والنون – تقبض اليد وغيرها يبسا ، وقد شنج يشنج ، مثل فرح يفرح . وبعد هذين البيتين قوله :

لعمرُكَ ما تدرى أمامةُ أنها ثنىّ من خيالٍ ما أزال أعاودُهْ

فشقّت على ركبى وعنّت ركائبى وردّت علىّ الليل قرنا أكابدُهْ

(٤) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد ، وأولها قوله :

ما عهدنا كذا بكاء المشوقِ كيف والدمع آية المعشوقِ

فأقلا التعنيف إن غراما أن يكون الرفيق غير رفيقِ

واستميحا الجفون درة دمعٍ فى دموع الفراق غير لصيقِ

وانظر الديوان (ص ٢١٥ بيروت) .

يَقِظٌ وَهْوَ أَكْثَرُ النَّاسِ إِغْضَا ءً عَلَى نَائِلٍ لَهُ مَسْرُوقِ (١)

فإنه أراد أن يمدح فذم .

ومما هو أقبح من ذلك قوله أيضاً (٢) :

تُثَفَّى الحَرْبُ مِنْهُ حِينَ تَغْلِي مَرَاجِلُهَا بِشَيْطَانٍ رَجِيمِ (٣)

---

(١) قبل هذا البيت قوله :

لاَ يَجُوزُ الْأُمُورَ صَفْحًا وَلاَ يُرْ قِلُ إِلاَّ عَلَى سَوَاءِ الطَّرِيقِ

فَتَنَاهَوْا ؛ إِنَّ الخَلِيقَ مِنَ القَوْ مِ بِذَاكَ الفَعَالِ غَيْرُ خَلِيقِ

مَلَكَتْ مَالَهُ المَعَالِي فَمَا تَلْـ ـقَاهُ إِلاَّ فَرِيسَةً لِلْحُقُوقِ

ثم البيت الذى ذكره المؤلف ، و بعده قوله :

أَنَا وَلْهَانُ فِى وِدَادِكَ مَا عِشْـ ـتُ وَنَشْوَانُ فِيكَ غَيْرُ مُفِيقِ

رَاحَتِى فِى الثَّنَاءِ مَا بَقِيَتْ لِى فَضْلَةٌ مِنْ لِسَانِىَ المَفْتُوقِ

فَأْغْنَ بِالنِّعْمَةِ الَّتِى هِىَ كَالحَوْ رَاءِ لاَ فَارِكٍ وَلاَ بِعَلُوقِ

بَعْلُهَا يَأْمَنُ النُّشُوزَ عَلَيْهَا وَهْىَ فِى مَأْمَنٍ مِنَ التَّطْلِيقِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها بعض بنى عبد الكريم الطائيين ، وأولها قوله :

أَرَامَةُ ؛ كُنْتِ مَأْلَفَ كُلِّ رِيمِ لَوِ اسْتَمْتَعْتِ بِالْأُنْسِ المُقِيمِ

(٣) تثفى : تجعل لها أثافى ، وهى حجارة تنصب ليوضع عليها القدر ، والمراجل : جمع مرجل ، بزنة منبر ، وهى القدر ، ووقع فى ا ، ب ، ج « ينقى الحرب » وهو تحريف ، وقبل هذا البيت قوله :

سَفِيهُ الرُّمْحِ جَاهِلُهُ ، إِذَا مَا بَدَا فَضْلُ السَّفِيهِ عَلَى الحَلِيمِ

إِذَا مَا قِيلَ : أُرْعِفَتِ العَوَالِى ؛ فَلَيْسَ المُرْعَفَاتُ سِوَى الكُلُومِ

إِذَا مَا الضَّرْبُ حَشَّ الحَرْبَ أَبْدَى أَغَرَّ الرَّأْىِ فِى الخَطْبِ البَهِيمِ

وقد استعمل هذا فى شعره حتى أفحش ، كقوله(١) :

أَنْتَ دَلْوٌ وَذُو السَّمَاحِ أَبُو مُو سَى قَلِيبٌ وَأَنْتَ دَلْوُ الْقَلِيبِ

ومراده من ذلك أنه جعله سببا لعطاء المشار إليه كما أن الدلو سبب فى امْتِيَاح الماء من القليب ، ولم يبلغ هذا المعنى من الإغراب إلى حدٍّ يدندن أبو تمام حوله هذه الدَّنْدَنة ، ويلقيه فى هذا المثال السخيف ، على أنه لم يقنع بهذه السقطة القبيحة فى شعره ، بل أوردها فى مواضع أخرى منه ؛ فمن ذلك قوله(٢) :

مَا زَالَ يَهْذِى بِالْمَكَارِمِ وَالْعُلاَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ مَحْمُومُ(٣)

فإنه أراد أن يبالغ فى ذكر الممدوح باللهج بالمكارم والعلا ، فقال « ما زال يهذى » وما أعلم ما كانت حاله عند نظم هذا البيت .

وعلى نحو منه جاء قول بعض المتأخرين :

وَيَلْحَقُهُ عِنْدَ الْمَكَارِمِ هِزَّةٌ كَمَا انْتَفَضَ الْمَجْهُودُ مِنْ أُمِّ مَلْدَمِ

وهذا وأمثاله لا يجوز استعماله ، وإن كان المعنى المقصود به حسنا ، وكم ممن يتأول معنى كريما فأساء فى التعبير عنه حتى صار مذموما ، كهذا وأمثاله .

ومن أحسن ما قيل فى مثل هذا الموضع قول ابن الرومى :

---

(١) البيت فى الصناعتين (ص ٢٨٠ الآستانة) منسوبا له ، وبعده قوله :

أَيُّهَا الدَّلْوُ لاَ عَدِمْتُكَ دَلْوًا مِنْ جِيَادِ الدِّلاَءِ صُلْبَ الصَّلِيبِ

ومن هذا المعنى أيضا قول أبى تمام من قصيدة له يرثى فيها إسحاق بن أبى ربعى .

إِذَا تَيَمَّمْنَاهُ فِى مَطْلَبٍ كَانَ قَلِيباً وَرِشَاءَ الْقَلِيبِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا الحسين محمد بن شبابة بن الهيثم ، وأولها قوله :

أَسْقَى طُلُولَهُمُ أَجَشُّ هَزِيمُ وَغَدَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةٌ وَنَعِيمُ

(٣) قبل هذا البيت قوله :

لِلَّهِ كَفُّ مُحَمَّدٍ وَوِلاَدُهَا بِالْبَذْلِ إِذْ بَعْضُ الأَكُفِّ عَقِيمُ

ذَهَبَ الَّذِينَ تَهُزُّهُمْ مُدَّاحُهُمْ هَزَّ الكُمَاةِ عَوَالِيَ المُرَّانِ
كَانُوا إِذَا مُدِحُوا رَأَوْا مَا فِيهِمُ فَالأَرْيَحِيَّةُ مِنْهُمُ بِمَكَانِ

ومن شاء أن يمدح فليمدح هكذا ، وإلا فليسكت .

ووجدت أبا بكر محمد بن يحيى المعروف بالصولى قد عاب على حسان بن ثابت رضى الله عنه قوله :

لَنَا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي الضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا (١)

مُتَفَجِّرٌ نَادَمْتُهُ فَكَأَنَّنِي لِلدَّلْوِ أَوْ لِلْمِرْزَمَيْنِ نَدِيمُ
غَيْثٌ حَوَى كَرَمَ الطَّبَائِعِ دَهْرَهُ وَالغَيْثُ يَكْرُمُ مَرَّةً وَيَلُومُ

(١) بعد هذا البيت قوله :

مَتَى مَا تَزُرْنَا مِنْ مَعَدٍّ بِعُصْبَةٍ وَغَسَّانَ نَمْنَعْ حَوْضَنَا أَنْ يُهَدَّمَا
أَبَى فِعْلُنَا المَعْرُوفَ أَنْ نَنْطِقَ الخَنَى وَقَائِلُنَا بِالعُرْفِ إِلَّا تَكَلُّمَا
وَلَدْنَا بَنِي العَنْقَاءِ وَابْنَيْ مُحَرِّقٍ فَأَكْرِمْ بِنَا خَالًا وَأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا

وقد روى أبو عبيدة قال : قال إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبى وقاص : قدم الفرزدق المدينة فى إمرة أبان بن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قال : فإنى والفرزدق وكثير عزة لجلوس فى المسجد نتناشد الأشعار إذ طلع علينا غلام شخت آدم فى ثو بين ممصرين ، ثم قصد نحونا حتى انتهى إلينا ، فلم يسلم ، وقال : أيكم الفرزدق ؟ قال إبراهيم بن محمد : فقلت له مخافة أن يكون من قريش : أهكذا تقول لسيد العرب وشاعرها ؟! قال: لو كان كذلك لم أقل له هذا ، فقال له الفرزدق : من أنت ياغلام ؟ لا أمّ لك ! قال : رجل من الأنصار ، ثم من بنى النجار ، ثم أنا ابن أبى بكر بن حزم ، بلغنى أنك تقول : إنك أشعر العرب ، قال : وتزعمه مضر! وقد قال حسان بن ثابت شعرا ، فأردت أن أعرضه عليك وأؤجلك فيه سنة ؛ فإن قلت مثله فأنت أشعر العرب ، وإلا فأنت كذاب منتحل ؛ ثم أنشده الأبيات الأربعة التى ذكرناها . وقد حكى قدامة بن جعفر الكاتب فى نقد الشعر (ص ١٨) ماورد على البيت الأول منها من النقد ، ورده ، فارجع إليه هناك .

وقال : إنه جمع الجفنات والأسياف جمع قلة ، وهو فى مقام فخر ، وهذا مما يحطُّ من المعنى ويضَع منه ، وقد ذهب إلى هذا غيره أيضا ، وليس بشىء ؛ لأن الغرض إنما هو الجمع ؛ فسواء أكان جمع قلة أم جمع كثرة ، ويدل على ذلك قوله تعالى : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) أفترى نعم الله كانت قليلة على إبراهيم صلوات الله عليه ، وكذلك ورد قوله عز وجل فى سورة النمل : (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) فقال : (واستيقنتها أنفسهم) فجمع النفس جمع قلة ، وما كان قوم فرعون بالقليل حتى تجمع نفوسهم جمع قلة ، بل كانوا مئين ألوفا ، وهذا أيضا مما يبطل قول الصولى وغيره فى مثل هذا الموضع ؛ وكذلك ورد قوله عز وجل : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا) والنفوس المتوفاة والنائمة لا ينتهى إلى كثرتها كثرة ؛ لأنها نفوس كلِّ مَنْ فى العالَم .

واعلم أن للمدح ألفاظا تخصُّه ، وللذم ألفاظا تخصُّه ، وقد تعمَّق قوم فى ذلك حتى قالوا : من الأدب ألاّ تخاطب الملوكَ ومَنْ يقاربهم بكاف الخطاب ، وهذا غلط بارد ؛ فإن الله الذى هو ملك الملوك قد خوطب بالكاف فى أول كتابه العزيز فقيل : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وقد ورد أمثال هذا فى مواضع من القرآن غير محصورة ، إلا أنى قد راجعت نظرى فى ذلك ، فرأيت الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، والعوائد لاحكم لها ، ولا شكّ أن العادة أوجبت للناس مثل هذا التعمق فى ترك الخطاب بالكاف ، لكنى تأملت أدبَ الشعراء والكتّاب فى هذا الموضع فوجدتُ الخطاب لا يُعاب فى الشعر ويعاب فى الكتابة إذا كان

المخاطب دون المخاطب درجة ، وأما إن كان فوقه فلا عَيْبَ فى خطابه إياه بالكاف ؛ لأنه ليس من التفريط فى شىء .

فمن خطاب الكاف قول النابغة(١) :

وَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِى هُوَ مُدْرِكِى ... وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ(٢)

وكذلك قوله أيضاً(٣) :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ(٤)

وعليه جاء قول بعض المتأخرين أيضاً ؛ فقال أبو نواس(٥) :

---

(١) من قصيدة له يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر ، ويتنصل مما وشى به إليه ؛ وأولها قوله :

عَفَا ذُو حُسًى مِنْ فَرْتَنَى فَالْفَوَارِعُ ... فَشَطَّا أَرِيكٍ فَالتِّلَاعُ الدَّوَافِعُ

(٢) صواب الإنشاد « فإنك كالليل » ، وقبل هذا البيت قوله :

فَإِنْ كُنْتُ لَاذُو الضِّغْنِ عَنِّى مُكَذَّبٌ ... وَلَا حَلِفِى عَلَى الْبَرَاءَةِ نَافِعُ

وَلَا أَنَا مَأْمُونٌ بِشَىْءٍ أَقُولُهُ ... وَأَنْتَ بِأَمْرٍ لَا مَحَالَةَ وَاقِعُ

(٣) هو من كلمة أخرى يعتذر فيها إلى النعمان ، وهى من عيون شعره ، وأولها قوله :

أَتَانِى أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَنَّكَ لُمْتَنِى ... وَتِلْكَ الَّتِى أَهْتَمُّ مِنْهَا وَأَنْصَبُ

فَبِتُّ كَأَنَّ الْعَائِدَاتِ فَرَشْنَ لِى ... هَرَاسًا بِهِ يُعْلَى فِرَاشِى وَيُقْشَبُ

(٤) هذا البيت هو الثالث من الكلمة ، وقبله البيتان السابقان ، و بعده قوله :

لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّى وِشَايَةً ... لَمُبْلِغُكَ الْوَاشِى أَغَشُّ وَأَكْذَبُ

وَلَٰكِنَّنِى كُنْتُ امْرَأً لِىَ جَانِبٌ ... مِنَ الْأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ

مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا أَتَيْتُهُمْ ... أُحَكَّمُ فِى أَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ

كَفِعْلِكَ فِى قَوْمٍ أَرَاكَ اصْطَفَيْتَهُمْ ... فَلَمْ تَرَهُمْ فِى مَدْحِهِمْ لَكَ أَذْنَبُوا

(٥) من قصيدة له يمدح فيها الفضل بن الربيع ، وأولها قوله :

لِمَنْ دِمَنٌ تَزْدَادُ حُسْنَ رُسُومِ ... عَلَى طُولِ مَا أَقْوَتْ وَطِيبَ نَسِيمِ

إلَيْكَ أبَا المَنْصُورِ عَذَّبْتُ نَاقَتِي ... زِيَارَةَ خِلٍّ وَامْتِحَانَ كَرِيمِ (١)

لِأعْلَمَ مَا تَأْتِي وَإنْ كُنْتُ عَالِمًا ... بِأنَّكَ مَهْمَا تَأْتِ غَيْرُ مَلُومِ (٢)

وكذلك ورد قول السلامى :

إلَيْكَ طَوَى عُرْضَ البَسِيطَةِ جَاعِلٌ ... قُصَارَى المَطَايَا أنْ يَلُوحَ لَهَا القَصْرُ (٣)

وَبَشَّرْتُ آمَالِي بِمَلْكٍ هُوَ الوَرَى ... وَدَارٍ هِيَ الدُّنْيَا وَيَوْمٍ هُوَ الدَّهْرُ

وعليه ورد قول البحترى (٤) :

وَلَقَدْ أتَيْتُكَ طَالِبًا فَبَسَطْتَ مِنْ ... أمَلِي وَأطْلَبَ جُودُ كَفِّكَ مَطْلَبِي (٥)

وجُلُّ خطاب الشعراء للممدوحين إنما هو بالكاف ، وذلك محظور على الكتاب ؛ فإنه ليس من الأدب عندهم أن يخاطب الأدنى الأعلى بالكاف ، وإنما يخاطبه مخاطبة الغائب ، لامخاطبة الحاضر ، على أن هذا الباب بجملته يوكل النظر فيه إلى فَطَانة الخطيب والشاعر ، وليس مما يوقف فيه على المسموع خاصة .

ومن ألطف ما وجدته أنك إذا خاطبت الممدوح أن تترك الخطاب بالأمر

(١) كذا فى ا ، ب ، ج ؛ وفى الديوان « عديت ناقتى » ، وفيه « زيادة ود وامتحان كريم » .

(٢) فى ا ، ب ، ج « لأعلم مايأتى » ، وفى نسخة من الديوان « بأنك مهما قلت غير مليم » .

(٣) فى ا ، ب ، ج « قصار المطايا » وقصارى المطايا هو الصواب ، والمراد به أن ذلك غاية أمرها ونهاية ماتسيرله .

(٤) من قصيدة له يمدح فيها مالك بن طوق ، وأولها قوله :

رَحَلُوا فَأيَّةُ عَبْرَةٍ لَمْ تُسْكَبِ ... أسَفًا ؟ وَأيُّ عَزِيمَةٍ لَمْ تُغْلَبِ ؟

(٥) فى الديوان (ص ٢٠ ج ١ مصر) : « إنى أتيتك » و بعد البيت قوله :

وَغَدَوْتَ خَيْرَ حِيَاطَةٍ مِنِّي عَلَى ... نَفْسِي وَأرْأفَ بِي هُنَالِكَ مِنْ أبِي

بأن تقول : افعل كذا وكذا ، وتخرجه مخرج الاستفهام ، وهذا الأسلوب حَسَنٌ جدا ، وعليه مسحة من جمال ، بل عليه الجمال كله .

فمما جاء منه قول البحترى فى قصيدة أولها :

* بِوُدِّىَ لَوْ يَهْوَى الْعَذُولُ وَيَعْشَقُ(١) *

فقال منها :

فَهَلْ أَنْتَ يَاابْنَ الرَّاشِدِينَ مُخَتِّمِى بياقُوتَةٍ تبهى عَلَىَّ وَتُشْرِقُ(٢) ؟

وهذا من الأدب الحسن فى خطاب الخليفة ؛ فإنه لم يخاطبه بأن قال : خَتِّمْنى بياقوتة ، على سبيل الأمر ، بل خاطبه على سبيل الاستفهام ، وقد أعجبنى هذا المذهب ، وحسن عندى .

وقد حذا حذو البحترى شاعر من شعراء عصرنا فقال فى مدح الخليفة الناصر لدين الله أبى العباس أحمد من قصيد له على قافية الدال ؛ فقال من أبيات يصف بها قصيدهُ :

---

(١) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها المعتز بالله ويستوهبه خاتما ، وعجزه قوله :

* فيَعْلَمَ أَسْبَابَ الْهَوَى كيفَ تَعْلَقُ *

(٢) بعد هذا البيت قوله :

يَغَارُ احْمِرَارُ الْوَرْدِ مِنْ حُسْنِ صِبْغِهَا وَيَحْكِيهِ جَادِىُّ الرَّحِيقِ الْمُعَتَّقُ
إِذَا بَرَزَتْ وَالشَّمْسُ قُلْتَ تَجَارَتَا إِلَى أَمَدٍ أَوْ كَادَتِ الشَّمْسُ تُسْبَقُ
إِذَا الْتَهَبَتْ فى اللَّحْظِ ضَاهَى ضِيَاؤُهَا جَبِينَكَ عِنْدَ الجُودِ إِذْ يَتَأَلَّقُ
أُسَرْبَلُ مِنْهَا ثَوْبَ فَخْرٍ مُعَجَّلٍ وَيَبْقَى بِهَا ذِكْرٌ عَلَى الدَّهْرِ مُخْلَقُ
عَلَامَةُ جُودٍ مِنْكَ عِنْدِى مُبِينَةٌ وَشَاهِدُ عَدْلٍ لِى بِنُعْمَاكَ يَصْدُقُ
وَمِثْلُكَ أَعْطَاهَا وَأَضْعَافَ مِثْلِهَا وَلَا غَرْوَ لِلْبَحْرِ انْبَرَى يَتَدَفَّقُ

أَمَقْبُولَةٌ يا ابْنَ الخلائفِ مِنْ فَمِي لَدَيْكَ بِوَصْفِي غَادَةُ الشِّعْرِ رُؤْدَهْ

فقوله « أمقبولة » من الأدب الحسن الذى نسج فيه على منوال البحترى .

وهذا باب مفرد ، وهو باب الاستفهام فى الخطاب ، وإذا كان الشاعر فطنا عالما بما يضعه من الألفاظ والمعانى تَصَرَّفَ فى هذا الباب بضروب التصرفات ، واستخرج من ذات نفسه شيئاً لم يسبقه إليه أحد .

واعلم أن من المعانى ما يعبر عنه بألفاظ متعددة ويكون المعنى المندرج تحتها واحداً ؛ فمن تلك الألفاظ ما يليق استعماله بالمدح ومنها ما يليق استعماله بالذم ، ولو كان هذا الأمر يرجع إلى المعنى فقط لكانت جميع الألفاظ الدالة عليه سواء فى الاستعمال ، وإنما يرجع فى ذلك إلى العُرْف دون الأصل .

ولنضرب له مثالا فنقول : هل يجوز أن يخاطب الملك فيقال له : وَحَقِّ دِمَاغك ؛ قياساً على وَحَقِّ رأسك ؟ وهـــذا يرجع إلى أدب النفس دون أدب الدرس .

فإذا أراد مؤلف الكلام أن يمدح ذكر الرأس وَالْهَامَة والكاهل ، وماجرى هذا المجرى ، فإذا أراد أن يهجو ذكر الدِّمَاغ وَالْقَفَا وَالْقَذَال ، وما جرى هذا المجرى ، وإن كانت معانى الجميع متقاربة ، ومن أجل ذلك حسنت الكناية فى الموضع الذى يقبح فيه التصريح .

ومن أحسن ما بلغنى من أدب النفس فى الخطاب أن عثمان بن عفان رضى الله عنه سأل قَبَاثَ بن أشْيَم ، فقال له : أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر منى وأنا أقدم منه فى الميلاد ، فانظر إلى أدب هذا العربىّ الذى من شأنه وشأن أمثاله جفاء الأخلاق والبعد عن فطانة الآداب .

وأما الإفراط فقد ذمه قوم من أهل هذه الصناعة ، وحمده آخرون ، والمذهب

عندى استعماله ؛ فإن أحسن الشعر أكذبه ، بل أصدقه أكذبه ، لكنه تتفاوت درجاته ؛ فمنه المستحسن الذى عليه مدار الاستعمال ، ولا يطلق على الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه مهما ذكر به من المعاملات فى صفاته فإنه دون ما يستحقه .

ومما ورد من ذلك فى الشعر قول عنترة (١) :

وَأَنَا المَنِيَّـــةُ فى المَوَاطِنِ كُلِّهَا ... وَالطَّعْنُ مِـــنِّى سَـــابِقُ الآجَالِ (٢)

وقد يروى بالياء ، وكلا المعنيين حسن ، إلا أن الياء أكثر غلوا .

ومما جاء على نحو من ذلك قول بشار (٣) :

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْـــبَةً مُضَرِيَّةً ... هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا (٤)

ومنه ما يستهجن ، كقول النابغة الذبيانى (٥) :

---

(١) من قصيدة له يقولها وقد أغار على بنى ضبة ، وأولها قوله :

عَفَتِ الدِّيَارَ وَبَاقِىَ الأَطْلَالِ ... رِيحُ الصَّبَا وَتَقَلُّبُ الأَحْوَالِ

وَعَفَا مَغَانِيَهَا فَأَخْلَقَ رَسْمَهَا ... تَرْدَادُ وَكْفِ العَارِضِ الهَطَّالِ

(٢) رواية الديوان « وأنا المنية حين تشتجر القنا » و بعد البيت قوله :

وَلَرُبَّ قِرْنٍ قَدْ تَرَكْتُ مُجَدَّلاً ... وَلَبَانُهُ كَنَوَاضِحِ الجِرْيَالِ

تَنْتَابُهُ طُلْسُ السِّبَاعِ مُغَادَرًا ... فِى قَفْرَةٍ مُتَمَزِّقَ الأَوْصَالِ

وَلَرُبَّ خَيْلٍ قَدْ وَزَعْتُ رَعِيلَهَا ... بِأَقَبَّ لَا ضَغِنٍ وَلَا مِجْفَالِ

وَمُسَرْبَلٍ حَلَقَ الحَدِيدِ مُدَجَّجٍ ... كَاللَّيْثِ بَيْنَ عَرِينَةِ الأَشْبَالِ

(٣) هذا أول بيتين رواهما الخالديان فى « المختارين شعر بشار » (ص ١٦٣) وثانيهما قوله :

وَإِنَّا لَقَوْمٌ مَا تَزَالُ جِيَادُنَا ... تُسَاوِرُ مَلْكًا أَوْ تُنَاهِبُ مَغْنَمَا

(٤) فى « المختار من شعر بشار » : « أو مطرت دما » .

(٥) البيت رابع خمسة أبيات له ، وها كها كلها برواية الديوان :

إذَا ارْتَعَشَتْ خَافَ الْجَبَانُ رِعَاثَهَا ... وَمَنْ يَتَعَلَّقْ حَيْثُ عُلِّقَ يَفْرَقِ (١)

وهذا يصف طول قامتها ، لكنه من الأوصاف المنكرة التى خرجت بها المغالاة عن حيز الاستحسان .

وكذلك ورد قول أبى نواس (٢) :

وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ ... لَتَخَافُكَ النُّطَفُ الَّتِى لَمْ تُخْلَقِ (٣)

وهذا أشد إفراطا من قول النابغة . ويروى أن العتابى لقى أبا نواس فقال له : أما استحييت ٱللّٰهَ حيث تقول ، وأنشده البيت ، فقال له : وأنت ما راقبت الله حيث قلت :

مَا زِلْتُ فِى غَمَرَاتِ المَوْتِ مُطَّرَحًا ... يَضِيقُ عَنِّى وَسِيعُ الرَّأْىِ مِنْ حِيَلِى

فَلَمْ تَزَلْ دَائِبًا تَسْعَى بِلُطْفِكَ لِى ... حَتَّى ٱخْتَلَسْتَ حَيَاتِى مِنْ يَدَىْ أَجَلِى

قال له العتابى : قد علم الله وعلمتَ أن هـذا ليس مثل قولك ، ولكنك قد

عَلِقْتَ بِذِكْرِ المَالِكِيَّةِ بَعْدَمَا ... عَلَاكَ مَشِيبٌ فِى قَذَالٍ وَمَفْرِقِ

إِذَا غَضِبَتْ لَمْ يَشْعُرِ الْحَىُّ أَنَّهَا ... غَضُوبٌ وَإِنْ نَالَتْ رِضًا لَمْ تُزَقْزِقِ

عَلَى أَنَّ حِجْلَيْهَا وَإِنْ هُنَّ أُوسِعَا ... يَمُوتَانِ مِنْ مِلْءٍ وَقِلَّةِ مَنْطِقِ

إِذَا ارْتَعَشَتْ هَابَ الجَبَانُ رِعَاثَهَا ... وَمَنْ يَتَعَلَّقْ حَيْثُ عُلِّقَ يَفْرَقِ

وَإِنْ ضَحِكَتْ لِلْعُصْمِ ظَلَّتْ رَوَانِيًا ... إِلَيْهَا وَإِنْ تَبْسِمْ إِلَى المُزْنِ يُبْرِقِ

(١) ارتعشت : تقرطت ، يريد لبست القرط .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين الرشيد ، وأولها قوله :

خَلَقَ الشَّبَابُ وَشِرَّتِى لَمْ تَخْلُقِ ... وَرُمِيتُ فى غَرَضِ الزَّمَانِ بِأَفْوُقِ

(٣) البيت فى معاهد التنصيص (ص ٣٤٥ بولاق) وفى نقد الشعر لقدامة (ص ١٨).

أعددت لكل ناصح جواباً ، وقد أراد [١] أبو نواس هذا المعنى فى قالب آخر ، فقال [٢] :

كَدَّتْ مُنَادَمَةُ الدِّمَاءِ سُيُوفَهُ فَلَقَلَّمَا تَحْتَازُها الأَجْفَانُ [٣]

حَتَّى الَّذِى فى الرَّحْمِ لَمْ يَكُ صُورَةً لِفُؤَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانُ [٤]

وما يجىء فى هذا الباب مايجرى هذا المجرى .

وقد استعمل أبو الطيب المتنبى هذا القسم فى شعره كثيرا ، فأحسن فى مواضع منه ؛ فمن ذلك قوله [٥] :

عَجَاجًا تَعْثُرُ الْعِقْبَانُ فِيهِ كَأَنَّ الْجَوَّ وَعْثٌ أَوْ خَبَارُ [٦]

---

(١) كذا ، والأحسن « قد أورد » .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين الرشيد ، وأولها قوله :

حَيِّ الدِّيَارَ إِذِ الزَّمَانُ زَمَانُ وَإِذِ الشَّبَاكُ لَنَا حرى وَمَعَانُ

انظر الديوان (ص ٥٨ مصر) .

(٣) كذا فى ا ، ب ، ج ، د ؛ وفى الديوان « ألفت منادمة الدماء سيوفه » .

(٤) بعد البيتين قوله :

حَذَرَ امْرِئٍ نُصِرَتْ يَدَاهُ عَلَى الْعِدَى كَالدَّهْرِ فِيهِ شَرَاسَةٌ وَلِيَانُ

(٥) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ، وأولها قوله :

طِوَالُ قَناً تُطَاعِنُهَا قِصَارُ وَقَطْرُكَ فى نَدًى وَوَغًى بِحَارُ

(٦) قبل هذا البيت قوله :

تُثِيرُ عَلَى سَلَمْيَةَ مُسْبَطِرًّا تَنَاكَرُ تَحْتَهُ لَوْلَا الشِّعَارُ

تثير : تهيج ، والمسبطر : العجاج الممتد الساطع ، والشعار : العلامة التى يتعارفون بها ، و « عجاجا » بدل من « مسبطرا » ؛ والعقبان : جمع عقاب ، وهو من جوارح الطير ، والوعث : السهل الكثير الرمل ، والخبار : الأرض اللينة .

ثم أعاد هذا المعنى فى موضع آخر ؛ فقال[١] :

عَقَدَتْ سَنَابِكُهَا عَلَيْهَا عِثْيَرًا ... لَوْ تَبْتَغِي عَنَقًا عَلَيْهِ لَأَمْكَنَا[٢]

وهذا أكثر مغالاة من الأول .

ومن ذلك قوله أيضا[٣] :

كأنّما تتلقّاهُمْ لِتَسْلُكَهُمْ ... فَالطَّعْنُ يَفْتَحُ فِي الْأَجْوَافِ مَا يَسَعُ[٤]

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها بدر بن عمار ، وأولها قوله :

الْحُبُّ مَامَنَعَ الْكَلَامَ الْأَلْسُنَا ... وَأَلَذُّ شَكْوَى عَاشِقٍ مَا أَعْلَنَا

(٢) قبل هذا البيت قوله :

أَقْبَلْتَ تَبْسِمُ وَالْجِيَادُ عَوَابِسٌ ... يَخْبُبْنَ بِالْحَلَقِ الْمُضَاعَفِ وَالْقَنَا

الجياد : الخيل ، واحدها جواد ، ويخببن : يسرعن ، والحلق : جمع حلقة ، وهى حلقة الحديد التى فى الدرع ، والمضاعف : الكثير . والسنابك : جمع سنبك ، وهو طرف مقدم الحافر ، والعثير : الغبار ، والعنق : ضرب من السير شديد .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ، وأولها قوله :

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هٰذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ ... إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجُعُوا

(٤) قبل هذا البيت قوله :

ذَمَّ الدُّمُسْتُقُ عَيْنَيْهِ وَقَدْ طَلَعَتْ ... سُودُ الْغَمَامِ فَظَنُّوا أَنَّهَا قَزَعُ

فِيهَا الْكُمَاةُ الَّتِي مَفْطُومُهَا رَجُلٌ ... عَلَى الْجِيَادِ الَّتِي حَوْلِيُّهَا جَذَعُ

يُذْرِي اللَّقَانُ غُبَارًا فى مَنَاخِرِهَا ... وَفِي حَنَاجِرِهَا مِنْ آلِسٍ جُرَعُ

الدمستق : صاحب جيش الروم ، والقزع : قطع الغمام ، والكماة : جمع كمى ، وهو الشجاع المستتر فى سلاحه ، والحولى : الذى أتى عليه حول واحد ، والجذع : الذى أتى عليه حولان ، ويذرى : يثير ، واللقان : موضع ببلاد الروم ، وآلس : نهر هناك .

وعلى هذا ورد قول قيس بن الخطيم (١) :

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّى فَأَنْهَرْتُ فَتْقَهَا ... يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا (٢)

لكن أبو الطيب أكثر غلوا فى هذا المعنى ، وقيس بن الخطيم (١) أحسن؛ لأنه قريب من الممكن ؛ فإن الطعنة تنفذ حتى يتبين فيها الضوء ، وأما أن يجعل المطعون مسلكا يسلك كما قال أبو الطيب ؛ فإن ذلك مستحيل ، ولا يقال فيه بعيد .

وأما الاقتصاد فهو وسط بين المنزلتين ، والأمثلة به كثيرة لاتحصى ؛ إذ كل ماخرج عن الطرفين من الإفراط والتفريط فهو اقتصاد ، ومن أحسنه أن يجعل الإفراط مثلا ، ثم يستثنى فيه بلَوْ أو بكَادَ وماجرى مجراها ؛ فمن ذلك قوله تعالى: (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ) وكذلك قوله عزَّ وجل : (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا) ؛ وقد ورد هذا فى القرآن الكريم كثيرا ، ومما ورد منه شعرا قول الفرزدق (٣) :

يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِهِ ... رُكْنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَاجَاءَ يَسْتَلِمُ

---

(١) فى ا ، ب ، ج « قيس بن الحطيم » بالحاء مهملة ، وصوابه بالخاء المعجمة ، وانظر اشتقاق اسمه فى شرح التبريزى على الحماسة (١ - ١٧٧) ، والبيت الذى أنشده المؤلف من كلمة له أنشدها أبو تمام فى باب الحماسة من ديوان الحماسة وأولها قوله :

طَعَنْتُ ابْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ طَعْنَةَ ثَائِرٍ ... لَهَا نَفَذٌ لَوْلَا الشُّعَاعُ أَضَاءَهَا

(٢) وقع فى ا ، ب ، ج «لمكت بها كفى فأنهزت فتقها» وهو تحريف فى موضعين والتصويب عن ديوان الحماسة بشرح التبريزى (١ - ١٧٨) وعن شرح العكبرى على ديوان المتنبى (٢ - ٢٢٧ طبع الحلبى) والأصل فى هذا المعنى قول النابغة الذبيانى :

تَقُدُّ السَّلُوقِىَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ ... وَتُوقِدُ بِالصُّفَّاحِ نَارَ الْحُبَاحِبِ

(٣) من قصيدة له يمدح فيها زين العابدين ، وأولها قوله :

هٰذَا الَّذِى تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ ... وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ

وكذلك ورد قول البحترى(١) :

لَوْ أَنَّ مُشْتَاقًا تَـكَلَّفَ فَوْقَ مَا ... فِي وُسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمِنْـبَرُ

وهذا هو المذهب المتوسط .

النوع السادس والعشرون

فى الاشتقاق

اعلم أن جماعة علماء البيان يفصلون الاشتقاق عن التجنيس ، وليس الأمر كذلك ، بل التجنيس أمر عام لهذين النوعين من الكلام ، وذاك أن التجنيس فى أصل الوضع من قولهم : جَانَسَ الشىء الشىء ؛ إذا ماثله وشابهه ، ولما كانت الحال كذلك ووجدنا من الألفاظ مايتماثل ويتشابه فى صيغته وبنائه علمنا أن ذلك يطلق عليه اسم التجنيس ، وكذلك لما وجدنا من المعانى مايتماثل ويتشابه علمنا أن ذلك يطلق عليه اسم التجنيس أيضا ؛ فالتجنيس إذن ينقسم قسمين : أحدهما تجنيس فى اللفظ ، والآخر تجنيس فى المعنى ؛ فأما الذى يتعلق باللفظ فإنه لم ينقل عن بابه ولا غيّر اسمه ، وقد تقدم ذكره فى باب الصناعة اللفظية ، وأما الذى يتعلق بالمعنى فإنه نقل عن بابه فى التجنيس ، وسمى الاشتقاق : أى أحد المعنيين مشتق من الآخر .

وهو على ضربين : صغير ، وكبير .

(١) من قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين المتوكل ويهنئه بعيد الفطر ، وأولها قوله :

أَخْفِى هَوًى لَكِ فى الضُّلوعِ وَأُظْهِرُ ... وَأُلَامُ فى كَمَدٍ عَلَيْكِ وَأُعْذَرُ

فالصغير: أن تأخذ أصلا من الأصول فتجمع بين معانيه، و إن اختلفت صيغه ومبانيه ، كترتيب س ل م ؛ فإنك تأخذ منه معنى السلامة فى تصرفه ؛ نحو سَلِمَ وسالِم وسَلْمَانَ وَسَلْمَى ، والسَّليم اللديغ أطلق عليه ذلك تفاؤلا بالسلامة .

والأصل فى ذلك أن يضع واضع اللغة اسما أولا لمسمى أول ، ثم يجد مسمى آخر أو مسميات شبيهة بالمسمى الأول فيضع لها اسما كالاسم الأول ، كقوله ضَرير اسم للأعمى ، والضر : ضد النفع ، والضَّرَّاء : الشدة من الأمر ، والضر ـ بالضم ـ : الهزال وسوء الحال ، والضرر : الضيق ، والضَّرَّة : إحدى الزوجتين ؛ فإن هذه المسميات كلها تدلّ على الأذى والشر ، وأسماؤها متشابهة لم تخرج عن الضاد والراء ، إلا أنا الآن لانعلم ما هو الأول منها حتى نحكم على الثانى أنه مشتق منه ، لكن نعلم فى السليم اللديغ أنه مشتق من السلامة ؛ لأنه ضدها ؛ قيل : من أجل التفاؤل بالسلامة ، وعلى هذا جاء غيره من الأصول ، كقولنا : هَشَمَكَ هاشِم ، وَحارَبَكَ مُحارِب ، وَسالَمَكَ سالِم ، وَأصابَ الأرضَ صَيِّبٌ ، فهذه الألفاظ كلها لفظها واحد ومعناها واحد ؛ أما هاشم فإنه لم يسم بهذا الاسم إلا لأنه هَشَمَ الثريد فى عام مَحْلٍ فسمى بذلك ، وأما مُحارب فإنه اسم فاعل من حَارَبَ فهو مُحارب ، وأما سالم فمن السلامة ، وهو اسم فاعل من سلم ، وأما الصَّيِّب فهو المطر الذى يشتد صَوْبه : أى وَقْعُه على الأرض ، ولا يقاس على ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم «أسْلَمُ سالَمَها اللهُ ، وَغِفارٌ غَفَرَ اللهُ لها ، وَعُصَيَّةُ عَصَتِ اللهَ» فإن أسلم وغفار وعصية أسماء قبائل، ولم تسمّ أسلم من المسالمة ، ولا غفار من المغفرة، ولا عصية من تصغير عصا ، وهذا هو التجنيس ، وليس بالاشتقاق ، والنظر فى مثل ذلك يحتاج إلى فكرة وتدبر كى لايختلط التجنيس بالاشتقاق .

ومما جاء من ذلك شعرا قول البحترى :

* أَمحلّتَىْ سلمى بِكاظِمةَ اسْلمَا (١) *

وكذلك قول الآخر (٢) :

وَمَا زَالَ مَعْقُولاً عِقَالٌ عَنِ النَّدَى ... وَمَا زَالَ مَحْبُوسًا عَنِ الْخَيْرِ حابِسُ (٣)

وربما ظن أن هـذا البيت وما يجرى مجراه تجنيس ؛ حيث قيل فيه : معقول وعقال ، ومحبوس وحابس ، وليس الأمر كذلك ، وهذا الموضع يقع فيه الاشتباه كثيرا على من لم يُتْقِن معرفته .

وقد تقدم القول أن حقيقة التجنيس هى : اتفاق اللفظ واختلاف المعنى ، وعقال ومعقول وحابس ومحبوس اللَّفْظُ فيهما واحد والمعنى أيضا واحد ، فهذا مشتق من هذا : أى قد شق منه .

وكذلك ورد قول عنترة (٤) :

لقَدْ عَلِمَ الْقبائِلُ أنَّ قَوْمِي ... لَهُمْ حَدٌّ إذَا لُبِسَ الْحَدِيدُ (٥)

فإن حَدًّا وحديدا لفظهما واحد ومعناهما واحد .

وأما الاشتقاق الكبير فهو : أن تأخذ أصلا من الأصول فتعقد عليه وعلى

---

(١) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها أحمد و إبراهيم ابنى المدبر ؛ وعجزه قوله :

* وَتَعلَمَا أنَّ الْهوَى مَا هِجْتُمَا *

انظر الديوان (٢ ــ ٢٣٩ مصر) .

(٢) هو جرير بن عطية من كلمة له يهجو فيها الفرزدق ، وأولها قوله :

وَمَا ذَاتُ أَرْوَاقٍ تَصَدَّى لِجُؤْذَرٍ ... بِحَيْثُ تَلاَقَى عازِبٌ فَالأَوَاعِسُ

(٣) البيت فى الصناعتين (ص ٢٥٦) وجعله أبو هلال من التجنيس ؛

(٤) كذلك وقع فى جميع أصول الكتاب ، وهذا خطأ ؛ فالبيت ليس لعنترة ، وإنما هو لحيان بن ربيعة الطائى ، وهو من شعر الحماسة (انظر التبريزى : ١ ــ ٢٧٩) وقد نسب على الصواب فى الصناعتين لأبى هلال العسكرى (ص ٢٥٦) .

(٥) فى رواية الحماسة « لَهُمْ جَدٌّ » وذكر التبريزى أنه يروى « لهم حد » .

تراكيبه معنى واحدا يجمع تلك التراكيب وما تصرف منها وإن تباعد شىء من ذلك عنها رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل إليها .

ولنضرب لذلك مثالاً ؛ فنقول : إن لفظة « ق م ر » من الثلاثى لها ست تراكيب ، وهى : ق ر م ، ق م ر ، ر ق م ، ر م ق ، م ق ر ، م ر ق ؛ فهذه التراكيب الست يجمعها معنى واحد ، وهو القوة والشدة ، فالقَرَم : شدة شهوة اللحم ، وَقمَرَ الرجُلُ ؛ إذا غلب من يقامره ، والرَّقم : الداهية ، وهى الشدة التى تلحق الإنسان من دهره ، وعيش مُرَمَّق: أى ضيق، وذلك نوع من الشدة أيضاً، والمَقْرُ : شبه الصبر ، يقال : أمقر الشىء ، إذا أمَرَّ ، وفى ذلك شدة على الذائق وكراهة ، ومَرَق السهم ؛ إذا نفذ من الرمية ، وذلك لشدة مَضَائه وقوَّته .

واعلم أنه إذا سقط من تراكيب الكلمة شىء فجائز ذلك فى الاشتقاق ؛ لأن الاشتقاق ليس من شرطه كمال تركيب الكلمة ، بل من شرطه أن الكلمة كيف تقلبت بها تراكيبها من تقديم حروفها وتأخيرها أدت إلى معنى واحد يجمعها ؛ فمثال ما سقط من تركيب الثلاثى لفظة « و س ق » فإن لها خمس تراكيب ، وهى : و س ق ، و ق س ، س و ق ، ق س و ، ق و س ، وسقط من جملة التراكيب قسم واحد ، وهو س ق و ، وجميع الخمسة المذكورة تدل على القوة والشدة أيضاً ؛ فالوسق من قولهم : استوسق الأمر : أى اجتمع وقوى ، والوَقْسُ : ابتداء الجَرَب[1] ، وفى ذلك شدة على من يصيبه وبلاء ، والسَّوْق : متابعة السير ، وفى هذا عناء وشدة على السائق والمسوق ، والقَسْوَة : شدة القلب وغلظه ، والقَوْسُ معروفة ، وفيها نوع من الشدة والقوة ؛ لنزعها السهم وإخراجه إلى ذلك المرمى المتباعد .

واعلم أنا لا نَدَّعى أن هذا يطرد فى جميع اللغة ، بل قد جاء شىء منها كذلك ، وهذا مما يدل على شرفها وحكمتها ؛ لأن الكلمة الواحدة تَتَقَلَّب

(١) فى ا ، ب ، ج « الحرب » بالحاء المهملة ؛ وهو تحريف ولايلتئم مع مابعده .

على ضروب من التقاليب ، وهى مع ذلك دَالَّة على معنى واحد ، وهذا من أعجب الأسرار التى توجد فى لغة العرب وأغربها ، فاعرفه .

إلا أن الاستعمال فى النظم والنثر إنما يقع فى الاشتقاق الصغير دون الكبير ، وسبب ذلك أن الاشتقاق الصغير تكثر الألفاظ الواردة عليه ، والاشتقاق الكبير لا يكاد يوجد فى اللغة إلا قليلا ، وأيضا فإن الحسن اللفظى الذى هو الفصاحة إنما يقع فى الاشتقاق الصغير ، ولا يقع فى الاشتقاق الكبير، ألا ترى إلى هذين الأصلين الواردين ههنا ، وهما « ق ر م » و « و س ق » إذا نظرنا إلى تراكيبهما وأردنا أن نسبكهما فى الاستعمال لم يأت منهما مثل ما يأتى فى الاشتقاق الصغير حُسْناً ورَوْنَقا ؛ لأن ذاك لفظه لفظ تجنيس ، ومعناه معنى اشتقاق ، والاشتقاق الكبير ليس كذلك .

النوع السابع والعشرون

فى التضمين

وهــــذا النوع فيه نظر بين حَسَنٍ يكتسب به الكلام طلاوة و بين معيب عند قوم ، وهو عندهم معدود من عيوب الشعر ، ولكل من هذين القسمين مقام .

فأما الحسن الذى يكتسب به الكلام طلاوة فهو : أن يضمن الآيات والأخبار النبوية ، وذلك يرد على وجهين : أحدهما : تضمين كلى ، والآخر تضمين جزئى .

فأما التضمين الكلى فهو : أن تذكر الآية والخبر بجملتهما ، وأما التضمين الجزئى فهو : أن تدرج بعض الآية والخبر فى ضمن كلام ؛ فيكون جزأ منه ،

كالذى أوردته فى حل الآيات والأخبار فى الفصل العاشر من مقدمة الكتاب ، وقد قيل : إنه لايجوز درج آيات القرآن الكريم فى غضون الكلام من غير تبيين ، كى لايشتبه ، وهذا القول لا أقول به ؛ فإن القرآن الكريم أَبْيَنُ من أن يحتاج إلى بيان ، وكيف يخفى وهو المعجز الذى لواجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لايأتون بمثله ، فإن كانت المفاوضة فى التفرقة بينه و بين غيره من الكلام إذا أدرج فيه مع جاهل لايعرف الفرق فذاك لا كلام معه ، وإن كان الكلام مع عالم بذلك فذاك لايخفى عنه القرآن الكريم من غيره .

ومذهبى فى هذا هو ما تقدم ذكره فى الفصل العاشر من مقدمة الكتاب ، وهو أحسن الوجهين عندى ، وذاك أنه لاتؤخذ الآية بكمالها ، بل يؤخذ جزء منها و يجعل أوّلا لكلام أوآخرا ، هذا إذا لم يقصد به التضمين ؛ فأما إذا قصد التضمين فتؤخذ الآية بكمالها وتدرج درجا ، وهذا ينكره من لم يذق ما ذقته من طعم البلاغة ، ولا رأى ما رأيته .

وأما المعيب عند قوم فهو تضمين الإسناد ، وذلك يقع فى بيتين من الشعر ، أو فصلين من الكلام المنثور ، على أن يكون الأول منهما مسنداً إلى الثانى ؛ فلا يقوم الأول بنفسه ، ولايتم معناه إلا بالثانى ، وهذا هو المعدود من عيوب الشعر ، وهو عندى غير مَعِيب ؛ لأنه إن كان سبب عيبه أن يعلَّق البيت الأول على الثانى فليس ذلك بسبب يوجب عيباً ؛ إذ لافرق بين البيتين من الشعر فى تعلق أحدهما بالآخر و بين الفقرتين من الكلام المنثور فى تعلق إحداهما بالأخرى ؛ لأن الشعر هو : كل لفظ موزون مُقَفًّى دلّ على معنى ، والكلام المسجوع هو : كل لفظ مقفى دل على معنى ؛ فالفرق بينهما يقع فى الوزن لاغير .

والفقر المسجوعة التى يرتبط بعضها ببعض قد وردت فى القرآن الكريم فى مواضع منه ؛ فن ذلك قوله عز وجل فى سورة الصافات : (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ

عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ) فهذه الفقر الثلاث الأخيرة مرتبط بعضها ببعض ؛ فلا تُفْهَم كل واحدة منهن إلا بالتى تليها ، وهذا كالأبيات الشعرية فى ارتباط بعضها ببعض ، ولو كان عيباً لما ورد فى كتاب الله عز وجل .

وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة الصافات أيضاً : (فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ) فالآيتان الأوليان لاتفهم إحداهما إلا بالأخرى .

وهكذا ورد قوله عز وجل فى سورة الشعراء : (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) فهذه ثلاث آيات لاتفهم الأولى ولا الثانية إلا بالثالثة ، ألا ترى أن الأولى والثانية فى معرض استفهام يفتقر إلى جواب ، والجواب هو فى الثالثة .

ومما ورد من ذلك شعراً قول بعضهم :

وَمِنَ الْبَلْوَى الَّتِى لَيْسَ لَهَا فِى النَّاسِ كُنْهُ
أَنَّ مَنْ يَعْرِفُ شَيْئاً يَدَّعِى أَكْثَرَ مِنْهُ

ألا ترى أن البيت الأول لم يقم بنفسه ولاتمّ معناه إلا بالبيت الثانى :

وقد استعملته العرب كثيراً ، وورد فى شعر فحول شعرائهم ؛ فمن ذلك قول امرىء القيس(١) :

---

(١) البيتان من معلقة امرىء القيس التى مطلعها :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسُقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقبل البيتين قوله :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ عَلَىَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِى

وانظر (ج ١ ص ٣٨٤) من هذا الكتاب .

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ:
أَلاَ أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلاَ انْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

وكذلك ورد قول الفرزدق(١) :

وَمَا أَحَدٌ مِنَ الأَقْوَامِ عَدُّوا عُرُوقَ الأَكْرَمِينَ إِلَى التُّرَابِ(٢)
بِمُحْتَفِظِينَ إِنْ فَضَّلْتُمُونَا عَلَيْهِمْ فِي الْقَدِيمِ وَلاَ غِضَابِ(٣)

وكذلك ورد قول بعض شعراء الحماسة(٤) :

لَعَمْرِي لَرَهْطُ الْمَرْءِ خَيْرٌ بَقِيَّةً(٥) عَلَيْهِ وَإِنْ عَالَوْا بِهِ كُلَّ مَرْكَبِ
مِنَ الْجَانِبِ الأَقْصَى وَإِنْ كَانَ ذَا غِنًى جَزِيلٍ وَلَمْ يُخْبِرْكَ مِثْلُ مُجَرِّبِ

الضربُ الثانى من التضمين : وهو أن يضمن الشاعر شعره والناثر نثره كلاما آخر لغيره ؛ قصداً للاستعانة على تأكيد المعنى المقصود ، ولو لم يذكر ذلك

---

(١) روى أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى هذين البيتين ، وروى معهما بيتا ثالثا ، وهو قوله :

وَلَوْ رَفَعَ السَّحَابُ إِلَيْهِ قَوْماً عَلَوْنَا فِي السَّمَاءِ إِلَى السَّحَابِ

وقال قبل رواية هذه الأبيات بإسناده عن أبى عبيدة : « اجتمع الفرزدق وجرير وكثير وابن الرقاع عند سليمان بن عبد الملك ، فقال : أنشدونا من فخركم شيئا حسنا فبدرهم الفرزدق ، فقال » وأنشد هذه الأبيات (ج ١٩ ص ٢٣ بولاق) .

(٢) فى ا ، ب ، ج « عروف الأكرمين » وهو تحريف ، وصوابه عن الأغانى ؛ وفى الأغانى « وما أحد من العلماء عدت »

(٣) فى الأغانى « بمختلفين » .

(٤) روى البيتين أبو تمام فى باب الحماسة ، وروى معهما ثالثا ، وهو قوله :

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ وَلَمْ تَكُ مِنْهُمُ فَكُلْ مَا عُلِفْتَ مِنْ خَبِيثٍ وَطَيِّبِ

وانظر شرح التبريزى (١ - ٣٣٥) .

(٥) فى ا ، ب ، ج « خير نقية » وصوابه عن الحماسة .

التضمين لكان المعنى تاما ، وربما ضمن الشاعر البيت من شعره بنصف بيت ، أو أقلّ منه ، كما قال جحظة :

قُمْ فاسْقِنِيهَا يَا غُلَامُ وَغَنِّنِي ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فى أَكْنَافِهِمْ(١)

ألا ترى أنه لو لم يقل فى هذا البيت « ذهب الذين يعاش فى أكنافهم » لكان المعنى تاما لايحتاج إلى شىء آخر ، فإن قوله « قم فاسقنيها يا غلام وغنى » فيه كفاية ؛ إذ لاحاجة له إلى تعيين الغناء ؛ لأن فى ذلك زيادة على المعنى المفهوم ، لا على الغرض المقصود .

وقد ورد هذا فى عدة مواضع من شعر أبى نواس فى الخمريات ، كقوله فى مخاطبة بعض خلطائه على مجلس الشراب(٢) :

فَقُلْتُ هَلْ لَكَ فى الصَّهْبَاءِ تَأْخُذُهَا مِنْ كَفِّ ذَاتِ حِرٍ فَالْعَيْشُ مُقْتَبلُ(٣)

حِيرِيَّةٌ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ صَافِيَةٌ تَطِيرُ بِالْكَأْسِ مِنْ لَأْلَائِهَا شُعَلُ(٤)

فَقَالَ هَاتِ وَغَنِّينَا عَلَى طَرَبٍ وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ(٥)

---

(١) الشطر الثانى للبيد بن ربيعة صدر بيت ، وهو :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فى أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيتُ فى خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

(٢) من كلمة له أولها قوله :

وَمُعْتَــدٍ بِالَّذِى تَحْوِى أَنَامِلُهُ مِنْ كَأْسِ مُنْتَخَبٍ لَمْ يَثْنِهِ الْمَلَلُ

(٣) فى الديوان « من كف ذات هن » .

(٤) فى ا ، ب ، ج « حبرية » وتصويبه عن الديوان (٣١٨) والحيرية : المنسوبة إلى الحيرة ، وهى مدينة بالعراق .

(٥) فى الديوان « فقلت هات وأسمعنا » وهو أحسن مما هنا ؛ والشطر الثانى من البيت صدر مطلع لامية الأعشى ، وهو قوله :

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ

وكذلك قوله أيضاً(١) :

وَظَبْيٍ خَلُوبِ اللَّفْظِ حُلْوٍ كَلامُهُ ... مُقَبَّـلُهُ سَهْلٌ وَجَانِبُهُ وَعْرُ
نَحَلْتُ لَهُ مِنْهَا فَخَرَّ لِوَجْهِهِ ... وَأَمْكَنَ مِنْهُ مَا يُحِيطُ بِهِ الْأَزْرُ(٢)
فَقُمْتُ إِلَيْهِ وَالْكَرَى كُحْلُ عَيْنِهِ ... فَقَبَّلْتُهُ وَالصَّبُّ لَيْسَ لَهُ صَبْرُ
إِلَى أَنْ تَجَلَّى نَوْمُهُ عَنْ جُفُونِهِ ... وَقَالَ كَسَبْتَ الذَّنْبَ قُلْتُ لِيَ الْعُذْرُ
فَأَعْرَضَ مُزْوَرًّا كَأَنَّ بِوَجْهِهِ ... تَفَقُّؤَ رُمَّانٍ وَقَدْ بَرَدَ الصَّدْرُ
فَمَا زِلْتُ أَرْقِيهِ وَأَلْثِمُ خَدَّهُ ... إِلَى أَنْ تَغَنَّى رَاضِياً وَبِهِ سُكْرُ
أَلاَ يَا أَسْلَمِي يَا دَارَ مَىَّ عَلَى الْبِلَى ... وَلاَ زَالَ مُنْهَلاًّ بِجَرْعَائِكِ الْقَطْرُ(٣)

وقد ضمن أبو نواس هذا الشطر نفسه فى كلة أخرى ، وهى قوله :

بَادِرْ صَبُوحَكَ وَانْعَمْ أَيُّهَا الرَّجُلُ ... وَاعْصِ الَّذِينَ بِجَهْلٍ فى الهوى عَذَلُوا
وَاخْلَعْ عِذَارَكَ وَاضْحَكْ كُلَّ ذِى طَرَبٍ ... واعدِلْ بنفسكَ فِيهِمْ أَيْنَمَا عَدَلُوا
نَالَ السُّرُورَ وَخَفْضَ الْعَيْشِ فى دَعَةٍ ... وفازَ بِالطَّيِّبَاتِ الْمَاجِنُ الْهَزِلُ
سَقْياً لِمَجْلِسِ فِتْيَانٍ أُنَادِمُهُمْ ... مَا فِى أَدِيمِهِمُ وَهْىٌ وَلاَ خَلَلُ
هٰذَا لِذَاكَ كَمَا هٰذَا وَذَاكَ لِذَا ... فالشَّمْلُ مُنْتَظِمٌ وَالْحَبْلُ مُتَّصِلُ
أَكْرِمْ بِهِمْ وَبِنَغْمٍ مِنْ مُغَنِّيَةٍ ... فِى الْغِنَاءِ بِنَغْمٍ يُضْرَبُ الْمَثَلُ
هَيْفَاءَ تُسْمِعُنَا وَالْعُودُ يُطْرِبُنَا ... وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ

(١) من كلمة له أولها قوله :

غَدَوْتُ وَمَا يَشْجُو فُؤَادِى خَوَادِشٌ ... وَمَا وَطَرِى إِلاَّ الْغَوَايَةُ وَالْخَمْرُ
مُعَتَّقَةٌ حَمْرَاءُ وَقْدَتُهَا جَمْرُ ... وَنَكْهَتُهَا مِسْكٌ وَطَلْعَتُهَا تِبْرُ

انظر الديوان (ص ٢٨٠ مصر) .

(٢) فى الديوان « رهفت له منها » وفيه « ماتحيط به الأزر » .

(٣) هذا البيت مطلع قصيدة لذى الرمة غيلان بن عقبة وفى ا ، ب ، ج « ألا فاسلمى »

وقد استعمل هذا الضرب كثيراً الخطيبُ عبدالرحمن بن نُبَاتَة رحمه الله؛ فمن ذلك قوله فى بعض خطبه ، وهو : فيأيُّها الغَفَلة المطرقون ، أما أنتم بهذا الحديث مُصَدِّقون ، فما لكم منه لا تشفقون ، فَوَرَبِّ السماء والأرض إنه لحقٌّ مثل ما أنكم تنطقون .

وكذلك قوله فى ذكر يوم القيامة ، وهو : فيومئذٍ تغدو الخلائق على الله بهما ، فيحاسبهم على ما أحاط به علما ، وينفذ فى كل عامل بعمله حكما ، وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ القيوم وقد خاب من حمل ظلماً .

ألا ترى إلى براعة هذا التضمين الذى كأنه قد رصع فى هذا الموضع رصعاً .

وعلى نحو من ذلك جاء قوله فى ذكر يوم القيامة ، وهو : هُنَاكَ يقع الحساب على ما أحصاه الله كتابا ، وتكون الأعمال المشوبة بالنفاق سَرَابا ، يوم يقوم الروح والملائكة صفاًّ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا .

ومما ينتظم بهذا السلك قوله فى خطبة أخرى ، وهو : أَسْكَتَهُمُ الله الذى أنطقهم ، وأبادهم الذى خلقهم وسيجدهم كما أخلقهم ، ويجمعهم كما فرّقهم ، يوم يُعِيدُ الله العالمين خلقاً جديداً ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً ، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .

ومن هذا الباب قوله أيضا : هنالك يرفع الحجاب ، ويوضع الكتاب ، ويجمع من وجب له الثواب ، ومن حق عليه العقاب ، فيضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب .

وأمثال هذه التضمينات فى خطبه كثيرة ، وهى من محاسن ما يجىء فى هذا النوع .

النوع الثامن والعشرون

فى الإرصاد

وحقيقته : أن يبنى الشاعر البيت من شعره على قافية قد أرصدها له : أى أعدها فى نفسه ، فإذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتى به فى قافيته .

وذلك من محمود الصنعة ؛ فإن خير الكلام ما دلَّ بعضه على بعض ، وفى الافتخار بذلك يقول ابن نباتة السعدى :

خُذْهَا إذَا أنْشِدَتْ فِى الْقَوْمِ مِنْ طَرَبٍ ... صُدُورُهَا عُرِفَتْ مِنْهَا قَوَافِيهَا
يَنْسَى لَهَا الرَّاكِبُ الْعَجْلَانُ حَاجَتَهُ ... وَيُصْبِحُ الْحَاسِدُ الْغَضْبَانُ يُطْرِيهَا

فمن هذا الباب قول النابغة(١) :

فِدَاءٌ لِامْرِئٍ سَارَتْ إلَيْهِ ... بِعِذْرَةِ رَبِّهَا عَمِّى وَخَالِى
وَلَوْ كَفِّى الْيَمِينُ بَغَتْكَ خَوْنًا ... لَأَفْرَدْتُ الْيَمِينَ عَنِ الشِّمَالِ(٢)

ألا ترى أنه يعلم إذا عرفت القافيــة فى البيت الأول أن فى البيت الثانى ذكر الشمال .

وكذلك جاء قول البحترى(٣) :

أَحَلَّتْ دَمِى مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ وَحَرَّمَتْ ... بِلَا سَبَبٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَلَامِى(٤)

(١) البيتان من كلمة للنابغة الذبيانى يمدح فيها النعمان بن المنذر ، وليسا بمتصلين وأولها :

أَمِنْ ظَلَّامَةَ الدِّمَنُ الْبَوَالِى ... بِمُرْفَضِّ الْحُبَىِّ إلَى وُعَالِ

(٢) فى ا ، ب ، ج « نفقتك خوفا » وتصويبه عن الديوان .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين المتوكل ، وأولها قوله :

ألَا هَلْ أتَاهَا بِالْمَغِيبِ سَلَامِى ... وَهَلْ خَبَّرَتْ وَجْدِى بِهَا وغَرَامى

(٤) هذا البيت ليس متصلا بما بعده فى القصيدة ، بل بينهما بيتان ، وهما قوله :

فَلَيْسَ الَّذِى حَلَّلْتِهِ بِمُحَلَّلٍ وَلَيْسَ الَّذِى حَرَّمْتِهِ بِحَرَامِ

فليس يذهب على السامع وقد عرف البيت الأول وصدر البيت الثانى أن عجزه هو ما قاله البحترى .

وقد جاء الإرصاد فى الكلام المنثور كما جاء فى الشعر ؛ فمن ذلك قوله تعالى : (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) فإذا وقف السامع على قوله تعالى (لقضى بينهم فيما فيه) عرف أن بعده (يختلفون) لما تقدم من الدلالة عليه .

ومن ذلك أيضاً قوله عز وجل : (فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

وعلى نحو منه جاء قوله تعالى : (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ)

فِدَاؤُكِ مَا أَبْقَيْتِ مِنِّى فَإِنَّهُ حُشَاشَةُ جِسْمٍ فِى نُحُولِ عِظَامِى
صِلِى مُغْرَمًا قَدْ وَاتَرَ الشَّوْقُ دَمْعَهُ سِجَامًا عَلَى الْخَدَّيْنِ بَعْدَ سِجَامِ

ومن لطيف ماجاء من هذا النوع قول البحترى أيضا :

أَبْكِيكُمَا دَمْعًا ، وَلَوْ أَنِّى عَلَى قَدْرِ الْجَوَى أَبْكِى بَكَيْتُكُمَا دَمَا

ومن جيده قول الآخر :

وَلَوْ أَنَّنِى أُعْطِيتُ مِنْ دَهْرِىَ الْمُنَى وَمَا كُلُّ مَنْ يُعْطَى الْمُنَى بِمُسَدَّدِ
لَقُلْتُ لِأَيَّامٍ مَضَيْنَ أَلَا ارْجِعِى وَقُلْتُ لِأَيَّامٍ أَتَيْنَ أَلَا أَبْعِدِى

فإذا وقع السامع على قوله عز وجل (وإنَّ أوْهَنَ البيوت) يعلم أن بعده بيت العنكبوت .

ورأيت أبا هلال العسكرى(١) قد سمى هذا النوع التَّوْشيحَ ؛ وليس كذلك، بل تسميته بالإرصاد أولى ، وذلك حيث ناسب الاسم مُسَمَّاهُ ، ولَاقَ به ، وأما التوشيح فإنه نوع آخر من علم البيان ، وسيأتى ذكره بعد هذا النوع ، إن شاء الله تعالى .

واعلم أنه قد اختلف جماعة من أرباب هذه الصناعة فى تسمية أنواع علم البيان ، حتى إنَّ أحدهم يَضَع لنوع واحد منه اسمين ، اعتقادًا منه أن ذلك النوع نوعان مختلفان ، وليس الأمر كذلك ، بل هما نوع واحد .

فمن غلط فى ذلك الغانمى ؛ فإنه ذكر بابا من أبواب علم البيان وسَمَّاه التَّبليغ وقال : هو أن يأتى الشاعر بالمعنى فى البيت تاما من غير أن يكون للقافية فيما ذكره صنع ، ثم يأتى بها لحاجة الشعر إليها حتى يتم وزنه ، فيبلغ بذلك الغاية القُصْوَى فى الجودة ؛ كقول امرئ القيس(٢) :

---

(١) انظر كتاب « الصناعتين » لأبى هلال العسكرى (ص ٣٠٢ الآستانة) .

(٢) لامرئ القيس قصيدة على هذا الروى أولها :

خَلِيـلَىَّ مُرَّا بِى عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ ... لِنَقْضِىَ حَاجَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَـذَّبِ

ومن الرواة من يروى البيت الذى أنشده المؤلف فى هذه القصيدة ، ومنهم من يرويه فى قصيدة لعلقمة بن عبدة التميمى ، المعروف بعلقمة الفحل ؛ وهى قصيدة على روى كلمة امرئ القيس ، ويتحدث الرواة أن الشاعرين أنشدا قصيدتيهما معا ، وأول كلمة علقمة قوله :

ذَهَبْتَ مِنَ الْهِجْرَانِ فِى كُلِّ مَذْهَبِ ... وَلَمْ يَكُ حَقًّا كُلُّ هٰذَا التَّجَنُّبِ

وقد روى أبو هلال العسكرى هذا البيت منسوبا لامرئ القيس (الصناعتين : ٣٠١) ورواه ابن رشيق فى العمدة (٢ ـ ٥٥) منسوبا له أيضا .

كَأَنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وَأَرْحُلِنَا الْجَزْعُ الَّذِى لَمْ يُثَقَّبِ (١)

فإنه أتى بالتشبيه تاما قبل القافية ، ثم لما جاء بها بلغ الأمَدَ الأقصى فى المبالغة .

ثم إن الغانمى ذكر بعد هذا الباب بابا آخر ، وسماه الإشباع ، فقال : هو أن يأتى الشاعر بالبيت مُعلق القافية على آخر أجزائه ، ولا يكاد يفعل ذلك إلاّ حُذّاق الشعراء ، وذاك أن الشاعر إذا كان بارعا جَلَبَ بقدرته وذكائه وفطنته إلى البيت وقد تمت معانيه واستغنى عن الزيادة فيه قافية متممة لأعاريضه ووزنه فجعلها نعتا للمذكور ، كقول ذى الرُّمَّة (٢) :

قِفِ الْعِيسَ فى أَطْلَالِ مَيَّةَ فَاسْأَلِ رُسُومًا كَأَخْلَاقِ الرِّدَاءِ الْمُسَلْسَلِ (٣)

هذا كلام الغانمى بعينه .

والبابان المذكوران سواء ، لافرق بينهما بحال ؛ والدليل على ذلك أن بيت امرئ القيس يتمُّ معناه قبل أن يؤتى بقافيته ، وكذلك بيت ذى الرمة ، ألا ترى أن امرأ القيس لما قال :

كَأَنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وَأَرْحُلِنَـــا الْجَزْعُ ... ...

أتى بالتشبيه قبل القافية ، ولما احتاج إليها جاء بزيادة حسنة ، وهى قوله « لَمْ يُثَقَّب » ، وهكذا ذو الرمة ، فإنه لما قال :

---

(١) الجزع ــ بفتح الجيم وسكون الزاى ــ خرز يمان فيه سواد و بياض، وتشبه به الأعين .

(٢) هذا البيت مطلع قصيدة له يذكر فيها قومه و يهجو عشيرة امرئ القيس ، وبعده :

أَظُنُّ الَّذِى يُجْدِى عَلَيْكَ سُؤَالُهَا دُمُوعًا كَتَبْذِيرِ الْجُمَانِ الْمُفَصَّلِ

(٣) البيت فى الصناعتين (٣٠١) مع مابعده ، وفى العمدة (٢ ــ ٥٤) ، وفى العمدة « كتبديد الجمان » ولها وجه وجيه .

قِفِ الْعِيسَ فِي أَطْلَالِ مَيَّةَ فَاسْأَلِ رُسُومًا كَأَخْلَاقِ الرِّدَاءِ ....

أتى بالتشبيه أيضا قبل أن يأتى بالقافية ، ولما احتاج إليها جاء بزيادة حسنة وهى قوله « المسلسل » .

واعلم أن أباهلال العسكرى قد سمى هذين القسمين بعينهما الإيغال ؛ وقال[1] : هو أن يستوفِىَ الشاعرُ معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه ، ثم يأتى بالمقطع

---

(١) انظر « الصناعتين » لأبى هلال (ص ٣٠١) ومثل ماذكره المؤلف عن أبى هلال قد ذكره ابن رشيق فى العمدة (٢ – ٥٤ وما بعدها) ، ومثلا له أيضا بقول الأعشى ميمون بن قيس :

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْمًا لِيُوهِنَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعِلُ

و بقول امرئ القيس :

إِذَا مَاجَرَى شَأْوَيْنِ وَابْتَلَّ عِطْفُهُ تَقُولُ هَزِيزُ الرِّيحِ مَرَّتْ بِأَثْأَبِ

و بقول زهير بن أبى سلمى :

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَا لَمْ يُحَطَّمِ

ومثل له ابن رشيق بقول الخنساء :

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

و بقول الطرماح يصف فرسا بسعة منخره :

لَا يَكْتُمُ الرَّبْوَ إِلَّا رَيْثَ يُخْرِجُهُ مِنْ مَنْخِرٍ كَوِجَارِ الثَّعْلَبِ الْخَرِبِ

و بقول مسلم بن الوليد – وكان الرشيد يعجب به – :

إِذَا مَا عَلَتْ مِنَّا ذُؤَابَةَ شَارِبٍ تَمَشَّتْ بِهِ مَشْيَ الْمُقَيَّدِ فِي الْوَحْلِ

و بقول بشار بن برد :

وَغَيْرَانَ مِنْ دُونِ النِّسَاءِ كَأَنَّهُ أُسَامَةُ ذُو الشِّبْلَيْنِ حِينَ يَجُوعُ

فيزيد فيه معنى آخر ، وأصل الإيغال من أَوْغَلَ فى الأمرِ ؛ إذا أبعد الذهاب فيه ، ثم مثل أبو هلال ذلك بقول ذى الرمة :

* قِفِ الْعِيسَ فى أَطْلَالِ مَيَّةَ فَاسْأَلِ * البيت .

وهذا أقرب أمرا من الغانمى ؛ لأنه ذكره فى باب واحد ، وسماه باسم واحد ، ولم يذكره فى باب آخر كما فعل الغانمى ، وليس الأخذ على الغانمى فى ذلك مناقشة على الأسماء ، وإنما المناقشة على أن ينتصب لإيراد علم البيان وتفصيل أبوابه ، ويكون أحد الأبواب التى ذكرها داخلا فى الآخر فيذهب عليه ويخفى عنه ، وهو أشهر من فَلَقِ الصَّبَاحِ .

وههنا ماهو أغرب من ذاك ؛ وذلك أنه قد سلك قوم فى منثور الكلام ومنظومه طُرُقًا خارجة عن موضوع علم البيان ، وهى بِنَجْوَةٍ عنه ؛ لأنها فى وَادٍ وعلم البيان فى واد .

فمن فعل ذلك الحريرى صاحب المقامات ؛ فإنه ذكر تلك الرسالة التى هى كلمة معجمة وكلمة مهملة ، والرسالة التى حرف من حروف ألفاظها معجم والآخر غير معجم ، ونظم غيره شعرا آخر كل بيت منه أول للبيت الذى يليه ، وكل هذا ـ وإن تضمن مشقةً من الصناعة ـ فإنه خارج عن باب الفصاحة والبلاغة ؛ لأن الفصاحة هى ظهور الألفاظ مع حسنها ، على ماأشرت إليه فى مقدمة كتابى هذا ، وكذلك البلاغة فإنها الانتهاء فى محاسن الألفاظ والمعانى ؛ من قولنا : بلغت المكان ؛ إذا انتهيت إليه ، وهذا الكلام المَصُوغ بما أتى به الحريرى فى رسالته وأورده ذلك الشاعر فى شعره لايتضمن فصاحةً ولا بلاغة ، وإنما يأتى ومعانيه غَثّة باردة ، وسبب ذلك أنها تُسْتَكْرَهُ استكراها ، وتوضع فى غير مواضعها ، وكذلك ألفاظه ؛ فإنها تجىء مُكْرَهَةً أيضا غير ملائمة لأخواتها ، وعلم البيان إنما هو الفصاحة والبلاغة فى الألفاظ والمعانى ، فإذا خرج عنه شىء من هذه

الأوضاع المشار إليها لا يكون معدودا منه ، ولا داخلا فى بابه ، ولو كان ذلك مما يوصف بحسن فى ألفاظه ومعانيه لورد فى كتاب الله عز وجل الذى هو مَعْدِن الفصاحة والبلاغة ، أو ورد فى كلام العرب الفصحاء ، ولم نره فى شىء من أشعارهم ولا خطبهم .

ولقد رأيت رجلا أديبا من أهل المغرب ، وقد تغلغل فى شىء عجيب ، وذاك أنه شجر شجرة ونظمها شعرا ، وكل بيت من ذلك الشعر يقرأ على ضروب من الأساليب اتباعا لشعب تلك الشجرة وأغصانها ؛ فتارة تقرأ كذا ، وتارة تقرأ كذا ، وتارة يكون جزء منه ههنا ، وتارة ههنا ، وتارة يقرأ مقلوبا ، وكل ذلك الشعر وإن كان له معنى يفهم إلا أنه ضرب من الهذيان ، والأولى به وبأمثاله أن يلحق بالشَّعْبَذة والمعالجة والمصارعة ، لا بدرجة الفصاحة والبلاغة .

ورأيت أبا محمد عبد الله بن سنان الخفاجى قد ذكر بابا من الأبواب فى كتابه ؛ فقال[١] : ينبغى ألَّا تستعمل فى الكلام المنظوم والمنثور ألفاظَ المتكلمين والنحويين والمهندسين ، ومعانيهم ، ولا الألفاظ التى تختصُّ بها بعضُ المِهَن والعلوم ؛ لأن الإنسان إذا خاض فى علم وتكلم فى صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وأصحاب تلك الصناعة ، ثم مثل ذلك بقول أبى تمام[٢] :

مَوَدَّةٌ ذَهَبٌ أَثْمَارُهَا شَبَهٌ ... وَهِمَّةٌ جَوْهَرٌ مَعْرُوفُهَا عَرَضُ[٣]

---

(١) انظر « سر الفصاحة » لابن سنان الخفاجى (ص ١٥٩) .

(٢) من كلمة له يعاتب فيها عياش بن لهيعة ، وأولها قوله :

ذُلُّ السُّؤَالِ شَجًى فى الحَلْقِ مُعْتَرِضُ ... مِنْ دُونِهِ شَرَقٌ مِنْ تَحْتِهِ جَرَضُ

مَا مَاءُ كَفِّكَ إِنْ جَادَتْ وَإِنْ بَخِلَتْ ... مِنْ ماءِ وَجْهِى إِذَا أَفْنَيْتُهُ عِوَضُ

انظر الديوان (ص ٤٠٠ بيروت) .

(٣) قبل هذا البيت قوله :

و بقوله أيضا[١] :

خَرْقَاءُ يَلْعَبُ بِالعُقُولِ حَبَابُهَا كَتَلَعُّبِ الأَفْعَالِ بِالأَسْمَاءِ[٢]

مَنْ أَشْتَكِي؟ وَإِلَى مَنْ أَعْتَزِي؟ وَنَدَى مَنْ أَجْتَدِي؟ كُلُّ أَمْرٍ فِيكَ مُنْتَقِضُ

قال الخفاجي بعد رواية بيت أبي تمام هذا : « لأن الجوهر والعرض من ألفاظ أهل الكلام الخاصة بهم » اه ، وعندهم أن الجوهر كل ماقام بنفسه كالقلم والكتاب ، والعرض عندهم كل ماقام بغيره كاللون والطعم .

(١) من قصيدة له يمدح فيها يحيى بن ثابت ، وأولها قوله :

قَدْكَ اتَّئِبْ أَرْبَيْتَ فِي الغُلَوَاءِ كَمْ تَعْذِلُونَ وَأَنْتُمُ سُجَرَائِي

انظر الديوان (ص ٢ بيروت) .

(٢) قبل هذا البيت قوله :

غَنِيَ الرَّبِيعُ بِرَوْضِهِ فَكَأَنَّمَا أَهْدَى إِلَيْهِ الوَشْيَ مِنْ صَنْعَاءِ

صَبَّحْتُهُ بِمُدَامَةٍ صَبَّحْتُهَا بِسُلَافَةِ الخُلَطَاءِ وَالنُّدَمَاءِ

بِمُدَامَةٍ تَغْدُو المُنَى لِكُؤُوسِهَا خَوَلاً عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

رَاحٍ إِذَا مَا الرَّاحُ كُنَّ مَطِيَّهَا كَانَتْ مَطَايَا الشَّوْقِ فِي الأَحْشَاءِ

عِنَبِيَّةٍ ذَهَبِيَّةٍ سَبَكَتْ لَهَا ذَهَبَ المَعَانِي صَاغَةُ الشُّعَرَاءِ

صَعُبَتْ وَرَاضَ المَزْجُ سَيِّئَ خُلْقِهَا فَتَعَلَّمَتْ مِنْ حُسْنِ خُلْقِ المَاءِ

ومثل البيتين اللذين مثل بهما المؤلف تبعا لابن سنان الخفاجي قول أبي الطيب المتنبي:

إِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فِعْلاً مُضَارِعاً مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ الجَوَازِمُ

وَكَيْفَ تُرَجِّي الرُّومُ وَالرُّوسُ هَدْمَهَا وَذَا الطَّعْنُ آسَاسٌ لَهَا وَدَعَائِمُ

وقول أبي العلاء المعري :

تَلَاقٍ تَفَرَّى عَنْ فِرَاقٍ تَذُمُّهُ مَآقٍ، وَتَكْسِيرُ الصِّحَاحِ فِي الجَمْعِ

ويحكى أن عز الدولة بختيار بن معز الدولة قال يوما ، وفي مجلسه جماعة من ندمائه

وهذا الذى أنكره ابن سنان هو عين المعروف فى هذه الصناعة :

إنَّ الَّذِى تَكْرَهُونَ مِنْهُ هُوَ الَّذِى يَشْتَهِيهِ قَلْبِى

وسأبين فساد ما ذهب إليه ، فأقول : أما قوله « إنه يجب على الإنسان إذا خاض فى علم أو تكلم فى صناعة أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وأصحاب تلك الصناعة » فهذا مسلم إليه ، ولكنه شذ عنه أن صناعة المنظوم والمنثور مستمَدَّة من كل علم وكل صناعة ؛ لأنها موضوعة على الخوض فى كل معنى ، وهذا لاضابط له يضبطه ، ولا حاصر يحصره ، فإذا أخذ مؤلف الشعر أو الكلام المنثور فى صَوْغ معنًى من المعانى وأدَّاه ذلك إلى استعمال معنى فقهى أو نحوى أو حسابى أو غير ذلك فليس له أن يتركه ويَحِيدَ عنه ؛ لأنه من مقتضيات هذا المعنى الذى قصده ، ألا ترى إلى قول أبى تمام فى الاعتذار (١) :

فَإِنْ يَكُ جُرْمٌ عَنَّ أَوْ تَكُ هَفْوَةٌ عَلَى خَطَإٍ مِنِّى فَعُذْرِى عَلَى عَمْدِ (٢)

وكتابه : لينشد كل واحد منكم أغزل مايعرفه من الشعر ، فأنشد كل واحد ماحضره ، فلما انتهى القول إلى أبى الخطاب المفضل بن ثابت الصابى ، وكان أبوه طبيبا ، أنشده قول أبى العتاهية :

قالَ لِى أَحْمَدُ وَلَمْ يَدْرِ مابِى : أَتُحِبُّ الْغَدَاةَ عُتْبَةَ حَقًّا ؟
فَتَنَفَّسْتُ ثُمَّ قُلْتُ : نَعَمْ حُبًّا جَرَى فِى الْعُرُوقِ عِرْقًا فَعِرْقَا

فقال له بختيار : لاتخرج بنا يا أبا الخطاب عن صناعة الطب التى ماترثها عن كلالة .

(١) من قصيدة له يمدح فيها موسى بن إبراهيم الرافقى ، ويعتذر إليه ، وهو آخرها بيتا ؛ وأولها قوله :

شَهِدْتُ لَقَدْ أَقْوَتْ مَغَانِيكُمُ بَعْدِى وَمَحَّتْ كَمَا مَحَّتْ وَشَائِعُ مِنْ بُرْدِ
وَأَنْجَدْتُمُ مِنْ بَعْدِ إِتْهَامِ دَارِكُمْ فَيَادَمْعُ أَنْجِدْنِى عَلَى سَاكِنِى نَجْدِ

(٢) فى نسختين من الديوان « فإن يك جرم عز » .

فإن هذا من أحسن مايجيء فى باب الاعتذار عن الذنب ، وكان ينبغى له ـ على ما ذكره ابن سنان ـ أن يترك ذلك ولا يستعمله ، حيث فيه لفظتا « الخطأ » و « العمد » اللتان هما من أخصّ ألفاظ الفقهاء .

وكذلك قول أبى الطيب المتنبى[١] :

وَلَقِيتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ كَأَنَّمَا ... رَدَّ الإِلٰهُ نُفُوسَهُمْ وَالأَعْصُرَا[٢]

نُسِقُوا لَنَا نَسْقَ الْحِسَابِ مُقَدَّماً ... وَأَتَى فَذٰلِكَ إِذْ أَتَيْتَ مُؤَخَّرَا

وهذا من المعانى البديعة ، وما كان ينبغى لأبى الطيب أن يأتى فى مثل هذا الموضع بلفظة « فذلك » التى هى من ألفاظ الحساب ، بل كان يترك هذا المعنى الشريف الذى لايتم إلا بتلك اللفظة موافقة لابن سنان فيما رآه وذهب إليه ، وهذا محض الخطأ وعين الغلط .

وأما ما أنكره على أبى تمام فى قوله :

مَوَدَّةٌ ذَهَبٌ أَثْمَارُهَا شَبَهٌ ... وَهِمَّةٌ جَوْهَرٌ مَعْرُوفُهَا عَرَضُ

فإن هذا البيت ليس منكرا لما استعمل فيه من لفظتى الجوهر والعرض اللتين هما من خصائص ألفاظ المتكلمين ، بل لأنه فى نفسه ركيك ؛ لتضمنه لفظة « الشبه » فإنها لفظة عامية ركيكة ، وهى التى أسخفت بالبيت بجملته ،

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا الفضل محمد بن العميد ، وأولها قوله :

بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا ... وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

(٢) قبل هذا البيت قوله :

مَنْ مُبْلِغُ الأَعْرَابِ أَنِّى بَعْدَهَا ... شَاهَدْتُ رَسْطَالِيسَ وَالإِسْكَنْدَرَا

وَمَلِلْتُ نَحْرَ عِشَارِهَا فَأَضَافَنِى ... مَنْ يَنْحَرُ الْبِدَرَ النُّضَارَ لِمَنْ قَرَى

وَسَمِعْتُ بَطْلَيْمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ ... مُتَمَلِّكاً مُتَبَدِّياً مُتَحَضِّرَا

ورب قليل أفسد كثيرا ، وأما لفظتا الجوهر والعرض فلا عيب فيهما ، ولا ركاكة عليهما .

وأما البيت الآخر ، وهو :

خَرْقَاءَ يَلْعَبُ بِالْعُقُولِ حَبَابُهَا كَتَلَعُّبِ الْأَفْعَالِ بِالْأَسْمَاءِ

فليس بمنكر ، وهل يشك فى أن التشبيه الذى تضمنه واقع فى موقعه ؟ ألا ترى أن الفعل ينقل الاسم من حال إلى حال ، وكذلك تفعل الخمرُ بالعقول فى تنقّل حالاتها ، فما الذى أنكره ابن سنان من ذلك ؟

وقد جاء لبعض المتأخرين من هذا الأسلوب مالايدافع فى حسنه ، وهو قوله :

عَوَامِلُ رِزقٍ أَعْرَبَتْ لُغَةَ الرَّدَى فَجِسْمٌ لَهُ خَفْضٌ وَرَأْسٌ لَهُ نَصْبُ

فإنه لما حصل له المشابهة فى الاسمية بين عوامل الرماح والعوامل النحوية حسن موقع ما ذكره من الخفض والنصب ، وعلى ما ذكره ابن سنان فإن ذلك غير جائز ، وهو من مستحسنات المعانى ، هذا من أعجب الأشياء !!.

وعلى هذا الأسلوب ورد قول بعضهم :

وَفَتًى مِنْ مَازِنٍ فَاقَ أَهْلَ الْبَصْرَهْ
أُمُّــــهُ مَعْرِفَةٌ وَأَبُوهُ نَــكِرَهْ

وهل يشك فى حسن هذا المعنى ولطافته ؟.

وكذلك ورد من هذا النوع فى شعر بعض العراقيين يهجو طبيبا فقال :

قَالَ حِمَارُ الطَّبِيبِ تُومَا لَوْ أَنْصَفُونِى لَكُنْتُ أَرْكَبْ(١)
لِأَنَّنِى جَاهِلٌ بَسِيطٌ وَرَاكِبِى جَهْلُهُ مُرَكَّبْ

وهذا من المعنى الذى أغرب فى الملاحة ، وجمع بين خفة السخرية ووقار الفصاحة.

(١) يروى هذان البيتان فى كثير من كتب الأدب على هذا الوجه ، ووقع فى بعضها « قال حمار الحكيم توما » وفى بعضها « قال حمار الحكيم يوما » .

وقد تقدم القول فى صدر كتابى هذا أنه يجب على صاحب هذه الصناعة أن يتعلّق بكل علم وكل صناعة ، ويخوض فى كل فن من الفنون ؛ لأنه مُكَلَّف بأن يخوض فى كل معنى من المعانى ؛ فاضمم يدك على ما ذكرته ونَصَصْت عليه ، واترك ما سواه ؛ فليس القائل بعلمه واجتهاده كالقائل بظنه وتقليده .

وهذا النوع إذا استعمل على الوجه المرضى كان حسناً ، وإذا استعمل بخلاف ذلك كان قبيحاً ، كما جاء فى كلام أبى العــلاء بن سليمان المعرّىّ ، وهو قوله فى رسالة كتبها إلى بعض إخوانه : حَرَس الله سـعادته ما أدغمت التاء فى الظاء ، وتلك سعادة بغير انتهاء ؛ وهذا من الغث البارد ، لـكن قد جاءه فى الشعر ما هو حسن فائق ، كقوله[1] :

فَدُونَــكُمُ خَفْضَ الحَيَاةِ فَإِنَّنَا نَصَبْنَا المَطَايَا فِى الْفَلَاةِ عَلَى الْقَطْعِ

والخفض والنصب من الإعراب النحوى ، والخفض : رَفاهة العيش ، والقطع : من منصوبات النحو ، والقطع : قطع الشىء ، يقال : قطعته ؛ إذا بترته .

النوع التاسع والعشرون

فى التوشيح

وهو : أن يبنى الشاعر أبيات قصيدته على بحرين مختلفين ؛ فإذا وقف من البيت على القافية الأولى كان شعراً مستقيما من بحر على عروض ، وإذا أضاف

---

(١) من قصيدة له يودّع فيها بغداد ؛ وأولها قوله :

نَبِىٌّ مِنَ الغِرْبَانِ لَيْسَ عَلَى شَرْعِ يُخَبِّرُنَا أَنَّ الشُّعُوبَ إِلَى الصَّدْعِ

انظر ديوان سقط الزند (ص ١١٠ مصر عام ١٩٠١ م) .

إلى ذلك ما بنى عليه شعره من القافية الأخرى كان أيضاً شعرًا مستقيماً من بحر آخر على عروض ، وصار ما يضاف إلى القافية الأولى للبيت كالوشاح ، وكذلك يجرى الأمر فى الفقرتين من الكلام المنثور ؛ فإن كل فقرة منهما تصاغ من سجعتين .

وهذا لايكاد يستعمل إلا قليلا ، وليس من الحسن فى شىء ، واستعماله فى الشعر أحسن منه فى الكلام المنثور ؛ فمن ذلك قول بعضهم (١) :

---

(١) لأبى بكر أحمد بن الحسين الأرجانى قصيدة طويلة يمدح فيها قاضى قضاة فارس طاهر بن محمد ، وقد زاد على ذلك أن الشطر الأول من كل بيت مبنى على قافيتين كما أن الشطر الثانى كذلك ، فيمكن أن يقرأ البيت الواحد على ثلاثة أوجه ، ونحن نذكر لك من هذه القصيدة عدة أبيات ، ونبين لك الوجوه التى يمكن أن تقرأ عليها ، قال :

صَبٌّ مُقِيمٌ سَـــائِرٌ فُؤَادُهُ طَوْعُ الهوَى مَعَ الخَلِيطِ المُنْجِدِ
غَائِبُ قَلْبٍ حاضِرٌ وِدَادُهُ لِمَنْ نَأَى فى عَهْدِهِمْ وَالمَعْهَدِ
لَهُ جَوًى مُخَامِرٌ يَعْتَـــادُهُ إِذَا اشْتَكَى طَيْفَ الْكَرَى فِى الْعُوَّدِ

فهذه الأبيات على هذا الوجه من بحر الكامل من العروض الأولى ، ويصح أن تقرأ هكذا :

صَبٌّ مُقِيمٌ سَـائِرٌ فُؤَادُهُ طَوْعُ الهوَى
غَائِبُ قَلْبٍ حاضِرٌ وِدَادُهُ لِمَنْ نَأَى
لَهُ جَــوًى مُخَامِرٌ يَعْتَادُهُ إِذَا اشْتَكَى

فتكون من مجزوء الكامل ، وتقرأ أيضا على وجه آخر هكذا :

صَبٌّ مُقِيمٌ سَـائِرٌ مَعَ الخَلِيطِ المُنْجِدِ
غَائِبُ قَلْبٍ حاضِرٌ فِى عَهْدِهِمْ وَالمَعْهَدِ

أَسْلَمْ وَدُمْتَ عَلَى الحَوَادِثِ مَارِسًا ۞ رُكْنًا ثَبِير ، أَوْ هِضَابُ حِرَاء
وَنَلِ المُرَادَ مُمَكَّنًا مِنْـــهُ عَلَى ۞ رَغْمِ الدُّهُورِ ، وَفُزْ بِطُولِ بَقَاء

وهذا من الجيد الذى يأتى فى هذا النوع ، إلا أن أثر التكلف عليه باد ظاهر ، وإذا نظر إلى هذين البيتين وجدا وهما يذكران على قافية أخرى وبحر آخر ، وذاك أن يقال :

اسْلَمْ وَدُمْتَ عَلَى الْحَوَا ۞ دِثِ مَارِسًا رُكْنًا ثَبِيرِ
وَنَلِ المُرَادَ مُمَكَّنًا ۞ مِنْهُ عَلَى رَغْمِ الدُّهُورِ

وقد استعمل ذلك الحريرى فى مقاماته ، نحو قوله :

يَا خَاطِبَ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ إِنَّهَا ۞ شَرَكُ الرَّدَى ، وَقَرَارَةُ الأَكْدَارِ
دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكَتْ فِى يَوْمِهَا ۞ أَبْكَتْ غَدًا ، بُعْدًا لَهَا مِنْ دَارِ
وَإِذَا أَظَلَّ سَحَابُهَا لَمْ يُنْتَفَعْ ۞ مِنْهُ صَدًى ، لِجَهَامِهِ الْغَرَّارِ

واعلم أن هذا النوع لايستعمل إلا متكلفا عند تعاطى التمكن من صناعة النظم ، وحسنُهُ مَنُوطٌ بما فيه من الصناعة ، لا بما فيه من البراعة ؛ ألا ترى أنه لو نظم عليه قصيد من أوله إلى آخره يتضمن غزلا ومديحا على ما جرت به عادة القصائد أليس أنه كان يجىء باردا غثًّا لايسلم منه على محكّ النظر عشره ؟ والعشر كثير ، وما كان على هذه الصورة من الكلام فإنما يستعمل أحيانا على الطبع ، لاعلى التكلف ، وهو وأمثاله لايحسن إلا إذا كان يسيرا ، كالرقم فى الثوب أو الشّيَة فى الجلد .

لَهُ جَـــوًى مُخَامِرٌ ۞ طَيْفَ الْكَرَى فى الْعُوَّدِ

فتكون من مجزوء الكامل أيضا . وهذا أشد تكلفا مما ذكره المؤلف ، وانظر ديوان الأرجانى (ص ٢١٣ بيروت) .

النوع الثلاثون

فى السرقات الشعرية

ولربما اعترض معترض فى هذا الموضوع فقال : قد تقدم نثر الشعر فى أول الكتاب ، وهو أخذ الناثر من الناظم ، ولا فرق بينه وبين أخذ الناظم من الناظم ؛ فلم يكن إلى ذكر السرقات الشعرية إذَنْ حاجةٌ . ولو أنعم هذا المعترض نظره لظهر له الفرق ، وعلم أن نثر الشعر لم يتعرض فيه إلى وجوه المأخذ وكيفية التوصل إلى مداخل السرقات ؛ وهذا النوع يتضمن ذكر ذلك مفصلا .

واعلم أن الفائدة من هذا النوع أنك تعلم أين تضع يدك فى أخذ المعانى ؛ إذ لايستغنى الآخر عن الاستعارة من الأول ، لكن لاينبغى لك أن تعجل فى سبك اللفظ على المعنى المسروق فَتُنَادِىَ على نفسك بالسرقة ، فكثيرًا مارأينا من عجل فى ذلك فعثر ، وتعاطى فيه البديهة فعَثَرَ ، والأصْلُ المعتمد عليه فى هذا الباب التورية والاختفاء بحيث يكون ذلك أخفى من سِفَادِ الغراب ، وأظرف من عنقاء مغرب فى الإغراب .

وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه ليس لقائل أن يقول : إن لأحد من المتأخرين مَعْنًى مبتدعا ؛ فإن قول الشعر قديم منذ نطق باللغة العربية ، وإنه لم يبق معنى من المعانى إلا وقد طُرِق مراراً .

وهذا القول وإن دخل فى حيز الإمكان إلا أنه لايلتفت إليه ؛ لأن الشعر من الأمور المتناقلة ، والذى نقلته الأخبار وتواردت عليه أن العرب كانت تنظم المقاطيع من الأبيات فيما يَعِنُّ لها من الحاجات ، ولم يزل الحال على هذه الصورة إلى عهد أمرئ القيس ، وهو قبل الإسلام بمائة سنة زائداً فناقصاً ؛ فقَصَّد القصائد ، وهو أول من قَصَّد ، ولو لم يكن له معنى اختص به سوى أنه أول من قصَّد القصائد

لكان فى ذلك كفاية ، وأى فضيلة أكبر من هذه الفضيلة ؟ ثم تتابع المقصّدون ، واختير من القصائد تلك السبع التى علقت على البيت ، وانفتح للشعراء هذا الباب فى التقصيد ، وكثرت المعانى المقولة بسببه ، ولم يزل الأمر ينمى ويزيد ويؤتى بالمعانى الغريبة ، واستمر ذلك إلى عهد الدولة العباسية وما بعدها إلى الدولة الْحَمْدَانية ؛ فعظم الشعر ، وكثرت أساليبه ، وتشعبت طرقه ، وكان ختامَهُ على الثلاثة المتأخرين ، وهم : أبو تمام حبيب بن أوس ، وأبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى ، وأبو الطيب المتنبى ؛ فإذا قيل : إن المعانى المبتدعة سبق إليها ولم يبق معنى مبتدع ؛ عُورض ذلك بما ذكرته .

والصحيح أن باب الابتداع للمعانى مفتوح إلى يوم القيامة ، ومن الذى يحجر على الخواطر وهى قاذفة بما لا نهاية له ؟ إلا أن من المعانى مايتساوى الشعراء فيه ، ولا يطلق عليه اسم الابتداع لأول قبل آخر ؛ لأن الخواطر تأتى به من غير حاجة إلى اتباع الآخر الأول ، كقولهم فى الغزل :

عَفَتِ الدِّيَارُ وَمَا عَفَتْ ... آثَارُهُنَّ مِنَ الْقُلُوبِ

وكقولهم : إن الطيف يجود بما يبخل به صاحبه ؛ وإن الواشى لو علم بمزار الطيف لساءه ، وكقولهم فى المديح : إن عطاءه كالبحر ، وكالسحاب ، وإنه لايمنع عطاء اليوم عطاء غد ، وإنه يجود ابتداء من غير مسألة ، وأشباه ذلك . وكقولهم فى المراثى : إن هذا الرزء أول حادث ، وإنه استوى فيه الأباعد والأقارب ، وإن الذاهب لم يكن واحداً وإنما كان قبيلة ، وإن بعد هذا الذاهب لايعد للمنية ذنب ، وأشباه ذلك . وكذلك يجرى الأمر فى غير ما أشرت إليه من معانٍ ظاهرة تتوارد الخواطر عليها من غير كلفة ، وتستوى فى إيرادها ، ومثل ذلك لايطلق على الآخر فيه اسم السرقة من الأول ، وإنما يطلق اسم السرقة فى معنى مخصوص ، كقول أبى تمام :

لاَ تُنْكِرُوا ضَرْبِى لَهُ مَنْ دُونَهُ ... مَثَلاً شَرُوداً فِى النَّدَى وَالْبَاسِ

فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقَلَّ لِنُورِهِ مَثَلاً مِنَ الْمِشْكَاةِ وَالنِّبْرَاسِ

فإن هذا معنى مخصوص ابتدعه أبو تمام ، وكان لابتداعه سبب ، والحكاية فيه مشهورة ، وهى أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التى مطلعها :

* مَا فِي وُقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسِ[1] *

انتهى إلى قوله :

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذَكَاءِ إِيَاسِ

فقال الحكيم الكندى : وأى فخر فى تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب ؟ فأطرق أبو تمام ثم أنشد هذين البيتين معتذراً عن تشبيهه إياه بعمرو وحاتم وإياس ، وهذا معنى يشهد به الحال أنه ابتدعه ، فمن أتى من بعده بهذا المعنى أو بجزء منه فإنه يكون سارقاً له .

وكذلك ورد قول أبى الطيب المتنبى فى عضد الدولة وولديه[2] :

وَأَنْتَ الشَّمْسُ تَبْهَرُ كُلَّ عَيْنٍ فَكَيْفَ وَقَدْ بَدَتْ مَعَهَا اثْنَتَانِ

فَعَاشَا عِيشَةَ الْقَمَرَيْنِ يُحْيَا بِضَوْئِهِمَا وَلاَ يَتَحَاسَدَانِ

وَلاَ مَلَكَا سِوَى مُلْكِ الْأَعَادِي وَلاَ وَرِثَا سِوَى مَنْ يَقْتُلاَنِ

وَكَانَ ابْنَا عَدُوٍّ كَاثَرَاهُ لَهُ يَاءَيْ حُرُوفِ أُنَيْسِيَانِ

وهذا معنى لأبى الطيب ، وهو الذى ابتدعه : أى أن زيادة أولاد عدوك

---

(١) هذا صدر مطلع القصيدة التى منها الأبيات المذكورة ، وعجزه :

* نَقْضِي ذِمَامَ الْأَرْبُعِ الْأَدْرَاسِ *

(٢) ولدا عضد الدوله : هما أبو الفوارس وأبو دلف ، وأول هذه القصيدة قوله :

مَغَانِي الشِّعْبِ طِيباً فى الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

وَلٰكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ

كزيادة التصغير ؛ فإنها زيادة نقص .

وما ينبغى أن يقال إن ابن الرومى ابتدع هذا المعنى الذى هو(١) :

تَشْكُو المُحِبَّ وَتُلْفَى الدَّهْرَ شَاكِيَةً   كَالْقَوْسِ تُصْمِي الرَّمَايَا وَهْيَ مِرْنَانُ(٢)

فإن علماء البيان يزعمون أن هـذا المعنى مُبْتَدَع لابن الرومى ، وليس كذلك ، ولـكنه مأخوذ من المثل المضروب ، وهو قولهم : يَلْدَغُ ويَصِى ، ويضرب ذلك لمن يبتدئ بالأذى ثم يشكو ، وإنما ابن الرومى قد ابتـدع معانى أخر غير ماذكرته ، وليس الغرض أن يؤتى على جميع ماجاء به هو ولا غيره من المعانى المبتدعة ، بل الغرض أن يبين المعنى المبتدع من غيره .

والذى عندى فى السرقات أنه متى أورد الآخر شيئاً من ألفاظ الأول فى معنى من المعانى ، ولو لفظة واحدة ؛ فإن ذلك من أدلّ الدليل على سرقته .

واعلم أن علماء البيان قد تكلموا فى السرقات الشعرية فأكثروا ، وكنت ألفت فيه كتاباً ، وقسمته ثلاثة أقسام : نَسْخاً ، وَسَلْخاً ، وَمَسْخاً .

أما النسخ فهو : أخذ اللفظ والمعنى برمته ، من غير زيادة عليه ، مأخوذاً ذلك من نسخ الـكتاب .

وأما السلخ فهو : أخذ بعض المعنى ، مأخوذاً ذلك من سَلْخ الجلد الذى هو بعض الجسم المسلوخ .

---

(١) قبل هذا البيت قوله :

وَمِنْ عَجَائِبِ مَا يُمْنَى الرِّجَالُ بِهِ   مُسْتَضْعَفَاتٌ لَهُ مِنْهُنَّ أَقْرَانُ

مُنَاضِلَاتٌ بِنَبْلٍ لَا تَقُومُ لَهُ   كَتَائِبُ التُّرْكِ يُزْجِيهِنَّ خَاقَانُ

يَا رُبَّ حُسَّانَةٍ مِنْهُنَّ قَدْ فَعَلَتْ   سُوءًا وَقَدْ تَفْعَلُ الْأَسْوَاءَ حُسَّانُ

(٢) فى ا ، ب ، ج « يشكى المحب ويلقى الدهر شاكيه » وهو تحريف من عدة أوجه ، وقد عرفت الأبيات السابقة على هذا البيت .

وأما المسخ فهو : إحالة المعنى إلى مادونه ، مأخوذاً ذلك من مسخ الآدميين قِرَدَة .

وههنا قسمان آخران أخللت بذكرهما فى الكتاب الذى ألفته ؛ فأحدهما : أخذ المعنى مع الزيادة عليه ، والآخر عكس المعنى إلى ضده ؛ وهذان القسمان ليسا بنسخ ولا سلخ ولا مسخ .

وكل قسم من هذه الأقسام يتنوّع ويتفرّع ، وتخرج به القسمة إلى مسالك دقيقة ، وقد استأنفت مافاتنى من ذلك فى هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب .

ومن المعلوم أن السرقات الشعرية لايمكن الوقوف عليها إلا بحفظ الأشعار الكثيرة التى لايحصرها عدد ، فَمَنْ رَامَ الأخذ بنواصيها ، والاشتمال على قواصيها ، بأن يتصفح الأشعار تصفحاً ، ويقتنع بتأملها ناظراً ؛ فإنه لايظفر منها إلا بالحواشى والأطراف ؛

وكنت سافرت إلى الشام فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، ودخلت مدينة دمشق ؛ فوجدت جماعة من أدبائها يلهجون ببيت من شعر ابن الخياط فى قصيد له أولها[1] :

* خُذَا مِنْ صَبَا نَجْدٍ أَمَانًا لِقَلْبِهِ *

ويزعمون أنه من المعانى الغريبة ، وهو :

أَغَارُ إذَا آنَسْتُ فِى الْحَىِّ أَنَّةً ... حذاراً عَلَيْهِ أَنْ تَكُونَ لِحُبِّهِ

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* فَقَدْ كَادَ رَيَّاهَا يَطِيرُ بِلُبِّهِ *

وبعد المطلع قوله :

وَإِيَّاكُمَا ذَاكَ النَّسِيمَ فَإِنَّهُ ... إِذَا هَبَّ كَانَ الْوَجْدُ أَيْسَرَ خَطْبِهِ
خَلِيلَىَّ لَوْ أَحْبَبْتُمَا لَعَلِمْتُمَا ... مَحَلَّ الهوَى مِنْ مُغْرَمِ الْقَلْبِ صَبِّهِ
تَذَكَّرَ فَذُوالذِّكْرَى يَشُوقُ وَذُوالهوَى ... يَتُوقُ ، وَمَنْ يَعْلَقْ بِهِ الحُبُّ يُصْبِهِ

فقلت لهم : هذا البيت مأخوذ من شعر أبى الطيب المتنبى فى قوله(١) :

لَوْ قُلْتَ لِلدَّنِفِ المَشُوقِ فَدَيْتُهُ ... مِمَّا بِهِ لَأَغَرْتَهُ بِفِدَائِهِ(٢)

وقول أبى الطيب أدق معنى ، وإن كان قول ابن الخياط أرق لفظاً ، ثم إنى وقفتهم على مواضع كثيرة من شعر ابن الخياط قد أخذها من شعر المتنبى .

وسافرت إلى الديار المصرية فى سنة ست وتسعين فوجدت أهلها يعجبون ببيت من الشعر يَعْزونه إلى شاعر من أهل اليمن يقال له عِمَارة ، وكان حديث عهد بزماننا هذا فى آخر الدولة العلوية بمصر ، وذلك البيت من جملة قصيدة له يمدح بها بعض خلفائها عند قدومه عليه من اليمن ، وهو(٣) :

فَهَلْ دَرَى البَيْتُ أَنِّى بَعْدَ فُرْقَتِهِ ... مَا سِرْتُ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمِ

فقلت لهم : هذا البيت مأخوذ من شعر أبى تمام فى قوله مادحا لبعض الخلفاء فى حجة حجها ، وذلك بيت من جملة أبيات حسنة :

يَامَنْ رَأَى حَرَمًا يَسْرِى إِلَى حَرَمِ ... طُوبَى لِمُسْتَلِمٍ يَأْتِى وَمُلْتَزِمِ

---

(١) من قصيدة له أولها قوله :

القَلْبُ أَعْلَمُ يَا عَذُولُ بِدَائِهِ ... وَأَحَقُّ مِنْكَ بِجَفْنِهِ وَبِمَائِهِ

(٢) قبل هذا البيت قوله :

لَا تَعْذُلِ المُشْتَاقَ فِى أَشْوَاقِهِ ... حَتَّى يَكُونَ حَشَاكَ فِى أَحْشَائِهِ

إِنَّ القَتِيلَ مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ ... مِثْلُ القَتِيلِ مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ

وَالعِشْقُ كَالمَعْشُوقِ يَعْذُبُ قُرْبُهُ ... لِلْمُبْتَلَى وَيَنَالُ مِنْ حَوْبَائِهِ

(٣) من قصيدة له يمدح فيها الخليفة الفائز بن الظافر ووزيره الصالح ؛ وقبل البيت من أولها قوله :

الحَمْدُ لِلْعِيسِ بَعْدَ العَزْمِ وَالهِمَمِ ... حَمْداً يَقُومُ بِمَا أَوْلَتْ مِنَ النِّعَمِ

ثم قلت فى نفسى : يالله العجب ! ليس أبو تمام وأبوالطيب من الشعراء الذين دَرَسَت أشعارهم ، ولا هما ممن لم يعرف ولا اشتهر أمره ، بل هما كما يقال : أشهر من الشمس والقمر ، وشعرهما دائر فى أيدى الناس ، بخلاف غيرهما ، فكيف خفى على أهل مصر ودمشق بيتا ابن الخياط وعمارة المأخوذان من شعرهما ؟

وعلمت حينئذ أن سبب ذلك عدمُ الحفظ للأشعار ، والاقتناعُ بالنظر فى دواوينهما ، ولمَّا نصبت نفسى للخَوْض فى علم البيان ورُمْت أن أكون معدوداً من علمائه علمت أن هذه الدرجة لاتنال إلا بنقل مافى الكتب إلى الصدور ، والاكتفاء بالمحفوظ عن المسطور :

لَيْسَ بِعِلْمٍ مَاحَوَى الْقِمَطْرُ   مَا الْعِلْمُ إِلاَّ مَاحَوَاهُ الصَّدْرُ

ولقدوقفت من الشعرعلى كل ديوان ومجموع ، وأنفدت شطراً من العمرفى المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحراً لايوقف على ساحله ، وكيف ينتهى إلى إحصاء قول لم تُحْصَ أسماء قائله ، فعند ذلك اقتصرت منه على ماتكثر فوائده ، وتتشعب مقاصده ، ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم ، فى اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ؛ إذ المراد من الشعر إنماهو إيداع المعنى الشريف ، فى اللفظ الجزل واللطيف ، فمتى وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل ، وقد اكتفيت فى هذا بشعر أبى تمام حبيب بن أوس وأبى عبادة الوليد وأبى الطيب المتنبى ، وهؤلاء الثلاثة هم لاتُ الشعر وعُزّاه وَمنَاته ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته ، وقد حَوَتْ أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء .

لاأَجْحَدُالحقَّ عِنْدِى لِلرِّكَابِ يَدٌ   تَمنَّتِ اللُّجْمُ فِيهَا رُتْبَةَ الْخُطُمِ

قَرَّبْنَ بُعْدَ مَزَارِ الْعِزِّ مِنْ نَظَرِى   حَتّى رَأَيْتُ إِمَامَ الْعَصْرِ مِنْ أَمَمِ

وَرُمْنَ مِنْ كَعْبَةِ الْبَطْحَاءِ وَالْحَرَمِ   وَفْداً إِلَى كَعْبَةِ الْمَعْرُوفِ وَالْكَرَمِ

أما أبو تمام فإنه رَبُّ معان ، وَصَيْقَل ألباب وأذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر ، لم يمش فيه على أثر ؛ فهو غير مدافع عن مقام الإغراب ، الذى برز فيه على الأضراب ، ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ، ولم أقل ما أقول فيه إلا عن تَنْقيب وتَنْقير ؛ فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه أطاعته أعنة الكلام ، وكان قوله فى البلاغة ما قالت حَذام ؛ فَخُذْنى فى ذلك قول حكيم ، وتَعَلَّمْ ففوق كل ذى علم عليم .

وأما أبو عبادة البحترى فإنه أحسن فى سبك اللفظ على المعنى ، وأراد أن يَشْعُر فغَنَّى ، ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة على الإطلاق ، فبينا يكون فى شظف نجد إذ تشبث بريف العراق ، وسئل أبو الطيب المتنبى عنه ، وعن أبى تمام ، وعن نفسه ؛ فقال : أنا وأبو تمام حكيمان ، والشاعر البحترى ، وَلَعَمْرِى إنه أنصف فى حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ؛ فإن أبا عبادة أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، فى اللفظ المصوغ من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه إلى الأفهام ، وما أقول إلا أنه أتى فى معانيه بأخلاط الغالية ، ورقى فى ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية .

وأما أبو الطيب المتنبى فإنه أراد أن يسلك مسلك أبى تمام فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، لكنه حظى فى شعره بالحكم والأمثال ، واختصَّ بالإبداع فى وصف مواقف القتال ، وأنا أقول قولا لست فيه متأثما ، ولا منه متلثما ، وذاك أنه إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا ، فطريقه فى ذلك تضلُّ بسالكه ، وتقوم بعذر تاركه ، ولاشك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة ابن حَمْدَان فيصف لسانُه ، ما أدَّى إليه عِيانه ، ومع هذا فإنى رأيت الناس

عادلين فيه عن سنن التوسط ، فإما مُفرِط فى وصفه وإما مُفرِّط ، وهو وإن انفرد بطريق صار أبا عُذْره ، فإن سعادة الرجل كانت أكبر من شعره ، وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء ، ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الإطراء ، ولقد صدق فى قوله من أبياتٍ يمدح بها سيف الدولة(١) :

لَا تَطْلُبَنَّ كَرِيمًا بَعْدَ رُؤْيَتِهِ ... إِنَّ الْكِرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَدًا خُتِمُوا

وَلَا تُبَالِ بِشِعْرٍ بَعْدَ شَاعِرِهِ ... قَدْ أُفْسِدَ الْقَوْلُ حَتَّى أُحْمِدَ الصَّمَمُ

ولما تأملت شعره بعين المَعْدَلة البعيدة عن الهوى ، وعين المعرفة التى ماضل صاحبها وما غوى ، وجدته أقساما خمسة : خُمْس فى الغاية التى انفرد بها دون غيره ، وخمس من جيد الشعر الذى يساويه فيه غيره ، وخمس من متوسط الشعر ، وخمس دون ذلك ، وخمس فى الغاية المتقهقرة التى لا يعبأ بها وعدمها خير من وجودها ، ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها ، فإنها هى التى ألبسته لباس الملام ، وجعلت عرضه شارة لسهام الأقوام .

ولسائل ههنا أن يسأل ويقول : لم عدلت إلى شعر هؤلاء الثلاثة دون غيرهم ؟

فأقول : إنى لم أعدل إليهم اتفاقا ، وإنما عدلت إليهم نظرا واجتهادا ، وذلك أنى وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها حتى لم أترك ديوانا لشاعر مفلق يثبت شعره على المحك إلا وعرضته على نظرى ، فلم أجد أجمع من ديوان أبى تمام وأبى الطيب للمعانى الدقيقة ، ولا أكثر استخراجاً منهما للطيف الأغراض والمقاصد ، ولم أجد أحسن تهذيباً للألفاظ من أبى عبادة ، ولا أنقش

---

(١) من قصيدة له أولها :

عُقْبَى الْيَمِينِ عَلَى عُقْبَى الْوَغَى نَدَمُ ... مَاذَا يَزِيدُكَ فِى إِقْدَامِكَ الْقَسَمُ

وَفِى الْيَمِينِ عَلَى مَا أَنْتَ وَاعِدُهُ ... مَا دَلَّ أَنَّكَ فِى الْمِيعَادِ مُتَّهَمُ

ديباجة ، ولا أبهج سبكا ، فاخترت حينئذ دواوينهم ؛ لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعانى والألفاظ ، ولما حفظتها ألغيت ماسواها مع مابقى على خاطرى من غيرها .

وقد أوردت فى هذا الموضع من السرقات الشعرية مالم يورده غيرى ، ونبهت على غوامض منها .

وكنت قدمت القول أنى قسمتها إلى خمسة أقسام ؛ منها الثلاثة الأول ، وهى : النسخ ، والسلخ ، والمسخ ، ومنها القسمان الآخران ، وها أنا أبين ماتنقسم إليه هذه الأقسام من تشعبها وتفريعها ؛ فأقول :

أما النسخ فإنه لا يكون إلا فى أخذ المعنى واللفظ جميعاً ، أو فى أخذ المعنى وأكثر اللفظ ؛ لأنه مأخوذ من نسخ الكتاب ، وعلى ذلك فإنه ضربان :

الأول : يسمى وقوع الحافر على الحافر ، كقول امرئ القيس(١) :

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَىَّ مَطِيَّهُمْ ... يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَحَمَّلِ

وكقول طرَفة(٢) :

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَىَّ مَطِيَّهُمْ ... يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَلَّدِ

وقد أكثر الفرزدق وجرير من هذا فى شعرهما ، فمنه ماوردا فيه مَوْرِد امرئ القيس وطرَفة فى تخالفهما فى لفظة واحدة ، كقول الفرزدق :

أَتَعْدِلُ أَحْسَابًا لِئَامًا حُمَاتُهَا ... بِأَحْسَابِنَا إِنِّى إِلَى اللهِ رَاجِعُ

---

(١) من معلقته التى أولها قوله :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

(٢) من معلقته التى أولها قوله :

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ ... تَلُوحُ كَبَاقِى الْوَشْمِ فِى ظَاهِرِ الْيَدِ

وكقول جرير :

أَتَعْدِلُ أَحْسَاباً كِرَاماً حُمَاتُهَا   بِأَحْسَابِكُمْ إِنِّى إِلَى اللهِ رَاجِعُ

ومنه ما تساويا فيه لفظاً بلفظ ، كقول الفرزدق :

وَغُرٍّ قَدْ نَسَقْتُ مُشَهَّرَاتٍ   طَوَالِعَ لَا تُطِيقُ لَهَا جَوَابَا[1]

بِكُلِّ ثَنِيَّةٍ وَبِكُلِّ ثَغْرٍ   غَرَائِبُهُنَّ تَنْتَسِبُ انْتِسَابَا

بَلَغْنَ الشَّمْسَ حِينَ تَكُونُ شَرْقاً   وَمَسْقِطَ رَأْسِهَا مِنْ حَيْثُ غَابَا

وكذلك قال جرير من غير أن يزيد .

وقد حكى أن امرأة من عقيل يقال لها «ليلى» كان يتحدث إليها الشباب ، فدخل الفرزدق إليها ، وجعل يحادثها ، وأقبل فتًى من قومها كانت تألفه ، فدخل إليها ، فأقبلت عليه وتركت الفرزدق ، فغاظه ذلك ، فقال للفتى : أتصارعنى؟ فقال : ذاك إليك ، فقام إليه ، فلم يلبث أن أخذ الفرزدق فصرعه ، وجلس على صدره ، فضرط ، فوثب الفتى عنه ، وقال : ياأبا فراس ، هذا مقام العائذ بك والله ماأردت ماجرى ، فقال : ويحك ! والله مابى أنك صرعتنى ، ولكن كأنى بابن الأتان ـ يعنى جريراً ـ وقد بلغه خبرى فقال يهجونى :

جَلَسْتَ إِلَى لَيْلَى لِتَحْظَى بِقُرْبِهَا   فَخَانَكَ دُبْرٌ لَا يَزَالُ يَخُونُ

فَلَوْ كُنْتَ ذَا حَزْمٍ شَدَدْتَ وِكَاءَهُ   كَمَا شَدَّ جُرْبَانَ الدِّلَاصِ قُيُونُ

قال : فوالله مامضى إلا أيام حتى بلغ جريراً الخبر ، فقال فيه هذين البيتين ، وهذا من أغرب ما يكون فى مثل هذا الموضع وأعجبه .

ويقال : إن الفرزدق وجريراً كانا ينطقان فى بعض الأحوال عن ضمير واحد . وهذا عندى مستبعد ؛ فإن ظاهر الأمر يدلّ على خلافه ، والباطن لايعلمه إلا الله تعالى .

وإلا فإذا رأينا شاعراً متقدم الزمان قد قال قولا ثم سمعناه من شاعر أتى

(١) كذا فى النقائض والديوان ، وهو الصواب ، وفى ا ، ب ، ج « وغرقد وسقت مشمرات » وهو تحريف ، وأراد بالغر القصائد التى يقولها فى هجاء جرير .

من بعده علمنا بشهادة الحال أنه أخذه منه ، وهَبْ أن الخواطر تتفق فى استخراج المعانى الظاهرة المتداولة؛ فكيف تتفق الألسنة أيضاً فى صَوْغها الألفاظ ؟ .

ومما كنت أستحسنه من شعر أبى نواس قوله من قصيدته التى أولها :

* دَعْ عَنْكَ لَوْمِى فإنَّ اللَّوْمَ إغْرَاءُ *

دَارَتْ عَلَى فِتْيَةٍ ذَلَّ الزَّمانُ لَهُمْ   فَمَا يُصِيبُهُمُ إلاَّ بِمَا شَاءُوا

وهذا من عالى الشعر ، ثم وقفت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج على هذا البيت فى أصوات معبد ، وهو :

لَهفِى عَلَى فِتْيَةٍ ذَلَّ الزَّمان لَهُمْ   فَمَا أَصَابَهُمُ إلاّ بِمَا شَاءُوا

وما أعلم كيف هذا .

الضرب الثانى من النسخ : وهو الذى يؤخذ فيه المعنى وأكثر اللفظ ، كقول بعض المتقدمين يمدح معبداً صاحب الغناء :

أَجَادَ طُوَيْسٌ وَالسُّرَيْجِىُّ بَعْدَهُ   وَمَا قَصَبَاتُ السَّبْقِ إلاَّ لِمَعْبَدِ

ثم قال أبو تمام :

مَحَاسِنُ أَصْنَافِ الْمُغَنِّينَ جَمَّةٌ   وَمَا قَصَبَاتُ السَّبْقِ إلاّ لِمَعْبَدِ

وهذه قصيدة أولها :

* غَدَتْ تَسْتَجِيرُ الدَّمْعَ خَوْفَ نَوَى غَدِ *(1)

فقال :

وَقَائِعُ أَصْلُ النَّصْرِ فِيهَا وَفَرْعُهُ   إذَا عُدِّدَ الإِحْسَانُ أَوْ لَمْ يُعَدَّدِ

فَمَهْمَا تَكُنْ مِنْ وَقْعَةٍ بَعْدُ لاَ تَكُنْ   سِوَى حَسَنٍ مِمَّا فَعَلْتَ مُرَدَّدِ

مَحَاسِنُ أصناف المغنين جمة   البيت .

وأما السلخ : فإنه ينقسم إلى اثنى عشر ضربا ، وهذا تقسيم أوجبته القسمة ، وإذا تأملته علمت أنه لم يبق شىء خارج عنه .

فالأول : أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه مايشبهه ، ولا يكون هو إياه ،

(1) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* وَعَادَ قَتَادًا عِنْدَهَا كُلُّ مَرْقَدِ *

وهذا من أدقّ السرقات مذهبا ، وأحسنها صورة ، ولا يأتى إلا قليلا .

فمن ذلك قول بعض شعراء الحماسة :

لَقَدْ زَادَنِى حُبًّا لِنَفْسِىَ أَنَّنِى   بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ امْرِئٍ غَيْرِ طَائِلِ

أخذ المتنبى هذا المعنى واستخرج منه معنى آخر غيره إلا أنه شبيه به ، فقال :

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِى مِنْ نَاقِصٍ   فَهِىَ الشَّهَادَةُ لِى بِأَنِّىَ فَاضِلُ

والمعرفة بأن هذا المعنى أصله من ذاك المعنى عَسِر غامض ، وهو غير متبين إلا لمن أعرق فى ممارسة الأشعار ، وغاص فى استخراج المعانى ، و بيانه أن الأول يقول: إن بُغْضَ الذى هو غير طائل إياى مما زاد نفسى حبا إلى : أى جمّلها فى عينى وحسنها عندى كونُ الذى هو غير طائل مبغضى ، والمتنبى يقول : إن ذمَّ الناقص إياى شاهد بفضلى ؛ فذم الناقص إياه كبغض الذى هو غير طائل ذلك الرجل ، وشهادة ذم الناقص إياه بفضله كتحسين بغض الذى هو غير طائل نفس ذلك الرجل عنده .

ومن هذا الضرب ما هو أظهر مما ذكرته وأبين ، كقول أبى تمام :

رَعَتْهُ الْفَيَافِى بَعْدَ مَا كَانَ حِقْبَةً   رَعَاهَا وَمَاءُ الرَّوْضِ يَنْهَلُّ سَاكِبُهْ

أخذ البحترى هذا المعنى واستخرج منه ما يشابهه ، كقوله فى قصيدة يفخر فيها بقومه :

شَيْخَانِ قَدْ ثَقُلَ السِّلَاحُ عَلَيْهِمَا   وَعَدَاهُمَا رَأْىُ السَّمِيعِ الْمُبْصِرِ
رَكِبَا الْقَنَا مِنْ بَعْدِ مَا حَمَلَا الْقَنَا   فِى عَسْكَرٍ مُتَحَامِلٍ فِى عَسْكَرِ

فأبو تمام ذكر أن الجمل رعى الأرض ثم سار فيها فرعته : أى أهزلته ، فكأنها فعلت به مثل ما فعل بها ، والبحترى نقل هذا إلى وصف الرجل بعلو السن والهرم ؛ فقال : إنه كان يحمل الرمح فى القتال ثم صار يركب عليه : أى يتوكأ منه على عصا ، كما يفعل الشيخ الكبير .

وكذلك ورد قول الرجلين أيضاً ؛ فقال أبو تمام :

لَا أَظْلِمُ النَّأْىَ قَدْ كَانَتْ خَلَائِقُهَا   مِنْ قَبْلِ وَشْكِ النَّوَى عِنْدِى نَوًى قُذُفَا

أخذه البحترى فقال :

أُعَاتِكُ ، مَا كَانَ الشَّبَابُ مُقَرِّبِي   إِلَيْكِ فَأَلْحَى الشَّيْبَ إِذْ هُوَ مُبْعِدِى

وهذا أوضح من الذى تقدمه ، وأكثر بياناً .

الضرب الثانى من السلخ : أن يؤخذ المعنى مجرداً من اللفظ ، وذلك مما يصعب جدا ، ولا يكاد يأتى إلا قليلا .

فمنه قول عُرْوَة بن الوَرْد من شعراء الحماسة :

وَمَنْ يَكُ مِثْلِى ذَا عِيَالٍ وَمُقْتِراً   مِنَ الْمَالِ يَطْرَحْ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحِ
لِيَبْلُغَ عُـذْراً أَوْ يَنَالَ رَغِيبَةً   وَمُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحِ

أخذ أبو تمام هذا المعنى فقال :

فَتًى مَاتَ بَيْنَ الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ مِيتَةً   تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِذْ فَاتَهُ النَّصْرُ

فعُرْوَةُ بن الورد جعل اجتهاده فى طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح ، وأبو تمام جعل الموت فى الحرب الذى هو غاية اجتهاد المجتهد فى لقاء العدو قائما مقام الانتصار ، وكلا المعنيين واحد ، غير أن اللفظ مختلف .

وهذا الضرب فى سرقات المعانى من أشكلها ، وأدقها ، وأغربها ، وأبعدها مذهبا ، ولا يتفطن له ويستخرجه من الأشعار إلا بعض الخواطر دون بعض .

وقد يجىء منه ماهو ظاهر لايبلغ فى الدقة مبلغ هذه الأبيات المشار إليها ؛ كقول ابن المقفع فى باب الرثاء من كتاب الحماسة :

فَقَدْ جَرَّ نَفْعاً فَقْدُنَا لَكَ ؛ إِنَّنَا   أَمِنَّا عَلَى كُلِّ الرَّزَايَا مِنَ الْجَزَعِ

وجاء بعده من أخذ هذا المعنى فقال :

وَقَدْ عَزَّى رَبِيعَةَ أَنَّ يَوْماً عَلَيْهَـا مِثْلَ يَوْمِكَ لاَ يَعُودُ

وهذا من البديع النادر .

وههنا ماهو أشد ظهوراً من هذين البيتين فى هذا الضرب من السرقات الشعرية ؛ وذلك يأتى فى الألفاظ المترادفة التى يقوم بعضها مقام بعض ، وذاك الاعتداد به لمكان وضوحه ، لكن قد يجىء منه ماهو صفة من صفات الترادف لا الاسم نفسه ، فيكون حسناً ، كقول جرير :

وَلاَ يَمْنَعْكَ مِنْ أَرَبٍ لِحَاهُمْ سَـوَاءٌ ذُو الْعِمَامَةِ وَالْخِمَار

أخذ أبو الطيب المتنبى هذا المعنى فقال :

وَمَنْ فى كَفِّهِ مِنْهُمْ قَنَاةٌ كَمَنْ فى كَفِّهِ مِنْهُمْ خِضَابُ

الضرب الثالث من السلخ : وهو أخذ المعنى ويسير من اللفظ ، وذلك من أقبح السرقات وأظهرها شناعة على السارق .

فمن ذلك قول البحترى فى غلام :

فَوْقَ ضَعْفِ الصَّغِيرِ إِنْ وُكِلَ الأَمْـــرُ إِلَيْهِ وَدُونَ كَيْدِ الْكِبَارِ

سبقه أبو نواس فقال :

لَمْ يَخَفْ مِنْ كِبَرٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِ مِنَ الأُمُورِ وَلاَ أَزْرَى مِنَ الصِّغَرِ

وكذلك قوله أيضاً :

كُلُّ عِيدٍ لَهُ انْقِضَاءٌ ؛ وَكَفَى كُلَّ يَوْمٍ مِنْ جُودِهِ فِي عِيـدِ

أخذه من على بن جَبَلة [فى قوله] :

لِلْعِيدِ يَوْمٌ مِنَ الأَيَّامِ مُنْتَظَرٌ وَالنَّاسُ فى كُلِّ يَوْمٍ مِنْكَ فى عِيدِ

وكذلك قوله :

جَادَ حَتَّى أَفْنَى السُّؤَالَ ؛ فَلَمَّا بَادَ مِنَّا السُّـــؤَالُ جَادَ ابْتِدَاء

أخذه من على بن جَبَلَة [فى قوله :]

أَعْطَيْتَ حَتَّى لَمْ تَدَعْ لَكَ سائِلاً ... وَبَدَأْتَ إِذْ قَطَعَ الْعُفَاة سُؤالَهَا

وقد افتضح البحترى فى هذه المآخذ غاية الافتضاح ، هذا على بسطة باعه فى الشعر وغناه عن مثلها ، وقد سلك هذه الطريق فحول الشعراء ولم يستنكفوا من سلوكها؛ فمن فعل ذلك أبو تمام ؛ فانه قال :

قَدْ قَلَّصَتْ شَفَتَاهُ مِنْ حَفِيظَتِهِ ... فَخِيلَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْبِيسِ مُبْتَسِما

سبقه عبد السلام بن رَغْبَان المعروف بديك الجن فقال :

وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَرَى المَوْتَ فى صُو ... رَةِ لَيْثٍ فى لِبْدَتَىْ رِئْبَالِ

فَالْقَهُ غَيْرَ أَنَّما لِبْدَتَاهُ ... أَبْيَضٌ صارِمٌ وَأَسْمَرُ عالِ

تَلْقَ لَيْثاً قَدْ قَلَّصَتْ شَفَتَاهُ ... فَيُرَى ضَاحِكاً لِعَبْسِ الصِّيَالِ

وكذلك قال أبو تمام :

فَلَمْ أَمْدَحْكَ تَفْخِيماً بِشِعْرِى ... وَلٰكِنِّى مَدَحْتُ بِكَ المَدِيحَا

أخذه من حسان بن ثابت فى مدحه للنبى صلى الله عليه وسلم حيث قال :

مَا إِنْ مَدَحْتُ مُحَمَّدًا بِمَقَالَتِى ... لٰكِنْ مَدَحْتُ مَقَالَتِى بِمُحَمَّدِ

ولا شك أن أبا بكر رضى الله عنه سمع قول حسان حيث استخلف عمر رضى الله عنه ؛ فقال له عمر : استخلف غيرى ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : ماحَبَوْنَاكَ بِهَا وإنما حبوناها بك .

وهكذا فعل ابن الرومى ؛ فمما جاء له قوله :

جَرَحَتْهُ الْعُيُونُ فاقْتَصَّ مِنْهَا ... بِجَوًى فى الْقُلُوبِ دَامِى النُّدُوبِ

سبقه أبو تمام فقال :

أَدْمَيْتُ بِاللَّحَظَاتِ وَجْنَتَهُ ... فَاقْتَصَّ نَاظِرُهُ مِنَ الْقَلْبِ

وكذلك قول ابن الرومي :

وَكَلْتُ مَجْدَكَ فى اقْتِضَائِكَ حَاجَتِي ... وَكَفَى بِهِ مُتَقَاضِياً وَوَكِيلاَ

سبقه أبو تمام فقال :

وَإِذَا المَجْدُ كَانَ عَوْنِي عَلَى المَرْ ... ءِ تَقَاضَيْتُهُ بِتَرْكِ التَّقَاضِي

وكذلك قال ابن الرومى :

وَمَالِي عَزَاءٌ عَنْ شَبَابِي عَلِمْتُهُ ... سِوَى أَنَّنِي مِنْ بَعْدِهِ لاَ أُخَلَّدُ

سبقه منصور النمرى فقال :

قَدْ كِدْتُ أَقْضِي عَلَى فَوْتِ الشَّبَابِ أَسًى
لَوْلاَ تَعَزِّيَّ أَنَّ الْعَيْشَ مُنْقَطِعُ

وكذلك فعل أبو الطيب المتنبي ؛ فمما جاء منه قوله :

فَدَى نَفْسَهُ بِضَمَانِ النُّضَارِ ... وَأَعْطَى صُدُورَ الْقَنَا الذَّابِلِ

أخذه من قول الفرزدق :

كَانَ الْفِدَاءُ لَهُ صُدُورُ رِمَاحِنَا ... وَالْخَيْلُ إِذْ رَهَجُ الْغُبَارِ مُثَارُ

وكذلك قوله أيضا :

أَيْنَ أَزْمَعْتَ أَيُّهَذَا الْهُمَامُ ... نَحْنُ نَبْتُ الرُّبَا وَأَنْتَ الْغَمَامُ

أخذه من بشار حيث قال :

كَأَنَّ النَّاسَ حِينَ تَغِيبُ عَنْهُمْ ... نَبَاتُ الْأَرْضِ أَخْطَأَهُ الْقِطَارُ

وكذلك قوله :

فَلاَ زَالَتْ دِيَارُكَ مُشْرِقَاتٍ ... وَلاَ دَانَيْتِ يَا شَمْسُ الْغُرُوبَا
لِأُصْبِحَ آمِناً فِيكَ الرَّزَايَا ... كَمَا أَنَا آمِنٌ فِيكَ الْعُيُوبَا

أخذه من ابن الرومى حيث قال :

أَسَالِمُ قَدْ سَلِمْتَ مِنَ الْعُيُوبِ ... أَلاَ فَاسْلَمْ كَذَاكَ مِنَ الْخُطُوبِ

والذى عندى فى الضرب المشار إليه أنه لا بدّ من مخالفة المتأخر المتقدم : إما بأن يأخذ المعنى فيزيده معنى آخر ، أو يوجز فى لفظه ، أو يكسوه عبارة أحسن من عبارته .

ومن هذا الضرب ما يستعمل على وجه يزداد قبحه ، وتكثر البشاعة به ، وهو : أن يأخذ أحد الشاعرين معنى من قصيدة لصاحبه على وزن وقافية ؛ فيودعه قصيدة له على ذلك الوزن وتلك القافيـــة ، ومثاله فى ذلك كمن سرق جوهرة من طوق أو نطاق ثم صاغها فى مثل ما سرقها منه ، والأولى به أنْ كان نظم تلك الجوهرة فى عقد ، أو صاغها فى ســـوار أو خلخال ؛ ليكون أكْتَمَ لأمرها .

وممن فعل ذلك من الشعراء فافتضح أبو الطيب المتنبى حيث قال فى قصيدته التى أولهـا :

* غَيْرِى بِأَكْثَرِ هٰذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ *

لَمْ يُسْلِمِ الْكَرُّ فى الْأَعْقَابِ مُهْجَتَهُ   إنْ كانَ أَسْلَمَهَا الْأَصْحَابُ وَالشِّيَعُ

وهذه القصيدة مصوغة على قصيدة لأبى تمام فى وزنها وقافيتها أولهـا :

* أَىُّ الْقُلُوبِ عَلَيْكُمْ لَيْسَ يَنْصَدِعُ *

وهذا المعنى الذى أورده أبو الطيب مأخوذ من بيت منها ، وهو :

مَاغَابَ عَنْكُمْ مِنَ الْإِقْدَامِ أَكْرَمُهُ   فى الرَّوْعِ إذْ غَابَتِ الْأَنْصَارُ وَالشِّيَعُ

وليس فى السرقات الشعرية أقبح من هذه السرقة ؛ فإنه لم يكتف الشاعر فيها بأن يسرق المعنى حتى ينادى على نفسه أنه قد سرقه .

الضرب الرابع من السلخ : وهو أن يؤخذ المعنى فيعكس ، وذلك حسن يكاد يخرجه حسنه عن حد السرقة .

فمن ذلك قول أبى نواس :

قالوا عَشِقْتَ صَغِيرَةً فَأَجَبْتُهُمْ ... أَشْهَى المَطِيِّ إِلَىَّ مَالَمْ يُرْكَبِ
كَمْ بَيْنَ حَبَّةِ لُؤْلُؤٍ مَثْقُوبَةٍ ... لُبِسَتْ وَحَبَّةِ لُؤْلُؤٍ لَمْ تُثْقَبِ

فقال مسلم بن الوليد فى عكس ذلك :

إِنَّ المَطِيَّةَ لَا يَلَذُّ رُكُوبُهَا ... حَتَّى تُذَلَّلَ بِالزِّمَامِ وَتُرْكَبَا
وَالْحَبُّ لَيْسَ بِنَافِعٍ أَرْبَابَهُ ... حَتَّى يُفَصَّلَ فى النِّظَامِ وَيُثْقَبَا

ومن هذا الباب قول ابن جعفر :

وَلَمَّا بَدَا لِى أَنَّهَا لَا تُرِيدُنِى ... وَأَنَّ هَوَاهَا لَيْسَ عَنِّى بِمُنْجَلِى
تَمَنَّيْتُ أَنْ تَهْوَى سِوَاىَ لَعَلَّهَا ... تَذُوقُ صَبَابَاتِ الْهَوَى فَتَرِقَّ لِى

وقال غيره :

وَلَقَدْ سَرَّنِى صُدُودُكِ عَنِّى ... فى طِلَابِيكِ وَامْتِنَاعُكِ مِنِّى
حَذَراً أَنْ أَكُونَ مِفْتَاحَ غَيْرِى ... وَإِذَا مَاخَلَوْتِ كُنْتِ التَّمَنِّى

أما ابن جعفر فانه تداءب وألقى عن منكبه رداء الغيرة ، وأما الآخر فجاء بالضد من ذلك وتغالى به غاية الغلو .

وكذلك ورد قول أبى الشيص :

أَجِدُ المَلَامَةَ فِى هَوَاكِ لَذِيذَةً ... شَغَفاً بِذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِى اللُّوَّمُ

أخذ أبو الطيب المتنبى هذا المعنى وعكسه فقال :

أَأُحِبُّهُ وَأُحِبُّ فِيهِ مَلَامَةً ... إِنَّ المَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ

وهذا من السرقات الخفية جدا ، ولأن يسمى ابتداعا أولى من أن يسمى سرقة .

وقد توخيته فى شىء من شعرى فجاء حسنا ؛ فمن ذلك قولى :

لَوْلَا الْكِرَامُ وَمَا سَنُّوهُ مِنْ كَرَمٍ ... لَمْ يَدْرِ قَائِلُ شِعْرٍ كَيْفَ يَمْتَدِحُ

أخذته من قول أبى تمام :

وَلَوْلاَ خِلاَلٌ سَنَّهَا الشِّعْرُ مَادَرَى   بُنَاةُ الْعُلَى مِنْ أَيْنَ تُؤْتَى الْمَكَارِمُ

الضرب الخامس من السلخ : وهو أن يؤخذ بعض المعنى ؛

فمن ذلك قول أمية بن أبي الصلت يمدح عبد الله بن جدعان :

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لِامْرِئٍ إِنْ حَبَوْتَهُ   ببذْلٍ وَمَا كُلُّ الْعَطَاءِ يَزِينُ

وَلَيْسَ بِشَيْنٍ لِامْرِئٍ بَذْلُ وَجْهِهِ   إِلَيْكَ كَمَا بَعْضُ السُّؤَالِ يَشِينُ

أخذه أبو تمام فقال :

تُدْعَى عَطَايَاهُ وَفْرًا وَهِيَ إِنْ شُهِرَتْ   كَانَتْ فَخَارًا لِمَنْ يَعْفُوهُ مُؤْتَنِفَا

مَازِلْتُ مُنْتَظِرًا أُعْجُوبَةً زَمَنًا   حَتَّى رَأَيْتُ سُؤَالاً يجتني شَرَفَا[(١)]

فأمية بن أبي الصلت أتى بمعنيين اثنين : أحدهما أن عطاءك زين ، والآخر أن عطاء غيرك شين ، وأما أبو تمام فإنه أتى بالمعنى الأول لاغير

ومن هذا الضرب قول على بن جبلة :

وآثل مالم يحوِهِ مُتَقَدِّمٌ   وَإِنْ نَالَ مِنْهُ آخر فَهْوَ تَابِعُ

فقال أبو الطيب المتنبي :

تَرَفَّعَ عَنْ عُونِ الْمَكَارِمِ قَدْرُهُ   فَمَا يَفْعَلُ الْفَعَلاَتِ إِلاَّ عَذَارِيَا

فعليّ بن جبلة اشتمل ماقاله على معنيين أحدهما أنه فعل مالم يفعله أحد ممن تقدمه ، وإن نال منه الآخر شيئاً فإنما هو مقتد به وتابع له ، وأما أبو الطيب المتنبي فإنه لم يأت إلا بالمعنى الواحد ، وهو أنه يفعل مالا يفعله غيره ، غير أنه أبرزه فى صورة حسنة .

ومن ذلك قول أبي تمام :

كَلِفٌ بِرَبِّ الْمَجْدِ يَعْلَمُ أَنَّهُ   لَمْ يُبْتَدَأْ عُرْفٌ إِذَا لَمْ يُتْمَمِ[(٢)]

فقال البحترى :

وَمِثْلُكَ إِنْ أَبْدَى الْفَعَالَ أَعَادَهُ   وَإِنْ صَنَعَ الْمَعْرُوفَ زَادَ وَتَمَّمَا

(١) فى الديوان « مازلت منتظرا أعجو بة عننا » والعنن : الظاهرة .

(٢) فى الديوان « كلفا برب الحمد » .

فأبو تمام قال : إن الممدوح يرب صنيعه : أى يستديمه ، ويعلم أنه إذا لم يستدمه فما ابتدأه ؛ والبحترى قال : إنه يستديم صنيعه لاغير ، وذلك بعض ماذكره أبو تمام .

وكذلك قال البحترى :

اِدْفَعْ بِأَمْثَالِ أَبِى غَالِبٍ عَادِيَةَ الْعُدْمِ أَوِ اسْتَعْفِفِ

أخذه ممن تقدمه حيث قال :

انْتَجِ الْفَضْلَ أَوْ تَخَلَّ عَنِ الدُّنْيَا فَهَاتَانِ غَايَةُ الْهِمَمِ

فالبحترى أخذ بعض هذا المعنى ولم يستوفه .

وكذلك ورد قول ابن الرومى :

نَزَلْتُمْ عَلَى هَامِ الْمَعَالِى إِذَا ارْتَقَى إِلَيْهَا أُنَاسٌ غَيْرُكُمْ بِالسَّلَالِمِ

أخذه أبو الطيب المتنبى فقال :

فَوْقَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ مَاطَلَبُوا فَإِذَا أَرَادُوا غَايَةً نَزَلُوا

وهذا بعض المعنى الذى تضمنه قول ابن الرومي ؛ لأنه قال : إنكم نزلتم على هام المعالى ، وإن غيركم يرقى إليها رقيا ، وأما المتنبى فإنه قال : إنكم إذا أردتم غاية نزلتم ، وأما قوله « فوق السماء » فإنه يغنى عنه قول ابن الرومى « نزلتم عَلَى هام المعالى » ؛ إذ المعالى فوق كل شىء ؛ لأنها مختصة بالعلوّ مطلقا .

الضرب السادس من السلخ : وهو أن يؤخذ المعنى فيزاد عليه معنى آخر .

فمما جاء منه قول الأخنس بن شهاب[1] :

إِذَا قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كَانَ وَصْلُهَا خُطَانَا إِلَى أَعْدَائِنَا فَنُضَارِبُ

أخذه مسلم بن الوليد فزاد عليه ، وهو قوله :

إِنْ قَصَّرَ الرُّمْحُ لَمْ يَمْشِ الْخُطَا عَدَدًا أَوْ عَرَّدَ السَّيْفُ لَمْ يَهْمُمْ بِتَعْرِيدِ

وكذلك ورد قول جرير فى وصف أبيات من شعره :

(١) هو من الحماسة وانظر شرح التبريزى (٢ - ٢٤٨) .

غَرَائِبُ آلافٌ إذَا حَانَ وِرْدُهَا أَخَذْنَ طَرِيقًا لِلْقَصَائِدِ مُعْلَمَا

أخذه أبو تمام فزاد عليه ؛ إذ قال فى وصف قصيد له وقرن ذلك بالممدوح :

غَرَائِبُ لاَقَتْ فِى فِنَائِكَ أُنْسَهَا مِنَ المَجْدِ فَهْىَ الآنَ غَيْرُ غَرَائِبِ

وكذلك ورد قول ولد مسلمة بن عبد الملك :

أَذَلَّ الحَيَاةِ وَكُرْهَ المَمَاتِ وَكُلاًّ أَرَاهُ طَعَامًا وَبِيلاَ

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرُ إِحْدَاهُمَا فَسَيْرًا إِلَى المَوْتِ سَيْرًا جَمِيلاَ

أخذه أبو تمام فقال :

مَثَّلَ المَوْتَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَالذُّلَّ وَكُلاًّ رَآهُ خَطْبًا عَظِيمَا

ثُمَّ سَارَتْ بِهِ الحَمِيَّةُ قُدْمًا فَأَمَاتَ العِدَا وَمَاتَ كَرِيمَا

فزاد عليه بقوله :

* فَأَمَاتَ العِدَا وَمَاتَ كَرِيمَا *

ويروى أنه نظر عبد الله بن على رضى الله عنه عند قتال المروانية إلى فتًى عليه أبهة الشرف ، وهو يبلى فى القتال بلاء حسنا ، فناداه : يافتى ، لك الأمان ولو كنت مروان بن محمد ، فقال : إلاَّ أَكُنْهُ فلست بدونه ، قال : فلك الأمان ولو كنت من كنت ، فأطرق ثم تمثل بهذين البيتين المذكورين .

وكذلك ورد قول أبى تمام :

يَصُدُّ عَنِ الدُّنْيَا إذَا عَنَّ سُودَدٌ وَلَوْ بَرَزَتْ فِي زِيِّ عَذْرَاءَ نَاهِدِ

أخذه من قول المعذل بن غيلان :

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ العُلاَ إِذَا كَانَتِ العَلْيَاءُ فى جَانِبِ الفَقْرِ

إلا أنه زاده زيادة حسنة بقوله :

* وَلَوْ بَرَزَتْ فى زِيِّ عَذْرَاءَ نَاهِدِ *

ومما يجرى هذا المجرى قول البحترى :

خَلِّ عَنَّا فَإِنَّمَا أَنْتَ فِينَا وَاوُ عَمْرٍو أَوْ كَالحَدِيثِ المُعَادِ

أخذه من قول أبى نواس :

قُلْ لِمَنْ يَدَّعِى سُلَيْمَى سَفَاهًا لَسْتَ مِنْهَا وَلاَ قُلاَمَةَ ظُفْرِ

إِنَّمَا أَنْتَ مُلْصَقٌ مِثْلَ وَاوٍ أُلْحِقَتْ فِى الهِجَاءِ ظُلْمًا بِعَمْرِو

إلا أن البحترى زاد على أبى نواس فى قوله « أو كالحديث المعاد » .

وهكذا ورد قول البحترى أيضا :

رَكِبُوا الْفُرَاتَ إِلَى الْفُرَاتِ وَأَمَّلُوا جَذْلاَنَ يُبْدِعُ فِي السَّمَاحِ وَيُغْرِبُ

أخذه من مسلم بن الوليد فى قوله :

رَكِبْتُ إِلَيْهِ الْبَحْرَ فِي مُؤْخِرَاتِهِ فَأَوْفَتْ بِنَا مِنْ بَعْدِ بَحْرٍ إِلَى بَحْرِ

إلا أن البحترى زاد عليه بقوله :

* جذلان يبدع فى السماح ويغرب *

وكذلك ورد قول أبى نواس :

وَلَيْسَ لله بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدِ (١)

وهذا البيت قد لهج به الناس لهجا كثيراً ، ومنهم من ظنه مبتدعا لأبى نواس ، ويحكى عن أبى تمام أنه دخل على ابن أبى دواد ، فقال له : أحسبك عاتباً يا أبا تمام ، فقال : إنما يعتب على واحد وأنت الناس جميعا ، قال : من أين هذه يا أبا تمام ؟ قال : من قول الحاذق أبى نواس ، وأنشده البيت ، وهذه الحكاية عندى موضوعة ؛ لأن أبا تمام كان عارفا بالشعر ، حتى إنه قال : لم أنظم شعراً حتى حفظت سبعة عشر ديوانا للنساء خاصة دون الرجال ، وما كان يخفى عنه أن هذا المعنى ليس لأبى نواس ، وإنما هو مأخوذ من قول جرير :

---

(١) كذا فى أصول الكتاب وفى الديوان (ص ٨٧) ؛ ويروى :

* لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ *

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

إلا أنّ أبا نواس زاده زيادة حسنة ، وذاك أن جريراً جعل الناس كلهم بنى تميم ، وأبا نواس جعل العالم كله فى واحد ، وذلك أبلغ .

ومما ينتظم فى هذا السلك قول الفرزدق :

عَلَامَ تَلَفَّتِينَ وَأَنْتِ تَحْتِى وَخَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمُ أَمَامِى

مَتَى تَأْتِى الرُّصَافَةَ تَسْتَرِيحِى مِنَ الْأَنْسَاعِ وَالدَّبَرِ الدَّوَامِى

أخذه أبو نواس فصار أملك به ، وأحسن فيه غاية الإحسان ، فقال :

وَإِذَا الْمَطِىُّ بِنَا بَلَغْنَ مُحَمَّدًا فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ

فالفرزدق قال : « تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى » وليست استراحتها بمانعة من معاودة إتعابها مرة أخرى ؛ وأما أبو نواس فإنه حرّم ظهورهن على الرجال : أى أنها تُعْفَى من السفر إعفاء مستمرًا ، ولا شك أن أبا نواس لم يتنبه لهذه الزيادة إلا من فعل العرب فى السَّائبة وَالْبَحِيرة .

وعلى هذا الأسلوب ورد قول المتنبى :

وَمَلْمُومَةٍ زَرَدٌ ثَوْبُهَا وَلٰكِنَّهُ بِالْقَنَا مُخْمَلُ

أخذه من أبى نواس فى قوله :

أَمَامَ خَمِيسٍ أُرْجُوَانٍ كَأَنَّهُ قَمِيصٌ مُحُوكٌ مِنْ قَنًا وَجِيَادِ

فزاد أبو الطيب زيادة صار بها أحق من أبى نواس بهذا المعنى .

وكذلك قال أبو الطيب المتنبى :

وَإِنْ جَادَ قَبْلَكَ قَوْمٌ مَضَوْا فَإِنَّكَ فِى الْكَرَمِ الْأَوَّلُ

فأخذته أنا وزدت عليه ؛ فقلت :

أَنْتَ فِى الْجُودِ أَوَّلٌ وَقَضَى اللّٰهُ بِأَلَّا يُرَى لَكَ الدَّهْرَ ثَانِ

وهذا النوع من السرقات قليل الوقوع بالنسبة إلى غيره .

الضرب السابع من السلخ : وهو أن يؤخذ المعنى فيكسى عبارة أحسن من العبارة الأولى .

وهـذا هو المحمود الذى يخرج به حسنه عن باب السرقة ؛ فمن ذلك قول أبى تمام :

جَذْلَانُ مِنْ ظَفَرٍ حَرَّانُ إنْ رَجَعَتْ مَخْضُوبَةً مِنْكُمُ أَظْفَارُهُ بِدَمِ

أخذه البحترى ؛ فقال :

إذَا احْتَرَبَتْ يَوْمًا فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا تَذَكَّرَتِ الْقُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعُهَا

ومن هذا الأسلوب قولهما أيضاً ؛ فقال أبو تمام :

إنَّ الْكِرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قَلُّوا وَإِنْ كَثُرُوا

وقال البحترى :

قَلَّ الْكِرَامُ فَصَارَ يَكْثُرُ مَدُّهُمْ وَلَقَدْ يَقِلُّ الشَّىْءُ حَتَّى يَكْثُرَا[1]

وعلى هذا النحو ورد قول أبى نواس :

يَدُلُّ عَلَى مَا فِي الضَّمِيرِ مِنَ الْفَتَى تَقَلُّبُ عَيْنَيْهِ إلَى شَخْصِ مَنْ يَهْوَى

أخذه أبو الطيب المتنبى ؛ فقال :

وَإِذَا خَامَرَ الْهَوَى قَلْبَ صَبٍّ فَعَلَيْهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيلُ

ومما ينتظم فى هذا السلك قول أبى الطيب المتنبي :

---

(١) فى ا ، ب ، ج « حتى يكثر » والصواب النصب ، والبيت من قصيدة له يمدح فيها إسحاق بن كنداج ، وأولها قوله :

لِلّٰهِ عَهْدُ سُوَيْقَةٍ مَا أَنْضَرَا إذْ جَاوَرَ الْبَادُونَ فِيهِ الْحُضَّرَا

وفى الديوان « قل الكرام فصار يكثر فذهم » ويحتمله مافى ا .

إِذَا مَا ازْدَدْتُ مِنْ بَعْدِ التَّنَاهِي فَقَدْ وَقَعَ انْتِقَاصِي فِي ازْدِيَادِ[(١)]

أخذه ابن نباتة السعدى ؛ فقال :

إِذا كَانَ نُقْصَانُ الْفَتَى مِنْ تَمَامِهِ فَكُلُّ صَحِيحٍ فِى الْأَنَامِ عَلِيلُ

وكذلك ورد قول أبى العلاء بن سليمان فى مرثية :

وَمَا كلفة الْبَدْرِ الْمُنِيرِ قَدِيمَةٌ وَلٰكِنَّهَا فِي وَجْهِهِ أَثَرُ اللَّطْمِ[(٢)]

أخذه الشاعر المعروف بالقيسرانى ؛ فقال :

وَأَهْوَى الَّتِي أَهْوَى لَهَا الْبَدْرُ سَاجِدًا أَلَسْتَ تَرَى فى وَجْهِهِ أَثَرَ التُّرْبِ

وكذلك قول ابن الرومى :

إِذَا شنئت عَيْنُ امْرِئٍ شَيْبَ نَفْسِهِ فَعَيْنُ سِوَاهُ بِالشَّنَاءَةِ أَجْدَرُ

أخذه من تأخر زمانه عنه ؛ فقال :

إِذَا كَانَ شَيْبِي بَغِيضًا إِلَيَّ فَكَيْفَ يَكُونُ إِلَيْهَا حَبِيبَا

ومما ينخرط فى هذا السلك قول بعضهم :

مُخَصَّرَةُ الْأَوْسَاطِ زَانَتْ عُقُودَهَا بِأَحْسَنَ مِمَّا زَيَّنَتْهَا عُقُودُهَا

أخذه أبو تمام ؛ فقال :

كَأَنَّ عَلَيْهَا كُلَّ عِقْدٍ مَلَاحَةً وَحُسْنًا وَإِنْ أَضْحَتْ وَأَمْسَتْ بِلَا عِقْدِ

ثم أخذه البحترى ؛ فقال :

إِذَا أَطْفَأَ الْيَاقُوتَ إِشْرَاقُ وَجْهِهَا فَإِنَّ عَنَاءً ما توخت عقودها

وأمثال هذا كثيرة ، وفيما أوردناه مَقْنَع .

الضرب الثامن من السلخ : وهو أن يؤخذ المعنى ويسبك سبكا موجزاً .

وذلك من أحسن السرقات ؛ لما فيه من الدلالة على بَسْطَة الناظم فى القول، وسعة باعه فى البلاغة ؛ فمن ذلك قول بشار :

(١) فى الديوان « متى ما ازددت » . (٢) فى سقط الزند « أثر اللدم » .

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ وَفَازَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَاتِكُ اللَّهِجُ

أخذه سلم الخاسر، وكان تلميذه، فقال :

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا وَفَازَ بِاللَّذَّةِ الجَسُورُ

فبين البيتين لفظتان فى التأليف .

ومن هذا الأسلوب قول أبى تمام :

بَرَّزْتَ فى طَلَبِ المَعَالِى وَاحِدًا فِيهَا تَسِيرُ مُغَوِّرًا وَمُنَجِّدَا

عَجَبٌ بِأَنَّكَ سَالِمٌ فى وَحْشَةٍ فى غَايَةٍ مَازِلْتَ فِيهَا مُفْرَدَا(١)

أخذه ابن الرومى ؛ فقال :

غَرَّبَتْهُ الخَلَائِقُ الزُّهْرُ فى النَّا سِ وَمَا أَوْحَشَتْهُ بِالتَّغْرِيبِ

وكذلك ورد قول أبى نواس :

وَكَّلْتُ بِالدَّهْرِ عَيْناً غَيْرَ غَافِلَةٍ مِنْ جُودِ كَفِّكَ تَأْسُو كُلَّ مَاجَرَحَا

أخذه ابن الرومى ؛ فقال :

الدَّهْرُ يُفْسِدُ مَا اسْتَطَاعَ وَأَحْمَدٌ يَتَتَبَّعُ الإِفْسَادَ بِالإِصْلَاحِ

وعلى هذا ورد قول ابن الرومى :

كَأَنِّىَ أَسْتَدْنِى بِكَ ابْنَ حنية إِذَا النَّزْعُ أَدْنَاهُ مِنَ الصَّدْرِ أَبْعَدَا

أخذه بعض شعراء الشام ، وهو ابن قسيم الحموى ، فقال :

فَهْوَ كَالسَّهْمِ كُلَّمَا زِدْتَهُ مِنْكَ دُنُوًّا بِالنَّزْعِ زَادَكَ بُعْدَا

(١) فى الديوان « عجب لأنك سالم » بالرفع ؛ وهو جائز عربية ، وهو مبتدأ خبره محذوف ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، أو مبتدأ غير محتاج إلى خبر لدلالته على معنى الفعل والفاعل ؛ ألا تراه فى معنى أعجب ، وهمزة الاستفهام مقدرة بعده ؛ فكأنه قال : أعجب من فعالك لأنك سالم تفعل ذلك . وكذا فى ا . ب . وفى . ج «عجبا»

ولقيت جماعة من الأدباء بالشأم ، ووجدتهم يزعمون أن ابن قسيم هو الذى ابتدع هذا المعنى ، وليس كذلك ، و إنما هو لابن الرومى .

ومما يجرى هذا المجرى قول أبى العتاهية :

وَإِنِّى لَمَعْـذُورٌ عَلَى فَرْطِ حُبِّهَا ... لِأَنَّ لَهَا وَجْهاً يَدُلُّ عَلَى عُذْرِى

أخذه أبو تمام ؛ فقال :

لَهُ وَجْـــهٌ إِذَا أَبْصَرْ ... تَهُ نَاجَاكَ عَنْ عُـــذْرِى

فأوجز فى هذا المعنى غاية الإيجاز .

ومما يجرى على هذا النهج قول أبى تمام :

كَانَتْ مُسَاءَلَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنِى ... عَنْ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ أَطْيَبَ الْخَبَرِ

حَتَّى الْتَقَيْنَا فَلَا وَاللهِ مَا سَمِعَتْ ... أُذْنِى بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصَرِى

أخذه أبو الطيب المتنبى فأوجز ؛ حيث قال :

وَأَسْتَكْبِرُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ ... فَلَمَّا الْتَقَيْنَا صَغَّرَ الْخَبَرَ الْخُبْرُ

وكذلك قولهما فى موضع آخر ؛ فقال أبو تمام :

كَمْ صَارِمًا عَضْباً أَنَافَ عَلَى قَفَا ... مِنْهُمْ لِأَعْبَاءِ الْوَغَى حَمَّـــالِ

سَبَقَ الْمَشِيبَ إِلَيْهِ حَتَّى ابْتَزَّهُ ... وَطَنَ النُّهَى مِنْ مَفْرِقٍ وَقَذَالِ

أخذه أبو الطيب فزاد وأحسن ؛ حيث قال :

يُسَابِقُ الْقَتْلُ فِيهِمْ كُلَّ حَادِثَةٍ ... فَمَا يُصِيبُهُمُ مَوْتٌ وَلَا هَرَمُ

ومن هذا الضرب قول بعض الشعراء :

أَمِنْ خَوْفِ فَقْرٍ تَعَجَّلْتَــهُ ... وَأَخَّرْتَ إِنْفَاقَ مَا تَجْمَعُ

فَصِرْتَ الْفَقِيرَ وَأَنْتَ الْغَنِىُّ ... وَمَا كُنْتَ تَعْدُو الَّذِى تَصْنَعُ

أخذه أبو الطيب المتنبى ؛ فقال :

وَمَنْ يُنفِقِ السَّاعَاتِ فى جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِى فَعَلَ الفَقْرُ

الضرب التاسع من السلخ : وهو أن يكون المعنى عاما فيجعل خاصا ، أو خاصا فيجعل عاما .

وهو من السرقات التى يُسَامَحُ صاحبها ؛ فمن ذلك قول الأخطل[1] :

لاتَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِىَ مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إذا فَعَلْتَ عَظِيمُ

أخذه أبو تمام ؛ فقال :

أَأَلُومُ مَنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وَأَغْتَدِى لِلْبُخْلِ تِرْبًا ؟ سَاءَ ذَاكَ صَنِيعَا

وهذا من العام الذى جعل خاصا ؛ ألا ترى أن الأول نهى عن الإتيان بما ينهى عنه مطلقا ، وجاء بالخلق منكرا فجعله شائعا فى بابه ؛ وأما أبو تمام فإنه خصص ذلك بالبخل ، وهو خلق واحد من جملة الأخلاق .

وأما جعل الخاص عاما فكقول أبى تمام :

وَلَوْ حَارَدَتْ شُولٌ عَذَرْتُ لِقَاحَهَا وَلٰكِنْ مُنِعْتُ الدَّرَّ والضَّرْعُ حَافِلُ

أخذه أبو الطيب المتنبى فجعله عاما إذ يقول :

وَمَا يُؤْلِمُ الْحِرْمَانُ مِنْ كَفِّ حَارِمٍ كَمَا يُؤْلِمُ الْحِرْمَانُ مِنْ كَفِّ رَازِقِ

الضرب العاشر من السلخ : وهو زيادة البيان مع المساواة فى المعنى ؛ وذلك بأن يؤخذ المعنى فيضرب له مثال يوضحه ، فمما جاء منه قول أبى تمام :

---

(١) المشهور أن هذا البيت لأبى الأسود الدؤلى ، وقبله قوله :

يَاأَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ هَلاَّ لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمُ

تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِى السَّقَامِ وَذِى الضَّنَى كَيْمَا يَصِحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمُ

ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا فَإذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ

هُوَ الصُّنْعُ إِنْ يَعْجَلْ فَنَفْعٌ وَإِنْ يَرِثْ فَلَلرَّيْثُ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ أَنْفَعُ

أخذه أبو الطيب فأوضحه بمثال ضربه له ، وذلك قوله :

وَمِنَ الْخَيْرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عَنِّي أَسْرَعُ السُّحْبِ فِي الْمَسِيرِ الْجَهَامُ

وهـذا من المبتدع ، لا من المسروق ، وما أحسن ما أتى بهـذا المعنى فى المثال المناسب له !.

وكذلك قولهما فى موضع آخر ؛ فقال أبو تمام(١) :

قَدْ قَلَّصَتْ شَفَتَاهُ مِنْ حَفِيظَتِهِ فَخِيلَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْبِيسِ مُبْتَسِمَا

أخذه أبو الطيب المتنبى ؛ فقال :

وَجَاهِلٍ مَدَّهُ فِي جَهْلِهِ ضَحِكِي حَتَّى أَتَتْهُ يَدٌ فَرَّاسَةٌ وَفَمُ

إِذَا رَأَيْتَ نُيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً فَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ اللَّيْثَ مُبْتَسِمُ

ومما ينخرط فى هذا السلك قول أبى تمام :

وَكَذَاكَ لَمْ تُفْرِطْ كَآبَةُ عَاطِلٍ حَتَّى يُجَاوِرَهَا الزَّمَانُ بِحَالِ

أخذه أبو عبادة البحترى ؛ فقال :

وَقَدْ زَادَهَا إِفْرَاطَ حُسْنٍ جِوَارُهَا لِأَخْلَاقِ أَصْفَارٍ مِنَ الْمَجْدِ خيب

وَحُسْنُ دَرَارِيِّ الْكَوَاكِبِ أَنْ تُرَى طَوَالِعَ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ غَيْهَبِ

فإنه أتى بالمعنى مضروبا له هذا المثال الذى أوضحه وزاده حسنا .

الضرب الحادى عشر من السلخ : وهو اتِّحاد الطريق واختلاف المقصد ، ومثاله أن يسلك الشاعران طريقا واحدة ، فتخرج بهما إلى موردين أو روضتين وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر .

فمما جاء من ذلك قول أبى تمام فى مرثية بولدين صغيرين :

مَجْدٌ تَأَوَّبَ طَارِقًا حَتَّى إِذَا قُلْنَا أَقَامَ الدَّهْرَ أَصْبَحَ رَاحِلَا

(١) انظر (ص ٣٧٧ من هذا الجزء) .

نَجْمَانِ شَاءَ ٱللهُ أَلَّا يَطْلُعَا … إِلَّا ٱرْتِدَادَ الطَّرْفِ حَتَّى يَأْفِلَا
إِنَّ الْفَجِيعَةَ بِالرِّيَاضِ نَوَاضِراً … لَأَجَلُّ مِنْهَا بِالرِّيَاضِ ذَوَابِلَا
لَهْفِى عَلَى تِلْكَ الشَّوَاهِدِ فِيهِمَا … لَوْ أُخِّرَتْ حَتَّى تَكُونَ شَمَائِلَا
إِنَّ الْهِلَالَ إِذَا رَأَيْتَ نُمُوَّهُ … أَيْقَنْتَ أَنْ سَيَكُونُ بَدْراً كَامِلَا
قُلْ لِلْأَمِيرِ وَإِنْ لَقِيتَ موقرا … مِنْهُ بِرَيْبِ الْحَادِثَاتِ حُلَاحِلَا
إِنْ تُرْزَ فِى طَرَفَىْ نَهَارٍ وَاحِدٍ … رُزْأَيْنِ هَاجَا لَوْعَةً وَبَلَابِلَا
فالثقل لَيْسَ مُضَاعَفاً لِمَطِيَّةٍ … إِلَّا إِذَا مَا كَانَ وَهْماً بَازِلَا
لَاغَرْوَ إِنْ فَنَنَانِ مِنْ عِيدَانِهِ … لَقِيَا حِمَاماً لِلْبَرِيَّةِ آكِلَا[1]
إِنَّ الْأَشَاءَ إِذَا أَصَابَ مُشَذِّبٌ … مِنْهُ ٱتْمَهَلَّ ذُرًا وَأَثَّ أَسَافِلَا
شَمَخَتْ خِلَالُكَ أَنْ يُوَاسِيَكَ امْرُؤٌ … أَوْ أَنْ تُذَكَّرَ نَاسِياً أَوْ غَافِلَا
إِلَّا مَوَاعِظَ قَادَهَا لَكَ سَمْحَةً … إِسْجَاحُ لُبِّكَ سَامِعاً أَوْ قَائِلَا
هَلْ تُكْلِفُ الْأَيْدِى بِهَزِّ مُهَنَّدٍ … إِلَّا إِذَا كَانَ الْحُسَامَ الْقَاصِلَا

وقال أبو الطيب فى مَرْثية بطفل صغير :

فَإِنْ تَكُ فِى قَبْرٍ فَإِنَّكَ فِى الْحَشَا … وَإِنْ تَكُ طِفْلاً فَالْأَسَى لَيْسَ بِالطِّفْلِ
وَمِثْلُكَ لَا يُبْكَى عَلَى قَدْرِ سِنِّهِ … وَلَٰكِنْ عَلَى قَدْرِ الْفِرَاسَةِ وَالْأَصْلِ
أَلَسْتَ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِى مِنْ رِمَاحِهِمْ … نَدَاهُمْ وَمِنْ قَتْلَاهُمُ مُهْجَةُ الْبُخْلِ
بِمَوْلُودِهِمْ صَمْتُ اللِّسَانِ كَغَيْرِهِ … وَلَٰكِنَّ فِى أَعْطَافِهِ مَنْطِقَ الْفَضْلِ
تُسَلِّيهِمُ عَلْيَاؤُهُمْ عَنْ مُصَابِهِمْ … وَيَشْغَلُهُمْ كَسْبُ الثَّنَاءِ عَنِ الشُّغْلِ
عَزَاءَكَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْمُقْتَدَى بِهِ … فَإِنَّكَ نَصْلٌ وَالشَّدَائِدُ لِلنَّصْلِ

---

(١) فى الديوان « لاغرو إن فننان من عيدانة » والعيدانة ـ بفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة ـ : النخلة الطويلة .

تَخُونُ الْمَنَايَا عَهْدَهُ فى سَلِيلِهِ   وَتَنْصُرُهُ بَيْنَ الْفَوَارِسِ وَالرَّجْلِ
بِنَفْسِى وَلِيدٌ عَادَ مِنْ بَعْدِ حَمْلِهِ   إِلَى بَطْنِ أُمٍّ لَا تُطَرِّقُ بِالْحَمْلِ
بَدَا وَلَهُ وَعْدُ السَّحَابَةِ بِالرِّوَى   وَصَدَّ وَفِينَا غُـلَّةُ الْبَلَدِ الْمَحْلِ
وَقَدْ مَدَّتِ الْخَيْلُ الْعِتَاقُ عُيُونَهَا   إِلَى وَقْتِ تَبْدِيلِ الرِّكَابِ مِنَ النَّعْلِ
وَرِيعَ لَهُ جَيْشُ الْعَـدُوِّ وَمَا مَشَى
وَجَاشَتْ لَهُ الْحَرْبُ الضَّرُوسُ وَمَا تَغْلِى

فتأمل أيها الناظم إلى ماصنع هذان الشاعران فى هذا المقصد الواحد ، وكيف هام كل واحد منهما فى وَادٍ منه ، مع اتفاقهما فى بعض معانيه ؟ .

وسأبين لك ما اتفقا فيه ، وما اختلفا ، وأذكر الفاضل من المفضول ، فأقول :

أما الذى اتفقا فيه فإن أبا تمام قال :

لَهْفِى عَلَى تِلْكَ الشَّوَاهِدِ فِيهِمَا   لَوْ أُخِّرَتْ حَتَّى تَكُونَ شَمَائِلَا

وأما أبو الطيب فإنه قال :

بِمَوْلُودِهِمْ صَمْتُ اللِّسَانِ كَغَيْرِهِ   وَلٰـكِنَّ فى أَعْطَافِهِ مَنْطِقَ الْفَصْلِ

فأتى بالمعنى الذى أتى به أبو تمام ، وزاد عليه بالصناعة اللفظية ، وهى المطابقة فى قوله « صمت اللسان » و « منطق الفصل » .

وقال أبو تمام :

نَجْمَانِ شَاءَ اللهُ أَلَّا يَطْلُعَا   إِلَّا ارْتِدَادَ الطَّرْفِ حَتَّى يَأْفُلَا

وقال أبو الطيب :

بَدَا وَلَهُ وَعْدُ السَّحَابَةِ بِالرِّوَى   وَصَدَّ وَفِينَا غُلَّةُ الْبَلَدِ الْمَحْلِ

فوافقه فى المعنى ، وزاد عليه بقوله :

* وَصَدَّ وَفِينَا غُلَّةُ الْبَلَدِ الْمَحْلِ *

لأنه بين قدر حاجتهم إلى وجوده وانتفاعهم بحياته .

وأما ما اختلفا فيه فإن أبا الطيب أشعر فيه من أبى تمام أيضًا ، وذاك أن معناه أمْتَنُ من معناه ، ومَبْناه أحكم من مبناه ، وربما أكْبَرَ هذا القولَ جماعةٌ من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وقدمه ، لا مع فضيلة القول وتقدمه ، وأبو تمام وإن كان أشعَرَ عندى من أبى الطيب فإن أبا الطيب أشعر منه فى هذا الموضع ؛ وبيان ذلك أنه قد تقدَّم القولُ على ما اتفقا فيه من المعنى ، وأما الذى اختلفا فيه فإن أبا الطيب قال :

عَزَاءَكَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ المُقْتَدَى بِهِ ... فَإِنَّكَ نَصْلٌ وَالشَّدَائِدُ لِلنَّصْلِ

وهذا البيت بمفرده خير من بيتى أبى تمام اللذين هما :

إنْ تُرْزَ فى طَرَفَىْ نَهَارٍ وَاحِدٍ ... رُزْأَيْنِ هَاجَا لَوْعَةً وَبَلَابِلَا

فالثقل ليس مُضَاعَفًا لِمَطِيَّةٍ ... إلَّا إذَا مَا كَانَ وَهْمًا بَازِلَا

فإن قول أبى الطيب « والشدائد للنصل » أكرم لفظًا ومعنى من قول أبى تمام : إن الثقل إنما يضاعف للبازل من المطايا ، وقوله أيضًا :

تَخُونُ الْمَنَايَا عَهْدَهُ فى سَلِيلِهِ ... وَتَنْصُرُهُ بَيْنَ الْفَوَارِسِ وَالرَّجْلِ

وهذا أشرف من بيتى أبى تمام اللذين هما :

لَا غَرْوَ إنْ فَنَنَانِ مِنْ عِيدَانِهِ ... لَقِيَا حِمَامًا لِلْبَرِيَّةِ آكِلَا

إنَّ الْأَشَاءَ إذَا أَصَابَ مُشَذِّبٌ ... مِنْهُ اتْمَهَلَّ ذُرًا وَأَثَّ أَسَافِلَا

وكذلك قال أبو الطيب :

أَلَسْتَ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِى مِنْ رِمَاحِهِمْ ... نَدَاهُمْ وَمِنْ قَتْلَاهُمُ مُهْجَةُ الْبُخْلِ

تُسَلِّيهِمُ عَلْيَاؤُهُمْ عَنْ مُصَابِهِمْ ... وَيَشْغَلُهُمْ كَسْبُ الثَّنَاءِ عَنِ الشُّغْلِ

وهذان البيتان خير من بيتى أبى تمام اللذان هما :

شَمَخَتْ خِلَالُكَ أنْ يُوَاسِيَكَ امْرُؤٌ ... أَوْ أَنْ تُذَكَّرَ نَاسِيًا أَوْ غَافِلَا

إلَّا مَوَاعِظَ قَادَهَا لَكَ سَمْحَةً ... إسْجَاحُ لُبِّكَ سَامِعًا أَوْ قَائِلَا

وأعلم أن التفضيل بين المعنيين المتفقين أيسر خطباً من التفضيل بين المعنيين المختلفين .

وقد ذهب قوم إلى منع المفاضلة بين المعنيين المختلفين ، واحتجوا على ذلك بأن قالوا : المفاضلة بين الكلامين لا تكون إلا باشتراكهما فى المعنى ؛ فإن اعتبار التأليف فى نظم الألفاظ لا يكون إلا باعتبار المعانى المندرجة تحتها ؛ فما لم يكن بين الكلامين اشتراك فى المعنى حتى يُعْلَمَ مَوَاقع النظم فى قوة ذلك المعنى أوضَعْفه واتّساق ذلك اللفظ أو اضطرابه ، وإلاَّ فكلٌّ كلام له تأليف يخصه بحسب المعنى المندرج تحته ، وهذا مثل قولنا : العسل أحلى من الخل ؛ فإنه ليس فى الخل حلاوة حتى تقاس حلاوة العسل عليها .

وهذا القول فاسد ؛ فإنه لو كان ماذهب إليه هؤلاء من منع المفاضلة حقا لوجب أن تسقط التفرقة بين جيد الكلام ورديئه وحسنه وقبيحه ، وهذا محال ، وإنما خفى عليهم ذلك لأنهم لم ينظروا إلى الأصل الذى تقع المفاضلة فيه ، سواء اتفقت المعانى أو اختلفت ، ومن ههنا وقع لهم الغلط .

وسأبين ذلك فأقول : من المعلوم أن الكلام لا يختص بمزية من الحسن حتى تتصف ألفاظه ومعانيه بوصفين هما الفصاحة والبلاغة ، فثبت بهذا أن النظر إنما هو فى هذين الوصفين اللذين هما الأصل فى المفاضلة بين الألفاظ والمعانى على اتفاقهما واختلافهما ؛ فمتى وجدا فى أحد الكلامين دون الآخر أو كانا أخص به من الآخر حكم له بالفضل .

وقرأت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج فى تفضيل الشعر أشياء تتضمن خَبْطًا كثيراً ، وهو مروى عن علماء العربية ، لكن عَذَرْتُهُمْ فى ذلك ؛ فإن معرفة الفصاحة والبلاغة شىء خلاف معرفة النحو والإعراب .

فمما وقفت عليه أنه سئل أبو عمرو بن العلاء عن الأخطل فقال : لو أدرك يوما واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً . وهذا تفضيل بالأعصار ،

لا بالأشعار ، وفيه ما فيه ، ولو [لا] أن أبا عمرو عندى بالمكان العلى لبسطت لسانى فى هذا الموضع .

وسئل جرير عن نفسه وعن الفرزدق والأخطل ، فقال : أما الفرزدق ففى يده نَبْعَةَ من الشعر وهو قابض عليها ، وأما الأخطل فأشدّنا اجتراء وأرمانا للقرائض ، وأما أنا فمدينة الشعر . وهذا القول فى التفضيل قول إقناعىّ لا يحصل منه على تحقيق ، لكنه أقرب حالا مما روى عن أبى عمرو بن العلاء .

وسئل الأخطل عن أشعر الناس ، فقال : الذى إذا مدح رفع ، وإذا هجا وضع ، فقيل : فمن ذاك ؟ قال : الأعشى ، قيل : ثم مَنْ ؟ قال : طرفة . وهذا قول فيه بعض التحقيق ؛ إذ ليس كل من رفع بمدحه ووضع بهجائه كان أشعر الناس ؛ لأن المعانى الشعرية كثيرة والمدح والهجاء منها .

وسئل الشريف الرضى عن أبى تمام وعن البحترى وعن أبى الطيب ، فقال : أما أبو تمام فخطيب منبر ، وأما البحترى فواصف جؤذر ، وأما المتنبى فقاتل عسكر ، وهذا كلام حسن واقع فى موقعه ؛ فإنه وصف كلا منهم بما فيه من غير تفضيل .

ويروى عن بشار أنه وصف نفسه بجودة الشعر والتقدم على غيره ، فقيل له : ولم ذاك ؟ فقال : لأنى نظمت اثنى عشر ألف قصيدة وما تخلو واحدة منهن من بيت واحد جيد ، فيكون لى حينئذ اثنا عشر ألف بيت ؛ وقد تأملت هذا القول فوجدته على بشار لا له ؛ لأن باقلا الذى يضرب به المثل فى العى لو نظم قصيدا لما خلا من بيت واحد جيد ، ومن الذى ينظم قصيدا واحدا من الشعر ولا يسلم له منه بيت واحد؟! لكن كان الأولى ببشار أن قال: لى اثنتا عشرة ألف قصيدة ليس واحدة منهن إلا وجيدها أكثر من رديئها ، وليس فى واحدة منهن ما يسقط؛ فإنه لو قال ذلك وكان محقا لاستحق التقدم على الشعراء ، ومع هذا فقد وصل إلىّ ما فى أيدى الناس من شعره مُقَصَّدا ومُقطَّعا فما وجدته بتلك الغاية التى ادعاها، لكن وجدت جيده قليلا بالنسبة إلى رديئه ، وتندر له الأبيات اليسيرة .

وبلغنى عن الأصمعى وأبى عبيد وغيرهما أنهم قالوا : هو أشعر الشعراء المحدثين قاطبة ، وهم عندى معذورون ؛ لأنهم ماوقفوا على معانى أبى تمام ، ولا على معانى أبى الطيب ، ولا وقفوا على ديباجة أبى عبادة البحترى ، وهذا الموضع لا يُسْتَفتى فيه علماء العربية ، وإنما يستفتى فيه كاتب بليغ ، أو شاعر مفلق ؛ فإنّ أهل كل علم أعلم به . وكما لايسأل الفقيه عن مسألة حسابية فكذلك لايسأل الحاسب عن مسألة فقهية ، وكما لايسأل أيضا النحوى عن مسألة طبية فكذلك لايسأل الطبيب عن مسألة نحوية ، ولا يعلم كل علم إلا صاحبه الذى قلب ظهره لبطنه وبطنه لظهره .

على أن علم البيان من الفصاحة والبلاغة محبوب إلى الناس قاطبة ، مامن أحد إلاَّ ويُحِبُّ أن يتكلم فيه ، حتى إنى رأيت أجلاف العامة ممن لم يخطَّ بيده ورأيت أغتام الأجناس ممن لاينطق بالكلمة صحيحة ، كلهم يخوض فى فن الكتابة والشعر ، ويأتون فيه بكل مضحكة ، وهم يظنون أنهم عالمون به ، ولا لوم عليهم فإنه بلغنى عن ابن الأعرابى — وكان من مشاهير العلماء — أنه عرض عليه أرجوزة أبى تمام اللامية التى مطلعها :

* وَعَاذِلٍ عَذَلتُهُ فى عَـــذْلِهِ *

وقيل له : هذه لفلان ، من شعراء العرب ، فاستحسنها غاية الاستحسان ، وقال : هذا هوالديباج الخسروانى ، ثم استكتبها ، فلما أنهاها قيل له : هذه لأبى تمام ؛ فقال : من أجل ذلك أرى عليها أثر الكلفة ، ثم ألقى الورقة من يده ، وقال : ياغلام ، خرّق خرّق ، فإذا كان ابن الأعرابى مع علمه وفضله لايدرى أىّ طرفيه أطول فى هذا الفن ولا يعلم أين يضع يده فيه ويبلغ به الجهل إلى أن يقف مع التقليد الشنيع الذى هذا غايته فما الذى يقول غيره ؟! وما الذى يتكلم فيه سواه ؟!

والمذهب عندى فى تفضيل الشعراء أن الفرزدق وجريرا والأخطل أشعر

العرب أولا وآخرا ، ومن وقف على الأشعار ووقف على دواوين هؤلاء الثلاثة علم ماأشرت إليه ، ولا ينبغى أن يوقف مع شعر امرىء القيس وزهير والنابغة والأعشى ؛ فإن كلا من أولئك أجاد فى معنى اختص به ، حتى قيل فى وصفهم : امرؤ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا شرب ؛ وأما الفرزدق وجرير والأخطل فإنهم أجادوا فى كل ماأتوا به من المعانى المختلفة ، وأشعر منهم عندى الثلاثةُ المتأخرون ، وهم : أبو تمام ، وأبو عبادة البحترى ، وأبو الطيب المتنبى ؛ فإن هؤلاء الثـــلاثة لايدانيهم مُدَانٍ فى طبقة الشعراء ، أما أبو تمام وأبو الطيب فَرَبَّا المعانى ، وأمّا أبو عبادة فربّ الألفاظ فى ديباجتها وسبكها .

وبلغنى أن أبا عبادة البحترى سأل ولده أبا الغوث عن الفرزدق وجرير أيهما أشعر ، فقال : جرير أشعر ، قال : وبم ذلك ؟ قال : لأن حَوْكَه شبيهٌ بحوكك ، قال : ثكلتك أمك ! أو فى الحكم عصبية ؟ قال : يا أبت ، فمن أشعر ؟ قال : الفرزدق ، قال : وبم ذاك ؟ قال : لأن أهاجى جرير كلها تدور على أربعة أشياء : هى القين ، والزنا ، وضرب الرومى بالسيف ، والنفى من المسجد ، ولا يهجو الفرزدقَ بسوى ذلك ، وأما الفرزدق فإنه يهجو جريرا بأنحاء مختلفة ، ففى كل قصيد يرميه بسهام غير السهام التى يرميه بها فى القصيد الآخر ؛ وأنا أستكذب راوى هذه الحكاية ، ولا أصدقه ؛ فإن البحترى عندى ألبُّ من ذلك ، وهو عارف بأسرار الكلام ، خبير بأوساطه وأطرافه ، وجيده ورديئه ، وكيف يدعى على جرير أنه لم يَهْجُ الفرزدق إلا بتلك المعانى الأربعة التى ذكرها وهو القائل :

لَمَّـا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ مِيسَمِى … وَعَلَى الْبَعِيثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الْأَخْطَلِ[1]

(١) فى ا ، ب ، ج «لما وضعت على الفرزدق منسمى» وهو تصحيف ، وتحقيقه عن النقائض .

فجمع بين هجاء هؤلاء الثلاثة فى بيت واحد .

ولقد تأملت كتاب النقائض فوجدت جريرا رَبَّ تغزل ومديح وهجاء وافتخار ، وقد كسا كل معنى من هذه المعانى ألفاظا لائقة به ويكفيه من ذلك قوله :

وَعَاوٍ عَوَى مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ رَمَيْتُهُ ... بِقَافِيَةٍ أَنْفَاذُهَا تَقْطُرُ الدَّمَا (١)
وَإِنِّى لَقَوَّالٌ لِكُلِّ غَرِيبَةٍ ... وَرُودٍ إِذَا السَّارِى بِلَيْلٍ تَرَنَّمَا
خَرُوجٍ بِأَفْوَاهِ الرُّوَاةِ كَأَنَّهَا ... شَبَا هُنْدُوَانِيٍّ إِذَا هُزَّ صَمَّمَا (٢)
غَرَائِبُ آلَافٌ إِذَا حَانَ وِرْدُهَا ... أَخَذْنَ طَرِيقاً لِلْقَصَائِدِ مُعْلَمَا

ولو لم يكن لجرير سوى هذه الأبيات لتقدم بها الشعراء .

وسأذكر من هجاء الفرزدق ماليس فيه شيء من تلك المعانى الأربعة التى أشار البحترى إليها ؛ فمن ذلك قوله :

وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْفَرَزْدَقَ حَيَّةٌ ... وَمَا قَتَلَ الْحَيَّاتِ مِنْ أَحَدٍ قَبْلِى
أَلَمْ تَرَ أَنِّى لَا أُنِبلُ رَمْيَتِى ... فَمَنْ أَرْمِ لَاتُخْطِئْ مَقَاتِلَهُ نَبْلِى (٣)
رَأَيْتُكَ لَاتَحْمِى عِقَالاً وَلَمْ تَرِدْ ... قِتَالاً فَمَا لَاقَيْتَ شَرٌّ مِنَ الْقَتْلِ (٤)

---

(١) فى النقائض والديوان « بقارعة أنفاذها تقطر الدما » ويروى « أقطارها تقطر الدما » ؛ وفى ا ، ب ، ج « بقافية أنفادها يقطر الدما » .

(٢) فى ا ، ب ، ج « جروح بأفواه الرواة » وفيها « إذا هزصمصما » وما أثبتناه عن النقائض والديوان ، وفيهما « قرى هندوانى » والقرى : الظهر .

(٣) فى النقائض والديوان :

* أَلَمْ تَرَ أَنِّى لَا تبلُ رَمِيَّتِى *

(٤) فى ا ، ب ، ج « فما لاقيت شرا من القتل » وهو تحريف ، و « شر » خبر « ما » .

وقوله :

أَبْلِغْ هَدِيَّتِيَ الْفَرَزْدَقَ إِنَّهَا ... عِبْءٌ تُزَادُ عَلَى حَسِيرٍ مُثْقَلِ(١)
إِنِّي انْصَبَبْتُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ ... حَتَّى اخْتَطَفْتُكَ يَافَرَزْدَقُ مِنْ عَلِ

وقوله :

زَعَمَ الْفَرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتُلُ مِرْبَعاً ... أَبْشِرْ بِطُولِ سَلَامَةٍ يَا مِرْبَعُ
وَرَأَيْتُ نَبْلَكَ يَافَرَزْدَقُ قَصَّرَتْ ... وَرَأَيْتُ قَوْسَكَ لَيْسَ فِيهَا مَنْزَعُ
إِنَّ الْفَرَزْدَقَ قَدْ تَبَيَّنَ لُؤْمُهُ ... حَيْثُ الْتَقَتْ خُشَشَاؤُهُ وَالْأَخْدَعُ

وقوله :

أَحَارِثُ؛ خُذْ مَنْ شِئْتَ مِنَّا وَمِنْهُمُ ... وَدَعْنَا نَقِسْ مَجْداً تُعَدُّ فَضَائِلُهْ(٢)
لَبِسْتُ سِلَاحِي وَالْفَرَزْدَقُ لُعْبَةٌ ... عَلَيْهِ وِشَاحَا كُرَّجٍ وَجَلَاجِلُهْ
فَلَسْتَ بِذِي عِزٍّ وَلَا ذِي أُرُومَةٍ ... وَمَا تُعْطَ مِنْ ضَيْمٍ فَإِنَّكَ قَابِلُهْ

وقوله :

لَا يَخْفَيَنَّ عَلَيْكَ أَنَّ مُجَاشِعاً ... لَوْ يُنْفَخُونَ مِنَ الْخُؤُورَةِ طَارُوا
قَدْ يُؤْسَرُونَ فَلَا يُفَكُّ أَسِيرُهُمْ ... وَيُقَتَّلُونَ فَتَسْلَمُ الْآثَارُ

وقوله :

بَنِي مَالِكٍ؛ إِنَّ الْفَرَزْدَقَ لَمْ يَزَلْ ... يُلَقَّى الْمَخَازِي مِنْ لَدُنْ أَنْ تَيَفَّعَا(٣)

---

(١) فى ا ، ب ، ج « على حصير مثقل » .

(٢) فى النقائض والديوان « تعد فواضله » .

(٣) فى ا ، ب ، ج « من لدن أن ينقعا » وهو تحريف . وفى النقائض والديوان « فلوّ المخازى » .

مَدَدْتُ لَهُ الْغَايَاتِ حَتَّى تَرَكْتُهُ قَعُودَ الْقَوَافِي ذَا عُلُوبٍ مُوَقَّعَا(١)

وقوله :

أَلَا إِنَّمَا كَانَ الْفَرَزْدَقُ ثَعْلَباً ضَغَا وَهْوَ فِي أَشْدَاقِ لَيْثٍ ضُبَارِمِ(٢)

وقوله :

مَهْلاً فَرَزْدَقُ إِنَّ قَوْمَكَ فِيهِمُ خَوَرُ الْقُلُوبِ وَخِفَّةُ الْأَحْلَامِ(٣)
الظَّاعِنُونَ عَلَى الْعَمَى بِجَمِيعِهِمْ وَالنَّازِلُونَ بِشَرِّ دَارِ مُقَامِ

وقوله :

إِذَا سَفَرَتْ يَوْمًا نِسَاءُ مُجَاشِعٍ بَدَتْ سَوْأَةٌ مِمَّا تُجِنُّ الْبَرَاقِعُ
مَبَاشِمُ عَنْ غِبِّ الْهَرِيرِ كَأَنَّمَا تُصَوِّتُ فِي أَعْفَاجِهِنَّ الضَّفَادِعُ
رَأَتْ مَلَلاً مِثْلَ الْفَرَزْدَقِ قَصَّرَتْ عَنِ الْعُلُوِ لَا يَأْبَى عَنِ الْعُلُوِ بَارِعُ
أَتَعْدِلُ أَحْسَابًا كِرَامًا حُمَاتُهَا بِأَحْسَابِكُمْ إِنِّي إِلَى اللهِ رَاجِعُ
إِذَا قِيلَ أَيُّ النَّاسِ شَرٌّ قَبِيلَةً وَأَعْظَمُ عَارًا قِيلَ تِلْكَ مُجَاشِعُ

وقوله :

عَلِقَ الْأُخَيْطِلُ فِي حِبَالِيَ بَعْدَ مَا عَـثَرَ الْفَرَزْدَقُ ؛ لَا لَعًا لِلْعَاثِرِ !

---

(١) فى النقائض والديوان :

* رَمَيْتُ ابْنَ ذِي الْكِيرَيْنِ حَتَّى تَرَكْتُهُ *

(٢) فى ا ، ب ، ج « ضفا وهى » وما أثبتناه عن النقائض والديوان .

(٣) فى النقائض :

* أَبَنِي أُدَيْرَةَ إِنَّ فِيكُمْ فَاعْلَمُوا *

والبيتان ليسا مما هجا به جرير الفرزدق ، بل هما فى هجاء غسان بن ذهل السليطى.

لَقِىَ الْفَرَزْدَقُ مَا لَقِيتَ وَقَبْلَهُ طَاحَ التَّعِيسُ بِغَيْرِ عِرْضٍ وَافِرِ
وَإِذَا رَجَوْا أَنْ يَنْقُضُوا لِىَ مِرَّةً مَرَسَتْ قُوَاىَ عَلَيْهِمُ وَمَرَائِرِى

ولجرير مواضع كثيرة فى هجاء الفرزدق غير هذه؛ ولولا خوف الإطالة لاستقصيتها جميعها، ولو سلمت إلى البحترى ما زعم من أن جريرا ليس له فى هجاء الفرزدق إلا تلك المعانى الأربعة لاعترضت عليه بأنه قد أقرّ لجرير بالفضيلة، وذاك أن الشاعر المفلق أو الكاتب البليغ هو الذى إذا أخذ معنى واحدا تصرّف فيه بوجوه التصرفات، وأخرجه فى ضروب الأساليب، وكذلك فعل جرير؛ فإنه أبرز من هجاء الفرزدق بالقَيْن كلّ غريبة، وتصرف فيه تصرّفا مختلف الأنحاء؛ فمن ذلك قوله:

أَلْهَى أَبَاكَ عَنِ الْمَكَارِمِ وَالْعُلَا لَىُّ الْكَتَائِفِ وَارْتِفَاعُ الْمِرْجَلِ

وقوله:

وُجِدَ الْكَتِيفُ ذَخِيرَةً فِى قَبْرِهِ وَالْكَلْبَتَانِ جُمِعْنَ وَالْمِنْشَارُ(١)
يَبْكِى صَدَاهُ إِذَا تَصَدَّعَ مِرْجَلٌ أَوْ إِنْ تَفَلَّقَ بُرْمَةٌ أَعْشَارُ
قَالَ الْفَرَزْدَقُ رَقِّعِى أَكْيَارَنَا قَالَتْ وَكَيْفَ تُرَقَّعُ الْأَكْيَارُ

وقوله:

إِذَا آبَاؤُنَا وَأَبُوكَ عُدُّوا أَبَانَ الْمُقْرِفَاتُ مِنَ الْعِرَابِ(٢)

---

(١) قوله «الكتيف» هو كذلك فى الديوان؛ وفى ا،ب،ج «الكنيف» وقوله «والمنشار» هو كذلك فى ا، ب، ج؛ وفى الديوان والنقائض «والمئشار».

(٢) وقع هذا البيت فى أصول الكتاب هكذا:

إِذَا آبَاؤُنَا وَأَبُوكَ جَدُّوا بِأَنَّ الْمُفْرِقَاتِ مِنَ الْفِرَابِ

وهو تحريف شنيع فى عدة مواضع.

فَأَوْرَثَكَ الْعَلَاةَ وَأَوْرَثُونِي رِبَاطَ الْخَيْلِ أَفْنِيَةَ الْقِبَابِ
وَسَيْفُ أَبِي الفَرَزْدَقِ فَاعْلَمُوهُ قَدُومٌ غَيْرُ ثَابِتَةِ النِّصَابِ

فانظر أيها الواقف على كتابي هذا إلى هذه الأساليب التي تَصَرَّف فيها جرير وأدارها على هجاء الفرزدق بالقَيْن ؛ فقال أولا : إن أباه شغل عن المكارم بصناعة القيون ، ثم قال ثانيا : إنه يبكي عليه ويندبه بعد الموت المِرْجَلُ والبرمة الأعشار التي يُصْلحها ، ثم قال ثالثاً : إن أباك أورثك آلة القيون ، وأورثني أبي رباط الخيل ؛ وقد أورد جرير هذا المعنى على غير هذه الأساليب التي ذكرتها ، ولا حاجة إلى التطويل بذلك ههنا ، وهذا القدر فيه كفاية .

وحيث انتهى بنا القول إلى ههنا فلنرجع إلى النوع الذي نحن بصدد ذكره ، وهو اتحاد الطريق واختلاف المقصد ؛ فمما جاء منه قول النابغة :

إِذَا مَا غَزَا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
جَوَانِحُ قَدْ أَيْقَنَّ أَنَّ قَبِيلَهُ إِذَا مَا الْتَقَى الجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ

وهذا المعنى قد توارد عليه الشعراء قديما وحديثاً ، وأوردوه بضروب من العبارات؛ فقال أبو نواس :

تَتَمَنَّى الطَّيْرُ غَزْوَتَهُ ثِقَةً بِاللَّحْمِ مِنْ جُزُرِهْ

وقال مسلم بن الوليد :

قَدْ عَوَّدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثِقْنَ بِهَا فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ فِي كُلِّ مُرْتَحَلِ

وقال أبو تمام :

وَقَدْ ظُلِّلَتْ أَعْنَاقُ أَعْلَامِهِ ضُحًى بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدِّمَاءِ نَوَاهِلِ
أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كَأَنَّهَا مِنَ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تُقَاتِلِ

وقد ذكر في هذا المعنى غير هؤلاء ، إلا أنهم جاءوا بشيء واحد لا تفاضل بينهم

فيه ، إلا من جهة حسن السبك ، أو من جهة الإيجاز فى اللفظ ، ولم أر أحدا أغرب فى هذا المعنى فسلك هذه الطريق مع اختلاف مقصده إليها إلا مسلم ابن الوليد ، فقال :

أَشْرَبْتَ أَرْوَاحَ الْعِدَا وَقُلُوبَهَا خَــوْفًا فَأَنْفُسُهَا إِلَيْكَ تَطِيرُ
لَوْحَا كَمَتْكَ فَطَالَبَتْكَ بِذَحْلِهَا شَهِدَتْ عَلَيْكَ ثَعَالِبٌ وَنُسُورُ

فهذا من المليح البديع الذى فضل به مسلم غيره فى هذا المعنى ؛ وكذلك فعل أبو الطيب المتنبى ؛ فإنه لما انتهى الأمر إليه سلك هذه الطريق التى سلكها من تقدّمه[1] ، إلا أنه خرج فيها إلى غير المقصد الذى قصدوه ، فأغرب وأبدع ، وحاز الإحسان بجملته ، وصار كأنه مبتدع لهـــذا المعنى دون غيره ، فمما جاء منه قوله :

يُفَدِّى أَتَمُّ الطَّيْرِ عُمْرًا سِلَاحَهُ نُسُورُ الْمَلَا أَحْدَاثُهَا وَالْقَشَاعِمُ
وَمَا ضَرَّهَا خَلْقٌ بِغَيْرِ مَخَالِبٍ وَقَدْ خُلِقَتْ أَسْيَافُهُ وَالْقَوَائِمُ

ثم أورد هذا المعنى فى موضع آخر من شعره ؛ فقال :

سَحَابٌ مِنَ الْعِقْبَانِ تَزْحَفُ تَحْتَهَا سَحَابٌ إِذَا اسْتَسْقَتْ سَقَتْهَا صَوَارِمُهْ

وهذا معنى قد حوى طرفى الإغراب والإعجاب ؛ وقال فى موضع آخر :

وَذِى لَجَبٍ لَا ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ بِنَاجٍ وَلَا الْوَحْشُ الْمُثَارُ بِسَالِمِ
تَمُرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهْىَ ضَعِيفَةٌ تُطَالِعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيشِ الْقَشَاعِمِ
إِذَا ضَوْؤُهَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ

وهذا من إعجاز أبى الطيب المشهور ، ولو لم يكن له من الإحسان فى شعره إلا هذه الأبيات لاستحق بها فضيلة التقدم .

(١) فى ا ، ب ، ج « هذه الطريق الذى سلكها من تقدمه » .

ومما ينتظم بهذا النوع ماتوارد عليه أبو عبادة البحترى وأبو الطيب المتنبى فى وصف الأسد ، وقصيدتاهما مشهورتان ؛ فأول إحداهما :

* أَجِدَّكَ مَاينفكُّ يَسْرِى لِزَينبا[١] *

وأول الأخرى :

* فى الخَدِّ إنْ عَزَمَ الخَلِيطُ رَحِيلاَ[٢] *

أما البحترى فإنه ألم بطرف مما ذكر بشر بن عوانة فى أبياته الرائية التى أولها :

أَفَاطِمُ لَوْ شَهِدْتِ بِبطْنِ خَبْتٍ وَقَدْ لاَقَى الْهِزَبْرُ أَخَاكِ بِشْرَا

وهذه الأبيات من النمط العالى الذى لم يأت أحد بمثلها ، وكل الشعراء لم تسمُ قرائحهم إلى استخراج معنى ليس بمذكور فيها ، ولولا خوف الإطالة لأوردتها بجملتها ، لكن الغرض إنما هو المفاضلة بين البحترى وأبى الطيب فيما أورداه من المعانى فى هذا المقصد المشار إليه .

فما جاء للبحترى من قصيدته :

وَمَا تَنقِمُ الحُسَّادُ إلاَّ أَصالَةً لَدَيْكَ وَعَزْماً أَرْيَحِيًّا مُهَذَّبَا[٣]

وَقَدْ جَرَّبُوا بِالْأَمْسِ مِنْكَ عَزِيمَةً

فَضَلْتَ بِهَا السَّيْفَ الْحُسَامَ الْمُجَرَّبَا[٤]

---

(١) هذا صدر مطلع قصيدة البحترى ، وعجزه قوله :

* خيَالٌ إذَا آبَ الظَّلاَمُ تَأَوَّبَا *

(٢) هذا صدر مطلع قصيدة المتنبى ، وعجزه قوله :

* مَطَرٌ تَزِيدُ بِهِ الخُدُودُ مُحُولاَ *

(٣) فى الديوان « وما نقم الحساد » وفيه « وفعلا أريحيا مهذبا » .

(٤) فى ا ، ب ، ج « فصلت بها » بالصاد المهملة ، وهو تحريف .

غَدَاةَ لَقِيتَ اللَّيْثَ وَاللَّيْثُ مُخْدِرٌ يُحَدِّدُ نَابًا لِلِّقَاءِ وَمِخْلَبَا
إِذَا شَاءَ غَادَى عَانَةً أَوْ عَدَا عَلَى عَقَائِلِ سِرْبٍ أَوْ تَقَنَّصَ رَبْرَبَا
شَهِدْتُ لَقَدْ أَنْصَفْتَهُ حِينَ تَنْبَرِى لَهُ مُصْلِتًا عَضْبًا مِنَ الْبِيضِ مِقْضَبَا
فَلَمْ أَرَ ضِرْغَامَيْنِ أَصْدَقَ مِنْكُمَا عِرَاكًا إِذَا الْهَيَّابَةُ النِّكْسُ كَذَّبَا
هِزَبْرًا مَشَى يَبْغِى هِزَبْرًا وَأَغْلَبًا مِنَ الْقَوْمِ يَغْشَى بَاسِلَ الْوَجْهِ أَغْلَبَا
أَدَلَّ بِشَغْبٍ ثُمَّ هَالَتْهُ صَوْلَةٌ رَآكَ لَهَا أَمْضَى جَنَانًا وَأَشْغَبَا
فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْمَعًا وَأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبَا
فَلَمْ يُغْنِهِ أَنْ كَرَّ نَحْوَكَ مُقْبِلًا وَلَمْ يُنْجِهِ أَنْ حَادَ عَنْكَ مُنَكِّبَا
حَمَلْتَ عَلَيْهِ السَّيْفَ لَا عَزْمُكَ انْثَنَى
وَلَا يَدُكَ ارْتَدَّتْ وَلَا حَدُّهُ نَبَا

ومما جاء لأبى الطيب المتنبى فى قصيدته :

أَمُعَفِّرَ اللَّيْثِ الْهِزَبْرِ بِسَوْطِهِ لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولَا
وَرْدٌ إِذَا وَرَدَ الْبُحَيْرَةَ شَارِبًا وَرَدَ الْفُرَاتَ زَئِيرُهُ وَالنِّيلَا
مُتَخَضِّبٌ بِدَمِ الْفَوَارِسِ لَابِسٌ فِى غِيلِهِ مِنْ لِبْدَتَيْهِ غِيلَا
مَا قُوبِلَتْ عَيْنَاهُ إِلَّا ظُنَّتَا تَحْتَ الدُّجَى نَارَ الْفَرِيقِ حُلُولَا
فِى وَحْدَةِ الرُّهْبَانِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ التَّحْرِيمَ وَالتَّحْلِيلَا
يَطَأُ الْبَرَى مُتَرَفِّقًا مِنْ تِيهِهِ فَكَأَنَّهُ آسٍ يَجُسُّ عَلِيلَا
وَيَرُدُّ عُفْرَتَهُ إِلَى يَافُوخِهِ حَتَّى تَصِيرَ لِرَأْسِهِ إِكْلِيلَا
قَصَرَتْ مَخَافَتُهُ الْخُطَا فَكَأَنَّمَا رَكِبَ الْكَمِىُّ جَوَادَهُ مَشْكُولَا
أَلْقَى فَرِيسَتَهُ وَبَرْبَرَ دُونَهَا وَقَرُبْتَ قُرْبًا خَالَهُ تَطْفِيلَا
فَتَشَابَهَ الْقِرْنَانِ فِى إِقْدَامِهِ وَتَخَالَفَا فِى بَذْلِكَ الْمَأْكُولَا

أَسَدٌ يَرَى عُضْوَيْهِ فِيكَ كِلَيْهِمَا   مَتْنًا أَزَلَّ وَسَاعِدًا مَفْتُولاَ
مَازَالَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ فى زَوْرِهِ   حَتَّى حَسِبْتَ الْعَرْضَ مِنْهُ الطُّولاَ
وَكَأَنَّمَا غَرَّتْهُ عَيْنٌ فَادَّنَى   لاَيُبْصِرُ الخَطْبَ الجَلِيلَ جَلِيلاَ
أَنَفُ الْكَرِيمِ مِنَ الدَّنِيَّةِ تَارِكٌ   فى عَيْنِهِ الْعَدَدَ الْكَثِيرَ قَلِيلاَ
وَالْعَارُ مَضَّاضٌ وَلَيْسَ بِخَائِفٍ   مِنْ حَتْفِهِ مَنْ خَافَ مِمَّا قِيلاَ
خَذَلَتْهُ قُوَّتُهُ وَقَدْ كَافَحْتَهُ   فَاسْتَنْصَرَ التَّسْلِيمَ وَالتَّجْدِيلاَ
سَمِعَ ابْنُ عَمَّتِهِ بِهِ وَبِحَالِهِ   فَمَضَى يُهَرْوِلُ أَمْسِ مِنْكَ مَهُولاَ
وَأَمَرُّ مِمَّا فَرَّ مِنْهُ فِرَارُهُ   وَكَقَتْلِهِ أَلاَّ يَمُوتَ قَتِيلاَ
تَلَفُ الَّذِى اتَّخَذَ الجَرَاءَةَ خُلَّةً   وَعَظَ الَّذِى اتَّخَذَ الْفِرَارَ خَلِيلاَ

وسأحكم بين هاتين القصيدتين ، والذى يشهد به الحق وتنفيه العصبية أذكره ، وهو أن معانى أبى الطيب أكثر عددا ، وأسدُّ مقصِدًا ، ألا ترى أن البحترى قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح : فى تشبيهه بالأسد مرة ، وتفضيله عليه أخرى ، ولم يأت بشىء سوى ذلك ، وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك فى بيت واحد ، وهو قوله :

أَمُعَفِّرَ اللَّيْثِ الْهِزَبْرِ بِسَوْطِهِ   لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولاَ

ثم إنه تفنن فى ذكر الأسد ؛ فوصف صورته وهيئته ، ووصف أحواله فى انفراده فى جنسه وفى هيئة مشيه واختياله ، ووصف خلق نجله مع شجاعته ، وشبه الممدوح به فى الشجاعة ، وفضّله عليه بالسخاء ، ثم إنه عطفَ بعد ذلك على ذكر الأنفة والحمية التى بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح ، وأخرج ذلك فى أحسن مَخْرَج ، وأبرزه فى أشرف معنى ، وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين عرف ببديهة النظر ما أشرت إليه ، والبحترى وإن كان أفضل من المتنبى فى صَوْغ

الألفاظ وطلاوة السبك فالمتنبي أفضل منه فى الغَوْصِ على المعانى ، ومما يدلك على ذلك أنه لم يعرض لما ذكره فى أبياته الرائية لعلمه أن بشرا قد مَلَكَ رقاب تلك المعانى ، واستحوذ عليها ، ولم يترك لغيره شيئاً يقوله فيها ، ولفطانة أبى الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحترى من الانسحاب على ذيل بشر ؛ لأنه قصر عنه تقصيرا كثيرا ، ولما كان الأمر كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك الطريق وسلك غيرها ، فجاء فيما أورد مبرزا .

واعلم أن من أبين البيان فى المفاضلة بين أرباب النظم والنثر أن يتوارد اثنان منهما على مقصدٍ من المقاصد يشتمل على عدة معان ؛ كتوارد البحترى والمتنبى ههنا على وصف الأسد ، وهذا أبين فى المفاضلة من التوارد على معنى واحد يصوغه هذا فى بيت من الشعر وفى بيتين ويصوغه الآخر فى مثل ذلك ؛ فإن بعد المَدَى يظهر مافى السوابق من الجواهر ، وعنده يتبين ربح الرابح وخسر الخاسر .

فإذا شئت أن تعلم فضل مابين هذين الرجلين فانظر إلى قصيدتيهما فى مراثى النساء التى مفتتح إحداهما :

يا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَابِنْتَ خَيْرِ أَبِ ... كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَكْرَمِ العَرَبِ (١)

وهى لأبى الطيب ، ومفتتح الأخرى :

غُرُوبُ دَمْعٍ مِنَ الأَجْفَانِ يَنْهَمِلُ ... وَحُرْقَةٌ بِغَلِيلِ الحُزْنِ تَشْتَعِلُ

وهى للبحترى ؛ فإن أبا الطيب انفرد بابتداع ماأتى به من معانى قصيدته ، والبحترى أتي بما أكثره غث بارد ، والمتوسط منه لافرق فيه بين رثاء امرأة أو رجل .

ومن الواجب أنه إذا سلك الناظم أو الناثر مسلكا فى غرض من الأغراض

---

(١) الذى فى الديوان :

* كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ *

ألاَّ يخرجَ عنه ، كالذى سلكه هذان الرجلان فى الرثاء بامرأة ، فإن من حذاقة الصنعة أن يذكر مايليق بالمرأة دون الرجل ، وهذا الموضع لم يأت فيه أحد بما يثبت على المحكّ إلا أبو الطيب وحده ، وأما غيره من مفلقى الشعراء قديما وحديثا فإنهم قصروا عنه .

وله فى هذا المعنى قصيدة أخرى مفتتحها :

نُعِدُّ المَشْرَفِيَّةَ وَالْعَوَالِي ... وَتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلاَ قِتَالِ

وكفى بهما شاهدا على ماذكرته من انفراده بالإبداع فيما أتى به ، والفتيا عندى بينه وبين البحترى أن أبا الطيب أنْفَذُ فى المضيق ، وأعرف باستخراج المعنى الدقيق ، وأما البحترى فإنه أعرف بصَوْغ الألفاظ ، وحَوْك ديباجتها ، وقد قدمت أن الحكم بين الشاعرين فى اتفاقهما فى المعنى أبين من الحكم بينهما فيما اختلفا فيه ؛ لأنهما مع الاتفاق فى المعنى يتبين قولاهما ، ويظهران ظهورا يعلم ببديهة النظر ويتسارع إليه فهم من ليس بثاقب الفهم ، وأما اختلافهما فى المعنى فإنه يحتاج فى الحكم بينهما فيه إلى كلام طويل يعز فهمه ، ولا يتفطن له إلا بعض الناس دون بعض ، بل لايتفطن له إلاالفذّ الواحد من الناس ، ولى فى هذامقالة مفردة ضمنتها الحكم بين المعنيين المختلفين ، وتكلمت عليه كلاما طويلا عريضا ، وأقمت الدليل على مانَصَصْت عليه ، وما منعنى من إيرادها فى كتابى هذا إلا أنهاسنحت لى بعد تصنيفه وشياعه فى أيدى الناس ، وتناقل النسخ به .

وعلى هذا الأسلوب توارد البحترى والشريف الرضى على ذكر الذئب فى قصيدة للبحترى دالية أولها :

* سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَوَفَاءٌ وَلاَ عَهْدُ *

ومقطوعة للشريف الرضى أولها :

وَعَارِى الشَّوَى وَالْمَنْكِبَيْنِ مِنَ الطَّوَى
أُتِيحَ لَهُ بِاللَّيْلِ عَارِى الأَشَاجِعِ

وقد أجاد البحترى فى وصف حاله مع الذئب ، والشريف أجاد فى وصف الذئب نفسه .

وأما المسخ فهو : قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة .

والقسمة تقتضى أن يقرن إليه ضده ، وهو قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة.

فالأول كقول أبى تمام :

فَتًى لَا يَرَى أَنَّ الْفَرِيصَةَ مَقْتَلٌ وَلٰكِنْ يَرَى أَنَّ الْعُيُوبَ مَقَاتِلُ

وقول أبى الطيب المتنبى :

يَرَى أَنَّ مَا مَا بَانَ مِنْكَ لِضَارِبٍ بِأَقْتَلَ مِمَّا بَانَ مِنْكَ لِعَائِبِ

فهو وإن لم يشوّه المعنى فقد شوّه الصورة ؛ ومثاله فى ذلك كمن أودع الوشى شملا ، وأعطى الورد جُعَلا ، وهذا من أرذل السرقات ، وعلى نحو منه جاء قول عبد السلام بن رغبان :

نَحْنُ نُعَزِّيكَ وَمِنْكَ الْهُدَى مُسْتَخْرَجٌ وَالصَّبْرُ مُسْتَقْبَلُ
نَقُولُ بِالْعَقْلِ وَأَنْتَ الَّذِى نَأْوِى إِلَيْهِ وَبِهِ نَعْقِلُ
إِذَا عَفَا عَنْكَ وَأَوْدَى بِنَا الدَّهْرُ فَذَاكَ الْمحسن المجمل

أخذه أبو الطيب فقلب أعلاه أسفله ، فقال :

إِنْ يَكُنْ صَبْرُ ذِى الرَّزِيَّةِ فَضْلًا فَكُنِ الْأَفْضَلَ الْأَعَزَّ الْأَجَلَّا
أَنْتَ يَا فَوْقَ أَنْ تُعَزَّى عَنِ الْأَحْبَابِ فَوْقَ الَّذِى يُعَزِّيكَ عَقْلَا
وَبِأَلْفَاظِكَ اهْتَدَى فَإِذَا عَزَّاكَ قَالَ الَّذِى لَهُ قُلْتَ قَبْلَا

والبيت الأخير من هذه الأبيات هو الآخر قدراً ، وهو المخصوص بالمسخ .

وأما قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة فهذا لايسمى سرقة ، بل يسمى إصلاحا وتهذيبا .

فمن ذلك قول أبي الطيب المتنبي :

لَوْ كَانَ مَاتُعْطِيهِمُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُعْطِيهِمُ لَمْ يَعْرِفُوا التَّأْمِيلاَ

وقول ابن نباتة السعدي :

لَمْ يُبْقِ جُودُكَ لِي شَيْئًا أُؤَمِّلُهُ تَرَكْتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِلاَ أَمَلِ

وعلى هـذا النحو ورد قول أبي نواس في أرجوزة يصف فيها اللعب بالكرة والصولجان فقال من جملتها :

جِنٌّ عَلَى جِنٍّ وَإِنْ كَانُوا بَشَرْ كَأَنَّمَا خِيطُوا عَلَيْهَا بِالإِبَرْ

ثم جاء المتنبي فقال :

فَكَأَنَّهَا نُتِجَتْ قِيَامًا تَحْتَهُمْ وَكَأَنَّهُمْ وُلِدُوا عَلَى صَهَوَاتِهَا

و بين القولين كما بين السماء والأرض ؛ فإنه يقال : ليس للأرض إلى السماء نسبة محسوسة ، وكذلك يقال ههنا أيضاً ؛ فإن بقدر مافي قول أبي نواس من النزول والضعف ، فكذلك في قول أبي الطيب من العلو والقوة .

وربما ظن بعض الجهال أن قول الشماخ :

إذا بَلَّغْتِنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي عَرَابَةَ فَاشْرَقِي بِدَمِ الْوَتِينِ

وقول أبي نواس :

وَإِذا المَطِيُّ بِنَا بَلَغْنَ مُحَمَّداً فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ

من هذا القبيل الذي هو قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة ، وليس كذلك ؛ فإن قلب الصورةِ القبيحة إلى صورة حسنة هو أن يؤخذ المعنى الواحد فيكسى عبارتين إحداهما قبيحة والأخرى حسنة ؛ فالحسن والقبح إنما يرجع إلى التعبير،

لا إلى المعنى نفسه ، وقول أبى نواس هو عكس قول الشماخ ، وقد تقدم مثل ذلك فيما مضى من ضروب السرقات ؛ ألا ترى إلى قول أبى الطيب المتنبى وقول الشريف الرضى ؛ فقال أبو الطيب :

إِنِّى عَلَى شَغَفِى بِمَا فِى خُمْرِهَا لَأَعِفُّ عَمَّا فِى سَرَاوِيلَاتِهَا

وقول الشريف الرضى :

أَحِنُّ إِلَي مَاتَضْمَنُ الْخُمُرُ وَالْحُلَى وَأَصْدِفُ عَمَّا فِى ضَمَانِ الْمَآزِرِ

فالمعنى واحد ، والعبارة مختلفة فى الحسن والقبح .

وهذه السرقات ـ وهى ستة عشر نوعا ـ لايكاد يخرج عنها شىء ، وإذا أنصف الناظر فى الذى أتيت به ههنا علم أنى قد ذكرت مالم يذكره غيرى ، وأنا أسأل الله التوفيق لأن أكون لفضله شكوراً ، وألا أكون مختالا فخوراً .

وإذ فرغت من تصنيف هذا الكتاب ، وحررت القول فى تفصيل أقسام الفصاحة والبلاغة والكشف عن دقائقهما وحقائقهما ، فينبغى أن أختمه بذكر فضليهما ؛ فأقول :

أعلم أن هذا الفن هو أشرف الفضائل ، وأعلاها درجة ، ولولا ذلك لما فخر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدة مواقف ، فقال تارة : « أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ » ، وقال تارة : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي : كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ فى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَيِّبَةً وَطَهُوراً ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَى مَسِيرَةِ شَهْرٍ ، وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ » ؛ وماسمع بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتخر بشىء من العلوم سوى علم الفصاحة والبلاغة ، فلم يقل إنه أفقه الناس ،

ولا أعلم الناس بالحساب ، ولا بالطب ، ولا بغير ذلك ، كما قال : « أنا أفصح من نطق بالضاد » .

وأيضاً فلو لم تكن هذه الفضيلة من أعلى الفضائل درجة لما اتصل الإعجاز بها دون غيرها ؛ فإن كتاب الله تعالى نزل عليها ، ولم ينزل بمعجز من مسائل الفقه ، ولا من مسائل الحساب ، ولا من مسائل الطب ، ولا غير ذلك من العلوم .

ولما كانت هذه الفضيلة بهذه المكانة صارت فى الدرجة العالية ، والمنثور منها أشرف من المنظوم ؛ لأسباب : من جملتها أن الإعجاز لم يتصل بالمنظوم ، وإنما اتصل بالمنثور ؛ الآخر : أن أسباب النظم أكثر ، ولهذا نجد المجيدين منهم أكثر من المجيدين من الكتاب ، بل لا نسبة لهؤلاء إلى هؤلاء ، ولو شئت أن تحصى أرباب الكتابة من أول الدولة الإسلامية إلى الآن لما وجدت منهم ممن يستحق اسم الكاتب عشرة ، وإذا أحصيت الشعراء فى تلك المدة وجدتهم عدداً كثيراً ، حتى لقد كان يجتمع منهم فى العصر الواحد جماعة كثيرة كل منهم شاعر مفلق ، وهذا لا نجده فى الكتاب ، بل ربما ندر الفرد الواحد فى الزمن الطويل ، وليس ذلك إلا لوعورة المسلك من النثر ، وبعد مناله ، والكاتب هو أحد دِعَامتى الدولة ؛ فإن كل دولة لا تقوم إلا على دِعَامتين من السيف والقلم ، وربما لا يفتقر الملك فى ملكه إلى السيف إلا مرّة أو مرتين ، وأما القلم فإنه يفتقر إليه على الأيام ، وكثيراً ما يستغنى به عن السيف ، وإذا سُئل عن الملوك الذين غَبَرَت أيامهم لا يوجد منهم من حسن اسمه من بعده ، إلا من حظى بكاتب خطب عنه ، وفَخّمَ أمر دولته ، وجعل ذكرها خالدا يتناقله الناس ، رغبة فى فصل خطابه ، واستحسانا لبداعة كلامه ، فيكون ذكرها فى خفارة مادوّنه قلمه ، ورقمته أساطيره ، وليس الكاتب بكاتب حتى يضطر عدوّ الدولة أن يروى أخبار

مناقبها فى حفله ، و يصبح ولسانه حامدا لمساعيها و بقلبه مابه من غله ، ولقد أحسن أبو تمـام فى هذا المعنى حيث قال :

سَأَجْهَدُ حَتَّى أُبْلِغَ الشِّعْرَ شَأْوَهُ   وَإِنْ كَانَ طَوْعاً لِى وَلَسْتُ بِجَاهِدِ
فَإِنْ أَنَا لَمْ يَحْمَدْكَ عَنِّى صَاغِراً   عَدُوُّكَ فَاعْلَمْ أَنَّنِى غَـيْرُ حَامِدِ

وهذا الذى ذكرته حق وصدق ، لا ينكره إلا جاهل به ، وأنا أسأل الله الزيادة من فضله ، و إن لم أكن أهلا له فإنه هو من أهله .

ووقفت على كلام لأبى إسحق الصابى فى الفرق بين الـكتابة والشعر ، وهو جواب لسائل سأله ؛ فقال : إن طريق الإحسان فى منثور الكلام يخالف طريق الإحسان فى منظومه ؛ لأن الترسّل هو ما وضح معناه ، وأعطاك سماعه فى أول وهلة ماتضمنته ألفاظه ، وأفخر الشعر ماغمض فلم يعطك غرضه إلا ابعد مماطلة منه .

ثم قال بعد ذلك : ولسائل أن يسأل فيقول : من أية جهة صار الأحسن فى معنى الشعر الغموض ، وفى معانى الترسّل الوضوح ؛ فالجواب : أن الشعر بُنى على حدود مقررة ، وأوزان مقدرة ، وفصلت أبياته ؛ فكان كل بيت منها قائما بذاته ، وغير محتاج إلى غيره ، إلا ما جاء على وجه التضمين ، وهو عيب ، فلما كان النَّفَسُ لايمتد فى البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضربه ، وكلاهما قليل ؛ احتيج إلى أن يكون الفصـل فى المعنى ، فاعتمد أن يلطف ويدق ، والترسّل مبنىٌّ على مخالفة هـذه الطريق ؛ إذ كان كلامًا واحداً لا يتجزأ ولا يتفصل إلا فصولا طوالا ، وهو مَوْضُوعٌ وَضْعَ مايهذ أو يمر به على أسماع شتى من خاصة ورعية ، وذوى أفهام ذكية وأفهام غبية ؛ فإذا كان متسلسلا ساغ فيها وقرب ، فجميع ما يستحب فى الأول يكره فى الثانى ، حتى إن التضمين عيب فى الشعر ، وهو فضيلة فى الترسل .

ثم قال بعد ذلك : والفرق بين المترسلين والشعراء أن الشعراء إنما أغراضهم التى يرمون إليها وَصْفُ الديار والآثار ، والحنين إلى الأهواء والأوطار ، والتشبيب بالنساء ، والطلب والاجتداء ، والمديح والهجاء ، وأما المترسلون فإنما يترسّلون فى أمر سَدَاد ثغر ، وإصلاح فساد ، أو تحريض على جهاد ، أو احتجاج على فئة ، أو مجادلة لمسألة ، أو دعاء إلى ألفة ، أو نهى عن فرقة ، أو تهنئة بعطية ، أو تعزية برزية ، أو ما شاكل ذلك .

هذا ما انتهى إليه كلام أبى إسحٰق فى الفرق بين الترسل والشعر .

ولقد عجبت من مثل ذلك الرجل الموصوف بذَلاَقة اللسان ، وبلاغة البيان ، كيف يصدر عنه مثل هذا القول الناكب عن الصواب الذى هو فى باب ونَصى النظر فى باب ؟ اللهم غَفْراً ، وسأذكر ماعندى فى ذلك ، لا إرادةً للطعن عليه ، بل تحقيقا لمحل النزاع ، فأقول :

أما قوله « إن الترسل هو ما وضح معناه والشعر ما غمض معناه » فإن هذه دَعْوَى لا مستند لها ، بل الأحسن فى الأمرين معا إنما هو الوضوح والبيان ، على أن إطلاق القول على هذا الوجه من غير تقييد لايدل على الغرض الصحيح ، بل صواب القول فى هذا أن يقال : كل كلام من منثور ومنظوم فينبغى أن تكون مفردات ألفاظه مفهومة ؛ لأنها إن لم تكن مفهومة فلا تكون فصيحة ، لكن إذا صارت مركبة نقلها التركيب عن تلك الحال فى فهم معانيها ؛ فمن المركب منها ما يفهمه الخاصة والعامة ، ومنه ما لا يفهمه إلا الخاصة ، وتتفاوت درجات فهمه ، ويكفى من ذلك كتابُ الله تعالى ؛ فإنه أفصح الكلام ، وقد خوطب به الناس كافة من خاص وعام ، ومع هذا فمنه ما يتسارع الفهم إلى معانيه ، ومنه مايغمض فيعزّ فهمه ، والألفاظ المفردة ينبغى أن تكون مفهومة ، سواء

كان الكلام نظما أو نثرا ، وإذا تركبت فلا يلزم فيها ذلك ، وقد تقدم فى كتابى هذا أدلة كثيرة على هذا ؛ فتؤخذ من مواضعها .

وأما الجواب الذى أجاب به فى الدلالة على غموض الشعر ووضوح الكلام المنثور فليس ذلك بجواب ، وهَبْ أن الشعر كان كل بيت منه قائما بذاته ، فلم كان مع ذلك غامضا ؟ وهب أن الكلام المنثور كان واحداً لا يتجزأ ، فلم كان مع ذلك واضحا ؟ ثم لو سلمت إليه هذا ، فماذا يقول فى الكلام المسجوع الذى كل فقرة منه بمنزلة بيت من شعر ؟

وأما قوله فى الفرق بين الشاعر والكاتب « إن الشاعر من شأنه وصف الديار والآثار والحنين إلى الأهواء والأوطار والتشبيب بالنساء والطلب والاجتداء والمديح والهجاء ، وإن الكاتب من شأنه الإفاضة فى سَدَاد ثغر أو إصلاح فساد أو تحريض على جهاد أو احتجاج على فئة أو مجادلة لمسألة أو دعاء إلى ألفة أو نهى عن فرقة أو تهنئة بعطية أو تعزية برزية » فإن هذا تحكم محض لا يستند إلى شبهة ، فضلا عن بينة ، وأى فرق بين الشاعر والكاتب فى هذا المقام ؟ فكما يصف الشاعر الديار والآثار ، ويَحِنُّ إلى الأهواء والأوطار ، فكذلك يكتب الكاتب فى الاشتياق إلى الأوطان ، ومنازل الأحباب والإخوان ، ويحنُّ إلى الأهواء والأوطار ؛ ولهذا كانت الكتب الإخوانيات بمنزلة الغَزَل والنسيب من الشعر ، وكما يكتب الكاتب فى إصلاح فساد ، أو سداد ثغر ، أو دعاء إلى ألفة ، أو نهى عن فرقة ، أو تهنئة ، أو تعزية ؛ فكذلك الشاعر ؛ فإن شذ عن الصابى قصائد الشعراء فى أمثال هذه المعانى فكيف خفى عنه قصيدة أبى تمام فى استعطاف مالك ابن طَوْق على قومه التى مطلعها :

* لوأنَّ دهراً رَدَّ رَجْعَ جَوَابِى(١) *

أم كيف أخَلَّ بالنظر فى ديوان أبي الطيب المتنبى ، وهما فى زمن واحد ، فما تأمّل قصيدته فى الإصلاح بين كافور الإخشيدى وبين مولاه ألذى مطلعها :

* حَسَمَ الصُّلحُ مَا اشْتَهَتْهُ الأَعَادِى(٢) *

وكذلك لاشك أنه لم يقف على قصيدة أبى عبادة البحترى فى غزو البحر التى مطلعها :

* أَلَمْ تَرَ تَغْلِيسَ الرَّبِيعِ المُبَكِّرِ(٣) *

ولو أخذتُ فى تَعْدَاد قصائد الشعراء فى الأغراض التى أشار إليها وخَصَّ بها الكاتب لأطلت وذكرت الكثير الذى يحتاج إلى أوراق كثيرة ، وكل هذه الفروق التى نَصَّ عليها وعَدَّدها فليست بشىء ، ولافرق بين الكتابة والشعر فيها .

وألذى عندى فى الفرق بينهما هو من ثلاثة أوجه :

الأول : من جهة نظم أحدهما ونثر الآخر ، وهذا فرق ظاهر .

---

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* أَوْ كَفَّ مِنْ شَأْوَيْهِ طُولُ عِتَابِى *

انظر الديوان (ص ١٨ بيروت) .

(٢) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* وَأَذَاعَتْهُ أَلْسُنُ الحُسَّادِ *

(٣) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* وَمَا حَاكَ مِنْ وَشْيِ الرِّيَاضِ المُنَشَّرِ *

انظر الديوان (٢ - ٢٢) .

الثانى : أن من الألفاظ ما يعاب استعماله نثراً ، ولا يعاب نظماً ، وذلك شىء استخرجته ، ونبهت عليه فى القسم الأول المختص باللفظة المفردة فى المقالة الأولى من هذا الكتاب[1] ، وسأعيد ههنا منه شيئاً ؛ فأقول :

قد ورد فى شعر أبى تمام قوله :

هِىَ العِرْمِسُ الْوَجْنَاءُ وَابْنُ مُلِمَّةٍ وَجَأْشٌ عَلَى مَا يُحْدِثُ الدَّهْرُ خَافِضُ

وكذلك ورد فى شعر أبى الطيب المتنبى ، كقوله :

وَمَهْمَهٍ جُبْتُـــهُ عَلَى قَدَمِى تَعْجِزُ عَنْـــهُ الْعَرَامِسُ الذُّلُلُ

فلفظة المَهْمَه والعَرَامس لا يعاب استعمالها فى الشعر ، ولو استعملا فى كتاب أو خطبة كان استعمالهما معيباً ، وكذلك ما يشاكلهما ويناسبهما من الألفاظ ، وكل ذلك قد ضبطته بضوابط وحددته بحدود تَفْصِله من غـيره من الألفاظ ؛ فليؤخذ من المقالة الأولى ، ولولا خوف التكرار لأعدته ههنا .

الثالث : أن الشاعر إذا أراد أن يشرح أمورًا متعددة ذوات معان مختلفة فى شعره واحتاج إلى الإطالة بأن ينظم مائتى بيت أو ثلثمائة أو أكثر من ذلك فإنه لا يجيد فى الجميع ، ولا فى الكثير منه ، بل يجيد فى جزء قليل ، والكثيرُ من ذلك ردىء غير مرضىّ ، والكاتب لا يؤتى من ذلك، بل يطيل فى الكتاب الواحد إطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس ، أو أكثر ، وتكون مشتملة على ثلثمائة سطر أو أربعمائة أو خمسمائة ، وهو مجيد فى ذلك كله ، وهذا لا نزاع فيه ؛ لأننا رأيناه ، وسمعناه ، وقلناه .

وعلى هذا فإنى وَجَدْت العجم يفضلون العرب فى هذه النكتة المشار إليها ؛

---

(١) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ١٦٧) وفيها هذان البيتان أيضا .

فإن شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من أوله إلى آخره شعرا ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم ، كما فعل الفِرْدَوْسِيّ فى نظم الكتاب المعروف بشاه نامه ، وهو ستون ألفَ بيتٍ من الشعر ، يشتمل على تاريخ الفرس ، وهو قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه ، وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقَطْرَة من بحر .

اللهم صل على سيدنا محمد النبى الأمى وآله وصحبه الطيبين الطاهرين ، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

قد تم ـ بحمد الله تعالى ، وحسن توفيقه ـ

الجزء الثانى من كتاب :

المثل السائر ، فى أدب الكاتب والشاعر

الذى صـــــنفه

الوزير أبو الفتح نصر الله ضياء الدين المعروف بابن الأثير

المتوفى فى عام ٦٣٧ من الهجرة

وهو تمام الكتاب

والحمد لله أولاً وآخرًا ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله

[القاهرة فى يوم الخميس ٢٠ شعبان سنة ١٣٥٨ هـ ـ ٥ أكتوبر سنة ١٩٣٩ م]

ملاحظ المطبعة : محمد أمين عمران مدير المطبعة : رستم مصطفى الحلبى

فهرس الأبواب

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب

«المثل السائر، فى أدب الكاتب والشاعر»